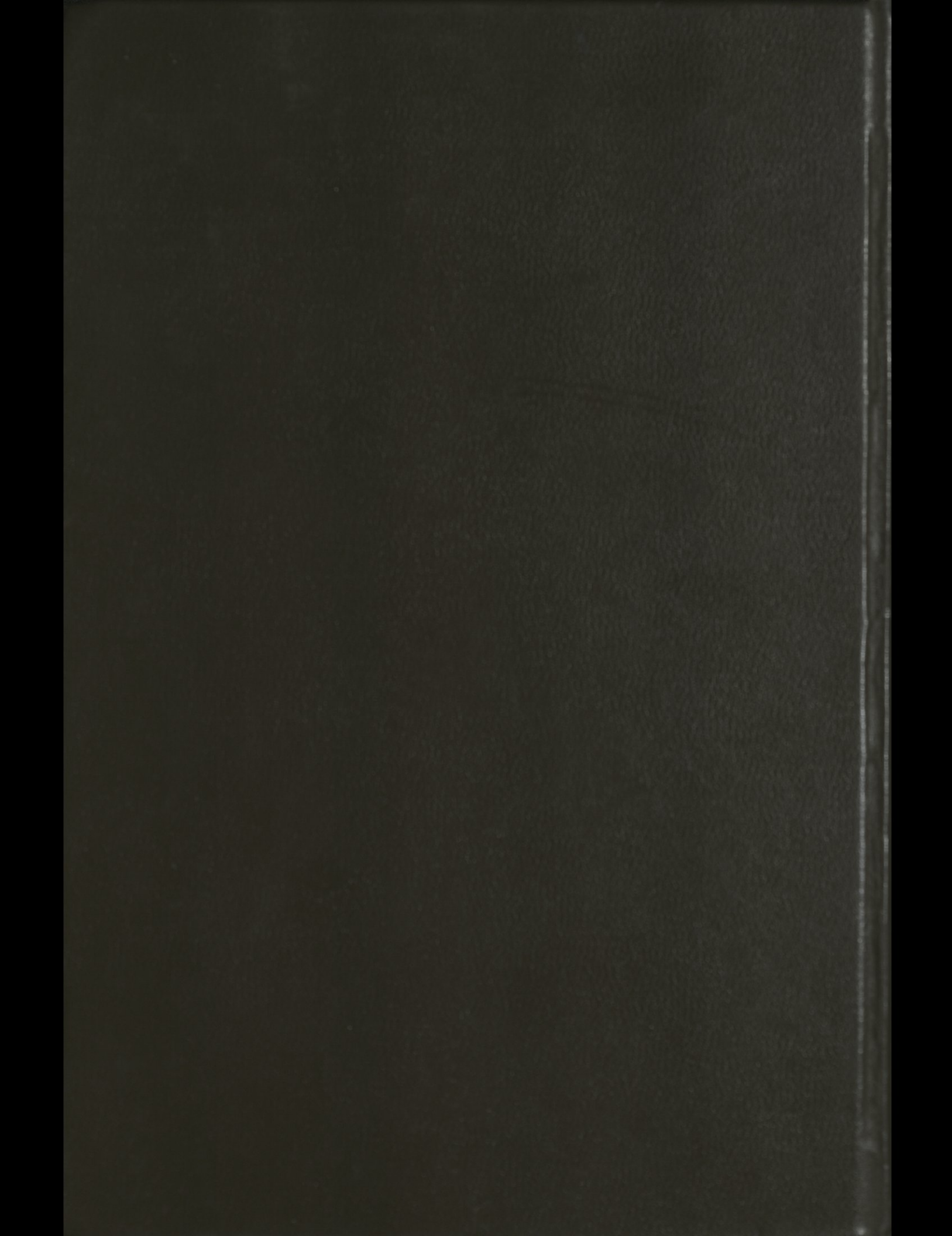
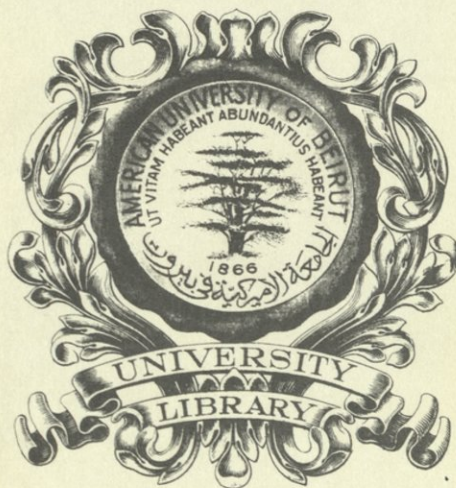
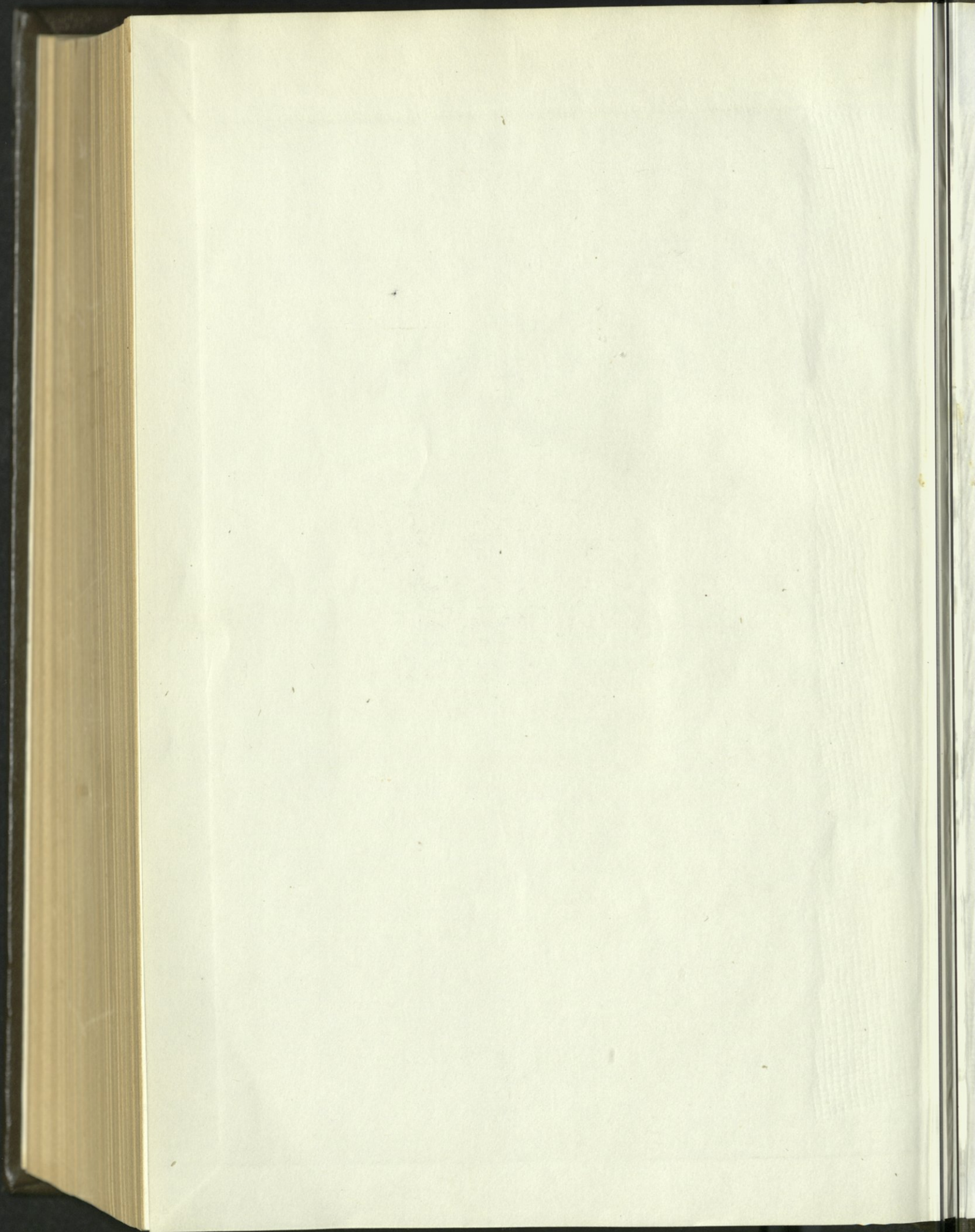


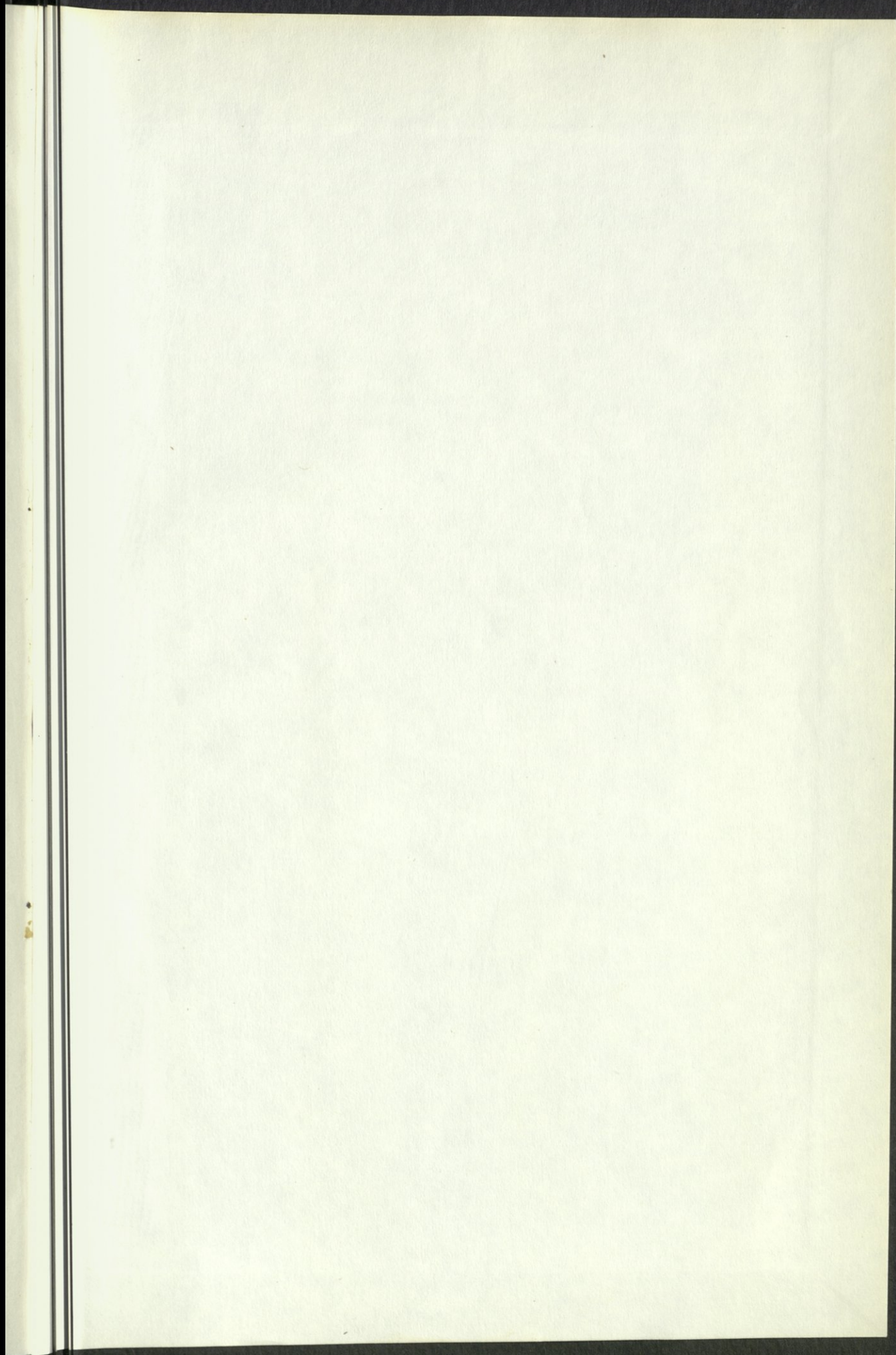


A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



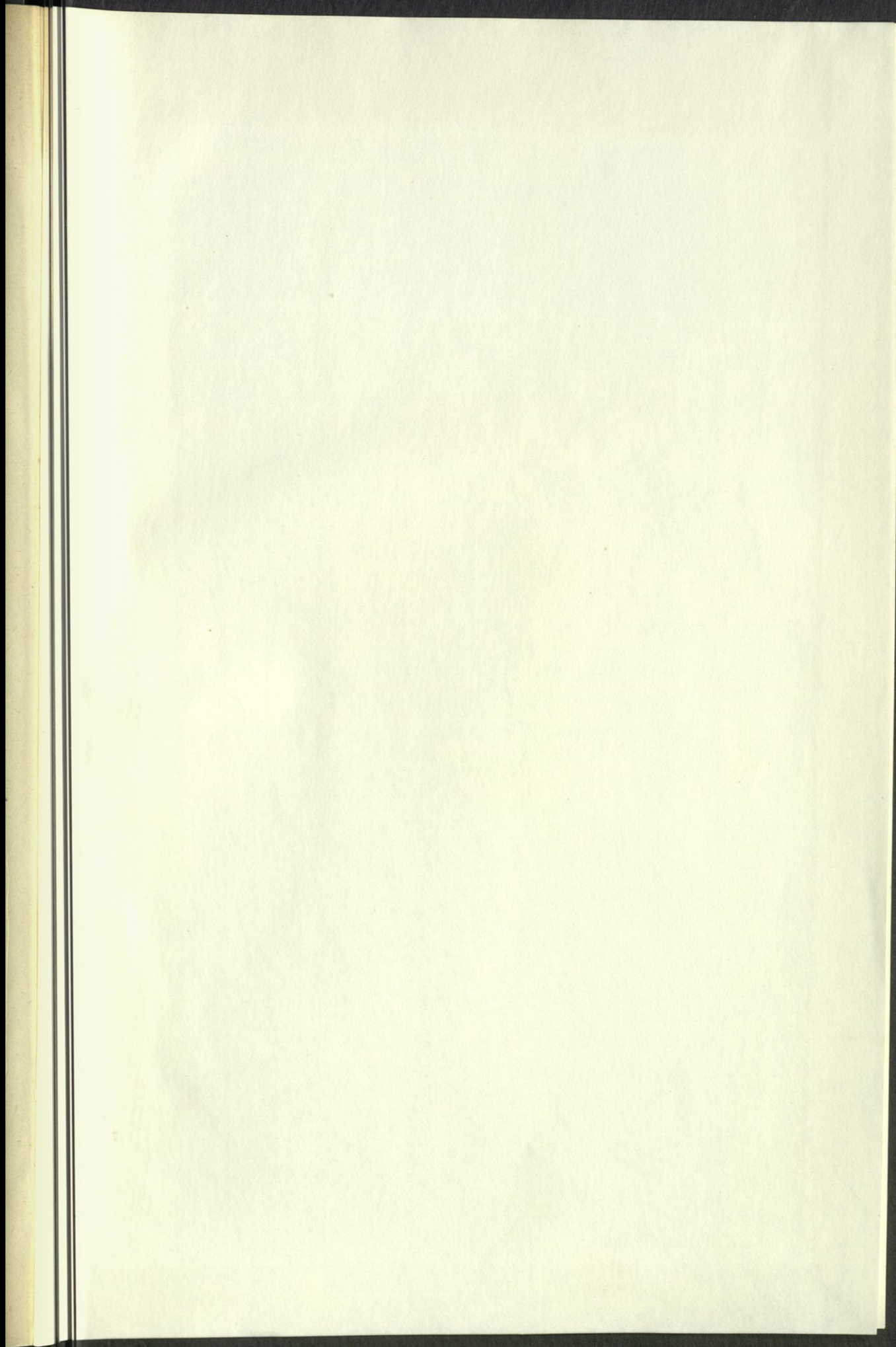




نسخه
طالع ابن

منکرات و منکرات

منکرات و منکرات



لهديته من عائلة المؤلف

الى

مكتبة الخافعة لادريس في

بيروت

١٩٧٨/١/١٦

مكتبة الخافعة

323.4

T128zA

ظلام السجين

مذكرات و مفكرات

سجين هارب

مصر ١٣٧٠ - ١٩٥١

طبع بدار اجياد الكنيست العربية
عيسى الباني احيلى وشركاه

LI 55-10600

هذا الكتاب

بعد مرور سنة على إعلان الحرب العظمى الثانية ، أوعزت السلطات البريطانية في مصر بالقبض على وجبسي ، فسجن من ٢٠ سبتمبر ١٩٤٠ حتى ٤ إبريل ١٩٤١ ، ثم غاقت الحرس وهربت من مستشفى السجن بعد مرض ، فتنكرت واختفيت أحد عشر شهرا .

فلما انتهت الحرب أخرجت من قطري جزازات وقصاصات من الورق ، كنت في خلال حياة الهرب أسطر عليها مذكرات وملحوظات ، بعبارات ورموز وإشارات لا يفهمها غيري إن وقعت في يد سوى . ثم شرعت في حل معمياتها واستخراج ما فيها وتدوين حوادثها وصياغتها ، إلى أن أبرزتها أمام القارئ سلسلة الحوادث متناسقة المناظر ، بشكل يصف حياة السجن والهرب والتنكر والاختفاء ، وقد سجلت ما كان يتخلل ذلك من حوادث مرت بي ، ووقائع ومباغطات صادفتني ، ومشاهدات وقع عليها ناظري ، وخواطر عابرة ، وملاحظات متناثرة ، وبعض الشجون والشئون والتجارب والمطالعات والتعليقات ، من سياسية وتاريخية وأدبية وبوليسية ، ونظرات في الاستعمار وأحوال الأمم المظلومة وقيام الجامعة العربية وحالتها اليوم ومصرع فلسطين الخ .

وقد جعلت ذلك كله في صورة تجعل القارئ يشهد معي بعض ما شهدت ، ويرى بعض ما رأيت ، ويرافقني في تلك الفترة من الحياة كأنه يعيش معي ، أو كأنه يستعرض فصلا سينمائيا متعاقب الحوادث ، متلاحق الصور والمناظر ...

فإن وجد القارئ في هذه المذكرات عظة أو عبرة فتلك بغيتي ، وإلا فهي لا تخلو - على كل حال - من مسرح للذهن ، وتسلية للنفس ، ونزهة للخاطر ...

سؤال وجواب

أمالماذا لم يظهر هذا الكتاب على إثر انتهاء حوادثه وانقضاء مصائبه ، فالجواب على ذلك أن كابوس الرقابة على المطبوعات بقي جاثما على الصدور عشرين سنين ، حتى أوائل سنة ١٩٥٠ لأن الوزارات

المتعاقبة أبقّت على الرقابة لتجارب بها خصومها ، ولذلك لم أستطع إبراز الكتاب ، وقد حدث في خلال ذلك أن إحدى الوزارات الخارجة على الأمة المصرية - هي وزارة إبراهيم باشا عبد الهادي - التي تغلبت على مصر سنة ١٩٤٩ قبضت علىّ مع عشرات ألوف من الأبرياء بلا سبب ولا موجب ، وحبستني في صحراء السويس في «معسكر ها كستب» ولو طال عهدها للبثت سجيناً بضع سنين ، فتأملت من عمل تلك الوزارة أكثر من ألى من الإنجليز الذين عذبوني وحبسوني مراراً وتكراراً ، وحاربوني أكثر من ثلاثين عاماً . فلما سقط حكم الإرهاب أُفِرَج عني ، ثم قامت وزارة النحاس باشا سنة ١٩٥٠ فألغت الأحكام العرفية والرقابة عن المطبوعات ، فبادرت إلى وضع كتاب عن ظلمات حكم إبراهيم عبد الهادي «المؤلف من حزبي السعديين والدستوريين» وفضائهم مع الأمة كلها ، ومعى أنا أيضاً. وقد ظهر ذلك الكتاب في منتصف سنة ١٩٥٠ بشكل مفكرات ومذكرات باسم «معتقل ها كستب» فجاء في نحو ٧٠٠ صفحة و ٤٤ رسماً ، وكان قصدي من التعجيل بوضع ذلك الكتاب أن أضرب الظالمين قبل أن يبرد الحديد ، وقبل أن تنسى الأمة تلك الفضائع الرهيبة التي لم يقع مثلها من عدو مع عدوه ؛ لا في العصور الوسطى ولا في القرون المظلمة ..

اسم هذا الكتاب

أما الاسم فقد حيرني اختياره كثيراً ، وكنت قد نويت أن أسميه « أنا هارب » أو « هربت من السجن » أو « هارب من السجن » الخ ولكن عدلت عن هذه التسميات لأن هناك قصصاً وأشرطة سينمائية بهذه الأسماء موجودة ومعروضة في كل مكان .

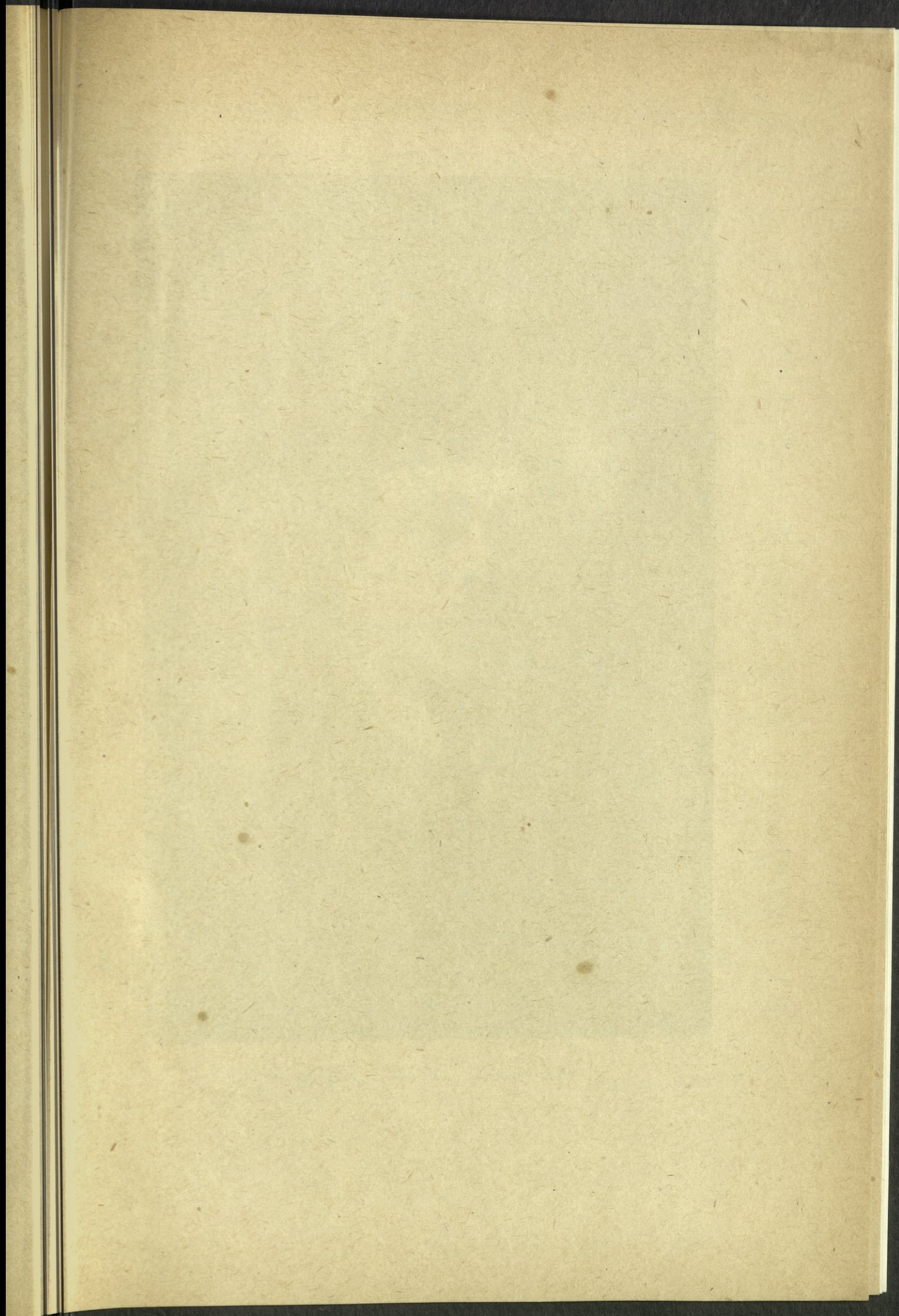
إلى أن فكرت أخيراً بتسميته بالاسم الذي صدر به ، وهو نفس الاسم الذي خطر على بالي قبل أحد عشر عاماً حين كنت في الحبس أترنم عند الغروب بأنشودة «يا ظلام السجن خيم...»

محمد علي الطاهر

القاهرة - إبريل ١٩٥١

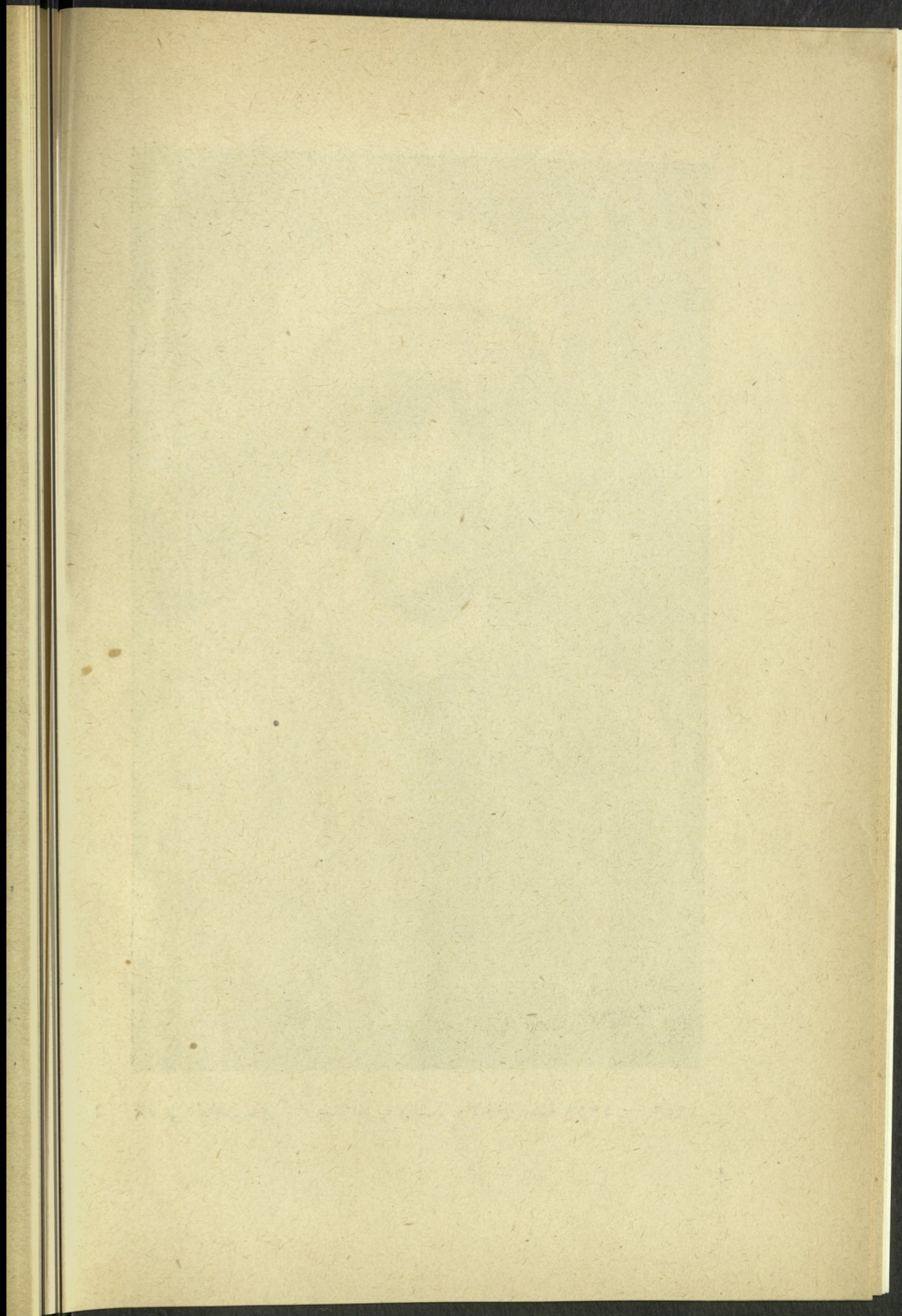


محمد علي الطاهر - حين القبض عليه سنة ١٩٤٠





محمد علي الطاهر - في أثناء حياة الحرب والتفكر والاختفاء سنة ١٩٤١ - ١٩٤٢



قبيل الحرب الثانية

نظرة وإحاطة مختصرة

العالم العربي والأمم المقهورة - وانجلترا

كان أشهى حادث في نفوس الناس قبل إعلان الحرب في سنة ١٩٣٩ هو أن تقع الحرب، فتتطاحن بريطانيا وسواها، وكان الأمل السائد هو أن تكون نتيجة الحرب هذه المرة تحطيم بريطانيا وتفككها لتتخلص الشعوب المقهورة من الاستعمار، لأن هذه الدولة هي أم الحروب والمؤسسة لفن استعباد الشعوب وقهر الأمم، فهي أولا تستعبد الهند^(١) التي تعد أكبر كتلة مستعبدة مستعمرة وأعظم مستودع لبريطانيا تجند منه الرجال وتسلب الأموال لتتخذ من ذلك عدة للاعتداء على خلق الله ووسيلة للوصول إلى هذا العدوان.

ولأجل اطمئنانها على هذا الكنز اعتدت على أسبانيا وأخذت منها جبل طارق لتحفظ طريق الهند. ثم اعتدت على إيطاليا وأخذت منها جزيرة مالطة لتكون قاعدة بحرية تعرقل من يقتحم جبل طارق، ثم اقتطعت من الدولة العثمانية جزيرة قبرص لتأمين على قناة السويس من الغير، ثم اعتدت على مصر لتحفظ لنفسها بقناة السويس التي تعتبر شريان طرقها الاستعمارية. وكانت قبل ذلك قد اعتدت على اليمن وأخذت منها منطقة عدن لتكون محطة لجيوشها وأساطيلها، كما احتلت باب المندب، ليصبح مفتاح البحر الأحمر الجنوبي في يدها بعد أن امتلكته بأخذ قناة السويس التي هي بوابته الشمالية. ثم يجب إقفال الدردنيل أيضاً في وجه روسيا لحماية القناة فأرغمت تركيا على إغلاقه وربطتها بمعاهدات تجعلها حارساً على بابه...

وبعد ذلك استولت بريطانيا على العراق لتحفظ طريق الهند من الناحية البرية. وقبل ذلك استولت على جميع الامارات والممالك العربية في الخليج العربي الذي يسمى «الخليج الفارسي» ثم ختمت سلسلة العدوان بأخذ فلسطين لجعلها دولة يهودية تحت رعايتها لتحمي لها قناة السويس من الشمال الشرق ويحرس لها الشعب اليهودي أرض فلسطين لتكون محطة لطائراتها، وهذا غير وضع يدها على هونغ كونج وسنغافورة في الشرق الأقصى وجزر المحيط لتطوق الدنيا الإسلامية باستعمارها.

(١) هذا السلام ينصب على الحالة في سنة ١٩٣٩ - وأما الآن فنحن في سنة ١٩٥١ حيث تغير شيء كثير من أوضاع الأمم.

فبريطانيا إذن هي علة سقوط العالم الإسلامي ورزوحه تحت ضربات الاستعمار وإذلال الأمة العربية شرقاً وغرباً . فلولا بريطانيا ما تجرأت فرنسا وأسبانيا وإيطاليا حتى هولندا على استعباد بلاد الإسلام والعرب . فهي التي انتهكت حرمة العالم الإسلامي وجرأت أحط الدول على مهاجمته ومساعدة تلك الدول على إخماد المسلمين عند ما يشورون عليها ، لأنها تعتبر إفلات أية منطقة من البلاد الإسلامية من قبضة الاستعمار الأوربي نذيراً بإفلات مستعمراتها هي وانهيار صرح الأمبراطورية البريطانية كلها .

لذلك كان أعظم ما يتمناه العربي وما يرجوه المسلم أن تقع حرب بين بريطانيا وغيرها فيفلت العرب والمسلمون من قبضتها فلذلك كان السكّل يرجو وقوع الحرب بأسرع ما يمكن . ولكن الأمير شكيب أرسلان أمير البيان وشيخ المجاهدين « رحمه الله » كان أبعد نظراً وأصح رأياً . فقد بمعنى مرة أقول ذلك لما كان يزورني في مصر في أوائل سنة ١٩٣٩ فقد خالفني في نقطة واحدة وهي أن الحرب العظمى إذا كان لابد من وقوعها فهو يفضل أن تقع بعد عشرين سنة . وكانت نظريته هي أن الحرب إن وقعت الآن فإن الدول الأجنبية المتحاربة ستجند أمم الإسلام والعرب فوراً وتسوقها إلى الذبح لحسابها بدون أن يكون لها رأى في مصير الحرب ولا مصيرها هي ^(١) أما إن تأخر وقوع الحرب عشرين سنة فإن أمم العالم الإسلامي والعرب تكون أحوالها قد تحسنت وأصبحت أقوى ، فتستطيع أن تكون قوة تقدر على إمالة ميزان الحرب إلى الجهة التي تريدها وتعرف كيف تقطف ثمرة الحرب . ثم كتب الأمير مقالاً

(١) لقد بلغ من تخاذل المسلمين وانعدام المروءة عندهم وعقوقهم لبعضهم بعضاً أن الحكومة التركية لم تكنف بخذلان العالم الإسلامي في مسألة فلسطين أثناء الحرب مع اليهود بل كانت في تلك الأيام تتعامل مع اليهود ، ثم اعترفت « بالدولة اليهودية » وبذلك تكون قد أقرت اليهود طبعاً على كل ما صنعوا بأهل فلسطين من التذيع وغصب الوطن والتشريد ، وقد زاد في النكايّة أن الحكومة التركية جندت فرقة تركية من جيشها وأرسلتها إلى كوريا لمحاربة الكوريين الشماليين نجدة لأميركا وانجلترا بدلا من أن تنجد بهذا الجيش مسلمي فلسطين . ثم عقدت مع اليهود محالفة عسكرية وستكون موجهة ضد العالم العربي !

وقد شاء ربك أن يجازي الحكومة التركية جزاء عاجلاً ، بأنه جعل الجيش الكورى يطبق على الجنود التركية وأن يقضى عليها ذبحاً وتقتيلاً ، رحم الله أولئك الجنود الأبرياء وعجل في الانتقام من الذين أرسلوهم إلى ذلك الجحيم واستخدموهم في غير ما خلقوا له ، بل أرسلوهم للموت في سبيل عدوهم لا في سبيل أمّتهم ولا من أجل بلادهم .

في جريدتي في هذا المعنى يخالفه البعض وأنا منهم. ولكن الذي حدث أن نظرية الأمير « رحمه الله » كانت أصح ، وانتصرت بريطانيا بعد أن جندت المسلمين والعرب وعبأت جميع قواهم لصلحتها، بل إن بعض الأمم الإسلامية والعربية لشدة غفلتها وتفككها تسابقت في مساعدة بريطانيا على كسب الحرب إلى أن انتصرت ، وما دروا حاسبهم الله أنها لم تنتصر إلا عليهم هم لا على ألمانيا ولا على إيطاليا ولا على اليابان ، لأن هذه الأمم حية ناهضة تعرف كيف تنهض من نكبتها في أقصر فترة من الزمن . وأما المسلمون والعرب فبهيات لهم النجاة ، لاسيما بعد أن كشرت بريطانيا عن نابها وأصبحت أمام المسلمين والعرب أوقع وأقسى مما كانت .

وسيدفع العالم الشرق ثمن غفلته الشنيعة باهظاً فاحشاً ، لاسيما أنه قد سبق له أن خدع بكذب تلك الدولة في الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ فإذا كانت الغفلة قد استحوزت على الأمم المقهورة أكثر من مرة في خلال ربع قرن بينما لا يزال أبناء ذلك الجيل أحياء فما أجدر أبناء الأجيال المقبلة بالسخط على الجيل الذي انخدع في ربع قرن مرتين ...

الاستعداد للحرب

كانت أحوال الدنيا في أوائل سنة ١٩٣٩ تنذر بالحرب ، وأخذت البلاد المصرية تستعد لتحمل نصيبها من نكباتها فكان أروع ما شعرنا به في تلك الأيام تجربة الوقاية من الغارات الجوية بإعلان الإظلام العام، فلما أطفئت أضواء القاهرة لأول مرة أحسنا بروعة الأيام المقبلة والفرع الذي سيستولى على الناس أعلنت الحرب ووقعت غارة بالقنابل .

وقد زاد في هلع الجماهير أن الصحف أخذت تنشر المعلومات والبيانات الضافية عن كيفية فتك القنابل بالمباني والمدن . وكيف تدك أسس العمارات وتنسف الأحياء الأهلة بالسكان فتصبح كأنها لم تكن !! ثم زاد الفرع لما ذكرت الصحف أن الغازات الخائقة والسامة والقنابل المحرقة ستصنع بالناس كيت وكيت ..

وإني أتذكر عن ليلة « الإظلام الأول » أنني صعدت على سطح عمارة شاهقة مع أحمد حلمي باشا المجاهد الفلسطيني - وسيأتي ذكره في هذا الكتاب كثيرا ، وأخذنا نشهد منظر القاهرة في تلك الليلة الرهيبة ، فإذا بها متسرلة في كفن من السواد . فلا أضواء في ألقها

ولا حركة في طرقاتها ذات الضجيج الذى كان يصل عنان السماء ليلاً ونهاراً ، وكان الفزع قد ران على القلوب واستحوذ على النفوس ، فيالها من ليلة ليلاء ما أشد هولها .

إعلان الحرب

وفى أول سبتمبر ١٩٣٩ أعلنت الحرب فكان لإعلانها من الرهبة والرعب ما لا يمكن وصفه وخصوصاً في نفوس الذين شهدوا الحرب العظمى الأولى وعاشوا في أيامها ..

وتولى على ماهر باشا رئاسة الوزارة . وهو رجل قوى الشخصية فطلب منه الإنكليز إعلان الحرب على ألمانيا فأبى قائلاً لا أعلنها إلا إذا هوجمت الأراضي المصرية أولاً ، فرضوا بهذا الشرط وارتبطوا به على ظن أن الألمان والطلليان سيبدأون بمهاجمة مصر من ليبيا . أما أنا شخصياً فقد أدركت مافى وقوع الحرب من أحداث ونتائج وعرفت ما سأعرض له من الإنكليز فأوقفت جريدة (العلم المصرى) التى كنت أصدرها بدلاً من الشورى وأعلنت حل اللجنة الفلسطينية وإلغاء مكتب الاستعلامات الفلسطينى وأوقفت كل نشاط سياسى ، مترقباً نتيجة الحرب .

وقد أسديت النصيح لصدى الأستاذ احمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة بأن يحتاط لنفسه لأنه لا بد للسلطة البريطانية من اعتقاله . فقال لى : ولماذا لا تعتقل أنت ؟ فقلت له إننى اعتقلت فى الحرب العظمى الأولى من سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩١٧ فلن أعقل مرة ثانية ! كما أننى أوقفت الآن أعمالى السياسية وأما أنت فلا تزال تتحرك .

قلت هذا وأنا لا أدري اننى سأكون أول معتقل سياسى فى الحرب العظمى الثانية !

حالة البلاد والناس

استولت على الناس حالة رعب وحيرة فى تلك الأيام وساد الضيق والقلق . وأصدر جلالة الملك فاروق مرسوماً بإعلان الأحكام العرفية وتعيين على ماهر باشا رئيس الوزراء حاكماً عسكرياً عاماً وبذلك ألغيت القوانين التى تحفظ للفرد حريته وحرمة مسكنه . ووضعت الحكومة الرقابة على الصحف فأصبح الصحفى لا يستطيع نشر خبر إلا إن أجازته الرقابة . وصار يرغم على نشر ما تأمر به السلطة العسكرية البريطانية ولو كان كذباً أو مبالغاً فيه . كما وضعت الرقابة على الرسائل البريدية والبرقية وعلى التلفون ومحطة الإذاعة اللاسلكية . وكانت الرقابة فى يد

وزارة الداخلية اسماً ولكنها كانت في يد السلطة الإنجليزية فعلاً ، لأن المعاهدة المعقودة بين مصر وإنجلترا عام ١٩٣٦ كانت تنص على ذلك .

احتياطات

إن تجاربي على ضوء ما عرفته وما لقيته في الحرب العظمى الأولى ١٩١٤-١٩١٨ جعلتني أفهم تماماً ما سنلقى من الأحكام العرفية ، فتناولت بالفحص جميع أوراق وما تحتويه إدارة الشورى واللجنة الفلسطينية ومكتب الاستعلامات من أضيير وملفات . ففرزت هذا كله وأحرقت ما يمكن الاستغناء عنه بالنار في فرن مجاور لإدارة الشورى ، فكانت تلك الأوراق المكدسة مصدر وقود مجاني لذلك الفرن في زمن ارتفعت فيه أسعار الحطب والفحم ... فكنت أرقب بنفسى وضع تلك الأوراق في النار ولا أبرح الفرن إلا بعد أن أتأكد من إحراقها ... أما صاحب الفرن فكان مسروراً لأنه كان يخبز على وقود يأتيه مجاناً وما درى أنه لو طلب أجراً لأعطيته ...

ولما فرغت من تصفية الأوراق والدوسيهات وضعتها في صناديق وزعتها على دكاكين وبيوت الأصدقاء حتى إذا وقع شيء في يد السلطة بقى شيء ؛ بل إن حدث ووقعت غارة فلا يحترق كل شيء .

وهنا لا بد لي من الإشارة إلى تاجر جبان نعان انتابه الفزع والوسواس من وجود صندوقين عنده فأفهمته أن لا خوف عليه ، لأن هذه الأوراق ليست مما تبحث عنه الحكومة وإنما أبعدها عن الأيدي حتى لا تقع في قبضة من لا يهيمه إلا إحراقها إن وقعت تحت عينيه فيحرق قلوبنا عليها ، ولكنه أصر وكاد يفضحنا ويلفت الأنظار إليها بكثرة لته وعججه ، فاسترجعناها منه وأرسلناها إلى مكان آخر في مخزن بخان الخليلي لتاجر شهيم^(١) فحفظها لنا عنده ست سنين . كما أودعنا القسم الأكبر من تلك الصناديق في دار صديق آخر وهو موظف كبير لا يشتغل بالسياسة وبعيد عن كل مظنة فحفظها لنا أيضاً ست سنين .

(١) هو السيد محمد تيسير الحلبي من أفاضل دمشق ونزيل القاهرة .

شهامة على ماهر باشا

ولكن هذا الاحتياط لا يكفي لأن الأوراق إن سلمت فقد لا أسلم أنا . ولذلك سافرت إلى الإسكندرية وقابلت على ماهر باشا الحاكم العسكري العام ورئيس الوزراء وكان أيضاً وزير الداخلية والخارجية ، وقد قابلني فوراً برغم كثرة أعماله التي يعجز عنها البشر ، فذكرت له ظروفى وأن الإنكليز يكرهوننى وأنى متعاً لتحريك ضعفهم وإثارة حقدهم علىّ قد أقفلت الجريدة واللجنة وتركت السياسة . وقلت له إن القوم إذا نكبوا فى ميدان الحرب بأوروبا فلا بد لهم من أن يصبوا غضبهم على خصومهم القدماء وعلى الآمنين فى مصر وسواها ثم سألته - هل تحمىنى الحكومة الوطنية من السلطة البريطانية أم أغادر القطر إلى بلاد أخرى ؟ فقال لى بل تحميك الحكومة الوطنية ولكن بشرط ألا تقوم بعمل يثير الإنجليز أو تجعل لهم سبيلاً عليك .

وقبل أن أستاذن بالانصراف خطرتلى خاطر آخر ، وهو أنه كان قد وفد على مصر فريق من مجاهدى الثورة الفلسطينية وكان قدومهم تسلاً بصورة غير قانونية ومعهم قائدهم فذكرت لماهر باشا مسألتهم وطلبت منه الأمان لهم فقال بشرط أن يمتثلوا وادعين فلا يأتون بحركة . فقلت : ولكن قد يعثر عليهم البوليس السياسى أو السلطة البريطانية فقال أبرق لى عن أى شىء ينالهم . فقلت : ولكنى أقترح ضمناً بوقتكم من المراجعة بشأنهم إن أصابهم شىء أن تأمروا إدارة الأمن العام بعدم التعرض للوافدين الفلسطينيين إلا بعد عرض مسائلهم عليكم وبذلك تتفادى القبض ثم السعى للإفراج عنهم ، فابتسم موافقاً ثم كتب ملحوظة بذلك وأرسلها إلى وكيل وزارة الداخلية والأمن العام^(٢) ولولا ذلك لنكل بهم هذا الرجل وسلمهم لحكومة فلسطين البريطانية ولكن التعليمات التى أصدرها ماهر باشا قطعت الطريق عليه .

(١) كان يشغل هذا المنصب رجل يسمى حمدى محبوب باشا وكان فى شبابه قاضياً فى المحاكم ولكن لما عين مديراً للأمن العام ووكيلاً لوزارة الداخلية تغير وابتكس ولبسته الأخلاق البوليسية ... فلما وقعت الحرب وفهم أن كل السلطات قد أصبحت فى أيدي الإنجليز نسي ماضيه القضائى وأخذ يجارى السياسة البريطانية ويسابقها فى البطش بالناس .

حالة القاهرة في أوائل أيام الحرب

وبينما كان الناس في هرج ومرج هلعاً من ويلات الحرب . إذا بأصوات الأبواق الكهربائية أو الزمامير تدوى بالإنذار من الغارات الجوية - وهذه الزمامير عبارة عن أبواق كبيرة مضخمة للصوت فتخرج منها أصوات كريهة فظيعة تعوى عواء قبيحاً متواصلاً يصم الآذان ويشير الأعصاب فاخلعت القلوب وطاشت الأحلام فمات بعض الناس بغتة وأصيب بعضهم في أعصابه فمهم من مرض ومنهم من سيق إلى مستشفى الأمراض العقلية . . . حتى ان بعض المصابين بالإمساك المستعصى وعجز الطب عن شفائهم جعلتهم ولولة الزمامير المفزعة يبرأون ويصابون بالإسهال لشدة الهلع .

ثم زادت السلطة البريطانية في ترويع الناس بأن جعلت الصحف تنصح لهم بالابتعاد عن مناطق الخطر وبالجلاء عن المدن ثم أوعزت لوزارة الداخلية بإعلان ذلك رسمياً فبادر سكان القاهرة إلى الفرار منها فهاجموا على وجوههم في الريف والقرى ، فأصبحت القاهرة كأنها مدينة الأموات ، وأصبحت الاسكندرية كذلك وفيها مرسى الأسطول البريطاني - ففرع عظيم فاشتد الكرب على أهالي المدن الريفية كما اشتد على سكان القرى الذين وفد على ريفهم بضعة ملايين من الخلق فارين من هنا ومن هناك وإنى أتذكر أن بعض الأهالي قد باعوا أثاث بيوتهم وبضائعهم بأبخس الأثمان توفياً لعواقب أقسى وأشد .

وكان سكان القاهرة على الأخص حيارى . فأهل الضواحي يهرعون إلى داخل المدينة للاحتماء بالمساجد ودور العبادة والمستشفيات على ظن أن الطائرات لن تضرب داخل البلد وإنما تضرب الضواحي لوجود المعسكرات والمطارات فيها ، وكان أهل البلد يهرعون إلى الضواحي على ظن أن الطائرات إن ضربت المدينة فستلقى القنابل بلا حساب . ثم تجد قسماً من أهالي الضواحي وأهل المدينة الداخلية يفرون من القاهرة بأخف ما عندهم مما يمكن جملة أو نقله ويهربون إلى القرى .

ثم وزعت السلطة أقنعة زعمت أنها تقي من الغازات السامة فتضاعف الخوف واشتد الكرب لدرجة جعلت الناس يتنهبون إلى السبب الحقيقي الذي يحمل الإنجليز على إنزال هذا الفزع في قلوبهم ، وأخذوا يتساءلون : لماذا تضرب حكومات المحور المدن المصرية وهي

تعرف أن المصريين لا يد لهم في الحرب ولا مطمع لهم منها إلا الخلاص من الإنجليز ، فهل يعقل أن تريد دول المحور عدد خصومها بلا سبب ؟

إذن فهناك شيء يريد الإنجليز من تخويف الأهالي من المحور وفضائعه ، وهو أن يجعلوهم يتصورون الإنجليز هم الحماة للدينار من الغير ، فلا يفكر الناس في كون وجود الإنجليز في البلاد وحده يكفي لجلب المصائب عليها ، ولا أن يفكر أحد بوجوب القيام على الإنجليز المحتلين لإخراجهم من أرض الوطن .

تلك حيلة استعملوها مع الشعب وقد نجحت وتوفقتوا فيها . ثم استفاد الإنجليز فائدة أخرى من إطلاق أصوات الإنذار العاوية وإطفاء الأضواء وإيقاف حركة السير في الشوارع ، ذلك أنهم كلما وصلت قطارات جرحاهم من جبهة الحرب أطلقوا تلك الأصوات فيلجأ الناس إلى المخابئ ويطفئون الأنوار فتقف الحركة في الشوارع وعند ذلك ينقلون جرحاهم إلى المستشفيات فلا يرى الناس شيئاً ...

وقد ذكرتني هذه الحيل بما كان الإنجليز يصنعونه في أيام الحرب العظمى الأولى لإرهاب الشعب ، وإيهامه بأن لديهم قوات عظيمة ، فقد كانوا يسوقون بضعة طواير من العباسية إلى ثكنات قصر النيل مشياً في الشوارع ومعهم أسلحتهم فيراهم الناس فيظنونهم قوات جديدة قادمة من الخارج ثم يذهب هؤلاء الجنود أفراداً إلى جهة أخرى ثم يسيرونهم بشكل طابور قادم فيسير من العباسية إلى القلعة وهكذا ...

وهي أساليب عتيقة كانت فرنسا تلجأ إليها لما احتلت مصر قبل مئة وخمسين عاماً كما أن محمد علي باشا والى مصر كان يصنع ذلك .

المخابئ في أيام الحرب

ولما رأت الحكومة أن الذعر من الغارات الجوية أصبح أشد خطراً من الغارات نفسها ، حفرت حفراً ووضعت لها سقوفاً وأوصت الناس بالالتجاء إليها وإلى « بدرونات » العمارات أو الأقبية ، فكانت الحياة في جحور الفيران أهون منها ، وهي مخابيء صورية لا قيمة لها ولكنها جعلت لتطمين الخواطر وإثارة الخوف في وقت واحد ...

ومما أتذكره أنني دخلت مخبأً عمارتنا مرة فوجدت النساء مع الرجال والأطفال والمرضى أكداساً وكنت في تلك الساعة أدخن فإذا بأصوات منكرة تصيح وتطلب إطفاء السيجارة لثلاثا تراها طيارات الأعداء! في حين أننا كنا في بدرون تحت الطابق السابع وتحت الأرض بأمطار! ومع أنه لم تجر غارة ولا جاءت الطيارات فإن الصائحين أصروا على أن الطيارات وهي في السماء السابعة ستري وهج السيجارة ونحن تحت الأرض السابعة!

لذلك فضلت الصعود إلى منزلي ولم أدخل المخبأ بعد ذلك مفضلاً الموت على احتمال سماجة مجانين يخافون من خيالهم.

طالب القبض على

وفي هذه الأثناء سمعت أن الإنجليز طلبوا القبض على حبسى وأن على ماهر باشا قد رفض طلبهم وقال هاتوا ما يثبت عليه عملاً ضاراً بقضية الحلفاء لأحبسه، ولكنهم لم يجدوا مستنداً فسكتوا. وقد سألت أحد وزراء ذلك العهد عن صحة ذلك فأيده وأوصاني بالاحتياط الشديد. ثم بلغني أن حمدي محبوب باشا مدير الأمن العام وكان متحمساً للإنكليز يريد القبض على ولكنهم لم يستطع تنفيذ غرضه، ولم أدر حتى الساعة لماذا كان هذا الرجل مشغول البال على الإنجليز ومحروق القلب عليهم إلى هذه الدرجة! إنني أعرف هذا الرجل ويعرفني وكان يتظاهر بأنه يحبني ويحلمني حتى إنه قال لي مرة وهو يرحب بي سنة ١٩٣٨ لما عرف أن الإفرنسيين أخرجوني بالقوة من بيروت «لا تتكدر يا فلان فأنت مجاهد ويجب أن تتحمل». فما دام حمدي محبوب يعرف أنني «مجاهد» فلماذا أصبح الآن يريد حبسى؟ وفي الحقيقة أنني تيقظت وصرت أحاذر أن يسكنني الإنكليز بسبب يسوغ لهم حبسى ولو بعد حين، وكنت أقول في نفسي: منذ اليوم إلى أن يفكروا في شأني مرة أخرى تكون الحرب قد انتهت أو يكون المحور قد أخرج الإنجليز من مصر.

إسقاط وزارة على ماهر باشا

كان حنق الإنجليز على وزارة على ماهر باشا قد بلغ حد الجنون، فأخذوا يبدسون لها وقيمون العقبات في طريقها، وما زالوا كذلك حتى أسقطوها واستراحوا من على ماهر باشا

أو الطابور الخامس^(١) . فقامت وزارة حسن صبرى باشا وتعهدت لمجلس النواب بعدم إعلان الحرب فأيدها المجلس ولولا ذلك لأصبحت في مركز حرج لأن الأمة لا تريد التورط في الحرب .

الطليان يعلنون الحرب

كان لإعلان إيطاليا الحرب على فرنسا صدى مضحك لأن فرنسا كانت قد سقطت واستسلمت فلماذا تعلن إيطاليا الحرب عليها ، وهنا بادر الإنجليز وأعلنوا الحرب على إيطاليا ، وراحت طياراتهم تقوم من مصر وتقف قنابلها على الطليان بطرابلس وبرقة فزحف الجيش الإيطالي نحو مصر فتراجع الإنجليز فاحتل الطليان السوم في الأراضي المصرية فطلب الإنجليز من على ماهر باشا رئيس الوزراء إعلان الحرب عملاً بالاتفاق الذي تم وقد أيدهم في طلب إعلان الحرب محمود فهمى النقراشي باشا وزير المعارف وفتنذ وأحمد ماهر باشا رئيس مجلس النواب فكان لتأييدهما بريطانيا وقع أليم في أرجاء البلاد واستنكرته الأمة لاسيما وهو يصدر من رجلين كانا من المشهورين بكراهتهما للإنجليز وكراهة الإنجليز لهما . فما الذى غيرهما ؟ ولكن على ماهر باشا رفض إعلان الحرب وقال إننا اتفقنا على ذلك لو هجمت إيطاليا على مصر (مبتدئة) ولكن الذى وقع أن انجلترا هى التى ابتدأت بقتال الطليان فردوا عليها . وإذا كان الطليان قد اجتازوا الحدود المصرية فإنما هم يلاحقون الإنجليز الذين اعتدوا عليهم . . . هكذا أجاب على ماهر ، والله دره ، ولكن الإنجليز لم يعجبهم هذا الجواب السديد فأخذوا يكيدون لوزارة على ماهر باشا ويعملون على إسقاطها باختلاق الأسباب ، ومنها أن على ماهر باشا أصبح « طابورا خامسا » وهذا التعبير أطلق في الحرب على عملاء الأعداء . وهو من التعبيرات التى أوجدتها الحرب كما أوجدت تعبيرات أخرى جديدة لم تكن معروفة للناس ، مثل « أغنياء الحرب » وفي « مكان مافى جهة ما » و « عادت إلى قواعدها سالمة »

(١) هذا اصطلاح جديد في عصرنا الحاضر ، وحكايته أنه لما سألوا الجنرال فرنكو دكتور اسبانيا « في الحرب الأهلية قبل ١٥ عاما » كيف تستطيع الاستيلاء على المدن بالطواير الأربعة التى لا تملك سواها ؟ فقال إن لى طابورا خامسا دمسته في كل مدينة ، فهو يعمل من الداخل بمجرد هجومى عليها من الخارج . فذهبت كلمته مثلا يطلق على أصدقاء العدو المهاجم ، وصار الإنجليز يطلقون لقب « الطابور الخامس » على خصومهم وعلى كل من لا يقول بقولهم ، وكل من يحب وطنه ويكرههم !

و « حرب الأعصاب » و « نقط استراتيجية » و « تراجعنا طبقا لخطة مرسومة »
و « الحرب الخاطفة » و « فقط الارتكاز » و « الاعارة والتأجير » و « دق الأسفين » و « حركة
الكباشه » الخ .

اختفاء الأستاذ أحمد حسين

وفي خلال أيام إسقاط الوزارة وإقامة الوزارة الجديدة جاءني الأستاذ أحمد حسين رئيس
حزب مصر الفتاة المجاهد الصلب وقال إن حالة البلاد قد أصبحت في شبه فوضى فلا حكومة
مسئولة فيها ولا قانون ، فالحكم اليوم لإدارة الأمن العام والشرطة ، فأخشى أن يعتقلوني
وتجئ الوزارة الجديدة فتجديني في السجن فيصعب إخراجي ولذلك أرى من الحكمة أن
أتوارى حتى تقوم الوزارة الجديدة وعند ذلك أظهر نفسي ، وقد فكرت واستعرضت جميع
أصدقائي لأخفي عن أحدهم فلم أجدهم سواك فهل تخبئني ؟ فقلت له بلا تردد « نعم » ثم
رحلت عائلتي من القاهرة إلى أحد المصايف بدون أن أدعها تعرف السبب وأخفيت أحمد
عندي ولكن بحسب البرنامج الآتي : —

أولاً — يمكث الأستاذ من الصباح إلى موعد الغداء بدون أن يأتي بحركة تدل على
وجود أحد في المنزل ، وإن جاء طارئاً وطرق الباب لا يرد ولا يفتح نافذة ولا يطل على
شرفة بل يكتفي بالمطالعة والكتابة ، وفي خلال ذلك أكون قد ذهبت إلى مكنتي كالعادة
فأجلس مع الزوار إلى أن ينصرفوا حول الظهر فأبادر إلى أحد المطاعم لأخذ الطعام الذي
يكفيني ويكفيه وأجعله في ورقة وأذهب إلى المنزل فتغدى ونستريح وتتحدث عما في نفسينا
من خواطر وعن حوادث البلد ونظل كذلك إلى قرب المغرب .

ثانياً — عند الغروب أنزل إلى مكنتي ويبقى أحمد في الدار ويجوز له الجلوس ليلاً في
الشرفة يرعى النجوم — أو يعمدها إن شاء — ولكن بشرط ألا يضيء النور ولا يرد على من
يطرق الباب ولا يأتي بحركة ، حتى لا يشعر الجيران بوجود أحد في المنزل فيطرقون الباب
ليسألوا مثلاً عن سيدة الدار وهل عادت من السفر ، أو يكون لأحدى الجارات حاجة عند
أهل دارنا فإن لم يجاوبها أحد ظنت أن في الدار لصوصاً فتنادي الشرطة ...

فكنت أذهب إلى مكتبي في الموعد الليلي وأجلس مع الزوار كالعادة فإذا انصرفوا انصرفت أنا إلى مطعم فأخذ منه حاجتي في ورقة وأعود إلى الدار فأفتح الباب وأضيء النور وأسهر مع أحمد في الشرفة إلى أن يأتي ميعاد النوم . وكان أحمد يتضايق من الوحدة في أثناء غيابي عن الدار واضطراره إلى السكون المطلق طول تلك المدة وما أطولها عليه ، ولذلك كان يفرح عند رجوعي فرحاً شديداً . والظاهر أن اختفاء الأستاذ أحمد حسين قد أحدث ريبة عند الحكومة والإنجليز فظنوه قد غادر القطر أو اتجه نحو جيوش المحور أو أنه راح يحبب الريف محوذاً على ثورة ضد الإنكليز ...

وقد تكرر السؤال عنه بالتليفون من عدة أشخاص مجهولين فكنت أتجاهل مكانه وأسألهم عنه وأظهر اشتياقي إليه قائلاً : لعله يصطاف في رأس البر ! وقد مكث الأستاذ أحمد عندي بضعة أيام إلى أن تم تأليف الوزارة الجديدة برئاسة حسن صبرى باشا ولكن لم يرض الأستاذ أحمد عن اختيار محمود فهمي النقراشي باشا وزيراً للداخلية وقال إن هذا الرجل يكره كل كفاءة في البلاد ، ومتى قبض على وزارة الداخلية والأمن العام سيحبس الناس بلا حساب ليشعر الخلق بوجوده وسلطانه^(١) ومع ذلك فقد خرج الأستاذ أحمد من مكمنه وعاد إلى بيته وعمله كمن عاد من سفر وبعد ذلك زار رئيس الوزارة الجديدة وتحدث معه في شئون البلاد كأنه لم يهرب ولم يختبئ ...

زيارتي لرئيس الوزارة

كان رئيس الوزارة الجديدة حسن صبرى باشا يعرفني لما كان وزيراً للمالية سنة ١٩٣٤ فذهبت لتهنئته بمصاحبة الدكتور يعقوب خورى الطيب بالقاهرة فأمر الباشا بدخولنا عليه فوراً مع أننا كنا ننوي يومها أكثر من ترك بطاقات التهنئة أولاً وطلب الموعد الذي يراه « رئيس الوزراء والحاكم العسكرى العام ووزير الخارجية » ولكنه رحمه الله أمر باستقبالنا فوراً برغم كثرة مشاغله .

(١) سياقي حديثه في هذا الكتاب .

حادث ظريف

ولما جاء تشريفاتى الوزارة يطلبنا للدخول ومشينا نحو مكتب الرئيس شعرت بأن شخصاً يمشى بيننا ويريد الدخول على الرئيس معنا وكنت أعرف هذا الشخص وكان كثير التردد على دوائر الوزراء لمسأله وقف مزمنة لا علاج لها ، فوقفت وقلت للتشريفاتى : هل صدر الإذن لنا أو لجميع الحاضرين ؟ فقال بل للوفد فقط . فوجهت نظرى نحو صاحب الوقف الذى كان يريد التسلل معنا وقلت للتشريفاتى : نحن اثنان فقط ، ففهم التشريفاتى ما أرى إليه وسحب الرجل إلى الوراء . وأعاده إلى حيث كان ، وما كان أعجبها لو دخل ذلك الرجل معنا وأخذ ييسط لرئيس الوزراء حكاية الوقف فى حين أن الرئيس يستقبلنا نحن !! لاشك أنها تكون حالة محرجة . وقد ذكرتنى فعلة صاحب الوقف هذا بمحادثة جرت قبل ذلك بعشرين عاماً ، وذلك أننى وثلاثة من أصدقائى دخلنا داراً للتمثيل ، فلما جلسنا فى المقصورة لحظت أن عددنا قد أصبح خمسة . فالتفت إلى الخامس فلم أعرفه فظننته جاء مع الضيوف . وبعد قليل مال أحدهم على أذنى وسألنى عن هذا الخامس ، ففهمت أنه طفيلى ، فسكت ثم التفت إلى هذا الخامس وحييته فأجاب بتحية رقيقة ، فقلت له أريد أن أحدثك حديثاً خاصاً ، ثم تناولت يده وأخذته بلطف إلى خارج المقصورة وسألته عن حاله فقال بلا تردد أنا طفيلى ! فقلت وكيف دخلت معنا ؟ فقال إنه كان بالباب يترصد الداخلين فلما رآنا أربعة نحمل تذكرة مقصورة خاصة اندس بيننا فظنه حراس الباب أنه خامسنا فسمحوا له بالدخول كما ظن كل منا أنه مع الآخر ...

وفى الحقيقة أننى استلطفت أسلوبه وأعجبت بمهارته فقلت له يمكنك الآن أن تبقى لتشهد التمثيل بشرط أن تذهب إلى أحد الكراسى الخالية فى الصالة وتجلس ، فإن اعترضك أحد فقل له إنك معنا وأنا أشهد لك . وهكذا كان ، وتمكن صاحبنا من شهود التمثيل مجاناً ...

ولنرجع إلى ما كنا فيه فأقول إننا لما دخلنا على صبرى باشا نهض مبتسماً وأمر بالقهوة وهو يقول - نعم يا سيدى أنت صاحبنا القديم ، أهلاً وسهلاً ، فجلسنا وقدمنا له التهانى برياسة الوزارة وبعد ذلك ذكرنا له متاعب أهل فلسطين ورجونا أن يتوسط لدى الحكومة البريطانية « الحليفة » لتفرج عن المعتقلين السياسيين وكان عددهم يزيد على العشرين

ألف معتقل فقال صبرى باشا - هذا مدهش وأنا يهمنى أن أعمل كل ما أقدر عليه لإخوانى الفلسطينيين ، أما الآن وأنا جديد فى الحكم ومشاغلي متراكمة فأرجوكم أن تأتونى بعد عشرة أيام ومعكم مذكرة عن الأمور التى تقترحونها . ومعكم أيضا بعض الأسانيد المكتوبة . فشكرناه وانصرفنا - ذكرت هذه الحوادث استطراداً لسبيين : أولاً - لعلاقة ماتقدم بالحوادث المقبلة ، وثانياً - وفاء لهذا الرجل الفاضل وتحمية لذكراه .

عند على ماهر باشا

كانت استقالة وزارة على ماهر باشا - بل التخلّص منها - موضع حزن عند الأمة ، وموضع ألم ومرارة فى نفسه هو ، لأنه أرغم على الاستقالة بشكل غير طبيعى وماذا يقول الإنسان عن آلام وزير يخرج من الحكم بسعى الأجانب عقاباً له على وطنيته وإخلاصه لبلاده ! . لذلك أخذت الدكتور خورى وذهبنا إلى استراحة الحكومة فى جهة القناطر الخيرية حيث بقى على ماهر باشا فيها ليستريح مما كان فيه من تعب ومن ألم ، فحينئذ وذكّرنا جهاده من أجل فلسطين وسورية ، وكان عنده لفيف كبير من الوزراء السابقين والحاليين لمجاملته والأخذ بخاطره ، ولكن سروره بى وبرفيق كان أعظم ، وقال لنا إننى ممنون جداً من تحييتكم هذه لأننى تيقنت أنه يوجد وفاء فى هذه الدنيا بعد أن ظننت الناس قد نسوا - فقلت له : إن الوطن العربى كله لن ينساك .

الحالة فى أيام العاصفة

مضى عام على اشتعال الحرب العامة الثانية بعد أن عانى الحلفاء من بأس الألمان ما يشيب الأطفال ، فقد انهزموا فى جميع الميادين براً وبحراً وجواً واكتسحت جيوش الألمان أنحاء أوروبا وطوت ممالكها تحت سنانك خيولها بل دبابتها طى السجل للكتاب .

وكان الإنكليز فى هذه الأيام لاعمل لهم إلا الهرب من الألمان وإثارة الخوف بين العباد ، يثيرون الخواطر ويروعون الخلق وينشرون الفرع بين الشعوب والأمم ، السنة طويلة وتبجح وقع فى حين أن جيوشهم كانت لا تكاد تحارب ولا تصمد فى معركة ، وكما كنا نضحك على الإنكليز حين كان الأستاذ يونس بحرى المذيع العربى الشهير يصيح من راديو برلين متهمكاً على

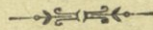
الإنكليز متندراً على قحتهم لما كانوا يهربون من ميادين القتال ويهددون الألمان بكثرة مواردهم وتصميمهم على مواصلة الحرب ، فيقول يونس : وقد أقسم الإنكليز على أن يحاربوا إلى آخر جند فرنساوى ...

وقد صديق يونس ، لأن فرنسا استسلمت بعد أن فقدت جميع جيوشها وسقطت باريس في قبضة الألمان . وأما الإنكليز فقد هربوا من فرنسا كلها ...

وقاحة أم غفلة ؟

وفيما أنا فى هذا وإذا ببصرى يتع على خبر فى جريدة لا أدرى ما الذى أوقعها فى يدى ، وذلك أنه لما انهزم جيشهم من فرنسا وركبت فلوله البحر هاربة إلى انكلترا وهرب قبلها القائد العام الجنرال جورت الجبان الفرار ووصل إلى الأراضى الإنجليزية سالماً بجلده كان الناس يظنون أن حكومته ستحكم عليه بالإعدام جزاء جبنه وفراره ! فإذا بالحكومة الإنكليزية ترحب به كقائد منتصر وتنعم عليه برتبة مرشال ولقب لورد ! وتعلن أن نجاحه فى الحرب كان خطة حربية بارعة ومن أهم الحركات العسكرية التى تفوق النصر ...

فقلت فى نفسى أجبانيين هؤلاء الإنجليز أم يظنون الناس مغفلين .



القبض والحبس

القبض على وحبسى

نحن الآن فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٤٠ والوقت يقرب من المغرب ، وكنت أشعر بضيق نفسانى لأدرى سببه ، إنه شهر سبتمبر الذى أكرهه : فقد قبض على فيه قبل ربع قرن أى فى ١٥ سبتمبر ١٩١٥ فى الحرب العظمى الأولى .

وآخر عمل قمت به فى هذا اليوم الذى ضاق فيه صدرى أننى ذهبت لقيادة حبيبي



المرحوم الاستاذ الشيخ
على سرور الزنكلونى

وصديقى المرحوم الأستاذ الزنكلونى^(١) وكان فى حالة مرض طويل شديد ، ففرح بى وكان رحمه الله فى تلك الساعة مرحاً باشاً وما كنت أدرى أنه اللقاء الأخير وأنها زيارة الوداع وأن انتعاش الشيخ يومها كان «تفتيحة الموت» وبعد ذلك انصرفت إلى مكتبى فوصلته عند الغروب وكان المدعو «س. ا.» أول من زارنى فى تلك الساعة وهو رجل لثيم غادر لا يفى بجميل ، مناقب متقلب متلون لا يحب أحداً ولا يخلص لأحد ، وكان البعض يشته به فى كونه من المتصلين بالشرطة السرية ، ولم يمكث هذا الرجل المشؤم عندى لحظة حتى دخل شخص جديد علينا وهو يقول «أنا اليوزباشى محمد يوسف من البوليس السياسى وأريد أن أفتش الإدارة» وقبل أن يتم بقية كلامه دخل أعوانه الضباط خلفه ثم لمحت من النافذة أن هناك قوة بوليسية تطوق العماره - فقلت للضباط قتش كما تريد . وفى الحقيقة أننى من أول الحرب كنت

(١) هو الشيخ على سرور الزنكلونى - نسبة إلى قرية الزنكلون بمديرية الشرقية - كان من أجلة العلماء وزعماء الوطنية والإصلاح الدينى فى مصر والشرق وقد انتخب عضواً فى جماعة كبار العلماء وكان من كبار الثأرين السياسيين على الاستعمار واشترك فى الجهاد فى ثورة مصر سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠ وهو أول عالم دينى مسلم أمسك برئيس دينى قطى فى الجامع الأزهر حيث كان يحشد الناس ويسمعون الخطب الوطنية وأخذ يعاقبه ويقلبه رمزاً للاخاء فى الإنسانية والوطنية . وكانت الزنكلونى من أكرم الناس وأوفى الناس وأشجع الناس فى الحق ، لا يبالى بنزوى الحكم والسلطان ، وكانت قاضياً لحاجات الناس خادماً للفقراء وبالاختصار كان كله إنسانية وكله رحمة ، رحمه الله وأرضاه .

أتوقع هذه الغزوة وكنت مستغرباً عدم حدوثها إلى الآن! على أنى كنت واثقاً من نفسى وأنه لا يوجد عندى شيء يهيم السلطات البريطانية، ولم أقم من جهتي بأى عمل يمكن مؤاخذتي عليه وراح الضابط يقتش الأدرج والخزائن ويعبث فى الأوراق ثم يأخذ بعضها ويضعها فى كيس كبير . وأما الزائر « س. ا. » الذى كان عندى فإنه تسلل مولياً الأدبار! ولا أدري أكان قد شعر بأن مهمته فى استبقائى فى الإدارة قد انتهت أم أنه أراد إبعاد الشبهة عن نفسه ، وكان المنتظر منه لو كان رجلاً أو صديقاً كريماً أن يظل إلى جانبى ليرى مصيرى فيخبر الأصدقاء وأهل بيتى عن ذلك المصير ...



كنت جالساً فى دار الشورى قبل القبض على بدعة فى قلية

وفى أثناء التفتيش أو التخريب والإفساد فى الإدارة تعب حضرة الضابط المهام ولا أدري عم كان يبحث ، لأنه لا يوجد عندى شيء تريده الحكومة أو السلطة العسكرية؛ ولم يقل هو عن شيء معين بالذات يريد أن أساعده على إظهاره ، وبعد ذلك تامل الضابط وقال « ما هذا؟ إنها أوراق كثيرة جداً زيادة عن اللزوم! » فقلت : هذه إدارة جريدة وأوراقها يجب أن تكون أكثر من ذلك . فقال : لا ، لا ، هذا كثير جداً ...

فتعجبت من هذا الرجل وقلت فى نفسى ما دخله وماداهمهم إن كانت الأوراق كثيرة أو قليلة ، وماذا كان يقول لو جاء قبل عدة أشهر ووجد الأوراق التى أعدمتها إحراقاً والتى أخرجتها من الإدارة وأخفيها ...

تفتيش الدار

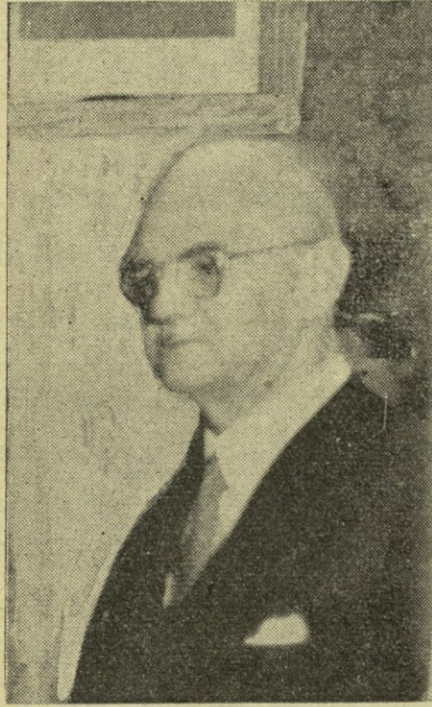
وبعد أن عاث الضابط في الإدارة طلب أن أسير معه إلى الدار ليفتشها أيضاً ، فركبت معه في سيارة كان قد أحضرها معه من إدارة البوليس ، وركب معنا بعض أعوانه وقبل أن تتحرك السيارة التفت إلى ضابط « قسم الموسكى » الذى كان يصاحبه وأشار إليه بعظمة وغطرسة أن يأخذ كيس الأوراق والأضابير إلى إدارة البوليس العامة ، ثم انطلقت بنا السيارة البوليسية إلى الدار فدخلها الضابط المقدم كالفاتح المتتصر ، وكانت زوجى ترضع طفلتنا « جهاد » وعمرها ستة أشهر فازعجت الأم من دخول الشرطة إلى الدار على تلك الصورة البشعة وكانت هذه الحادثة سبباً في جفاف لبنها ومرض تلك الطفلة ثم وفاتها بعد ذلك .

وأخذ الضابط يفتش الدار ، ولكن عن ماذا ؟ لا أدري ، ولكنه كان ينتقل من غرفة إلى غرفة ويفتح الدواليب والأدراج الخاصة بالحريم ويبحثها بفضول يدعو إلى الاشمزاز من مهنته الكريمة ، ثم أخذ يبحث تحت الفراش ، وفي خلال ذلك كان ينثر الثياب على الأرض ويلقى بالأوراق عيمناً وشمالاً . فأحسست من حركات هذا الضابط أنه لا يقوم بوظيفته بل إنه يعتمد الإضرار والتكدير والتنكيل . ولم يكتف بذلك بل مد يده إلى جيوبى بكل تطفل وأخذ ما فيها من الأوراق والمفكرة الخاصة .. إن هذا الضابط لم يكن اسمه غريباً عنى فأنا أعرف أنه من أخلص أعوان الإنكليز ومن مشاهير ضباط قسم التحرى بإدارة الشرطة ، وله وقائع وحوادث مشهورة مع المتهمين في القضايا السياسية القديمة ، كما أن مواقفه مع أبناء جيلنا الحاضريومها الناس ويتحدثون عنها بمرارة وفزع ، ولولا أساليبه هذه مع مواطنيه لما رضى عنه الإنكليز فأوصلوه إلى الدرجة التى وصل إليها ، ولكن لماذا يستعمل هذا الضابط معنا الأساليب المزعجة في التفتيش كمن له ثأر معنا في حين أنه لا يوجد بيننا ما يدعو إلى ذلك ، فنحن لا نعرفه ولا يعرفنا . غير أننى أسمع عن ماضيه بدون أن يعرف أننى أعرف ذلك الماضى ... ولكن لماذا كان يفتش بهذه الدقة وما هو الشئ الذى كان يريد ؟ أنا لا علاقة لى بدولة أجنبية أياً كانت فهل هناك تلفيقا ضدى ؟ وما هى وكيف لفقوها ؟ وهل التلفيق هين بهذا المقدار ؟

إلى مكان مجهول

لا، لا، أنا واثق من نفسي ولا يوجد قوة في الدنيا تجعل من الأشياء شيئاً، ولا يستطيع محقق أن ينسب إلى تهمة، لأنه لا يوجد شيء أخشى ظهوره أو إظهاره، ولكن الضابط الهام لم يكتف بما كان منه، بل أخذ بعض الأوراق العائلية ثم طلب أن أراققه، فنزلت من الدار وركبت معه السيارة بين اثنين من أعوانه ففهمت من ذلك أن المسألة أكثر من تفتيش، فقلت له: إلى أين؟ فقال إلى جهة بعيدة. فقلت له مادامت الجهة بعيدة فلماذا كتمت ذلك عني فدعني أخذ بعض اللوازم معي فوافق، فلولا اعتراضى إذن لباغتني بالإيداع في السجن

مباغتة. فقلت في نفسي لماذا يسلك هذا الضابط معنا هذا الأسلوب اللئيم بدون أن يصدر مني شيء يكدره أو يكدر أصحابه الإنكليز؟. هذا وقد رجعت إلى المنزل والقوة البوليسية معي فأخذت حقيبة صغيرة وبعض الملابس، وودعت زوجي والطفلة الرضاعة وهمست لزوجي بأني لا أدري إلى أين يريدون أخذى، فإن لم أرجع الليلة فعليها أن تخبر في الصباح الباكر أصدقائي وخصوصاً تحسين بك العسكري وزير العراق المفوض^(١) والأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة والدكتور مصطفى بك بشناق المجاهد الفلسطيني والدكتور يعقوب خوري، وهو شاب شههم ورد ذكره فيما تقدم وسيرد ذكره في هذا الكتاب مراراً. وأقبلت زوجي تسأل الضابط



المرحوم تحسين بك العسكري

إلى أين تريدون أخذه؟ فقال: لا أدري. وكان كاذباً في قوله هذا...

(١) هو المرحوم تحسين بك العسكري وزير العراق المفوض في مصر. ثم لحق بربه بعد هذه الحوادث بسبع سنين. وكان رحمه الله من خيرة رجال العراق ومن مشاهير المجاهدين الوطنيين فقد تطوع للحرب ضد الطليان سنة ١٩١١ واشترك في حرب البلقان سنة ١٩١٢ والحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ وكان زميلاً لأحمد حلمي باشا «الزعيم الفلسطيني الذي أصبح بعد ذلك رئيساً لحكومة فلسطين. حين كان الباشا في الحرب =

إلى السجن

ودرجت سيارة البوليس بنا بدون أن يدور بيني وبين الضابط أى حديث أو كلام ، أما أنا فتصورت الإبعاد إلى مالطة أو إحدى جزر سيشل ، ولكنى استبعدت ذلك ورجحت أن هناك تهمة وتحقيقات وأن المحقق سيسألنى ثم لا يلبث أن يطلقنى فوراً وهنا قطع الضابط جبل السكون وقال للسائق « انطلق بنا إلى سجن الأجانب بدلا من سجن التخشبية » ... هنا فقط فهمت صراحة أننى ذاهب إلى السجن وأنه سجن الأجانب بالذات فكدت أشكر الضابط على هذه العناية وكيف لا يستحق الشكر وأنا أعرف وصف سجن التخشبية الهائل من أفواء الذين ذاقوا العذاب فيه ونشروا أخباره فى الصحف^(١) ولكن المولى الهمنى عدم شكر هذا الضابط ، والحمد لله ، وسيعرف القارى سبب ذلك كما سيجى .

وصف دخول السجن

دخلنا مكتب مدير السجن وكان الوقت يقرب من العاشرة مساء وقد لحظت من كلام الموظفين أن إدارة السجن كانت على علم بمجيئى بدليل قول أحد السجنانيين لزميله ان الغرفة رقم ١٣ مستعدة ... وهو رقم مشنوم كما لا يخفى .

= الأولى مديراً لفرق العشائر المتطوعة « فأبدى تحسين بك بسالة شهد له بها الأعداء ، واشترك فى معركة « كوت الأمارة » بالعراق التى أسفرت عن أسر الجنرال تونشند القائد العام للجيش البريطانية وأسر جيوشه وأركان حربه ، وتولى بعد ذلك مناصب عديدة بعد استقلال العراق منها منصب الوزير المفوض فى مصر فوزارة الداخلية العراقية ، ثم عاد إلى مصر وزيراً مفوضاً مرة أخرى . وكان رحمه الله شهيداً نبيلاً ووطنياً قومياً من الطراز الأول ، وكان رقيق القلب على الهمة لا يرد صاحب حاجة ، لدرجة أنه عفا عن أحد قتلة شقيقه المرحوم جعفر باشا العسكرى وزير حرية العراق بمجرد أن كتب إليه القاتل يطلب منه الصفح .

ومناقب تحسين بك كثيرة وأعماله أكثر وفضائله عامة شملت جميع الناس إذ كان يغيثهم بماله وبنفوقه الشخصى وجاهه الرسمى . وفى سبتمبر سنة ١٩٤٧ مات بقتة ودفن بالقاهرة باحتفالات رسمية أمر بها جلالة الملك فاروق المعظم أبقاه الله . وكان لفقد تحسين بك فى العالم العربى حزن عميق تردد صداه فى جميع الأقطار ، رحمه الله وجعله مع الصديقين والشهداء .

(١) سجن التخشبية عبارة عن بدرون تحت الأرض فطبع قاتل لاندري لماذا يظل إلى الآن محبسا للبشر وهو لا يصلح لإيواء الحيوانات ... والغريب أنهم لا يحبسونه فيه إلا الأبرياء قبل التحقيق معهم ! أما الأغرب من ذلك فهو أن كل حزب سياسى فى مصر يشكو منه ويطلب إزالته ، ولكن هذا الحزب عند ما يتولى الحكم ينسى إزالته ليعذب فيه خصومه هو ! ثم يعود الحزب الذى يفقد الحكم إلى الشكوى من فظاعة ذاك السجن ، ولكن بعد خروجه من الحكم طبعاً ...

وكانت العادة أن الموظف يسأل السجين الجديد عن اسمه ولقبه وعمره وعنوانه الخ ...
ولكن الموظف لم يسألني بل تناول ورقة من الضابط وبسطها أمامه وأخذ ينقل عنها ويدون
نصها في السجل ، فقرأت ما يأتي :

حضرة مأمور سجن الأجانب :

المرجو حجز محمد علي الطاهر حتى صدور أوامر أخرى ...

عن حكمدار بوليس مصر : الأميرالاي سليم زكي

وكان لدى موظف السجن إشارة تليفونية في هذا المعنى . هذا هو المستند الوحيد الرسمي
الذي رأيته من أول حادثتي حتى آخرها . ولكن أمر القبض لا يوجد فيه أى نص يخول
الضابط تفتيش مكنتي وداري والعبث فيهما وإزعاجهما ، وليس في هذا الأمر البواليسي العرفي
ما يعطى الضابط حق أخذ الأوراق الخاصة التي ضبطها ، ولا أن يمد يده إلى جيوبى ويتناول
منها أوراق الشخصية ومفكرتى .. إذن فهذا الضابط قد أساء التصرف وتعمد أن يتجاوز
حدود وظيفته وتطوع للإيذاء بلا سبب . ثم ما هى الأوراق التي أخذها ؟ إنها كثيرة جداً
ولم يضع بياناً بها فمن يدرى والحالة هذه انه سيدس بينها « أوراقاً مؤذية » تجلب لى التعب ؟
ولكن هذا بعيد الاحتمال ، لأننى لا أسأل عن حيازة أوراق بل أنا مسئول عما تحطه يدي ،
ولا يوجد فى الأوراق التي أخذها ما أخشى منه ، فرجحت أن الضابط يريد من أخذ الأوراق
إشباع فضول مهنته الممقوتة بالاطلاع على أسرار الناس ، وقد تقع فى يده ورقة تؤذيني
وتكون سبباً فى ترقيته

ثم لماذا كان يتظاهر بأنه يتفضل علينا بالإعفاء من سجن التخشبية بينما الأمر الذى يحمله
كان صريحاً ، فهو موجه لسجن الأجانب وفى هذه الحالة لا يمكنه وضعى فى سجن التخشبية
ولا يستطيع سجن التخشبية قبولي ؟ لم يبق شك عندى الآن فى أن حركات هذا الضابط وتصرفاته
معنا من الأول إلى الآخر كانت شاذة وفيها سوء نية ، ولكن لماذا كل هذا ؟.

وقد حضر حادث القبض ودخولى السجن أحد أفراد بوليس الجواسيس وكان يعرفنى
فأخذ يتلوى أسفاً ويضرب كفيه حزناً وتوجعاً ، ثم أراد أن يظهر لى شيئاً من إحساسه الطيب

فقال إنه سيخبر أهل بيتي بوجودي في هذا السجن^(١)، وإذا بالضابط ينظر إليه شزراً ويأمره
بألا يفعل وقد زاد هذا التصرف من الضابط في سوء الظن به، ولم يعد عندي شك بأنه
رجل يعتمد التنكيل، ولكن لماذا؟.

ولنرجع إلى موظفي السجن، فإنهم بعد أن سجلوا الاسم أخذوا كل ما كان في جيوبى،
كالساعة وعلبة السجاير ثم زعوا أضرار قميصى ورباط الرقبة وبعد ذلك فكوا رباط الخذاء، فاعترضت
على هذه التصرفات فقالوا ولكنه القانون. فقلت ما للقانون ولرباط الخذاء ورباط الرقبة؟
فهمس أحدهم في أذنى قائلاً: إن الحكومة تخشى أن يشنق السجين نفسه بهذه الأشياء!
فضحكت برغم كونى فى موقف يدعو إلى الكدر والكمد، ثم سألتهم: ولكن لماذا
أخذتم أضرار القميص؟ فقالوا: حتى لا تطلعها طلباً للانتحار! فلم يسعنى إلا أن أشكرهم على
هذا الحرص الشديد على سلامتى وحياتى...

وكان معى فى أحد الجيوب الداخلية ١٣١ جنبها فسلمتها إلى الموظف ليسجلها فى دفاتره
ففعل، وبعد ذلك قالوا: تفضل... وفتحوا أبواباً حديدية ضخمة ذات أقفال ومزاليج
فمشيت معهم فى فناء ضيق فأدخلونى غرفة صغيرة جداً ثم أغلقوا الأبواب - فلما وجدت
نفسى وحيداً وقد حيل بينى وبين الدنيا تلمست وأنا فى ذلك الظلام ما فى الغرفة فإذا هو
سرير صغير عليه فرشاة وبطانية ومخدة وكرسياً من الحديد، فجلست أفكر وكان أول شئ
قلته لنفسى: «الآن أصبحت منكوباً مثل إخوانى وأقاربى أهل فلسطين الذين نكبوا جميعاً
ولم يبق من «المنسوين» لفلسطين أحد بقى بدون حبس إلا أنا، فأستطيع الآن أن أرفع رأسى
أمامهم شامخاً، ثم رجعت إلى «الزنزانة الموحشة» وأنا أعزى نفسى بييتين للأستاذ معروف

(١) كان يزورنى عند إعادة النظر فى بعض مواد هذا الكتاب السيد محمد محي الدين القليبي أحد أعيان
تونس ومجاهديها المعروفين فأسمعتة هذه الفقرة فضحك وقص على حكاية مثل هذه بالضبط وقال إن أحد
الجواسيس التونسيين كان ذات مرة حاضراً إحدى حوادث القبض عليه هو فكان الجاسوس يظهر التوجع
والتألم ويضرب كفاً على كف ويقول لاحول ولا! فالجواسيس إذن هم هم فى كل بلد نكب بالاستعمار، نفسية
واحدة وسجنية واحدة، وغريزة واحدة...

الرصافي شاعر العراق « رحمه الله » وهما من قصيدة نظمها بمناسبة حبس المرحوم الشيخ
عبد العزيز جاويز الزعيم المصري سنة ١٩١٢ قال :

إن يسجنوك فإن ذكرك مطلق يجنى الثناء ويقطف التقديسا
أو يوحشوك بتصر سجنك مفرداً فالحق عندك قد أقام أنيسا



هذا هو السجن ، وقد أشير بعلامة X تحت نافذة الزنزانة التي كنت فيها

الليلة الأولى في السجن

كانت تلك الليلة أليلة شاقة على نفسي ، وهكذا كل مكروه يبدو كبيراً ثم يتضاءل مع الأيام بعكس كل شئ آخر . فالإنسان والحيوان والشجر والنبات وكل ما في الوجود يولد صغيراً ثم يكبر إلا المصائب فإنها تبدو عظيمة ثم تتضاءل وتتلاشى بفعل الزمن .

كان كل شئ يزعجني في تلك الليلة ، البيئة والحالة والانفراد والظلام وعدم وجود أسباب الراحة وغير ذلك ، لقد كان كل شئ يؤلنى وينغضى ويسل النوم من جفوني .

تفكير واستعراض

لماذا حبسوني وما هي التهمة التي ستوجه إلى ، وكيف يكون الاتهام والتحقيق والدفاع ، ولكن ماذا يستدعي الاتهام والتحقيق ؟ فأنا لم أصنع شيئاً ، وإني لمتأ كدمن بعدى عن كل مظنة . ثم تلاحقت الأفكار والخواطر وتتابعت الظنون ...

لم أنم في تلك الليلة ، وكيف أنام وأنا داخل إلى السجن منذ ساعات ، مفارقاً أهلى وبيتى وصحبى ومكتبى ... ثم رجعت إلى التفكير واستعراض جميع حوادثى وخرقاتى من أول الحرب إلى الآن ، فيأتى هل كانت تهنتى لعلى ماهر باشا ذنباً ؟ ولكن رئيس الوزارة الجديد نفسه ذهب إليه ليأخذ بخاطره ، ثم تذكرت مقابلتى لحسن صبرى باشا رئيس الوزراء منذ أسبوع وكيف أننى فارقتة على موعد فكيف يكرمنى ثم يحبسنى ؟ لا يجوز حبس أحد فى هذه الحرب إلا بأمر رئيس الوزراء الذى هو الحاكم العسكرى العام ، بعكس الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ إذ كان القائد العام للجيش البريطانى هو الحاكم العسكرى العام الذى يحبس الناس بموجب أمر يصدره بدون أن يضطر إلى ذكر السبب ، فكيف يعقل أن هذا الوزير الطيب الذى يحترمنى ويرانى أهلاً لمناقشته ومحدثته فى شئون فلسطين يكرمنى ويعين لى موعد لقاء ثم يحبسنى ؟ لا لا . ليس هذا هو السبب ، ثم رجحت أننى حبست بدون علم حسن صبرى باشا ، ولكن من هو الذى يملك حق حبس العباد غيره وهو رئيس الوزراء ، كما أنه يوجد أمر رسمى من على ماهر باشا الحاكم العسكرى العام السابق بأن لا تحبس إدارة الأمن أحداً إلا بأمر الحاكم العسكرى . فكيف

حبسوني؟ وأخيراً قلت في نفسي : لاشك بأن هناك سوء تصرف من إدارة البوليس العامة لا يلبث غداً أن يتجلى أمره .

احتمالات ذات شجون ووقائع

وبعد ذلك أخذت أحكم نفسي على أمور قمت بها خلال ذلك العام فتناولتها واحدة واحدة وهانذا أسردها بحسب ورودها على خاطري لا بحسب تواريخها :

أولاً الحديث عن المحور مع وزير الأوقاف : لما جاء تحسين العسكري بك ليتقلد منصب الوزير المفوض للعراق قمت معه بزيارة شخصية لوزير الأوقاف الشيخ مصطفى باشا عبد الرازق في داره، وهو الذي أصبح بعد ذلك شيخاً للأزهر ، وكان صديقي وكنت صديقه منذ عشرين عاماً ، وكان الزيارة ودية لا رسمية ، وبقصد التعارف الشخصي مع تحسين . وقد تحدثنا نحن الثلاثة حديثاً عاماً تطرقنا فيه إلى السياسة العامة فسألته لماذا يطلب زميلاك محمود فهمي النقراشي باشا وأحمد ماهر باشا إعلان الحرب على ألمانيا فهل أخذنا من الإنكليز موافق تضمن حقوق مصر ؟ ثم ما الذي يمنع أن تأخذوا عهداً من المحور بصفة سرية يضمن حقوقنا إن انتصر الألمان وبذلك نحتاط لمصلحة البلاد من الناحيتين ؟ قلت لهذا الشيخ مصطفى عرضاً وبدون قصد مرسوم ، فإذا به ينتفض ذعراً ، ثم غير الحديث متلفتاً يميناً وشمالاً مع أنه ما كان يوجد في الغرفة سوانا نحن الثلاثة !

ثانياً - هل شعروا بإخفاء أحمد حسين - ألا يجوز أن الحكومة البريطانية أحست بأنى أخفيت الأستاذ أحمد عندي فاعتبرت ذلك عملاً عدائياً فطلبت القبض علىّ وحبسى ؟ ولكن كيف يجوز للوزارة أن تجيب مثل هذا الطلب بلا تحقيق ولا تثبت ، ومن أين للإنكليز أن يدروا بإخفاء أحمد عندي ؟ .

ثالثاً - السنوسى والإنكليز : اجتمعت مرة بأحد كبار السنوسين السيد محي الدين نجل المجاهد الكبير السيد أحمد الشريف السنوسى رحمه الله . فقلت له بلغنى أن قريبك السيد محمد إدريس السنوسى يريد أن يخطب في الراديو في مصلحة الإنكليز ضد الألمان ، فقل له أن لا يتورط في مدح الإنكليز إلا إذا كان قد أخذ وثيقة أو عهداً بالاعتراف باستقلال

طرابلس وبرقة، لأنني أخشى أن يتنكر لكم الإنكليز كعادتهم في النكث بوعودهم ، بل أنهم يتنكرون للمعاهدات الدولية الصحيحة فكيف لا يتنكرون للسنوسيين^(١) وقد تنكروا قبل ذلك للملك حسين بن علي ، بل بلغ بهم الجحود أنهم قبضوا عليه ونفوه إلى جزيرة قبرص كأنه أحد رعاياهم المارقين ! فياترى هل درى الإنكليز بمحديتي لابن السنوسي الكبير ووصيتي التي رجوته أن يوصلها للسيد إدريس ؟

رابعاً — حديث عن برقة وطرابلس : اجتمعت بعد ذلك في جلسة خاصة هامة مع الشيخ محمد الأخضر العيساوي أحد فضلاء الطرابلسيين في مصر وهو صديق حميم للسيد محمد إدريس السنوسي ، وكان هذا الاجتماع بحضور الزعيم الياني الشيخ أحمد محمد نعمان وكان اجتماعنا في غرفته بالرواق العباسي وكان حديثنا يدور حول غلطة السيد إدريس السنوسي وقيامه بالدعاية للإنكليز ولم يكن هناك أحد في تلك الجلسة سوى أحد الطلبة اليانيين المرافقين للسيد نعمان لخدمته وعمل الشاي والقهوة ، فعاتبت السيد محمد الأخضر على سكوته للسيد إدريس السنوسي وتصرفاته وقيامه بالدعاية للإنكليز بدون أن يفكر بأنه يخدع بذلك المسلمين والعرب وهو مخدوع . فقال الشيخ الأخضر : إن السنوسي معذور وأهل طرابلس وبرقة كذلك ، لأن الطليان خربوا البلاد وأبادوا العباد ، فهم في منجاة من اللوم إن استعانوا بالأبالسة لتخليصهم من الطليان^(٢)

(١) لقد تنكروا للسنوسي بعد أن انتصروا بل تجاهلوه تماما وما عادوا يحفلون به فصار مثلنا يطرق الأبواب السياسية ويلتمس من الصحف نشر احتجاج أو إذاعة مظاهرة ، بعد أن كان الإنكليز في أيام الحرب يتبركون به ويلقبونه بالأمير ويستشهدون به ويستمدون منه العطف ، والغريب أنه قام بالدعاية لهم والتجنيد معهم بلا قيد ولا شرط بل اعتماداً منه على شرفهم ! بل بلغ به الحال أنه كان يذهب إلى معتقلات الأسرى الطرابلسيين ويقنعهم بالتطوع لمحاربة الطليان . فأخذ الطليان ينتقمون في طرابلس من أهالي هؤلاء الأسرى ملحق : عند إعادة النظر في هذه المفكرات بعد عشر سنين وعند الشروع في طبعها سنة ١٩٥١

كانت الدنيا قد تطورت ووقع خلاف بين الإنكليز والطليان وفرنسا وأميركا على تقسيم ليبيا، وتحركت الأطماع فلم يجدوا وسيلة للتخلص من طمع بعضهم بأخذ الغنيمة دون الآخرين إلا جعل ليبيا مملكة تحت رعاية هيئة الأمم المتحدة وتحت حكم السنوسي ، فلولا كيد بعض هذه الدول لبعضها الآخر لكانت ليبيا نهياً مقسماً بين دول الاستعمار ومع ذلك فإن ليبيا ، أي طرابلس وبرقة وفزان لا تزال غير فائتة من الاستعمار حتى الآن .

(٢) ولكن الإنكليز كانوا أبلس من الأبالسة لأنهم لما تنسموا ريح النصر أخذهم الشره الاستعماري =

فقلت له إن عدد سكان البلدين لا يكاد يبلغ مليون نسمة بينما يبلغ عدد المسلمين الذين تذلمهم انجلترا وهولندا وفرنسا نحو ٣٠٠ مليون فإن انتصرت انجلترا فلن تترككم ، وإن تركتكم وهذا مستحيل فهي تستعبد مئات الملايين إلى الأبد، وإن انكسرت انجلترا أفلت العالم من الاستعمار وخلصكم من الطليان ، بل نفرض أن إيطاليا ستبقى عندكم فهل من العدل أن يموت العالم كله من أجلكم أتم في حين أن عددكم لا يبلغ عدد المواليد في دنيا المسلمين بضعة أشهر ! ضربت هذا المثل لا لكوني أفرط بحياة طرابلسي واحد، ولكن لأبرهن لمحدثي على أن صاحبه السيد إدريس السنوسي قد ركب شططاً وتورط وسيورط أهل بلاده ، وإن راح الطليان عنها حل الإنكليز محلهم ^(١) فالسنوسي إذن كان متسرعاً في ركضه وراء الإنكليز بلا قيد ولا عهد ولا وثيقة يلوح بها أمام الناس على الأقل، كما كان الملك حسين يلوح بمعاهداته معهم برغم أن تلويح الحسين رحمه الله لم يجده إلا ضياع الملك والوطن والنفي إلى قبرص ...

== فأعلنوا أنهم « لن يسمحوا بعودة برقة وطرابلس لحكم الطليان » فطرب بعض المخدوعين من الطرابلسيين والبرقاويين لهذا الإعلان ولم يفطنوا إلى أن معناه أخذ بريطانيا لدينك القطرين لنفسها وليس معناه إرجاعهما إلى الأهالي !

وقد حدث في سنة ١٩٤٨ أن سمح الإنكليز للسيد إدريس السنوسي تحت ضغط الحوادث بالذهاب إلى بنغازي للاستعانة بفوزة الدين على تسكين الأحوال فيها ، وإني أرجو أن لا تكون النتيجة إقامة إمارة سنوسية روحية تحت سلطة السنوسي يقيم الإنكليز خلفها سلطة بربرانية فعلية ويجعلون من برقة مملكة خيالية للعرب ، ومركزاً عسكرياً لاستعمارهم كما هي الحالة في شرق الأردن .

(١) لقد صح هذا كله مع الأسف بعد أن أعطى الإنكليز للسنوسي وعداً بأن لا تعود بلاده للطليان . ولم يقولوا إنها تعود لأهلها ، لأنهم ينوون أخذها لأنفسهم ، وها هم الإنكليز اليوم يحتلون طرابلس وبرقة وقد جعلوها مستعمرتين تحكمان بالأسلوب العسكري البريطاني وتركوا فرنسا تحتل منطقة فزان، وهم يستعينون في حكمهما باليهود وبالإيطاليين المتوطنين، فصار الأهالي الذين كانوا يكونون من حكم الطليان وحدهم، يندقون العذاب على أيدي الإنكليز واليهود والطليان أيضاً .

ملحوظة : قرأت في الصحف في سنة ١٩٤٨ أن الإنكليز يفاوضون عدوتهم إيطاليا في إعطائها قطعة من طرابلس ، ويفاضون الفرنسيين لإعطائهم قطعة بجوار تونس ومنطقة فزان، وبقيّة البلاد تظل تحت حكم انجلترا نفسها . يعني أن كل بلاد عربية يجب أن تبقى تحت حكم الاستعمار وأن تعطى للشيطان ماعدا أهلها العرب ...

لقد تذكرت هذا الاجتماع وقلت في نفسي هل بلغ الإنكليز خبر هذا الحديث؟ وكيف كان ذلك؟ إن الشيخ الأخضر ونعمان لا يتكلمان، فهل تكلم ذلك الطالب اليماني الذي كان يصنع لنا الشاي عند نعمان؟

خامسا - اعتقال أخي في فلسطين - كان الإنكليز بفلسطين قبل القبض على قداعتقوا شقيقى نظمي الطاهر ونفوه من يافا إلى سجن المزرعة قرب عكا، فكتب إلى المندوب السامي البريطاني بالقدس أقول له إن بريطانيا بدلا من أن تفرج عن المعتقلين العرب تطيباً لخاطرهم في زمن الحرب نراهما لا تزال تعتقل الناس وآخرهم شقيقى الذى لا دخل له في السياسة فكيف نصدق ادعاء الحلفاء صداقة العرب؟ فجابني المندوب السامي بكتاب لطيف قال فيه إنه أمر بإطلاق شقيقى، فياترى هل نهت هذه المراسلة إدارة الاستخبارات إلى أنا وأشارت بحبسى؟

سادسا - إيليا سليم عطية - كان هذا الرجل جاسوسا انجليزيا في الحرب العظمى الأولى

في سنة ١٩١٤ في مصر والأردن والحجاز وقبل ذلك في السودان؛ وفي سنة ١٩٢٦ كان عطية موظفا في عمان فتطوع بتحصيل اشتراكات لجريدتى الشورى فقبض مبلغا ليوصله إلى ولكنه أكله، ففضحت فعلته ونشرتها بكتاب نظرات الشورى سنة ١٩٣٢ فحقد على. ثم دارت الأيام ورجع إيليا سليم عطية لمصر واشتغل في الحرب العظمى الثانية جاسوسا مرة أخرى، وإذا بالظروف تجمعني به عند أحد المعارف فتشاءمت من نظرته وتذكرت خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وما صدقت أن انصرفت على ألا أعود إلى ذلك المكان. فلما أخذت أفكر وأنا في السجن لماذا حبسوني قلت في نفسي: ألا يجوز أن إيليا عطية كتب تقريراً ضدى ذكر فيه الإنكليز بعداوتى لهم وأنه يخشى أن أعمل ضدهم واننى من زبائن معتقلاتهم القديمة، فكان تقريره حافزاً للإنكليز على القبض على الآن؟

أول صباح في السجن

بقيت أفكر في الاحتمالات التي استوجبت حبسى إلى قرب الفجر، وأخيراً نمت قبل طلوع الشمس، ولما بدأت أنام فعلا سمعت الباب يفتح والسجان يدخل ويقول هيا فلا نوم بعد هذه الساعة. فجلست أحض الغرفة التي أنا فيها فإذا هي ضيقة ورأيتها الكريمة تفوح،

وبعد قليل سمح لنا بالخروج لقضاء الحاجة، ثم أعادوني إلى الغرفة ودخل سجان آخر فترك لي رغيفاً وبيضة وكوباً حديدياً يحتوي على سائل أسود وقال إنه شاي، فتركت للسجان كل ما جاء به لأنني كنت في حالة اشتزاز وسخط فأخذ الطعام وانصرف كمن اعتاد هذا الحرد من السجناء الجدد... أما أنا فقد جلست أعاود التفكير وقد اشتقت للتدخين الذي منعوه عني من الأمس، فسألت عن سبب منعي من التدخين وأنا لست سجيناً مجرمًا ولم يحكم عليّ، فقالوا يمكنك أن تدخن في خارج الغرفة كل أربع ساعات سيجارة واحدة وذلك عندما تخرج «للتابور» فسألت ما هو التابور؟ فقالوا سيسمح لك بالخروج من الغرفة عشر دقائق لقضاء الحاجة والمشي وهو الذي يسمى «التابور» وفي أثناء ذلك تعطى لك سيجارة من مال الأمانات الموجودة باسمك عند المدير. فقبلت هذا الشرط وخرجت من الغرفة وأخذت أتمشي أمامها وأدخن بلهفة، وقد لاحظت أن جميع أبواب غرف السجناء مغلقة وساحة السجن خالية. فظلمت وحيداً لا أكلّم أحداً ولا يكلمني أحد، بل كان السجنانون أنفسهم لا يجاوبون على سؤال إلا خلسة مخافة أن يراهم أحد.... وبعد انقضاء الدقائق العشر أعادوني إلى القبر وأغلقوا الباب وسمعت قرقرة المزاليج وهي توضع خلفه، وقبل أن أجلس سمعت الباب يفتح مرة أخرى ويدخل منه «خواجة» يلبس طربوشاً ويتكلم العربية فقال «نهارك سعيد» ففرحت وقلت نهارك سعيد، ثم أجال نظرة بي فاحصاً وبعد ذلك قال وهو ينصرف «نهارك سعيد» وأغلق الباب، ففهمت من حركة الرجل ومن تأدب السجان معه أنه مدير السجن، فرجعت إلى مكاني أفكر وأسائل نفسي ثم ماذا؟ وإلى متى؟ ألا من تحقيق؟ ألا من سؤال؟ ثم كيف أستطيع أن أقضي يومي وأنا على هذه الحال، لا كلام ولا كتاب ولا جريدة ولا أي شيء يخفف عني ما أنا فيه، وأمامي ليل طويل موحش مظلم فكيف العمل؟ وماذا جرى في منزلي بعد القبض عليّ؟ وهل عرفت زوجي أين أنا؟ وكيف تعرف، ولماذا كان الضابط محمد يوسف حريصاً على أن تجهل زوجي إلى أين أخذوني، وما هي فائدته من ذلك؟ يارب لماذا كان هذا الرجل يعاملنا بهذه الأساليب العدوانية وليست له ناقة في المسألة ولا دجاجة، وكل ما كان عليه هو أن يؤدي مهمة عامل البريد الذي يحمل الرسائل إلى أصحابها وينصرف؛ فهو قد كلف فقط بأن يمشي

معى من مكنتى ويسلمنى إلى السجن لاغير . فلماذا كان يسلك معنذلك المسلك العدائى ويوهمنى
بحركاته وتصرفاته أنه يستطيع أن يحل ويربط ، ويدعى تارة أنه لايدرى إلى أين يكون مصيرى
مع أنه كان يعرف ، ثم يتظاهر بأنه لايعرف ، ويمثل دور صاحب السلطان الذى
يستطيع أن يضعنى فى سجن التخشيبية ثم يتفضل بإعفاى منه ويمن على بوضعى فى هذا
السجن؟ ثم قلت لنفسى لا شك فى أنه ما كان مكلفا بما صنعه معنا من غلظة مكبوتة فى نفسه،
وأبنة لاحقه أيضاً فى تفتيش إدارة الشورى والمنزل وإرهاب قرينتى؛ لأن كل الذى كان مكلفاً به
هو أن يسير معى من المكتب إلى السجن ، وهذا صحيح ، لأنى اطلعت على الأمر الذى تلقاه
من رئيسه فلم أجد فيه نصاً على إجراء تفتيش ولا أخذ أوراق ولا مد يد إلى جيوئى، فلماذا
لم أمنعه من أول الأمر، وكان من حقى أن أسأله عن الأوامر التى تخوله أن يقتحم المكتب
والدار وأن يعيث بالأضايير والأثاث وأن يصنع مايشاء، وقد كان عليه أن يضع يانا بالأوراق
التي أخذها وأن أمضى معى على البيان ثم توضع تلك الأوراق فى حرز يصير ختمه بحضورى،
وإلا منعه ، وله عند ذلك أن يستعمل القوة على مسئوليته وهو لن يجراً على ذلك .

بقيت على هذه الحالة إلى الظهر وقد أخذ الجوع منى مأخذه فإذا بالسجان بدخل ومعه
آنية فيها طعام فتأملتة فإذا هو مما تعافه الكلاب ، فاكثفت بقطعة من الخبز وتركت
الباقى للسجان الذى فرح به وانطلق لشأنه قائلاً - أتريد أن آتيك بكتاب تقرأ فيه ؟ فكدت
أطير فرحاً وقلت أممكن هذا ؟ فقال إن بعض المحبوسين يسمح لهم بإحضار روايات وقصص
فكانوا عند خروجهم يتركونها لتسلية من يخلفهم ، فقلت له هات ولك الشكر . وبعد
قليل رجع ومعه رواية « بول وفرجينى » من تأليف الكاتب الفرنساوى برناردين دى
سان بيير^(١) فتناولتها وأخذت أطلعها بلهفة شديدة وهى رواية من القصص الرفيع الأنيق،
وقد نقلها إلى العربية المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى قبل ثلاثين سنة ، ولكنى لم أطلع
على هذه الترجمة ، وأما التى جاء بها السجان فهى مترجمة بقلم الأستاذ عمر عبد العزيز أمين .

(١) هو من مشاهير أدباء فرنسا فى القرن السابع عشر ولد سنة ١٧٣٧ ومات سنة ١٨١٤ وكانت
له قدرة عجيبة على تصوير الوقائع والحوادث وإبراز خلجات النفس وصياغتها بأسلوب يجعل القارى يشعر
بها ويمتزج بإحساسها .

نماذج من أدب سان بيير

وصف الكاتب حالة بول صديق فرجينى وسرد محادثاته مع صديقه العجوز فأجرى سان بيير على لسانيهما الحديث الآتى : قال الحكيم العجوز :

« إن الأشياء التى نراها أمامنا كل يوم لا نشعرنا بمرور الزمن وبسرعة الحياة التى نحياها لأنها تتقدم معنا فى السن تقدماً غير محسوس . أما الأشياء التى نراها فجأة بعد أن تغيب عن أبصارنا بضعة أعوام فإنها هى وحدها التى تندرنا بسرعة التيار فى نهر حياتنا . ولذلك يندهش الغريب النازح ويحزن حين يعود إلى وطنه بعد غياب طويل فلا يجد أصدقاءه ومعاصريه^(١) » .

وقال العجوز فى مناسبة أخرى لما اقترح الشاب « بول » أن يذهب إلى فرنسا ويخدم الملك والوطن فنصحه الشيخ بأن لا يفعل ثم قال :

« كلا يا ولدى ، ومعاذ الله أن أخذك واثبط عزيمتك ، ولكن ما ذكرته لك كان صحيحاً فيما مضى . أما الآن فقد تبدل الحال وأصبح كل شئ فى الدنيا يباع ويشترى .. وصارت جميع المرافق والخيرات وقفاً على عدد قليل من الأسر . ونهبها موزعا بين السادة والنبلاء وقد أصبح الملك فى فرنسا كالشمس ، والنبلاء والساسة من حوله كالسحب تحجب ضوءه عن محتاج إليه أو يستحقه .

« إن أكثر الأسماء العظيمة لم تصل إلينا إلا مشوهة ملطخة بالأوحال . وإذا كانت

(١) يظهر أن « سان بيير » لم يصادف نقطة ثالثة أشد ألماً على قلب النازح العائد إلى وطنه بعد جهاد وغربة قاسية ، حين يجد الزملاء الذين سبقوه فى العودة إلى الوطن قد اقتسموا خيراته ومناصبه وألقابه ، فلما رأوا أصحابهم القديم يعود خائفوا على المغام التى فى أيديهم فتشكروا له وأخذوا ينظرون إليه شزراً ... وهناك من يعود بعد عذاب فى سبيل وطنه فيجد الضعفاء والجبناء قد اقتطفوا ثمرة جهاده ، وأخذوا يكيدون له ويسعون للتخلص منه . وقد شهدت فى حياتى شيئاً كثيراً من هذا ، ومن ذلك ماجرى للدكتور أمين رويحة المجاهد السورى لما عاد من الغربة والمنفى والسجون ، وسأأتى حديثه .

بعض الأسماء قد عاشت على الأجيال حتى ترامت إلينا طاهرة لم تمزقها أنياب الحسد فما ذلك إلا لأن أصحابها عاشوا بمنأى عن مواطنهم .. فهي كالتماثيل التي تنبش من أرض اليونان وإيطاليا كاملة لأن الأرض كفتها فصانتها من غضب الغاصبين وعبث العابثين .

ثم تكلم سان بيير عن الغنى وأدب المستقبل فقال :

« إن الأغنياء لا يقيمون وزناً للأدباء .. ولكنهم يعطفون عليهم . لأنهم يعلمون أن الأدب لا يجلب لصاحبه مجداً في وطنه أو يمهده له منصبا في الحكومة .. أو مكانة في البلاط . »
« إن إحسان الأغنياء لا يصيب إلا الذين يتملقونهم .. وإن لأكثر الأغنياء أقارب أحق بالمساعدة والرثاء ، أما المستقبل فنذا الذي تطيب له الحياة إذا عرف المستقبل . إن مجرد الظن بوقوع الشيء يملأنا هماً وقلقا وإن التأكد من وقوعه يسمم حياتنا . »

هذا مثال مما قرأته لهذا الكاتب الملهم فقلت في نفسي - إذن فمن الخير لي أن لا أفكر في المستقبل لئلا أتصور ما هو أكثر من السجن الذي أنا فيه فتقسم حياتي ...

الفضائع في فلسطين

ومر بدهنى استغفال الإنكليز للعالم العربي وكيف أنهم وهم يملأون البلاد العربية بنشراهم وخطبهم في برلمانهم عن محبتهم للعرب - قد شدوا الحيازيم وحملوا بجيوشهم على أهل فلسطين تقتيلاً حتى في أثناء انهزامهم في معارك أوروبا وفي خلال ادعائهم صداقة العرب ومحالفهم ! وقد وقعت بيدي أسانيد عما صنعوا مع أهل بيت لحم المدينة المسيحية المقدسة في فلسطين ، فقد حدث في أواخر سنة ١٩٣٩ اعتداء من ركاب سيارة عسكرية بريطانية على الأهالي فاشتبكوا مع الإنكليز بمشاجرة أصيب فيها كونستبل بريطاني، فهاجم الجيش منازل مدينة بيت لحم بعد أن طوقها ومنع خروج الأهالي من دورهم مدة عشرة أيام فكادوا يموتون جوعاً وقد سجل ذلك ببلاغ رسمي نشر في الصحف .

شرح موجز

إن الفضائع التي ارتكبها الجيش البريطاني في هذه المدينة المقدسة لا يمكن الإحاطة بها ،

فقد اقتحم الجيش المدينة، ودهم الدور، وضرب السكان نساء ورجالاً وسرق الأموال وسلب حتى السيدات، ومزق الفرش والملابس، وحطم الأثاث والأواني والأبواب والنوافذ والزجاج الخ ثم جاس الجيش خلال الأسواق نخلع أبواب الدكاكين ونهبها وحطم ما فيها وبعثه في الشوارع، وخلط الدقيق بالبتروول والسكر بالزيت والتراب، وأتلف كل شيء في تلك المدينة ثم نسف نحو عشرين داراً للأرباء الفقراء، وختم فظائعه بسوق معظم رجال المدينة إلى السجون وجمع



مثال من نسف وتدمير الإنكليز لمساكن أهل فلسطين



ضباط إنكايز يأمرّون بإطلاق المدافع على القرى الفلسطينية



ضباط المدفعية الإنكليز يستريحون بعد أن دمروا إحدى القرى الفلسطينية بالمدافع

غرامة نقدية بقوة الجنود وقسوتها وشذتها . نعم إنهم ارتكبوا هذه الفظائع والجرائم في أيام الحرب حين كان جنودهم الجبناء يهربون من الألمان كالأرانب ، ولكنهم كانوا يستأسدون على العرب حلفاء بريطانيا ، فياويل العدو والصديق والحليف من بريطانيا ، وإننى أعتقد أنها إن انتصرت في هذه الحرب لاسمح الله فإنها ستنتفاهم مع الألمان والطلليان واليابان وجميع الأعداء ، وتقصر غدرها ولؤمها على العرب وستبرح بهم كما صنعت معهم في الحرب العظمى الأولى حين حالفوها فعدرت بهم ومزقت بلادهم .

ملحق : - لقد وقع القدر وانتصروا ، فأما الذى صنعوه مع الذين نصرؤهم وحالفؤهم فقد أصبح معروفًا ، وهو أشد وأنكى مما تصورت وخمنت ، وأما مع مصر فأبناء الجيل الماضى لم يقاسوا من الإنكليز ما نقاسيه نحن أبناء هذا الجيل منهم ، وقد زاد من الإنكليز هذه المرة من الغدر والمين ما لخصه النائب عبد الفتاح بك سليمان عضو مجلس النواب المصرى سنة ١٩٥٠ بالكلمات الآتية :

« لقد سرقوا من مواردنا وأقواتنا ٤٠٠ مليون جنيه ، أخذوها اغتصابا في خلال الحرب الماضية ثم أنكروا علينا حقنا فيها . . انهم لصوص يسرقون أموالنا ويجردوننا من الأداة التى ترفع مستوى الشعب ، ثم يتهموننا . بأننا شعب منخفض المستوى جائع ، وهم أصل البلاء وعين الداء ، أنهم عملوا على إشاعة الفساد في هذه البلاد . كانوا يحتضنون الرشوة والغش ، حتى تلطخت البلاد بالفساد ، وسادت الفوضى ، ولن يذهب الفساد إلا بزوال الاحتلال البريطانى » .

قالوا الحضارة والدنيا تكذبهم والعدل ينكرهم والفضل والكرم
فلا الشرائع والأديان ترجعهم إلى الصواب ولا الأخلاق والذمم

اليوم الثانى فى السجن

بعد أن فرغت من تلاوة قصة بول وفرجينى ومن تذكر فظائع الإنجليز رجعت إلى التفكير ، وقلت فى نفسى لماذا لا أكتب لرئيس الوزراء من هذا السجن لأنه إن درى بما وقع لى سيأمر بالإفراج عنى ، فأعجبنى هذا الخاطر وقد تذكرت شيئا حدث منذ أيام وهو يساعد

على لفت نظر رئيس الوزراء إلى ، وقبل أن أطلع القارىء على نص ما كتبت للرئيس أحب أن أسرد ذلك الشئ الذى حدث منذ أيام ...

ماهر والنقراشى

قبل حادث القبض على كان أحمد ماهر باشا ومحمود فهمى النقراشى باشا قد أحدثا شقاقا فى الحكومة بسبب تمسك الثانى بمنصب وزير الداخلية الذى أراد الرئيس أن يتقلده هو لتصحيح الموقف الحكومى لأن الحاكم العسكرى العام يجب أن يكون هو وزير الداخلية ليستقيم أساس الحكم . وإلا فكيف يمارس الحاكم العسكرى سلطاته إذا كانت الأمور الداخلية فى يد سواه ، فهل يكتب إلى وزير الداخلية ويستأذنه ؟ .

لذلك طلب حسن صبرى باشا من النقراشى أن يترك وزارة الداخلية ويأخذ بدلها أية وزارة يختارها فأبى ، وقد وقع جدل وخصام بسبب عناد النقراشى باشا الذى لا مبرر له إلا ضيق أفق التفكير فلم يسع رئيس الوزراء وهو مغتاظ من موقف النقراشى وأحمد ماهر وسعيهما المريب لحمل مصر على إعلان الحرب على الألمان إلا أن أقال النقراشى من الوزارة فتضامن معه أحمد ماهر باشا فأقاله أيضا ، وكتب إليهما كتابا تاريخيا كان آية فى البلاغة ، فقد طردهما فيه ووبخهما وشفى القلوب منهما وقد استحسنت لأمة كلهما عمله ، وكنت أنا من جملة الذين كتبوا للرئيس الوزراء يهنئونه على خلاصه وتخليص البلاد من هذين الرجلين أعوان الإنكليز والصهيونية ... ولكنى لم أوقع ذلك الكتاب بامضائى حتى لا يقع بيد الرقابة الإنكليزية أو بيد أحد الموظفين ولكنى اكتفيت بجعل الإمضاء « مصرى من فلسطين » وقلت فى نفسى - عندما أقابل الرئيس بعد أيام فى الميعاد المضروب بيننا سأفتح حديث ماهر والنقراشى وأقول له إننى صاحب تلك التهنئة ...

وبعد ذلك ناديت السجان وطابت منه أن يأتى بورقة وقلم وغلاف فبادر إلى ذلك : أما السبب فى إسراع السجان فذلك أن إدارات السجون مأمورة به إذ لا يخلو الأمر من كون السجين يريد الاعتراف بجريمة أو الإرشاد إلى مجرمين ، فظنوني أريد الاعتراف بشئ فلبوا طلبى كلح البرق ! فكتبت إلى رئيس الوزراء أقص عليه ما صنعته معنا البوليس من تنكيل

وحبس وطلبت التحقيق معي إن كان هناك تهمة ثم أمضيت الكتاب هكذا « محمد علي الطاهر ، مصرى من فلسطين » وقد أعجبني هذا الإمضاء لأننى تصورت أن رئيس الوزراء سيتذكر كتاب التهئة ويعرف أننى صاحبه وأننى فى السجن فيفطن إلى حيلتى ويأمر بالإفراج عني ! ثم سلمت الكتاب إلى الجندى وسألته كيف يصنعون به فقال إنه يرسل رسمياً بواسطة مدير السجن . ولكنى عرفت مع الأيام أن ذلك الكتاب أخذه حمدي باشا محبوب مدير الأمن العام وألقاه فى سلة المهملات ...

أخبار جديدة سارة

قضيت اليوم الثانى كما قضيت اليوم الأول فى تفكير وقلق ومطالعة فى كتب الحوادث والقصص ، وفى اليوم الثالث طلبونى إلى مكتب مدير السجن فقلت فى نفسى هاهو الإفراج ! وأردت أن ألبس البدلة ولكن الجندى قال لا تلبس فليس هناك إلا مقابلة فى مكتب المدير . فذهبت إليه فإذا بزوجى فى المكتب فسلمت عليها وسلمت ، وعرفت منها أنها تعبت كثيراً حتى اهتدت إلى المكان الذى حبسونى فيه كما أنها تعبت فى أخذ الإذن بالزيارة ، ثم قصت على القصص الآتية فقالت : بقينا فى الدار ننتظر إياك أو أى خبر عنك حتى الصبح ، وعند ذلك أخبرت الأصدقاء بما وقع لك فتألم صديقك تحسين بك العسكرى وزير العراق المفوض وتكدر من هذا الحادث ، ثم ركب إلى رئاسة الوزراء فوراً وأخبر الرئيس بما جرى وقال له إن عندنا فى العراق خمسمائة من اللاجئين السياسيين لم تجسر بريطانيا على التعرض لهم ، فإن كان وجود الأستاذ الطاهر يضايقكم وتعتبرونه أجنبياً فنحن نقدم له جوازاً عراقياً لیسافر به إلى بغداد ولا لزوم لحبسه وتعذيبه هنا . فاستغرب رئيس الوزراء وقوع الحادث وأمر بسؤال مدير الأمن العام وبحث المسألة لمعرفة ما إذا كان الأمر مجرد حبس احتياطي بسبب حادث أو أن هناك قضية تستدعى القبض . سمعت هذه الأخبار السارة فهدأ بالى ورجوت إفراجاً قريباً ثم سألت قرينتى كيف اهتدت إلى فى هذا السجن . فقالت إنها والدكتور مصطفى بك بشناق والأستاذ أحمد حسين « رئيس مضر الفتاة » والدكتور يعقوب خورى ذهبوا فى سيارة الأخير إلى عدة سجون فلم يجدونى ، ثم جاؤا إلى سجن الأجانب فوجدونى



الدكتور مصطفى بك بشناق وقد وقفت إلى يساره

فيه وقيل لهم إن الزيارة
تحتاج إلى إذن من إدارة
البوليس العمومية فأعطوها
الإذن وحدها فقط. فقلت
ألم يحضر فلان من رجال
البوليس لإخبارك عن
مكاني فقلت كلا ففطنت
إلى أن الضابط محمد يوسف
منع ذلك الرجل من تأدية
ذلك الجميل . فازداد
تعجبي من تصرفاته

التي لم اهتمد إلى سببها ، ولكني قلت في نفسي لولا هذه الشرائع ما قربه الإنكليز ولا اعتمدوا
عليه ، والذي كان يزيد في اشمزازي من أعمال هذا الضابط أنني لحظت أدب مدير السجن
معنا برغم كونه « خواجه » ويسمى المستر هكان وهو مالطي الأصل مستعرب ومتزوج
من لبنانية ويتكلم العربية البلدية جيداً ، فكان لطيفاً رقيقاً . فقلت في نفسي أما كان الأولى
بالضابط المواطن أن يكون هو اللطيف المؤدب معنا ؟ وبعد حديث قصير مع قرينتي عن أمور
الحياة وعلاقاتي التي انقطعت مع الناس بغتة دبرنا بعض المسائل على أن تزورني في جميع الأوقات
التي يسمح للسجين فيها بتلقي الزيارات فقال مدير السجن إن الزيارة مسموحة كل ثلاثة
أيام ففرحنا بهذا السماح ...

ولما انصرفت زوجي انحنى لها الرجل باحترام ككل رجل مهذب فشكرته على ذلك
وعدت إلى الزرانة ثم طلبت ورقا وكتبت إلى إدارة البوليس العامة أحتج على سوء الطعام
وعلى منع التدخين والصحف والكتب وعلى « ظلام السجن » وفي المساء جاءني المدير
وقال إن الحكومة سمحت لي بكل ما طلبت ، فرجوته أن يأتيني بعشر علب سجائر وبعض
الكبريت والصحف والفاكهة ففعل فكان فرحي بذلك عظيماً وفي المساء أضاءوا لي الغرفة
فصرت أقرأ وأقرأ إلى أن أتعب .

ثم تذكرت شيئاً

نعم لقد خطر ببالى شئ فى تلك الليلة أقض مضجعى وبت بسببه ساهراً قلقاً - وذلك أن الكتاب الذى أرسلته إلى رئيس الوزراء أهنته بموقفه العظيم فى طرد النقراشى باشا وصاحبه ، صديق الحلفاء والصهيونية والماسونية^(١) كانت مسودته فى جيبى وقد أخذها الضابط محمد يوسف مع الأوراق الأخرى فلا شك فى أنه سلمها للإنكليز وهذه المسودة وحدها كافية لأن تثير حقنهم على ، أليس فيها تجريح أعوانهم وتحمية لرئيس الوزراء الذى فضحهم وطرد أعوانهم ؟

وتذكرت أيضاً أننى قبل حبسى أردت أن أقاوم الدعاية الإنكليزية التى تصور الإنكليز أصدقاء للإسلام والعرب ، ورأيت أن تكون طريقتى فى المقاومة مبتكرة ، فأخرجت عشرات آلاف من النسخ القديمة من جريدتى الشباب والعلم اللتين كنت أصدرهما قبل الحرب عن فظائع الإنكليز فى فلسطين وفيها ما يهز القلوب ويشير النفوس وصررت أعطيها تدريجاً لبائع جرائد فقير ليبيعها بحجة أنها نسخ قديمة استغنينا عنها وأن يأخذ الثمن لنفسه فأصبحت أنحاء القاهرة وأنحاء البلاد تعج بتلك النسخ التى حوت عن فظائع الإنكليز بفلسطين ما يكذب دعايتهم ويسود وجوههم ، فكان الناس يقابلون بين إذاعات الإنكليز ونشرياتهم فى أثناء الحرب وبين ما يقرأون عن فظائعهم القديمة فيذكرهم ذلك بحقيقة الإنكليز ، فقلت فى نفسى ألا يجوز أن الإنكليز فطنوا إلى ذلك ؟ وكيف يكون التخلص من هذا الحبس ممكناً بعد أن فضحتهم ؟

(١) كان الدكتور أحمد ماهر باشا رئيساً أعلى للمحفل الماسونى فى مصر ويعرف الناس أن الماسونية هى نخلة يهودية الأصل لا دين لها . ويكفى من عيوب الماسونية أنها تعتبر اليهودى الصهيونى وهو ضعيف كسير أخاً للمسلم العربى القوى ، وأما فى حالة القوة عند اليهودى فالتفسير هو ماجرى بفلسطين... فانضمام أحمد ماهر إلى الماسونية جعله وهو رئيس مجلس النواب يسكت الضجة التى قامت فى البرلمان على اخوانه اليهود بجلسته ٣١ مايو سنة ١٩٣٨ ولولا ماسونيته لما وسعه إلا نصرة العرب والحق ، ولكن الماسونية جردته من خصائصه الطبيعية وجعلت الإسلام يخسره ، والصهيونية تكسبه ...

وفى سنة ١٩٤٤ تولى أحمد باشا ماهر رئاسة الوزارة فوضع قراراً بإعلان الحرب لينفذ أمنيته القديمة فباغته الشاب محمود العيسوى المحامى وأطلق عليه الرصاص فقتله وهو فى طريقه إلى البرلمان فتولى النقراشى رئاسة الوزارة بعد صديقه ورئيسه وأعلن الحرب التى كانت فى آخر أيامها لحسن الحظ ولولا ذلك لدمرت طيارات الألمان هذه البلاد وحطمتها ، ولكن المولى قدر فلطف . وفى سنة ١٩٤٨ قام شاب آخر وقتل النقراشى باشا بسبب قيامه على جمعية الاخوان المسلمين وحلها وتشتيت شملها .

ذنوب أخرى...

ثم تذكرت أعمالاً أخرى قت بها في خلال الحرب ، من ذلك أنني كتبت إلى الأستاذ محمود عزمي رئيس رقابة الصحف العربية في أول الحرب أعاتبه على قبول هذه المهمة الاستعمارية وقلت له إن مثلك في علمه وفضله لا يجوز أن يعرض سمعته للتلاوث بسبب هذه المهمة الكريهة، أنه لذنوب مني عظيم في نظر الإنكليز بلا شك ؛ وكيف لا يكون الأمر كذلك عندهم وأنا أبسط أحد الذين يعلقون أهمية على وجودهم في الرقابة وأفسده عليهم وما الفرق بيني وبين من يتعرض لقوات صاحب الجلالة البريطانية ويدعوها للعصيان ؟ إن عزمي لن يفتح الإنكليز بشيء عن ذلك الكتاب ، ولكن ألا يجوز أن أحد موظفيه سرقة وسلمه للإنكليز ؟ ياترى أيمكن هذا ؟ أم أن عزمي مزق ذلك الكتاب ؟ شيء محير بلا ريب ! ولكن ألا يجوز أن تكون زوجة عزمي اليهودية قد نشلت ذلك المكتوب وبعثت به إلى الإنكليز ؟

الأمير شكيب



المرحوم الأمير شكيب أرسلان

وهناك ذنب آخر في نظر الإنكليز وهو أنني كنت أتراسل أخيراً مع الأمير شكيب أرسلان في جنيف ولكن ليس بشأن السياسة بل بشأن كتبه ومؤلفاته في مصر وكيفية إتمام طبع كتابه « الحلل السندسية » في تاريخ الأندلس ؛ فهل تعتبر تلك المراسلة ذنباً ؟ ولكن أين المحذور وكتبي كانت صريحة وكلها تدور حول إتمام طبع المجلد الثالث من الحلل ، وكانت رقابة البريد تطلع على هذه الرسائل في غدوها ورواحها فلم تعترض عليها بل أجازت توزيعها .

ثم تذكرت حفلتين للشاي أقيمتا في الشهر الماضي خطبت فيهما وبالطبع ذكرت الإنجليز بعودهم القديمة للعرب وطالبتهم بأن يستدركوا ما فات وأن يردوا للأمة العربية حقوقها لتؤيدهم في هذه الحرب ، فياترى هل كان ذلك هو السبب في القبض على ؟ ولكن سواي قال هذا فلماذا لم يعتقلوه ؟

ولكن ألا يجوز أن تكون « ذنوبي » القديمة هي السبب فكانت الخطب الجديدة هي المحرك لعداوتهم ؟ وهناك « ذنب » آخر قد يكون هو السبب ، وذلك أنني كتبت للعراق في أيام نفى الدكتور أمين رويحه في كردستان أحرّك أناساً للاحتجاج على نوري باشا السعيد رئيس الوزراء الذي نكب أمين تلك النكبة ، فيأترى هل درى الإنكليز بذلك ؟ إنه عمل موجه ضد سياستهم وضد أئدرجالهم ، أفلا يجوز أن يكون عملي هذا هو الذي حرّكهم وأثار حقدهم ؟ ثم إن هناك اهتمامي بالدكتور أمين لما سجنوه بفلسطين وكتابتي إليه وهو في سجن عكا واهتمامي بعائلته في مصر ، أفكان هذا هو السبب ؟

لجنة إنقاذ المعتقلين في عهد علي ماهر باشا

بعد أن استعرضت جميع الاحتمالات التي أدت إلى اعتقالي رجعت بذهني إلى الوراء لعلّي أهتمدي إلى السبب ، لأنه لا يهم المحبوس السياسي إلا معرفة سبب حبسه ليتمدي إلى العلاج إن قدر ، وإلا فحسبه أنه فهم لماذا حبس ما دام الحكم في أيام الحرب لا يقولون للمحبوسين السياسيين شيئاً ولا يحققون معهم .

رجعت بالذهن إلى الوراء واستعرضت الماضي فتذكرت لجنة سعت في تأليفها قبل حبسي بمدة قليلة وذلك أنني اتفقت مع عبدالستار بك الباسل عضو مجلس الشيوخ « رحمه الله » على العمل معاً للسعي في إنقاذ المعتقلين السوريين والفلسطينيين من أيدي الإنكليز والفرنسيين ، وكانت الوسيلة أن يدعو عبد الستار بك الباسل جماعة من أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب وبعض الساسة العرب من أبناء الأقطار الشقيقة لشرب الشاي في داره ومذاكرة بعض الشؤون العربية فدعاهم وكان بينهم عبد الرحمن بك الرافعي وأنطون باشا الجميل وعبد المجيد إبراهيم صالح باشا ومحمود لطيف بك والدكتور محمد حسين هيكل باشا وعوني عبد الهادي بك والدكتور مصطفى بشناق بك والشيخ صبري عابدين وغيرهم . وبعد استعراض حالة المعتقلين تألفت من الحاضرين لجنة لمقابلة علي ماهر باشا رئيس الوزراء وإلقاء الأسئلة في المجلسين لمطالبته بالسعي عند سفير بريطانيا ووزير فرنسا المفوض وإقناعهما بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين في بر الشام ، لأن اعتقالهم لا يساعد على استقرار السلام في الشرق الأوسط كما أن إطلاقهم يكون له الصدى الطيب ويطابق ادعاء الدولتين صداقة العرب . وقد تم ذلك الاجتماع بين اللجنة

وبين ماهر باشا ووعد بإلقاء بيان في المجلسين عن مساعيه مع الإنكليز والفرنسيين ، وكان على ماهر باشا ماهراً حقاً فقد أوعز للأستاذ عبد الحليم الغمراوي « المحرر الآن بجريدة الأهرام » بأن يخبرني عن رغبته في تأليف وفد فلسطيني سوري لبناني يذهب إليه في وزارة الخارجية لعرض قضية المعتقلين عليه علناً بقصد إسماع الحليفين أن الضجيج من اعتقال أبناء الأقطار العربية كان عاماً ، فبادرت إلى جمع شمل بعض الإخوان الشاميين ثم أخذت الموعد بواسطة سكرتير ماهر باشا فحدد الباشا موعداً واستقبلنا في وزارة الخارجية فسمع منا عن حالة البلاد الشامية كل ما يريد أن يطلع عليه . وقد حدثت مناقشة دقيقة مع الباشا كان سببها أنني سردت له بعض الأرقام عن فلسطين فقال أليس هذا الرقم يبدو كبيراً ؟ فقلت لا ، ونحن نحتاج كثيراً في ذكر الأرقام أمامكم حتى لا يظهر فيما بعد أننا نبالغ فنفقد ثقتكم ، ثم ضربت له مثلاً بأنه سبق أن سألتني في المقابلة الأولى بالإسكندرية منذ شهر عن عدد المعتقلين في فلسطين فذكرت أنهم نحو ٥ آلاف في حين أنهم كانوا أكثر من عشرين ألفاً . فقال لماذا نقصت الرقم وقتئذ ؟ فقلت إن عدد المعتقلين السياسيين في مصر بأيام الحرب العظمى الأولى كان حوالي مئة ومع ذلك ضجت مصر كلها . تخفت إن ذكرت أن معتقلي فلسطين يبلغون عشرين ألفاً أن لا تصدقوا فذكرت أنهم خمسة آلاف وأنا خائف أيضاً أن يبدولكم العدد ضخماً بالنسبة إلى حجم فلسطين وعدد سكانها ، وقلت في نفسي بوقتها إنكم متى اطلعتم من غيري على العدد الحقيقي أو من قنصل مصر بالقدس مثلاً يكون وقع ذلك في نفوسكم أعظم ، فقال هذا صحيح وقد تبين لي أن عددهم فوق العشرين ألفاً .

وبعد حديث قصير عن أمور أخرى وعد الباشا بأن يخاطب السفير البريطاني ووزير فرنسا المفوض ويطلب الإفراج عن معتقلي بر الشام جميعاً من سوريين وفلسطينيين ، وقد فعل وشدد ولكن لا بريطانيا أفرجت عن أحد ولا فرنسا أطلقت أحداً - لقد مر بذهني هذا الحادث وقلت في نفسي لاشك بأن الإنكليز قد أحسوا بهذه الحركة وأني أقوم بنشاط سياسي لا يريدونه ، فكان ذلك هو السبب في تحريك حقدكم وما أكثر الأسباب التي تثيرهم على الأبرياء في أيام الحرب .

هزيمة الطليان

وفي أثناء ذلك كان الطليان يزحفون في الأراضي المصرية ويحتلون من أرضها شقة صحراوية غربي الإسكندرية عند (سيدى برانى) وكان الناس يتصورون أنه لا تمضى أيام إلا والجيش الطليانى البالغ عدده أكثر من مئتي ألف جندي يكون قد دخل الإسكندرية ، وإذا بمعركة حربية تدور قتلنا هاهى الآزفة قد أزفت ، ولم يمض إلا أسبوع حتى كان الطليان أخزاهم الله يهربون أمام الإنكليز كما هرب الغنم ! مع أن عدد الإنكليز كما ثبت بعد الحرب وبعد أن انكشفت الحقيقة لم يكن يزيد على الثلاثين ألفاً ! لذلك لم نستغرب أن يصمد أهل طرابلس وبرقة أمام الطليان عشرين سنة ، فلو كان عند الطليان عقل الإنكليز وصبرهم لما قاومتهم طرابلس على شجاعة أهلها أكثر من بضع سنين .

وقد بلغت هزيمة الطليان حداً مدهشاً لأنهم ظلوا يتراجعون هاربين من الإنكليز نحو ألف كيلومتر ، وأخذ البريطانيون معظمهم أسرى وغنموا أسلحتهم وعتادهم فكانت نكبة ويالها من نكبة . وفي الحقيقة أن وجوهنا قد شامت لهذه الكسرة ، لاجباً في الطليان الجلادين الذين ذبحوا الطرابلسيين ولكن كرها للحلفاء الذين يبيتون الهلاك للعالم الإسلامى كله .

أيام السجن أيضاً

— لحظت أن السجنانيين قد تكدروا لهزيمة الطليان لأن معناه بقاء إنجلترا في مصر ، وهذا أمر يفهمونه بإحساسهم وغريزتهم ، فكل شيء يهون في نظرنا إلا بقاء الإنكليز فيها . وهل يمكن أن يعيش الشرق الأوسط بسلام إن بقيت إنجلترا في مصر ؟ معاذ الله !

— أخذ متعهد توريد الطعام للسجن يقدم لنا طعاماً قبيحاً مع أنه يأخذ عليه ثمناً جيداً وخصوصاً ثمن طعامى أنا فقد تخصص له أكثر مما هو مخصص للمسجونين الآخرين ، ومع ذلك صرت أطلب طعامى من يدي مع صعوبة ذلك على لما يقتضيه من عناء ومال ونحن في حالة مالية غير مطمئنة ، بينما المفروض على جميع حكومات الدنيا إن اعتقلت أحد الناس سياسياً أن تقدم لعائلته مرتباً يتناسب مع مكانتها وحالتها ، أما نحن فلم يعرض علينا شيء لا من قبل الإنكليز الذين كانوا يرون مصلحتهم في حبسى ولا من قبل الحكومة المصرية التى كانت تقول إن الإنكليز هم الذين طلبوا حبسى ، ولذلك ضعنا بين السلطتين . وكان حمدى باشا محبوب

مدير الأمن العام يصرح بذلك أمام كل من يراجعه بشأنى فيقول «نحن لا يد لنا فى حبسه، فقد قالت لى حكومتى نفذ للإنكليز ما يريدون فأنا أصدع بأمر حكومتى» ولكن أمعقول هذا؟ وكيف ترضى حكومة فى الدنيا بهذا العمل المهين لكرامتها والمتقص لاستقلالها وسيادتها؟ وماذا جرى للأمر الذى أصدره على ماهر باشا بعدم اعتقال أحد إلا بأمر الحاكم العسكرى؟ لقد ظهر أن الحاكم العسكرى الجديد لم يأمر بحبسى ولا أمر بإلغاء أوامر على ماهر باشا، فهل يكون حمدى محبوب قد أخفى ذلك الأمر؟ أم أنه اعتقد أن مجرد ذهاب حكم على ماهر يذهب بأوامره أيضاً؟ ولكن لماذا يستमित حمدى محبوب فى إرضاء الإنكليز إلى هذه الدرجة؟ يارب ماهو السبيل إلى أن أعرف على أى وجه طلبوا حبسى وبأى طريقة طلبوا تنفيذه، لأن هذا كان غريباً، ولا سيما أنه لم يعتقل أحد سياسياً فى مصر سوى، فلماذا كل هذه العناية بى ...

مساعى أحمد شفيق باشا^(١)



المرحوم أحمد شفيق باشا

بلغنى وأنا فى السجن أن الأستاذ أحمد شفيق باشا قد تكدر حين بلغه نبأ حبسى وأنه برغم ضعف صحته وشيخوخته إذ كان قد أربى على الثمانين واحتجب بصره، قد بادر بالذهاب إلى الوزراء الذين تربطهم به وتربطنى صداقة قديمة وأخبرهم باعتقالى على ظن أنهم سيندهشون ويستاءون ويعملون على فك أسرى أو السعى لتخفيف عذابى ومنهم مصطفى باشا عبدالرازق وزير الأوقاف، والدكتور حسين هيكل باشا وزير المعارف. ولكن شفيق باشا لم يلق منهما ما كان يرجوه من اهتمام فتركهما أسفاً متألماً، وقد سبق للمرحوم الزنكلونى أن كتب وهو على فراش الموت كتاباً

(١) هو المرحوم أحمد شفيق باشا المؤرخ الشهير وكيل جمعية الرابطة الشرقية الذى كان رئيساً للديوان الخديوى وقد توفى رحمه الله وأنا فى السجن فحزنت عليه حزناً شديداً لما كان ينطوى عليه قلبه من الإنسانية وعلاو الهمة والوفاء، وكان آخر لقاء بينى وبينه فى قصره بشارع الملك وكان عليلاً منهوكة ففرح بزيارتى له فى ذلك اليوم وكان قبل هذه الزيارة بأيام قد زارنى بإدارة الشورى وأهدى إلى المجلد الخامس من كتابه التاريخى الكبير «مذكراتى فى نصف قرن» الذى أرخ فيه كشاهد عيان كيفية وقوع مصر بيد الاحتلال البريطانى رحمه الله وأسكنه فسيح جنته.

إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا يقول له إن صديقك أبا الحسن هو حبيبي في هذه الدنيا وأنت تعرف ذلك فلا أطيق أن أسمع أنه في السجن . ولكن لا الشيخ مصطفى اهتم ولا الدكتور هيكل اهتم ، فما وفيا لصديقيهما السجين ، ولا لصديقيهما الوسيط ، ولا لكرامة الحكومة الوطنية التي انتمت لأن إيماز الإنكليز لها بالقبض على الأبرياء - أو غير الأبرياء - هو اعتداء صريح على استقلالها وسيادتها . فكان الواجب رفضه لا التفاني في تنفيذه .

الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا

بعد أن بلغني جمود الشيخ مصطفى سمعت أن موقفه كان أغرب من ذلك فقد قال لمن كلموه في أمر حبسي إن الحكومة قد خدمت السيد الطاهر خدمة عظيمة وهو لا يدري ... ولما سأله البيان قال إن الإنكليز طلبوا تسليمه إليهم ليحاكموه في فلسطين ولكننا منعنا تسليمه وأبقيناه في مصر محافظة منا عليه ! وهذا كاه غير صحيح ، لأن حكومة فلسطين لا علاقة لها بي ولا علاقة لي بها فلا أنا من رعاياها ولا ارتكبت ذنباً في أرضها، وإنما أراد الشيخ مصطفى أن يستر تقصيره شخصياً مع صديق قديم له خوفاً على منصبه كما يتوهم فإذا به ينزلق ويتولى الدفاع عن الإنكليز واختلاق العذر لهم وإعطاءهم الحق في التهجم على سيادة مصر ، لأنني على كل حال لا أعدو أن أكون فلسطينياً فلا يجوز تسليم اللاجئين ولا حبسه لحساب الأجانب أو أكون مصرياً فلا يجوز لأجنبي أيا كان أن يطالب حكومة مصر باعتقال المصريين بدون ذنب، حتى ولا بذنوب أيضاً، مادامت البلاد مستقلة ولها حكومتها وقوانينها، وقد سبق للإنكليز أن طلبوا ذلك من علي ماهر باشا فرفض . وسبب ذلك أن وزارته كانت وزارة شريفة تغار على كرامة البلاد وتعرف أن تقول للإنكليز لا ، ولذلك قلبوها وطاردوا رئيسها ثم عملوا على اعتقاله هو ومساعدته وصديقه محمد صالح باشا حرب المجاهد القديم الذي كان مع علي ماهر باشا وزيراً للحربية فاعتقلوه أيضاً ونفوه إلى أسوان، فلولا رجولة هؤلاء الناس الذين يعرفون كلمة « لا » لظلوا في الحكم ولما وصلت الوزارة إلى الشيخ مصطفى وأمثاله الذين لا يعرفون أمام الإنكليز إلا كلمة نعم ، بل وصل الأمر بالشيخ مصطفى أن اختلق حكاية طلب حكومة فلسطين تسليمي وهذا غير صحيح مطلقاً ، ثم أخذ يمين علي بوضعي في السجن أيضاً ! ويدافع عن الذين اجترحوا ذلك الوزر ليوهم الناس أنه يحل ويربط في الدولة ، وهو في الحقيقة لم يؤخذ

رأيه في ذلك، بل ارتكبه ونفذوه وهو لا يدري، ولولا مذكرة المرحوم الزنكلوني التي أرسلها إليه ما كان درى بشئ، لأنه كان في الوزارة كما قال الشاعر :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود ...

بل لو استشاروه في اعتقال شقيقه لوافق على ذلك ، فهو لم يؤخذ لكرسى الوزارة إلا لكونه يرضى بإقرار الإنكليز على عبثهم بحقوق البلاد ولأنه من الذين يقولون لهم نعم ، وإلا فلماذا أسقطوا وزارة علي ماهر ؟ أسقطوها لأنها تعرف أن تقول عند اللزوم لا ، وجاءوا بوزراء ضعفاء من الطبقة الثالثة ليقولوا نعم ، ثم يبررون للإنكليز عدوانهم على سيادة البلاد ، بل ويدافعون عن ذلك العدوان ...

هواجس وتلغراف

لقد طالت الأيام وأنا في السجن ، لا تحقيق ولا إفراج ولا أمل بالإفراج ، ولا أدري لماذا صرت أفكر في طفلتنا في الآونة الأخيرة أكثر من المعتاد ، فيأتري هل أصابها ما أكره ؟ لا حول ولا . - وبعد ذلك طلبت من السجن ورقاً وقلماً فكتبت إلى رئيس الوزراء برقية وكلفت مدير السجن أن يرسلها على حسابي ثم عملت على إرسال نصها إلى رئيس الوزراء من طريق آخر لأنني صرت أشك في وصول ما أكتبه ، وقد أرسلت سورة البرقية سراً إلى صديقي الأستاذ أحمد حسين المحامي المجاهد رئيس حزب مصر الفتاة فأرسلها إلى رئيس الوزراء على الشكل الآتي : -

حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء :

أتشرف بأن أرسل لدولتكم بصفتي محامياً عن الأستاذ محمد علي الطاهر المسجون بسجن الأجانب صورة من برقية أرسلها لكم الأستاذ المذكور من السجن ولما كان يخشى أن تكون هذه البرقية لم تصل إلى يد دولتكم فقد كلفني حضرته عن طريق السيدة حرمه أن أعيد تبليغ هذه البرقية لكم وهذا نصها .

دولة الحاكم العسكري العام بالقاهرة : لست خائناً لبلادى لأستحق من حكومتى المصرية إهانة الاعتقال والتنكيل ، فأرجو صيانة لشرفي الوطني أن أحاكم أو أطلق شاكراً عدالتكم .

محمد علي الطاهر

وإني أُنْهَز هذه الفرصة لأُضْم صوتي إلى صوت الأستاذ المذكور فقد عرفته البلاد المصرية والعربية مجاهداً صادق الجهاد عن قضية مصر وجميع الأقطار العربية . فإذا كانت الحكومة المصرية قد اكتشفت من أمره ما يريب فقد وجب أن يمكن من الدفاع عن نفسه ودولة الحاكم العسكري الذي عاش طول عمره محامياً يعرف مقدار المرارة التي يشعر بها المجاهد المسجون الذي يحرم من نعمة الدفاع عن نفسه .

أما إذا لم يكن لدى الحكومة من الأدلة ما يكفي لمحاكمته فما أسهل أن يطلق سراحه على أن تأخذ عليه الحكومة الضمانات والاشتراطات السياسية التي تطلبها . وفي انتظار تصرف دولتكم أرجو أن تتفضلوا بقبول فائق احترامي :

أحمد حسين المحامى

٢٠ أكتوبر ١٩٤٠

الشيخ مصطفى عبد الرازق أيضاً

أما وقد ذكرت ما كان من الشيخ مصطفى فإني أكمل الحديث عنه الآن بدون حاجة للرجوع إليه مرة أخرى لأنني أحب أن يرى الناس كم يعاني الإنسان من الأصدقاء وإنه لأشد إيلاماً من تبريح الأعداء .

فقد علمت بعد زوال المحنة من الأستاذ « محي الدين ... » أنه لما درى بحبسي ركض إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا وقص عليه النبأ وهو يظن أن الشيخ سيقوم غضباً ولا يقعد إلا وأنا في خارج السجن ... فإذا بالشيخ الوزير السياسي العظيم يقول للأستاذ محي الدين : نعم، لقد عرفت بالحكاية ولكنهم وجدوا عند الأستاذ الطاهر ١٣٠ جنيتها كان يريد أن يستعين بها على الهرب من مصر نحو الألمان . يعني أن الشيخ استكثر أن أملاك ١٣٠ جنيتها ! وإذا كان عندي مثل هذا المبلغ فلا تفسير لوجوده معي إلا أنني أعددت له الهرب من مصر نحو الأعداء !

وأغرب من هذا أن الشيخ مصطفى قال للدكتور منصور فهمي « الذي صار باشا مع الأسف » أن البوليس وجد عندي أوراقاً ... فكتبت لمنصور من السجن ورقة قلت له

(٤ - ظلام السجن)

فيها إنهم لو قتشوا منزل الشيخ مصطفى نفسه الذي تلطخت يده بالمداد الذي سطروا به قرار حبسى لوجدوا عنده أوراقاً ، وكل الناس يحرزون ورقاً وعندك أنت كذلك ، فهل معنى هذا أنه يجوز لكل المخلوقات أن يقتنوا أو يحتفظوا بأوراقهم ماعداى ؟ وكيف لا يكون مكتبي مشحوناً بالأوراق وهو إدارة جريدة لا يكون فيها عادة إلا الورق والأضابير والمحفوظات ؟ يعنى أن الشيخ مصطفى لم يكتف بحذلانه إياى بل أخذ يستر فعلته وتقصيره بنشر الدعاية ضدى والزعم بأنى أستحق الحبس وأن الإنكليز من حقهم أن يأمرؤا بحبسى وأن الوزارة التى يشترك فيها الشيخ معذورة فى إطاعة الإنكليز وارتكابها ذلك الوزر بالتنكيل بى وبأهل بيتى ...

أيام السجن

لقد ضاق صدرى من السجن كثيراً لاسيما أن معظم جنود السجن كانوا من الجنود القدماء الذين لا يفهمون إلا أوامر ضباطهم فقد ضايقونى بتطبيقهم الحرفى لقانون السجن وتعليماته الشاذة حتى بلغ من أحدهم أن طرق باب « بيت الخلاء » يستعجلنى ويقول لى إن الوقت قد انتهى ...

— لا يدعى السجنانون أستغرق فى تفكير أو أن أشعر بوحدة حقيقية لأنهم يأتون بغتة إلى « النظارة » وهى خرق فى الباب ويتطلعون على مسترقين النظر فلم أستغرب ذلك لأنهم من جنود بوليس الجواسيس ومن طبيعتهم حب الاستطلاع ...

— لا يتركنى السجنانون أستغرق فى نوم متواصل لأنهم يشعلون النور فى كل ساعة ويتطلعون على وأنا نائم ، فأستيقظ منزعجاً . وقد استفهمت من بعض الجنود عن سبب ذلك فقالوا خوفاً على السجنين من أن ينتحروا ...

— زارتنى قرينتى هذه المرة وحدها فسألت عن طفلتنا « جهاد » وكان عمرها ثمانية أشهر فقالت إنها مريضة وإن الطبيب وصف لها الدواء وأن حالتها لا تدعو إلى القلق ، فلم يعجبني هذا التعبير ، ولذلك انشغل بالى عليها كثيراً ولم أشأ أن أزعج قرينتى بإظهار القلق ، فما أشقى قلب الوالد .

— حدث لي ألم في أذني فطلبت الذهاب إلى الطبيب على حسابي فأجيب طلي بعد إلحاح ونكد. وقد رافقني الضابط توفيق افندي عبد القوى من بوليس مصر وهو رجل طيب جداً وفيه إنسانية ولطف وكان طبيبى الدكتور سليم جوده على جانب كبير من الوفاء فغمزته ليقرر وجوب رجوعي إليه مرتين أيضاً فكتب تقريراً بذلك ، ثم طلبت منه أن يستدعى الدكتور يعقوب خورى لزيارته في الساعة التى أكون فيها عنده ففعل .

— ذهب وفد من أصدقائى إلى رئيس الوزراء وطلبوا منه إطلاق فوعد بالنظر فى ذلك، وكان الوفد مؤلفاً من الدكتور مصطفى بشناق بك ، والشيخ صبرى عابدين ، وأمين افندى العورى .

— بعث لى المجاهد اليماني الشيخ أحمد محمد نعمان أنه عائد إلى اليمن بطريق الحجاز بصفة حاج وأنه من هناك سيتسلل إلى اليمن ، وطلب أن أبعث إليه بمقترحاتى فأرسلتها إليه سراً ، فسافر وقام هو واخوانه بين الحجاج بالدعاية ضد الاستعمار ونددوا بالإنكليز لحبسهم إياى وخطبوا فى «منى وعرفات» وقد جاء منه كتاب عما صنع ووصل كتابه إلى فى السجن سراً .

— بعث لى الأستاذ أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة بأنه مسافر لتأدية فريضة الحج ويطلب أن أوصيه بما أريد. فأرسلت إليه سراً بأمور أحببت إيصالها للحجاز ثم نصحت له بأن لا يعود إلى مصر إلا بعد الحرب ، وأنه إن عاد لمصر فلا بد أن يعتقله الإنكليز « ولكنه خالفنى ورجع فقبضوا عليه وعذبوه وأمضى مدة الحرب بين المعتقلات والسجون ثم هرب واختفى ولقى الأهوال وقد وضع مذكرات عما جرى له ونشرها بجريدة مصر الفتاة ثم جمعها فى كتاب »

— النور فى السجن ضئيل ، وقد أثر على قوة بصرى فأضعفها ، فصرت أتناول صحناً من القاشانى وأجعل وجهه أمام النور لتنعكس أشعته على صفحة الكتاب وبذلك استطعت المطالعة ليلاً !

— سمعت صوتاً ينادينى بقوله «ياأبو الحسن» فقلت نعم ! ولكن اتضح أن أحد السجنانيين كان اسمه أبو الحسن وأن زميلاً له كان يناديه . وكان هذا السجنان من عجائز البوليس وكان بنشوفة دماغه يتعبنى كثيراً .

— كان ظلام الغروب يضايقنى فوق الوحدة الأليمة، فكنت إذا جن الظلام أترنم بأنشودة

« يا ظلام السجن خيم » وهى من وضع الصحافي السوري المجاهد السيد نجيب الريس صاحب جريدة القبس الدمشقية وكان قد نظمها حين اعتقلته فرنسا منذ سنين .

— ذهبت مرة أخرى إلى طبيب الأسنان وكان الضابط عبد العزيز حجازى أفندى يصاحبني هذه المرة فذهبنا في الترام فلقيت الدكتور يعقوب خورى ينتظرني في عيادة طبيبي فتحدثنا عن كل ما أريده وقد أفسح لنا الضابط حجازى المجال لتحدث كما نريد وقد خطر لي أن أفر لما ذهبت لحل الماء وأن أتسلل من باب العيادة الخلفى تاركا الضابط ينتظر ! ولكنى كرهت ذلك خوفا من أن ينتقموا منه بسببى بعد أن سبق جميله معى لاسيما أنه أظهر نحوى إحساسا طيبا حين عرض على ونحن في الشارع أن يقرضنى ما أريد من الدراهم لأشتري ما أحتاج إليه ، فكيف أهرب وأجازيه على لطفه ومروءته بالغدر وأتركه عرضة للتكيد ؟

— لما سمع صديق الأستاذ إلياس أنطون إلياس صاحب المطابع الشهيرة ومؤلف القاموس العصرى نبأ حبسى أظهر إحساسات كريمة وبعث لى فى السجن بمقادير كبيرة من الكتب العلمية والأدبية والروايات .

— سافر تحسين العسكرى بك وزير العراق المفوض بمصر إلى بغداد بالاجازة وأخبر أصدقائى فى فلسطين ولبنان وسورية والعراق بما حدث لى فنشرت بعض الصحف هذا الخبر ملطفا بسبب الرقابة وبعضها نشرته مستنكرة محتجة . ثم بلغنى أن برقيات ومضابط أرسلت من تلك البلاد إلى رئيس الوزراء هنا بالاحتجاج على حبسى ، ولكن صحف مصر لم تستطع نشر حرف واحد لأن الرقابة كانت صارمة جداً من هذه الناحية .

— ضجرت من طول السجن فدعوت مديره وقد ذكرت أنه رجل طيب وسألته : ألم يحضر إلى مكتب السجن أحد من كبار رجال الدولة الذين أمروا بحبسى ؟ فقال : لماذا ؟ فقلت : لأنى أريد أن أهينه وأن أضربه وأقول له : قبل أن تأمر بحبس الناس يجب أولاً أن تجرب ما هو السجن ، أما أن تأمر بحبسهم وأنت مستريح فى مكتبك تأمر وتنهى وتعذب العباد فهذا عمل وحشى ، لأن السجن هو إهدار لكرامة الإنسان من حيث هو إنسان .

رمضان في السجن

لحظت أنه لا يصوم في السجن إلا شخص واحد من أهل الواحات ، لا يدري أحد ماهي تهمته. ولكنه على كل حال من المحبوسين السياسيين ، وقد عرفت بصيامه من « قلة » ماء كان يضعها أمام غرفته لتبرد. ثم استفهمت عنه فعلمت أنه غريب منقطع لا يزوره أحد ، وأنه فقير وأنه يتنازل لأحد السجنائين عن بعض طعامه لقاء أربع سجائر في اليوم، فحزنت لحاله وصرت أبعث إليه بعض الطعام، وكنت كلما خرجت من غرفتي غافلت الحارس ودسست لذلك السجنين من تحت الباب بضع سجائر ولسان حالي يقول - أجارتنا إناغريبان هاهنا ... الخ والظاهر أن صاحبنا أصبح يعرف ميعاد وضع السجائر فصار ينتظرها ويبادر إلى سحبها إلى الداخل بمجرد دسها تحت الباب ، وفي إحدى المرات سمعته يطلب كبريتا ، فقلت في نفسي لقد ظلمنا الرجل لأن السجائر بلا كبريت كالصدقة بلا وفاء ! فصرت بعد ذلك أدس له تحت الباب أعواد الكبريت أيضا ..

وبعد أيام سمعته من وراء الباب يحيني ويدعوني بطول العمر ، فهزرت رأسي ، ورددت قول المعتمد بن عباد ملك أشبيلية لما دعا له أحدهم بطول العمر وهو أسير بقوله :

دعا لي بالبقاء وكيف يرجو أسير أن يطول به البقاء

أخبار طيبة

بلغني أن رئيس الوزراء حسن صبرى باشا قد أمر بالإفراج عني بشرط أن لا أقوم بعمل أو نشاط سياسي . وأن إطلاقي سينفذ يوم وقفة عيد الفطر ، ففرحت فرحا شديداً ولم أنم في تلك الليلة ولم أطلع كتباً طول اليوم التالي مترقباً نبأ الإفراج ، وصرت كلما سمعت دقا على الباب الخارجى ظننت أن رسول الحكومة الذى يحمل أمر الإفراج هو الطارق ، وكما سمعت رنين جرس التليفون في مكتب مدير السجن تصورت أنه أمر الإفراج، فأنصت وأنتظر، وإن سمعت مشيا في طرقات السجن أو أحسست أن مزاليج الباب الكبير تتحرك أرهفت سمعى ، وإن مس أحد السجناء أو الحراس باب زنزانتي ظننت أن السجنان سيفتح الباب ويقول لى تفضل والبس ملابسك فقد جاء الفرج ! ثم أتصور السجنان يقولها بلطف وحياء

انتظاراً « للبقشيش » فأقول في نفسي سأعطيه وأعطى زملاءه بمجرد انطلاق واسترداد نقودي المودعة عند مدير السجن ...

ولكن أمر الإفراج لم يصل ، والفرج لم يعرف طريقه إلى ، وقد بقيت أرهف سمعى وجميع حواسى لكل حركة تقع فى السجن ، ومضت أيام وأنا فى هذه الحالة حتى كادت أعصابى تتلف من ألم الانتظار، ومع ذلك ظل هذا الخيال يراوحنى ويغاديني إلى أن بدأ اليأس يدب إلى نفسى ، فصرت أعللها بأن الحكومة تعطل يوم الوقفة أعمالها ، وكذلك أيام العيد، ولكن كيف أستطيع الانتظار مدة العيد وأنا الآن محبوس سهواً وبسبب إهمال الموظفين وسماجة « الروتين » الحكومى البطيء ؟ لقد كان هناك أمراً حقيقياً بالإفراج لاشك فيه ... ولكن أين هو ؟

تلغراف ...

وهنا خطر لى خاطر أعجبني ، وهو أنني قرأت فى الصحف أن رئيس الوزراء قد سافر إلى قريته « الصبرية » للاستراحة فى أيام العيد فيجب أن أشكو إليه ، فكلفت زوجى عند زيارتها لى بأن ترسل إلى الرئيس برقية تخبره فيها بأن أمره لم ينفذ وأنهم أبقوني فى السجن مدة العيد أيضاً بدون سبب ، فأرسلت التلغراف إلى الصبرية ولكن بلا جدوى .

وكانت زوجى ومعها شقيقتى فى الدار تترقبان الإفراج عني بين لحظة وأخرى ، فكاتنا تجلسان فى الشرفة لمراقبة كل سيارة أجرة تصل إل حديقة العمارة التى نساكنها ، ثم ترهفان السمع إلى جرس الدار لعله يقرع وأكون أنا القادم ، ولكن الجرس لم يدق ، لأن القادم المنتظر لم يصل . وبقيت شقيقتى وزوجى على هذا الحال المقلق بضعة أيام .
تماماً كما أصابنى أنا من مرارة الانتظار ...

شطحة !

أظن أن القارىء قد تضايق مثلى من حوادث السجن والحياة فيه ، ولذلك أحب أن أنتقل به معى إلى ما كان يمر على الذهن من خواطر عن الحوادث الماضية من سياسية وغيرها ، فهذا الانتقال أدعى إلى تخفيف الضجر الأليم .

لقد صورت فيما سبق كيف كانت الحالة في الدنيا قبيل الحرب وفي أول الحرب، ثم وصفت كيف وقع حبسى والجو الذى كنت فيه ، وأحب الآن أن أشرك القارىء معى فيما كنت أفكر فيه ، وكيف كنت أرى الأمور الجارية في الدنيا وتعلقى عليها ، وماذا كان يدور فى رأسى من الذكريات والتذكريات، ثم أعود إلى وصف حياة السجن . ولذلك أرجع إلى خواطر سابقة فأقول :

استطراد عن على ماهر باشا

إن على ماهر باشا مع قرب عهد اتصاله بقضية فلسطين ، كان من أعظم السياسيين المصريين الرسميين اهتمامها بغيره عليها ، والذى أعرفه أن اتصاله بقضية فلسطين بدأ عمليا من أوائل سنة ١٩٣٩ لما كان رئيسا للديوان الملكى، فانتدبه جلالة الملك فاروق الأول للسفر مع الوفد الرسمى إلى مؤتمر لندن الذى حضرته الدول العربية بدعوة من انكلترا ، وكان وفد مصر برئاسة سمو الأمير محمد عبد المنعم نجل الراحل الخديو السابق ، وقد أظهر ماهر باشا من الاقتدار السياسى فى ذلك المؤتمر ما لا يستطيع وصفه . ولما عاد ماهر باشا إلى القاهرة بالطيارة ليسبق عودة الوفود لإطلاع جلالة الملك المعظم على نتائج أعمال المؤتمر ساعدت فى ترتيب استقباله فى محطة مصر فكان استقبالا عظيما وقد قابله جلالة الملك فور وصوله .

ذكاء على ماهر باشا

وفى اليوم الثانى ذهبت مع عطوفة الأمير شكيب إرسالان والمجاهدين الفلسطينيين أحمد حلمى باشا والسيد رشيد بك الحاج ابراهيم بعد رجوعهما من سيشل - وكانا يقيمان وقتئذ فى مصر، ذهبنا إلى قصر عابدين بصفة وفد لتحية على ماهر باشا وشكره على جهاده من أجل فلسطين ، فحدثنا عما كان فى المؤتمر بعد أن أخذ علينا العهد بأن نكتم ما نسمع لأنه يعتبر من أسرار المفاوضات الدولية . وقد خطر لى بوقتها أن أحمل الباشا على الإفشاء بأشياء كنت أعتقد أنه يكتتمها ولا بد له من كتمانها ، فاختلقت « كذبة » سريعة لإثارته وحمله على الكلام، فقلت له إن صحف اليهود فى فلسطين نشرت أنكم اختلفتم مع الوفود الأخرى فى لندن وأنه حصل جدل ومشادة بينكم وبين الوفد الفلسطينى... فإذا بالباشا ينتفض ويلتفت إلى بسرعة ويسألنى باهتمام أن أعيد عليه ما قلت ، وكان يتكلم بشكل يدل على أنه كان يرتاب بصدقى، وهنا

أدركت أهمية ماحدث منى فأخذت أعيد عليه كلامى حرفا وحرفا وبيطاء شديد حتى لا أغلط فيفطن إلى التلفيق ، فلما أعدته عليه سكت لحظة ثم أفضى إلينا بما كان يحتفظ به من سر فقال : إني لما رأيت سوء نية الإنكليز وأنهم لا يريدون حل قضية فلسطين وأنهم يقترحون أمورا لا يمكن الموافقة عليها أردت أن أكشفهم علنا وبشكل رسمى . وكانت عقدة المهاجرة اليهودية أهم شئ فى نظرنا فقد اقترح الجانب البريطانى أن نسمح بدخول ٧٥ ألف يهودى لفلسطين فى خلال ٥ سنين وبعد ذلك تمنع الهجرة ، فرفض الجميع دخول ذلك



صورة الوفد عند مغادرته قصر عابدين ، ويظهر من يمين الفارى : رشيد بك الحاج إبراهيم فالأمير شكيب أرسلان فاحمد حامى باشا فمحمد على الطاهر

العدد الكبير من اليهود إلا أنا ، لأنى كنت أريد أخذ إمضاء بريطانيا على صك رسمى يحدد الهجرة ويغلق أبواب فلسطين ، ولا خوف بعد ذلك على البلاد ، وهنا حصل تشاد بيننا فأنحازت جميع الوفود إلى وفد فلسطين وبقيت وحدى أدافع عن وجهة نظرى ، وأخيراً وافقونى ، فلما قلنا للإنكليز إننا نوافق على اقتراحكم وتقبل هجرة العدد الذى تطلبونه ، إذا بهم ينكرون ويعلنون فض المؤتمر ، وبذلك صحت نظريتى فى الإنكليز وأنهم قوم لا يتبنون فى أمر ولا يمكن إمساكهم من ناحية . وبعد أن أفضى الباشا بهذا السر طلب منى كتمانته ففعلت ، ولكنى لا أظن أن الكتمان يجب أن يمتد إلى أكثر من عشر سنين ... وبعد ذلك ودعنا الباشا وغادرنا قصر عابدين .

كيف تأمروا على فلسطين سنة ١٩٣٩

والحقيقة أن أميركا كانت السبب الأكبر في إخفاق مؤتمر لندن ، لأن يهود أميركا الذين يسيطرون عليها وعلى رئيسها فرنكلين روزفلت - وهو على ما يقال يهودى العرق وكانت عائلته تسمى عائلة « روزفلد » - أو عزوا إليه أن يعرقل الاتفاق فأرسل برقية مستعجلة إلى سفيره المستر كندى في لندن ليحول دون أية تسوية . وها انى أثبت هنا برقية وردت من لندن في ٢٧ فبراير ١٩٣٩ وهى .

« قرر اليهود في اجتماعهم اليوم رفض المقترحات البريطانية . واجتمع الوفد البريطانى بالوفود العربية قبل الظهر ولم تعرف النتيجة لأن الجانبين تمسكا بالصمت التام . وقد أحدثت أنباء فلسطين وقعا شديداً في دوائر لندن ، وقابل سفير الولايات المتحدة المستر كندى اليوم وزير الخارجية الموردها ليفكس وسأله عن حقيقة المقترحات البريطانية . ولا بد من الملاحظة بأن انكلترا لا تستطيع أن تتصرف بالانتداب على فلسطين قبل الحصول على موافقة الولايات المتحدة . »

إننى لا أشك في صحة نظرية ماهر باشا في الإنكليز فهم قوم محتالون مضى عليهم ثلاثة قرون وهم يكذبون على الشعوب ولا يبتون في شئ من مصاير الأمم بتأ صيحجاً ، ولكنى أردت بإثبات البرقية المتقدمة أن أكشف جانباً آخر من أسباب إخفاق مؤتمر لندن ، لأن فضه بلا نتيجة سواء أفعال الإنكليز ذلك من تلقاء أنفسهم أم بضغط أميركا يجعل الإنكليز مسئولين عن ذلك ، كما أنهم مسئولون عن نكبة فلسطين من أولها إلى آخرها ، وعن تمكين أميركا وغيرها من التدخل بأمور فلسطين . وقد قال المثل « ليس الحق على الذى زرع السطح بل على الذى أعطاه البذور » .

وما دمنا تحدثنا عن على ماهر باشا فمن الحق التاريخى له أن أثبت رسالتين تبادلتاها بشأن فلسطين ، وذلك أننى قبل إعلان الحرب بأربعة أيام اغتنمت فرصة اضطراب الإنكليز وخوفهم من الحرب وفرصة طنطنة صحفهم بصدقة مصر والعرب فكتبت إلى ماهر باشا الكتاب الآتى :

حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء الموقر :
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : وبعد فإن الموقف الدولي المضطرب الآن والذي أثر في
اتجاهات السياسة الإنكليزية في الشرق والغرب خصوصاً فيما له علاقة بالعرب والمسلمين ،
يجعلنا نتشرف بأن نقترح على رفعتكم اغتنام الفرصة لمراجعة الدولة البريطانية لحل القضية
الفلسطينية حلاً عادلاً يرضيكم ويرضى العالم العربي . وإننا نعتقد أن الدولة البريطانية لن ترفض
تلبية طلب مصر حليفها وهي في هذا الظرف الدقيق لتكسب رضا مصر وتأييد ملايين
العرب والمسلمين .

إن قيام الأزمة الدولية الحاضرة وإعلان أنظمة الطوارئ في مختلف أنحاء العالم من شأنه
أن يبرر لبريطانيا أي عمل سريع حاسم لحل قضية فلسطين على وجه يرضى الحق والعدل ويرضى
العالم الإسلامي والعرب ، وإن أهل فلسطين يعلقون عليكم أ كبير الآمال للعمل على إنقاذهم مما
يقاسونه من شقاء وشدائد . وليس أحسن من هذه الظروف للإقدام على هذا العمل الذي سيخلده
لكم التاريخ أبداً الدهر .

وتفضّلوا بقبول فائق الاحترام والإجلال سيدي . رئيس اللجنة الفلسطينية

١٢ رجب ١٣٥٨ - ٢٧ أغسطس ١٩٣٩ (الامضاء) محمد علي الطاهر

وبعد يومين ورد إلى منه الكتاب الآتي :

رياسة مجلس الوزراء - بولسكي « اسكندرية » ٢٩ أغسطس ١٩٣٩

حضرة الأستاذ السيد محمد علي الطاهر رئيس اللجنة الفلسطينية بمصر

السلام عليكم ورحمة الله ، أما بعد فأشكر لكم خطابكم الرقيق وأرجو أن تعتقدوا أن
اهتمامنا بقضية فلسطين يقوم على اعتبارات دائمة من الجوار والجنس تدعونا في مختلف الظروف
والمناسبات إلى انتهاز الفرصة للسعي في حلها بما يرضى اعتقادنا بعدالتها وهو ما يسرنا أن
نسعى إلى تحقيقه كلما وجدنا إلى ذلك سبيلاً .

وتفضّلوا بقبول خالص التحية . (الامضاء) على ماهر

الرجوع إلى حالتنا في الحرب

ما كادت الحرب تعلن حتى أخذنا نسمع صياح الإنكليز وتظلمهم من الألمان ووحشية الألمان ، وذكر مدينة الإنكليز وحبهم للعدل والحرية وصدائهم للإسلام والعرب ...

ووقعت المعارك الأولى في أوروبا فأخذ الألمان يكتسحون بجيوشهم الممالك والدول ويطوونها تحت أقدامهم طياً . وكنا نحن الذين قهرنا الإنكليز واعتقدوا على بلادنا وأوطاننا وأذلوا رقبنا نتبع أخبار الحرب بشغف ونفرح لانتصار الألمان ونشمت بالإنكليز وتلذذ بتحطيم جيوشهم في فرنسا وبلجيكا وفرارهم أمام الألمان كما تفر أفواج النعام ...

إن الإنكليز ليعرفون حق المعرفة أن عواطف الدنيا كلها كانت ضدهم ، لا حباً بالألمان ولكن كرهاً للإنكليز وحقداً عليهم واشتمازاً من أعمالهم في المستعمرات وفظائعهم مع الأمم الضعيفة وكذبهم عليها ، ومعاملتها بالأذى والخبث وسوء النية^(١) حتى أفسدوا أخلاق الدول والحكومات ، وليس الأفراد والجماعات فقط .

نعم كان الإنكليز يعرفون هذا كله ، ولذلك لجأوا إلى طريقتهم العتيقة التي رأيناها وسمعناها في الحرب العظمى الأولى ١٩١٤ وهي استئجار الضمائر وتهديد الناس لئثنوا عليهم طوعاً أو كرهاً ، فوجدت عدداً كبيراً من مشاهير العرب والمسلمين من خونة ومناققين يعلنون ميلهم للإنكليز ويوصون الناس بالثقة بهم والاعتماد عليهم وإفهامهم أن انتصار بريطانيا هو أمر لا شك فيه وأنها ستعطى العرب بعد الحرب حقوقهم ...

(١) لقد بلغ الخبث وسوء النية بالإنكليز أنهم في أثناء تمتعهم بتأييد مصر فوق سلبهم أموالها وخيراتهم التي بلغت نحو ٥٠٠ مليون جنيه والتي لا تزال ديناً عليهم حتى الآن ، أقول إن الإنكليز كانوا مع هذا يبيتون لها الغدر والتدمير والحراب الشامل ، فقد اطلعت في سنة ١٩٥٠ على مذكرات للمستتر تشرشل الذي هو طاغوت الإنكليز وعنوانهم يقول فيها إنه في سنة ١٩٤٢ وضع خطة لإغراق بلاد الوجه البحري الذي يعتبر من أخصب وأعمر بلاد الدنيا وأكثرها سكاناً ومن الجملة مدينة القاهرة التي هي أعظم عواصم العالم الإسلامي وأنه لذلك أمر بوضع ألغام الديناميت تحت الجسور وعند سدود النيل لنسفها إن اقترب الألمان من تلك النواحي ، فهذا الجرم العالمي الذي يجب أن يلقب بـ « إله الحرب » ما كان يتورع عن إغراق ١٨ مليوناً من البشر في سبيل بريطانيا .

إذا كان الرأى العام قد عذر بعض الناس على انخداعهم بالإنكليز فى الحرب العظمى الأولى فلا يمكن أن يقبل لهم عذراً إن انخدعوا فى الحرب الثانية . وتكون المسألة أنهم كانوا مغفلين فى الأولى وخونة فى الثانية . وليس من اللغو ما جاء فى الحديث الشريف « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

صفحات سوداء

إننى لا أزال فى صدد حالة الحرب وأخبارها، ولذلك لا بد من سرد بعض الأمور لتسجيلها على بعض المستحقين للمسئولية عبرة لغيرهم ، فأرجو القارىء أن لا يستعجلنى فى ذكر حوادث السجن وما بعدها الخ .

إن أقسى ما كان يحرق قلوبنا فى أيام الحرب هو قيام بعض العرب والمسلمين بالدعاية للإنكليز وتأييدهم بجميع وسائل التأييد بدلاً من أن يعملوا على الخلاص من الاستعمار بالقيام على الإنكليز وعلى هولندا وإسبانيا وفرنسا ، واغتنام تلك الفرصة النادرة التى لا تتكرر . ولذلك مددت يدي إلى لفافة أوراق تناولت منها قبضة من المفكرات والمذكرات التى كنت أدونها وأجمعها وأحتفظ بها فى أيام الحرب . وإليك خلاصة لبعض ما فيها، على أن أعود إليها فى سياق هذا الكتاب وأقتبس منها .

فأول ما صدمنا به من أنباء نفاق المسلمين والعرب أن أغاخان أسرع بالتبرع لبريطانيا بالمال وإعلان تأييدها ، وقد بادر أتباعه من طائفة الاسماعيليه فى الهند وأفريقيا إلى الاقتداء به ...

وأغاخان هذا الذى يعد من المسلمين سبق لأهل فلسطين أن طلبوا معوته المالية فقال لهم أرسلوا وفداً إلى الهند لأساعدكم ، فأرسلوا الوفد فلما درى أغاخان بوصول رجال الوفد إلى بومباى هرب هذا الأغا من بومباى إلى البنغال فى أقصى الهند !

وفى سنة ١٩٣٨ عين الإنكليز صاحبهم أغاخان رئيساً لدورة عصبة الأمم بمجنيف فأرسلت إليه بىريقية مؤثرة باسم اللجنة الفلسطينية ضمنيتها ظلامه أهل فلسطين وناشدته إنصافهم فرد

على بريقة يقول لى فيها إنه لا يستطيع أن يصنع لفلسطين شيئاً عملاً بواجبه كرئيس محايد! وهذه البرقية كانت بإمضائه ولا تزال محفوظة عندى .

ونهبض ملك حيدر آباد بالهند لتجنيد رعاياه فى الجيش البريطانى والتبرع لبريطانيا بالملايين مع أن هذا الملك المسلم الغنى بخل على أهل فلسطين بما يساعدهم على إقامة مدرسة علمية فى القدس حتى إن السيد أمين الحسينى ومحمد على باشا علوبة ذهبوا إليه سنة ١٩٣٤ وقابلوه فى عاصمة ملكه فبرز رأسه متردداً ثم تبرع بسبعة آلاف جنيه فقط بشرط أن ترسل إلى المندوب السامى البريطانى بالقدس ليسلمها هو إلى أهل فلسطين (١) .

وهول محمد فرغلى باشا من أغنياء الأسكندرية وتبرع للجيش البريطانى بألف جنيه واعدأ بغيرها . وركض فلان وفلان وفلان فى فلسطين يحضون على التطوع فى الجيش البريطانى وأعلنوا استعدادهم لأن يقودوا فرقة المتطوعين بأنفسهم! وأفضى الدكتور عبدالرحمن شهبندر بمحدث لشركة بركات هافس الإفريقية معلنا تحييد الميثاق الثلاثى البريطانى وقال إن سورية تعمل إلى جانب الحلفاء فى حقل واحد لمكافحة الاعتداء الألمانى . وهرع الشيخ محجم بن مهيد رئيس عشائر عنزة فى بادية سورية إلى بيروت فقابل مندوب فرنسا فيها وأعلن عزمه هو وعشائره على التطوع لمحاربة الألمان وأنه لا يقبل بفرنسا وبريطانيا بديلاً ، أما استقلال بلاده فلم يفكر فيه كأنه أمر لا أهمية له عنده ...

وقدم محمد رضا خان أمير رامبور فى الهند ضيعته الريفية التى يملكها بأجلترا إعانة حرب للدولة البريطانية التى تستعمر بلاده ، وقام جماعة من شوافنة لبنان وأعلنوا التبرؤ من الأمير

(١) بقى هذا المال محجوزاً عند المندوب البريطانى بفلسطين من سنة ١٩٣٣ إلى ١٩٤٧ أى ١٥ عاماً ثم سلمه إلى المجلس الإسلامى الأعلى بعد أن أصبح هذا المجلس الأذن تحت سيطرة الإنكليز تماماً وعندما أصبح أهل فلسطين على وشك الإجماع عن وطنهم ثم أجلاهم اليهود فعلاً .

أما مكافأة بريطانيا لملك حيدر آباد على إخلاصه لها فهى أنها جلت عن الهند وتركت حيدر آباد وملكها فريسة لانتقام الهنادك فاستولوا على بلاده وعلى ثروته الشخصية وحبسوه فى قصره وأذلوا شعبه وأزالوا الحكم الإسلامى من مملكته . وكان هذا الملك بخيلاً برغم أنه يعد أغنى رجل فى العالم لأنها على ما تواتر تبلغ ٦٠٠ مليون جنيه .

شكيب أرسلان الذي يجاهد في سبيلهم بأوربا وأعلنوا أنهم تطوعوا في الجيش الفرنسي! وتبرع إلياس السكاف نائب البقاع في لبنان بـ ٢٥ طناً من القمح والعدس للجيش الفرنسي بينما كان أهل بلده وأقاربه يغالبون الجوع . وافتتح شرق الأردن مجلسه التشريعي يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٩ فبدلاً من أن يعلن الحداد على فلسطين بسبب وعد بلفور الذي أعلنت فيه بريطانيا في مثل ذلك اليوم من سنة ١٩١٧ جعل فلسطين يهودية وأن يحتج عليه ، قام يثني على بريطانيا ويؤيدها ويمنحها ثقته وثقة العالم العربي كأن العالم العربي قد وكله ليتول هذا الكلام .

ومن أظرف ما تلقته فرنسا في سورية من عبارات التأييد أن بهيج الخطيب رئيس حكومة المديرين في سورية عقد مجلسه وأرسل للمندوب الفرنسي يعلن سخطه « على الاعتداء الألماني المجرم على بولونيا المسالمة » إلى آخر ما جاء في احتجاج بهيج الخطيب الذي لم يشعر إلى الآن بأن فرنسا معتدية على وطنه هو اعتداء إجرامياً حقيقياً !

وهول حق العظم رئيس حكومة سورية الأسبق والمعروف بمجنونه بحب فرنسا ، إلى الصحف السخيفة وصار يغفل صفحاتها بالأحاديث التافهة مدحاً بفرنسا وشتماً لألمانيا ، ولا أدري بماذا أساءت إليه ألمانيا ...

وراح وزير العراق المفوض في الحجاز يعطى أحاديث للنشر يقول فيها إن العراق والعالم العربي يؤيدون بريطانيا على سحق النازية ، كأنه يعرف النازية أو كأنها اعتدت على وطنه ! وأقام بعض المسلمين في بيروت مظاهرة حضرها مفتي الجمهورية الشيخ توفيق خالد والأعيان وخطب شيخ يسمى محي الدين المكاوي بتأييد فرنسا ثم سرد آيات من القرآن وأحاديث نبوية زعم أنها تحض على تأييد فرنسا والحلفاء ، ثم بذلت يومها التبرعات للصليب الأحمر الفرنسي ! ونشرت صحف القاهرة حديثاً لشيخ علماء الإسكندرية يؤيد فيه الديمقراطية ويطعن بألمانيا ويزعم أن العالم الإسلامي يؤيد بريطانيا لأنها دولة إسلامية عظيمة وأن فرنسا كذلك صديقة للإسلام وهي كذلك دولة عظيمة ... مع أننا لا نراها تتعظم إلا علينا ، ولا يعظمها أحد سوى خونة المسلمين .

وقد أرسلت من عاتب الشيخ على هذا الكلام فزارني في مكنتي واعتذر قائلاً: إن مندوب

جريدة البورص اليهودية الافرنسية بالقاهرة زاره فحدثه عن أشياء ولكنه حرقها . فقلت له إن دينك يأمرك بأن لا تأمن لليهود ولم يأمرك بالظعن في أعداء انجلترا عدوة وطنك ودينك . ثم وصل إلى مصر الأمير على بن أغاخان الهندي متطوعاً بالجيش البريطاني برتبة ضابط! وأقضى نصح البخاري رئيس وزارة سورية سابقاً بحديث لجريدة البشير منوهاً بانتصار بريطانيا وفرنسا ...

وذهب الدكتور عبد الرحمن الشهبندر المتزعم السوري في ٥ ابريل ١٩٤٠ إلى الميسو بيو المندوب الفرنسي الواطي يؤكد له الولاء فشكره بيو على تمنياته نحو فرنسا وعلى البرقية التي أرسلها بتهنئة الميسورينو رئيس الوزارة الفرنسية .

وبعد ذلك سافر الشهبندر إلى دمشق وأخذ يروج للسياسة الاستعمارية وقال للذين هناؤه بسلامة القدوم كما روى مراسل المقطم في عدد ١٦ ابريل ١٩٤٠ « ان ثقته تامة بالتدابير التي اتخذها الحلفاء ، أي انكثرتا وفرنسا للدفاع عن الشرق » ...

ثم خطب في احتفال عقد في دمشق لتكريم فرق الرياضة البدنية في شرق الأردن خطاباً صرح فيه بما يأتي - سواء أرضيت محطة الإذاعة في برلين أم لم ترض فإنني أعلن بكل وقار وخشوع هنا وفي كل مسجد وفي كل كنيسة أن مصلحة العرب الحقيقية هي في تأييد الحلفاء حتى ينالوا النصر والظفر - .

فكان لهذه الدعاية للأجانب أسوأ وقع وقد اغبرت لها الوجوه ، وانكسرت الخواطر ، ولكن الأمة السورية الواقفة له ولأمثاله بالمرصاد لم تمهله بل ذهب إليه بعض الدمشقيين وقتلوه في داره ، فغضبت له فرنسا وأوعزت بدفنه بجوار السلطان صلاح الدين الأيوبي ! وكتب سلطان البهرة في الهند إلى الحكومة البريطانية في يناير ١٩٤٠ خطاب ولاء داعياً لها بالنصر وأن طائفته تتبرع بسخاء لمساعدة صندوق الحرب . وخطب حاكم بهوبال في الهند مؤيداً بريطانيا بكل ماله من قوة^(١) .

(١) زار دمشق في أواخر سنة ١٩٥٠ السيد علي أكبر شاه عضو برلمان السند وقد ذكر من =

وفي عيد الفطر في زنجبار خطب السلطان في الراديو داعياً بحفظ بريطانيا التي تحمي بلاده، ولكن ممن تحميها أيها السلطان بعد أن سلبتكم إياها؟ أم تراها قد حمتها منك ومن شعبك فأخذتها لنفسها لتحفظها أمانة عندها ...
ونظرت جماعة كبار العلماء بالأزهر في اقتراح بإعلان بيان على العالم الإسلامي بمؤازرة الديمقراطية ...

أكتفى الآن بهذا المقدار من وصف اندفاع بعض المسلمين والعرب في أيام تلك الحرب وتأيدهم للإنكليز، بدلا من القيام عليهم لإنقاذ أنفسهم منهم، على أن أعود إلى سرد أمثال تلك المخازي في مناسبة أخرى. إنني لا أقصد التشهير بهؤلاء الناس بقدر ما أريد العبرة وتحذير قومي حتى لا يقع ذلك منهم مرة أخرى إن وقعت إنجلترا في حرب في المستقبل ولكن هيهات، لأن الحرب العظمى الثالثة واقعة قريباً بلا شك وسيتهافتون على تأييد بريطانيا مرة ثالثة ...

الدكتور أمين رويحه

وفي أوائل الحرب فوجئنا بأن نوري باشا السعيد رئيس وزارة العراق قبض على المجاهد السوري الشهير الدكتور أمين رويحه وسجنه في إحدى مدن كردستان، فكان لهذا الحادث أشد وقع، فكيف العمل لإنقاذ هذا البطل من أيدي الظالمين بينما الدنيا في حرب والاتصال البريدي والبرقي غير ممكن، والكتابة في الصحف لإثارة الرأي العام مستحيلة. إذن فإغاثته متعذرة إلا إذا كسر الله الإنكليز وكسر معهم نوري السعيد وبقية أعوانهم.

= فظائع الإنكليز أنهم لما استولوا سنة ١٨٧٥ على مدينة دهلí عاصمة الهند قبضوا على آخر ملوك الهند المسلمين الأمباطور سراج الدين محمد نادر شاه ونفوه إلى بورما فمات غريباً فقيراً فدفعه الإنكليز في أرض جعلت بعد ذلك ملعباً لكرة القدم حيث تطاء أقدامهم قبره وجعلوا من هذه الإهانة للإسلام رمزاً لسلطة بريطانيا وجبروتها ...

وحاكم بهوبال هذا الذي يؤيد الإنكليز « بكل قوة » كما يقول، إنه يعرف قصة آخر أمباطور مسلم للهند، ولكن ماذا نصنع مع هؤلاء الذين أعمى الله قلوبهم بعد أن أعمى بصائرهم.

حوادث وأخبار

فرنسا الحقاء

بينما كانت فرنسا تتحطم تحت سنايك دبابات الألمان في أوروبا وتوشك جيوشها أن تسلم، وبينما كان خونة سورية يتسابقون لإرضاء فرنسا وينضمون إليها برغم أنها قد أزال الحكم الوطني - إذا بالسلطات الفرنسية تقبض على عشرات من خيرة السوريين وتحكم عليهم بالسجن عشرين سنة و ١٥ سنة و ١٠ سنين الخ .. ومنهم نبيه بك العظمه وعادل بك العظمه والأساتذة منير الرئيس وأحمد الشرباتي والحاج أديب خير ونجيب الرئيس وفهمي الحايري والدكتور رشدي الجابي الخ ... فكان ذلك أسطع دليل على حماقة الفرنسيين وجنونهم وتخبطهم ، ولذلك توقع الجميع سقوط دولتهم الملققة والتي لولا غفلة المسلمين والعرب ما عاشت إلى هذا الوقت .

والغريب أنه بعد هذا كله وبعد أن سقطت فرنسا فعلا وسلمت للألمان الذين دخلوا باريس ، بقي في الشرق ومرا كش شئ يسمى فرنسا ، بل حملت الغفلة بعض الناس على الموت في سبيل فرنسا !

وذلك أن بقايا الفرنسيين في سورية ولبنان استطاعوا تجنيد بعض السوريين واللبنانيين وظلوا يحكمون بلاد المغرب كلها، تونس والجزائر ومرا كش ويخندون أهلها . وقد هلك عدد كبير من اللبنانيين في معركة « بير حكيم » في برقة . ولا أنسى أن أتوه بأن نحو ٧٠ ألف جندي سوري ولبناني في أميركا الشمالية والجنوبية قد تطوعوا في جيوش الحلفاء . وأكث من مئتي ألف جندي مغربي قتلوا في إيطاليا في سبيل فرنسا وبعضهم في أرض فرنسا !
ورحم الله معروف الرصافي يوم قال منذ نصف قرن :

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يهبونها ومالها منهم ومنهم جنودها

وجود حكومة شرق الأردن

لقد كان غرض الإنكليز من إيجاد هذه الحكومة بين البادية وبين فلسطين أن يجعلوها

قلعة لاستعمارهم وقد وضعوها هناك لتحمي إنشاء دولة اليهود بفلسطين وقد قلنا هذا وكتبناه مراراً في الصحف منذ خمسة وعشرين عاماً . فقد كانت الثورات العربية تقوم على الإنكليز في فلسطين المرة بعد الأخرى، فكان اليهود ينسكون بالعرب فلا تتحرك حكومة شرق الأردن إلا لمنع سكان البوادي من الزحف على فلسطين لإنقاذها وإنقاذها، وكان جيش الأردن يتولى حماية الحدود من العرب لا من اليهود ! بل إن جيش الأردن قد استخدم مرة في صد مجاهدي سورية سنة ١٩٢٦ عن الالتجاء إلى بادية الأردن ، واستخدم لإقصاء المجاهدين النازلين في الصحراء وطردهم عن مياه الأزرق ، بل إن أحد أبناء صاحب الأردن قد تطوع في الجيش البريطاني للتمرين على حركات الحرب وذلك في خلال ثورة فلسطين الكبرى سنة ١٩٣٦-١٩٣٩ فكان يتمرن على ذلك مع كتيبة أردنية في مقاتلة الثوار المجاهدين الفلسطينيين ...

ثم رأينا جيش الأردن بعد ذلك يستخدم في قتال العراقيين وإخماد حركة السيد رشيد عالي الكيلاني الاستقلالية بدلا من استخدام هذا الجيش في قتال الإنكليز ...

كلها قيراطين ...

وما أعجبني شيء ينطبق على دولة شرق الأردن مثل أزجال لمحمود بيرم التونسي عن مملكة الجبل الأسود التي كانت موجودة في البلقان وأزيلت من الدنيا في الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ ومن ذلك هذه الأبيات التي خاطب بها تلك « المملكة » لما أعلنت الحرب على الدولة العثمانية في حرب البلقان سنة ١٩١٣ قال :

قُبِشت كل الخريطة	احتُرت أشوفك فين
بس اللي سماك « جبل »	جَاب الكلام ده منين
دستور ودوله وملك	وبرلمان وجيشين
مدني وحربي	وكل المملكة قيراطين !

هولندا والبلجيكا

سبحان الله ما أسرع وقوع الطيور على أشكالها ، فإنه لا تقع حرب بين ألمانيا وإنجلترا

إلا وجدنا هولاندا والبلجيك تنضم إلى إنجلترا ، على حين كان المنتظر انضمامهما إلى ألمانيا بحكم أنهما تجاوران الألمان وليس من صداقتهم بد . كما أن الهولنديين من جنس « الدوتش » وهو قريب من الجنس الألماني .

فما السر ياترى في انحياز هولاندا والبلجيك إلى إنجلترا دون ألمانيا؟ هذا هو الأمر الذى حير الناس طويلا . والحقيقة أن الإنسان لو فكر قليلا فى صناعة الاستعمار لوجد السبب الحقيقى واضحاً ، وهو أن هولاندا والبلجيك هما من الدول المستعمرة التى تحكم بلاداً شاسعة تستغلها وتسرق مواردها ، كإنجلترا وفرنسا تماماً . وأما الألمان فلا مستعمرات لهم ، وهم إنما يشورون على الدول المستعمرة ويحاربون طلباً للحصول على مستعمرات ، فالبلجيك وهولاندا متفاهمتان مع الإنكليز الذين أقروا لهما بحق وجود مستعمرات لهما . بعكس الألمان الذين يخشى شرمهم وطمعهم بالمستعمرات ... إذن فليس للدولتين إلا الانحياز للإنكليز كما ينحاز اللص الصغير إلى اللص الكبير ليحميه من البوليس ... وكيف لا تركض هولاندا ذات الملايين السبعة وهى تحكم ٧٥ مليوناً بأندونيسيا ولا تنضم إلى إنجلترا ، كما أن هناك اليابان أيضاً فهى تطمع فى أندونيسيا ، ولذلك يجب أن تنحاز هولندا إلى إنجلترا .

صراخ الإنكليز

ولما اشتدت الحرب وأخذ الإنكليز يذوقون نار الألمان صاروا يصيحون من الفظائع الألمانية ، مع أنهم ارتكبوا فى فلسطين مع العرب أشنع مما لقوا من الألمان . مع بعد الفرق بين حالة الفلسطينيين الذين يدفعون عدوان الإنكليز عن وطنهم ، وبين حالة الإنكليز الذين اعتدوا على الألمان وأعلنوا عليهم الحرب بلا سبب إلا الرغبة فى سحق ألمانيا قبل أن تتقوى وتصبح خطراً حقيقياً يهدد إمبراطوريتهم بالزوال .

يعرفون الله ...

ولما أخذ الألمان يضرّبون مدن إنجلترا بقنابل الطيارات صرنا نسمع أن الإنكليز أصبحوا يتجهون إلى الله فيقيمون الصلوات فى الكنائس ابتهالاً إليه تعالى بأن يرفع عنهم ذلك البلاء . ومن ذلك أن الملك والملكة ومعهما ملكة هولاندا التى هربت من بلادها قد هرعوا إلى الصلاة

في كنيسة وستمنستر من أجل قضية الحلفاء . وكان في مقدمة الحاضرين رئيس الوزارة والوزراء
نخطب رئيس أساقفة كنتربري خطبة أحب أن أسجل مطلعها ، قال : « إننا نعيش الآن في
ساعة سوداء تهددنا بخطر هو أعظم ماهدد أمتنا في عمرها الطويل . إن الذي يخاف الرب منكم
وهو يمشي في الظلام ولا نور عنده ليتكل على اسم الرب ويعتمد على إلهه . يارب كن ملجأ
لنا من دور إلى دور » .

هكذا كان حال الإنكليز وهم يتلون تحت سياط الألمان ويستدرون الدمع للرفق بهم وبجالحهم
كان الألمان قد اعتدوا عليهم ، ولكن لما كسبوا الحرب لم نعد نسمع أنهم أقاموا صلاة ولا
قداساً ... وقد قال الشاعر العربي :

صلى وصام لأمر كان يطلبه لما انقضى الأمر لأصلي ولا صاماً!

بل إن الافرنسيين لما استسلموا ولم يبق لهم أمل إلا الاحتفاظ بمستعمراتهم الإفريقية
العربية على الأقل أصدروا مجلة باللغة العربية اسمها « يا الله » !

وكانوا ينشرونها بالفصحى وبالعامية ، ومما كانوا ينشرونه فيها أن فرنسا سمحت بإقامة
حفلة للمولد النبوي في مرا كش ، وإقامة صلاة العيد في تونس ، وأنها سمحت لملك مرا كش
بحضور الحفلات في مدينة الرباط ، وملك تونس بحضور حفلة العيد ! ومعنى ذلك أن جنون
فرنسا كان يحملها منذ نصف قرن على منع هذين الملكين من حضور الصلاة في الأعياد !
فلما كسرهما الألمان تفضلت وسمحت لهما بهذه الصلاة !

لقد ذكرني هذا النفاق الصغير بحفلة وقحة أقامها الافرنسيون في سورية في أول الحرب
ليظهروا جبروتهم أمام السوريين ويؤكدوا تحديهم للإسلام ، وذلك أنهم تجمهروا بجيوشهم
أمام إحدى القلاع الصليبية الأثرية في منطقة اللاذقية واصطفوا خلف القسس وبأيديهم السلاح
الذي كان يلمع في وجوه السوريين ويخطف بريقه أبصارهم ثم أقاموا « قداساً » ونادوا بأنهم
عادوا إلى تلك المناطق بعد سبعة عشر سنة ولن يخرجوا منها !

ولكنهم أخرجوا منها بعد خمس سنين فقط وهم أذلاء ، وهأنذا أطبع هذا الكتاب
وليس في سورية ولبنان عالج واحد منهم .

كرم بعض المسلمين للأعداء

وفي خلال هذه الأيام نشرت جمعية الاتحاد النسائي العربي بفلسطين نداء بطلب التبرع لايتام شهداء ثورة فلسطين وعددهم يربو في ذلك الحين على ثلاثين ألف يتيم ویتيمة ، ولكن لم يستجب أحد لذلك النداء المحزن . بينما كنا نقرأ في ذلك الحين عن قيام جمعيات عديدة لإسعاف منكوبي وجرحى إنجلترا وفرنسا والبلجيك وبولونيا واليونان ! وقام محمد طاهر باشا من كبار الأعيان الأغنياء برئاسة لجنة لإعانة بولونيا في دار جمعية الهلال الأحمر التي لم نسمع أنها في حياتها تبرعت للمسلمين بقرش ، ولكنها تتبرع لجميع الأمم ولو كانت من الشياطين ، بشرط أن لا تكون تلك الأمم عربية أو مسلمة . وإني لأذكر أن المنفيين العرب في روديسيا قد كتبوا إلى مدير دار الكتب المصرية (الدكتور منصور فهمي باشا) يطلبون منه التبرع لهم ببعض الكتب العربية ولكنه أضمر أذنيه ، وقد فهمت منه أنه كان يخاف أن تقبض عليه السلطة البريطانية إن استجاب لهذا النداء . هكذا صور له وهمه ...

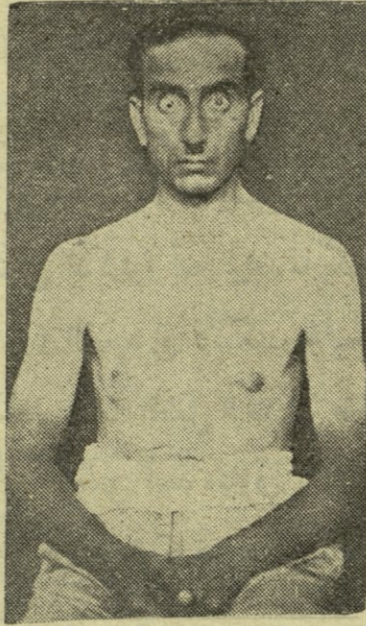
وجزى الله جمعية الصليب الأحمر خيراً فإنها لما تلقت من المبعدين مثل ذلك الرجاء بادرت وأرسلت إليهم عشرات من الكتب ، ولم تقبض السلطة على مديرها ...

ثم قرأت في الصحف أن سلاطين الملايو وهبوا الحكومة البريطانية مليون جنيه ونصف مليون إعانة حرب ، كما تبرع الأمير « فلان ابن فلان » في مصر لمنكوبي فرنسا بمئة ألف فرنك ، وبمبلغ ألف جنيه للصليب الأحمر البريطاني و ٥٥٠ جنيتها لجمعية الصليب الأحمر الفرنسية و ١٥٠ جنيتها لجمعية الصليب الأحمر البلجيكية ...

ولما أرسل الأمير هديته إلى انكلترا قال في كتابه إلى اللورد هاليفا كس وزير الخارجية البريطانية انه يدعو الله أن يمنح الإمبراطورية نصراً عاجلاً ... نعم نصراً عاجلاً كأن النصر البطيء لا يكفي ... وقد حقق الله دعاء الأمير ونصر بريطانيا . ولم يحقق سبحانه وتعالى دعاء الدنيا كلها بكسر انكلترا التي بقيت إلى الآن في مصر بعد انتصارها تسومنا وتسوم الدنيا كلها أنواع العذاب .

أخبار الدكتور أمين رويحة

ذكرت فيما سبق أن نوري السعيد قد سجن المجاهد الدكتور أمين رويحة في كردستان وقد بقينا شهوراً ونحن نستطلع أخباره فكنا نسمع عنها كل مؤلم ومحزن، وسمعنا أن جنود نوري السعيد لما دهموا دار الدكتور أمين خربوا وحطموا، وكانت حجبتهم في ذلك التفتيش البحث عن أسلحة، لأن نوري والإنكليز كانوا يعرفون أن هذا المجاهد العربي الذي أبلى في جهاد سورية سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٧ ثم في جهاد فلسطين ١٩٣٦ - ١٩٣٩ كان يمون المجاهدين الفلسطينيين بالأسلحة، ولكنهم لم يجدوا عنده سلاحاً بل وجدوا ٥٠٠ جنيه لقرينته فغنموها... ووجدوا بمنزل الدكتور كتاباً من الملك ابن سعود يلقيه فيه بولده فصادروه ووجدوا وساماً من هتلر زعيم ألمانيا أهداه للدكتور أمين بسبب صداقة قديمة بينهما قبل أن يصبح هتلر زعيماً لألمانيا^(١).



هكذا أصبح الدكتور رويحة وهو
في سجون الإنكليز إلى سنة ١٩٤٦



الدكتور أمين رويحة لما قبضوا عليه
سنة ١٩٤٠

(١) لما كان الدكتور أمين يدرس الطب في ألمانيا حضر اجتماعاً لشباب النازي في حانة مونيخ أصيب فيه الشاب هتلر بإغماء فأسعفه الدكتور أمين. فلما صار هتلر زعيماً للريخ الألماني تذكر صديقه العربي الذي تخرج بعد ذلك من ألمانيا وصار طبيباً من خيرة الجراحين ومجاهداً ضد المستعمرين، وأهداه وساماً ألمانياً اعترافاً بالصداقة القديمة. ولكن أعوان الإنكليز لما صادروا الوسام اتخذوه دليلاً على أن رويحة كان عميلاً لألمانيا!! وأما أعوان الاستعمار فإن لهم أن يخدموا الإنكليز وأن يحملوا أو سمتهم جزاء لهم على خيانة أوطانهم...

تلك هي ذنوب أمين عند الإنكليز ولكن لماذا يتكدر نوري السعيد من ذلك ؟ بل اني أعرف أن صداقة الدكتور أمين للألمان قد أفادت نوري السعيد نفسه عند ما زار ألمانيا هو وابنه إذ أعطاهما الدكتور أمين كتاب توصية للحكومة الألمانية فأكرمتهما . وصداقة الدكتور أمين لألمانيا ليست عيباً لأنها لم تعتد على وطنه ، ولكن العيب في صداقة نوري السعيد للإنكليز الذين يستعبدون وطنه ويذلون أهله .

ولنرجع إلى الحديث عن أسرة الدكتور أمين ، فقد سمعنا أن زوجته قد تركت طفليها في بغداد وأحدهما رضيع ، وسافرت إلى كردستان تبحث عن زوجها فوجدته في السجن على أسوأ حال من المرض ، ثم بلغها أن الطفل الأكبر فيصل قد أصيب برمد خطر فتركت زوجها السجن ورجعت إلى ولدها المريض وشقيقه الرضيع ..

ولما ذاع بين الناس خبر منازل بالدكتور أمين اضطرب بعض ضباط الجيش خوفاً عليه لأن الدكتور أمين كان مديراً للمستشفى العسكري ويحمل رتبة (عقيد) أو قائم مقام ، وأهل العراق والضباط خصوصاً يحبونه تقديراً لوطنيته ، فلم يسع نوري السعيد رئيس الوزراء إلا الإفراج عنه بشرط أن يستقيل من الجيش ويلزم السكون ولا يشتغل بالسياسة .

ولكن الدكتور أمين لم يجد ما يكفل الشفاء له ولولده في العراق - فسافر وأسرته بإذن من حكومة نوري السعيد إلى الاسكندرية ليجد في القطر المصري العلاج لنفسه ولطفله المهددة صحته وعينه بالخطر . أما الطفل الرضيع فقد تركوه في دار محمود بك سلمان رحمه الله^(١) وفي أحد الأيام خاطبني أحد معارفي بالتليفون وقال أتدري كم عدد المعتقلين الآن في فلسطين ؟ فقلت : نعم إن عددهم كما قدرته شركة هافاس البرقية ٢٢ ألفاً . فقال : لقد زاد عدد المعتقلين

(١) كان المرحوم محمود سلمان قائداً عاماً للقوة الجوية العراقية وكان مشهوراً بالوطنية الصحيحة ومثانة الأخلاق . ولما نشبت الحرب العراقية البريطانية سنة ١٩٤١ أذاق الإنكليز بطياراته ناراً حامية ، ولما انهزمت الحركة العراقية التحريرية أمام خذلان الخونة لوطنهم وأمام غدري الإنكليز نزع المرحوم إلى إيران ولكنه وقع بيد الأعداء فأحضروه إلى بغداد وجعلوا الحكومة العراقية الموالية لهم يحكم عليه بالإعدام فأعدم ظالماً وخيانة رحمه الله وعوض الأمة على فقدته . ولاني أكتب هذه السطور على أثر وصول زوجته وأطفاله إلى مصر بعد أن تشردوا في أوروبا مدة طويلة وقد صادرت الحكومة العراقية أملاك والدهم وحرمتهم مرتب التقاعد الذي يستحقونه ، كأن العقاب يجب أن يشمل ذريته أيضاً ، فلا حول ولا ...

شخصاً واحداً . فقلت من هو؟ فقال هو الدكتور أمين رويحة، فقد كان قادماً بطيارة إلى الإسكندرية فأشارت إليها سلطات فلسطين بالهبوط بمطار اللد وأخذوا منها الدكتور ووضعوه في السجن وتركوا زوجته وطفلها فيصل المريض يواصل السفر وحدهما وهما الآن في المستشفى بالإسكندرية إذن فالأم مريضة والطفل الكبير مريض والرضيع في بغداد والوالد في السجن . فقلت اللهم لا حول ولا . ولم أجد ما أصنعه بعد انتعاش الوالدة إلا استقدامها والولد إلى دارنا في القاهرة حيث قبلت ضيافتنا أياماً إلى أن اتخذت مسكناً خاصاً ، وكان القلب يتفطر على أب مجاهد في السجن وهو مريض وزوجة مريضة ومعها طفل مريض تاركة في بغداد طفلاً رضيعاً، فلم يسعنا إلا لعن الظالمين وأعوان الظالمين .

وكانت أخبار عذاب الدكتور أمين في سجون فلسطين تصل إلى وكلها تمزق القلب ، وكان أشدها ألماً في النفس موقف عبد الحميد شومان صاحب البنك العربي مع الدكتور ، فقد بلغني أنه احتاج إلى شيء من المال وهو في السجن فأرسل مع أحد المفرج عنهم ورقة طلب فيها من شومان أن يقرضه خمسة جنيهات وأن يدفعها إلى تاجر بالقدس وهو يستطيع إخبار قريبه السجن مع أمين بدفعها إليه ، فإذا بعبد الحميد شومان يرفض ويصيح مستنكراً هذا الطلب متبرئاً من الدكتور أمين ومن معرفته أيضاً !

الدكتور أمين رويحة في الصحف

ولم تسمح الرقابة بنشر شيء عن حكاية الدكتور أمين إلا الخبرين الآتين، أحدهما في مجلة تصدر في بيروت ، وخلاصته أن الدكتور أمين رويحة صديق الألمان قبض عليه بفلسطين وهو في طريقه إلى ألمانيا^(١) ثم وبخته تلك المجلة وقالت له : « إلى أين يا دكتور إن ألمانيا لن تكون ملجأ للعرب، فهي الدولة التي نفرت منها شعوب العالم المتمدن قاطبة، فيالله من رجل لم تعجبه الحياة في بغداد العربية فهرب بالطائرة إلى الجحيم ، ولكن السلطات البريطانية أنقذته ... » وإليك الخبر الثاني :

ماذا قالت برقيات الاستعمار عن هذا الاعتقال وأسبابه؟

القدس في ٣ ديسمبر ١٩٣٩ ، هافاس : اعتقل أمين رويحة في مطار اللد إذ كان على أهبة

(١) إن الذي يترك طفله الرضيع في بغداد لا يعقل أن يقطع صلته بالعراق وينضم إلى الألمان

السفر إلى أوروبا وهو من المتطرفين العراقيين وقد اعتقل تلبية لطلب حكومة بغداد والمعروف أنه كان طبيباً للمفوضية الألمانية في بغداد وكان في أثناء اضطرابات فلسطين على اتصال وثيق بالفتى والقانونى . والمظنون في المقامات الخبيثة أن أمين رويحة كان قائماً بالتجسس لصالح دولة الريخ .

هكذا صوروا الدكتور أمين ، في حين أنه سورى وليس بعراقى ، وغير صحيح أنه كان طبيباً للمفوضية الألمانية ، وأما التجسس فعقابه معروف فلماذا لم يقدموه إلى المحاكم ؟
أما الشئ الوحيد الذى صدق فيه هذا الخبر فهو وصفه لأمين بأنه جاهد في ثورة فلسطين وأن الحكومة العراقية - أى حكومة نورى السعيد - هى التى أرشدت الإنكليز إلى سفره .
وماذا قالوا عنى

هكذا قالت تلك المجلة وشركة الاستعمار عن مجاهد لا يملك دفاعاً عن نفسه ، وهذا يذكركنى بما وقع لى أنا لما سجنتم بعد ذلك بأسابيع قليلة فقد ذهب صديق الوفى النبيل أنطون باشا الجميل رئيس تحرير جريدة (الأهرام) إلى وزارة الداخلية يسأل عنى حمدى باشا محبوب المتصرف بها كتصرف السفاح محمد بدر الدين بها قبل ذلك بعشرين سنة ، فقال حمدى لأنطون باشا : « الأحسن أن لا تفتحوا سيرة محمد على الطاهر الآن لخطورة مسألتة ويحسن تركها للزمن إن كنتم تحبون » فقال أنطون باشا - وهو يتوهم أن المسألة خطيرة حقاً - : لا بأس ولكن أستفهم عما إذا كان الطاهر يحتاج إلى شئ من الملابس والكتب أو المال أو تخفيف السجن عليه . فقال حمدى باشا : أى مال ؟ إنه فى أحسن حال وقد وجدوا عنده أموالاً كثيرة جداً ، وأشار حمدى باشا إشارة فهم منها أنطون باشا أنهم ضبطوا معى نصف مليون على الأقل ... هذا بينما كنت أعمل فى السجن كسجين فى خزانة ضيقة تزهق الروح وما كنت أملك إلا ١٣١ جنيهها وضعتها فى خزانة السجن . وأما خطورة مسألتى فيكفى أن يعرف الناس أنها لا شئ ولم يوجهوا لى أى سؤال بل لم يجسروا على سؤالى عن شئ مطلقاً ، وما كان الغرض من حبسى إلا التنكيل والانتقام منى بسبب عدم إيمانى بالاستعمار البريطانى السعيد ... (١)

(١) وفى أواسط سنة ١٩٤٩ قبض على إبراهيم باشا عبد الهادى - حين كان فى غفلة من غفلات =

نماذج من نشریات الإنكليز في هذه الحرب

كانت أساليب الإنكليز في هذه الحرب تشبه أساليبهم في الحرب العالمية الأولى . لم يغيروا من تلك الطريقة السخيفة حرفاً لقلة عقولهم وظنهم أن عقول الناس من البساطة بحيث تبقى كما هي قبل عشرين سنة، بل إنهم أداروا دفعة الحرب بسياسيين قدماء وعسكريين قدماء بينما جدد الألمان كل شيء ، السلاح ورجال السياسة ورجال الحرب وأساليب القيادة والزحف .

قد يقول قائل ولكن الإنكليز انتصروا بوسائلهم القديمة ، والجواب : ان اتساع العالم المحارب لألمانيا وكثرة سكانه وطول الزمن ، كل ذلك هو الذي كسر الألمان لا براعة الإنكليز . وكيف ينتصر الإنكليز وهم يعتمدون على السخافات في نشر الدعاية لأنفسهم وضد خصومهم ، وإلا فنذا الذي لا يبتسم وهو يقرأ بعد أيام من نشوب الحرب أنهم أغرقوا ثمانين غواصة ألمانية ، وأن هتلر قبض على جوبلز وزير الدعاية لخيانته ! مع أنه ثبت أن جوبلز كان أخلص زعيم ألماني لوطنه ، ويكفي أنه بقي يحارب إلى آخر لحظة ، فلما رأى الانكسار انتحروه وزوجه وأطفاله . فياله من رجل فدأبي فضل هذا المصير الفاجع على ذل الأسر والاستسلام للعدو .

ومن سخافات الإنكليز أنهم بعد أن أغارت طيارات الألمان على منطقة كرويدن بضواحي لندن ودمرتها وجعلت عاليها سافلها ، قالوا عن سكان لندن إن مظاهر الفرح بدت عليهم لكثرة الطيارات الألمانية التي سقطت ، مع أن الذي خربته الطيارات في تلك الليلة يساوى ثمنه وقيمه العسكرية أكثر من عشرة آلاف طيارة ألمانية . وفي ٢٥ اغسطس سنة ١٩٤٠ نشرت شركة روتر هذا التلغراف البديع : « لندن - ألقت الطائرات الألمانية اليوم عدة آلاف من القنابل المحرقة على إحدى المناطق العامرة الواقعة جنوب إنجلترا بغرب ولكنها لم تحدث أضراراً ولم تنشأ عنها خسائر في الأرواح » هذا هو النبأ - آلاف من القنابل المحرقة تلقى على بلد ثم لا تحدث فيها خسائر في الأرواح أبداً ... وليتهم قالوا إنه لم يصب سوى كلب أو أرنب فقط ...

= الدهر رئيساً للوزراء - وجبني بلا سبب ولا موجب مطلقاً ، ولم يكتف بذلك بل أمر جريدته أن تنشر أنني حبست لأنني « خطر » على الأمن العام ! وقصة هذا الاعتقال معروفة وقد وضعت عنها كتاباً سميت « معتقل هاكستب » وهو في نحو ٧٠٠ صفحة و ٤٤ صورة .

ولكن لماذا المزاح ؟ إنهم قالوا ماهو أسخف من ذلك على أثر غارة للطائرات على باريس في ٣ يونيو ١٩٤٠ وان الخسائر كانت دجاجة واحدة ...

ومن فكاهاات الإنكليز وهم لا يقصدون الفكاهة بل مخادعة الناس وخداع أنفسهم أن جريدة الديلي تلغراف اللندنية نشرت في ٢٥ أغسطس ١٩٤٠ أن المستر مرتون مراسلها في الشرق قام برحلة في سيارة حول عدن وجنوب بلاد العرب فكان ركاب الإبل من الأعراب في البادية يسألونه عن سير الحرب، وكانوا كلما سمعوا منه بعض الأخبار يرددون الدعاء إلى الله بأن يكتب النصر لملك الإنكليز ...

وقال مرتون^(١) في رسالته إن نتائج الدعاية البريطانية ، أى الأ كاذب ، كانت عظيمة جداً الخ... وهذا غير صحيح بل كان الناس يسخرون عند إذاعة الأخبار البريطانية ؛ وكلما كان المذيع يقول إن الطائرات الإنكليزية « عادت كلها إلى قواعدها سالمة » كان العوام من زبائن القهوة البلدية يسبقون المذيع ويقولون « وعادت طيارتنا إلى قواعدها سالمة » ... ومن نكات الحرب أن الإنكليز لما خرجوا من شنغهاي تحت ضغط اليابان عليهم والتهديد بالحرب ، سحبوا جيوشهم من المدينة وأعلنوا أنه لا لزوم لوضع جنود إنكليز بشنغهاي لحماية الأجانب بعد أن انقضى الغرض من ذلك لأن اللصوص ماعدوا يهددون الأمن العام !!!

رجعة إلى معركة دنكرك

إن هزيمة الإنكليز في فرنسا وهربهم من دنكرك كان أعظم وأشنع انكسار ذكره تاريخ الإنسان ، ولا يمكن أن يقع مثله على كراالدهور ومر العصور ، وهو الانكسار الذى سموه انتصاراً من « الوجهة الفنية » ما مثله انتصار ...

وقد وقع بيدى مستند رسمى لذلك « الانتصار الفنى » وقد نشر على الصورة الآتية :

(١) المستر مرتون يهودى انكليزى أقام بمصر ثلث قرن مراسلا لجريدة التيمس ثم للدليى تلغراف وكان جاسوساً استعمارياً وقحاً ، وكان يأكل خير مصر ويسبها ويكيد لها ، وكان بعض الجناء والأخساء من رجال السياسة يكرمونه وفى اليوم الثانى كان يشتمهم ويسخر منهم ويهينهم ، وفى الحقيقة أن الحق ما كان عليه بل على أولئك السياسيين الأذال الذين كانوا يتسمون له بعد طعنه فيهم ، بدلا من إهانته وإهماله وضربه بالعصا أيضاً . وقد ظل هذا الرجل يكيد فى مصر للإسلام والعرب إلى أن أهلكه الله فى حادث سيارة .

« لندن - يونيو ١٩٤٠ - بانهييار منطقة دنكرك المحصنة أصبح بحراً الشمال كله في حوزة الألمان وبلغت خسارة الحلفاء ، في المعركة التي دارت في الشمال مليوناً ومائتي ألف أسير بين انجليزى وفرنسى وبلجيكي ، غير القتلى والجرحى وأغرق الألمان للحلفاء ٢٤ وحدة حربية و ٦٦ باخرة نقالة وأحرقت القوات الألمانية ٣١٠٠ طائرة وغنمت أسلحة ٨٠ فرقة من الحلفاء ، وأعلنت وزارة البحرية الفرنسية أنه اشتركت ٣٠٠ سفينة فرنسية ، بين حربية وتجارية ، في عملية الابحار (الهرب) و ٢٠٠ قارب فرنسى صغير ، وفقد الفرنسيون ٧ مدمرات ثم عاد المستر تشرشل واعترف بالحقيقة أمام مجلس العموم وقال إن الحملة البريطانية أوشكت قبل أسبوع أن تقف عن بكرة أبيها ؛ وقال إن الجيوش البريطانية في ظرف أربعة أيام كانت مشتبكة في معارك دارت في السوم وخسرت خسائر فادحة لدرجة أنه لم يبق إلا ٣٠ جندياً ، وقال لقد كنت أخشى أن أخبركم قبل أسبوع بأ أكبر كارثة حلت بجيوش بريطانيا »

هذا مجمل مختصر لنكبة دنكرك التي لم يسبق لها مثيل ، وقد وصف الشاعر العربى بشار ابن برد مثل هذه الهزيمة النكراء قبل اثني عشر قرناً بقوله :

فراحوا فريق في الأسار ، ومثله قتيل ، ومثل لاذ بالبحر هاربه !

وقد وصف الجنرال ديجول المعركة التي سلمت بعدها فرنسا وصفاً دل على جبن الإنكليز والفرنسيين والبلجيكيين ، وأنهم كانوا أمام الألمان أجبن من الغنم فقد قال ديجول إن عدد من أسره الألمان في المرحلة الأولى من المعركة الكبرى ببلجيكا وفرنسا ب ٣٥٠٠٠٠ وفي المرحلة الثانية ب ٦٠٠٠٠٠ كما قدر عدد القتلى من الفرنسيين ب ٦٠٠٠٠٠ وعدد الجرحى ب ٣٠٠٠٠٠

فهذا الإحصاء يدل على أن معركة دو نكرك كانت أفدح وأشنع وأكثر عاراً على الحلفاء مما ظننا ، ومع ذلك فإن الإنكليز كانوا يعلنون أن هربهم بعد كسرهم كان أبرع خطة حربية وأنه كان أعظم من أى انتصار ! ثم ينعمون على قائدهم بلقب لورد ورتبة فيلد مارشال ...

من أغلاط المحور

إن الخطيئات والغلطات التي بدرت من الألمان في الشرق العربي وفي المغرب العربي كانت عظيمة ولعلها كانت السبب في انهيارهم وانكسارهم - فمن ذلك أنني سمعت من جميل مردم بك السياسي السوري أنه لما كان في بغداد هارباً من بطش فرنسا في سورية سنة ١٩٤٠ اجتمع بالهر جروبا سفير ألمانيا في العراق فبحث معه بعض الأمور عن المستقبل في سورية فأشار جروبا على جميل بك بأن يبحث مسائل سورية وفلسطين وبلاد العرب مع سفير إيطاليا لأن هذه المنطقة من اختصاصها ! ففهم جميل من ذلك أن العالم العربي سيكون إن انتصر المحور مستعمرة إيطالية ! وقد عزز هذا الوضع أنه لما ظفر المحور بفرنسا وصار إليه الإشراف على مستعمراتها أرسل إلى سورية ولبنان « هيئة هدنة » كل رجالها من الطليان !

ولما وقعت الواقعة بين العراق والإنكليز لم يغتنم الألمان تلك الفرصة النادرة ويساعدوا العراق بل تركوه بلا معين لا بالسلاح ولا بالرجال ولا بالكلام . وكانت النتيجة أن تغلب الإنكليز على العراق مع الأسف الشديد .

الغلطة الكبرى

وأما الغلطة التي عادت بالويل على العرب والمسلمين ، ثم على الألمان أنفسهم بعد ذلك فهي أنهم مكثوا فرنسا من البقاء في المغرب (تونس والجزائر ومراكش) وتركوها بعد استسلامها تحكّم تلك الأقطار الشاسعة على هواها بواسطة خمسين ألف جندي بسلاحهم ، فلو أن الألمان أعلنوا استقلال تلك الأقطار وتركوا أهلها يؤلفون دولة مغربية لكانت هذه الدولة الجديدة سياجاً وحصناً لهم ، لأنها كانت تستطيع أن تجند مليون جندي فوراً ، فلو تم هذا لكان لألمانيا من الدولة المغربية العربية « خط دفاع » عن أوروبا التي كانت كلها في قبضة الألمان ، وكان المغاربة يقفون للدفاع عن استقلالهم في وجوه الأميركيين والإنكليز الذين ماهجوا على أوروبا إلا بعد أن مكنتهم فرنسا ، بل ساعدتهم على الاستيلاء على المغرب ، فاتخذوه قاعدة عسكرية تمكنوا بواسطتها من الوصول إلى الأراضي الإيطالية وكسر إيطاليا وألمانيا ثم اليابان ، كما كانت الطائرات المتحالفة تضرب ألمانيا نفسها من أراضي المغرب ، وقد قال

الألمان في تحليل هذه الغلطات إنهم أرادوا بترك المستعمرات لفرنسا أن يؤلفوا قلبها ويستميلوها إليهم ، وهو قصر نظر ما بعده قصر ، وكيف يطمعون في أن تصفو لهم فرنسا وهي دولة مكسورة واستعمارية في نفس الوقت ، فألمانيا تعتبر في نظر فرنسا من الجنس المفترس لأنها دولة بدون مستعمرات ، ولذلك أصبح من المستحيل أن تطمئن فرنسا للألمان ، أما لو كانت فرنسا في الأصل دولة غير مستعمرة لما سمعنا أنها انضمت في كل حرب إلى انكلترا .

غلطة اليابان في أندونيسيا

أما اليابان فقد نالت عقابها على شرها إلا هوج الذي أعمى بصيرتها أيضاً ، فإنها لما استولت على جزر الجاوا التي تسمى الآن أندونيسيا وكانت مستعمرة للهولنديين ، كان المتوقع أن تأتي بجديد في تلك المناطق الشاسعة التي تعتبر عالماً وحده ، فإن سكانها يزيدون على الخمسة وسبعين مليوناً ، ومساحتها تمتد إلى مسافة توازي ما بين لندن وأقصى خليج فارس .

فالجديد الذي كنا ننتظره من اليابان بمجرد استيلائها على ذلك العالم المعادي للأوروبيين المستعمرين أن تعلن استقلاله التام مقابل معاهدات تجارية واقتصادية تضمن لليابان المواد الأولية التي تحتاج إليها ، فلو أنها فعلت ذلك لوجدت من أندونيسيا حليفة قوية يعتمد عليها في كسر الإنكليز والأميركان في الشرق الأقصى ، ولتم لها ذلك قبل أن يمتد الوقت الكافي للأميركان لاكتشاف القنبلة الذرية التي قضت على اليابان ، ولكن اليابان مثل الألمان أمة حرب لأمة سياسة ، وهذا من حسن حظ الإنكليز وسوء حظ الأمم المقهورة .

غلطة الأندونيسيين

وهنا لابد من توجيه العتب إلى الأندونيسيين الذين واثقوا الفرصة من أول الحرب للإفلات من قبضة الهولنديين قبل مجيء اليابان بسنة ، فقد سحقت ألمانيا المملكة الهولندية في أوروبا واستولت عليها ، وكانت بلاد أندونيسيا خالية تقريباً إلا من الحامية الهولندية التي كان أملها قدا قطع من وصول أية نجدة من الخارج مادامت أرض هولندا نفسها محتلة ، وما كان هناك أي أمل بمساعدة من الإنكليز لهولنديي أندونيسيا لانهم ماك بريطانيا بقتال اليابان ، بل إنها هي أيضاً كانت منهزمة أمام اليابان في الشرق الأقصى كله ، في الملايو ، وفي برما ، ويكفي أن سنغافورة نفسها التي كانت قاعدة العدوان الإنكليزي على الشرق الأقصى قد سقطت قبل ذلك في أيدي اليابانيين

وكاد الإنكليز يخلون البنغال في الهند هلعاً من اليابان ، فما الذي منع الأندونيسيين وقتئذ من القيام على فلول هولندا المبعثرة في أوقيانوس من أمم أندونيسيا ، ألا أن الهولنديين ما كانوا ليصمدوا أمام الأندونيسيين أسبوعاً واحداً لو انقلب هؤلاء على الهولنديين بالعصى لا بالسلاح ، فلا تجد اليابان نفسها مضطرة إلى الانشغال بحرب الهولنديين في أندونيسيا عن توجيه قواتها إلى الهند والشرق الأدنى ، ولو تم ذلك لما رأت أندونيسيا وجوه اليابانيين الذين اجتاحتها واستعبدها ثم تركوها بعد انكسارهم فريسة للهولنديين والإنكليز والأمريكان الذين أذاقوا أندونيسيا بعد ذلك أنواع العدوان والانتقام فلاحول ولا .

سوابق انجلترا ضد أندونيسيا

إن أبناء هذا العصر يظنون أن هذه هي المرة الوحيدة التي تنقذ فيها بريطانيا استعمار هولندا في الشرق الأقصى ، والحقيقة إنها الثانية ، فقد سبق أنه لما سحق نابليون المملكة الهولندية أصبحت أندونيسيا بلامسيطر ، فكادت تفلت من الاستعمار الهولندي وإذا ببريطانيا ترسل أسطولها الشرق إلى أندونيسيا وتضرب الأندونيسيين وتستولي على بلادهم ! فلما عادت الدولة الهولندية إلى الوجود ، أعادت إليها انجلترا جميع بلاد أندونيسيا ماعداً شمال جزيرة بورنيو لتشرف من شواطئه على بحار الصين !

ومعنى هذا أن بريطانيا هي العدو الأولى والأخيرة لهذا العالم الإسلامي من مشاركته إلى مغاربه على الدوام .

لقد أسهبت في الكلام على مسائل أندونيسيا لكثرة علاقاتي بأهلها ومجاهديها منذ أكثر من عشرين سنة ، فأصبح من واجب الوفاء ولها أن أتكلم عنها بأكثر مما يقتضيه الكلام في كتاب مثل كتابي هذا . ولو وضعت كتاباً خاصاً عن أندونيسيا لما وفيتها حقها .

استقلال أندونيسيا

ملحق : سطرت ما تقدم في أيام الحرب ، وقد حدث بعد ذلك لحسن الحظ أن هاج الأندونيسيون على الاستعمار الهولندي وأعلنوا الجمهورية فقامت انجلترا وأميركا تساعدان هولندا عليهم حتى كاد هذا الاستعمار المثلث يقضى على تلك الدولة الجديدة . وإذا بقوة الله

تقلب الأوضاع في شرق آسيا ويليهم الروس البلاشفة بلاد الصين كلها . نخاف الاستعمار الديمقراطي الإنكليزي الأمريكي من تسرب البلشفية إلى أندونيسيا ، فأرغم هولندا على ترك تلك البلاد فجلت عنها وقامت الجمهورية الأندونيسية فعلا واعترف بها العالم أجمع ، فالحمد لله على هذه النتيجة السارة المبهجة ، ولاسيا بعد أن غادرت بريطانيا القارة الهندية فقامت على أثر ذلك دولة إسلامية أخرى جديدة هي « الباكستان » فهذا وذاك هما أعظم فوز كسبته الأمم المقهورة ، ولكن هل يعزينا هذا النصر على نكبتنا بضياع فلسطين ؛ لا أظن ذلك ، لأننا في هذه الفاجعة قد أصبنا بثلم الشرف والكرامة بين الأمم .

غلطة المغاربة وغلطة السوريين

أما اخواننا في المغرب فإن موقفهم كان في شمال أفريقية كموقف الأندونيسيين والسوريين في الشرق . فلو أن المغاربة والسوريين قاموا على فرنسا عند سقوطها تحت سنانك الألمان لما تعبوا كثيراً في استعادة استقلالهم وطرد المستعمرين من المغرب العربي ومن سورية ولبنان إلى الأبد . وإن قيل إن فرنسا كانت محتفظة في المغرب وحده بمئة ألف جندي ، قلنا : وما قيمة مئة ألف جندي أو مليون جندي أجنبي في ذلك العالم العربي الواسع وعدده يزيد على العشرين مليوناً في أرض تزيد مساحتها على مساحة فرنسا كلها بخمسة أضعاف ، إن الجيش الأجنبي في تلك الظروف ما كان يساوي شيئاً مادام المدد من موطنه الأصلي معدوماً ، علاوة على حالة الفرع التي خيمت في ذلك الحين على فرنسا وعلى الدنيا كلها . إن فرنسا قد ساقطت سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٧ على جبل الدروز في سورية لإخماد ثورته جيشاً لجبا يقدر بأربعين ألف جندي بينما لا يكاد يزيد عدد سكان جبل الدروز كلهم رجالاً ونساء وأطفالاً على عدد ذلك الجيش الفرنسي ومع ذلك فإن أبطال بني معروف كسروا ذلك الجيش ، ولولا المدد الذي كان يأتيه من فرنسا والزحوف المتلاحقة على الدوام لما بقيت فرنسا في الشرق . فأين كان المغاربة والسوريون في تلك الأيام السوداء على الافرنسيين ؟ إنهم لا يقلون شجاعة وإقداماً عن أهل جبل الدروز فما الذي أنساهم تلك الفرصة التي لا أظنها تعود بعد قرن أو قرنين فيا للأسف الشديد . إن

العتب الذى أوجهه للمغاربة والسوريين يجب أن يكون أشد من العتب الذى وجهته للأندونيسيين لأنه يوجد فى المغرب وسورية عشرات الألوف من الذين يتقنون حمل السلاح والحرب ممن كانت فرنسا تجندهم فى حالتى السلم والحرب .

وإن قال قائل إن مصر ولبنان وفلسطين قد قصرُوا ، قلت نعم إنهم قصرُوا ، والهند والسودان والحجاز ونجد والملايو واليمن كذلك قد قصرُوا بل إن الدنيا كلها قد قصرت ، بل إن بعض هذه الأمم قد ارتكب جرم التجند فى جيوش الانكليز والفرنسيين ، ويكفى أن جيش الأردن قد زحف مع الانكليز على العراق وكان من أهم أسباب القضاء على نهضته التحريرية ويا للأسف ، وها هى البلاد الإسلامية والأمم العربية كلها تذوق الوبال من الذين حالفناهم ونصرناهم جزاء الانخداع الرخيص الذى وقعنا فيه « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

الجنرال فيجيان يؤيد كلامى

وبعد تسطير الفصل السابق بسنة وقبل طبع هذا الكتاب بسنوات وقعت فى يدي مصادفة ، نسخة من شهادة الجنرال فيجيان القائد الفرنسى العام فى الحرب أمام المحكمة العسكرية التى حاكت المارشال بيتان فإذا به يصف حالة شمال أفريقية وحالة فرنسا فيها بعد الهزيمة وصفاً يؤيد استنتاجى حرفياً ، ويدل على أن المغاربة والسوريين لو قاموا بأقل حركة لتخلصوا بوقتها من فرنسا ولقضى الأمر وتغير وجه التاريخ فى سورية والمغرب ، كما تغير بطريق الصدفة فى المشرق^(١) لأن جيش فرنسا كان فى كل منهما يتراوح بين ٣٠ و ٤٠ ألف حدى فقط لا غير... وها إني أورد خلاصة كلام قائد فرنسا الجنرال فيجيان نفسه أمام المحكمة

(١) كانت هذه المصادفة أن مجانين فرنسا فى سورية ولبنان ثاروا هم على السوريين واللبنانيين سنة ١٩٤٥ فقامت الثورات فإذا بانجلترا - التى تطمع بتلك البلاد - توعز لفرنسا بالجلء عنها والاستعمت ضدها القوة فخرجت ، وأصبحنا نرى الآن فى سورية ولبنان جمهوريتين مستقلتين ، ولكن الخوف لا يزال واقعاً من أن تقوم انكلترا باحتلال البلدين ، إما بضمهما إلى شرق الأردن باسم « سورية الكبرى » وإما بضمهما إلى العراق باسم « الهلال الخصيب » . لأننى أكتب هذا فى أوائل سنة ١٩٥١ وأسأل الله أن يقي أرض الشام كيد الإنكليز وتلاميذهم الأمريكين ...

أقتبسها عن جريدة منبر الشرق التي نشرت ترجمة جميع ما دار في محاكمة المارشال بيتان ، قال فيجان وهو يشهد لرئيسه ويدافع عن نفسه ويصف تقصير بول رينو رئيس اوزارة الفرنسية اليهودى وخيائه. قال فيجان : «ما الذى عمل لتحسين افريقيا ؟ كانت لديها فرق غير مستعدة بالمرّة ولا مسلحة . لم يكن هناك مدافع مضادة للطائرات إلا القليل فى مينائى بنزرت والمرسى الكبير ولم تكن بافريقيا مدفعية ثقيلة إلا مدافع قديمة ترجع إلى ما قبل سنة ١٩١٤ .

» سيقولون إنه كان يمكن أن نأتى لها بمدد . فنقول ومن أين ؟ يقولون من فرنسا بتجنيد طبقتين جديدتين أى خمسمائة ألف رجل . ولكن لم تكن لدينا ملابس لنكسو هؤلاء ولا بنادق نسلحهم بها . أو بنقل فرق من الجبهة إلى افريقيا ولكن لم تكن توجد أسلحة لدى هؤلاء تنفع للقتال ، بل لم تكن توجد المراكب التى تنقلهم . وإذا وجدت المراكب فلا يوجد الوقت فإن نقل الفرقة الواحدة من فرنسا إلى افريقية أو من بريطانيا إلى فرنسا كان يستغرق ثمانية أيام . لالم يكن فى الإمكان تزويد افريقيا الشمالية بفرق فرنسية ، ولا بفرق بريطانية ، لأننا طلبنا المدد فى ذلك الحين . طلبنا من البريطانيين فكشفوا لنا عن فقرهم وعجزهم . ولم تكن توجد فرق أمريكية لأن أمريكا لم تكن قد دخلت الحرب .

» وبينما كان هذا هو حال فرنسا كانت ألمانيا مطلقة اليد فقد داست أوروبا وركت ممالكها تحت أقدامها ، ولم تكن قد اشتعلت الحرب الروسية . ولا إيطاليا فرق كان فى استطاعتها أن تزحف من تونس وكان تعدادها فى تونس وليبيا وقتئذ ربع مليون مقاتل .

ومما يكشف عن غفلة الألمان قول فيجان : « إن الهدنة تركت لنا جيشاً مؤلفاً من مائة ألف رجل بدعوى حفظ النظام ، وتحت ستار هذا الجيش خبأنا أسلحة استعمالها الفرنسيون فى المقاومة السرية » .

وأما ترك الأسطول لفرنسا ، وترك افريقيا الشمالية وسوريا ، وفى كل منها جيش فرنسى يتراوح بين ثلاثين ألفاً وأربعين ألفاً ، فهذه القوة فى رأى فيجان هى التى ساعدت الحلفاء على النزول فى افريقيا الشمالية » اه .

شفرة خاصة...

ان الحوادث والوقائع التي أدونها في هذا الكتاب ابتدأت في أواسط سنة ١٩٣٩ ،
ولكنني بدأت أكتبها في منتصف ١٩٥٠ فهذه المذكرات ستكون على ما أظن مروقة ومصفاة
من الحشو والزوائد ، لأنه لا يعلق بالذاكرة بعد طول العهد إلا الجيد الحقيقي ، وهذا ما أريده
ويريده قرأني .

أما لماذا لم أدون الحوادث أولاً فأولاً وشيئاً فشيئاً ، فسيبه أن الكتابة كانت ممنوعة
في السجن ثم كانت متعذرة وأنا هارب أتقل في أنحاء البلاد المصرية ، بين القلق والحذر
وبين الخوف من أن أقع في أيدي الظالمين ، حتى إنني كنت لا أحمل حقيبة ولا ورقاً يدل على
هويتي ، فلو أصابني مكروه ما استدل أحد على شخصيتي مطلقاً . ولو مت لدفنت مجهولاً
مغموراً ، لأنني كنت لا أستقر في بلد ولا في مكان ، وكنت أتتحل كل يوم أو بضعة أيام
إسماءً جديدةً ثم أنساه بعد ساعات ، وكنت أحسب أن ما أكتبه قد يقع في أيدي الظالمين
وأعوانهم ، وكان أعوانهم وأتباعهم أكثر منهم عدداً وأعظم شراً وأشد أذى ، بل لولا أعوان
الظالمين ما تمكن هؤلاء من الوصول إلي ، بل إنني أعترف بأن الذي لقيته من العذاب على
أيدي المسلمين من أعوان المستعمرين كان أشنع وأفظع مما كنت ألقاه لو وقعت في أيدي
الإنكليز وأعوانهم ، وخصوصاً أعوانهم ...

ومع ذلك فقد كنت أسطر من حين إلى حين بعض الملاحظات الخاطفة على قصاصات
صغيرة من الورق ، أسطرها بشكل رمزي لا يفهمه أحد إلا أنا ، حتى إنني لما فتحت أوراق
هذه بعد عشر سنين لقيت في تلاوتها وفهمها تعباً لبعده الزمن وطول العهد ، بل لقد وصلت
بي الحال إلى نسيان معنى بعض الملاحظات ومفاتيح الرموز والإشارات ، مثال ذلك
الملاحظات الآتية في أواخر سبتمبر ١٩٤١ وهذا بعضها : « لم أجد عند ابن الخصيب قصراً
كما أن « عبد الحج » بالإجازة ولم يعجبني حانوت الرومي لأن الأشرار يغشونه فذهبت
لابن سوفه لأن الضيوف عند الخصيب خباصين » . وتفسير ذلك أنني لم أجد مأوى صالحاً

في مدينة المنيا^(١) وكنت أحب أن أجمع ببعد الحميد عبد الحق باشا زعيم المعارضة بمجلس النواب وقتئذ لأطلع على الفظائع التي أزلتها بنا الحكومة ومن حمدي محبوب - ولكني علمت أن عبد الحميد كان متغيباً عن المنيا ، ولما أردت أن أنام لم أجد في تلك المدينة فندقاً يصلح لمثلي سوى غرفة على سطح فندق حقير لرومي ، فلحظت أن رجال الشرطة ينزلونه ويترددون عليه فرحلت إلى مدينة بني سويف وقد كنتها بآبن سوفة !

بهذا الأسلوب وبهذه الوسائل كنت أدون بعض المسائل والوقائع ، ثم إنني كنت أتحير كثيراً كيف أخفيها ، وسأورد في وقت آخر بعض تلك الأساليب . أما لماذا لم أدون هذا الكتاب أو المذكرات بعد الإفراج وانتهاء المحنة مباشرة ، فسيبه أنني في تلك الفترة حتى إلغاء الأحكام العرفية كنت شبه محبوس أو أشد ضيقاً من ذلك ، لأن الإفراج كان معلقاً على شروط ومن يدريني أن السلطة ستثور على اليوم أو غداً فتفتش بيتي أو تصر على اعتقاله ، فكيف أستطيع الكتابة وأنا مشغول البال مضطرب خاطر مروع لأعرف الاطمئنان ، وهل أتعشى الليلة في السجن أم يكون فطور الصباح فيه . والخلاصة أن التدوين في حياة القلق مستحيل .

العربي التائه

ملحوظة : طلبت من وزارة الداخلية بعد الحرب العظمى الثانية وبعد إلغاء الأحكام العرفية أن تعطيني جواز سفر أو جواز مرور لأستطيع السفر إلى خارج القطر لأعمال تهمني ، فإذا بحسن رفعت باشا وكيل وزارة الداخلية - وولي عهد الإنكليز فيها - يصدر أمراً بمنعني من السفر منعاً باتاً ، فكلفت أنطون باشا الجميل « رحمه الله » أن يراجع حسن رفعت فراجعته فإذا بحسن رفعت يقول له بلهجة المستغرب المدهش من سفرى « ده صاحبك الطاهر يريد السفر إلى بلاد العرب ، وعاوز يعمل هناك ضد الإنكليز ضجة » فقلت لأنطون باشا : وماذا على حسن رفعت باشا لو ذهبت إلى الدنيا كلها وعملت فيها خمسين ضجة ! فهل هو مكلف

(١) وتسمى مدينة ابن خضيب ، نسبة إلى ابن الخضيب الحاكم العباسي ، الشهير بالكرم ، والذي رحل إليه أبو نواس خضيباً من بغداد ومدحه بقصيدته الشهيرة التي يقول فيها لصاحبه عند السفر معارصاً قصيدة ابن دراج القسطلي الأندلسي :

ذريني أكثر حاسديك بزورة إلى بلد فيه الخضيب أمير

من طرف الذات الإلهية بأن يحفظ للإنكليز الهدوء والسكون في أنحاء الكرة الأرضية ...
وهنا ابتسم أنطون باشا وقال أنت الآن في حالك الحاضر يجب أن تلقب بالعربي التائه !
فقلت له أنت مسبوق بهذا التلقب

وسبب هذه التسمية التي لحقتني أعواماً طويلاً انني كنت أعيش منذ ثلاثين عاماً بدون جنسية. لأن الإنجليز قد أرادوا ذلك تأديباً لي على عدم الاعتراف بشرعية استعمارهم واستنكار عدوانهم ومحاربتهم لفظائهم، فكان لهم ما أرادوا، وكان محمود فهمي باشا النقراشي « رئيس وزراء مصر بعد ذلك » قد لقبني في سنة ١٩٣٠ وحين كان في صفوف المجاهدين « بالعربي التائه » وهو يقصد بذلك الاحتجاج على الإنكليز، فكنت أكتب مقالات في الصحف وأمضيها بهذا اللقب، ولكن لما تعين النقراشي نفسه رئيساً للوزراء صار هو يطاردني ويتولى عملية « تنويهي » وكاد يطردني من مصر كلها ... ولولا أن مصطفى النحاس باشا شيخ المجاهدين الوطنيين الشهير وزعيم مصر قد أمر حكومته سنة ١٩٥٠ بالاعتراف لي بالجنسية المصرية لبقيت تائهاً إلى يوم البعث !

إذن خيالي وأنا تائه الجنسية، وبعد أن تشتت شملّي وأنا هارب من السجن مشرداً ومتسكراً ومختبئاً مدة تقرب من عام. تائهاً في أنحاء البلاد لا أدري إلى أين المفر ولا أين المستقر، هذه الأسباب مجتمعة جعلتني أستحسن وضع كتاب في يوم من الأيام باسم « العربي التائه » ...

لصوص

قرأت نقلاً عن إحدى المجلات الإنجليزية شتماً بعلي ماهر باشا وقالت إنه كان يريد أن يحمي الطليان عند هجومهم على بريطانيا في الأراضي المصرية، فابتسمت في نفسي وتذكرت وصفا لحالة الطليان في هجومهم على الإنكليز في مصر قاله الأستاذ السيد أبو الوفا الشرقاوي وهو أن الطليان لم يهجموا على مصر بل يطاردون لصاً اقتحمها وقعد فيها، فلولا وجود الإنكليز في البلاد المصرية ما فكر الطليان الآن في الزحف عليها ...

حياة السجن

عود إلى حياة السجن والهواجس فيه

كما يحاول للجنة أن يعرفوا السر الذي مكن الشرطة من معرفة ما كان بعد الجريمة التي ارتكبوها، فالأبرياء كذلك يتوقون إلى معرفة الذنب الذي ينسبه العدو إليهم وجعله يقبض عليهم .

محمد صالح باشا حرب وعبد الحميد سعيد^(١)

رجعت في التفكير إلى الوراء فتذكرت مسألة انتخاب محمد صالح باشا حرب لرياسة جمعيات الشبان المسلمين فتنهت إلى أنه حدث مني شيء هيج الانكليز على فرجحت أن هذا الحادث هو نقطة الماء التي فاضت بها الكأس وخبر ذلك أنه بعد أن لحق المرحوم عبد الحميد بك سعيد بالرفيق الأعلى، أخذ بعض الناس يتخلعون إلى رياسة الجمعية وكان الانكليز يريدون لها ولي العهد الأمير محمد على توفيق شقيق الخديو عباس الثاني فتصبح الجمعية تحت رياسة ولي العهد جمعية شبه رسمية ومسئولة، وبذلك تضع قيمتها كهيئة شعبية حرة وتفقد نفوذها الشعبي فبادرت وبعض الإخوان بعمل «مضبطة مبايعة» نادينا فيها بالمجاهد القديم محمد صالح حرب باشا رئيسا عاما خلفا للمرحوم عبد الحميد بك .

ولصالح باشا حرب تاريخ قديم في الجهاد من أيام حروب طرابلس الغرب ثم كان وزيرا للحرية المصرية في أوائل الحرب العظمى الثانية وقد أمضى معي على «مضبطة المبايعة» بضع مئات من الفضلاء الذين يمثلون جميع الجاليات الإسلامية والشعوب العربية في مصر على اختلاف

(١) هو المرحوم عبد الحميد سعيد بك المجاهد الإسلامي الشهير أحد المؤسسين لجمعية الشبان المسلمين ورئيسها العام في مصر وأنحاء العالم الإسلامي ، وكان رحمه الله مجاهداً قديماً من أيام نقيد الوطن مصطفى كامل باشا وله تاريخ طويل في مجالدة الاستعمار امتد نحو أربعين سنة في مصر وتركيا وبر الشام وأواسط بلاد العرب وجميع أنحاء أوروبا وكان في مقدمة المتطوعين في استنبول في الحرب البلقانية فرئيساً لجمعية الأمم المظلومة في أوروبا وعضواً بمجلس النواب المصري وفي المؤتمر الإسلامي العام بالقدس وفي مؤتمر بلودان في سورية وكان يرأس جمعية الدفاع عن فلسطين بمصر ولجنة إعانة منكوبي فلسطين أيضاً . وما من حركة إسلامية نافعة إلا كان الفقيه من أكبر دعايتها وأعظم أركانها ، وله في الجهاد تاريخ طويل منقطع النظير ، وقد زرته في حلوان وهو على فراش المرض الذي مات فيه سنة ١٩٤٠ ، وكانت فرنسا قد سقطت وهو لاند قد تحطمت فقلت له أبشر فإن الله قد انتقم من الظالمين وهامى دول الاستعمار تتحطم الواحدة بعد الأخرى . فابتسم وقال الحمد لله ، ثم أشار إلى خارطة بجواره وقال « نريد سقوط هذه أيضاً » ووضع أصبعه على خارطة إنجلترا ، رحمه الله وأسكنه فسيح جنته .



أمير اللواء محمد صالح حرب باشا
وزير الحرية سابقاً ، وهو في شبابه

لغاتهم وألوانهم ومواطنهم. وقد جرى تقديم وثيقة البيعة بواسطة وفد منهم ذهبت به إلى صالح باشا حرب في حفلة مختصرة أقيمت في دار جمعية الشبان المسلمين ، وقد خطبت فيها وخطب كثيرون فرد صالح باشا بخطاب قيم وقبل البيعة ، وكان أهلاً لهذه الثقة أميناً عليها، ويكفي أن أذكر أن الانكليز لما اعتقلوه بعد ذلك وساموه على ترك الرياسة مقابل إطلاقه أبي قائلاً : أنا لا أتنصل من شرف قلدتنى إياه أمتي . فنكل به الانكليز ونفوه إلى أسوان في أقصى البلاد المصرية جنوباً عند حدود السودان ومنعوه من مغادرة باب الدار . ولما تولى

محمود فهمي النقراشي باشا رياسة الوزارة سنة ١٩٤٤

استدعى صالح باشا وساموه على ترك رياسة الجمعية في مقابل إعادة حريته إليه فرفض وفضل الرجوع إلى المنفى بعد أن وجه للنقراشي باشا عبارات شديدة واستغرب كيف يقبل لنفسه هذا الموقف لحساب الانكليز ...

حمدي باشا محبوب

قد يسألني القارئ عن سبب إيراد سيرة رياسة جمعية الشبان المسلمين وما هي علاقتها بالقبض على . والجواب على ذلك أنه بعد أن تمت مبايعة صالح باشا بالرياسة اجتمعت الجمعية العمومية وانتخبته بالإجماع رغم ورود أسماء أخرى اقترحها الغير ، وكانت الصحف قد نشرت ماجرى في حفلة المبايعة وخبر المضبطة التاريخية التي قطعت كل أمل للانكليز بتسرب الرياسة إلى أعوانهم ... فطلبني حمدي باشا محبوب إلى إدارة الأمن العام وجرى بيننا الحديث الآتي :

حمدي : أنت يا أستاذ أعطيت وعداً بعدم الاشتغال في السياسة أليس كذلك ؟ فقلت : نعم ولا أزال عند وعدي . فقال : ولكنك (ومد يده إلى درج وأخرج منه أوراقاً بينها

صورة وثيقة البيعة) قد خالفت تعهدك ورجعت للسياسة، ثم لوّح لى بالوثيقة، وقال: أليس هذه من عملك؟ فقلت: نعم، ولكنها لمشروع ديني اجتماعي وكان بعض الناس يريدون عمل شوشرة على رئاسة الجمعية فحسمناها ومنعنا القلق والشقاق.

سمع حمدي باشا هذا الكلام الذي لم يعجبه طبعاً فبرز رأسه مهدداً وقال: طيب، طيب... وبعد أسبوع واحد وجدت نفسي في السجن!

وفاء...

ثم صرفت الفكر عن هذه المواضيع ورجعت به إلى شيء آخر فخطر لي أن أطلب وأنا في السجن أحد الأشخاص بدين لي عليه، وهو قرض حسن لوجه الله أعطيته إياه وهو في ضيق عظيم، وكان حاله قد تحسن كثيراً بعد ذلك، فكلفت أهل بيتي الاتصال به تليفونيا فإذا به يرفض الدفع فطلبوا منه حاجيات منزلية من الدكان تدريجاً فأبى وقال إن الدكان بمناسبة رمضان تحتاج إلى توسيع رأس المال. ثم بلغني أن هذا الشخص كان يفتح سيارتي لمن يعرفني قائلاً: إني أستحق الحبس لأنني « غلباوي » أتدخل في السياسة... ثم بلغني بعد انقضاء المحنة ما هو أقبح، وذلك أن البوليس سأله مرة عنى وأنا هارب فأعطى البوليس عنوانات نفر من أصدقائي في القاهرة والريف فطرق البوليس بيوتهم وروعهم وكاد يهتدى إلى أثرى!

حادث من صديق أعجب

إن الفصل الأليم الذي صدر من الشخص السابق قد يعذر صاحبه على قاعدة أنه رجل عامي عادي، ولكن المدهش أن يصدر من صديق عالم وغنى ما هو أمرٌ مما صدر من الأول، وذلك إنني كنت أزوره في صيدليته فشكى لي قلة المال النقدي بسبب وقوع الحرب وطلب مني مائة جنيه يشتري بها أدوية للصيدلية على أن أكون شريكاً في الربح لأن اليهود جمعوا الأدوية من الأسواق وخزنوها، فأعطيته خمسين جنيهاً ووعدته بالخمسين الأخرى بعد أيام، ولكن القبض والحبس حالا دون ذلك، بل وجدت بعد أسابيع أن أطلب الخمسين جنيهاً متنازلاً عن الربح، ولكنه اعتذر قائلاً إنه لما أخذ الخمسين دفعها أجرة للصيدلية والمنزل! كأن الشراكة التجارية هي أن أدفع عنه ديونه! وقد سمع بالحادث بعض الناس فوبخوه وأخذوا لنا منه

بالمال أدوية كاسدة مما كان في صيدليته ، وكان المنتظر من هذا الصديق أن يبيع ملبسه ويمدني بتمنها ، لا أن أمدّه وأنا سجين بالتأخر عليه من أجرة الصيدلية والمسكن ...

ملحق ...

ثم حدث لهذه الأدوية بعد ذلك بعامين ما هو أعجب ، وذلك أنه كان يزورني الدكتور مدحت بك شيخ الأرض الطيب الخاص للملك ابن سعود ، ولا أدري ما الذي فتح سيرة الأدوية بحضوره فطلب الدكتور الاطلاع على بيانها فلما رآه قال إنها تنفعنا الآن في الحجاز لندورة الأدوية بسبب الحرب ، ثم التفت إلى صديقنا - سابقاً - السيد خير الدين الزركلى ، الشاعر الوطنى سابقاً أيضاً ، - وكان موظفاً بالمفوضية السعودية بالقاهرة - وأمره باستلام الأدوية ودفع ثمنها وإرسالها إلى الحجاز ، ولما أرسلت الأدوية للمفوضية إذا بخير الدين يعيدها إلى مستكثراً ثمنها ، وقال إنه عرضها على تاجر فأبى أن يشتريها بهذا المبلغ ! فقلت له كان الواجب أن تطلب إلى التاجر أن يبيعك أدوية مثلها فتى حدد لك ما يطلب من ثمن فأنا أعطيك إيها بنقص عشر بالمائة ، وأما أن تعرضها على الناس عرضاً فإن عرضها يفقدها قيمتها ، كما أن عباءتك هذه التى تلبسها - وأمسكت بملبسه - لو عرضناها على الناس عرضاً ما جاءت بنصف ثمنها ... ولكن شدة حرص خير الدين على مال الدولة السعودية وأمانته لها ، وخوفه على تقودها من الضياع عبثاً وهدرأ ، وحتى لا آكلها بدون حق ولا استحقاق ، جعله يصر على إنقاذ مال الحكومة السعودية منى ويرفض الأدوية ... وأما هو فلا بأس من أن يقبض من مال الدولة السعودية مرتباً ضخماً وأن يمتلك منه عمارات وفيللات وسيارات ثم رتبة وزير مفوض بعد ذلك بدون حق ، ولا استحقاق ، وبدون أن تستفيد منه الحكومة السعودية عملاً أو سعيّاً فى الدفاع عنها ولا كلمة فى سبيل إعلاء كلمتها سوى إخلاصه ليوסף ياسين ! وأما أنا الذى أدافع عنها وأساير سياستها وأحبس فى سبيل الله مراراً وتكراراً فلا يجوز أن آخذ ثمن المثل لتلك الأدوية ، التى بعثها بعد ذلك بضعف المبلغ الذى رفض خير الدين أن يأخذها به ...

إن الذين يعرفون ماهى علاقتى بخير الدين منذ ربع قرن ، والذين قرأوا جريدتى الشورى

وماذا كانت تكتب عنه ، والذين اطلعوا على مواقفي معه - بشهادة رسائله الشخصية لي التي لا تزال عندي وقصيدته عني ، إن هؤلاء هم الذين يدركون غرابة عقوق خير الدين وأنا سجين ، وتنكره لي بعد ذلك وأنا شبه أسير ، ويكفي قصة هذه الأدوية ، وقبلها قصة الوفد الذي راح إلى المفوضية السعودية ليوسطها من أجل .

ومعذرة من القراء إن تكلمت هنا عن نفسي ، لأن الكتاب كله هو عبارة عن مفكرات ومذكرات مني ، وأنا لم أزعم لأحد أنني أسطر كتابا في العلم أو في الهندسة ...

جاء السجن !

كانت طفلاتي الوحيدة «جهاد» مريضة وعمرها ٨ أشهر فكانت أمها تأتيني بها إلى السجن في أيام الزيارة فألقاها في مكتب مدير السجن فأسر بها . وقد ذكرت في صفحات مرت أنه «لما زارتنى قرينتي لآخر مرة ولم تكن «جهاد» معها استغربت ذلك فقالت إنها مصابة بركام وإنها فضلت تركها في الدار لإتمام العلاج ، فطلبت إحضارها في الزيارة القادمة مهما كانت مريضة وكنت أرجح أنها بعد هذين اليومين ستبرا لأن مرض الصغار سريع الزوال» .

وفي صباح اليوم التالي فتح باب السجن بغتة فأيقنت أنه الإفراج ودخل الجندي وهو يقول تفضل والبس ملابسك . ففرحت وأخذت أجمع كتبي وأنا أفكر في حالة السجن الذي دعاني للخروج ، فهو لم يقل كلمته بفرح وسرور كمادة السجنانيين وهم يبشرون السجناء بالإفراج وما يصحبه من ابتسام ورقة انتظارا « للبخشيش » بل كان الرجل واجماً مقطباً ، فلبست ومشيت معه إلى مكتب مدير السجن فوجدت ضابطاً وبعض الجنود فمشيت معهم إلى سيارة معدة لذلك فانطلقت بنا وأنا أظن أنها ستتجه إلى رئاسة الوزراء لمقابلة الرئيس الذي سيفرج عني هناك بعد أن يسمعي شروط الحكومة . ولكن السيارة مالت إلى جهة شبرا فسلأت رئيس القوة إلى أين ؟ فقال لتحضر الجنازة ، فقلت أية جنازة ؟ فقال جنازة الطفلة . فكدت أصعق من هذا النبأ الصاع بعد أن كنت أظن أنها ستشفى وأتى بعد يومين سألقاها وأقبلها وأداعبها فأظلمت الدنيا في وجهي وأخذ الحزن مني مأخذا عظيما لم يسيطر على مثله طول حياتي فيا للآباء كم تتمزق قلوبهم لفقد الأولاد .

وصعدت إلى الدار فوجدتها مملوءة ببعض الأقارب والأصدقاء نساء ورجالا فدخلت

غرفة جهاد فإذا هي مسجاة في فراشها ، خملتها جثة هامدة وقلبي يتفطر حزناً وجزعاً ، قبيلتها وضممتها إلى صدري ثم مدتها على الفراش وغادرت الغرفة إلى الصالون حيث كان يجلس بعض الأصدقاء الذين أخذوا يعزوني ويهونون على الخطب ، ولكن هيهات لقلب الوالد أن يعرف العزاء على فلذته ، وخصوصاً إذا فقد وحيدته . وقد قام الأهل والأصدقاء بدفن الطفلة بينما أرجعني الحرس إلى السجن دافع العين ممزق الفؤاد أردد قول أبي العتاهية لما فقد ولده:-

كفى حزناً بدفئك ثم إنى نفضت تراب قبرك من يديا
وكنت وفي حياتك لى عظات فأنت اليوم أوعظ منك حيا

رجعت إلى ززانة السجن وأنا في هذه الحالة الأليمة من الحزن وفؤادي يتمزق أسي ، فأخذ السجناء يتوافدون عليّ ، يعزوني ويخففون عني . هكذا كان حالي ، وأما قرينتي فإنها لما مضوا بجثمان الطفلة وقعت على الأرض مغشياً عليها .

أحد الأجانب

وفي صباح اليوم الثاني نشرت جريدة الأهرام نبأ في سطرين قالت فيه إنه « سمح لأحد المعتقلين الأجانب بحضور جنازة كريمته » هذا كل ما سمحت الرقابة الإنكليزية بنشره في الصحف . . . والظاهر أن الرقابة على الصحف الأسبوعية كانت أخف فتمكنت جريدة مصر الفتاة بعد أيام من نشر الكلمة الآتية التي سطرها صديق المجاهد أحمد حسين وكان قد حضر يوم المصيبة وشهدها بنفسه :

« في وسط الظروف الحاضرة التي تحيط بالأستاذ محمد علي الطاهر المجاهد العربي الإسلامي المعروف ، يزيده الله امتحاناً بأن اختار إلى جواره يوم الأحد الماضي كريمته الوحيدة « جهاد » ولقد كانت المناسبة التي علم بها والد جهاد بفقدتها تكفي لأن يتضعض لها جلد أصلب الناس عوداً ، ولكن الإيمان الذي منحه الله إياه أنزل السكينة على قلبه ، كما أنزل السكينة على قلب زوجته الفاضلة فتقبلاً قضاء الله بالرضى ، ونحن نعزي أبا الحسن وأسرتة أصدق العزاء » .

كبد غليظ وعاطفة كريمة

زارتني قرينتي صبيحة اليوم الثاني لوفاة جهاد وكان مما قصته على أنها لما شعرت بخطورة

حالة الطفلة ذهبت إلى جارنا الدكتور ... وكان يسكن في الطابق الذي تحتنا فطلبته لإسعاف الطفلة فلم يلب طلبها بحجة أنه تعب ... فذهبت إلى جارنا الآخر الدكتور عثمان لبيب فبادر من فراشه وركض وأسعفها ، ولما أرادت قرينتي أن تقدم له أتعاب العيادة أبى محتجاً وقال كيف آخذ مالا وزوجك مسجون في سبيل الله .

ولما انتهت المحنة أردت أن أزور هذا الطبيب النبيل وأشكره فعلمت أنه توفي فحزنت عليه حزناً شديداً رحمه الله . وكان مما روتهُ لي قرينتي أنها لما رأت الطفلة قرب منتصف الليل تلحق بربها اتصلت بواسطة التلفون بتحسين بك العسكري وزير العراق المفوض وبأنطون باشا الجليل رئيس تحرير الأهرام للتوسط عند رئيس الوزراء حسن صبرى باشا للسماح لي بمغادرة السجن في الصباح لأحضر جنازة الطفلة ، فبادرا إلى التوسط وأصدر رئيس الوزراء أمره بذلك فوراً . ولكن سجاننا محمد يوسف ضابط البوليس الموكل بتعذيبنا لم ينفذ أمر الرئيس إلا بعد أن أرسل ضابطاً إلى دارنا ليحقق ويدقق ويتأكد من وفاة الطفلة !

مجاملات طيبة

— بلغني أن عدداً كبيراً من الأصدقاء لما بلغهم نبأ حبسى ووفاة الطفلة زاروا المنزل ومنهم الدكتور أحمد عيسى بك وعوني عبد الهادي بك والأستاذ كامل كيلاني والميرزا مهدي رفيع مشكي بك والدكتور نجيب كحيل بك الخ ووردت رسائل من النائب النبيل محمود لطيف بك من بني سويف ومن أحمد حلمي باشا من القدس ومن رشيد بك الحاج ابراهيم من حيفا والدكتور أحمد الطاهر من نابلس ونيه بك العظمه من دمشق والأستاذ أكرم زعير والأستاذ مصطفى الطاهر ببغداد ومن اخوتي بفلسطين الخ الخ .

— ورد كتاب لأهل بيتي من الدكتور حافظ عفيفي باشا يبدى فيه أمله من حبسى وأنه سعى ويسعى للإفراج عني ويطمئن العائلة ، ثم بلغني أنه أرسل إلى الدار وكيله الخاص يعرض على قرينتي كل ما تحتاجه من مال ، فشكراً له .

— ورد من الأستاذ طه الفياض العاني وبعض أدباء وفضلاء البصرة كتاب إلى أهل

بيدي بيدون أسفهم وألمهم من حبسى وأرسلوا ١٨ جنيتها على أنها قيمة اشتراكتهم في جريدتي قائلين إنها لولا الحرب والحبس ما وقفت وأنهم لذلك يعتبرونها موجودة رغم عدم صدورها فكان لهذه العواطف النبيلة أثر طيب في نفسى ، لأننى فهمت منها أن الدنيا لم تحل بعد من الأوفياء .

مفاوضة مع الإنكليز

كتبت سراً إلى الدكتور حافظ عفيفى باشا أشكره على ما كان من عواطفه الطيبة وأرجوه أن يتوسط مع الإنكليز لإطلاق مقابل خروجى من القطر المصرى إلى الحجاز على أن أبقى هناك طول مدة الحرب ، فاتصل بهم وحادثهم ثم أرسل يقول إنهم رفضوا وقالوا إن إطلاقى حراً فى مصر أهون عليهم من خروجى إلى جزيرة العرب أهيج عليهم وأحرض ... خذوا حذرکم

لا أزال حتى الآن سجيناً ، ومريت الأيام وأمر الإفراج الذى وعدنا به حسن صبرى باشا رئيس الوزراء لم يصل فيئست ، وراح أصدقائى يبحثون عن السبب فعلموا أن جماعة الأمن العام قد أرجأوا تنفيذ أمر رئيس الوزراء ٢٤ ساعة حيث تمكنوا فى خلالها من الاتصال بالسلطة البريطانية وإشعارها بأن رئيس الوزراء سيفرج عنى . فبادرت السلطة وكتبت مذكرة سريعة إلى الرئيس تطلب فيها « شدة التحفظ على وعدم الإفراج عنى لوجود مسائل خطيرة تستدعى ذلك ... » فأسقط فى يد الرئيس وتوقف إطلاقى من السجن بينما يفاوض الرئيس السلطة العسكرية ويقنعها بإطلاقى ، وإذا برئيس الوزراء ينتقل إلى رحمة الله بعتة وهو فى البرلمان يلقي خطاب العرش .

يأس بعد أمل

كانت الخيبة عظيمة لما توفى صبرى باشا الذى عقدت الأمل عليه ، وقد زاد فى اليأس أن الذى تولى رئاسة الوزارة بعده هو حسين سرى باشا وهو رجل لم يكن الشعب يحبه ، فكيف الإفلات من السجن على يد رجل لا يعرف شيئاً عن العروبة وأهمية مكانة مصر

في العالم الإسلامي ، ولا يهتم إلا المسائل المحلية وملاطفة الإنكليز^(١) وفيما كنت في هذا وجدت من الأوفى أن أصبر قليلاً لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، فتناولت القرآن الكريم وأخذت أتلو بعض آياته التي كلما قرأها الإنسان وجد فيها شيئاً جديداً فيه أسمى المعاني وأجملها وأجلها . وفي إحدى المرات فتحت المصحف فإذا بي أقرأ في سورة يوسف آية « رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه » فذكرتني هذه الآية الكريمة بعبارة قالها أحد ضباط قلم الجواسيس لقرينتي وهي « إن رأس زوجك يابس جداً فلو أنه بقي يصدر الجريدة ومشى مثل غيره لما حبس ولا طورد ، انهم يضايقونه لعله يرجع إلى الصواب ويخضع » فتعجبت من هذه المصادفة وتذكرت قول المعتمد بن عباد لما انكسر في أشيلية أمام جيوش ابن تاشفين .

قالوا الخضوع سياسة فليد منك لهم خضوع

وألذ من طعم الخضوع على في السم التقيع

ثم تناولت قصة لتمضية الوقت فإذا هي رواية « بول وفرجينى » التي مر ذكرها . وقد قلت إنها من روائع الأدب ، فأخذت أكمل قراءتها فوجدت الشيخ العجوز صديق « بول » يتحدث عن العلم والأدب وأنهما أرفع ما يتحلى به الإنسان ويقول :

« كان الأدباء والعلماء فيما مضى يثابون بمناصب يشغلونها في الكنيسة والقضاء والإدارة .

أما الآن فلا عمل لهم إلا وضع الكتب ، وإذا فاتهم الثواب في هذه الدار فلهم الثواب في الدار الآخرة ، لأنهم بالكتب ينشرون الفضائل ويواسون البؤساء ، ويهذبون الشعوب . ويقولون الحقيقة حتى للملوك . وليس هناك شك في أن صناعة الأدب هي أكرم صناعة يشرف بها الله الإنسان في الأرض ، وأى إنسان لا يتعزى على ظلم الأغنياء واحتقارهم كلما فكر في أن كتابه سيخلد على الدهر . وسيكون في كل جيل وكل أمة قذى في عيون الطغاة ، ورماداً في أفواه الظالمين ، وهدى للضالين ، وعزاء للمنكوبين ، وفي أنه أصاب وهو في صومعته

(١) أرجو أن يعذرني سرى باشا ، لأنى أسطر أحاسيس كانت موجودة قبل عشر سنين ، وأصور حالة كانت واقعة . أما الآن فإني أحمد له إسرعه بالإفراج عني من المعتقل الثانى الذى وجدنى فيه مرة أخرى ، حين حبسنى إبراهيم باشا عبد الهادى سنة ١٩٤٩ عدواناً منه وغروراً ، وقد سجلت قصة ذلك الاعتقال فى كتاب سميت به « معتقل ها كستب » وقد شكرت فيه حسين سرى باشا عمله الطيب معى ومع غيرى .

مجداً يهجر مجد الملوك الذين يحجر عليهم الزمن ذيول النسيان ، وإن أقام لهم المتزلفون عشرات
النصب والتماثيل^(١) .

قرأت هذا الأدب الرفيع وأعدت تلاوته وأنا نشوان ببلاغته مأخوذ بجماله ، وسمو معانيه
وقد وجدت فيه بعض العزاء لما أنا فيه من حبس يضيق الصدر ويضغط على الدماغ ، فتضيق
بى الدنيا بما رحبت بل تضيق « ززانة السجن » فوق ضيقها ، ولكن حديث الشيخ
العجوز صاحب بول قد فرج عني قليلا وجدد حقدى على المستعمرين فأخذت أقول لنفسى :
يكفينى شرفاً اننى سجنى بلا جريرة ، وإذا كان لى من ذنب عند الإنكليز فهو ماخطه
قلمى ضد استعمارهم وهو يملأ مجلدات ، وكله مما يشرفنى ، وسيظل ما أكتبه خالداً على الدهر ،
وسيكون قذى فى عيون الظالمين وعزاء للمنكوبين ...

صالح باشا حرب ورئيس الوزراء

زار صالح باشا حرب رئيس الوزراء وكلمه فى مسألتى فقال سأراجع أوراقه وأدرس مسأله ...
فقال له صالح باشا إن الرجل موجود فى سجن مضيق انفرادى وهذا لا يجوز ثم قال له صالح
باشا إنه كان مديراً عاماً للسجون فكان لا يضع فى السجن الضيق الانفرادى إلا الأشرار الذين
يرتكبون ذنوباً وهم فى السجن ، وأما الطاهر فهم يضعونه فى السجن الانفرادى وهو برئ
أصلاً وفعلاً ، فوعد رئيس الوزراء بعمل شئ سريع ، ولكنه لم يفعل .

(١) زارنى قبل السجن والمحن ، صديق الأستاذ كامل كيلانى العالم الأديب ، الذى لقبه المرحوم الأمير
شكيب أرسلان « بالأديب الكامل الأدوات » فقد وجده الأمير أديباً حافظاً عالماً لغوياً وشاعراً ، فلقبه
بهذا اللقب الخالد ، قلت إن الكيلانى زارنى ، وكان يومها مهموماً منقضا ، وراح يشكو لى مما يلقيه من
صديقه وزير الأوقاف الشيخ مصطفى باشا عبد الرازق ، وكان الكيلانى موظفاً معه بوزارة الأوقاف فقلت
له لا تحزن مما ترى من عدم تقديره لك . فأنت أعظم منه ، لأن الشيخ مصطفى إذا كان يعد فى نظر الناس
موظفاً كبيراً فأنت فى نظر التاريخ مؤلفاً كبيراً ، فغداً يسبل الزمن ذيول النسيان على وزيرك هذا وتبقى
أنت بمؤلفاتك حياً خالداً . فكانت هذه التعزية على نفسه بلسماً ، ومرت السنون وتوفى الشيخ مصطفى ونسيه
الناس فعلاً ، وبقي الأستاذ كيلانى يحجر ويؤلف ويصنف حتى أصبح من أشهر أبناء هذا العصر .

خواطر في السجن

الأيام تكرر والأسابيع تتوالى وأنا أنتظر الإفراج عني . وهل يفكر السجين في شيء غير إطلاق حريته ؟ وكان يعزيني ويهون عليّ أن الإنكليز أنفسهم كانوا يتعذبون أكثر مني . فإن أخبار الحرب كانت كلها تبشر بانكسارهم وتصف تحطيم عاصمتهم لدرجة محزنة ، ويأويح من يرثي له الشامت ! مثال ذلك هذا الخبر وهو : « مرت سفينة بقنال بناما تحمل ٧١٠ أطفال إنكليز هربوهم من انكلترا إلى نيوزيلاند خوفاً عليهم من الغارات الجوية الألمانية ، ووصلت الباخرة ساماريا إلى نيويورك تحمل الدفعة الأولى من أطفال لندن وهي ١٣٨ طفلاً وسيصل غيرها ، ووصلت باخرة تحمل ٤٥٠ طفلاً إلى جنوب أفريقيا » . فشمت وقت في نفسي زادهم الله تشيتاً كما شئتونا وخربوا بلادنا . ثم قرأت « اشتدت الغارات الجوية الألمانية على لندن في الليل وفي الصباح فأحدثت تدميراً أزال أحياء برمتها من عالم الوجود وقد أصيب قصر بكنجهام الملكي فنزح ملك الإنكليز والملكة عنه وقد زاد في الذعر أن القنابل الألمانية كانت من النوع الصارخ الذي يهدم ضحيجه الأعصاب ويطيح العقول » .

تهمة اتصالي بالاطليان

هكذا بلغني ، فكيف العمل لدحض هذا الاتهام وأنا مسجون وهم لا يحققون ولا يسألونني ، ولكنهم يقولونه لتشويه سمعتي وتسويغ حبسي ، ولكن ماذا عليّ لو اتصلت بالاطليان والألمان ليساعدونا على الخلاص من الإنكليز ؟ ألم يقل المستر تشرشل إنه مستعد لأن يستعين بالشیطان ليخلص انكلترا من الألمان^(١) ؟

(١) بعد هذه الخواطر بعامين فقط، ذهب المستر تشرشل إلى روسيا ووضع يده في يد ستالين بعد أن كان يسميه بالشیطان الأحمر ! وهكذا فإنه لا يجوز لنا أن نستعين بالشیطان الأزرق لنخلص من العدوان في حين أنه يجوز لتشرشل الاستعانة بجميع الشياطين ليتمكن من الاعتداء على أوطان الناس .

مناسبة الاستعانة بالشیطان

وهنا تذكرت حادثة ومحادثة وقعتا في القدس بيني وبين نائب المندوب السامي البريطاني بفلسطين في أوائل سنة ١٩٣٦ وقبل ثورتها المشهورة . وهي حكاية ذات علاقة بالاستعانة بالشیطان . فقد سمح لي الإنكليز بزيارة الوطن الأول أو الوطن القديم - فلسطين - وأعطوني إذناً بالإقامة فيها مدة شهر واحد فقط :

وقبل مضي الشهر عازمت على الرجوع إلى مصر ، وإذا باخطار يصلني من إدارة الأمن العام ينذرنى بالخروج من فلسطين في خلال أسبوع وإلا اتخذوا معى الإجراءات القانونية ! فاندعشت من هذا التصرف ، لأننى فى وطنى فكيف يوجهون إلى مثل هذا الإنذار . ثم تأملت الورقة فإذا هى بإمضاء موظف عربى من أعوانهم ، ولم أجهل أن من عادة الإنكليز فى المستعمرات أنهم إذا أرادوا اجترأح أمر مع أحد الوطنيين استخدموا لتنفيذه إمضاء أحد مواطنيه واختبأوا خلفه ليقعوا العداوة بين الناس ، أما إن أرادوا عمل شئ محمود فهم يجعلون أحد الإنكليز يعضية ليشعروا أهل المستعمرات بفضيلهم ! فكلفت أحد معارفى أن يراجع رؤساء هذا الموظف على ظن أنهم أصدروه عن سهو أو بقصد الدس والإزعاج ، فقبل للوسيط بل هو أمر من إدارة الأمن العام وأنها تنوى تنفيذ ما فيه ، ومنه القبض والمحاكمة والحبس والإبعاد والحرمان أيضاً من دخول فلسطين إن أردت زيارتها مرة أخرى . عند ذلك تناولت ورقة وكتبت إلى المندوب السامي البريطانى بالقدس أحتج على ذلك الإنذار وأقول له إننى كنت على وشك السفر قبل نهاية الشهر المسموح لى به ولكن بعد وصول هذا الإنذار المبهين لايسعنى إلا الاحتجاج عليه والبقاء فى فلسطين إلى الأبد ، لأن البلاد بلادى والوطن وطنى وللحكومة المحتلة أن تصنع ما تشاء ، ثم أمضيت هذا الكتاب وأرسلته بالبريد مسجلاً وقعت أتنظر استعمال القوة ، مستعداً لتحمل نتائج هذا التحدى مهما كانت . وبعد إرسال الاحتجاج ذهبت إلى القدس واستدعيت بعض أصدقائى لموافقى فى مكتب المجاهد الكبير أحمد حلمى باشا « رئيس حكومة فلسطين بعد ذلك » وقصصت عليه وعليهم قصة الإنذار وأطلعهم عليه ، ولكنى كتمت عنهم الرد الذى أرسلته للمندوب السامى ، ثم طلبت رأيهم فى الأمر .

وهنا ظهرت نفسية بعض الحاضرين وتجلت رجولة بعضهم ، فالذين يوصفون اليوم بأنهم من الجيل الجديد أخذوا يشيرون على " بإطاعة الأمر الحكومى ، وراح أحدهم وهو موظف قانونى فى الحكومة يصف لى عواقب العصيان وأنه سيؤدى إلى القبض والمحاكمة والحبس الخ .

فقلت لهم إن إطاعة هذا الأمر فيها إهانة لى ولكم وللبلاذ كلها . ولذلك أفضل أن أتحمل فى سبيل الوطن ومن أجل كرامتكم كل نتيجة حتى لا يتكرر هذا العمل مع سواى . ولكن رجال الطراز الجديد أضروا على وجوب الطاعة وقال أحدهم : وهل يمكن للكف أن يلاطم المخرز ! وأما رجال الطراز القديم كأحمد حلمى باشا ونبیه بك العظيمة فقد كان رأيهما من رأى وهو الرفض والاحتجاج وتحمل العواقب .

عند ذلك أخرجت لهم من جيبى مسودة الكتاب الذى أرسلته إلى المندوب السامى بالأمس وأطلعتهم عليها ، فنهض حلمى باشا ونبیه بك وأخذا يقبلاننى ويقولان : هذا عمل رجال ولا يجوز إلا هذا . وبعد يومين وأبأ فى وادى حنين أتناول فطور الصباح فى دار صديق الكبير توفيق بك الغصين « رحمه الله » إذا بالتليفون يقرع من القدس وكان المتكلم روحى عبد الهادى السكرتير العربى لحكومة فلسطين « وزير خارجية حكومة الأردن بعد ذلك » فطلب منى أن أركب فوراً إلى القدس لمقابلة القائم بأعمال الحكومة لغياب المندوب السامى عن البلاد فرفضت إلا أن أجيء غداً ، فرضى وحددنا الساعة الحادية عشرة صباحاً . لقد كان فى إمكانى أن ألبى ذلك الطلب فى حينه لأن المسافة بين القدس ووادى حنين تقطع فى ساعة وبعض الساعة ، ولكنى كرهت أن أسافر فوراً حتى لا يكون فى إسراعى معنى الطاعة .

عند عميد الاستعمار

وفى اليوم الثانى كنت قبل الساعة الحادية عشرة بدقائق أصعد درج دار حكومة فلسطين البريطانية التى لا أعرفها قبل ذلك ، وما كنت أريد أن أراها فى حياتى فإذا بروحى عبد الهادى ينتظرنى فنهض وأخبر نائب المندوب السامى بمجيئى . لأن المندوبين السامين فى

فلسطين كانت لهم تقاليد الملوك في مقابلاتهم، ولا حول ولا ...

استقبلني نائب المندوب السامي المستر مودى ببشاشة وإكرام وأمر لي بالقهوة ثم فتح الحديث وسألني إن كنت أتكلم الانجليزية، فقلت قليلاً، فقال وأنا أتكلم العربية قليلاً، فقلت - إذن يسمح صاحب السعادة لروحي افندى بأن يترجم فوافق، وأخذ المذكور بالترجمة.

قال المستر مودى: أولاً أنا آسف جداً للأسف للحادث الذي وقع لك من إدارة الأمن العام فهي غلطة منهم ولم يأخذوا رأيي في إرسال الإنذار إليك ولما وصلني كتابك أمرتهم بإيقاف الإجراءات فوراً وأرجو ألا يكون الحادث قد أزعجك. فشكرته وقلت إنه أزعجني بلاشك، لأن البلد بلدى والوطن وطنى فعائلتي وإخوتي وأخواتي لا يزالون كلهم فيه وكذلك أملاً كنا وأوقفنا، كما إنى ولدت هنا، فلسطين هي بلادى فكيف أطرده منها على هذه الصورة، وإنى أرجو أن تضع نفسك مكانى وتخبرنى كيف يكون شعورك وماذا كنت تصنع أمام هذا الحادث؟ فسكت لحظة ثم قال: الحق معك وقد أمرت بإلغاء الإنذار وبالسماح لك بالبقاء في فلسطين كل المدة التى تريدها، ثم استدرك وقال: عندك شهر آخر أو اثنين أو ثلاثة. فقلت: إذن فأنت لا تزال تعتبرنى أجنبياً عن فلسطين بتحديدك لى مدة معينة ولا تتركنى أمكث فيها كما أريد. فقال إنه القانون! فقلت ولكن هذا القانون لم نضعه نحن أصحاب البلاد بل وضعتموه أنتم وحدكم، فقال إنى أقصد أن المسألة معلقة على أوامر لندن، فقلت بأى حق تعتبرنى لندن أجنبياً وكل شئ يشهد بأننى ابن هذه البلاد بينما قانون لندن يعتبر اليهودى البولونى المهاجر فلسطينياً؟ فقال هذه سياسة عليا وأنا لا أتدخل فى السياسة، فقلت اذا كنت يا صاحب السعادة وأنت نائب الملك لست سياسياً فمن يكون السياسى فى هذه البلاد؟ وهنا سكت نائب المندوب لحظة ثم استعمل الصراحة فقال: أنتم المتطرفون تستعينون بالأجانب علينا وتغتمون فرصة خلافاتنا مع ايطاليا مثلاً وتتصلون بهم! فقلت ان هذه التهمة توجهها بريطانيا للوطنيين فى جميع المستعمرات، فإن اختلفت مع البلشفيك اتهمت الوطنيين هنا وفى الهند ومصر بأنهم بلاشفة، والآن تختلفون مع ايطاليا فتتهموننا بالفاشية وغداً تختلفون مع ألمانيا فتتهموننا بالنازية، والحقيقة إننا لم نتصل بدولة أجنبية ولو وجدنا

هذه الدولة ما ترددنا في الاستعانة بها ، ولو ساعدنا اليهود عليكم لما أحجمنا عن الاستعانة بهم، فقال لماذا تشعرون نحونا بكل هذا الكره ؟ فقلت نحن لا نكرهكم ولكننا نحب بلادنا فلو وجدنا مساعدة من الشيطان على الخلاص منكم لرحبنا بالشيطان. ثم إنى أسألك كيف يكون شعورك كإنجليزى لو اغتصبت أمة أخرى بلادكم وجلبت لها أفواج المهاجرين ليحلوا محلكم، ثم حرمتكم الدولة المحتلة الجنسية البريطانية ومنحتها للغرباء الذين أتى بهم للحلول محلكم. ثم تقول لكم اخرجوا منها فأنتم فيها أجانب ! فقال تلك مسألة أخرى ، فقلت لا بل هى إياها . وهنا وقف وكيل نائب الملك إيداناً بانتهاء المقابلة ومد يده مصافحاً فودعته وغادرت دار الحكومة. إذن فمسألة الاستعانة بالشيطان للخلاص من المصائب هى مسألة قديمة وليس الإنكليز هم أول من فكر فى الاستعانة بالشيطان، حيث استعانوا به بعد ذلك ونجحوا ، فليتنا نجد شيطاناً يساعدنا على الخلاص من الاستعمار البريطانى وغير البريطانى ...

الاستشهاد بالسنوسيين

ولنرجع إلى حكاية اتهاى بالاتصال بالطليان ، فكيف السبيل إلى دحضها وأنا سجين؟ فكرت طويلاً إلى أن خطر ببالى أن أقضى على شقشقة الجبناء الذين يهتموننى ولا يحسرون على مواجهتى أو التحقيق معى ، وذلك بالاستشهاد بالسنوسيين أنفسهم ، فهم ضحايا إيطاليا وأصدقاء انكلترا ، فشهادتهم عن شدة عداوتى للطليان لا يمكن ردها فتناولت جريدة مما عندى وكتبت بين سطور جانب منها الكلمات الآتية للشيخ محمد الأخضر العيساوى الطرابلسى وهى : بلغنى أن الإنكليز يوهمون الحكومة المصرية اننى من أصدقاء الطليان وحيث ان السادة السنوسية هم أعلم الناس بشدة عداوتى للطليان ومتانة صلتى بالمرحوم والدهم السيد السنوسى الكبير وكيف أنه دعى لى فى الحرمين الشريفين كما أن صلتى بالمرحوم السيد عمر المختار معروفة عندك وعندهم فإن واجب الشرف يدعوهم لأن يذهبوا إلى رئيس الوزراء وأن يشهدوا لى أمامه بما يعلمونه عن « صداقتى » للطليان وكيف أننى فى جريدتى وبعدها لم أنفك عن عداوتهم أكثر من عشرين عاماً » ثم تناولت الملابس المعبدة للغسيل ولفقتها بالجريدة ، ثم طلبت من قرينتى أن ترسل الخادمة بعد يومين لأخذ هذه الملابس وأن

تحرص على الجريدة الملفوفة بها وتفتشها وتنقل على ورقة أخرى جميع ماسطرته بين سطورها وتسلم الورقة للدكتور مصطفى بشناق بك فيذهب بها إلى الرواق العباسي بالأزهر ويسلمها إلى الشيخ أحمد محمد نعمان اليماني وهو يسلمها إلى الشيخ الأخضر الذي يسكن بجوار الأزهر . وقد نفذت هذه الخطة بأكملها فهدأ بالي وأخذت أنتظر نتائجها الطيبة ، لأن شهادة السنوسيين وهم حلفاء الإنكليز ستهدم في نظر رئيس الوزراء بشكل قاطع تلك الفرية التي يفترونها على .

استدراك عن الأخضر ونعمان

أما الشيخ محمد الأخضر العيساوي فهو من فضلاء طرابلس الغرب وبرقة وتربطني به صداقة نشأت قبل خمسة وثلاثين عاماً لما كنا معتقلين معا في الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٦ بمعتقل الجيزة ، وبعد بضع سنين أصدرت الشورى فكان الأستاذ الأخضر خير واسطة بيني وبين مجاهدي طرابلس وبرقة وخصوصاً مع البطل الشهيد عمر المختار رحمه الله حتى انني جمعت له إعانة مالية صغيرة أرسلتها إليه بواسطة الأستاذ الأخضر فجاءني بكتب من السيد المختار بالشكر وبوصول الدراهم إليه ، ولا تزال مكاتيب المرحوم المختار عندي حتى الآن ، كما أن عندي بضع رسائل من المرحوم السيد أحمد الشريف السنوسي الكبير رحمه الله أرسلها إليّ من مهجره في الحجاز قبل وفاته يشكرني فيها على دفاعي عن الطرابلسيين والبرقاويين ومساعدة المجاهدين ، وكنت قد نشرت رسالتين منها في الشورى وأما أصلهما فلا يزال عندي بإمضائه وختمه حتى الساعة ، ومما يذكر في هذه المناسبة أنه لما اطلع عبد الرحمن باشا عزام في جريدتي الشورى على رسالتي السيد السنوسي كلني بالتلفون من داره بحلوان وقال إنه اطلع على الكتابين وأنه يرغبني على محبة السيد لي وتلقيه إياي بولده ودعواته لي بالحرم المكي وبمسجد الرسول ، وبشرني بأنه لن يصيبني مكروه بإذن الله طول حياتي لأن دعوات السيد مستجابة وما دعا لأحد وأصيب بمكروه .

ملحق: بعد كلام عزام بعشرين عاماً انقلب عزام على وخذلني وأصبح يناوئني ويكيد لي ، جزاء ما أسديت إليه - حسب عادة البشر منذ الأزل - ولكن المولى سبحانه أنقذني من كيده

وأنجاني وحفظني من المكروه الذي دبره لي هو نفسه ، وبذلك صح ما قال عزام عن استجابة دعاء السنوسي لكل من دعى لهم بل جربه بنفسه ...

من هو نعمان؟

وأما الشيخ أحمد محمد نعمان فهو أحد سادات اليمين وكان يزور مصر زيارة استطلاع فهاله أن يرى سوء حال اليمين بالنسبة لمصر فرجع إلى وطنه وسكن في عدن واشترك مع أحرار اليمين في قيادة الحركة القائمة بطلب الإصلاح . ثم حدث في أواخر شهر فبراير سنة ١٩٤٨ أن وقع اعتداء جنائي على حياة الملك الشهيد الإمام يحيى ملك اليمين فاغتاله مجرمون هو وزيره الأول المرحوم السيد عبد الله العمري واستشهد معه ما حفيد لجلالة الإمام ، ثم اعتداء ثان في نفس اليوم على الأميرين الحسين والحسن من أنجال الإمام فاستشهدا أيضاً رحمهم الله جميعاً ، فكان لهذه الجريمة البشعة صدى سيء طبق أرجاء الدنيا استنكاراً لها ، وقد بويع على أثر ذلك إمام جديد هو السيد عبد الله الوزير فألف حكومة جعل فيها السيد أحمد محمد نعمان وزيراً للزراعة ، ولكن حكم ابن الوزير لم يدم طويلاً ، فقد أنهار بعد شهر واحد . وقد بلغني في إبريل سنة ١٩٤٨ أن السيد أحمد نعمان قد وقع في يد حكومة اليمين فقتلته بقطع الرأس وقيل إن القتل جرى وهو في القيود تحت التعذيب ، فكان لمصرعه صدى استنكار في العالم العربي واعتبر شهيداً وطنياً ، لأنه لم يقتل ليحوز إعدامه ، ولا يمكن أن يقبل العالم العربي أي عذر لحكومة اليمين مهما استشهدت بالآيات القرآنية لتبرر قتله ، لأن الناس يحفظون آيات قرآنية كثيرة تحرم قتله .

ملحق : كتبت القصة السالفة في أوائل سنة ١٩٤٨ على أثر استشهاد المرحوم الإمام الكبير ، ولكن اتضح بعد ذلك أن جلالة ولده الأكبر الإمام أحمد ملك اليمين الجديد لم يسمح بقتل الشيخ أحمد نعمان بل أطلقه من سجنه لما ثبتت براءته ثم عينه مديراً لمعارف حجة ، فكان لهذا الغفو الملكي الكريم صدها الطيب في جميع أنحاء العالم الإسلامي وقابله الجميع بالشكر والإكبار ، أدام الله جلالاته وخلد ملكه وأسعد به شعبه .

وقد راجعت نفسي في إبقاء قصة نعمان السابقة أو حذفها ، ولكنني وجدت من حق التاريخ أن أبقياها كما وردت لأنها تصور الانطباعات التي كانت في أذهان الناس في ذلك الحين .

وحكاية صاحبنا الشيخ نعمان هذه تذكرني بمحادثة مثلها وقعت في الحجاز قبل ربع قرن، وذلك أن الملك ابن سعود كان قد قبض على الشيخ محمد سرور الصبان في حادث تأمر على حياته ولكن برغم كل الأدلة التي قامت ضده رأينا الملك السعودي العظيم يطلق سبيله ثم يعينه مستشاراً لوزارة المالية، فكسبه الملك، وكسب معه قلوب الألوف من الخلق الذين يحبون الأستاذ الصبان ويحبون الملك السعودي ويحبون الغفو الجميل عند المقدرة .

وثيقة على سوء نوايا الإنكليز نحو السنوسى

وفي أثناء إعدادى الأوراق الأولى لهذا الكتاب سنة ١٩٤٧ تمكنت إحدى صحف القاهرة من الحصول على وثيقة إنكليزية عن نوايا بريطانيا نحو برقة وطرابلس الغرب، ونشرتها بالزئذكراف فكانت فضيحة للسياسة البريطانية وخبثها ما بعدها فضيحة .

والوثيقة هى توجيهات صادرة من إدارة الدعاية فى السفارة البريطانية بالقاهرة إلى إدارات الرقابة فى المستعمرات لتكليف ما ينشر عن موقف بريطانيا السرى نحو طرابلس وبرقة ، وتاريخ الوثيقة ١٥ يناير ١٩٤٢ - أى فى أثناء انكسارات الإنكليز فى الحرب - « تأمل » ! وكان موضوع هذا التوجيه أن لا ينشر شىء فى الجرائد عن تلك البلاد أو عن السنوسى يفهم منه أن بريطانيا وعدت بشىء يدل على استقلال حتى ولا حكم ذاتى ! بل يكتفى بأن يثبت فى الأذهان بأن بريطانيا وعدت الطرابلسيين والبرقاويين والسنوسى بأنهم لن يقعوا مرة أخرى تحت الحكم الإيطالى !!

ثم تقول الوثيقة « وحيث أن السيد السنوسى حساس جدا الآن فىجب حذف كل دعاية تظهر السنوسى بأنه مأجور لحساب الإنكليز ، وزحج بأن يشار إلى السيد السنوسى نفسه بعبارات تتضمن المديح والثناء مع تجنب التورط فى القول ان السنوسيين حلفاء أو أحرار » .

وقاحة الروس وإنسانية الأمريكان

لما هجمت روسيا على فنلندا ظلماً وعدواناً وأخذت تدمر مدنها ، أخذنا نسمع استغاثة الروس من فنلندا بدعوى أنها قد استعملت ضدّهم الغازات السامة ...
 أى والله ، الروس يستغيثون من الفنلنديين بدون خجل من الدنيا كلها . وإلا فمن ذا الذى يصدق أن دولة فنلندا تعتدى على الروس وهى تعد بالنسبة إليهم كالمئمة بجوار الفيل ، كما أنها ليست من الدول العسكرية أو الاستعمارية التى تفكر بالعدوان على الغير ، بل كان الروس هم الذين اعتدوا على فنلندا .

والعجيب أن أميركا بدلا من أن تصرخ فى وجه روسيا المعتدية ، راحت تباع أسلحة للطرفين ! ثم نشر رئيسها روزفلت نداء ينصح فيه الدولتين بعدم استعمال الطائرات فى ضرب الآمنين من المدنيين ثم إذا بأميركا نفسها تلقى بعد ذلك القنابل الذرية على اليابان فتمحو مدينتى هيروشيما وناجازاكي من الوجود وتبيد نحو نصف مليون من سكان المدينتين وكلهم أبرياء .

مخابىء الحرب

يظهر أن التضجر من حالة المخابىء التى يحشر فيها الناس خوفاً من الغارات قد عمت الجميع ، وقد أخذت الصحف تنشر بعض ما فيها من نوادر ، ومن ذلك ما وصف به أحد الشعراء صديقاً له أغمى عليه من الخوف قال :

أرأيت صنع محمد	فى مخبأ بالناس حافل
سمع الصغير مدوياً	فتفككت منه المفاصل
ما كان أشجعه فتمد	لاقى القنابل «بالقنابل» ..
ووهت عزيمته فأفلت	يابس منه وسائل
ويحى على رفقاءه	من قاتل هربوا لقاتل !

شئون شتی

من الذى صمم على الحرب

هذه ملحوظة غابرة أجبت أن أدونها لأن أحد أسانيدها وقع اتفاقاً فى يدي ، فأقول إن بريطانيا كانت تجتهد كثيراً فى إقناع العالم بأن ألمانيا هى المتسببة فى الحرب، وكانت انجلترا ترمى بذلك إلى غرضين: أولاً - كسب عطف الرأى العالمى عليها وتهيج به على الألمان. والثانى - أن تستطيع إن انتصرت أن تمزق الشعب الألمانى وتدوسه إلى الأبد مدعية أنها معذورة مادامت قد انتصرت بعد ظلم فلا يلومها أحد ، والحقيقة أن بريطانيا هى سبب الحرب أصلاً وفرعاً ، وهى دولة لا تعرف أن تعيش بدون أن تحارب ، وقد استعدت للحرب قبل أن تقع، وعقدت المحالفة التركية الافرنسية الانكليزية فى يونيو سنة ١٩٣٩ بعد أن نزلت فرنسا لواء الأسكندرونة من سورية ووهبته إلى تركيا كعربون على صدقها ... وفى الرابع عشر من ذلك الشهر أذاعت برقيات هافاس الافرنسية عن باريس أن مجلس النواب الافرنسى بحث مسائل الحرب فسردها رئيس اللجنة الحربية أمام لجنة البحرية الوسائل التى اتخذت فى الموانى الحربية والقاعدة البحرية فى المرسى الكبير بالجزائر ، وقاعدة سيجون فى الهند الصينية ، وأن الدارعة ريشليو والبارجة جان بار وحمولة كل منهما ٣٥ ألف طن على وشك الاستعداد للعمل . وفى نفس ذلك اليوم ١٤ يونيو أذاعت برقيات روتر عن لندن أن المستر هندرسون من حزب العمال سأل تشمبرلين رئيس الوزارة البريطانية: هل من سياسة الحكومة الموافقة على تعيين جنرال إفرنسى قائداً عاماً للجيش البريطانى والافرنسى فى وقت الحرب ؟ فقال رئيس الوزارة إن تنسيق القيادة وقت الحرب كان من جملة الأبحاث التى دارت بين الدولتين . الخ

لقد كان هذا كله قبل وقوع الحرب بثلاثة أشهر ، ثم يقول الانكليز إنهم ما أرادوا الحرب ...

مستند على براءة هتلر

وبعد تدوين الفصل السابق ومرور سبع سنين على ابتداء الحرب وقبل طبع هذا الكتاب أذاعت وكالة التلغرافات الافرنسية عن واشنطن فى ٢٤ اغسطس ١٩٤٧ أن وزارة البحرية الأمريكية نشرت وثائق رسمية عثر عليها فى محفوظات وزارة البحرية الألمانية ، وهى تفيد أن

ألمانيا في عام ١٩٣٩ كانت لا تنوى إعلان الحرب على بريطانيا العظمى إلا في عام ١٩٤٤ بدليل أن جميع الاستعدادات العسكرية الألمانية قد اتخذت على أساس هذا التقدير ، ولذلك فوجيء المهر هتلر بإعلان فرنسا وإنجلترا الحرب عليه في سنة ١٩٣٩ وقد جاء في أحد التقارير الألمانية أن الزعيم هتلر كان يعتقد حتى آخر لحظة أنه يمكن تجنب الحرب ، ولو بإرجاء المسألة البولندية . وجاء كذلك في هذا التقرير الذي وضعه الأميرال ريدير ، أنه لم يكن لدى ألمانيا في عام ١٩٣٩ سوى ٣٦ غواصة وأن البحرية الألمانية بوجه عام لم تكن مستعدة لخوض غمار الحرب ضد إنجلترا .

فهذه الوثيقة إذن قد برأت هتلر وأدانت إنجلترا وهو الأمر الذي يهيم الناس قبل كل شيء حتى إذا وقعت هذه الدولة في المآزق مرة أخرى كانوا على بينة من وقاحتها وجسارتها على الكذب بادعائها عدوان الدول والأمم الأخرى عليها بينما تكون هي المعتدية ، كما ثبت ذلك بعد الحرب الكبرى الأولى وكما ثبت بعد الحرب الثانية . فالهمم مما أوردته هنا ليس التدليل على براءة هتلر فهذا لا يهمني ولكن المهم هو إثبات مسئولية إنجلترا .

هل الاستعمار تجارة أم حب سيطرة ؟

وإني أحب أن أسجل هنا حديثاً دار في إحدى الليالي مع بعض الأفاضل إذ قص علينا الوزير السابق عبد الحميد باشا عبد الحق القصة الآتية التي لم يخطر لأحد من الجالسين أن ينشرها في الصحف ، ولكن الحوادث التي أقوم بتدوينها هنا ذكرتني بها قال الوزير : كنت مرة أتحدث إلى بعض أقطاب السفارة البريطانية في مصر ، فقلت له إنني زرت بلادكم وزرت السويد وألمانيا والدانمرك والنرويج ، فوجدت أن هذه الشعوب أرقى من إنكلترا وأكثر رفاهية ووجدت في عاصمتكم لندن مناطق فقيرة بائسة لم أر مثلاً في أوروبا . فإن كنتم تريدون بالاستعمار وبالاستيلاء على بلاد الناس ترقية الشعوب فالأولى أن ترقوا بلادكم أولاً ، وإن كنتم تريدون الترف والاستفادة فإني وجدت بلادكم أشد فقراً من سواها ، ووجدت حالة العامل عندكم وسواد الشعب دون حالة أمثالهم في دول أوروبا التي لاستعمارات لها . فلماذا تنفقون الملايين على التسليح وتستولون على بلاد الأمم الأخرى وتسفكون دماء رجالكم

وتعذبون تلك الشعوب ؟ فسكت القطب الإنكليزي . فاستطرد عبدالحق قائلاً لذلك المستعمر :
ولكني أنا الذي أجيب على هذا السؤال ، فأنتم تحبون السيطرة والتحكم بالعباد فهذا هو
سبب متاعبكم ومتاعب الخلق معكم .

وصف لذيذ لنكبات الذين يلقون مالمقينا

لا أظن ان الإنسان يتلذذ بشيء كتلذذه بأنباء تحطيم عدوه ، وليعذرنا الافرنسيون ،
فقد أذاقهم الله مثل الذي أذاقونا إياه ، مثال ذلك أنه لما احتلت ألمانيا باريس قبضت السلطات
الألمانية على ١٧ ألف من رجال التعليم والفكر والسياسة . وهو حادث ممتع حقاً ، لأن
الافرنسيين ما تركوا سياسياً ولا عالماً في سورية والمغرب إلا قبضوا عليه وسجنوه ، فليذوقوا
طعم هذه النار التي كوونا بها ، وكم سررنا لما سمعنا أن الجنرالات بيتان وغورو ودنتز والمسيو
يبرتون وأمثالهم قد أصبحوا في السجون وهم الذين ظالما أهلكوا السوريين والمغاربة ونكلوا
بهم ، بل كم سررنا لما رأينا المارشال بيتان يتحمل الإذلال من الألمان ثم يبطش به الإفرنسيون
أنفسهم ويحكمون عليه بالسجن المؤبد وهو الذي كان قبل الحرب بعشرين سنة يتولى منصب
القائد العام للجيش الافرنسي في مرا كش فيزحف غدراً على المجاهد الأمير عبد الكريم من
الخلف حين كان هذا المجاهد يحارب الأسبان ، فكان المارشال بيتان هو السبب في كسر
المغاربة ، وهو الذي غدر بعبد الكريم بعد الميثاق وأرسله إلى المنفى ، ولا يزال الأمير عبد
الكريم في جزيرة رينيون السحيقة إلى الآن^(١) ولكن يعزيه في هذه الدنيا أن الله قد عذب
من قهره هو وقومه ، وأذل رجالهم وخصوصاً المارشال بيتان القائد الذي غدره وطعنه من
الخلف .

تقسيم فرنسا

ومن أجل ما حصل في فرنسا بعد سقوطها تحت أرجل الألمان أن برتينا كس الكاتب
الافرنسي كتب يقول في صحف لندن شاكياً من المحتلين : إن هؤلاء الألمان أخذوا يقسمون

(١) بعد تدوين مسودة هذا الكتاب أفرج الله عن الأمير سنة ١٩٤٦ وهو الآن طليق في مصر ،
ولنجاته حكاية عجيبة ، وربما دونتها في آخر هذا الكتاب مع أسانيدها .

فرنسا ويجعلون منها دويلات صغيرة بدعوى أن أهل تلك المقاطعات ليسو من جنس واحد .. وهذا صحيح لأن سكان فرنسا من أجناس شتى وأما غير الصحيح فهو ادعاء فرنسا بأن السوريين ليسو أمة واحدة أو أن المغاربة كذلك ! نعم أن فرنسا قد ادعت هذه الدعوى ومزقت سورية إلى ست دويلات كدولة العلويين ودولة حلب ودولة اسكندرونة ودولة جبل لبنان الكبير ودولة جبل الدروز ودولة دمشق ، حتى أن جريدة لسان العرب قالت إن فرنسا تكاد تجعل من كل بيتين دولة ، ولما أبى السوريون الاعتراف بذلك صوبت فرنسا مدافعها على مدينة دمشق فخربت عمرانها ودمرت الآثار ولا تزال الخرائب موجودة في أنحاء دمشق إلى حين كتابة هذه السطور بعد ٢٥ عاماً وأظنها لا تعود إلى أصلها بعد عشرين أخرى^(١).

ما هو ضرب دمشق

لقد ذكرت من ذنوب فرنسا ذنباً كبيراً جسيماً أجملته في كلمتين ، بينما هو في الحقيقة جرم إنساني لا يمكن أن يغتفره لفرنسا أحد إلى أبد الدهر ، ولما كنت أخشى أن يظن أحد القراء من أبناء الجيل الجديد أن ضرب دمشق كان عملاً عابراً أو شيئاً عادياً ، أقول إن المدفعية الفرنسية باغتت العاصمة السورية يوم ١٨ أكتوبر ١٩٢٥ بإطلاق المدافع عليها مدة ٤٨ ساعة فدمرت العمران وخربت الأسواق وأحرقت وهدمت دور الآثار ، وقتلت الأبرياء من النساء والأطفال .

وقد وصف أمير الشعر أحمد شوقي بك رحمه الله تلك الكارثة العظمى التي سودت وجه الإنسانية الفرنسية بقصيدته الخالدة خلود الدهر ، فقال منها وهو يصف ضرب المدينة وفرار سكانها من النار والهول وحيرتهم بين قذائف المدافع واشتعال الخرائب .

لحاهها الله أنباء توالى على قلب الولي بما يشق
يفصلها إلى الدنيا بريد ويحملها إلى الآفاق برق

(١) زرت دمشق في أواخر سنة ١٩٥٠ وبعد إطلاق المدافع الفرنسية عليها بربع قرن ، فرأيت الكثير من ذلك الخراب الذي لم يستطع أهل دمشق تعميره لأن لكثرت ، كما رأيت التخريب الثاني الذي أحدثته مدافعها في دمشق لما ضربتها مرة ثانية سنة ١٩٤٤ وكانت نتيجة ذلك إخراجها من بر الشام كله .

تكدار لروعة الأحداث فيها تخال من الخرافة وهي صدق
وقيل معالم التاريخ دكت وقيل أصابها تلف وحرق
رباع الخلد ويحك مآدهاها وهل لنعيمهن كأمس نسق !
وأين دمي المقاصر من حجال مهتكة وأستار تشق
برزن وفي نواحي الأيك نار وخلف الأيك أفرار ترق
إذا رمن السلامة من طريق أتت من دونه للموت طرق
بليل للقذائف والمنايا وراء سمائه خطف وصعق
إذا عصف الحديد احمر أفق على جنباته واسود أفق

إلى أن قال :

وللمستعمرين وأن ألانوا قلوب كالبحارة لا ترق
هذا بعض ما أصاب دمشق وحدها من مدافع فرنسا علاوة على فظائنها في الأنحاء
السورية الأخرى فقد أزلت من الوجود في الثورات السورية ٥٠٠ قرية قصفاً بالمدافع .
فبعد هذه الفظائع الافرنسية أحب أن أسر خواطر القراء بإيراد وصف ما كان في فرنسا
بعد أن صب الله عليها أنواع العذاب بأيدي الألمان، وهو وصف بليغ محزن، وقد نشر في أنحاء
الدنيا لترقيق القلوب على فرنسا التي عادت بعد ذلك إلى تنمرها القديم بشكل أبشع وأشنع
دل على أن هؤلاء المستعمرين دائماً هم هم ، تبطروهم النعمة وتصلحهم النعمة ، ولا ينفع معهم
إلا سحقهم ومحقهم إلى أبد الآبدين . ولذلك كنت أردد دائماً هذين البيتين اللذين لا أدرى
لمن هما :

وستأكلون أكمكم ندماً وستشربون دموعكم حزناً
وستدفعون لكل سائلة عن عرضها أعراضكم ثمناً

تصوير تاريخي لاستسلام فرنسا

بعد الأحداث التي أسفرت عن كسر فرنسا أسجل هنا وصفاً تاريخياً للحالة التي
استسلمت فيها فرنسا، وهو وصف مذل لهذه الدولة الباغية ويشقى غليل المهزومين منها وهو :

هتلر في غابة كومبيان

برلين في ٢١ يونيو ١٩٤٠ - قالت وكالة الأنباء الألمانية الرسمية . إن هتلر وصل إلى غابة كومبيان، في الساعة الثالثة والرابع بعد الظهر، وكان في استقباله المارشال جورنيج. والأميرال ريدير قائد الأسطول ، والجنرال فون بروختش القائد العام للجيش الألماني ، والجنرال كيتل رئيس هيئة أركان حرب القيادة العليا ، وهتلر فون روبنتروب وزير الخارجية ، وهتلر رودلف هيس .

ووصل المندوبون الفرنسيون في الساعة الثالثة والنصف فحياتهم هتلر واحدا واحدا برفع يده ، وهم . الجنرال هوتريجر ، العضو بالمجلس الحربي الأعلى الفرنسي والجنرال برجره من سلاح الطيران الفرنسي ، والفيس أميرال ليلوك والمسؤولون نويل ، سفير فرنسا في بولندا .

في عربة الأكل التاريخية

وقالت الوكالة . « إن الفوهرر قدم شروطه للمندوبين الفرنسيين في غابة كومبيان داخل عربة الأكل نفسها التي أُملي فيها المارشال فوش ، في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ شروط الهدنة على المندوبين الألمان . وإن الإجراءات التي اتخذت اليوم في غابة كومبيان ، قد كفرت عن الظلم الذي ارتكب ضد ألمانيا . وقد كانت المعاملة الكريمة لعدو هزم هزيمة شريفة ، تتناقض مع الذكرى التي لهذا المكان . وهي الذكرى التي تشهد بالكراهية الأبدية ، والاحتقار المر الذي لقيه الجيش الألماني الذي لم يهزم .

المقدمة لشروط الهدنة

وقد تلا الجنرال كيتل بأمر الفوهرر . المقدمة التالية لشروط الهدنة :

«لقد ألقت جيوش ألمانيا الدفاعية في شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ سلاحها ، مطمئنة إلى التأكيدات التي أعطاها الرئيس ولسن للحكومة الألمانية ، وأيدتها دول الحلفاء وبذلك انتهت الحرب التي لم يرددها الشعب الألماني ولا حكومته ، والتي لم يتمكن العدو فيها على الرغم من تفوق قواته

الكبيرة ، من كسر الجيش . أو الأسطول . أو سلاح الطيران الألماني . وفي اللحظة التي وصلت فيها « لجنة الهدنة الألمانية » ، بدا نقض الوعود التي قطعت وأكدها احترامها .

ففي ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ بدا في هذا القطار نفسه عهد الآلام للشعب الألماني وبدا في هذا المكان ذاته كل ما يمكن إلحاقه بأمة من الإهانة والمذلة والآلام الأدبية والمادية . فنكشت العهود ، ونقضت الوعود التي قطعت لأمة أظهرت ، بعدمقاومة بأسلة دامت أكثر من أربع سنوات ، ضعفا واحدا وهو إيمانها بوعود رجال السياسة الديمقراطية .

وفي ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٩ أي بعد خمسة وعشرين عاما من نشوب الحرب العالمية أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا بلا سبب . والآن قد فصل في الحرب بقوة السلاح فهزمت فرنسا وطلبت الحكومة الفرنسية إلى الحكومة الألمانية أن تعلن الشروط الألمانية لعقد الهدنة . وإذا كان الاختيار قد وقع على غابة كومبيان التاريخية لتسليم هذه الشروط ، فقد أريد بهذا العمل أن يكون تكفيرا عن الظلم ومحو ذكرى لم تكن من الذكريات المجيدة في تاريخ فرنسا إلى الأبد ، ذكرى كانت الأمة الألمانية تشعر بأنه أعظم عار أصابها في جميع الأزمان .

ولقد هزمت فرنسا ، بعد مقاومة بأسلة في معركة دموية واحدة ، وانهار صرحها ولكن ألمانيا لا تنوى أن تقوم مع مثل هذا الخصم بمفاوضات هدنة تكون ذات صبغة مهينة . أما الغرض من مطالب ألمانيا فهو : أولا — منع استئناف القتال . ثانيا — إعطاء ألمانيا جميع الضمانات التي تكفل لها مواصلة الحرب ضد بريطانيا والمضي في حرب أكرهت ألمانيا عليها إكراها كما تكفل المقومات اللازمة لإقامة سلم جديد تكون عناصره الجوهرية إصلاح الخطأ الذي لحق بالأمة الألمانية بعنف وقسوة .

المهر هتلى يغادر العربية

وبعد أن فرغ الجنرال كيتل من تلاوة المقدمة ، تلا المترجم الرسمي ترجمتها ، ثم وقف الجميع فغادر المهر هتلى عربية الأكل ، ومعه حاشيته في الساعة الثالثة والدقيقة الأربعين ، والموسيق تصدح بالنشيد الوطنى الألماني .

ماذا جرى في فرنسا بعد ذلك ؟

وهذا وصف لذيذ لحالة فرنسا على أثر الهزيمة نشر بإمضاء المارشال بيتان رئيس الدولة ،
وياله من وصف يثلج قلوب الشامتين . وقد أذيع بلاغ رسمي بهذا الوصف صدر من بورديو
عاصمة الحكومة الفرنسية الهاربة من ميدان الشرف وهو بتاريخ ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٠ :
« أيها الفرنسيون في فرنسا وفيما وراء البحار : أخاطبكم اليوم لأوضح لكم الأسباب
التي دعتنا إلى عقد اتفاقية الهدنة الأولى مع ألمانيا منذ ثلاثة أيام والثانية مع إيطاليا أمس .
إن الأمر الذي يجب التنويه به قبل كل شيء هو الوهم الخادع الذي بنت عليه فرنسا وحلفاؤها
آمالهم بشأن قوتهم العسكرية الحقيقية وأثر السلاح الاقتصادي وحرية البحار والحصار والموارد
التي كانوا يستطيعون الحصول عليها . فاليوم كما في أمس لا تكسب الحرب بواسطة الذهب
والمواد الأولية فقط . إن النصر يتوقف على القوات والمعدات وكيفية استخدامها . وقد دلت
الحوادث على أن ألمانيا كانت متفوقة في هذا الميدان في مايو ١٩٤٠ تفوقاً ساحقاً كنا
لا نستطيع أن نواجهه عند ما دارت رحى المعركة إلا بعبارات التشجيع والأمل . وقد انتهت
معركة الفلاندر بتسليم الجيش البلجيكي وسط القتال ومحاصرة الفرق الانكليزية والفرنسية .
وقد قاتلت هذه الفرق الأخيرة وكانت مؤلفة من خيرة قوات جيشنا . وبالرغم من مقدرتها
لم تتمكن من إنقاذ جانب من رجالها إلا بالتخلي عن معداتها .

ودارت المعركة الثانية على نهري الأين والسوم . وللثبات في هذا الخط قاتلت ٦٠ فرقة
فرنسية لا تحميها التحصينات ولا تؤيدها الدبابات تقريباً ١٥٠ فرقة ألمانية من فرق المشاة
و ١١ فرقة من الفرق المصفحة فاخترق العدو خطوطنا في بضعة أيام وجعل قواتنا أربعة أجزاء
واجتاح القسم الأكبر من الأراضي الفرنسية، وكانت ألمانيا بحكم المنتصرة عندما دخلت إيطاليا
الحرب وأقامت ضد فرنسا جبهة جديدة صمد لها جيش الألب . وعندئذ اتخذ نزوح اللاجئين
شكلاً يفوق ما يتصوره العقل فقد انضم عشر ملايين من الفرنسيين إلى مليون ونصف مليون
من البلجيكيين وأخذوا يتدفقون على مؤخرة جبهتنا في أحوال اختل فيها النظام وسادها بؤس
لا يوصف . وابتداء من ١٥ يونيو اجتاز العدو نهر اللوار وانتشر في بقية أنحاء فرنسا . فأمام

مثل هذه المحنة كان يجب أن تكف مقاومة الجيش . وكان على الحكومة أن تختار بين أحد أمرين : إما البقاء في مكانها أو مغادرة البلاد . فتداولت في الأمر وقررت البقاء في فرنسا للمحافظة على وحدة شعبنا وتمثيله أمام العدو . ذلك لأنها رأت أن واجبها في مثل هذه الأحوال يقضى بالحصول على هدنة مقبولة باستثارة روح الشرف والعقل لدى العدو . وقد عقدت الهدنة وانتهى القتال .

وفي يوم الحداد الوطني هذا تتجه أفكارى إلى جميع القتلى وإلى جميع أولئك الذين تألموا في أجسادهم وعواطفهم من جراء هذه الحرب . إن تضحياتهم قد احتفظت بسمو علم فرنسا وطهارته، فهم لا يزالون أحياء في ذكرياتنا وقلوبنا . أما الشروط التي اضطررنا إلى قبولها فهي قاسية . فسيحتل جزء كبير من أراضينا مؤقتا وتقيم ألمانيا حاميات في شمال بلادنا وغربه من بحيرة جنيف حتى مدينة تور ثم على طول الساحل من تور حتى جبال البرينيه . ويجب أن تسرح جيوشنا وأن تسلم معدتنا وتحصيناتنا ، وأن يجرد أسطولنا من سلاحه في موانينا . وستجرد القواعد البحرية من سلاحها في البحر الأبيض المتوسط .

أما الشرف فلا يزال سليما . فلن يستخدم أحد طائراتنا ولا أسطولنا . ونحن نحتفظ بالوحدات البرية والبحرية اللازمة للمحافظة على النظام في فرنسا ومستعمراتها . وستظل الحكومة حرة ولن يدير شؤون فرنسا إلا الفرنسيون .

لقد كنتم على استعداد لمواصلة القتال . إنى أعلم ذلك . ولكن الحرب كانت لا محالة خاسرة في فرنسا . »

سقوط باريس ومقارنة

لم أنم ليلة سقوط باريس إلا بعد أن سمعت نبأ سقوطها وتام احتلال الألمان لها من جميع المصادر الأجنبية ومن إدارات الصحف ومن الراديو . ولا أقول فقط إننى شمت بسقوطها ، بل شعرت بأكثر من الشماتة ، أليست باريس عاصمة فرنسا التي تحتل العالم العربى المغربى فى تونس والجزائر ومراكش ، وأهم مناطق العالم العربى الشرقى كسورية ولبنان ؟ وبلاد الداهومى والسنغال وبلاد الطوارق وكلها من أرض العرب والإسلام ؟ فلتدق فرنسا بعض ما أنزلت بالناس ويكفى ضربها لمدينة دمشق والمدافع .

ولما أحبرت صديق الدكتور مصطفى بك البشناق بسهرى طول الليل حتى تيقنت من سقوط باريس، قال إن ذلك يشبه ما حصل معه وهو في استانبول سنة ١٩٠٤ عند نهاية حرب اليابان والروس، وإنه كان تلميذا بكلية الطب وكان الشعب العثماني كله متحمسا لليابان ضد الروس، لا حبا لليابان بل كرها بالروس الذين أهلكوا الدولة العثمانية بالحروب عدة قرون واستعبدوا أربعين مليون مسلم في القرم والقوقاس وتركستان بعد أن قضوا على الممالك الإسلامية في تلك الأصقاع، فلما هجم الأميرال طوغو الياباني بأسطوله على تشوشيا بغتة وحطم الأسطول الروسى وانكسر جيشها في موكدن وسامت روسيا في بور آرثور، هلت استانبول فرحاً وظلت عاصمة الخلافة طول الليل ساهرة ترقب النتيجة، وقال الدكتور إنه وإخوانه الطلبة ظلوا يرقبون الأخبار إلى أن صدرت ملاحق الصحف التركية قبل مطلع الشمس وضح الباعة بالنداء على صحفهم « بنى غزته » « صباح » « تصوير أفكار » فقال الدكتور إننا نزلنا إلى الشارع باللبسة النوم لنشترى ملاحق الصحف، فكان فرح العالم الإسلامى بهزيمة الروس مما لا يمكن وصفه، فقلت سبحان الله وهما هو التاريخ يعيد نفسه ويشمتنا بفرنسا والعقبى لغيرها ...

يوم الحداد في فرنسا

« بوردو في ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٠ هـ - كان يوم ٢٥ يونيو يوم حداد في جميع أنحاء فرنسا ففي مدينة بوردو وغيرها كانت الشوارع تبدو كثيفة حزينة، إذ أقفرت من السيارات وأقفلت المحال وخيم الصمت على الجماهير، وقد كانت الأعين دامعة والأصوات خافتة. ان فرنسا تبكي موتاتها ومصيرها، لقد وقعت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وكان الجنود على وشك العودة ومع ذلك كان الحزن شاملا.

« كانت السماء قائمة وكانت الجماهير تسير متجهة نحو الكنائس لتصلى وتفكر في الجنود البواسل وفي البلاد وهي على أبواب حياة جديدة. وكان هناك رجالان يقطعان أحد شوارع بوردو الرئيسية متجهين إلى مكان الاحتفال وهما المسيو بيير لافال والمسيو لودفيك فروسار وزير الأشغال العمومية، وقد كانا يسيران مطأطأ الرأس ودلائل الحزن العميق بادية على محياهما.

إلى الله . . .

« وكان أهالي بوردو يتجهون جماعات وزرافات إلى كاتدرائية القديس فيكتور وهي كنيسة قوطية لا تزال محتفظة بجمالها على الرغم من قدمها. وفي هذه الكاتدرائية قام المونسنيور فيلتان حفلة صلاة بسيطة مؤثرة. وكانت الجماهير تصلي في جو ملؤه الحزن والكآبة. أما في الخارج فقد كانت فصيلة من الجنود تؤدي التحية العسكرية. ووفد على الكاتدرائية عدد كبير من الضباط وهم بملابس الميدان للاشتراك في حداد فرنسا. وكان النساء يرتدين الفساتين القاتمة كما أن الكهنة كانوا يرتدون الملابس التي يرتدونها عادة في الجنازات. وقد حضر الحفلة جميع الوزراء وكانت التراتيل الدينية حزينة.

« وقد نصبت منصة للمونسنيور فيلتان إلى يسار هيئة المرتلين. وكان مندوب الكرسي الرسولي المونسنيور فاليريو فاليري محاطا برجال السلك السياسي بأكلهم وجلس إلى يمين هيئة المرتلين رئيس الجمهورية في « فوتيل » وجلس أعضاء الحكومة في مواجهة رجال السلك السياسي.

« وكان المارشال بيتان يرتدي ملابس الحداد وإلى جانبه الميسو جانيني رئيس مجلس الشيوخ والميسو إدوار هريو رئيس مجلس النواب والميسو كاميل شوتان والميسو بيير لافال والميسو أدريان ماركيه. وحضر الجنرال فيجان الحفلة بين فريق الوزراء كما حضرها جميع أعضاء البرلمان الفرنسي الموجودين في بوردو وقد جلسوا في بهو الكاتدرائية. وقد لوحظ حضور أعضاء الوزارة السابقة وفي مقدمتهم الميسو بولرينو والميسو لوران ايناك والميسو لويس ماران والميسو لويس تيليه.

« وكان الصمت يخيم على هذه الجماهير التي يحز في قلبها الحزن. فلم تسمع فيه سوى بعض الأناشيد الدينية وعبارات الترحم على الأموات. وبعد أن تلا المونسنيور فيلتان بعض آيات الإنجيل ألقى بعض عبارات أشاد فيها ببطولة أولئك الذين حاربوا في سبيل قضية العدل وذكر الواجبات المقدسة التي خلفوها لأولئك الذين يواصلون حياة فرنسا.

موكب الانكسار والدموع

« وعند الساعة العاشرة والدقيقة ٤٥ انتهت الحفلة الدينية . وحينئذ ألف الموكب الرسمي وفي طليعته ثلاثة أعلام فرنسية . وانحنى الأسقف أمام رئيس الجمهورية وقبلت مدام لوبران خاتمه . وقد احتشد جمهور كبير ليشاهد الموكب الرسمي وهرع إلى ميدان ١١ نوفمبر حيث يقوم النصب التذكاري لقتلى سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨ . وعند الساعة الحادية عشرة وصل أمام هذا النصب المسيو لوبران والمسيو جانيني والمسيو هريو والمارشال بيتان وأعضاء الحكومة وكانوا جميعاً قادمين من الكاتدرائية ، ثم انحنوا احتراماً بينما كانت بعض فصائل الحرس الجمهوري تؤدي التحية العسكرية . وتقدم في صمت شامل المسيو البير لوبران يصحبه المسيو ادريان ماركيه محافظ بوردو ووزير الدولة ومن خلفهما المسيو جانيني والمسيو هريو والمارشال بيتان وأعضاء الحكومة نحو قاعدة النصب بينما كانت الأجراس تدق دقات الحزن، وقد أخذ منهم التأثر كل مأخذ . وكانوا كلهم تقريباً يجهشون بالبكاء . ثم وقف المارشال بيتان ورئيس الجمهورية فارتفعت الأصوات هاتفة « لتحي فرنسا » ولكن الحزن كان بادياً في هذه الأصوات لدرجة أن الهتاف كان ضعيفاً وكأنما الدموع كانت تخنقه » .

هذا وصف نكبة فرنسا التي رق لها الجهاد ورحمها من أجلها الأعداء . ولكن فرنسا ما كادت تخرج من الحرب حتى أرسلت طياراتها فضربت مدينة دمشق مرة أخرى، ودمرت مدناً كثيرة في تونس والجزائر والهند الصينية ومدغشقر ، فليحفظ الناس لفرنسا هذه الفضاءة .

ملحق : إنني أصحح بروفات هذا الكتاب في سنة ١٩٥١ وبعد عشر سنين من سقوط فرنسا أمام الألمان ذليلة صريعة ، وأمامي أكداس من جرائد هذه الأيام وفيها أنباء وأخبار كثيرة عما أحدثه جيوش فرنسا الآن في تونس والجزائر والمغرب الأقصى والهند الصينية من فظائع ومذابح وسلب ونهب ، فمن ذا الذي يرحم هذه الدول المستعمرة ولا يشمت بها ، فليحفظ العالم العربي وأمم المسلمين لفرنسا هذه الفضاءة ، وليعلموا أن المستعمر لا يتعظ ولا يرتدع ولا يتوب أبداً ، وأنه لا يعرف الله إلا إذا سلط عليه من يسحقه ويذله ويذيقه النكال .



هكذا كان الجيش البريطاني بفلسطين سنة ١٩٣٧ يدمر أثاث بيوت العرب بعد أن ينهبها



هكذا كان الإنكليز يدمرون عمران فلسطين ويخربون المدن العربية ، ويظهر في الصورة فريق من أهل يافا يبحثون عن بقايا أثاثهم بين الأنقاض

تجارب وخواطر

تجارب وخواطر في السجن

— ممنوع وجود الورق والخبر والأقلام عند السجناء فكيف أدون ملاحظاتي؟ وأخير استطعت الحصول على قطعة صغيرة من رصاص قلم الرصاص فحجمها الصغير يمكن الإنسان من إخفائها، ولكن الورق؟ لقد كنت أستفيد من الورق الداخلى لعب السجائر الذى يوضع فى داخل العلب فكانت الملحوظة التى أريد تدوينها لا تحتاج لأكثر من سطر أو سطرين وبعد أن أجمع بضع ورقات مملوءة بسطور لا تفهم ولا تكاد تقرأ أهربها إلى خارج السجن لإخفائها عند أحد الأصدقاء، فمن هذه الأسطر أستمد الآن أسس الحوادث لهذا الكتاب.

— عند ما أخرج من السجن سأكتب فى الصحف أقترح على الحكومات أن لا تعين ضابطاً أو قاضياً أو وكيل نيابة فى منصبه إلا بعد أن يوضع أولاً فى السجن لمدة شهر أو شهرين ليحرب حياة السجون «أى يعمل ستاج» ليدوق بعض ما يصنع بالناس، فلا يحبس أحداً إلا بعد أن يدوق طعم السجن فيعرف ما هو معنى «اقبض واحبس» وما هو تقييد الحريات وتحكيم أسافل السجنانيين بكرام الناس وبالأبرياء...

— يا ترى كيف حال الدكتور أمين رويحه؟ إنه مريض فى السجن ولا أدري عنه غير ذلك وإنه لما سأله عن جنسيته قال إنه عربى، ورفض أن ينسب نفسه إلى إحدى الحكومات العربية ما دامت هذه الحكومات قد خذلت وتركته يتعذب.

— أشعر فى كل يوم بعد الظهر بضيق نفسانى شديد وأحس بأن روجى تتعذب ثم أنظر إلى الساعة — بعد أن سمحوا لى بها — فأجد عقاربها كأنها لا تتحرك، بعد أن كنت أتصورها قبل السجن تركض أكثر مما يجب.

— لقد أعجبنى وجود بعض الكتب والقصص التى تركها السجناء فى إدارة السجن وقلت فى نفسى مادام الذين سبقونى قد تركوا ما أتسلى به فمن حق الذين يسجونون بعدى أن أترك لهم بعض الكتب والقصص لتسليتهم كما سلانى الذين سبقونى وذكرتهم بالخير.

نسيم صبيغة

— لا يزال الأستاذ نسيم صبيغة^(١) يسأل عن الأسرة بالتليفون ويتنسم أخبارى ويسعى

(١) هو الوجه السرى المعروف فى الحركة العربية بوطنيته وبدفاعه المشكور عن مصر والبلاد العربية، =

للإفراج عني ، وهو وفاء منه في وقت ضاع فيه الوفاء !

— بلغني أن المستر دونفيل رئيس الجاسوسية في الشرق الأوسط قال لصديقه أسعد داغر إن أمين رويحه ومحمد علي الطاهر من الخطرين فيجب حبسهما إلى الأبد لأنهما من المأجورين للألمان والطلينان. فقال له أحد الحاضرين اعرضوا عليهما مالا ومنصباً وجاهاً عندكم فإن قبلاً فأنتم صادق ...

— أفرج أخيراً عن محبوس فسررت كما أني كنت أستاذ عند ما أسمع بدخول سجين جديد . ومما يذكر أنه لا يكاد المفرج عنه يغادر الغرفة ويخرج حتى ينقض السجانون على غرفته يبحثون في الزبالة عن شيء يغنمونه ! فليت دورى يحىء لأترك لهم ما هو أحسن من الزبالة ...

— ورد كتاب من الأستاذ أكرم زعير اللاجيء الفلسطيني إلى العراق يقول إن خبر حبسي قد أخذ هناك دوراً وإن الصحف العراقية نشرت أشياء كثيرة وإن بعض النواب سيتقدمون بأسئلة إلى رئيس الوزراء السيد طه باشا الهاشمي عما قامت به الحكومة العراقية من أجلي .

— فكرى مشغول على الأمير شكيب أرسلان فيا ترى كيف حاله في جنيف وكيف يدبر أمور معيشته وهو منقطع في أوروبا وعن دنيا الشرق ؟

= ومقاومة الاحتلال الأجنبي ، وهو خطيب مفوه وكاتب من الطراز الممتاز وله شعر وطني منشور ، ومن ذلك قوله في تعزية « سعاد » يتيمة المرحوم سعيد العاص المجاهد السوري الذي استشهد في معركة الخضر ضد الإنكليز سنة ١٩٣٦ بجوار بيت لحم بفلسطين :

لله أمرك يا سعاد فقد قضى	في ساحة الشرف الرفيع أبوك
نادته مصلحة العروبة فانتضى	سيفاً عليه طابع اليرموك
ما كان في الإمكان كبح جماحه	حتى ولو في حصنه وضعوك
للصدر أو للقبر كان شعاره	صوناً لعرض بلاده المهتوك
أسعاد حيث حلت لست غريبة	فبنو العروبة كلهم أهلوكم

وفي سنة ١٩٤٤ انتقل نسيم صبيهه إلى الدار الباقية بعد مرض طويل احتمله صابراً ، فكان لفقده صدى حزن بعيد في البلاد العربية ، والفقيه لبناني الأصل من أسرة مجيدة بطرابلس الشام ، رحمه الله .

استدراك بشأن الأمير شكيب

بلغنى بعد الحرب أن الأمير شكيب كان يعانى خصاصة شديدة فى أوروبا. وهذا يكذب على طول الخط جميع مزاعم الانكليز والفرنسيين من كون الأمير « رحمه الله » كان متصلا بألمانيا أو إيطاليا ، وأنه كان يعمل لحسابهما ، وأما ما كان يذاع باسمه من محطات راديو المحور فهو مقالات كان ينشرها بجرائد أميركا الجنوبية ضد المستعمرين الذين خربوا وطنه وجنوا على بلادهم فكان سفراء المحور يتصيدون هذه المقالات وينقلونها عن تلك الصحف ويرسلونها بالبرق إلى حكوماتهم فتذيعها بالراديو نكايه بالحلفاء ، فيقول الانكليز والفرنسيون من شدة غيظهم من شكيب أنه يذيع ضد هم بالراديو لأنه مأجور للمحور، فلو كان شكيب كذلك لما عانى فى سويسرا الضيق المالى الخانق ، وقد أخبرنى الدكتور الطيب ناصر الذى كان رئيساً للجمعية المصرية بجنيف فى تلك الأيام أن الأمير شكيب كان فى بعض الأحيان يعجز عن دفع ثمن القهوة التى كانا يتقابلان فيها ، وكان الأمير يمشى المسافات الطويلة على قدميه مع تقدم سنه وتأخر صحته ليوفر أجرة التاكسى ، وأنه كان يحمل بيده ما يشتريه لمنزله من مواد الطعام ، بينما كان عملاء الإنكليز وعملاء المحور فى سويسرا - وفى الشرق والغرب - يعيشون عيشة البذخ والثراء وبلغنى أن الأمير لما كان يسافر من جنيف إلى زوريخ مثلا لزيارة صديقه عزيز عزت باشا كان يركب فى الدرجة الثالثة من القطار ، وقد شاهده أحد الطلبة العرب وهو يحمل الحقيبة بيده ليوفر أجرة الحمال فهرول الشاب وأخذها من الأمير وحملها عنه .

وأخبرنى الدكتور الطيب ناصر أن الأمير لم يتمكن من الحصول على أجرة بيته الذى يملكه فى ألمانيا لأن حكومتها كانت تمنع خروج الدراهم من بلادها . وقد وسط الأمير بعض أصدقائه لدى الحكومة الألمانية لتسمح له باستيراد أجرة البيت فلم تسمح ، فكيف يقال بعد ذلك إنه كان صنيعة ألمانيا ؟ أما هذا البيت فقد اشتراه الأمير شكيب فى برلين سنة ١٩٢٠ بعد الحرب الكونية الأولى بسعر المارك الذى ما كان فى تلك الأيام يساوى نفقة طبعه !

وبهذه المناسبة أقول تخليدا لنزاهة الأمير وشهامة بعض الناس وخساسة بعضهم أنه لما استطاع الأمير شكيب الاتصال بالشرق بعد وقوف الحرب أبرق إلى صديقه

المجاهد الكبير أحمد حلمى باشا مدير بنك الأمة العربية بالقدس وإلى صديقه عبد الحميد شومان صاحب البنك العربى بالقدس أيضاً يستقرض من كل منهما مبلغاً صغيراً من المال يفك به ضيقه ، أى ألف فرنك من كل من الصديقين ، فبادر أحمد حلمى باشا وأرسل إليه برقية ألفى فرنك ذهباً ، ثم ألفى فرنك ، ثم ألفى فرنك ، ثم ألفى فرنك ، وأما عبد الحميد شومان الذى يملك بنكاً بأسره مع فروعه الثلاثين ويربح فى السنة ربحاً شخصياً يزيد على ٥٠ ألف جنيه فإنه لم يرد على استغاثة الأمير حتى الآن ...

والذين يعرفون صلة عبد الحميد شومان بالأمير شكيب ووفاء الأمير لجميع الناس يفهمون معنى خذلان شومان للأمير الذى ما عانى الضيق والغربة ثلث قرن وأنفق ثروته العظيمة إلا فى سبيل الله وفى سبيل الدفاع عن الوطن الذى كان يعيش فيه شومان وأمثاله ويتمتعون بخيراتهم ويجنون الثروة منه ، بل إن الأمير شكيب قد دافع مراراً عن شومان لما أصابته المحنة وأخذوه إلى مزرعة عكا وضربه الجنود فكتب عنه مقالة عظيمة نشرتها افتتاحية بجريدتى «الشورى» عدد ١١ مايو ١٩٣٨ وهو دفاع يساوى ثروة شومان كلها أعان الله الأمير شكيب - وأمثاله أيضاً - على عداوة الاستعمار وعلى احتمال ما يلحقون من بعض الناس !

— توفى صديقى العلامة محمد مسعود بك وكنت قبل حبسى بعشرة أيام قدلقيته فى العتبة الخضراء فلحظت من حديثه أنه كان مهموماً من عدم تقدير الحكومة له وتقدير الأمة معه فقلت له هذه هى الدنيا وما أنت بأول مغموط الحق عند الناس ، فهون عليه كلامى بعض ما كان يحس به من ألم ، وكان المرحوم مديراً لإدارة المطبوعات ومن كبار الصحفيين القدماء ومشاهير العلماء المصريين المثقفين ، وكان قبل وفاته بثلاثين سنة قد أراد ترجمة كتاب حضارة العرب لغوستاف لوبون^(١) ولكنه لم يكدهم طبع الملزمة الثانية منه حتى انصرف عنه لشاغل

(١) فى سنة ١٩٤٥ قام العالم الفلسطينى الأستاذ عادل زعير بك الذى ترجم جميع كتب غوستاف لوبون تقريباً فنقل « حضارة العرب » إلى اللغة العربية بلغة سلسة عالية وأسلوب رفيع ممتاز وقد طبعته مطبعة السيد محمد عيسى البابى الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٤٦ ثم طبعته مرة أخرى سنة ١٩٤٨ وسيعاد طبعه مراراً لأنه خير كتاب ألفه عالم أجنبى كبير عن العرب فأنصفهم ووفاهم حقهم .

وبمناسبة الحديث عن الدكتور غوستاف لوبون أذكر هنا ما سمعته من الأستاذ عادل زعير وهو أنه =

وشواذه ، ولذلك لحكاية أخرى ، رحمه الله وعوض العلم على فقده أحسن العوض .

— توفي المطران غريغو ريوس حجار مطران حيفا للكنائس ، وكان من خيرة رجال الدين المسيحي العرب علماً ، مع فصاحة في الخطابة ، وبلاغة في الكتابة ، وقد ختم حياته بموقف وطني عظيم مشرف أمام لجنة التحقيق البريطانية سنة ١٩٣٧ حين خذل الإنكليز وقال إن النصارى في الشرق كانوا يعيشون في ظل الدول الإسلامية في رخاء وكرامة ، وإن كنائسهم وأديرتهم تحت الحكم الإسلامي قد نمت وازدهرت ، وأنهم ما شعروا بالضيق في أمور دينهم وديارهم إلا تحت الحكم البريطاني المسيحي الذي يعمل لإنعاش اليهود فقط وإرهاق سواهم الخ... وشهادته موجودة بنصها في كتاب « الشهادات السياسية » التي أديت أمام اللجنة الملكية البريطانية برئاسة اللورد بيل ، وقد جمعها الأستاذ توفيق جانا صاحب جريدة الشعب الدمشقية « رحمه الله » في كتاب ضخيم بلغ نحو ٦٠٠ صفحة .

هواجس أخرى

رجعت إلى التفكير في الأسباب المباشرة لحبسى — أما الأسباب السابقة فأنا أعرفها وهي كثيرة ومسطرة في جرائد كثيرة... وهنا تذكرت سبباً وهو إننى لما أوقفت الجريدة أذنت نشرة صغيرة على القراء ذكرت لهم نبأ وقف إصدارها وقلت لهم في آخرها إنه مادام السيف قد تكلم فما على القلم إلا أن يسكت ، فهل كانت هذه العبارات التي تظهر فيها الشماتة بالإنجليز من أسباب القبض والحبس ؟ .

== قابل الدكتور لوبون سنة ١٩٢٢ في باريس واستأذنه بترجمة الكتاب فأذن له وأن لوبون كان يتصور أن ملوك العرب والمسلمين سيحتفلون بكتابه وأن أحدهم مثلاً سيأمر بإرسال كتاب شكر إليه أو يأمر بترجمته إلى اللغة العربية على الأقل ، ولكن أمله خاب وهذا مؤسف حقاً ، مع أن الواجب في ذلك الحين كان يقضى بالشكر وبالهدايا أيضاً ، وفي سنة ١٩٢٥ نوى الأستاذ زعيتر أن يترجم حضارة العرب واستعد الأمير شكيب أرسلان لمشاركة الأستاذ زعيتر في مشروعه فيتولى وضع تعليقات عليه ، كما استعد الأستاذ إلياس أنطون إلياس لطبع الكتاب والتعليقات ، وكنت أنا الواسطة بين الثلاثة وكتب لى المرحوم الأمير شكيب أنه قابل الدكتور غوستاف لوبون لهذا الغرض فطلب منه أن تهديه الأمة العربية عبادة وخجراً مذهباً ، فكتب لى الأمير بأن أسعى في تدبير هذه المسألة ، ولكن المرحوم محمد بك مسعود رجانى أن أتوسط لدى زعيتر وشكيب وإلياس بترك المشروع مادام أنه قد شرع فيه فعلا فتركوه له ولكنه لم ينفذ عزمه فنفته زعيتر بك والسيد محمد البابي الحلبي بعد وفاة لوبون ومسعود وشكيب رحمه الله .

ثم رجعت إلى الورا القريب وتذكرت شيئاً ورجحت أنه السبب ، وذلك أنه قد بلغني قبل حبسى بأشهر أن إنكليز مصر قبضوا على منير عرفة وهو شاب فلسطيني كان منسوباً للمجاهدين وهرب إلى مصر وقد وضعوه في سجن القنطرة عند الحدود توطئة لتسليمه لحكومة فلسطين البريطانية لتعدهم حتماً ، فأرسلت رسولا إلى القنطرة لبحث مسأله وموافاتي بأسبابها بالتلفون . فلما عرفت قصته أبرقت لعلى ماهر باشا الحاكم العسكري العام أناشده إنقاذ ذلك الشاب من القتل ، فبادر الباشا وأمر بإطلاقه متحدياً إرادة الإنجليز . فقلت في نفسي أليكون هذا الحادث من أسباب تحريك حفيظتهم وطلب حبسى ؟ .

— لم أطلع لأحد على مذكرات وافية مفصلة عن حياة السجون والسجناء تتناول المسائل الدقيقة والخلجات النفسية ، فهل أقوم أنا بتدوين مذكرات وافية ؟

— يصعد الإنكليز رؤوسنا بدعائهم ضد بوليس الجستابو الألماني بينما هم يحكمون الدنيا بجستابو انكليزي يسخرون له جميع إدارات البوليس في المستعمرات وغيرها ، وان ألوان التعذيب التي أزلوها بأهل فلسطين وحدثهم بين سنتي ١٩٣٦ و ١٩٣٩ تكفي لتسويد وجه الاستعمار إلى يوم القيامة ، لأن نصف المدن ودك القرى والمدافع وتقطع أوصال المسجونين وخلع أضراسهم وأظافرهم لم يقع في القرون الوسطى . ولكنه وقع من متمدن القرن العشرين ، أى من الإنكليز في فلسطين .

— سمعت ضجة بين المسجونين في إحدى الليالي فأصغيت فإذا ببعضهم يغنى . هذا يدندن بالعربي ، وذاك يغنى باليوناني ، وآخر يترنم بالهندي ، وغيره بالطليلاني ! وأما أنا ففكري مشغول وكأن في رأسي زوابع تثور فالدماع يشغل ليلاً ونهاراً فهنئاً للذين لا يعقلون .

لقد كان دماغى يشغل باستطلاع ما يأتى به الغيب لمعرفة المصير ، وهل تنكسر بريطانيا فيتفكك قيد الاستعمار عن البشر ، وهل أعيش وأخرج من السجن وأشهد هذا الحادث العظيم الذى تمنيناه في الحرب العظمى الأولى فلم نره بل شهدنا عكسه وفجعنا بالوقوع في أيدي المستعمرين !

— أمتع شئ عند السجين هو فتح باب الغرفة ومحادثة الناس ولو كانوا من السجناء ! لأن السجن الانفرادى فظيع لا يمكن أن يفهمه إلا من نكب به ، وقد تمنيت لو أنقل إلى

سجون المجرمين لا تمكن من محادثة الناس ، وقد قال الشاعر :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلا نحن في الموتى ولا نحن في الأحياء
إذا دخل السجن يوماً لحاجة فرحنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

فائدة استعمارية . . .

كان بعض الأصدقاء يستهين بمسألة عدم وجود جنسية قانونية لى ، ولكنى كنت أعارضهم وأقول لهم إن الإنكليز يحرصون على جعل حكومة مصر تنكر على جنسيتى ليسهل عليهم مطاردتى وإخراجى من مصر فى أيام السلم ويمكنهم من حبسى - إن وقعت حرب - طول مدة الحرب ، وقد كان لهم ما أرادوا حرفياً . وها أنا الآن فى السجن لا يطالبهم أحد بالإفراج عنى ، ولا تتقدم حكومة عربية بالسعى من أجلى ، فلو كنت تابعاً للحكومة تاهيتى أو جمهورية العبيد فى ليبريا لطالبت بى بريطانيا وأنقذتنى من السجن .

خاطرة عابرة

أشعر طول أيامى بالندم على الزواج بعد أن ترددت فيه ورغبت عنه . لأنى معرض للحبس فوق حياة القلق التى كنت أعيشها والتشريد الذى أعانيه من الإنجليز ، حتى لا أتزوج ثم أحبس فتزعج أسرتى بسببى وأكون مصدر تعاسة لأولادى ، فإذا بكل ما كنت أخاف منه أن يقع قد وقع ! ولكنى التمت العذر لنفسى بعد أن تزوجت وجنيت على غيرى ، ومع ذلك فأنا ما تزوجت إلا بعد أن استقرت الأحوال فى مصر وتم استقلالها ، ولم يخطر ببالى أن تقع الحرب ويأتى حكام مصريون يهدرون معنى الاستقلال ويبيحون للإنجليز القبض على العباد لحساب الأعداء لا لحساب مصر . وكما كنت أحزن على الطفلة التى فقدتها وأنا فى السجن قبل أن ترى الدنيا أو تشعر بهذا الوجود ، ولكنى عزيت نفسى على فقدتها بأن بطن الأرض خير من ظهرها فى زماننا الأسود هذا ، وكنت أردد بيتين للمرحوم نقولا رزق الله كان قد أثبتهما فى ترجمة رواية « الطفلة المفقودة » لمكسيم وإلمر التى قرأتها قبل ثلث قرن وهما .

لو أن الطفلة اختارت مقاماً تفضله على دار الفناء

لودت أنها بقيت جنيماً وفضلت الظلام على الضياء

مس نيوتن

ثم قلت في نفسي : أ يكون كتاب مس نيوتن هو السبب ؟ وهنا لا بد لي من شرح هذه القصة لأنها قصة :

المس نيوتن إنكليزية كانت تعيش في حيفا فلما رأت فظائع قومها الإنكليز بفلسطين غضبت وثارَت ثم ذهبت إلى لندن وطبعت هناك كتاباً عن فظائعهم وفظائع اليهود ومعها بعض التصاوير عن التخريب والتدمير في ٧٢ صفحة ، فتولى المكتب العربي بلندن الإنفاق على الكتاب وبعث إلى منه بخمسين نسخة فلما اطلعت عليه قلت في نفسي يجب إعادة طبع الكتاب مرة أخرى وتوزيعه بصورة واسعة ، وعند ذلك حفرتة كله مع تصاويره بالزنگراف لأتمكن من طبع مئة ألف نسخة ، وشرعت أفاوض مطبعة افرنجية تستطيع إبرازه كالأصل تماماً ، فإذا بالحرب تقع والرقابة تعلن . فأوقفت المشروع لاستحالة تنفيذه ، وأما مس نيوتن فقد غضبت عليها حكومة لندن وحجزتها في انكلترا ومنعتها من مغادرتها إلى الأبد .

لذلك قلت في نفسي : هل كان يوجد أحد من اليهود بين موظفي تلك المطبعة فوشى بي إلى الإنكليز ؟

استدراك سنة ١٩٥١ : لا أزال أحتفظ بكليشيهات ذلك الكتاب التاريخي الذي خلد مس نيوتن ، فهل يقدرني الله على تدبير نفقاته لأطبعه وأوزعه « مجاناً » انتقاماً لأهل فلسطين من الإنكليز ؟ أما مس نيوتن فلا تزال إلى الآن « سنة ١٩٥١ » ممنوعة من مغادرة البلاد الإنكليزية ، ولكنها مع ذلك لا تزال ترفع صوت الفلسطينيين هناك .

تنكر المفوضية السعودية العربية

ذهب فريق من أصدقائي إلى الصديق القديم الشيخ فوزان السابق معتمد الحكومة السعودية وأخبروه بحبسي وطالبوه بالتوسط ، فاستشار سكرتيره السيد خير الدين الزركلي صديق القديم أيضاً ثم قال لهم إن السيد الطاهر غير سعودي ولا يمكننا عمل شيء لاسيما وهناك في المسألة (النجريز) أي انجليز ! فقالوا ولكن المفوضية العراقية تحركت وسعت من أجله وهو ليس بعراقي ويمكن أن عربي ، ولكن فوزان وخير الدين أصرا على التزام الحياد الدقيق ...

بلغنى هذا الخبر فتكدت وقلت فى نفسى ماذا عليهم لو أظهروا إحساساً طيباً لا يكلفهم إلا كلمة أو حركة يد ، ثم تذكرت قول المحب وهو يتظلم من حبيبته التى بخلت عليه وهى مارة به بنظرة أو إيماءه :

منعت تحيتها فقلت لصاحبى ما كان أكرها لنا وأقلها

لقد أمضيت أكثر من عشرين سنة أكتب وأجبر وأدافع عن الدولة السعودية لما كانت إمارة فى أواسط نجد ، إذ نصرتها بجريدة السياسة سنة ١٩٢٣ لما وصل جيشها إلى عمان وكاد يستولى عليها لولا دبابات الإنجليز ، ثم نصرتها فى الشورى وأخواتها وفى جريدة كوكب الشرق من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٣٩ نعم لقد دافعت عن الدولة السعودية وأيدتها فى جميع المواقف والمشاكل ، وأيدتها لماهاجت الحجاز سنة ١٩٢٤ واستولت عليه فكرهنى الملك حسين وآل هاشم ، وكتب إلى الملك حسين كتاباً أبدى ألمه منى وعاتبنى . ودافعت عن السعودية فى مشاكلها مع العراق ١٩٢٦ وكذلك أيدتها فى ثورة الدويش فاغتاظ منى العراق والإنكليز ، ووقفت مع السعوديين فى ثورة ابن رفاعة سنة ١٩٣٢ وكذلك فى حربها مع اليمن سنة ١٩٣٤ فتكدت منى اليمن ... وأيدتها ضد حكومة شرق الأردن فكرهنى أميرها وكرهنى الإنكليز ، وأيدتها ضد حكومة العراق فى زمن الحماية فكرهنى من هناك ، ومعهم الإنكليز ، فلما أصبحت السعودية دولة تنكر لى معتمدها وسكرتيره الذى من هناك ، شخصياً طول حياتى فمأخوذ لى عهداً ، وهكذا صح معى المثل « النذر للدير والزبالة على رأس سمعان » !

إذا كان واجب العروبة قد حمل تحسين بك العسكرى وزير العراق على أن يغضب لى ويسعى فى إطلاقى ويطيب خاطر أسرتى ، فإن هذا العمل الطيب كان على الشيخ فوزان السابق وخير الدين الزركلى أوجب وألزم ، فتحسين بك لم يكن بالصدى القديم لى ، وأما فوزان فهو صديق منذ سنة ١٩٢٠ لما كنت تاجر زيت وكان فوزان فى مصر تاجر بعران ! وكان خير الدين يدير مطبعة للكتب والجرائد وكنا نطبع الشورى عنده وهو يعلم كم أسديت إليه من إثناء ووفاء وكمنصرته على صفحاتها وكمنفعت من ذكره وكما أعليت من شأنه ، فلما صار مستشاراً للشيخ فوزان تنكر لى وحمل فوزان على التنكر أيضاً ... أنا لم يخاطر ببالى أن التوسط من المفوضية السعودية لدى الحكومة المصرية سيؤدى إلى الإفراج عنى ، ولكنه كان ينتج على كل حال

نتيجة أدبية معنوية ، وهى أن الحكومة متى رأت الهيئات السياسية تهتم بى فلا يسعها على الأقل إلا أن تحسن معاملتى أو تخفف من عذابى .

إذن فنحن نتحمل العداوات من دول الاستعمار فى سبيل بعض الدول العربية فإذا أصبحت حكومات حقيقة قالت لنا « نحن لا نعرفكم » ...

استطرد...

لقد سردت فى السطور السابقة شيئاً عن واجباتى التى قمت بها نحو الدولة السعودية ، كعربى يؤيد حكومة عربية ، ولكن ما هى الأعمال التى قام بها خير الدين لمصلحة حكومته التى أعطته منصباً ومالاً وألقاباً ؟ وماهى الخدمات التى أداها لصحبه وإخوانه القدماء ومواطنيه السابقين ؟ .

فأما خدماته السياسية للسعوديين فلم أعرف عنها إلا أن خير الدين طلب ذات مرة مقابلة رئيس وزراء مصر سنة ١٩٤٤ النحاس باشا وذهب إليه للاسكندرية ليشكره على إرساله باقة زهور لتحية حرم أحد الأمراء السعوديين ...

وحضر خير الدين مرة أخرى مؤتمر الدراسات الاجتماعية سنة ١٩٥٠ باسم الحكومة السعودية فلم يتكلم عن الموضوع الذى أرسلته حكومته من أجله بل سكت اسبوعين ، ولما انتهى المؤتمر وقف ليصف بلاغة الخطباء وإسداء الشكر لحسن ضيافة حكومة جلالة ملك مصر للوفود ...

هذا من جهة الرسمية . وأما مع الناس فلم أسمع أن خير الدين قضى حاجة لأحد ، لا لأصحابه ، ولا لمواطنيه السوريين ، ولا لأبناء دينه المسلمين . فهو لا يعرف شيئاً سوى أن يقول للناس « هذا غير ممكن » « وهذا ممنوع » وهذا « غير قانونى » وذلك « مش من اختصاصنا » ...

وأما الممكن فقط عند خير الدين . والواجب أيضاً . فهو الإخلاص التام « لولى النعم » يوسف ياسين الذى عينه فى هذه الشغلة !

الملك فيصل وذوق الإنجليز

أما وأنا في صدد خذلان بعض الناس لي ، فلا يسعني إلا أن أذكر بالخير الملك فيصل الأول رحمه الله . فإنه نصرني في حادثة جنسيتي مع أنني لم أنصره ولا مرة ، لا في حرب الهاشميين مع السعوديين ، ولا في مشا كل السعوديين مع العراق ، ولكنه حفظ لي شرف الدفاع عنه مرة واحدة سنة ١٩١٩ في جريدة «سورية الجنوبية» التي كانت تصدر في القدس لما شتمه أحد سفهاء فلسطين بجريدة مرآة الشرق المقدسية وهو ملك على سورية ، فلما جتمعت بجلالته في بورسعيد بعد ذلك بأشهر ، وبعد أن أزال فرنسا الاستقلال السوري سنة ١٩٢٠ ، شكرني على تلك المقالة ولم ينسها لي ، ثم قابلته بالباخرة سنة ١٩٢٥ في مياه يافا وهو مار إلى أوروبا وكان ملكا للعراق فرحب بي ، ثم قابلته في الإسكندرية سنة ١٩٣٠ فأمر بأن أتخلف عن السفر ساعات ليحدثني عن مشروعه في توحيد عرشي العراق وسورية ، ثم قابلته بالقدس سنة ١٩٣٢ ثم قابلته في القاهرة قبيل وفاته بأسبوع سنة ١٩٣٣ يوم مر بالقاهرة بعد فتنة التياريين في العراق وهو في طريقه إلى سويسرا للاستشفاء وتوفي فيها . وأذكر له رحمه الله أنه لما رآني في القدس يوم مروره بها في حفلة الشاي التي أقامها له المجلس الإسلامي سنة ١٩٣٢ هس لي وبش وسألني أنت هنا أم في مصر ؟ فقلت له هنا وفي مصر ، ولا هنا ولا في مصر ! فاستفهم عما أعنيه وهو يستغرب كلامي ، فالتفت المرحوم موسى كاظم باشا الحسيني وقال لجلالته . إن أبا الحسن أصبح اليوم «العربي التائه» فازداد استغراب الملك فشرح له كاظم باشا مسألتي وكيف أن حكومة مصر تنكر جنسيتي ، وإن حكومة فلسطين لا تعترف لي بها ، فلما سمع الملك هذه الحكاية اربد وجهه وأطرق لحظة ثم التفت إلى كاظم باشا وقال له سنعتشي الليلة عند المندوب السامي فأرجوك أن تذكرني بهذه المسألة لأكلم المندوب فيها وقد بر الملك بوعده فقد أخبرني كاظم باشا انه ذكر جلالته بالمسألة وهما على المائدة وان الملك لما كالم المندوب تظاهر هذا بأنه لم يدربها وأنه سيأمر غداة الحفلة بفض المشكلة وتنفيذ إشارة جلالته التي تعتبر أمراً ملكياً ، ولكن المندوب لم ينفذ شيئاً .

رحم الله ذلك الملك ، ولا رحم ذلك المندوب الذي لم يستح من ملك عربي هو في الأصل ملك البلاد وهو صاحب الحق الشرعي في أن يأمر فيها فينفذ أمره ! لأن البلاد بلاده والشعب

شعبه فقد بايعته البلاد العربية ومنها فلسطين سنة ١٩١٩ بالملك قبل فصلها رسمياً عن سورية بيعة صحيحة فهو ملكها قانوناً ، فلولا عدوان بريطانيا على العالم العربي وتمزيقها إياه لما وصل الأمر بموظف انكليزي أن يهمل أمر ملك عربي متوج ثم يكذب عليه ، مع أن ملك الإنكليز نفسه كان ينزل إلى محطة لندن ليستقبل ذلك الملك العربي الذي يكذب عليه المندوب .

وصف نكبات لندن على لسان انكليزي

بعد أن تذكرت الحوادث السابقة قرأت في الصحف برقية عن وصف وزير انكليزي لمدينة لندن ومصائبها وهو وصف يجب أن يطلع عليه الناس جيلاً بعد جيل ففيه عزاء للمنكوبين...

قال المستر جرينوود إنه يتحدث إلى سامعيه من مجلس العموم في قلب لندن التي أصبحت ساحة قتال جوى فقد وجه إلينا هتلر ضربات شديدة في الأيام القليلة الماضية وأحدث أشد الضرر بالمصانع والسفن والمطارات والمنازل والمستشفيات والكنائس والمتاحف والمدارس ومن الحق أن نخفي أو ننكر أن الضرر المادي الذي أحدثته هذه الغارات كان واسع النطاق وأن القتل المتعمد كان خطيراً وقد شاهدت اللهب يتصاعد من الحرائق الكبيرة إلى عنان السماء ورأيت الخرائب وأبقاض بيوت الفقراء تنفث أعمدة الدخان . وكثيرون هم الذين رأوا القنابل المحرقة تزيل كل أثر لبيوتهم من الوجود أو تشوهها القنابل الشديدة الانفجار وتدمرها تاركة الأمتعة المنزلية الغالية عند أصحابها تبرز من بين الأنقاض كأنها احتجاج محزن صامت على عنف المغيرين الأشرار الذين لا يفرقون بين ما يضرب وما لا يصح ضربه بالقنابل وقد تنسف القنابل الألمانية كل أثر قديم من آثارنا الخالدة .

قرأت هذا الوصف شامتاً راضياً وقلت في نفسي يالهدا الوزير السخيف . أفيظن أنه بهذا الوصف يثير سخط الناس على ألمانيا ؟ ولماذا يسخطون معه بعد أن ارتكب الإنكليز أشنع منه في المستعمرات وبلاد الانتداب وفي فلسطين ، وهم أول من شرع البطش الجماعي ضد الأبرياء ، وماذا على الألمان وهم يصنعونه مع دولة اعتدت عليهم وأبنت الدنيا ضدهم وتريد محققهم وسحقهم وحرمانهم حق الحياة ؟ .

ألم يبطش الجنرال داير البريطاني في الملبار بالهنود المسلمين منذ عشرين عاماً سنة ١٩٢٠ لما حصدهم بالمدافع في الشوارع حصداً وقتل آلافاً بلا سبب؟ ألم يبطش الإنكليز بأهل فلسطين بطريقة التقتيل الإجمالي والقمع الإجماعي فنسفوا المدن وهدموا المساكن ودكوا القرى؟ ألم يقتحم جندهم البيوت بغتة تارة من الأبواب بعد كسرها وتارة بوضع السلم على الجدران ودخول البيوت من النوافذ يفتكون بالأهالي ويسلبون أموالهم؟ ألم يهتكوا الحرمات والأعراض ثم استباحوا المسجد الأقصى بعد أن أصابوه بقنابل المدفعية وهو آثم أثر عربي على وجه الأرض، غير قد استهه الدينية، ثم وضعوا فيه نقطة عسكرية فيها يهود من جنودهم فكانوا يفسقون فيه ويعربدون .

إن فلسطين ما كانت دولة معادية لبريطانيا ولكن بريطانيا استولت عليها بالخدعة والغدر، وادعت أنها وصية تريد أن تمدن البلاد! فيا للوصى الذي يخرب ديار «القاصر» الموصى عليه ويسلب ماله ويذبحه، ثم يلقيه للكلاب تنهشه، وما الكلاب هنا إلا الصهيونيين اليهود الذين جاء بهم الإنكليز لفلسطين بعد أن استأجرهم اليهود هم ودولتهم وساستهم وأساطيلهم وجيوشهم لسلب أوطان الناس وإبادتهم وإزالتهم منها، فلماذا يستغرب الإنكليز كرهنا لهم وشماتتنا فيهم؟ ثم من يضمن لنا أن الإنكليز إن انتصروا لاسمح الله لا يعودون إلى ارتكاب جرائم البطش الإجماعي مع العرب مرة أخرى (١) .

الشهيد فرحان السعدى

لقد كنت كلما قرأت أنباء الغارات الجوية الألمانية على لندن ومدن إنجلترا وتحطيمها وإهلاك سكانها أتذكر ما صنعهه بفلسطين، وكنت أردد أبياتا من شعر العداوات وردت في قصيدة في رثاء الخليفة الثالث عثمان بن عفان « رضى الله عنه » وإنذار قتلته بالثأر وما ينتظرهم من الهول، ثم أتذكر مصرع الشهيد المرحوم الشيخ فرحان السعدى الذى أعدمه الإنكليز في فلسطين وهو فى شيخوخة تقرب من الخامسة والسبعين، برغم توسط العالم العربى كله لمنع

(١) لقد انتصر الإنكليز وبالأأسف، وقد استعملوا أساليبهم المعروفة مرة أخرى، ومنها أنهم فى أثناء تصحيح هذا الكتاب أغاروا بطيارياتهم على القبائل العربية بجنوب اليمن وأبادوا الألوف عن بكرة أبيها .

إعدامه والألا كتفاء بسجنه مدى الحياة ، ولكن الإنكليز أبوا إلا إعدامه ، مع أن جميع القوانين تحرم إعدام الشيوخ المسنين ، ولكنهم أعدموه في رمضان وهو صائم وشفوا غليلهم منه بسفك دمه بعد محاكمة دامت ساعة ، فكأنه لا يشفيهم إلا رؤية الدم المسفوح .

وقد رثاه كاتب من عدن باسم السيد « شبيب الرواقى العتي » بمقال خالد افتتحه بيتين من الأبيات التى أشرت إليها فى رثاء سيدنا عثمان وهما :

ضحوا بأشيب يستسقى الغمام به يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا
لتسمعن وشيكا فى ديارهم الله أكبر يا ثارات عثمانا

فكنت أردد هذين البيتين كلما قرأت كوارث لندن وأكرر: الله أكبر يا ثارات فرحانا
ثم أردد بعض أبيات من قصيدة خلف الأحمر وهى من أعظم قصائد شعر الانتقام .

إن بالشعب الذى خلف سلع لقتيلا دمه لا يطل
خلف العبء على ومضى فأنا بالعبء بعده مستقل
ومن وراء الثأر ابن أخت مصع عقده لا تحل

رجوعاً إلى حياة السجن

— ظهر لى بالاختبار أن الأحسن للسجين ألا يفكر كثيراً بالإفراج وأن لا ينتظره دائماً وإلا أصبحت حياته جحيماً فوق جحيم ، فيجب أن يكيف السجين نفسه بحسب المحيط والوسط وأن يتصور أن الحياة هى هكذا ، لأن اليأس إحدى الراحتين !

— كنت أهب من فراشى بعد انتصاف الليل لأدون فكرة أو أقيد شاردة . ولكن الظلام الدامس ماذا أصنع به . لقد كنت أولع بسيجارة ثم أخرج من ثنایا الفراش قطعة من رصاص القلم وأخرج الورقة من جيبي ثم أسطر ما أريده على وهج السيجارة فتأتى الكلمات متداخلة مختلة ولكنى فى النهار أعود إليها وأنقلها على ورقة أخرى بشكل أوضح .

— بلغنى أن صديق النائب الفاضل عبد الستار بك الباسل « رحمه الله » قد ذهب إلى حمدي محبوب باشا مدير الأمن العام وخاطبه فى شأنى فاطله عدة مرات ثم قال له إن المسألة

« بيد الإنكليز أصحاب الشأن »^(١) فذهب الباسل بك إلى الإنكليز وقدم لهم كفالة مكتوبة طالباً إطلاقاً على أن أسكن وعائلتي بمدينة الفيوم بعيداً عن ميادين السياسة ، فوعده ومطلوه ثم قالوا له إن القيادة البريطانية العامة ترفض ذلك ...

— دخلت جرادة إلى غرفة السجن ف ضربتها فسقطت على الأرض صريعة وإذا بنملة تقترب منها وتشمها وتنصرف، وبعد لحظة جاءت جموع من النمل فأحاطت بالجرادة وتكالبت عليها وأخذت تجرّها مع أنّها لا تزال حية تتحرك . فقلت في نفسي لو كان عند العالم العربي عقل النمل على الأقل في اتحاده لأحاط بالمستعمرين وجرحهم إلى خارج وطنه واستراح من الاستعمار! ولما كنت أقرأ مسودة هذه الملاحظة بحضور أحد الأصدقاء قال إن النمل لم يتجاسر على الاقتراب من الجرادة إلا بعد أن ضربها من هو أقوى منها فدوخها ، فقلت له إن الألمان واليابان قد ضربوا الإنكليز والفرنسيين والهولنديين ودوخوهم ولكن العالم الإسلامي ظل جامداً ، بل إنه قد ساعدهم على النصر وعلى نفسه!

— أرسلت من يكلف صاحبنا أسعد داغر بعمل مذكرة إلى رئيس الوزراء بطلب الإفراج عني باسم اللجنة التنفيذية السورية الفلسطينية بصفته سكرتيرها فأبى قائلاً إن الكلام الشفهي أجدي . والحقيقة إنه كان يخاف من القبض عليه!

— أهداني صديق السيد محمد البابي الحلبي كتاب العقد الفريد في أربع مجلدات وكنت قد قرأت هذا الكتاب مرتين فأخذت أقرأه للمرة الثالثة، فكأنني لما رجعت إليه لم أره قبل الآن. فهو كتاب جذاب مفيد مسلّ يجب على كل أديب وشاعر أن يستظهره ، وقد قيل إنه لا يكمل أدب الأديب إلا بحفظ كتاب العقد . والغريب أن ابن عبد ربه صاحب العقد وهو أندلسي عاصر الملك عبدالرحمن الناصر لم يكتب لنا عن الأندلس والمغرب وهو شاهد عيان، بل كتب عن الأدب والتاريخ في المشرق! وقد جرى ذكر هذه المسألة بحضور الأستاذ علي أحمد بكثير وهو يعد من أعلام الأدب فقال إن ابن عبد ربه أراد أن يفهم أدباء المشاركة أن أدباء المغاربة لا يقولون عنهم علماً، وكان الوزير صاحب بن عباد وهو أديب عصره قد سمع بمفاخرة المغاربة

(١) قالها بصراحة ناسياً أنه في بلد مستقل ولا سلطان للإنكليز على الناس فيه ، ونسى أنه بذلك يشجع الأجانب على وطنه وانتهاك حرمة .

- بكتاب ابن عبد ربه فضحك وقال تلك بضاعتنا ردت إلينا! وهذا صحيح لأن كل مافى كتاب العقد إنما هو من المشاركة وعندهم ، ولذلك نقول لو أن ابن عبد ربه كتب لنا عن وطنه « الأندلس » لجاء بالمعجب والمطرب ولخدم تاريخ الأندلس والأمة العربية أعظم خدمة ، ولكنه صرف وقته في المباهاة على غير طائل - سامحه الله - .

— أنا الآن في ٢١ نوفمبر سنة ١٩٤٠ وقد مضى على حبسى شهران فصرت أشعر بهبوط فى صحتى وتهدم فى أعصابى وأصبحت لا آكل إلا قليلا ولا أنام إلا غرارا .

— فكرت فى شيء تهوين الحبس الانفرادى على نفسى وهو أن أتذكر مساوى الحبس الإجماعى ، فاستعرضت أيام اعتقالى الأول فى الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ وكيف أننا فى معتقل الجيزة كنا نضج من حركات وتصرفات بعض الرفاق ، فهذا يريد فتح الشباك وآخر يريد إغلاقه، وثالث يدندن وقت القيلولة، ورابع يتجادل مع خامس على أخبار الحرب ، وذاك يغنى بصوت قبيح ، وآخرون يلعبون الزرد ويتشاجرون .. وكان أشنع ما يضايقنا فى ذلك العهد أننا كنا كل ١٥ شخصا فى عنبر واحد ، وكان أحدها يشخر وهو نائم بشكل مهول كأنه ثور يخور فى غابة فيهمز صوته الأعصاب ويطير النوم من الجفون ، فاتفقنا جميعا على مطالبة قائد المعتقل بإخراجه من بيننا أو نغادر العنبر ونتركه له وحده ونقتحم العنابر الأخرى على سكانها ونسكن معهم ، وهى المرة الوحيدة التى اتفقنا فيها على شيء واحد! فلم يسع المدير إلا إخراج ذلك « المشخرا تى » من عنبرنا ، ولكن سكان العنابر الأخرى أبوا إسكانه معهم وقاموا بمظاهرة أمام عنابرهم لمنعه ، فحجل المسكين وبقى فى العراء حائرا ، إلى أن انحل المشكل بنصب خيمة لحضرته يشخر فيها كما يشاء ...

— سمعت ضجة فى أنحاء السجن وركض الجنود بعضهم يصيح : إمسك حلق حوش... ثم سكنت الضجة فسألت أحد الجنود عن السجن الذى هرب وقامت الضجة من أجله ، فضحك الجندى وقال لم يهرب أحد ولكن الذى حدث أنه عند فتح الباب الخارجى دخلت قطعة إلى السجن فطاردها الجنود فأخذت تزوغ منهم إلى أن أخرجوها . فقلت وماذا يضركم من وجود قطعة فى السجن فهى تنفع لمطاردة ما عندنا من الفيران والصراصير ؟ فقال إن قوانين السجن تمنع وجود القطط لئلا يدجنها السجناء ويحملونها رسائل أو أشياء ممنوعة !

فضحكت من قلة عقولهم ، لأن القلط من هذه الناحية لا يمكن الاعتماد عليها لعدم قابليتها لذلك ، فهي على عكس الكلاب التي يمكن أن تروض على حمل الأشياء والتسلل بها ، ولكن القانون فوق العقل . . .

— لما مرّ عيد الفطر وعيد الأضحى تذكرت عيد المتنبى في سجنه وكيف قال .
عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد !
ولكن لا جديد ؛ فالحياة في السجن الانفرادى تظل دائماً على حالها وعلى وتيرة واحدة ، فهي تضيق الصدور وتزهق الأنفاس ...

كان الحلاق في السجن رجلاً بارداً سمجاً ، وكانوا يأخذون السجناء للحلاقة عند مدخل بيوت الخلاء ! فما أفسد ذوق أصحاب هذا السجن ، وأما أنا فقد اعترضت واحتججت فصاروا يسمحون لى بقص شعري داخل الزنانة . وأما سماجة الحلاق فقد عالجتها بإعطائه علبة سجائر كاملة في كل مرة بشرط أن يستعجل وأن لا يسألني عن أحوالي ولا عن صحتي ، ولا عن ترجمة حياتي ...

— مضى على بضعة أيام وأنا أسمع شدة يمامة تقف على شجرة بقرب النافذة ، فاستأنست بها ، وكنت أدعو الله أن يصم أذان أصحاب السجن عن شدةوها الجميل ، ويبعد عيونهم عنها لئلا يطاردها بحجة أن سماع الأصوات اللطيفة في السجن من المنوعات أو المحرمات ...

— مرضت في السجن أياماً ولم يحضروا لي الطبيب ، فوصفت لنفسى الدواء وطلبتة من الصيدلية من مالى ! فيا للعجب من حكومة تحبس الناس وتعذبهم لحساب الإنكليز فإن مرضوا بخلت عليهم بالعلاج !

— وصلتني من الدار مجموعة من الكتب فإذا بإدارة البوليس تفحصها ثم تكتب عليها اسمي هكذا «المسجون محمد على الطاهر» ! إذن هذا هو لقبى اليوم فلا حضرة ولا أستاذ ولا افندى ...

— كان الأستاذ أحمد نعمان اليماني قبل سفره من مصر قد نهض هو وبعض إخوانه أبناء البلاد العربية بوضع مضبطة بطلب الإفراج عنى فأمضاها معه نحو ٢٥٠ من الطلاب

والعلماء اليمانيين والعراقيين والمصريين والأتراك والأفغانين والسوريين والفلسطينيين والصينيين والاندونيسيين الخ. وذهب بها وفد منهم إلى رئاسة الوزراء فرفض حسين سري باشا مقابلتهم فتركوا له المضبطة وانصرفوا ، فإذا بمحمدي محبوب باشا يحول المضبطة إلى إدارة البوليس فاستدعتهم وأذرتهم بالطرد من القطر المصري إن عادوا لعمل دعاية لمحمد علي الطاهر ، وكان المنفذ لذلك هو الضابط المعهود محمد يوسف الذي تخصص تقريباً بمطارة أبناء الأقطار العربية الإسلامية ...

— يتوالى إطلاق الأبواق الكهربائية أو الزمامير في الليل لإعلان الإظلام العام والإنذار بالغارات الجوية ليهرب الناس من الخطر فكان لنعيها المنكر الذي يعوى في الليل البهيم دوى مقبض وله صدى عميق ، فيهمز الشاعر هزاً ...

وتصادف أننى في إحدى المرات كنت في خارج الغرفة لحاجة ما ، فإذا بالسجاني يركضون ويعيدوننى إلى الحبس ويضعون المزاليج خلف الباب، خوفاً من أن تسقط قبلة على السجن وأموت في خارج الغرفة خلافاً لزملائي الذين سيموتون في داخل الغرف ! كأن الموت في خارج الزنزانة في عرفهم لا يجوز قانوناً ...

— نويت بعد الخروج من السجن أن أقترح وضع كتاب عن « أشهر مشاهير العرب » على غرار أشهر مشاهير الشرق لجورجي زيدان ، وأشهر مشاهير الإسلام لرفيق العظم ، على أن يكون هذا الكتاب خاصاً بتراجم القواد والفاحين والحكام والوزراء والمتكلمين العرب القدماء ، مثل خالد بن عبد الله القسرى ومحمد بن عبد الملك الزيات والأحنف بن قيس وخالد ابن صفوان وأبوسفين بن حرب وحسان بن النعمان ومعين بن زائدة وقتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم وابن هبيرة والمهلب بن أبي صفرة وقيس بن عاصم ودريد بن الصمة ويزيد بن المهلب ويزيد بن مزيد الخ ..

— من سماجات الدعاية الإنكليزية أنها نشرت أنباء معركة مع الطليان قالت فيها إن هؤلاء خسروا ٢٤ ألف جندي وخسر الإنكليز ١٨٠٠ فما أبعد النسبة وما أبلههم وأسخفهم ، فلو خفضوا عدد الطليان وزادوا قليلاً في عدد الإنكليز الهالكين لكان المقصود من دعايتهم قد حصل وقد يصدقهم الناس !

— ذهب الأساتذة أحمد حسين ومحمد إحسان وعياد أبو الخير وشوكت التونى وهم من خيرة رجال مصر ومحاميها الفضلاء ، وقصدوا وزارة الداخلية بصفتهم وكلائى وطلبوا من حمدى باشا محبوب إطلاق سبيلى أو التحقيق والمحاكمة ، فأبى البحث معهم فى ذلك قائلا إن حبسى هو من حق الحاكم العسكرى العام .

تشرشل يخطب ويتكلم

قرأت للمستتر تشرشل الدجال الإنكليزى الشهير خطابا ألقاه على أعضاء مجلس العموم البريطانى الذين كان يلعب بهم هذا الاستعمارى الخبيث ويسحبهم خلفه كالخراف فيوافقونه على ضلاله وتضليله ، وعلى كل ما يخالف العرف والشرف والإنسانية ، وقد جاء فى خطبه ما يأتى :

« إن انتصر هتلر فإنى أفقد حق الحياة كوطنى حر ، وحق النجاة من العنف والاضطهاد والاعتقال فى المعتقلات ومقاييس المعيشة التى بنيناها لأنفسنا بعد جهود السنين الطوال . وأفقد فوق ذلك حرية السعى لإصلاح أحوالنا الاجتماعية بعد الجهاد السياسى الطويل وحق أولادى فى التعليم وحقى فى إبداء آرائى وحقى فى أن اقترح على ما أريد وحق كل ما يجلب الفرق بين الإنسان الحر وعبد الرق الذليل . »

لنفرض صحة هذا الكلام وإن هتلر! إن انتصر أصاب الناس منه ما قاله تشرشل ، أفكان يزيد على ما هم فيه من البلاء على يد انجلترا التى لاتزال تصب عليهم نفس العذاب الذى وصفه تشرشل بلسانه وشرحه بنفسه وحذر الناس منه؟ من من الناس فى الكرة الأرضية التى تحكمها انجلترا مباشرة أو بإشارة منها لم يفقد حقه كوطنى حر ، ولم يذق الاضطهاد والاعتقال وفقد حرية السعى للإصلاح ، وفقد حق أولاده فى التعليم ، وفقد حقه فى الاقتراع وإبداء الرأى ، وفقد حقه كإنسان ولم يصبح عبد الرق الذليل عند الإنكليز ؟ لاشك بأن تشرشل يريد من العباد أن يتحملوا ذلك من انجلترا وحدها ولا يجوز أن يتحملوه من هتلر ! والعبودية لانجلترا واجبة وأما لسواها فهى حرام وهى شئ كرهه ...

— ذهبت لطبيب الأسنان اليوم ٢٦ نوفمبر ١٩٤٠ وبينما أنا راجع مع الضابط اشتريت

جريدة البلاغ فقرأت فيها النبأ التالي : « قابل صاحب الدولة حسين سرى باشا رئيس الوزراء ظهر اليوم في مكتبه بوزارة الخارجية حضرات الدكتور مصطفى بشناق بك والشيخ صبرى عابدين ويعقوب بك الغصين فهناؤا دولته برياسة الوزارة وتحدثوا معه بشؤون فلسطين ورجوا منه أن يعنى بشتي « الشؤون الشرقية » فوعدهم خيراً . فسررت بهذا الخبر ، لأنى كنت عارفاً بعزمهم على زيارته ومحادثته فى مسألتى ، وقد بت تلك الليلة قرير العين . وفى الصباح علمت من أهل بيتى أن الإخوان كلوا رئيس الوزراء بشأنى فوعدهم بدرس المسألة ، ولكنى لم أطمئن لكلامه .

— بلغنى أن إحدى محطات الراديو التابعة للمحور قد أذاعت نبأ حبسى وعيرت الإنكليز بأنهم يتوددون للعالم العربى قولاً ويضطهدونه فعلاً ، فسررت بهذا النبأ .

اتصلت بالأمير شكيب وأنا فى السجن

تحصلت بعد جهد على عنوان فؤاد بك حمزه الوزير المفوض للحكومة السعودية فى فرنسا بعد انتقاله بالمفوضية إلى فيشى حيث استقرت حكومة المارشال بيتان ، فكتبت لفؤاد بك أجابوه على كتاب وردنى منه من باريس قبل سقوطها وقبل اعتقالى ، وقد جعلت روح كتابى إليه تشير إلى السجن والإيحاء بأخبار الأمير شكيب عما أنا فيه . وكان الأمير لا يزال فى جنيف ومع أن سويسرا محايدة فإن السلطات العسكرية البريطانية بمصر كانت تصدر كل كتاب يرد منه لمصر وكل كتاب يصدر إليه . ولذلك عولت على الاتصال به عن طريق فرنسا بصورة لا تقطن إليها الرقابة . وهذه خلاصة كتابى لفؤاد بك وقد جعلته على لسان أهل بيتى : « أما زوجى فلا يزال فى السجن وإن شاء الله بعد خروجه سيجيىكم على كتابكم ورجوكم إن صادقتم عمننا أبو غالب التنوخى أن تساموا لنا عليه وتطمنونا عنه وتطمنوه عمننا الخ » وكان الإمضاء اسم زوجتى منسوباً إلى اسم عائلتها لا اسمى أنا . ولذلك نجا الكتاب من الرقابة ففهم فؤاد بك أننى فى السجن ، وكان يعرف أن الأمير شكيب يلقب بأبى غالب ، وأنه فى الأصل من بنى تنوخ ، فكان الخلاء من أصحابه يلقبونه فى رسائلهم السرية « بالتنوخى » ومما ساعد على مرور نبأ الحبس أننا جعلناه كخبر قديم معروف إذ قلنا إنه « لا يزال فى السجن »

فر الخبر على الرقابة بكل سهولة ، أما لو قلنا إنه سجن لفطنوا إلى جدة الخبر . وقد بادرفؤاد بك فأرسل كتابي بذاته إلى الأمير شكيب أرسلان فغضب لحبسي غضباً شديداً وأرسل مقالا إلى إحدى صحف أميركا العربية ينتصر لي ويحمل على الاستعمار .

في العراق

جاء كتاب مع مسافر من ابن عمي مصطفى الطاهر اللاجيء السياسي في بغداد يقول فيه لعائلتي إن صحف العراق حملت على الوزارة التي حبستني وعاتبها بمرارة ، وإن بعض النواب تكلموا في البرلمان العراقي ونوهوا بسوء وقع ذلك في نفوسهم ، وإن نخامة السيد طه باشا الهاشمي رئيس الوزراء أجابهم جواباً ملطفاً وأنه أوعز للمفوضية العراقية في القاهرة بأن تتصل بالحكومة المصرية وتطلب إطلاقاً وإعطائي جواز سفر للذهاب إلى العراق ، وإن الهاشمي استدعى وزير مصر المفوض ببغداد وحدثه في ذلك فأرسل هذا مذكرة إلى وزارة الخارجية بالقاهرة .

كتابة صريحة بمجلة مصرية

تمكنت مجلة نور الإسلام بمصر من نشر كلمة عن حبسي فمرت على الرقابة بسهولة ، لأن الرقابة على المجلات غير السياسية وغير الاخبارية كانت خفيفة ولا سيما قد ورد الكلام عنى في خلال عدة موضوعات قصيرة مما كان يكتبه فيها صديق الغيور على محمد المصري أحد موظفي جمرئ الإسكندرية وهو : « الأستاذ الطاهر - من خيرة من أعرفهم غيرة إسلامية ، وهو من القليلين الملمين بشئون العالم الإسلامي إلماماً تفصيلياً ، وهو رئيس اللجنة الفلسطينية بمصر ، كما أن صحيفته (الشورى) التي كان يصدرها إلى وقت نشوب الحرب تعد صفحة بيضاء تشهد له بإخلاصه وحميته ، وقد ساءنا خبر اعتقاله منذ شهور ولم نسمع بارتكابه عملاً يبرر ذلك . وقد وصلتني صورة « عريضة » كتبها ٢٥٠ طالباً من طلاب الأزهر والجامعة والمعاهد الأخرى يطلبون فيها من رئيس الحكومة الإفراج عنه ، ونحن نضم صوتنا لصوتهم ، ولو كنا عرفنا بخبر اعتقاله في حينه لكنا سبقناهم إلى هذا الطلب » .

حياة السجن أيضاً

— يضيق صدرى كل يوم بعد العصر فيستمر الضيق إلى الصباح ، وإني أشعر بأن الهبوط العام فى صحتى أخذ يزداد ، وقد ضعف بصرى عن الأول وشعرت أنه فى حاجة إلى علاج وإلى نظارة .

— أرسلت كتاباً إلى وكلائى المحامين الأربعة وقد ذكرهم أخبرهم عن سوء المعاملة فى السجن . وأن يرفعوا قضية فى المحكمة العليا على وزارة الداخلية لتقول الوزارة أمام القضاء إن قدرت أن تقول إن الحبس من حق الحاكم العسكرى العام فيسجل عليها القضاء ذلك ، كما أن الوزارة لا تستطيع أن تسوغ تعذيبى لأن السجن غير الاعتقال ، فهى تقول اننى معتقل والحقيقة اننى مسجون ، والاعتقال فى الواقع أمر فظيع فهو السجن ولكن بشكل أخف فليت الأمر كان اعتقالاً ، غير أن حمدى محبوب لم يسمح بتوصيل كتابى هذا إلى المحامين بل أخفاه عنده .

— بلغنى أن بعض أصدقائى النواب قد أعدوا حملة فى البرلمان بسبب حبسى الذى استنكره الجميع لأنه لم يحبس أحد بطلب الإنكليز سوى ، وسيذكر النواب مرة أخرى مسألة الشاب المصرى الذى اعتقله الإنكليز فى لندن أخيراً وحبسوه بالخطأ يومين ثم أطلقوه معتذرين وقدموا له ترضية خمسمئة جنيه ، فكيف يتظاهر الإنكليز بتقديس الحرية الفردية فى بلادهم ، ثم يحملون مصر على هدر حرية الناس ويحملونها هذه المسؤولية ؟

— يتوالى نفاق المسلمين لانكلترا فقد قرأت فى الصحف أن حسن باشا نشأت سفير مصر بلندن قدى أهدي للصليب الأحمر البريطانى بعض حلى زوجته وقرأت أن عبد الرحمن المهدي باشا من كبراء السودان قد أهدي للجيش البريطانى مقادير من الأغذية بينما أهالى السودان يجوعون ، وبرغم كون الإنكليز قد استعبدوا وطنه وأهلكوا فى القرن الماضى ثلثى سكانه ، ثم نسفوا قبر والده المهدي وأخذوا جمجمته فعملوها مجبرة ثم وضعوها فى متحف لندن ! — قرأت فى مجلة مقالاً جاء فيه أن المستر نورمان إيجل السياسى الاقتصادى البريطانى خطب فى واشنطن فى ١١ نوفمبر ١٩٤٠ فقال « إن ٢٤ ألف يهودى دخلوا أخيراً لفلسطين وإن

مصير اليهود معلق بمصير بريطانيا « وهذا صحيح ، لأنها دولة اليهود ولولا بريطانيا ما كان لليهود قيمة على وجه الأرض ، وللعرب العذر في بغضها وتمنيهم نصر ألمانيا - والغريب أن الإنكليز في خلال الحرب وفي الأيام التي كانوا ينهزمون فيها أمام الألمان ، وبرغم كون المنافقين وغير المنافقين من المسلمين والعرب يساعدون بريطانيا قولاً وفعلاً فإن بريطانيا كانت لا تستر في عطفها على اليهود ولا تكتم سوء نيتها نحو العرب وإصرارها على إعطاء فلسطين لليهود وإقامة الدولة اليهودية فيها برغم أنوف المسلمين ، ضاربة بنفاقهم لها موطئ القدم لدرجة أن الوزير جرينوود وزير الدولة البريطانية قد أرسل في ٧ نوفمبر ١٩٤٠ إلى الدكتور استيفن وايز رئيس الصهيونية بأميركا يؤكد له حسن نيات بريطانيا نحو اليهود بعد الحرب ، وقد وصفت صحف أميركا هذا التصريح بأنه أعظم تصريح حصل عليه اليهود بعد (وعد بلفور) .

فما تقدم يتضح أن بريطانيا لا يمكن أن تتوب ولا أن تترك الاستعمار ، ولن تقلع من عداوتها للعرب مهما كانت الظروف ، حتى في أحلك أيام الحرب سواداً عليها ، وفي أثناء انكسارها أمام الألمان وشدة حاجتها إلى العرب .

والذي يزيد في إهانة بريطانيا للعرب أنها في هذه الحرب لم تقم لهم أقل وزن ولا وعدتهم بشيء لا مكتوباً على ورق ، ولا بوروده على لسان أحد من ساستها ، بل كانت تصفع المسلمين والعرب وهم راوضون ، ثم يتفانون في خدمتها قائلين إن بريطانيا ستعطينا ، وإن بريطانيا ستقدر لنا ؟ وإن بريطانيا لن تظل كما هي ، بينما كانت بريطانيا صريحة في هذه الحرب بسكوتها حتى عن تطمينهم بكلمة ، لأنها مصممة على سحقهم إلى الأبد . وإني أسجل هنا التلغراف التالي الذي نشرته جريدة الأهرام في يوم ١٨ نوفمبر ١٩٤٠ لمراسلها بلندن وهو أن وزير الخارجية البريطانية سئل في مجلس العموم عن الوعود التي قطعتها بريطانيا على نفسها للدول التي يهتمها الأمر فيما يتعلق بإنشاء اتحاد عربي حر بعد الحرب فأجاب المستر بتلر قائلاً إنه ليست هناك وعود! ...

يعني أنهم بخلوها علينا هذه المرة حتى بالوعد!

ملحق :- نشر المستر تشرشل المعروف ببغضه الصريح للمسلمين وللعرب مذكراته سنة ١٩٥٠ فإذا هو يقول فيها إن المرشال ويفل قائد الجيش البريطاني قد نصحه بأن يكف عن

سليح يهود فلسطين حتى لا يثير العرب على بريطانيا ، فقال تشرشل : ولكنى أهملت اقتراح
يقفل ومضيت في تنشيط اليهود وجلبهم لفلسطين وتسليحهم علناً بدون أن يرتفع غواء كلب
احد من هؤلاء العرب بالاعتراض على ما أصنع ...

تلفيق الاستعمار

وقرأت في صحف ٥ نوفمبر ١٩٤٠ خبراً نشرته وكالة الأنباء الإنكليزية عن القدس إن
الكاتب الرحالة الدنمركي كنود هلمبو قد عاد أخيراً من ليبيا حيث قضى وقتاً غير قصير
وأخذ يروى فظائع الطليان في طرابلس وبرقة الخ ..

والحقيقة أن الدكتور هلمبو قد مات منذ عشرين سنة وكان قد أسلم وسمى نفسه « على
هلمبو » وكان قد زار طرابلس ومصر ونشرت له في الشورى معلوماته عن فظائع الطليان بعد
زيارته لطرابلس ، فلما زار شرق الأردن في ذلك الحين أرسل إليه الإنكليز أعوانهم فقتلوه في
الصحراء السورية اغتيالاً ، فكيف تنشر الدعاية الإنكليزية اليوم أخبار كنود هلمبو القديمة
على أنها جديدة ؟ ولماذا لم ينشروا رأيه في الإنكليز وقد أذاع الكثير عن فظائعهم في
مستعمراتهم ...

أخبار الحياة في السجن

— من حسن الحظ أن السجنانيين لا يدعوننى أنام في النهار لكثرة فتحهم الباب
و « البصبة » على من « النظارة » لأننى لو نمت في النهار ما عرفت النوم في الليل .
— لما ذهب وفد الطلبة والعلماء إلى وزارة الخارجية لتقديم المضبطة بطلب الإفراج عنى كلف
رئيس الوزراء وكيلها محمد شرارة باشا بأن « يوزع » الوفد بحجة أن مثل هذه المضبطة يجب
أن تقدم إليه بوزارة الداخلية بصفته وزير الداخلية ! ولكن ما هو الفرق بين هذه وتلك
مادامت العريضة مقدمة إليه ؟ وقد ذكرت فيما سبق أنهم لما قدموها إليه بوزارة الداخلية
تهرب من مقابلتهم فتركوها عند سكرتيره وانصرفوا .

— وزعت اليوم على السجنانيين طعاماً وفاكهة فهذا خرج بموزتين ، وذاك برغيفين كبيرين ،

وآخر ظفر بيضتين وبرتقالة ، والرابع بعلبة سجائر ، وغير هؤلاء أعطيتهم شايًا وسكرًا ، فابتهجوا وصاروا يتسابقون في خدمتي وينادونني بياسعادة البيك ! فصرت أشتري الكثير من هذه الحاجيات ثم أوزعها على السجنانيين ، لأن هذه الطريقة تمهد لي على الأقل عدم قيام أحدهم بحركات لا تكلفه أى عناء أو مسئولية ولكنها تكدرنى ! .

— جىء اليوم إلى السجن بسارق فكان « يكرم » الجنود فيحترمونه ، فضحكت وقلت هذا متمرن على السجنون بلا شك وإلا فكيف اهتدى إلى الطريقة من أول يوم ..

— وصل إلى مصر جورج أنطونيوس بك « رحمه الله » وقد بعث لى سلاماً وقال إنه سيبحث مسألتى مع الجنرال كلايتون « المدير العام للجاسوسية فى الشرق » وإنه سيطلب زيارتى ولكنى أشك فى السماح له .

— أ برق ابن عمنا الدكتور حسنى من مكة إلى وكيله هنا ليقرضنا ما نحتاج إليه من مال ، فشكرناه واعتذرنا له لأنه لا يزال فينا رمل ، وأخبرناه بأننا سنطلب منه إن احتجنا بارك الله فيه .

— كتب أحمد حلمى باشا من القدس إلى أهل بيتى انه مستعد لإرسال كل ما يلزمنا من المال وأنه والأصدقاء لا يزالون يسعون بالقدس لإطلاقى .

— نشرت الجرائد أن ٥٠٠ طائرة ألمانية رفرفت فوق مدينتى سوئمبتون وبورتسموث وضربت هما بالقنابل ٩ ساعات وأظن أن ساعة واحدة تكفى لإزالتها من عالم الوجود بلا شك ، ولكن الإنكليز نشروا أن سكان المدينتين أصبحوا فى اليوم التالى بعد الغارة أكثر مرحاً ! كأنه بقى فيها ديار ليفرح ويزداد فرحاً يصل به إلى درجة المرح ! فيالوقاحة هؤلاء الإنكليز الذين إن انتصروا ملأوا الدنيا كلاماً . وإن انكسروا ملأوا الكائنات تبجحاً ...

— كلما قرأت أنباء فرار الإنكليز من لندن خوفاً من طائرات الألمان ، وإرسال الإنكليز أطفالهم إلى أميركا وجنوب أفريقيا ونيوزيلاندا رددت الآية الكريمة « وضائق عليهم الأرض بما رحبت وضائق عليهم أنفسهم » صدق الله العظيم .

— قرأت فى مجلة المصور ما يفيد أن ابنة حسن خالد باشا أبو الهدى رئيس حكومة الأردن كانت تشتغل بالدعاية البريطانية فى إذاعة لندن ، وأنها رجعت لمصر واشتغلت فى السفارة

البريطانية ... وأن أحد النواب وهو محام مشهور أرسل ابنته إلى السفارة البريطانية لتشتغل متطوعة في قسم الأرشفة ... في الأسف !

— قرأت في الأهرام أنه قد دخل فلسطين في الأشهر الثلاثة الأخيرة ٨٧٠٠ يهودي وقرأت في المقطم أنه دخلها أيضاً من اليهود ١٨٠٠ يوم ٢٦ نوفمبر ١٩٤٠ على الباخرة الفرنسية باتريا التي تحولت ملكيتها منذ سقوط فرنسا إلى شركة انجليزية ! يعني أنه لا عمل لهؤلاء الإنكليز حكومة وشعباً إلا خدمة اليهود وحماية اليهود ...

— ذكرت الصحف أنه قد وقعت اضطرابات في سورية وأنه قتل من الفرنسيين ٢٦ جندياً وقد فسرت المصادر الفرنسية هذه الثورة بأنها بتحريض من دولتي المحور .. كأنه لا يجوز للسوريين أن يثوروا لوطنهم ولكرامتهم ، وأنهم إن تحركوا فلحساب الغير — فلو كانت فرنسا تحارب الصين مثلاً ثم ثار السوريون لقاتل إن السوريون إنما يثورون لحساب الصين ...

— لما تهرب رئيس الوزراء من مقابلة الوفد الإسلامي بطلب الإفراج عني وأحلمهم إلى البوليس ، طبعوا عريضتهم سرّاً على الرينيو ووزعوا عدة آلاف منها على جميع المراجع السياسية وقد وصلتني نسخة منها إلى داخل السجن — وقد طبعت على الشكل الآتي :

اعتقال الأستاذ الطاهر

نص العريضة التي قدمها أبناء الأقطار الإسلامية إلى دولة رئيس الوزراء طالبين الإفراج عن المجاهد العربي الأستاذ محمد علي الطاهر .

حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء الأنفم :

يتشرف برفعه إلى دولتكم العلماء والطلاب من أبناء الشعوب الإسلامية الشقيقة في الأزهر والجامعة ومدارس مصر الأخرى ومعاهدها :

يا صاحب الدولة : منذ أربعة أشهر اعتقلت وزارة الداخلية المجاهد العربي المخلص الأستاذ محمد علي الطاهر منشي جريدة الشورى ورئيس اللجنة الفلسطينية بالقاهرة وأودعته السجن من غير أن يكون هناك سبب مبرر يوجب حبسه ، وقد كان لهذا العمل وقع أليم في نفوسنا لما نعهده فيه من الوطنية الصادقة والإخلاص العظيم في خدمة الإسلام والمسلمين .

يا صاحب الدولة : إن مصر رأس العالم الاسلامى المفكر وقلبه النابض ، وقد كانت ولا تزال الملجأ الحصين والحرم الآمن الذى يلجأ إليه أحرار العروبة والإسلام ، فيجدون كل رعاية وإكرام وتقدير .

وان اعتقال المجاهد الكبير الأستاذ الطاهر فى مصر زعيمة العالم الاسلامى ومعاملته هذه المعاملة الأليمة لما يحز فى نفوس المسلمين قاطبة ويملاً قلوبهم أسى ولوعة .

يا صاحب الدولة : إنا نلجأ إلى حكمتكم وعدالتكم ونستوحى ضميركم الحر أن تتكرموا بإصدار أمركم بالافراج عن الأستاذ المجاهد ورد حريته إليه، ولنا وطيد الأمل أن يجد ملتئمنا هذا قبولاً حسناً .

لا زالت مصر آمنة مطمئنة فى ظل جلالة ملكها المحبوب «فاروق الأول» أيده الله بنصره .

الإمضاءات

السوريون والفلسطينيون :

مشهور ضامن بركات . على محمد الشيخ حسين . سعيد أحمد . محمد سعد هاشم .
عبد الرؤف درويش أحمد . محمود حسن ياغى . عبد العزيز عزت الخياط . ضياء الأدهم .
محمد عبد الحافظ . واصف عبد الرحمن عبده . محمد ربيع يوسف . فتح الله حسن . جمعه السلواوى .
سعد الدين الخطيب . محمد محمود الحاج قاسم . أمين محمود أبواستين . محمد أحمد التيمى .
نمر مصباح النورة . عبد القديم يوسف زلوم . صلاح الدويك . محمد مصطفى الصلاحى .
عبد الحميد القاسمى . ناجى حسن عبد الله . هاشم نعمان الخازندار . محمد أحمد البحش .
سعيد زكى أبو السعود . شاكر سعيد . سليمان بلان . على البدرساوى . عبد الله السيد
البدرساوى . عبد الحميد الدويك . سالم الدويك . حجازى أيوب . زكريا سعيد . كمال سعيد .
خالد الفرا . محمد صلاح الدين . جميل حسن النجار . حسن عبد اللطيف أبو سلطاني .
محمد رضوان المحتسب . شفيع سعيد البدى . عبد الرؤف سعيد البدى . حلمى عبد الفتاح محمود .
إبراهيم ياسين قطان . عبد الرحمن محمد مراد . ممدوح مهنا . محمد حرب خميس . عادل مطيع .
عدلى الجوهرى . مرشد داوود . يوسف عبد الرزاق المشهدى . حانظ عبد الرحمن صندوقة .
محمد حمدان الفارس . فوزى سرنده .

الحجازيون :

محمد عبد الرحمن الزیادی . حسن علی خلف . محمد مرسى علی . عبد الله أحمد عبدالرازق .
أحمد علی المنیفی . طاهر الزواوی . محمد الدفتردار . إبراهيم خان یونس . بكر عرفه المدنی .
سمیح أحمد الشریف . صالح منادی . أحمد الحکیم . حسن مغربل . شاكر سراج . إبراهيم
بشاوری . أحمد حسن الشریف .

المغاربة :

عبد القادر حسنین . حسین سرور . محمد أحمد علی . المدنی محمد . الطیب أحمد . أحمد
البغدادی . سلیمان محمد الزوبی . عمر راغب . محمود یوسف الحبیة . محمد الصغیر العروسی .
محمد عبد السلام . الحسنی علی المراكشی . الأمين المغربي . محمد المدنی محمد . محمد مبارک .
علی محمد الحجاجی . سالم العموری . محمد صالح الزغبی . سعد الدین القبانی . محمد خیرنصر .
محمد کامل الحمای . خالد العلنی . حسن علی . حمدان أحمد یوسف . رمضان الشوا . محمد یوسف
النازلی . حسن عبدالقادر . مرشد داود . عدلی عبدالقادر . محمد علی سعد . خالد أحمد هنیه .
عبد الرؤف عبد الصمد . سالم العمودی . الهلالی محمد . البشیر العروسی . طه الحمدانی .
أبو بكر المغربي .

البنیون :

علی محمد علی الهتاری . أحمد محمد علی الهتاری . علی عقاب . محمد علی الجفري . أحمد
عبد الرحمن الجفري . عبد الرحیم عبد الرحمن . صالح أحمد محمد . عبد القادر جعفر الحفار .
غزال الجهن . أحمد محمد الصوفی . السید عبدالله علی . محمد عمر . علی ناصر . أحمد محمد الصوفی .
عید منصور . أحمد عبد الله . علی حیدر . سلام فارغ صالح . عبد الوهاب حسن . عبد الله
عثمان عمر . سلامة محمد . علی هتاری . عبده منصر . أحمد الجفري . إسماعیل عبد الله . محمد
سالم البیحاتی . یحیی زبارة . محمد صالح المسمری . سالم وصابی . علی محمد علی الهادی . أحمد
محمد علی الهادی . غوالی الجهنی .

الجاویون -- آندونسیا :

هارون عبدالرؤوف . عبدالرؤوف ماهیه . أحمد هاشم . سلیمان وکیل . شمس الدین محمد .

حسب الله جعفر . إسماعيل عبد الوهاب . إدريس هاشم . عبد الغنى رامي . علي سليمان .
 أحمد بستاني . مختار تاشنغ . عبد القادر جيلاني . إبراهيم عبد الحكيم . علي محمود . فؤاد
 نجر الدين . عبد المجيد جميا . عبد المراد قدرى . عبد الرشيد أبو الحسن . عبد الله نجارى .
 محمد مستور جهري . سليمان درماوى . علوش أحمد عبدالله . إسماعيل عبد الوهاب . عبد الغنى
 سداغ . تاج الدين رضوان . نور الدين يحيى . بستاني إبراهيم . طه يحيى . قهر الدين يونس .
 إدريس حسن هاشم . محمد طه يحيى . إسماعيل على . سنوسى محمود . محمد يس عبد المجيد .
 عبد الغنى بيك .

الأتراك :

حمدى أرسلان . عثمان مصطفى عثمان . عبد الرحمن موسى . برهان الدين الداغستاني .
 محمد شريف . محرم تحسين . علي حسن يعقوب . توفيق إسلام يحيى . عبد الله عثمان .
 مصطفى على رضا . على كونوفى . حسين عبد اللطيف . نصرت محمد . حسين مرهمبك .

الهنود :

محمد حسين النواتى . لقمان أحمد .

السودانيون :

مختار فضل بيرم . جعفر محمد الأمين . حسن محمد إسماعيل . أحمد على عمار . عثمان
 أحمد عبد الرازق . عثمان حسن محمد على . محمد سلطان جميل . صالح المدنى . محمد حسين
 الرفاعى . محمد خوجلى . عثمان خليفه . عبد المجيد الحميدى . حسن سرور .

الأكراد :

محمد شريف إسماعيل . عيد شريف الزركلى . خليل الإمام الكردى . عمرو جدى الكردى .
 قاسم فتح الله . الحاج محمد حسين . محمود حسين . إسماعيل مصطفى البغدادى . محمد شريف
 خالد . محمد شريف بابلاوى . عزيز عثمان الشيخ . حمدى الكردى .

التركستانيون :

محمد حسن على . عبد الخالق إسماعيل . عبد الواحد عبد الله . محمد سعيد إسماعيل .
 نور محمد إسماعيل . الحاج قاسم إسحاق . عبد الأحد حامد .

الصينيون :

عبد الله ناجي كف . محمد تواضع . محمد حنفى . يحيى بان . عثمان قان . نور الدين يحيى .
عبد الله يسر . إبراهيم الشوم . أحمد جان . نعمة الله شن . صالح دن . سليمان وان . عبد الله ماجينكو

الأفغانيون :

محمد عبد الغفار الهاشمي . عبد الصمد عبد الله .

صدى العريضة فى نفسى

لما امتلكت نسخة من هذه العريضة التاريخية سررت بها سروراً لا يمكن تصويره ،
فقد كنت أفتحها فى خلوتى فى الزرانة وأعيد قراءتها وأتأمل أسماء موقعيها ، فأتمنى لو أراهم
واحداً واحداً لأشكرهم وأسمعهم ثنائى وامتنانى ، فياله من وسام عظيم لا يدانيه فى الشرف
وسام أن يجمع هؤلاء الإخوان مع اختلاف أجناسهم وألوانهم ومواطنهم ولغاتهم ، على
الاهتمام بى والغضب من أجلي والإجماع على طلب الإفراج عني ، واستهدافهم إلى غضب السلطات
الأجنبية - والمحلية أيضاً - بسببى ، حين تطوع رئيس الوزراء وبالأسف بالتهرب من مقابلة
وفدهم بل بلغ به حب الاستماتة فى إرضاء الإنكليز إلى تسليط شرطته عليهم وتهديدهم وإنذارهم
بالطرد من البلاد المصرية . لقد أجيئنى هذه الحركة الكريمة من أبناء الأقطار الإسلامية
والعربية وشعرت باعتزاز شديد أعظم من اعتزاز رئيس الوزراء بكرسى الوزارة وتأييد
الإنكليز له ...

توالى آيات النفاق

— وقع نظرى فى الصحف على نفاق جديد من بعض الناس للإنكليز ، فقد قرأت فى
الجرائد أن عريان يوسف سعد ، وهو من المجاهدين المصريين السابقين فى الثورة المصرية ، قد
انتكس وكتب إلى الجنرال ولسن القائد البريطانى العام فى مصر يعرض نفسه متطوعاً فى
الجيش البريطانى ولكن الجنرال رفض طلبه وحسناً فعل .

— وقرأت أن ملك بهوبال بالهند وهو ملك مسلم قد خطب ضد ألمانيا وإيطاليا لاعتدائهما
على اليونان ... نعم اليونان ، لا بلاده هو ولا بلاد المسلمين ، ثم قال إن الاعتداء على اليونان

هو مقدمة للاعتداء على بلاد المسلمين . يعنى أن بريطانيا فى عرفه لم تعتد على المسلمين أبداً ...
 — وتبرع أمير البحرين للحكومة البريطانية بثلاثين ألف جنيه وبعشرين ألف روبية
 لمشتري طائرة .

إثارة مسألتى فى البرلمان

نشرت الأهرام فى عدد أول يناير ١٩٤١ نص السؤال الذى قدمه حسين افندى محمود سعيد إلى مجلس النواب ، وقد نشرته بعنوان « الأستاذ الطاهر » بحروف كبيرة ومهدت له بمقدمة وهو « قدم النائب المحترم الأستاذ حسين محمود سعيد إلى صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء سؤالاً بشأن الأسباب التى دعت إلى القبض على الأستاذ محمد على الطاهر وقد أدرج هذا السؤال فى جدول جلسة النواب القادمة ، ونحن نورد نصه فيما يلى :

« قبضت السلطات المصرية منذ شهر على الأستاذ محمد على الطاهر رئيس اللجنة الفلسطينية بمصر ولا يزال معتقلاً بالسجن دون أن توجه إليه تهمة ، كما أنه لم يقدم للمحاكمة فما هى الأسباب التى استدعت القبض عليه ؟ وإذا كانت أسباب القبض جدية ، فما هو المانع من تقديمه للمحاكمة للفصل فيما هو منسوب إليه ؟ » اه .

— أخذت أنتظر الجلسة القادمة للبرلمان لأرى ماذا يقول رئيس الوزراء وكان فريق من النواب قد استعدوا للحملة على الوزارة يوم الجلسة ، ولكن مضت جلسات ولم يحصل شيء ، فأخذ أصحابى فى الخارج يبحثون عن السبب بينما كنت أنتظر ما يشفى نفسى ولكن هيهات .

— وقع اضطراب فى فلسطين كان سببه أن الإنكليز أمروا بجمع متطوعين للجيش البريطانى ، فلما رفض الناس ذلك أخذ أعوان السلطة يضربون الذين يرفضون التطوع ويسكبون القطران على أجسامهم ويجرعونهم زيت الخروع ويضعون لهم القنابل فى أملاكهم ويهددونهم بالنفى من فلسطين الخ .. ولما اشتدت الفتنة بسبب ذلك نشرت السلطة البريطانية بياناً تعترف بوقوع هذا التعذيب قائلة إنها لم تأمر به وإنها منعه .

— قرأت أنه لما انتصر الجنرال ويفل البريطانى على جرازبانى الإيطالى تلقت الحكومة

البريطانية برقيات التهئة من جميع بلاد المسلمين في آسيا وأفريقيا ، كأن ويفل أقل شرا من جرازاني !

— إن تهافت كبراء العالم الإسلامي على التبصيص للانكليز جعل هؤلاء يستخفون بالجميع وينشرون في صحف لندن « إن القاهرة وهي كبرى المدن العربية تلهب حماسة كلما زحف اليونان إلى الأمام في ألبانيا ضد الطليان » نعم إنهم يتحمسون لليونان كأن الجيش اليوناني يزحف لتخليص المسلمين من الإنكليز ...

المساعي في بغداد

ورد كتاب من بغداد مع مسافر يقول إن الأصدقاء في العراق قد اهتموا بمسألة اعتقال وخاطبوا نخامة رئيس الوزراء الهاشمي باشا ووزير الخارجية للاتصال بالحكومة المصرية للتوسط في الإفراج عني ، كما أن صديق سعيد ثابت « رحمه الله » رئيس جمعية الدفاع عن فلسطين، وأن جمعية الهداية الإسلامية وجمعية الشبان المسلمين وبعض أعضاء مجلسي النواب والأعيان قد أرسلوا للحكومة العراقية مضابط يوسطونها للتدخل والعمل على الإفراج عني والترحيب بي في العراق ، وقد خوطب في ذلك وزير مصر المفوض ببغداد فقال إنه سبق أن أرسل مذكرة بذلك إلى وزارة الخارجية بمصر ، وسيرسل مذكرة أخرى .

مسعى من نواب مصر

بلغني أن عبد الحليم بك أبو سيف راضي ومحمود بك لطيف ومحمد عبد الرحمن بك نصير من أعضاء مجلس النواب المصري قد راجعوا وزارة الداخلية ورئيس الوزراء والسفارة البريطانية بشأني، وقد بلغني أن الخواجه سمارة المستشار الشرقي للسفارة وهو رجل استعماري خبيث قال لعبد الحليم بك راضي إن القيادة البريطانية العامة تعارض في الإفراج بحجة أنني « مؤذ وشديد الخطر » .



صورة تاريخية

وصل إلى مصر بعد استقلال أندونيسيا وإعلانها جمهورية برئاسة المجاهد القديم الدكتور أحمد سوكونو أول وفد رسمي سياسى من أندونيسيا وقد وصل الوفد في صيف ١٩٤٦ برئاسة صديق الحاج اغوس سالم وزير الخارجية ونائب رئيس الوزراء ، وأخى السيد محمد رشيدى والدكتور نصير بومنشاك ، وقد عقدوا اجتماعا عندى إدارة الشورى . وقد ظهر إلى عين القارىء في الصورة الدكتور بومنشاك الذى عين بعد ذلك سفيرا في باريس ، فالسيد محمد زين حسن رئيس هيئة استقلال أندونيسيا بمصر ، فمحمد على الطاهر ، فالوزير الحاج اغوس سالم ، فالسيد محمد رشيدى ، الذى عين بعد ذلك ، أول وزير مفوض لأندونيسيا في مصر والشرق الأوسط

« أنظر الصفحات ٨٧ و ٨٨ و ٨٩ من هذا الكتاب » .

فرنساویات...

بينى وبين الجنرال فييجان

من الخواطر التي مرت بذهنى عن أسباب حبسى مراسلتى للجنرال فييجان القائد الفرنسى العام لجيوش الحلفاء فى شرق البحر المتوسط ، فقد مر الجنرال بالقاهرة فكتبت إليه فى ٩ فبراير ١٩٤٠ كتاباً وجهت نظره فيه إلى تصرفات سلطات فرنسا فى سورية وكيف إنها تنفر بأعمالها العالم العربى من الحلفاء بدلاً من جلب القلوب ، وإن العالم العربى مستاء من استمرار حبس نبيه بك العظمة ورفاقه والتنكيل بهم ، وحبس الأستاذ محمد عزت دروزة بك عضو اللجنة الفلسطينية العليا الذى كان يقيم بدمشق ، كما حبسوا رفاقه أيضاً . وقلت له إذا كنتم تريدون من العرب أن يصدقوا حسن نوايا فرنسا ويشقون بالحلفاء فافرجوا عن هؤلاء لتطمئن القلوب وتسكن الخواطر ، لأن الكل متألم من حبسهم الخ وقد أمضيت ذلك الكتاب بصفتى رئيس اللجنة الفلسطينية بالقاهرة .

وبعد عشرة أيام أجابنى الجنرال فييجان بكتاب طويل - لا يزال عندى - وإنى أفضل أن أثبت ترجمته هنا للتاريخ مع تعليق عليه :

القيادة العامة لشرق البحر المتوسط

بيروت ٢٠ فبراير ١٩٤٠ - ١٩٤١

حضرة السيد محمد على الطاهر رئيس اللجنة الفلسطينية بالقاهرة .

لقد رأيت بمناسبة مرورى بالقاهرة أن تخاطبوني فى مسألة السيد نبيه العظمة وعزت دروزة المسجونين فى سورية فى الوقت الحاضر .

فى الشرف أن أخبركم ، جواباً عن ذلك ، بأن السيد نبيه العظمة كان قد حكم عليه بالإعدام سنة ١٩٢٠ لما كان من صلاته بالأعداء فعفى عنه سنة ١٩٣٧ ، فلم يلبث أن ناصب فرنسا العداء ، فنشر فى أوائل سنة ١٩٣٩ منشورات طعن بفرنسا : وكان من منظمى الفتن بدمشق فى شهر مارس سنة ١٩٣٩ ، فحكم عليه فى ٢٩ إبريل سنة ١٩٣٩ بالسجن مع الأشغال الشاقة عشرين سنة لاثماره بالخروج على السلطة العامة واشتراكه فى إنشاء المتاريس .

وأما السيد عزت دروزة فكان لاجئاً فلسطينياً فكان يجب عليه أن يمتنع عن أى نشاط

سياسى فى البلاد الخاضعة للانتداب الفرنسى . فحكم عليه فى ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣٩ بالسجن خمس سنين وبغرامة ألف فرنك ، وذلك بتهمة صنع متفجرات ، وقد كان على رأس مشروع واسع لصنع القنابل .

والمحكم النظامية هى التى فرضت العقوبات على السيدين العظمة ودروزة بعد وقوف تام على الحقائق ، وكان الحكم عليهما من أجل اقتراحهما أعمالا خطيرة كما ترون ، فلذلك يتعذر على فى الأحوال الحاضرة أن أتخذ من التدابير ما أطلب به العفو عنهما من حضرة رئيس الجمهورية ، أو رئيس الوزراء ، أو وزير الدفاع ، وهم الذين لهم وحدهم سلطة إصدار قرار فى ذلك . وتفضلوا ، يا حضرة الرئيس ، بقبول فائق الاحترام :

القائد العام لقوات شرق البحر المتوسط : « فيجان » .

تعليقى على كتاب الجنرال

أولا : إن هذا الكتاب يدل على أن عقلية الفرنسيين لا يمكن أن تتبدل ولا يمكن للحادثات أن تغير شيئا من طبيعتهم ، وإنه لا ينفع معهم إلا ضربهم وإخراجهم من البلاد التى نكبت بوجودهم فيها .

ثانيا : ان سبب التنكيل بنبية بك العظمة ليس عمل المشورات ولا إثارة الفتن ولا إقامة التاريس ، بل إن حقد فرنسا على نبية بك يرجع إلى سنة ١٩٢٠ يوم كان قائدا لشرطة حلب فى أيام الاستقلال الأول ، فقد استدعى الحال أن جلب نبية بك قائد جيش حلب الفرنسى لأمر ما ، وهو كولونيل ، فأغلظ هذا القائد فى الكلام فأمر نبية بك بطرحه أرضا وتأديبه بالكرباج وحسنا فعل ، هذا هو السبب الحقيقى الذى جعل فرنسا ولوبعد عشرين سنة تنكل به الآن سنة ١٩٤٠ هذه هى الحقيقة ، وأما قول الجنرال بأن السبب هو نشر المناشير وعمل التاريس فهى شتقة لا قيمة لها .

ثالثا : أما السيد عزت دروزة ورفاقه فإنهم لم يعملوا شيئا ضد فرنسا فى ذلك الحين ، ولكن فرنسا تحفظ لدروزة أنه كان من أركان الدولة الفيصلية سنة ١٩٢٠ وكان يعمل ضد

فرنسا حفظت ذلك الذنب إلى أن وقع في قبضتها بعد عشرين عاماً فبطشت به وانتقمت منه .
وغير صحيح أن المحكمة التي حكمت عليه وعلى نبيه بك كانت محكمة عادية بل هي محكمة
استعمارية .

كتاب آخر منى إلى الجنرال

لذلك لم أستطع بلع تضليل الجنرال الكبير ، ولا هضم حجته ، بل كتبت إليه بما
ينقض كلامه ويشرح تلفيقه وتهربه من الحقيقة وهذا نص ذلك الكتاب :

مصر ٢٥ / ٢ / ١٩٤٠

حضرة صاحب الفخامة الجنرال فيجان ، القائد العام لقوات شرق البحر المتوسط -
بيروت :

بعد الاحترام والإجلال : حظيت بكتاب نخامتكم المؤرخ في ٢٠ الجارى بشأن السيدين
نبيه بك العظمة وعزة بك دروزه ورفاقهم ، ومع أنى أشكركم عليه ، إلا أننى ألاحظ أن
روحه لا تختلف عما اعتدناه من حكومات الانتداب بسورية ولبنان ، بعد أن كنا نظن أن
نخامتكم ستأتون بأساليب جديدة وروح جديدة ، مراعين ظروف العالم ، وما آلت إليه
حكومات الاستعمار في هذه الأيام ، واسمحوا لى نخامتكم أن أقول إن الحكم على نبيه بك وعزت
بك وإن كان من محكمة نظامية إلا أنها أجنبية غير سورية ، فالظاهر أن نخامتكم تعتبرون
سورية مستعمرة فرنسية ، لأن حركات نبيه بك كانت لمصلحة سورية ، ولذلك اعتبرتموها
حركة عدائية لكم !

ياسيدى الجنرال : ان حكومة فرنسا بسورية ولبنان حاكمة على نبيه بك منذ سنة ١٩٢٠
لما كان مديراً لبوليس حلب وجرى بينه وبين كولونيل فرنسى حادث قديم ، فلما سنحت
الفرصة بعد عشرين عاماً ، حاكموا نبيه على أمور قديمة مختلفة ليحكموا عليه بسبب حوادث
جديدة مفتعلة .

وأما عزت بك دروزه فهو في نظرنا ونظر الواقع ، لا يعد في سورية أجنبياً لاجئاً يخالف
أصول الضيافة ، بل هو في وطنه وبلاده ، وغير صحيح أنه كان يصنع أو يشرف على صنع

متفجرات ، بل ان السلطات الفرنسية المتحكمة في سورية تحقد عليه منذ سنة ١٩١٩ لما كان عضواً في المؤتمر السوري العام وكان من الواضحين لقراره التاريخي ببطان الانتداب الفرنسي ورفضه وإعلان استقلال سورية بمحدودها الطبيعية من الفرات إلى سيناء أي «سورية وفلسطين ولبنان» ولم تكن الأردن قد وجدت لأنها كانت جزءاً من سورية الخ .

فنحن نعتبر مسألة نبيه بك وعزت بك الآن من اختصاصكم وليس من اختصاص رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء أو وزير الحربية ، على أني لم أفهم أي رئيس جمهورية تقصدون نخامتكم ، فإن كنتم تقصدون رئيس سورية فإنه وجميع الحكام السوريين لا سلطة لهم ، وإن قصدتم رئيس جمهورية فرنسا فهذا هو الغلط ، لأن سورية ليست أرضاً فرنسية ، فكيف يراجع رئيس فرنسا في أمور عائدة إلى رئيس سورية ، ولم نسمع أن سورية تحكم برئيسين لجمهوريتين مختلفتين !

وفي النهاية أناشد نخامتكم أن تفضوا هذه المسائل بحكمتكم وأن لا تسير فرنسا على الأسلوب العتيق الذي اعتاده حكام الانتداب المشبع بروح الاستعمار والانتقام ، وبغير ذلك لا نصدق أن الحلفاء قد غيروا الأساليب القديمة ، ولا نستطيع أن نكذب النازيين الذين يتهمون الحلفاء بالتشبع بروح الاستعمار الخ .

وختاماً أرجوكم يا صاحب الفخامة الخ .

الإمضاء

وبعد ذلك

لم يحدث شيء بعد هذه المراجعات وبقي نبيه بك ودروزة بك ورفاقهم في السجون إلى أن كسر الله فرنسا ، فجاءت لجنة الهدنة الألمانية الإيطالية فحكمت سورية ولبنان من فوق رؤوس الحكام الفرنسيين ، وأفرجت عن المعتقلين ، فما كان من نبيه وعزت إلا هجر البلاد إلى تركيا ، مفضلين النفي الاختياري حتى لا تكرر الأيام وتقوى فرنسا فتحبسهما مرة أخرى .

استدراك بعد سنين

هنا حصلت مصادفة لعب فيها القدر لعبة عجيبة ، ولذلك أحب أن أسجلها لعل الأبناء

والأحفاد ينتفعون بمعانيها ، أو يتسلون بها لغرابتها ، وذلك أن القراء قد لحظوا مما مر من حوادث ، أننى كنت أسعى للإفراج عن الأستاذ محمد عزت دروزة ، تارة بتوسيط على ماهر باشا رئيس الوزراء هنا وتارة بالكتابة إلى الجنرال فيجان في بيروت - وكنت قبل ذلك وقبل إعلان الحرب أكتب في جريدتى في استنكار حبسه ، وأبرق بالاحتجاج على فرنسا من أجله . كما لحظوا أيضاً أن الأستاذ دروزة قد زار المفوضية المصرية ببيروت مع نبيه بك العظمة وخطب القائم بأعمالها أحمد رمزى بك بشأنى ووسطه ليكتب للحكومة المصرية بالقاهرة لتفرج عنى .

وقد أعجبني من الأستاذ دروزة قوله لرمزى بك إنه لم يفهم كيف أن حكومة مصر تتوسط في الإفراج عنه وعن إخوانه بسعى من محمد على الطاهر لانتقادهم من أيدي الأجانب ، ثم تتولى هي اعتقاله في مصر ! ولكن الأستاذ دروزة لم يدر أن على ماهر باشا الذى يتوسط للناس هناك ويمنع اعتقالهم هنا ، قد دفع ثمن شهادته وهو إخراجه من الحكم ثم لاحقوه حتى حبسوه هو أيضاً .

وموضع العجب هنا أننى لما كنت أسعى من أجل دروزة كانت واقعة بينى وبينه عداوة شديدة مضى عليها نحو عشرين عاماً ، ولكن لما رأيته يحبس في سبيل الله وعلى يد الأجانب ، لم أتردد في السعى لإيقاظه وهو لا يدري لأنه كان في السجن ، فلما أفرج عنه وعلم بحبسى بادر هو إلى السعى للإفراج عنى بدون أن يعرف بمسماى نحوه ، وظل كل منا يجهل ما كان من سعى الآخر .

وهناك مصادفة أخرى كملت المصادفة السابقة ، وهى أننى بعد ذلك بست سنين أى في ١٩٤٦ كنت في الإسكندرية أزور الحاج أمين الحسينى وكان صديقاً لى وللاستاذ دروزة ، وكان يعرف بعداوتنا المزمنة - لأنه كان من أسبابها - فإذا به يصارحنى بشئ وهو أن دروزة سيصل إلى الإسكندرية من دمشق الليلة ، وأنه سيجئ إلى الدار بعد ساعتين . وكان قصده من هذا التنبيه أن يفسح لى المجال لأن أنصرف حتى لا أجتمع بعدوى القديم ، فقلت له - وأنا لا أدرى بمسماى دروزة من أجل - لقد فهمت قصدك ولكنى سأبقى عندك هنا لأستقبله وأحييه ، لأنه قادم من منفى

سجيق بعد حبس طويل سبق هذا النفي ، أما إذا كنا قد اختلفنا فيما مضى فالمصلحة العامة هي الأساس .

ووصل الأستاذ دروزة فاحتفت به وعانقته مرحباً . فإذا به يقول إنه لما وصل القاهرة بالطائرة بادر إلى زيارتي في داري فلم يجدني وعرف أنني مسافر للإسكندرية فنوى أن يبحث عني فيها ، ثم حمد الله على أنه وجدني الآن ! وجلسنا بعد ذلك نتذاكر الماضي ونبحث في أمور فلسطين بدون أن يخطر على بال أحدهنا إننا نخاصمنا نحو عشرين عاما .

ثم دارت الأيام إلى أن عرفت في سنة ١٩٥٠ بمساعيه من أجلى سنة ١٩٤١ وقد سمعت بمساعيه من أحمد رمزي بك نفسه حين كان يزورني مندشهور ، فاندعشت من توارد خاطري مع خاطر دروزة . وأظن أن الأستاذ دروزة سيندهش هو الآخر عندما يعرف من هذا الكتاب سنة ١٩٥١ أنني أيضاً كنت أسعي من أجله . وإننا كنا نتسابق في عمل الواجب .

وموضع العبرة هنا ، أن عداوتي له لم تمنعني من تقدير جهاده ، ولذلك سعيت لتخليصه برغم خصومتنا ، وإن دروزة كان يحمل لى نفس هذا الإحساس ، بدون أن تحول عداوته لى من القيام بالسعى لتخليصى بدون أن أدري .

استدراك لازم

وقد اجتمعت بمحمد شرارة باشا وكيل وزارة الخارجية « بعد الإفراج عني » ففهمت منه أنه قدم المذكرة التي وضعها أحمد رمزي بك عني إلى رئيس الوزراء ووزير الخارجية كما سبق وقدم إليه المذكرات والاحتجاجات والشفاعات التي وردت من العراق وفلسطين ولبنان بشأنى فأهملها ، ولما كثرت الاحتجاجات طلب من شرارة باشا أن لا يقدم إليه أمثال هذه الأوراق ... وأراد وفد من بعض الفضلاء مقابلة الرئيس بشأنى فأبى وقال لسكرتيه أبعدهم وزحلقتهم عني ...

موقف مشرف للنحاس باشا

كان الحلفاء في أيام الحرب يحتالون على كبراء الشرق لمجملهم على إعطاء تصريحات للنشر عن رأيهم في انتصار الحلفاء ، وكان هذا التكليف يقدم عادة بشكل اقتراح يصحبه تهديد خفي ، فكان بعض الضعفاء يهرول إلى الشهادة للإنكليز والفرنسيين أو الديمقراطية بكذا وكذا ، ولما وصل التكليف إلى مصطفى النحاس باشا أعطاهم بعد إلحاح ، تصريحاً مطاطاً ختمه بوحدة للإنكليز والديمقراطية قال :

« والحق أنه في هذا الوقت الذي نرى فيه مصير بلادنا معلقاً في ميزان القدر ، ينبغي أن يكون هناك ما يشعرنا بأننا محكومون حكماً ديمقراطياً ، وأن الكلمة الأخيرة للأمة ، ولكن الواقع للأسف ليس كذلك ، ولهذا لا يسعني إلا أن أرسلها كلمة تحذير - هي أنه يجب على الديمقراطية الغربية أن تدرك أن لنا في انتصارها الكسب كل الكسب إذا ما اقترن هذا الانتصار بانتصار الديمقراطية في الشرق . عندئذ - وعندئذ فقط - يكون انتصار الديمقراطية كاملاً » .

من حوادث السجن

— جاؤا بوكيل قنصل بلغاريا وسجنوه بجوار غرفتي فأضرب عن الأكل احتجاجاً ، فإذا بالسجانين يسرون لأنهم صاروا يقتسمون طعامه ... وقد جرى له بالطبيب واهتموا به لأنه « خواجه » ولو كان ابن عرب ما سأل عنه أحد . وإني أعرف أن أحد المجاهدين السودانيين كان قد أضرب عن الطعام في هذا السجن ٧٥ يوماً إلى أن مات رحمه الله .

— خطر بيالى أن أكتب بعد الإفراج بحثاً هذا موضوعه (أى الأمرين يختاره الإنسان إن أجبر على أحدهما : السجن والصحة ، أم الحرية والمرض ؟) ولا أزال حتى الآن متحيراً في الأمرين فكلاهما مر .

— بلغنى أن الأستاذ خليل بك مطران^(١) « رحمه الله » قد مر بدارنا وسأل أهلها إن

(١) هو الشاعر الكبير والنبيل الشهير ، وأحد فضلاء آل المطران في بعلبك ، وكان قد نرح إلى مصر في شبابه ثم اتخذها وطناً فعرفت فضله وقدرته ، وكان مقرباً من المرحوم الحديوى عباس الثانى ، ثم شمله ملوك مصر برعايتهم ، وأنعم عليه الملك فاروق بحفظه الله برتبة البكوية ، وكان لنفاسة شعره يلقب بشاعر =

كانوا في حاجة إلى شيء وقد فعل مثل ذلك الأستاذ توفيق اليازجي وأسرته والدكتور أحمد بك عيسى^(١) والأستاذ كامل كيلاني ، وورد كتاب بهذا المعنى من نبيه بك العظمة بدمشق ففهمت من كتابه أنه قد نال حريته بعد أن كسر الله فرنسا وحطم شوكتها .

— تشاجر جنديان من حرس السجن على مسألة وضع الكنيسة وهل تسند ورأسها إلى الأعلى أم إلى الأسفل ، وكاد الشجار يؤدي إلى استعمال السلاح ! ولكن لم يغضب أحد من هؤلاء الجنود على انكترا التي تحتل الوطن وتجعل رأسه إلى الأسفل ...

محمود لطيف بك ووزير المعارف

وردني سرّاً كتاب من الوجيه محمود بك لطيف عضو مجلس النواب يقول فيه بتاريخ ٢٧ يناير ١٩٤١ أنه قابل وزير المعارف وهو صديقه وجادته طويلاً وأفهمه أن ما عوملت به يمس كرامة مصر في نظر اخواننا المسلمين والعرب جميعاً وبعد كلام طويل انتهى معه على ما يأتي :

(١) إما أن يفرجوا عنى مادام ليس هناك تهمة . (٢) أو أحاكم إذا كانت هناك تهمة (٣) أو يفرجوا عنى لأسافر إلى الحجاز أو العراق أو أى بلد محايد . ثم قال : ومن حسن الصدف أن مجلس الوزراء سيعقد اليوم وقد اتفقنا على أن يعرض الباشا الأمر على المجلس وقد أفهمته أننا مستعدون لإثارة المسألة في المجلس النيابي لأنها دقيقة وماسة بسمعة مصر واستقلالها) فكان لهذا الكتاب في نفسى وقع جميل ، ولكن مجلس الوزراء انعقد وانفض مراراً بدون أن يجرؤ على مس إرادة الإنكليز :

== الأقطار العربية ، وله ديوان واف في ٤ مجلدات ظهر بعد وفاته حيث نجفنا به في سنة ١٩٤٩ ، وكان خليل بك رجلاً جليل القدر كريم النفس واليد ، ومن يجب أن يتق الله سائله . وكان حفيّاً بالناس خادماً لأصحاب الحاجات ، رؤوفاً بالفقراء والمعوزين ، لا يرد طالب رفق أو وساطة أو شفاعة ، وكانت بالإجمال جابراً لعثرات الكرام رحمه الله .

(١) هو الطبيب النظامي العالم الفذ في الطب واللغة ، وله مؤلفات كثيرة أشهرها كتاب أمراض النساء وقاموس أسماء النبات ومعجم الأطباء الذي أكمل فيه كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة من سنة ٦٥٠ هجرية إلى أيامنا هذه الخ وكان رحمه الله كريم العشرة أنيس المحضر ، يعالج الفقراء بلا مقابل ، وكان وفيّاً فاضلاً وقوراً ، توفي سنة ١٩٤٦ رحمه الله .

حالات نفسية

— مهما تجلد الإنسان في السجن ومهما تجمل أو خادع نفسه فهو مسجون ومقبور حياً وخصوصاً إذا كان في السجن الانفرادى اللعين . وكنت أعزى نفسي على السجن بقول الشاعر :

قالوا سجنتم فقلت ليس بضارى سجنى وأى مهند لا يعمد
ثم تذكرت قول بعضهم إن الحبس هو قبر الأحياء وشماتة الأعداء . وهذا الشعر بالنسبة إلى صحيح لأنى مسجون فى سبيل الله وهذا هو الشئ الوحيد الذى يعزىنى .
— ومما خفف عنى هو كونى محبوس بأمر الإنكليز باعتراف حمدى محبوب باشا الذى كان صريحاً فى ذلك ولم يزعم مثل الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا بأن له قيمة فى القبض والإفراج وأنه خدمنى اثلاً يأخذنى الإنكليز لفلسطين ويعدموننى ...

— ومما جعلنى استسيغ السجن نوعاً أنه لما التجأ السيد أمين الحسينى إلى لبنان سنة ١٩٣٧ كلف بعض الناس مكرم عبيد باشا وزير المالية فى تلك الأيام أن تدعوا الحكومة المصرية السيد أمين للأقامة بمصر وأنها ترحب به ، فقال مكرم باشا « يا أخى ان هؤلاء الإنكليز لا يستحون ، والله لو جاء الحاج أمين إلى مصر وقبضوا عليه فى وسط القاهرة ما استطعنا إنقاذه منهم لأن استقلالنا لا يزال صورة » فقلت فى نفسى إذا كان هذا قبل الحرب فهو فى أيام الحرب أولى ...

— أعاد البوليس تفتيش مكتبى بشارع عبد العزيز ولا أدرى لماذا ومن يضمن أنهم دسوا أوراقاً مؤذية وزعموا أنها كانت عندى ...

— كان من جملة الأوراق الكثيرة التى أخذوها من مكتبى كراسة للمؤتمر الطبى سنة ١٩٣٩ اذاعتها لجنة المؤتمر التحضيرية ، وفيها عنوانات الأماكن الجامعية والفنادق المعينة لنزول الأعضاء الضيوف ، وخارطة مدينة القاهرة لإرشادهم ، فهذه الخارطة اعتبرها البوليس وثيقة ضدى تكفى لإثبات اتصالى بألمانيا وإيطاليا ! فأرسلها البوليس إلى السلطة العسكرية البريطانية مع تقرير هام ! فضحك الضباط الإنكليز من هذه الوثيقة الخطيرة وأرجعوها إلى

مرسلها ليعيدوها إلى الكيس الذي فيه أوراق .

— قرأت اليوم حديثاً للنبي عليه الصلاة والسلام جاء فيه (لا نذر لأحد في ملك غيره)
ولكن بريطانيا نذرت في الحرب الماضية أن تعطى فلسطين لليهود إن انتصرت ، وها هي
تنكل بأهلها لتفي بذلك النذر !

— ورد نبأ من فلسطين يروى أن الدكتور أمين رويحه يلقى في سجن عكا من الإنكليز
أنواع العذاب والإهانات والسباب والشتائم ، وأنه مريض وقيل إنهم نقلوه إلى مستشفى
الأمراض الصدرية في بيت لحم ، حاسبهم الله ومزق ملكهم .

— بلغني أن الأستاذ محمود أبو الفتح بك عضو مجلس الشيوخ قد خاطب المستر سمات
مستشار السفارة البريطانية بشأن الإفراج عنى فوعده ، ثم قال له بعد أيام إن القيادة العسكرية
تعارض في ذلك ..

— رجوت مدير السجن أن يأمر السجناء بعدم إزعاجي بالإضاءة وأنا نائم ، فأمر بذلك ،
فشكراً لهذا الرجل الأجنبي .

— سحبت إدارة الجوازات باسبور زوجتي فتوسط الدكتور حافظ عفيفي باشا وأعاد الأمور
إلى نصابها .

— طلبت من وزارة الداخلية أن تنقلني إلى معتقل الألمان أو الطليان أو الشياطين لأن
الحبس الانفرادى قد أرهقني فوعده حمدي محبوب مدير الأمن العام بذلك ، ولكنه لم يف ،
وما أظن أنه يوجد في الدنيا أحط من الحاكم الذي يكذب ، وقد قرأت كلمة للحجاج يقول
فيها لأعوانه (إن ثبت لكم على كذبة مرة واحدة فقد حلت لكم معصيتي) ولكن الحجاج
رجل كبير لا يصدع بأمر الأجانب !

— بلغني أن جورج بك أنطونيوس (رحمه الله) قد اجتمع بصديقه المستر ليتلتون
وزير الدولة البريطاني في الشرق الأوسط وخاطبه في شأن الإفراج عنى وعن الدكتور أمين
رويحه وذكر له ما يحدثه هذا الإفراج من أثر طيب في البلاد العربية في هذه الظروف ، لأنه
لحظ امتعاضاً من حبسنا في كل مكان مر به ، فقال له ليتلتون : « سأستشير وزارة الخارجية
بلندن » ...

— كلفت إدارة السجن مشترى بعض الكتب من حسابى فأرسلت جندياً أحضرها ولكن بعد أن سرق ضعف ثمنها ...

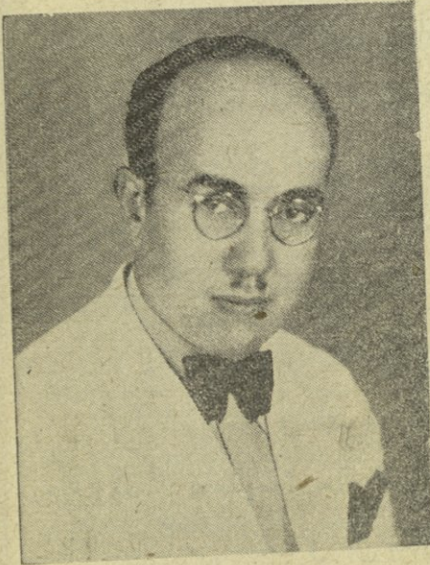
— أنا متعوب بهذا الحبس وكذلك أصدقائى لقلقهم علىّ ، وكذلك الذين حبسونى لكثرة من يراجعهم بشأنى ويقلقهم من أجلي ، وقد قال أحد كبار الإنكليز : إن مشكلتنا مع محمد على الطاهر مشكلة لا علاج لها ، فهو إن حبسناه هاج أحبابه علينا ، وإن تركناه هيج الرأى العام علينا ! فشكراً له على هذا التقريظ ...

كلمة كبيرة

كان يزيد بن المهلب من أعظم رجال الدولة الأموية وقوادها الفاتحين وحكامها المشهورين وكان مع ذلك لا يملك داراً يسكنها ، فقيل له : لم لا تبني داراً لنفسك ؟ فقال : « إن منزلى هو دار الحكم أو الحبس » لأنه كان تارة يسود ويحكم وتارة يقبض عليه ويحبس .
أما حكامنا فى هذا العصر فلا يعرفون الحبس ولكنهم يعرفون حبس الناس والتبصيص للأجنى وسرقة الأمة لينعموا بما لها .

شئون وحوادث مختلفة

— ورد كتاب من ابن عمى الدكتور حسنى مساعد مدير الصحة فى مكة يقول إنه تحدث مع سمو الأمير فيصل نائب الملك فى الحجاز عن مسألتى فتكدر الأمير لهذا الحادث وواعد بأنه يكلم فى ذلك وزير إنجلترا المفوض فى جدة ، ثم طلب الأمير من الدكتور حسنى أن يطلعه على أخبارى بصورة متواصلة ، فلم أستغرب هذه العناية من هذا الأمير الجليل فهو رجل نبيل عظيم ، ويشرفنى أن أقول إن هناك صداقة قوية تربطنى به فهو يحببى وأنا أجل قدره .



الدكتور حسنى الطاهر



حضرة صاحب السمو الملكي الأمير الجليل فيصل آل سعود المعظم .
وقد وقف محمد علي الطاهر إلى يساره

— أعلنت بريطانيا انها مستعدة لحرب تدوم عشرين سنة . والحقيقة أنه إن لم تدخل
أميركا الحرب فإن بريطانيا ستسلم بعد أسابيع ، حتى لقد فكر الإنكليز في كيفية تسليم
الاسطول البريطاني للألمان، وهل يسلمونه سليما أم يغرقونه بأيديهم، ويأويل العالم إن انتصرت
بريطانيا .



جورج بك أنطونيوس

— قابل الأستاذ جورج أنطونيوس بك^(١)

رئيس الوزراء وكلمه في مسألتى وأرسل إلى دارى يقول
إن رئيس الوزراء قد «أنخض» لما بحث معه في المسألة
وقال «نحن عملنا الذى قدرنا عليه» وهذا صحيح لأنه
أساء إلى بكل ما يقدر عليه!

— كنت أقرأ في تاريخ الأندلس أخبار المعتمد

ابن عباد الملك الأندلسى الشهير ، فأراد أهل الشر أن
يفسدوا بينه وبين ضيفه الملك يوسف بن تاشفين الذى
أنقذ الأندلس، وقالوا له إنه يفكر بالغدر بك والقبض
عليك والاستيلاء على ملكك. فقال ابن عباد «إن رعى
الجمال عند ابن تاشفين لأشرف من رعى الخنازير عند ملك
قشتالة» أما بعض أمراء المساميين فيفضلون رعى الكلاب
عند الإنكليز.

— ذهب الدكتور محمود عزمى إلى حمدى محبوب باشا وكلمه في تخفيف سجنى فقال له :

هذا شغل الإنكليز، فذهب للإنكليز فقالوا نحن طلبنا فقط حجز محمد على الطاهر، فالحكومة
المصرية هى صاحبة الشأن فى تنفيذ ذلك وكيفيته . فرجع عزمى لمحبوب باشا وأخبره عما يقوله
الإنكليز فقال له هات كتابة منهم بذلك . فذهب عزمى للإنكليز وجعلهم يكتبون بذلك رسمياً
فقال محبوب سأعمل الآن على راحته ، ولكنه لم يفعل ، فلما روجع مرة ثالثة قال إنه أمر
مدير السجن بذلك بنفسه ، فبلغنى هذا فقلت إنها مراوغة لأنه بحكم منصبه الكبير لا يتنازل

(١) المرحوم أنطونيوس بك سورى الأصل متمصر، وكان مساعداً للسكرتير العام لحكومة فلسطين،
فكنت أناصبه العداء بجرىدى ، ثم اتضح بعد ذلك أنه كان من خيرة الموظفين العرب ، ثم استقال وشهد
أمام لجنة بيل البريطانية التى حققت مسألة فلسطين سنة ١٩٣٧ شهادة قوية طغت الاستعمار البريطانى فى
الضميم ، وفى سنة ١٩٣٨ - ١٩٣٩ اختير عضواً فى الوفد الفلسطينى للندن ، ثم ألف كتابه الشهير
« يقظة العرب » باللغة الإنكليزية ، وهو من خيرة الكتب التى وضعت عن القضايا العربية ، وقد توفى
أنطونيوس بك فى أيام الحرب وهو شاب ، وقد سمعت أن كتابه قد نقل إلى اللغة العربية، رحمه الله .

لكاملة مدير السجن وهو الموظف الصغير بالنسبة إليه ، وهذا دليل على عدم صدقه ، فلو شاء الصدق لكلم إدارة البوليس صاحبة هذا السجن وهى تصدر الأمر للمدير ... ثم مضت أيام ، وبلغ عزى ذلك فكلم حمدي محبوب فأكد له أنه نفذ المسألة اليوم ... وبعد يومين جعلت أحد الأصدقاء يبرق لمحبوب باشا فى داره يطالبه بالوفاء بما وعد ، فإذا به يخاطب الدكتور عزى بالتليفون ويقول له أنت وضعتنا فى مشا كل مع فلان مع أنهم فتحوا له باب السجن ورجوه أن يخرج للتريض فأبى !

تأمل أيها القارىء ! هل يعقل أن يفتحوا لى باب السجن الضيق لأستنشق الهواء فأرفض ! ما هذه الأخلاق ؟!

ظلام الأسر

قرأت فى الصحف خطاباً للمستتر تشرشل وجهه إلى قومه فقال وهو يشجذ همهم : « أما الكارثة التى هددت العالم والتى كان يمكن أن تطفىء كل أنواره وتترك أطفالنا وذرائنا فى ظلام الأسر وربة العبودية فترة من الزمن قد تصل إلى جيل فهذه الكارثة لن تقع » .
يا له من كلام كبير من دجال هذا العصر فى نظرننا ، وبطل إنجلترا فى نظر الإنجليز وتاريخهم ، لأن الوقوع فى الاستعباد هو الظلام الدامس ، وهامى الأمم العربية والإسلامية تعيش فى هذا الظلام تحت كلاكل الإنجليز وفرنسا وهولندا وأسبانيا وروسيا ، فوارحمتا للعالم الشرقى المسكين الذى نسى نفسه ونسى أنه موجود بين البشر .

المعاهدة المصرية البريطانية

بلغنى أن أحد أعوان الاستعمار قال « ليسوغ للإنكليز حبسى » إن المعاهدة تسمح بهذا الحبس فيجب الخضوع لذلك ، فراجعت المعاهدة وتحليلها فى الكتاب الضافى الذى وضعه عنها صديقى محمود سليمان غنام بك وزير التجارة بعد ذلك ، وكان قد أهدانى نسخة منه ، فبحثت أحكام المعاهدة فوجدتها تقضى بكل شئ يفيد بريطانيا حربياً ، أما الأمور الشخصية فاشتطت المعاهدة عدم إخلال الإنكليز بالتشريع المحلى . ولكن حمدي محبوب ورئيسه لا يؤمنان بالمعاهدة ...

وفاء من أواسط أفريقيا

وصل كتاب إلى قرينتي من السيد غالب على العامري أحد فضلاء اليمن الذين يقطنون مدينة « نكورو » في غينية الشرقية يقول فيه إنه سمع من الراديو بأنني سجت فتكدر هو وجميع إخوانه العرب في تلك النواحي ، وقال إنه وإن كانت أعداد الجريدة لاتصله فهو يفترض أنها موجودة وأنه لذلك كان يريد مضاعفة اشتراكه إلى خمسين مرة ولكن بما أنه لايجوز تصدير عملة بمقادير كبيرة أكثر من جنهين في الشهر فقد أرسل جنهين وسيرسل مثلهما شهرياً ، مع أن الاشتراك هو جنه واحد في السنة كلها لو كانت الجريدة موجودة ! فقابلت هذه العاطفة النبيلة بسرور وامتنان ، وجعلت قرينتي تكتب إليه شاكرة ومعتذرة . ولما انتهت المحنة كان أول شيء صنعتُه أنني كتبت إليه أشكره ، ولكن كتابي لم يصل إليه ، بل وصل إلى نجله ، لأن السيد غالب كان قد انتقل إلى رحمة الله قبل ذلك بأيام ، أسكنه الله فسيح جنته ونور ضريحه .

حسان فلسطين

بلغني وأنا في السجن وفاة صديق الوفي المرحوم شاعر فلسطين وحسانها الشيخ سليم أبي الإقبال اليعقوبي مفتي يافا الأسبق ، وكانت وفاته في الحجاز بعد أن أدى الفريضة وكان يريد أن ينشد قصيدة في حضرة الملك عبد العزيز آل سعود يستصرخه لنصرة فلسطين وانقاذها واسكنه رحمه الله لحق بالرفيق الأعلى قبيل إنشاد القصيدة ، فألقاها أحد أصدقائه في حضرة الملك .

— وكتب إلى من الحجاز صديق المجاهد السيد أحمد محمد نعمان اليماني كتاباً أرسله مع أحد الحجاج إلى دارنا قال فيه إنه قابل سمو الأمير فيصل آل سعود نائب الملك في الحجاز وأخبره بما أنزله في الاستعمار وأذنا به فأخذ الأمير يستريده من أخباري وقد أبدى أسفه وألمه الشديدين ووعد بأن يسعى ويستعين بجلالة والده للإفراج عني ثم أظهر استنكاره الشديد لموقف أعوان الاستعمار مني وكيف ينفذون إرادة الغير ويهينون كرامة الوطن إرضاء لهم الخ...

— بلغنى أن س. ا. الذى كان عندى فى الإدارة ساعة القبض على يطيل لسانه ويطعن بى ، مع أنى ماقتصرت فى حياتى معه ، وكم ساعدته بنفسى وبمالى ، وكم كرمته بين الناس ، وكم رفعت من قدره . ولكن النفوس اللئيمة ماذا يصنع الإنسان معها !..

الإنكليز وخلق الله

لا يزال الإنكليز يصدعون رؤوسنا بكثرة كلامهم فى هذه الحرب كعادتهم فى كل حرب ، فالجرائد لا تخلو كل يوم من أخبار غطرستهم ، وتبجحهم الأجوف ، والآن على البشر بوجودهم ! مثال ذلك قولهم — إن أقدمت الدولة الفلانية على الشىء الفلانى فإنها ترتكب حماقة . والدولة الفلانية إن عملت كذا فهي تريد أن تنتحر ، والأمة الفلانية سترهبها عاقبة طيشها ، والدولة الفلانية أنذرناها بأنها لن تجد منا شفقة ! ثم يقولون : سننظم العالم بعد الحرب من جديد ، لقد أخذنا على عاتقنا عمل الشىء الفلانى ، لقد أوكل إلينا إيقاد الأجيال المقبلة ، لن نتخلى عن مسئولياتنا فى صيانة الحضارة ، لقد اضطلعنا بمسئولية إيقاد الإنسان ولن نتخلى عن هذه المهمة ، نريد إيقاد الديمقراطية والقضاء على الديكتاتورية والاستبداد ، العرب أحبابنا والإسلام حليفنا ، وإن رحنا راح الإسلام وقضى الديكتاتوريون عليه ، إنكسار بريطانيا هو إنكسار للعالم ورزوحه تحت العبودية ، الخ الخ وإن هلك إنكليزى مستعمر ناحت عليه صحف لندن وشركة روتر ووصفته بأنه صديق المسلمين وأن موته كارثة على العرب ، وإن فاز الإنكليز فى بلادواق الواق قالوا إن العالم الإسلامى قد ابتهج وإن القاهرة قد زينت وطربت ، وإن العالم العربى قابل لنجاح القائد البريطانى فى الصومال بالارتياح والاطمئنان... فما أشد وقاحة الإنكليز !

كتاب من الأمير شكيب

ورد كتاب من الأمير شكيب أرسلان من جنيف تاريخه أول أغسطس ١٩٤٠ متأخرا فى الطريق بضعة أشهر ! وقد تمكنت من الاطلاع عليه وأنا فى السجن ففرحت به كثيرا ، لانه طمئن بالى بعد أن قلقته عليه ، وقد سررنى من هذا الكتاب دقة ملاحظة الأمير على الشؤون المحلية فى مصر ، ومن ذلك أنه لما سقطت باريس قام المتفرنسون من المسلمين وأخذوا سيكون

على فرنسا وكان الدكتور الأديب «فلان» من هؤلاء ... فلما قرأ الأمير كتابة الدكتور المشار إليه عن فرنسا وحزنه عليها قال : « ولا يسعني إلا أن أبدى أسفى مما قرأته في الأهرام في « أحد المواضيع » من تهور الدكتور « فلان » الذى أوصل مديحه « ببعض الأمم » إلى حد خرج عن المعقول ونسى ما فعل هذا البعض بأبناء ملته ، ولقد ندمت على ذكرى لصاحبنا المذكور في الجزء الثالث من كتابي الحلل السندسية مقرونا بالثناء الجميل ، فكل شيء يغتفر ما عدا خذلان الإنسان أبناء جنسه » بهذا التعريض بفرنسا وسقوطها كتب لى الأمير وهو حذر خوفا على من الرقابة ! وقد كنا نحن أيضاً نتألم من المسلمين الذين ناحوا على فرنسا مع أنهم شهدوا سقوط مرا كش بيدفرنسا وسقوط طرابلس الغرب وبرقة بيد إيطاليا ، وسقوط مكدونية فى أيدي دويلات البلقان وارتكابهم الفظائع بالمسلمين ، ثم شهدوا سقوط الدولة العثمانية كلها وزوال سيادة العالم الإسلامى وتحطيم فرنسا دمشق بالمدافع مرتين ، وتفضيع الإنكليز بأهل فلسطين الخ الخ .. فلم تحرك كل هذه الجرائم والمصائب والنكبات قلوب هذا البعض المحسوب من المسلمين . ولكن لما سقطت فرنسا الداعرة جزاء عدوانها على الدنيا كلها وجزاء سقوط أخلاق بنيتها صاح أحبابها وناحوا ، وما كان ينقصهم فوق ذلك إلا أن يترنموا من أجلها بمراثى أرميا ! ولما عوتبوا فى ذلك قالوا إننا تعلمنا فى فرنسا ، فبئس المعلم فرنسا المستعمرة ، وبئس التلميذ الذى يحزن عليها ولا يحزن على وطنه ، وتعلمنا لمدارس الأجانب التى فجعتنا بعقول بعض إخواننا الذين يتعلمون فيها مادامت تجرد الإنسان من إحساسه الوطنى ومن شعوره الدينى والقومى وتزع منه الضمير الإنسانى . وإلا فمن يصدق - لولا المدارس الأجنبية وتكاليفنا عليها - أنه يوجد مخاليق تحزن على المعتدين على وطنها ولا تحزن لنكبات وطنها المهيب المعتدى عليه !

كتاب منى إلى رئيس الوزراء

لما رأيت ان هذا الرجل لا يبالي بشيء ، أصبحت أنا أيضا لا أبالي بشيء ، ولذلك يئست منه وكتبت إليه من السجن كتابا جافا مؤلما قلت له فيه - لا يعذركم أحد على المعاملة الفظة القاسية غير الكريمة التى عوملت بها وغير اللاتقة بكرامة البلاد والاستقلال ، وإذا كان

الإنكليز قد طلبوا حبسى فما كل ما يطلبه الأجنبي يحاب إليه ، ولا سيما إن الحليفة طلبت غير حقها ، وحكومتكم أجابت بما لا يجوز لها التسليم به ، ثم إن الحليفة العريضة ما طلبت تعذيبى وإهانتى بوضعى فى السجن المضيق بل طلبت الحجز فقط ، وهى لم تعامل رعايا الأعداء من الألمان والطلليان بأكثر من الحجز ، ولكن إدارة الأمن العام راحت تنكل بى وبأهل بيتى ولو فرض وكانت الحليفة هى التى طلبت كل هذا التنكيل فما أحرأكم إن عجزتم عن رفضه أن تدعوها ترتكب ذلك على مسئوليتها ويدها ، لا أن يكون على مسئوليتكم وبرضاكم ، ولقد أخجلنى ذلك التضيق على أمام المدير الأجنبي لهذا السجن ، لاسيما عندما رأى حكومتى العربية المسلمة ترتكب لحساب الإنكليز ما ترفعوا هم عن ارتكابه لمصلحتهم ، ثم ختمت كتابى لرئيس الوزراء بالاحتجاج على سجنى وإساءة معاملتى وقلت له إنه إذا كان لا يابى الآن لهذا الاحتجاج فى الدنيا رأى عام منصف لا بد أن يدرك بهذا الظلم ولا يمكن أن يقره عليه لمخالفته جميع قواعد العدالة والشهامة والإنسانية ، ومتى درى رأى العام بما نزل بى فلا ريب فى أنه سيستمتر منه ويستنكره ، ثم قلت لهذا الحجاج الجديد « اعذرنى يا صاحب الدولة على هذه ، الصراحة فأنا أجادل عن نفسى وأدافع عن صحى وحياتى وكرامتى وأنا فى السجن المرهق الذى هو أشنع هدر لكرامة الإنسان » الخ ...

أرسلت هذا الكتاب من السجن بواسطة المدير وانتظرت أن يغضب رئيس الوزراء منى فى أمر بالتحقيق معى لمعاقبتى على تهجمى عليه بهذه الشدة ، وقد نويت إن حصل هذا أن أطاول عليه وأن أسجل عليه كل ما يخطر ببالى من تعبير وتنديد بمنصبه الذى أهين فى أيامه ، لقد خطر هذا كله فى بالى ، ولكن الأيام مضت ولم يحدث شئ مما توقعته ، فدلنى ذلك على أن قلب هذا الرجل لا ينفذ إليه الحديد ، فكيف يؤثر فيه الكلام ! اللهم إلا إذا كان كتابى لم يصل إليه ، فقد يكون حمدى محبوب قد حجبه عنه ، وعند ذلك لا تثريب على رئيس الوزراء ، وفى هذه الحالة أكون قد ظلمته !

شجون وخطرات نفسى

— قلت فى نفسى إن عشت وانطلقت من هذا القبر لأكتب كتاباً عن السجن وما جرى

لى فيه ، ولكن ألا يقول بعض الناس إنى أردت به إلْمَن على أمتى ؟ ولكن لا ، بل أريد نشر تجارب وتسجيل وقائع وسرد اختبارات ، قد تنفع سواى من الذين يجلسون فى سبيل الله ، لأن الصراع مع الاستعمار لن يكون قصيراً على ما يبدو ، فإن انتصر الألمان والطيالان سزغم على الصراع معهم ، وإن بقى الإنكليز والفرنسييس فى الشرق والعياذ بالله ، زاد الصراع واشتد الكرب ، لأنهم سيكشحون فى عدوانهم ويسفرون عن أطماعهم .

— قال الأستاذ أحمد حسين إن المساعى التى بذلت لتخليصى من السجن لو بذلت لإيقاذ قاتل لنجحت المساعى ، فما هذا الحق من الإنكليز على ، وما هذا الجبن من ولاة أمرنا !



صاحب الدولة أحمد حلمى باشا

— ورد كتاب رابع من أحمد حلمى باشا من القدس يستغرب بقاى فى السجن إلى الآن ويقول إنه قياما بواجب الاخاء والوفاء سيعاود المسعى من هناك ، وأنه مستعد لإرسال كل ما تحتاجه العائلة من مال ، ثم أرسل ولم يقصر ، وكان ينفق على بستان كان لى بفلسطين فحفظ أشجاره من التلف .

— اشتد شوقى إلى الأهل والإخوان فى الوطن الأول ، ومراتع الطفولة ، فأخذت أردد قول الملك عبد الرحمن الداخل من ملك الأندلس :

أقر من بعضى السلام لبعضى	أيها الراكب الميمم أرضى
وفؤادى وساكنيه بأرض	إن جسمى كما علمت بأرض
وطوى البين عن جفونى غمضى	قدر البين بيننا فافترقنا
فعسى باجماعنا سوف يقضى	قد قضى الله بالفراق علينا

— كنت أطلع اليوم كتاب العقد الفريد ثم تركته وتناولت كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب فوجدت فى الكتابين حادثين متشابهين على بعد ما بينهما وهو بضعة قرون .

وذلك أنه لما مدح النابغة الجعدي الرسول الأعظم وقال: بلغنا السماء بمجدنا وسناءنا . قال له النبي : إلى أين إلى أين ؟ فقال : وإنا لنبغى فوق ذلك مظهرًا .

يقابل ذلك أنه لما أنشد الشريف الطليق الرواني قصيدته يهنيء الملك عبد المؤمن بن علي ملك الأندلس والمغرب بانتصاره الساحق على الأسبان قال : ما للعدى جنة أوفى من الحرب . فصاح الملك : إلى أين إلى أين ؟ فقال الرواني : أين المفر وخيل الله في الطلب ! قرأت هاتين الحكايتين البديعتين المتشابهتين في لحظة واحدة ، فتعجبت من هذا التصادف الغريب .

وبمناسبة كتاب المعجب هذا أقول إنني وجدت في أوله أبياتا لأبي عمر على القالي ، كان مطلعها : « الشجو شجوى والعويل عويل » . فتذكرت قصيدة خير الدين الزركلى عند ضرب دمشق سنة ١٩٢٥ وكان مطلعها : « الأهل أهلى والديار ديارى » فقلت من هناك اقتبس خير الدين هذا المطلع ، وقد نويت أن أسأل خير الدين عنه إن خرجت من السجن ، وأن أغالطه وأقول له إن أخذ الشعراء قد سرق مطلع قصيدتك « الأهل أهلى » فقال : الشجو شجوى الخ وسأرى ما يكون من أمره ...

وبعد سنتين ، من الله بالفرج ، فلقيت الزركلى وسألته ذلك السؤال المدبر لأرى ما يقول ، وكنت أظن سيحتاج على السارق بعد مباغتته بالموضوع ، ولكن خير الدين فكر قليلاً كمن يقرب إلى ذهنه شيئاً بعيداً ، ثم قال لا ، لا ، لم يسرق الشاعر منى شيئاً ... هكذا أجاب متظاهراً بأنه محب للتسامح وأنه لا يريد اتهام ذلك الشاعر . ولم يقل لى إنه من شعر القالي قبل ألف سنة لئلا يكون قد اعترف على نفسه ولذلك تجاهل القالي وتجاهل إطلاعه على أبياته وأخذ يدافع عن السارق ...

نكتة !

بمناسبة ورود اسم الزركلى أقول انه منذ تمين مستشاراً للشيخ فوزان في المفوضية السعودية إلى الآن لم أعرف له موقفاً وطنياً ولا عملاً سياسياً سوى مسألة هي أقرب إلى النكتة منها إلى العمل الجدى : وذلك أنه لما سأل الصحفيون رجال المفوضيات العربية عن

الحالة السياسية أجابوا بما لديهم فوراً ماعدا خير الدين الزركلى فقد قال إن الموضوع صعب ويجب أن أراجع الحكومة السعودية في نجد وبعد ذلك ننظر في الرد على سؤالكم !

شؤون شتى

— زارنى مدير السجن وسألنى هل صحيح إنك تفضل أن تحبس مع الألمان والطليلان ؟ فقلت نعم ، فقال إنهم رعايا الأعداء ، فقلت وهل أنا من الأصدقاء ؟ فقال ولكنهم يتضاربون هناك فى كل يوم لأنهم يكرهون بعضهم بعضاً . فقلت والله عال ! وأنا مستعد لأن أتفرج عليهم .. أليس ذلك أهون من هذا السجن المطبق الذى أنا فيه ؟ .

— قرأت فى الصحف أن رئيس جمهورية المكسيك أمر بأن يسمح لكل صاحب شكوى يريد إبلاغه بإها أن يسلمها لأقرب مكتب تلغراف وهم يرقون بها إلى الملك مجاناً . أما نحن فنحاول إرسال شكوى إلى حكومتنا المسلمة مع دفع أجرتها منا فلا تصل إلى حكمانا ، وإن وصلت أهملوها ، لأنه لا شئ أبغض إلى نفوسهم من النظر فى شكايات الناس وخصوصاً شكايات المظلومين !

وقد ذكرتنى حكاية الرئيس المكسيكى بملك قديم فى الشرق أراد أن يتصل برعاياه وأن يسمع شكاياتهم بنفسه فأمر بأن يلبس كل مظلوم لباساً أحمر اللون ويقف فى طريق الملك فيراه فيستدعيه ويسمع شكاته ، يقابل ذلك أن أصغر موظف فى عصرنا لا يسمح بدخول أحد عليه إلا إذا كان صديقاً ، أو نديماً ، أو حامل هدية ...

— بلغنى أن الإنكليز أرسلوا كتاباً رسمياً إلى عبد الستار بك الباسل جواباً على ضمانته لى ولما طلب منه أصحابى الاطلاع عليه أبى مشدداً ، فالظاهر إن كتابهم إليه كان جافاً فاستحى أن يطلع أحد على ما فيه من عدم اكتراث بوساطته ، وهذا خطأ منه لأن الأحسن أن يطلع أكبر عدد من الناس على قلة أدبهم مع كبراء البلاد التى تنكب باستعمارهم .

— طلب الأستاذ عياد أبو الخير المحامى من وزارة الداخلية أن تأذن له بمقابلتى فى السجن بصفتة وكلى فرفضوا .

مصادفة!

— قرأت في الصحف ان صديق الأستاذ يونس السبعواوى المحامى ببغداد قد أصبح وزيراً في العراق ، فتعجبت وتذكرت انه لما كان في مصر سنة ١٩٣٧ هارباً من حكومة السيد حكمت سليمان أردت أن أهون عليه مصيبته وغرته فقلت له إننى أتوقع لك فرجاً « قريباً » وإنك عائد إلى العراق بعد قليل ، وستصبح نائباً فوزيراً . فضحك وقال هذا غير معقول ، فقلت له إن ذكاءك يرشحك لهذا فانذر الله بأنك إن صرت وزيراً أن تسمح لى بأن أشد أذنك وأنت وزير ! فاشتد ضحكك هو والزوار الذين كانوا عندى ومنهم الطالب العراقى السيد عبد الرحمن الجليلي « عضو مجلس النواب سنة ١٩٤٨ » فقال السبعواوى إن صح ظنك فسأقدم لك أذنى وأنا وزير لتشهدا !

ودارت الأيام وأصبح وزيراً ، ثم بلغنى بعد سنوات أنه لما تسلم منصب الوزارة ذهب إليه السيد إبراهيم صالح شكر أحد كبار أدباء العراق رحمه الله وقال للسبعواوى إننى أهنتك بالوزارة وسوف أرثيك أيضاً عند ما تصعد إلى المشنقة ! وبعد أشهر قليلة وقعت حوادث العراق المشهورة وشنق السبعواوى ، رحمه الله .

ولهذا الحديث حكاية فإن السبعواوى برغم حداثة شبابه كان يلهب نشاطاً في العمل السياسى والكفاح الوطنى والحزبى ، وهو طالما ردّد أمام أصدقائه ومنهم الأستاذ صالح شكر قوله « إنى أسعى للحكم فيما أن أصعد الكرسي الوزارى فأفوز بالحكم أو أرقى سلم المشنقة » فلما زاره الأستاذ صالح شكر بعد أن تولى السبعواوى وزارة الاقتصاد - وهو أول وزير عراقى فى سنه - قال له إبراهيم القول المتقدم ذكره . ومما يذكر هنا حادثة نقلها إلى الأستاذ رفائيل بطى أحد نواب العراق الفضلاء وهو صديق للسبعواوى وكان قد تصور طموح هذا الشاب الوطنى قال : « كنا فى زيارة معرض باريس سنة ١٩٣٧ نتفقد معالم العاصمة الفرنسية ومن جملتها الباشيون (مدفن عطاء فرنسا) ، فصعد السبعواوى إلى أعلى صرح الخالدين وقبابه ، وقد اعتاد بعض الزوار أن يكتبوا بالقلم أو يحفروا بقطعة من الحديد أسماءهم على حيطان المكان ،

فأقترح عليه اخوانه أن يكتب اسمه في هذا الموضع ، فالتفت إليه السبعواوى وأجابه بلمهجة الجد قائلا : « أنا لآ أكتب اسمى على حجارة هذا الباشيون ، لأن أملى عظيم فى أن أعمل لبلادى أعمالا مخلدة تدفع بنى قوى إلى أن يبنوا لى مرقدآ نظير الباشيون يزوره الناس ويكتبون أسماءهم على حيطانه ... » رحمه الله .

— تحدث الدكتور مصطفى بك بشناق مع صالح باشا حرب عن استمرار الحبس فقال الباشا والله إنى أنخزيت من أفعال هذه الوزارة .

— سألت أحد السجنانين لماذا يمتنعون السجناء من التدخين فى الغرف ؟ فقال لأن أحد السكرى كان قد أحرق فراشه بالسيجارة . فقلت : أنعاقب نحن والخلف من بعدنا من أجل ذلك السكران كما عوقب أبناء آدم جميعآ وإلى يوم القيامة بسبب أكل آدم لتلك التفاحة ؟

— لا تزال سخافات الإنكليز تتكرر ، فقد قرأت احصائية رسمية لهم يقولون فيها إنهم أنزلوا بالبحرية الإيطالية فى إحدى المعارك خسارة ٤١ سفينة بين دوارع ونسافات وغواصات وإن الإنكليز خسروا فقط طراداة وغواصة ومدمرة واحدة ، وإن خسارة ألمانيا فى بضعة أشهر زادت ٥٠ مرة عن خسارة الإنكليز ، وأنه قد جرت معركة بحرية مع الطليان خسروا فيها ٥ سفن حربية بدون أن يصاب الإنكليز بخسارة ماء ، لا بموت شخص ولا بجرح أحد ، كأنهم بصقوا على الأسطول الطليانى من بعيد ففرق ...

— بلغنى فى السجن نبأ وفاة صديق المرحوم أمين الريحانى الفيلسوف الشهير ، وقد مات فى وطنه القريكة بلبنان بعد رحلة فى أميركا ، جاهد فيها من أجل فلسطين والعروبة جهادآ مشكورآ . وكان قد كتب لى من هناك . وأرسل لى قصاصات الصحف الأميركية فنشرتها فى جريدتى ، رحمه الله وعوض الأمة العربية على فقده .

— ورد تلغراف من الدكتور حسنى الطاهر من مكة على منزلنا يقول فيه إن المساعى العليا مبذولة ففهمت من هذا أن الأمير فيصل آل سعود قد عاود السعى فسررت بهذا النبأ .

ماذا جرى بالسؤال البرلمانى

طال انتظارى للمناقشة البرلمانية رداً على سؤال حسين محمود سعيد بك ولماذا سكت ،

ثم علمت أن السؤال قد سحبه صاحبه من المجلس . ولكن لماذا وكيف يسحبه وقد أصبح السؤال ملك المجلس كله لا ملكه هو، ويجوز لأى واحد من النواب أيأ كان أن يتبنى السؤال فإذا جرى ؟ لقد انشغل بالى وانتظرت أياماً ، ثم علمت أخيراً أن رئيس الوزراء غضب من تقديم ذلك السؤال ومن نشره فى الصحف فاستدعى حسين بك سعيد وهدده بالاعتقال إن لم يسحب سؤاله من المجلس ثم أقسم له بشرفه إنه إن سحبه قبيل تسجيله فإنه سيفرج عني . فصدقه صاحبنا وسحب السؤال ، ثم بلغنى أنه قد حصلت مشادة بين صالح باشا حرب وبين حسين بك سعيد بسبب سحب سؤاله من مجلس النواب وأنه عاتبه ولامه على تصديقه وعد رئيس الوزراء .

وبعد هذا الحادث أصدر رئيس الوزراء إلى الرقابة أمراً «عسكرياً» بأن تحذف اسمى من كل خبر أو أى نبأ ، كما أوعز إلى مكتب مجلس النواب بأن لا تعطى الأسئلة إلى الصحف قبل النظر فيها فى البرلمان فعلاً ، كما أصدر أمراً إلى الجرائد بعدم نشر أى سؤال برلمانى إلا إذا وصل إليها من المجلس نفسه .

— أراد صديق الأستاذ أكرم زعير أن يشعرنى بأن البلاد العربية مهتمة لحبسى فكتب إلى قرينتى كتاباً عادياً ثم دس فيه عبارة (وقد قرأنا بجميع الصحف العراقية والسورية ما حصل لأبى الحسن) ثم مضى فى كتابه يتحدث عن أمور أخرى ، وبذلك مر كتابه على الرقابة وفهمنا المقصود ، فأحدث ذلك ارتياحاً فى نفسى ، وفى الحقيقة انه لا يعزى السجين شئ مثل سماعه أنباء العناية بأمره .

— طالت أيام السجن ، وبينما أنا أقرأ ديوان أبى فراس وجدته يقول عن أيام سجنه :

تطول بى الساعات وهى قصيرة وفى ظل دهر لا يسرك طول

تناسانى الأصحاب إلا عصابة ستلحق بالأخرى غداً وتحول

أقلب طرفى لا أرى غير صاحب يميل مع النعماء حيث تميل

فأحدثت هذه الأبيات فى نفسى بعض الغزاء ما دام الناس منذ ألف سنة هم الناس !

— زار القاهرة مصطفى الخالدى رئيس بلدية القدس وهو صديق من عهد بعيد فسألت :

ألم يسع عند الحكومة لتخفيف سجنى المضى؟ فوردنى الخبر بأنه لما سمع بحبسى قال أمام بعض أصدقائى: الله يسامح أبا الحسن ما له وللسياسة فلو قعد ساكتاً ما حبسوه .. فوبخه الدكتور البشناق قائلاً: أ يكون جزاء من يخدم الأمة والوطن السجن والعذاب من الأجنبي، والتكران واللوم من أمثالك بدلاً من أن تتألم وتغضب له؟

— بمجرد رجوع تحسين بك العسكرى وزير العراق المفوض من الاجازة ذهب إلى رئيس الوزراء مرة أخرى وكلمه بشأنى وكان كلامه لا يخلو من التعبير ولكن مثل هؤلاء الناس لا ينفع فيهم الكلام .

— قال الدكتور مصطفى بك بشناق إنه قابل شرارة باشا وكيل الخارجية ففهم منه أن رئيس الوزراء وعد ببحث مسألتى مع حمدى محبوب مدير الأمن العام وأنه ينتظر تقريره عنها ولكنى أرجح أن حمدى سيهول فى المسألة ويقنع الرئيس بإبقائى فى السجن ، وقد كان ... — بلغنى أن السيد محمد إدريس المهدى السنوسى^(١) هو الذى حمل كفالة عبدالستار بك الباسل إلى السفارة البريطانية فزاد هذا فى السخط عليهم لأنهم لا يوقرون أحداً مهما خدمهم ومهما صادقهم ومهما كانت منزلته .

— وصل إلى دارى كتاب من نبيه بك العظمة كان قد كتبه إلى من سجن حلب قبل الإفراج عنه يعرفنى عن وصول كتاب قديم أرسلته إليه قبل حبسى ، وهو يعاتبنى على عدم الكتابة إليه . فـأعرب تلك الصدفة ! سجين يعتب ولكنه لا يدرى أن صديقه أصبح سجيناً بعد إطلاقه هو !

— وصل إلى المنزل كتاب من الأستاذ أحمد محمد نعمان نزيل مكة وقد تمكنت من الاطلاع عليه ، وهو يقول إنه على وشك الرحيل عن الحجاز إلى اليمن ، ثم يوصينى بالصبر قائلاً « وما يدريك أن هذا السجن هو شرف وفخار وتاج لجهادك ونضالك فى سبيل بلادك ولو كنت ممن لا يؤبه لهم فى هذه الحياة ما فكرت بريطانيا بالانتقام منك بينما هى تقاسى اليوم الأهوال » .

(١) هو ملك طرابلس وبرقة الآن .

— كان من رأى أسعد داغر أن توقف جميع المساعى بشأنى حتى لا يفتن الإنكليز إلى «أهمية السجين» لأنهم في عرفه كلما رأوا التشديد بطلب الإفراج شددوا في وجوب الحبس... فعلى هذا القياس يجب أن أبقى في السجن ساكتا صامتاً إلى يوم البعث حتى لا يتشددوا... — أعجبنى السجن الذى عمل جييا واسعاً لينطوونه ليتسع للهدايا التى أعطيه إياها ، فكل شئ أعطيه إياه يأخذه ويضعه فيه ، ولكن هذا الجيب ما كان يمتلئ مطلقاً...

— كتبت لحمدى باشا محبوب كتابا وبختمه فيه على استخداؤه للإنكليز وعلى كذبه المتتابع وعلى إصراره على إرهابى ، وكان الكتاب عنيفاً . ولم لا أكون كذلك مع رجل لا يحس ولا يبالي ، ولماذا أخاف وأنا فى السجن ، فهل يمكنه أن يصنع معى أشنع مما صنع ؟
نشرة تذاع فى القاهرة...

تمكنت وأنا فى السجن من تسطير خلاصة قصتى مع الحكومة على قصاصات من الورق ثم أرسلتها لخارج السجن على أن تضم إلى بعضها لطبع مئات منها وإرسالها بالبريد للشخصيات البارزة . وقد جعلت النشرة شاملة لقصتى بشكل يدل على أنها صادرة من جماعة من الناس . وقد تم ذلك كله ، ثم وصلتني نسخة منها وهى فى صفحتين بحجم الفولسكاب ومطبوعة طبعاً حسناً ، فقرحت بها ، وكنت فى كثير من الأحيان أخرجها من مخبئها وأفردتها أمامى وأترنم بتلاوتها بصوت أسمعها أنا ، كأننى لست كاتبها ... وهذا نصها .

اعتقال مستنكر

١ — قبضت وزارة الداخلية على الأستاذ محمد على الطاهر منذ ستة شهور تقريباً بلا سبب ولا تحقيق ، وهو منذ سجن يطلب التحقيق والمحاكمة ، ثم طلب مغادرة البلاد ، أو على الأقل وضعه فى الاعتقال بدلا من السجن الانفرادى الضيق فلم يلق جوابا ، ثم طلب تحسين معاملته فى داخل السجن ولكن لم يتغير شئ من أسلوب معاملته القاسى ، ومما زاد فى التعسف والقهر أن الأستاذ الطاهر لا يدرى ولا يدرى أحد لماذا سجن ولماذا عومل بهذه الشدة الأليمة .

٢ — وتقدمت للحكومة مضابط تطلب الإفراج عنه ، وذهبت للحكومة ولرئاسة الوزراء وفود إسلامية تتوسط وتسأل ، وشخصيات عظيمة تتكلم . ووصل خبر سجنه إلى البلاد

العربية فهبوا يراجعون قناصلنا فيها وأرسلت الهيئات لحكومتنا ترجوها الإفراج عنه ثم تحدث النواب في البرلمان العراقي مستنكرين هذه الحادثة . وكتب رئيس وزارة العراق لدولة رئيس حكومتنا بهذا الشأن . وذهب وزير العراق المفوض بالقاهرة وخاطب ولاية الأمور في المسألة ثم قام بخامة رئيس الوزارة العراقية الجديد وكتب إلى رئيس حكومتنا بأن العالم العربي متألم لسجن هذا السياسي العربي الخ... وفي موسم الحج أقيم في « منى » اجتماع خطابي تناول فيه الخطباء سجن الأستاذ الطاهر في بلاد إسلامية عربية بالامتعاض والأسف .

٣ - وقام بعض النواب في مصر يسألون الوزارة في البرلمان عن سبب اعتقاله ولماذا سجن ولماذا لا يحاكم إن كان هناك شيء يستوجب القبض عليه وسجنه ، وأرهف سكان وادي النيل والبلاد الإسلامية آذانهم ليسمعوا الجواب عن حقيقة هذه الحادثة التي منعت صحفنا من الإشارة إليها . وطال الانتظار لأن الأسئلة سحبت من المجلس وبالأأسف وبالألخبجل . سحبت بأساليب ومساومات عجيبة ووعود عرقوبية بإطلاق سراحه . ولكنه لا يزال في السجن يلقي أسوأ المعاملة حتى مرض وتلفت صحته .

٤ - جرى كل هذا وزعماء السياسة فينا لا يتكلمون ورؤساء الأحزاب صامتون ولولا الأحكام العرفية والرقابة على الصحف لضجت البلاد من أجل هذه الكائنة الأليمة . لأن مصر وهي زعيمة البلاد الإسلامية أصبحت في نظر المسلمين متهمة وهي بريئة ، بأنها أساءت إلى رجل خدم العروبة والإسلام منذ حل أرض مصر مدة عشرين عاما فإذا نقول لهم .

٥ - في العراق أكثر من ٤٠٠ لاجئ فلسطيني وسوري بين سياسي ومجاهد وقائد ثوار يرفلون في ظل الحكومة العراقية بالأمان والإكرام ، حتى إن معظمهم عين في وظائف حكومية وبعضهم يأخذ مرتبات شهرية باسم مرتب ضيافة وذلك مما قرره برلمان العراق لهؤلاء الضيوف وقد بلغ حتى الساعة ١٥ ألف جنيه . وأما نحن فنحبس الأستاذ الطاهر في أضيق السجون بلا سبب .

٦ - يجري هذا وذاك عندنا وفي العراق . وتتناول بعض محطات الراديو الأجنبية مسألة الأستاذ الطاهر عاتبة على الحكومة المصرية وكيف يقع هذا منها . وأخيراً نقول إنه ليس من

دواء لهذه المسألة إلا نوابنا والبرلمان ، فالواجب يدعوهم وسمعتنا في العالم الإسلامي تطالبهم بحرية هذا المجاهد الذي لا ذنب له إلا خدماته للإسلام والعرب لوجه الله .

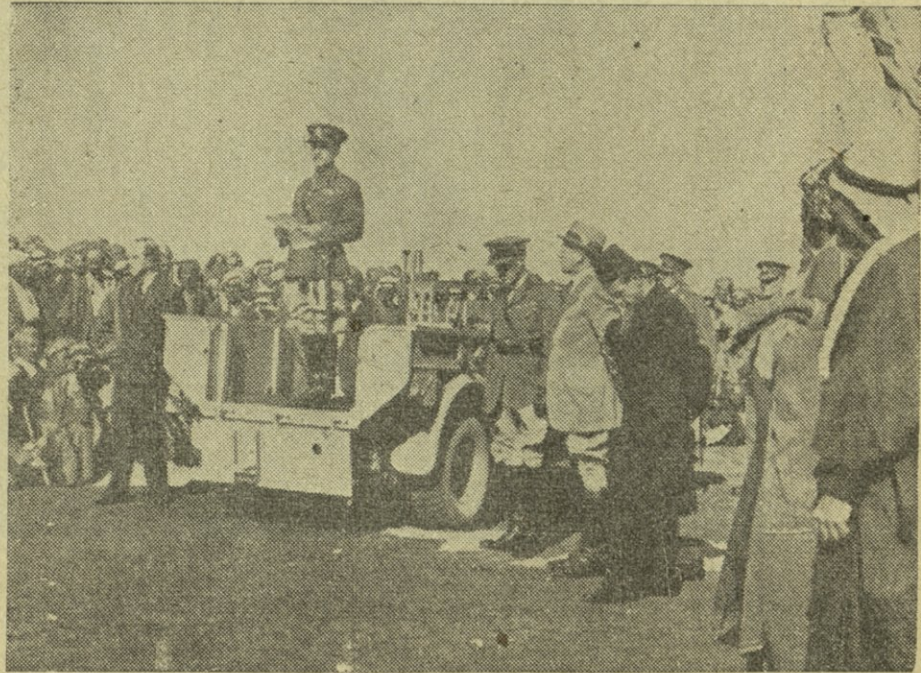
ومما يذكر هنا لتقرير الحقيقة أن الأستاذ الطاهر قد اعتزل كل عمل سياسي فهو عند ما أعلنت الحرب أغلق جريدته وأوقف أعمال اللجنة الفلسطينية ولزم منزله . فلماذا يقبض عليه ويسجن ثم لا يحاكم ولا يترك ليسافر إلى الخارج ، إلى الحجاز مثلاً ، أو سورية أو العراق . إلى بلاد ترحب به وتجل قدره ما دمنا نحن لا نعرف إلا القبض عليه وسجنه . وفي النهاية نقول إنه ليس لهذه المسألة إلا وطنية نوابنا وغيرتهم على سمعة البلاد وكرامة استقلالها .

الإمضاء -- جماعة من الأحرار

هذا هو البيان ، وكنت أظن أنه سيحدث أثراً ولكنه راح كصرخة في الصحراء !

عبرة

— كان الإنكليز يهينون امبراطور الحبشة بعد انهزامه أمام الطليان وضياع ملكه بسبب انصياعه للإنكليز ، وتسميه جرائدهم المستر هيل سلاسي ، ولكن لما احتاجوا إليه الآن بعد اشتباكهم بالحرب مع الطليان أخذوا يلقبونه بجلالة الامبراطور وبأسد يهوذا ...



قائد بريطاني في فلسطين يقف على سيارة مصفحة ويهدد أهل القرى بالبش والفتك ونسف مساكنهم



يظهر في هذه الصورة التاريخية التاريخية فريق من أصدقاء الدين لهم علاقة بموضوع هذا الكتاب فقد ورد ذكر بعضهم في الصفحات السابقة وسيرد ذكر بعضهم الآخر في الصفحات المقبلة ، وهم من يسار الفاري الشيخ محمد صبري عابدين ، والشيخ إبراهيم إطفيش الجزائري ، والشيخ حسين البنا المرشد العام « رحمه الله » والقائد الشهير عزيز علي المصري باشا ، فالوزير السابق الأستاذ عبد الرحمن الراعي بك ، وقد وقعت بيته وبين عزيز باشا . وهذه الصورة أخذت بفندق الكونتنتال بالقاهرة في حفلة شاي أقيمت سنة ١٩٤٧ في المكان نفسه .

المرض والمستشفى

سنة ١٩٤٧
الطبعة الأولى
١١
١٢
١٣
١٤
١٥
١٦
١٧
١٨
١٩
٢٠
٢١
٢٢
٢٣
٢٤
٢٥
٢٦
٢٧
٢٨
٢٩
٣٠
٣١
٣٢
٣٣
٣٤
٣٥
٣٦
٣٧
٣٨
٣٩
٤٠
٤١
٤٢
٤٣
٤٤
٤٥
٤٦
٤٧
٤٨
٤٩
٥٠
٥١
٥٢
٥٣
٥٤
٥٥
٥٦
٥٧
٥٨
٥٩
٦٠
٦١
٦٢
٦٣
٦٤
٦٥
٦٦
٦٧
٦٨
٦٩
٧٠
٧١
٧٢
٧٣
٧٤
٧٥
٧٦
٧٧
٧٨
٧٩
٨٠
٨١
٨٢
٨٣
٨٤
٨٥
٨٦
٨٧
٨٨
٨٩
٩٠
٩١
٩٢
٩٣
٩٤
٩٥
٩٦
٩٧
٩٨
٩٩
١٠٠

المرض في السجن

أنا الآن في شهر فبراير ١٩٤١ وقد مضى على سجنى ستة أشهر تقريبا فصرت أشعر بهبوط عام في صحتي ، فإطعام ولا نوم مع نخفان وسعال شديد ، فكتبت إلى سليم زكي بك مساعد مدير البوليس العام أطلب منه إرسال طبيب الحكومة ، وقد فضلت أن أكتب إليه لأنه مهتما قيل فيه فهو رجل عاقل موزون ، على العكس من حمدي محبوب الذي كان يهمل كل ماأريده ، وكان سليم زكي بك يجيب طلباتي ، ولذلك صرت أكتب إليه بما أريد . وحضر الطبيب فوجد عندي بعض الزلال والحمض وزلة شعبية فقرر إرسالى إلى المستشفى ، فذهبوا بي إلى مستشفى الحكومة « القصر العيني » فأبيت دخوله لظارته وسوء المعاملة فيه وكتبت إلى سليم زكي بأني أفضل الموت في سجن الأجانب ولا دخول « السجن العيني » ... حيث يموت فيه المريض ويمرض السليم ويهان الكريم ، وأنى أطلب نقلى إلى مستشفى غير حكومى وعلى نفقتى ومن مالى الموجود فى خزينة السجن ، ويكفى أن طبيب الأسنان فى القصر العيني كاد فى الشهر الماضى يخلع لى خمسة أضراس حتى لا يتعب نفسه بتنظيفها ومعالجتها !

وقد بادر سليم زكي بك وأرسل الطبيب الرسمى للبوليس الدكتور رشيد بك كرم ومعه أدوات الفحص ، وقد أجرى الدكتور البحث بدقة ثم أعطى التقرير الطبى الآتى وقد نقلته عن أوراق السجن « هزال شديد ، ضغط ١٠ من ١٥ ، زلال ، أكسيد ، زلة شعبية ، النبض ١٠٠ تضخم فى القلب » .

ومضت أيام ، ولكن النقل إلى المستشفى لم يقع ، فأرسلت قرينتى برقية بذلك إلى رئيس الوزراء تضمنت نص التقرير الطبى . وبعد يومين جاء مدير السجن وطلب أن أمضى على مستند أتعهد فيه بأن أدفع مصاريف المستشفى من نقودى المودعة فى خزينة السجن ، فأمضيت له التعهد وطلبت أن يكون المستشفى من الدرجة الأولى ، ولكن مضت أيام أخرى والنقل لم يقع والمرض يشتد ، فطلبت من إدارة السجن أن تسمح بإرسال الإفرازات إلى المختبر على حسابى وترسل التقرير إلى الطبيب ليصف لى علاجا ، فأرسلوا طلبى إلى سجانى الموكل من طرف الشيطان بتعذيبى محمد يوسف ، ولكنه رفضه ، ولم يكتف بذلك بل راح يعاتب الطبيب على وضع ذلك التقرير !

و كنت أخشى أن يرسلني حمدي محبوب إلى المستشفى اليهودي الذي يعالج فيه بعض كبراء المسلمين أنفسهم مع وجود مستشفيات إسلامية أحسن منه ، وبالطبع نويت أن امتنع ، وقد قدرت أن حمدي محبوب سيقول : انظروا كيف إنه عنيد فبالأمر رفض أن يترى في السجن والآن يرفض المستشفى . فيصدق الناس ذلك بلا شك ثم أموت بتهمة إنني عنيد... وقد طلبت من زوجي أن تبرق ثانية لرئيس الوزراء عن هذه المعاملة الفظيعة فأبرقت ومضت الأيام والمرضى يشتد ، وقد ساءت صحتي ولكن الحال في السجن لم يتغير ، لا طبيب ولا دواء ولا مستشفى . وأخيراً هدانا الله إلى وسيلة فعالة مجدية رغم أنف حمدي محبوب ورئيس الوزراء ، وهي أن تقوم زوجتي بإرسال برقية بالمسألة إلى جلالة الملك فأرسلتها فوراً ووجهتها إلى رئيس الديوان الملكي في قصر عابدين وهي :

«إلحاقاً بتلغرافي لرئيس الوزراء عن حالة زوجي المريض بسجن الأجانب والمسجون بدون حق ولا سبب ، أشكو لمولانا الملك إساءة معاملته ومنع العلاج عنه ورفضهم إرساله لمستشفى محترم على حسابه ، حتى إنهم منعوا إرسال الإفرازات للفحص الطبي فاسترحم التحقيق ووضع حد لهذه الفظائع الوحشية .

إمضاء — حرم محمد علي الطاهر

صدي المرض في العراق

وكان نبأ مرضي قد وصل إلى بغداد فكان وقعه عند الرأي العام كما كنت أتوقع ، وقد وصلتني بصورة سرية بعد ذلك بعض قصاصات من صحف العراق ، وهذا مثال مما نشر في ذلك الحين ، ولم أتصل بما سبق لها كتابته ، لأن نص ما نشرته جريدة الزمان يدل على أن صحف بغداد كتبت عني شيئاً قبل ذلك وعلى كل حال فإن الذي نشرته جريدة الزمان وجريدة الاستقلال فيه الكفاية ، وهذا قول جريدة الزمان :

مذكرة الصحافة العراقية لرئيس الوزراء

علم القراء مما كنا نشرناه سابقاً أن الأستاذ المجاهد محمد علي بك الطاهر صاحب جريدة الشورى ورئيس اللجنة الفلسطينية بالقاهرة كان قد اعتقل من قبل السلطات بمصر بلا سبب وأودع

السجن المسمى بمصر بسجن الأجانب، ومنذ مدة من الزمن وصلت الأخبار إلى بغداد تنبئ بمرض الأستاذ الطاهر وفقدانه، وحيدته وأن شدة وطأة المرض عليه ألزمته المستشفى فاهتم زملاؤه وإخوانه وأصحاب الصحف ومحرروها بالعراق وبادروا بتقديم مذكرة لفخامة رئيس الوزراء العميد الركن السيد طه باشا الهاشمي وقّعها أرباب الصحف ومحرروها ورجوا فيها من نخامة الرئيس الاهتمام بأمر المجاهد العربي الحر الأستاذ الطاهر والعمل مع من يلزم لإطلاق سراحه من السجن، وبعث الصحافيون بمثل هذه المذكرة إلى صاحب الدولة رئيس الوزارة المصرية يرجونه الإفراج عن الأستاذ الطاهر زميلهم والذي له من الخدمات والأعمال الوطنية ما يجعل العالم العربي والإسلامي يهتم بأمره ومصيره .

وهذا قول جريدة الاستقلال :

اهتمام الصحافة العراقية بالأستاذ الطاهر سجين القاهرة

« الأستاذ المجاهد السيد محمد علي الطاهر صاحب جريدة الشورى ورئيس اللجنة الفلسطينية بالقاهرة يحتل منزلة رفيعة في قلوب العرب والمسلمين بمختلف أمصارهم وأقطارهم لما قام به من خدمات جلّى لكل قضية وطنية وقومية، ولدفاعه المجيد عن قبة الإسلام الأولى والبقعة المقدسة فلسطين، وهو من خيرة رجالات وأحرار العرب، وقد اهتمت جميع الأوساط الوطنية بأمر اعتقاله وسجنه ورفعت الهيئات الوطنية مذكرات بهذا الشأن . وقد اتصل أخيراً بالصحافة العراقية أن هذا الزميل الحر المناضل عن الوطن العربي الأكبر، أصابه المرض في سجنه، وهو فيه يقاسى الآلام، فهب أرباب الصحف ومحرروها وقدموا صباح أمس مذكرة هامة لصاحب الفخامة رئيس الوزراء السيد طه الهاشمي رجوا من نخامته التوسط لدى أولى الأمر بمصر العزيزة لإنقاذ هذا الوطني الكريم والسماح له بالحضور للعراق، ولاشك بأن صاحب الفخامة سيولى هذه القضية اهتمامه وعنايته . وقدّم أصحاب الصحف العراقية مذكرة أخرى لصاحب الدولة رئيس الوزارة المصرية رجوا من دولته أن ينظر في قضية الأستاذ الطاهر بعين العدالة ويعمل لإطلاق سراحه وإنقاذه من آلام السجن . والصحافة العراقية لا بل الصحافة العربية بأسرها ترجو نخامة رئيس الوزارة العراقية ودولة رئيس الوزارة المصرية الاهتمام بهذه

القضية وتعتقد أنها ملاقية كل اهتمام وعناية وترجو أن ترى زميلها الطاهر طليقا في القريب العاجل « اه .

هذا ما وصل إلى عن اهتمام العراق المحبوب بأمرى ، فلما اطلعت عليه انتعشت وشعرت بديب الصحة والحياة يعود إلى نفسى المتألمة من العذاب ومن شدة رئيس وزرائنا الذى لم يهتز وجدانه ولم يظهر منه ميل إلى إطلاق ، كأن له عندى ثأر قديم فيريد أن يشفى نفسه بتعذيبى بل إنه لم يجامل أهل العراق ولا رئيس حكومتهم ولا وزيرهم المفوض بمصر ، فلو وجه إلى سواء ماوجه إليه لقال للإنكليز ؛ أنا لا أستطيع أن أكون سجاناً لمحمد على الطاهر ، بل إنه لو أمر بالإفراج فوراً وواجه الإنكليز بالأمر الواقع لما فتحو أفواههم بكلمة ، ومن أين لهم أن يعترضوا وهم يعلمون أننى برى من كل اتهام ، وإذا كانوا يريدون شفاء غليلهم منى على ما كان منى معهم قبل الحرب فيكفى العذاب الذى لقيته وهو يكفى لشفاء أشد القلوب حقداً وغلاظة . ولكن لا ، فالحق ليس كله على الإنكليز فى هذه المسألة بل على حمدى محبوب وعلى رئيسه الذى قال لشرارة باشا وكيل الخارجية إنه لا يريد أن تعرض عليه الأوراق التى ترد بشأنى !

إرسالى إلى المستشفى

وبعد إرسال البرقية لجلالة الملك فاروق المعظم بيوم واحد جاء أحد الضباط ومعه جند من الحرس وسيارة حكومية فأخذونى إلى مستشفى الدمرداش وهو مستشفى يعد نصف حكومى ، ولكننا لم نجد فيه محلاً لازدحامه بالمرضى ، وبمرضى الأسرى الألمان والطيلىان ، وقد فهمت أن باستطاعة المدير وحده إيجاد المحل ، ولكن أين المدير فى تلك الساعة والدنيا قد أمست ، فاتصلت من المستشفى بواسطة التليفون بصديقى القديم الدكتور أحمد عيسى بك «رحمه الله» وقصصت عليه أخبارى وكلفته مراجعة المدير الدكتور أحمد العجاتى بك^(١) وقلت له إننى عائد إلى السجن وسأبقى فيه أعانى المرض إلى أن يدبر لى المكان ، فبادر الدكتور أحمد عيسى بك وأخبر الدكتور العجاتى بالأمر وقد ساعده فى ذلك الدكتور اسماعيل مرتضى بك وهو

(١) هو الطبيب الباطنى الشهير ومن كبار علماء الطب فى مصر ، وكان رجلاً وقوراً نبيلاً أميناً فى مهنته ، وقد فجعت مصر بوفاة فى منتصف سنة ١٩٤٨ ، رحمه الله وعوضنا على فقده .

من أجل علماء الطب ، ولم يقصر المدير فقد دبر الأمر بعد يومين ، وفي اليوم الثالث انتقلت بمحقائي إلى المستشفى نهائياً .

عواطف أهل السجن

وقف جميع رجال السجن وجنوده عند الباب الخارجى يودعوننى وأنا أغادرهم ، ويدعون لى بالشفاء ، وقد تسابقوا فى حمل حقائى إلى سيارة البوليس ، فكانت هذه التحية من أهل مكان لا تصدر منه التحيات عادة ، من أعظم ما أثر فى نفسى . وقد عزانى ذلك الوداع أجمل وأكرم عزاء ، وهذا يدل على أن القلوب ، حتى قلوب السجنائين ، لا بد أن تنبض بشعور الإنسانية والوطنية مهما كان أهل السجون غلاظ الأكباد ، لاعتيادهم رؤية المجرمين والمعاملة مع الجناة ، ولما انطلقت السيارة بنا إلى المستشفى قلت فى نفسى . أين عيون الإنكليز وأعوانهم ترى ما أنا فيه من شرف .

الحياة فى المستشفى

خصص لى الدكتور العجاتى بك مدير مستشفى الدمرداش سريراً فى الغرفة رقم ١ فى الدرجة الأولى ، وكان معى فيها اثنان من مرضى الطليان المدينين المعتقلين سياسياً ، وهما من مواليد مصر وسكانها ويتكلمان العربية جيداً ، وكان أحدهما من أصل يونانى ، فرحبنا بى أجمل ترحيب وقام أحدهما « بيتتو » إلى أدوات القهوة وصنع لى فنجاناً وقدمه لى ، وأخذ الآخر يؤنسنى مع رفيقه ، وهكذا فإن المصائب تجمع بين الناس وإن كانوا من الأعداء .

وشعرت فى المستشفى كأننى قد أفرج عنى ، فقد وجدت أناساً أكلهم ، وطعاماً حسناً ، وعلاجاً منظماً وفراشاً وثيراً ، مع حرية فى مغادرة الغرفة والمشى فى الحديقة ، بل يكفى أن مفتاح الباب لم يعد فى يد السجنان ، إذ لا سجان هنا ، بل أن باب هذه الغرفة لا مفتاح له ، ولذلك صرت أختلق لنفسى أسباباً للحركة ، بأن أقوم من فراشى وأذهب إلى محل الماء بلا حاجة إليه ، ولكن لأشبع رغبتى فى أن أشعر بأنى لست فى « الزنزانة » ...

غرقى ...

كانت الغرفة التى أنا فيها واقعة فى الدور الأرضى وإلى جوارها يوجد صف من الغرف لزملائى وجيرانى ، وكان يقف جندى بالسلاح على باب كل غرفة . فكانوا صفاً يواجه أبواب الغرف ، وكان لهذه الغرف أبواب خلفية تفتح على « فرندة » واسعة ، فوضعوا فيها صفاً آخر من الجنود المسلحين ، ولكن لا بأس ، فأنا على كل حال لم أعد فى « ززانة » يملك غيرى مفتاحها وله أن يقفل على الباب بدون إرادتى ويفتحه بدون إذنى ، إن نصف السجن أو أكثر من نصف السجن قد راح عن كتفى ...

وفى الصباح التالى جاء الدكتور العجاتى بك وفحصنى بنفسه ، ثم صوروا صدرى وقلبى بالأشعة وعينوا لى العلاج المناسب ، فحصل عندى بعض الاطمئنان والارتياح ، وكانت قرينتى تزورنى فى كل يومين مرة وقد بلغنى أن جماعة بوليس الجواسيس قد اغتazonوا من البرقية التى أرسلت للقصر الملكى وقالوا : لماذا ذكرتكم فى التلغراف عبارة (الفظائع) ! كأن الذى عملوه معى كان شيئاً لطيفاً ... وإذا كان ماصدر منهم بتضيق السجن على ومنع العلاج عنى لاعتبر من الفظائع فكيف تكون الفظائع إذن ؟

بل إن هؤلاء القوم كانوا قد حاولوا هدم التقرير الطبى الذى وضعه عنى طبيبهم الرسمى فأرسلونى إلى طبيب القصر العينى وهو تلميذ يتمرن على التطبيب ليقول إن صحتى جيدة فأبقى فى السجن ! كأننى عدو لهؤلاء الجواسيس فيريدون أخذ ثأرهم ، فما أغلظ أكبادهم .

أخبار المستشفى

— استطعت أن أنام فى المستشفى بلا أرق لأنهم أعطونى جرعة من دواء مخدر فنمت . وكان البوليس يحرس غرف المعتقلين المرضى حراسة شديدة ، وكان فى الغرف المجاورة بعض الألمان ، فكنت أقضى الوقت فى الحديث معهم ومع الطليان ، وكانوا كلهم يحبوننى ويكرموننى بعد أن عرفوا أن الإنكليز يكرهوننى ، وهكذا فقد اتفقنا جميعاً . فأنا أصبحت أحب الطليان والألمان كرهاً بالإنكليز ، وصار الطليان والألمان يحبوننى بغضاً بالإنكليز ! فلولا الإنكليز لكرهت معهم الألمان والطليان واليونان ، ولكرهنى هؤلاء بلاشك .

وكان بين المعتقلين الألمان يهودى محام مستعرب ، لأنه يعيش فى مصر من عهد بعيد ،
فكنت أتجنبه ، وكان الألمان والطيالان يتجنبونه أيضاً ، وكان أهل المستشفى كذلك يكرهونه
فما أسوأ حياته !

— مضى على ثلاثة أيام لا أشعر فيها بجو السجن ولا بالضغط على الصدر الذى كنت
أشعر به بعد عصر كل يوم ، وكان الدكتور هلال عبد الوهاب أحد أطباء المستشفى هو
الطبيب المعالج الموكل بى ، وهو رجل طيب ذو أخلاق كريمة .

— صادفت فى المستشفى السيد إبراهيم السنوسى أحد أنجال المرحوم السيد أحمد السنوسى
الكبير رضى الله عنه ، وكان السيد إبراهيم يعالج من مرض بسيط ففرحت بوجود غرفته
قريبة من المنطقة التى كنت فيها ، ولكنى شعرت بأنه كان إن قابلنى يكلمنى بتحفظ كمن لا يريد
أن نلتقى ، مع أنه صديق ويعرف درجة حب والده لى لدفاعى عن طرابلس وبرقة ، وكان إبراهيم
يزورنى بإدارة الشورى ، فلما رأيته يتباعد عنى فى المستشفى صرفت النظر عن اللقاء به .

— لاحظت أن نفسية الطيالان والألمان المعتقلين فى المستشفى عالية جداً ، فهم إن سمعوا
أخباراً تصادروهم على الإنكليز فرحوا وضجوا وعربدوا وأنشدوا أناشيدهم الوطنية الحماسية ،
وعندما يسمعون الجنود المرضى من أسرى الطيالان والألمان الذين يملأون الطابق الأعلى يقتدون
بهم وينشدون معهم ، فيسمع لأناشيدهم فى أنحاء المستشفى دوى عميق وصدى بديع ، كأن
المستشفى قد انقلب إلى ثكنة عسكرية فى جبهة الحرب .

— جاءنى أحد أطباء المستشفى متسللاً خدراً ثم عرفنى بنفسه ، وهو الدكتور عبد الرحمن
الصدر وأبلغنى سلام أخى أحمد حسين رئيس مصر الفتاة ، وعرض على أن يقوم بكل مهمة
أريدها فشكرته على شهامته ولطفه .

— كتبوا على جدران المستشفى «يجب السكون لراحة المرضى» ولكن ضجيج المرضات
والخدم يملأ الدنيا ، وقد ذكرتى هذه المفارقات بما يكتبونه على أبواب السجون من أن «السجن
إصلاح وتهذيب» وهو فى الحقيقة إفساد وتعذيب .

— يظهر أن الفرق بين المستشفى وبين السجن ليس كبيراً . وإليك هذه الأمثلة : تأتى

المرضات في الصباح الباكر لإيقاظ المرضى من نومهم بحجة أخذ قياس درجة الحرارة. مع أن النوم هو أعظم علاج للمريض ، بل إن بعض المرضى وأنا منهم كنا لا ننام إلا بأخذ دواء منوم ، فتأتى الممرضات لإفساد هذا العلاج بحجة أن قانون المستشفى يحتم وضع ميزان الحرارة في أفواهنا ، فكأننا في المدرسة الحربية بقوانينها القاسية ، وكم من مرة أيقظتني الممرضة بحجة إصلاح الغطاء إن رأت أن طرفه قد تدلى من السرير

— كادت مشاجرة تقع بين أحد الألمانين والبوليس الذى يحرس الغرف وهو شاكى السلاح ويقف أمام الباب وباب الشرفة ، لأن رجل البوليس كان يريد أن يقضى الليل في غرفة المريض لمنع من الفرار ولكن سلطات المستشفى أوقفت البوليس عند حده بعد أن تبينت ان الشرطى كان يقصد النكاية بالألماني الاسير لأنه لم يدفع الضريبة .

— زارنى الدكتور اسماعيل مرتضى بك « ووشوشنى » قائلاً إنه سمع الراديو الليلة يتحدث عن سجنى ومرضى وإنه يرجح أنه راديو روما وكان مذيع الراديو يندد بالإنكليز ويسبهم من أجل حبسى ويعيرهم به ، فانشرح خاطرى .

-- بلغنى أن صديقى عبد المنصف بك محمود قد ذهب إلى وزارة الداخلية « وهو الآن باشا ومدير عام قسم الإدارة فيها » فاستفهم عن مسألتى لعله يستطيع عمل شئ يريحنى . فقيل له إننى متهم بأشياء خطيرة جداً وإن من الخير عدم تذكير السلطات بى ، وإن الأحسن طى المسألة إلى أن تبرد من تلقاء نفسها ! ولكن ماهى هذه المسألة يارب ؟ والله إنى لفى حيرة ! أفبعد أن أتحدى رئيس الوزراء وأطلب التحقيق معى ، فيتهربون من مواجهتى ، يكذبون على الناس ويشوهون سمعتى ؟

— يتدخل حراس المعتقلين فى أمر الزيارات ويضايقون الزائرين ليحصلوا منهم على « ضريبة » ... كأن الحصول على « البخشيش » لا يكون إلا بتكدير الناس أولاً ثم ابتزازهم بعد ذلك ... مع أن وسائل الحسنى تأتيمهم بما هو أجدى ، ولما تمادى الجنود ووصل الدور إلى كتبت إلى الدكتور العجاتى بك مدير المستشفى عما يصدر من الجنود ، فاستدعى المدير ضابط

البوليس وأفهمه أن الحكم في داخل المستشفى وتحديد مدة الزيارة وفضها إنما هو خاضع لإدارة المستشفى ، وأما البوليس فليس له إلا الحراسة فقط ، ثم أمره بالتحقيق ، فجاء الضابط إلى وسمع ملحوظاتي فأحضر الجنود وأفهمهم واجباتهم وأبدى نحوى احتراماً زائداً كان الفضل فيه للمدير النبيل الذى كله غنى كلاماً طيباً جعله يجلى كثيراً . وقد نفغنى ذلك الاحترام أمام الجنود الذين صاروا يتسابقون إلى إرضائى لدرجة أن الطليان والألمان أصبحوا إن تضايقوا من أحد الجنود شكوا إلى حالمهم ، فاستدعى رجل البوليس وأفهمه اللازم فتنفذ كلتى وكيف عنهم .

— فهمت أن صالح باشا حرب قد اتصل بمدير المستشفى وحدثه غنى ثم جاء الدكتور حافظ باشا عفيفى و خليل بك مطران ومحمود بسيونى بك رئيس الشيوخ السابق والدكتور أحمد عيسى بك وسألوا المدير عن صحى فطمأنهم ، ونصح بعدم مقابلتى بسبب الرقابة الشديدة على ، ليس فقط من الشرطة بل من الرئيسة الإنكليزية « النارس » التى كانت تنوب عن إدارة (الانتلجنس سرفيس) فى مراقبتى ، فقد جاء قبل ذلك الدكتور أحمد عيسى بك إلى غرفتى ذات يوم ليرانى فما لبث أن دهمته العجوز الإنكليزية بالصياح والاحتجاج على دخوله ، فقال لها إننى طبيب وهذا صديقى ، فأبت أن تسمح له بدقيقة ثم أخرجته بنفسها من المستشفى كله .

— كان العجائى بك مدير المستشفى يتوخى إرضائى إلى أقصى حد ، جملة على ذلك نبهه وكرم محتده وتقديره لظروفي . وكان إذا مر بعرف المرضى ومعه المساعدون من الأطباء والرئيسات خصنى بعناية ملحوظة أوحى للجميع ومنهم البوليس بعمل كل شئ يرضينى ، فكان الاحترام يحف بى من الجميع فهون ذلك من حياة المرض والاعتقال .

— أصبح رجال البوليس يتساهلون معى فصرت أغادر الغرفة وأتنزه فى حديقة المستشفى وأصعد إلى البسطح ، وأروح عن نفسى برؤية المناظر الخارجية ورؤية الدنيا بعد أن انقطعت عن رؤية الكائنات والمخلوقات الأخرى شهوراً طويلة ، وكان يرافقنى فى هذا التجوال جندى مسلح ، فكنت أكرم هؤلاء الجنود تارة بالدرهم ، وتارة بعلب السجائر ، وأخرى بمقادير من علب الشاي وقراطيس السكر ...

أخبار وتعليقات

كانت الدنيا في تلك الأيام غارقة في مصائب الحرب ، وكان انتصار الألمان على الإنكليز برأ وبجراً وجواً يشرح صدورنا ، وكنت أقول يارب هل يستريح العالم من انجلترا واستعمارها؟ لنفرض أن الألمان كانوا أشراراً إن انتصروا وحكموا مصائر البشر بدلا من الإنكليز ، فهل يمكن أن يكونوا شرراً من الإنكليز ؟ لا أظن ذلك ، ولا سيما مع العرب ، لأنه يكفي أن يكون الألمان أعداء لليهود وهذه النقطة وحدها تكفي لأن نطمئن على المستقبل ، أما إذا كان الألمان مثل الإنكليز فلا نكون قد خسرنا شيئاً ، وعلى كل حال نكون قد رأينا يوماً نشمت فيه بالذين ظلمونا ويكفي أنهم يكونون قد ذاقوا من الألمان ما أذاقونا ، ولقوا منهم بعض ما لقينا ، وقال المعري :

إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالحسار عليكما

— جاء تشرشل ومعه إيدن وزير الخارجية إلى مصر فأقاما فيها شهراً يتذاكران ويدبران الأمور لتلافي الأخطار التي تحيق بالامبراطورية وترقيع الأحوال المتفاقمة عليها . وكانت الحيرة قد أذلت كبرياء هؤلاء الإنكليز وحطمت من غطرستهم .

— أخبرني أحد المرضى وهو من كبار موظفي الحكومة أنه عاتب إحدى الممرضات على الإهمال وعدم اللطف مع المرضى . فأجابته قائلة : هذا ليس شغلنا . وأما شغلنا فهو أن نخدم المريض فإن مات أسبلنا عليه الغطاء وانصرفنا لنخبر الطبيب المسئول عنه ...

— قال لي أحد المعتقلين النمساويين إن فلسطين أصبحت كوعاء الفضلات ، وإن انكثرتا بجمعها اليهود في فلسطين أصبحت كالكناس الذي يجمع الزبالة ويلقيها في المزبلة بعيداً عن مسكنه . ولكن صاحبنا نسي أن هذا الكناس يحمل سلاحاً وأنه برمي زبالته في أراضى الغير ، فإن اعتبرضوا أذاقهم طعم الحضارة الغربية .. وهذه الحضارة تشرع عادة بواسطة التقتيل والتخريب والتدمير ...

مقارنة ...

كان الإنكليز أرفق برعايا الأعداء من وزارة الداخلية وحمدي محبوب معي ، فرعايا

الأعداء يرسلون إلى المستشفى لأقل الأسباب ، ويمكثون فيه إلى أن يطلبوا بأنفسهم الرجوع إلى معتقلهم ، وأما أنا فإن البوليس السرى يلاحق قرينتى منذ دخولها المستشفى لزيارتى إلى أن تغادره، ثم تشتط الداخلية على إدارة المستشفى الإسراع فى معالجتى وإعادتى إلى السجن فوراً بمجرد شفائى ...

الرفيقان !

كان جارى الطليانى فى الغرفة رجلاً خفيف الظل فكان يزوح عن صدورنا ويخفف بنكاته ودعاباته من همومنا ، وكان يرشو الخدامات والمرضات القبيحات الشكل بالثناء على جاهلن ، فيصدقن ذلك ! وكان يقول لآشعنهن خلقة « من فضلك يافلانة ياللى مفيش زى وجهك الذى أحلى من العسل وعينيك التى فيها كشافات بتجنن ، أعطنى الشىء الفلانى » فتفرح المسكينه وتسابق الريح فى قضاء حاجته :

وأما جارى الآخر « جورج » فهو يونانى الأصل إيطالى الجنسية ، فكان وقوراً وكان يضحك على المرضات بفتح البخت بواسطة ورق اللعب « الكوتشينه » وكان بارعاً جداً فى هذا الفن .

ما هو المستقبل ؟

وكان جورج يسألنى لماذا لا أطلب منه النظر فى مستقبلى ، فكنت أعتر ، لأننى لم أنس قول « سان بيير » لتلميذه « بول » صاحب « فرجينى » إن الاطلاع على المستقبل يسمم الحياة .

ولكنى أمام إلحاح صاحبنا رضيت أن «يفتح بختى» فأعطانى ورقة وطلب أن «أضمر» عن الشىء الذى أريده فكنت أسأل نفسى متى يأتى الفرغ وهل أمكث فى المستشفى طويلاً وهل أرجع إلى السجن ومتى يكون ذلك ؟ فبسط جورج أوراقه وأخذ يعمل على حوادث المستقبل على الوجه الآتى فقال: «أنت لن ترجع إلى السجن ، وسوف تخرج من هنا قريباً، ولكن ليس إلى بيتك ، ولا إلى بلدك الأسمى ، ولكنك ستذهب إلى محل بعيد مطلق السراح وإنما تكون بغير إرادتك» سمعت هذا الكلام وأنا متعجب من دقة اكتشافه لكل

ما نويت الاستفهام عنه ، وقد سرني قوله إنني « لن أرجع إلى السجن » لأن هذا كان أهم شيء كنت أفكر فيه ، ولكنني لم أفهم ماذا كان يعني ببقية تنبؤاته وإن كانت لا تهمني ، فقد حسبتها من تخريفات المنجمين ، وإلا فما معنى خروجي من المستشفى طليقاً إلى مكان بعيد وإني لن أرجع إلى السجن ولا لبيتي ، وإذا كنت لن أرجع إلى أحدهما فإلى أين أذهب وكيف أنطلق ؟ وما هو هذا الانطلاق المقيد ؟ إنه لكلام غير مفهوم ، ولكنني بقيت مسروراً بيشري عدم الرجوع إلى السجن ، حتى ولو كان الانطلاق الذي يقول عنه العراف يؤدي إلى مألطة !

خواطر وملاحظات

انهزم الطليان أمام الإنكليز في برقة هزيمة شنيعة فأصاب المعتقلين الطليان خمود وكسوف وقد كفوا عن أناشيدهم الحماسية .

— قرأت في الصحف عن وطنية الشعب الإنكليزي آية من آيات الوطنية والبذل في سبيل الوطن ، فقد تبرعت مدينة ليفربول لإعانة الحرب بـ ١٢ مليون جنيه ومدينه جلاسكو بـ ١٠ وادنبرج بـ ١٠ وبرمنجهام بـ ١٠ ومنشستر بـ ٧ وشفيلد بـ ٥ ملايين وأما العالم الإسلامي والأمم العربية فلو جمعنا تبرعاتهم الخيرية في مئة سنة ما بلغ ذلك قيمة ما تبرعت به مدينة شفيلد وحدها . وبعد ذلك يستغرب الناس وقوع العالم الإسلامي تحت كلاكل الاستعمار .

— من سماجات الإنكليز في الحروب ولجاجتهم أنهم يسفون في دعايتهم اسفافاً يحاكي عبث الأطفال ، مثال ذلك أنهم إن هجموا أعلنوا أنهم انتصروا ، وإن هجم العدو قالوا إنه انكسر ، وطياراتهم دائماً أحسن وطياريتهم أوفر ، وأنهم إن ضربوا أصابوا الهدف ، وأما عدوهم فهو دائماً يخطئ الهدف : وان الإنكليز لا يضربون إلا الأماكن العسكرية فقط ، وأما الأعداء فلا يصيبون إلا الكنائس والمدارس والمستشفيات ! وإن فقد الإنكليز أرضاً قالوا إنها منطقة لا قيمة لها ، وإنهم تركوها بمحض اختيارهم لعدم نفعها وقلة قيمتها . ولكن إن استعادوا تلك الأرض ذاتها زعموا أنها منطقة عسكرية مهمة جداً ، وأن ذلك ينذر بهزيمة ألمانيا وإيطاليا ويخيف اليابان أيضاً ، والخلاصة أن التراب في أيدي الإنكليز يصبح ذهباً والذهب

في يد عدوهم يصبح تراباً ! وهي أساليب ممجوجة يكاد الإنسان يتقيأ منها .
 — ضجت صحف إنجلترا من انحياز بلغاريا إلى دول المحور وأخذت تصفها بأنها مأجورة
 للألمان ! ولكن لماذا لا تقول إن إنجلترا مأجورة لليهود ؟ .

إن انحياز بلغاريا للألمان نشأ عن كونها تشعر بأنها ظلمت في الحرب العظمى الأولى فتريد
 أن تنتصف لنفسها في الحرب الثانية وتسترجع أرضاً فقدتها ، وأما إنجلترا فإنها تظلم العباد
 وتفتك بأهل فلسطين وتشردهم وتقتلهم وتسلب وطنهم لتعطيهم لليهود ، ثم إنها مع ذلك تطلب
 من العرب التجند في جيشها والثناء على فضائها أيضاً ! .

— لا شيء يدعو إلى السخرية كهم مستشفى الدمرداش ، فهو حمام بحفريات وبانيو
 وأنايب ودش رشاش ، وجدرانه من القيشاني ولكن لا ماء فيه ! ولذلك جعلوه مخزناً
 للأدوات القديمة كالسكاكين البالية والأخشاب المستغنى عنها والخيش القديم والصفائح المحطمة الخ .
 فلماذا بنوه إذن ؟ إن هذا الحمام البديع ما كان يصل إلى هذه الحالة ويصبح مخزناً للمتروكات
 والمخلفات لولا وصول يد الحكومة إليه ! ومعنى هذا أن كل شيء تضع الحكومات يدها
 عليه ، يفسد ويفقد الغرض من وجوده .

— قرأت للدكتور حسين هيكل باشا مقالا يقرظ فيه رسالة جندي بريطاني أرسلها إلى
 والدته . فجدد هيكل باشا ذلك الجندي ووصفه بأنه يدافع عن وطنه ، ولكن لماذا لا تفكر
 يا هيكل باشا بأن هذا الجندي الباسل يعتدى على وطنك ويحتل بلادك ؟

— وقعت حوادث دامية في سورية فوصفت الدعاية الفرنسية ذلك بأنه تشيع من
 السوريين للجزال ديجول ضد حكومة فيشي ! كأن السوريين لا وطن لهم يثورون من أجله
 وأنهم سخفاء لا عمل لهم إلا الانتصار للغير ، فتارة يقولون إن السوريين ثاروا لحساب الألمان ،
 وتارة لحساب الطليان ، وتارة لحساب الشيطان . يعني أنهم لا يثورون إلا لحساب أعداء فرنسا
 وأما في هذه المرة فهم يثورون ضد فرنسا الفيشية حباً بفرنسا الديجولية ...

— لحظت أن الممرضات أصبحن جاسوسات للبوليس ورقبيات على لحساب رئيسة
 المستشفى الإنكليزية ، تلك العجوز الشمطاء التي أظنها فاقت بنخبها أهل الأرض ، لأنها تدرى

بسرعة البرق بجميع حركاتي فإن دخل غرفتي أحد عرفت بذلك فوراً وهرولت حالا وأخرجته من عندي بنفسها ، وإن دخلت أنا غرفة أخرى علمت بالأمر وجاءت تهددني وتذرنى ...

— استحضرت من السوق ١٢ مندبلاً حريياً «إيشارب» من الأنواع الجيدة وأهديتها إلى المرضات تخفيفاً لأذهن واستجلاً لطاعتهن . وأما الخادما فكنتم أعطينهن نتوداً بسخاء ، ثم صرت أزيد فى إكرام الجنود .

ماذا قال راديو برلين غنى ؟

اليوم ١٥ مارس سنة ١٩٤١ الساعة ٦ مساء كان صوت الأستاذ يونس بحرى المذيع العربى الشهير يلعلع من محطة برلين صائحاً يقول : « اعتقلت السلطة البريطانية الغاشمة فى القطر المصرى المجاهد الإسلامى العربى الكبير محمد على الطاهر رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين بمصر وصاحب جريدة الشورى بسبب انتقاده للفظائع البريطانية فى فلسطين قبل الحرب ، وقد علمنا أخيراً أن الأستاذ المجاهد قد اشتدت وطأة المرض عليه فى السجن فنقل إلى المستشفى وقد وصلت هذه الأنباء إلى العراق فهبت الصحافة العراقية والهيئات الوطنية معلنة سخطها على الإنكليز وطلبت من المارشال طه الهاشمى باشا رئيس الوزارة العراقية أن يتدخل ويتوسط لدى الحكومة المصرية لحل هذه المسألة وإطلاق سبيل الأستاذ المجاهد شفاء الله وعافاه . هذا نص إذاعة برلين وقد جاءتنى بها قرينتى مكتوبة على ورقة وأخبرتني بأنهم أعادوا الإذاعة فى الساعة ٨ مساء مرة أخرى وفى الليل تسأل أحد الأطباء وأخبرتني بأن راديو إيطاليا قد أذاع مايقرب من ذلك ، فشكرت الطبيب الفضال ، وقلت فى نفسى بارك الله فى الأستاذ يونس فقد كان معى وفياً ، لأننى كنت به حفيماً .

وبمناسبة الأستاذ البحرى لايسعنى إلا احتقار الذين كانوا يشتمونه بسبب إذاعاته من برلين ، ويقولون إنه خائن وأنه مأجور ، فلماذا لا نقول نحن إن المذيعين العرب من محطات راديو لندن وباريس هم الخونة وهم المأجورون ، لأنهم يروجون سياسة بريطانيا التى تستحق أوطانهم وتستعبد أهلهم ، وأما يونس البحرى فكان يذيع لحساب دولة ما آذت العرب والمسلمين ، ولكنها تستحق الدول التى خربت ديارهم .

حادث آلمنى

صادفت فى أحد أروقة المستشفى السيد محي الدين السنوسى أحد أنجال السيد أحمد الشريف السنوسى الكبير، وكان آتيا لزيارة أخيه إبراهيم، فوقفت أتحادث معه ولكنى وجدته يقتضب الحديث ويختزل الكلمات ولولا الحياء لقطع الكلام ومضى . فتأملت كثيرا ، لأن هذا الرجل كان يعتبر زيارته لى بإدارة الشورى من أسعد ساعات حياته لدفاعى عن وطنه فى الشورى وفى غيرها ، ولكن لما احتضنه الإنكليز هو وجماعته ليحاربوا بهم الطليان صاروا يتضايقون منى !

حيلة ...

— أصبحت كثرة زوار جيرانى فى الغرفة تقلقنى ولا سيما بعد أن أضافوا إلينا مريضا أجنبيا ثالثا فكتبت إلى المدير العجائى بك ورقة طلبت فيها أن ينقلنى إلى غرفة خاصة لأكون وحدى وأبديت استعدادى لتحمل المصاريف التى تلزم لذلك النقل ، وأنى لا أريد الحياة مع أعداء الوطن . وبعد ساعة فقط جاءت الرئيسات والخدم وقلن للذين معى إن إدارة المستشفى أمرت بعدم اختلاط المرضى الأجانب بأولاد العرب ، ثم أخرجوا جيرانى الثلاثة من عندى ووزعوه على الغرف الأخرى ، فإذا بى أجد نفسى فى الغرفة وحدى ، فسررت لذلك وتعجبت من لباقة الدكتور المدير وبراعة أسلوبه ، لأنه أراد به أن يتفادى خائنة الأعين وخبث الرئيسة الإنكليزية الجاسوسة ، وبعد قليل مر المدير بغرف المرضى يحف به أركان المستشفى من أطباء ورئيسات ولما جاء دورى ودخل إلى غرفتى سلم علىّ باعثناء شديد ثم شد على يدي قائلا هل أنت مستريح الآن ؟ فشكرته وقلت له . كل الارتياح . ولما خرج ازداد اعتناء أهل المستشفى بى سواء كانوا من الممرضات أم من الحرس البوليسى ، لأنهم لم يروا المدير يهتم بالمرضى ويظهر لهم مثل الاحترام الذى يخصنى به ، فكان هذا الإيحاء الثانى منه حافزا لهم على التفانى فى إرضائى وفى خدمتى فما أنبل هذا المدير .

مناقشة إنكليزية عربية

اجتمع أحد أصدقائى بالمستر هملتون أحد أركان السفارة البريطانية وفى خلال حديث

بينهما قال له صديقي لقد كبرت محمد على الطاهر وزادت منزلته بحبسكم إياه . فقال نحن ما طلبنا حبسه ولكن الحكومة المصرية هي التي حبسته ، ثم قال متهمكما : وإذا كان قد كبر في الحبس فليبق فيه إلى أن يكبر كثيراً ... وإني أعلق على تهكم هذا العليج الاستعماري بأنني قد كبرت فعلاً وإني أشعر باعتزاز وكرامة أيضاً .

— شعرت اليوم لأول مرة منذ دخولي المستشفى بالفرق الحقيقي بين السجن والمستشفى ، لأنني استطعت أن أنام نهائياً بعد أن انقطع لفظ الذين كانوا عندي هم وزوارهم .

— نحن اليوم في ١٧ مارس ١٩٤١ فذهب الدكتور مصطفى بشناق بك ومعه بعض الأصدقاء إلى رئيس الوزراء وحدثناه عن فوعدها بإطلاق بعد أن يسعى لدى الإنكليز .. دائماً الإنكليز !

بهلوانيات ...

صحيح أن السجن أريح من المستشفى ، ولكن من بعض النواحي فقط ، مثال ذلك إنني لم أتم الليلة بسبب تخطيط في الغرفة التي فوق استمر إلى الفجر ، ولما تمت عاد التخطيط ، وقبل طلوع الشمس تمت ولكن باب الغرفة انفتح بغلاظة ودخلت خادمة ويدها قبضة من من القطن مسحت به افريز الجدار ثم انصرفت ، وبعد ذلك تمت فجاءت ممرضة أيقظتني وأخذت لي ميزان الحرارة ثم انصرفت ، فرجعت للنوم ، وإذا بفتاتين تدهمان الغرفة وتطلبان مني النهوض من السرير « لتوضييه وترتيبه » وبعد لحظة انصرفت ، فرجعت إلى السرير واندسست فيه وأنا دأخ بردان نعان ، فلم أكد أستقر فيه حتى دخلت خادمتان لمسح الأرض ثم أخذتا بالحديث والعتاب على أمور بينهما إلى أن تشامتتا ! ولكني قبل حصول الضرب بينهما تركت الغرفة وهربت إلى المشي ! ولما انقلعتا من الغرفة عدت إليها وورقدت ، وإذا بالباب يفتح فأطلت منه خادمة ثم انصرفت ، وبعد لحظة جاءت أخرى ففتحت باب الشرفة ورجعت ، فإذا بأخرى تدخل وتقف باب الشرفة وتعود ، فإذا بالباب يفتح ويدخل شخص فإذا هو الحلاق فصرفته ، ولكنه ما كاد ينصرف حتى دخلت خادمة وأخذت تمسح لوحة التقارير الطبية وتعود ، وقبل أن أسترد أنفاسي وأستلقي وإذا بالباب يفتح وتدخل

ممرضة لتسألني كيف حالي ثم خرجت ، وإذا بخادمة تدخل وتقول هل ضربت الجرس ؟
فقلت لها بل الجرس هو الذي ضربني ...

وبعد ساعة احتجت إلى شيء فضربت الجرس ثم قرعته وانتظرت ، ولكن لم يرد أحد
فتمنيت أن يدخل أي إنسان لهذه الغرفة الملعونة ولكن لم يدخلها أحد ولا أجنبي أحد ...
فلم يسعني بعد هذا العذاب إلا أني أمرت الجنود بعدم السماح لأحد بدخول غرفتي إلا بطلب مني .

عريضة إلى جلالة الملك

بلغني أن عريضة جديدة قد أعدت لتقديمها إلى جلالة الملك المعظم بطلب الإفراج عن مثل
العريضة التي قدمت إلى رئيس الوزراء منذ أشهر ، وكان قد تهرب من استلامها وأرسل بعض
موقعيها إلى إدارة البوليس تهديدهم بالطرد من الأراضي المصرية .

وقد ذهب وفد من علماء وطلبة المعاهد الدينية والجامعة إلى قصر عابدين الملكي وكان
من أعضاء الوفد الشيخ يوسف عبدالرزاق المشهدي المدرس بالأزهر والشيخ مصطفى حسني
السباعي عضو مجلس النواب السوري بعد ذلك والشيخ مشهور الضامن والأستاذ الشنقيطي
والأستاذ الفضيل الورتلاني الزعيم الجزائري وقد وقع العريضة مئات من أبناء البلاد الإسلامية
فتسلمها منهم عبد الوهاب باشا طلعت أحد كبار أمناء القصر الملكي ووعدهم برفع العريضة إلى
جلالة الملك المعظم ، بارك الله في هؤلاء الإخوان الذين لم ينسوا أخاهم السجين المريض وهذا
نص العريضة :

العريضة الثانية

القاهرة في ٢٢ صفر سنة ١٣٦٠ هـ الموافق ٢٠ مارس سنة ١٩٤١ م .

حضرة صاحب المعالي كبير الأمناء . سراي عابدين العامرة بمصر

بعد الإجلال والاحترام : يتشرف علماء وطلبة الأقطار الإسلامية الذين يطلبون العلم في
مصر بتقديم هذه العريضة إلى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم أيده الله بنصره
وصان عرشه ملتجئين برعايته الغالية ونظرة الكرم فيها . ولمعاليكم الشكر والدعاء .
قبضت وزارة الداخلية مندسبعة أشهر على المجاهد الكبير الأستاذ محمد علي الطاهر رئيس

اللجنة الفلسطينية العربية بمصر وسجنته مع التضييق عليه بدون اتهام أو تحقيق ولا ذنب يستوجب ذلك . وقد وقع هذا العمل التعسفى على الأستاذ الطاهر موقع الدهشة والحزن والأسف وقد حز فى نفوسنا لما للاستاذ محمد على الطاهر من المكانة السامية فى الشرق والعالم الإسلامى .

وحيث ان مقام مصر العزيزة فى الأقطار الشرقية كبير ، فهى تأبى أن ينسب إليها تعذيب أحد خدام الأمم الإسلامية المخلصين فى السجن بلا موجب ، لأن مصر اعتادت تقدير كبار الرجال وإكرام مثواهم لذلك نلتمس من المراحل العالية إطلاق سبيل الأستاذ الطاهر ورد حرية إليه أو محاكمته إن كان قد ارتكب ذنباً لأن العدالة لا ترضى بسجن الأبرياء بلا ذنب ، ولا سيما أنه الآن مريض فى مستشفى السجن وإننا ندعو سلفاً بطول بقاء مولانا الملك المعظم نصره الله ...

الإمضاءات

الفلسطينيون والسوريون : مشهور ضامن بركات . محمد سعد هاشم . عبد العزيز عزت الخياط . واصف عبد الرحمن عبده . على محمد الشيخ حسن . عبد الرؤف درويش أحمد . ضياء الأدهم . محمد ربيع يوسف . سعيد أحمد . محمود حسن ياغى . محمد عبد الحافظ . فتح الله حسن . جمعه الساوادي . سعد الدين الخطيب . محمد محمود الحاج قاسم . أمين محمود أبو استين . محمد أحمد التيمى . نمر مصباح النمورة . عبد القديم يوسف زلوم . صلاح الدوايمة . محمد مظفر الصلاحى . عبد المجيد القاسمى . ناجى حسن عبد الله . هاشم نعمان الخازندار . محمد أحمد البخش . سعيد زكى أبو السعود . شاكر سعيد . ياسين سليمان بلان . على البدرساوى . عبد الله السيد البدرساوى . عبد المجيد الدويك . حجازى أيوب . زكريا سعد . كمال سعيد . خالد العزة . محمد صلاح الدين . جميل حسن النجار . حسن عبد اللطيف أبو سلطاني . محمد رضوان المحتسب . شفيع سعيد اللبدي . عبد الرؤف سعيد اللبدي . حلمى عبد الفتاح محمود . إبراهيم ياسين قطان . عبد الرحمن محمد مزاد . ممدوح مهنا . محمد حرب خميس . عادل مطيع .

عادل الجوهرى . مرشد داوود . يوسف عبد الرزاق المشهدى . حافظ عبد الرحمن صندوقة .
محمد حمدان الفارس . فوزى سرنده .

الحجازيون : محمد عبد الرحمن الزياوى . حسن على خلف . محمد موسى على . عبد الله أحمد
عبد الرزاق . أحمد على المنيفى . طاهر الزواوى . محمد الدفتردار . إبراهيم خاشى . بكر عرفه المدنى .
سميح أحمد الشريف . صالح منادى . أحمد الحكيم . حسن مغربل . شاكر سراج . إبراهيم
بشاورى . أحمد حسن الشريد .

المغاربة : عبد القادر حسنين . حسين سرور . محمد أحمد على . المدنى محمد . الطيب محمد .
أحمد البغدادى . سليمان محمد الزواوى . عمر راغب . محمود يوسف الجبية . محمد الصغير العروسى .
محمد عبدالسلام . الحسينى على المراكشى . الأمين المغربى . محمد المدنى محمد . محمد مبارك .
على محمد الحجاجى . سالم العمورى . محمد صالح الزغبى . سعد الدين القبانى . محمد خير ناصر .
محمد كامل الحمائى . خالد العلنى . حسن على . حمدان أحمد يوسف . رمضان الشوا . محمد يوسف
النازلى . حسن عبد القادر . مرشد داود . محمد على سعد . خالد أحمد هنيه . عبد الرؤف
عبد الصمد . سالم العمورى . الهلالى محمد . البشير العروسى . طه الحمدانى . أبو بكر المغربى .
اليمينيون : على محمد على الهتارى . أحمد محمد على الهتارى . على عقاب . محمد على الجفرى .
أحمد عبد الرحمن الجفرى . عبد الرحيم عبد الرحمن . صالح أحمد محمد . عبد القادر جعفر المحضار .
أحمد محمد الصوفى . السيد عبد الله على . محمد عمر . على ناصر . أحمد عبد الله . على حيدر .
سلام فارغ صالح . عبد الوهاب حسن . عبد الله عثمان عمر . سلامة محمد . على هتارى . عبده
منصر . أحمد عبد الرحمن الجندى . أحمد الحضيرى . إسماعيل عبد الله . محمد سالم البيحاني .
محمد الحضيرى . يحيى زبارة . محمد صالح الميسمرى . سالم وصابى . عبد القادر محضار . على محمد
على الهادى . أحمد محمد على الهادى . غزالى الجهنى .

الجاويون (أندونيسيا) : هارون عبدالرؤوف . عبدالرؤوف ماهيه . أحمد هاشم . سليمان
وكيل . شمس الدين محمد . حسب الله جعفر . إسماعيل عبد الوهاب . إدريس هاشم . عبدالغنى
رامى . على سليمان . أحمد بستانى . مختار ناشغ . عبد القادر جيلانى . إبراهيم عبد الحكيم .

على محمود . فؤاد نحر الدين . عبد الحميد جميا . عبد المراد قدرى . عبد الرشيد أبو الحسن .
عبد الله بخارى . محمد مستور جهرى . سليمان درماوى . علوش أحمد عبد الله . إسماعيل عبد الوهاب .
عبد الغنى سداغ . تاج الدين رضوان . نور الدين يحيى . بستانى إبراهيم . طه يحيى . عبد الكريم
يونس . محمد طه يحيى اندونيسيا . تنكوميون . إسماعيل على . سنوسى محمود . محمد يس
عبد المجيد . عبد الغنى بيك .

الأتراك : حمدى أرسلان . عثمان مصطفى عثمان . مصطفى عثمان . عبد الرحمن موسى .
برهان الدين محمد الداغستانى . محمد شريف . محرم تحسين . على حسن يعقوب . توفيق
إسلام يحيى . عبد الله عثمان . مصطفى على رضا . على كونوفى . حسين عبد اللطيف .
محمد صبرى أبو بكر . نصرت محمد . حسين مرهميك .

الهنود : محمد حسين . لقمان أحمد .

السودانيون : مختار فضل بيرم . جعفر محمد الأمين . حسن محمد إسماعيل . محمد على
عمار . عثمان أحمد عبد الرازق . عثمان حسن محمد على . محمد سلطان جميل . صالح المدنى .
محمد حسين الرفاعى . محمد خوجلى . عثمان خليفه . عبد المجيد الحميدى . حسن سرور .

الأكراد : محمد شريف إسماعيل . عيد شريف الزركلى . خليل الإمام الكردى . عمرو جدى
الكردى . قاسم فتح الله . الحاج محمد حسين . محمود حسين . إسماعيل مصطفى البغدادى .
محمد شريف خالد . محمد شريف بابلاوى . قاسم فتح الله . عزيز عثمان الشيخ . حمدى الكردى .
تركستان : محمد حسن على . عبد الخالق إسماعيل . عبد الواحد عبد الله . محمد سعيد
إسماعيل . نور محمد إسماعيل . الحاج قاسم إسحاق . عبد الأحد حامد .

الصينيون : عبد الله ناجى . محمد تواضع . محمد حنفى . عثمان خان . نور الدين يحيى . عبد الله
يسر . إبراهيم الشوم . أحمد جان . نعمة الله شن . صالح دن . سليمان وان . عبد الله ماجينكو .
الأفغانيون : محمد عبد الغفار الهاشمى . عبد الصمد عبد الله .

شعرت بارتياح لما رأيت هذه العريضة، لأنهم أرسلوا الى صورتها الشمسية فحفظتها عندى
لأسجلها بالزنگراف وأثبتتها تخليداً لفضلهم فى الكتاب الذى أنوى كتابته عن حياتى التى
أنا فيها بعد الخلاص من هذه الورطة إن خلصت منها سالماً ...

حضرت صاحبہا لعلی کبیر الامناء = سرای عابدین الدامرفہ - بمصر

بشراف قريبه سبطه طاهر وطلبة الاقطار الاسلاميه الذين يطلبونه العالم وصدق بنف
الله بصيرة وعنده عرشه ملتجيه عناية العاليه ونظرة الكريم فيها ولعلها اليكم

ما نرى سلفاً بطول بقا مولانا الملك العظيم نصره الله

یوسف الزرقانی
المدرسة المتفوقة
کابل الحسین
عبد الله القدیر
احمد رفعت
عبد الرحمن
احمد شمس
مفتی محمد

الحمد لله الذي جعلنا من آل أبي طالب
 محمد بن عبد الله بن عبد المطلب
 علي بن أبي طالب

[Handwritten signatures]

الحمد لله
و بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله
و بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible]

أودعها في الخزانة
 بيد الدرس فالله الهنود
 عبد الرحمن بن محمد
 عبد الرحمن بن محمد
 عبد الرحمن بن محمد

[illegible][illegible]

حريص الله
سليمه وكيلى
احمد مان

عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن عبد المحسن بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان

" " " " " " " " " " " " " " " "

زيارة تشغل البال

زارني ضابط من البوليس بدون أن يكون بيني وبينه معرفة تستوجب الزيارة ، وبعد أن تأملني لحظة أجال نظره في الغرفة ، ولما تيقن من خلوها من الغير رجع إلى الباب فأقفله من الداخل ثم استدار وسألني : هل شفيت ؟ فاستغربت سؤاله ، وقلت له أنت ترى على المنضدة سبعة أنواع من الأدوية التي أتعاطاها وأحلاها أمر من العلقم . فسكت لحظة قصيرة ثم قال : أريد أن أسر إليك بشيء ، فأنا أعرف أنك مسجون في سبيل الله ، ولذلك أشعر بأن من واجبي أن أفضي إليك بسر فهل تكتمه ؟ فقلت نعم ولك الشكر ، فقال إن الحكومة طلبت إرجاعك إلى السجن ولكن مدير المستشفى امتنع عن ذلك ، أما إن تكرر الطلب واشتد فلا يسعه إلا التسليم ، فأنا أنبهك لتحتاط لنفسك وتسعى بواسطة أصحابك مع الحكومة والسلطات للبقاء عليك هنا إلى أن تشفى ، ثم قال الضابط إنهم أرسلوني لأراك بعيني وهل شفيت أم لا ، لأنهم لم يصدقوا تقرير مدير المستشفى ، وسأرد عليهم بأنى رأيك في حالة مرض لا تساعد على إرجاعك للسجن الآن .

سمعت هذا الكلام فأحسست ببرودة السجن وظلامه وفظائعه ، فشكرت للضابط فضله ونبله ووعدته بالكرمان طبعاً . وكم أصبحت مديناً لهذا الضابط النادر المثال ، وهنأت كرت ضابطاً من نوعه وهم الذين صادقهم في أيام الحبس ورافقتوني في ذهابي إلى عيادات الأطباء ومنهم اليوزباشى أحمد الرشيدى « القائمقام الآن » والملازم كمال فهمى كريم ، فقد مكنتى الأول من زيارة الدكتور أحمد عيسى بك في عيادته والتجول معه في السوق والجلوس في مشرب قهوة والتنزه ساعات للاستراحة ، ومكنتى الثانى من الرياضة بأن تجول بى في سيارته الخاصة في الضواحي . ولما أفرج عني بحثت عنهما فلقيت الأول في مكتبه فشكرته . وأما الثانى فقد توفي بغتة وهو غرض الشباب ، فحزنت عليه وذهبت إلى أهله فعزيتهم به رحمه الله . ومن هؤلاء الضباط الكرام محمد حلمى شعيربك الذى أصبح مفتشاً بوزارة الداخلية وكان بوقتها برتبة ملازم ، وقد أظهر معي من مكارم الأخلاق ما لا ينسى . ومنهم أيضاً مختار بك خورشيد البكباشى بالبوليس فقد كان نبيلاً لطيفاً من الطراز الأول .

تفكير وسهر

لم أنم تلك الليلة ، وكيف أنام وأنا أسمع أن الجلادين يلاحقوننى ويستعجلون بإعادتى إلى

السجن . وهذا الاستعجال لم يصدر من الإنجليز ، لأنهم في شاغل عني بانكساراتهم وهزائم جيوشهم وإغراق أساطيلهم ، ولكن الاستعجال - على ما علمت كان من الأمن العام بتذكير من الضابط محمد يوسف الذي يلعب الآن برئيس الإدارة العربية والشرقية بيوليس التحري بحكمدا رية مصر دائماً محمد يوسف في طريقنا ، فما خطب هذا الرجل ، وما الذي يحرك عداوته نحونا ؟ سأبحث هذه المسألة ، لأن أعماله معنا تسترعى النظر كثيراً ...

وعند منتصف الليل جرى تبديل الحرس الذي يسهر حول غرف المعتقلين ، وبعد لحظة دخل الجندي محمد فحياني وقال لي بحزن إنك غداً ستوحشنا « ياسعادة البيه » ، فاضطربت من هذه العبارة وسألته وأنا أتوقع أن يقول لي متما كلامه « بسبب إرجاعك غدا إلى السجن » ولكنه استطرد فقال : لأنني من الغد سأنقل من الحرس ولذلك لن أتمكن من خدمتك . فلما سمعت ذلك سكن قلتي وصرفته بكلمة أسف على فراقه وأعطيته « بخشيشا » فخرج مسروراً . وأما أنا فقد بقيت مشغول البال إلى الصباح ، لا أفكر إلا في شيء واحد وهو كيف السبيل إلى حمل الجلادين على التفاوض عني فترة من الزمن لبيئنا أملك صحتي ، وقد تنتهي الحرب في الأسابيع المقبلة بانهيار إنجلترا وتسليمها للألمان ، لأن كل شيء في الدنيا كان يشير بهذه الخاتمة المرموقة التي تفك أسر ألف مليون من مخلوقات الله من ظلام الاستعمار الإنكليزي والإيطالي والفرنسي والهولندي والإسباني والروسي والبرتغالي والبلجيكي الخ وتؤدي إلى راحة بقية أهل الأرض من الحروب ، ومعذرة للإنكليز لأن حياة ألف مليون من الخلق وهم أكثرية سكان العالم ، أفضل عند الله من بقاء دولتهم تقلق العالم كله ليطمئن ٤٠ مليون إنكليزي بالتحكم والطرسة وامتصاص أموال العباد ، ومن لا يؤمن بسيادتهم على الخلق عوقب بالاحتلال والاستعمار والانتداب ، وإن اعترض أحد على ذلك فالدافع البريطانية وقنابلها الفتاكة كفيلة بإفهامه وإقناعه ، فإن لم يفهم ولم يقنع تولت الطيارات إفهامه وإخماده

آخر مذكورة في المستشفى

اليوم فخصوني وكنت أشعرت بحسن واضح ولكن السعال مع ضيق التنفس كان يزعجني ، فإن تركوني هنا شهرا واحدا رجعت صحتي إلى حالها ، ولكنهم يريدون إرجاعي إلى السجن الآن ولذلك بقيت طول النهار أفكر وأقيس وأدبر وأفترض ، لأن الذي خطر ببالى كان بالنسبة إلى خطيرا حقا ، وله عقابيل ذات متاعب ومشاكل ...

الفرار

التفكير في الهرب!

قضيت طول اليوم ٤ ابريل ١٩٤١ في التفكير بماصح عزمي عليه، وهو الهرب من المستشفى الذي كنت قبل ذلك قد تمكنت من الطواف في جنباته ومعى الحارس فتجولت في الحديقة وفي أطراف المستشفى ودققت النظر في ارتفاع أسواره، والنقط التي يقف فيها الحرس المسلح، لأن المستشفى يغص بالأسرى العسكريين الذين يعالجون في الطابق الأعلى، ولم يفتنى أن أصعد السطح للتزده ومعى الجندي طبعاً فنظرت إلى خارج المستشفى لعله محاط من خارج السور بحرس ما، ولكني لم أر أحداً، فهم مكتفون بالحراسة الداخلية إذن، وبعد أن حددت في خيالي موقع المستشفى من المدينة وماهى الشوارع والطرق المحيطة به، وحركة المارة من الناس، عينت النقطة التي أريدها...

وما أصبح الصباح حتى كنت في حالة إعياء شديد بسبب السهر والتفكير، وقد مجت نفسي الطعام طول ذلك اليوم وأخذت أعاود التفكير والتدبير حتى العصر، ثم تناولت المصحف أتلو بعض آيه، فإذا بي أقف عند الآية الكريمة « إن الملائكة يأترون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين » فتعجبت من هذه المصادفة واختلجت أعصابي وخفق قلبي، وعند ذلك صممت على الهرب وأن أهرب بكل سرعة... وبعد قليل وصلت زوجي لزيارتي فأخبرتها بما صح عليه العزم قبل أن أعود إلى الزنزانة في السجن، بل بالاستيلاء الحقيقى الذى تعذب فيه أرواح الناس بلا سبب^(١). ولذلك قلت لزوجي إن جاءوا غدا وهاجموا الدار وسألوا عنى فعنى ذلك أننى نجوت، وإن لم يقع شئ فيمكنها أن تأتى غداً للزيارة كالعادة، لأننى قد أعدت عن الفرار الليلة لأمر خارج عن إرادتى، وبعد قليل انصرفت بعد أن حملت خادماتنا بعض الأمتعة الثمينة التى أخشى ضياعها إن تم الهرب وظلت في المستشفى. وكان أهم شئ خفت عليه من الضياع عبادة من الوبر

(١) بالرغم من كل ما يقال عن سجن الباستيل وبرغم الصيت الرهيب الذى كان يحوطه، فإن العديد من أدياء ومؤرخى فرنسا قد أجمعوا على أنه لم يكن سجنًا نظيماً بالمعنى المفهوم، بل كان عبارة عن قلعة في وسط باريس اتخذت مكاناً لاعتقال الشخصيات السياسية الكبرى في فرنسا، ممن يغضب عليهم الملك، وكان نزلاء الباستيل يعاملون فيه باحترام مع توفير أسباب الراحة لهم، ولكن الاعتقال هو الاعتقال ولو كان في الجنة، ولذلك أصبح اسم « الباستيل » رمزاً للظلم وعنواناً للاستبداد مادام الأبرياء يحبسون فيه بلا تهمة معينة ولا محاكمة منتظرة.

حتى لا تقع في يد البوليس « كغنيمة حربية » ، فهذه العبادة المباركة كانت أهم شيء أنقذته قبل الفرار، وسيأتي حديث هذه العبادة .

بروفة ...

وبعد ذلك ارتديت زوجين من الجوارب ، فوق بعض ولبست تحت البيجامة الصوفية قيصين ولباسين من الصوف أيضاً ، وكنت أحتفظ بنظارة دا كنة الزجاج ذات إطار غليظ، وطاقية سوداء فلبستهما ، وهناك تلفيحة كنت ألف بها عنقي للوقاية من البرد فلففتها حول



خصري تحت جكيت البيجامة ، وكنت في المستشفى ألبس « الروب دى شامبر » فتركته لحظة وارتديت البالطو الخفيف « معطف المطر » ثم وقفت أمام المرأة وأخذت أتنظر إلى نفسي وأعيد التأمل في شكلي ، فأعجبني هذا التفكير البدائي - بل المبدئي - وهو كاف في هذه الليلة ، وبعد ذلك يحملها الحلال ! ولما تمت البروفة أردت أن أزيد في الاحتياط شيئاً آخر ، وهو أنني أخرجت قطعة من القطن ووضعتها تحت إحدى زجاجتي النظارة المعتمدة كمن يصون عيناً مريضة ، ثم نظرت إلى نفسي في المرأة مرة أخرى . فككت لا أعرف أنني أنا !

ونظرت إلى نفسي في المرأة فأعجبني الخ وعند ذلك وضعت النظارة والقطن في حبيبي ، ودسست الطاقية في عبي ، ونزعت المعطف

وعدت إلى الزى الذى اعتاد الجنود وأهل المستشفى رؤيتى فيه ...

الساعات الأخيرة

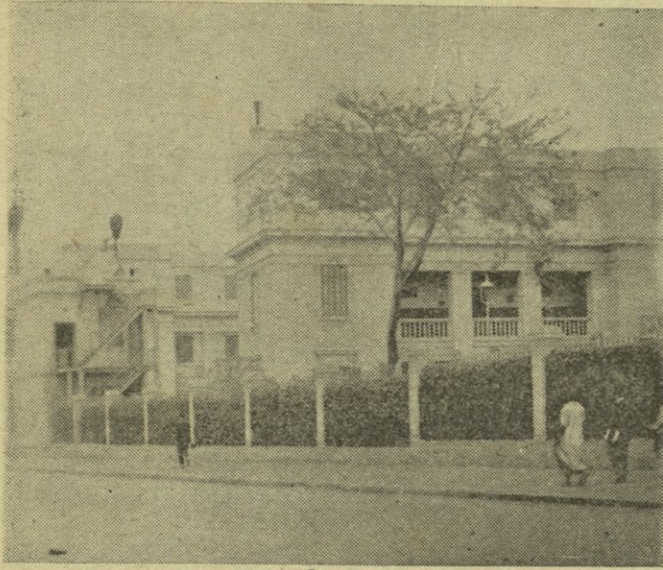
كانت الغرفة التى أقيم فيها مشحونة بأممى وكتبى، وطقم الشاى الذى كنت قد أحضرته من بيتى، وما أمسى المساء حتى كانت فكرة الهرب مستحوذة على فكرى وعلى جميع جوارحى، وكنت فى الساعات الأخيرة أفكر وأنتقل بين الغرف على غير هدى، أزور هذا وأحدث ذاك، ثم أرجع إلى الغرفة فأستلقى على السرير وأغمض عيني للتفكير ورسم الخطة ومتى يكون البدء بالهرب، وأماماذا بعد الهرب من أهوال فهذه الأمور لم تخطر على بالى. وقبيل انتصاف الليل أغدقت على جنود الحرس العطايا، فلهذا قطعة نقود، ولذلك علبة كبيرة مملوءة بالسجائر، ولثالث علبة شاى لا بأس بها، ولرابع قرطاس فيه أقة من السكر، وهلم جرا. ومع ذلك لم أنس أن أسأل الجندى المكلف بى عن اسمه وعنوانه

وكنى فى تلك الفترة الحاسمة فى حياتى كثير الاضطراب والقلق، فتارة كنت أقف وتارة استلقى، وتارة أسير فى الممرات وتارة أمسك بكتاب أطالع فيه، ولكنى ما كنت أفهم شيئاً من كل الصفحات التى قرأتها بل إن عيني ما كانت ترى شيئاً مما كان يمر عليه بصرى من سطور وكلمات أو مرئيات !

الهرب

وقرب الساعة الثانية عشرة ليلاً استويت جالساً وألقيت نظرة على الغرفة، فهذه منضدة عليها عدد كبير من المجلدات والكتب، وهذا « روب دى شمير » جديد لم يمض عليه عندى أكثر من عشرة أيام، وتلك خزانة مملوءة بملابسى، من بدلات وأقمصة ومناديل وجوارب الخ وكانت الغرفة مضاءة تماماً، وكذلك مصباح السرير، فوضعت المصحف الذى كان فى يدي على الحدة وتركت مفتوحاً، وقبل أن أبرح الغرفة ألقيت على المصحف نظرة خاطفة فإذا بعيني تقع على الآية الكريمة (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) الآية، فاستبشرت وتيمنت، ولم أشك فى النجاة ثم توكلت على الله وخرجت من الغرفة كعادتى وقد انتعلت الحذاء هذه المرة بدلاً من « الشبشب » وارتديت المعطف بدلاً من « الروب » فوق البيجامة، ثم أخذت أمشى أمام الغرف كالعادة بدون أدنى تغيير فى الحركات الليلية التى اعتدتها أمام الجنود وتعودها الجنود منى. وكان الجنود

بسلحهم ، كل يربط أمام غرفة ، يتحدثون ويتسامرون ، وكان أحدهم يصنع شايًا لنفسه ولرفاقه ، من الشاي والسكر الذي أهديته إليهم... وقبيل انتصاف الليل بدقيقة أو دقيقتين لا أكثر تلفت إلى الجنود وأنا أمشي أمامهم وعلى مرمى البصر منهم، فوجدت أحدهم يتحدث اخوانه بمحدث كان يهمهم على ما يبدو ، لأنهم كانوا يصغون إليه ، ولما لحت أن عيونهم قد انصرفت عني ، وكانت أذهانهم قد ألفت وقوفى عند مفرق الماشي ، انعطفت بسرعة البرق إلى ممر جانبي ومشيت فيه مسرعاً ، ثم تلفت فلم أجد خلفي أحداً ، وكيف يمكن للحاق بي وهم لم يلحظوا بعد أنني تحركت



منظر جانبي لمستشفى الدمرداش ، ويظهر المغسل في آخر الصورة إلى يسار القارئ ، حيث كان القفز والفرار من أمام النافذة

أو ابتعدت عن مرمى نظرهم ، ثم مرقت من الممشى إلى الحديقة، كالطيف المارق ، وأسرعت إلى المكان الذي عينته للتسلق والفرار ، وهو درج حديدي يوصل إلى المغسل ، فتقدمت إلى السور فعالوته ، ثم ألقيت نظرة إلى الشارع الجانبي فلم أجد سائلاً ولا سمعت حركة ، لأنني خفت أن أقفز فيشعر بي أحد المارة ،

كأن يرى شبحي مثلاً أو يسمع « الدبة » على الأرض فيقبض عليّ وينادى البوليس ، ومن الطبيعي أن يمسكني أي إنسان يمر في تلك اللحظة وهو يرى شبحاً يقفز من السور إلى الشارع لأن أول ما يخطر بباله أن هناك لصاً أو مجرمًا يفر من جريمة ، والخلاصة أن أقل غلطة تقع كانت تفسد عليّ كل شيء . وكان الظلام يسربل المستشفى ويسود المدينة إلا من بقايا ضوء رمادي خفيف كان القمر الغارب يلقيه على الكائنات ، وكان السكون شاملاً كاملاً ، إلا من ديب بعيد لبعض السيارات القليلة التي كانت تمر من شارع الملكة نازلي . وعند ذلك أدليت نفسي عن السور ، ولما أصبحت معلقاً ورجلاي إلى الأسفل ، أعدت إلقاء النظر إلى الطريق

فلم أجد أحداً ولم ألمح أحداً ، وهنا دقت ساعة البريد ١٢ دقة مؤذنة بانتصاف الليل . فأفلت
يدى فإذا بي أسقط على الأرض مقرفصاً ، فبقيت حيث أنا وعلى تلك الحال لحظة بدون أن
أنهض أو أن أتحرك ، حتى إن مر بي أحد ظنني عابراً يقضى حاجة ... وإن أطل أحد من
المستشفى كان ذلك أستر وأبعد عن العيون . فالتفت يميناً وشمالاً فإذا بي أسمع حركة بين أشجار



ولبست الطاقية ووضعت النظارة ولففت عنقي
وصدرى باللفحة الخ

مقبرة قديمة للأقباط واقعة أمام المستشفى
فظننت أن شخصاً يراقبني ، أو أن المصادفة
سأقت أحد لصوص المقابر إلى سرقة ما في تلك
القبور ، فوقع نظره على قهرول منصرفاً عن
إيذاء الأموات ليؤذي الأحياء ! فحمد دمي
وجف ربيقي ، فتطلعت إلى هنا وهناك فلم أر
أحداً ، ففهمت أن طائراً خبيثاً من طيور الليل
قد قفز في تلك اللحظة من غصن إلى غصن .

عند ذلك وقفت ومددت يدي إلى جيبتي
فأخرجت منه الطاقية السوداء فلبستها وإلى
النظارة الغبراء ذات الإطار الغليظ فوضعها
على عيني ولم أنس القطن ... ثم لففت نفسي
بالمعطف وباللفحة حول عنقي وصدرى ، وبعد
ذلك مشيت نحو الشارع العام فاجتزته ودخلت
حي الوابلية القديم ، وتغلغلت في حاراته الضيقة
المظلمة ...

جرى ذلك كله بسرعة البرق ، من حين
أن انعطفت عن أعين شرطة المستشفى إلى أن
بلغت المأمن . لقد كانت دقائق قليلة جداً ،
ولكنها كانت بالنسبة إلى كأنها الدهر كله !

وكان أول شيء صنعته بعد تيقني من النجاة من الشرطة أنني أشعلت سيجارة وأنا أمشي في الحارات والدروب ثم أخذت أفكر ، أفكر لا في حالي ولا في نفسي ولا في أهلي ، ولكن في حالة أولئك الجنود الأبرياء ، وفي العقاب الذي سينزل بهم بسببي ، ثم تصورتهم وقد انتهبوا من غفلتهم وهم يظنونني دخلت إحدى الغرف فيتفقدونها كلها ، ثم يظنونني رجعت إلى غرفتي فلا يجدون فيها أحداً إلا الأمتعة والأضواء المشعشة في جنباتها والمصحف الذي تركته على الوسادة مفتوحاً . ثم يظنونني في محل الغسل ، ثم يطوفون الحديقة والممشى ، ثم لا يتأكدون من إفلاتي إلا عند الفجر ، وبعد ذلك يقبل الجنود بعضهم على بعض يتلاومون وينذر أحدهم الآخر بسوء المصير وبأنه المسئول ، ويصور له البلاء الذي سينزل به وإنه لعقاب شديد ، إلى أن يجمعوا كلهم على أن المسؤولية ستتحصر في الجندي المسكف بحراستي وهو الذي أمضى على ورقة « الدورية » بأنه « تسلمني » ، فكنت أنا لم لهذه الخواطر وبالأخص لهذا الجندي وأشعر بالأسى من أجله ، وما كان يعزيني شيء في تلك الساعة إلا أنني نويت قبل أن أهرب أن أعوض عليه يوماً ما ، بشيء يخفف بعض نكبته ، ولذلك أخذت اسمه قبل الفرار ، ولكن من لي بمن يطمئن هذا الجندي البريء « سيد حسن البلاح » من بوليس روض الفرج إلى حسن نيتي وأنا ساعوض عليه بعض ما نزل به ويخفف من همه ويهون عليه مصيبته !

مرت هذه الخواطر في بالي فزاد قلقي على هذا الجندي الذي سيتهم بأنه تواطأ معي على الفرار وأنه خان الحكومة ، وخان الدولة ، وفرط بواجبه ، بينما هو برئ وأنا السبب في اتهامه ومعاقبته والإساءة إليه فلا حول ولا .

بعد الفرار

قضيت فترة وأنا أمشي في حارات حي العباسية ومن شارع إلى زقاق ، أسير على غير هدى فإذا بي أمام دار صديق الشيخ علي سرور الزنكلوني رحمه الله وبرد ثراه ، على بعد أمتار من مركز بوليس العباسية أو « قسم الوايلي » الذي يرسل الحرس من عنده إلى المستشفى ، فجنود هذا المركز البوليسي كلهم يعرفونني حق المعرفة ، فلم أرتعد ولم يخطر في بالي أن أحداً

منهم سيعرفني ، لأن الشكل الذي تقمصته في تلك الساعة ، بالباطو والطاقيّة والنظارة لم يسبق للجنود أن رأوني فيه ، لأنهم يعرفونني بالطربوش والبيجامة والعباءة أو الروب . والفرق بعيد بين الشكّين ، كما أن سواد الليل مع استحالة اقتراب من يهرب من البوليس ، من مركز البوليس ، كان يطمئن فكري من هذه الناحية ، وعلى كل حال فما أظن أهل بوليس الوابلي قد دروا بمحادث الحرب ، لأن تفتيش المستشفى يحتاج إلى وقت ، وأنا لم أغادره إلا منذ دقائق ...

ذكريات ...

وقفت أمام دار الأستاذ الزنكلوني أتأملها وأتذكر أيامي السالفة معه في هذه الدار الكريمة المضيافة التي كانت كعبة أبناء العالم الإسلامي ، يحج إليها طلاب الحاجات ومنتجعوا العلم ، فكم من أيام سعيدة قضيتها في مجلس هذا الصديق الكبير والإمام الحكيم الذي ما غشيت مجلسه الوقور وأنا مهموم إلا خرجت من عنده وأنا مسرور محبوب ، ثم تذكرته في أيام مرضه الأخيرة وكيف كان يحتجب عن جميع الزوار إلا عني أنا ، وكان منذ ربع قرن يناديني بيا حبيبي ، وكنت إذا طرقت الباب وأطلت الخادمة وسألتني من أنت ، فأقول لها قولي للأستاذ « حبيبك » فتذهب إليه وتقول له إن شخصا اسمه « حبيبك » جاء يسأل عنك ، فقد كانت الخادمة تظن أن هذا هو اسمي ، فيضحك الشيخ رحمه الله ويأمرها بأن تسرع وتفتح لي الباب .

وقد ذكرت أن آخر لقاء بيني وبين الشيخ كان يوم القبض عليّ وهو مريض إذ أننى زرته عائدا وأنا لا أدري أنه لقاء الوداع ، فكرت في هذا كله وأنا أمام الدار فشعرت بخشوع ثم تلوت أم الكتاب وأهديتها إلى روحه الطاهرة .

إلى الأمام ...

وبعد ذلك تابعت السير ، فاجتزت الشارع العام من جوار مركز البوليس ! ولا أدري ما الذي جعلني أقرب منه فتذكرت الفراش وتهافته على النار التي تحرقه ! وتذكرت رأي « لمبروزو » عالم الإجرام النفساني الذي يرى أن المجرم لابد من أن تجذبه رجلاه إلى مكان الجريمة ! وهنا ضحككت من هذا الخاطر لأننى لم أرتكب جريمة ولا فررت عن جثة قتيل ولم أهرب من مركز البوليس ، بل أنا مار من هنا وعابر سبيل ، والصدفة وحدها هي التي ساقتنى إلى هذا

الطريق. وتغلغلت في حي العباسية الشرقية، أمشي في الشوارع المهادنة الساكنة، وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. وأخيراً صحوت إلى نفسي كأنني استيقظت من حلم مروع مزعج، وأخذت أسألها إلى أين؟ نعم إلى أين المسير وكيف المصير؟ ستطلع الشمس بعد ساعات ويكون بوليس القاهرة كله على علم بهربي، ولكن هذا الخاطر لم يزعجني كثيراً، لأنهم على الغالب سيكتفون بإعلان الخبر سراً على دوائر الشرطة وإدارة الجاسوسية التابعة «للاتلجنس سرفيس» أو الجستابو الإنكليزي الذي بز ما يقال عن الجستابو الألماني في ارتكاب الجرائم مع الأعداء، كما أنهم لن يعلنوا هربي في الصحف حتى لا يشمت الناس بالحكومة وبالإنكليز ولا يفرح أصدقاؤى بنجاتي، وفي هذا الإبطاء في تعميم الخبر فائدة لي تقلل من شدة الطلب وتخفف عني مشقة التخبيط عند الإمعان في الهرب...

أخذت أفكر في مصيري بعد أن فررت وأنا خالي الذهن عما بعد الهرب. كأن المسألة كانت كلها عبارة عن هرب فقط، بدون أن أفكر في أي شيء آخر، لا كيف أختبئ ولا كيف أختفي، ولا إلى أين المهرب! ومرت الخواطر في ذهني، وتلاحقت الأفكار في بالي، فكانت تمر سراعاً كأنها شريط السينما وهو يكر بأسرع من البرق الخاطف...

فكرة لها ما بعدها

وهنا مرت بي آخر سيارة أوتوبيس قاصدة ضاحية المطرية وهي بعد منطقة الزيتون، فركبتها ولم أندم على ذلك ولم أقل في نفسي إن سيارة التاكسي كانت أضمن، فقد تكون الشرطة ترقب سيارات التاكسي الآن، ولكن لا، بل أن الخطر من ركوب الأتوبيس كان أعظم، لأنني قد أصادف جندياً من بوليس الوايلي منصرفاً إلى داره فيركب إلى جانبي وهنا الطامة الكبرى... كانت هذه الخواطر تزعجني وكأنها كانت تأكل أعصابي، ولكن السيارة ظلت منطلقة في طريقها تسابق الريح وأنا أنصورها تحفز زحفاً كاد أنزل منها وأدفعها بيدي لتسرع في جريها قبل أن يركب أحد رجال بوليس الوايلي الذي تخيلته، وأنه منصرف إلى داره، ثم يجلس بجواري وقد يسألني عن الساعة فأجيبه فيعرفني من صوتي، فلا يكون نصيبي بعد ذلك إلا العذاب والإهانة في سجن «التخشبية» والعياذ بالله؛ وترك السيارة بعد

مسير ربع ساعة ، فكنت أتخبط في سيري وأنا أحترق شوارع حي المطرية في الظلام الدامس ، فكنت أمر من أمام مركز بوليس المطرية الذي لمحتته من بعيد فارتد قدمي إلى الخلف ثم واصلت السير إلى ناحية أخرى فلمحت وهج سيجارة يشعشع في ذلك الظلام ثم يخبو ، فألقيت التحية على ذلك المدخن لأسأله عن شارع رشاد ، فإذا به من رجال البوليس الليلي : فاضطربت من هذه المصادفة ، ولكني لم أراجع بل سألته عن الشارع فأرشدني إليه ، غير أنني لم أجد المنزل الذي أريده . فكيف ذلك وأنا أعرف الشارع وأعرف الدار ؟ ولكن إرادة الله أعمت بصيرتي عنها ، هي دار صديقي الحميم المجاهد الشيخ ابراهيم آل طفيش العالم الجزائري نزيل مصر ، فهو رفيق جهاد وزميل صراع مع الاستعمار ، فقد طارده فرنسا في الجزائر وطارده إلى تونس ثم أخرجته منها إلى مصر ، وها هو لا يزال إلى الآن يعاني آلام الغربة والبعد عن الأهل والوطن .

حيرة شديدة

ودقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل وأنا أسير على غير هدى ، بدون أن أقر على قرار أو أستقر في مكان ولو إلى الصباح ، ولكن هل ينقذني مجيء الصباح ؟ وإلى أين أذهب بعد مجيئه ، بل إن عذابي سيزداد ومتاعبي ستعظم في النهار ، فأنا في الليل أستطيع أن أتجول كما أريد مستتراً بالظلام ، وأما في النهار ...

كانت هذه الأفكار والخواطر تدوى في دماغي دوى الطبل ، فأشعر كأن رأسي قد انفلق وأن أعصابي قد تحطمت ، وفكرت في الرجوع إلى المدينة ولكن إلى أين ؟ بل كيف السبيل للوصول إلى القاهرة ، والمواصلات معها قد توقفت ، فلا سيارة تكسي ولا سيارة أتوبيس ، ولا عربة خيل ، وماذا تصنع عربة الخيل في مسافة بعيدة كهذه فلا تصل المدينة إلا في الصباح !

وهنا خطر ببالى خاطر ، وهو أن أبيت الليلة عند صديق القديم الأستاذ أحمد حافظ عوض بك^(١) وكنت قريباً من داره ولكن كيف يجوز أن أطرق داره في مثل ذلك الوقت

(١) هو الصحافي الكبير المؤرخ ، والأديب المنشئ البليغ المتقن ، وكان قبل ذلك محرراً بمجريدة =

وهي مملوءة بالأسرة والحفدة والخدم فلا بد من إحداث ضجة إن ذهبت إليه ، وهذا قد يؤدي أيضا إلى كشف أمرى ، ثم يخطر ببالى أن أذهب إلى منزل صديق القديم عزيز على المصرى باشا^(١) وهو منى على بعد ميل واحد فى ضاحية عين شمس ، ولكن المنزل يقع فى مزرعة واسعة والمنزل فى أقصاها ، فالدق أو التخبيط على باب الحديقة الخارجى قد لا يؤدي إلى نتيجة بل تكون النتيجة أن أرجع خاسئاً محسوراً .

وجدتها ...

وفى النهاية خطر لى خاطر صممت على تنفيذه وهو أن أذهب إلى اتجاه القاهرة مشيا ، فإن رأيت سيارة أجرة أو عربة خيل ركبتها وليكن ما يكون ، ومشيت فإذا بى عند محطة السكة الحديدية ، وإذا بقطار بضاعة كان واقفا لأمر ما ، فصعدت إليه وقبعت بين الأكياس وبعد دقيقة مشى القطار ولكن نحو السويس لأنحو القاهرة فاندعرت من عمى القلب الذى أصابنى ، وقفزت منه راجعاً إلى الشارع مستعيذاً بالله من عذاب هذه الليلة السوداء ، فقد مر ببالى بعض ما كان يصيبنى من بلاء لو سهوت لحظة واتجه بى القطار إلى السويس حيث تمتد معسكرات الجيش البريطانى على طول الصحراء ثم يقف أمام المعسكرات واحداً بعد الآخر لتفريغ ما يحمله إلى الجيش من عتاد وأغذية ثم قد تصورت أنهم عثروا علىّ وأنا هارب من صنائعهم ومنهم ، فيظنوننى جاسوساً وهناك الطامة الكبرى ، وكيف أستطيع أن أقنعهم ببراءتى وأنى غلظت بركوب هذا القطار ، وهل يعقل أن شخصاً عنده مسكة من عقل أن يركب قطاراً على سبيل السهو والغلط ؟ ومن هو ؟ إنه غريمهم الهارب من السجن والعياذ

== المؤيد ثم أصدر جريدة كوكب الشرق التى خدمت العالم العربى ونصرت قضايا الشعوب المظلومة جميعاً ، ثم أصبح بعد أن اعتزل الصحافة عضواً بمجلس الشيوخ وعضواً بمجمع اللغة العربية ، وهو صديق وفى على جانب عظيم من مكارم الأخلاق وحفظ الوداد ونصرة الأصدقاء .

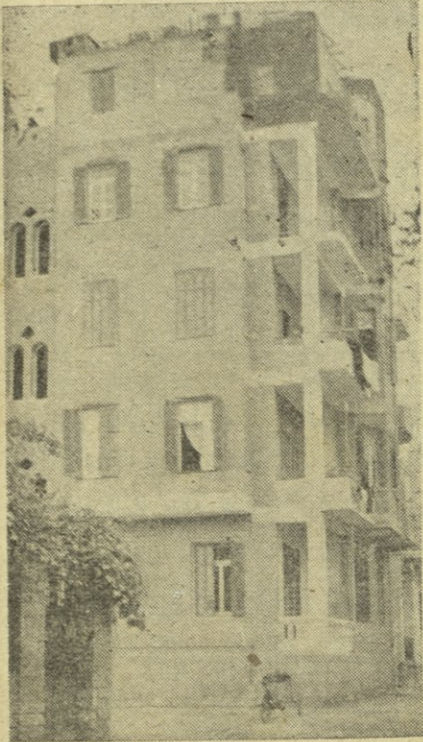
(١) هو القائد العسكرى الممتاز بجهاده القديم وعلمه الغزير واطلاعه الواسع ، فهو أحد الذين قادوا الجيش العثمانى سنة ١٩٠٩ حين زحف على استانبول وأنزلوا السلطان عبد الحميد عن عرش آل عثمان ، وكانت المؤسس لجمعية العهد التى أعلنت حقوق العرب فى الدولة العلية مع بقائهم تحت ظلها ، وكانت آخر وظائفه الرسمية منصب « رئيس أركان الحرب الجيش المصرى » ولعزير باشا تاريخ طويل عريض يستغرق كتاباً بحجم هذا الكتاب على الأقل .

بالله . وحمدت الله كثيراً على أن ألهمني الانتباه لحركة القطار وكيف أتجه ، وكيف أننى قفرت منه قبل استحالة القفز لو أسرع قليلاً فقط ، وفى الحقيقة أن جلدى قد اقشعر من تلك الخواطر المخيفة . وإذا بسيارة أجرة « تاكسى » قد مرت فركبتها وقلت للسائق « اذهب من فضلك إلى باب الحديد عند قهوة البوسفور أمام منزل الدكتور فلان » وسميت دكتوراً لا وجود له « وكان قصدى من هذه التعليمات المسهبة أن لا يتشكك السائق بى وأنا فى ملابس غير معتادة وفى مثل ذلك الوقت المتأخر من الليل ، أو الوقت المبكر من الصباح .

ولما وصلت نزلت من السيارة ثم أخذت غيرها وذهبت إلى شبرا حيث يقع فيها منزل صديق العالم الفاضل الشيخ يوسف عبدالرزاق المشهدى أحد علماء الأزهر والمدرس الآن بكلية أصول الدين وقد مر ذكره فى هذه المذكرات وخصوصاً عند تقديم العريضة الكبرى إلى ديوان جلالة الملك فى قصر عابدين ، حيث كان الشيخ بارك الله فيه من موقعها ومن

الواضعين لها . ويقع منزل الشيخ يوسف بالقرب من منزلى ، فصعدت وطرقت الباب وكانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد منتصف الليل فإذا بالأستاذ . يفتحه بنفسه فلما رآنى لم يعرفنى لأنه لم يخطر بباله أن أكون أنا الطارق ، فبادرت إلى رفع النظارة عن وجهى وأسمعته صوتى فكاد يطير فرحاً ثم أخذ يهتئى بالسلامة ويسألنى كيف أطلقوا سراحي فذكرت له أننى هارب ...

كنت أظن الشيخ يوسف سيضطرب من هذا النبأ لأن إيواء الهاربين من الحكومات مما يسبب متاعب كبيرة ومخاطر كثيرة وتخريب البيوت ، وخصوصاً فى أيام الحرب ، ولكن الشيخ يوسف لم يضطرب ولم يجزع بل ضاعف الترحيب وبالغ فى التكريم ، ثم أحضر لى طعاماً وشاياً فأكلت وشربت لأنى لم آكل



منزل الشيخ يوسف المشهدى
وهو فى الطابق الرابع من هذه العمارة

شيئا طول ذلك اليوم الذى قضيته مشغول البال فى التفكير والتدبير ثم فى الحرب ...
وعند الفجر استلقيت على الفراش ونمت إلى ما بعد طلوع الشمس . ولما استيقظت وجدت
الأستاذ قد جهز طعام الفطور فأكلنا ، ثم سأله ماذا قال لأهل بيته عن الذى طرق الدار
بعد منتصف الليل فقال إنه ذكر لهم سببا اقتنعوا به ...

ماذا نصنع الآن ؟

جلست والأستاذ نتحدث عن المستقبل وما هو البرنامج ، فقلت له إننى أريد قضاء هذا
اليوم عندك وفى المساء أغادر القاهرة إلى جهة أخرى ، ثم طلبت منه عمل الترتيب اللازم لتمضية
ذلك النهار عنده ، لأن الدار مملوءة بأفراد الأسرة من بنين وبنات ، كما أن الدار عرضة فى كل
لحظة لحدوث الزائرين له ، أو الزائرات لأهل الدار ، أو أرباب الحاجات ، فبادر الأستاذ إلى
السماح للأسرة بزيارة دار والدها وإعداد غداء هناك لضيوف سيتغدون هنا ، ثم كلفت الأستاذ
أن يساعدنى على التنكر فأعطانى جبة جديدة وقفطانا حريريا جديدا فأبليت ذلك وطلبت
كاكولة عتيقة وجلائية عادية وعمامة قديمة من المتروكات وحذاء أزهرى قديما لأن ارتداء الألبسة
الرثة أوفق لى فى هذه الظروف فهى لا تسترعى النظر ، لاسيما وأنا مقدم على حياة خشنة صعبة
لا يقدر صعوباتها إلا من ذاقها وعانها ، وباللهول من حياة الهاربين من الحكومة ، وخصوصا
من دول الاستعمار ، ولا سيما إذا كان المطاردون من أبناء جنسه ولحساب الاستعمار ...

وبعد ذلك رجوت الأستاذ أن ينزل إلى السوق ويشتري لى بعض الأشياء ولم أنس
السجائر . ثم رجوته أن يذهب ويزور صديقنا الشيخ إبراهيم إطفيش ويدعوه للغداء معنا
« لمناسبة سارة » بدون أن يذكر له أننى هربت ، ولا أننى عنده ، وأن لا يقبل له عذرا .
وغادر الأستاذ منزله بعد أن اتفقنا على أن أقبع فى إحدى الغرف أستمع للراديو وأشغل
نفسى فى المطالعة بدون أن أرد على أحد ممن يطرقون الباب ، ولو كسروا الباب !

تفكير ورسم خطط

بقيت وحدى أعد الدقائق انتظارا لأوبة الشيخ يوسف . وأخذت أفكر . ياترى ماذا
حدث فى المستشفى الليلة بعد فرارى ؟ وماذا قال المدير والأطباء والمرضى والزلاء

المحبوسين ، وماذا صنعت الحكومة ؟ وهل هاجموا دارى للبحث عنى فيها ؟ لاشك أنهم مجانين إن فعلوا ، لأنه لا يعقل أن أهرب منهم ثم أرجع إلى المنزل .

وسمعت جرس الباب يقرع فاقشعر بدنى لأنها أول مرة أسمع فيها جرس الباب يؤذن بأن هناك من يريد الدخول ، أو اقتحام الخبأ كما تصورت ! ولكنى لم أزد ، وظل الجرس يقرع فأخذت الراديو وطويت الكتاب وأخذت أسمع إلى أن شعرت بأن الطارق قد ضجر واقتنع بأن الدار خالية وأن أهلها فى الخارج فانصرف ؛ ثم سمعت وقع أقدامه تنزل الدرج ، وكم تمنيت رؤية الطارق الذى عاد بخفى حنين بعد أن روغنى وأرهدف أعصابى .

ولم أكأعود إلى المطالعة حتى دق الجرس ثم دق الباب نفسه ، فرجعت إلى الإنصات ، ولكن بدون أن يعتربنى هذه المرة شئ من الاضطراب والقلق اللذين شعرت بهما فى المرة الأولى ، ولكنى أزعجت على كل حال ، وبعد قليل سمعت وقع أقدام الطارق وهو يعود أدراجه وينزل . فتنفست الصعداء ، ورجعت إلى التفكير فى حالة أهل بيتى ... إن منزلى قريب من هنا ولو وقفت فى الشرفة لرأيت سطح دارنا إذ أنها لا تبعد عنى الآن أكثر من مئتى متر ، ولكن هيهات أن أطل برأسى من نافذة أو أفق فى شرفة ...

ثم رجعت إلى التفكير والتقدير ، وتلاحقت الأفكار والافتراضات بسرعة وكثرة ، فإذا بالباب يدق والجرس يقرع فلعنت الباب ولعنت الجرس ولعنت هؤلاء الذين يطرقون أبواب الناس طول النهار ، وأخذت أنصت ثم تجرأت وتلصصت واقتربت من باب الصالون الموصل إلى الدرج وهو غير باب المنزل ، لأرى من الناحية الأخرى من هو هذا المشؤوم الذى جاء ينغص على عزلتى ؟ فإذا به « مبيض النحاس » ولما يئس من الجواب انصرف ... ثم اندق الباب من جديد فتطلعت من خرق المفتاح فإذا به « المسكوجى » يريد أخذ الملابس للـكى ، ثم انصرف ، وقد تكرر دق الباب بعد ذلك أربع مرات أخرى وأنا لا أرد ولا أتحرك لهؤلاء الملاعين الذين هزوا أعصابى التى لم تعتد مثل هذا العذاب ...

ماذا جرى في المستشفى وفي منزلى ؟

أظن أنه قد أصبح من حق القارئ أن يعرف ماذا جرى في المستشفى وما حدث في الدار بعد هربي . صحيح أنني لم أدر بما كان إلا بعد مدة طويلة ، ولكنني أفضل أن أقصه الآن حتى لا يطول الانتظار ، فقد بلغني أن الجنود قتشوا المستشفى كله ، داخلا وخارجاً وقد كتموا الخبر عن ولاية أمورهم على أمل العشور على ، وظلوا يبحثون حتى مطلع الشمس ، ولما يئسوا ، وقع بينهم ما توقعته من بحران ومن إلقاء بعضهم المسؤولية على بعض ، إلى آخر ما تخيلته وسردته آنفاً ، وبعد ذلك أبلغوا إدارة البوليس العامة وهذه أبلغت إدارة الأمن العام ووزارة الداخلية ورئيس الوزراء الذى غضب وشخر ، ولعله سب الشمس والقمر ... وهرع بوليسهم إلى المستشفى يحقق ويدقق ، وكان أهل المستشفى من المدير والأطباء إلى المرضى والممرضين قد تمنوا لى السلامة وشمتموا بالحكومة التى تحبس الناس بلا سبب إلا إرضاء الإنكليز !

وقد انحصرت المسؤولية فى الجندى سيد حسن البلاح ، فقبضوا عليه ثم حاكوه وحبسوه ستين يوماً أعانه الله . وأما حوادث منزلى فقد طرقيه فعلاً وما أقل عقولهم ، وكان من ضابط البوليس المعهود محمد يوسف أنه استدعى زوجى لى إدارة الشرطة وحقق معها كأنها مسئولة عنى قانوناً أو كأنها كانت موكلة بحراستى من الهرب ، وهم لذلك يحققون معها !! وقد بلغنى أن هذا الرجل كان غير مهذب فى تأدية مهمته الكريهة ، لأنه أخذ يهدد ويطيل لسانه على أعداء الدولة كأننى عدو للدولة ، ولكنى أعذره لأنه يعتبر الدولة التى يغضب لها هى دولة الإنكليز ...

وبعد أن روعوا زوجى أحاطوا الدار بجواسيسهم فوضعوا (مخبراً) عند الباب يجلس ليلاً ونهاراً مع البوابين كأنه منهم ، وكم تضايقتوا منه ، كما أجلسوا جاسوساً فى قهوة مقابلة للنوافذ ، ووضعوا مخبراً ثلثاً فى التهوية المقابلة للواجهة الجنوبية ، وبذلك حاصروا الدار وأخذوا ينتظرون أبوتى إليها ، فما أسخف هذه الوسائل ، نعم لأنها أساليب بدائية عتيقة ساذجة ، وإلا فهل يعقل أن مثلى يدب حول الدار فى هذه الظروف ...

ثم لجأوا إلى وسيلة مضحكة وهي أن ضباط الشرطة طافوا على جميع المنازل في العمارة التي نسكنها وفيها أكثر من أربعين شقة يسكنها أربعون عائلة ، وأخذوا تعهداً مكتوباً من كل أسرة في العمارة بأن تخبر أقرب مركز بوليس عنى بمجرد رؤيتي أو شعورهم بأنى موجود في العمارة ! ثم دفعهم السخف إلى ما هو أغرب وأدعى للسخرية ، وذلك أنهم طلبوا من زوجي أن توقع لهم مثل هذا التعهد البديع ! فلم يسع زوجي إلا الابتسام من هذا التكليف ، وقالت للضابط هل يعقل أن أخبركم بجيء زوجي إلى المنزل وأمكنكم من القبض عليه ... والظاهر أن الضابط كان أعقل من رئيسه الذي كلفه بهذه المهمة ليقوم بها بكل همه ! فقد ابتسم وقال والله ياسيدتي عندك حق ولكنهم أمروني بذلك فأرجوك أن تمضي على هذا التعهد ولا بد من ذلك ، ولما كانت زوجي قد عرفت من التجارب التي مرت بنا أن البوليس في بعض الأحيان يكون لا عقل له ، فقد أمضت على الورقة وهي تبسم ساخرة وانصرف الضابط بأوراقه ، بينما كان سكان العمارة يستهزئون من هذه الإجراءات ويتندرون عليها ويقول بعضهم لبعض والله لو جاء فلان لأخفيناه عندنا .

عودة الشيخ يوسف

ولنرجع إلى ما كنا فيه ، فقد بقيت في دار الشيخ أنتظر أوبته وباب الدار يطرق من حين إلى آخر وأنا لا أأرد حتى ضجرت من كثرة الطارقين والطارئين فضاقت صدري وهاجت أعصابي وحلفت في نفسي بأن باب هذه الدار ما شاهد مثل طراق اليوم في كثيرتهم . وجاء الفرج بغتة وسمعت صرير مفتاح الباب وإذا بالشيخ يوسف يدخل فرحبت به ترحيب الشقيق بالشقيق بعد طول الغياب ، ثم سألته عن مهمته ، فقال إن كل شيء يجري على مايرام وأن الشيخ إبراهيم إطفيش قادم إلينا بعد ساعة ليتغدى معنا . ففرحت ثم قصصت على الشيخ يوسف حوادث باب الدار وأنه اندق نحو عشرين مرة ، فضحك وقال إنها مصادفة غريبة لأن باب داره لم يندق بهذه الكثرة حتى ولو جمع دقائق أسبوع كامل .

حادث ...

وهنا قرع جرس الباب وسمعنا وقع أقدام لأكثر من شخص واحد ، فبهتنا ولم يسمع الشيخ أن ينكر نفسه بأن يمسك عن الرد لأنه دخل العمارة الآن وقد يكون هؤلاء الناس قد رأوه وهو قادم ، أو أن أحد أطفال الحارة قد رآه ولما سأله القادمون قال لهم إن الشيخ يوسف قد صعد الآن ، إذن فلا بد للشيخ من فتح الباب وأن يقابل القادمين ، وأما أنا فقد ذهبت إلى الصالون ، فتصدرته وأنا بالعمامة والكاكولة ، وأما الشيخ فقد فتح الباب وسمعت رجلاً يقول له إنهم يريدونك في «الكركون».. أى مركز البوليس والعياذ بالله . وسمعت الشيخ يغلق الباب الخارجى ويغادر الدار معهم ، فجمد دى ووقف تنفسى ، ثم تطلعت من شق النافذة فإذا بالشيخ يوسف يسير فى الشارع ومعه رجل بوليس ورجل معمم ، فلم أشك فى أنه شيخ الحارة .

ماذا يراد بالشيخ يوسف ؟ أهناك شك حصل عندهم فأرادوا أن يسألوه ؟ ولكن لماذا لم يهجموا على الدار كعادتهم عند التفتيش على الهاربين ؟ حقاً إن هذا الخاطر قد أعجبني وخفف عني ، وبعد ساعة كانت أطول من الدهر رجع الشيخ يوسف فسألته ما الخبر ؟ فقال إنهم يندروننى بوجوب تسديد ضريبة الراديو ... فقلت لعنة الله على الراديو وعلى تصرفات «الميرى» الحمقاء التى نشفت دمنا اليوم بسبب مسألة تافهة ، وإلا فهل من المعقول أن يطالب إنسان بضريبة الراديو أو غيره بواسطة الجر إلى مركز البوليس !

مباغطة

لم يمر فى الشيخ إبراهيم إطفيش حين وصل إلى الدار ليتغدى معنا ، مع أننى وقفت له عند وصوله وسلمت عليه باليد ورحبت به ، ثم جلس وجلست ، وهنا سألنى هل حضر بقية المدعوين فقلت له لم يصل أحد بعد ... جرى كل ما تقدم بدون أن يخطر ببال الشيخ إبراهيم أن الذى يرحب به ويحدثه هو صديقه الحميم أبو الحسن . لقد إطمئنت على نفسى لما رأيت أن أقرب الناس إلىّ لم يعرفنى وأنا بهذا التنكر البسيط البدائى ، فكيف يكون الحال عند ما يأخذ شكلى طابع المشايخ وتستدير لحيتى ؟

عند ذلك رفعت النظارة عن وجهي ، وحدثته فلم يلاحظ جيداً ، وله العذر لأنه يعرف أنني في السجن وكيف يخطر بباله أنني خرجت ولبست العمامة والجبة وأنني الذي يحدثه؟ وأخيراً حملت في الشيخ إبراهيم وقلت له ألم تعرفني بعد؟ فتطلع إليّ جيداً بعد أن سوى نظارته وصاح (أبو الحسن) ثم هجم عليّ يقبلني ويعانقني ويهنئني بالسلامة ويسألني عن حالي وأنا أجيبه فلما عرف أنني هارب ازدادت عنايته بي وأقسم لي أنه وآل بيته كانوا يدعوني بعد كل صلاة ، وها أن المولى سبحانه وتعالى قد استجاب لهم وأقذني من القوم الظالمين . وهنا عاد الشيخ يوسف وجلس معنا . وجاء الطعام فتغدينا غداء سخياً جيداً لم أذق مثله منذ شهور . وأخذنا بعد الطعام نسمر حتى الغروب ، وبعد ذلك ودعت الشيخ يوسف فقال إلى أين؟ فقلت إلى أرض الله الواسعة التي ضاقت بي اليوم ، وأنني سأنام عند الشيخ إبراهيم وفي الصباح سأقصد الريف ، فقال وكيف نطمئن عليك؟ فقلت لن أعدم وسيلة أطمئنك بها عني . وتركت الباطو والحذاء الا فرنجي عند الشيخ يوسف ، وأما البيجامة فقد أبقيت عليها ولبستها تحت الجلالية وأما الطاقية فقد جعلتها في عبي . وغادرنا دار الشيخ يوسف فأبى إلا أن يصحبني إلى الشارع ثم نادينا سيارة أجرة فركبت ومعى الشيخ إبراهيم وقصدنا حي القبة .

الجندی المنكوب وشكر العجائي بك

وقبل أن أغادر منزل الشيخ يوسف طلبت ورقة وكتبت إلى الدكتور أحمد العجائي بك مدير مستشفى الدمرداش كتاباً شكرته فيه على حسن رعايته لما كنت عنده في دار الشفاء وإنني آسف لعدم تمكني من شكره شخصياً لكوني لم أخرج من المستشفى كما يخرج بقية الناس من المستشفيات ... وقلت له إنني عند رجوعي من خارج القطر المصري سيكون من أول واجباتي القيام بزيارته وتحيته ، ثم رجوته إن استطاع أن يطمئن الجندی سيد حسن الملاح بأني سأعوض عليه يوماً ما بعض ما يخفف بلواه وأما الآن فلا أملك له إلا الدعاء وقد وضعت هذا الكتاب في غلاف ووضعته في صندوق البريد .

عند السيد العتائي

وقبل أن نصل إلى المنزل ١٠٦ في شارع الملك صرفنا السيارة ومشينا إلى دار السيد محمد

العتابي ناظر تكية الكاشني نزيل مصر وهو صديقي ومن أجل علماء مراکش وأعيانها فأردت أن أسر خاطره بسلامتي لأنه كان يدعو لي في أيام سجنى ، بل أنه أوعز أيضاً إلى جميع نزلاء التكية من الزهاد العبّاد والصالحين بالدعاء لي وتلاوة سورة «يس» مئة ألف مرة . ولما وصلنا الدار طلبت من الأستاذ إطفيش أن يسبقني ويستطلع من يزور السيد في تلك الساعة ، فعاد ومعه الأستاذ العتابي الذي عانقني ورحب بي وهنأني بسلامتي فسألتهم عنده فقال هناك الأستاذ محمد المهيأوى « رحمه الله » وإن شئت أن لا تقابله فنحن نجلس في غرفة أخرى ، فقلت بل نجلس مع المهيأوى فهو صديق قديم وسيسر بسلامتي بلا شك . ودخلنا وشربنا القهوة مع المهيأوى بدون أن يعرفني فازداد سرورى بإتقان تنكرى ثم رفعت النظارة ووضعت العمامة عن رأسى وحييته فعرفنى وقام فعانقنى وهنأنى بالسلامة ثم سألنى عن حالى فقصصت عليه قصة الهرب مختصرة وأننى الليلة سأغادر الأراضى المصرية وكنت قد تفاهمت مع الأستاذ إطفيش بأننى أنوى النوم الليلة عنده وأنه يحسن به أن ينصرف الآن ويسبقنى إلى داره لأنى لا أريد أن يعرف أحد كيف أسير مطلقاً مهما بلغت درجة صداقته لى ومهما كان موثقاً به .

وانصرف الشيخ إبراهيم وبعد ساعة نهضت لوداع الصديقين ، فعزما على النوم عندهما فشكرت لهما ذلك الفضل ، وغادرت الدار فصحبني المرحوم المهيأوى حتى محطة سكة حديد المطرية ، فقال إلى أين؟ فقلت إلى مصر الجديدة أولاً ، فودعنى وهو يبكى رحمه الله . لقد فضلت الخروج من هذا الاتجاه لأنه لا يخطر ببال البوليس أننى أسلكه فى خروجى من العاصمة ، فهو قد طوق محطة مصر الرئيسية ، وطريق شبرا إلى الريف ، وطريق الفيوم جنوباً . فتركته يرسم خططه المعتادة وسلكت هذا الطريق غير المطروق ، والظاهر أننى أصبت فى هذا الاختيار لأنى أستطيع أن أنفذ منه إلى جميع أنحاء القطر مع وجوب تجنب منطقة القاهرة عند الأستاذ إطفيش

قضيت ليلتى الثانية بعد الهرب فى دار الشيخ إبراهيم ، فخصص لى سريريه فنمت إلى الفجر وفى الصباح الباكر غادرت داره وأنا لا أدري إلى أين أذهب ولا إلى أين



العلامة المجاهد الشيخ
إبراهيم إطفيش الجزائري

مشيت بين منازل المطرية ومزارعها وكانت بكل المخلوقات تتمتع بجمال ذلك الصباح الربيعي الباسم إلا أنا، لأنني كنت أمشي خائفاً أترقب، أخاف الوقوع في يد الشرطة، وأخاف وقوع عين أحد عليّ ممن يعرفونني، حتى لا يغلط أحدهم بحسن نية ويقول للأصدقاء لقد رأيته في الاتجاه الفلاني وهو في الزى الفلاني، فيصل النبأ إلى الأعداء، وكم للأصدقاء من غلطات تنفع الأعداء...

واتجهت نحو منطقة عين شمس، ومررت بدار صديق عزيز على المصري باشا المجاهد الشهير وصاحب التاريخ العريض فحسدته على اطمئنانه في داره ثم شكرت الله على عدم إزعاج

الاستعمار له في هذه الحرب كما أزعجه في الحرب العظمى الأولى ونفاه إلى أسبانيا، بعد أن فلت من الإعدام بإعجوبة سنة ١٩١٤ على أيدي الاتحاديين في استانبول.

مرت بذهني هذه الخواطر وأنا لا أدري أن عزيز باشا في محنة أخذت تهب عليه وأنه في قلق من المستعمرين، وأن هناك عاصفة ستثور في سماء حياته فيذوق منها أشنع مما أعانيه. ثم واصلت السير شرقاً فإذا بي في منطقة المراج، وكانت المقاهي ودكاكين مطاعم الفول المدمس في تلك الناحية قد فتحت أبوابها، فملت إلى إحداها لأتناول شيئاً فإذا بي أعرف صاحب الدكان وكان منذ سنين يبيع حاوي وبسبوسة بجمعة (سيدنا الحسين) بالقاهرة، فلما وقع نظره عليّ كاد يناديني ولكنه لم يتذكر اسمي بل تذكر وجهي. وأما أنا فقد تركته وانعطفت بسرعة إلى حارة جانبية قبل أن يتذكرني، ولذلك لم أترك له الفرصة الكافية لاستجماع شتات فكره، فغبت عن نظره في لحظة وأظنه قد نسيتي بعد دقيقة واحدة، إذ لا يوجد أية علاقة بيننا تجعله يفكر بي مرة أخرى.

ودخلت قهوة بلدية فاسترحت وإذا ببيعة الصحف ينادون على الجرائد فاشترت واحدة وأخذت أطلع أخبار الحرب، وأما أخباري أنا فلم يخطر ببال أن تنشرها الجرائد بهذه السرعة كما أنني على يقين من كون الصحف لن تذكرها وهذا مما أحمد الله عليه، وإلا

لضايقي فضول الناس ولصرت أخاف من خيالي وأتصور أن جميع الخلق يحملقون بي وأنهم
يربصون بي الدوائر ...

وبدأت قطارات سكة حديد المطرية تسير إلى القاهرة وتعود منها ، وراحت سيارات
الأتوبيس الريفية تنطلق في طرقها المرسومة ، فركبت إحداها ونزلت في « أبي زعبل » فإذا
بي والعياذ بالله في منطقة السجون والليمانات التي يسجن فيها كبار الأشرار من المجرمين
السلسلين بالحديد ومعظمهم لا أمل له بالخروج من ذلك السجن إلى الأبد ولن تنفك القيود
من أرجلهم والأغلال من أعناقهم إلا على يدي الغاسل ، فانقبض صدرى وتشاءمت من هذه
المصادفة ولعنت الساعة التي مرت فيها من تلك الناحية المقيتة المروعة للمطمئنين فكيف
للهاربين ...

إلى أين ...

وهرولت مبتعداً عن تلك المنطقة التي تشبه جهنم في جوها ووجوه أهلها وحالة سكانها ،
وما أنقذني منها إلا قطار حديدي يتجه نحو شبين القناطر ، فركبته مندساً بين العمال والفلاحين
فوقع نظري على جماعة في القطار من المساجين وهم باللبستهم المزرية الخشنة مكبلون بالحديد ، فكانت
هذه القيود تزيد السجنين بلاء فوق البلاء الذي هو فيه ، فتعجبت من مصادفات هذا اليوم
التي سودت الدنيا كلها في عيني ؛ فلعنت هذا الإنسان وقسوته مع أخيه الإنسان ، فكأنه
لا عمل لهذا الكائن الشرير إلا الأذى والبطش بعبئه ببعض ...

ونزلت في بلدة شبين القناطر وتجولت فيها لعل أجد موئلاً أو مستقراً ولو لمدة يومين ،
ولكني لم أجد فيها ما يصلح للاستقرار ساعة واحدة . وإذا بسيارة أتوبيس متجهة إلى
الزقازيق فركبتها ، ولما وصلت مشارف المدينة غادرت السيارة حتى لا أنزل في محطة السيارات
الرئيسية فأصادف وجوها ينبغي الفرار منها ، وبعد مسير نصف ساعة دخلت المدينة فإذا بي
أمام مكتب التلغراف ، فقلت في نفسي لماذا لا أبرق إلى الشيخ إبراهيم إطفيش والشيخ
يوسف بأنني نجوت ؟

الشيخ محمد الناجي

ودخلت مكتب التلغراف ، فأخذت ورقة وبدأت أسطر بقلمى الفضى ما أريد إرساله للشيخين ، ثم خفت أن يلحظ الموظفون ذلك القلم الثمين فيستكثرونه على مثلى فابتعدت عنهم . ولكن ماذا أقول فى البرقية ؟ فكرت طويلاً ثم اهتديت الى النص الآتى : (الأستاذ إطفيش بدار الكتب بمصر - وصلنا بالسلامة . نشكركم والشيخ يوسف على ضيافتكم) .

ولكن الإمضاء كيف يكون ؟ إننى لم أنفق معهما على اسم معين ، فيكف أصنع ؟ وأخيراً ألهمنى الله اسم (الشيخ محمد الناجي) لمناسبة ذلك لحالى الحاضر ونجاتى من المستعمرين ثم سلمت البرقية ودفعت أجرتها وانصرفت إلى المدينة وهى كبيرة وعاصمة مديرية غير أنها فى حالتها الاجتماعية والعمرانية تساوى قرية ضخمة لا مدينة ذات مدنية ، ثم مشيت فى الحارات والدروب الجانبية متنكباً الشارع العام بقدر الطاقة ، وبعد قليل وجدت نفسى أمام دكان حلاق قدرة وقد وقف صاحبها بالباب وهو مثلها فى قدارة ملابسه وفى شكله . فطلبت أن يسوى لحيتى بأن يرسمها بالموسى استعداداً للإطلاقها ، وكنت من يوم التفكير بالهرب لم أمسها فساعدنى ذلك على وجود أساس لحية خفيفة ستغدو كثة بعد أيام أخرى ، ولما غادرت الحلاق قصدت إلى فرن بجواره فاشتريت خبزاً ثم ملت إلى بقال فاشتريت جبناً وذهبت إلى قهوة بلدية تصلح لثلى فطلبت شايًا وأكلت بشهية شديدة . وفى خلال ذلك نويت أن أقصد مدينة المنصورة فهى أصلح من الزقازيق من جهات كثيرة وكنت أعرفها من قبل ، وهى مدينة عظيمة متحضرة يجد فيها الإنسان أسباب الراحة ، وانطلقت إلى محطة سيارات الأتوبيس فوجدت واحدة قديمة مهلهلة مسافرة إلى السنبلاوين أقرب مدينة إلى المنصورة فركبت بين الفلاحين وقففهم ومشنتهم ودجاجهم وبين جلبتهم وصياحهم وتشاتهم ... وكانت السيارة تتف فى كل قرية وتطيل الوقوف بسبب وبلا سبب ، فما وصلنا السنبلاوين إلا بعد ثلاث ساعات ولو كانت السيارة غير هذه لقطعتها فى ساعة واحدة .

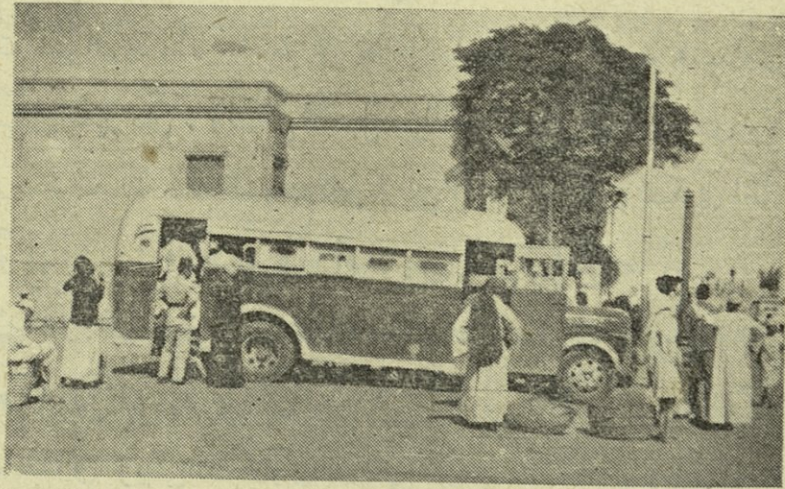
ولما وصلت السنبلاوين خطر لى أن أقضى يومى وليلتى فيها ، فأخذت أتجول وأستطلع حالها ولكنها لم تعجبني من نواح كثيرة ، ويكفى سماجة صاحب لوكاندة هناك كان يقف فى الشارع عند الباب فما كاد يرانى من بعيد أطلع إلى فندقه حتى صاح أمام أهل الشارع وجلاس

القهوات (تعالى يا أستاذ اتفضل ، هذه لو كندة على كيفك اتفضل !) فلم يسعنى إلا غض النظر عنه وعن فندقه وسرت فى طريقى نحو محطة السيارات فركبت إلى المنصورة .

شك وارتياب مزدوج

ولما سارت السيارة فى طريقها أخذت أسترق النظر إلى الركاب وألقى السمع إلى أحاديثهم حتى إن شككت بأحد أو لحظت أن أحداً منهم يرتاب بى غادرتها فوراً . ولكى لم ألحظ شيئاً يريب ، سوى أن جارى همس فى أذن رفيقه فهز رأسه موافقاً ثم نظر إلى وسكت ، ثم سمعت كلمة ...

إن الذين يلبسون الملابس الافرنجية يظهر على رقابهم وأعناقهم خط فاصل يفرق بين لون الرقبة والعنق من فوق الياقة ومن تحتها ، فإن لبس الإنسان بعد ذلك الملابس البلدية وهى لا ياقه لها ظهر ذلك « الحز » جلياً فلا يشك الناظر إليه بأنه « بلدى » جديد إن ساعات . كنت أظن فى أول الأمر أن جارى لما « وشوش » رفيقه وهز هذا رأسه قد قال له إن هذا الشيخ متنكر وهارب ... ولكن لما لفظ الكلمة التى سمعتها اغتبطت فى نفسى ، لأنه كان يقول عنى لرفيقه « إنه مخبر » أى إنه ظننى رجل بوليس متنكر ، والظاهر أنه كان لها شأن مع البوليس فخافمنى لأنهما غادرا السيارة فى مكان لا أثر للعمران فيه . وبذلك استرحت منهما واستراحا منى !



سيارة ريفية ، ولكنها جيدة بالنسبة إلى غيرها ...

مباغطة ...

وصلت المنصورة وكانت الدنيا قرب العصر ، فاسترحت في أول قهوة عند مدخل المدينة وبعد ذلك تغلغلت في نواحيها . وهي مدينة نخمة مكملة يوجد فيها كل شيء وفيها من الناس من يلبسون جميع الأشكال والأزياء والألوان ، فهذا شيخ وذاك أفندى وهذا خواجه وهذا ابن بلد ، وكانت كثافة السكان تساعد الإنسان على أن يغطس بينهم فلا يسترعى حاله نظر أحد . وكنت في حاجة إلى نقود صغيرة فدخلت مكتب البريد واشترت بعض الطوابع وأبرزت ورقة بخمسة جنيهات فأخذها الموظف ودسها في الدرج ثم أخذ يعد بقية النقود ويقول لي بدون أن يرفع بصره إليّ « ازيك يا أستاذ؟ هل أنت مبسوط على كده؟! » فكدت لشدة دهشتي من هذه المباغطة أن أقع على الأرض ، ولكني تماكنت نفسي وضبطت أعصابي وسكت لأنني لم أقو على الجواب ، فقد عرفني الرجل ، ما في ذلك شك ، وإذن فتذكرى كان مفضوحاً . وهاهو موظف البريد قد عرفني من أول نظرة ، ولعله كان منقولاً من بريد القاهرة ويعرفني هناك ! وبينما كنت في حيرتي القاتلة هذه . إذا بالموظف البريدي يرفع رأسه ويتأملني ثم يقول « عفواً ياسي الشيخ أنا ظننتك الشيخ هنداوى » فقلت له وقد اطمأن خاطري المضطرب « إن الله قادر على كل شيء وهو يخلق من الشبه أربعين » فهز صاحبنا البريدي رأسه موافقاً ، لأنني أنقذته من حرج بعد أن أنقذني من فزع !

غادرت دار البريد وأنا ساخط على تلك المصادفة وعلى الشيخ هنداوى الذى يشبهنى وكان السبب في تعكير دمي . ولكن لا ، بل حيا الله الشيخ هنداوى الذى لولاه ولولا اشتباه موظف البريد لما ظفرت بهذه الشهادة الطيبة التى أثبتت لى إتقان تنكرى اتقاناً جعل الناس يظنوننى سواى ، فشيت في طريقى وأنا أفرك يدى مسروراً مغتبطاً ...

ولكنى بقيت أفكر في إخفاء « الحز » الذى خلفته لى مع الزمن بإقة القميص الافرنجى العالية ، فهى الدليل الوحيد على أنى لست شيخاً وإنى « أفندى » يلبس الملابس البلدية ، وإذا كان صاحبنا فى أتوبيس السنبلاوين قد ظننى مخبر بوليس متنكر فى زى شيخ ، فمن يضمن لى غداً أن يظن سواه أننى موظف مختلس أو قاتل هارب من القضاء والشرطة ومتنكر بلباس



هكذا كان شكلي عند الوصول إلى المنصورة ،
وأما الذي يقف بجواري فهو الدكتور يعقوب
خوري وقد مر ذكره

المشايع ؟ لقد أزعجني هذا الخاطر فما ترددت
عن الذهاب إلى أقرب دكان اشتريت منه شالا
مما يلفه المشايخ حول أعناقهم ويسبلونه على
أكتافهم، ومررت بدكان فيها مرآة فرأيت نفسي
فيها فوجدت أن تنكرى أصبح أتقن مما كان،
بل أني كدت ألا أعرف نفسي إذ أنها أول
مرة أرى فيها نفسي بلباس المشايخ الذي لبسته
من أمس فكدت أطير فرحا ...

عند السيد نسيب شهاب^(١)

على أن نجاحي في التنكر لم يقنعني كثيراً ، لأن حوادث اليوم وحملتة بائع الفول في
وجهي عند محطة المرج ، والظن الذي ساور جاري بسيارة السنبلاوين جعلاني أزداد حذراً ،
ولذلك قررت أن لا أبيت في المنصورة ، حتى لا يصادفني قرد من قرود بني آدم فيعرفني وما
كل مرة تسلم الجرة ...

(١) هو المجاهد السوري الشهير في ثورة سورية سنة ١٩٢٥ وقد نرح بعد الثورة إلى مصر واشتغل
بالزراعة ثم عين مفتشاً لشركة أراضي الغربية واعتزل الناس والدنيا كلها ؛ ولما عني عنه تزوج بآنسة فضلى
من آل الكفاني في بيروت ثم عاد بها إلى وظيفته في تلك الجهات النائية ، ولما تشكلت الجمهورية السورية
عين سكرتيراً لمفوضيتها بمصر ثم قائماً بأعمال الوزير المفوض ، ولا يزال إلى الآن يشغل هذا المنصب الذي هو
دون استحقاقه . ولكن ماذا يصنع الإنسان في هذه الدنيا المعوجة المعكوسة المنطق مع المجاهدين إذ يقطف
ثمرة جهادهم ويتمتع بنتيجة تضحياتهم من لا يستحقون إلا الحرق ! ولكن مما يعزى المجاهدين أن الدنيا كلها
هكذا مع المخلصين . وبكفيهم فخراً وخلوداً أن أهل الإنصاف يقدرونهم ويجربون خواطرهم بالكلام الطيب
ففيه بعض الغراء ...

إذن فيها إلى تمضية بضعة أيام عند نسيب شهاب صديق الحميم وأخي الوفي . وكان على حد علمي يقيم في (رأس الخليج) وهي محطة على الخط الحديدي باتجاه دمياط ، فركبت سيارة شربين على أن آخذ أخرى إلى رأس الخليج ، وان تصادف مرور قطار حديدي ركبت فيه ، وكان بجوارى في السيارة رجل ابن حلال من أهل شربين أخذت أحدثه وأسترشد بمعلوماته عن تلك المناطق ، ولما وصلت إلى شربين نهني الرجل إلى وجوب الاستعلام بالتليفون قبل أن أذهب إلى رأس الخليج ، وهو إلهام من الله ألهمه هذا الرجل الذي لولاه لتعبت وتنفست كثيرا .

وذهبت إلى مركز تليفون المحطة ولم أكن أعرف الاسم الكامل للشركة التي يعمل فيها نسيب ولا رقم تليفونها ، ولكنني وجدت في الدفتر عدة أرقام لشركات الأراضي فطلبت إحداها فإذا هي التي أريدها فطلبت محادثة نسيب بك فرد عليّ بنفسه ، وكانت مصادفة عجيبة من جميع النواحي ، لأنه اتضح أن نسيب يقيم في قرية (كفر الوسطاني) على بعد نحو عشرين كيلو متراً عن محطة رأس الخليج وكان من حسن الحظ كذلك أن خط التليفون كان مفتوحاً من مكتب الشركة برأس الخليج إلى المنزل الذي يقيم فيه صديقي بالوسطاني وأنه كان بجوار التليفون وهو في داره بالقرية ؛ فكان ذلك كله نادراً ، فلو اختل شيء من هذه المخابرة التليفونية المتسلسلة لاختل كل شيء في مجرى رحلتي فكان جميع الظروف كانت معدة ومهيأة لتسهيل أمري فحمدت الله .

لما سألت نسيب عن اسم الذي يكلمه تحيرت ، ويجب أن أجابه بسرعة ، وأن أخلق اسماً ، وأن أبت في ذلك بلمح البرق ، فجرت على لساني اسم نسيبي السيد محمد سليم البزري « رحمه الله » لأنه من صيدا وهي نفس بلد نسيب ، وقلت له إنني مار بسيارتي الخاصة من جواره وأريد أن أجمع به لأمر هام ، فوصف لي المكان الذي هو فيه وأنه قرية كفر الوسطاني وأرشدني إلى طريقها ، فاستأجرت سيارة خاصة لأضمن الرجوع فيها إن وجدت الظروف غير ملائمة عند نسيب ، ولا سيما في تلك المناطق البعيدة عن الدنيا لأنها في أقصى الشمال من القطر المصري وعلى بعد كيلومترات قليلة من البحر المتوسط ، وسارت السيارة

في طريقها ، ولما أصبحنا في أرض منقطعة أخذت أفكر ، كيف يعيش صديقي هناك وهل عنده مكان يمكن المبيت فيه ، وهل يوجد بين مرافقيه أو زملاء الوظيفة من يعرفني؟ ولكن المهم هو اللقاء وكيف يكون، فلو فرضنا أنه قابلني بحضور بعض الناس فكيف يستقبلني وهو يرى أن القادم هو أنا وليس السيد محمد سليم البزري؟ ثم يراني بعمامة وجبة ولحية وهو خالي الذهن من ظروفه؟

كانت هذه الخواطر تقلقني وتشرد ذهني ، وأما السيارة فكانت ماضية بي في طريقها ، وبعد نصف ساعة وصلت السيارة إلى القرية ووقفت أمام حديقة يتوسطها منزل فم فؤوقفت السيارة على أن تنتظر الإذن بصرفها أو ترجعني معها بأجرة جديدة، فكان السائق يدعوا الله بأن أعود ! وكان أخشى ما أخشاه أنا هو أن أعود ! لأن معنى ذلك إنني لم أجد المأوى المنشود ! كانت الدنيا في ساعة الغيب عندما دخلت الحديقة ، وكان قلبي يخفق ويلهج بالابتهاال إلى الله بأن لا يكون هناك أحد مع صديقي ، ولما اقتربت من المنزل وجدت نسيب يتمشى في الحديقة منفرداً وهو يدفع عربة الطفلة التي رزق بها منذ عام ، فكدت أطيّر فرحاً .

ولما صرت أمامه وجهاً لوجه حييته وهو مندهش من رؤية شيخ يقبل عليه ، بينما كان ينتظر السيد محمد سليم وهو يعرفه أفندياً بالبدلة والطربوش ، ولكن لما اقتربت منه رفعت النظارة عن وجهي ونزعت العمامة عن رأسي فعرفني وأقبل عليّ يعانقني ويقبلني ويرحب بي وقد فهم كل شيء ... ولما اقترب منه الخادم صاح فيه : هات شاى يا ولد لأستاذنا الشيخ سليم ... ومن يومها وأنا في جهة « كفر الوسطاني » وحدها أدعى بالشيخ سليم !

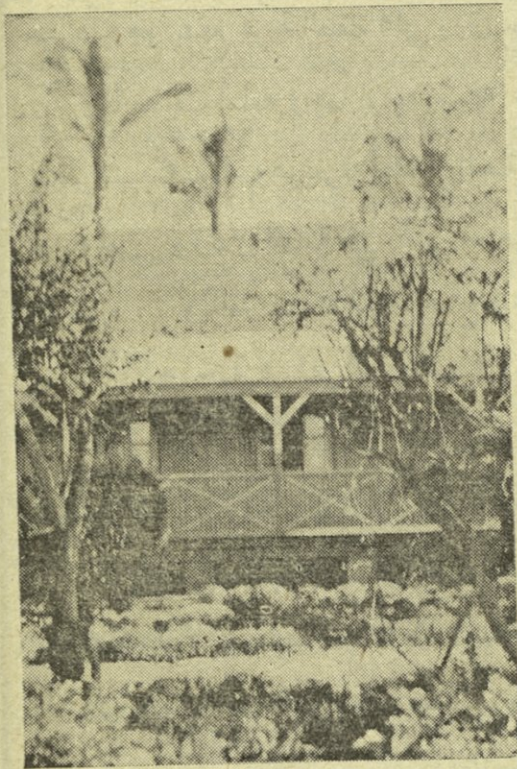
عند ذلك أوعزت بصرف السيارة وجلسنا وحدنا نتحدث ، وبعد تناول الشاي أمر بتجهيز العشاء وذهب إلى أهل بيته فأخبرهم ثم استكتمهم على أن تقول السيدة للخدم ولمن يزورها إنني من أقاربها جئت للزيارة. وبعد ذلك جاءت بنفسها باشة مرحبة متلهلة وقد أكرمت مشواي، ولو كانت سيدة سواها لأصابتها نوبة فزع من زائر مريب هارب من السجن سيسبب لها ولزوجها ولطفلتها نكبات ومصائب لانهاية لها ...

نظرة حول المكان

كانت الدار التي يقيم فيها نسيب هي الوحيدة التي تستحق أن تسمى داراً . ففيها جميع



الدار التي كان يسكنها نسيب ، وقد ظهر وهو يطل من الشرفة



دار ضيافة شركة الأراضي وهي التي كنت أنام فيها
وأحياناً أخفى بإحدى حجراتها

أسباب الراحة . ويقع في جوارها منزل آخر
مستقل هو دار الضيافة للشركة ، وهي عبارة
عن « شاليه » ذات غرف صغيرة وفي كل
واحدة سريرها وأدواتها ، وتبعد الدار والحديقة
عن القرية نحو دقيقتين فقط .

سهرت مع الأخ نسيب ما شاء الله أن
نسهر ، وكان موضوعنا في تلك الليلة يدور
حول الحياة المقبلة ودرس شخصيات الموظفين
عنده ، ففلان مدير المخازن صفته كذا وعقليته
كذا ، وفلان محاسب الشركة صفته كذا
وعقليته كذا ، وفلان المفتش العام يجيء من
جهة كذا وينصرف في الساعة الفلانية .
ولكن هناك شخصية تستحق أن تقف عندها
لوصفها ودراستها ...

قال نسيب : إن سلفه في الوظيفة وهو صديق له أيضاً قد آثر البقاء في هذه القرية بعد أن استقال ، وأنه يجيء للزيارة من حين إلى آخر فهو رجل ذكي جداً ومتعلم تعليماً عالياً ، يسمى الأستاذ فؤاديزدى ، وأصله إیرانى من فلسطين . ولكنه متمصر لطول عهده في هذه البلاد ، ولا بد أن يزورنا ، فقلت سأحتاط في الحديث بحضوره .

و كنت في تلك الساعة أعانى نصباً شديداً بسبب متاعب هذا اليوم العصيب وأهواله فهو يساوى من الحياة العادية عذاب ألف يوم على الأقل . كانت الغرفة التي أعدت لى وثيرة الفراش أنيقة الرياش ، فما كدت أستلقى على السرير حتى غطست فى نوم عميق ، فلو انطلق مدفع فى أذنى لما سمعته ولا أحسست به ...

أول صباح

لقد نمت تلك الليلة عشر ساعات نوماً ثقيلاً هادئاً ، ولما صحت وجدت نفسى نشيطاً مرحاً صافى الذهن ، هادى الأعصاب ، منشرح الصدر ، فأخذت أتجول فى الحديقة وأتمتع بسماع تغريد العصفير فى ذلك الصباح الربيعى الندى ، وكانت السماء صافية الأديم ، والشمس مشرقة مشعشعة تنشر الدفء على الكائنات جميعاً ، وكان عبير الأزهار يتضوع ويعبق الأفق ، وكل شىء فى الدنيا كان يتسم ، فنسيت السجن ، ونسيت حمدى محبوب ، ونسيت الدنيا بأسرها ، ثم قطفت وردة حمراء كان أريجها يضوع فرشقتها على صدرى بعد أن نفضت عنها ندى البكور ، ناسياً ظروفى وأنى الشيخ محمد ، وأن المشايخ لا يضعون الورد على صدورهم ، هذه غلطة ما فى ذلك ريب ، ولكنى جديد فى حرفة الحرب والتنكر وفى ملاحظة دقائق أمورها ...

ودفعنى الزهو والفرح بالحياة الطليقة إلى تجاوز حدود الحذر ، فذهبت إلى مكتب إدارة الشركة فإذا ببعض الموظفين يرمقوننى بعيون فاحصة مستطلعة حال هذا الشيخ الذى يختال وهو فى جبة قديمة وسخة فوق بيجامة أفرنجية ثم يرشق على صدره وردة ! وجلست بجوار نسيب على مكتبه ، فقد ألغى فى ذلك اليوم برنامجيه وهو ركوب حصانه والطواف على مزارع الشركة وهى تبلغ عدة ألوف من الفدادين ، وإذا بالتليفون يقرع فسمعت نسيب يقول : أنا موجود وأنتظركم فى المكتب أهلاً وسهلاً ...

ولكن الله سلم !

سمعت هذا فهبط قلبي وسألته من هم هؤلاء الذين تنتظرهم ؟ فقال لا عليك ، فهم وكيل الشركة العام وبعض ضيوفه ، فاطمأن خاطري ثم سألته من هم أولئك الضيوف ؟ فقال هم من مصر وأنت لا تعرفهم فابق حيث أنت ... ولكن المريب يكاد يقول خذوني وأنا أخاف من المباغتات ، فرجعت أسأله عن الأسماء فذكر لي منهم الدكتور إدوارد غرزوزي ، فقلت يا للهول ! إنه من معارفى وسينكشف أمرى أمام جميع الموجودين فيالضيعة تعبنا .

ثم وقفت وادعيت أننى أشعر بصداق وأنى فى حاجة إلى أسبرين واستراحة ، ومشيت إلى دار الضيافة فاخترت فى الغرفة وأخذت أقرأ فى كتاب ولكنى لم أفهم شيئاً مما أقرأ ، فذهبت إلى الشباك وأخذت أتطلع من خلف الستارة متلصصاً ، وإذا بالضيوف قد وصلوا وأخذوا يتجولون فى الحديقة وفيهم الدكتور نخت أن يدخلوا إلى حيث أجلس فبادرت إلى الفراش فاندسست فيه وتظاهرت بالنوم وأخفيت رأسى تحت اللحاف بعد أن علقته الجبة بحيث يراها كل قادم وأبرزت العمامة بأن وضعتها على كرسى فى مواجهة الباب ، حتى إذا قدم طفيلي من هؤلاء الضيوف الثقلاء حداً



نسيب بك شهاب حين كان يجاهد ضد فرنسا
فى غوطة دمشق فى ثورة سنة ١٩٢٥



وأراد دخول الغرفة وجد
أمامه جبة وعمامة وشخصاً تحت
اللعاف ...

ولكن القوم لم يدخلوا
الغرفة ، بل اكتفوا بزيارة
الحديقة وانصرفوا ، وكم ذعرت
لما خطر لي أنهم سيقضون
يومهم وليلتهم في دار الضيافة !

صورة نسيب شهاب الآن وهو نائب وزير سورية المفوض بالقاهرة

مباغطة غريبة

وسمع أهل القرية بوجود ضيف عند « البيه الوكيل » فأصبح لزاماً على البعض أن يأتي
للسلام على الضيف إكراماً للمضيف ... وجاء من الجملة الأستاذ فؤاد يزدي ، وهو رجل كهل
وقور قصير القامة مربوع الجسم يضع على عينيه نظارة سميكة الزجاج ، فتذكرت تنبيه نسيب
بوجوب الاحتياط والتروى بحضوره ، ولو أمكنني أن أهرب من مجلسه في تلك الليلة لفعلت
ولكن هيهات ، فهو آت من أجلى !

وأخذ المهنتون يرحبون بي ويسألونني عن الدنيا وعن الحرب ، وإذا بأحدهم يسألني بكل
سماجة عن مهنتي وشغلي ، فادعيت أنني أخصص في الشريعة بالأزهر . ولا أدري لماذا ارتكبت
هذه الحماقة بادعائي العلم الشرعي ولم أقل إنني تاجر سمك أو سمسار عقارات ، وكان كل همي
أن أتفرس في الأستاذ يزدي وسماع حديثه ، ولكنه كان قليل الكلام ، وإن تكلم كان كلامه
فوق مستوى الموجودين . وإذا به يسألني عن بعض مسائل شرعية وكانت من حسن الحظ
من البسائط فاستطعت الجواب عليها ، ثم سألني عن « الإمام السرخسي » وعن مؤلفاته

وكان كل ما أعرفه عنه أنه من أئمة العلم في خراسان ولا أدري شيئاً عن كتبه ، فارتج عليّ واحترت بماذا أجيب فإذا بالأستاذ يزدي نفسه ينتقد الموقف بأن تكلم هو فاعتنمت الفرصة ولزمت الصمت ، ولكنه زاد في الطين بلة إذ حذق بي من فوق نظارتيه وقال والله ان سيدنا الشيخ يشبه الأستاذ محمد علي الطاهر ! فاضطربت لهذا الاكتشاف اضطراباً نفسياً شديداً ، وإذا بي أجيبه بسرعة قائلاً : هذه ثالث مرة « يتشبه علي » ويظنونني محمد علي الطاهر ، فيظهر أن هناك شبهة كبيرة بيننا . وبادر نسيب إلى تكميل عملية الإقناذ فقال : وأنا أيضاً أشعر بأن الشبه شديد بينهما فأنا أعرف الأستاذ الطاهر وأعرف جريدته « الشوري » وسكت الأستاذ يزدي مقتنعاً . وبعد قليل انصرف القوم وبقيت مع نسيب وحدنا وبعد سكوت دام لحظة قلت له : ما قولك في شبهات يزدي ، إنني لا أعرفه قط ولا أتذكر أنني رأيته قبل الآن ولا أظنه رأيته ، فكيف خطرت علي باله ؟ يارب من أين جاء هذا الرجل الآن وكيف الخلاص منه ؟ عند ذلك لم أجد بداً من الرحيل في أسرع وقت . وقضيت الليلة الثانية عند نسيب وفي الصباح الباكر غادرت كفرالوسطاني في السيارة الوحيدة المحطمة التي تغادر القرية صباح كل يوم إلى بلدة شربين ثم تعود في المساء بركابها بعد أن يكونوا قد أنهوا مصالحهم . وهي سيارة صغيرة تتسع لأربعة فإذا بنا خمسة عشر ! فقد جلس اثنان بجوار السائق وانحسروا في المقعد الخلفي أربعة واندس بين الأرجل اثنان ، وأما بقية الركاب فوقفوا على درجتي السيارة وعلى سطحها وتمدد بعضهم على الرفاريف وهكذا ... ومشيت بنا السيارة نحو شربين فقطعت المسافة في ساعتين وكنت يوم مجيئي قد اجتزتها في السيارة الخاصة بنصف ساعة ، وما صدقت أن نزلت في شربين ولكن لم أجد فيها مكاناً ما يصلح للإقامة أكثر من ساعة ، ثم ركبنا إلى طنطا وأرسلت منها برقية إلى صهرى السيد إبراهيم الدرس « رحمه الله » وكان موظفاً في شبين الكوم وهذا نصها : « حضرنا اليوم لزيارة السيد البدوي ولكن ضيق الوقت يمنعنا من زيارتكم فأرجوكم مقابلتنا بمقام السيد لنصلي العصر معكم ونعود لدمياط » . (الإمضاء : مختار الدرس)

أما هذا الاسم فهو حقيق ، وصاحبه هو الأستاذ مختار مصطفى الدرس أحد أساتذة كلية الهندسة اليوم بجامعة اسكندرية .

اللقاء

وبعد إرسال البرقية تجولت في أطراف المدينة ولما اقترب العصر قصدت إلى قهوة مواجهة لتمام السيد البدوي وجلست أرقب المنطلقين إلى المسجد ، ولكن إبراهيم لم يصل ، وأذان العصر لم يبق عليه إلا دقائق معدودة، فغادرت القهوة ودخلت المسجد وجلست في مكان أرى منه كل داخل من جميع الأبواب ، وإذا بإبراهيم يدلف إلى الداخل ويلقي بنظرات سريعة إلى هنا وإلى هناك ، ولكنه لم يرني ، وبعد أن أدى تحية المسجد ، جلس بين المنتظرين لصلاة العصر يستمع للقرآن الكريم . وأما أنا فبقيت في مكاني لحظة أدقق في الوجوه وفي هيئات الذين قدموا بعده فلما تيقنت أن إبراهيم غير متبوع من أحد ، قمت وجلست إلى جانبه وحييته فعرفني وظل ساكنا إلى أن أدينا مكتوبة العصر، ثم نخرته بيدي ومشيت ، وبعد لحظة نهض وسار خلفي على مسافة غير بعيدة مني .

أخبار جديدة

ولما أصبحنا في الشارع العام ودخلنا الأسواق المزدحمة مشينا معا فسلم عليّ وسلمت ، وأخذنا نتحدث ثم أخذ يقص عليّ حوادثه قال : لقد قتش البوليس دارنا في شبين أول أمس باحثا عنك ، ثم أخذ مني تعهداً كتابيا بأن أخبرهم عن وجودك إن جئت إلينا ! وبعد ذلك أخذوا رسمك الفتوغرافي الموجود عندنا وانصرفوا وقد رأيت جاسوسا يرقب الدار فتجاهلته ولا يزال ذلك الجاسوس هناك . فقلت : كيف فررت منه ؟ قال : أنا لما أخذت التلغراف فهمت فوراً أن مختار الدرس هو أنت وأما مختار الحقيقي ابن عمي فهو في مقر وظيفته، وحيث أنه ليس من الذين يأتون خصيصاً من دمياط لزيارة الأضرحة في طنطا ، فقد عرفت كل شيء وأما الجاسوس فقد تركته يرقب الباب وخرجت من باب الجيران الخلفي فركبت سيارة الأتوبيس وجئت ، ثم ضحك وقال : إن خادمنا عبده قد لحظ أن مختار هو أنت ! فانتفضت وقلت له : كيف تفشى مثل هذا السر إليه ؟ فقال : لأنه هو الذي استلم التلغراف إذ من عادته أن يفتح التلغرافات وأنا في خارج الدار فإن وجد فيها شيئاً هاماً هرول بها إليّ وإلا

أبقاها بالمنزل حتى أعود ، ولكن لا تخف من عبده لأنه أمين وقد أخذوه أمس إلى البوليس بدون علمي واتفقوا معه على كتمان ذلك عني ووعدوه بخمسين جنيها وبوظيفة جاويز إن أرشدتهم عنك وحلفوه الأيمان المغلظة . فقلت : وكيف العمل ؟ فقال : إن عبده قد أخبرني بما كان وهو يسخر منهم ، لأنه مثل أولادنا وأنت تعرف أننا ريناه صغيرا ، فاطمان بالي من هذه الجهة الاطمئنان كله ، وقلت له : لا بأس من تطمينه عني وإبلاغه سلاما مني حتى لا يدفعه الفضول إلى كثرة الكلام . ولكن قل له إنك لقيتني في طنطا عند ميدان الساعة لابساً برنيطة ومعى خواجات في سيارة وأنا اتجهنا نحو بور سعيد . ثم سألته عن شقيقتي فقال :



إنها عند مجيء البوليس إلى منزلنا كانت تصلي ، ولما شعرت بالتفتيش ضحكت في سرها وقالت : « إذن فقد طار العصفور » ثم أخذت تدعو لك ، وبعد انصرافهم سافرت الشقيقة إلى القاهرة لتكون بجانب قرينتك . وهنا سألته عن شكل الصورة التي أخذها البوليس فقال هي التي تمثلك وأنت بالبطلو وتحمل العصا فضحكت وقلت له : دعهم يفتشون على الباطل والعصا ...

وبقيت مع إبراهيم في طنطا إلى ما بعد العشاء ، وقبل أن نفرق اقترحت عليه أن يكتب

كتاباً إلى الشقيقة بالقاهرة يطمئنها عن صحته ويسألها عن موعد رجوعها ، ثم تناولت القلم وسطرت في ذيل كتابه تحية مبهمة على لسان الخادم عبده ، وكل قصدي هو أن تظن هي وزوجي إلى وجودي سالما طليقا لأنهما تعرفان خطي .

أثر هذا الإشعار

بلغني بعد شهر من هذا اللقاء أن الأسطر التي كتبتها في ذيل رسالة إبراهيم كان لها من الشأن عند زوجي وشقيقتي ما يساوي الدنيا بأسرها ، فقد حدث في ذلك الحين أن إحدى

الجاراات قد زارت منزلنا وقالت إنها سمعت في منزل بجوارنا أن قريبهم الضابط فلان قال إن البوليس السرى قد اهتدى إلى المنطقة التى أنا فيها وأنها الآن محاصرة وأننى سأكون بعد أيام قليلة فى قبضتهم ، فكان لهذا النبأ فى دارنا صدى فزع وجزع ، وكانت شقيقتى وقرينتى فى هم عظيم لا يوصف ، فلما وصل كتاب ابراهيم وقرأنا فى ذيله تلك الكلمات عرفنا الخطوهدأبالهما

المبيت فى طنطا

نمت فى طنطا تلك الليلة ، وأما ابراهيم فقد عاد إلى شبين الكوم ، وكان تسجيل اسمى فى دفاتر « فندق الاقصر » مشكلة ، فإن وضعت فيه اسمى الحقيقى انكشفت ، وإن ذكرت اسماً آخر أكون قد ارتكبت تزويراً فى أوراق رسمية ، وهو عمل جنائى يعاقب عليه القانون ، ولكن كيف أبلى بالقانون مادامت هذه المبالاة ستفضحنى ، لذلك لم أجد بداً من الخروج على القانون وارتكاب جريمة التزوير ، التى تنطبق عليها المادة كذا من قانون العقوبات ... وكان الاسم هكذا « ابراهيم البسيونى المحامى الشرعى فى الجيزة » وأظن أنه لافائدة للبوليس الآن من كشف هذه الحقيقة بعد أن مر على الجرم عشر سنين !

ومررت فى طنطا بـدكان على بابها مرآة فأعجبتنى لحتى التى بدأت تستدير فتذكرت بيتين لصاحب لحية أرسلها إلى الأمير يزيد بن مزيد الشيبانى قال .

لها درهم للدهن فى كل جمعة وآخر للحناء . بيتدران

ولولا نوال من يزيد بن مزيد لصوت فى حافاتها الجمالان!

ولم أبحث عن الجمالان فى كتب اللغة ولكنى أظن أنه نوع من القمل ...

وأما يزيد بن مزيد فإنه طلب صاحب البيتین وقال له إنك لمن لحيك فى مؤنة ، وقد أمرنا للحيك بما يقوم بحاجتها ، ووظف له شيئاً من المال . وجلست مرة فى قهوة أستريح فوجدت فيها نسخة قديمة من مجلة نور الإسلام عدد إبريل سنة ١٩٤١ فأخذت أطلعها فعثرت فيها على كلام عنى بإمضاء صديق الأستاذ على محمد المصرى وقد مر ذكره ، وهذا نص ما كتب :
(الأستاذ الطاهر : قرأت فى صحف العراق أن هذا المجاهد الكريم قد ساءت صحته فى سجن مصر وقد مر عليه فيه سبعة شهور . ومنذ شهر كان مجموع ما فقدته من وزنه

« ١٣ كيلو ») من أصل « ٦٤ كيلو » وقد طلب الإفراج عنه ليذهب إلى العراق . وقد آوت حكومة العراق من قبل زعماء ثورة فلسطين ولم تبالي بسخط أحد ، بل هي فوق ذلك تصرف لهم مرتبات ضيافة بلغت إلى الآن « ١٥ ألف جنيه » وقد توسطت حكومة العراق لدى حكومة مصر بشأن الأستاذ الطاهر . فلعل حكومتنا تحقق رغبتها . وإن الذي يدهشني بعد هذا هو صمت صحافتنا المصرية إزاء هذا الأمر وخاصة بعد ما خرج من ناحية السياسة إلى الناحية الإنسانية البحتة ، بعد ما بلغنا عن حالة الأستاذ الصحية ما بلغنا » اه .

فشكرت في نفسي هذا الصديق الوفي وقطعت الصفحة من المجلة ودسستها في عبي ، وها أنى بعد عشر سنين أجدها ، وأدرجها هنا بنصها الحرفي إعلانا لشكري لهذا الأخ الفاضل .

وقد نويت ساعة اطلاعي على كلمة الصديق على محمد المصري أن أزوره في الإسكندرية وأشكره وأريه نفسي ليتأكد من سلامتي ...

كتاب من بغداد

وبعد فراري من المستشفى بأيام وصل كتاب من ابن عمي مصطفى نزيل بغداد والذي لم أذكر عنه أنه من مجاهدي فلسطين الذين لقوا بعد الثورة الكبرى أنواع العذاب والاضطهاد من الإنكليز وهرب منهم فقبض عليه الفرنسيون في الشام وسجنوه وبعد ذلك تمكن من الالتجاء إلى العراق فرحبت به الحكومة العراقية وعينته أستاذاً في مدرسة الرصافة لأنه في الأصل كان مديراً لمدرسة أميرية في فلسطين .

أقول ورد كتاب منه إلى أهل بيتي يذكر فيه أن نبأ مرضي في السجن قد أحدث في العراق أثراً أليماً وأنه وبعض فضلاء العراق وفلسطين اجتمعوا بوزير مصر المفوض ببغداد ولفقوا نظره إلى هذا الحادث الذي لا يجوز أن يقع من حكومة عربية مسلمة وأطلعوه على التلغراف الوارد من القاهرة عن ذلك المرض ودرجته الخطرة - فأبدى الوزير ألمه من هذا الحادث وأخذ نص البرقية وأرسل معها مذكرة إلى رئيس الوزراء بالقاهرة . وقال إنهم اتصلوا بعد ذلك بفخامة رئيس الوزارة العراقية طه باشا الهاشمي ووسطوه لدى رئيس وزراء مصر ، ثم ختم مصطفى كتابه بالثناء على السيد سليم بك عبد الرحمن المجاهد الفلسطيني الذي هز

العراق بدعايته ضد الإنكليز بسببي ، بارك الله فيه وفك أسره «لأنني كنت أكتب مسودات هذه السطور وهو بدوره أسير عند الافرنسيين في منطقة احتلالهم في بلاد النمسا ، وكنت في خلال ذلك على اتصال به بالبرق وبالبريد وأعمل على نشر الدعاية له وأسعى لإطلاقه من أسره ملحوظة : بينما كنت أعيد النظر في هذا الكتاب سنة ١٩٤٦ ورد على تلغراف من سليم بأنه أفلت من الأسر وأنه وصل إلى باريس فأرسلت إليه كتابا مع صديق مسافر بالطيارة أهنته مع قرض من الدولارات والفرنكات يساوي بعملة مصر مئة جنيه ، وبساوى هناك أضعاف ذلك ثم وصل سليم من فرنسا إلى مصر ومنها إلى فلسطين فاستقبل بحفاوة أنسته بعض مالتي من عذاب ثم أعاد لي ذلك القرض .

وأما الآن وعند طبع هذا الكتاب سنة ١٩٥١ فإن سليم يعيش مشرداً في ما بقي من اشلاء فلسطين بعد أن استولى اليهود على جميع ما يملك هو وأهله من أرض وثروة ، أعانه الله .

سعيد ثابت

وإني أسجل هنا أنبل المواقف في تلك الحوادث السوداء للمرحوم فقيد العروبة والوطنية السيد سعيد الحاج ثابت ، نائب الموصل ورئيس لجنة الدفاع عن فلسطين في العراق ، فقد نصرني نصراً عزيزاً ، وغضب من أجلي غضباً شديداً ، وكم أسفت لحرماني من الاجتماع به وشكره على ما كان من شهامته معي في أيام محنتي ، لأنه التحق بالرفيق الأعلى في أثناء الحرب ولم يفجعه الله برؤية انتصار الحلفاء على خصومهم ، بل علينا ، وعلى العالم كله ، لأن انتصار بريطانيا وكسبها الحرب معناه بقاء العالم العربي تحت ذل الاستعمار وظلامه مدة طويلة ، إلا إذا حدثت المعجزة ونهض العالم المظلوم ونفض عن نفسه كابوس الاستعمار البريطاني خصوصاً ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

إلى دمنهور

لم أستطع البقاء في طنطا حتى لا ينكشف أمرى إن أطلت الإقامة فيها ، فذهبت إلى مدينة دمنهور لعل أجد فيها مأوى ، فوصلتها ليلاً في سيارة أتوبيس ريفية فإذا بالمدينة غاصة بالمهاجرين الممارين من الإسكندرية التي نكبت بغارة جوية من طائرات الطليان الحفماء التي

أرادت أن تضرب الأسطول البريطاني في ميناء الإسكندرية فأصابت قنابلها العمياء الطائشة بعض المناطق الوطنية في المدينة ، فقتلت كثيرين ونسفت بيوتاً يسكنها . فكان من أثر ذلك أن فر عدد كبير من أهل الإسكندرية إلى الريف والمدن المجاورة فأصاب الجميع هم عظيم وبلاء جسيم ، وكانت فنادق دمنهور وقهواتها حافلة بالناس فاحترت أين أنام ، وبقيت أتجول في طرقها أبحث عن مأوى فأرشدني أحد الناس إلى استراحة الحكومة ! ياسبحان الله ، أمثلي يقترب من شيء اسمه حكومة ؟ أما استراحة الحكومة هذه فهي عبارة عن فندق صغير نظيف يقع بجوار المحطة وهو مخصص لنوم الموظفين الذين يضطرون إلى البيت في المدينة أحياناً . فلم يسعني إلا دخول عرين الأسد ، فطرقت الباب حول منتصف الليل ودخلت فوراً إلى إحدى الغرف ، فقال الخادم : هنا الأجرة بريال ياسيدنا الشيخ فلم أحفل به بل أمرته بتجهيز الغرفة وأعطيته اسمي (الشيخ محمد الناجي القاضي الشرعي في الواحات) فاعتنى بي ونمت نوماً لذيذاً عميقاً كأنني لم أرتكب جريمة تزوير جديدة أكبر من الأولى التي ارتكبتها بفندق الأقصر بمدينة طنطا ! لأن التزوير الثانية هذه تعد أكبر من أحتها الطنطاوية وتزيد عليها بأنني انتحلت أيضاً صفة موظف عمومي من رجال الدولة !

لقد استسهلت هذا الجرم لأن الإنسان متى اندفع في سبيل ما اتخليص نفسه أصبح لا يبالي بشيء وخصوصاً إذا كان لا يضر بهذا التزوير أحداً . وفي الصباح الباكر نهضت وأعطيت الخادم أجرة الغرفة ومعها قرشين (للبخشيش) فسر بهما . وكنت في ذلك الحين مضطراً إلى مشترى (قفطان) لأتم به طابع المشايخ ويجب أن يكون قديماً لأن الجديد يبعدني عن السمة التي أريدها ، فسألت خادماً الفندق عن السوق الذي يبيعون فيه الملابس القديمة ، فحملك بي قليلاً ثم غص بصره لأنه ظنني « ضابط شرطة » متنكر أطارده لصوصاً وأبحث عن مسروقات ! بدليل أنني نمت في استراحة الحكومة . ومن غير المعقول أن القاضي الشرعي الذي يدفع ريالاً للنوم وبخشيشاً ، ينحط إلى درجة السؤال عن محال بيع الملابس القديمة . فقال إنهم « يا سعادة اليه » يبيعونها بحجى (العبارة) بفتح العين وتشديد الباء ، فركته وذهبت إلى إحدى القهوات البلدية فوجدت بعض الناس يلعبون الداما^(١) فجلست بين المتفرجين مطمئناً ،

(١) هذه اللعبة الجميلة تشبه الشطرنج في كونها حسابية تحتاج إلى تفكير وسعة حيلة وليس فيها =

لأن لهذه اللعبة التي تشبه الشطرنج عشاقاً . ومن العادة أن يتكأ كائناً عليها الهواة على غير معرفة وبدون أن يتفرغ أحد منهم لسؤال الآخر من أين جاء ومن هو وماذا يشتغل !

إلى الصحراء الغربية

ولما اقترب الظهر فكرت في تنفيذ ما عزمت عليه فنهضت وغادرت القهوة وذهبت إلى محطة السيارات وسألت عن سيارات متجهة إلى (النجيلة) فإذا بسائق أتوبيس يناديني ويقول (إلى النجيلة) فركبت معه ولما سارت العربى وجدتها تركض إلى جهة معاكسة للاتجاه الذى أريده فسألت أحد الركاب (رايحين فين) فقال إلى كوم حمادة فقلت للسائق أنا أريد النجيلة على خط (أبو المطامير) و (حوش عيسى) فقال (ويوجد أيضا نجيلة عند كوم حمادة زى بعضه خليك معنا) فاندعشت من وقاحة هذا المخلوق الذى يريد أن يسافر بى شرقاً وأنا أريد السفر (غرباً) ، فنزلت من سيارته بعد أن تكبدت أجرة تضليله أيضاً ، ثم رجعت إلى دمنهور بعد أن مشيت نحو نصف ساعة ..

وذهبت إلى محطة سكك الحديد الدلتا فركبت القطار ، وهو خط ضيق زرى متعب ، وجميع ركابه من فقراء الفلاحين بمشنتهم وقففهم وخرافهم وأقفاص دجاجهم ، فإن سلمت من القاذورات والقمل فلا تسلم من اللسك ومن تمزيق ملابسك . وكان الزحام شديداً والقطار

== شئ من عمل الحظ أو البخت . وكنت وأنا ولد صغير أهرب من الكتاب فى يافا وأقضى يومى واقفاً فى إحدى القهوةات أفرج على اللاعبين إلى أن أتفتها وصرت أغلب مشاهير رجالها فصار الذين يتفرجون عليها يتفرجون أيضاً على الولد الصغير الذى يغلب الكبار ! وكان يأتى من دمياط إلى يافا لاعب مصرى مشهور لمنازلة لاعبى يافا اسمه الحاج محمود الألاوى وكان تاجر بطيخ فى أيامها ، كما كان يأتى لهذه المنازلة من بيروت لاعب مشهور أرجح أن اسمه عمر الميقاتى ، فكان مشاهير اللاعبين فى يافا وما كان أكثرهم فيها ، يتواردون على القهوة التى يأتىها الألاوى والميقاتى للفرجة على لعبهما ، لأن أهل يافا كانوا يعتنون بلعبة الداما فلا تخلو منها دار من دور الدورات ولا قهوة مهما صغرت .

ملحق :- فى أثناء طبع هذا الكتاب رأيت فى القاهرة الحاج محمود الألاوى بعد أربعين عاماً - وهو الآن شيخ كبير ، فسألت عليه وسألته إن كان لا يزال يلعب الداما فقال إنه لم يجد فى مصر كلها من يقدر أن يلاعبه إلا السيد محمود حسين شقيق الأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة . فقلت له : وكيف اللعب فى يافا ؟ فإذا بالحاج محمود يجهش بالبكاء ويترحم على يافا الشهيدة وأيامها الجميلة ، رحم الله يافا ورحم أهلها الشهداء . ولا رحم الذين فرطوا بها وأضاعوها وأفقدوا فلسطين كلها فأذلوا العالم الإسلامى بخيانتهم حين ضيعوها .

يسير ببطء ولا تريد سرعته عن سرعة الحمار العادي ... فتذكرت كيف كنت أتضجر من طول المسافة باقطارات الفاخرة السريعة بين الإسكندرية والقاهرة وأنا جالس بالدرجة الأولى ثم أتضايق فأذهب إلى عربة (البولمان) وأتأفف من ساعتين ونصف ساعة أقضيها في تلك القطارات البديعة وهي تسير بسرعة ٧٠ كيلا في الساعة . ونزلت في محطة النجيلة وهي عبارة عن كوخ خشبي ولا يوجد بجوارها ما يدل على عمران ، فسألت موظف المحطة عن مزرعة (فلان) فأرشدني فسرت إليها . وسألت عن صديق قليل لي إنه ذهب إلى البلدة المجاورة فتركت المزرعة وجلست في أول الطريق العام أنتظره عند عودته في سيارته .

دهشة ومناقشة

وإذا بصاحبي قد وصل راكباً حماراً ومعه خادمه على حمار آخر ، فاعترضت الطريق واستوقفته وسألت عليه فحمله بي مندهشاً نخفت أن تبدر منه كلمة تفضحني فقلت له بصوت عال لا تهش يا فلان من عمامتي وجبتي لأنني تركت وظيفة المحكمة الأهلية والتحق بالحاكم الشرعية ، ثم غمزته ، بطرف عيني فأجابني بغمزة تشعرني بأنه فهم ... وصاح في الخادم يأمره بالنزول عن حماره وأن يساعدني على ركوبه . ركوب الحمار طبعاً ... ففعل ، وسرنا معاً حتى دخلنا منزله وهو يقع في طرف المزرعة وبجواره حديقة لطيفة فأمر باعداد الغداء .

الفرع وضيق التنفس

ثم جلسنا وحدنا نتحدث في أمري ، وكان وجهه مصفراً ، فسألته هل كنت عند الطبيب وهل تشكو من شيء ؟ فقال لا ، ولكن قصتك وموقفك من الحكومة أزعجني وأنا مصاب بمرض القلب ، ثم رجاني أن أتغدى وأسافر حالاً وفوراً ! فقلت له إني ممنون من صراحتك ، ولكنني أريد فقط أن ترشدني إلى وسيلة أصل بها إلى الواحات لأنني عزمت على اجتياز الحدود الغربية ونحن الآن على أطراف الصحراء فقال إننا في منطقة حربية محظور المرور فيها لغير أهلها ، فهي منطقة عسكرية ، وهاهي حركة النقلات الحربية قريبة منا . فقلت إذن سأبيت عندك الليلة فقط ، فقال أرجوك لوجه الله إن كنت تحبني أن تسافر حالاً لأنني بدأت أشعر بضيق في التنفس من هول ما ينتظرنني من الحكومة بسببك . فقلت وأين الحكومة هنا ؟ فقال

إن مأمور المركز يزورنا أحياناً كما يزور جيراننا فإذا أقول له عنك أو كيف أخفيك عنه إن جاء لزيارتنا ، ثم إن عمال المزرعة قد رأوك معي فيرتابون في ابتعادك عن مواجهته ، وقد يدفع الفضول بأحدهم إلى التساؤل وتكون النتيجة ضياعك وضياعي معك ...

وجاء الطعام فأكلنا ، ثم أمر لي بالحمار فركبت وأرسل الخادم معي إلى المحطة لنندرك آخر قطار لدمهور . ولما ودعني أراد أن يقدم لي مبلغاً من المال على سبيل القرض أو المساعدة فشكرته واعتذرت وقلت له إن احتجت فأنت المرجع ، ولما مشى القطار أخذت استعرض حوادث اليوم والمناقشة التي دارت بيني وبين صاحبي فعتبت عليه في نفسي ولكنني عذرته لأن المسألة خارجة عن إرادته ، أليس أنه رجل متقدم في السن وأنه مريض وكان صريحاً معي وكان كريماً أيضاً ؟

إلى القاهرة

لقد ضاقت الدنيا في وجهي فأين أذهب ؟ إن هذا الطراز من الحياة بدون استقرار ولا اطمئنان قد أزعجني كثيراً فنويت أن أضع له حداً ، ولذلك ركبت الأتوبيس إلى طنطا ثم ركبت سيارة أخرى فوصلت أطراف القاهرة قبيل الغروب ، ومررت من أمام منزلي بدون أن أتجاسر على رفع عيني نحوه ، وقد ساعدني الليل وإطفاء الشوارع بسبب الحرب على الاطمئنان في سيرى ، ولما ابتعدت رفعت عيني نحو دارى فرأيت بصيصاً من النور الخافت ينبعث من خلال النوافذ فاطمأن بالي ، ثم اندسست في الحارات الجانبية وذهبت إلى دار الشيخ يوسف عبد الرزاق المشهدي فاسترحت عنده وتعيشيت وقد سر بي كثيراً ، فقصصت عليه ما صادفت من متاعب ، وطلبت إليه أن يسعى في استئجار غرفة على سطح منزل كعادة الطلبة الأزهريين والمشايخ الغرباء وأن لا تكون الغرفة بجهة الأزهر أو في محيطه ، وإن أمكن العثور على طالب أمين ممن نعرف ويسكن وحده في غرفة بعيدة فأقطن معه ، فاستحسن ذلك وطلب مهلة قصيرة للتفتيش والبحث .

تفتيش دار الشيخ يوسف

وقبل أن أغادر الشيخ يوسف اعترف لي بشيء كان يفضل كتمانته عني وهو أن داره

قد فتشت بحثاً عنى منذ يومين فقط ، وأن بيوتاً كثيرة لأصحابى ومعارفى قد فتشت قبل ذلك ومنها دار الشيخ محمد صبرى عابدين ومساكن بعض الطلبة بخان الخليلى بجوار الأزهر، فطلبت منه أن يبحث عن المسكن فى غير منطقة الأزهر ، كمصر القديمة أو القلعة أو السيدة زينب . ثم وعدته بالرجوع إليه بعد أيام ، ثم سألت الشيخ يوسف عن ملابسى التى هربت بها من المستشفى وتركتها عنده، فقال إنه لبسها تحت جيبته وانتعل حذاءى الافرنجى على ضيقه وذهب إلى بيتى فى إحدى الليالى وسلم ذلك إلى الخادمة ورجع . فقلت وكيف رجعت حافياً فقال : كلا لم أرجع حافياً لأنى أخذت حذاءى فى عبي ، ولما شرعت أضع الدرج نزعت حذاءك وانتعلت حذاءى كما نزع الباطون من تحت الجبة قبل أن أبلغ مسكنك ، فضحكت وقلت : ما أحلى وأجمل لو رآك أحد السكان أو الخدم تشتغل بإخراج الحذاء من عبك وتقلع الجبة وتخلع الباطون فصاح امسكوا يا ناس هذا حرامى ! فقال والله إنها تبقى زفة وخيمة العواقب ولكن الله سلم .

وبعد ذلك ودعت الشيخ يوسف واعتذرت عن المبيت عنده خوفاً من قريب له متصل بالبوليس السرى وهو معروف بهذه الصفة من قديم ، مع أنه عالم ومدرس ولكنه مع ذلك لم يتورع عن اجترار هذه الكبيرة شرعاً وخلقاً .

فارت الشيخ وأنا أفكر فى مسألة تفتيش بيته وبيت الشيخ صبرى وبيوت الطلبة فلغنت ذلك الجاسوس اللعين الذى سلطه الاستعمار على الأزهرين بعد أن بهر عينيه بأمواله حتى أفقده ضميره المريض وأنساه دينه ووطنه .

درس الأحوال والأخبار

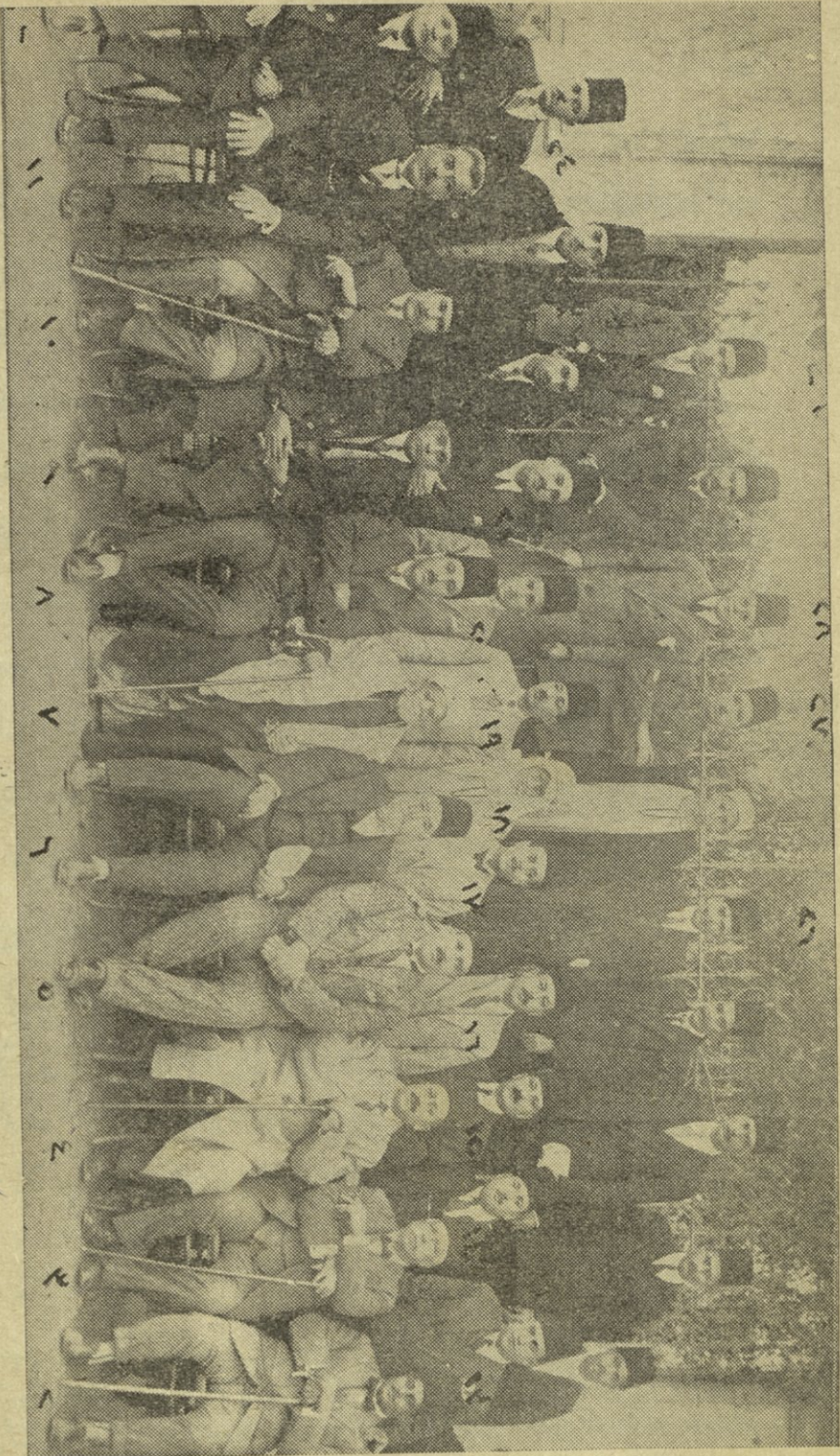
ولما لم أجد عند الشيخ يوسف شيئاً من أخبار أهل بيتى، لم أستغرب ذلك، لأنهم يتصلون بالكتور بشناق بك والأخبار عنده ، فهيا إذن إلى مصر الجديدة ، وركبت الترام مندساً بين عشرات الركاب وكان الظلام خير معين لى على التنقل وسرعة الحركة ، ثم ركبت قطار مصر الجديدة ونمت عند الدكتور مصطفى بك البشناق فكان فرحه بى عظيماً ، فسألته عن أخبار أهل بيتى فقال إن البوليس يرقب باب الدار ليلاً ونهاراً ، فإن زارت بعض السيدات أهل بيتى

لحق بهن البوليس وقتش منازلهن بحثاً عنى ، وإن خرجت قرينتى لزيارة إحدى معارفنا دهموا دارها ! فلم يسع قرينتى إلا حبس نفسها فى المنزل بعد أن أشعرت من يعرفنا بعدم الحىء لزيارتها ، فأصبحت الآن محصورة فى الدار لا تزور ولا تزار ، ولولا أننا نسكن عمارة فيها جيران يزورون قرينتى وتزورهم لكانت حياتها حياة السجون !

ثم تحدثت مع الدكتور عن الحرب وهل تنتهى قريباً وأستريح من عذابى ، ثم بحثنا فى كيفية الاستمرار على الاختفاء والتنكر وعن الذين سألوهم عنى فإذا بعددهم ليس بالقليل ، ومنهم منير فرح الذى قبضوا عليه وسجنوه ليعترف لهم أين أنا ، فى حين أن الرجل لا يدري عنى شيئاً^(١) ، وقص على أمين العورى كيف أن ضابط بوليس التجري محمد يوسف قد طرق داره بشكل مبتكر ، وذلك أنه استخدم لهذا الغرض صاحبنا « س. ا. » فجاء به معه بصفة أنه يريد « التعرف » بواسطته على العورى ، وبهذه الوسيلة دخل محمد يوسف داره دخولا قانونيا ... ثم طلب أن يراها فطاف غرفها كلها ... ولكنه لم يجدنى فغادرها بعد أن أظهر إعجابه بالدار ! إن محمد يوسف لم يكن معه أمر بتفتيش دار هذا الرجل رسميا فلجأ إلى استخدام « س. ا. » فساعدته على دخولها باسم « التعارف الشخصى » وبهذه الطريقة لا يستطيع صاحب الدار أن يحتج أو يقول إن أحداً قد فتش داره !

إن فعلة « س. ا. » ليست غريبة منه ، فهو رجل غدار متلون منافق ، لا يعزى زماما ، ولا يحفظ عهداً ، ولا يفى لأحد ، إنه رجل صغير حقير حسود كنود ، مارأيت فى حياتى ولا سمعت بمثله فى نكران الجميل ، وجحود المعروف ، وانتهاز الفرص . والغريب منه - ولا غرابة - إنه لا يسىء إلا لمن يحسن إليه ، والعياذ بالله .

(١) التقيت بعد زوال المحنة بمنير فرح فأخبرنى كيف دهموا بيته وفتشوه وأخذوه وأهل بيته إلى سجن الموسكى ثم إلى مراكز القيادة البريطانية العامة « بجاردن سى » واستجوابه تحت التهديد بضربه بالعصى لجمه على الاعتراف عن « الجمعية النازية التى كنت رأسها أنا ! » أو إعطاء بيانات عن كيفية معرفته بى ومكان اختفائى ، فى حين أنه لم يدر بذلك إلا من هؤلاء الزبانية الأشرار ، وبعد ذلك سجنوه بسجن الأجانب سبعين يوما ثم أطلقوه .

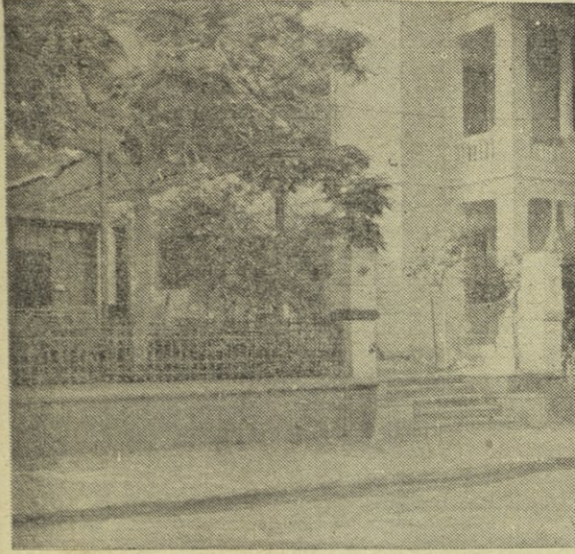


أُسجل هذه الصورة التاريخية هنا لأن أسماء بعض الشخصيات التي تظهر فيها قد وردت في الصفحات السابقة . كما أن بعضها سيظهر في الصفحات الآتية . وهذا بيان الأسماء بحسب الأرقام « ٤ » المرحوم أحمد حافظ عوض بك « ٥ » فوزي بك البكري « ٦ » المرحوم أحمد زكي باشا « ٧ » المرحوم الشيخ علي سرور الزنكلوني « ٨ » السيد شكري القوتلي رئيس جمهورية سورية بعد ذلك « ١١ » المرحوم نسيم صبيحة « ١٢ » المرحوم نجيب بك شقير ، وفي الصف الخلفي « ١٥ » أسعد دافر « ١٦ » المرحوم الحاج أديب خير « ١٧ » محمد علي الطاهر صاحب هذا الكتاب « ٢٠ » المرحوم الأستاذ محمد لهيلوي « ٢٢ » خير الدين الزركلي « ٢٣ » المرحوم مظهر بك البكري « ٢٤ » السيد مكرم السكيلاني ، ووقف في الصف الأخير « ٢٦ » المرحوم محمود شوكت بك مدير اليوم سابقا « ٢٩ » السيد نجيب الارمنازي وزير سورية القوض بعد ذلك في لندن

حيرة الطريد

استشارات ومداولات

شرحت للدكتور بشناق وأمين متاعي وحاجتى إلى مأوى ، ثم اتفقنا على استشارة



طرف من حديقة قهوة بلмира بشارع الأهرام بمصر الجديدة
وعى تقع أمام شايك الدار التى اختفيت فيها

يجلس أمام نوافذنا ويدخن الشيشة ! فقلت له دعه يدخن الشيشة على كيفه ...

عند حافظ بك

إن حافظ بك عوض يعد فى مصر من خيرة رجالها وقد وصفته فى صفحات سابقة وكانت تربطنى به صداقة قديمة ، وقد اشتهر منذ القديم بالوفاء وصدق الوداد وخفة الروح ، وطالما فتح لى صفحات جريدته لأصول فيها على الاستعمار وأعوان الأجانب ، وكان الدكتور مصطفى بك قد اتصل بحافظ بك تلفونيا ليتأكد من وجوده فى الدار فإذا به يسأل الدكتور عنى وعن أحوالى فى السجن ، وأنه لم يدخر جهداً فى السعى للإفراج عنى ، فقال له الدكتور إننى عازم زيارتك للتحدث بشأن أبى الحسن فقال إنه بالانتظار .

الشيخ حزنبل

ووصلت السيارة بنا إلى دار حافظ بك فوجدناه يتمشى فى الحديقة فلما رآنى معهما لم يشك فى أننى زائر جديد جئت معهما لأنه كان يجهل نبأ فرارى من السجن ، فرحب بنا

وقادنا إلى الصالون ثم بادرها بالسؤال عنى وكيف حالى ومعنوياتى فى السجن وإلى أين وصلت مسألتى، وهنا أظهرت له نفسى فاندھش وقام يعانقنى ويهنئنى بالسلامة ويسأل ما خبر هذا التنكر ومتى كان الإفراج... فقصصت عليه الحكاية المعروفة عند قرأى فضحك ضحكته المبهجة ولم يفارقه مرحة ولا خفة روحه وقد أطلق على اسم «الشيخ حزنبل» فضحكنا من هذه التسمية!

وبعد المذاكرة مع حافظ بك وتقلب الأمور والاحتمالات قال لى بصراحة ما خلاصته: إن الذى أقدمت عليه لأمر عظيم وما هو بالهين لأن الحكومة لن تسكت على هذا التحدى وستبذل جهدها وجميع وسائلها للقبض عليك إلى أن تظفرك حياً أو ميتاً لأن كرامتها خدشت بل وجرحت بشكل مثير وخصوصاً أمام الإنكليز، فيجب الاحتياط الشديد إلى أقصى حدود التحفظ ثم قال إن الذين يهربون من «الدولة» يضطرون أحياناً إلى صبغ وجوههم وتشويه بعض أساريرهم، فالأمر خطير، ثم سألنى هل أنتقل وحدى؟ فقلت نعم، فقال ستتع بيد البوليس حتماً مادمت تسير وحدك، إن كل إنسان يهرب من الحكومات لابد له من رفيق أو دليل يتستر عليه، ويجوس له السبل قبل كل حركة، ثم شرح لنا عيوب الالتجاء إلى القرى والساكنين وقال إن الحياة مستحيلة فيها إلا لأهلها، كما أنه لا يوجد فيها شئ من أسباب الراحة، فلاخبأ ولا محل للأجرة ولا طعام ولا مطاعم، فكل طارئ جديد فيها يعرف حالاً، وإن تكتم ارتابوا به وأكثروا من الكلام حوله فينكشف، ثم نصح بأن ألتجأ إلى المدن الكبيرة بشرط أن يكون لى رفيق.

سمعت هذا الكلام فأنخلع قلبى، لأن حافظ بك صور لى الحقيقة المفزعة والمستقبل المهائل أدق تصوير، فقد جربت وذقت فى الأيام التى قضيتها قبل وبعد ذلك أنواع القلق والعذاب، وهنا اكتفينا بهذه المعلومات والآراء الناضجة ولم نفتح فى أمر الاختباء بمزرعته، وبعد قليل ودعنا وانصرفنا. وبينما كنا نسير فى الحديقة نحو الباب مال حافظ بك على أذنى يقول لا تظهر للناس فى النهار لأنى لما تركتكم منذ دقائق لأرد على التليفون جاءنى خادمى الحبشى ووشوشنى بأنه عرفك عند تقديمه القهوة ولذلك أوصيت الخادم بأن لا يفتح فيه فقال لى كيف أتكلم وأنا أعرف الأستاذ الطاهر وكنت أقرأ جريدته التى كانت تدافع عن مسلمى الحبشة، الله يسلمه.

عند الأستاذ الياس

رجعنا إلى مصر الجديدة ولكنني لفرط حذري قررت ألا تكون العودة لبيت الدكتور تجنباً للطوارئ، وكانت السيارة في تلك اللحظة تقترب من دار صديقي الأستاذ الياس أنطون الياس^(١)، فاستوقفت التاكسي وطلبت من الرفيقين مواصلة السير إلى قهوة بلميرا كعادتهما كل يوم وبعد ساعتين يعودان لقابلي في منزل الأستاذ الياس حيث أريد الاستراحة وتناول الغداء عنده.

مباغطة محرجة

صعدت إلى دار الأستاذ الياس وقرعت الجرس ففتح خادم أسود، ولما انفرج الباب لمحت في الصالون المقابل قسيساً كان واقفاً يكلم قرينة الأستاذ الياس، فلم يرني، كما أن السيدة لم ترني، فاندعشت من هذه المصادفة واحترت ماذا أقول للخادم في هذه اللحظة، لأنني لا أريد أن أواجه قسيساً وأنا شيخ، في دار أسرة مسيحية، كما أن بحجتي سيسبب دهشة لصاحبة الدار وهي ترى شيخاً يدهم بيتها بلا إذن ولا معرفة سابقة وفي لحظة كانت تستقبل فيها قسيساً! وماذا أقول لها أمام القس وكيف أكشف لها بحضوره عن شخصيتي، وهناك الخادم أيضاً فإنه شخص مسلم متدين، فلا بد أن الفضول سيدفعه إلى الفرجة على الرواية التي ستمثل أمامه، كما أن هناك مشكلة أخرى وهي دهشة القسيس وغضبه من رؤية شيخ يدخل على سيدة تقية من رعيته، فقد يرتاب في تدينها! إن تفسير حالتي للسيدة أمام القس وأمام الخادم تصبح مشكلة، كما أن تفسير استقبال السيدة المسيحية لشيخ مسلم يصبح مشكلة أخرى، فالوقوف كان حرجاً أشد الحرج، فاستحضرت ذهني في تلك اللحظة وحسمت ذلك الموقف الدقيق بحركة واحدة وخطوة واحدة، وذلك أنني بمجرد أن انفتح الباب ورأيت القس، دخلت بسرعة البرق بلا إذن ولا تعريف وانعطفت شمالاً إلى غرفة المائدة، وجلست

(١) هو العالم المحقق الذي ألف « القاموس العصري » الكبير باللغة الإنجليزية والعربية، ثم القاموس الثاني بالعربية والإنجليزية، فالقاموس العصري الثالث باللغة العربية والفرنسية وغير ذلك من الكتب المدرسية في هذه اللغات، وهو رجل فذ في عصره خلقاً ووفاء ووجاهة.

في زاوية لا يرانى القس فيها ، وأعطيت ظهري للباب أيضاً ... فهرول الخادم في أثرى قائلاً « عاوز إيه ياسيدنا الشيخ » فقلت له « أخبر السيدة أم إدوار بأن الشيخ محمد بتاع المطبعة سابقاً يريد أن يقابلها » وهنا سمعت سيدة الدار تسأل بصوت عال « كنت بتفتتح لين يا محمد ؟ » وسمعت محمد يقول لها « هذا الشيخ محمد بتاع المطبعة عاوز يقابلك » وبعد لحظة سمعتها تودع القسيس وتعلق خلفه الباب، وكنت في أثناء ذلك قد خلعت العمامة والنظارة ، فلما أقبلت أم إدوار إلى حيث أنا بادرتها بالتحية والابتسام، فلما عرفتني رحبت بي ألطف ترحيب ، وأسمرت من فورها تنادى الخادم وتأمره بصنع القهوة للشيخ محمد الذي كان مصحح المطبعة ويعلم ولدها أدوار اللغة العربية ... وقد أصابت في هذا التفسير المعقول لأن هذا الخادم النوبي لا بد له في ساعات استراحته من أن يجلس في قهوة « البرابرة » وأن يتحدثوا بعضهم بعضاً بأخبار المنازل التي يعملون فيها، فلوزكر محمد أمامهم أن شيخاً مريباً جاء دار محمدية المسيحيين فلا بد أن يسمع هذا الحديث أحد مخبري البوليس الذين يندسون في القهوات للتسمع ! وخصوصاً قهوات البرابرة لاستطلاع أخبار البيوت والأسر ، بل قد يكون الخادم نفسه من أتباع البوليس، وطالما استعان بوليس الجواسيس في الدنيا كلها بمعلومات الخدم عما يجري في داخل البيوت، وبالأخص خدم الفنادق، فهم من أعظم المصادر لشرطة التحري ، ولذلك أعجبتني سرعة خاطر أم إدوار التي أشعلت الخادم بالمطبخ طول المدة التي قضيتها في دارها وحالت بينه وبين مغادرة الدار قبل أن أغادرها أنا ، حتى لا تفلت منه كلمة إن كان قد ارتاب بشيء ، أما إن تكلم بعد براحي فلن يكون لكلامه قيمة . ودق التليفون فإذا بإحدى قريبات أم إدوار تريد المجيء للزيارة، فردت عليها بأنها غير مستعدة اليوم لقبول الزيارات بسبب عزيمتها الآن على النزول إلى البلد ... ثم دق التليفون من سيدة أخرى تريد الزيارة بعد العصر فردت أم إدوار ، بأنها لن تكون في الدار في ذلك الوقت لأنها على موعد في جهة كذا ، والخلاصة أنها منعت أيا كان من غشيان منزلها في ذلك اليوم ، أما أنا فقد استغدت فائدة عملية من هذه التليفونات ، وهي أنه يجب على الذي يريد الاختباء أن يتجنب المنازل التي تسكنها عائلات وفيها خدم، ولماذا أذهب

بعيداً ، أليس أن اختباء الأستاذ أحمد حسين عندي قد اقتضى نزوح أهل بيتي عن الدار ووضع قواعد وتعليمات عديدة وشديدة ؟ هذا إلى أن اختباء شيخ في دار مسيحين ، يكون أدعى إلى الظنون والشكوك ، لبعدها المشاكلة وانعدام التناسب ، ويكفي التقاى بالقسيس منذ ساعة واحدة فقط ... وبعد قليل وصل إلى الدار الدكتور بشناق وأمين كما اتفقنا ، فرحبت بهما أم إدوار ، وبعد قليل جاء رب الدار الأستاذ إلياس ومعه إدوار ، فلما رأنا إلياس رحب وأهّل ، وبادر بالاستفهام من الصديقين عني وكيف حال في السجن ، وكان مهموماً على ومتألماً ، ولكنه بطبيعة الحال لم يعرفني ، بل ظنني رفيقاً للإثنين ، ولم يسألني عن اسمي تأدباً منه مع ضيف لم يره قبل الآن ، منتظراً أن يقوم أحد الرفيقين بهذه المهمة كما تقضى الأصول ...

مداعبة ...

ولما فرغ القوم من الحديث عني داعبت الأستاذ إلياس ثم أظهرت له نفسي ففرح ورحب وهناً ، إلى آخر الأسطوانة المعروفة ... وبعد الغداء تذاكرنا وتشاورنا فيما كان وما ينتظر أن يكون ، فرتبنا بعض الأمور . وبعد العصر ركبت سيارة الأستاذ إلياس بعد أن نزع العمامة عن رأسي ووضعت النظارة السوداء على عيوني ، وكان يقود السيارة نجله إدوار فأوصلني إلى نهاية حي شبرا حيث تبدأ طرق السيارات الرئيسية إلى شمال القطر المصري ، وقد مررنا في طريقنا من مصر الجديدة إلى شبرا بحى القبة حيث يسكن حمدي محبوب ورأيت البوالميس الذي يحرس باب داره ، فتمنيت أن أرى هذا الباشا في تلك اللحظة لأرجمه بحجر على الأقل ... ولما مرت بنا السيارة من تحت شبايك منزلنا بشبرا رفعت بصرى إليه فرأيت الخادمة تنظف الشرفة الشرقية فاطمان بالي .

ودعت إدوار عند آخر شبرا وشكرته فعاد إلى مصر الجديدة ، أما أنا فمشيت كيلومترين ثم ركبت سيارة أتوبيس أوصلتني إلى طنطا ثم ركبت أخرى إلى دمنهور ، وفي المساء قررت أن أبيت في الإسكندرية لأبحث فيها عن مأوى فركبت آخر سيارة أتوبيس متجهة إليها .

حادثة ينشف الدم

كان البرد شديداً في تلك الليلة ، وزاد في شدته إننا كنا نواجه الشمال ، فكان الهواء يعصف والمطر يهطل والركاب سكوت ، فسألت أحدهم عن ساعته فإذا هي تؤذن بانتصاف الليل ، وأخذت السيارة تقترب من الإسكندرية وهي منطلقة تسابق الريح ، فأخذت أفكر في مصيرى وأين أنام الليلة على الأقل ، حير الله الاستمرار كما حيرنى ، وأشقاء كما أشقانى . وإذا بالسيارة تخفف من سرعتها بشكل ملحوظ ، فامتدت أعناقنا إلى الأمام لنستطلع السبب فإذا بأضواء تلوح في الأفق وتخترق ذلك الظلام الدامس من بعيد ثم تنجو ، وأخذت السيارة تبالغ في تخفيف سرعتها ، إلى أن اقتربنا من ذلك الومض أو أنه اقترب منا . فإذا به أضواء بطاريات كهربائية مما يحمل باليد ، وأخذ حاملوها يشيرون إلى السيارة بالوقوف ، فأيقنا بأن هناك لصوصاً قد ظفروا بنا ، فأطلق السائق نوحهم أنواراً بعيدة المرمى فتكشف الحال عن عدد من رجال البوليس يعترضون الطريق وأسلحتهم مشرعة في أيديهم ، ولما وقفت السيارة أحاطوا بها من كل جانب وقد صوبوا إليها بنادقهم وأضواء بطارياتهم ، ثم سألوا السائق : أقدم أنت من دمنهور ؟ فقال نعم ، فقال رئيس الجند ، وهل أخذت ركاباً من بلدة أبو حمص ؟ فقال نعم ، عند ذلك صعد جندي إلى السيارة من بابها الخلفى وصعد آخر من الباب الأمامى وفي أيديهما البطاريات مصوبة تلقى الضوء على الركاب ، أما أنا فقد جمد الدم في عروقي وخفق قلبي خفقاناً سريعاً ، وإذا بالجندي الذي يواجهني وضوء بطاريته يبهري عيني ، يصيح برفيقه الذي جاء من خلفي ويقول له : (حوش من عندك يا محمد أهو وجدناه...) ثم هجم نحوى بدون أن أتحرك أو أن ألتفت ، ومد يده ، ولكنها لم تقع على أنا كما كنت أتوقع ، بل وقعت على الركاب الآخر الذي يجلس معي على المقعد وأمسك به . جرى هذا كله في لحظة خاطفة لا مجال فيها للتفكير ، وبهت الركاب وساد السكون ، وإذا برجل الشرطة يجر ذلك الركاب وينزله من السيارة ، وكان الشرطي الآخر يمد يده إلى تحت المقعد ويسحب قفة ويكشف عنها ...

أما أنا فقد سكن طأري وهدأت أعصابي وتشاغلني بإخراج سيجارة فأشعلتها بكل ثبات ، كأن الأمر كله لا يهمنى ، وأما القفة فلم نشك في أنها تحتوى على جثة قتيل أو أشلاء من حثة !

ولما رفع البوليس غطاء القفة ظهر تحته قطعة لحم من كتف عجل مذبوح من ساعة . وهنا تبين أن المسألة هي عبارة عن شخص يهرب إلى الإسكندرية الاحوم المذبوحة سرّاً بقصد الإفلات من رسوم الحكومة التي تؤخذ على الذبائح ... وبعد ذلك انطلقت السيارة في طريقها وأنا ألعن الساعة التي ركب فيها معنا ذلك السخيف الذي كان السبب في تنشيف دمي من أجل بضعة قروش ما كان أهونها .

ليلة في الإسكندرية

كان الهواء البارد يهب على الإسكندرية لما دخلتها في تلك الليلة السوداء القاتمة . وأخذ المطر يهطل رذاذاً بغير عنف ولكنه كان متواصلاً، فنزعت العمامة ودسستها في عبي ، ووضعت الشال على رأسي ومشيت . ولكن إلى أين ؟ لقد تجاوزت الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل ، والمدينة مطفأة تماماً خوفاً من الفارات الجوية ، فواصلت السير في ظلام دامس لا تظهر فيه معالم الطريق ، فكنت أتمتر بهذا الرصيف وأصطدم بهذا العمود وأنطح ذلك الحيط ... أخذت ألتمس فندقاً أنام فيه ولكن أين هو الفندق ؟ لقد اختلطت على الشوارع والطرقات فما عدت أدري أين أنا ، فأشعلت سيجارة لأستضيء بوهجها على قدر الإمكان ، فإذا بصوت ينتهرني ويقول : ارمي السيجارة يارجل ، ففهمت أنه من رجال العسس ، فرميت السيجارة واقتربت منه وحيثه وسألته عن فندق ، فقال ارجع من الطريق الذي جئت منه وامش إلى اليمين واسأل الناس . فرجعت وأنا ألتمس الطريق وانعطفت إلى اليمين كما قال الشرطي ، ولكن أين هم الناس ؟ ثم مشيت مرهف السمع أنشد مخلوقاً يدب على الأرض لأسأله ولكن هيهات ، إن الناس في مثل تلك الساعة لا يمشون في الشوارع ، وإن مر أحد فهو يركب سيارة أو مركبة ، فمن لي إذن بمخلوق يمشي على الأرض مثلي استرشد به ؟ وهنا خطرت ببالى السيجارة فأشعلت واحدة ومشيت وقلت في نفسي لا بد أن يراني أحد العسس المختبئين من البرد والمطر في إحدى الزوايا فيصيح بي فأسأله . وقد كان ماتوقعته . فأرشدني الشرطي إلى شارع شريف باشا وقال إمش على طول فهناك منطقة الفنادق ، وبالاختصار اهتديت إلى فندق ، وكانت فنادق الإسكندرية وقهواتها في تلك الأيام تسدل ستائر سوداء على الأبواب لمنع الضوء من الوصول إلى الشوارع .

ولكن أهل الفندق ردوني وقالوا إنه مزدحم بالنزلاء ، فلم أصدقهم ، ومع ذلك انصرفت
أبحث عن سواه ، وقد خطر لي أنهم رفضوني بسبب مظهرى وسوء حالى ، فادعوا مسألة
الازدحام بقصد التخلص منى ، ثم عثرت على فندق آخر فأجابونى بما أجابنى أهل الفندق
الأول ، ولكنى وجدت المدخل ممتلئاً بالحنائب والأمتعة ورأيت بعض « الخواجات » ينامون
فوقها . فاندعشت فرجعت وعذرت الفندقين وأنا أفكر فى سبب ازدحام فنادق المدينة فى
أيام الحرب بينما الناس قد فروا منها بسبب الغارات وكنت أظنها شبه خالية من السكان .
ولما وصلت ميدان المنشية حيث تكثر الفنادق الرخيصة دخلت فندقاً كنت أعرفه من قديم
وهو (اللوكندة العثمانية) وكنت أعرف صاحبها أدهم أفندى وهو كرىدى الأصل كان معتقلاً
معنا فى الحرب العظمى الأول بمعتقل الجزيرة ، فأزحت الستارة السوداء عن الباب ودخلت
وطلبت غرفة فأجابونى بالإجابة المعتادة وهى أن الفندق مزدحم بالنزلاء . فلم أتردد عن
استعطاف الخادم بأن يدبرنى هذه الليلة فقط بأى شكل كان ، فسمح بغرفته وهى على السطح ...
وسألت الخادم ونحن نصعد الدرج عن سبب ازدحام فنادق المدينة فى هذه الظروف فقال إن
السلطة العسكرية البريطانية قد حجزت جميع فنادق المدينة لإيواء الإنكليز الهاربين من
البلقان ومن اليونان ومن بحر إيجة ، حيث دهمهم الألمان ففروا بالبواخر والزوارق وبالطائرات
ومعهم عدد من أهالى تلك البلاد الذين كانوا من أعوانهم ، ففهمت أنهم خونة بلادهم الذين
يفرون مع الأجنبي المهزم خوفاً من انتقام أمتهم ، ففكرت يدي سروراً وشماتة بالجميع ...

ويوم فى الإسكندرية

لأدرى كيف نمت فى تلك الليلة التى كانت ليلة نابغة لا أعادها الله ، وفى الصباح الباكر
كنت أغسل وجهى من إحدى الحنفيات فإذا أنا بين عدد من جنود الجيش البريطانى ، وكانوا
يقطنون ذلك الفندق ، وبعضهم كان يتكلم العبرانية وبعضهم بالعربية الفلسطينية ، فكدت
أصعق من هول ما رأيت وسمعت . إذن فأنا فى وسط معسكر بريطانى ، فلو قبض على بهممة
الاندساس بين « قوات صاحب الجلالة البريطانية » لكانت المصيبة عظيمة ! إن بعضهم من
فلسطين وطنى القديم ، لعنهم الله ، يسكتون على استعباد وطنهم ثم يعملون كجنود فى جيش الدولة

التي أهلكتهم ، فمنهم مالها ومنهم جنودها ، وقد قرأت بيتا للقاضي الشاعر الشيخ محمد الزين
يصف عبيد الاستعمار قال :

وأعس خلق الله في الذل أمة تضام ومنها للذي سامها جند
كنت على نية قضاء نصف النهار في ذلك الفندق ولكن وجود هؤلاء الجنود - وقد أعر
بأحدهم فيعرفني - جعلني أغادره بلا تردد . وبحث عن دكاكين يبيع الملابس القديمة بجمه
الخير فاشترت قفطانا حريريا أزهريا قديما مهلهلا ، وقد لبسته فوق الجلاية بعد أن شمرتها
وشبكها من الداخل بدبوس عانيت من وخزاته طوال ذلك اليوم عذبا أليما ، وقد سرحت
في أحياء الإسكندرية أسير على غير هدى ، فتذكرت حكاية اليهودي التائه ...

ذكريات وعمى قلوب الطليان

ولأدرى لماذا ساقنتي قدمي إلى حي كرموز وباب سدره ، فقد رأيت حارات برمتها قد
زالت من الوجود بفعل قنابل الطائرات الإيطالية المجرمة التي أعماها الله عن تل أبيب عاصمة
اليهود بفلسطين وعن الأسطول البريطاني الذي يملأ ميناء الإسكندرية ، فرمت نيرانها على
أحياء المسلمين فيها ! لقد كنا نتساءل في أيام الحرب لماذا لا تضرب طائرات الألمان والطليان
مدينة تل أبيب ، بل تضرب يافا والإسكندرية وحيفا ؟ بينما كانت تل أبيب هي المصنع الأول
للانكليز في الشرق الأوسط ، وكنا نقول إذا كان المحور قد نسى تل أبيب فلماذا لا ينبهه إخواننا
الموجودين بألمانيا إلى تجنب المدن العربية ووجوب زيارة العاصمة اليهودية ؟ بقي هذا السؤال
بلا جواب إلى أن انتهت الحرب ، فسألناهم فقالوا إننا نبهنا الألمان والطليان إلى هذه المسألة
مرارا ولكنهم لم يصغوا إلينا ، ولما بحثنا عن السبب فهمنا أن الطليان كانوا يحلمون بالاستيلاء
على فلسطين وأن يأخذوا مدينة تل أبيب سليمة ليستفيدوا مما فيها من مصانع حربية ومعامل
صناعية وثروة لا تحصى ... فما أشبههم بالكلب الذي كان يعض على عظمة فلما رأى خياله
في الماء ظن أن هناك كلبا آخر وأن العظمة التي يعض عليها أحسن من التي معه فألقى عظمته
في النهر وقفز إلى الماء وغطس للبحث عن الكلب الآخر فلم يجده فعاد يبحث عن العظمة
التي كانت بين فكيه فلم يجدها وكانت النتيجة أن تل أبيب بقيت سليمة !

ذكريات !

ونجاة وجدت نفسي أمام مركز بوليس كرموز ! فتذكرت أنني دخلته منذ ربع قرن مقبوضا على ، وقد أمضيت فيه قبل إرسالى لسجن الحضرة نحو شهرين محجوزا بأمر السلطة العسكرية البريطانية في الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٥ فمرت بخاطري كيفية معاملتي فيه على أيدي الإنكليز وقارنت ذلك بمعاملي بعد ربع قرن على يد حمدي باشا محبوب ورئيسه فترحت على الإنكليزي... ذلك أني كنت في مركز بوليس كرموز محجوزاً فكنت أجلس طول يوم ومعظم الليل مع الضباط والجنود وأنام الليل على مقعد مريح في غرفة (المأمور) وأما سجن حمدي محبوب بعد ربع قرن وفي عهد الاستقلال فكان قبرا مغلقا ليلا ونهاراً، لا أكل فيه أحداً ولا يكلمني أحد ، ولا أرى أحداً ولا يراني أحد ! لذلك ترحمت على الإنكليز !

مصادفة

واخترقت بعد العصر أهم نقطة في الإسكندرية ، تلك هي الشوارع التي تتجاوز محطة الرمل ، ومررت من أمام حلواني «التريانون» فكان الزحام في تلك الجهة شديدا ، ومر بي اليوزباشي أحمد الطاهر حسنين رئيس البوليس السري بالإسكندرية « وهو الآن قائمقام » وكان يعرفني لما كان ببوليس القاهرة . وقد زارني مرة بمكتبي زيارة (حبية) سنة ١٩٣٤ بشكل لبق مدعيا أنه يسأل عن جاري طبيب الأسنان فضحكت يومها وقلت له كيف يصدق الإنسان أن طبيباً مسيحياً يعمل في يوم أحد بعد التاسعة مساء كما أن مواعيده في الأيام المعتادة تنتهي في السابعة ! ونحن الآن في الساعة التاسعة! ومع ذلك دعوته إلى الدخول فدخل وتناول القهوة عندي .. أقول إن ضابط البوليس السري أحمد حسنين كان هو المكلف في الإسكندرية بالقبض على ، ولكنه مر بي أمام التريانون ومررت به دون أن يخطر بباله أن الشيخ الذي يتعارج وهو ماشي وكاد يمس بكتفه كتفه هو الغنيمة المنشودة والضالة الموجودة ...

زيارة جمعية الشبان المسلمين

لم أكن في الحقيقة أريد زيارة الجمعية ولكني كنت أريد مواجهة الأستاذ علي محمد المصري وقد مر ذكره ، ولم أكن أعرف عنوان بيته فظننت أني أجده في الجمعية أو أعثر بواسطتها

على عنوانه ، فذهبت إلى دارها الجديدة في الشاطبي بعد تعب وتضليل ! ذلك أننى كنت أسأل عنها رجال بوليس الشوارع فكان كل واحد منهم يقذف بى إلى جهة مضادة ، وياعجباً لبوليس شوارعنا الذى لا يعرف اسم الشارع الذى هو فيه ... والخلاصة أننى وصلت فدخلت وسألت ففهمت أن معظم الأعضاء لا يزورون الجمعية فى أمسيات أيام الجمع ، ولحق الدكتور منصور القاضى بك سكرتير الجمعية العام فى مكتبه وهو مجاهد معروف ومن جماعة الحزب الوطنى الأولين الذين عملوا للوطن فى أوروبا وفى الشرق ، فتمنيت لو كان منفرداً لأجلس معه قليلاً وأتحدث إليه لأنه صديق قديم ، وكان عنده بعض الزوار فاضطرت إلى الابتعاد عن غرفته وأنا آسف . كان غرضى من البحث عن الأستاذ على المصرى أن أشكره على ما كتبه عني وأن أسترشد به لعلى أجد بإرشاده مأوى فى الإسكندرية ، أليس ان حافظ بك عوض قد نهى إلى ضرورة اتخاذ مرشد أو رفيق لمساعدتى على الاختباء والاختفاء ؟

يوم سعيد ...

رجعت من دار الشبان المسلمين وقصدت إلى فندق متواضع كنت قد وضعت عيني عليه من أول النهار ، وهو فندق أجنبى رخيص^(١) ففضلته على الفنادق الوطنية ، لأن الأجانب أقل كلاماً وأقل فضولاً واستطلاعاً ، وأما فنادق (أولاد العرب) فلا تطمئن فيها لكثرة أسئلة أصحابها وفضول نزلائها . فتمت ليلة كاملة عوضت بها نوماً كثيراً فاتت فى هذه الأيام . وفى الصباح اغتسلت بالماء الساخن والصابون بعد أن قضيت أيامى منذ الهرب بدون حمام ولا اغتسال حتى أصبحت رائحتى ظاهرة ، فكانت تضايقنى وتؤذبنى ، وكان بدنى يأكلنى لقذارته ، فتارة كنت وأنا فى الشوارع أحك ظهري وتارة أحك صدرى ، وقد نويت أن أقضى ذلك اليوم كله فى الفندق ، غير أن ذلك قد يلفت إلى أنظار أصحابه وينبه فضول الخدم ، فناديت أحدهم وتظاهرت أمامه بالمرض ثم عززت ذلك بأن كلفته مشترى شربة (زيت خروع) وشيئاً من حب الأسبرين ففعل ، ولما غادر الغرفة ألقيت بزيت الخروع فى حوض الماء وأخفيت الأسبرين للطوارئ وتناولت ملابسى الداخلية فغسلتها بالصابون ونشرتها على الشرفة وكنت أحمل معى

(١) زرت الاسكندرية بعد هذه الحوادث بعشر سنين ، فأردت أن أجدد ذكريات أيام الفرار ، ولذلك نزلت فى نفس ذلك الفندق وفى نفس الغرفة ، وهو يسمى بـ « نيو أوتيل » .

في تلك الأيام نسخة من رحلة ابن (بطوطة) وقد اشتريتها لأن ورقها الأصفر وشكلها الخارجي الأحمر الذي يشبه كتب الأزهرين والمشايع كان يناسب شكلى ومظهرى، فأخذت أطالع وأنتظر جفاف ملابسى وكان الخادم يزورنى من حين إلى آخر فيرانى رابطاً رأسى بالمنديل ومدسوساً تحت الغطاء فيسألنى عن حالى فأقول إنه أحسن ، على أنى لم أنس أن أكلفه مشترى الجرائد وبعض الأطعمة التى تناسب (العيانين) وأن أنفجه قرشاً صاغاً ما كان يحلم به من شخص فى شكلى وهندامى ..

طرد عن باب المسجد

قضيت على هذا الحال يوماً كاملاً مريحاً، استرجعت فيه قواى ليصبح تفكيرى فى الأمور أدق وأصح ، وفى المساء غادرت الفندق لصلاة العشاء ، كما قلت لبواب الفندق ، وتسلمت إلى الحارات الوطنية ، لا لغرض مقصود ولكن للرياضة والتنفس ، ومررت بمسجد أبى العباس المرسى فوجدته مغلقاً وكان العمل يجرى فى تجديده وزخرفته، فوقفت فى الشارع أتأمل على ضوء القمر وإن كنت لم أتبين دقائق الزخرف الجديد فاكثفت برؤية المعالم والضخامة ، وإذا بحارس أدوات العمارة يصيح بى ويسألنى لم أطلت الوقوف ! فسرت فى طريقى وأنا متعجب من فظاظة هذا الحيوان الخبول، وإلا فما الذى يحمله على منع شيخ من الاقتراب من مسجد، وإذا كان المشايخ لا يدخلون المساجد ولا يقتربون منها فمن يدخلها أو يتأمل محاسنها . وقد تمنيت لو كانت حالتى طبيعية لبادرت هذا الحارس بالزجر والتأنيب، وأما الآن فإنه لو أمسك بى وأخذنى إلى إدارة الشرطة لكانت النتيجة وخيمة العواقب ، فكظمت غيظى وواصلت السير وأنا أقول لو كانت ملابسى جديدة أو غير رثة لما نبحنى هذا الحارس ، أليس أن الكلاب تنبح ذوى الأسمال دون جميع الناس ؟

قهوة بلدية

وجلست فى حى « أبى وردة » فى إحدى القهوات البلدية وطلبت شايّاً لأنى اشتيت الشاي، وما كدت أجلس بجوار إحدى الموائد حتى أقبل شخص من «أولاد البلد» وجلس بجوارى وبادرنى بالحديث بلا كلفه ، وانهال على بلائسلة بدون وعى ولا تفكير ، فهو يريد

أن « يرغى » والسلام . وقد حسبت حساباً كاملاً لكل المضايقات التي ستصيبني من هذا الجلف ، فتركته يتكلم حتى شبع ، ثم انتظر مني الجواب فوضعت يدي على أذني وصحت به اسأله عما يريد ! ففهم أنني أصم لا أسمع ، فسكت قليلاً ثم التفت يميناً وشمالاً وقد ضاق صدره بي ، وبعد ذلك قام وانتقل إلى ناحية أخرى وقعد بعيداً لا أقامه الله ، وبعد قليل غادرت القهوة وعدت إلى الفندق نفسه فدفعت أجرة البيت مقدماً حسب المعتاد عند فنادق الدرجة الثالثة وخصوصاً مع من كان مثلي ...

أين أذهب ؟

فكرت طول تلك الليلة في مسألة الاستقرار في مكان ، وكانت الاسكندرية قد خرجت عن دائرة تفكيري لأنها لم توافقني ، فكتبت رسالة بالبريد إلى الشيخ يوسف المشهدى قلت له فيها « إن معهد الاسكندرية لم يقبلني لكبر سني وإني أرجوه تدير الغرفة بالرواق الأزهرى وإني سأعود إليه بعد أيام قليلة » وكان غرضي من هذا الكلام المبهم أن يجد الشيخ في البحث عن المأوى الذي اتفقنا عليه وأن يعرف أنني لا أزال حائراً ... وفي الصباح الباكر غادرت الاسكندرية إلى طنطا ومنها إلى دمياط لعل أجدها فيها مأوى ، وكان أول ما فكرت فيه أكلة سمك ، لأنني منذ شهور لم أذقه ، ودمياط مدينة بحرية يطيب فيها السمك . وطففت المدينة كلها فلم أجدها في المطاعم سمكة واحدة ، فأكلت ماتيسر وسألت صاحب المطعم مستغرباً عدم وجود السمك في مدينة بحرية كدمياط ، فقال إن السمك كثير ولكن التجار يشحنونه إلى القاهرة والمدن الأخرى لارتفاع ثمنه هناك ، فتعجبت من شدة حرص الدمايطه على المال ولو بحرمان أنفسهم من السمك ! وقد خطر لي أن أتفرج على المدينة فدخلت الأحياء القديمة وأخذت أتجول فيها .

تعال يا شيخ محمد

وفيا كنت ماشياً في طريق أخرج من حارة وأدخل في درب ، وأنا آمن مطمئن من المباغطات إذا بشخص يقول وهو يركض خلفي « وأخيراً وجدتكَ يا شيخ محمد تعال هنا » وقبل أن ألتفت أو أتحرك هجم الشخص عليّ من الخلف وطوقني بذراعيه فاندعرت من هذه

المباغطة والتفت إلى الشخص الذى لم أشك بأنه من رجال الشرطة، وأنه سيسوقنى إلى مركز البوليس، كما تصورت كيف يرحلوننى إلى سجن مصر مكبلاً هذه المرة بالأصفاد ، ثم أقدم إلى محكمة تحاكمنى أولاً بتهمة الهرب من الحبس وبعد ذلك ينكلون بى ، ولما أدت وجهى إلى الرجل ووقعت العين على العين إذا به يبهت ويفك الطوق عنى ويفلتنى ويمتدلى بخجل شديد، ويقول عفواً ياسيدنا الشيخ فأنا ظننتك « فلان » وسمى شخصاً من معارفه فقبلت عذره وسرت فى طريقى وأنا أنتفض ، وسار هو فى طريقه منخجل ، وكم تمنيت لو أستطيع أن أطعمه «علقة سخنة» جزاء هوجه وخفته التى كادت تقطع ظهري لشدة ماروعنى وهز بدنى .

إعراب !

صليت العصر فى المسجد الكبير ولما خرجت وأخذت أتعل الحذاء عند الباب سمعت أحد طلبة المعهد الدينى يسأل زميلاً له أن يعرب له هذا البيت :

وإذا فروا فليس لهم مقر وإن عادوا فليس لهم مقر !

فوقع هذا البيت فى أذنى وقع الصاروخ ، لأنه كان يصف حالى وما أنا فيه من الفرار ولا مقر ، ونشدان الاستقرار ولا مقر ، فالتفت لأتبين وجه هذا التنبئ ، وأرى أساريه وهو يحاور زميله فلعله كان ينبهه إلى ريبة خطرت على خاطره من جهتى ، ولكنى لم ألحظ شيئاً لأنى رأيت السائل ينظر فى كراسته وسمعت المسئول يجيب وقد بدأ يعرب ويحلل بدون أن يشعر أحد منهما بوجودى . فانصرفت وأنا متعجب من هذه المصادفة الغريبة أكثر من تعجبى من حماقة الذى طوقنى قبل ساعة وهو يظننى صديقه فخضنى وهدم أعصابى !

فندق اسطاسى

لم أجد غرفة فى الفنادق الوطنية كلها ، لأنهم أرادوا إعطائى سريراً فى غرفة مشتركة مع أربعة من الفلاحين وصيادى السمك ! فتركته وواصلت البحث إلى أن عثرت على فندق « اسطاسى » وهو فندق حسن يملكه رومى بل هو أحسن فندق فى دمياط ، وأعطانى غرفة مطلة على النيل وعلى شارع «الكرنيش» فأعجبت به وبجمال ضواحي دمياط ونخامة قصورها

ومنظر النخيل في ساعة الأصيل ، وقد بهرني جمال الشمس من خلفه عند المغيب ، وإذا بالزمامير والأبواق التي تحذر من الغارات الجوية تعوى وتصيح ، فروع الناس وأخذوا يتراكمضون هنا وهناك ، ولكن أين المفر من قضاء الله ، وجاءني الخادم يناديني لأهرب من الفندق إلى الحنبا ، ثم واصل الهرب بدون أن يلوى على أحد ، وأما أنا فقد كنت يائسا من الدنيا كلها وأفضل الموت على العذاب الذي أنا فيه ، فاستسلمت لقضاء الله وبقيت حيث أنا مقتديا بالمستر برناردشو الكاتب الأيرلندي الساخر ، حيث سأله ذات مرة عما يصنع عند وقوع الإنذار بغارة جوية فقال إنه يذهب إلى سريره ويستلقي على الفراش لأنه أحسن مكان لتلقى الموت ، ولأنه خير للإنسان أن يموت فوق السرير من أن يموت وهو مختبئ تحتة ، ولذلك بقيت في الغرفة واستلقيت على الفراش مفضلا الموت فوقه على الموت تحتة ، وقد أمت في دمياط ثلاثة أيام وأنا أبحث وأستقصي لعل أظفر بأحد أثق به وأستعين بمودته على الاستقرار والاختفاء فلم أعثر على أحد .

الفرار بطريق البحر

وكنيت أعرف مصيف رأس البر الذي يقع على البحر المتوسط ، فخطر لي أن أزور تلك الجهات لعل أستطيع الإفلات إلى عرض البحر المتوسط في زورق أو في سفينة فلم يرض بحار بالذهاب إلى رأس البر ، لأنه لا يوجد فيه أحد لبعد فصل الصيف عنا ، ثم بحثت مع أحد الصيادين عن ثمن زورقه الشراعى وعما إذا كان يريد بيعه . فسألني هل أنت صياد ؟ فقلت كلا ، بل إن أحد أقاربي وهو صياد يريد أن أشاركه بأن أشتري الزورق وهو يتولى الصيد ، فاقترع بهذا التعليل الذي ارتجلته ، وطلب ثمنا لزورقه خمسين جنيهًا ، فساومته على ثلاثين فرفض . كان غرضي أن أظفر بالزورق وأن أنشر القلع وأتجه في البحر المتوسط شمالاً أو غرباً فيما أن أصل إلى أى شاطئ كان أو أن تظفر بي دورية بحرية محاربة من دوريات المحور التي سيطرت على ذلك البحر ، وكنيت أحلم بأنى سأصل إلى بلد ما في أوروبا وأن أتطوع للإلقاء الخطب من إحدى محطات الراديو المحورى ضد الاستعمار وأحذر العالم العربى المخدوع بوعود الإنكليز من وعود الإنكليز ، وأذكر فظائعهم وتصرفاتهم في مصر ، وفظائعهم في فلسطين وأشهر بالخونة وأعير أنصار الاستعمار بخدمتهم للاستعمار !

ولكن حدث في مسألة بيع الزورق عقبة ويالها من عقبة ، وهي أن البيع لا يتم إلا بموافقة إدارة بوليس خفر السواحل ، وأن أذهب مع صاحب الزورق إلى دار الحكومة ونقدم للمحافظة (عرضاً) فتحيله إلى إدارة خفر السواحل فتتولى التحرى بأساليبها البوليسية عن شخصية البائع والمشتري وبعد ذلك تصدر قرار الموافقة ...

يا إلهي ! ما هذا المجنون الذى يريد أن أذهب معه إلى دار الحكومة وإدارة السواحل وأعرض لبحث البوليس عني ، وهنا لم أجد بداً من العدول عن هذا المشروع ، وفارقت صاحب الزورق على أن أعود إليه بقربي ليفحص الزورق بنفسه قبل إتمام البيع ... ومشيت في طريق وأنا أفكر في نفسي لو وقفت أمام ضابط بوليس السواحل وهو يسألني (انت منين ياسى الشيخ وبتشتغل إيه؟) فأشعر بدني من تصور ذلك السؤال الذى أفضل عليه سؤال المكين الكريين ... هيا إلى القاهرة ...

لقد ضجرت من هذه الحياة التى أحيها وكلها عذاب للروح وتلف للأعصاب ، لأن حياة الترقب والحذر تضني وتذيب الحديد. فرأيت أن أسافر للقاهرة للاجتماع بالإخوان والمشاورة لعلمهم دبروا لى طريقة للخروج من القطر المصرى أو وجدوا لى مسكناً. فكتبت إلى الدكتور البشناق بأن ينتظرني في يوم معين في دار الأستاذ محمد العتاي ووصفت له الدار وعينت الساعة . وغادرت دمياط إلى القاهرة عن طريق متعرج بأن ركبت القطار إلى المنصورة ، ثم الأتويس إلى الزقازيق ، فالقطار إلى بنها . ولكنى حسبت حسابي بأن لأصل القاهرة نهراً ولذلك لجأت إلى فندق ريفي بمدينة بنها، وكان يجاور المحطة، فأضيت فيه بقية النهار، بين ذباب بليد ، وبق ثقيل ، ولكن ذلك كله أخف على قلبي من رؤية الجواسيس والمتلصصين ...

نية!

وفيما كنت أطل من النافذة رأيت قطاراً كثير العربات يقف في المحطة قليلاً إلى أن يفتحوا له التحويلة لينعطف يمينا باتجاه قناة السويس وصحراء سيناء ، وكان القطار عسكرياً ، ولا شيء فيه إلا المدافع الانكليزية وأدوات الحرب ، من قنابل ودبابات وطيارات ، فتمنيت لو أستطيع نسف هذا القطار أو وضع شيء في طريقه « يشقلبه » ويخرجه عن الخط !

أنا لأحبذ التخريب والعدوان، ولكن مادام إن هذا القطار قد جهزه الاستعمار للاعتداء على الناس وتخريب ديار العباد فمن الواجب على كل إنسان أن يحول دون إيقاع الأذى بالناس وأن ينسف هذا القطار !

بل إنني ما نكبت ولا سجت ولا هربت ولا طوردت إلا بقوة هذا القطار وأمثاله ، فلولا أن بريطانيا تملك هذه المهلكات ما استقرت في الشرق لحظة واحدة ، وما كنت أحتاج إلى الاحتباس طول النهار في نافذة فندق بنها الفطيع خائفاً أترقب ، وجموع الذباب والبق تأكل بدني وتمتص دمي ...

محمود بسيوني بك

وفي المساء غادرت بنها ، وفي الموعد الذي عينته للدكتور البشناق تماماً كنت في القاهرة أطرق باب دار السيد العتاني . ففتح لي السيد بنفسه وأشعرني بوجود صديقي ووجود الأستاذ محمود بسيوني بك رئيس مجلس الشيوخ السابق « رحمه الله » ثم سألني رأيي في الجاوس معهم ففضلت عدم الظهور أمام بسيوني بك ، لا عن عدم ثقة فيه ، بل لأن الحيلة تستدعي عدم الإكثار من الاتصال بالأصدقاء فقد يضيق صدر أحدهم بالسريوما فيفضي به لأحد ثقاته وهذا ييوح به لثقة آخر ... وهكذا إلى أن ينكشف أمرى عن حسن نية من الجميع ، ولذلك قلت له بل يحسن الانتظار إلى أن يعود البسيوني بك إلى داره . فقادني السيد العتاني إلى غرفة محاذية . وكان الباب مفتوحاً بين الغرفتين ، فأخذت أسمع حديث القوم فإذا بهم في سيرتي ... وكان بسيوني بك يسأل عني ، مسروراً بنجبر هربي ، وكان يقول : لقد حاولت مراراً أن أزور صديقي الطاهر في سجنه فكان حمدي محبوب مدير الأمن العام يحول دون ذلك ويزعم أن الأمر في يد السلطة العسكرية وأنه لا بد من إذن منها ، ولما بلغني أنه في المستشفى لم أتردد عن الذهاب إليه فإذا بي أبغت بنجبر هربه فرجعت وأنا أحمد الله على سلامته . ثم قص عليهم كيف كان يحاول إقناع وزارة الداخلية بالإفراج عني ، وكيف كان حمدي محبوب يعدده وهو لا ينوي الوفاء !

سمعت هذا كله بأذني فشعرت بامتنان شديد لهذا الرجل الكريم النبيل ، رحمه الله وبرد

ثراه ، وبعد قليل انصرف البسيوني بك إلى داره ، وهي مجاورة لدار السيد العتابي ، فدخلت إلى حيث يجلس البشناق . فكانت جلسة أنيسة ، ثم ركبنا إلى مصر الجديدة ومنت تلك الليلة عند الدكتور البشناق ، وفي الصباح تذاكرنا في الحالة فاتفقنا على أن الحرب على وشك النهاية وأن الواجب أن أنتظر أياماً أخرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .

بوليسيات ...

وقد سمعت من صديقي البشناق عن أعمال البوليس السرى التي كان يلجأ إليها وهو يبحث عنى أموراً تضحك وتستحق السخرية . فمن ذلك أن بوليس الجواسيس افعل برقية باسمي وأرسلها مع أحد رجاله متنكراً في زى ساعى التلغراف وذهب بها إلى معارفى من الطلبة الشوام في الأزهر وسألهم إن كانوا يعرفون مقرى أو يريد أحدهم أن يستلمها ، ولكمهم جميعاً رفضوا استلامها ، لأنهم فهموا أن وراء هذه البرقية لحاق البوليس بمن يستلمها وتعذيبه ليهدى بهذه الوساطة إلى مكمنى .

ومن ذلك أن الضابط محمد يوسف ذهب إلى أحد التجار السوريين الفضلاء وهو الحاج سليم قويدر وقدم إليه عشرة جنيهات راجياً توصيلها إلى إن كان يعرف مقرى زاعماً أن هذا المبلغ من إعانة جمعها بعض الأصدقاء لى ، ففطن السيد قويدر إلى الحيلة وأظهر لمحمد يوسف استنكاره لهذا التكليف وقال له أتريدون منى إرشادكم إلى مقر الأستاذ الطاهر فهل أنا جاسوس ؟ والله لو كنت أعرف مقره ما أرشدتكم إليه ولو أعطيتونى ملء الأرض ذهباً ، فقال محمد يوسف بل أنتم تخافون منه - فقال ولماذا تخاف منه ، إنه يخدم الإسلام والوطن فواجبنا المحافظة عليه أو على الأقل عدم إرشادكم إلى مقره لو كنا نعرفه

ومن نوادر الضابط ... أن زوجته وهى دمشقية من عائلة « كذا » كانت فى مجلس نسائى سورى ، وجرى الحديث عن مسألة هربى فإذا بها تقول (أليس عيباً من الطاهر أن يهرب ؟ هذا ليس عمل رجال ، فقد سود وجه محمد بيبك الذى ساعد على دخوله المستشفى وتعهده للحكومة بالمحافظة عليه فى المستشفى) ...

وكانت تسكلم من قلب محروق من عملى المجرد من الرجولة ، لأن الرجولة فى نظرها أن

أبقى في السجن ليصل زوجها إلى رتبة أعلى ... وأما هربى فإنه فضلا عن كونه قد حرمه الترقية فإنه على الأقل سيؤخرها، وقد كان ذلك، لأن الضباط الذين كانوا أقل منه أصبحوا أعلى منه رتبة. وبهذه المناسبة أسرد الحادثة التالية عن رجل كريم شهيم هو الضابط « القائم مقام المتقاعد اليوم » عبد المجيد ثروت بك فقد كان مأمورا لبندر شبين الكوم في أيام هربى ، وهو ابن عم الأستاذ الدكتور محمود عزى وصهره أيضاً ، وكان من المكلفين بالقبض على ، فقال والله لو رأيت أبا الحسن لأخفيته في بيتي

هدية من اللادن !

وقد خطر لى بعد هذا التجول ، وجودى بالقاهرة تطمين أهل بيتى ، فكتبت لقرينتى رسالة أطمئنها عنى وكلفت الدكتور البشناق بحملها وطلبت من قرينتى إرسال الجواب بعد العصر إلى منزل الشيخ يوسف المشهدى بطريقة ما ، فوضع الدكتور تلك الرسالة فى جواربه وذهب إلى دارنا بشبرا فزار الأسرة ، وسلمها الرسالة كما طلبت ، أما أنا فقد غادرت دار الدكتور ليلا إلى دار الشيخ يوسف وبعد العشاء وصلت خادمتنا إلى دار الشيخ تحمل مقدارا قليلا من (اللادن) هدية إلى أسرة الشيخ ، وكان اللادن ملفوفا بورقة وكانت الورقة نفسها تحمل الرد! فاستلم الشيخ يوسف تلك الهدية وصرف الخادمة بعد أن أمرها بشكر أصحاب الهدية باسم أهل بيته . وقد تم ذلك كله تحت أنف البوليس المتربص بباب دارنا وأمام عينه أيضاً ، لأنه لم يخطر بباله مطلقا أن قرطاس (اللادن) الذى فى يد الخادمة يحتوى على السر الذى طال عذاب البوليس دون الحصول عليه، فقرأت الرسالة وما فيها من أخبار ...

خناقة ...

كان الشيخ لما جئت إليه قد صرف أهل بيته ليزوروا إحدى الجارات حتى لا يكبد أهله عناء حمل كتمان سر وجودى عندهم ولكيلا أتضايق أنا أيضاً ، وتصادف أن بعض أطفال الشيخ يوسف جاءوا من المدرسة فصعد معم أحد أولاد قريبه الشيخ « م » ... فهرولت إلى الغرفة الداخلية وأغلقت بابها على ، ولأمر قضاء الله تلصص ذلك الولد وتطلع من ثقب المفتاح فرآنى فاستغرب الأمر ونادى بقية الأطفال فأخذوا (يبصون) على من الثقب فدهمهم

الشيخ يوسف وهم يتلصصون على صاح فيهم وضربهم وطردهم فراح ابن قريه يبكي وغادر الدار. فنادت الشيخ يوسف وقلت له لقد أخطأت ، لأن الولد الذي ضربته ستسأله أمه عن سبب بكائه فيقول لها إنني « بصصت » من خرق الباب على ضيف مخبئ عند عمي الشيخ يوسف ! فتتجه أنظار والده إلى ، ولا سيما أنه من أصدقاء الضابط محمد يوسف والطار ... والله أعلم بالنتائج ، فقال الشيخ لقد جرى ماجرى فكيف العمل ؟ فأشرت عليه بأن يركض خلف الغلام ويعود به ويسترضيه بشكل ينسيه حادثة ضربه .

وعاد الشيخ ومعه الولد ثم أعطاه حلويات ونقوداً كما أنني لرفع الشبهة انتقلت إلى الصالون ولاطفت الأولاد ليكون الحال طبيعياً وقد أكرمهم كما يكرم الضيوف أولاد مضيفهم ...

إلهام من الله

وبعد قليل أقبل الظلام فطلبت من الشيخ أن يأذن لأهله، بالعودة إلى الدار وأما أنا وإياه فنزل إلى الضاحية للرياضة واستنشاق الهواء ، ومشينا في الشوارع القريبة من دار الشيخ يوسف إلى أن دقت الساعة العاشرة مساء ، وهنا هجس في نفسي هاجس لا أدري كيف أسميه ، لأنني وقفت بغتة وقلت للشيخ يوسف استودعك الله، فقال إلى أين ؟ فقلت إلى أرض الله الواسعة ، فقال ولكني أوصيت أهل الدار بإعداد العشاء وخصصت لك الغرفة الداخلية لتنام الليلة عندنا ، فشكرته وصممت على الرحيل ، فتعجب من إصراري وودعني كارهاً ، وأنا نفسي كنت متعجباً من ارتجالي هذا الرحيل ومن إصراري على البراح على صورة كنت أشعر بأنها خارجة عن إرادتي .

تفتيش ...

ذهبت بعد فراق الشيخ يوسف إلى دار الدكتور البشناق بمصر الجديدة فسهرت عنده وحدته بمحادثات اليوم فضحك لما سمع حكاية «هدية اللادن» واسكنه تشاءم من حادثة ابن الشيخ محمد .. وهنا أجد من المناسب أن لا أؤجل سرد ما جرى للشيخ يوسف بعد فراق إياه ، فقد بلغني بعد مدة أن الشرطة دهمت بيته عند فجر تلك الليلة وفتشته بحثاً عني ، وفي

الصباح استدعوا الشيخ يوسف إلى إدارة البوليس السياسى وأخذ الضابط محمد يوسف - دائماً محمد يوسف - يستجوبه ويسأله عنى كمن يعرف أننى كنت عنده، ولكنه لم يصرح له بتفصيلات أكثر، فهل كان الغلام المضروب ابن الشيخ فلان ... هو السبب؟ وأنه أخبر والده لما جاء من سهرته بقهاوى سيدنا الحسين بحادثة ضربه بسبب تطلعه على ضيف الشيخ يوسف من ثقب مفتاح الباب ؟ ...

حادثة أغرب

ووقعت بعد ذلك حادثة أخرى من حوادث الإلهام النفسى لا تقل عن هذه غرابة ، وذلك أننى قبل أن أدري بهذا الحادث الذى جرى للشيخ يوسف كتبت إليه كتاباً ووضعت عليه طابع البريد، ولكنى لما أردت أن ألقيه فى صندوق البوستة توقفت بغتة وأرجعت يدي به ومشيت قليلاً ثم أخرجت الكتاب من جيبى ومزقته إرباً .

وبعد أسابيع من ذلك اليوم علمت بتفتيش دار الشيخ، وبأنه لكثرة إزعاج البوليس له بالأسئلة والرقابة ، أخذ أجازة وسافر إلى فلسطين لزيارة والده . فلو نمت عند الشيخ تلك الليلة ، أو لو ألقيت ذلك الكتاب فى صندوق البريد - وفيه عنوانى الذى يؤدى إلى مقرى - نعم لولا إلهام القدر لسافر ذلك الكتاب ووصل إلى يد قريب الشيخ يوسف ... » ومن فضله بعد ذلك إلى يد الضابط محمد يوسف ...

من الطاف الله

وهناك حادثة ثالثة من هذا النوع وقعت بعد أشهر، وهى تدل على عناية الله ولطفه ، وإن لمن تحيطه رعاية الله أن ينام فالحافوف كلهن أمان : وذلك اننى انقطعت عن زيارة صديق نسيب شهاب مدة طويلة وهو لا يعرف أين أنا ، وفى أحد الأيام كتبت إليه رسالة أطمئنه عنى وأخبره بأننى سأزوره فى يوم عينته ، وبعد أن وضعت طابع البريد على الظرف هجس خاطر فى نفسى ، فعدلت عن إرسال الرسالة ومزقتها وعدلت عن زيارته بتاتا ...

وبعد أسابيع علمت أن بوليس مديرية الغربية قدهاجم فى ذلك اليوم بيته فى كفرالوسطانى وقتشه بحثاً عنى ، ثم أخذوه إلى طنطا فحقق معه بدوى باشا خليفه مدير الغربية وهدده بالنفى

من القطر المصري إن لم يعترف أين أنا . فأكد له بأنه لا يعلم عنى شيئاً ، وكان بدوى باشا متحمساً ضدى لأنه يعرفنى جيداً وله قصة معى لما كان فى سنة ١٩٣٣ مديراً للأمن العام ... ولم يتركوا نسيب إلا بشروط وتعهدات بأن لا يقبل ضيوفاً عنده ، ثم وضعوا عليه الأرصاد والعيون ، فتضايق واستقال من وظيفته وانتقل بأسرته إلى القاهرة وسكن بمصر الجديدة .

ومن أطفاه تعالى

وهذه حكاية رابعة تدل على أن القدر إن أراد أن يهلك أبعد الناس عن الخطر أهلكهم ، وإن أراد أن ينجى أقربهم إليه نام عنهم . وذلك أننى لما علمت بما أصاب نسيب سمعت حتى أخذت عنوانه ، فكتبت إليه أهنته بسلامته من الحادث الذى كدره ، فإذا بالصدف تجمله يقطن فى دار يملكها ويسكنها شذاذ وملاعين من فلسطين وأنا لا أدرى ، وشاء القدر أن يستلم أحدهم الرسالة من عامل البريد ويسلمها لنسيب وينتهى الأمر ، فلو خطر ببال ذلك الرجل أن يفتح الرسالة لما بقيت حياً إلى الآن ، لأنه كان يسلمها لصديقه محمد يوسف ...

لقد غلظت كثيراً أثناء هربى واختفائى ، فلولا أن الله سبحانه وتعالى كان يحوطنى بعنايته لوقعت فى أيدي الظالمين . ولكن الله الذى يعلم السرائر وما تخفى الصدور لا يخفى عليه أننى ما وقعت فى هذه المحنة ولا لقيت هذا العذاب إلا بسبب دفاعى عن المظلومين وزجر الظالمين ، فأراد أن يلفظ بى وأن يفهمنى أنه لا يضيع مثقال ذرة فحفظنى من كيدهم .
« هذا استطرد وضعته فى مكانه ، ونرجع إلى ما كنا فيه » .

إلى كفر الوسطانى

نمت تلك الليلة عند الدكتور بشناق . ولم أتم إلا بعد أن فتحت النافذة برغم شدة برد الليل واستلقيت بجوارها استعداداً للقفز إلى الشارع الخلفى عند ما أشعر بأقل خطر ... وفى الصباح المبكر جداً تركت دار البشناق وهو نائم وغادرت مصر الجديدة ماشياً إلى حى الزيتون ، قاصداً محطة عين شمس ، لأنها محطة نائية لا يكاد المرء يجد فيها أحداً ، إنها المحطة

القرية من دار صديق القديم عزيز باشا المصرى الذى قاسى من أمته ما هو أشد من عدوان المستعمرين .

معتقل الزيتون

وفيا كنت أسير فى شارع سليم الأول استرعى نظرى وقوف جنود حول منزل كبير كنت أعرفه مدرسة . وكانت حديقته الغناء قد جفت يومها وأحيط سورها بسياج من الحصر فدفعنى الفضول إلى سؤال أحد المارة عن خطب هذه المدرسة فقال إنها الآن حبساً للسياسيين ويسمى « معتقل الزيتون » فتابعته خطواتى وأنا متعجب من خبث الذين وضعونى فى زنزانة



صورة معتقل الزيتون

سجن الأجانب مع وجود هذا الحبس الذى يعد جنة بالنسبة إلى ذلك السجن، وقلت فى نفسى لو وضعونى هنا ما هربت ولا قاسيت وأقاسى ما أنا فيه ... ومن محطة عين شمس ركبت إلى شبين القناطر فالزقازيق فالمنصورة ، وفى المساء كنت فى دمياط ، فتمت بفندق صاحبنا « اسطاسى » على أن أقضى فترة بدمياط ثم أقصد إلى كفر الوسطانى .

كان مقر نسيب شهاب غير بعيد عن دمياط غرباً ، وأظن أن المسافة لا تزيد على ثلاثين كيلاً^(١) فقلت فى نفسى لا بأس من تمضية أيام عند صديق ، وإن سألتى أحد من جماعته هناك لماذا جئت مرة أخرى فسوف أزعم له أن الأزهر فى إجازة أو أن صحتى استفادت من تبديل الهواء فى تلك الجهة فأحببت الرجوع إليها من حين إلى آخر ، وسألت عن الطريق الموصل

(١) الكيل هو الكيلومتر . هكذا يرى صديق العلامة الدكتور عبد الوهاب عزام بك عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية « والآن سفير مصر بالباكستان » وقد اعتمد تلك التسمية للكلمة الافرنجية واستعملها فى كتابه القيم (رحلات عبد الوهاب عزام) فأحببت أن أجاريه وأقتدى به لأنه من أهل الذكر الذين يسألون .

إلى « كفر الغاب » التي تمر بالوسطاني، فأرشدوني إلى محطة (أتوبيس خطاب) وهي سيارات قدرة مخلة لا تصلح للبشر ، ولا أدري كيف تسمح الدولة لهذه الأخشاب المتحركة بحمل الناس وكان أولى بها الحرق ...

لما جلست في السيارة كانت الساعة قرب الواحدة بعد الظهر على أن تسير بعد ٥ دقائق، هكذا قالوا.. وازدحم الناس في ذلك الصندوق الخشبي «المخشم» الذي سموه سيارة ظلما وكذبا، ولولا الدواليب التي تحمله وتدرج به ، لأنف الخلق من الاقتراب منه ، ومرت ساعة وساعة وساعة ، ثم نصف ساعة حتى تحرك (الأتومبيل) الوقور من مكانه في الزقاق الذي يقف فيه ويسمونه محطة ! ولكن تبين للسائق بعد أن جلسنا وتعطلنا بضع ساعات أنه في حاجة إلى بنزين وماء وزيت ، فوقف . وبدأت عملية تزويد السيارة بموادها الحيوية .. يارب ما هذه العقلية التي منحتها لسائقي السيارات . إنهم كلهم على اختلاف مواطنهم وبلدانهم وأقطارهم لا يفكرون في تزويد السيارات بما تحتاجه إلا عندما تبدأ في السير وبعد أن يكون ركبها قد ضجوا و « طقوا » من ألم الانتظار ، والغريب أن ذلك لا يحدث غالباً إلا من سيارات السفر والعياذ بالله !

ومشت السيارة في طريقها لتقطع الثلاثين كيلا في نصف ساعة ولما خرجت من مدينة دمياط وخرجت من رقابة الشرطة بدأت تقف لركاب جدد فوق العدد القانوني وهو ٢٤ راكبا ، فإذا بهم يصبحون أربعين ومع أكثرهم قفف و سلال وصفائح جبنة ومقاطف خبز وعلب فسيخ ...

ملاحظات ووصف

ولم تصل السيارة إلى كفر الوسطاني إلا بعد ثلاث ساعات ، أي أنها قطعت ١٠ كيلات في الساعة ، وهي مع ذلك تسمى سيارة ! وكان الواجب أن تسمى سلحفاة ... إن العذاب الذي يلقيه أهل الريف في حياتهم لا دواء له إلا أن يكون في قوانين الدولة مادة تنص على أن لا يتولى أحد منصب وزير إلا إذا سكن الريف مع الفلاحين وليس في القصور التي تقام بجوارهم بل يرغب على السكنى بينهم ، سكنى صحيحة ، وأن يعيش عيشتهم ليدوق طعم

الموت الذى يدوقونه طوال حياتهم ، من قذارة البيئة والخصاصة وظلم الشرطة وتعسف العمدة وشرب ماء الترع الموحل والاستحمام بالمستنقعات ولسع الناموس ومضايقة الذباب ، وأن يركب ذلك الغنى السيارات الريفية

زائر غير مرغوب فيه !

قضيت عند نسيب شهاب بضعة أيام بدون وقوع حوادث تذكر ، وقد أمضيتها فى التفكير والتدبير ولم يضايقنى وقتها إلا مجيء زائر لنسيب وهو جاره فى تلك الجهات المقفرة وهو من الناس الذين يستحقون الوصف بأنهم من الناس . وهو يسمى عارف عبد الملك وأصله من لبنان ويملك مزرعة لا تبعد عن الوسطانى أكثر من ١٠ كيلات ، فركضت إلى الغرفة الداخلية مدعياً الصداق كالمرة السابقة ووضعت الإسبرين بجوار المخذة وربطت رأسى ، ولكن هذا الضيف لم يدربنى ، غير أن فؤاد يزدى جاء لعيادتى وجلس معى وأخذ يسامرنى وقد اطمأن بالى من جهته لأنه ما عاد يذكر لى الأسماء القديمة ولم يسألنى عن مؤلفات العلامة السرخسى ... ثم كتبت إلى صهرى ابراهيم الدرس فى شبين الكوم برغبتى فى مقابلته بطنطا ، وفى مقام السيد البدوى كالمرة السابقة ، وكان كتابى إليه مبهماً طبعاً ولا يمكن لغيره أن يفهم من أحاجيه حرفاً واحداً .

أخبار العراق

وصلت إلى طنطا قبل العصر ، جلست فى القهوة المواجهة لباب مسجد السيد البدوى كالمرة الأولى ، أرقب مرور ابراهيم فسمعت الراديو يذيع ما خلاصته (... وقد خلع المجلس العراقى وصى العرش الأمير عبد الإله ، ونادى بوصاية الشريف شرف عدنان ، ولا تزال المعارك دائرة بين الجيوش البريطانية وجيوش رشيد على الكيلانى التى لا تزال تطلق النار والحالة غامضة) هذا كل ماسمعه فسررت من هذه الأنباء التى تنذر بأن ساعة الإنكليز قد دنت ، وها هو العراق قد تحرك وليس بعد ذلك إلا قيام العالم العربى على الاستعمار . وأما الذين كانوا فى القهوة فقد سرهم نهوض العراق وقالوا لم يبق أحد ساكتاً إلا نحن ، فتنقوم ونخلص من الإنكليز مثل العراقيين ؟

لقد أنعشني ماسمعت وأخذت أفكر في المستقبل ، وتصورت أنني عشت لأرى بعيني زوال الإنكليز من البلاد الإسلامية والعربية ، لأن كل شيء في ذلك الحين كان يؤذن باستسلام بريطانيا بين يوم وآخر .

مقابلة غريبة غير منتظرة

ولما أذن العصر ولم يمر إبراهيم ظننت أنه ذهب إلى المسجد من شارع آخر ، فقامت من القهوة وذهبت إلى المسجد فإذا بجنود يمنعون الناس من اجتياز الباب الكبير بل سمحوا بالدخول من الباب الآخر ، فدرت حول المسجد ودخلت من باب خلفي صغير وكان الزحام شديداً . فسألت عن الأسباب ففهمت أن جلالة الملك سيزور طنطا غداً ، وأنهم يعدون المسجد لصلاة الملك ، فهم لذلك ينظفون المنطقة الداخلية من المسجد ويفرشونها بالطنافس . فاندسست بين الناس ، وكان بقرب مقام السيد جماعات من النساء جئن للتبرك والزيارة كالعادة ، فتوضأت وصليت العصر وأخذت أتقل من هنا إلى هناك لعل أجد إبراهيم ، وإذا بسيدة متحجبة تلبس الملابس البلدية تلمس كتفي وتقول لي : (اتبعني يا أبو الحسن) ... فاندهشت من هذه المباغلة دهشة عظيمة ، والتفت لأتبين هذه المرأة التي تلمسني وتناديني باسمي ، فإذا بها تبادرنى بقولها : أنا فلانة .

إنها قرينتي ! فما الذي جاء بها ؟ وكيف عرفتني وأنا بهذه الجبة وتلك اللحية الخفيفة التي هذبتها منذ ساعة عند المزين بدرب اللبانه ...

تظاهرت أمام النسوة وأمام الناس بأنني لم أسمع ، ثم قلت لها اتبعيني من بعيد ، ومشيت وئيدا واتجهت نحو الباب البخرى من المسجد وخرجت إلى سوق التجار حيث تباع أقمشة السيدات ، وفي خلال ذلك الزحام أصبحت أمشي بجوار زوجي وهي بجواري كأننا من أهل الريف جئنا لنشترى حاجتنا من المدينة .

مازق ...

وأخذنا نتحدث ونحن سائران وقد فضلنا المشي في الدروب الجانبية فإذا بنا ندخل حارة غير نافذة ؟ عرفت ذلك لأن سكانها كانوا كلهم من طبقة العوام السفلى ، وكانت نساء الحارة

جالسات على أبواب منازلهن للمحادثة والمسامرة، وبعضهن يفتشين الحصر ويجلسن حلقات...



هذه الصورة تمثل لقائي مع زوجتي في طنطا ، وحيث اني لم أتمكن من التصوير يومها فقد مثلت الموقف بعد زوال الخنث في نفس الملابس التي كنت فيها وأنا هارب وقد جعلت أحد عمال محل التصوير يرتدى مثل الملابس التي ارتدتها قرينتي يوم اللقاء في مسجد السيد البدوي

حديث ذوشجون

سألت زوجي كيف جاءت من مصر وكيف نجت من أعين الجواسيس وكيف عرفت الموعد وكيف اهتمت إلي ؟ فقالت - لقد ضايقني جواسيس البوليس الذين ماعدوا يفارقون باب

فلما تورطنا بدخول الحارة أحاطت بنا عيون هذه الجماعات وهن متعجبات من دخول سيدة وشيخ على حرمن المصون ! فقالت إحداهن « إنت رايحة فين ياست ، وانت ياسيدنا الشيخ ؟ » فبادرت قرينتي بالجواب فوراً قائلة : « عاوزين منزل الشيخ الخطيب » فقالت أخرى : لا ياأختي إنه لا يسكن هذه الحارة ، فرجعنا أدراجنا ونحن لا نصدق بالخلاص من هذا الفضول ! ولما مشينا في طريقنا قالت زوجي إننا لانستطيع الكلام ونحن هكذا فهل تتذكر جارتنا أم سمير التي تركت مصر وسكنت طنطا ؟ إن عنوانها معي فتعال نزورها وهناك نتحدث مليا وصعدنا إلى منزل الأستاذ سيد عبد الحميد ، وهو موظف بالسكة الحديدية فاستقبلتنا زوجته أم سمير وفرحت بنا وكانت تعرف كل شيء عنا ...

الدار ثم اتصلوا بالخدمة وأغروها على التجسس علينا، وقد عرفت ذلك من وجود قطعة نقود فضية معها، فادعت أنها وجدت على الدرج فاشتبهت بها وراقبتها إلى أن لمحتها من النافذة وهي تتبادل الإشارة بالأيدى مع مرشد البوليس الذى يجلس فى القهوة المقابلة، ثم رأيته بعد يومين يعطيها قطعة حلوى، ومرة دهمتها وهي تفتح شبا كاً وتغلقه بشكل ملحوظ ففهمت أنها كانت ترشد الجاسوس، وكان عندنا بعض الزائرات فإذا بالجاسوس يهرع إلى أقرب تلفون وبعد قليل جاءت قوة من الشرطة تركب الدراجات النارية فأحاطوا بالمعارة وصعد قائدهم إلى الدار وأخذ يسأل عنك وعن هوية الذين دخلوا الدار فأفهمته أنهم سيدات من معارفنا ولما انصرفن تتبعهن رجال الشرطة وكبسوا بيوتهن للبحث عنك. فطردت الخدمة ونهت على معارفنا بعدم زيارتي مطلقاً، وصرت لا أخرج من الدار، وحدث بعد ذلك أن خادمة لإحدى قريباتنا جاءت لحاجة ماء، ولما انصرفت تتبعوها ويظهر إنها غلطت بالترام الذى تريده فركبت سواه ثم فطنت إلى غلطتها فنزلت منه وركبت الترام المقصود وكان البوليس يتتبعها، وكان عليها أن تترك تراماً ثانياً لتصل إلى منزل أقاربنا فظن رجال البوليس أنها تضللهم، فأمسكوا بها وضربوها ضرباً شديداً وأخذوها إلى مركز الشرطة وحققوا معها ليحملوها على الاعتراف عن محل وجودك!

قصة أخرى

وكانت والدة أم سمير التى نحن الآن عندها قد جاءت من الإسكندرية للقاهرة وزارت صديقاتها من سكان المعارة التى نساكنها، وكانت هى تسكنها أيضاً فيما مضى، فأرادت أن تؤنسنى فسهرت ونامت عندى وفى الصباح سافرت إلى طنطا لتزور ابنتها أم سمير، فإذا بالبوليس يتتبعها من مصر فدهم دار زوج بنتها هذه ودار والده أيضاً. ثم قصت على قصة أغرب وهى مضحكة.

معركة!

فقد روت زوجتى من الأخبار إنها دعيت مرة لتبديل الهواء فى بلدة التل الكبير عند أبناء عم لى يملكون بستاناً هناك، فإذا بالجاسوس المتربص بباب الدار يتبعها إلى محطة مصر

فلما رأها تشتري تذكرة سفر احتار المسكين واضطر إلى إظهار نفسه أمامها واستحلفها بالله أن لا تركب القطار إلا بعد أن يتصل برؤسائه ليسمحوا له بالسفر خلفها ويبعثون له ملابسه وتذكرة سفر أيضاً ! فابتسمت مشفقة عليه وانتظرت إلى أن وصلته التذكرة والملابس . وكان سرور أسياده بهذا السفر عظيماً لأنهم لم يشكوا في كون زوجي ستقابلني في هذه الرحلة وأن الغرض منها هو اللقاء ...

ولما وصلت زوجي إلى التل الكبير وجدت في المحطة قوة بوليسية تنتظرها ، ثم تلحق بها علناً وأمام الناس وتمشي خلفها جبهة حتى المنزل فأحاطت به القوة البوليسية من بعيد وطوقت المزرعة كلها ! وقد تبين بالبداهة أن بوليس القاهرة قد أمر بوليس التل الكبير بمراقبة زوجتي ومراقبة البستان ، على ظن أنني سأجىء لهنالك لمقابلتها . ولكن بوليس القاهرة ، نسي أن يخبر بوليس التل الكبير بأنه أرسل خلف زوجتي جاسوساً من عنده ...

وفي المساء سمع سكان تلك الجهة ضجة أطلق فيها الرصاص ، وشهدوا معركة ... ثم تبين أنها كانت بين جواسيس بوليس التل الكبير وجاسوس مصر الذي كان أيضاً يرقب ويتلصص ! فهذا اشتبه بأولئك الأشخاص وهم اشتبهوا به ، فسألهم من أنتم ولماذا تحومون هنا ، فاستنكروا سؤاله ، وسألوه من أنت ولماذا أنت هنا ، فاستنكر سؤالهم واعتبره قححة ، كما اعتبروا سؤاله قححة وتطفلاً ، وكلمة من هنا وكلمة من هنا ، ووقع الضرب واللكم والشم ...

وجرى التحقيق في مركز البوليس ، فأتضح للجميع سوء التفاهم الذي وقع ، فهؤلاء جعلوا الحق على بوليس مصر الذي نسي أن يخبرهم بوجود جاسوسه ، وهذا جعل الحق على جواسيسهم الذين كان يجب عليهم أن يدركوا من تتبعه للغريمة بأنه مثلهم ! لقد كانت مهزلة بلاشك وكان تخبطاً من الجميع ، ولكنه تخبط أضحك أهل التل الكبير ، كما أضحكني أنا أيضاً ...

تعليقات

وكم كنا وكل إنسان في مصر يتمنى لو أن البوليس يتتبع الجناة والمجرمين بهذه العناية وتخصيص العيون والجواسيس للقبض عليهم ليعخدم الأمة والدولة أعظم خدمة ، ولكن هذا الاهتمام لا نراه إلا إذا كان الأمر يهم الإنكليز . هذا ما جرى في تلك الرحلة . ثم قصت على

زوجي الأخبار الأخرى التي علمت بها في وقتها وسردتها في صفحات سابقة ... فسألتها كيف جاءت من مصر إلى شبين ثم إلى المسجد؟ فقالت إنها ضجرت من حياة الوحدة فلبست غير ملابسها المعتادة وغادرت الدار في الصباح المبكر جداً ومرت بالباسوس الذي يرقب باب الدار حيث كان نائماً فلم يشعر بمرورها ، بل إنه لو رآها ما عرفها لأنها كانت في زي غير زيها ثم ركبت سيارة أقلتها إلى شبين الكوم لتقضي بضعة أيام بضيافة شقيقتي ، وتصادف وصولها اليوم ، أي في نفس الموعد الذي ضربته للقاء صهرى إبراهيم فطلبت منه أن تقوم هي بمقابلتي فاستعارت من الجيران ملابس « بنات البلد » أي الملاية الف والبرقع وركبت سيارة إلى طنطا ، وبقيت في الجامع البدوي بين زائرات الضريح والتبركات به وكان إبراهيم قد وصف لها شكلي فعثرت عليّ وقد عرف القراء كيف تم ذلك .

خيانة غير منتظرة

ومما أخبرني عنه قرينتي حادثة غريبة من حوادث خيانة الصداقة ، فقد روت لي أنه في صبيحة الليلة التي هربت فيها ، وبعد أن جاء البوليس للبحث عني وصلت إلى منزلنا « مدام ... » وكانت تعتبرني بديلاً لشقيقها الفيلسوف المرحوم... لكثرة ما خدمته وخدمتها وزوجها أيضاً وقد بادرت « مدام ... » بسؤال زوجتي عني وكيف هربت وأين اختفيت! فاندحشت قرينتي من هذه الزيارة وهذه الأسئلة ومن معرفة الزائرة بخير فرارى ، فقالت لها زوجي : أنا مندهشة يا فلانة من زيارتك لنا اليوم ومن سرعة معرفتك بفرار زوجي ، في حين أنه لم يسبق لك أن زرتينا ، لا بمناسبة الزواج ، ولا بمناسبة حبس زوجي ، ولا بمناسبة وفاة طفلتنا ، فأنا غير مرتاحة لهذه الزيارة ولا من هذه الأسئلة ، ومع ذلك فأني لا أدري كيف هرب ولا أين هو ، ولو كنت أعرف لما أخبرتك ، ولكن كيف عرفت بهربه؟ فقالت إنها سألت المستشفى اليوم عن صحتي فأخبروها بحادث الهرب ، فابتسمت قرينتي من هذا التعليل المكشوف ، وهنا لم يسع « مدام ... » إلا الانصراف وهي في حالة شديدة من الخزي ...

فقلت لزوجي : إن « مدام ... » جاءتك من طرف الاستخبارات البريطانية وليس من قبل البوليس ، لأنها تسكن شقة تقابل منزل صموئيل عطيه أحد قدماء موظفي الاستخبارات

البريطانية في السودان ثم في السفارة أخيراً ويوجد بين أسرته « ومدام ... » علاقة جوار ومودة ، وقد التقيت به مرة عند « مدام ... » فلاشك في أنه هو الذي دفعها إلى القيام بهذه « الزيارة » ... كما أن بناتها متزوجات من انكليز!

لقد راعني هذا العقوق والغدر من سيدة طالما أسديت إليها وإلى أسرتهام معارفها يداً كانت تسميني من أجلها بالأخ الشقيق!

إنه لدرس تلقينته في ذلك اليوم بوجوب الاحتياط من بعض الأصدقاء كما احتاط من الأعداء بل أكثر ...

ولنرجع إلى ما كنا فيه . فأقول إنه بعد حديث قصير تفاهت مع زوجي على أمورنا الخاصة وطريقة الاتصال الكتابي ثم ودعتها وانصرفت على أن تسافر هي أيضاً بعد قليل عائدة إلى شبين الكوم بالقاهرة .

ليلة ليلاء!

وسرت في طرقات طنطا إلى أن وصلت قهوة فاسترحت وأخذت أفكر وأدبر، فقررت النوم في طنطا وفي المساء بحثت عن فندق أنام فيه ولكني لم أجد . نعم لم أجد بفنادق طنطا كلها غرفة واحدة أنام فيها إلا لو كنتة الاقصر الإستقرائية ، فهذه تجنبتها ، فاستقصيت أسباب ازدهام الفناق في ذلك اليوم دون سواء ففهمت ويالهول ما فهمت ، إن المدينة كلها موضوعة منذ الليلة تحت الرقابة البوليسية الشديدة بسبب الزيارة الملكية لهذه المدينة غداً ، فجميع المساكن الخالية على جوانب الطرق التي يمر منها الموكب قد أغلقت وأخذ البوليس مفاتيحها ، وجميع الفنادق التي تقع في تلك الشوارع قد احتل البوليس السرى غرفها المطلة على الشارع وهي إجراءات عادية تعمل كلما زار أحد الملوك بلدة ما ، وفي الحقيقة إنني ذهلت لهذه المصادفة لأنني أعرف أن جميع رجال البوليس السرى وجواسيس الدولة قد احتشدوا في طنطا ويوجد عدد كبير منهم يعرفني حق المعرفة ، فكيف العمل ؟ وأين أنام ؟ لقد بحثت عن سيارة مسافرة إلى أية جهة من جهات القطر أفر بها من هذا الهول فلم أجد ، وبقيت أجول في الشوارع إلى ما بعد نصف الليل ، حيث أغلقت الدكاكين والمطاعم والقهوات ولم يبق

في الطرقات إلا أنا والعسس الذي يجوس خلال المدينة . وأخيراً تشجعت ولم أتردد في الذهاب إلى فندق الأقصر وأن أطلب غرفة فأعطوني واحدة خلفية ملعونة فرضيت بها وكتبت اسمي في الدفتر هكذا «الشيخ ابراهيم بسيوني محام بالجيزة» أى نفس الاسم كالمرّة السابقة . وصعد الخادم أمامي ويده مصباح ضئيل النور ، ولما أخذ يفتح الباب إذا بثلاث غرف من المطلة على الشارع ويسكنها البوليس - تنفتح أبوابها في وقت واحد ويمتد من كل باب رأس له عينان ليحديق ويتأمل شخصية القادم ! إنهم من رجال البوليس السرى ، والظاهر أنهم لم يروا بي ما يريب فأعادوا رؤوسهم إلى داخل الغرف ثم أغلقوها !

وأما أنا فقد بقيت في الفراش بملابسى بين النوم واليقظة ، متعب الأعصاب مرهق النفس والجسم حتى الفجر وإلى أن سمعت أذان الصبح ، فقممت وغادرت الفندق وأنا أكبر وأهمل وأهمهم كالأتقياء الذين لا عمل لهم في هذه الدنيا إلا التدجيل والتظاهر بالتقوى ، وأما الأتقياء الحقيقيون فلا يكاد يشعر بعبادتهم أحد إلا الله . وقد أدت صلاة الصبح في مسجد منعزل ولما خرجت أول سيارة ركاب من طنطا كانت وجهتها مدينة المحلة الكبرى فركبت فيها . وقضيت يومى أدرس حالة مدينة المحلة عساي أعثر فيها على مأوى يصلح للاستقرار فلم أجد ، وفي المساء دخلت فندقاً رومياً بجوار المحطة وكنت من أول النهار قد فكرت فيه .

البنطلونات . .

وما كدت أصعد الدرج حتى سمعت الخادم وهو نوبى ينتهرنى ويمنعنى من الصعود حتى لأوسخ الدرج ! ثم صاح يقول (ارجع ياشيخ فهذا الفندق ما ينفعكش وقتش لك عن خان أحسن لك) . أما أنا فقد نسيت حالى ونسيت ظروفى وما أنا فيه من وجوب التحفظ والحيلة وصحت في الخادم البذى موبخاً مؤنباً ، ولم أتردد عن الصعود وأنا أبربر وأبرطم فسمعت أصحاب الفندق الأروام ليروا ما الخبر فصحت فيهم أوبخهم على استخدام الأوباش الذين يحتقرون المواطنين والعلماء ، وقلت لهم إن هذه العمامة - ووضعت يدي على رأسى - هي أشرف من برائيتكم وهذا القفطان أشرف من بنطلوناتكم !

لقد أخذتني العزة غضباً للعمامة التي يحقرها بعض الناس والتي لا يحفظون لها كرامتها وجلالها،

فأخذ أصحاب الفندق يوبخون خادمهم ويعتذرون إلىَّ ، فيا عجباً لخادم مسلم يحقر العمالة وهو يخدم في محال الأجانب ، وأكرم بهؤلاء الأجانب الذين استحووا من فعلة خادمهم المسلم فاعتذروا وكان الواجب أن يكون الأمر على العكس - لقد قبلت اعتذار أصحاب الفندق ولكنني رفضت النوم عندهم ، لأنني كرهت النزول في مكان كنت أحب أن أعتمد فيه على خادمه المسلم فإذا به يكدرني ثم يكدره أسياده من أجلي ، نخشيت أن يحمل لي حقداً ، وقد يطلع على ما يريه مني فلا يتردد في الوشاية بي للشرطة . على أن سوء أخلاق الخدم المسلمين الذين يخدمون عند الأجانب لا يظهر إلا مع المسلمين .

عمامة السيد عبد الحميد كرامة

ومما هو جدير بالذكر والتسجيل عن العاهل وحفظ كرامتها أن خصوم فقيد الوطن العربي السيد عبد الحميد كرامة « رحمه الله » زعيم طرابلس الشام ومفتيها « وهو الذي أصبح فيما بعد رئيساً لوزراء لبنان » أرادوا أن يحرقوه في الشارع العام وينالون من هيئته ورياسته ، فأرسلوا شاباً من أقاربهم ليهينه علناً فترصده في الساحة العامة للمدينة فلما نزل السيد عبد الحميد من سيارته باغته ذلك الشاب بخيصرانة وأخذ يضربه بها على رأسه وأوقع عمامته على الأرض ، فبادر السيد عبد الحميد إلى العمامة فالتقطها وسواها ثم وضعها ثانية على رأسه وتناول مسدسه وأطلق الرصاص على ذلك المعتدى فقتله فوراً ، وبعد ذلك ركب السيد سيارته إلى دار الحكومة وقدم المسدس إلى الحاكم وقص عليه ما وقع ، وكان للحادث ضجة وقضية انتهت بإصدار محكمة الجنايات في بيروت حكمها بحفظ القضية بعد أن دفع السيد عبد الحميد لأهل القتل ديته ، وقد جرت هذه الحادثة سنة ١٩٣٣ وأما القاضي الذي أصدر حكم البراءة فهو فؤاد بك عمون رئيس محكمة الجنايات في ذلك الحين والذي أصبح عند كتابة هذه السطور مديراً عاماً لوزارة الخارجية اللبنانية ، فنال بذلك الحكم اللبق تقدير الجميع لأنه فض به مشا كل خطيرة وحقق دماء ومنع خصومات لانهاية لها . لأن حبس زعيم مثل السيد عبد الحميد كرامة لا يتم بسهولة في بلاد تقدر وطنيته وجهاده وترى فيه عنوان جهادها ، رحمه الله وعوض الأمة على فقده .

إلى المنصورة ومعرفة البوليس لشكلى

قلت إننى عدلت عن البيت فى اللوكاندة التى كدرنى خادمها فى مدينة المحلة بل فضلت ترك المحلة كلها ، فبحثت عن سيارة مسافرة إلى المنصورة فلم أجد فاستأجرت سيارة خاصة فوصلت المنصورة بعد العشاء وثلث بفندق يناسب حالى وأظن أن اسمه « قنال السويس » وكانت نوافذه تطل على النيل وعلى مدينة طلخا . وفى الصباح ذهبت إلى مكتب البريد فأخذت رسالة من الدكتور بشناق وهذا عنوانها ونصها :

حضرة المحترم الشيخ محمد الناجى — يحفظ بالبريد :

بعد السلام عليكم لقد سرنا توفيقكم فى تجارتكم ولكن بعض السماسرة المعروفين والخبراء دخلوا السوق للمزاحمة وقد سمعنا أن بعض خصوم تجارتنا يزعمون أنكم تتعبون فى الأسفار بلا جدوى وأنهم عرفوا حالكم وحقيقة تجارتكم والمناطق التى تتجرون فيها حتى ملابسكم وصفوها وإنها قدرة تسود الوجه فالأحسن أن لا تشمتوا المنافسين والأعداء ، فعليكم تحسين زيكم والحذر من طمع أصحاب الفنادق والسرقات وأما شريككم أبو الجهود فهو ساهر على الدكان وهو بخير وطمئنوناً على صحتكم والسلام عليكم .

الإمضاء أمين مصطفى صادق

كان وقع هذا الكتاب فى نفسى مزعجاً ومقلقاً ، لأن دخول السماسرة والخبراء للسوق معناه أن هناك جماعة تقدموا للتجسس والإرشاد عني ، وأن خصوم تجارتنا أى البوليس قد عرف الزى الذى أئسرت به ، وأنه يجب أن أغير شكلى وأن أحتاط حتى لا أقع بيد الشرطة ويشمت الأعداء بي ، وأن أبتعد عن الفنادق . وأما سهر شريكى أبو الجهود والدكان الخ فعنه أن الدكتور يطمئنى على زوجى أم جهاد وأنها فى الدار بخير .

إذن فهناك خطر قادم ولكن متى يقع وكيف ؟ لا أدرى .. ولذلك صرت أبالغ فى الحذر والحيطة ومضت أيام انتقلت بعدها إلى فندق كلارديج وهو أهم فندق فى المنصورة ، وكان السبب فى ذلك أن بدنى أصبح قذراً وهذا الفندق يحتوى على حمامات فاغتسلت وتمت فيه ليلة واحدة وفى الصباح الباكر ذهبت إلى حى بلدى أفطر فولاً مدمساً . فإذا بخادم من خدم



الفندق يرانى فى دكان بائع الفول
فاستغرب وجودى فى مثل هذه الدكان
وفى مثل تلك الساعة المبكرة من الصباح
فجاء وسألنى : هل مررت على مكتب
الفندق اليوم وأنت تغادره ؟ فقلت له :
كلا بل قفرت من النافذة ! ففجّل
وسكت لأنه ظن أن من يأكل فى مثل
هذه الدكان لا يملك أجرة ذلك الفندق
فخطر له أننى هربت من دفع الأجرة ..

لقد كان عدم استصحابى حقيبة
أو ملابس وأمتعة هو الذى يسبب لى
الشكوك والريبة عند أهل الفنادق،
ولكنه من جهة أخرى كان يساعدنى
على كثرة التمتل وسرعة الحركة .

هكذا كنت أتجول بين مصرودمياط وواق الواق!

هلاقة بسبب أكلة

و كنت قد اشتهيت الطعام الجيد المغذى بعد أن أهلك الفول والطعمية والجبنة معدتى طول
هذه المدة وأنا أرمح من بلد إلى بلد كاللص المذعور .

ومررت بمطعم فاخر فشمت رائحة الطعام ولكنى ترددت فى دخوله لكثرة زبائنه وكلهم
أنيق الملبس وخفت أن يكون بينهم من يعرفنى من ضباط أو موظفين ، بل ان شكلى بين

هؤلاء يلفت الأنظار ويدعو للشبهة ولذلك أحجمت ، وبعد أن تجولت ساعتين رجعت إلى المطعم وقد تيقنت أنه لم يبق إنسان في المدينة إلا انتهى من أكله ، فدخلت المطعم وكان خالياً من الآكلين فجلست على مائدة وطلبت طعاماً دسماً ، وقد شعرت أن الجرسون كان يرقبني ويتأمل حركاتي وأنا آكل ففهمت أنه مندهش من كون هذا الشيخ البلدي الرث الملابس يعرف كيف يضع الفوطة على ركبتيه ويمسح بها عند اللزوم شفتيه ، ويعرف كيف يستعمل الشوكة والسكين ، فصرت أظهار بالضجر من هذه الأدوات ومن الخبز الأفرنجي فطلبت خبزاً بلدياً وشرعت آكل بيدي ، فكف الجرسون عن تتبعي بنظراته الفضولية وأصبح كل شيء في نظره عادياً ...

ولما دفعت الحساب غلظت غلظة أخرى وهي أنني نفحت الخادم « بقشيشا » فأخذ يحملق بي وهو مندهش كيف أن مثلي يعرف هذه الأساليب ويدفع البقشيش ... تلك غلظة لم أعد إليها ، بل أنني لم أدخل مطعماً محترماً بعد تلك المرة ...

مصادفة

وذهبت في الليل إلى فندق ريش القريب من فندق قنال السويس فأقمت فيه بضعة أيام ، فكنت أغادره في الضحى إلى أطراف المدينة فأجول هنا وهناك إلى أن يسبل الظلام سدوله الفاحمة فأرجع إلى شارع البحر الذي لا يوجد لجماله مثيل بالقطر المصري كله ماعدا الاسكندرية والقاهرة ، وكنت أمشي على ضفة النيل ساعة ثم أجلس على رصيف قهوة « أندريا » في الظلام فأشرب الشاي واستأنس برؤية الناس وجلبتهم وضجيجهم ، وفي إحدى الليالي لمحت الأستاذ على أحمد باكثير^(١) يمر أمامي ومعه بعض الأشخاص فاستغربت وجوده في المنصورة وعهدى

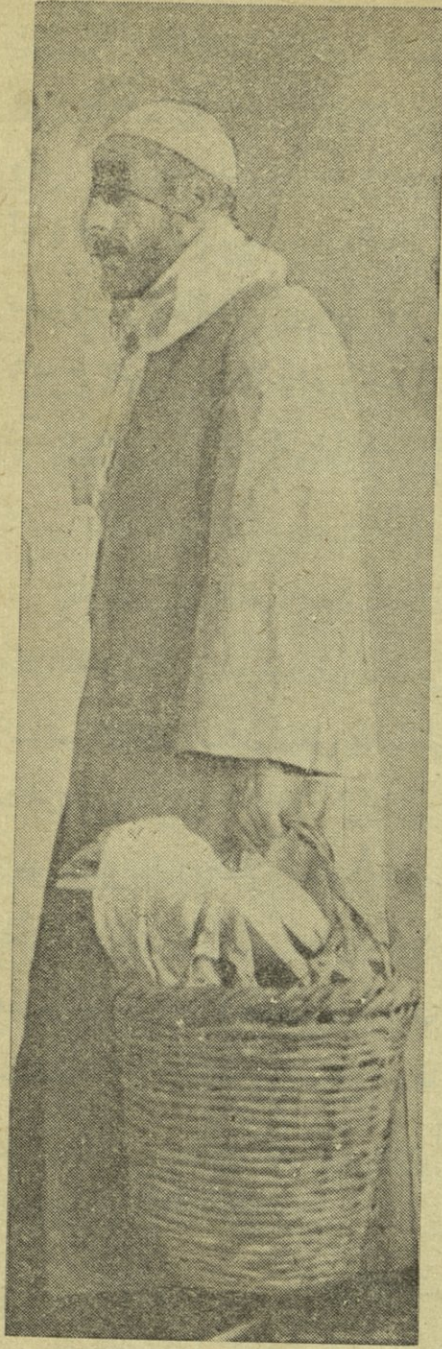
(١) وفد الأستاذ على أحمد باكثير على الحجاز في سنة ١٩٣٣ قادماً من أندونيسيا بطريق حضرموت ووطنه الأصلي ، ثم جاء مصر بقصد طلب العلم ، فالتحق بالجامعة المصرية فأحرز ليسانس كايمة الآداب ، ثم التحق بمعهد التربية العالي فحاز شهادته ، وكان في خلال هذه المدة يكتب ويؤلف =

به في القاهرة فظننت أنه جاء لتبديل الهواء أو أنه مدعو عند هؤلاء الأ أصحاب الذين كانوا معه، وكم تمنيت لو كان منفرداً لأنادي به وأظهر له نفسي واستأنس به وأستشير في أمري، فهو أخ ثمين وثقة أمين، ولكنني تركته يواصل السير وأنا أرقبه إلى أن غاب معهم عن ناظري فأسفت لضياح هذه الفرصة، وكان الواجب أن أتعبه من بعيد إلى أن يفترق عنهم فأناديه، ولكن قدر فكان.

السفر إلى القاهرة

إن التحذير الذي أرسله إلى الدكتور مصطفى بك قد أقلقني كثيراً فبدلاً من أن ابتعد عن القاهرة رغبت في السفر إليها لأقف على الأسباب التي جعلت الدكتور يحذرنى وينذرني، وبذلك صدقت نظرية « لمبروزو » مرة أخرى في ميل الهارب إلى الاقتراب من مكان الخطر! وغادرت المنصورة من طريق ملتو هذه المرة، فبدلاً من أن أقصدها رأساً بالطريق العادي في ثلاث ساعات، ذهبت إليها من طريق الزقازيق وبليس وشبين القناطر وخط المطرية والزيتون في تسع ساعات، وكنت في هذه المرة أملك سلة وضعت فيها بعض الملابس الشتوية فأخذتها معي لأتخلص منها بإيداعها عند الدكتور مصطفى بك.

= وينشر شعره الرقيق في الصحف والمجلات، فبلغ مكانة مرموقة يحسد عليها. ولما أكمل دراسته وأراد العودة إلى أندونيسيا مسقط رأسه وقعت الحرب وانقطعت الطريق إلى الشرق الأقصى فلم يستطع السفر فبقى في مصر واشتغل في التعليم وتأليف القصص التاريخية والأدبية، فكان لا يظهر إنتاج فكره إلا في المناسبات الجدية فكل مسابقة تعلنها وزارة المعارف أو إحدى الهيئات الثقافية أو وزارة الشؤون الاجتماعية لتأليف رواية أو قصة، كان باكثر يدخلها فيفوز بالجائزة مع طبع مؤلفه. وقد بلغ من نبوغه المثالي أن وزارة الشؤون الاجتماعية طلبت سنة ١٩٤٧ ست روايات في مواضيع معينة وأقامت مسابقة لذلك مصحوبة بمكافأة باهظة فتلقت الوزارة خمسة روايات ولما فحصت اللجنة المختصة ذلك الجبل من الروايات اختارت ستاً، ولما فتحت غلافات الأسماء ظهر أن الأستاذ علي أحمد باكثر قد فاز بروايتين من الست روايات، وهو فوز باهر لا مثيل له، فداعبته إحدى الصحف طالبة من الحكومة منع الأستاذ باكثر من دخول المسابقات... هذا تعريف موجز بالأستاذ باكثر وسيرد ذكره في هذه المفكرات مراراً.



... ونزعت العمامة وأبقيت اللبدة

فائدة بوليسية !

وعلى ذكر القطارات والبوليس أقول إن من وسائل الشرطة عندما تطارد أحداً الأشخاص حين تجهل شخصيته وتظن أنه يركب قطاراً بالذات أن يقف أحد زبانية الجواسيس في وسط

ولم يحدث لي في الطريق سوى
حادث بسيط وإن كان مزعجاً
بلاشك ، وذلك أنني لما ركبت القطار
من السنبلاوين إلى « أبي كبير »
لحقت شخصاً يشبه « العطار » أحد
أعوان بوليس الجواسيس وهو من الذين
قال عنهم الدكتور بشناق « إنهم نزلوا
السوق وأخذوا في المزاحمة... » فظننته
هو ، فلما هدا القطار سيره وقبل أن
يقف في محطة أبي كبير أسرع
إلى القفز من شمال القطار وركضت
إلى مزرعة ذرة واندست فيها
وهناك نزلت العمامة وأبقيت اللبدة
ولما استأنف القطار سيره خرجت
من مكاني وركبت إلى الزقازيق
بالاتوبيس .

عربة القطار وخصوصاً في الليل ويصيح باسم الشخص الطريد أو بالاسم الذي يظن أنه ينتحله. ففي بعض الأحيان يغلط الطريد فيرد أو يأتي بحركة لا شعورية تم عليه فيقع في أيدي الزبانية. وقد ذكر المرحوم شكري الكرداوى في كتابه المسمى « ٥٥ شهراً في مخبئى » وسيقأتى حديثه أنه لما هرب وتنكر بعد الحرب العظمى الأولى بعد حادث إلقاء القنبلة على رئيس الوزراء محمد سعيد باشا ركب القطار الليلي من كوم حمادة إلى امبابة ليختفى في القاهرة فسمع أحدهم يناديه باسمه فلم يشعر بنفسه إلا وهو يلتفت إلى المنادى فإذا به موظف بالقطار ينادى زميلاً له اسمه شكري فلو كان الموظف شرطياً لظفر بالمرحوم وقبض عليه ! ولنرجع إلى ما كنا فيه :

القاهرة

كان وصولى إلى القاهرة بعد منتصف الليل بساعة ونصف، فدخلتها من ساحة باب الحديد، وكان الظلام يسربل المدينة برداء دامس رهيب ، فلا ترى في جنبات تلك الساحة الواسعة الشاسعة التى اعتادت أن تنبض بالحياة ليلاً ونهاراً ، إلا بصيصاً من نور أزرق خافت باهت متناثر هنا وهناك ، ذلك هو كل ما بقى من أضواء القاهرة التى كانت تشعشع قبل الحرب فتحيل الليل نهاراً والظلام ضياء فأصبحت بسبب الحرب ظلاماً. ومشيت في الساحة الساكنة الهادئة وفي يدي سلة الملابس ومشيت أفكر، أذهب لصر الجديدة الآن فأوقظ صديقى من نومه .. هذا مزعج له . وأخيراً فضلت أن أنام في أحد الفنادق الكثيرة في ميدان باب الحديد على أن أستيقظ مبكراً فأصابحه في الصباح ، وهذا أحسن . فتوكلت على الله وقصدت فندقاً متواضعاً في أول شارع إبراهيم باشا بجوار جامع أولاد عنان المواجه لمركز بوليس الأزبكية وعلى بعد خمسين متراً منه فدخلت ...

وقعت في يد البوليس

كان مكتب إدارة الفندق يقع في المدخل . فلما دخلت كنت أظن الحارس نائماً كالعادة فأوقظه وأطلب غرفة وأصعد إليها . ولكننى وجدت صاحب الفندق جالساً والضوء يسطع على مكتبه وقد جلس أمامه أربعة أشخاص يتحدثون إليه ، فأحجمت عن الدخول لحظة أفكر فيها بالعواقب ، لأن اقتحامى هذا « المجلس » وإعطاء الاسم والمساومة على الأجرة - ولا بد

من المساومة مع فنادق من هذا الطراز - كل ذلك كان يستدعى أن يسمع هؤلاء الناس صوتي ويمكنهم من التفرس في وجهي وشكلي ، وقد يكون أحدهم يعرفني ، فتراجعت بسرعة وخرجت من حيث دخلت لأبحث عن فندق آخر . فلما صرت على رصيف الشارع شعرت بيد ضخمة تقبض على معصمي وسمعت صاحب اليد يقول : « تعال هنا » ... يا إلهي ! إنه عسكري العسس ! وقبل أن أفتح في المرتعش الذي أصيب بالسك ، وقبل أن أفكر في موقفى المروع ، أخذ الشرطى يجرنى إلى إدارة البوليس بدون مناقشة ولا تهمة ولا سبب ... فشيت معه بدون أن أقاوم أو أن أعترض ، وماذا يفيد الاعتراض مع جندى جلف أى لا يعرف من الدنيا إلا عبارة (إمسك هذا وارك ذاك) وكانت يده التى تشبه الكماشة تمسك بى فلا مجال هنا لمحاولة الإفلات منه والركض بعد ذلك على أن أرمى له السلة ليتلهى بها ... لقد تصورت أن هذا الجندى قد عرفنى ، لأن حراس السجن الذى كنت فيه كانوا يؤخذون أحيانا من قسم بوليس الأزبكية ، فلم أشك فى أنى وقعت ولات حين مناص !

وبعد أن مشينا عدة خطوات سألت الشرطى لماذا يقبض على ... فقال : انت يا شيخ خرجت من الفندق بصورة مريبة فألقيت الشبهة على نفسك فأريد أن آخذك إلى القسم لتتحرى عنك وعن هذه السلة التى تحملها وتركض بها . فلما سمعت التهمة شعرت بشىء من الفرج لأننى تأكدت من أن الشرطى لم يعرفنى ولكنه اشتبه بى لعلى أكون لصاً سرق شيئاً من الفندق وهرب !

ولكن هذا الاطمئنان لم يدم طويلاً لأننى تصورت دخولى معه إلى قسم البوليس وكيف أنه سيوقظ الضابط ، وأن هذا سيهيب من نومه غاضباً من إيقاظه ، فيوجه إلى بعض الأسئلة مصحوبة بالفاظ بذئنة ، يأمر بعدها بإدخالى السجن إلى الصباح ليتحرى عنى وعن شخصيتى ، ولا يتم هذا إلا بإحضار من يعرفنى ... بل هناك ما هو أدهى ، فقد يكون الضابط من الذين كانوا يرافقونى إلى طبيب الأسنان أو المستشفى !

فكرت فى هذا كله بأسرع من لمح البرق ، فأحسست بالردة تسرى فى مفاصلى ولكنى مع ذلك جمعت أعصابى كلها فى بضع كلمات وقلت للجندى : إننى قادم من الريف

وأن هذه السلة تحتوى على ملابسى - وذكرت له مفرداتها - ثم توقفت عن المشى وأخذت أنبش ما فى السلة ليرى بعينه أننى صادق ، لأنها ملابس لقيمة لها ، فقال ولكنى رأيتك تخرج من الفندق مسرعاً ، فقلت له هذا صحيح ، وسبب ذلك إننى كنت أظنه فندقاً بلدياً رخيص الأجرة فوجدت صاحبه «خواجه» فكرهت أن أنام عند أجنب وأترك فناق أولاد العرب وأنا شيخ أحتاج إلى محل وضوء غير رجس ولذلك رجعت بسرعة قبل أن يرانى صاحب الفندق أو ينادينى .

كان هذا الحديث يجرى مع الجندى وأنا أسير معه حتى أصبحنا أمام باب كركون البوليس ! وإذا بالمعجزة تقع ، وإذا بالجندى يتوقف بغتة ، وقد أعجبه تعليل أسباب الهرولة من باب فندق الخواجات ! فترك يدي قائلاً « طيب ياسى الشيخ روح فى حالك وإياك أن ترمح مرة ثانية من الفنادق فى ساعة كهذه » ثم أرشدنى إلى شارع كلوت بك وأشار إلى فندق رث حقير ونصحنى بأن أذهب إليه ، وقال إن أجرته رخيصة . فشكرته ودعوت له ، ومشيت إلى الجهة التى أشار إليها ، ولما طوانى الظلام وحال بينه وبينى هرولت كالغزال إلى جهة معاكسة وأنا لا أصدق بالنجاة ، ثم أخذت أبحث فى الظلام عن سيارة تاكسى فعثرت على واحدة واقفة أمام قهوة (المنظر الجميل) على ناصية شارع ابراهيم باشا بجوار الفندق الملعون الذى غادرته بسرعة ، وكان سائق السيارة نائماً فيها ، ففتحت بابها ودخلتها ثم أيقظته وقد ربطت خدى بمنديل ووضعت يدي فوقه وأنا أتأوه كمرىض وقلت له « هيا إلى مصر الجديدة يا أسطى » . فنزل السائق وأدار المحرك ثم ركب وأنا أقدر أن نزوله من السيارة لإدارة المحرك قد استغرق دهنأ طويلاً ...

وانطلقت السيارة فى طريقها ، فشعرت انى قد ملكت الدنيا بأسرها ، وتناولت سيجارة وأخذت أدخن ثم نظرت إلى الساعة على وهج السيجارة فإذا بها تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل .

عند الدكتور

وفى أول شارع الأهرام بمصر الجديدة نزلت وصرفت السيارة ثم مشيت إلى شارع

صباح حيث كان الدكتور بشناق يسكن في الطابق الأول ، فطرقت الباب فاستيقظ وفتح لي ورحب بي مبتهجا مسرورا ، فرجوته أن يفرش لي لأنام لأنى متعب وأما الحديث فتركه إلى الغد، فأبى إلا أن يوقظ ابن أخيه الدكتور ناجى « رحمه الله » فأعطاني سريره ، فنمت بملابسى بعد أن تركت النافذة المطلة على الممر الخلفى غير مغلقة كالعادة، وذلك استعدادا للطوارئ كما أننى اتفقت مع الدكتور على عدم فتح باب الدار لأى طارق إلا بعد مناقشة معه تتيح لي الفرصة للقفز من النافذة إلى الحديقة الخلفية عند الاقتضاء والنفوذ إلى الشارع ...

ونمت تلك الليلة أحلم (وأهلوس) في حادثتى مع الشرطى التى هزت أعصابى هزاً !

الدكتور محمود عزمى^(١)

وفي الصباح تناولت مع الدكتور وأهله فطوراً شهياً ، وتحدثنا في أمور كثيرة وفي أمورى خاصة وعن الحوادث التى جرت بعد غيبتى ، وكان أطف ما جرى أن صديق الدكتور محمود عزمى وكان لا يدرى بأنى هربت ، قد ذهب إلى وزارة الداخلية ليناقدش حمدى محبوب مدير الأمن العام في مسألة الإبقاء علىّ في المستشفى إلى أن أشفى من المرض ، فقال له حمدى باشا: لا لزوم لهذا البحث الآن ، فسأله عزمى لماذا ؟ فقال : لأن صاحبك هرب .. فكانت مباغتة لعزمى . وقد أخبرنى عزمى بعد ذلك أنه لما سمع هذا الخبر من حمدى محبوب وجم قليلاً ثم فرح

(١) لابد من وفقة عند ذكر عزمى أصفه بها للجبل المقبل لأن جيلنا كله يعرفه ، فالأستاذ محمود عزمى - وهو دكتور في الحقوق والعلوم السياسية - صحفي مطبوع وكاتب سياسى شهير ، وهو محدث لبق ، خفيف الظل ، عف اللسان والقلم ، جذاب المجلس ، أنيق العبارة ، حلو الحديث ، وهو يمتاز عن أمثاله بدفاعه عن الحريات والغضب للدستور ، وقد عرف بحرية الفكر وسعة الأفق ، ولولا عدم استقراره في المهن التى يتعاطاها لكان أوحد زمانه ، فلو استمر في الصحافة لكان حامل علمها ، ولو استقر في مكتبته للمحاماة لكان فارسها وكان ابن بجدتها ، ولو ثبت في المناصب الحكومية لكان سفيراً مؤثقاً ، أو وزيراً للخارجية لا يشق له غبار . وأما علاقته به أو علاقته بنى فهى بنت ثلاثين عاماً ، أى منذ سنة ١٩٢٠ وهما أنى أسطر هذه الحاشية سنة ١٩٥١ ومما أذكره له بالتقدير انه رأى سنة ١٩٢٦ - ١٩٢٧ مختاراً في الحصول على جريدة أصدرها بدلاً من الشورى بسبب كثرة منع الاستعمار لها فأعارنى مجلته « الجديد » مجاناً بلا قيد ولا شرط وبعد عشر سنين رأى في مثل هذا المأزق فأعارنى مجلته الثانية « الشباب » سنة ١٩٣٧ بلا شرط ولا أجر فأصدرتها نحو عامين ، وقد وجه إلى كتاباً عند ما سلمنى جريدته يعد في نظرى دستوراً من دساتير الحرية وإنى أسجل ذلك الكتاب في الصفحة التالية مصوراً بالزنگراف اعترافاً بفضلته وتخليداً لصفة « الحرية » التى اتسم بها لكثرة ما أحبها وانتصر لها .

AL-CHABAB

HEBDOMADAIRE POLITIQUE, ECONOMIQUE
ET SOCIAL

Directeur : MAHMOUD AZMI

3, PLACE SUARÉS

Tél. 56707

LE CAIRE

الشباب

إشيعوية للسياسة والثقافة
يديرها محمود عزمي

٣ ميدان سوارس بالقاهرة

تليفون نمرة ٥٦٧٠٧

١٩٤٧ / ٢٢ يناير

اعني دكتور عزمي الا ساذ منه علي الظاهر

يا اشم الليل - بالبارحة - الى سنة ١٩٤٦ حين بينك وبيننا اصدار
جريدة تنك البرية الصادرة "التورس" ، وكان "البريد" في فقدته
نك نضرة كات ، حتى لا يكت صوتك الما في الحقوق
العربية جميعا . واليوم يحال اذن استئناف جيل اكن بالاستماع
عن استئناف الفكر نك با صدار "التورس" ، ولدي
مبل - "الشباب" ، فابارر بتقدير اليك نضرها وتشرق
في كبرها وادارتها مطلق صريتنك ، فاعنا عن الحقوق العربية
التي تدر شغفي نيا سيدها ودمي في مطلق نضرك
فيا نضل بارادتها ، وصدقاتها ، راجيا ان اسلم برها
بعض المسألة في نضرة القضية العربية الكبرى .
من طي هذا كتابان احدهما لصلي الصالح والآخر والثقافة
وثانيهما لصلي البريد مصلان بتنفيذ وصنعى "الشباب"
تمت نضرك ارجو ان تنقل بانها في الى عزمي الاضطر
دمي يا بالسن الى جيل اكن الصفي العذور في سبيل
العروم والمري .
والسلام نيك وعزمي الي كبرك

وثيقة الدكتور عزمي

هذه هو الكتاب الذي وجهه إلى صديق عزمي وذكرت قصته في الصفحة السابقة ، وهو كتاب
ينم على الروح الحر الذي انطبع عليه ذهنه ويسيطر على تفكيره .

وشمت بهذا الباشا الذى لوّعه لكثرة ما كان يكذب عليه وعلينا فى مسألة تخفيف قيود السجن وكان حمدى محبوب يومها متهورا محزوناً مكسور الشوكة، بعد أن كان وأنا فى قبضته فى السجن يكلم الناس عنى بعجرفة و صلف كأنه يتكلم من مناخيره التى أرغمها الله، ليس فقط فى هذه الحادثة بل أرغمها إلى الأبد^(١).

ومن حوادث السجن الذى كنت فيه أن بوليس محمد يوسف تشعبط بشخص من فلسطين اسمه سليمان العوامة وهو من ثوارها الهاربين فقبض عليه توطئة لتسليمه لحكومة فلسطين الإنكليزية. ولكن سليمان العوامة تمكن من كسر حديد النافذة وهرب، ولما اشتد عليه الطلب ذهب إلى فلسطين فقبض عليه الإنكليز وألقوه فى السجن، فلو ترك يعيش فى مصر آمناً لما حصل لهذا الشهيد الحى ما حصل.

حصار المفوضية العراقية

كان أهم شيء تحدثنا فيه عند الدكتور بشناق ثورة العراق ومبلغ حالتها وهل من سبيل إلى الاستعانة بياسبور عراقى أو ورقة هوية باسم آخر يعطينا إياها السيد تحسين بك العسكرى وكيف يمكن الاجتماع به، فنزل الدكتور بشناق إلى القاهرة فزار السيد تحسين فى المفوضية العراقية ثم عاد يقول: إن السلطة البريطانية أحاطت بالمفوضية العراقية ورجالها برقابة شديدة جداً وأخذت بعد حركة العراق تنظر إليها وإلى من فيها نظرها إلى مركز للأعداء!

ولما أقامت المفوضية حفلة عيد الملك فيصل الثانى تغيب رجال السفارة البريطانية عن الحفلة كلهم، وزاد على ذلك خبراً أليماً آخر، وهو أن رئيس الوزراء وجميع أركان حكومته قد تخلفوا عن

(١) وكيفية ذلك أنه حدث بعد عام من هذا الحرب أن سقطت الوزارة وقامت وزارة مصطفى النحاس باشا فكان أول شيء صنعه النحاس باشا أنه أمر بإبعاد حمدى محبوب باشا عن وزارة الداخلية والأمن العام ورماه فى قلم قضايا وزارة التجارة، ففقد مفعوله بعد أن قلّعوا أنيابه فانكسرت نفسه بعد زوال شوكته وأصبح كأنه جثة بلا روح فلم يسهه إلا أن يترك الحكومة فاستراحت منه الأمة ولم يسمع أحد عنه بعد ذلك شيئاً حتى ظن أنه توفى! وذلك أن سيرته مرت عندى فى دار الشورى منذ شهور وكان الدكتور محمد صلاح الدين بك وزير الخارجية متفضلاً ساعتها بزيارتي هو وبعض الفضلاء. فلما ذكروا اسم حمدى باشا محبوب ترحم عليه صلاح الدين بك على ظن أنه حفى، فنقلت له كلا، إنه لم يمت بل هو حى يرزق، فقال الوزير والله أنا ظننته مات، فقال أحد الحضور: كلا كما صادق، لأن حمدى باشا اليوم ميت يرزق...

الحفلة مجازاة للإنكليز، بل إنهم زادوا على الإنكليز بأن كانت مقاطعتهم للحفلة سافرة وخالية من جميع قواعد اللياقة وبدون اعتذار، في حين أن الإنكليز وهم الأعداء قد أرسلوا اعتذارات مكتوبة مفتحين لتخلفهم عن الحفلة الملصية أسباباً .

إميل الغورى يخذلنى

وطلبت من البشناق أن يستدعى صاحبنا إميل الغورى لنشركة فى الأمر ، فجاء وأخذنا نبحث عن طريق للنجاة ، وهل أبقى فى القاهرة محتفياً بصفتها أكثر أمنا لازدحامها الشديد بالسكان وأجناسهم المختلفة، أم أذهب لفلسطين لأنفذ منها إلى العراق، أو نجد، وكيف السبيل إلى ذلك ...

وكان إميل الغورى قد أحضر معه إلى جلسة المشاورة طفله الصغير فكان هذا الطفل يركض فى الغرفة يقلب هذا الكرسي ويرمى تلك الطاولة ، ثم يهرول إلى الباب الذى أغلقناه حتى لا يدخل علينا أحد فيذهب إليه الطفل فيفتحه ، فنقوم فنغلقه ، فيركض إلى النافذة التى فتحنها طلباً للنور والهواء فيغلقها، فنقوم لنفتحها، وهكذا دواليك ...

فى هذا الجو المزعج كنا نبحث فى مسألة فيها حياتى أو هلاكى . واقتضى الأمر أن يذهب إميل الغورى إلى السوق ليتصل بمحطة الزيتون للسؤال عن موعد قطار شبين القناطر لأننى قررت أن أغادر القاهرة إلى الريف الشمالى بطريق خط سكة حديد الزيتون ، فأخذ إميل ولده وذهب، فقلت له: ما دمت ستمر بمنزلك فالأحسن أن تترك الولد هناك وتعود وحدك ، فإذا باميل يغضب ويثور ويكدرنى بحجة أننا نبغض المحروس! ثم ذهب غاضباً ولم يعد مطلقاً ... وقد آلمنى هذا الخذلان من الغورى فى وقت أنا أحوج ماأكون فيه إلى الأصدقاء والإخوان، ولكن هذا الرجل نسى واجبه فى ذلك الوقت الحرج ، ونسى الوفاء .

إننا لم نفكر فى طلب إبقاء الطفل عند أمه إلا لكوننا فى دقائق ثمينة كنا فى حاجة إلى كل ثانية منها وإلى الهدوء وصفاء الذهن ، ولكن معظم جلستنا التى جئت من أجلها للقاهرة وركبت الأخطار بسببها ضاع فى الاشتغال بالنجل الكريم : اسكت يا ولد ، اقم يا ولد !

إحساسات!

وقد زاد في الألم أن زوجة الغورى لما بلغها بعد ذلك نبأ القبض على عزيز باشا المصرى بعد هربه «وسياتى حديثه» فرحت وصارت تقول للسيدات اللاتى يعرفن حكاية هربى «لقد مسكوا عزيز باشا وإن شاء الله يمسكوا أبو الحسن - أى أنا - لنستريح من السؤال عنه» فقالت لها حرم الدكتور بشناق وهى من خيرة السيدات الكريمات «رحمها الله» «لا سمح الله يا فلانة. حرام عليك، كيف تتمنين هذه النكبة لمجاهد فى سبيل الوطن وطالما أحسن إليك ولزوجك، فهم إن أمسكوه انتقموا منه ولن يعيش بعدها من شدة العذاب».

بلغنى هذا فتعجبت من امرأة تتمنى هلاكى مع أننى لم أقصر معها ولا مع زوجها مدة ربع قرن، وقد كنت باراً بهما، وكلم رأيت من إكرامى لها ولزوجها، ومن إسعافى لهما فى الملمات مما يحسن عدم سرده خوف المن، لدرجة أن الغورى لم يرجع لى حتى هذه الساعة ما أقرضته إياه من مال قبل حبسى، فى زمن اشتدت فيه الأزمات عند إعلان الحرب، وكان الناس فى أيامها سكارى من الفزع والضيق لا يسأل الإنسان يومها عن غيره؛ ولا الوالدة عن ولدها، فأثرت الغورى وأهله على نفسى وأهلى، ولكنه وزوجه لم يحفظا لصديقيهما هذا الوداد... ولذلك عدلت عن بحث سكنى القاهرة وعن مغادرة الأراضى المصرية، بعد أن رأيت أن أحد الأصدقاء الذين ادخرتهم للشدائد قد نسى واجب الأخوة، بعد أن ظننت أننى قد اعتمد عليه فإذا به يخلق مسألة ابنه ليتخذها ذريعة للقطيعة فى هذه الظروف التى كان يجب عليه فيها أن يتحملنى مهما كان الحال، حتى ولو أسأت إليه بقصد وعن تعمد، فالأصدقاء يتحملون تصرفات بعضهم نحو بعض فى الحالات العادية، فكيف بحالتى الشاذة الفذة التى تحير العقل، وقد تصورت نفسى محل الغورى وأنه فى مكانى وطلب منى إعفائه من وجود ابنى، فهل كنت أثور فى وجهه فى ذلك الظرف الحرج وأكدر خاطره؟ ثم أخذه وأغادره على غير رجعة...؟ كلا، لا يمكن أن أفعل هذا لوثار هو على وكدرنى، بل أن العاقل الحريص لا يجيء ومعه طفل إلى مثل تلك الجلسة التى فيها هلاك نفس، حتى ولو كانت الجلسة مخصصة للمساومة على بيع عنزة أو مشترى دجاجة...

إننى أرجو من قارىء هذه السطور أن يعذرني على إيراد هذه الحادثة والإسهاب فيها لأننى برغم مرور عشر سنين عليها لا أزال متألماً منها . ولا أزال أذكرها بمرارة ، ويكفى استبشار زوجته بوقوع عزيز باشا فى أيدى الجلادين ، مع أنها لاتعرفه ولا علاقة لها به ، ثم تمنىها مثل تلك النتيجة لى أنا الذى شملتها هى وزوجها بالبر والوداد أكثر من عشرين عاماً .

عند الشيخ صبرى عابدين^(٢)

نمت تلك الليلة عند الدكتور البشناق وفى الصباح المبكر قبل شروق الشمس نهضت من النوم وذهبت إلى المطبخ فصنعت فنجاناً من القهوة ثم تسالت من باب الدار وأهلها نيام، ومشيت فى الشوارع أبحث عن أنوبيس القاهرة فركبت فى أول عربة غادرت مصر الجديدة ونزلت عند الشروق بجوار محطة كبرى الليمون ومن هناك مشيت رجوعاً من خلف المحطة إلى حى الشرايبة .

وكان الطريق الذى سلكته يعتبر من الدروب المهجورة نوعاً ، والتى لا يمر الترام منها ولا سيارات الركاب ، بل كان طريق شحن وبضائع ، وسيل عمال إلى أعمالهم ، فكانوا يسرون مهرولين أفراداً وجماعات . كانوا كلهم سعداء فى حياتهم إلا أنا ، وكلهم آمن على نفسه وعلى أهله إلا أنا . وكلهم يسير مطمئناً يفكر فى مستقبل أحسن وحياة اهناء ، إلا أنا ! لأنى كنت شاردًا ومشردًا ، فقدت البيت والأهل والولد ، أمشى مروعاً وأتلفت مفرعاً ، لا أفكر إلا فى البوليس وفى السجون وفى الأصفاد وفى القيود !

لو كنت قاتلاً لعذرت الدولة على تتبعى وملاحقتى ، ولو كنت عدواً للوطن لما حدثتنى

(١) بعد عامين من هذه الحوادث عاد إميل الغورى إلى فلسطين واشتغل فى شركة سياحة وأصبح ذا مال ونشب ، فوسطت الدكتور البشناق بأن يطلب من الغورى القرض الذى فى ذمته لى ، فغضب وأبى الدفع قائلاً : إن الذى أعطيته إياه لم يكن من مالى أنا بل من إعانات المنكوبين ، فقال له الدكتور : افرض هذا واسكنك لم تعد منكوباً ، فأنت الآن فى وطنك وعندك مال كثير ، فهات ما عليك من مال إعانة المنكوبين لإعانة الذى أعانك فقد أصبح الآن منكوباً . فاذا بالغورى يغضب من هذه المطالبة ، ويرفض تلك الحجة ، لأنها لم تعجبه ، ثم قاطعنى ، ولم يكتف بذلك بل راح يطيل لسانه على وينذع المنشورات السبابة فى حقى ...

(٢) الشيخ صبرى عابدين من علماء فلسطين المجاهدين وكانت فى أيام ثورتها قد أحس بنية القبض عليه فهجرها ناجياً بنفسه إلى مصر فأقام فيها بضع سنين يخدم وطنه بقامه ولسانه .

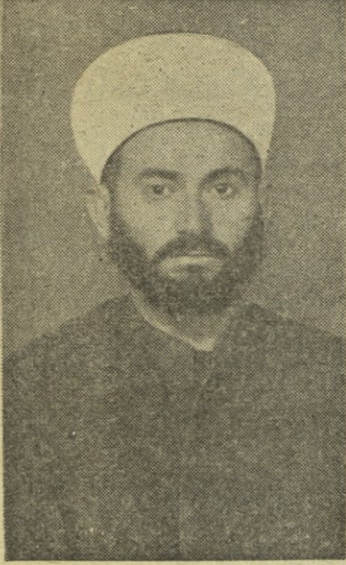
نفسى بالعتب على الحكومة لمطاردتها إياى وسعيها فى الانتقام منى . ولكنى أحسب نفسى خادما لأمتى ، مخلصا لبلادى ، فكان ألى شديداً وعذاب نفسى موجعا وأنا أرى حكومة عربية مسلمة إسما وقانونا تنكل بى ثم تركض خلفى لتقبض علىّ وتسلمنى إلى الإنكليز أعداء البلاد وأعداء الدنيا كلها...

وكنت أعرف وصف موقع دار الشيخ صبرى فبحثت عنها إلى أن وجدتہا بعد تعب غير قليل ، لأن الشارع الذى تقع فيه الدار كان جديداً لا إسم له ، ومنازله جديدة لا أرقام لها ، وطرقت الباب ففتح لى الشيخ صبرى بنفسه ، وقبل أن يستوضحنى من أنا رفعت العمامة ونزعت النظارة وأشرت إليه فعرفنى فوراً فرحب وفرح بى وجاءنى بطعام الفطور وتحدثنا إلى الظهر ، ولما جاء موعد الغداء أقام لى مأدبة متعددة الألوان ، وقد استفهمت منه عن أخبار تفتيش بيته ، ففهمت منه أن الضابط محمد يوسف^(١) ادعى عند تفتيش الدار أنه جاء يبحث عن سلاح ! فأجابه الشيخ متهمكاً : بل أنتم تبحثون عن الأستاذ الطاهر ، ولكن

(١) لم يكن محمد يوسف وحده هو الذى يبحث عنى ، فهناك مئات أطلقتهم خلفى إدارة « الانتلجنس سرفيس » البريطانية ومن الجملة قطعانها المتسترة باسم « جمعية اخوان الحرية » التى سياتى حديثها وخبر خنازيرها الأشرار ، ولكن الجميع كانوا يبحثون بحثاً عادياً لا يتعدى الاستفهام والاستطلاع وتسقط الأنباء والاعتماد على الصدف . ما عدا محمد يوسف فهذا كان متحمساً مستميتاً ، لا يهدأ له بال ولا يستقر على حال إلا بعد أن يهتدى إلى أثرى ويرانى فى السجن مرة أخرى ! بعد ذلك أن له عدة فوائد ، فهو أولاً يكسب رضا الإنكليز الذين يحتلون البلاد ويسيطرون على الدولة ، ثانياً أنه يرضى نفسه أمام نفسه حتى لا يظهر أمام أنباده بالتقصير ، فهو لذلك يريد أن يرتقى ولو على جثتى ! ثالثاً أنه يسر خاطر أصحابه الدمشقيين التجار بمصر الذين كانوا يعادونى بسبب كرمى لفرنسا ومناصرة السيد شكرى القوتلى بجريدتى حين كان يقيم فى مصر أيام ثورة سورية الكبرى سنة ١٩٢٥ فقد كانت جريدتى هى جريدة الثورة ولسانها فى آفاق الأرض حين كانت صحف القاهرة لا تبالى بالعالم العربى ، وكانت صحف سورية مكمنة خائفة من فرنسا .

من هنا جاءتنا هذه العداوة من محمد يوسف ، والغريب أن العالم العربى يكاد يفلت من انجلترا بعد أن أفلتت قسمه الشرق منها ، واسكنه لم يفلت من محمد يوسف الذى لايزال معشديد الأسف فى خدمة الحكومة بل إن منصبه قد كبر وصار من أهم مساعدى عزام باشا . وكننت أتوقع أن تعصف به العهود الوطنية وتتخفف منه ، فإذا بعض الجهات الرسمية تضمه إليها لتجارب به خصومها ، ووقفت الحكومة الوفدية منه موقف المتحيز لإكراماً للجهة التى يظن أنها تحتضنه ، وهو غلط ووهم ، لأن وزير الداخلية الوفدى يستطيع أن يطيره من الحكومة كلها إن أراد ، أو ينقله إلى منصب آخر على الأقل .

كيف يخطر لكم أنه عندي والبيت مملوء بالأهل والأطفال. فقال الضابط إنكم تعرفون مقره ولكنكم تنكرون، فقال الشيخ صبرى والله إنى لا أدري أين هو، ومع ذلك فإنه لو كان في جيبى ما أخبرتك عن مقره! فرجع محمد يوسف الذى يريد أن يقلد «نقولا كارتز» بخفى حنين...



الشيخ محمد صبرى عابدين

قضيت بقية ذلك النهار والسهرة عند الشيخ صبرى، ثم ذهبت إلى دار الشيخ ابراهيم إطفيش بالمطرية، فتمت عنده. وفي الصباح، كلفت الشيخ ابراهيم بالذهاب إلى شبرا وتكليف الشيخ يوسف المشهدى بأن يتصل بمنزلى ويطمئن أهلى ويأتينى بشئ من الملابس ففعل.

وفي المساء غادرت منزل الشيخ إطفيش وذهبت إلى مصر الجديدة وتمت عند الدكتور البشناق بعد أن أكملنا السهرة في الحديث عن فعلة اميل الغورى وسلوكه الغريب معى، ومن

الحوادث التى قصها على الدكتور أن البوليس قبض يومها على عدد من طلبة الأزهر الشاميين بحجة أنهم يعرفون مقرى وأنهم يوزعون نشرات في مصلحة الثورة العراقية على الإنكليز وأن ممن قبض عليهم الشيخ مصطفى حسنى السباعى الدمشقى الطالب بكلية الشريعة «وهو الآن سنة ١٩٥١ عضو بمجلس النواب السورى من خيرة النواب» والشيخ هاشم الخازندار من غزة وهو الآن من علماء تلك المدينة الشهيدة، والشيخ مشهور الضامن بركات رئيس المعهد الدينى بعد ذلك فى عكا، «ردها الله إلينا».

زيارة شقيقتى فى السويس

كانت وظيفة صهرى قد انتهت من مدينة شبين الكوم وتقل إلى السويس، فلما رأيت نفسى فى مصر الجديدة على بعد ساعتين من الشقيقة قلت لأذهبن إليها إذن، وغادرت منزل الدكتور قبل شروق الشمس، وبينما كنت أمشى فى شارع ابراهيم خطر ببالى خاطر فبحثت عن القلم لأدون ذلك الخاطر فى ورقة فلم أجده، وكنت حريصا على تقييد تلك الشاردة التى مررت بذهنى حتى لا أنساها، ولكن القلم ضاع فأسفت. وإذا بى أعثر فى الطريق على قلم كويا صغير فالتقطه متعجبا من هذه المصادفة التى جعلتنى أتيمن بذلك اليوم كله.

حيرة ...

ووصلت إلى قهوة صغيرة في أول شارع السلطان حسين حيث يبدأ من أمامها سفر السيارات إلى السويس، فسألت قفيل لى إن السفر فى السيارات العامة قد منع بسبب الحرب ولا يسمح به إلا برخصة للسيارات الخصوصية فقط ، سمعت هذا فأسقط فى يدى ، وجلست فى القهوة قليلا لأتناول شيئا من الحليب والشاى ، وهى فرصة للتفكير والتدبير أيضا ...

لا سبيل إلى السويس إذن إلا من طريق السكة الحديدية ، ولذلك يجب أن أذهب إلى القاهرة وأن أدخل إلى المحطة لأركب من هناك، ولكن الشمس قد تكون طلعت وأشرقت ، وليس من الحكمة أن أتعرض للخطر ، إذن فأنا مجبر على أخذ سيارة تاكسى إلى المطرية لأخذ قطار شبين القناطر ومنها إلى الزقازيق والإسماعيلية فالسويس ، عند ذلك عدلت عن هذه الرحلة ونهضت لأمضى فى سبيل آخر ؛ وإذا بسيارة خصوصية أنيقة تقف أمام القهوة ، وينزل منها اثنان كان مظهرهما يدل على أنهما من الموظفين ، فقبعت فى مكانى حتى لا يسترعى خروجى النظر حال دخولهما فورا ، وطلب الاثنان شايا وقهوة واستعجلا الطلب بسبب السفر ... وهنا خطر لى لو أمكن السفر معهما ، ولما نهضا للانصراف سألتهما إذا كان بالإمكان أخذى معهما إلى السويس لأنى مضطروا أنى ما كنت أعرف بمنع سفر السيارات العادية من هنا ، فرحبا بى وانطلقت السيارة كالسهم الخاطف ومررنا بمعسكرات جيوش الإنكليز وهى ممتدة من أطراف مصر الجديدة حتى السويس ، وإذا قلت جيوش الإنكليز فإننى أقصد الجيوش التى يتسوقها الإنكليز ، لأن هذه الجيوش كان معظمها من الهند والسودان وبرما وجزر المحيط وبلاد العرب والصومال وأستراليا ونيوزيلاندا ، ومن جميع أجناس الآدميين المغفلين الذين يركضون لنصرة عدوهم ويخذلون أوطانهم ...

وكانت الرباطات العسكرية الإنكليزية تستوقف السيارة وتسأل عن فيها ويلقى الضابط علينا نظرة سريعة ثم يأذن لها بمواصلة السير . وهكذا على طول الطريق ...

وصلت السويس بعد ساعتين ، فتناولت من عبي ثلاثين قرشا ودفعتها لصاحبى السيارة وأنا أشكرهما وأقول لهما إن هذا المبلغ ليس أجرا ولكنه من ثمن البنزين ، فتقبلا المبلغ وانصرفتا ، ولو طلبا جنيتين ما ترددت فى الدفع . ثم مشيت إلى دار شقيقتى بحسب العنوان الذى تحصلت

عليه ، فصعدت الدرج وطرقت الباب فسمعت شقيقتي تقول من ؟ فقلت بصوت مسموع « مَحَدِّش » وهى الكلمة التى اعتدت أن أجيبها بها منذ القديم فتعرف أننى الطارق ...

وصف مظهرى وشكلى فى ذلك الحين

كانت ملابسى فى تلك الأيام هى الجبة الوسخة والعمامة القديمة والققطان البالى والحذاء المرقع ، وكنت أربط عيني اليسرى برباط تحته قطن ، وأخفى ملامح عيني اليمنى بشئ من قطرة « الأرجيرول » البنية اللون ، وألصق على جانب من خدى قطعة صغيرة من الشمع الذى يلصق فوق الجروح ، وقطعة مشمع أخرى على الجانب الأيسر من عنقى ، فهذا التنكر بإخفاء أهم ما يميز الإنسان من الملامح مع اللحية المستديرة التى وخطها الشيب من بعض النواحي كنت أخفى على أقرب الناس لى وأعرفهم بى .

لقاء محزن

فلما فتحت شقيقتي الباب ووقعت عينها على كادت تصعق من شناعة شكلى وقبح مظهرى ، وأخذت تبكى وهى تضمنى إلى صدرها وأنا أقبل يديها ، فبادرت إلى نزع الرباط عن عيني وخلع قطع الشمع الطبي عن خدى وعنقى ، ومسحت « الأرجيرول » عن عيني ثم ابتسمت لها وطمأنتها على صحتى ، لأنها ظننتنى لأول نظرة مصابا برمد وبجروح وقروح ، فذكرت لها السبب فى وضع هذه الأدوات على وجهى ، فاطمأن بالها وسرى عنها وإن كان قلبها لم يطمأن . وجدت شقيقتي بعد بضعة أشهر من فراقنا بعد آخر لقاء قد تأخرت صحتها وشاب شعرها ورسمت الدموع أخاديد على وجهها ، وقد احمرت عيناها من البكاء والحزن على شقيقتها والبلاء الذى حل به والمصائب التى نزلت عليه فوق تشريده وتخريب دياره .

وأخذت أقص على شقيقتي طرفا وقصصاً ملسية عما لقيته فى حياتى الجديدة منذ فررت من الجلادين ، ثم سألتها عن الخادم عبده ، فقالت إنه كبر فترك الخدمة وفتح دكاناً بجوار أحد المعسكرات عند قناة السويس ، وإن الخادمة الجديدة تغيبت ليومين لزيارة أهلها ، فخدمت الله على هذه المصادفة لأنها ستمكنى من زيارة شقيقتي وزوجها بدون حاجة إلى التحوط والتكلف وتقادى فضول الخدم .

وجاء صهرى فكان وجودى عنده بغتة مثار فرح وفكاهة فقضينا ذلك اليوم فى سعادة وغبطة

مصادفة

وبعد الغروب سمعت باب الدار يطرق وكلاما يدور بين شقيقتى وبين إنسان ، ثم جاءت بسرعة وأغلقت على باب الغرفة وسمعتها تقول للقادم : عندنا زائرات الليلة فأبق فى المدخل وإليك هذا الكرسي ... وبعد قليل جاءت تقول إن الخادم عبده قد جاء للزيارة ويريد المبيت الليلة عندنا لتعذر رجوعه إلى المسكان الذى يعمل فيه فكيف العمل ؟ فأعملت الفكرة قليلا ثم قلت لها قدى إليه طعاما واكرميه ثم انفحيه عشرة قروش لينام فى اللوكاندة بحجة أن كثرة الضيفات تحول دون مبيته الليلة هنا ...

وبعد ساعة سمعت عبده يشكر سيده وينصرف والباب الخارجى يغلق ، فحمدت الله على هذه النتيجة ، لالأنى أشك فى عبده وهو أمين بلا ريب ولكن الاحتياط والحزم أولى .

جنازير فى السماء !

وقد سمعت فى تلك الليلة من أختى وصهرى من أخبار مدينتهما أنها تكاد تخلو من السكان بسبب الفرع من الغارات الجوية على الميناء ، فتصيب القنابل الطائشة أهل السويس أحيانا ، وعند الغروب جلسنا فى الشرفة فإذا ببالونات ضخمة يطيرها الإنكيز فى السماء ويربطونها بالأرض بسلاسل وزناجير لتظل محلقة فتكون مصائد لطائرات الألمان التى تضرب الميناء ، فإن حامت طياراتهم فى سماء السويس اصطدمت بالسلاسل وسقطت من حلق ، فأدركت إلى أية درجة أتقن الإنكيز صناعة الحرب والقتال والاعتداء على العباد . وكان الخادم عبده قد أخبر شقيقتى بأن قناة السويس محروسة بقوات إنكليزية لاحصر لها ، وأن الطائرات الألمانية كثيراً ما تطرق معسكرات الإنكيز فيبادر هؤلاء إلى الهرب بالسيارات إلى الصحراء ويتركون الجنود الآخرين والعمال المصريين عرضة لنيران الأعداء فتفتك بهم قنابل الألمان فتكا ، وبعد انتهاء الغارة يعود الإنكيز الشجعان إلى معسكراتهم ويأمرون بتسوية الأرض فوق جثث وأشلأ أولئك الجنود المغفلين الذين سيقوا من أقصى الأرض ليموتوا فى سبيل بريطانيا والاستعمار وإذلال أوطانهم ، ولكنه أقل جزاء يستحقه كل من يبخل بحياته وماله على أمته ،

ثم يجود بهما في سبيل العدو ، لاردھم الله ولا برّدهم مئوى...

السفر من السويس

وفي صبيحة اليوم الثانى ودعت شقيقتي وقرينها بعد أن اتفقنا على طريقة أمينة للمراسلة، وركبت القطار إلى الاسماعيلية فنزلت فيها ، فوجدتها في حالة يرثى لها ، فقد كانت الطيارات الألمانية منذ أيام قد فتكت بها، وخصوصاً الحى الأفرنجى ، وكانت الشوارع خالية من الناس، فالنازل منهارة وبعضها كان مشققا ومتصدعا ، وكنا نشم روائح جثث القتلى تحت الأتقاض ، فلعلت الذين كانوا السبب في نزول هذا البلاء على أوطاننا ونحن لاناقة لنا ولا جمل في هذه الحرب التى جرها الإنكليز على مخلوقات الله . ومن الاسماعيلية سافرت إلى الزقازيق فدمياط، وفي اليوم الثانى قرأت في الصحف أن الحرب قد وصلت إلى يوغسلافيا بعد وصولها إلى البانيا واليونان ، فانشغل بالى لأنى فهمت من ذلك أن الحرب ستطول كثيرا وسيزيد عذابى معها فلا حول ولا .

قضيت فى دمياط أياماً ولكنى لم أطمئن فيها، وكيف يطمئن الطريد وهو ينام فى الفنادق العامة؟ لذلك قررت أن أذهب إلى المنصورة فذهبت إليها ولكنى توقفت فى بلدة شربين ونويت أن أقضى أياماً عند صديق نسيب شهاب .

رحلة ويا لها من رحلة !

ركبت إلى قرية كفر الوسطانى من مدينة شربين فى أوتويس « خطاب » وهو يقطع المسافة فى ٣ ساعات مع أنها لا تزيد على ٢٥ كيلا لأن هذا الأتويس يمر بقرى عديدة ويقف هنا وهناك بسبب وبلا سبب ثم وقف بنا فى « كفر الأطرش » وترك الركاب وعاد أدراجه على زعم أنه محتاج إلى إصلاح ، فانتظرنا الأتويس التالى ٣ ساعات وفى الثامنة مساء جاء أوتويس فظيع قذر فهجمنا عليه ، والسعيد السعيد من وجد فيه موضعاً للوقوف لا للجلوس فقط ! ومشى هذا الأتويس الذى يرى جميع الناس عيوبه ويتقززون منه إلا الحكومة... وفى التاسعة ليلا وصل الأتويس إلى قرية « كفر الغاب » ووقف فأوعز وكيل الشركة إلى الركاب بالنزول وانتظار « القطار التالى » على حد تعبيرهم فى تلك الجهات المهجورة تقريباً والمنقطعة عن الدنيا وعن سلطة الحكومة أيضا ...

وتفرق الركاب هنا وهناك فمنهم من ذهب إلى القرية ، ومنهم من مشى إلى القرى المجاورة ، ولم يبق في جوار الكوخ الخشبي الذي يجلس فيه وكيل الشركة إلا أنا . ودقت الساعة العاشرة مساءً فإذا « بالسيد عبده ناظر المحطة » كما يسمونه يغلق الكوخ على نفسه ويطفىء النور وينام ... فتلفت يمينا وشمالا فلم أجد حولي أحداً . لا أناس ، ولا أضواء ، ولا مارة ولا شيء ذى حياة . وما كنت أسمع في ذلك الليل الدامس إلا تقيق الضفادع ووصوصة صراصير الحقول ... فكرت في قطع بقية الطريق إلى قرية كفر الوسطاني ماشيا ، ولكنها بعيدة تحتاج إلى ساعتين للراجلين ، فكيف أغامر وأسير وحدي في أرض موحشة منقطعة تجوس خلالها وحوش الغاب فضلا عن وحوش الادميين .

وهنا لم أتردد في طرق جدار الكوخ الذي يسمونه محطة ، وناديت « السي عبده » من وراء الباب ، وقلت له « يا حضرة الناظر » أنا مسافر من شربين إلى كفر الوسطاني ولكن سيارتكم تركتني هنا فأصبحت كالمئبِت ، وإني أملك تذكرة من شركتكم ومن حق أن اطلبكم بتسفيرى إلى حيث أخذتم منى الأجرة . فقال « وعاوز منى أيه ؟ » فقلت تسفرنى إلى الوسطاني الآن ، أو أذهب إلى العمدة وأخبره وأشهده عليكم ثم أمشى إلى الوسطاني في هذا الليل وأحملكم مسئولية كل خطر ، وإن امتلاكى لتذكرة السفر يكفي لمقاضاتكم ومطالبة الشركة بتعويضات كبيرة ، وإن سمعت الحكومة بأنكم ترمون الناس في الصحارى وتعرضونهم للخطر على هذه الصورة فلا شك بأنها تسحب الامتياز منكم ، والتذكرة هى عقد قانونى بينكم وبين الركاب ولكن ...

قلت هذا كله بحماسة وقوة مع شئ من الغطرسة ، ثم تحسست التذكرة ولكن لم أجدها .. وقتشت جميع جيوبى ولكن هيهات . وفطنت أخيراً إلى أننى كنت في خلال الانتظار أعبت بالتذكرة وإنى برمتها بين أصابعى وإبنى نظفت بها « فم السيجارة » ورميتها ...

جاء الفرج

ولم يدر « حضرة الناظر » بحركة التفتيش الدقيقة التى كنت أقوم بها بحثاً عن التذكرة ، لأنه كان فى داخل « التخشبية » ! وبعد سكوت دام لحظة سمعت عبده ينادى غلامه ويأمره

بدق باب الكراج وأن ينادى السواق ليخرج بسيارة الأتوبيس حالا ، ثم قال « وأنت ياسيدنا الشيخ ستدفع للشركة نصف ريال فقط ثمنًا للبنيين » فرضيت ولو طلب جنيهاً لدفعته ، ودرج بنى الأتوبيس نحو كفر الوسطانى ، وكـم كنت أضحك فى نفسى وأنا أسافر وحدى فى « قطار خاص » ...

فذكرتنى هذه السفرة بالسيد محمد وحيد بك الأيوبى من أعيان القاهرة « رحمه الله » إذ كان فى شبابه يسكن مدينة حلوان وكان يعود إليها من القاهرة فى وقت متأخر من الليل ، فإن فاته آخر قطار ، أيقظ ناظر المحطة وجعله يجهر قطاراً خاصاً يقله إلى حلوان ويدفع بضعة جنيهات أجرة لتلك الرحلة ..

وقضيت عند نسيب بضعة أيام وقد حدث فى خلالها أن وفد عليه بعض الضيوف وكان ذلك قبيل وقت الغداء بقليل ، فلم أر بداً من الابتعاد عن الدار وعن القرية كلها لئلا ينصرف هؤلاء الضيوف ... وأخذت أطوف الحقول المجاورة فإذا بنى عند معبر على إحدى الترع ، وإذا بجماعة من الفلاحين يحاولون العبور ومعهم نعش ويريدون دفن ميتهم فى قرية الوسطانى بعد الصلاة عليه فى مسجدنا .

مشكلة وفرار

وسمعت لغط القوم وأحدهم يقول لرفاقه وقد أشار نحوى : هذا شيخ فيمكنه القيام بالصلاة على المرحوم وتلقينه ...

فكدت أجن من شدة الحيرة لأن مراسم الدفن والصلاة والقراءة والتلقين لها أصول وقواعد ، فإن أخللت بحرف منها كانت وقعتى سوداء فكيف العمل .. إنهم على وشك الوصول إلى حيث كنت ، فإن نادونى وقالوا تعال ياسيدنا الشيخ ، فإذا أقول لهم ؟ . تلك مشكلة لم أجد لها حلاً إلا الهرب فرجعت أدراجى مسرعاً بدون ركض وتغلغلت فى أزقة القرية .

وبعد المغرب رجعت إلى منزل نسيب بعد أن رأيت سيارة الضيوف قد اختفت ، فتغديت وتعشيت دفعة واحدة وقضيت الليلة هناك ، وبعد أيام غادرت الوسطانى إلى المنصورة فجلست فى قهوة متوسطة الحال وتناولت إحدى الصحف بعد أن انقطعت عن الدنيا بضعة أيام .

حادث خطير

ماكدت أفتح الجريدة وأقرأ حتى شعرت بأن الأرض تهتز من تحتي ، أو أنني أنا الذى أهتز وأرتجف . كان الحادث الذى روعنى مما يروع حقاً ، وذلك أن الفريق عزيز على المصرى باشا القائد الشهير قد فر من مصر هو وبعض الضباط بطيارة عسكرية ، وأن الطيارة سقطت بهم بجوار قلوب بضواحي القاهرة ، وأنهم تركوا الطيارة وهربوا ولم يعثر لهم على أثر وأن الحكومة تدفع ٥٠٠ جنيه مكافئة لمن يرشد عنهم أو عن أحدهم .

إذن فهذا حادث سيصينى من رشاشه متاعب لانهاية لها ، لأن آلاف الناس سيتحولون إلى جواسيس ، يحملقون فى كل شخص ، ويتفرسون فى كل وجه ، وأن الفنادق ستصبح أوكاراً لرجال البوليس السرى ، وأن أصحاب الفنادق أنفسهم وخدمها سيفحصون كل من ينزل عندهم حتى أصابتنى العدوى أنا أيضاً ، فصرت أدقق النظر فى وجوه الناس وأتفرس فى المارة لعل أظفر بعزيز باشا لأحذره وأساعده على الاختفاء إن قدرت ...

لقد احترت فى أمرى كثيراً ، لأنه أصبح يتعين على أن أغالى فى الاختباء والاختفاء أكثر مما أنا مبالغ ، وأن أحذر أكثر مما أنا فيه من حذر .

وذهبت إلى البريد فوجدت رسالة من الدكتور البشناق بإمضاء مستعار يتحدث فيها عن أشياء تجارية وعن أمور لا يفهمها أحد ، ثم يقول لى محذرا من عواقب التفتيش الذى يدور حول (البضائع المخزونة) وينصح بالابتعاد عن (طمع أصحاب الفنادق وخراب ذمهم) . ففهمت أنه فى قلق من أجلى بسبب البحث عن عزيز باشا ، وأنه يوصينى بالابتعاد عن الفنادق التى أصبحت هى ومن فيها أعشاشاً للتجسس ...

الأستاذ با كثير مرة أخرى

فذهبت إلى حارة بلدية لأنفذ منها إلى مكان يحوينى إلى الغروب لأستطيع المشى فى الهواء بشىء من الاطمئنان . وإذا بالأستاذ على أحمد با كثير يمر من أمامى وكان وحده فى هذه المرة ، فشيت خلفه وأخذت أتبعه على بعد قليل إلى أن توسط ميدان « الطميهى » فأسرعت وحاذيته ثم وضعت يدي على كتفه وسلمت عليه ، فالتفت إلى بسرعة ولما سمع صوتى عرفنى

حالا وأقبل يعانقني ويسألني عن حالي فواصلنا السير وأنا أقص عليه قصتي ...
وانتهى بنا المسير إلى داره فدخلنا ، ثم قدم لي طعاماً وسهرنا إلى منتصف الليل ونحن
نتحدث وندير الخطط .

وقد عرفت عن حال الأستاذ با كثير أنه تعين مدرسا للغة الإنكليزية بمدرسة الرشاد الثانوية
بعد أن انقطعت أسباب الاتصال بينه وبين أهله في أندونيسيا ، وأنه يسكن المنصورة منذ شهرين ،
وأن هذه الدار داره ولكنه ليس وحده فيها ، لأنه تزوج ، وأن إحدى قريبات الزوجة
تسكن معها .

وأخذنا نفكر في اتخاذ المنصورة مقاما إلى أن يفرجها الله ، وفي الصباح شرع با كثير
يطوف المدينة بحثا عن دار تصلح لسكنائنا ، ومن شروطها أن تكون شقة من بابها ، وأن
تكون في حي بلدي مكتظ ، وأن تكون نوافذها غير مكشوفة من المنازل المقابلة لها الخ .

وهنا فقط تذكرت نبوءة السجين المريض الإيطالي جورج رفيق بمستشفى الدمرداش
وكيف قال إنني سأنطلق ولن أعود إلى السجن ولكنني لن أرجع إلى داري . فها أنا ذا شريد
طريد حيران . لا أجد مفراً ولا مستقراً كما قال الطالب وأنا عند باب معهد دمياط ...

حياة الخوف

إن حياة الخوف لا يمكن أن يصفها أحد بحق إلا إن ذاقها وعانها ، وقد سأل أحد
الملوك جليسا له : ما العيش ؟ فقال : الأمن ، لأنني رأيت الخائف لا يهنأ بعيش . فقال : زدني .
فقال : الصحة ، لأنني رأيت المريض لا يهنأ بعيش . فقال : زدني فقال الشاب لأنني رأيت الشيخ
لا يهنأ بعيش . فقال : زدني . فقال : لا شيء بعد ذلك .

فالأمان إذن هو أعظم نعمة أسبغها الله على الإنسان ولا يفهم قيمة هذه النعمة إلا من
فقدتها .

الاستقرار بالمنصورة

موكب ...

وقد عثر الأستاذ با كثير على شقة صغيرة في حي « ميت حدر » في زقاق ضيق ، وهذه الشقة عبارة عن طابق مستقل يسكن فوقه أصحاب العمارة فقط ، وقد كتب عقد الإيجار باسمي « الشيخ محمد الناجي » بكفالة وتعريف الأستاذ با كثير . ولولا سكني الأستاذ في المنصورة ووظيفته التي تقنع المالك بالأمان على ملكه وماله ومن ساكن مجهول وجيرة شيخ غير معروف لما استطعت إيجاد مأوى ، وهنا تذكرت وصايا صديقي أحمد حافظ عوض بك وأنه لا بد للهارب من دليل ورفيق ، فكان با كثير نعم الرفيق والدليل .

وفي اليوم الثاني تغلغت في سوق التجار أو « سوق الخواجات » كما يسمونه في المنصورة فاشتريت سريراً صغيراً وفرشة جديدة ومخدة وبطانية ومفارش بيض من دكان « السمنودي » كما اشتريت من الشارع العباسي كرسيًا وطاولة وأدوات كافية لعمل الشاي والقهوة ، وجعلت هذه الأشياء كلها في عربتين من مركبات « الحناطير » وسرت بهذا الموكب الفخم في وسط المدينة مخترقاً شارع السكة الجديدة الذي هو أكبر شوارع المنصورة وأشدها ازدحاماً بالناس ، بدون أن أبالي بأحد ، لا بالشرطة ولا بالجواسيس ، لأنني أعرف أن قوات الدولة كلها مشغولة عني الآن بالبحث عن عزيز المصري باشا والضباط الذين هربوا معه ، ومشغولة كذلك بالبحث عن الأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة الذي بلغني من أسبوع فقط أنه هرب من السلطة العسكرية البريطانية لما بلغه نبأ صدور أمرها بالقبض عليه وأنه اختفى ، فكنت أتمنى العثور عليه لأضمه إليّ في مخبئي الجديد .

ليلة البراغيث

كان أول شيء صنعتُه في المأوى الجديد أنني غليت شايًا على وابلور السبرتو الصفيح وشربته متلذذاً مسروراً ، وشعرت بالاطمئنان والراحة بعد طول العذاب وكثرة التنقل من بلد إلى بلد ومن فندق إلى فندق . وبعد أن نظمت الأثاث البسيط الذي جئت به تصورت نفسي في قصر منيف فخم ، ثم اغتسلت بالصابون الذي لم يمس جسمي طوال تلك المدة حتى فاحت رائحتي وأصبحت ترعجني أنا فكيف حال من يقترب مني .

وفي المساء نزلت إلى الشوارع أمشي بين الناس كواحد منهم ، بدون خوف أو وجل ،
أليس انى صرت مواطناً وأصبحت أسكن في بيت وأملك عقد إيجار رسمي ...
وقبيل منتصف الليل رجعت إلى داري مبتهجاً ، فقد أصبحت سيداً لدار خاصة ، فلا أخشى
بعد اليوم مجيء زوار أفر منهم كما كنت أفر من زوار نسيب شهاب في الوسطاني . وصرت
أشعر بأنه لا ينقصني شيء . وقد جاء في الحديث الشريف « من أصبح آمناً في سربه ، معافى
في بدنه ، عنده قوت يومه ، فقد حيزت له الدنيا » ولكن أين الأمن وأين أنا من سربي
واخواني وأهلي ...

لم أستطع النوم في الليلة الأولى بسبب البراغيث التي هجمت على ولا أدري من أين أتت
ولا من أين نبتت . فالفرش جديد والأغطية جديدة والدار كانت مهجورة فكيف جاءت
هذه البراغيث المزعجة اللحوحة ، ولم أفطن إلى كون الدار المهجورة المتربة هي التي تسبب
البراغيث .

نهضت من الفراش ونفضت ملابسي ، ثم نفضت الفراش نفسه ، ورجعت إلى السرير
فاضطجعت عليه وحاولت النوم ولكن البراغيث والعياذ بالله عادت إلى القرص واللسع
واللدغ فقممت منزعجا .

ولم يكن عندي نور أستضيء به تلك الليلة لأستطيع التفتيش عن البراغيث اللعينة ،
وقد نسيت يومها أن أبتاع شمعة على الأقل ، فصرت أشعل أعواد الثقاب وأقتش عن البراغيث
ولكن هيهات ...

قضيت تلك الليلة ساهراً بلا نوم ، فتذكرت أندلسياً من الأدباء عانى قبل ألف سنة
من البراغيث والبعوض والبق ما عانيت فأنشد يقول:

بعوض وبرغوث وبق لزمني حسبن دمي خمرًا فلذ لها الخمر
فيرقص برغوث لزمير بعوضة ويصغى لها بعض ليحلو لها الزمر

وقال أندلسي آخر:

بق وبرغوث أتوا نحوى وقد زادوا عذابي
وأتى البعوض بزمره يا قوم أخرج من ثيابي !

فلما ذكرت الشطر الأخير أعجبنى هذا الحل ، فخرجت من ثيابي كلها والتحفت بغطاء السرير وبذلك استطعت النوم بقية تلك الليلة السوداء .

هدوء



وفي الصباح أقنعت صاحب الدار بأن يمد سلك الكهرباء من داره إلى داري ، ثم اشتريت مصباحين وركبتهما كما اشتريت بعض المواد الغذائية الجافة كالجن والبيض والسمن والزيتون وبعض أدوات المطبخ التي تنفع على الأكثر لقلبي البيض ، فيالها من سعادة !

وصرت أقضي معظم النهار في المنزل وان خرجت فلا أقصد إلا الأماكن النائية عن المدينة . فإذا جاء الليل استطعت التجول في الأسواق بحرية أوسع واطمئنان أكمل . وكانت المطالعة بعد ذلك هي أشهى ما تطلبه نفسي . فذهبت إلى بائع كتب مستعملة فاشتريت بعض الروايات وكتب التاريخ والأدب . وعدت بها إلى مسكني

أخرج من الدار وأمشى بين الناس

مشكلة المكينة ...

مضى على مسكني أكثر من أسبوعين وهو بلا كنس ولا مسح ، فامتلاً بالغبار والتراب الذي تنتعش فيه البراغيث ... وسبب ذلك انني لم أشأ أن أنزل إلى السوق في النهار لمشتري مكينة ، كما أنني أغليتها الثمن ، فالمكينة لا بد أن تكون ذات عصا طويلة لأن التي بلا عصا يتعبني الكنس بها ، ولا بد أيضاً من خيشة لمسح الأرض بالماء ولكن هذه العملية تتعبني أكثر لما تقتضيه من انحناء شديد .

وأخيراً حلت المشكلة بأن نزلت إلى الحارة واشترت عوداً من أعواد قصب السكر بربع قرش ، ثم شددت إليه سروالاً ممزقاً استغنيت عنه ، وبذلك تمكنت من كنس الدار بهذه الأداة البديعة ، وبعد ذلك صرت أغمسها بالماء وأمسح الأرض ، وقد تم ذلك بدون تعب كثير ، لأنني كنت أمارس هذه الوظيفة وأنا واقف ، ولم أخف من القبض على بقدرخوفي من الزبانية عندما يرون عود القصب عندي ...

شك ...

أخذت الأمور تستقر معي في المنصورة نوعاً ، ومنها أنني اتفقت مع بائع صحف على أن يجيئني بها كلها لأطالعها وأردها إليه في مقابل جعل معين بقصد التوفير والاقتصاد لقلّة ما أملك من المال ، وبقصد إضاعة أطول وقت ممكن يشغلني عن الدنيا والتفكير في صروفها . وكان مما صنّعه في تلك الأيام انني طبعت بطاقات باسمي الجديد على الصورة الآتية :

محمد الناجي

مندوب مجلة الوعظ

القاهرة

شارع الممر لدين الله رقم ٤

فكنت أبرزها للجيران إن سألوني عن هويتي ، فكانت هذه البطاقة مقنعة نوعاً ،
أليس أنها مطبوعة ؟ إن الناس يصدقون ما يضرهم متى رأوه مطبوعاً ، فكيف لا يصدقون
بطاقة لا ضرر منها ؟

وكان البحث في تلك الأيام عن عزيز باشا المصرى يجرى بكل همّة ، وكان مبلغ الخمسمئة
جنيه الذى أعلنت عنه الحكومة لكفأة الذين يرشدون إلى الباشا قد أفسد أخلاق الناس ،
حتى إن بائع الصحف الذى ذكرت اتفاقى معه صار يحملق بى ويطيل الحديث معى ويدقق النظر
فى وجهى بفضول عجيب . فصرت أختصر من علاقته بى وأقلل من طلب الصحف منه .
ولكن ذلك لم يزدّه إلا فضولاً ومهلة وثرة ! فتضايقت منه وشككت فيه ، وأخذت
أفكر فى الهرب من الدار والجلاء عن تلك الحارة . وإذا ببائع الصحف هذا يجرى فى وقت
غير منتظر ومعه بائع آخر أكبر منه ، وكان شكله لا يدل على خير . فأخذ يعرض علىّ
مجلات وكتباً إفرنجية ويسألنى إن كنت فى حاجة إلى عقد اتفاق معه على الكتب والمجلات
الأجنبية كالاتفاق مع زميله على الصحف العربية . فضحكت واستغربت كيف يظننى أفهم
اللغات الأجنبية . وهنا أحسست بذعر شديد داخلى من هذا البائع ، ولم أشك فى كون زميله
الأول قد ارتاب بى وظننى عزيز باشا ، وهو معذور فى هذا الظن . لأن إحدى الصحف
المصورة نشرت صورة الباشا ونشرت إلى جانبها بعض صور له بعد أن أضافت إلى رأسه
عمامة وإلى وجهه لحية لترشد البوليس والجمهور إليه . ياويلها فإنها ارتكبت بذلك جرم
الjasوسية بشكل أوسع وأعم . وأما بائع الصحف فقد أظهرت له استغرابى من عرضه الكتب
الإفرنجية علىّ وصرفته بالحسنى شاكراً فانصرف وهو يلتفت إلى الخلف ويتزود من النظر
إلىّ ...

لقد روعنى هذا الحادث وجعل الريبة تسرى فى خاطرى ونار الشك تدق فى قلبى . إذن
فالبايع الأول كان يتشكك بى فأفضى إلى زميله بما يخامر نفسه فتصور الاثنان مبلغ الخمسمئة
جنيه بعد أن دارت فى خيالهما . فقام الثانى وجاء مع الأول ليدرس شخصية الشيخ الذى
لا يغادر الدار ، ويقرأ جميع الصحف ...



صورة عزيز باشا المصرى فى كهولته

ومن يدرينى أن الثانى لم يكن بائع صحف،
بل من مرشدى البوليس السرى؟ ومن يضمن
لى أنه لم يذهب فى تلك الساعة إلى إدارة
البوليس ولم يوح إليها بشكوكه، فما أسرع
ما يهرول أحد الضباط ومعه قوة بوليسية
تطوق الدار ثم يصعد إلى ويقتحم الباب ثم
يأخذنى إلى إدارة الشرطة ويوجه إلى بعض
الأسئلة فيجندى أنا بدلا من عزيز باشا والمكافأة
هى خمسمئة جنيه!

الفرار من الدار

تصورت هذا كله بعد أن قدرت عواقبه، فلم أتردد عن العمل السريع فجمعت كتبى
وما عندى من ملابس وجعلت الجميع فى صرة وغادرت الدار إلى حيث يقطن الأستاذ على
با كثير، فناديتيه وقصصت عليه الحادث ثم أودعته الصرة ومفاتيح الدار وأوصيته بأن
لا يذهب إلى تلك الجهة. لأنه إن حدث شئ فلا بد من أن يصلوا إليه للسؤال عنى. لأنهم
سيسألون صاحب الدار عن الشيخ فيقول لهم لا أدرى سوى أنه استأجر المنزل منى بواسطة
با كثير، فيسألونه فيقول إن الشيخ قد ذهب إلى القاهرة لإحضار أسرته ولا يذكر وضع
المفاتيح عنده. وأما أنا فسأغيب عن المنصورة يومين أو ثلاثة ثم أعود وأترصد الأستاذ
با كثير بالقرب من مدرسته لأستفهم منه عما جرى بعد ذلك. فإن وقع فى غيابة شئ تركت
المنصورة كلها إلى الأبد، وإلا عدت إلى العش الذى اطمأنت فيه طول تلك الأيام بسلام.

وسافرت إلى دمياط فطنطا فالإسكندرية فبها فالزقازيق وفي اليوم الثالث رجعت إلى المنصورة ، فترصدت الأستاذ با كثير بعيداً عن داره إلى أن لقيته ، فقال إنه لم يقع شيء ولا سأل عني أحد . فقلت له اذهب إلى قهوة « البرنسات » حيث يجلس فيها صاحب الدار عادة ، واسأله عني فإن فهمت أن أحدا سأل فعني ذلك أن بائع الصحف الثاني قد فعلها . وعاد الأستاذ با كثير يقول إن صاحب الدار خالي الذهن ولم يسأله عني أحد .

منام

وفي تلك الليلة رأيت في ما يرى النائم أن الشرطة قد دهمت مسكني هذا ، وأنني قفزت إلى السطح المجاور ، وأن رجال البوليس كانوا يركضون خلفي ، وأنني قفزت إلى الشارع ووقعت إلى الأرض ، وأن رجلي قد انكسرت ، وأنهم قبضوا عليّ ووضعوني في سجن مضيق فنهضت من الفراش مذعورا وفركت عيني واستويت جالسا فإذا بي في سريري وفي مخبئي . فحمدت الله على السلامة كما حمد جحاربه على السلامة يوم وقع قيصه عن جبل الغسيل ! وبعد قليل شعرت بألم شديد في قدمي ففهمت أنني في لحظة الهرب وأنا في الرؤيا ، كنت أمد رجلي بعنف فاصطدمت قدمي بالجدار ، فكانت الصدمة التي أيقظتني وشكرا لها ، لأنه نولها لطلال الحلم وطلال عذاب الروحي إلى الصباح .

القبض على عزيز باشا

وبوغت الناس ذات صباح نبأ القبض على عزيز باشا ورفاقه الضباط جميعا . أما الحادثة فتتلخص في كون هذا الرجل المخلص لما رأى الإنكليز يتحكمون في وطنه ويخربون العالم العربي ، ويحاربون نهضة رشيد عالي الكيلاني في العراق اتفق الباشا مع ثلاثة من الضباط الطيارين في الجيش المصري فتسللوا معه إلى المطار الحربي وركبوا طائرة حربية وطاروا يقصدون بغداد لمساعدة العراق في حربه . ولكن لأمر يريد الله سقطت بهم الطائرة في أطراف القاهرة فتركوها واختبأوا في بيت صديق للباشا في جهة امبابة ولا أدري لماذا لم يحرقوا تلك الطائرة حتى لا تنم عليهم .

وكان لسوء حظهم أن البوليس كان يشتبه بساكن الدار ، وهو في الأصل من المنسويين لحزب مصر الفتاة ، فدهم ضباط البوليس تلك الدار بحثاً عن الأستاذ أحمد حسين رئيس الحزب وجماعته ، فإذا بهم وجهاً لوجه أمام عزيز باشا وصحبه ، فقبضوا عليهم وأودعواهم السجن الذي كنت فيه .

وقد تحمس رئيس الوزراء ضد عزيز باشا وذهب بنفسه إلى السجن وفتح عليه غرفته وألقى عليه نظرة ثم انصرف نافثاً ريشه كأنه انتصر على أعداء وطنه في معركة كان يقودها بنفسه ... ولكن عزيز باشا لم يسكت لرئيس الوزراء على فعلته بل صاح فيه وأسمعه ما يكره . وكان لخبر القبض على عزيز باشا صدى حزن عميق في نفوس الناس ، وقابلته مصر والعالم العربي بوجوم شديد ، وحق للناس أن يشعروا بالخيبة والأسى وهم يرون أن مغامرة هذا البطل التاريخي والمجاهد القديم تحبط بهذه السرعة ، فهم يحبونه ويقدمونه لمواصلته الجهاد منذ ثلاث قرن ومتابعته الكفاح حتى وهو في أيام شيخوخته .

إخماد حركة العراق

أما حرب العراق مع الإنكليز فقد انتهت بانتصار الأعداء وهزيمة العراق التي كانت هزيمة للعالم العربي بأسره ، ومما يؤلم ويسود وجه التاريخ العربي أن هذا العالم العربي قد خذل العراقيين وحركتهم التحريرية خذلاناً واضحاً . وكانت حكومة شرق الأردن المحسوبة على العرب بأنها منهم قد تحمست ضد العراق وسأقت جيوشها العربية ودباباتها الإنكليزية وطعنت العراق من الخلف . وكانت القوات الهندية تطبق على بغداد من الجنوب ومعظم هذه القوة الهندية كانت من المسلمين . وبذلك قضى أولئك وهؤلاء على أمة عربية مسلمة نهضت لتحرير نفسها وتحريرهم أيضاً من المستعمرين ، فأعادوها إلى كنف الاستعمار وأبقوها معهم تحت كللكه . وبعد ذلك يستغرب العالم العربي والإسلامي لماذا أصبحوا أقل قيمة في هذه الدنيا من اليهود ، وأبخس ثمناً عند الأمم من أمة القروء !

العودة إلى وصف حياة المخبأ

كان خبر القبض على عزيز باشا قد وصل أيضا إلى علم بائع الصحف الذي كان قد تشكك في وجاهتي بوقتها بزميله فكانا السبب في ترويعي ونزوحى عن المخبأ أياما ، فلما عرفا بالقبض على عزيز باشا أفلعا عن الحلقة بي .

وتتالت الأيام فزاد بي الاطمئنان، وصرت أنزل إلى الحارة ليلا وأجلس بباب دكان عطار من أقارب صاحب الدار التي أسكنها . وقد تعمدت ذلك حتى أزيل ما قد يعلق بذهن صاحب الدار من جهتي لكثرة انكاشي في المنزل . وكان يجلس في تلك الدكان أحيانا السيد أحمد جودة تقيب الأشراف وهو من أعيان المنصورة الفضلاء ، والشيخ إبراهيم مجاهد القاضي الشرعى وهو عالم فاضل خفيف الروح لطيف المجلس كصاحبه السيد أحمد جودة . فإذا أضفنا إلى لطف مجلسهما خفة روح صاحب الدكان استطاع القارئ أن يكون فكرة عن تلك الجلسات وليالى هاتيك الظروف . وقد روعنى صاحب الدكان ذات مرة بأن مزح معى وأخذ يقول لى أمام القوم: «انت ياسيدنا الشيخ جاى منين؟ انت لازم تكون شيخ من باريس» .. والمعنى واضح هنا . فهو يشك فى مشيختى ويعتبرنى شيخا مزيفا ...

ومزح فى ليلة أخرى ، فقال : « والله يا شيخ انت خطر على الأمن العام ! » . كانت هذه العبارات كافية لأن أشتبه بصاحب الدكان وبمن عنده ، فصرت أقتصد فى زيارة دكانه وأقلل من الاجتماع بزواره ، وأكثر من التغيب عن المنصورة فى المدن المجاورة يوما ويومين لأسوغ انقطاعى عن الدكان .

شكرى الكرداوى

أما وقد نزلت مدينة المنصورة فمن واجبي أن أتحدث عن هارب شهير من أهلها ، ذلك هو الأستاذ محمد شكرى الكرداوى ، وكيل إدارة السكرتارية اليوم بوزارة المعارف ، فقد كان فى شبابه يعد فى نظر الإنكليز وإدارة الأمن العام «من الطلبة المتحمسين للوطنية والاستقلال» وأظنه حبس ونكب كثيرا بسبب حادثة مقتل رئيس وزراء ذلك العهد بطرس باشا غالى ثم

أفرج عنه ، ولما رأى العين الحمراء من الاحتلال ، وكانت قد خيمت على مصر في تلك الأيام موجة طاغية من الإرهاب رحل الفقيه إلى استانبول لدراسة الصيدلة ثم عاد إلى مصر في أول الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ فاعتقلته السلطات البريطانية وحبسته في معتقل الجزيرة ثم أبعده إلى مالطة . وبعد الحرب أعيد لمصر وأفرج عنه . وبعد الثورة سنة ١٩١٩-١٩٢٠ اتهم الكرداوى في حادثة قذف القنبلة على سيارة محمد سعيد باشا رئيس الوزراء فهرب واختفى فحكم عليه غيابيا بالإعدام فظل مختفيا ومتنكراً ٥٥ شهراً لقي فيها الأهوال ، وبقي كذلك إلى أن قامت وزارة المرحوم سعد زغلول باشا وعنى عن الماضى فأظهر نفسه . وقد وضع شكوى الكرداوى كتاباً ضمنه مذكراته عن تلك الحادثة وكيفية هربه وسرد وسائله العجيبة في التنكر والصبر على حياة الاختفاء . وقد قرأت ذلك الكتاب النادر لما كنت في السجن سنة ١٩٤٠ حيث استحضرت سرّاً ، وبعد تلاوته هربت من السجن بدون أن يشعر أحد من السجناء ، وقد استفدت من ذلك الكتاب كثيراً واسمه « ٥٥ شهراً في مخبئ » .

لقد كنت أعرف هذا الفقيه المجاهد لما كان في معتقل الجزيرة سنة ١٩١٦-١٩١٧ حيث كنت معتقلاً في تلك الأيام ، وقد اختفلنا بوقتها بتوديع الكرداوى عندما أبعده وبعض رفاقه إلى مالطة ومنهم الدكتور حسن نور الدين والدكتور محمد عوض محمد بك والأستاذ صبرى منصور الذى صار بعد ذلك قنصلاً عاماً لمصر في بيروت سنة ١٩٣٨ .

الجهاد المنكور

لقد عرف القارىء أن الكرداوى كان وكيلاً لإدارة السكرتارية بوزارة المعارف . وهى وظيفة صغيرة بالنسبة لرجل له ذلك الماضى الوطنى . وأما السبب فى كونه لم يصبح بعد جهاده وماضيه الناصع على رأس وظيفة كبيرة تليق بجهاده ، فذلك أن معظم المجاهدين الحقيقيين فى سبيل الأمم المقهورة يجرمون مع الأسف ثمرة جهادهم ، لأن حكوماتنا الوطنية التى تقوم بعد الجهاد تظل فى هلع وخوف من سلطات الاحتلال فتجهد حكوماتنا فى التنكر لهؤلاء الأبطال الذين ما قامت إلا على أكتافهم وبفضل جهادهم ، وتعالى فى إظهار مودتها للمحتل ، معتقدة

أنها ترضيه بالتظاهر بأنها غير راضية من عمل أولئك « المهوسين » والدليل على ذلك - أمام المحتل - أنها أهملتهم وتفكرت لهم ...

وقد صدق من قال « إن الثورة يدبرها الخبياء ، ويقوم بها المجانين ، ويقطف ثمرتها الخونة والجبناء ! » .

وفاة الكرداوى

وفى أثناء الشروع بتسطير مسودات هذا الكتاب قرأت فى زاوية الوفيات بإحدى الصحف نبأ وفاة « محمد شكرى الكرداوى وكيل إدارة السكرتارية بوزارة المعارف المصرية » وكان هذا الخبر منشوراً فى ثلاثة أسطر فقط ، ولولا أن أهل الفقيده كتبوه وأعطوه للصحيفة ومعه أجرته لما نشرته ولا درى أحد بوفاة الكرداوى المجاهد . أما وقد بخلت الصحف بتعريف هذا المناضل وتأيينه وتمجيده فيها إني أقوم بهذا الواجب ، رحمه الله .

الجهاد المسروق

أما ثمرة جهاده فقد سرقها الجبناء وبعض الخونة ومعظم القاعدين عن خدمة الوطن ، وكلم من خبيث من هؤلاء الثعالب كان يتمتع بمناصب الدولة وألقابها وهو يعرف أنه ليس بصاحب هذا الحق ، ويعرف كذلك أن صاحبه هو الكرداوى صاحب المنصب الصغير الذى لا قيمة له ولا جدوى منه ، وأبعد من ذلك أن اللصوص الذين سرقوا جهاد المرحوم الكرداوى هم الذين كانوا يقصونه عن حقه بوسائلهم الثعلبية الخسيسة ، وأنهم هم الذين بخلوا على أهله براتب معقول يعينهم على تكاليف الحياة من بعده .

سردت ماتقدم عن الكرداوى على اعتبار أنه واجب لأقل ولا أكثر .

شكوك صاحب الدار

ولنرجع إلى ما كنا فيه فأقول : أخذت زيارات صاحب الدار لى تكثر ، وأسئلته تزداد بشكل ملحوظ ، إلى أن باغتني ذات يوم بسؤال حاسم وهو « بماذا تشغل يا أستاذ ؟ » فقصصت عليه قصة طويلة خلاصتها أنني وكيل محام شرعى بمصر ، وأننى جئت المنصورة للبحث عن عمل ، وقد ظننت ساعتها أن الامتحان قد انتهى عند هذا الجواب . ولكنه باغتني

بطلب أشد خطورة ، وهو أن أقسم له تركه بين زوجة وأخوات وبنين وبنات وأحفاد الخ فلم أشك في أن الرجل يرتاب بي ، وأنه لن ينفك يطاردني بالأسئلة إلى أن يفضحني ، فوعده بأن أراجع غداً كتب المعاملات الشرعية وقسمة الموارث على الوجه الشرعي فتركني وانصرف .

أحمد حسن بدر

هذا هو اسم صاحب الدار ، وهو رجل من أعيان المنصورة ، شديد الذكاء شديد الشكيمة جرىء والكل يحسب حسابه ويخشاه . إذن فأنا أمام خصم غير هين ، فماذا أصنع ؟ ليس لي إلا الجلاء عن المنصورة لأستريح من شكوكه . ولم أتم تلك الليلة وأنا أفكر في التخلص منه على وجه من الوجوه ، إلى أن استقر القرار على ترك المدينة كلها والبحث عن بلدة أخرى حتى لا تؤدي ثرثرته عني في دكان صاحبنا إلى الفضيحة والوقوع في يد الشرطة .

المكاشفة والصراحة

وفي مساء اليوم الثاني جاء أحمد بدر لأخذ الجواب الشرعي على قسمة الميراث ! ففاجأته



أحمد افندي حسن بدر

بتحليفه أعظم يمين مع كلمة الشرف بأن يكتم ما سأقصه عليه ففعل ، وأظنه كان يتوقع اعترافاً من لص أو قاتل . فأخبرته باسمي الحقيقي وكشفت له عن شخصيتي وقصصت عليه قصتي وأفهمته أن أقل غلطة أو أية فلتة من لسانه ستؤدي بي إلى السجون والموت فيها من شدة انتقام الظالمين الذين فررت من أيديهم .

فكان لهذا الاعتراف الحاسم في نفس الرجل وقعه الطبيعي ، فتأثر كثيراً وأطرق ملياً ثم رفع رأسه قائلاً : سأكتم سرّك وسأكون عضدك وسأخدمك إلى النهاية . فشكرته على هذا الاهتمام وعلى رجولته التي

تنبهت إليها من قبل . وهنا استأذن صاحبنا وصعد إلى داره وغاب لحظة ثم عاد يحمل كتاباً ضخماً . فإذا به « الدليل المصرى العام » ثم فتح الصفحات الخاصة بالصحافة والصحافيين ووضع إصبعه على صورتي التي كانت قد نشرت في دليل سنة ١٩٣٠ وقال إننى صدقتك بمجرد أن صارحتنى ، لأننى متذكر اسمك وكنت أقرأ حوادثك في الصحف من زمان طويل ...

وبعد هذه الأخوة صرت أستاذس به وأرافقه ويرافقنى ، فكنا نقضى معظم الليل فى قهوة « عوض » على ضفة النيل بجهة البحر الصغير .

وكنت معتبطاً بهذه الصداقة وتذكرت نصائح حافظ بك عوض وأنه لا بد لى فى حياة المهرب من رفيق ودليل فكان أحمد حسن بدر نعم الرفيق .

الشيخ محمد الناجى المغربى

واتفقنا على أن يظل هذا اسمى أمام الناس وأنى تاجر فى سوق المغاربة باسكندرية ، وأنى نزحت عنها بسبب الغارات الجوية وأما البطاقة القديمة التى كنت أستعملها بصفة مندوب لـمجلة الوعظ فقد أبطلت إبرازها .

حياة هادئة

هدأت حياتى بهذا الاستقرار النسبى ، وقلت عندى الوسوسة من الجيران ، لأن جارنا صاحب الدار أحمد حسن بدر أصبح هو المتستر علىّ بدلا من أن يكون هو الغريم الأول كما كان الحال سابقا . فصار إن سأل عنى أحد أو ظهر فضول حولى من أحد يقول له « والله إن الشيخ محمد رجل غلبان منكوب أعانه الله على بلواه » وقد صدق لأن بلواى كانت عظيمة ولا كاشف لها إلا الله .

حوادث وتجارب ودروس

سيجد القارىء مما سأورده عن حياة الاختباء بعض ما يعانى به المهرب من العذاب النفسانى وصعوبات الحياة والتحفظ خوفا من المباغطات فوق ترويعه من حين إلى آخر بمفاجآت تدنيه من الخطر ، فتتلف أعصابه ولو كانت من الحديد .

الاستئناس « بالشارة »

كانت هذه الجماعة تتكون في أول الليل من أحمد بدر ومن قاضي المنصورة الشرعي الشيخ إبراهيم مجاهد الذي أصبح بعد ذلك من كبار مدرسي كلية الشريعة بمصر، ومن السيد أحمد جودة نقيب أشرف المنصورة. وكان مجلسهم في قهوة البرنسات للعب النرد والدومينو فكنت أجلس معهم، وبعد إغلاق القهوة كنا ننقل إلى دكان العطار عبد الهادي عكة أحد أقارب أحمد حسن بدر، فنجلس لقضاء بقية السهرة على رصيف الدكان للحديث والسمير و « الطريقة » على خلق الله! وقد اعتاد أهل الحارة رؤيتي معهم فلم يعد أحد يحملق بي ولا يجسر إنسان على الجلوس معي لاستجوابي: « إنت منين، واسمك إيه، وبتشغل إيه! »

تجارة البطاطين

لقد انسكبت على صفتي التي أذاعها عني أحمد بدر، وهي أنني من تجار المغاربة بالإسكندرية وصدقها الجميع حتى إن أحد تجار المنصورة الصالحين المتقاعدين ويسمى عبد المجيد سالم أخذ يذكّرني بالماضي البعيد « الذي لم يكن » وأني كنت عميله قبل ثلاثين سنة وأنه اشترى مني بالإسكندرية شحنة من « البطاطين » وأن دكاني كانت بسوق المغاربة! فوافقت على اكتشافه فنهض وقبل لحيتي وقبلته بمناسبة جمع الشمل، وأثنت على قوة ذاكرته...
لقد سررت بهذه الشهادة من عبد المجيد سالم، فهي قاطعة بصدق أحمد بدر ومزكية لكلامه عني.

الجندى يقبل يذ الشيخ

وصرت أقضي معظم أوقاتي مع أحمد افندي بدر، فكان الناس يتعجبون من كثرة وجودنا معاً، فكان بعضهم يقول إن هذا الشيخ المغربي يكشف الغيب ويفتح البخت! وبعضهم يقول بل هو متفق مع أحمد بدر على فتح الكنوز... وغير هؤلاء كانوا يقولون إننا نزيّف نقوداً... ولكن هذا كله ما كان له أدنى أثر على مجرى الأمور، وكان عسكري البوليس الليلي بجهة قهوة « عوض » بالبحر الصغير يسرع إلى كلّا رأني فيسلم عليّ ويقبل يدي متبركاً طالباً صالح الدعاء...

حرب الألمان مع الروس

وبينما كنا نقدر لنهاية عذاب العالم من الحرب أيما ، وعذابي أنا بسببها . فإذا بالجرائد تدفجئنا بنبا إعلان ألمانيا الحرب على الروس ، فقال الناس أن الحرب ستطول بسبب هذه الحرب الجديدة بضعة أسابيع أخرى ... لأن الألمان بشجاعتهم وبعنادهم الحربى العجيب سيقضون على روسيا فى خلال شهر على الأكثر . أليس أنهم حطموا بولونيا وفرنسا ومعها هولندا وبلجيكا فى أسابيع ؟

وفى الواقع أن الروس هم السبب فى هذه الحرب مع الألمان لأنهم نكثوا بالاتفاق الذى عقده معهم قبل الحرب العظمى ، بأن خرجوا على الحياد ونكثوا بميثاق عدم الاعتداء فى أثناء اكتساح الألمان لبولونيا جرثومة الشر ، فزحف الروس على القسم البولونى الذى يلهم فاحتلوه ثم احتلوا جمهوريات ليتوانيا واستونيا وليتوانيا ، وبعد ذلك هجموا على رومانيا وأخذوا منها بنسلفانيا وبسارابيا ، وأخيرا هاجموا فنلندا وأخذوا القسم الذى يلهم منها وبذلك اختل التوازن الموجود فى أوروبا وهو يكفى تهيج الألمان عليهم ، وبعد هذا تحفز الروس لمهاجمة الألمان وبدأوا عداوتهم السافرة بأن تحالفوا مع يوغسلافيا فى أثناء وقوع الحرب بينها وبين الألمان . فلم يعد هناك أدنى شك فى سوء نية الروس ، فعاجلهم الألمان بهجمة مباغتة اكتسحوا فيها أهم الأقاليم الروسية وأمرها ، من الحدود حتى ضواحي لينينغراد وموسكو وستالينجراد ، فوق إخراجهم من فنلندا وليتوانيا واستونيا ولتوانيا وبسارابيا وبنسلفانيا والقرم والبحر الأسود كله . ولكن سوء حظ الألمان جعلهم يخسرون معركة موسكو التى استنزفت قوتهم ، ثم يخسرون بعد ذلك بشهور معركة ستالينغراد فى أوائل ١٩٤٢ وإنى أشبهها بمعركة فردان سنة ١٩١٧ كما أشبه معركة موسكو بمعركة المارن فى فرنسا سنة ١٩١٤ ففى المارن أشرف الألمان على باريس ثم صدموا صدمة ردتهم عنها ، فاحتاجوا بعدها إلى حرب ثلاث سنين أخرى . أذابت قواهم ، وفى فردان وقفوا نحو سنة إلى أن تحطمت بقية قوتهم أمام حصونها ، ثم قضى عليهم سنة ١٩١٨ فلو أن الألمان كسبوا معركة المارن سنة ١٩١٤ لما ذاقوا نكبة الوقوف فلهزيمة أمام فردان ولكسبوا تلك الحرب ، ولما احتاجوا إلى الحرب العظمى الثانية .

إذ يكون وجه الأرض والتاريخ بوقتها قد تغيرا ، لأن معركة المارن كانت من المعارك الحاسمة في التاريخ . إذن معركة موسكو هي أخت معركة المارن ، ومعركة ستالينغراد كانت أخت معركة فردان ، فحرب الروس مع الألمان اليوم كانت مفاجئة للعالم كله وكانت نكبة مباغته نكبت بها الألمان فركبوها مرغمين ، ولكن لا بد مما ليس منه بد ، على أن بعض الساسة كانوا يرون أنه كان يجب على الألمان أن يتغاضوا عن روسيا إلى أن يخلصوا من حرب انجلترا أولا ولكن الألمان كانوا على يقين من أن الروس كانوا على وشك الغدر بهم ، ففضل الألمان أن تكون لهم مزية السبق فبادروهم بالهجوم . وكان العالم الإسلامي شرقا وغربا يهلل لكسر الروس لأن معناه تحريره من آخر دولة استعمارية تذل المسلمين ، فهي تستعبد نحو خمسين مليوناً منهم ، فلا يبقى في الدنيا من يذل المسلمين والعرب إلا بريطانيا . وهذه على وشك أن تتحطم فياللمنام السعيد لو تحقق ...

ولكن أين هم المسلمون والعرب ؟ ولماذا لا يتحركون ضد الإنكليز الذين أصبحت امبراطوريتهم تجود بالنفس الأخير ؛ إن أقل حركة تقوم عليهم في الهند أو مصر أو بلاد العرب كانت كافية لفض مشكلتهم معهم وخلاصهم من الاستعمار إلى الأبد .

ولكن العالم الإسلامي ظل نائماً ينتظر أن يهبط عليه الاستقلال من السماء ، مكثفياً بالفرجة على الأمم التي تتطاحن في سبيل المجد والسيادة والسيطرة ، غافلاً عن الحقيقة وهي أن هذه المذبحة الدائرة على وجه الأرض إنما تدور من أجل التسلط عليه وخنقه إلى يوم البعث .

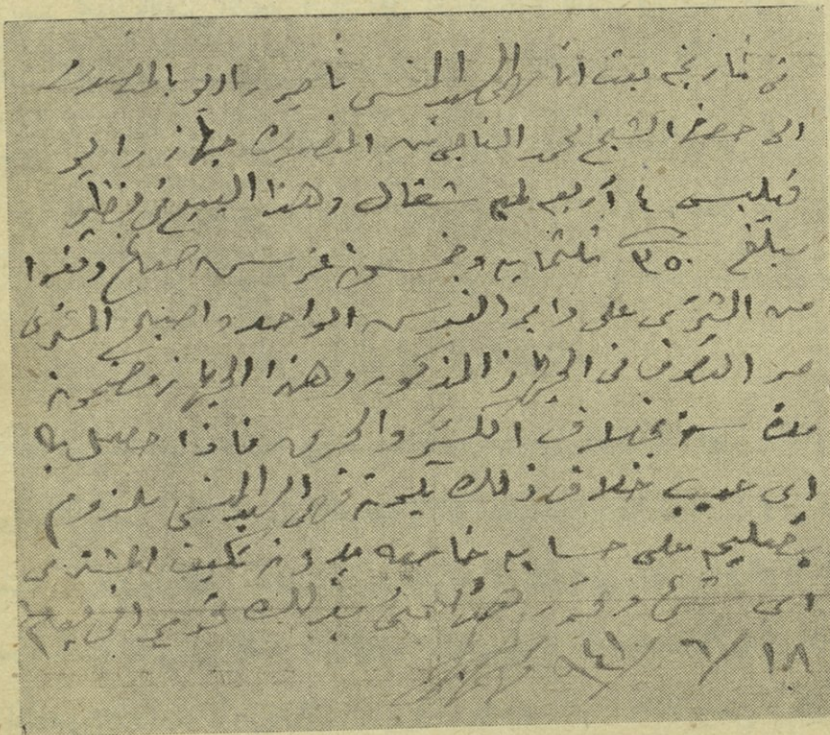
الفرصة الثانية التي أضعتها

أما الأولى فبعد انهيار فرنسا في الحرب الأخيرة وتبليد انكلترا ، فلو أن العالم الإسلامي تحرك بوقتها لما بقيت انكلترا . وأما الفرصة الثانية ففي أثناء حصار الألمان للروس في موسكو وستالينغراد ، لأن انكلترا كانت بوقتها منهزمة في الأراضي المصرية وكاد الألمان يحتلون الاسكندرية فقناة السويس فالهند . وكانت اليابان قد اكتسحت الاستعمار الأجنبي من الشرق الأقصى وأخذت المستعمرات الصينية وبرما وسنغافورة والملايو من انكلترا ، وبلاد الفليبين من أمريكا ، وأندونيسيا من هولندا .

ولم يبق خاضعاً للاستعمار الإنكليزي بوقتها إلا الهنود والعرب وبعض أمم الزنج ...
فلو اغتنمنا الفرصة وقمنا على انجلترا لما بقينا تحت حكم الاستعمار إلى الآن ، بل كنا السبب في
انتصارهم علينا قبل نصرهم على اليابان والألمان وبقاء الاستعمار عندنا ، ورجوعه إلى الممالك
التي أنقذها اليابانيون ، فكنا بسكوتنا وغفلتنا بلاء على أنفسنا وعلى غيرنا وعلى الألمان وعلى اليابان
وسندفع نحن العرب والمسلمين ثمن تلك الجناية غالياً جداً ، ولا أظن أن العرب والعالم
الإسلامي يفلتون من الاستعمار البريطاني إلا بعد زمن طويل . هذا ما كنت أتصوره سنة
١٩٤١ - ١٩٤٢ وأرجو الله أن يجعله خيالا وأن لا يحقق ظني وأن أكون واحداً .

اشتريت راديو

ورحت في أوائل حياتي هذه أفكر في الكماليات ، فقلت لصاحبي أحمد بدر : أريد أن
أشتري « راديو » فقال : أعوذ بالله « أنت يا به والدنيا يا به » ... فقلت : لا بد من الراديو



ورقة مبايعة الراديو الذي اشتريته

لأنى أريد أن أسمع الأخبار ساعة فساعة ، وأن أستعين بالراديو على تمضية الوقت ، لأنى أحس بطول الأيام والساعات بسبب وحدتى حتى لكان عقارب الساعة لا تتحرك !

ونزلنا إلى الحارة وملنا على دكان فى « ميت حدر » واشترينا جهاز راديو قديماً رخيصاً من الدرجة الثالثة بثمن قدره ٣٥٠ قرشاً فركبته فى الدار وصرت أستمع للقرآن والأخبار والموسيقا ، فشعرت أنى ملكت الدنيا كلها !

تسفير الأستاذ با كثير إلى القاهرة

وكان الأستاذ على أحمد با كثير يقضى بعض السهرات عندى ، فطلبت منه السفر لمصر وتوصيل رسالة إلى أهل بيتى ، فأجاب بالإيجاب وقد نفذ ذلك على الوجه الآتى الذى رسمته له وهو : يسافر الأستاذ إلى القاهرة ومعه رسالة منى ، فتى وصل إلى العمارة التى نساكنها يصعد الدرج على رجله إلى الطابق الخامس بدون أن يركب المصعد حتى لا يرافقه البواب ، وأن لا يسأل البواب عن منزلى حتى لا يسمعه جاسوس البوليس القابع عند الباب فيشتبه به ، وإن سأله أحد عن الشقة التى يريدتها يقول إنه يقصد منزل « الأستاذ عباس جمجوم المهندس بالأوقاف » وأن يجعل وصوله للعمارة بشكل يوم من يراه . إنه معتاد صعودها وإنه عارف بمساكنها ، وبذلك يتفادى كل شبهة .. الخ الخ ثم شرحت له ماسيئنتظره من شكوك عباس افندى وتحفظه وإنه سينكر علاقته بنا الخ .

المقابلة وتأدية الرسالة

قرع الأستاذ با كثير جرس باب شقة الأستاذ جمجوم ، وهى تحاذى شقتنا تماماً ، فخرج إليه ورافقه إلى الصالون وهو لا يدري عنه شيئاً . ولما جلس سأله عن الخدمة التى يريدتها فأسمعه أولاً بعض عبارات خاصة وحكايات لا يعرفها أحد إلا عباس وأنا ، ولكن عباس بقى متحفظاً فأخرج الأستاذ با كثير كتاباً بعنوان قرينتى وطلب إليه تسليمه إليها بواسطة حرمه ، وأفهمه أنه بخطى وأراه العنوان والخط ، فاطمأن عباس ، وذهبت قرينته إلى شقتنا وأخبرت قرينتى بوجود رسول من قبلى ، فجاءت إلى دار عباس وأخذت الرسالة ، فكان سرورها عظيماً لأنها من شهرين لا تدرى أين أنا .

ماذا في الكتاب

كان كل ما في الرسالة هو تطمين العائلة وطلب بعض الملابس والأوراق ومن الجملة أسلاك « إيريال » قديم للراديو، وتعيين العنوان الذي يمكن لقرينتي أن تعتمد عليه للاتصال بي عند الضرورة القصوى ، ورقم تليفون أحمد بدر في المنصورة .

وأما بقجة الملابس المطلوبة فيجب لفها بشكل طرود البريد ثم ترسل بعد أسبوع وعليها اسم با كثير إلى « مكتبة الخانجي بشارع عبد العزيز بالقاهرة » وأن يقال للمكتبة إنها أمانة للأستاذ با كثير وسيطلبها بنفسه أو بواسطة رسول من عنده .

وغادر با كثير منزل عباس افندى وفي جيبه ورقة صغيرة فيها رد قرينتي على رسالتي وكانت عباراتها مبهمه مطلمسة لا يمكن لأحد غيري أن يفهمها ، ففهمتها وسررت بها .

وكانت الأخبار التي حملها إليّ با كثير من مصر شفها أن البوليس لا يزال يحاصر الدار إلى الآن بالنظام القديم ، لأن الشرطة لا تزال تتخيل أنني سأجىء إليها !

ومن الأخبار الطريفة أن السلطات البريطانية كانت تتصورني وصلت إلى فلسطين أو لبنان فأرسلت زبانيتهما لتفتيش بعض البيوت وسؤال بعض الأشخاص عني في فلسطين ولبنان...

إحضار الصرة

وبعد أسبوع كان أحمد بدر يزور القاهرة لعمل يخصه فمال على مكتبة الخانجي بشارع عبد العزيز فرأى الصرة موضوعة على كومة من الكتب القديمة ، فتقدم إلى الصرة بدون استئذان من موظف المكتبة وتناولها قائلاً : « أيوه يا بني دي صرة الأستاذ با كثير متشكر خالص » وقبل أن يعترضه الموظف أو يسأله عن علاقته بالصرة ، كان أحمد بدر قد أصبح في الشارع يهرول إلى الترام فحطة السكة الحديد !

وسألت أحمد بدر ألم يكن هناك أحد غير موظف المكتبة .. فقال بلى فقد كان يجلس إلى جانبه شخص صفته كذا فإذا به « العطار » أحد أعوان محمد يوسف وبوليسه الكريم... وكنت أعرف من زمان بعيد أن هذا الرجل يلازم تلك المكتبة ، ولم أفطن إلى ذلك إلا بعد سفر أحمد بدر إلى القاهرة . فلو تتبع العطار أحمد بدر والصرة إلى مقرى لظفر بالخمسة جنيه !

حوادث فردية

بلغنى أن السلطة العسكرية البريطانية أرغمت الحكومة على تقديم عزيز باشا المصرى للمحاكمة أمام المحاكم العسكرية بتهمة الخيانة العظمى ولكن خيانة من ؟ وظفرت الشرطة بالأستاذ أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة بعد أن اختفى مدة طويلة وقد حبسوه فى سجن الأجانب هو وجميع أعضاء الحزب .

— ومن الصدف الغريبة إننى كدت مرة أزور إبراهيم بك شكرى عضو الحزب « وعضو مجلس النواب بعد ذلك » فى مزرعته بجوار شربين ، ولكنى عدلت فى آخر لحظة عن تلك الزيارة ، وكان هذا العدول بإلهام من الله ، لأن إبراهيم بك كان مراقباً وقد قتشوا داره عندما كانوا يبحثون عن الأستاذ أحمد حسين الذى سبق أن نزل عنده أياماً وهو هارب ثم رحل ، فما أغربها مصادفة لو وجدونى عنده بدلاً من الأستاذ أحمد حسين ، كما ظفروا بعزيز باشا المصرى عند الأستاذ مرزوق فى « امبابية » وهم يطلبون الأستاذ أحمد !

— كنت مرة فى قهوة مع أحمد حسن بدر ، فإذا بصديقى الدكتور اسكندر بك الجريدينى الطبيب فى المنصورة « رحمه الله » يمر بى وكادت ملابسه تمس ملابسى ، ولكنه لم يعرفنى ومضى فى سبيله ولم أشأ أن أظهر له نفسى حتى لا أزعجه ولا أحمله أعباء كتمان السر لأن الاحتفاظ بأسرار الغير من أشق الأمور .

— مررت بقهوة « أندريا » فوجدت الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة جالساً تحت شجرة الكافورة المشرفة على النيل ، وكان يجلس معه الشيخ محمود زناى الأديب المحقق « رحمه الله » والأستاذ محمد عبد الغنى حسن الشاعر الشهير وتوحيد بك السلحدار الأديب السياسى المعروف ، جلست قريباً منهم أسمع أحاديثهم بدون أن يشعروا بى ، وكان جذع الشجرة الضخم يحجبني عنهم ، ثم ان الظلام وحده كان يكفى لعدم التعرف على ، وكان مما تحدثوا فيه الشعر والأدب وأخبار الحرب وفرارهم كلهم من القاهرة إلى المنصورة خوفاً من الغارات الجوية . وسمعت الشيخ محمود زناى يقول إنه منزعج من صوت صفارة الإنذار فى المنصورة وأنه سينزح إلى بلدة الفشن فى الصعيد، وبعد أيام رحل عن المنصورة .

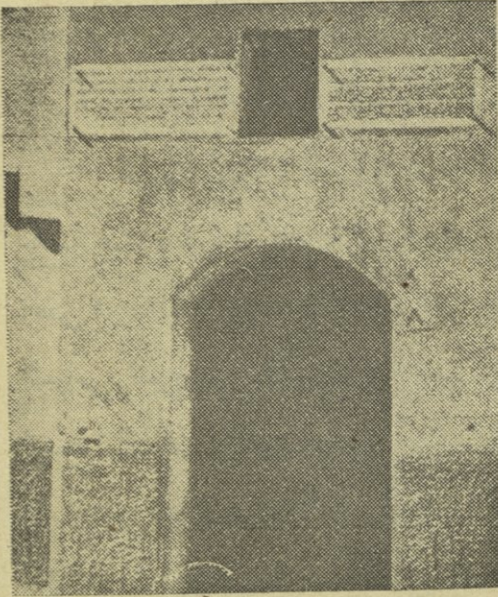
شيء عن المنصورة

تمنيت كثيراً لو يتاح لي التجول في هذه المدينة الماجدة الأصيلة، ولكني هيهات وأنا في حالتي الحاضرة هذه .

ولكن هذا الحال لم يمنعني من غشيان بعض معالمها ، فهي مدينة تاريخية وقد أصبحت كذلك منذ انهزم فيها الصليبيون وأسر ملكهم لويس التاسع .

ففي سنة ١٢٤٩ ميلادية أراد « لويس التاسع » ملك فرنسا مهاجمة مصر .. فتم في دمياط . ومضى على رأس جيوش الصليبيين .. وعلى مقربة من مكان « المنصورة » عند قرية « جديلة » - تغلب جيش لويس على القائد المصري .. وكاد « توران شاه » سلطان مصر يستسلم ، لولا أن أهل المنطقة ألفو من أنفسهم جيشاً هاجم جيش « لويس » ، وقذفه باللهب ، وهو قطع من القماش كانوا يغمسونها في البترول ويشعلونها ... واستطاع أن يهزمه .. لا ، بل كان « لويس » حسن الحظ ، فلم يلق حتفه كما لقي أمراء أوروبا الذين جاءوا معه حتفهم .. فقد أسر حياً وساقه « الطواشي جمال الدين صبيح » إلى دار القاضي « فخر الدين بن لقمان » .. وظل في سجنه شهراً ، حتى افتدته زوجته بثمائة ألف دينار ، وبالجلاء عن دمياط !

زيارة أثرية



وقد خطر لي أن أقوى مغنوياتي برؤية

المكان الذي حبسنا فيه ملكاً أوربياً كبيراً جاء من أوروبا للاعتداء علينا واستعمار بلادنا ، فذهبت إلى الحى القديم ، وبكل خفة رحت أسأل أحد المارة عن محبس ملك فرنسا فاندش الرجل من سؤالى وأخذ يتفرس بي ، لأنه لا يعرف شيئاً عن هذا الحادث التاريخي العظيم وقد استغرب من شيخ معمم رث البزة أن يسأل عن ملك فرنسا ! وإذا به يقول لي :

وانت مالك ومال الملوك ياسيدنا الشيخ ، واجهة المكان الذى حبس فيه لويس التاسع ملك فرنسا



إن الأحسن أن لاتسأل الناس مثل هذا
السؤال حتى لا تقع تحت الشبهة ،
روح يا شيخ في حالك أحسن لك ...
ثم مضى في سبيله ...

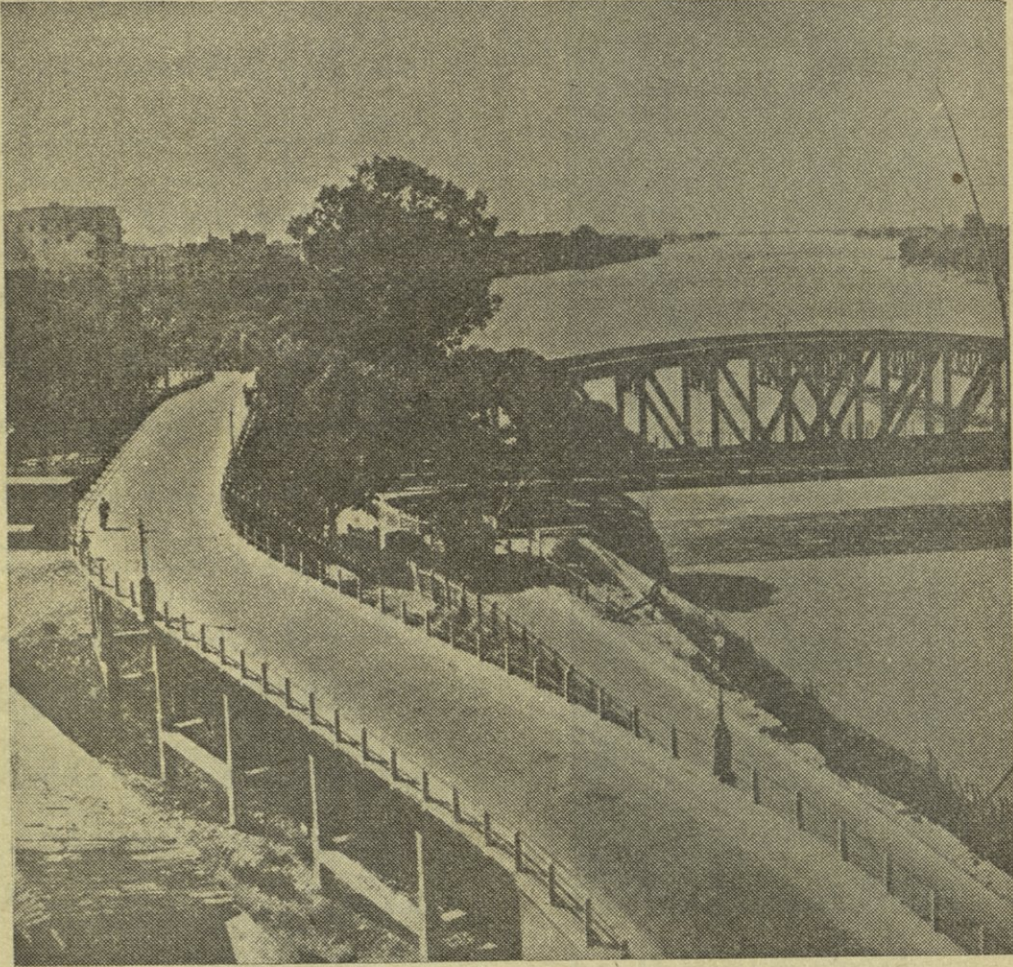
وكانت لهجته لاندل على أنه يشتبه
بى شبهة سياسية ، بل شبهة عقلية ...
ورحت فى حالى فعلا ... ثم
سألت أحمد حسن بدر عن المكان
فدلنى ، فذهبت فى صباح مبكر إلى
جهة جامع المواقى وأخذت أتأمل
واجهه بقايا « دار لقمان » قبل أن
يكثُر عدد الطفيليين ، لأن الناس لم
يعتادوا رؤية أحد يتفرج على ذلك الأثر
إلا إذا كان من السياح « الأجانب »
لأن هؤلاء يعرفون خبر هذا الأثر العظيم
وما ينطوى عليه من معان ، إلا نحن ،
لأننا لا نعرفه ، ولكننا نعرف فقط
ملاهى الأجانب فى بلادهم ...

وأخذت أتأمل واجهة ذلك المكان الأثرى ...

جمال المنصورة

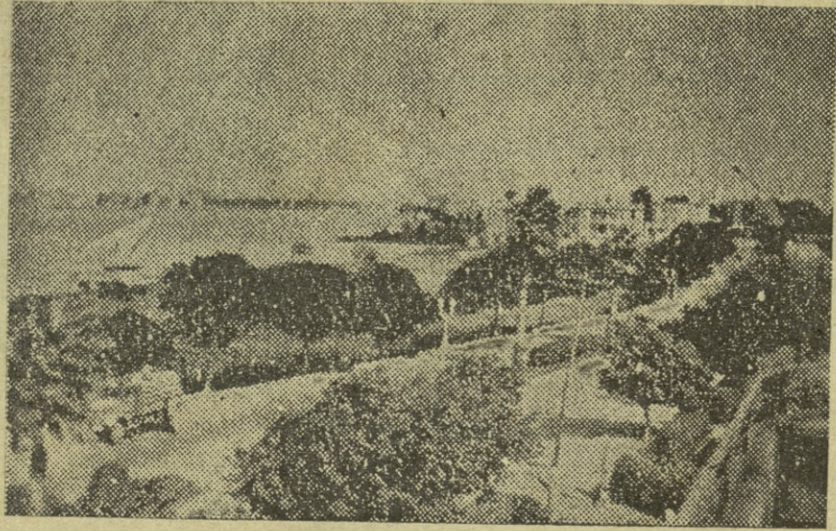
لقد طفت القطر المصرى كله تقريباً ، فلم أر أجمل ولا أرشق من هذه المدينة ، صحيح
ان القاهرة والإسكندرية أضخم وأعظم وأكثر آثاراً ومتنزهات ، ولكن للمنصورة طابعها
الخاص ، ولها روحانية غير طابع وروحانية القاهرة والإسكندرية . وفى المنصورة تجد أما كن

وشوارع عليها الطابع الإسلامى ، فهنا شارع الملك الكامل ، وهناك جامع الصالح أيوب ،
وهناك منطقة « شجرة الدر » الخ . وكلها أسماء توحى إليك بالنصر العظيم الذى ناله العالم
الإسلامى على أوربا .

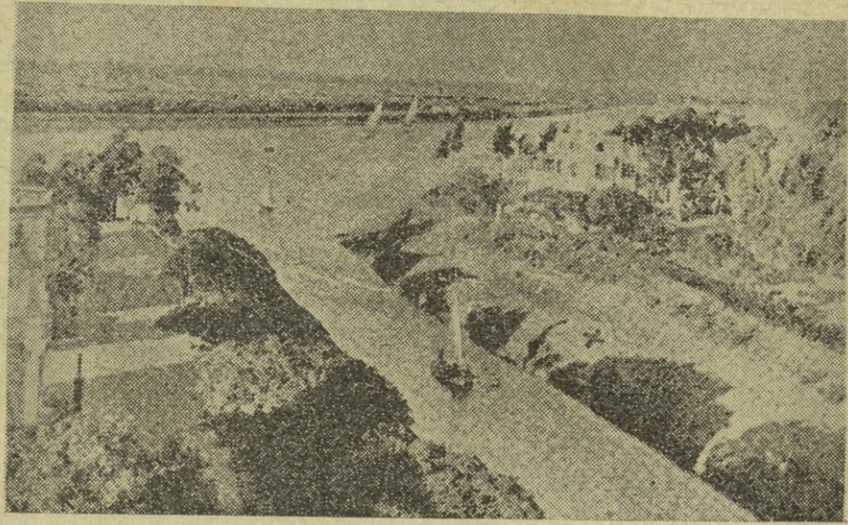


والمنصورة كثيرة المساجد ومزارات الأولياء ، كما أنها كثيرة المواصلات إذ تتفرع منها
طرق السكك الحديدية والسيارات والنيل الكبير ، والفرع الذى يمر من طرفها الشرقى
ويسمى « البحر الصغير » وتزدان هذه المدينة بشارع طويل جميل يسمى شارع البحر
أو الكورنيش وهو يمتد أمامها على ساحل النيل من أولها إلى آخرها .
وكنت أذهب فى بعض الأمسيات عند مصب فرع من فرع البحر الصغير للتنزه

والجلوس على الحشائش بعيداً عن العيون الفضولية ...



منظر عام لسكورنيش المنصورة



مصب الفرع الصغير وقد أشرت بعلامة X إلى المكان الذى كنت أعتكف فيه عند حافة المصب

شبهة وظنون

كنت مرة مع أحمد بدر فى قهوة البرنسات ألب معه النرد ، أو الطاولة ، وكنت لا أجلس فيها أو فى سواها إلا بعد أن يجوس رفيقى خلال القهوة ثم ندخل وأجلس موجهاً وجهى نحو الباب لأرى كل قادم قبل أن يصل أو يدخل ، حتى لا أفاجأ بدخول أحد أخشى

منه . وإذا بضابط كان جارا لنا في شبرا يدخل إلى القهوة ومعه آخر يلبس الملابس البلدية ، فلم أشك في أن لجيئته علاقة بي وأنه سيعرفني ، وأنه قادم للقبض على ، وقبل أن يقع اختياره على مكان جلوسه كنت أنا قد فررت من باب القهوة الجاني ...

وبعد قليل لحق بي أحمد بدر مستغرباً هربى ، فقصصت عليه السبب ، فقال إنه لم ير الضابط فقلت ولكن رأيتته وهذا يكفي ... ولبثت أياماً لا أظهر في النهار أبداً ، وقد اضطرت مرة إلى الخروج نهارا للتريض فجعلت رياضتى في أطراف المدينة فإذا بي أمام سجن المنصورة ! فاقبضت نفسى من ذلك المنظر الكئيب .

مساومة مع الحكومة

بلغنى من القاهرة أن حمدى محبوب باشا مدير الأمن العام قد استدعى إليه الدكتور مصطفى البشناق وبعض أصحابى ، فذهبوا إليه بوزارة الداخلية فطلب منهم إن اتصلوا بي أن ينصحونى بالاستسلام ، وأن الحكومة ترضى في مقابل ذلك بأن لا تعيدنى إلى السجن ، بل تكتفى بسكنائى مع عائلتى في مدينة غير القاهرة ، وكان بدوى باشا خليفة مدير النربية حاضرا هذا الحديث فأكدوا لحمدى باشا أنهم لا يدرون أين أنا ، فإذا وبدوى باشا « الذى أصبح وكيلا للداخلية بعد ذلك » يتفوه بألفاظ غير لائقة كقوله أنتم جبناء لا تريدون الإرشاد عنه . فأجابه الدكتور جوابا حازما شديدا بقوله أنا لا أسمح لك بهذا الكلام فنحن حاربنا الإنكليز بضع سنين بدون خوف من أحد ولكنك تكلفنا التجسس على صديقنا .

حافظ عفيفى باشا^(١)

إن هذه التسوية مع الحكومة قد أعجبتنى لأنها تضع حدا لعذابى الذى لا يطاق ،

(١) الدكتور حافظ باشا عفيفى رجل كريم الأخلاق ومن خيرة رجال مصر وساستها القدماء ، فقد كان وزيراً للخارجية المصرية مرتين ، ثم سفيراً لمصر في لندن ، وبعد ذلك اعتزل السياسة والحزبية تقزراً من أخلاق ساسة هذا العصر وحزبياته ، فاكثرت بمنصب مدير لشركة التأمين المصرية إلى أن اختير مديراً عاماً لبنك مصر وشركاته خلفاً للمرحوم طلعت باشا حرب رحمه الله ، فأدار هذه المؤسسات بكفاءة أدهشت الجميع ، فهو طبيب متخصص بأمراض الأطفال لأكثر ، ولكنه خلق إدارياً وسياسياً من الطراز الأول . وقد قص على المرحوم الأمير شكريب أرسلان أنه لما اجتمع بالدكتور الشاب حافظ أفندى عفيفى قبل ٤٠ سنة تنبأ له بأنه سيكون وزيراً ، ووزيراً للخارجية بالذات لكياسته ولباقته ، وقد وقع ذلك كالمحرفيا



الدكتور حافظ باشا عفيفي

فكتبت كتاباً إلى الدكتور عفيفي باشا أشرح له
حكاية هذه المساومة وقلت له إنني لأثق بكلام حمدي
محبوب ولا زمرة البوليس والأمن العام ، وإنني
أرجوه أن يجتمع برئيس الوزراء ويأخذ منه كلمة
تكفل وعود حمدي محبوب فيما إذا كان حافظ باشا
يثق بكلمة الشرف من الرئيس ، ثم كلفت صديقي
أحمد بدر بأن يسافر إلى القاهرة ويقدم الرسالة إلى
حافظ باشا بيده ويعود إليّ برأيه .

تأدية الرسالة

وسافر أحمد بدر بقطار الصباح ، وفي الساعة العاشرة والنصف كان في مكتب الدكتور
حافظ باشا بينك مصر ولما قدم بطاقته إلى السكرتير الخاص أدخله على الباشا وقدم إليه
رسالتي وأبلغه تحياتي فبش للرجل وهش ، وقرأ الرسالة ملياً ثم فكر لحظة وقال له : سأقابل
رئيس الوزراء وأرجوك أن تسلم على الأخ الطاهر وتعود إليّ بعد أسبوع لأعطيك الجواب ،
ثم أوصاه بالسكتمان والحرص الشديدين . وعاد أحمد بدر إلى المنصورة في مساء ذلك اليوم
فأخبرني بنجاح مهمته فشكرته من كل قلبي .

وصرت أعد الأيام والساعات بانتظار انقضاء الأسبوع ، فياله من أسبوع ما أطوله ...

رد حافظ باشا

ولما انقضى الأسبوع كتبت إلى الدكتور مصطفى بك بشناق بضع كلمات خلاصتها أن
يزور الدكتور حافظ باشا ويقدم إليه تحياتي ويطلب منه الرد على الرسالة التي عين لأحمد بدر
أسبوعاً للجواب عليها وبعد يومين أخذت رسالة من الدكتور بشناق تلخص في كلمات من
حافظ باشا وهي سلم على فلان وقل له إن الجماعة غير معقولين ولا خير فيهم ، ويجب أن

أبتعد إلى أقصى حد وأن أحتاط أكثر من الأول ، وأن الباشا مستعد لإمدادى بأى مبلغ من المال قد احتاج إليه . هذه خلاصة رد حافظ باشا وهو رد يدل أولاً على شهامته ونبله بعرض المساعدة المادية ، ويدل ثانياً على أن المهمة أخفقت والمساومة حبطت . فتكدرت وضائق الدنيا فى وجهى ، وصرت أسأل نفسى :

ماذا حدث بين حافظ باشا ورئيس الوزراء ؟ وكيف كان الحديث بينهما ؟ ولماذا يرفض رئيس الوزراء استسلامى بعد أن مررت الأشهر وهو عاجز مع بوليسه عن العثور على وإمساكى ؟ وهل يوجد حاكم عنده مسكة من حسن التدبير يرفض استسلام هارب برى بعد أن نجا من قبضته ؟!

تفصيل مقابلة حافظ باشا لرئيس الوزراء

لم أقف على ما جرى بين عفيفى باشا ورئيس الوزراء إلا بعد زوال الحنة وانطلاقى بعد ذلك بثمانية أشهر . ولذلك أحب أن أوافى القراء بتفصيل الحادث الآن حتى لا يطول انتظارهم فقد زرت حافظ باشا بعد ظهورى وانتهاء حادثتى وشكرته على ما كان من مروءته وسألته عما جرى من رئيس الوزراء ولماذا بعث يوصينى بالابتعاد والإمعان فى الهرب ، ففهمت من مجمل حديثه أنه استسبح فرصة جمعته برئيس الوزراء فى إحدى الحفلات ، فانفرد به ناحية وسأله : ماذا جرى فى مسألة هرب محمد على الطاهر ؟ فقال الباشا بغطرسة « لقد راح فى داهية ولا ندرى أين هو » فقال حافظ « بلغنى أن جماعة وزارة الداخلية يقولون كذا وكذا - وأخبره بتلك المساومة - فإن كنت توافق على تعهدهم فأنا أحيئك بالأستاذ الطاهر ليسلم نفسه » فانتفض رئيس الوزراء وقال « إذن فهو لا يزال فى الأراضى المصرية فكيف اتصلت به ؟ » فقال حافظ باشا « لا يجوز أن تسألنى هذا السؤال يا باشا ثم إننى لم أره ولكن وردتنى منه ورقة بالبريد » فقال الرئيس « كيف أتت الورقة ومن أين مصدرها ؟ » فقال حافظ باشا « وهذا السؤال أيضاً لا يجوز أن تسألنى إياه » وهنا شتم الرئيس بأنفه الخاضع للإنكليز وقال بغطرسة « أنا لا أقبل مساومة على التسليم ، بل يجب أن يسلم نفسه بلا قيد ولا شرط ، وأنا بعد ذلك أنظر فى الأمر وإلا فأنا مستعد لأن أجيء به على وجهه فى ظرف ساعتين » فاستشاط حافظ باشا من أسلوب هذا الرجل وأجابه كعادته بهدوء يكبت تحته ناراً متأججة « طيب ، مادمت تقدر

أن تجيء به في ساعتين فافعل » ... ثم قطع الحديث وتركه وهو مستاء ، لأنه وجد نفسه يخاطب رجلاً لا يتحلى بذهنية أهل الحكم .

هذا هو السبب الذي جعل حافظ باشا يبعث يوصيني بالحذر الشديد والابتعاد وأن أغطس إلى أقصى حد ...

وظاهر من كلام رئيس الوزراء أن الحكومة كانت تعتقد أنني خرجت من الأراضي المصرية ، ولهذا الاعتقاد أساس سعت له بدون أن أتصور أنه سينجح . وذلك أنني كنت قد أوصيت في أوائل أيام الحرب بأن يعمل أصحابي على إرسال مكاتيب بالبريد من الحجاز وسورية بإمضاءات مستعارة إلى أسماء بمصر غير معروفة وأن يذكروا فيها أنني وصلت لبر الشام واتجهت جنوباً نحو الحجاز . فلما فتحت رقابة البريد الإنكليزية تلك الرسائل أطلعت السلطة على تلك الأخبار فتأكدوا من هربي ، ولذلك فتشوا عني في بعض مدن فلسطين وفي صيدا ودمشق ، ومن سألوهم وراقبوهم شقيق في يافا وبعض أقاربي في نابلس وأصهارى آل البرزى في صيدا . ومن سألوهم في صيدا السيد عبد الله السمارة أحد أعيان طولكرم من أعمال « فلسطين » وكان بوقتها لاجئاً إلى لبنان فراراً من الإنكليز ، وهو الآن ببلبنان هارباً من اليهود ، وكان عبد الله لما وصلت قرينتي إلى دار عمها في صيدا قد ذهب وأهله وسلموا عليها وأقاموا لها مأدبة في دارهم ، فإذا بالشرطة الفرنسية تقبض عليه وتحقق معه وتحبسه قبل أن يذوق طعام الوليمة ...

وقد زارني السيد السمارة في مصر وأنا أسطر هذه الحوادث فأخبرني عن شيء جديد من كذب الاستعمار ، وذلك أنه اجتمع قبل حبسه بشهور بالمرحوم جورج بك أنطونيوس فقال له هذا إنه لما قابل الجنرال كلايتون مدير الاستخبارات والجاسوسية البريطانية العام وعاتبه على حبسي أخذ الجنرال يسوغ له ذلك وأن السلطة العسكرية معذورة لأنها ضببطت مراسلات كانت تدور سرّاً بيني وبين الأمير شكيب أرسلان بواسطة عنوان سري في الإسكندرية ! فضحكت من هذه التلفيقة وتذكرت تلفيقات حمدي باشا محبوب لما كان يقول للناس إن مسالتي خطيرة وإنهم وجدوا عندي أوراقاً وأموالاً كثيرة ! وقد ذكرت آنفاً أن

حمدي قال مثل هذا لصديق النزيل أنطون باشا الجميل رئيس تحرير جريدة الأهرام ، وقد عرف القراء أن كل ما كان عندي من مال تقدي ساعة الحبس هو ١٣١ جنياً بالتحديد كما تشهد بذلك دفاتر السجن ، ومثل هذا المبلغ كان ينفقه حمدي باشا في ليلة أو في ساعة ... أما أنا فمزد واصلني التحذير من حافظ باشا عفيفي وأنا أحتاط وأبالغ في الانزواء والاختفاء.

ماذا صنع رئيس الوزراء

إذن فالحكومة كانت ترجح ومعها الإنكليز عدم وجودي في المملكة المصرية . وما التفتيش عني في فلسطين وغيرها إلا الدليل القاطع على ذلك ، ولكن الإنكليز كانوا يريدون معرفة الجهة التي أنا فيها ، ومن أين أسعى عليهم ومن أين أكيد لهم ...

أما رئيس الوزراء فإنه بادر بعد حديث الدكتور حافظ عفيفي باشا إلى استدعاء حمدي محبوب وبوليس الجواسيس الذي يسمى بالبوليس السياسي كذباً وتدجيلاً وستراً لمهمته الكريهة ، لأن البوليس السياسي الحقيقي هو الذي يحافظ على الدولة ورجالها ويأتيها بأخبار الأعداء وأسرار السفارات الأجنبية، لا الذي يطارد أحرار البلاد لحساب المستعمرين .

ولما مثل القوم بين يدي الباشا سألمهم عني فأكدوا له أنني غادرت القطر المصري فصاح فيهم وشتهم وغيرهم بكسلهم وجهلهم وأخبرهم بمهمة الدكتور عفيفي باشا فبهتوا ! ولما خرجوا من عنده وهم حيارى فتقت لهم حيلة العاجز أن يرتكبوا أمراً يشقى غليلهم ويدارى سوء حالهم ، وسترذ تفاصيل فظائعهم .

هكذا كانت الحالة عندهم هناك ، أما أنا فكنت لا أدري شيئاً عما هو محباً لي في أدمغة

القوم ...

حادث له ما بعده

وفي إحدى الليالي كنت ماراً في إحدى الحارات القديمة في جهة «ميت حدر» بالمنصورة وإذا بشيء يسقط من إحدى النوافذ فيصطدم بالحائط المقابل ثم ينتثر منه شيء لزج فيصيبني رشاشه في وجهي ولحيتي وملابسي وعمامي ، ثم تكشف الحال عن قاذورات . كانت ملفوفة

بورقة وألقى بها من إحدى النوافذ إلى الحارة فكان نصيبى أن أصاب بتلك القاذورات ورائحتها الكريهة ، فركضت إلى منزلى سريعا .

لم يكن عندى ثياب كافية أتمكن بها من تبديل ملابسى . تخلعت ما على ووضعت فى حوض الماء واغتسلت ثم لففت نفسى فى البطانية وغسلت ملابسى وجلست إلى الصباح بلا نوم أنتظر جفافها ، وأنا ألعن الاستعمار الذى نكبنى هذه النكبة وخرب بيتى وشردى وأشقتنى وجعل حياتى جحيماً . ولكنى مع ذلك حمدت الله على أننى فى أيام صيف ، أما لو كانت أيام شتاء فإذا كان يحل بى ؟!

وبقيت على هذا الحال إلى الظهر فلما جفت ملابسى ارتديتها ولم أعد إلى الاقتراب من تلك الحارة المشؤومة .

أثر ذلك الحادث

لقد كرهت الحياة كلها بعد تلك البهدة ، فأخذت أفكر فى تغيير الحال وأن أفلت إلى الخارج بأى ثمن ، ففى الخارج أستطيع أن أعمل وأن أسعى ضد الاستعمار لأن الحرب طويلة كما يبدو والله أعلم متى تنتهى .

وأخذت أفكر فى طريق جديد أخرج بواسطته من القطر ، فقد حاولت الابحار من دمياط فلم أتمكن ، وجربت قبلها طريق الصحراء الغربية من جهة أبى المطامير فلم أفلح ، ولم أحاول اختراق صحراء سيناء ، لأنها مملوءة بمعسكرات الإنكليز . وأخيراً فكرت فى طريق قديم لا يخطر على بال السلطات الاهتمام به ولا حراسته . ذلك هو طريق الحج القديم من صحراء عيذاب التى كان الحجاج يذهبون بواسطتها إلى الحجاز من ميناء القصير على البحر الأحمر ، فمن ذلك الثغر المهجور لا أعدم سفناً تسافر إلى جدة أو فلوكة صيادين تجوب ذلك البحر فأطمع أهلها بأجرة مناسبة الخ .

كتب تاريخ وخرائط جغرافية

وأردت أن أتبين تلك الطريق فاشتريت بعض الكتب التاريخية وكتب الرحلات وخصوصاً ابن جبير فدرستها ثم بحثت فى السوق عن بعض الخرائط الجغرافية فإذا بالبائع

يحملق بي ويطلب منى إبراز رخصة ! فاستغربت هذا الطلب ، فقال إن أوامر الحكومة تقضى بسبب الحرب بأن لا تباع أية خارطة جغرافية إلا بإذن من الحاكم العسكري... فصرفت النظر عن المشتري ورجوت الأستاذ على با كثير أن يوافيني بما عنده من أطالس الجغرافيا المدرسية ، وأخذت أطبق كلام المؤرخين السابقين على خرائط المعاصرين ، فوجدت أنه يتعين على أن أقصد أولاً مدينة قنا في أقصى الجنوب من القطر المصرى ومن هناك أحترق صحراء عيذاب . ثم فكرت في كيفية اختراق تلك الصحراء المهلكة وأنا لا أدري كيف يجتازونها الآن . ولا كيف أسوغ هذه الرحلة ولا أعرف في مدينة قنا أحداً للاسترشاد برأيه . وأخيراً وضعت الخطة الآتية وهى أن آخذ كتاب تعارف من محل « سعد الدين عسكر » تاجر الحبوب في المنصورة وهو صعيدى الأصل ، إلى عميله فى قنا . فذهبت إلى السيد أحمد جودة نقيب الأشراف وادعيت أمامه بأن شريكى كان قد هرب منى وأخذ مالى وإنى عرفت الآن فقط أنه يقيم فى بلدة القصير باسم مستعار لا أعرفه . وإنى أريد السفر إليه واحتاج إلى توصية من سعد الدين عسكر إلى قنا . فبادر السيد جودة وأخذ لى رسالة تعريف إلى عميله فى قنا واسمه « الحاج أحمد الناشقى » فوضعتها فى عبي وكأنى ملكت بها الدنيا !



هذه صورة الوجهه السيد أحمد جودة الذى لقيت منه فى أيام المحنة كل مكرمة وهو لا يعرف عنى شيئاً، ولما بدل الله الحال وفرج عنى جاء إلى القاهرة مسلماً ومهنتاً . ثم زرته فى المنصورة فأقام لى مأدبة حافلة بأعيان مدينته .

حوادث مشيرة

القبض على قرينتى

كان البريد يصلنى إلى المنصورة بعنوانات شتى ، فتارة باسم الشيخ محمد الناجى المغربى فى نفس المنزل الذى أقطنه ، وتارة إلى بريد مدينة طلخا لشباك البريد ، وتارة بواسطة با كثير ، وأخرى إلى مكتب بريد مدينة السنبلاوين ، وأحيانا باسم وواسطة أحمد بدر فكل واحد من أصحابى كنت أتصل به باسم خاص وعنوان خاص ، بدون أن يعرف أحدهم بمعلومات الآخر عني . وقد استفدت من هذا الاحتياط والتنظيم فوائد كثيرة .

أنا الآن فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٤١ فإذا برسالة من الدكتور بشناق روعتنى وغيرت مجرى حياتى لفظاعة ما جاء فيها . فقد أخبرنى الدكتور أنه ذهب بالأمس ليتفقد حال عائلتى فقرع الجرس فلم يرد عليه أحد ، فطرق الباب بشدة فإذا بإحدى الجارات تفتح باب دارها وكانت تعرف صداقة الدكتور لنا ، فأخبرته بأن جماعة من البوليس جاءوا بقيادة الضابط محمد يوسف فهاجموا الدار بغتة وقتشوها وقبضوا على قرينتى وأخذوها معهم وأنها لم ترجع منذ يومين إلى الآن .

وقال الدكتور فى رسالته إنه ركض إلى إدارة البوليس والأمن العام واستفهم فعلم أنها موجودة فى السجن الذى كنت فيه أنا . فطلب أن يسمحوا له بزيارتها فأنعوا ، وأخيراً وبعد سعى وإلحاح لدى إدارة البوليس العامة سمحوا له بالزيارة . فقابل قرينتى فى مكتب مدير السجن ثم وصف لى الدكتور حالتها ، وقصة القبض عليها كما روتها له ، وذلك أن الضابط محمد يوسف لما دهم هو ورجاله الدار كانت تتناول فطورها ففتشوا وعبثوا بالأثاث ثم طلب منها محمد يوسف أن تخبره أين أنا فأكدت له أنها لا تدرى ، واستغربت كيف يطلب منها الإرشاد إلى زوجها وأنها لو كانت تعرف مقره لما باحت به . فأغلظ عليها محمد يوسف القول وشتماها ، فاحتجت لتلفظه بذلك السب وكيف يجوز لنفسه دخول بيوت الناس بدون إذنههم ويشتمهم ، فما كان من محمد يوسف إلا أن ضربها بقبضته على عينها وأخذها إلى إدارة البوليس وحبسها فى إحدى الغرف طول النهار وتركها بدون أكل ، وفى المساء أرسلها إلى السجن حيث كنت أنا . ثم وصف لى الدكتور بشناق حالة قرينتى فى تلك الساعة التى قابلها فيها

فقال إنه وجد عينها مصابة بكدمة رضية في وجهها تحتاج إلى علاج ولكنهم تركوها بدون معالجة. وقال إنه في خلال هذه الزيارة رأى الدكتور رشيد بك كرم رئيس أطباء البوليس يدخل إلى مكتب مدير السجن ليكتب تقريراً عن حالة بعض السجناء فرأى قرينتى على تلك الحالة وشاهد الإصابات في وجهها ولكنه لم يجسر على معالجتها بدون أمر من إدارة البوليس العامة لأن معالجة المساجين لا تكون بحسب قوانينهم إلا بطلب من السجنين وموافقة مدير السجن وإرسال الطلب إلى الحكمدارية وأخذ أمر منها . ومما قاله الدكتور في رسالته إنه لحظ من المدير الأجنبي للسجن أسفاً وخجلاً من فعلة تلك الحكومة وبوليسها مع سيدة محترمة بدون ذنب حتى ولا بذنب أيضاً .

وقال الدكتور في رسالته إنهم استدعوا شقيقتى لإدارة الشرطة وأن محمد يوسف أطال لسانه عليها وهددها وأنهم سيحتفظون بقرينتى في السجن رهينة إلى أن أدرى بالحدث فأسلمهم نفسى .

وقع الحادث

كان أثر هذه الأخبار في نفسى شديداً وأليماً جداً ، ولا أستطيع وأنا أكتب هذه السطور بعد عشر سنين من وقوعها أن أحسب نفسى نسيت خلجة واحدة مما داخلنى يومها من الغضب والحزن والاضطراب والحقد على الشداد الغلاظ الذين أهانوا قرينتى وشقيقتى وأساءوا إليهما على تلك الصورة الوحشية ، وإلا فما ذنب زوجة في نظر أبعاد الحكومات والسلطات عن الإنسانية إذا كان زوجها وهو برىء قد أفلت من ظالميه . ولنفرض أن أحد المجرمين أو القتلة قد هرب من السجن حتى بعد الحكم عليه ، فهل تصبح أسرته مسئولة عنه ، ويجب أن تروغ وتهان وتضرب وتساق إلى السجن ؟

إننى أطرح هذا السؤال على كل منصف في الدنيا ليحكم على حكومة ذلك العهد ، وعلى حمدى باشا محبوب ، وعلى محمد يوسف الذى أصبح الآن وأنا أكتب هذه السطور «أمير الآى» فى بوليس مصر ويحمل رتبة «بك» .. أجل إننى بعد أن طرحت هذا السؤال أعتبر نفسى قد انتصفت أنا وزوجى من هؤلاء الناس . لأن حكم المنصفين سيكون شديداً وقاسياً .

السفر لتسليم نفسى

لم أتردد بعد تلاوة هذه الأخبار المفزعة عن العمل ، فقد بادرت إلى التلفون الأمرى وخاطبت الدكتور يعقوب خورى بالقاهرة فلما سمعنى ظننى أخاطبه من المدينة ، فهنأتى بسلامتى وطلب منى أن أزوره وأمكث عنده أياماً وأعطانى عنوان مسكنه الجديد فى حلوان . فشكرته على وداده ، ثم أخبرته ضمناً وبأسلوب مبهم غامض بالحوادث التى وقعت فى دارنا بالقاهرة ، وأن يسعى إلى مقابلة المعلم زكى « أى قرينتى » فى المدرسة التى كنت فيها « أى فى السجن » وأن يستفهم عن الحالة ويطمئنها إن استطاع ، ثم خلطت حديثى بكلام لا معنى له تضليلاً للمتجسسين المتلصقين على التليفونات فى تلك الأيام ، وأكدت عليه بأن يستوثق من الأسعار والأخبار لأن واردات القهوة العدنية فى هبوط وسوقها عندنا مضطرب وإنى سأزوره الليلة وأن ينتظرنى فى العيادة ولا يبرحها ولو انتصف الليل . ولما انتهى الحديث التليفونى سمع الدكتور صوت عاملة « الترنك » وهى تقفل الخط ففهم أننى أكلمه من الريف لامن القاهرة...

وبعد ذلك ذهبت إلى أحمد حسن بدر فأخبرته بما جرى وأننى سأسافر مساء اليوم إلى مصر لتسليم نفسى للحكومة وإنى أريد أن يكون معى ، فلبانى بكل ارتياح . ثم خطر ببالى خاطر وهو : لو فرضنا أن الحكومة تركت زوجى فهل أسلم نفسى ؟ كلا . ثم هل أستطيع البقاء فى الأراضى المصرية وأنا مروع على هذه الصورة فى حين أن الحرب طويلة ولا نهاية لها ؟ فيجب إذن أن أحتاط من الآن ، فإن كانت زوجى باقية فى السجن سلمت نفسى ، أما إن أطلقت فأواصل السفر إلى قنا ومنها إلى البحر الأحمر فالحجاز .

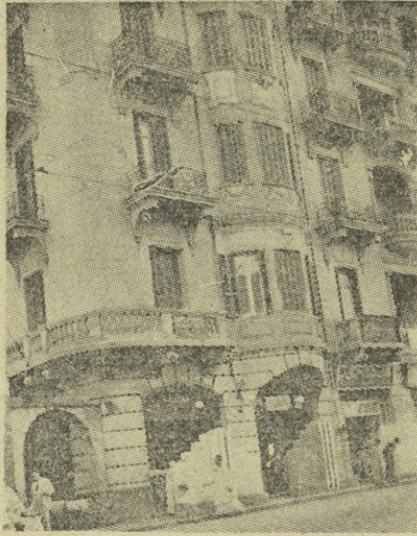
وبادرت بتوزيع بعض الأثاث الذى عندى بين الصديقين بدر وبا كثير وإيداعه أمانة لديهما ، وبعد العصر استأجرت لى أحمد بدر سيارة خاصة إلى القاهرة فسافرت بها وهو معى ، وأصبحت فى تلك الساعات لأحتاط فى حركاتى لأن القبض على أوعدمه أصبح لايهمنى كثيراً . وسارت بنا السيارة إلى القاهرة ونحن فى صمت عميق فلم أتكلم مع رفيقى طول الطريق قط ، وكنت سابجا فى بحور من الأفكار ، أتصور حياتى القادمة فى السجن ، وكيف أنهم سيستمعون معى الشدة والقسوة والوقاحة أيضاً ، لأنهم قبل أن أهرب منهم كانوا مخرجين أمام الناس

يخافون الضجة عليهم لكونهم حبسوا وعذبوا رجلاً بريئاً . وأما الآن فلا حرمة لى ولا كرامة عندهم إن ظفروا بى ، سواء كان ذلك قبضاً أو استسلاماً . أليس أننى فررت منهم وسببت لهم السخرية والوقوع تحت المسؤولية واحتمال الهول من هياج رئيس الوزراء الحاكم العسكرى العام عليهم وشتمه إياهم ؟ إنهم فى هذه المرة لن يتورعوا عن الإساءة إلى سافرين كاشحين ! ، وسينكلون بى ويشفون غليلهم منى .

دارت هذه التصورات فى بالى ولكنى قلت فى نفسى ليكون هذا وأشنع منه ، لأنه ليس من المروءة ولا من الوفاء أن أكون السبب فى تعذيب قرينتى ثم أرضى بتركها فى السجن بينما أستطيع إنقاذها . وإذا كانت الحكومة قد رضيت لنفسها اجتراح هذه الفعلة فضميرى لا يسمح بترك زوجى فى السجن .

الشيخ فى الكنيسة

وصلنا القاهرة بعد العشاء ، وكنت أستصحب سلة وصرة وضعت فيهما بعض الملابس والطعام وأدوات صنع القهوة وبعض الكتب الأزهرية ذات الورق الأصفر والغلاف الأحمر . وبعض أشياء يحملها المشايخ عادة ومنها مشط للحية ومسواك من خشب الاراك وطربوشاً قديماً وبطانية رخيصة . ومشيت فى الظلام أمام رفيقى



منزل الدكتور يعقوب خورى وعيادته
وهو لا يزال فيه إلى الآن

أحمد حسن بدر وهو يتبعنى على بعد خطوات ، هو يحمل السلة وأنا أحمل الصرة ، إلى أن بلغنا العمارة ٦٤ بشارع الفجالة حيث تقع فيها عيادة الدكتور يعقوب خورى . ووقفت على الإفريز بجوار السلة والصرة وطلبت إلى رفيقى أن يصعدا إلى الدكتور وأن يخبره بوصولى وإنى أنتظره على الرصيف الجنوبي أمام « قهوة وبار العاصمة » فى نفس الشارع ، فذهب وعاد يقول إن الدكتور سيوافينا إلى هناك . وجلسنا على رصيف القهوة وطلبنا شايًا وأخرجت

من السلة بعض ما أحمل من زاد فأكلت أنا ورفيقي ، وكنت منذ الصباح لم أتناول طعاماً ، لأن اضطرابي من حوادث ذلك اليوم الأغبر أنساني الطعام وأنساني نفسي .

وأقبل الدكتور خوري وجلس معنا وهنأنا بالسلامة ، ثم أخذ يقص علينا حوادث اليوم فقال إنه لما خاطبته بالتليفون اندهش كثيراً وبادر إلى سجن الأجانب يستعلم أولاً عن قرينتي وهل هي لا تزال موجودة هناك أم إنهم نقلوها منه . وقال إنه بدلا من الاستفهام الذي لا نتيجة له « لأن أهل ذلك السجن كلهم من رجال بوليس الجواسيس الذين لا يتكلمون » اشترى زهوراً وفاكهة وذهب إلى السجن وطلب توصيل الهدايا إلى زوجتي وأن يسألوها إن كانت في حاجة إلى شيء . وبعد قليل عاد السجن يقول إنها استلمت الهدية مع الشكر ولا تريد شيئاً . وقال الدكتور إنه فهم من قبول الهدية وهذا الرد أنها لا تزال موجودة في ذلك السجن . ثم قنقش الدكتور في جيوبه وأخرج عشرة جنيهات وطلب أن أبقياها معي للطوارئ فشكرته على هذه الأريحية .



وبعد ذلك ركبنا سيارة إلى محطة حلوان وأخذنا القطار إليها ، وكنت أجلس بعيداً عنهما . وفي شوارع حلوان الواسعة المظلمة مشيناً معاً نستضيء بالنجم فإذا بالدكتور يقف بنا أمام كنيسة الروم الأرثوذكسية !

كان الدكتور يعقوب يسكن في الدار الملحقة بالكنيسة لأن والده هو راعي الطائفة ، وتقع الدار والكنيسة في حوش واحد ، فصعدنا إلى المنزل فقابلتنا والدته الكريمة بالترحاب .

كنيسة حلوان للروم الارثوذكس التي لجأت إليها

وفي الصباح تناولنا فطوراً طيباً بين نظرات خدم الكنيسة اليونانيين واندھاشهم من وجود شيخ في دار الكنيسة !

وبعد ذلك رسمنا البرنامج الآتي ، وهو أن يذهب الدكتور إلى مصر لاستنشاق الأخبار ويذهب أحمد بدر أيضاً للاستفهام من الدكتور بشناق ويسطله الموقف الأخير وإنني عزمت على تسليم نفسي للحكومة . وبعد أن يأخذ رأيه يتصل بالدكتور خوري ثم يشتري لي بدلة أفرنجية جاهزة وطربوشاً جديداً ويعود في المساء . وكان قصدي أن لا يراني رجال الحكم في الزى الذي أنا فيه تفادياً لشمتهم .

أما أنا فبقيت أنتظر حيث كنت في حوش الكنيسة ، وقد فرشوا لي سجادة ومقعداً في ظلها فجلست أقرأ في كتاب وأفكر . وكان النهار طويلاً علىّ وخصوصاً في تلك الظروف وما كان يكيدني شيء مثل حملة خدم الكنيسة بي وهم يرون العمامة لأول مرة في كنيستهم ! أما أنا فكنت أرسم في ذهني أنواع الخطط إلى أن انتهيت إلى الحل ، وهو أن أتصل تليفونيا بسليم زكي ياشا مساعد مدير البوليس العام وأن أساومه على تسليم نفسي في مقابل إطلاق سراح زوجتي فوراً . هذا ما انتهيت عليه . وبعد ذلك أخذت أطلع في الكتاب الذي كان في يدي بدون أن أفكر في شيء آخر لأنني استرحت إلى مشروع الاستسلام .

وكان الكتاب الذي كنت أقرأ فيه «المآسى التاريخية» الذي ترجمه الأستاذ حسن الشريف «رحمه الله» فوجدت في نكبة نابليون حين استسلامه للإنكليز بعده زميته في «واترلو» كتاباً أرسله نابليون إلى بريطانيا قبل ١٣٠ عاماً بالاحتجاج على نكث العهد الذي أعطته إياه . فتأملت في عبر ذلك الكتاب التاريخي وأنا متعجب كيف أن جميع صحف العالم العربي في العصر الحاضر لم تنشره ، وخصوصاً قبل الحرب العالمية الأولى ولا الحرب الثانية . ليعرف الناس حقيقة هؤلاء الإنكليز وقيمة عهودهم . فلو نشر احتجاج نابليون واستظهره أبناء هذا الجيل لما انخدعت الأمة العربية بانكلترا ولا وقعت فيما وقعت فيه من التردى تحت كل استعمارها . وقد رأيت أن أثبت نص كتاب نابليون نقلاً عن الترجمة التي وردت أخيراً في كتاب « نابليون » الذي نقل عن الأصل الفرنسي بقلم العلامة عادل بك زعير ، أمد الله في حياته .

احتجاج نابليون على نكث الإنكليز

« أحتج أمام الله والبشر على معاملة الحكومة البريطانية لى بالعنف وانتهى كها لأقدس حقوق ، واعتدائها على شخصى وحريتى ، فلقد جئت إلى الطراد « البليروفون » مختاراً لآ كون ضيف انكلترا لآ أسيرها ، وذلك اعتماداً على تصريح ربانها القائل بأن حكومته أمرته بأن يستقبلنى وأن يحملنى أنا ومن معى إلى انجلترا إذا كنت راعباً فى ذلك . وإننى إذ وثقت بذلك ورضيت بما عرض على رأيت أن أضع نفسى تحت حماية بريطانيا ، وإننى وقد أصبحت فى « البليروفون » صار لى حق الضيافة على الإنكليز . فالحكومة البريطانية إذن قد أرادت بأمرها لربان « البليروفون » أن يستقبلنى أنا وحاشيتى وقوعى فى شرك نصيبته لى قد لوثت شرفها ودنست علمها . فعلى الإنكليز أن لا يحدثوا أوربة بعد ذلك عن أخلاقهم ودساتيرهم وحرياتهم لبطلان دعواهم ، ولما يجدونه من تكذيب الناس لهم بما نقضوه من أصول الضيافة فى الطراد « البليروفون » إنى أشهد التاريخ على ما فعل بى ، والتاريخ سيدكر عدواً حارب الإنكليز عشرين سنة نخانه الحظ فأتاهم لابساً بزته العسكرية واثقاً بوعودهم ليضع نفسه تحت حمايتهم فنكثوا العهد ، وغدروا به وأهلكوه . الإمضاء

« نابليون بونابرت »

هذا هو المستند التاريخى المشهور بإمضاء ملك وامبراطور ، والذى دمع دولة الإنكليز بطابع الغدر إلى الأبد ، ووسمها بأشنع ما تعير به الدول والحكومات والشعوب . كان ذلك سنة ١٨١٥ أى قبل مئة سنة من العهود التى أعطوها للعرب بعد ذلك فى حرب ١٩١٤-١٩١٨ فلو اطلع أبناء جيل هذا العهد على كتاب نابليون الذى فضح الإنكليز وكان عند العرب ذرة من العقل لما انخدعوا بعهود انكلترا ، وإن قيل إن اطلاع جيل تلك الحرب لم يكف حتى يحتمر فى أذهان الناس أقول إن الإطلاع كان ينفع جيل ١٩٥١ الذى نحن فيه اليوم . وياعجباً لدولة لا تزال تشقى بالكلام الأجوف عن شرف عهودها ، بعد أن ثبت أنها قد أفسدت الأخلاق الدولية بنكثها بكل عهد اصطلح عليه البشر منذ عرف التعاقد بين الإنسان والإنسان .

خبر غير منتظر

وعند العصر رجع الدكتور خورى من القاهرة وقال إن لديه أخباراً جديدة ، وذلك أنه تقرر إخراج قرينتى من مصر وإبعادها لبر الشام ، وأن أحمد بدر سيرقب المحطة وبعد ذلك يعود لحوان عند الغروب ليخبرنا بما يرى .

كان لهذا النبأ فى نفسى وقع سىء وشديد ، وقد شعرت باحتقار لهؤلاء الذين أصبحوا فى غفلة من الزمن ساسة وحكاماً ، ولولا الإنكليز لوضعهم الأمة فى السجون دفعاً لأذاهم عن بنيتها ، ورحم الله شاعر المعرة الذى رأى هؤلاء الناس قبل ألف سنة من وراء الغيب فقال فيهم:

يسوسون الأمور بغير عقل وينفذ أمرهم فيقال ساسة
فأف من الحياة وأف منى ومن زمن رئاسته خساسة

لماذا يبعدون زوجتى بعد حبسها والتنكيل بها ! وما ذنبها مع هؤلاء الجلادين القساة . وإذا كان الإنكليز قد طلبوا منهم ارتكاب هذه الفظائع معنا فكيف سمحت لهم ضمائرهم بارتكابها ؟ أليسوا من البشر كسائر الناس ولهم زوجات وأخوات وبنات ؟ وهل يليق بموظف إذا أمره سيده المستعمر باجتراح وزر من الأوزار ضد أحد أبناء جنسه أن يبادر إلى اجتراحه بلا تردد ولا اشمئزاز ؟...

أمضيت بقية ذلك اليوم وأنا هائج الأعصاب ، أفكر فى مسألة القبض على قرينتى وأخذها من خدرها وحبسها بعد التطاول عليها بالضرب والأذى ، ثم نفيها من البلاد . فيأتى كيف حالها وهى تؤخذ من بيتها وتنفى بعد تعذيبها لتسافر على تلك الصورة الأليمة الوحشية ، بعد أن فقدت بنتها وزوجها وخربوا ديارها !

براءة الإنكليز

لقد بلغنى بعد جلاء الغمة وزوال المحنة أن الإنكليز لما سمعوا بهذه الفظائع التى نزلت بزوجتى وأن الرأى العام يتهمهم بها ، أنكروا ذلك بشدة واستهجنوه ، وقالوا إنهم لم يأمرؤا به وهى عادتهم دائماً فى التهرب من المسؤوليات ، إذن فأصحاب هذه الجريمة على كل حال قد

تطوعوا بها لإرضاء الإنكليز تطوعا ، فإذا بهؤلاء يستنكرونها ويتبرأون من مسلك أعوانهم ،
فلعل أذئاب المستعمرين يتعضون بهذا فهو يكفي لإظهار شناعة ما يجترحون .

إبعاد قرينتي نفيا

جاء أحمد حسن بدر فقال إنه فضل أن لا يكون في المحطة بنفسه فكلف أحد أصحابه
بمراقبة الحالة وإنه عاد إليه بمعلومات خاطفة تلخص في أن رجلا من البوليس قد رافق
زوجتي من السجن إلى المحطة وركب معها قطار فلسطين ، وجاء بعض جيراننا إلى المحطة
يودعونها وقدمو إليها بعض الهدايا من زهور وعلب حلوى . وكانت دموع السيدات تسيل
مدرارا من هذه المأساة إلى أن مشى القطار وأسدل الستار ، فأخذت أفكر في مصير قرينتي
وإلى أين أبعدوها ، ولكن كيف يمكن معرفة مقرها ، وكيف السبيل إلى الاتصال بها ؟
وبعد ذلك فكرت في دارنا ، فيا ترى ماذا جرى فيها ، وفيها أثاثنا ومتاعنا كله . ومن
يدفع أجرة الدار ، ومن الذي يتصرف بها ؟ لقد بقيت هذه الأسئلة بلا جواب ولا حل ...

خواطر

كانت تلك الأمسية سوداء مظلمة على نفسي وأعصابي ، وبعد تفكير جزمت أمري على
مغادرة القاهرة في تلك الليلة إلى الصعيد ، لأنفذ مشروعي في اجتياز صحراء عيذاب وركوب
البحر الأحمر إلى الحجاز أو اليمن . فأى ساحل أصل إليه أو أى بر يتلقانى يكون هو المطلوب .
أليس إنى أكون قد نجوت من أيدي المستعمرين ؟

إن المسألة ليست عبور نهر أو جدول ماء ولكنها مسألة اجتياز بحر تحتاج البواخر في
اجتيازه إلى يومين وليلتين . وأما سفن الصيادين فإننا إن وجدناها واستطعنا الإفلات بها
سنقضى فيها نحو أسبوعين إن ساعدها الريح وهدوء البحر وقدرت لها النجاة ، ولكن يجب
أن أركب هذا الخطر ولو من دون أمل لأخلص من الإنكليز وليكن ما يكون ...

وقد ذكرنى هذا العزم بقول ابن دراج القسطلى في قصيدته الوداعية وهو يسوغ لنفسه ركوب
الصعب الذى أقدم عليه :

وإن خطيرات المهالك ضُمَّنْ لراكبها أن الجزاء كبير

وهذا صحيح مع أن النعمة التي سأحصل عليها بحياة الأمن إن نجوت . نعمة لا تعادلها نعمة .
على أن الفرق عظيم بين الصعب الذي ركبته ابن دراج وبين الصعب الذي ركبته ، بل
ركبني - لأنه كان يريد النزهة أو طلب الرزق ، وأما أنا فإني هارب من ظالمين مجرمين لا
يرضونهم إلا قتلي في السجون المظلمة .

الأستاذ أحمد حسين يصف سجن زوجتي

وقبل أن أبتعد بالقارئ ، أرى أنه من الأفضل ألا أجعله ينتظر كثيراً ليعرف كيف كان
وقع سجن قرينتي وإبعادها عند الناس فقد كتب الأستاذ أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة
مذكراته عن سجنى فى تلك الأيام ونشرها بعد الحرب فى جريدته « مصر الفتاة » سنة
١٩٤٥ فقد روى كيفية مصادفته لزوجتى فى السجن قال :

مقال أحمد

« وفى صباح أحد الأيام فوجئت وأنا فى السجن مفاجأة عنيفة ، برؤية زميل جديد ،
أو بالأحرى زميلة جديدة ، تتصل بأعز الناس علىّ ، وتحتل أكبر قدر من احترامى وتقديرى .
فكان حدثاً ما بعده حدث . وكادت تقوم قيامتنا لولا أن الله سلم . وقد بقى أن أحدثك عن
قصة هذه الزميلة ، فإنها لقصة كما يقولون فى كتاب ألف ليلة وليلة تكتب بالإبر على آماق
البصر ، ولكن قبل أن أحدثك عنها لا أستطيع إلا أن أصورك لك هول المفاجأة التى فوجئت
بها عند اكتشافى أن هذه الوافدة الجديدة ليست إلا هذه السيدة الفاضلة المحترمة . فنذ
استقربنا المقام فى سجن الأجانب اكتشفت أنه يوجد به سيدة ألمانية معتقلة ، ولقد أزعجنى
كل الإزعاج أن تسجن سيدة فى سجن للرجال ، فقلت ولكنه الآن لم يعد سجننا للأجانب
بل هو مقر للمعتقلين . والمعتقلون من مصر الفتاة وأحمد حسين لا يمكن أن يرضوا عن هذا
الوضع ، فهذه السيدة يجب أن تنقل وأن تنقل على الفور ، ولقد عجبت فى بادئ الأمر
لهذا الطلب . ولكنى كررته لجميع الضباط الذين جاءونى وأصررت عليه . وكان أن نقلت
السيدة إلى معتقل الأجنبيات النساء بالنصورة .

حرم صديقي

وهكذا فقد خلا السجن إلا من الرجال . وذات صباح عند ما فتح باب حجرتي لمحت شبح سيدة جديدة في الدور العلوى، فنظرت إليها مستطلعا ، وكل شيء في السجن يشير حب الاستطلاع . فإذا بصورتها ليست غريبة علىّ ، وإن كان قد أعجبني فيها وقارها البادئ وحيويتها والبشاشة التي تبدو في وجهها وملابسها المحترمة المحتشمة، فقد كانت ترتدى تاييراً أسود على ما ذكر . وبينما كان الخاطر الذي يجول في نفسي هو الإعجاب بنساء الافرنج اللاتي يظهرن في المحن بهذه الرجولة والثبات ، كانت ذاكرتي تبحث في ثناياها عن هذه الشخصية الجديدة ، وأين سبق لى أن رأيته . ونجأة ومضت ذاكرتي ومضة المعرفة ، وإذا بى أثب مندهشا وأنا أكاد أصرخ من قوة المفاجأة إنها « زكية هانم » حرم الأستاذ المجاهد الكبير محمد على الطاهر رئيس اللجنة الفلسطينية في مصر ... لا ، لا يمكن ... مستحيل ! ولكن نظرتي الثانية كانت كافية لتأكيد هذه الحقيقة ... إنها هي هذه المجاهدة الصابرة ، إنها هي هذه الأم والزوجة التي حرمت زوجها بالسجن . ثم حرمت من طفلتها بالوفاة . وقد أتاحت لى الظروف أن أكون إلى جوارها في تلك الأيام العصيبة ، حيث كنا نعمل للإفراج عن زوجها ، فما رأيته جزعت ولا هلعت . ما رأيته تخور أو تضعف ، بل رأيته كالأسد الرئبال تقف في وجه الزوابع والأعاصير ، تسمع من فيها كلمات الوطنية ، وأنه لا قيمة للحياة بغير الوطنية ، وأن أسعد أيام حياتها هو ذلك اليوم الذي تقدم فيه نفسها وزوجها وأولادها دفاعا عن قضية العروبة وقضية الحرية . هذه هي زكية هانم زوجة الأستاذ محمد على الطاهر المجاهد العنيد الذي لم تنل من عزيمته الأيام والخطوب ، ذلك المجاهد الذي جاهد والناس نيام ، المجاهد القوى الشكيمة الوطيد الإيمان ، فرزقه الله بالمجاهدة الصابرة التي ارتفعت إلى مستواه .

إنذار

ولقد كان الأستاذ محمد على الطاهر أول مصرى عربى صدر أمر السلطات الإنكليزية باعتقاله فحبس وأودع سجن الأجانب في الوقت الذي لم يكن الأمر قد صدر باعتقالى بعد ، وكانت هذه المسألة تثير في نفسي العجب لتصرفات الأقدار، فلطالما كان الأستاذ الطاهر يندرنى بالاعتقال ، وإن الحرب لا تكاد تقع حتى يكون مثنواى السجن . أما هو فسوف يستفيد

من تجاربه لكي لا يقع في براثن الإنكليز ، ولذلك فقد أوقف جريدته وأوقف كل نشاط سياسي . ومع ذلك فلم يجده الاحتياط من النجاة من الاعتقال . فكان أول المعتقلين ، وكنت أنا من الساعين لفك اعتقاله . ولكن كل جهودنا ذهبت في هذا السبيل هباء ، فقد كان تشبث الإنكليز باعتقاله عنيفاً ، حتى لقد رفضوا دائماً أن يستمعوا إلى أى قول بشأنه حتى ولو كان صادراً من رجال لهم عندهم كل حظوة ونفوذ . وبالرغم من أن بعض ممثلي الدول العربية أعلنوا استعداد بلادهم لأخذ الأستاذ محمد على الطاهر عندهم وضمانته . وكان في مقدمة هؤلاء سماحة السيد محمد إدريس المهدى السنوسى^(١) وتحسين بك العسكرى وزير العراق المفوض ، وعلى الرغم من ذلك كله فقد أصمت الحكومة المصرية أذنيها تحت ضغط الإنكليز وإصرار الإنكليز ... ولقد نكب الأستاذ الطاهر في وحيدته فاقتادوه ذات يوم من السجن فظن إنهم سيطلقون سراحه ، فإذا بهم يقودونه إلى بيته ليسير في جنازة ابنته ، ثم ليعود بعد ذلك إلى السجن . ولقد كان ذلك موقفاً رهيباً وقاسياً لم نمتلك فيه أنفسنا عن البكاء . ولم يث في قلب الأستاذ الطاهر في ذلك اليوم شيئاً من الصبر على هذه المحنة سوى زوجته التى أظهرت له من هدوئها وثباتها وتشجيعها له ما جعله يتمالك أعصابه قبل أن يعود إلى سجنه .

هرب صديقي

ولكن الأستاذ لم يلبث أن مرض ونقل إلى مستشفى الدمرداش ، ومن مستشفى الدمرداش أتيح له أن يهرب ويتنكر وأن يختفى ، وعشنا حاول البوليس أن يعثر عليه . وكان الإنكليز يضغطون في وجوب إعادة القبض عليه ، وقد صادف هربه حوادث اختفائي واختفاء عزيز باشا المصرى فأصبح لدى البوليس المصرى مجموعة من المهارين الخطرين ... ولم ير البوليس وسيلة لاقتفاء أثر الأستاذ الطاهر إلا بالتضييق على زوجته وتتبع آثارها ولكنها كانت من الحذر بحيث لم يستطع البوليس أن يصل عن طريقها إلى شيء ، ومرت الأشهر تلو الأشهر ، والسيدة تبذل نشاطاً كبيراً في معاونة زوجها على الإمعان في الهرب دون أن يستطيع البوليس الوقوف منها على شيء ، حتى إذا ضاق ذرع رجال البوليس السياسى لم يسعهم إلا أن يلجأوا إلى أفعال رجال العصابات ، ليحملوا الأستاذ محمد على الطاهر على

(١) ملك ليبيا الآن

الظهور من اختفائه بالضغط على زوجته ، ففكروا في أن يخرجوها من مصر فيفقدوا زوجها بذلك سنداً قوياً ، وقد يحملونه على الظهور ، فإذا بهم يقدمون على اعتقالها في خسة ودناءة ، ضارين عرض الحائط بالتقاليد والرجولة والنخوة التي لا تسمح باضطهاد رجل في شخص زوجته .

نفي السيدة

وهكذا التقيت وحرمت الأستاذ محمد علي الطاهر في السجن ، وإذا كنت قد غضبت للزج بامرأة ألمانية في السجون ، فتستطيع أن تصور لنفسك كم يكون غضبي أن تكون هذه المرأة عربية مصرية مسلمة ، وكم يكون بالأحرى إذا كانت هذه المرأة هي زوجة صديق الأستاذ الطاهر ؟ لقد تخيلت على الفور أن زوجتي هي المعتقلة وليست زوجة صديق الطاهر ، تصورت أننا أصبحنا جميعاً معرضين لهذه المعاملة الوحشية ، فاتفقت مع اخواني^(١) على وجوب الاحتجاج بل على وجوب إحداث ثورة في السجن إذا لزم الأمر ، ليعرف الرأى العام ماذا يجري مع المجاهدين ورأيت لزما على أن لا أعرف طعم الراحة أو الهدوء حتى أطمئن على هذه السيدة الفاضلة . ولقد رأينا في ذلك الوقت وأشرنا إليها بما يشجعها ويقويها . والحق أنها لم تكن في حاجة إلى تشجيع ، بل لقد أفاضت علينا من شجاعتها . فقد كانت كأنها في بيتها وكانت يحيط بها الوقاء في غير جزع أو ملل . ولقد كافأها الله على شجاعتها فلم تمكث في السجن بعد ذلك فقد رأيناها تشير إلينا بأنها مسافرة إلى بر الشام ، فتفنسنا الصعداء لا تقضاء الأزمة . ولكن هذا الحادث ظل محفوراً في نفوسنا ، وها قد انقضى عليه الآن خمس سنوات ولكنه لا يزال في ذاكرتي لقوة التأثير الذي أصابني وقتئذ . وكان إعزازي لزوجتي يتمثل في خوف من أن أراها في مثل هذا الموضع ، فكان ذلك يضاعف انزعاجي ، ولكن الله سلم ... اه

هذا ما سجله الأستاذ أحمد حسين المجاهد الوطني بعد الحادث بخمس سنين ، فهو تسجيل شاهد عيان على فظاعة أذنان المستعمرين . وقد أخبرني الأستاذ محمد صبيح السكرتير العام

(١) كانت وزارة تلك الأيام قد حبست بأمر الإنجليز معظم رجال مجلس إدارة مصر الفتاة ، رئيسهم الأخ أحمد حسين والأخ إبراهيم الزيايدي الحماي والأخ محمد صبيح والأخ أحمد الحصري والأخ توفيق الملط والأخ حسن جريو ، رحمه الله

السابق لحزب مصر الفتاة لما التقينا بعد الإفراج عني وعنه ، إنه كان والرئيس وجميع أركان الحزب بوقتها مسجونين ، فلما سمعوا بوجود زوجتي في السجن هاجوا وفتح بعضهم أبواب الزنازين على البعض الآخر وضجوا مهددين بتخريب السجن احتجاجاً على هذه الفظائع ولما أخرج البوليس قرينتي من السجن إلى المحطة ودعوها بالدعاء والعتاف ضد الظالمين ، فكان هذا المظهر من زملاء السجن وتوديع الجيران لها في محطة مصر أكبر عزاء لسيدة نالها ذلك الأذى ظلاماً من قوم تجردوا من الرجولة ومن الإنسانية .

ونرجع إلى ما كنا فيه من سرد الحوادث بعد ذلك .

السفر بقطار الليل

غادرت حلوان إلى القاهرة بعد أن ودعت الدكتور خورى وشكرته على مساعداته القيمة وضيافته الكريمة ، وكان أحمد حسن بدر يرافقني حتى محطة القاهرة فجلسنا في قهوة بلدية



قهوة الدرجة الثالثة بمحطة مصر

يجلس فيها كل متعطّل وكل منتظر لقطارات الليل ، فاشترت كعكا وجبنا وجعلت ذلك في السلة ، وقام أحمد بدر بأخذ تذكرة سفر إلى بني سويف ، وحمل السلة وحملت أنا الصرة ودخلت المحطة بين جماهير الفلاحين والصعايدة بمسناهم وققفهم وصراخ أطفالهم ، وأندست في مركبة الدرجة الثالثة وكانت مزدحمة ازدحاماً شديداً جعل الناس يدوس بعضهم بعضاً ، فأراد أحمد بدر أن يرافقني إلى الصعيد فشكرته وأعفيته من هذه الرحلة المزعجة فودعني وهو يبكي ومشى القطار نحو الجنوب ...

في القطار

كان الركاب على بؤسهم وسوء حالهم يغنون ويسمرون ، وكلهم سيلاق أهله وينتظر
الاطمئنان على عشيرته وسربه إلا أنا ؛ فقد كنت حزينا متألماً ، شارد الفكر ، أسبح في مجاهل
من الأفكار والافتراضات ، ليستقبلني مصير مجهول لا أدري ماذا يجيء من صروف القدر .
وبعد منتصف الليل بساعتين وقف القطار في محطة بنى سويف ، فحملت أمتعتي وهي
الصرة والسلة وغادرت القطار ، ثم خرجت من المحطة أتعثر في الظلام الدامس ، وأنا لا أدري
إلى أين أذهب ، فقد نويت أن أقضي تلك الليلة في مدينة بنى سويف لأستريح وأجعل سفرى
إلى مدينة قنا على مراحل . فلمحت فندقاً بقرب المحطة والغالب أنه يسمى « سميراميس »
فقضيت فيه تلك الليلة ونمت نوما طويلاً . وفي الصباح تناولت ورقة وكتبت إلى جاري الأستاذ
عباس جمجوم كتاباً شكرته فيه على جميل مساعداته لنا ورجوته أن يشكر الذين ودعوا قرينتى
بالأمس في محطة مصر وأكرموها ، وأن يجعل دارنا تحت نظارته فيغلق أبواب الغرف على
ما فيها من أثاث ثم يغلق الدار ويحتفظ بمفاتيحها ، وأما الأجرة فيأخذها في كل شهر من
الدكتور البشناق ويدفعها للمالك وأن يظل الحال كذلك إلى أن يفرجها الله . وكان صديق
الوفى الميرزا مهدى رفيع مشكى بك قد نكب بوفاة شقيقه الميرزا محسن بك « رحمه الله »
فرجوت عباس أن يقدم إليه التعزية بالنيابة عني ، ولم أذكر لعباس شيئاً عن خط سيرى ، وعلى
ذكر هذا الجار الطيب عباس جمجوم أذكر أنني علمت بعد زوال الحزن أن إدارة البوليس كانت
قد شعرت من أول يوم هربت فيه بأن مجاورة عباس لدارنا ستكون واسطة مأمونة لاتصالى
بأهل بيتى بصورة تضيع على الشرطة إتقان مراقبة منزلى ، فذهب الضابط محمد يوسف إلى
وكيل وزارة الأوقاف عمر بك الدمرداش يشكو من تستر آل جمجوم على ، فاستدعى
الدمرداش عباس جمجوم « لأنه من مهندسى الوزارة » وقابله بمحمد يوسف ، وكان الأحسن
من الدمرداش بك لو أنه أمر بإخراج هذا الضابط من مكتبته من أول الأمر ، وأن يقول له
نحن لسنا بجواسيس للإنكليز !

وانفرد محمد يوسف بعباس ليقنعه بفوائد الإرشاد عني ، وأن فى ذلك ترقية له ... فوعده

عباس بأنه سيساعد الحكومة بلاشك، ثم صرفه وهو يضحك في نفسه من هذه الأساليب!!



ولنرجع إلى ما كنا فيه ، فأقول: إنني ألقيت الرسالة بصندوق البريد وركبت القطار إلى أسيوط ونمت فيها ، وقضيت ذلك اليوم أتمجول في داخلها وفي خارجها . وبعد منتصف الليل ركبت القطار المسافر إلى السودان ، وفي الصباح كنت عند شروق الشمس أمام محطة قنا ، فنزلت فيها وحملت أمتعتي إلى فندق ونزلت فيه ، وكنت قبيل ذلك قد أخفيت العمامة ولبست الطربوش..

في قنا

أصبحت في ذلك اليوم صائماً لأن شمسهُ أشرقت ونحن في أول رمضان، فقضيت الضحوة نائماً لأعوض متاعب الليل الذي قضيته ساهراً ومسافراً .

وكان الجو في هذه الجهات حاراً مريداً ويقول الناس بعد أن يصفوا لك حر مدينة قنا ونواحيها (اللهم « قنا » عذاب النار) ...

وقال حفي بك ناصف القاضي الأديب الشاعر « رحمه الله » من قصيدة يصف حر مدينة قنا :

قالوا : شخصت إلى قنا	يا مرحباً « بقنا » و « إسنا » !
قالوا : قنا حرٌّ فقد	ت وهل يرد الحر قنّا ؟
ألقى الهواء فلا أها	ب لقاءه ظهراً و بطنا
وأنام غير مدثرٍ	شيئاً إذا ما الليل جنّا
وفرت من ثمن الوقو	د النصف أو نصفاً وثمنا

فإذا بدت لي حاجة في الغسل ألقى الماء سخنا
أو رمت طبخا أو علا ج الخبز ألقى الجو فرنا!

الوطن

بقيت في الغرفة طول ذلك النهار العبوس الأغبر أتقلب على فراش كأنه الحجر ، وبعد العصر خرجت أجوس خلال المدينة وأتعرّف حالها ، وغاية ما أقوله عنها هو الدعاء إلى الله بأن يعين أهلها على احتمال العذاب فيها ، لفضاعة حرها ، فلو لا أمنها وطنهم لما بقوا فيها لحظة ، فما أشد وفاء الإنسان للوطن وحاسب الله كل من يتسبب في إبعاد الناس عن أوطانهم ، أليس أن الله سبحانه وتعالى قد جعل النفي عن الوطن عقوبة من أشد العقوبات وقرنها بعقوبة الإعدام وبتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ؟

وعند الغروب انطلق مدفع الإفطار فدخلت مطعماً وأفطرت فطوراً يعد طعام السجن أفضل منه ...

سكة حديدية حربية!

وبعد ذلك بحثت عن السيد أحمد الناشقى فقدمت له نفسى وسلمته رسالة عميله في في المنصورة السيد سعد الدين عسكر التى يوصيه بى خيراً ، فرحب بى الرجل وأبدى استعداداه لخدمتى ، فقصصت عليه قصتى وإننى أريد السفر لميناء القصير « لأبحث عن شريكى الذى هرب بمالى وسكن فيها » فقال إن الأحسن من ذهابك إليها أن نكتب نحن لمعارفنا فى القصير ونسألهم عنه وعن حاله فقد لا يكون الرجل هناك . فارتبكت قليلاً لأن الرجل قال حقاً ، فاستدركت قائلاً: ولكنى لا أدرى ما هو الاسم الذى انتحله فى القصير ولا المهنة التى يعمل فيها . فقال السيد الناشقى إذن فقدم عريضة للمديرية بطلب السماح لك بالذهاب للقصير مع ذكر الأسباب وأنا أضمنك ، ويجب أن تصحب الطلب بثلاث صور فتغرافية ! فأظهرت إندهاشى من هذا الكلام « عريضة للحكومة وضمانة وصورتى ؟ » وسألته : لماذا كل هذه العقبات ؟ فقال إن السلطة العسكرية البريطانية تمد الآن فى صحراء عيذاب سكة حديدية حربية بصورة سرية من قنا إلى ميناء القصير ، وقد منعت الجرائد من الإشارة إليها لأنها تستورد

النخائر والجنود من المستعمرات ومن أمريكا بواسطة ميناء القصير بدلا من ميناء السويس التي تضربها الطيارات المعادية ، وقد نصت السلطة في أمرها على إعدام كل من يجتاز هذه الصحراء بدون إذن رسمي ...

سمعت هذا فاندعرت وقلت هل جميع السكان والأعراب يجب أن يقدموا عرايض وصورا وضمانات ؟ فقال كلا ، فصحراء عيذاب لا يسكنها أحد ، إذ لا ماء فيها ولا نبات ولا سكان ولا طير ولا وحش . فأردت أن أستريده بيانا عنها فقلت وكيف يعيش أهل القصير وكيف يتصلون بقنا ؟ فقال إنهم يتصلون بواسطة سيارات قوية معها حرس خوفا من الانقطاع ، وتجتازها السيارات أحيانا في يومين ، وكانت قوافل الحجاج قديماً تقطعها بخمسة عشر يوماً أو عشرين ، وأما الآن فلا يمكن للجمال أن تخترقها لأن آبار الماء التي كانت فيها فيما مضى قد انطمرت وزالت من الوجود .

اكتفيت بهذه المعلومات وأظهرت للرجل اقتناعي ، بل اقتنعت فعلا ، لأنني فهمت أن التسلل من هذا الباب الخلفي من أرض مصر أصبح أكثر من المستحيل ، وأن الإنكليز قد أتقنوا صناعة الحرب أكثر مما كنت أتصور ، ثم ودعت السيد أحمد النشاشقي بعد أن شكرته على حفاوته بي فدعاني للإفطار عنده في اليوم الثاني فاعتذرت لاضطراري إلى السفر ...

مدينة أسيوط

كان لهذه الخيبة أثر سيء في نفسي وفي الصباح المبكر ركبنا القطار إلى أسيوط ونزلت بفندق لرومي خلف المحطة . وقد أعجبنى من أسيوط أنها مدينة عظيمة متحضرة تستحق أن تسمى عاصمة الصعيد ، ففيها القصور المنيفة ، والأسواق العامرة ، والحدائق والمرافق والأندية . وقد استرعى انتباهي منها أنها تصلح لإصدار جريدة يومية كبرى لا تتعرض لغزو صحف القاهرة لبعدها عنها ، فإنها لاتصل إلى أسيوط إلا في الساعة الثانية بعد الظهر ، فإن صدرت جريدة «أسيوط» صباحية بعد أن تكون قد اتصلت ليلا بالقاهرة بواسطة التليفون واستقت آخر الأخبار المحلية فإن صحف القاهرة التي تصل بعد تلك الساعات تصبح لاقيمة لها ، وبهذه الوسيلة تستطيع جريدة أسيوط أن تسيطر على الرأي العام في الصعيد تماما ، من النيا في الشمال حتى أسوان في الجنوب ، وهي مناطق واسعة شاسعة فيها الملايين من السكان.

في دار خشبة باشا

و كنت في إحدى الليالي - ونحن في رمضان كما يذكر القارىء - أتجول في شوارع المدينة ، فلفت نظري ضياء شارع بجوار المحطة وقرب البريد ، فكانت قصوره تشعشع بالأضواء ، والمشايخ في رحباتها يقرأون القرآن كالعادة في رمضان . فسألت عن هذه الدور فقيل لي إنها منازل آل خشبة ، وفيها دار صديقي سيد باشا خشبة « رحمه الله » فسألت عنه فقيل لي إنه يقضى شهر الصيام بالقاهرة كعادته السنوية . فلما تأكدت من عدم وجوده دخلت الدار فلم يلفت دخولي نظر أحد ، لأن الصالون كان حافلا بالناس الذين يغشون منازل الكبراء في ليالي رمضان لتحية أصحابها وتناول القهوة وسماع القرآن . جلست بين الناس نصف ساعة ثم انصرفت بدون أن يحفل بي أحد .

كتاب إلى سيد باشا

ولما وصلت إلى الفندق كتبت إلى سيد باشا خشبة في الجيزة رسالة مطولة قلت له فيها هل تتذكر يوم أوصلتني بسيارتك إلى إدارة الشورى بشارع عبدالعزيز بمصر وزرتني ، وبقيت تلك الزيارة بدون رد بسبب حبسى ؟ إنني رددتها لك بعد عام في عرينك في أسيوط ، ثم ذكرت له موقف زميله في حزب الدستوريين مصطفى باشا عبد الرازق الذي أصبح بفضل الحزبية وزيراً ، وكيف أنه رضى لنفسه أن يكون وزيراً في وزارة تنكل بصديقه وتعتدى على أهل بيته وتبعدهم عن البلاد ثم يقر الوزارة على تلك الفضائع التي أنزلت بنا وبإدارة الشورى التي كان يؤنسها زياراته ، وبالدار التي رحبت به وأقيمت له فيها حفلة شاي تكريماً له لما أصبح وزيراً ، وقد شهد تلك الحفلة الأمير شكيب أرسلان والمرحوم أحمد شفيق باشا والمرحوم الشيخ على سرور الزنكلوني والدكتور محمود عزى وأحمد حلمى باشا والشيخ دراز وشقيقه على باشا عبد الرازق الخ وقلت لسيد باشا : لو كان الشيخ مصطفى باشا أهلاً للوزارة والصداقة لذهب إلى رئيس الوزراء وسعى لديه إما بالإفراج عني أو بتخفيف عذابي في السجن على الأقل ، وهو واجب يقضى به الوفاء وتفرضه عليه الرجولة ، فإن لم يستجب رئيس الوزراء لوساطته ترك الوزارة بدون أسف عليها ، أليس أن عبدالعزيز باشا فهمى في سنة ١٩٢٦ قد استقال بل أقيل من

وزارة زيور باشا حين لم يقبل نائبه يحيى باشا ابراهيم وساطته في إعفاء الشيخ على عبد الرازق شقيق مصطفى باشا من المحاكمة بسبب كتاب « الإسلام وأصول الحكم » ؟ ألم يتعلم الشيخ مصطفى باشا هذا الدرس في الوفاء مع العلم بأن عبد العزيز باشا نصر على بك على الباطل ، ونصرة مصطفى باشا لى لو حصلت تكون وهو على حق ، بل يجب أن يكون وفياً للحق وللفضيلة ، نحو أى إنسان آخر ، مع العلم بأن عبد العزيز باشا لم يرض لصديقه الشيخ على بك أن يحاكم وهو مستحق لذلك وبموجب قوانين عادلة ، على ذنب معين ثابت عليه ، وأما أنا فلم أحاكم ولم أتهم . وكل مسألتى هى انتقام انكليزى استعمارى بل هى تنكيل فى تنكيل ، وشتان بين الحالىين . ولكن الشيخ مصطفى أقر ذلك الظلم وسوغه ودافع عنه وراح يمين على ويدعى أنه حماني من سجن الإنكليز بوضعى فى سجنه هو ...

أثر كتابى فى خشية باشا

أخبرنى الدكتور مصطفى البشناق بعد ذلك أنه اجتمع بسيد باشا خشية « رحمه الله » فأخبره الباشا بأن كتابا قد وصله منى « وأنه بكى لما فيه وتألم من موقف الشيخ مصطفى باشا عبد الرازق وقال إنه موقف لا يليق به » أما أنا فلو كنت فى مكان الشيخ وفى ظروفه وكان هو فى ظروفى لكلمت رئيس الوزراء واحتججت على تلك الفظائع ، فإن لم يستجب لوساطتى واحتجاجى عاتبته وربما كنت أمد لسانى عليه وأغادر الوزارة حتى لا أشارك فى مسئولية إزال الفظائع ببرىء من عامة الناس ، فكيف بصديق وبأهل بيته ! .

هذا وقد مكثت فى أسيوط بضعة أيام كتبت فيها إلى قرينتى بواسطة شقيقى فى يافا بمضاء مستعار كتابا لا يستطيع أن يفهم رقيب البريد منه شيئاً وكنت أظن أنها سافرت ليافا ، ثم خطر لى أنها قد تكون سافرت إلى صيدا عند عمها ، فكتبت إليه أيضاً بشكل آخر وأسلوب يدل على أن أحد أخوته قد وصل إلى مقره بالسلامة ! فلما وصل هذا الكتاب والذى سبقه فهموا فى بر الشام أننى بخير ، وهذا التطمين يكفى بالنسبة لحالمهم وحالى فى تلك الظروف .

العودة إلى المنصورة

وقبل أن أشرع فى العودة كتبت إلى أحمد حسن بدر بآنى راجع إليه ، ورجوته أن

يعيد الأثاث الذى عنده وعند با كثير إلى المنزل الذى كنت فيه ، وأن ينتظر منى كتاباً آخر، ولم أشأ أن أسافر مباشرة بل فضلت أن أجعل السفر فى مراحل ، لأتمكن بواسطتها من الوصول بدون تعب وبقصد الاطلاع على أكثر ما يمكننى الاطلاع عليه من أحوال الجنوب. لقد كنت قبل رحلتى إلى الصعيد أستغرب تسمية القطر المصرى « بوادى النيل » لأن البلاد منبسطة من القاهرة حتى الإسكندرية ومن السويس حتى الحدود الغربية ، ولكن لما زرت الجنوب وجدت النيل يجرى بين جبلين يمتدان من أقصى الجنوب حتى القاهرة ، برغم بعد المسافة ، لأننا كنا ونحن فى القطار نرى الجبال تسد الأفق شرقاً وتسد غرباً ، والنيل يجرى إلى مستقره متعرجاً متعرجاً ، تحف به السهول على جانبيه خضراء يانعة ، والمدن قائمة على ضفتيه تارة من اليمين وأخرى من الشمال. عند ذلك فهمت لماذا سمي قطر مصر بوادى النيل.

غرفة ضابط البوليس

وقد زرت فى رجوعى بلدة ديروط ، فأردت أن أقضى فيها ليلة ، لأنى وصلتها عند إطلاق مدفع الإفطار، فى سيارة أتوبيس مغلقة محطمة قدرة. والصعايدة يسمونها (حزونات) ولا أدرى ما وجه هذه التسمية الغربية .

لم أجد فى ديروط مطعمًا أتناول فيه طعام الإفطار ، ولا مأوى أنام فيه . ولولا أن أحد الأروام أقام بجوار المحطة فندقًا ومطعمًا لمت جوعاً . فدخلت المطعم فإذا به خمار ! فخرجت وأنا فى حيرة كالمشايع أن أعرضها للمهانة ، فطلبت من الرومى أن يسمح لى بغرفة أستريح فيها وأتناول طعامى ، فلم يخيب ظنى ، فقد كان الرجل لبقاً مؤدباً ، فقد موقفى ومشى أمامى إلى الطابق الأعلى وأدخلنى غرفة كانت خالية من سكانها قال إنها لأحد ضباط البوليس ! وكانت ملابسه معلقة على الشماعة !.

ففى مأوى البوليس غسلت وجهى وتناولت طعامى واسترحت . ولكن لم أشأ أن أقضى تلك الليلة فى نزل يسكنه ضباط فى الشرطة ...

إلى محل دعارة

وبعد ذلك حملت السلة والصرة ومشيت إلى المحطة فركبت قطاراً يقصد مدينة المنيا وأخذت

أبحث عن فندق أنام فيه فلم أجد ، لأن المدينة كانت مزدهمة بالناس الهاربين من الغارات الجوية الألمانية على القاهرة والإسكندرية ، فسألت سائق مركبة عن فندق يعرفه فأركنى وسار مسافة طويلة بين حارات قدرة ثم أنزلنى أمام فندق ومضى فصعدت إلى الفندق وطلبت غرفة ولكنى لمحت من حركات أهله وسجن سكانه أنه ليس بفندق للنزلاء بل ماخور فساد للفسق والعريضة ولقاء الفجار ، فلم يسعنى إلا حمل السلة والصرة والهرولة على الدرج ... فأخذ أصحاب الفندق ينادون على « حضرة الحاج » ويعمدونه بقضاء ليلة عظيمة ... ولكنى واصلت الفرار ، وأخذت أجوب الشوارع وأنا أبحث عن غرفة إلى أن رحمنى الله عند منتصف الليل بالعثور على غرفة فوق سطح فندق رومى بجوار المحطة ... أى دأماً الأروام وكلهم بجوار المحطات ! وكانت الغرفة فى الأصل مخصصة للغسيل ففرحت بها كثيراً لأنى وجدت فيها حنفية ماء .

عبد الحميد عبد الحق^(١)

وتجولت فى المنيا فعثرت مصادفة على مكتب المحامى عبد الحميد بك عبدالحق عضو مجلس الشيوخ وكانت بينى وبينه معرفة ، فخطر ببالى أن أزوره وأقص عليه ما صنعت معنا الحكومة من فظائع ليثيرها فى المجلس إن أمكن ، لأن وقفات هذا النائب الفحل فى البرلمان أمام الوزارة فى تلك الأيام كانت رائعة تشهد له بالرجولة والإقدام . فدخلت وسألت أحد موظفى المكتب عن الأستاذ فأخذ يسألنى عن اسمى وغرضى من المقابلة فقلت له أنا « الحاج فلان » واختلقت

(١) التقيت بعد زوال الحزن بعبد الحميد باشا عبد الحق وهو وزير للأوقاف ، فذكرت له حكاية المنيا وكيف إننى زرت مكتبه فيها وأردت مقابلته ، فقال : والله لو رأيته لأخفيتك فى بلدى « أبو قرقاص » ولاأثرت مسألتك فى المجلس . فشكرته على هذه العاطفة الطيبة ، وفى الحقيقة ان هذا الرجل كان من خيرة الوزراء فقد زرتة بعد هذا الحديث بشهور فى وزارة الأوقاف ورجوته أن يعين راتباً من مال الخيرات لأحد معارفى وهو جزائرى أصابه حيف فى هذه الدنيا فأجاب رجائى وعين له راتباً ، وكان لى صديق مهاكشى يشتغل فى وزارة الأوقاف ثم استغنت عنه الوزارة فالتمس منها تمديد الخدمة سنة أخرى فرفضت برغم توسط بعض الباشوات والنواب وصممت الوزارة على الاستغناء عنه . فذهبت إلى الوزير عبد الحق وشرحت له حالة الرجل ورجوته أن يمدد له المدة خمس سنين لاسنة فقط فتناول القلم وأمضى له ما اقترحت . ذكرت هاتين الحادتين تنوياً بفضل هذا الرجل الخير الذى حمى أصله الطيب على المبادرة إلى إغاثة الملهوفين .

بوقتها اسما نسيته بعد دقيقة وأن لى قضية أحب أن أوكله بها . فقال إنه الآن فى القاهرة وسيجىء فى مساء الغد ، فانصرفت ولم أعد لأنى فى الغد سافرت إلى بنى سويف بعد أن تخففت من أمتعتى فحزمتها وجعلتها فى طرد صغير لأشحنها إلى محطة المنصورة وكتبت لأحمد حسن بدر بأن يستلم الطرد ويحتفظ به إلى أن أعود .

مرور بديار صديق

ولما سافرت من المنيا اجتازت بنا السيارة قرية « الشيخ عطا » موطن آل جلال بجوار بنى مزار ، ومررت بدار عميدهم محمد محمود جلال بك عضو مجلس النواب وهو صديقى وأخى ، فكم تمنيت لو أنزل عنده ولو ليلة واحدة لأراه وأنعم بجلسته مع هذا الوطنى الكبير الذى كان أحد الثلاثة الذين حفظوا عهد زعيم مصر الأول مصطفى كامل باشا وساروا على غراره وهم المرحوم عبد الحميد بك سعيد وعبد الرحمن بك الرافعى ومحمد محمود بك جلال « أمد الله فى حياتهما » .

ولكن كيف أطرق دارا تعج بالناس والضيوف والموظفين وخصوصا فى رمضان حيث يكثر الناس عنده ! ولذلك اكتفيت بأن ألقيت على ديار آل جلال نظرة فيها تحية الوداد وقد أخبرت محمد بك جلال بعد ذلك بما كان منى فعتب علىّ عتبا شديداً . فقلت له إننى كرهت أن أحملك وأحمل السيد أبا الوفاء الشرقاوى على الكذب.. فقال كيف ؟ فقلت إننى مررت بنجع حمادى وكدت أزور الشيخ الجليل الورع السيد أبا الوفاء الشرقاوى لمودة قديمة بيننا ، ولكنى حسبت حساباً لحالى وظروفي لأن السيد لو قدمنى لزواره وأهله باسمى الحقيقى لوقعت بيد الشرطة ، وإن ذكر غير اسمى يكون قد ارتكب الكذب ، وأنا أجهل وأجلك عن ذلك وأربأ بنفسى عن إحراج أصدقائى .

وقد أعجب هذا التعليل صديقى جلال بك وقال لى شقيقه عبد العزيز بك جلال إن الأستاذ أحمد حسين قد زارهم وإن الشرطة درت به فهربوه قبل التفتيش بنصف ساعة ! هذا وقد عوض محمد بك محمود جلال تلك الزيارة بمأدبة أقامها لى فى داره بالجيزة وبرحلة خاصة إلى ضيعته « الشيخ عطا » دعا إليها لفيفاً من الأصدقاء الفضلاء منهم عبد الرحمن الرافعى بك

وعبدالوهاب محمود بك النائب العراقى الذى أصبح بعد ذلك وزيراً للمالية العراقية ، والأستاذ جميل أمين بك أحد شبان بغداد المثقفين . فقضينا فى تلك الضيافة ثلاثة أيام نعمنا فيها بأطيب الأحاديث . وهل للرجال من متعة فى الدنيا مثل الحديث عن معالى الأمور مع أنداد يفهمونك وتفهمهم ويألفونك وتألفهم .

من بنى سوييف إلى حلوان



ذهبت إلى المحطة وشحنت السلة

لم ألبث كثيراً فى بنى سوييف ، وقد أردت أن ألتقى بصديق محمود بك لطيف ، فسألت عنه بالتليفون عمدة دلاص وهى قرية آل لطيف ففهمت أن صديقى موجود فى القاهرة فأسفت لضياغ هذه الفرصة . ثم ذهبت إلى المحطة وشحنت السلة بقطار الركاب إلى محطة المنصورة لأتحرر مما معى . فأصبحت حراً مستقلاً « أسير بطولى » كما يقولون ، ثم تناولت التليفون وخطبت الدكتور خورى فى عيادته بالقاهرة وطلبت منه أن ينتظرنى بعد الظهر فى داره بحلوان ، ثم سألت أهل المحطة عن أقرب طريق إلى حلوان « حتى لا أضطر إلى الذهاب إلى القاهرة » فوصفوا لى طريق بلدة « العياط » وأن أعبر النيل منها إلى بلدة الصف ثم أركب سيارة الأتوبيس إلى حلوان ،



أصبحت حراً مستقلاً

فسافرت . ولما بحثت في العياط عن وسيلة لعبور النيل اتضح لى أن ذلك ليس بهين وكان الوقت قد أخذ بضيق ، فأبرقت إلى الدكتور خورى بأن ينتظرني بحلوان إلى بعد العصر ، ومرر قطار بمحطة العياط متجهاً إلى مصر فركبته إلى البدرشين ، وهى بلدة مقابلة لحلوان يفصل النيل بينهما ، فشيت نصف ساعة إلى أن وصلت ضفة النهر ، فوجدت كومة من الخشب الملقى وهم يطلقون عليها اسم « سفينة » وقالوا إنها المعديّة التى يجتاز الناس فيها النيل إلى حلوان . فاندسست بين من كان فيها من فلاحين وصيادين وحمير وغنم وأقفاص دجاج وعبرنا النيل ...

إنقاذ النعجة

ولما وصلت المعديّة إلى ساحل حلوان لم يكن هناك مرسى ولا أسلكة ولا شاطئ يمكن الركون إليه ، فأخذ صاحب السفينة يحمل مشحوناتها على كتفه ويوصلها إلى البر ، فسقطت منه نعجة فضج أهلها ، ولكنها أنقذت ، ثم حمل البحار رجلاً من الركاب فوقه في الوحل

فلم يضح من أجله أحد ، ولما جاء دورى هلع قلبى لأنى تصورت نفسى أقع عن كتفه ثم أخرج من الماء مبتللاً مبهذلاً وأنا لا أملك من الملابس مايستر حالى سوى التى علىّ ولكن المولى لم يشأ تعذيبى بأكثر مما أنا فيه ...

ومشيت إلى المدينة فإذا بالمسافة أطول مما تصورت ، كما أن الرحلة من بنى سويف إلى حلوان كانت أضعاف ما قدرت . وانطلق مدفع الإفطار فى حلوان وأنا أسير فى أرض رملية واسعة فأشعلت سيجارة ، ثم خلعت الجبة وألقيتها على كتفى فإذا أنا أشبه ما أكون بالنجارين أو سماسرة مواد البناء ... وفى الحقيقة أن مظهرى قد تغير تماماً ، ولو رآنى بعد ذلك رفاق السفينة الذين كنت معهم منذ لحظة لما عرفونى ، حتى ان سدة كنيسة حلوان الأروام لم يلحظوا لما وصلت هذه المرة إننى الشيخ الذى كان عندهم من أيام ! وصعدت إلى دار الدكتور خورى فاستقبلتنى والدته الطيبة بالترحيب وقدمت لى طعاماً فأكلت . وقالت لى إن الدكتور انتظرك كثيراً ثم ذهب إلى عيادته فى القاهرة وأنه ينتظر إشارتك . فودعتها شاكرًا وقصدت إلى محطة حلوان فكلمت الدكتور بالتلفون وقلت له إننى قادم إلى القاهرة وإنى أنتظره فى قهوة « العشرة جنيه » ! أى قهوة « بار العاصمة » بالفجالة التى تقابلنا فيها منذ أيام وأطلقنا عليها ذلك الإسم . وقد جلست على رصيف القهوة مستفيداً من حالة الإظلام العام فى القاهرة .

أخبار جديدة فى مصر الجديدة

وجاء الدكتور خورى وأخذ يتصفح الوجوه فلم يعثر علىّ ، ذلك أننى كنت فى الصورة التى كنت عليها فى حلوان منذ ساعات ، وكان هو يبحث عنى كشيخ معمم ولكنه لم ير العمامة ! فضحكت فى نفسى وناديته فسلم علىّ بلهفة واطمأن . ومن هناك قصدنا إلى مصر الجديدة فشارع الأهرام حيث يقطن الدكتور مصطفى بك بشناق فى المنزل رقم ٢١ فجعلت الدكتور يصعد وحده لأخذ آخر الأخبار . وأما أنا فقد جلست على دكة البواب البربرى على رصيف الشارع ، فلا يظن المار من هناك إلا أننى أحد زوار بواب العمارة ...



وبعد قليل رجع الدكتور
وانطلق إلى الشارع المقابل ومشى
قليلاً فلحقت به وبعد خطوات
انضمت إليه ومشينا معاً، فأخذ
يقول :

إن الدكتور يوصى بالابتعاد
عنه فترة من الزمن لأن حوادث
الأسبوع الماضي العنيفة جعلت

الزبانية الشرطة يراقبونه أكثر
الدكتور مصطفى بك البشناق يشير بيديه للدكتور خوري وينصح الابتعاد
من الأول، وأما أخبار قرينتي فتتلخص في أنها لما وصلت أراضي فلسطين تركها رجال الشرطة
وعادوا إلى مصر، فركبت سيارة من محطة الدد إلى مدينة يافا ونزلت في بيت شقيقى الأكبر
ففرح بها هو وأهل بيته وصارت تلقى من الإكرام عنده وعند شقيقى الآخر بنابلس وأبناء
عمى ما أنساها بعض ما لقيت من الجلادين .

السفر من القاهرة

ثم ركبنا قطار المترو الكهربائى إلى محطة القاهرة فشئى معى الدكتور خورى إلى المدخل
الخلفى للمحطة واشترى لى تذكرة سفر إلى طنطا ، ثم جلسنا فى القهوة البلدية الملحقة
بقسم الدرجة الثالثة للمحطة وقد ذكرها ومعه رسمها . ولما دقت الساعة الحادية عشرة
ليلاً ودعت الدكتور ودخلت المحطة واندرست بين مئات الفلاحين والصعايدة الذين يلحقون
فى أسفارهم أشد العذاب لقذارة المركبات وقلة أماكن الجلوس ، مع أنهم هم الذين يدفعون
للدولة نفقاتها ونفقات سككها الحديدية ، وأما كبار الموظفين والمحاسبين فيركبون الدرجة
الأولى وعربات النوم مجاناً على حساب هؤلاء المعذنين ، الذين أصبحت من جملتهم ...

وصلت مدينة طنطا بعد منتصف الليل بساعتين فرميت الطربوش وأخرجت أدوات
المشيخة فلبست العمامة ووضعت الشال على كتفى ، فرجعت شيخاً ، ثم بحثت عن مكان أبيت



فيه وعن طعام لسحورى فوجدت بائع طعمية
وسلطة فأكلت ويممت وجهى نحو فندق
الأقصر المعهود! لأنى اعتدت عليه ، وقد
سجلت اسمى فيه « إبراهيم البسيونى الحامى
الشرعى بالحيزة » أى نفس الاسم ونفس اللقب
وذات المهنة !

وفى الصباح المبكر غادرت الفندق وأخذت
أتجول فى الحارات كاليهودى التائه إلى ما بعد
الظهر ثم فطنت إلى مسألة ، وذلك أن الدكتور
خورى كان قد أخبرنى أن « فلانا » سيسافر
اليوم إلى بيروت، فذهبت إلى مكتب التلغراف
وأبرقت للدكتور بأن يوصى « الدكتور »
فلان - وما هو بدكتور - بأن يمر بصيدا
لعيادة أقارب المعلم زكى - أى قرينتى - وأن يصف
لهم حالتى الصحية ويطمئنهم ويطمئن المعلم زكى
عند وصوله إليهم بالسلامة ، وكان الإمضاء هو
هو « إبراهيم البسيونى » .. وقد مر التلغراف
على الرقابة كالمعتاد ، ولم تشك فيه مطلقا .
أما لو اشتبهت به وأمسكت الشرطة السرية
الإنكليزية أو الجستابو بالدكتور خورى

ورجعت شيخاً كما كنت

وسألوه من هو البسيونى ومن هو المعلم زكى فما أظنه يستطيع لهذا التلغراف تفسيراً . فشعرت
بأنى أخطأت بإرسال البرقية وعاهدت نفسى على عدم العودة إلى مثلها .

وبعد ذلك سافرت إلى المنصورة ولكنى لم أذهب إليها رأساً ، بل قصدت أولا مدينة
طلخا وهى أمام المنصورة تماماً ولا يفصل بينهما إلا النيل ، فاتصلت باحمد حسن بدر بالتليفون
وطلبت منه أن يستقبل عميله فى المحطة ، ولا عميل هناك ولا محطة ، ولكنه اصطلاح قديم

بيننا وأما المحطة التي أعنيها فهي إطلال محطة المنصورة القديمة التي كانت بجوار طلخا على
البر الغربي قبل أربعين سنة تقريبا ، وقبل بناء جسر المنصورة . ولن يخطر على بال متلصصي
السلطة أن المحطة التي يعنيها التكلم هي تلك المعالم والأنقاض ...

إلى العش القديم

وقابلت أحمد افندى في المكان المعين فسألته هل من حوادث مريبة ؟ فقال كلا . وذهبتنا
بعد الظلام إلى المنزل ، وقد أعيدت الأمتعة إليه ، فحدثته عما لقيت ثم استدعيت الأستاذ
باكثر فأكملت السهرة معهما ...

وشاع الخبر في الحارة إن « الشيخ محمد المغربي » قد رجع من اسكندرية ! وأنه
سيستقدم عائلته ، وأنه سيفتح دكاناً ، فأعجبني هذه الإشاعة وأخذت أعززها بالطواف مع
أحمد حسن بدر في الحارات المجاورة لنسأوم على استئجار دكاكين ، فتارة تعجبنا دكان ثم
نتركها بحجة أن أجرتها غالية ، وتارة نترك أخرى لأنها غير مناسبة . فساعدنا ذلك التظاهر
بأخذ الدكان على إقناع بقية الجيران بأن حالة الشيخ محمد طبيعية . أليس أن السيد عبد المجيد
سالم قد شهد لي قبل ذلك بأنني تاجر « بطانيات » في الإسكندرية وأنه اشترى مني مقداراً
منها ؟

التصوير

وخطر لي أن أرسم نفسي وأنا في ذلك الزى والسحنة الغريبة فقصدت إلى محل جورج
جبريل بشارع السكة الجديدة وتصورت ثم زرته بعد مدة وتصورت مرة أخرى في شكل
آخر ثم في شكل آخر . فظن الرجل أنني شيخ ممسوس ... فقال له مساعدته إنه يستنتج أنني
ممثلي تياترو ...

حكمदार بوليس المنصورة

وتوفي نجل أحد أقارب أحمد حسن بدر وكان لا بد « للشيخ محمد » من حضور المآتم
وإلا حصل عتاب وملام . وكان المتوفى ابن لعباس عقل فذهبت إلى دار الفقيد وجلست في
الصالون بين المعزين وكان ممن حضروا المآتم حكمदार بوليس المنصورة وأركان الحكومة فلما

رأيت رجل الشرطة الكبير استسحتت فرصة وتسلمت منصرفاً...

وأقام السيد أحمد جودة نقيب الأشراف حفلة الذكرى السنوية لحرمه، وكان لابد «للشيخ محمد» من حضورها فحضرها. وكان لابد من إطالة الجلوس عنده فاعتنمت فرصة محيىء دفعة من الناس فانتقلت إلى الشرفة، وبذلك تمكنت من المكوث إلى آخر السهرة بدون أن أخشى أية مباغطة.

ملاحظات وأخبار ومشاهدات

— بلغنى أن الحكومة تضايق عزيز باشا المصرى وأنه قد مرض فى السجن ونقلوه إلى مستشفى الدمرداش ووضعوه فى نفس الغرفة التى كنت أنا فيها!

— قرأت فى رحلة ابن بطوطة أنه لما زار مصر استغرب وجود الناس فى الحمامات العامة عرايا بدون تستر، وأنه شكى ذلك للملك الظاهر برقوق، فأمر الملك بأن يستتر الناس فى الحمامات. وكنت لما قدمت مصر لأول مرة قبل ثلث قرن ودخلت الحمام العمومى لحظت هذه الحالة فاستنكفت عن الاستحمام وانصرفت، ولم أدخل هذه الحمامات بعد ذلك، فيظهر أن إهمال أوامر الحكومة عندنا شئ قديم، ومنذ القرون الوسطى!

— رأيت بائع موز فسألت عن الثمن فإذا بالبائع يطبطب على كتفى ويصرفنى قائلاً: «إمشى ياسيدنا الشيخ فهذا الموز لا ينفعك»... ولما انصرفت سمعته يقول لجاره «ما أوقع هؤلاء المشايخ الذين يتهجمون على الفاكهة الغالية، الله يقلل من عددهم!».

— كنت مرة أسير فى شارع البحر فى المنصورة فلمحت صديقى محمود بك أبو الفتح صاحب جريدة المصرى جالساً فى شرفة فندق وندسور، فكدت أحياه وأجلس معه قليلاً، ولكنى عدلت عن الظهور لأن ذلك أحزم وأسلم عاقبة. إذ لا أضمن أن يكون معه رفقاء فيباغتوننى معه.

— كلفت أحمد حسن بدر بأن يستعير لى من مكتبة البلدية كتاب «الاستقصاء فى أخبار المغرب الأقصى» فأحضره.

— لحظت أن الذين يجلس معهم بالقهوة يستغربون نفاسة السجائر التى أدخلها ونفامة

العلبة التي أحملها ففهمت أنها غلطة منى تلفت النظر، فصرت أشتري سيجارى من دكان بعيدة ثم أخرجها من العلبة وأخفيها منفردة في عبي، فكلمها أردت التدخين أمد يدي إلى عبي وأخرج سيجارة واحدة فيظن الذي رآني أنني لا أملك سواها .

— أغلق رئيس الوزراء ٢٠٠٠ مطبعة في القاهرة بسبب ظهور منشورات ضد الإنكليز، فجاء بسبب إغلاق هذه المطابع حوالى خمسين ألف عامل .

— قرأت في أخبار مشاهير الهاريين من الدول ما رواه ابراهيم بن عبد الله بن الحسن من آل البيت وكان أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي قد هدر دمه ، فهرب وخط رحاله في الموصل فزارها الخليفة وأقام فيها مأدبة عظيمة للناس ، قال ابراهيم : فدخلت مع الناس وأكلت ثم انصرفت بدون أن يعرفني أحد . وهي جسارة من هذا الهارب لا مثيل لها .

— قرأت لأبي الصلت أمية بن العزيز الأندلسي هذا البيت .

تفكر في نقصان مالك دائماً وتغفل عن نقصان جسمك في العمر
فتمنيت لو عاصرت هذا الشاعر لأقول له والله إن العمر ما عاد يهمنى طوله ، بل صرت
أتمنى قصره ، وإني لا أفكر وأنا في هذه الحالة إلا في نقصان المال الذي في جيبى والخوف من
نفاده والاحتياج إلى الناس !

— لا يزال الإنكليز يتواضعون للأمم والشعوب لشدة ما هم فيه من انكسارات متوالية
في الحرب ويتذللون للناس فتذكرت بيتين لابن الرومي في قوم من هذا النوع :
خنازير ناموا عن المكرمات فأيقظهم قدر لم ينم
فيا قبحهم في الذي خولوا ويا حسنهم في زوال النعم !
لأنهم إن انتصروا في هذه الحرب الثانية والعاية بالله فسيكونون أفضع وأشره مما كانوا
قبلها .

— كنت مرة في السينما مع الأستاذ با كثير فغمزني بيده ، ثم ألقى في أذني أن جنديا
انكليزيا يجلس خلفنا مباشرة ، فقلت له إنني لا أخشى منه شراً لأنه لن يعرفني ، ولكن
الخوف هو من الجواسيس المسلمين ...

شبهة واضطراب

انتهت إلى ثرثرة تدور حولي في الحارة من شخص عاطل حشاش يكتب عرصات ويقول إنني جاسوس ألماني ! فاضطربت وكدت أجن، لأن هذه الكلمة وحدها لو وصلت إلى أصغر مخبر للبوليس لكانت كافية لهلاكى . فاحترت كثيراً في كيفية إجماع لسان هذا الأحمق ، فاستشرت أحمد حسن بدر فاحترار مثلى ، وأخيراً فتقت لى الحيلة أن أقنعه بطريقة عملية بأننى من أبعد الناس عن هذه الصفة . فكلفت أحمد بأن يستدعيه إلى القهوة التى نجلس فيها . فلما حضر قلت له : بلغنى أنك تشتغل فى الحمامة ، فأحب أن أستشيرك . فأظهر استعداداه لخدمتى وقدرته على مساعدتى . فذكرت له إن الحكومة صرفت تعويضات للذين تكبوا بحوادث ضرب الإسكندرية بطائرات الأعداء فكيف السبيل إلى الحصول على حقوق بعد أن فقدت فى الغارات دكانى وما فيها ومسكنى الذى يقع فوقها فى حى الميدان، فقال سأكتب لك عريضة للحاكم العسكرى العام حسب الأصول وأجعلها مؤثرة . فقلت له: هل أنت مستعد لأن تذهب معى للإسكندرية لمواصلة السعى إن أهملوا طلبنا ؟ فقال طبعاً وإلا فكيف أكون من أهل القانون والقضاء !

ثم تناول ورقة وكتب باسمى عريضة سقيمة الإنشاء كثيرة الغلط فى الإملاء والصرف والنحو ، فأمضيتها بعد أن ألصقتها عليها ورقة « دمغة » بنصف قرش، وبعد ذلك مددت يدي إلى عبي وأخرجت قطعة نقود بخمسة قروش ففحصتها بعناية كما يفحص البخيل دراهمه ، ثم ناولتها « لعوض » وقلت له هذا مقدم الأتعاب ، وعند ظهور أية نتيجة سأقدم لك الباقي . ثم افترقنا بعد أن وضعت العريضة فى عبي ...

بهذه الطريقة أقنعت هذا الشقشاق بأنى منكوب قادم من الإسكندرية وأنه لا صحة لكل ما كان يتصوره عنى ..

أكتب هذا بعد عشر سنين ، وقد أخرجت العريضة التى نحن بصدددها من محفوظاتى ووضعيتها أمامى فضحكت من سخافتها وكدت أنشرها فى هذا الكتاب مصورة بالزئكغراف لتكون فكاهة الفكاهات ، ويكفى أن يعرف القارىء أن مطلعها كان هكذا حرفياً .

« حضرت صاحب الدولة رئيس وزارة الحكومة وحكامها العسكري » .
وقد جاء في خلال العريضة ما نصه « ويقتضى الآن شئلى برعاية دولتكم وصدور أمر
دولتكم لأولو الأمور بصرف التعويضات لتصلح حياتى الداخلية وإعادة أحوالى ولا يخفى
على دولتكم اننى بلا مأوى أصفر اليدين » الخ .

لقد أصبح « كاتب العرضحالات » بعد ذلك من أكبر المدافعين عن سمعتى فى الحارة،
وكان يحدث المتشككين بلهجة الخبير المطلع بأننى لست كما يظن البعض ، فبدأت الحالة
من هذه الناحية ، وقد صدق ! أليس انه كاتب العريضة البليغة وقابض القروش الخمسة ...
والغريب أن كاتب العرائض صار كلما قرأ فى الصحف أن الحكومة ستصرف تعويضات
للمنكوبين يظن أن ذلك بفضل عريضته فيجىء يشرنى بقرب الفرج ، فلما تكرر ذلك منه
خفت أن يخطر لنا مشكلة جديدة فاستكتبته عريضة للاستعجال ففعل ، فنقدته خمسة قروش
أخرى ، فازداد يقينه بحقيقة حالى ...

قوة المظلوم

قرأت فى التاريخ الأندلسى أن الملك المنصور بن أبى عامر أحد أفذاذ ملوك الأندلس
قد حبس خادماً غضب عليه ، وفى أحد الأيام سأل عمن طال حبسهم فأطلقهم إلا ذلك الخادم
وقال يجب أن يبقى فى السجن إلى أن يلحق بجهنم ! فبلغ الخادم ذلك الإصرار فدعا على
الملك المنصور واستعان عليه بالله .

وبعد أيام أخذ الملك يشعر بأرق لا يكف عنه ، وكان يرى فى المنام شبحاً كريهاً يأمره
بعنف بإطلاق الخادم ويتوعده . ولما تكرر ذلك طلب المنصور ورقة وكتب وهو فى الفراش
بإطلاق الخادم قائلاً : « هذا طليق الله برغم أنف ابن أبى عامر » .

وقد ذكرنى ذلك بمحمدى محبوب باشا ورئيسه الأكبر فقد كانا يقولان عنى للناس
إننى محبوس برغم أنفيهما وبأمر الإنكليز ، ولكنهما نكلابى وبأهل بيتى وأوصلونا إلى حال
أشد من جهنم ، فهل الذى يغضب عليه الإنكليز يجب أن يحقد عليه أعوانهم أكثر من حقد
الإنكليز ؟

إستقرار

حياة هادئة وخواطر

— بلغنى من أخبار القاهرة أن الأستاذ أحمد حسين وقع فى يد الشرطة وأنهم قبضوا عليه فى طنطا بسبب غلطة من أصدق الناس إليه، فقد تعقبوا الأستاذ إبراهيم الزيدى المحامى ليلاً ونهاراً، لأنه من أركان حرب مصر الفتاة، إلى أن رأوه يتنكر ويسافر إلى طنطا فلحقوا به فلما دخل الدار التى يسكنها الأستاذ أحمد حسين دهموها وقبضوا على الاثنين ...

آه، لقد قبضوا على جميع الهاربين إلا أنا، فهل أقع أيضاً فى قبضتهم !

— كلفت الأستاذ على بالكثير أن يستمير لى كتاب نفح الطيب من مكتبة البلدية فكان لى خير سلوى . ومن طرائف ما قرأت فيه حكاية عن وضع بطاقات الزيارة فى الأعياد والمناسبات السياسية بأبواب الأصدقاء والانصراف بدون زيارة، كما هو الحال الآن، فاتضح لى أن الأندلسيين قد سبقونا وسبقوا الأجانب فى هذه الأساليب بألف سنة، وكنانظنها طريقة أوروبية . فقد قال شاعر الأندلس يعاتب صديقاً على وضعه بطاقة الزيارة بباب الدار :

يا زائراً زار وما زارا كأنه مقتبس نارا

مر بباب الدار مستعجلاً ماضره لو دخل الدارا

نفسى فداء لك من زائر مازار حتى قيل قد سارا !

وبمناسبة البطاقات أقول إننى لما طبعت بطاقتى فى المنصورة عرفت صاحب المطبعة، فقد كان عاملاً عندى بمطبعة الشورى بالقاهرة قبل ذلك بعشر سنين ولكنه لم يعرفنى ...

— اشتدت الحرب، ويزحف الألمان على موسكو بجحافل كثيفة، ويرقب العالم هذه المعركة العظيمة التى ستقرر مصير الدنيا بكل تلهف، فهل تسقط موسكو ونشهد هذا الانقلاب العالمى ؟ ...

زائر

كنت جالساً فى غرفتى فإذا بحركة عند الباب فأصغيت فسمعت كأن يدا تحسس على باب الشقة وكان الباب يهتز، فقممت وفتحت فإذا بقط أبيض ضخم قد دخل كأنه إنسان يدخل داره بدون أن يظهر على ذلك القط أنه يدخل الدار لأول مرة . فأغلقت الباب خلفه وتأملتة فإذا

هو قط عجوز أهتم ووجهه « مخرشم » ! والظاهر أنه خارج الآن من معركة مع أبناء جنسه ! وبعد ذلك رأيت القط يطوف الدار كأنه يستطلع حالها ويتفقد لها ، ثم وقف أمامي وأخذ يموء كمن يطلب طعاماً ، فأعطيته قطعة من الخبز فأكلها بصعوبة ثم مال على صحن فيه قشور « شمامة » فبرك أمامها وأخذ يأكلها بشره ! وهي أول مرة في حياتي أرى فيها قطاً يأكل « الشام » وبعد أن شبع انبطح على الأرض وأخذ يلحس جسمه ، وبعد قليل التف حول نفسه ونام مطمئناً . وبعد ساعات نهض ووقف عند الباب وأخذ يموء ففتحت له فأنصرف !

لقد ظل هذا القط يزورني من حين إلى آخر طول مدة إقامتي في المنصورة ، فكنت أستأنس به لما رأيت اطمئنانه لي ! فلم أشك في أن هذا القط قد ولد وعاش في هذه الدار ، فهي وطنه إذن ...

ومما يذكر عن هذا القط أنه ذكي نبه ، لا يزورني إلا في أوقات الطعام ، فكلما جلست للأكل سمعته يموء وراء الباب ، فإن أبطأت عليه استعمل أظافره في « خربشة » الباب وهزه إلى أن أفتح له !

ولكن هذه العادة لم تعجبني كثيراً ، لأنني لو أردت لسبب ما أن أنكر نفسي وأصم أذني عن طرق الناس للباب ثم جاء هذا القط وألح في الدخول فهو يفضحني ويكذبني ! لأن حركته تؤذن بوجودي في الدار فماذا أصنع ؟ لا شيء ! ولذلك سكت ، ولا بد مما ليس منه بد ! وزارني أحمد بدر يوماً فوجد القط عندي ، فلما رآه ناداه باسم « فريد » فإذا به يهرع إليه ويتمسح به إذن فهو يسمى « فريد » عاشت الأسماء ... وقد أخبرني أحمد بدر أن هذا القط معمر ويقرب عمره من عشرين سنة وأنه أشقى قطط الحارة ...

تأملات ونظرة في حالة الشرق الأقصى

إذا نظر الباحث السياسي إلى خارطة الشرق الأقصى تأخذه الدهشة من ظاهرة مهينة للشرق كله ، وقائلة لليابان زعيمة هذا الشرق . وذلك أن انكسرتا تحكما هناك الملايو وبرما وهونكنغ وبورنيو الشمالية وبعض الجزر وشنغاي وجزر فيجي وسيلومون وفنكس وساموا واستراليا ونيوزيلاند ونصف غينيا الجديدة وجزر كوك الخ . وتحكم أمريكا جزرها هاواي وبورتوريكو

وميدواى وكوبا وويك وجوام والفيلبين. وتحكم فرنسا الهند الصينية وهاينان وجزر تواموتو وكارولين وتاهيتى ومارشال وهيريد الخ. وروسيا تحكم جزر الوشيان ونصف سخالين وكامتشكا وتحكم هولندا جزر الهند الشرقية «جاوة» أو اندونيسيا وبورنيو وسومترا وكوراسو. وتحكم البرتغال جزر تيمور الخ وهكذا. فهذه الدول الطفيلية الكبيرة منها والحقيرة تأتى من كل أنحاء العالم لتستعبد ذلك الشرق فتسلب وتسرق وتقتل وتذبح، بينما اليابان كلما أرادت امتلاك قطعة من ذلك الشرق الفسيح لتوسع على شعبها المزدهم الذى تفص به جزرها الضيقة، قامت الدول الطفيلية فى أوروبا صائحة: هذا اعتداء، هذه شراهة، هذا طمع بأملاك الغير! فما أشبه موقف اليابان فى الشرق وتضييق الدول الاستعمارية عليها، بموقف ألمانيا بأوروبا وتضييق دول الاستعمار عليها. وهنا لم يسع اليابان إلا امتشاق المدافع لطرد هؤلاء الطفيليين من الشرق الأقصى لتنظيفه منهم...

نقلت ما تقدم عن ورقة كتبها يوم كانت أعلام اليابان تظلل شرق آسيا بعد تطهيرها من رجس الاستعمار، فأجبت إثباته كما هو، لأنه من وحى تلك الأيام، وما كان يخلج فى صدورنا من آمال خابت، وأحلام تحولت إلى أضغاث! لأن هذا التحرير الذى رأيناه لآسيا وجزر المحيط لم يتم مع الأسف، فاليابان قد انكسرت فى نهاية الأمر، وعادت تلك الأقطار المحررة إلى ربة الاستعمار، بل إن اليابان نفسها أصبحت بعد ذلك بأربع سنين تحت كل كل الاستعمار، فوأسفاه، لقد انقطع الأمل وسيرسف العالم تحت أقدام المستعمرين دهوراً طويلة.

وجه فرنسا من جديد

إننى وأنا أسطر هذا الفصل فى آخر سنة ١٩٥٠ أرى فرنسا قد بعثت من جديد، وقد ظهرت فرنسا الجديدة بوجهها الكريه أشد استعمارية مما كانت قبل الحرب وأكثر وقاحة. وها هى من ديسمبر سنة ١٩٤٦ إلى الآن وهى ترسل فلول جنودها وبقايا طياراتها إلى الهند الصينية وتضربها بالمهلكات بحجة تمدنها وإذاقتها طعم الحضارة الغربية التى ذاقها السوريون والمغاربة وعرفوها، لاسيما فى سنة ١٩٤٥ لما ضربت مدينة دمشق مرة أخرى، وذبحت فى خراطة وسطيف وقلالة فى الجزائر ثمانين ألف نسمة.

والغرض من هذا التمدن أن تظل فرنسا تتحكم بالخلق مثل أستاذتها إنجلترا ومثل أستاذة الجميع هولندا ، التي هي أقدم الدول الأوروبية في الاستعمار ، وحسبك أن تعرف أنها حكمت أندونيسيا نحو ٣٥٠ عاما أو أكثر قليلا . إن اللصوص والأشقياء وقطاع الطرق يتربصون للناس في الزوايا والأوكار ويتسلقون الدور في الظلام ، فإن أمسكت بهم اعترفوا بأنهم لصوص وطراين اعترفوا هذه المهنة لأنها مهنتهم التي يعيشون منها . وأما الدول الأوروبية المتقدمة المتحضرة التي تمن على عباد الله بوجودها ولا تعرف ربها إلا في أيام هجوم الألمان عليها ويدوسونها بنعالهم ... إن هذه الدول المتقدمة لا تستحي عندما تقطع البحار والقارات النائية للاعتداء على الشعوب وسرقة أوطان الناس وسلبهم ونهب أموالهم وتقتيلهم . فإن سألت هذه الدول عن الموجب لأفاعيلها أجابتك بأنف شامخ ووجه صلد « بأنها تمدن هذه الشعوب وتحافظ عليها من الغير ومن بعض أهلها أيضاً حتى لا يذبح بعضهم بعضاً » ... ثم تأخذ مال الأمة الفلانية لتضرب به الأمة الفلانية ، وتجند رجال هذه لتخضع بهم أمة أخرى ، ثم تعي ، أولئك وهؤلاء لتضرب بهم الألمان !

هذه هي أساليب دول الاستعمار الإجرامية ، وهي لا تزال تكرر الآن كما كانت ترتكبها في القرن الماضي بدون خجل ، ناسية أننا في منتصف القرن العشرين .

ولكني على كل حال أرجع وأردد المثل الدارج وهو أن الحق « ليس على الذي زرع السطح بل على الذي أعطى البذار » ...

فلو أن هذه الأمم العربية والإسلامية والبرهمية والبوذية أحست على الأقل بأنها من الجنس الآدمي أو أنها أرق من المواشي لما احتاجت للتخلص من الاستعمار إلى أكثر من استعمال الأيدي والعصى والأحذية ...

أخبار وملاحظات

قرأت أن الجنرال فييجان القائد الفرنسي الاستعماري الشهير قد خطب في جموع من جنود المغرب العربي يتملقهم ويخدعهم ثم ختم خطبته لسخافة عقله بأن أمر فرقة الموسيقى بعزف نشيد المرسيليز الفرنسيين ... فلو كان هذا الأرعن على شيء من الذوق لما أسمعهم ذلك

النشيد المنكر الذى يؤذى شعورهم أو لو كان عنده ذرة من الدهاء لأمر أحد القراء بإسماعهم سورة من القرآن ليكمل الخديعة كما يصنع أساتذته الإنكليز فى مثل هذه المناسبات !
وبهذه المناسبة أقول إننى سمعت فى الراديو خطبة لإمام دينى فى الجيش المصرى يحدث الجنود عن بطولة جيش اليونان وجهاد الأمة اليونانية وإخلاصها لقضية الحلفاء أخزاه الله .
— يصدع ابراهيم عبد القادر المازنى وعباس محمود العقاد وسعيد باشا لطفى آذان الناس بخطبهم ومحاضراتهم فى الراديو مدحاً فى الإنكليز وطعنناً بالألمان ، وسرد محاسن الإنكليز... وكانوا يقبضون أجرة باهظة لقاء هذه الدعاية للاستعمار ، فياويلهم من أمتهم التى يخدعونها من أجل المال .

وقد حدث بعد ذلك حادث يجب أن يسجل ، وهو أنه لما انهزم الإنكليز فى « العلمين » وسمع عباس العقاد بأن الألمان سيدخلون القاهرة بعد أيام ، فر إلى السودان ...
ومما يحسن تخليده أيضاً أن العقاد نصح صنوه المازنى بأن يهرب معه فأبى ، فقال له العقاد إن الألمان سينكلون بنا ، فقال المازنى بل ينكلون بك أنت ، وأما أنا فسوف أجعل محاضراتى فى الراديو لحساب الألمان ، وبذلك أستريح وأظل فى بلدى ...

هذا طرف من أخلاق بعض المشهورين من الناس فى الأسف ويا لضيعة الأخلاق .
— كان الجنرال كاترو قد وعد السوريين والبنانيين بالجلاء عن بلادهم إن ساعدوا الحلفاء فإذا بالمستر إيدن وزير خارجية بريطانيا ينكر تلك الوعود ويتنصل منها ، فى حين أن السفير البريطانى بمصر هو الذى كفل كاترو وأفضى بتصريح مكتوب ، وقد أذاعته الحكومة البريطانية رسمياً .

— سألنى جارنا فى الحارة « زكى الحرون » تاجر الجبنة والمخلل : لماذا لا تشتغل يا شيخ محمد ؟ فقلت له إننى أسعى للحصول على رخصة من إدارة التموين لبيع الدقيق ، ثم طلبت منه المساعدة فى ذلك وإرشادى إلى دكان فى جهة مناسبة فوعدنى بذلك ...

— أنا متضجر متبرم من حياة الوحدة والانفراد ، فذكرنى فى ذلك بحكاية قسمونة اليهودية الأندلسية بنت اسماعيل اليهودى الأديب الشاعر ، فقد طال انتظارها لشريك حياتها

المرجو ، ولكن لم يخطبها أحد ، وكان عندها غزالة ترتع وحدها في الحديقة بدون أليف فقالت
قسمونة :

يا ظبية ترعى بروض دائماً إني حكيتك في التوحش والخور
أمسى كلانا مفرداً عن صاحب فلنصطرأ أبداً على حكم القدر
فسمعها والدها إسماعيل فحأ وقبل رأسها قائلاً : وحياة العشر كلمات لأنت أشعر مني ثم
سعى لتزويجها وزوجها .

— لا تزال محاكمة عزيز على باشا المصري دائرة أمام المحكمة العسكرية فوقف أمام
الاثام وقفة بطولة وصراحة وأخذ يسرد فضائح الإنكليز وسوء تصرفهم في الجيش المصري
ودسائسهم على مصر ، فحسدت الباشا لأنه حوكم واستطاع الكلام ، فكلم كنت أتمن لو حوكت
فأفصح الإنكليز أشنع فضيحة .

— قررت بلدية ماردين في تركيا معاقبة كل من يتكلم اللغة العربية بغرامة ٥٠ قرشا
وفي المرة الثانية بمئة وفي الثالثة بالحبس ... ولكن لماذا كل هذه العداوة من الكمالين للغة
العربية ، لغة دينهم ومدنيتهم ، والتي نقلتهم من مرتبة القبائل إلى مرتبة البشر ؟ وهل يعاقبون
من يتكلم باليونانية أو الروسية أو الإنكليزية ؟ كلا ، بل إنهم يعلمون أولادهم في المدارس لغات
الأجانب جميعاً لكن بشرط أن لا تكون العربية بينهما ...

— وردت أخبار من فلسطين أن حالة الدكتور أمين رويحة الصحية قد ساءت كثيراً
لسوء معاملة الإنكليز له في سجنه ، وأنه لا يزال مريضاً وأن حالته خطيرة لطف الله به ، هذا
وقد بلغني أن طه باشا الهاشمي الوزير العراقي الشهير والموجود في تركيا كلاجئ سياسي أخذ
يرسل إلى أسرة الدكتور أمين بمصر مرتباً من ماله برغم ظروفه الحرجة وهذا منتهى المروءة .
— قرأت في الجرائد أن انكلترا قد أرغمت حكومة اليمن على طرد جميع رعايا المحور
من بلادها فطردتهم ، ثم أُنذرت حكومة الأفغان بمثل ذلك فصعدت . ثم أرسلت قوة بحرية
إلى ميناء جدة وطلبت من الحكومة السعودية تسليم معتمد إيطاليا فسلمته . ثم اجتاحت
انكلترا بلاد إيران واستولت عليها وقبضت على الإمبراطور رضا بهلوي ونفته إلى جنوب

أفريقيا « حيث مات هناك بعد ذلك ودفن بمصر » كما أرغمت حكومة إيران على تسليمها عدداً كبيراً من اللاجئين السياسيين من عراقيين وفلسطينيين وسجنتهم في الأهواز ثم أرسلتهم إلى روديسيا بجنوب أفريقيا .

والمعجب أن الإنكليز ظلوا ينشرون بعد هذا العدوان على البلاد الإسلامية أنهم أصدقاء الإسلام وحلفاء المسلمين ، وأعجب من هذا أن المسلمين كانوا ولا يزالون يقبلون هذا الكلام ويصدقونه ! (١) .

حبلىة

أقذت من أطفال الحارة قطرة رضية : وكان الدم يسيل من أنفها ومن ذيلها . فأخذتها إلى مأوى ومسحت جروحها وجرحتها قليلاً من اللبن ، فلما شبت أخذت تلحس نفسها ، ثم لعبت قليلاً ، وبعد ذلك نامت ، وجاء القط العجوز « فريد » فلم أفتح له الباب حتى لا يبطش بالقطعة الجريحة الرضية ، ولكن الخبيث أبى أن ينصرف واستمر يهز الباب فقامت وفتحت له فدخل وأخذت أقرب ماذا يصنع مع القطعة الصغيرة ، وقد نويت أن أضربه وأطرده إن اعتدى عليها بالأذى . ولكن شيئاً من هذا لم يقع ، لأن « فريد » اقترب منها وأخذ يشمها ثم انصرف إلى ناحية أخرى ، أما القطعة فقد نهضت من نومها وشخرت في وجهه وازبهرت ثم تنفجت ونفشت شعرها ورفعت يدها الصغيرة الدقيقة مهددة معربة ونفخت في وجهه ! نخفت أن يتناولها فريد بهبشة من مخالبه الحاد فيقتلها ، ولكنه تظاهر بأنه لم ير ولم يسمع ، بل تركها مترفعا عنها شاعراً بقوته وضعفها ، فلو كانت قطعة كبيرة لمزقها إربا ، ولا سيما إنها تقتحم عرينه وتتطفل على بيته . وأما « فريد » فقد انصرف عنها متثاقلاً واختار بقعة مشمسة فاضطجع ونام غير مبال بعربة الصغيرة . شأن القوى الواثق من نفسه ، وأما الصغيرة فقد لبشت غاضبة بل خائفة تموء وترجر مستمدة من الضعف قوة ، شأن الصعلوك وهو يتعاضم ليكمل مركب النقص ...

(١) والأغرب من هذا وذاك أن المسلمين لا يزالون ينضمون إلى جانب انجلترا عند كل تصويت يجري في هيئة الأمم ، وبعض المسلمين يعلن حتى الآن سنة ١٩٥١ انحيازه للإنكليز وأميركا ضد روسيا ، برغم جناية أميركا وانكلترا على فلسطين ونزعها من أيدينا وطرد أهلها منها وتسليمها لعصابات من أشقياء اليهود ...

فقلت في نفسي لو أن الأمم الصغيرة تصنع مع الدول المستعمرة ما صنعتها هذه القطعة الضعيفة مع القط الكبير ما كانت تلك الدول تستطيع البقاء فوق رقابها ، هذا مع العلم بأن القط « فريد » كان في بيته ووطنه ...

لقد كان لي من رعاية القطعة الرضيعة لذة نفسية وسلوى روحية ، أليس أنى فقدت طفلي « جهاد » وأنا في السجن ؟ من هنا تسربت الشفقة إلى القطعة الصغيرة التي أخذت تكبر وبدأت تفهم ، بدون أن تدري ماهي الدنيا إلا أنها هي وأنا ، وأن العالم كله هو المأوى الذي نحن فيه ، فهي محبوسة مثلي ، ولذلك سميتها « حبيسة » فكانت سعيدة بهذا الاسم ، تركض نحوى إن سمعتني أناديها به . وقد دربتها على الابتعاد عني إن نمت ، وأن تقفز إلى كتفي إن جلست ، وتقعده عليه وتجعل فيها نحو أذني تسمعني هرهرتها وبربرتها ...

ليت الأنام قطاط إن قططنا لما تزل لحفاظ الود عنوانا

تحملت قسطها في السجن صابرة لم تشك جوعاً ولم تستجد إنسانا

ولم يقع شجار بين حبيسة وفريد مطلقاً ، بل كانا يلعبان معاً ، فتتجنى « حبيسة » على « فريد » كما يتجنى الصغير على الكبير ، كما أن « فريد » كان يلاعبها بصبر كما يلاعب الكبير طفله الصغير ...

هذه الغربة

لقد طال عذابي النفساني والجسماني من هذه الحياة المملة المشوبة بالترويع والحذر وتنبه الأعصاب ، خوفاً من مصادفة توقعني في أيدي الأعداء . وقد شعرت باشتياق شديد إلى اخوتي وإخواني في الوطن القديم ... « فلسطين » وأقاربي وأصدقائي هناك . فياترى لو قدرت لي الحياة وعشت إلى ما بعد الحرب وزرت مسقط الرأس ، فهل أجد أحداً من أبناء جيلي ، أم انني أبحث عنهم فلا أجدهم ؟ فيالها من غربة في هذه الدنيا أن يفقد الإنسان أبناء جيله أيضاً ، كما أنني اشتقت إلى أصدقائي وعشرائي في القاهرة الذين قضيت حياتي أنعم ب صداقتهم وجبههم وقد وقع نظري على شعر لأبي الحسن علي بن موسى الذي تم كتاب « المغرب في أخبار

المغرب « لما زار مصر ونأى عن وطنه ثم عاد إليه بعد زمن فقال :
 أصبحت أعترض الوجوه ولا أرى ما بينها وجهاً لمن أدريه
 عودى على بدئى ضلالاً بينهم حتى كأنى من بقايا التيه
 ويح الغريب توحشت الحاظه فى عالم ليسوا له بشييه
 إن عاد لى زمنى اعترفت بحقه إن التغرب ضاع عمرى فيه
 وها أنا اليوم أركب الأسنة مرغماً ، وأعيش فى مخبئى بالمنصورة فى غير بيتئى ، وأعاشر
 من ليسوا على شاكلى ، وأتزيا بغير زنى ، وأتسمى بغير اسمى ، وأتكلف غير شأنى ، حتى
 أصبحت أرى حسناً ما ليس بالحسن ...

أخبار مبهمه ومقلقة

أخذت كتاباً من الدكتور مصطفى بك بشناق يقول فيه « إن الطبيب يشير على بالاستراحة
 أسبوعين بشرط أن أترك دكانى وأسافر إلى مكان آخر لتبديل الهواء ، وإنه هو أيضاً سيتغيب
 مثل تلك المدة ويطلب أن لا أكتب إليه إلا بعد الأسبوعين » .

هذا كلام صريح بوجوب الفرار من الممكن الذى أنا فيه فلماذا ؟ وإلى أين أذهب ؟
 لقد انشغل بالى ، فيأتري هل هناك من خطر ؟ وأسرعت باستشارة أحمد حسن بدر وبا كثير
 فى الأمر ، ثم تركت المنزل تحت حراستهما وعمدت إلى الفرار من المنصورة ، فزرت بعض أنحاء
 الوجه البحرى والإسكندرية . وبعد نهاية هذا النفي الجديد رجعت وأخذت أرقب الأخبار
 من مصر ، لأنه لم يقع عندنا شئ فى غيابى ، وظللت فى قلق ...

— أعلن الإنكليز رسمياً أن لديهم الآن بواخر أكثر مما كان لديهم قبل الحرب بأربعة
 ملايين طن ، فيأتري هل زرعوا الأرض فأنبئت سفناً ؟ يالهم من كذايين مضللين !

— اشتدت المجاعة فى القطر المصرى وصرنا نبحث عن الخبز فلا نجده إلا بصعوبة ، وإنه
 لفطيع من الإنكليز أن يختلسوا مواد الغذاء من مصر فتصبح فى مجاعة وهى من أخصب
 بلاد الدنيا . وقد غضب جلالة الملك من تقصير الوزارة التى سلمت للإنكليز بكل شئ حتى
 بالمواد الغذائية ، ولأول مرة فى تاريخ مصر نسمع أن الملك يذهب إلى مجلس الوزراء بغتة

ويرأس الجلسة بنفسه ويصدر الأوامر لتوفير الخبز للشعب .

— احتج تشرشل وروزفلت على فظائع الألمان بفرنسا ، وكم تمنيت أن أسمع احتجاجاً على فظائع من الألمان تنزل بأمريكا وبنجلترا ، وما أجمل أن يسمع المظلوم استغاثة الظالمين ممن هو أظلم وأغشم !

— من لطائف المفارقات التي حدثت في هذه الحرب أن ملك الإنكليز تواضع وتواضع لدرجة أنه أرسل رسالة يهنئ بها الشيخ تاج الدين الذي عينته فرنسا رئيساً للجمهورية السورية كما أنها أول مرة نسمع فيها أن رؤساء الجمهوريات يعينون تعييناً وبقرار من أحد الأجانب ، لأن الخواجه كاترو المندوب الفرنسي هو الذي عين تاج الدين وفرضه على السوريين ! وقد رأيت في مجلة المصور رسماً كبيراً أخذ في بيروت لحفلة استقبال أقامتها المطربة أسمهان في دارها وقد ظهر فيها الشيخ تاج الدين وهو يحمل عمامته في يده اليسرى ويمسك باليمين يد أسمهان وينحنى عليها ليقبلها !

من هذا النوع من البشر يفرض علينا الاستعمار بعض الحكام والرؤساء !!

— يكثر الإنكليز من تعيير الألمان بفظائعهم مع اليهود ، بينما انجلترا نفسها أصبحت في حالة يرثى لها وفي حاجة إلى من يرحمها ، ولكن بالها مع ذلك مشغول على اليهود ... والإنكليز لا يدرون لسوء حظهم وشقوتهم أن كثرة اهتمامهم باليهود يكفي لتنفير العالم الإسلامي منهم وجعله يميل إلى الألمان .

— سيذهب الأمير عبد الله بن الحسين إلى الملك ابن سعود ليتفق معه على منع الألمان من النزول في البلاد العربية ، هذا بدلاً من أن يفكر في إخراج الإنكليز الموجودين فعلاً في بلاده ...

إن نزول الألمان في البلاد العربية هو غاية ما نرجوه للتخلص من الإنكليز ، وإن قال قائل : كيف نرجو أن يحمل الألمان محل الإنكليز ؟ أقول إنني أفضل أن يحتاج البلاد العربية كل من يستطيع أن يخلصها من الإنكليز ومن الذين يرضون ببقائهم فيها ، حتى ولو جاء الشيطان الرجيم لتخليصنا مادام أن ذلك سيبعد الإنكليز عنا ويفكك حلقة الاستعمار البريطاني

التي تضغط على العالم الإسلامى وتخمد معه أنفاس العالم العربى .

— بكى المارشال بيتان رئيس الدولة الفرنسية الخاضعة للألمان من شدة العقوبات التي أنزلها الحاكم الألماني بأهل باريس . لقد فرحت لما رأيت هذا المستعمر يستعبد ويشكو ثم يبكى وكم أبكنا هذا الرجل لما كان قبل ربع قرن قائداً للجيش الفرنساوى فى مراکش يوم زحف على الأمير عبد الكريم مجاهد الريف المنتصر على الأسبان ، فطعن بيتان الريفين من الخلف ، فكان عمله الفظيع السبب فى ضياع تلك الأمة وإبقائها تحت حكم الأسبان . ثم غدر بيتان بالأمير عبد الكريم لما سلم لفرنسا فنفته إلى جزر ريونيون فى المحيط الهندى .

وكم عزانا وجبر خاطرنا رؤية بيتان وهو يقع فى يد قومه بعد الحرب العظمى والثانية ويحكمون عليه بالخيانة والسجن المؤبد ، وها هو الآن يعانى آلام السجن فى إحدى قلاع فرنسا ، وإن ربك لبالمرصاد .

لهبة سراج وانطواء كلب ...

قضيت ليلة باردة ليلاء ، اشتد فيها الزمهرير وقرس البرد ، ثم انقطع النور الكهربائى ، فزادت متاعبى وشقاى ، وأخيراً وجدت بقايا شمعة صغيرة ، فأشعلتها لأستضيء بنورها ، وأستدفئ لفقد الفحم بحرارتها ، وكانت القطعة « حبيسة » ترتجف من شدة الصقيع والقر ، فليجأت إلى ، ثم دست رأسها فى حضنها ، ولفت ذيلها حول عنقها ، فذكرتنى هذه الحالة التى أنا فيها بليلة مثلها قضاها الأديب الأندلسى أبو عبد الله محمد بن أبى الخصال ، بين سراج وبرد ، وكتب يكاد يتجمد من البرد ، فكتب يصف ليلته إلى صديقه أبى الحسن على بن بسام صاحب كتاب « الذخيرة » فوصف شعلة السراج وشدة البرد وفقد النار وانطواء الكلب من شدة الصقيع وصفاً عجيباً قال : « ... وعذراً أعزك الله ، فإنى خططت ماخططته والنوم مغازل ، والقر منازل ، والريح تلعب بالسراج ، وتصول عليه صولة الحجاج ، فطوراً تسدده سناناً ، وتارة تحركه لساناً ، وآونة تطويه حبابة ، وأخرى تنشره ذؤابة ، وتقيمه إبرة لهب ، وتعطفه برة ذهب أو حمة عقرب ، وتقوسه حاجب فتاة ذات غمزات ، وتسلمه على سليطه ، وتنزله عن خليطه ، وتخلعه نجماً ، وتمده رجماً ، وتسلم روحه من ذباله ، وتعيده إلى حاله ،

وربما نصبته أذن جواد ، ومسخته حدق جراد ، ومشقته حروف برق بكف ودق ، ولثمت بسناه قنديله ، وألقت على أعطافه منديله ، فلا حظ منه للعين ، ولا هداية في الطرس لليدين ، والليل زنجي الأديم ، تبرى النجوم قد جللنا ساجه ، وأغرقتنا أمواجه ، فلا مجال للحظ ، ولا تعارف إلا بلفظ ، لو نظرت إليه الزرقاء ، لا كتحتلت ، وأخضبت به الشيبة لما نصلت ، والكلب قد صافح خيشومه ذنبه ، وأنكر البيت وطنبه ، والتوى التواء الحباب ، واستدار استدارة الحباب ، وجلده الجليد ، وصعد أنفاسه الصعيد ، فمأه مباح ، ولا هرير ولا نباح ، والنار كالرحيق أو كالصديق ، كلاهما عنقاء مغرب أو نجم مغرب » اهـ .

لقد سبق لي أن قرأت هذا الوصف العجيب في كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب^(١) للمرآكشي وكان ذلك قبل ثلاثين عاما ، ولكني لم أفهمه كما فهمته الآن ، ولا قدرته قدره إلا بعد أن عانيت عذاب تلك الليلة السوداء لا أعادها الله ، ولا سقى عهدا ...

السفر للحج

ناديت أحمد بدر وعلى با كثير ودرست معهما طريقة جديدة للنجاة مما أنا فيه ، وهي أن أندس بين ألوف الحجاج وأسافر بصفة حاج ، لأن معاملة السفر للحجاج لها تسهيلات خاصة بأن تعطيهم الحكومة جوازات تخول السفر للحج فقط والعودة منه . وهذه الجوازات تصرف من مراكز المديرية وليس من إدارة الأمن العام ، ولا يحتاج الحصول عليها إلى معاملات معقدة ، فكل مسلم يقدم طلبه ويدفع المصاريف للمديرية يعطى التذاكر وجواز السفر ... إذن فهنا إلى تقديم الطلب ... وجلست مع أحمد بدر في قهوة « البرنسات » وأرسلنا بطلب شيخ الحارة فحضر ، فقال له أحمد بدر : إن سيدنا الشيخ يريد الحج فهل يمكنك أن تساعدنا ؟

(١) كنت وأنا في السجن الذي هربت منه أعيد قراءة هذا الكتاب الفريد فأعجبت به أكثر من إعجابي به من قبل ، ثم شرعت أدون على أطرافه بعض الهوامش والتصحيحات والتعليقات ، على نية أن أطبعه طبعة أنيقة وافية تليق بقيمته ، ولكن بعد الحرب طبع ، وبشرط أن أخرج من المحنة سالماً ، ثم خرجت سالماً ، ولكن شغلت عنه ونسيته .

ودارت الأيام ، فإذا بالأستاذ محمد سعيد العريان ، العالم الأديب المتمكن ، يقوم بأحسن مما نويت أن أقوم به نحو كتاب المعجب هذا ، لأن الأستاذ العريان وجد نقصا فيه فبحث وتعب وسهر الليالي حتى أكن الناقد فيه وأبرزه على أجل شكل وأبهى طبع . وكان ذلك سنة ١٩٥٠ بمطبعة الحاج مصطفى محمد ، رحمه الله

فأجاب بالإيجاب ، ثم أخرج ورقة وأملى على النص الآتى :

« تحريراً بالمنصورة ٥ شوال ١٣٦٠ »

حضرة صاحب العزة مأمور بندر المنصورة : يتشرف مقدمه محمد السيد ناجى ، حيث انى أرغب تأدية فريضة الحج فى هذا العام فألتبس من عزتكم قبول ملتضى بالدرجة الثالثة ومستعد لكافة المصاريف وسلفاً أدعو لعزتكم بدوام العز والتأييد. وتفضلوا يا صاحب العزة الخ كاتبه ومقدمه : محمد السيد ناجى ، بملك حضرة أحمد حسن بدر افندى .

أظن أن القارى قد لحظ التغيير الذى أحدثته فى الاسم واللقب !! هذا وقد تكفل شيخ الحارة بالذهاب معى إلى « المديرية » دار الحكومة فذهبنا و قد منّا الطلب إلى « الباشكاتب » المختص بأمور الحج فقيده بدفاتره الرسمية تحت رقم ٤١٤ دورى ١٩٤١/١٠/١٩ ثم سجل نفس الرقم على العريضة ووضعها مع مثيلاتها فى إضبارة الطلبات وطلب منا العودة إليه بعد خمسة أيام لدفع المصاريف . أما استلام التذاكر وجواز السفر فيكون بعد خمسة أيام أخرى ، فشكرناه ووعدناه بالدعاء له فى البيت الحرام ...

أمور وشئون

— كنت أجلس بباب دكان العطار الطريف صاحب النكات الذى قال مرة « إننى خطر على الأمن العام » فإذا بلسانه يجرى بعبارة زادتنى شكاً فيه وتصورت إنه صار يفهم شيئاً عن حالى ، وذلك أنه التفت إلىّ يقول « ربنا نجاك ، وحملك كبير ، فالله يسترها معك » فاندعشت من هذه المصادفة العجيبة .

— لما بدأ موسم البرد سررت به لأنه أراحنى من إلصاق المشمع على رقبتى لإخفاء « حز الياقة » وصرت ألفت كوفية حول عنقى وأرخى بقيتها على الكتفين والظهر كالمشاخ تماماً !

— عانيت أسبوعاً شديداً من وجع أصاب أضراسى وكانت المصيبة أن الأضراس العليا كانت تتهيج من الماء البارد ، والأضراس السفلى تتأثر من الماء الساخن ، فكيف العمل ؟ اللهم لا حول ولا ...

وبينما كنت فى هذه الحال إذا بى أقرأ فى الصحف نبأ غرق البارجة الإنكليزية العظيمة

حاملة الطائرات « أرك رويال » في البحر المتوسط وفيها ثلاثة آلاف جندي ونحو ١٠٠ طائرة حربية فكانت كارثة على الاستعمار ، ففرحت لدرجة أنني أخذت وأنا في فراشي أرقص وأغني فإذا بآلم أضراسي بسبب هذه الحركات يزول !

— مضى على أسابيع وأنا أشعر بهبوط في كياني كله ، فالجسم يضعف ، والبصر يضعف ، والسمع يضعف ، وأخذ الشيب يغالب بياض الشعر . إنها الشيخوخة والعياذ بالله ...

خطة !

اتفقت مع أحمد حسن بدر على أن يكون سفرى إلى الحجاز على الصورة الآتية :

« يسافر هو معى إلى السويس ، ثم ادعى هناك أنني وقعت والتوى ساقى فيلف بالقطن والأربطة ، فيصعدونى إلى الباخرة حملا حتى لا تقع على عيون زبانية الأمن العام وأنا أمشي أمامهم ، لأنهم سيطوقون الباخرة والميناء بلاشك . كما اتفقنا على محاولة الصعود إلى الباخرة قبل ذلك خلسة إن أمكن . فإما أن أتسلل ليلا إلى الميناء أو أذهب إليها سابحا من جهة خلفية قربها من الرصيف ، أو بإرشاد حمال نأخذ ملابسه وعلامته النحاسية فادخل منطقة الميناء بين الحجاج وأنا أحمل أمتعة لأحدهم أو أمتعتى أنا » .



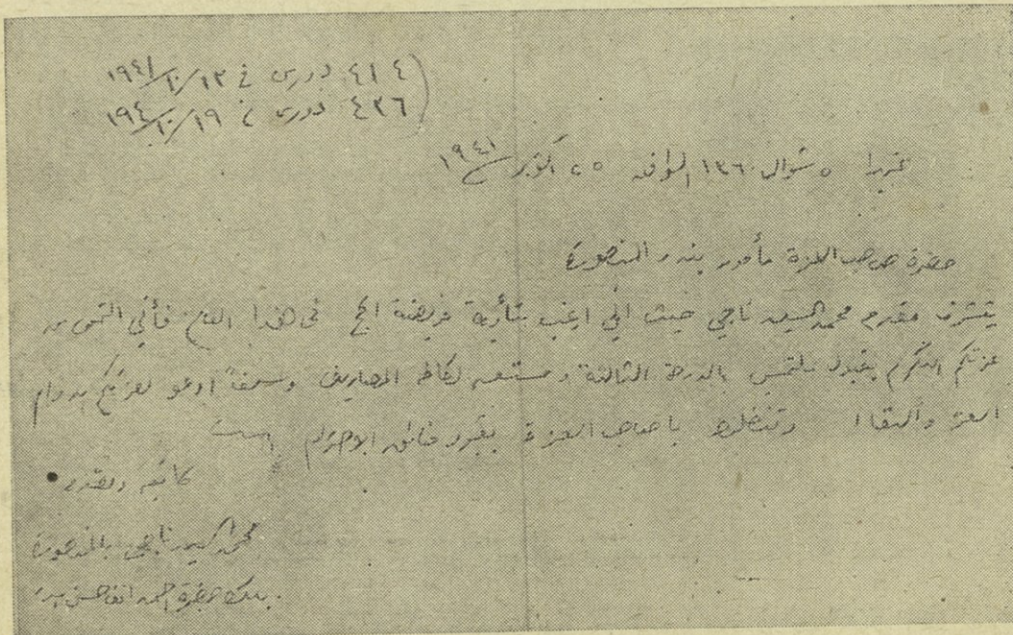
وكنت قبل ذلك قد رسمت نفسى عند أحد مصورى الشوارع الجائلين لنقدم للحكومة صور الباسبور المطلوبة وعند ذلك لابد من نزع النظارة فنزعتهما عن وجهى ، ولكنى اجتهدت في تغيير أسارىرى عند أخذ الصورة فظهرت فيها كأننى ابن سبعين سنة !

خبر ...

فوجئت قبل أن تنقضى الأيام الخمسة التى عنيها الموظف لأخذ أوراق السفر بخبر صغير اطلعت عليه مصادفة فى إحدى الصحف فانقلب مشروع الحج كله رأساً على عقب ،

وخلاصة الخبر أن وزارة الداخلية أعلنت للحجاج تعليماتها الأخيرة ، ومنها وجوب ذهابهم إلى القاهرة لاستلام جوازات السفر بأنفسهم من إدارة الأمن العام بوزارة الداخلية وأن يسافر كل فوج مجتمعاً في محطة كبرى الليمون بقطار خاص ، وأن دخول المودعين سيمنع ، وأن القطار يسافر إلى السويس بدون توقف حتى رصيف الباخرة ! وبطبيعة الحال ان هذه الاحتياطات قد اتخذت بسبب الحرب ومنعاً لسفر غير المرغوب فيهم . إذن لا بد لي من الذهاب إلى إدارة الأمن العام بالقاهرة ! ولا بد كذلك من عرض نفسي على زبانية السلطة والعياذ بالله ، كما أن تسفير الحجاج بالقطار سيكون بشكل نفى وكلقبوض عليهم ! قرأت هذا النبأ فاقشعر بدني واستعدت بالله ! لذلك ناديت أحمد بدر واستشرته في سحب الطلب الذي قدمناه للحكومة حتى لا يسبب لي العدول عن الحج مشاكلاً جديدة ... فبادرنا إلى شيخ الحارة وأعطيناه شلناً وكلفناه أن يسحب الأوراق بضمانته وكفالاته بحجة أنني أريد إضافة زوجتي وحماتي إلى الطلب ...

نعم استرجعناه وهاهو الطلب أمانى الآن وأنا أسطر هذا الفصل ، وقد دون كاتب حكومة المنصورة بخطه على الهامش تاريخ وأرقام القيد الخ بعد أن أرسل الاسم والصفة إلى الوزارة بالقاهرة ...



الصورة الأصلية للعريضة وقد ظهرت في أعلاها الأرقام التي دونها الموظف بخطه

خواطر

— قرأت في الجرائد أن مصطفى النحاس باشا قد حضر حفلة قران بنت أحد كبار ضباط البوليس السرى الذين اشتهروا في شبابهم بالقسوة على المجاهدين المصريين ، هذه غلطة من الباشا . وقرأت أن على ماهر باشا قد أبرق إلى القدس يعزى بأحد خونة فلسطين وهذه غلطة ...

— كان الاتصال موجوداً بينى وبين زوجتى ، وكانت لاتزال في فلسطين معززة مكرمة عند إخوتى وأهلى ، ثم بلغنى أنها سافرت إلى صيدا وأقامت عند أعمامها معززة مكرمة .

— مما كان يخفف عنى عذاب السجن سابقا وحياة الحرب الآن كثرة حوادث المظلومين الذين كنت أقرأ أخبارهم فى الكتب ، وانى أذكر منها أن أبا جعفر المنصور كان يكافى الوشاة ويسلط الأقارب للوقعة فى بعض ، وكان يحبس المتهمين السياسيين من آل البيت النبوى فى مطامير ويقيدهم بالحديد ويضربهم ويكسر أعضاءهم ويجلدهم ويفقأ عيونهم . وكانوا لا يرون النور لا نهاراً ولا ليلاً ، بل كانوا يعرفون الوقت بمرور زمن قراءتهم أحزاب القرآن ، وكان المنادى ينادى من حين إلى آخر بين هؤلاء المساجين : هاتوا أحدكم لنقتله ! فيتسابقون على الموت « راجع تاريخ الطبرى ج ٩ » .

صحيح ان المنصور قد عمّر وأسس دولة ودعم الاستقلال وصنع أشياء عظيمة ، ولكنه شوه ملكه بالغدر والبطش ، فأصبح فى نظرى كما قال القائل .

رأيتك تبني مسجداً من جنابة فأنت بحمد الله غير موفق !

حالة مصر توصف فى البرلمان

— من أروع ما وصفت به حالة مصر فى أيام الحرب خطاب لأحد النواب فى البرلمان وأظنه حافظ باشا رمضان قال فيه :

« أيها السادة : لقد تبينتم أن الديمقراطية التى قامت الحرب لناصرتها غير مرعية فى مصر ولا ملتفت إليها فى معاملة الشعب المصرى ، وهذه حالنا التى نحن فيها أصدق شاهد على ذلك

فلقد نصرنا الحليفة بكل صدق وإخلاص فماذا كان جزاؤنا ... كان أن أهدرت كرامتنا ،
 وفقدنا حريتنا ، وأعلنت الأحكام العرفية علينا ، فكمت أفواهنا وتحكمت الرقابة فينا ،
 وعدت أنفاسنا علينا ، وكسدت سوقنا ، وارتفعت أسعار المعيشة ، فأرهق الفقير والغنى فينا
 وانخفض سعر نقدنا ، وسخرت قواتنا ومرافقنا ومعداتنا ومصالحنا لصالح الإنكليز ، ولم نجن
 نحن من وراء ذلك كله شيئاً ، بل لقد تدخل الإنكليز في شئوننا ، وتغلغلوا في جميع مرافق
 بلادنا ، ولم يراعوا في إسكان الجيوش صيانة أرواح المدنيين مع تحقيق الأغراض العسكرية ،
 فأصبحت أنحاء البلاد كلها هدفاً لكل غارة ، حتى فقد المدنيون كل طمأنينة وراحة وسلام ،
 كما أهملت الوقاية ، وجاع المهاجرون والشاردون وضاعت عليهم ملاجئ إيوائهم وعم البؤس
 وزاد الشقاء » اهـ.

وفي الحقيقة أن الحالة كانت محزنة مؤلمة ، ليس من الإنكليز فقط بل من شدة بطش
 الوزارة الحالية بخلق الله ، لا لحساب الدولة ، بل لحساب الإنكليز ، والويل للأمم من بعض
 حكامها وما أفظعه إن كان من بعض بنينا ومن الذين يكملون مركب النقص بالالتجاء إلى نشر
 الخوف والفرع في البلاد اهـ .

والناس في صمت المنون كأنها صور كساها الظلم ثوب جلال
 إن حدثوك فبالعيون ليتقوا رصد العيون وشرة المحتال !

الحالة السياسية بالقاهرة

أحسست بأنه يوجد شيء في الأفق السياسي في العاصمة ، وقد لحظت أن الجرائد منذ
 أيام لا تنشر أنباء تشریفات القصر الملكي ، ولا صلاة الملك ، ولا المقابلات التي تجرى عادة
 بينه وبين رئيس الوزراء ، كما أنني قرأت أخباراً عن زيارة مكرم باشا عبید أحد زعماء المعارضة
 وسكرتير الوفد المصري لولى العهد الأمير محمد علي وأن الوزارة عقدت بعض الاجتماعات ...
 لاشك بأنه يوجد شيء تخفيه الرقابة عن الناس .

هبوب نسيمات من الحرية

وقف عبد الحميد بك عبد الحق في مجلس النواب وحمل على الوزارة بسبب الاعتقالات السياسية فجاء بالمبدع والمعجب ، وساعده في الحملة محمد عبد الرحمن بك نصير وعبد العزيز بك الصوفاني والشيخ محمد عبد اللطيف دراز وفكري أباطه بك ، وقد صاح عبد الحميد بك عبد الحق في وجه رئيس الوزراء قائلاً : « إن تصرفات حكومتك ياباها كل حر ولا يرضى بها إلا كل عبد » وإذا بالنائب المسمى مدني حزين يقف - لا وقف - ليدافع عن أعوان الاستعمار فقال : « إن المعتقلين هم على نوعين منهم الظالم لنفسه ومنهم المظلوم ، فالظالم أخذ بما يستحق ، والمظلوم نال ما قسمه الله له » ... قاتلك الله ما أسقم منطلقك وما أسمعجك .

مثال من التهم والتحقيقات السياسية

أورد محمد عبد الرحمن نصير بك نائب حجرية بالبرلمان أمثلة عن كيفية اعتقال الناس وأسباب حبسهم ، فقال : إن مفتش الداخلية محمود بك رشيد حقق مع المعتقل عبد الوهاب حسني ، فاسمعوا كيف حقق معه :

المحقق : هل لك آراء سياسية ؟ المعتقل : طبعاً . المحقق : ما رأيك في السياسة الداخلية ؟ المعتقل : يجب أن تحكم البلد بواسطة وزارة قومية . المحقق : ما رأيك في الحرب ؟ المعتقل : هذه الحرب لا شأن لمصر بها ويجب ألا تشترك فيها ! المحقق : هل لديك أقوال أخرى ؟ المعتقل : لا !

وقد سأل الأستاذ نصير بك هل هذا تحقيق ؟ وهل يكفي لحبس الناس ؟

النقراشي وحمدي محبوب

بلغني أن صديق الأستاذ شوكت التوني المحامي - عضو مجلس النواب - قد ذهب وأنا مسجون إلى حمدي باشا محبوب وتكلم معه في شأني بصفته وكيل ، فقال له حمدي باشا « وكيف عرفت محمد علي الطاهر ؟ » فقال شوكت : « إنه صديقي وأنا وكيله » فقال له حمدي : دعك منه ... وذهب الأستاذ شوكت إلى النقراشي باشا وكان بوقتها وزيراً للمعارف وأبدى دهشته

من أساليب الوزارة معي ، فقال له النقراشي « أنا لا أتدخل لأنني وزير للمعارف فقط » وهذا غير صحيح بل هو مسرور من حبسي وإلا لقال غير ذلك ، لأنه كان صديقي ثم عاداني بسبب صداقتي لمصطفى النحاس باشا وعدم انحيازى إليه لما خرج على النحاس باشا سنة ١٩٣٨ .

قطط تغزو وتحتل !

أقام لى الأستاذ على با كثير وليمة « كوارع » فى بيته فما أبدعها من أكلة بعد أن حرمت الطعام الجيد مدة طويلة ، وبينما نحن على المائدة إذا بقطة با كثير تموء بخوف وا كفهرار ، فتطلعننا إلى حيث كانت تنظر فإذا بقطة غريبة تدخل الدار وخلفها ثلاث قطط صغيرة جداً ، وقد دخلوا بشكل موكب ! ثم صاحت القطة القادمة فى قطة الدار وشخرت بوجهها ، فهربت ! وبعد ذلك تلفتت القطة الدخيلة يميناً وشمالاً ثم انبطحت على الأرض ونادت صغارها فأقبلن عليها وجثمن على أقدامها وشرعن فى الرضاعة ، وكانت الأم تلحسهن بلسانها آمنة مطمئنة كأنها فى دارها . فسألت با كثير عن القطة القادمة فقال إنه لم يرها فى حياته !

لقد كان هذا المنظر من أعجب ما رأينا . فمن أين أتت هذه القطة ؟ وأين كانت هى وصغارها ؟ وما الذى أخبرها أنها ستكون آمنة فى هذه الدار ؟ ذلك إلهام من الله ، فلا شك بأن هذه القطة كانت فى مكان ما ثم أحسست بعدم الأمن فيه فخرت صغارها إلى مكان شعرت بغريزتها بأنه دار الأمان ، ولكن من الذى قال لها إن دار با كثير قد أصبحت حرماً ، وأنه يجب القطط ؟ ..

وظلت هذه القطة فى دار با كثير تعيش هى وصغارها إلى أن فطمتها ثم أخذتها وانصرفت إلى حيث لا يدري أحد .

وأعرف حادثة غريبة من هذا النوع وهى أن قطة لجأت إلى دكان صديق لى بخان الخليل بمصر وولدت فيها وبعد أيام اقترب عيد فقال صاحب الدكان لأخيه : يجب أن تجيء فى كل يوم من أيام العيد وتفتح الدكان وتطعم القطط ، ولكن بعد العصر وقبل إغلاق الدكان بساعة اختفت القطة بصغارها ولم يعثروا للجميع على أثر . وبعد الميـد فتجسسوا الدكان فإذا بالقطة الوالدة تقبل من بعيد وهى تحمل فى فمها أحد جرائها وتدخله الدكان ثم تتغيب لحظة

وتعود بالثاني ثم بالثالث وهكذا .

فلاشك هنا بأن الإلهام الإلهي قد أفهم هذه القطة ان الدكان ستغلق عليها وعلى أولادها فتموت معهم جوعاً ، فما كان منها إلا الفرار بأولادها مدة أيام العطلة ولما انتهى العيد وفتحت الدكان عادت القطة وأولادها معها ...

حوادث

— وضع با كثير رواية تاريخية باسم «جلنار» ليدخل بها مسابقة لدى وزارة المعارف فأشرت عليه بأن يغير اسمها ويجعله « جهاد » فاستحسن ذلك وقد فازت هذه القصة بجائزة الوزارة وهي ٢٠٠ جنيه .

— قرأت في الصحف أن الجنرال جاملين الفرنسي الذي أهلك أهل سورية سنة ١٩٢٦ وكسره الله في معركة فرنسا قد قبضوا عليه وسجن ، وكذلك سجنوا الجنرال دنتر وكذلك الجنرال هوتزيجر ، وقد تتبع أخبار الجنرالات الفرنسيين إلى آخر الحرب فإذا بالعذاب بعد الكسر والقهر يصيب أيضاً الجنرال فيجان والجنرال غورو وهما من الذين نكلوا بالسوريين كما أن التنكيل أصاب المسيو بيرتون المندوب السامي الإفرنسي في تونس ، وكذلك حبسوا خلفه الأميرال ستيفا ، فالحمد لله الذي نكب هؤلاء الجلادين بعد أن شهدوا - وعلى رأسهم بيتان - أنواع الذل والأذى وسقوط دولتهم أيضاً .

— أنا شمتان بالإنكليز لأنهم الآن يتزلفون للبشفيك وستالين بعد أن كانوا يلعنونهم ويلقبون ستالين بالسفاح الأحمر، كما أني شمتان ببولونيا التي كانت السبب في الحرب فقد كانت قبل ذلك تجتهد بترحيل اليهود لفلسطين دون غيرها فإذا بالألمان بعد أن دمروا بولونيا يجمعون اليهود من كل مكان ويسوقونهم على البولونيين .

— اغتنم اليهود بأمريكا فرصة الحرب وجعلوا جميع أفلام السينما تدور حول الطعن في الألمان ، فياترى لو انتصر الحلفاء لا سمح الله فإذا يصنع اليهود بالألمان وبفلسطين ؟ وياترى هل يتنبه العالم العربي إلى أهمية الدعاية السينمائية فتخرج الشركات العربية أفلاماً تدعو للبلاد العربية وتبرز جمالها ومدنيتها وتنشر دعايتها ؟

— كنت اليوم أطلع كتاب نفح الطيب وأنا مأخوذ بجبال هذا الكتاب ، مع أن أهل العلم والتحقيق يقولون إن مافيه عن الأندلس لا يمد شيئاً بالنسبة لما كانت عليه، ولكن أهمية ذلك الكتاب نشأت عن ضياع المکتبات الأندلسية وإتلافها بيد الأسبان حرقاً بالنار وإغراقاً في البحر وفي الأنهر ، رحم الله الشيخ المقرئ صاحب النفح ، فلولا لجهل العالم الشيء الكثير عن ذلك الفردوس المفقود .

— وجدوا في سجن مصر رجلاً سجن لأنه غش الدقيق في أيام الحرب بأن خلطه بالأرز ، ولما أمرت الحكومة بخلط الدقيق بالأرز حبسوا شخصاً لأنه لم يخلط ! وكان السجينان يعيشان في غرفة واحدة فما أغرب مفارقات القدر وتخبط الحكومات في تطبيق القوانين ! — سبحان المعز المذل ، فالإنكليز الآن في خوف من جميع الحكومات وهم يخطبون ود الأتراك بصورة مكشوفة وتذلل غريب ، وقد حدث أن سفير إنجلترا في أنقرة رشق بحجر وهو في حديقة داره وكاد يقتله ولكنه بلمها وسكت . فلولا سوء حال إنجلترا لأقامت الدنيا وربما كانت تضرب أنقرة بالقنابل .

وإليك حادث آخر مثل هذا ، فإن برقيات الصحف ذكرت أن الترك حجزوا باخرة إنكليزية كبيرة وعاقبوها بفرامات فادحة وأن إنكلترا اقتنعت بالأسباب التي أبداهها الترك لتسويغ عملهم ، فلولا حالة الانكسار التي هي فيها لأرسلت أسطولها إلى مدينة أزمير ودمرتها بالمدافع !

— خطر بيالي اليوم المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويز المجاهد المصري الإسلامي الشهير فتمجبت من حادثين له ، فالأول أنه لما غادر مصر سنة ١٩١٢ غادرها متنكراً خائفاً يترقب ، ولما عاد إليها بعد تشريد عشر سنين دخلها خلسة وتسللاً وهو خائف يترقب ! ثم أظهر نفسه بغتة بعد أن تنكر أياماً^(١) .

(١) لقيت المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويز عندما أظهر نفسه فزرتة فندق « غوردون هاوس » بشارع فؤاد الأول ، وكان يقع في نفس المكان الذي أقيمت عليه عمارة الاونيون عند التقاطع بشارع عماد الدين . أقول إنني زرت المرحوم وقدمت له نقسي وحييت جهاده ، وفي خلال الحديث سألته وهو الخبير بأحوال الاستعمار عما يراه قبل كل شيء لمحاربة الاستعمار فقال إنه يرى التخلص أولاً من « حمير الاستعمار » فسألته من هم؟ فقال لهم الذين يخنون ظهورهم للأجنبي فيركبها ثم ينسب منها إلى ظهورنا ، رحمه الله .

بائع الأحذية

اشترت اليوم حذاء جديداً من النوع الذى ينتعله المشايخ ، ومر بياب الدار رجل ينادى بأنه يشتري الأحذية القديمة ، فأحببت أن أخلص من الحذاء القديم وأن أتففع بثمنه وأن أشعر الجيران بأنى حقا من المنكوبين ، فناديتاه وعرضت عليه الحذاء ففحصه وأخذ يذكر عيوبه ، وأنه قديم ، وأنه رث . فتناولت الحذاء الجديد وعرضته عليه وسألته إن كان يشتريه ! ففهم النكتة وضحك قائلاً هذا جديد ! فقلت له لقد حيرتنا يارجل ، فقد عرضنا عليك القديم فأبيت لأنه مبهذل ، وها أنت ترفض الثانى لأنه جديد ! فما الذى تريده إذن ؟ فهت وقال حقا إنك لشيخ مدهش ومن نوع لم أره ! وأخيراً اشترى القديم وانصرف ...

لقد صدق ذلك الرجل ، لأنى فى الحقيقة شيخ من نوع غريب ، والله المستعان على الذين مشيخونى !

اشتداد المجاعة فى البلاد ومطالعات

لا يزال الضيق يحكم حلقاته على البلاد المصرية ، وكل ذلك بسبب تفریط الوزارة بحقوق الأمة وسكوتها للإنكليز الذين اجتاحتها الأغذية من الأسواق ومن القرى ، لدرجة أن الوزارة حظرت على الفلاحين احتجاج أى مقدار من القمح الذى يحصدونه ، فكانت القرية تحرس الحقول والأجران لتقدم للسلطات البريطانية مطلوبها من الحبوب ، بينما كان الفلاح صاحب الأرض والقمح يجوع ويأكل قوالم الذرة !

— وكان الشعراء بنفسون عن كرب الشعب بين حين وآخر بشئ من التهمك على الحكومة بسبب المجاعة والشكوى منها ، وكانت الرقابة الإنكليزية على الصحف تبتز بعض الشكايات وتسمح بنشر بعضها . ومن ذلك قصيدة للاستاذ حسن القاياتى قال فيها :

لهف نفسى على السرى العيوف	يجد الخبز فى جلاذ الصفوف
وقصيدة للأستاذ الأقصرى جاء فيها :	
عيال الله صاحوا واستغاثوا	كما صاح الجياع فهل أغيثو
عليهم قد تراكت الرزايا	لها فتك إنا هجمت حثيث

وسبل العيش قد ضاقت عليهم ولم يأخذ بناصرهم مغيث
ونشرت جريدة يومية أن تهافت الفقراء على القمامة والزباله وفضلات الطعام قد سبب
لكثيرين حوادث التسمم، وأن هناك عصابات تجمع فضلات الطعام من المعسكرات الإنكليزية
وتبيعها للفقراء . فيالبريطانيا التي جوعت أنصب بلاد الله ، وباللهوزارة التي تساعدها على ذلك
ولا تبالي بوطنها ولا تتقى الله في عباده . وقد ورد في حديث أن أشقى الأشقياء الحاكم الذي
يخدع قومه .

الشيب

اشترت امرأة صغيرة بنصف قرش لأرى وجهي فيها ، فكدت لا أعرف نفسي ، لأنني
وجدت الشيب قد طغى على لحيتي وعلى الفودين ، فذكرت أحياناً للوزير الأندلسي أبو بكر
ابن زهر ، قال :

إني نظرت إلى المرأة قد جلبت	فأنكرت مقلتي كل ما رأنا !
رأيت فيها شيخاً لست أعرفه	وكنت أعده من قبل ذاك فتى
فقلت أين الذي بالأمس كان هنا	متى ترحل عن ذاك المكان متى ؟
فاستضحكت ثم قالت وهي معجبة	إن الذي أنكرته مقلتك أتى !

الخوف

رحل أبو الوليد محمد بن عبد الله بن خيرة العالم الأندلسي إلى الإسكندرية فزعا من ملوك
بنى عبد المؤمن ملوك الأندلس والمغرب ، وبعد قليل توهم أن أساطيلهم قد تدهم الاسكندرية
فهرب للقاهرة ، ثم خطر له أنهم إن وصلوا الاسكندرية فلا شئ يمنعهم من الوصول إلى القاهرة
فهرب إلى أقصى الصعيد ! وبعد قليل قال في نفسه متى وصلوا القاهرة فلا بد لهم من أخذ
الصعيد فهرب إلى الحجاز ! ثم قال إنهم إن وصلوا للصعيد فلا بد لهم من الحج فيحتلون
الحجاز ولذلك هرب إلى اليمن ! فلما رآها قال هذه بلاد لا يمكن أن يتركها بنو عبد المؤمن
فذهب إلى الهند حيث مات ...

— سمعت راديو برلين ينعى إلى العالم العربي الدكتور أمين رويحة المجاهد المنقطع النظير، وقال المذيع إن الفقيد العظيم أسلم الروح في سجن عكا بعد العذاب والمرض وعدم العلاج، فأمضيت أياماً سوداء حزناً على هذا الصديق العزيز المجاهد ثم جاء الأستاذ با كثير يعزيني ولكن كيف العزاء في خطب يجل عن العزاء؟ اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله. وقد نويت إن عشت بعد الحرب أن أعمل على تخليده تقديرًا لجهاده في سبيل الأمة العربية وتحريرها.

وبينما كنت في هذا الحزن وإذا بي أعرف أن الخبر لا صحة له، وأنه نشأ عن نقل أمين إلى سجون جنوب أفريقيا وانقطاع أخباره عن العالم العربي فظنوه قد توفى، فكان لهذه البشرية في نفسى وقعاً جميلاً، فك الله أسره وأعادته إلى قومه.

منام تحدثت فيه مع الملك

رأيت في إحدى الليالي أننى في مكان نخم، وأننى أنزل الدرج إلى الصالون، فإذا بي أصادف جلالة الملك فاروق واقفاً على بسطة الدرج أمام مرآة وهو يصلح من وضع طربوشه، فتوقفت عن النزول إجلالاً لوقفته وأخذت أمتع ناظرى برؤيته، فإذا به يلمحنى فى المرأة فينفتل وينظر إلى مبتسماً ويسألنى « كيف ترى هذا الطربوش؟ » فقلت « إنه أجمل وأحلى وأعلى طربوش فى العالم » فسر الملك بهذا الجواب وابتسم. فأردت أن أكله عما صنعت الحكومة والإنكليز معى، ولكننى استيقظت بغتة، فوجدت نفسى فى مخبئ المقيت، والقطعة رابضة عند أذنى تخنفر وتبربر، وبائع الدمس المتجول ينادى على الفول العال! فأسفت لهذه الانتباهة وتمنيت لو طال الحلم وتحدثت مع الملك.

وبعد أسابيع وقبل زوال المحنة بقليل رأيت فى المنام أننى واقف على سطح قصر أنظر منه إلى الأفق فإذا بيد تطوق كتفى برفق وسمعت من يقول: « أنت هنا؟ » فالتفت فإذا به الملك فاروق ففرحت كثيراً، وقبل أن أتكلم بشيء قال لى الملك: « ما هو الشيء الذى كنت تريد أن تقول لى؟ » فقصصت عليه قصتى، فأربد وجهه وتكدر وقال « هذا فظيع! هذا فظيع! » ثم ربت على كتفى قائلاً: « سوف أنظر فى مسألتك » فأردت أن أقبل يد الملك وأشكره فإذا بى أستيقظ من النوم فنهضت مستبشراً متيمناً.

عيد !

جاء عيد الأضحى ، وكنت قبل هذا العذاب أجلس من الصباح الباكر أستقبل المهنتين طول النهار وبعض الليل . وأما الآن فلا مهنة ولا من طارق يقول كل عام وأنتم بخير ! وليس في الغرفة إلا أنا والقطعة « حبيسة » فتذكرت بيتين للنور بن سعيد قالهما في العيد وهو نازح شريد :

يلتهج الناس إذا عيدوا وعند سرائهم أكمد
لأننى أبصر أحبابهم ومقلتي محبوبها تفقد

— تقول الجرائد إن عزيز باشا المصرى كان يعانى مرضا شديدا فى السجن وإنه نقل إلى المستشفى العسكرى . إنهم يعذبونه ولا يرعون الله فى المجاهد الشيخ ، حسبهم الله .

— توفى بأميركا المرحوم سليمان بدور صاحب جريدة البيان وهى أكبر وأقدم الجرائد العربية الإسلامية فى نيويورك وكان الفقيد من خيرة المجاهدين الوطنيين الصادقين وكان من أعز الأصدقاء رحمه الله .

— قرأت بلاغار سمياروسيا عن الحرب قالوا فيه إن الألمان خسروا من الجنود نصف مليون جندى ! وبذلك بزوا الإنكليز فى الكذب والتلفيق .

— استطعت اليوم الحصول على قطعة لحم بعد أن حرمت أكله عشرين يوما . وقد طبخت اللحمية على وابلور السبرتو فكانت أمتع أكلة فى حياتى . وقد ذكرتنى بأكلة الوزير البرمكى يحيى بن خالد لما كان فى حبس هارون الرشيد ، فقد منع عنه اللحم فاستورد مقدارا قليلا هربوه إليه قطعاً صغيرة دسوها فى داخل عصى من البوص ، فوضع اللحم على النار فى قدر صغير وأخذ ينفخ النار بفمه ، فكانت لحيته تمشح الأرض ، وكان العرق يتصبب منه وظل كذلك إلى أن نضج اللحم ، فلما أراد أن ينزل القدر عن النار وقع وانكسر وراح المرق واللحم فى التراب ، فكان يحيى يتناول قطع اللحم ويمسحها بيديه ويلتهمها ، وقد وصف تلك الأكلة بأنها أمتع ما أكل فى حياته .

نظرة سياسية

عند ابتداء الحرب أوسع روزفلت رئيس الولايات المتحدة الألمان واليطاليان سبا وشما لتوحشهم ، ثم ضبط بواخريهم وأموالهم ، ثم اعتقل رجالهم ، ثم احتل جرينلاند وإيسلندا من الدنمرك لتكون قواعد له وللإنكليز ضد المحور ، ثم أقرض الأموال لخصوم الألمان أيّاً كانوا ، ثم ابتدع قانون « الإعارة والتأجير » وبموجبه أعطى الإنكليز طيارات وسفنا حرية وأسلحة وطيارين وقنابل وبواخر ، ثم صار يرسل الذخائر إليهم ببواخر مسلحة ليقاتلوا الألمان ، ثم أرسل أسطوله لحماية هذه السفن وضرب غواصاتهم ، ثم حرض يوغسلافيا على الألمان علنا ووعداها بالسلاح ، ثم ساعد روسيا بكل شيء ، فلما أعلن المحور الحرب على أميركا هاج روزفلت وصاح لقد اعتدوا علينا ...

— وفي الشرق الأقصى تستعمر حكومة روزفلت بلاد الفليبين البعيدة عنها ١٢ ألف ميل وهي واقعة بين اليابان وجاوة والصين ، فلماذا تذهب أميركا لهناك ؟ في حين أن مبدأها هو (أميركا للأمريكيين) ثم تجدها تسكت لانجلترا على امتلاك كندا وهندوراس وكولومبيا ونيوفاوندلاند وتتركها تستعبد العالم ، وتسمح لفرنسا بأخذ بقية كندا وهي أميركية ثم تمنع الألمان من استرجاع دانزينج وهي من صميم بلاد الألمان ...

وتساعد أميركا الصين علنا بالمال والأسلحة ضد اليابان وتحشد أسطولها وجيشها وتهدهم ثم تضبط أموالهم وبواخريهم وتقاطعهم وتعلن حصارهم الاقتصادي وتجوعهم وتمنعهم من تسوية أمورهم في الشرق الأقصى وفي بحرهم ومناطقهم ، فلما ضربتها اليابان صاحت أميركا لقد اعتدت اليابان علينا ... مع أن وجود أميركا في الشرق هو وحده اعتداء ما بعده اعتداء — الجلوس في الظلام مع الانفراد يفيد الإنسان في بعض الأحيان بشرط أن يكون ذلك بإرادتك لا قسراً ولا سجنًا ، فالوحدة في الظلام تفتق الفكر ، وتصفى الذهن ، وتسلس عويس المسائل ، وتذكرك بما نسيت .

أهل المنصورة يحبون الققطط

كنت أسير ذات ليلة مع الأستاذ با كثير في شوارع المنصورة فقلت له : يخيل إلى أن أهل هذه المدينة لهم ذوق وإناقة وهم كرام ويحبون الققطط ! فقال كيف لحظت ذلك وأنت مختبئ عن أهلها ولم تتصل بهم .؟ فقلت إني عرفت صفاتهم من أسواقهم وحاراتهم ، فكثرة الكوائين « المكوجية » تدل على سلامة الذوق والإناقة ، كما أن كثرة مبيضى النحاس تدل على عنايتهم باتقان الطعام والسكرم ! وأما محبتهم للققطط فقد عرفت ذلك من كثرتها في الحارات وضخامتها !

سوانح

— اشتد بى الكرب النفسى ، وطغى على اليأس من الفرج ، لأن كل شئ يدل على أن الحرب ستطول كثيراً . والدليل على ذلك تراجع الألمان عن موسكو بعد أن تراءت لهم بالعين المجردة ، فقد صادفتهم أعظم موجة ثلجية اكتسحت روسيا منذ نصف قرن ، وروت الأنباء أن البنزين كان يتجمد فى الدبابات وفى الطيارات لهول البرد . ولذلك أصبحت أتوقع هزيمة منكرة للألمان وقد يخسرون الحرب .

— خطرت أيام السجن على بالى وكيف تنكر لى بعض الناس الذين طالما وفيت لهم ، فرددت قول القائل :

تنكر من كنا نسر بقربه وعاد زعافاً بعد ما كان سلسلا
ثم تذكرت الأصدقاء والإخوان ، لأن الوحدة توحى بكل ما يغيب عن البال ، فتغنيت بقول
الوزير ابن شهيد وهو فى السجن :

فن مبلغ الإخوان إنى بعدهم « شريد أمام » الظالمين وحيد
فراق وشجو واشتياق ووحشة وجبار حفاظ على عتيد !

طرابلس وبرقة

سمعت إذاعات بالراديو من محطة تعد العرب بالمستقبل العظيم ، ولكنها محطة سرية تسمى نفسها محطة العرب الأحرار ، فالظاهر أنها محطة إيطالية تنكر نسبتها لإيطاليا حتى لا ترتبط إيطاليا أمام العرب رسمياً بتلك التعهدات .

فذكرني ذلك بتصریح انجلترا للسنوسيين بقولها إن طرابلس وبرقة لا يمكن إعادتهما إلى إيطاليا . ولم تقل انجلترا إنها تعيد تلك البلاد لأهلها ، لأنها تريد إن انتصرت لا سمح الله أن تأخذها لنفسها ! یعنی أن الإنجليز وهم بين الموت والحياة لا تزال شهيتهم مفتوحة للاستيلاء على أقطار أخرى ...

وقبل إعداد هذه المذكرات للطبع بعد الحرب ، صبح ما توقعته وبلغت انجلترا طرابلس وبرقة ! وأما زعيمهما فإن انجلترا اكتفت بالإنعام عليه بنيشان الامبراطورية ... فذكرني ذلك برجل في التاريخ الأوربي ساعد دولة أجنبية فلما انتصرت رمى له قائدها كيساً من من الذهب ، فقال له بل كنت أطمع بكرسى وإمارة ! فأجابه بل هذا الكيس يكفي لمن يساعد الأجنبي على وطنه ..

أنا لا أتهم ذلك الزعيم بمساعدة الأجانب على وطنه تعمداً ، ولكني أندد بتسرع ومبادرته إلى مساعدة انجلترا بدون أن يعتبر بما أصاب الذين وثقوا بها قبله وعدم سماعه نصيحة أهل الذکر . فيارب إلى متى تنكب الأمة العربية بزعماء وأمرأى ينخدعون بالأجانب ويسبون لها ولنرايها الشقاء ؟

براعة الدبلوماسية العربية

كنت أطلع سيرة أبي بكر الصديق الخليفة الأول «رضي الله عنه» فعثرت فيها على مستند يتضمن تعليمات سياسية وإدارية وعسكرية في أسلوب سياسي لبق يفوق السياسة أو «الدبلوماسية» الأوربية وهما إلى أورده وأرجو أن يترجمه كتاب الأجانب السياسيين وأن يتفهمه بعض العرب المفتونين بالأجانب وساستهم ، ليعرفوا أن قواعد الحكم التي وضعها أبو بكر منذ ١٤ قرناً وأوصى بها يزيد بن أبي سفيان لما ولاء حكم الشام هي أعلى وأبرع من دبلوماسية أوربا ، قال أبو بكر رضي الله عنه : « إذا قدمت عليك رسل عدوك فأكرم منزلتهم ، فإنهم أول خبرك إليهم ، وأقلل جلستهم حتى يخرجوا وهم جاهلون ما عندك . وأمنع من عندك من محادثتهم وكن أنت الذي يتولى كلامهم ، ولا تجعل شرك مع علانيتك فيضيع ملكك . وإذا استشرت فأصدق الخبر تصدق لك المشورة . ولا تسكن المستشار فتؤتى من قبل نفسك . وإذا بلغك عن العدو ضعف فأكتمه حتى تعاينه . وتوقَّع عسكرك ، وقرب حرسك ، وأكثرمفاجأة العدو ليلاً ونهاراً . وأصدق الهجوم إذا هجمت ولا تبجن فيجبن الجيش معك »

ما أحبه في إنسان وأكرهه منه

إنني أحب عبد الملك بن مروان وأكره غدره بعمر بن سعيد الأشدق ، وأحب أبا جعفر المنصور وأكره غدره بأبي مسلم . وأحب هارون الرشيد وأكره بطشه بالبرامكة . وأحب المنصور بن أبي عامر الملك الأندلسي الكبير وأكره تنكيله بالوزير المصحفي ، وأحب المعتمد بن عباد وأكره قسوته مع وزيره ابن عمار ، وأحب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وأستفزع فعلته بالمعتمد بن عباد .

أندلسيات

كنت كلما جلست في قهوة وقعد بجواري جلف يكلمني تذكرت قولاً لأبي الصلت أمية ابن عبد العزيز الأندلسي .

وما غربة الإنسان في غير داره
ولكنها في قرب من لا يشا كله
إن كتاب نفح الطيب في اعتقادي من أعظم الذخائر العربية فليت حكوماتنا تطبعه بمقادير كبيرة وتبيعه بتكاليفه ليطلع عليه كل عربي . وها أني أغوص فيه وأخرج منه بدرر ما كنت أتصور أن كنوز العرب تحوى مثلها .

— اعتدى شاعر على شاعر فهجاه بمثل هجوه ، فصاح الأول يشكو ويعيره . فرد عليه الثاني يقول :

هم شرعوا التعريض قذفاً فعندما
تبعناهم لأموا عليه وعنفوا
— لحظت أن شعر الأندلسيين يحتوي على أوصاف لم أجدها في شعر المشاركة ، فمن ذلك أن الشعر الأندلسي يذكر الثلج والبرد والندف (وهو الثلج الذي يهبط كالقطن المندوف) والرعد والبرق والسحاب والاحتجاب الطويل للشمس ، وشدة الصقيع والصالونات المدفأة وكثرة الحدايق وأنواع الزهور والياسمين والبنفسج والزيتون والتفاح والليمون والأترج والنارنج والأساطيل البحرية والتشبيب بالفلان جهرة ، وكثرة مجالس الأنس واللهو . وقد وجدت أن الأندلسيين هم أول من لقب البنات (بالآنسة) وكان بعضهم يظن أن اليازجي هو الذي ابتكرها والحقيقة أنه لقب أندلسي وصف به بن وهبون فتاة للمعتمد بن عباد ، كما أن الأندلسيين هم الذين

استعملوا لفظة « مثقف » للرجل المهذب والكيّس ، ونقول نحن في مصر عن الرجل أو الشئ الطيب « كويّس » فلعلها تصغير « كيّس » مع التوسع في الاستعمال ، كما أن ابن خلدون قد اصطلاح بعدهم على كلمة مثقف ، وليس بصحيح إذن أن الدكتور محمود عزى كان أول من استعملها كما يظن بعضهم .

— خطب السيد رشيد عالي الكيلاني في الراديو الألماني خطاباً سياسياً ذكر فيه كيف قامت الحركة العراقية التحريرية فكان موقفاً في بسط الحقيقة ووصف اعتداء الإنكليز على العراق واستفزاز أهله ، وبذلك انجلت للناس حقيقة ماجرى في العراق وقتئذ وظهر كذب الإنكليز .

صوت يونس البحري

غيرت محطة برلين مذيعةها العربي السيد يونس بحري وأصبحنا نسمع أخبار الألمان بأصوات أخرى ، ولكن صوت البحري في الميكروفون لا يوجد له مثيل . وقد تصادف في أيام إذاعته وقوع انتصارات عظيمة للألمان فأحبه الناس ، فيا ترى ما الذي زحزح البحري عن راديو برلين ؟ إننا لانسمع بعد اختفاء صوت يونس إلا انكسارات للألمان !

بلاد الملايو وشيء عن الاستعمار

سمعت لأول مرة في حياتي باسم بلاد « سلانغور » وسلطانها و « جمهور » وملكها وأن هذين الشخصين قد أعلننا تأييدهما لبريطانيا في الحرب ، وأن المسلمين يؤيدون هذه البريطانية التي تريد أن تصور الدنيا بأنها كلها معها ، وأن شعوب الأرض لا تفكر في نفسها بل هي دائماً مشغولة البال على بريطانيا ولو قتلها بريطانيا وداست على رقاب أهلها ، فلو أن بريطانيا هي التي خلقت العباد ما استحققت كل هذه العناية من هؤلاء العبيد !

وقد بحثت عن حقيقة الوضع في بلاد الملايو بجميع ممالكها فإذا هي لا تتجاوز الخمسة ملايين نسمة ، وهذه الممالك مشكلة على الطريقة الآتية أولاً — سنغافورة وملاقا وبينانغ وهي ثلاث مستعمرات تحت أمر حاكم عام بريطاني ومركزه في سنغافورة — ثانياً: بيراك وسلانغور ونفري سجيلان وبيهار ، فهذه كلها ولايات متحدة بمجلس اتحاد ولها سلاطين ، وفوق كل سلطان مندوب بريطاني مقيم ، والجميع يتصلون بسنغافورة . ثالثاً: ممالك قدح وجمهور

وكلانتان وترنجانو وبرليس ، فهذه الممالك الخمس لها استقلال داخلي . وفي كل واحدة منها يوجد مستشار إنكليزي ، وكلهم يتبعون وزارة المستعمرات بلندن...

هذه هي بلاد الملايو بجميع تشكيلاتها . فلو حللنا مسائلها كلها لوجدنا الأمر يتلخص في كلمة واحدة ، وهي أن تلك البلاد مستعمرة بريطانية ، وقد كانت في الأصل مملكة إسلامية مستقلة ، فجاء الإنكليز واستولوا عليها ثم مزقوها كما مزقوا جزيرة العرب ، فهذه جعلوا منها سلطنات وأمارات وممالك ومحميات لتفريق كلمتها وفصل بعضها عن بعض بواسطة تنويع أشكال الحكم فيها ، ووضع الحدود بينها مع جارك وجوازات وبرُوجنسيات وقوانين تناقض بعضها بعضاً ، وقواعد للعملة مختلفة لتزيد التفرقة بين هذه الشعوب العربية ، ولكنها تجتمع في النهاية في وزارة المستعمرات وتتوحد في بنوك لندن ! وهكذا فإن الملايو ، تلك البقعة الصغيرة من أرض الإسلام في آسيا والتي لا تزيد في عدد سكانها عن ولاية في إنكلترا ، قد جعلوا منها سلطنات وأمارات ومحميات تحت حكم ملوك وسلطين وأمرأ يتسلط عليهم جميعاً يحكم من الإنكليز ، باسم مستشار ومندوب سام وحكم عام الخ وبذلك تمكنت بريطانيا من تشتيت شملها ، وتفريق كلمتها وتمزيق وحدتها ومنعها من الاتصال ببعضها ، إلا عن طريق هؤلاء الحكام الإنكليز !

إن هذه الأساليب الاستعمارية لتدل دلالة قاطعة على أنه لا يمكن للعالم أن يعيش بسلام إلا إذا أرغمت دولة بريطانيا على الانكماش في جزيرتها والرضا بالسلامة والعافية في بلادها « إنجلترا » ورفع سيطرتها عن الدنيا التي تتسلط عليها فيزول الاستعمار من الدنيا بأسرها ، لأنها هي أم الاستعمار ، وهي التي علمت فرنسا وإيطاليا فن الاستعمار ، بعد أن تعلمته من هولندا وورثت مستعمرات ألمانيا ! وقد رأينا كيف أن الحروب لا تزال تنشب في الدنيا منذ مئتي سنة بسبب احتجان بريطانيا للمستعمرات الواسعة ومنع سواها من الاستعمار حتى وصل الأمر بها إلى أنها لا تترك بلداً تحت استعمار غيرها يفلت من يد ذلك الغير ، حتى لا يقوى ويساعد من هم تحت حكمها هي أو يجعله يفهم أن الإفلات من الاستعمار ممكنا . وهذه أندونيسيا عندما بدأت تقلت من يد الهولنديين قامت إنجلترا وساقط جيوشها وطياراتها

وضربت الأندونيسيين لتخضعهم لهولندا ، وهذه طرابلس وبرقة فإن إنجلترا لم تتردد عن التهامهما ، وإلا فهي تعيدها لعدوتها إيطاليا ! فكل شيء عند الإنكليز يهون إلا إفلات أمة مسامة من أى استعمار كان حتى ولو كان المستعمر عدوهم !

فلسطين أخرى

وبعد تسطير ما تقدم وردنى من سنغافورة ما يفيد أنها تعاني جميع العوامل التى يمكن أن تجعل منها « فلسطين » ثانية ! فلمهاجرون الصينيون إلى تلك الجزر يهددون باكتساح سكانها المسلمين الأصليين الذين يدركون حق الإدراك هذا الخطر الذى يهددهم ولا يستطيعون أن يعدوا العدو لمواجهة جميع الطوارئ والاحتمالات ، ولا سيما بعد أن شرعت الحكومة البريطانية فى اتخاذ الإجراءات اللازمة لتحويل السلطة كلها إلى وزارة المستعمرات البريطانية وسيكون مصير بلاد الملايو على أيدي الإنجليز نفس مصير فلسطين لأن عدد الصينيين فيها يكاد يعادل عدد السكان الأصليين ، إذ يؤخذ من احصاء سنة ١٩٤١ أن فى تلك الجزر نحو مليونين و ٢٧٧ ألفا من جنس الملايو ومليونين و ٣٧٨ ألف صيني و ٧٤٤ ألف هندي و ١٠٩ آلاف شخص من جنسيات أخرى .

ويعتقد كثير من المراقبين أن من الجائز جدا أن يصبح أهل الملايو الأصليين أقلية بعد جيل واحد حتى ولو كف الصينيون عن الهجرة إلى تلك الجزر لأن الصينيين فى الملايو أكثر نسلا من السكان الأصليين » .

سوانح وخواطر مختلفة

أنا الآن فى ديسمبر سنة ١٩٤١ ومستقبل الحرب يدل على انهيار إنجلترا ، وها هى اليابان قد اكتسحت آسيا الشرقية واستولت على بلاد الفلبين وجزر المحيط وأندونيسيا والملايو وبرما وتكاد تدخل الهند، فهل دنت ساعة الاستعمار البريطانى ؟

— لا أدري لماذا كان قلبى يحدثنى منذ إعلان الحرب بين الروس والألمان بأن هؤلاء لن يستولوا على موسكو ، هكذا كان قلبى يحدثنى برغم أن جميع الظواهر كانت تدل على أنها ساقطة بأيديهم

من ساعة إلى أخرى . ولكن هاهم الألمان يرتدون عن موسكو بسرعة ويعدون عدتهم للهجوم على ستالينجراد .

— إن خلاصة ما فهمته عن منطق الإنكليز أن كل من يخون وطنه (في المستعمرات طبعاً) وفي بلاد الأعداء هو الرجل الطيب المعقول عندهم ، بينما هم يعدمون هذا النوع من الناس إن كان إنجليزياً . رأما الذي يحب وطنه فهو خائن لقضية الحرية والديمقراطية وأنه داعية للغير ويستحق الشنق ! ومعنى ذلك أن الإخلاص لا يجوز أن يكون إلا لبريطانيا وحدها فقط ! على أنى أرى بعض حكوماتنا العربية المستقلة تهمل رجالها المجاهدين ولا تقيم لهم وزناً . وفي نفس الوقت تراها تهتم بكل رجل تافه أو خائن يوفد إليها من قبل المستعمرين ، فكان بعض حكوماتنا تشجع أبناء الأقطار المنكوبة بالاستعمار على الانضمام إليه ، والحظوى منه بالمناصب والألقاب لترحب به وتعنى به وتسمع كلمته ...

— لما سقطت فرنسا في أول الحرب ظننا أنها انتهت . وقابلنى صديق فإذا هو محزون من سرعة انتهاء الحرب ، فاستغربت ذلك فقال إننى أريد للحرب أن تطول ليحطم هؤلاء الأوربيون بعضهم بعضاً تحطيماً نهائياً لا تقوم لهم بعده قائمة !

— اننى أشبه الألمان في هذه الحرب بشوار لا دولة ، إنهم يحاربون ككثائرين على بريطانيا التى تطوقهم وتحاصرهم بالمعاهدات التى تعقدها مع جيرانهم وتسد عليهم سبل الارتزاق فى الممالك الأخرى . وقد عمل أحدهم مقارنة بين الأمتين بعدد السكان ومساحة الأرض وما تحكمه بريطانيا من المستعمرات التى تبتز خيراتها ، فوجد بحساب الأرقام أن كل إنكليزى يملك رغيفاً وزنه كذا ، وأن كل مائتى ألماني يملكون رغيفاً واحداً من نفس الوزن . ونتيجة ذلك أن هؤلاء الألمان الجياع لابد لهم من مهاجمة الإنكليزى الذى يتمتع وحده بالرغيف الكامل . هذه هى الأسباب فى نشوب الحرب العظمى الأولى وفى قيام الثانية . أما الدواء فلا يمكن أن يتغير ، وهو رفع يد إنجلترا عن الممالك والأقطار التى تحكمها فتصبح الدنيا مجالاً للأصلح والأنشط ، لا للأكذب والأوقع والأفطع !

— ياويل من يغضب لوطنه وأمته ، لأن الإنكليز سيكرهونه ويطاردونه . فإن قاوم فهو

عاص ، وإن استعان بالآخرين فهو خائن ، وإن سلم نفسه للانجليز قتلوه أو نفوه إلى جزيرة نائية ليموت فيها كدأً وقهراً وذبولاً .

— زارنى اليوم الأستاذ على با كثير وأهدانى سلة مملوءة بالخبز المجفف النظيف ، بارك الله فيه ، لأن هذه الهدية تكفينى شهراً وتصون ماء وجهى عن التبذل فى الأسواق للبحث عن الخبز الذى فقد من الأسواق . وبعد يومين أهدانى با كثير دجاجة مذبوحة ونظيفة ، فقطعت الوقت فى طبخها على وابلور السبرتو !

— من أحلى ما قرأت عن السجن قول ابن الجهم من قصيدة :

بيت يحدد للكريم كرامة يزار فيه ولا يزور ويحقد
لو لم يكن فى السجن إلا أنه لا يستنلك بالحجاب الأعبد !

— وصف أحد العشاق حاله وكأنه يصف حياة الهارب المختفى قال : « يرى العاشق كل شىء عدوه ، هبوب الريح يقلقه ، ولمعان البرق يؤرقه ، والعذل يؤله ، والبعد ينحله ، والذكر يسقمه ، والقرب يهيجه ، والليل يضاعف بلائه ، والرقاد يهرب منه ، ورسوم الدار تحرقه ، والوقوف على الطول ييكىه ، وقد تداوى منه العشاق بالقرب والبعد فما نجح فيه دواء » أما أنا فإننى فوق ماسبق فقد أشبه المتخفى باليت ، فإنه موجود ولكن فى نظر الناس غير موجود وهو يرى الناس ويعرفهم ولكنهم يرونه ولا يعرفونه ...

عن مشاهير الهاربين

ما أحلى حكاية إبراهيم بن المهدي كما وردت بمروج الذهب للمسعودي ، وذلك أنه لما اقترب جيش المأمون من بغداد ترك إبراهيم كرسى الخلافة وهرب واختفى ، فجعلوا للقبض عليه حلواناً كبيراً فقال إبراهيم : خرجت من مكمنى فى يوم صائف حار ظهراً إلى زقاق مسدود ، فرأيت عبداً على باب دار فصرت إليه ثم طلبت محلاً للاستراحة ساعة ، فرحب به العبد وأدخله ثم أغلق عليه وذهب . فظن أنه ذهب ليدل عليه ولكن عاده وحده ومعه الأطعمة وقال أنا حجام ولذلك لم أمس الأكل فاصنعه أنت . ثم رجاه العبد أن يسمح له بالجلوس بجواره وأن يشرب نبيناً

سروراً به، فسمح . وبعد الشرب ذهب العبد ثم عاد ومعه عود وقال ليس من قدرى أن أطلب منك العزف والغناء ولكن وجبت عليك حرمتى فإن أردت أن تشرف عبدك بالعزف ، فقال له إبراهيم ومن أين لك الظن بأننى أحسن الغناء ؟ فقال له العبد متعجباً: ياسبحان الله أنت أشهر من أن لا أعرفك ، أنت إبراهيم بن المهدي الذي جعل مولانا المأمون لمن دل عليك مئة ألف! فاندھش إبراهيم وتناول العود ، فطلب العبد أن يقترح الأدوار فقبل وغناه ثلاثاً . فقال له ما كنت أحلم بأن عم الخلفاء يغنى لى فى بيتى . وفى الليل غادره بعد أن قدم له كيساً من الذهب ووعدته بالمزيد فى المستقبل ، فأبى وقال والله ياسيدى كنت أنوى تقديم ما أملك ، فاستحييت وأجللتك . والخلاصة أنه رفض عطية إبراهيم ثم مشى معه ودله على الطريق الأمين الذى يريده . قرأت هذه الحكاية فطربت لها ولا أظن أحداً يقدر مكارم ذلك العبد كتقدير من عانى الهرب من الدول خصوصاً من الظالمين الحقودين .

حوادث خطيرة لنسيب شهاب واضطراب حالى

جاءنى خبر مختصر « بأن لا أقرب من عيادة الدكتور شهاب » وهو تحذير صريح بوجود خطر من زيارة نسيب بكفر الوسطانى ، ولكن ماهو هذا الخطر ، وهل أصاب نسيب شىء ؟ وهل كان ذلك بسببى أنا .. وهل حبسوه ؟ إذن فلا بد من تسليم نفسى مقابل إطلاقه ، وهذا أقل واجب أقوم به نحوه بعد أن كان من جميله معى ما كان . لقد حيرنى هذا الإنذار ، كما حمدت الله على شىء وقع منذ ثلاثة أيام فقط ، وذلك أننى كتبت إليه كتاباً أسأله عن حاله وهل أزوره ، وبعد أن وضعت طابع البريد على الظرف وذهبت لإرساله رجعت عن باب البريد وزعت الطابع ومزقت الكتاب . فهذا إلهام من الله بلا شك ، فلو أرسلت ذلك الكتاب لقبضوا عليه بعد ساعات ونكلوا به ثم قبضوا على أنا ، ولكن المولى قدر ثم لطف . لقد جعلنى هذا الإنذار فى حالة وجل خوفاً على صديقى ، فأمضيت يومين وأنا بدون أكل ولا نوم ، فأرسلت أبحث وأستنشق الأخبار فعلمت أن الشرطة قد كبست داره فى « كفر الوسطانى » وأتهم أخذوه إلى طنطا للتحقيق معه بتهمة أنه أخفانى عنده وأنه ترك من وظيفته ورحل عن تلك الجهات .

ولكن كيف كان ذلك وأين هو الآن ، وكيف جرت الحادثة ؟ لقد بقيت هذه الأسئلة كلها بدون جواب ، وأخذت أفكر ما الذى ذكرهم بنسيب وكيف فطنوا إليه ؟ حقاً أن هذا لما يحير ويقلق الخاطر .

ومشيت فى شوارع المنصورة أبحث عن صديق لنسيب كمنت أعرف اتصاله به ، هو الصيدلى أديب أسعد بالسكة الجديدة فقد يعرف شيئاً . فوجدت الرجل يغادر الصيدلية مع بعض الناس فى الشارع فأخذت أرقبه بصبر إلى أن يفرغ منهم أو يفرغوا منه .

ولما افترق عنهم لحقت به إلى أن أصبح فى منطقة أمينة من المارة فناديت به باسمه فوقف ، فحيته وقلت له أنا الشيخ فلان - وارتجلت اسماً - وإننى من بلد صديقه نسيب وإنى سألت عنه فعلمت أنه ترك الوسطانى فهل تعرف أخباره وأين هو ؟ فأجابنى الرجل بسهولة إن صديقه استعفى من عمله وأنه مر به فى سيارة سفر ومعه أهله وأنه قصد القاهرة ليسكنها . ثم ذكر لى عنوانه بشارع عبد المنعم بمصر الجديدة . فاكتفيت بهذا البيان الشافى للخليل وشكرته وانصرفت مطمئناً بعض الاطمئنان . ثم كتبت إلى مصر أستفهم عن بقية أخبار نسيب فجاء الجواب بأن أعوان الحكومة لم يثبتوا عليه تهمة إيوائى فاكتفوا بمراقبته مدة ثم هددوه بالإبعاد عن مصر إن لم ينزح عن تلك الجهات ، فاستقال من عمله وسكن القاهرة قاتلهم الله .

مناقشات برلمانية حول المعتقلين السياسيين

تقدمت استجوابات من بعض النواب والشيوخ ضد الوزارة وتصرفاتها الاستعمارية وبطشها بالأبرياء لإرضاء الإنكليز . وقد تكشفت للناس من هذه المناقشة ودفاع الوزارة عن نفسها أمور ما كان يخطر لأحد أن تصدر من حكومة تشعر بشيء من الشعور الإنسانى والكرامة الوطنية . فقد أثبت بعض النواب أن السلطة العسكرية البريطانية فى الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ كانت أقل أذى من الوزارة الحاضرة ، وأن عدد الذين اعتقلوا بوقتها كان قليلاً جداً وأن تلك السلطة قد تكفلت بأود عائلاتهم ووضعت المعتقلين فى أماكن غير متعبة بالنسبة لفظائع حكومة هذا العهد المسلمة المصرية . وقد اتضح فى المجلس أن هذه

الوزارة سمحت للمساجين والمعتقلين السياسيين بالكتابة إلى أهلهم ثم كانت تغدر بهم وتأخذ رسائلهم وترسلها للسلطات الإنكليزية! فيظل أصحاب الرسائل ينتظرون الجواب على رسائلهم عبثاً. وقد قاسيت أنا شخصياً من هذا العهد شيئاً كثيراً، فقد كنت في السجن أستحضر الطعام من دارى وأوزع طعام الحكومة الفث على المساجين والسجانين، لأن الحكومة لم تخصص لعائلى أى مرتب، مع أن هذا حق طبيعى لكل معتقل سياسى ولو كان من رعايا الأعداء. بل إن حكومة هذا العهد قد أهلكتنى في سجن مضيق فطيع كاديضى على حياتى وهامى تطاردنى. وكان رئيسها يقف فى البرلمان يطعن فى نزاهة بعض المعتقلين فوق ظلمه لهم ونكبتهم إياهم، مع أنه لا يعرفهم ولا يدرى عنهم شيئاً، وكان يتبجح أمام النواب بأنه لا يتلقى الأوامر من أحد وأنه يعمل بوحى نفسه! وهذا غير صحيح، بل كان لا يعمل شيئاً إلا إذا أمر به الإنكليز فينفذه على طول الخط بلا مناقشة. على أننا لو أخذنا بقوله هذا وصدقناه فإننا نسأله: لماذا لم توح إليك نفسك بشيء آخر غير التنكيل والعنجهية والبطش بالأبرياء؟

وكان هذا الرئيس يصف حال المعتقلين بأنهم فى نعيم! فياللدهشة! وإلا فكيف يسمى السجن نعيماً مع أنه عذاب ولو كان فى قصر منيف. وكان هذا الرئيس يجادل فى القياس تعطرساً، ويخلط بين الاعتقال والسجن. والحقيقة أن السجن هو غير الاعتقال كما يعرف الناس ذلك بالبداهة. فليت مصر تستقل تماماً لتذيقه وكل من كانوا على شاكلة طعم السجن وطعم الاعتقال ليعرفوا الفرق بينهما على الأقل.

الجلسات السرية

لقد انعقدت جلسات سرية لمجلس النواب للكلام عن المعتقلين فى أيام الحرب فليت بعض النواب الذين يشعرون بالشرف الوطنى ينهضون وينشرون للناس مادار فى تلك الجلسات التى تشبه مؤامرات تدور بين رجال العصابات.

وقد بلغ من جرأة رئيس الوزراء على أمته وعلى عقول النواب أنه كان ينكر وقوع أى ظلم على المعتقلين قائلاً « لم يصل إلى علمى شيء من ذلك » ولكن كيف يصله ما دام قد أمر بعدم توصيل الشكايات إليه كما صنع معهم ومعى أنا أيضاً؟ ثم بلغ به الغرور أنه أنكر ذات مرة

القبض على أحد موظفي الأوقاف وأنكر أنه مسجون ! مع أن الرجل بوقتها كان لا يزال في السجن . فهل ذهب ذلك الموظف إلى السجن من تلقاء نفسه ، أم تنكر في طاقة الإخفاء ودخل السجن خلسة بدون علم الزبانية ، أم هبط إلى السجن من السماء ؟ .. هذا ولما ضايق النواب رئيس الوزراء قال لهم إننى لم أجد اسم ذلك الشخص بين أسماء المسجونين ! يعنى ما دام أن اسمه لم يدرج في قائمة المسجونين المقدمة إليه فإنه يصبح غير مسجون ، والحقيقة التى بلغتني أنه أمر بعدم إدراج اسمه ليواجه النواب بقائمة الأسماء ويريمهم أنه صادق ، بدليل أن الاسم غير موجود !

إن هذه الحالة التى قاساها الشعب فى أيام الحرب تشبه حالة الشعب الفرنسى فى القرون الوسطى لما كانت عشيقات ملوك فرنسا وأهل النفوذ يأخذون من رئيس الوزراء أوراقاً ممضاة منه بالقبض على الناس بدون إبداء الأسباب ويرسلون الأبرياء بموجبها إلى السجن بعد وضع اسم الغريم فى الورقة !

وأوضح ما قرأته عن مجلس نواب ذلك العهد الأسود قول رئيسه . إنه مجلس حر ، وإنه وليد إرادة الأمة ! مع أنه كان مجلساً ملفقاً ، وكان وليد التزوير والإجرام ، وكان لعنة على المجالس النيابية فى الدنيا كلها .

استطراد

وكان بعض نواب ذلك العهد يتقدمون إلى الوزارة بأسئلة عن أمور خطيرة فتنصت لهم الأمة ، فإذا جاء موعد الإجابة سجبوا تلك الأسئلة ! وكان بعضهم يحمل على الوزارة فى الصحف وفى المجلس نفسه ، فإذا جاء وقت أخذ الرأى وحدجهم رئيس الوزراء بنظرة الوعيد أنكروا الذى كانوا يقولونه ، وتنكروا لأنفسهم وأعطوا أصواتهم للوزارة ، وهم يعلمون أنها جديرة بالسخط ونزع الثقة وأنها تستوجب الإسقاط والمحكمة بأكبر التهم - لقد كان أكثر نواب وحكام ذلك العهد البغيض يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون .

وقد أقر هذا المجلس تلك الوزارة على اعتقال الناس وسجنهم واقتحام بيوت بعض زملائهم النواب المعارضين بحجة (سلامة الوطن ومصلحة الدولة) وموافقة الوزارة على القول بأن

الدول الأجنبية ومنها إنجلترا تفعل مثل هذا . ولكن غاب عن هؤلاء النواب أن الوزارة كانت تحذعهم وتسخر منهم ، لأن إنجلترا إن اعتقلت بعض الإنكليز فإنما يقع هذا الاعتقال لمصلحة إنجلترا ، وأما اعتقال الأبرياء عندنا في أيام هذه الحرب فإنه يقع لمصلحة إنجلترا لا لمصلحة مصر . ومع ذلك فإن هؤلاء النواب لا النواب كانوا يقررون الوزارات على سوء ما تفعل . فبعد هذا كله لا يمكن لأحد أن يلوم مصطفى النحاس باشا على إصراره دائماً على رفض التعاون مع تلك المجالس « التمثيلية » أو الحكومات المنبثقة منها ، وله الحق في طلب حله والإصرار على ذلك وإجراء انتخابات جديدة حرة .

مقارنة

صحيح أن انتخابات الوفدين تقع فيها مخالفات وتحرم كفايات، ولكن خطأ الوفدين الذين تختارهم الأمة خير من صواب من يختلس ثقتها، وجهال الوفدين المختارين أنفع للأمة من علماء خصومهم - أليس أن هؤلاء يزيفون إرادة الأمة ويغتصبون ثقتها بالتزوير وضرب الناجحين وانتهاك حرمتهم وتقتيل الذين يرفضون إعطاء الحكومة أصواتهم، كما جرى في عهد اسماعيل صدق باشا سنة ١٩٣١ ؟ إن المجالس النيابية التي تلد رؤساء لها مثل الدكتور حسين هيكل باشا، وإن البرلمانات التي تجلس على رئاسة الوزارة أمثال محمود فهمى النقراشى باشا واسماعيل صدق باشا وأحمد زيور باشا وإبراهيم عبد الهادى باشا لهى مجالس آثمة تعد لطخة في جبين الدساتير والعهود النيابية في تواريخ الأمم .

الإنكليز هم الحاكمون

هذا هو الواقع ، وأما وزاراتنا التي تحكم بدون إرادة الأمة فإنها تحكم « شكلاً » والإنكليز يحكمون « موضوعاً » !

وإليك وصف حكمهم كصوره وهيب دوس بك المحامى في دفاعه عن أحد المتهمين السياسيين بعد الحرب قال : « إن الحالة الاقتصادية وصلت إلى أن البنك الأهلى كان يطبع ورقا والإنكليز يأخذون قطننا وقمحنا ، والشعب المصرى يموت جوعاً دون أن يكون لتلك الأوراق رصيد .

فهل كان الإنكليز قوم شرفاء ؟ كلا يا حضرات القضاة إن حكمهم حكم اللصوص تماماً لأنهم يأخذون ولا يدفعون ويسرقون ويهربون .

ثم قال إن الإنكليز سرقوا الأموال التي كان يدفعها الأمريكيان لمصر وأمعنوا في السرقة فبدأنا نرى الجنود الإنكليز يخطفون السلع في الشوارع ويهددون المارة بالمسدسات للحصول على مال الناس وتهديد أمن الناس .

وقال إنه ما كان يليق بلبسون السفير السابق « أي لورد كيلرن » النذل الخسيس أن يذهب إلى القصر الملكي بالدبابات وكان في مقدوره أن يذهب بالطريقة الدبلوماسية ويبلغ ما يريد أن يبلغه .

لقد حدث بين كتشنر وبين الحديو عباس - وكان عمره ٢٢ سنة - حادث دعا الحديو إلى الاعتذار فتم الاعتذار بلباقة ومن غير ضجة .

لقد كان النذل الخسيس - وأعني به السفير مايلز لمبسون - كان يقصد بعمله أن تذلل الأمة المصرية وأن يشعر جميع الهيئات أننا شعب لا يقيم الإنكليز لكرامته وزنا .

ما كان يليق مطلقاً يا حضرة القضاة أن تحدث تلك المظاهرة الإنكليزية العسكرية . ما الذي كان يقصده ذلك النذل الخسيس ؟ كان يريد أن يقول للمصريين أنتم أذلاء وعبيد ! ولقد كسر الجنود الإنكليز ذراع أحد ضباط القصر الملكي وما زال ذراع هذا الضابط مكسوراً إلى اليوم . ما الذي كان يحدث لو أن السفير ذهب إلى القصر في أدب واحترام وطلب مقابلة سيد البلاد وقدم له الإنذار البريطاني . ما كان يحدث شيء يا حضرات القضاة ولكن الإنكليز أرادوا إذلالنا كما قلت ، أليس هذا منتهى الإجرام ؟ « اه .

حفلة

احتفل السفير البريطاني لامبسون الجلاد الفظيع بتنصيب طفله في الكنيسة الإنكليزية فهرع العظماء لحضورها وفيهم أحد الأمراء ورئيس الوزراء وخطب كثيرون في الحفلة ! فلو

أن أكبر مسلم جاء من الخارج ومات لما سار هؤلاء « العظماء » في جنازته ولا قاموا بالتعزية فيه !

— سمعت بالراديو تفصيلات كدت أرقص لها طرباً فقد اعترف الإنكليز بغرق الدارعتين البريطانيتين « ريبيلص » و « برنس أوف ويلز » لما نسفهما اليابانيون في سنغافورة . وريبيلص هي التي هدد بها الإنكليز أهل فلسطين مراراً وسددوا مدافعها على مدينة يافا . كما أنهم نفوا أحرار فلسطين فيها إلى جزر سيشل .

خضنة !

كنت جالساً مع أحمد حسن بدر بقهوة البرنسات فإذا برجل وجيه عليه طابع موظف الحكومة يأخذ كرسيًا ويجلس معنا ، فاحتفل به أحمد بدر وجعلني أفهم من خلال ترحيبه به وحديثه معه أنه مدير سجن المنصورة ! فأنخض بدني . وبعد لحظة اختلقت سبباً وغادرت القهوة ...

لقد كان أحمد بدر لبقاً في هذه الحركة التي ذكرني بلباقة أبدع ، وذلك أنه كان مرة يلعب معي الررد في قهوة فإذا بصاحب لي وهو صحافي قديم أعرفه في القاهرة قد أقبل عليه من خلفي أنا وكان أحمد يعرفه - ويعرف أنني أعرفه وأنه يعرفني - تخاف أحمد أن يجلس الرجل معنا فأنفضح ، فقام من فوره واستقبل القادم بالترحاب قبل أن يرى وجهي وظل يحادثه إلى أن انتهت إلى طول وقوفه فالتفت إليهما بطرف عيني فعرفت السبب وبادرت إلى باب القهوة الخلفي المؤدى إلى فندق البرنسات فنفت منه إلى الشارع . ولما تيقن أحمد بدر من ابتعادى سحب ضيفه إلى مائدة الررد وتظاهر بالبحث عني ثم ضحك وقال لضيفه لقد هرب الشيخ لأنه مغلوب في الطاولة ! ولكن تعال أنت محله لكي أغلبك بدلاً منه ...

وبعد عامين من ذلك الحادث درى صاحبنا الصحافي بالحكاية فقابلني في القاهرة وعابثني فقلت له إن الاحتياط أحكم .

— كنا نحن شلة قهوة البرنسات بالمنصورة نعتاب بعضنا بعضاً ويتغامر البعض على الآخر ، فكنا نسمى الشيخ إبراهيم مجاهد القاضي الشرعي بالشيخ « دوساء الغميم »

ويسموننى الشيخ « إيون » ونسمى السيد أحمد جودة نقيب الأشراف « أبى رأس » ونسمى أحمد حسن بدر « بالخطاف » لأنه كان فى لعب النرد يخطف ويفالط !

— تهتم القطة (حبيسة) بالرياضة كثيراً لأنها تقضى وقتها فى الشمس والهواء وتفضلهما على الأكل عملاً بأمر الحكومة التى نشرت بيانات فى الجرائد تنصح فيها الناس بالرياضة والمشى فى الشمس والهواء ، بدلاً من أن تيسر لهم الطعام الذى كنا لا نجده فى الأسواق !

متفرقات شتى

من دعايات الأندلسيين وتندر بعضهم على بعض ما ذكره الوزير العلامة لسان الدين ابن الخطيب تنكيتاً على الشيخ أبو على الحلى الكنانى ، وهو أن الشيخ يقول إن عنده قطة كانت تبلل إحدى يديها وتغمسها فى الدقيق ، ثم تنصبها أمام جحر فأر وترفع الأخرى استعداداً لصيده ! وإنه ناداها باسمها فزوت عنه رأسها وجعلت أصبعها على فمها تشير إليه بالصمت ! « وهى نكتة لطيفة تدل على سعة خيال لسان الدين الذى كان فى العلم والفضل أعجوبة زمنه وغير زمنه .

— لما أفسد الأذفونش بالأندلس أرض الأمير حريز بن عكاشة وخرب ودبر ، كتب إليه « ليس من أخلاق القدير الفساد والتدمير » فاستحى الأذفونش وكف عن ذلك ، أما الإنكليز فالدنيا تعرف ماذا صنعوا ويصنعون فى الأقطار التى يحكمونها أو يقدرّون عليها .

— قرأت أن الأفرنسيس عينوا حسن الحكيم فى الشام رئيساً لوزارة سورية فكادت أموت من الضحك ، لأن هذا الرجل لم يستطع إدارة فرع بنك فى يافا ، ولا دكان تجارية فى القدس ، ولا دكان بالقاهرة ، ولا حانوت بعمان ، ولا إدارة بريد بدمشق ، ولا إدارة مالية بسيطة ببغداد ، ولا إدارة أوقاف بالشام ! فقد أخفق فى كل شيء ، فهذا التعيين يدل على إفلاس فرنسا فى سورية إفلاساً تاماً ما دامت تجعل من أمثال هذا الرجل رئيس وزارة !

— قرأت وصفاً لمسجد جغبوب فى الصحراء الغربية بقلم مراسل انكليزى ، فكان يتحدث عنه بتقديس واحترام ويحيطه بهالة من الإجلال ، كسباً لخاطر المسلمين فى الحرب ،

مع أن الإنكليز هم الذين نسفوا ضريح المهدي في السودان بالدفاع وأخذوا جمجمته وصنعوا منها محبرة للورد ككتشنر ! والأعجب أن ابن هذا المهدي يعد اليوم من أعظم أعوان الاستعمار الإنكليزي نفسه !

— خطب عباس محمود العقاد في راديو القاهرة فقال إن الإنكليز حلفاء طبيعيون للشرق العربي لأن الشرق العربي حليف طبيعي للإنكليز ! كبرت كلمة تخرج من جوفك يا أستاذ !

— بعد أن عينت فرنسا الشيخ تاج الدين الحسني رئيساً لجمهورية سورية وقف الشيخ يرد على الجنرال كاترو المتشرد الفرنسي فقال ما نصه حرفياً : « إن فرنسا برغم المحنة التي امتحنت بها لا تزال شعلة حية ما برحت مضيئة على مرور الأجيال ، وهذه الشعلة لا تنطفئ ، والشعب السوري قريب من فرنسا ويعتبرها موضع آماله » .

بهذا الكلام الآثم خاطب ذلك الهالك سيدته فرنسا حاسبه الله ولا أكثر في الدنيا من أمثاله ، لأنهم عار الدنيا جيلاً بعد جيل . إن الأمم العربية لا تستطيع أن تصنع شيئاً مع أعوان الاستعمار الذين ماتوا سوى جعلهم عبرة بسرد أخبارهم ، وأما الأحياء فيجب أن تمسك بتلابيبهم وأن تحاسبهم على كل كلمة مدحوا بها الاستعمار ، فضللوا الناس وخدعوا أمتهم من أجل دريهمات معدودة ومن أجل مناصب زائلة ، فيجب أن نعدهم مسئولين عما أصاب العالم العربي من غدر الاستعمار وتشكيكه بنا .

— رأيت المرحوم الملك فيصل الأول ملك العراق في المنام ، فقلت له : كيف تترك أمتك وتفارق الدنيا وهي في أشد الحاجة إليك ؟ فقال : هذه إرادة الله فلا تحزن والفرج قريب ..

— سلم على شاب بعد زوال المحنة وذكر لي اسمه وهنأني بالسلامة وقال لي إنه كان ضابطاً ببوليس الجواسيس ثم تاب ! وإنه كان من جملة ١٤٠ ضابطاً وبوليساً من نوعه كانوا متخصصين للبحث عني !

— سمعت من راديو القدس كلاماً ودعاية للإنكليز من الشيخ عبد القادر المزغر الذي سمي بعد ذلك بالمظفر ومن عجاج نويهض ، لقد كانا من المتطرفين ضد الإنكليز فإذا بهما من أنصارهم ودعاتهم . ولما أصيبت تل أبيب عاصمة اليهود من طيارة محورية بطريق الخطأ هرع الشيخ المزغر إلى تل أبيب للتعزية !

— أخبرني أحمد حسن بدر أن أهل بيته رأوا في المنام سيدتين تلبسان ألبسة بيضاء وتسالان عني ، وأنني ظهرت بلباس أبيض فسلمت عليهما وانصرفت معهما . فقلت له يظهر أن الفرج قريب .

— قال الوزير لسان الدين بن الخطيب :

والناس إما جائر أو حائر يشكو ظلامه

وهذا صحيح لأنني لا أرى في الدنيا إلا ظالما ومظلوما ولا ثالث لهما ...

— ورد كتاب من قرينتي على الدكتور بشناق تطمئنه عنها وتستفهم عني وأنها أخذت كتابا من الأستاذ أكرم زعيتر الصديق الوفي اللاجيء إلى استانبول يسألها عني « وهل هي متصلة بي » ففهمت من ذلك أن الأصدقاء في الخارج قد علموا بهربي ونجاتي ، فسررت بهذه الأخبار .

— شعرت بضيق شديد من حياة الاختفاء والخوف والحذر، فتناولت كتاب نفح الطيب فوجدت فيه هذين البيتين ليحيى بن محمد بن هذيل الأندلسي ، قالمها وهو مسجون :

تباعد عني منزل وحبيب وهاج اشتياقي والمزار قريب

لقد بعدت عني ديار قرية عجبت لجارجنب وهو غريب

وقرأت لدى الوزارتين أبو بكر بن محمد الحكم الرندى :

تَصَبَّرْ إِذَا مَا أَدْرَكَتْكَ مَلَمَةٌ فَصْنَعْ إِلَهَ الْعَالَمِينَ عَجِيبَ

إِلَهَكَ يَا هَذَا قَرِيبًا لِمَنْ دَعَا وَكُلَ الَّذِي عِنْدَ الْقَرِيبِ قَرِيبَ

فشعرت بعد ذلك بفرح يعم قلبي ويشرح صدري .

— قرأت في الصحف أخبار احتفالات جرت في مدينة يافا بدفن أحد مشاهير خوارج فلسطين وهو يدعى عبدالرؤوف البيطار وأن الإنكليز حزنوا عليه وسيروا الجند البريطانى والشرطة في جنازته ، ولفوا نعشه بالعلم البريطانى ، وبعد ذلك بأسابيع قرأت أخبار حفلة تأبين أقيمت لتخليد ذكراه بحضور الحكام الإنكليز وأن الشعراء قد أنشدوا والخطباء قد خطبوا عن مآثره ، قاتل الله الجميع . وبعد ذلك قرأت أنهم سمووا شارعاً باسمه في يافا ! وقد أبدت جريدة

القطم عند نعيه شدة أسفها على فضله العظيم وعلمه الغزير ! مع أننى أعرف هذا المالك فى يافا وأنا طفل وهو جزار ينادى على اللحم صائحاً « ثلاثة ببشلك زغاليلك » !

— وصفت الجرائد حالة المجاهد الكبير عزيز باشا المصرى فى سجنه فقالت إنه يعانى أمراضاً شديدة وإن وزنه نقص ٢٠ كيلو وعملت له عملية فى المستشفى العسكرى وإن عنده ضغط فى الدم فأخذ الأطباء يفصدونه ، شفاه الله .

— بلغنى أن إدارة الأمن العام أرسلت الضابط محمد يوسف إلى الأقطار المجاورة للبحث عنى وقد أجرى أبحاثاً فى صيدا وبيروت ، وهكذا فإن أخبار إدارة الجواسيس تصلنى بينما أخبارى معدومة عنها فرحى لها ...

— قرأت اليوم حكمة ملوكية عالية لأبى جعفر المنصور، فقد جئ إليه بعدو له فأمر بقتله فقال « اجعلها مودة كريمة بأمر المؤمنين » فقال له « لقد تركتها وراءك يا ابن اللخناء » يعنى أنه كان يستطيع أن يقاتل إلى أن يقتل فيموت مودة كريمة أو ينتصر ولكنه جبن فاستسلم فأصبح لا يستحق إلا التنكيل ولذلك أعدم.

— من أغرب السخرى بالذين يعبدون الأصنام قول الحسن البصرى « سبحان الله فى الناس ، لا يرضون من أحد منهم أن يكون لهم نبياً ولكنهم يرضون بحجر أن يكون لهم رباً » !

— لما أراد نابليون أن يكرم رجالات مصر عندما احتل البلاد خلع على الشيخ الشرقاوى الزعيم الكبير طيلسانا فرنسيا فرماه الشيخ إلى الأرض مشتمراً وظهر انفعاله وغضبه. فاعتاظ نابليون وقال إنه لتشريفكم ولتعظيم الجنود لكم، فقال الشيخ : ولكن إنعامك علينا يسقطنا أمام شعبنا. فليسمع هذا الحادث أولئك الذين يطرون فرحاً بالإنعام عليهم بنياتشين الامبراطورية البريطانية .

— اتضح مع أشد السرور أن الدكتور أمين رويحة لم يمت كما أشيع وأذاعته محطات الراديو ولكن الإنكليز نقلوه من سجون فلسطين إلى سجن رودسيا بجنوب أفريقيا أعانه الله.

— لما حاكموا فى فرنسا وزير الطيران مسيو لاشمبر قال فى المحكمة إن فرنسا أعلنت

الحرب ولديها ٥٠ طيارة قديمة . فما دام الأمر كذلك فلماذا تعلنون الحرب ؟
قاتلكم الله ما أحبكم للحرب وما أنتم من رجالها ، ثم إنى أريد أن أفهم كيف يخضع
نحو مئة مليون إنسان لفرنسا بينما قواتها بهذه القلة وما دام جيشها لا يصمد في معركة ...

يفتحون البخت وشئون أخرى

بلغنى أن إدارة الجواسيس بالقاهرة استحضرت أحد العرافين وجعلته يكشف الغيب
لمعرفة مكان وجودى ! وهذه الحادثة درى بها الناس وكانت موضوع سمر وتندر عند الجميع .
— وبلغنى أنهم راقبوا منزل الدكتور حافظ عفيفى باشا وراقبوا تلفونه مدة طويلة

أثر على محادثته عنى مع رئيس الوزراء ولما يتسوا رفعوا الرقابة .

— قرأت فى الجرائد أن أحد أهالى فلسطين قد أمسك بأحد جواسيس الإنكليز وقلع له عينه،
فليتة وفقاً لأخرى !

— وقرأت فى الصحف أن اللصوص سرقوا ملابس محمد يوسف ضابط البوليس
« صاحبنا » الذى لا تظهر شطارته إلا على أبناء البلاد الإسلامية !

— كتب فؤاد باشا أباطة بالمقطم الصادر فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٤١ ينسب للسوريين
طلب حكم فرنسا لبلادهم والاستقلال عن الترك ! وأن انجلترا جديرة بتأليف وحدة عربية
مؤلفة من العرب والترك وإيران ! وأنه يقترح الاتحاد النبلى بين مصر وأوغندا والحبشة ...
وهكذا قد هزلت المسائل العربية إلى أن أصبحت مسخرة وعرضة لهذا التخليط .

هواجس وحوادث

يحدثنى قلبى بفرج قريب ولا أدرى لذلك سبباً ، فيا ترى هل يحدث فى الدنيا شئ جديد
يفغير هذه الحال إلى حال أحسن ؟ إن هواجس قلبى لا تكذب ، وقد اعتدت أن أشعر بالكروه
قبل وقوعه ، وأن أحس بالخير قبل حدوثه ، فهل هناك شئ ؟ .

— تقول مجلة المصور إن الحكومة ألقت لجنة من انجليز ومصريين للنظر فى أمر الذين
يجب القبض عليهم واعتقالهم ! إذن فالحالة تزداد سوءاً ! وإلا فما الذى يحملهم على هذا ؟ يظهر
أن الفرج غير قريب !

— من سخریات الاستعمار أنه صار يستخدم للراديو مذيعین ينشرون دعايته باللهجات العامية، فحطة إذاعة لندن تذيع الأخبار باللهجات الشام ومصر وتونس والجزائر ومراكش والعراق واليمن وفي ذلك خطر عظیم على اللغة الفصحى .

— ذهبت لدكان زكى الحرون لأشترى جينة فإذا به يباغتنى بقوله : ما رأيك ياسيدنا الشيخ في حالة البلاد . وهل يؤلف مصطفى النحاس باشا الوزارة الجديدة ؟ فسألته عن سبب هذا السؤال فقال إنه سمع قادماً من القاهرة يقول إنها مضطربة وإن المظاهرات قامت فيها ضد الحكومة وإن الجماهير الجائعة مشت وهي تسب رئيس الوزراء والإنكليز ، وتنادى بحياة ألمانيا والمرشال رومل . فشككت بهذه الأخبار وقلت لسائلي الله يقرب مافيه الخير ... وانصرفت من عنده وأنا نشوان بهذا الكلام البديع الذى شمت منه ريح الفرج ولم أتم تلك الليلة من شدة السرور .

— وردت أخبار بواسطة القادمين من القاهرة تقول إن هناك مفاوضات لإسقاط الوزارة وتعيين الدكتور حافظ عفيفى باشا للرياسة ، وبعضهم يرشح محمود فهمى النقراشى والعياذ بالله .

حيلة لإخفاء أوراقى

كثرت الأوراق عندى وفيها كل مادوته من مذكرات ، فخطر لى أن أبعدھا عنى وأن أودعها فى مكان أمين . ولكن من يجسر على تحمل مسؤولية إخفاء هذه العقارب ؟ كما أنها ثمينة عندى مثل روى تماماً . لقد سبق أن أودعت صديقاً مذكرات حوادث الأسابيع الأولى على أثر حدوثها ومعها بعض الصور الشمسية ، فإذا به يصاب بوسواس سامحه الله ، فيعمد إلى تلك الأوراق والصور فيحرقها ، وقد انتحل لذلك أسباباً وأعداراً ولكنها كلها كانت واهية ، لأن المسألة على كل حال أسفرت عن ضياع مذكرات وصور لا عوض لها ، وكان بإمكانه أن يردها لى أو يدفنها فى أرض الحقيقة .

وأخيراً اهتديت إلى طريقة كنت أقرأ عنها فى كتب القصص الأمريكية ، وذلك أنى اشتريت من أحد باعة الصور الملونة صورة قرية أوربية بإطارها وزجاجها ففككت الزجاج من الإطار ومزقت الصورة وجئت بصورة لبدوية حسناء قصصتها من جريدة مصورة ووضعتها

في الإطار بدلا من تلك ، ودسست جميع الأوراق التي أريد حفظها بين ظهر الصورة وبين الكرتون الخلفي قبل الزجاج ، ثم أرجعت كل شيء إلى أصله وعلقت الصورة على الحائط . ولكن هذا لا يكفي لأن الشرطة إن اهتمت إلى فإنها ستضبط بطبيعة الحال جميع ما في الغرفة ومن الجملة الصورة . نعم قد لا يخطر ببال الشرطة أن في الصورة شيئا لأن الشرطة إن اهتمت إلى فهي تريدني أنا ولن يخطر لها أن تفحص الصورة ، إذ لا يوجد جرم تريد إثباته على ، ولكن هذه الصورة ستظل في خطر سواء أتركها رجال الشرطة أم أخذوها . فصرت كلما زارني الأستاذ با كثير أصعد النظر إلى الصورة ، فاسترعى ذلك انتباهه فتأملها واستحسنها ثم طلبها ، فأهديته إياها فأخذها إلى بيته وعلقها في غرفة مكتبه وهو لا يدري أنها تحتوي على الكنز المكنون ...

ومضت الأيام وصرت أزور منزل الأستاذ أ أكثر مما كنت أزوره ، وكل غرضي هو أن أطمئن على الصورة . مثل جحا لما كان يكثر من زيارة الدار التي باعها وترك فيها المسمار ... وكان الأستاذ با كثير يحدثني في كل زورة عن الصورة وجمالها وحسن وقعها في نفسه ونفوس زواره ، وأنهم يكثرون من التأمل فيها ! مع أنها صورة مقطوعة من إحدى المجلات ولا قيمة لها . ولكن سوء حظي جعل الزوار يفتنون بها ، وأخيراً قال الأستاذ با كثير إنه يستأذني في إهداء الصورة إلى صديق له ألح كثيراً في الاستحواذ عليها ! وعند ذلك لم أجد مفرأ من مكاشفته بالحقيقة وأن الصورة تخفي الكنز المدفون .

فلما سمع الأستاذ با كثير بخبر ما في الصورة اندهش وهو يقول لقد استغفلتني يا أبا الحسن ! ومن يومها صار الأستاذ أبو كثير يحرص على الصورة ولا يمكن أحداً من إزالتها عن عرشها . ولما كثر العجبون بها أخذها من مكانها وأخفاها في صندوق الكتب وكفى الله أبا كثير فضول أصحاب الذوق الفني السليم ، الذين لم تظهر عبقريتهم في معرفة قيمة اللوحات الفنية إلا يوم أخفيت أوراق في إطار تلك الصورة التافهة !

محمود فهمي باشا النقراشي

تكرر على الألسنة مرة أخرى في أول سنة ١٩٤٢ نبأ العزم على التخلص من وزارة حسين سرى باشا وإسناد الرياسة إلى أحمد ماهر باشا أو محمود فهمي النقراشي باشا وقد سبق

للقراء أن لحظوا استعاذتي بالله يوم جاءت سيرته لأول مرة^(١).

الأحوال قبيل نهاية عهد الاختفاء

نحن الآن في أوائل سنة ١٩٤٢ الحرب دائرة في كل مكان ، وأعلام الألمان واليابان تسير من نصر إلى نصر ، وجيوش انكلترا وأساطيلها تتراجع من كسر إلى قهر ... وكانت معركة ستالينغراد بين الألمان والروس في أوجها ، والدنيا كلها متجهة إليها لترى كيف يكون مصير الحرب ، أما أنا فإنني برغم وحدتي وعدم اتصالي بالناس كنت أقدر بعزيتي وقياساً على مجريات الحرب العظمى الأولى ، أن هذه المعركة القائمة بين الألمان والروس في ستالينغراد هي التي ستقرر مصير العالم إلى مئات السنين ، فإما أن تنكسر روسيا في هذه المعركة الفاصلة وسيتبع ذلك هزيمة انكلترا وانهيار الاستعمار من الدنيا كلها ، وإما أن يهزم الألمان أمام الروس فتربح انكلترا الحرب على حساب روسيا . كما تربحها أميركا بعد الحرب على حساب انكلترا ، لأن هذه ستنتفخ مع أميركا وتلجأ إليها بعد الحرب لإذاقة الروس أنواع النكال ، ولا يمكن إلا هذا ، ولن تسمح أميركا للروس بأن يشاركوها السيادة على العالم وقد قال العرب قديماً «ما اجتمع فحلان على مزود إلا فتك أحدهما بالآخر» فكيف بالروس البلاشفة والإنكليز الاستعماريين ومعهم الأميركيين^(٢)!

(١) ذلك أن هذا الرجل بعد أن كان صديقي إذا به لما انشق على النحاس باشا يعاديني ، لأنني بقيت صديقاً للنحاس باشا ، وقد آذاني النقراشي كثيراً ، وكنت قد سطرته عنه في مذكراتي هذه بعض أعماله المعنى ومع غيري ومع الأمة المصرية كلها ، ومع العالم العربي بأسره ، فبلغ مأسطرتة نحو ٤٠ صفحة من هذا الكتاب ، ولكن النقراشي توفي فلم أجد فائدة من إثبات ما كتبت عنه ، لأنني كتبت ما كتبت ليطالعه هو ويعرف ما يقال عنه لعله ينصلح . أما وقد توفي فقد حذفت الفصل الخاص به ، مكتفياً بكلمات قليلة قالها مصطفى النحاس باشا وهو يصف حكم النقراشي بعد أن تولى رئاسة الوزارة سنة ١٩٤٥ وهذا بعض ما قاله :

« لقد أهلك هذا العهد الحرث والنسل ، وأحق الخسار والدمار بكل مرفق من مرافق البلاد سواء فيما يتصل بحقوقنا في الخارج أو في الداخل ، كل ذلك لكي يمكننا لأنفسهم من الحكم ، ويهيئوا المغامم والأسلاب لطلاب العاجلة الذين تحكمت فيهم الشهوات ، وسيطرت عليهم الأهواء ، ولعلني لست في حاجة إلى تفصيل أو تبيان في هذه الناحية فإن البلاد كلها تلهس وترى إلى أي أحد فسدت الأمور وساءت ، وكيف إنطلق زبانية العهد يتحكمون في رقاب العباد ومصالح الناس » .

(٢) لقد وقع هذا كله مع الأسف ، وهانحن نرى في سنة ١٩٥١ طلائع الحرب الثالثة بين روسيا من جهة ، وأمريكا وإنجلترا من جهة أخرى .

وصف حالى أنا

اشتد البرد فى البلاد المصرية هذه السنة لدرجة لم يحدث مثلها منذ خمسين عاماً ، وكنت فى مخبئى فى المنصورة أعانى الهول من شدته ، فلابسى غير كافية وفراشى كذلك ، وكانت الغرفة واسعة لا يمكن أن يدفئها فرن بكامله ، وأرض الغرفة عادية ومنافذها كثيرة غير محكمة الزجاج ، فكان الهواء يصفر فى جنباتها فيهبز نوافذها هزاً . فكنت أقضى اليوم كله والليل بطوله ملتفاً بتلك البطانية الرخيصة ، منطويا على نفسى ولا تسليية لى فى هذه الوحدة إلا آلة الراديو التى كنت أتركها مفتوحة ليلاً ونهاراً أسمع منها المحاضرات والموسيقا والأخبار جميعاً حتى الأخبار التافهة ...

ولما اشتد البرد تسلمت من مكمنى واشترت دفاية ، أى مجمرة من الفخار ، وابتعت فخاً وصرت أوقد النار فى المجرمة للاصطلاء فساعدنى ذلك على احتمال العذاب الذى كنت أعانيه وكانت القطعة « حبيسة » ترفه عنى وتونس وحدتى بالجلوس على كتفى طول الوقت وهى تفرقر وتبربر ...

وصف حالات وخواطر

اشتد الضيق وأخذت المجاعة فى البلاد المصرية تنتشر ، واختفى الخبز من الأسواق منذ ثلاثة أيام ، وقد بحثت عن رغيف بأى ثمن فلم أجده ، فاكثفت بأكل البلح والأرز وبلغنى أن الناس فى بور سعيد أكلوا بدل الخبز بطاطة حلوة !

- السخط عام على رئيس الوزراء ، وقد نويت عند سقوطه عن كرسى الحكم أن أرسل إليه بالبريد الأبيات الآتية وهى لزكريا بن مطروح قالها فى حاكم أزاحه الله فأمطرت السماء بعد عزله :

ورب	وال	سرنا	عزله	فبعضنا	هنا	بعض
وقد	وصلتنا	السحب	من بعده	ولد	فى	أجفاننا الغمض
لو لم يكن	« . . . »	شخصه	ما ظهرت	من	بعده	الأرض

ولكنى فضلت أن أحتفظ بالأبيات ليقرأها في هذا الكتاب إن قدرت لى السلامة وهذا أحسن من أن يرميها أو يمزقها !

— لا تزال الوزارة فى حالة الاحتضار ، وقد تسربت إلى الجماهير أخبار من القاهرة تقول إن رئاسة الوزارة عرضت على النحاس باشا بشرط أن يقبل فيها زملاء من غير الوفدين فرفض وقال إنه لا يستطيع أن يعمل مع أشخاص ثبت ضررهم وتكرر خروجهم على الأمة غير مرة ، وكيف يأمن لخصومه الذين هم أعوان الإنكليز بأن يشاركوه الحكم ليكونوا عيوناً وآذاناً للإنكليز ؟ وقد دونت فى تلك الأيام حوادث الوقت بالتعبيرات الآتية « حالة جوقة التمثيل مرعزة فياترى هل يبق الممثل الأول - أى سرى باشا - أم يحىء أبو درويش - أى مصطفى النحاس باشا - إذا لم يتبدل شيخ الكتاب « أى رئيس الوزراء » فى هذه العاصفة ضاعت الفرصة وسيطول عذاب الأمة وتمتد أيام محنتى ... »

محاصرة قصر عابدين بالدبابات

وفى ما كان الناس يرقبون المستقبل إذا بأخبار قد شاعت بأنه فى ٤ فبراير ١٩٤٢ حاصر الإنكليز القصر الملكى بالدبابات واقتحموه ودخل كبار ضباطهم بهو القصر والسفير البريطانى كيلرن أى لامبسون فى مقدمتهم ، وهم يشهرون السلاح وطلبوا إقالة الوزارة الحاضرة وتشكيل وزارة يرضى عنها الشعب المصرى لتوقيف موجة الغضب من الحالة حتى لا تقوم ثورة فى مصر ضد الإنكليز تكلفهم جيوشاً هم فى حاجة إليها فى ميادين الحرب الأخرى ...

فكان لهذا التهميم على تاج الوطن أشد الوقع فى نفوس الناس ، وقد هاجت الأفكار وحصل اضطراب فى الخواطر كاد يفجر غضب الشعب الذى كبته الإنكليز وحكومتنا بالنار والحديد ...

وزارة مصطفى النحاس باشا

وفى الصباح الباكر من يوم ٥ فبراير سنة ١٩٤٢ نزلت إلى السوق لمشتى الجرائد والوقوف منها على آخر الأخبار فإذا بتاجر البقالة زكى الحرون ينادينى ويقول لى : « مبروك

ياشيخ محمد «لقد راح الراجل في داهية وجاء النحاس باشا» ثم أبرز جريدة الأهرام فقرأت العنايات الرئيسية فإذا بها تبشر بتأليف الوزارة برياسة النحاس باشا فكدت أرقص لشدة السرور الذي شعرت به في تلك اللحظة ولكنى ضبطت نفسى ومشيت ..

إن زكى لا يدري أهمية هذا الخبر عندى وعلاقته بحالى وبمصرى ، ولكنه بشرنى به « ليفضفض » عن صدره كما أن الناس كانوا يبشرون بعضهم بعضاً ، وليس بالشيء القليل خلاص الأمة من وزارة بغيضة أهلكت الحرث والنسل .

وقد شيعت الأمة تلك الوزارة بالسباب ومظاهرات السخط ، واجتمعت الألوف أمام القصر الملكى تهتف بلعن الذين جوعوا الأمة وأرهقوا الشعب ، كما كانت الجموع تهتف لمصطفى النحاس باشا من قلوب انطلقت من جحيم الأسر ..

وكانت الحوادث تجري بسرعة وتتوالى متلاحقة ، فشبهت انهيار تلك الحكومة وسرعة ذلك أركانها بأنها الصيحة التى تأخذ الظالمين بغتة .

وأخذ النحاس باشا ينظف الأداة الحكومية من جميع الفتاكين وأعوان الاستعمار ، ولعل أعظم ما طرأت له أنه عزل حمدي محبوب باشا من وزارة الداخلية وهذا وحده يكفى لأن يجعل الشعب يقدس النحاس باشا الذى أمر أيضاً بتجهيز بيانات عن الذين اعتقلوا وحبسوا وأسباب ذلك توطئة للنظر فى حالهم ، وقد أقيمت الأفراح والمهرجانات فى جميع أنحاء البلاد ، وحل النحاس باشا برلمان ذلك العهد الأسود وأجرى انتخابات جديدة .

إن كل شيء كان يطربنى ويطمئن بالى وقد هبت على نسمات من الأمل بالخلاص وبالحرية.

كلمة لحاكم سياسى عربى

قال الحجاج المهلب بلغنى حيزك جماعة مصر ثم تركهم ، فإن أذنبوا فقد أخطأت فى تركهم ، وإن أبرياء فقد أخطأت بحجزهم ، فقال المهلب « ظننت فحجزت ، واطمأنت فسرحت » وأما بعض رجال الحكم فىنا فإنهم يؤمرون بالحبس فيحبسون الناس بدون أن يظنوا ثم يؤمرون بتركهم فيتركونهم بدون أن يطمئنوا ...

هلاك استعماري

روت الصحف نبأ موت نوري الشعلان شيخ عرب الرولة في سورية وكان هذا الرجل من أشهر أعوان الاستعمار الفرنسي وقد اضطرب الإفرنسيون لموته وحزنوا عليه وقد حضر واجنازته وفي أولهم الجنرالين كاترو وكوليه الشقي المشهور الذي اغتال المرحوم أحمد مريود في جبات الخشب في ثورة سورية ١٩٣٦. وقد دفن نوري الشعلان ووجهه إلى قريته «بريدة» وذلك بحسب وصيته، بدلا من أن يوصى بتوجيه وجهه نحو «مكة» مثلا، فليته أوصى بجعل وجهه نحو باريس...

الشيخ عبد المجيد اللبان

بلغني أن الشيخ عبد المجيد اللبان العالم الشهير وشيخ كلية أصول الدين كان داخلا إلى منزله فوجد بجده سعد بك اللبان عضو مجلس النواب يجلس مع بعض الزوار فسأله عنهم فقدمهم إليه وكانوا من زملائه أعضاء المجلس فقال له على مسمع منهم «إن كنتم نواباً بحق فاعملوا على إطلاق محمد علي الطاهر الذي يعذب في السجن بدون سبب سوى انتقام المستعمرين منه لجهاده في سبيل الله» فما كان منهم إلا تلبية إشارته والسعي في ذلك، وممن تقانوا في هذا السبيل محمد عبد الرحمن بك نصير نائب جمجرة. وبلغني كذلك أن عبد الحليم بك أبو سيف راضى نائب بنى سويف قد راجع السفارة البريطانية من أجل فأخذ الخواجة سمارة مستشارها الشرق يماطله، ثم قال له بعد أيام إن المختصين في القيادة العسكرية يعارضون في إطلاقه بكل شدة. رحم الله الشيخ اللبان فقد كان عالماً من أعلام الإسلام ومن خيرة العلماء الجريئين على الإنكليز وخادماً للمسلمين، وبارك الله في محمد عبد الرحمن نصير وعبد الحليم أبو سيف راضى.

خبر عن هارب ومجير

عندما ذهب عبد الرحمن الداخل للأندلس تواري من عبد الرحمن بن حبيب والى أفريقية واختبأ عند «وانسوس البربرى» الملقب بأبي قرة أحد شيوخ البربر. فلما قتل زبانية ابن حبيب دار وانسوس أخفته زوجته «تكفات» تحت ملابسها. فلما صار عبد الرحمن ملسكا استدعاهوا وأكرمها ثم دأب تكفات قائلاً إنها عذبتة بريح جسمها وإبطيها أكثر من فزعها من الأعداء كما أنها «ضربت» فكادت تخنقه. فقالت للملك بسرعة والله ياسيدى بل أنت الذى شرط ولم تشعر لشدة خوفك! فضحك الملك من جوابها ولم يتكدر منها وهو ملك الملوك، ثم أمسك عن الزيادة في المزاح.

بعد الانقلاب

كيف جمعنا - كيف سقطت الوزارة - صفحة تاريخية

بقى الجانب الحقيقي من هذه الأمور مجهولاً عند الناس طول مدة الحرب ، وإلى مابعدھا بثلاث سنين بسبب وجود الرقابة على الصحف وبعد ذلك قامت ضجة صحفية حزبية في القاهرة أسفرت عن كشف أمور كثيرة عما كان يجري خلف الستار ، وهذه خلاصة منها أذاعها الأستاذ أبو الخير نجيب الكاتب السياسي في جريدة النداء (٢٣ ديسمبر سنة ١٩٤٥) نقلا عن رواية حسن نشأت باشا سفير مصر الأسبق في لندن وإني أسجلها هنا قبل أن تفوت مناسبتها ، قال نشأت باشا :

المجاعة وبدء الثورة

« تخرجت الأمور في الأسبوع الأخير من شهر يناير سنة ١٩٤٢ .. ونشرت المجاعة جناحيها على البلاد ، وأخذ الناس يهجمون على المخازن في طلب القوت ... وعلى مركبات الخبز المتسللة تحت جناح الظلام ، فيلتمهون ما يكون فيها من الأرغفة .. وحتى رئيس الوزارة نفسه وزملاؤه الوزراء تعذر عليهم جميعاً الحصول على الخبز ، فاستعاضوا عنه بالكارونة والبطاطس والفاكهة .. وهذا ما سمعته يومئذ بنفسى من سرى باشا ومن بعض أعضاء وزارته .

الاضطرابات

وبدأت الاضطرابات الناشئة عن الجوع ، تظهر في شكل مظاهرات صاخبة ضد الإنكليز ، مهدت لها منشورات تقول إن الإنكليز هم سبب تجويع البلاد وأن مجيء الألمان هو الوسيلة الوحيدة للنجاة من مخالب الإنكليز ...

وبدأت مظاهرة كبرى تطوف القاهرة ومرت بميدان عابدين وهي تهتف « إلى الأمام ياروميل » ... « تسقط بريطانيا العجوز » وجرت مظاهرات مثلها في الاسكندرية .

لا تتعرض لأحد !

وعقد مجلس الوزراء وقرر سرى باشا أن يرفع استقالة وزارته إلى جلالة الملك . وبينما كان دولته يرأس اجتماع المجلس اتصل به اللواء رسل باشا « الإنجليزى » حكمدار بوليس القاهرة في ذلك

الحين وأبلغه نبأ هذه المظاهرات مبينا له خطورتها، والعبارات التي تتردد على ألسنة المتظاهرين ثم سأله عن التدابير التي تتخذ لقمعها فكان جوابه : « ليس عندى تعليمات .. الوزارة استقالت .. لا تتعرض لأحد . » ؟

ماليش دعوة ...

وبعد قليل اتصل السفير اللورد كيلرن بدولة سرى باشا تليفونيا وأبلغه أنه قادم لمقابلته هو وقائد القوات البريطانية ، فلما قابلاه لفت السفير نظره إلى خطورة المظاهرات ، وخطورة الهتافات ، وامتناع البوليس عن التعرض لها مما يهدد الأمن والنظام ويعرض حياة الجنود الإنكليز والمنشآت الإنكليزية العسكرية والمدنية للخطر ... فكان جواب رئيس الوزارة : « أنا ماليش دعوة » « أنا مستقيل » فقال السفير : لكنا لا نزال رئيسا للحكومة واستقالتك لم يبت فيها والوزارة التي تخلفك لم تؤلف ، فأجاب : قلت لك إننى استقلت وليس فى مقدورى أن أمنع المظاهرات فقال السفير : نحن مضطرون إذن إلى حماية مصالحنا وأرواح جنودنا ... فهل تريد أن نستخدم قواتنا فى ذلك ؟! فقال سرى باشا كرر إننى أصبحت غير مسؤول .. وغير قادر على منع شئ ...

جلالة الملك والمظاهرات

وأبرق السفير البريطانى عقب هذه المقابلة إلى حكومته برسالة خطيرة ذكر فيها تفاصيل هذا الحديث وأضاف قائلا : إن سرى باشا قال لى : إن جلالة الملك فاروق راض عن هذه المظاهرات ، وإنه من أجل ذلك ليس فى وسعه أن يتعرض لها .

السفير عند الملك

ولم تمض ٢٤ ساعة على هذه المقابلة حتى تشرف اللورد كيلرن بمقابلة جلالة الملك وبين جلالته خطورة الحالة ، وأوضح أن مصالح بريطانيا العسكرية معرضة للخطر الشديد من جراء الفوضى التي تفشت فى البلاد ، والمظاهرات العدائية التي تركت لها الحرية ثم عرض على جلالته رأى حكومته فى ضرورة إسناد مقاليد الحكم إلى مصطفى النحاس باشا بوصفه زعيم الأمة كوسيلة حاسمة تهدئة الحالة ، وإقرار النظام ...

قرار الإنكليز !

وقد كان موقف سرى باشا من مظاهرات « إلى الأمام يا روميل » وما دار من حديث بينه وبين السفير ، والمحادثة التليفونية التي جرت بينه وبين رسل باشا بمثابة القطرة التي فاض بها قدح الماء .. فعوّل الإنكليز عندئذ على التدخل الحاسم في الأمر بكل الوسائل ... وأطلقوا يد سفيرهم في مصر ومنحوه سلطة إيجاد المخرج مع الرجوع إليهم في المواقف الحاسمة .

وقد كان هدف الإنكليز هو التخلص من جلالة الملك فاروق ومعاملته معاملة الأعداء .. ثم اتخاذ الذرائع للسيطرة بعد ذلك سيطرة مباشرة على البلاد وحكمها حكماً بريطانياً مباشراً طوال الحرب ، والقبض على الزعماء جميعاً بما في ذلك مصطفى النحاس الذي افترضوا أنه لا يقبل الحكم في مثل هذه الظروف ...

بداية الضغط ...

وبدأ السفير ضغطه الدبلوماسي أولاً .. ولكن بصورة استنزائية لحمل الملك على الرفض ومن ثم يتاح له استخدام الضغط المسلح الذي يؤدي في تقديره إلى ازدياد التصلب محافظة على الكرامة ، وعندئذ ينفذ البرنامج الذي رسم في لندن لينفذ في القاهرة .. وذلك على ضوء الحديث الخطير الصريح الذي جرى بين سرى باشا والسفير .

المنفذ ...

ثم حدث ما يعرفه الناس جميعاً من دعوة النحاس باشا من مشته في أقصى الصعيد ، ومن عقد الاجتماعات في قصر عابدين ، ومن مشاورات واتصالات ومؤامرات هنا وهناك للحيلولة دون تولي النحاس باشا الوزارة وحده ... حتى إذا وقعت الفاس في الراس هرب الجميع ولم يبق إلا مصطفى النحاس ، الذي جعل من نفسه درعاً صده به الإنكليز عن العرش وصاحبه . بذلك أحبط المؤامرة وكيد المتآمرين . ورد مصطفى النحاس حشود الدبابات التي دفعها حسين سرى بسياسته الخاطئة إلى قصر عابدين .

وقد كان من الميسور أن يتغير مجرى الحوادث لولا حرص سرى باشا على الظهور بمظهر

الصديق للإنكليز، الذي لا يستطيع أن يتحمل مسئولية تصرفات قال عنها إنه ليس في مقدوره منعها ، وذلك على الرغم من تحققة من توتر العلاقات بين القصر والإنكليز « اه .

وزارة النحاس باشا

أما وقد تألفت الوزارة برئاسة مصطفى النحاس باشا فقد لوحظ أن أعضاء الوزارة كانوا هم الوزراء الذين كانوا معه في وزارته السابقة ، وقد تعمد النحاس باشا من جعلهم وزراء لعنه الجديد أن يرد بذلك على الذين اتهموه واتهموهم معه عند الإقالة بكل نقيصة ، لأن رجوعهم جميعاً إلى الحكم هو في حد ذاته الحكم القاطع ببراءتهم ، وإن إقالة وزارته السابقة إنما كان تجنباً عليه وعلى أولئك الوزراء .

ملحوظة : ولا يزال النحاس باشا منذ بدأ يشكل وزاراته من سنة ١٩٢٧ إلى الآن سنة ١٩٥١ يجعلها مؤلفة من زملائه الذين يعزلون معه ، وبذلك كسب النحاس الرأي العام كسباً حقيقياً ، وأصبح الناس لا يصدقون شيئاً عن كل ما يقال عنه وعنهم عند كل إقالة

فحص الناس !

جلست مع أحمد حسن بدر على رصيف قهوة البرنسات بالمنصورة فقال مارأيك بفحص شخصيات المارة في الشارع ؟ فقلت هيا ...

ومر شخص ، فقلت لأحمد بدر : هذا الرجل الذي يمشي أمامك بالعمامة والجبة ليس عالماً بل هو تاجر أو سمسار أو مقاول ، فقال : صدقت والله ، فهو سمسار قطن ، ولكن كيف عرفته ؟ فقلت : لأن مشيته وضخامة كرشه وكثرة التفافات وعدم وجود كتاب في يده أوجريده ، مع نعومة وجهه لاتدل على أنه من أهل العلم .

ومر آخر وهو يلبس الملابس الأفرنجية فقلت له : وهذا معلم في المعارف أو كاتب في إدارة الأوقاف . فقال صدقت لأنه مدرس بمدرسة شرين فكيف عرفته ؟ فقلت من عدم انتظام هندامه ومن المنشة التي يحملها ويلوح بها بسبب وبلا سبب كأنها عصا الشيخ في الكتاب ! .
ومر ثالث وكان يلبس لباس الأزهرين فقلت له إن هذا ليس بأزهري ولكنه من رجال القضاء الشرعي . فقال وكيف عرفت ذلك ؟ فقلت إن مشيته فيها شيء من الاعتداد بالنفس

والغطرسه ، كما أن جماعة الأزهر لهم طابعهم ورجال القضاء الشرعى لهم طابع آخر ، فقال صدقت فهو قاضى محكمة المحلة الكبرى الشرعية .

ومر شخص رابع فوقف يتكلم مع أحد الجالسين على القهوة ثم انصرف ، فقال أحمد بدر : وهذا ؟ فقلت إنه أقوى شخصية فى المنصورة ! فقال لماذا ؟ فقلت من شكله ، ومن اهتمام الجالسين به وتطلعهم إليه ومن حركاته وصرامته وهو يتكلم ، وكونه كمن يشعر بوجاهته ومكانته ، فقال صدقت والله ، فقلت من هو ؟ فقال إنه كامل يوسف صالح بك المحامى وعضو النواب السابق .

ملحوظة: وبعد سنين من هذا الكلام اجتمعت بكامل يوسف بك صالح وتعرفت عليه فى منزل الزعيم مصطفى النحاس باشا ، فقصصت عليه بحضور الباشا ما كان فى تلك الأيام فكانت هذه القصة مثار تندر ، وقد شكرنى كامل بك أولاً على حسن ظنى به ، وقال إنه كان يتمنى لو أظهرت له نفسى ليقوم بكل خدمة من أجلي ، فقابلت لطفه بالشكر .

برقية ...

كنت فى هذه الأيام لا أفكر إلا فى شيء واحد وهو أن أذهب إلى القاهرة وأستشير اخوانى ومخاطبة النحاس باشا فى حالتي ، ولكن من هو الذى يقوم بذلك من بين أصحابى الذين لهم شخصية تؤهلهم لمباحثة رئيس الوزراء ...

وإذا بخبر قرأته فى الصحف أن رشيد بك الحاج إبراهيم أحد مجاهدى فلسطين الذين أبعدها فيما مضى إلى جزر سيشل قد جاء مصر لمباحثة الوزارة فى أمور تموين العرب فى فلسطين وقد سبق أن كنت الواسطة فى ربط المودة بينه وبين الباقين من أسلافه فى سيشل مصطفى النحاس باشا ومكرم عبيد باشا وزير المالية بعد ذلك ، فركبت إلى مدينة سمندود بلدة النحاس باشا ومسقط رأسه ، وأبرقت منها إلى الدكتور خورى البرقية الآتية :

سمندود ١ مارس ١٩٤٢ - الدكتور جاك خورى الفجالة ٦٤ بمصر .

ترجوكم الترحيب برشيد وتكلفوه بصفته قادم لمصر خصيصاً لمسألتنا بمقابلة رئيس المحفل وكرم وهو يخلصها بهمة فالظرف مناسب .
إمضاء « يعقوب البخارى »

فقال والله إن ظنك في محله لأن الطويل من الرجلين هو ضابط المباحث السرية والثاني من أعوانه !



الله يسترها معك ...

— لا أزال أقرأ في الجرائد أخبار
تقاطر اليهود على فلسطين في السفن
الإنكليزية بالألوف ، فقلت في نفسي
صبراً فإن انكسار إنجلترا في الحرب
سيجعل مشكلتهم وسيهربون من فلسطين
قبل خروج الإنكليز منها ...

— كنت أذهب قبل غروب كل
يوم للمشي على كوبرى المنصورة للتريض
فأمر بفقر مريض منكب على وجهه
بدون أن يثقل على المارة بطلب الإحسان
لأن حاله كان أبلغ من سؤاله فكنت
أميل نحوه وأعطيه صدقة فيرفع رأسه
المهيب ويقول لى «الله يسترها معك»
فكنت أستبشر بهذا الدعاء وأتيمن به

— بلغنى أن من جملة البيوت التى فتنوها بمصر منذ شهر منزل صديق الأستاذ سامى
الشوا الموسيقار المشهور، ولكنهم لم يجدوا فيه طبعاً إلا الكمنجات وآلات الطرب! وقد بلغنى
أنهم لما فتنوا دار الشيخ إبراهيم إطفيش فى المطرية نزلوا إلى البدرين للتفتيش عنى بعد
أن كسروا الباب فوقف لهم أحد أطفاله وأخذ يسخر منهم ويقول لهم : أنتم تعملون الآن
مثل الحرامية ...

— وقد تذكرت الآن غلطة كدت أقع فيها بيد ضابط من الشرطة لولا إلهام الله ،
وذلك أننى نويت مرة أن أسكن المطرية بقرب دار الشيخ إبراهيم إطفيش فوجدت مسكناً



للأجرة ولكن اتضح قبل
الاتفاق أن العمارة يملكها
أحد كبار ضباط البوليس وأنه
يسكن جانباً منها !

— شتم أحد مراسلي
الصحف الإنكليزية أهالي
سنغافورة لأنهم وقفوا يتفرجون
على احتلال اليابان لبلادهم
بعدم اكتراث، ثم وصفهم
بالبلادة ! يعنى ان هذا التخزين
كان ينتظر منهم الدفاع عن
انجلترا التي أهلكتهم ...

في أثناء حياة الاستقرار

رحلة إلى القاهرة ومقابلة حافظ بك عوض

وأخيراً خطر لي أن أباشر العمل . ولذلك طلبت من أحمد حسن بدر أن يرافقني إلى
القاهرة ففعل ، ووصلنا إلى منطقة المطرية بطريق بنها وميت كنانة وطوخ وشبين القناطر،
ولما نزلنا في محطة المطرية وجدت نفسى بين أحضان شخص تلقفنى وأنا أقفز درجة القطار
فانتفضت انتفاضة شديدة لأنى ظننته من الشرطة ... ولكن لما تبينت وجهه إذا به صديق
الشيخ ابراهيم اطفيش ، ففرحت به فسألنى عن حالى فقلت له إن الفرج قد اقترب وستسمع
عنى ما يسرك . فابتهج ودعا لى ثم ودعته ومشيت مع رفيقى وهو لا يدرى إلى أين أقصد .
وبعد ذلك وقفت وأشرت إلى « فيلا » وقلت له هذا بيت أحمد حافظ بك عوض فعليك أن
تسأل عنه وتجتهد في مقابلته وحدك ، وإن كان عنده أحد فاطلب منه سراً أن يصرفه بأى شكل

كان لأجتمع به وحدي . فذهب وجلست على حجر تحت شجرة ، وكان الوقت يقترب من الغروب . وبعد لحظة رأيت شخصاً يغادر منزل حافظ بك ، ثم جاء أحمد بدر يقول إن حافظ بك ينتظرك وحده . فأسرعت إليه وكان ينتظرنى بباب الحديقة فرحب بى وعانقنى ثم قادنى إلى غرفة صغيرة فى الحديقة وقد كتب على بابها بخط جميل «حجرة الذكريات» فدخلنا وأجلت نظرى فيها وكنت أعرفها من قبل ، فأخذت أقتش عن الصور التى ضمتنى مع حافظ بك فى حفلات ومجتمعات فرأيت فيها شبابى الغارب وهنأتى الزائل ...

كان الحديث هنيئاً لطيفاً مع حافظ بك ، لأنه الصديق الوفى القديم الذى يرتاح إليه الخاطر وتطمئن النفس إلى صحبته .

قلت لحافظ بك إننى قادم من بعيد وأريد أن أستشيرك فإن موقفى الآن قد تحسن بوجود مصطفى النحاس باشا فى الحكم ، فأنا أريد أن أسلم نفسى إليه بلا قيد ولا شرط لأنه مجاهد ويقدر ظروفى ، وهو مع ذلك يحببى ، فهل أذهب إليه بغتة وأقدم إليه نفسى أم تستحسن الاستئذان منه ، وهل نجتمع أولاً بمكرم عبيد باشا صديقنا القديم الذى هو موضع ثقة النحاس باشا ونستشيره ، وكيف نستطيع الاجتماع به وحده ؟ إنى أتصور أن الناس لا يفارقون مكرم باشا لانهاراً ولا ليلاً ، فهم عنده وحوله فى داره وفى مكتبته فى كل وقت ، فما هو الحل الذى تراه ؟ فقال حافظ بك إن الذهاب إلى النحاس باشا رأساً فيه إحراج له ، فالأحسن أن أذهب أنا إلى مكرم باشا وأتفق معه أولاً وبعد ذلك نرى ، فإما أن يكلم هو النحاس باشا قبل الاستسلام ويستشيره فى الأمر ، وإما أن يوافق على مفاجئة النحاس باشا بذهابك إليه ووضع أمام الأمر الواقع .

وهنا تذكرت كلام وكيل إدارة المطبوعات الوفدى لما قال لى فى سنة ١٩٣٧ بلسان حكومة الوفد «إنها الآن حكومة وليست هيئة مجاهدة حرة» ...

وأخيراً اتفقنا على أن يجتمع حافظ بك بمكرم باشا ويبسط له المسألة ويأخذ رأيه قبل أن نقوم بأى عمل . ومكرم باشا صديق قديم وقد نصرته فى مناسبات عديدة فلا أظنه يقصر ، لا سيما أن المسألة مشرفة وليس فيها أى خسارة للوفد بل على العكس فيها ربح أدبى

له لأننا لا نطلب إلا رفع ظلم وفيها ثقة به ودعاية له ، وأن مساعدتي هي واجبة على كل إنسان ، فكيف بحكومة مجاهدين جرب رجالها الظلم واحتملوا الأذى . فلا يعقل أن يخذلوا صديقاً لهم أصابه الكثير من المكروه بسبب حبه لهم وميله نحوهم ...

وأخيراً أعطيت حافظ بك عنواناً وإسماً وقلت له يمكنك أن تكتب لي بعد أسبوع ببعض الكلمات المهمة ، فأفهم منها نتيجة سعيك ، ثم ودعته وودعني ، وعدت ومعي رفيق إلى المنصورة في سيارة خاصة استأجرناها من « جراج » يواجه السجن الذي كنت فيه ! فوصلت المنصورة بعد منتصف الليل

برنامج للمستقبل ...

رجعت إلى مكمنى القديم أعد الساعات وأحصى الدقائق وأفكر في المستقبل ، ثم رسمت البرنامج الآتي : متى انكسر الإنكليز وتفكك الاستعمار يصبح في إمكانى السفر والتنقل في جميع أنحاء العالم ، وسأجعل ديدنى التشهير بالإنكليز ونشر فضائهم وتعييرهم بما اقترفوا مع الخلق حتى لا يشفق عليهم أحد بعد كسرهم ، لأنى أتوقع منهم المسكنة أمام المنتصرين كعادتهم كلما وقعوا في المأزق .

أما إن انتصر الإنكليز والعياذ بالله ولا أراى ذلك اليوم فإن الصراع سيكون معهم شديداً وإنى أتوقع منهم غطرسة أشد من الأول ، وأنتظر للأمم الضعيفة على أيديهم أنواع القهر والذل والوقاحة . ثم أمسكت عن التفكير ووضعت الكفين على عيوني من هول هذا الخاطر محاولاً طرده من ذهنى ، لأن انتصار الإنكليز معناه شقاء الإنسانية لعدة قرون مقبلة ، وبقاء العالم الشرقى في ظلام الأسر والعبودية زمناً طويلاً .

عبد الله نديم

يظهر أن محيط الإنسان وحالته توحيان إليه الاهتمام بكل ما يشبه محيطه وأحواله ، ولذلك كنت أهتم كثيراً بأخبار الهاربين من الدول والملوك والحكام ، ولا شك في أن المرحوم الشيخ عبد الله نديم ، أحد أركان الثورة العرابية في مصر ، يعتبر في العصر الأخير أشهر هارب من « الدولة » ...

خلاصة قصة

وأخبار السيد عبد الله نديم في هربه كثيرة ، لأن مدة فراره كانت طويلة تجاوزت التسع سنين ، والفضل في عدم عثور الحكومة عليه يرجع إلى كون أخلاق الناس في ذلك الزمن كانت أقوم وأكرم ، فإنهم عرفوه ولكنهم لم يفشوا سره ولا أطمعهم ذهب الحكومة ، كما أن بوليس الجواسيس المنظم لم يكن موجوداً في ذلك العهد . فلو كان هذا البوليس الملقب بالسياسي في تلك الأيام موجوداً مع فساد أخلاق الناس اليوم لوقع عبد الله نديم لاحالة .

وقد قرأت كتاب « الاحتفاء في الاختفاء » وهذا تلخيص مختصر جداً لأشد الشدائد التي عاناها المرحوم أسردها بعد أن أنقل عن التاريخ الحديث كيف كانت أسباب هربه .

وذلك أنه لما انكسر المرحوم أحمد عرابي باشا أمام الإنكليز سنة ١٨٨٢ بسبب خيانات الخائنين كان منهم الأمير لاي على يوسف خنفس الذي سلم فرقته للإنكليز ثم هرب بعد أن أرشدهم إلى طريق الاستيلاء على العاصمة وعلى القلعة ، ومنهم محمد سلطان باشا الذي كان يتولى إفساد الأعراب والبدو في أثناء زحف الإنكليز ، وكان سلطان باشا ينشر لهم الدعاية بتخذيل الأمة المصرية والطعن في المجاهدين فيمد يده للخنونة بالمال الذي سلمه إياه الإنكليز لهذا الغرض ويذيع النشرات المطبوعة فكان يقوم لهم بما يسمى الآن « إدارة الدعاية والاستخبارات » أو « الاتلجنس سرفيس » فكان هذا الرجل من أكبر العوامل في هزيمة الأمة المصرية وانتصار الإنكليز عليها . ومن الغريب أن الإنكليز بعد ذلك لم يكافئوه على خيائته بمنصب كبير كما كان يرجو ، بل أعطوه مبلغاً كبيراً من المال ! فانكمد ولزم بيته إلى أن هلك غماً وقهراً . أما الأجانب الذين كانوا السبب الثالث في هزيمة مصر فأكبرهم جرماً السيودى ليسيبس مهندس قنال السويس ، فإنه أكد للعرايين أن هذا المنفذ الخلفى للبلاد لن يمس بسبب حياد القنال ، ولكنه كان متفاهماً مع الإنكليز على اقتحام العاصمة المصرية منه وطعن العرايين من وراء .

فرار عبد الله نديم

ولنرجع الآن لعبد الله نديم فأقول أنه لما سمع بالهزيمة والقبض على المرحوم عرابي باشا وإخوانه ، بقى في داره بجهة العشماوى ، وفي الصباح ركب عربة ومعه خادمه فلما وصلا إلى

بولاق ودعه أبوه واختفى هو وخادمه ولم يظهر لهما أثر ، فأقام مختفياً نحو تسعة أعوام لايهتدى أحد إلى مكانه ، وقد أعيا الحكومة المصرية أمره ، حتى جعلوا ألف دينار لمن يرشد إليه ، وبشوا عليه العيون ، فلم يظفروا بطائل فلما أعتبهم الحيل حكموا عليه غياباً بالنفى مدة حياته من القطر المصري ، وقد ينس أصحابه من وجوده وأشيع القبض عليه وخنقه سرّاً ، ومنهم من أشاع موته حتف أنفه ، ومنهم من أشاع هربه إلى أوربا ، فعُد اختفاؤه من الأمور الغريبة ، ولا غرو فأمره غريب من أوله . وكان من خبر اختفائه أنه لما ودع أباه ببولاق قصد دار الشيخ مصطفى أحد أصدقائه فأقام بها أياماً ثم غير زيه فلبس ثوباً من الصوف الأحمر المسمى بالزعبوط واعتم بعمامة حمراء ، وأسدل على عينيه منديلاً وأطلق شاربيه وأعفى لحيته حتى تغيرت هيئته . ثم نزل مع خادمه في سفينة قاصدة بنها ثم انتقل منها ووصل إلى بلدة تسمى « منية الفرقى » بقرب طلخا وقصد رجلاً من مشايخ الطرق الصوفية كان أخذ عليه العهد في السلوك إسمه الشيخ شحاته القصبى ، وكان مشهوراً بين الناس بالصلاح والتقوى ، فلما دخل عليه لم يعرفه لتغير شكله ، فجلس هنيهة حتى انصرف الزوار من المجلس ثم اختلى به وعرفه حاله وأقام عنده ثلاثاً ثم أشار عليه الشيخ بالانتقال واعتذر بكثرة الواردين ، فتنحول إلى دار أحد دراويش الشيخ الموثوق بهم ، فأواه شهراً ثم قصد بلدة أخرى وطوحت به الطواغ ولقى الأهوال . وحدث أنه نزل مرة مختفياً عند قوم فأخفوه في قاعة مظلمة يتساوى فيها الليل والنهار ويتوصل إليها من سرداب طويل شديد الظلمة ، وكانت أرضها ترشح الماء لانخفاضها وقربها من خليج مار بجانب تلك البلدة . وكان لا يتمكن من الكتابة والمطالعة إلا على مصباح صغير من زيت الحجر المسمى بالغاز أو الجاز كثير الدخان فقاسى الشدائد بهذا المكان تسعة أشهر .

حالة عبد الله نديم بعد ذلك

ولما خرج منه كاد لا يبصر الطريق لما غشى عينيه ، وكان كلما حل وارتحل يغير اسمه ولحيته ، فتارة يبخر لحيته بالكبريت حتى تبيض ، ويخضبها بالحناء أحياناً أخرى ، وكان اسم خادمه « حسين » فسماه « صالح » وخفى أمره على الناس وظنوه شيخاً من الصلحاء ، حتى لقي

بعض من يخشاه وحادثه فستره الله وشمله بعنايته حتى فارقه . ثم ألفت به يد الإقدار إلى بلدة تسمى « العتوة القبلية » بمديرية الغربية ، فاحتفى عند عمدتها الشيخ محمد الهمشري فأكرم مشواه وأقام في داره ثلاث سنوات ، وقد تزوج فيها وولدت له بنت وماتت ولم يشعر به أحد . وزوج خادمه حسيناً بأخت زوجته ثم مات في أثناءها رب الدار وكان شهما ذا مروءة كبيرة وله امرأة مثله شهامة وحمية ، فاستحضرت أكبر أولادها وأعلمته أن ضيفهم المحتفى عندهم هو عبد الله نديم طريد الحكومة ، وسألته هل يطمع في المكافأة ويسلمه أم يكون كأيّيه في حفظ الجار وحماية الزمار ؟ فاهتز الولد لقولها وأبى إلا أن يقتدى بأبيه في الكرم ، ولعمري أن ما أتته تلك الأسرة من مكارم الأخلاق وعلو الهمة لما يندر مثله في هذا الزمن . وتنقل المرحوم من بلد إلى بلد وماتت زوجته ثم ذهب إلى القرشية نزبلاً عند أحمد باشا المنشاوي ، فكان يجتمع به هناك صديقه القديم الأديب محمد التيمي الفلسطيني الأصل ، وتزوج هناك بينت مصطفى منى من أهل « المحلة الكبرى » إلا أنه لم يحمّد المقام فانتقل إلى دار التيمي في شهر ذي القعدة سنة ١٢١٥ فأقام بها شهراً ثم سافر إلى الدجلون بمديرية البحيرة فلم يمكث بها إلا نحو أسبوع وعاد إلى الغربية وقصد « البكاتوش » فكان يقيم تارة عند عمدتها الشيخ ابراهيم حرفوش ، وينتقل تارة إلى دار جاره أحمد جودة ، وكان رجلاً قوى الجنان لا يبالي بظلام الليل أنى سار فيه ، فصار يصحب المترجم إذا أراد الانتقال من بلد إلى بلد في الليل الخالك ، ويتجشم معه أضيق المسالك وجعل المترجم إقامته بين البكاتوش وشباس الشهداء ، ينزل فيها عند محمد معبد الحلاق فيلقى عنده من الكرم والمروءة ما لقيه ابراهيم بن المهدي عند ذلك الحلاق المشهور مدة اختفائه من عمه الخليفة المأمون ، ولم يزل عبد الله نديم كذلك حتى انتقل عند صديقه وصديقنا^(١) الأديب الكامل والشاعر النثر محمد افندي شكري المكي كاتب المركز بدسوق ، أخبرني الأديب المذكور قال : بينما أنا بالمركز يوماً إذ دخل على الشيخ ابراهيم حرفوش عمدة البكاتوش فسلم وجلس ولحمت منه أنه يريد أن يسر إلى أمراً فترقب

(١) المتحدث هنا هو المرحوم أحمد تيمور باشا العالم الشهير ، لأنّ الحصة الحكاية عن الكتاب الذي أصدره عن عبد الله نديم .

خلو المسكان ثم أخبرني أن شخصاً عنده مشتاق إلىّ وهو صديق لي لم يرني منذ ثمان سنوات، فاستخبرته عنه فانصرف ولم يخبرني عنه ثم صار يتردد على بعد ذلك إذا كرني في هذا الصديق ولا يبوح باسمه .

لقاء عبد الله النديم بصديقه القديم

ولما وثق مني أخبرني بأن الرجل محتف واسمه عبد الله ! فقلت له لعله عبد الله نديم ؛ فقال نعم هو ؛ فكتبت له بيتين من نظمي وسألته توصيلهما إليه وهما :

ولقد نذرت إذا لقيتك سالماً لأقبلن مواطىء الأقدام

ولأثنين على سجايك التي حثت على التحرير والإقدام

فذهب بهما وعاد إلى بعد يومين بقصيدة من نظم عبد الله نديم بخطه عدتها مائة بيت من البحر والقافية يتشوق فيها إلى ويذكر ملاقاته أيام الثورة والاختفاء ويتمنى لو فرج الله عنه فيفعل كيت وكيت ، وكأنه نسي نفسه وما هو فيه من الضيق ، فكتبت إليه أبياتا أطلب الاجتماع به ، وبعد أسبوع حضر ابراهيم حرفوش ومعه ورقة بخط المترجم يطلبني فيها إليه في يوم الجمعة بشباس الشهداء ، فذهبت في الميعاد فوجدت محمد معبد الحلاق ينتظرنني ، فذهب بي إلى داره وهي دار صغيرة على تل ، وقد أنزلوا المترجم في مكان عال لا سلم له . فصعدت إليه على سلم من الخشب رفعوه بعد صعودي ، فلما التقينا ووقعت العين على العين تعانقنا طويلا وأدركتني عليه شفقة فقبلت يده ثم جلسنا نتحدث في القديم والحديث وأطلعني على كتبه التي ألفها مدة الاختفاء منها بديعية له شرحها شرحاً لطيفاً لم يكمله ، وثلاثة دواوين من نظمه وجزء من كتاب « كان ويكون » ثم فارقت وقت العصر .

عذاب وخيانة

وانتقل المترجم عند صديقه المذكور بزوجه وكتبه ، مدعياً أنه ابن عمه أناه زائراً من الحجاز وسمى نفسه « على اليمنى » فسكث نحو ستة أشهر ، ثم انتقل بمفرده إلى شباس الشهداء ولحقت به زوجته بعد عشرين يوماً ثم أعادها إلى دار شكرى افندى بدسوق ولحقها فسكثا ستة أشهر أخرى ثم عاد إلى البكاتوش عند أحمد جودة . وكانت زوجة عبد الله نديم تسمى إليه وتغاضبه ، فجمعت عليه مع ضيق الاختفاء سوء معاشرة الأهل ، حتى ضاق ذرعه منها

مرة وهم بإظهار نفسه للحكومة ! ثم تراجع وأصلح أمره معها . ثم تشاجرا فلكمته مرة على فمه فكادت تسقط ثنيته من الفك الأعلى فربطهما بخيط من الحرير ، وكان خادمه حسين مختفيا مع زوجته ببلدة الجميزة التابعة لمركز السنطة ، فطلبت زوجة عبدالله نديم الذهاب إليه فأذن لها فلما استقرت عنده تشاحت مع زوجته وكاد الأمر ينفضح فأسرع الخادم لسيدة بالبكاتوش مستغيثا ، فانتقل المترجم إلى الجميزة وأصلح بينهما وبقي هناك نحو شهرين فاستأنس وطاب له المقام وعرفه عمدة البلدة فتغاضى عنه وكنتم أمره ، فكان يخرج للتزده على غير عادته في الاختفاء فيلتف عليه العمدة وبعض أناس من البلدة وهو يقرأ لهم ويعظهم ويسامرهم وهم مبتهجون به .

القبض على النديم

وكان يتردد على البلدة رجل يقال له حسن الفراجي كان منتظما في المعسكر ، ثم استخدم جاسوسا سريرا . فلما بصر بالمترجم أنكر حاله لما رآه عليه من سياء الاختفاء ورجح أنه عبدالله نديم . فكتب إلى الديوان الخديوي ينبئهم بوجود رجل من العرايين مختف بالجميزة ثم أسرع إلى ديوان الداخلية فأوضح لهم أمره ، فأعطوه ورقة فيها صورته ووصفه فلما تحقق منه أخبرهم به فأمروا بالقبض عليه . وحضر من المديرية محمد افندي فريد « وكيل الحكمدار » ومعه نفر من الشرطة وقد ستروا ملابسهم بثياب أخرى ، فأحاط بعضهم بالبلدة متفرقين وصعد وكيل « الحكمدار » مع الآخرين على تل مشرف على أفنية الدور وأحس المترجم بتلك الحركة فأوجس في نفسه خيفة ، وأراد الانتقال إلى دار أخرى فأخذ عباءته على كتفيه وصعد على سطح المكن فابصره الذين على التل ، فصاحوا وضربوا بنادقهم عليه ، وأمروه بالنزول ، فنزل ثم أحاطوا بالدار وطرقوا الباب طرقا عنيفا وأيقن المترجم أنه مأخوذ لا محالة ففتحه لهم وواجههم متجلدا . فسأله محمد افندي فريد عن اسمه فقال : سبحان الله أتجهل اسمي وأنت مأمور بالقبض عليّ ؟ أنا عبد الله نديم ذو الذنب العظيم وعفو مولاي الخديوي أعظم سلمت أمري لله . فقبضوا عليه هو وخادمه وأعمامهم الله عن كتبه وأوراقه ، ولولا ذلك لأصابه شر عظيم بسبب أهاجيه القبيحة في الخديو وأسرته . وكان القبض عليه في ٢٩ صفر سنة ١٣١٩

ولم ينل الواشى شيئاً من المكافأة لفوات الأجل المضروب لها . ثم استاقوها إلى المركز وسألوه عن اختفى عندهم فلم يقر بأحد وسألوا خادمه وضربوه فأقر بالبعض ثم نقلوها إلى المديرية بطنطا فسجنا بضعة أيام ووكيل النيابة بالحاكم يوالى سؤالها وانتهى الأمر بعفو الخديو عنه وعن آواه ونفيه خارج القطر فأرسل إلى مدينة يافا حيث بقي فيها بضع سنين^(١) ثم أعيد إلى مصر رحمه الله .

آمالى إن جاء الفرج

ولنرجع إلى حياة التربص في المنصورة ، فقد سهر الأستاذ با كثير وأحمد بدر عندي ذات ليلة فقلت لهما إن قدر لى الله السلامة وانتهت حالى إلى خير فإن برناجى أن أقطن فندق الكوتننتال بالقاهرة مؤقتاً لاستقبال زوارى وإخوانى لبينا تجىء قرينتى من المنفى ، وبعد رجوعى إلى دارى سأقيم حفلة شاي بفندق الكوتننتال لجميع أصحابى والذين أظهروا نحوى إحساسهم الطيب ، لشكر فضلهم . فقال الأستاذ با كثير وأما أنا فسانظم لهذه المناسبة قصيدة ترقص لها عجائز وائل ! فقال أحمد بدر أما أنا فسأكون مع الوافدين إلى القاهرة لحضور مراسم السلام والتهنئة وسأحضر حفلة الشاي مع وفد من المنصورة . فقلت حقق الله هذه الخيالات .

فإن نعش نبصر الباكين قد ضحكوا والضاحكين لفرط الجهل با كينا

كتاب نظرات الشورى

فى سنة ١٩٣٢ أردت أن أفضض عن خاطرى فأصدرت كتاباً باسم «نظرات الشورى» ضمنته ما كان يجول فى صدرى مع بعض الحوادث والوقائع والتجارب وطبعت منه ثلاثة آلاف نسخة نفدت فى شهور .

والشاهد هنا أننى ذكرت فى ذلك الكتاب أننى أتوقع أن الأيام ستكشف لى عن حقائق ما كنت أراها فى ذلك الوقت ، وأن بعض الذين أثبتت عليهم قد خدعونى ، وأن بعض من

(١) كانت حياة المرحوم عبد الله نديم فى يافا هنيئة مجيدة ، لأن أهلها أكرموا وآنسوا غربته ، كما أنه جذب قلوبهم بجميل حديثه ولطف معشره وأنشأ مع أعيانها صداقات وثيقة عالية .

ذكّرتهم بالخبر سير تكبون نحو وطنهم ما يحملني على الندم وربما أعمد إلى الحملة عليهم ، فالدهر قلب وأخلاق الناس لا يضمنها الإنسان إلى الغد .

ومضت الدنيا في حرّكتها المستمرة ، فإذا بالذي توقعته قد حدث مع الأسف ، فإن بعض الناس قد انقلب ، وبعضهم قد انتكس ، وبعضهم خانني ، وآخر غدر بي ، وغيره لم يقابل ودادي بوداد ولا ظني بمثله ، كما أن بعضهم صحح موقفه مع أمته وعاد إلى الصواب .

وهناك تنبوءات وقعت ، وآمال تحققت ، ونظريات صحت ، ولو أردت أن أضرب الأمثلة لطال بي الكلام ، ولكنني اكتفى بنماذج مختصرة مختزلة ، فمن ذلك أنني كتبت في مطلع نظرات « الشورى » عن شخص أنه المحسن العظيم وأنه تبرع بكذا للمدارس وبكذا للفقراء فإذا بي أكتشف بعد شهر من طبع الكتاب أن ذلك المحسن كان كاذباً وكان مخادعاً ، وأنه لم يتبرع بشيء . وبعد خمس عشرة سنة يموت الرجل عن ثروة عظيمة فلا يوصى بشيء للخيرات بل يترك ثروته لأولاده وكلهم فاسد وكلهم شرير .

ومن ذلك أنني ذكرت أحدهم أنه قام بمشروع وطني مالي كبير وأنه سيخدم به الأمة والوطن ، فلما نجح المشروع واغتنى تبين أنه من أخس الناس وأنه استثمر الحركة الوطنية واستغل الشعور القومي ليجمع المال لنفسه . ومن ذلك أنني حملت على المرحوم مولانا شوكت علي الزعيم الهندي والمرحوم عبد الحميد بك سعيد والمرحوم السيد محمد الغنيمي التفتازاني وغيرهم بسبب غلطات بدرت منهم في المؤتمر الإسلامي العام بالقدس سنة ١٩٣١ فإذا بالزمن يغير الظروف ويجعلهم يصححون ذلك الموقف ويجعلني أذكرهم في هذا الكتاب بالخير .

السجون القديمة

قرأت للأستاذ صلاح الدين المنجد الأديب الدمشقي فصلاً يناسب ما نحن فيه الآن فأحببت أن أسجله هنا ضناً بالمعلومات القيمة التي وردت فيه وقيمتها التاريخية قال .

كان في نورمبرغ بألمانيا سجن يتناقل الناس أشد الأخبار هولاً عما كان المسجونون يسامون فيه من البلاء ، وكان يعرف « بالسجن الأحمر » وكانوا يقلعون أظفار السجناء ويفقون عيونهم ، ويضغطون على عظامهم بالآلات الحديدية فتسحقها وتهرسها ، أو يدفعونهم

ليناموا في أسرة ذات مسامير محمّة تنخزهم وخزاً مؤلماً فتسيل دماؤهم . وكان في السجن نفسه كساء حديدى يدخل فيه المسجون فيطبق عليه وفي داخله مسامير حادة تنفذ في الجسم فيقاسى الرجل أنواع الألم حتى يموت .

وكان في مدينة لاهاى بهولندا سجن يسمى « جيفا نجن بورث » كان المسجونون فيه يصابون بالجنون قبل أن يموتوا لشدة ما كانوا يعانون من العذاب كالكي بالحديد وقطع الأعناق بحز الرؤوس حزاً بطيئاً .

وفي مدينة هاليفكس بالجلترا كانوا يأتون بالمسجون وهو موثق اليدين والقدمين فتوضع عنقه تحت آلة قاطعة مدلاة مربوطة إلى السقف بحبل إذا انقطع سقطت الآلة الحادة على عنق الرجل فمات . وفي سجن قلعة سان ميشيل في فرنسا كان السجناء يدفعون إلى كهوف في بطن الأرض فيها الأفاعى وضروب الحشرات ، وقد ملئت بالماء الراكد القذر ، فيموت المسجون موتاً بطيئاً وربما ضرب أو عذب حتى يموت ، وفي سجن الشاتليه بفرنسا كانوا يضعون السجناء في أقفاص الحديد مع الجرذان والحشرات^(١) .

اللهو

على أننا نرى من تمام البحث وقد أوردنا طرفاً من ألوان التعذيب أن نسوق طرفاً من اللهو الذى كان يتمتع به بعض المسجونين السياسيين في بعض العصور « الإسلامية » فقد حدث أبو على ابن مقلة الوزير الشهير قال « من ظريف ما اتفق لى في نكبتى التى أدتني من الوزارة ، إني أصبحت وأنا محبوس مقيد في حجرة من دار ياقوت أمير فارس وقد لحقني من اليأس من الفرج وضيق الصدر ما أقنطنى وكاد يغلب على عقلى . وكنت أنا وفلان محبوسين مقيدين في بيت واحد فدخل علينا كاتب لياقوت كان كثيراً ما يحيئنا برسائلته . فقال إن الأمير يقرأ عليكما السلام ويتعرف أخباركما ويعرض عليكما قضاء أى حاجة لكما . فقلت تقرأ على الأمير السلام وتقول له ضاق والله صدرى واشتهيت أن أشرب على غناء طيب (قال) وكان المحبوس معي

(١) أثبت هذه المعلومات بقصد استنفاذها والاشتمزاز منها والحجل من اقترافها ، وليس لأجل أن

يعجب بها بوليس عصرنا فيعيدها سيرتها الأولى ...

يُخاصمني ويقول يا هذا والله ما في قلوبنا فضل لهذا . ثم مضى الخادم وعاد يقول: الأمير يقول حباً وكرامة لك أى وقت شئت . قلت الساعة . فلم يعض إلا ساعة حتى جاءوا بالطعام والمشام والفاكهة والنيذ وصفف المجلس فجلست والمحبوس معى مقيداً وقلت له تعال حتى نشرب وتتفائل بأول صوت يغنى به لنا في هذه الساعة وجاءت الغنية وغنتنا غناء طيباً فقطعنا يومنا بين لهو وشراب وغناء ...

وحدث أحمد بن المدبر أنه لما أمر محمد بن عبد الملك الزيات بحبسى أدخلت محبساً فيه أحمد ابن إسرائيل وسليمان بن وهب فجعلت في بيت ثالث وكنا نتحدث ونأكل جميعاً وربما أدخل إلينا النيذ فنشرب ونلهوا ...

مدة السجن

ولم يكن للسجن مدة خاصة ، ولم يكن لكل جرم عقوبة ذات أجل معروف . فقد حبس إسحق بن خلف القاتل حتى مات ، وهذا ما يشبه السجن مدى الحياة في أيامنا . وسجن يعقوب بن داود خمسة عشر عاماً . وسجن أبو نواس ثلاثة أشهر بدون محاكمة ، وأبو دلامة ليلة واحدة . وحبس الرشيد زلزلاً المغنى لوجد عليه عشر سنين ، وسجن الخليفة القاهر إحدى عشر سنة ، في حين سجن الخليفة المتقي في جزيرة خمساً وعشرين سنة ، وهذا ما يشبه الاعتقال مع الإبعاد في هذه الأيام .

الفرار من السجن

أما الفرار فحوادثه كثيرة نسوق إليك منها مثلاً : حدث محمد بن القاسم وكان الخليفة المتوكل قد قبض عليه وسجنه في سجن منفرد ، قال : كنت أدبر أمرى في التخلص منذ حبست ، وكان في المكان الذى حبست فيه خلأ إلى الغرفة التى فوقه ، وخلأ في الغرفة إلى سطحها . وكنت قد أدخلت معى منذ حبست لبدأ فكان وطأى وفراشنى ، وكنت أرى (بفرش) وهى قرية من قرى خراسان حبالا تعمل فيها من لبود كما يفعل بالسيور فتجىء أحكم شئ . فسولت لى نفسى أن أعمل من اللبد التى تحتى حبلا ، وكان على باب البيت قوم وكلوا بى يحفظوننى لا يدخل على منهم أحد ، وإعما يكلموننى من خلف الباب ويناولوننى

من تحته ما أتقوته . فقلت لهم : إن أظفاري قد طالت جداً وقد احتجت إلى مقراض ، فجاءني رجل بمقراض ، وقلت لهم إن في هذا البيت فيراناً تؤذيني فاقطعوا لي جريدة من النخل تكون عندي أطردهم فيران بها ، فقطعوا لي جريدة من بعض نخل البستان ورموا بها إلي ، فأخذت أضرب بها وأسمعهم صوتها أياماً ، ثم قشرت الخوص عنها وقطعتها على مقدار ما عمت أمها تعترض في ذلك الخلاء الذي في السقف إذا رميت بها ، فضممت كل ما قطعته منها بعضه لبعض وقطعت اللبد وضفرت منه حبلاً على ما كنت أراه يعمل « بغرش » ثم شددت ما قطعته من الجريدة في رأس الحبل ثم رميت به في الكوة وعالجته مراراً حتى اعترض فيها ، ثم اعتمدت عليها وتسقلت إلى الغرفة ومن الغرفة إلى سطحها ، وفعلت ذلك أياماً وشددت القيد مع ساقى . فلما كان ليلة العيد وقد شغل الناس وانصرف من كان على الباب صعدت بين المغرب والعشاء إلى الغرفة ، ومن الغرفة إلى سطحها ، ثم تدليت بالحبل إلى بستان مجاور وفرت « اه .

أوردت هذه الأخبار عن بعض المماريين والسجون والمسجونين قديماً . وسأورد بعد هذا الفصل شيئاً عن التعذيب في عصرنا لمناسبة ذلك لما كنت فيه ، لأن الجو والمحيط وكل شيء حول هذا الكتاب يتناسب مع هذه الحوادث والوقائع . وعلى كل حال فها إنى قبل أن أعود إلى أخبارى أحب أن أسرد شيئاً مما وعدت به .

التعذيب في مصر والشام

إن أول ما عرفناه من أخبار تعذيب المتهمين السياسيين في مصر ، هو التعذيب الذي كان يجري من البوليس السياسى فى القضايا الوطنية فى عهد الحماية الإنكليزية إلى سنة ١٩٢٤ وهذا التعذيب لم يكن فظيلاً إلى الدرجة التى وقفنا على أخبارها بعد ذلك ورأينا وجوه ضحايا وعرفنا الذين جنوا عليهم بالاسم والذات ، وليس المقام هنا ذكر أسماء الضحايا ولا الجناة الذين ضربوهم وعذبوهم ، بل وصف أنواع التعذيب على سبيل الاختصار ، حتى إذا جاء جيل جديد مستنير شهم غير جيلنا الذليل الحاضر ، اشأز من تلك الفظائع وخجل منها وعاقب مرتكبيها إن ظفر بالأحياء منهم ، ليمنع وصمة هذه الفظائع الوحشية عن أولاده وأحفاده وعن مواطنيه .

فالتعذيب الذي عاصرناه يتلخص في حبس الأسرة كلها أحياناً ، وتحطيم ما في الدار من أثاث ، والضرب بالأيدي والأرجل ، ثم بالسياط وبالفلقة ، وبالذوس على الوجه بالأحذية ، ونسف شعر الإبط والشارب واللحي ، والبصق على الوجوه .. وأما في قضايا جمعية الإخوان المسلمين سنة ١٩٤٩ فإن الشرطة فعلت هذا كله ، وزادت عليه انتهاك الحرمات ومحاولة هتك الأعراض وحبس الأخ والأخت والزوجة كرهينة ، وما أشبه ذلك من أخذ البرى بجريرة البرى ... وهناك نزع الأظافر والكي بالنار والوخز بالدبابيس ، والتعليق من الأرجل والتجويد والتعطيش والصلب والشم البذى وترك المعذب بلا علاج ، وعند ما كان يغمى على التهم من شدة العذاب أيقظوه بالنشادر ثم استأنفوا ضربه ...

في سورية

وفي دمشق الشام عذب البوليس العسكرى السوري المتهمين سنة ١٩٥٠ في قضية الدكتور أمين رويحة بمثل الفظائع التي جرت في مصر ، وقد سردت بعضها ، وكان بين المتهمين بعض الشبان المصريين ، فكانوا إن استغاثوا يقال لهم إن هذه الأساليب ليست من ابتكارنا في الشام بل تعلمناها من بوليس مصر ، فهو أستاذنا ...

ألا بنس التلميذ وبنس المعلم والأستاذ ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون ، ولن يهمل ولاية أمورنا الذين يقدرّون على منع هذه الوصمة فيسكتون ولا يعاقبون أولئك المجرمين .

هذا وقد أصدرت في منتصف سنة ١٩٥٠ كتاباً باسم « معتقلها كستب » على أثر عدوان وقع على من إبراهيم باشا عبد الهادي رئيس وزراء مصر سنة ١٩٤٩ بأن قبض على وجبسنى « بمعسكرها كستب » بلا سبب ، ليقلد الإنكليز في البطش والفتك ، فإذا به يتفوق عليهم ويبرزهم ، وكان ذلك في أيام هياجه على « الإخوان المسلمين » . وقد أنزل بهم من ألوان العذاب ما لا يقع تحت حصر ، وقد تمكنت من الاطلاع هناك على أشياء كثيرة من أخبار فظائع التعذيب الذي أنزله هو وبوليسه بالعباد ، فدونت في ذلك الكتاب بعض ما ورد عن الفظائع على السنة المتهمين المعذّبين ، مما رووه أمام المحاكم وأثبتته التقارير الطبية وشهود العيان فليرجع إلى تلك التفصيلات من يهمله تتبع فظائع السجون في عصرنا الكئيب .



صورة أخذت لى فى معتقل ها كستب سنة ١٩٤٩ مع بعض الزملاء وقد وقفت فيها لابساً العباءة والطربوش ووقف إلى يمينى الأستاذ محمد طاهر الحشاش المحامى وإلى يسارى الشيخ صالح عثماوى وهو الذى يضع الكوفية على رأسه

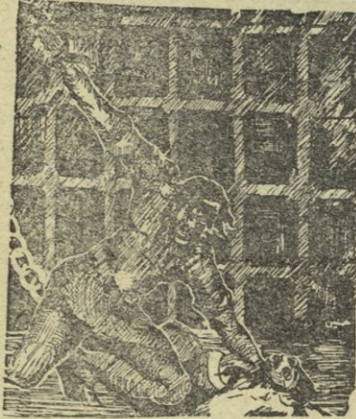
استطراد

لقد مر فى هذا الكتاب أن الظالمين قد قبضوا على زوجتى لى على تسليم نفسى إليهم وأننى بمجرد علمى بهذه النذالة قد أسرع إلى القاهرة لأسلم نفسى ليركوا زوجى، ولكنهم أبعدها عن مصر قبل ساعات من تنفيذ ما عزم عليه، وكدت مرة أخرى أسلم نفسى للظالمين خوفاً على صديقى نسيب شهاب، وفيما كنت أراجع بروفات هذه الفصول حدثنى العلامة عادل زعتر بك نقلاً عن شقيقه المرحوم السيد نبيه زعتر، حين كان ضابطاً فى الجيش العثمانى فى خلال الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ فقد حدث أن « الدنادشة » فى جبال بعلبك قد ثاروا فى تلك النواحي على الحكومة العثمانية وأزعجوها وحاربوها بالسلاح فقبضت على نساءهم انتقاماً منهم، فلما بلغهم ذلك العمل القبيح، نزلوا من معاقلهم وجاءوا إلى دار الحكومة وهم ينكسون بنادقهم وسيوفهم علامة الاستسلام، وكانوا يعرفون أن عقوبتهم ستكون الإعدام، ولكنهم استعدوا لهذا الموت فى سبيل الإفراج عن حريمهم.

فلما سمع أحمد جمال باشا القائد العام - الذى كنا نلقبه بالسفاح - بشهامة الدنادشة، لم يسعه إلا تقدر رجولتهم، فقال إن الدولة ليست أقل شهامة منهم، ولذلك أمر بإخلاء سبيل السيدات وبالعفو

عن الثوار ، وتعين بعضهم في وظائف الحكومة ، ومكافأة آخرين منهم بأوسمة وبعطايا مالية .
هكذا يصنع الشجاع الكريم مع خصومه ، أما البطش والتفطيع والقسوة ، فهذه
الشناعات لا يرتكبها كريم ، ولا يجترحها نبيل ، ولا يتنزل إليها أصيل .

في جميع مقتطفات السيد في النازية



لقد عرّ السّليمان على تسعة
باسمائه فرق الاستيصال . . .
ووقر الانبثاق صفار افعال في
الزراعة على العاصم من مسي
باجم فلما عر على هذا الكشف
السميون ان وثقت الانبثاق
اصد من الاراضين الصخرين
عقدار على عسكري باقضيها
توجه رجال البؤيس اذ دورهم
لنفس عليهم . . . ولكن . . . ولكن
لا عرف الصراط حينهم غافرا
ادركهم بنفي رئيس الوزراء
في العود

في عام ١٩٤٤ واستولت
على باشا الحاكم العسكري
بانتقاله في ١٩٤٩/٢/١٩
وجه الرضا إلى دار القلعة
شخص الحصن دوي عبود
أمنه قتلته على حصون

[illegible]

من عدم الليل
في اصفى الليل كان لاجير
الاستدئين يبعث برجاله مزودين
بالسلحة والمعد بالامهات بيوت
التي لم يظنوا انهم الا ايام
الانقلاب

[illegible]

والجزم بتركه بين

الرجل مستويا عليه على من
توكلهم الله اليه
على السفل
والرجل الذي على السفل
والرجل الذي على السفل

١٠٠
١٠٠
١٠٠
١٠٠

[illegible][illegible]

لوحة شرف المعهد البعثي • • مهددة بالانقراض

هذا رسم زنكغرافي لإحدى صفحات جرائد القاهرة سنة ١٩٤٩ حين بدأت تتمكن من نشر أخبار التعذيب الذي أنزل بالأخوان المسلمين من وزارة إبراهيم باشا عبد الهادي، وهذه الصفحة تكفي الجليل القادم ليحكمها على قضاة ما كان يجري في منتصف القرن العشرين وليس في القرون الوسطى ولا القرون المظلمة.

الدكتور عفيفي باشا والنحاس باشا

ولنرجع إلى حوادثنا ومواضيعنا الأصلية : فقد طال انتظاري وأنا أترقب تغييراً في الوضع السياسي ، أو انقلاباً في حالة الحرب يريح الدنيا من انجلترا ، ولكن لم يحدث شيء . ففكرت طويلاً ثم سطرت كتاباً إلى الدكتور حافظ عفيفي باشا الصديق الكريم ، قلت له فيه إن وزارة النحاس باشا هي بلا شك أقوى بكثير أمام الإنكليز من كل وزارة سبقتها ، وإن الريح الآن مواتية ، لأن مصطفى النحاس باشا هو غير أولئك الذين أزاحهم الله ، فالنحاس باشا زعيم وطني ومجاهد ، وأما أولئك فنكرات وخوارج ، وإنني أثق بالنحاس باشا ومستعد لتسليم نفسي إليه بلا قيد ولا شرط ، ولكني لا أدري كيف يمكن الاتصال به ، ثم قلت للدكتور حافظ باشا إن النحاس باشا يعرفني جيداً ويعرف أنني أحبه وهو يعدني كأحد أولاده ، وقد سبق له أن سماني في سنة ١٩٣٤ بدار مكرم عبيد باشا ونحن على مائدته بأني سفير مصر في الأقطار العربية « ولا يمكن للنحاس باشا مطلقاً أن يسوق هذا الصديق السفير إلى السجن .. » فالملوب الآن هو إما أن يوافقني الدكتور حافظ باشا على اقتحام دار النحاس باشا أو مكتبه برئاسة الوزراء ومباغتته بتقديم نفسي إليه ، وإما أن يؤخذ رأيه أولاً حتى لا يكون في ذلك مني ما يجرجه وهو الآن حاكم ومسئول . فبعثت إلى الدكتور حافظ باشا مع الدكتور بشناق بك يستمهلني أياماً للتفكير وتمهيد الطريق ، فسررت وأخذت أنتظر الجواب بفروغ صبر .

إذن فأنا الآن بانتظار ردين من الحافظين ، رد حافظ بك عوض ، ورد حافظ باشا عفيفي فالأول وعد بزيارة مكرم عبيد باشا والوقوف على رأيه ، والثاني وعد بزيارة النحاس باشا وأخذ رأيه .

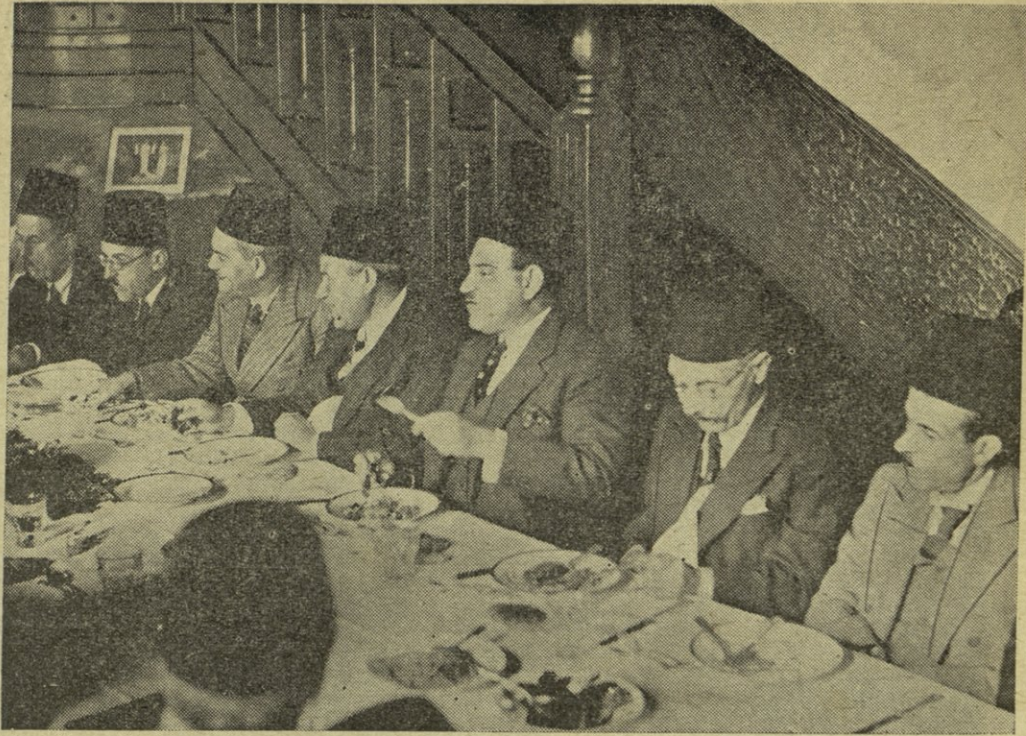
لماذا سماني النحاس باشا سفيراً لمصر

في سنة ١٩٣٤ أرادت بعثة من شباب يافا أن تزور مصر فكتبت تطلب مني المساعدة على تسهيل الزيارة ففعلت ، وبعد ذلك عرضت على مكرم باشا عبيد أن يزور أفراد البعثة دار مصطفى النحاس باشا فوافق على ذلك ووعد بأن يقيم لهم حفلة في داره هو لأن هذه الفرقة كانت قد احتفلت به لما زار يافا سنة ١٩٣١ .

وجاءت البعثة فزارت النحاس باشا وأقيمت لها الحفلة بدار مكرم باشا فحضرها مصطفى
النحاس باشا وأركان الوفد المصرى ودارت الخطب والأناشيد وخطب مكرم باشا فنوّه بي
قائلا : « إن محمد على الطاهر هو سفير الأقطار العربية في مصر » فقاطعه النحاس باشا قائلا :
« وسفير مصر في الأقطار العربية » فوقفت وشكرت النحاس باشا على هذا التعيين الشعبي
من الزعيم الشعبي ، وقلت إننى أتمسك به وأعز بالسفارتين ! وقد نشرت صحف تلك الأيام ذلك
وعرفه الخاص والعام . لذلك وضعت ثقتي في النحاس باشا وفي مكرم باشا بلا قيد ولا شرط .
لقد كانت أيام الانتظار طويلة على نفسى ، وأى طول هذا الذى يتقرر فيه مصيرى ،
فإما أن ينتهى عذابى وإما أن يزداد شدة ، وتستمر آلامى ...



في دار شيخ المجاهدين مصطفى النحاس باشا بمصر الجديدة وهو يظهر في وسط ضيوفه



وفي دارمكرم باشا جلست على المائدة إلى يمين القارىء فالرحوم عبد الهادى الجندى بك الذى صار بعد ذلك باشا ووزيراً للأوقاف فالنحاس باشا فحمود بك لطيف ، ولم أتذكر الثلاثة الذين يجلسون بعد لطيف بك لطول العهد بتلك الأيام

تخمين واقتراض

يأتري ماذا يكون رد مكرم باشا وما هو رأيه ؟ إنه صديق وقد جربني في الملمات وعرف محبتي له ، كما اننى أعرف محبته لى ، ففي زيارته للبنان وفلسطين لمس درجة عنايتي به وعرف موقعي يوم ضجة المؤتمر البرلماني لفلسطين في القاهرة، وكيف أخرجت الوفدين من مأزق كان يضايقهم، وكيف وقفت إلى جانبه وإلى جانب النحاس باشا يوم اعتدت عليهما شرطه النقراشى باشا وزير الداخلية، وكيف اننى مع الأيام وضعت عواطف العالم العربى في قبضة الوفد^(١) كما أن النحاس باشا

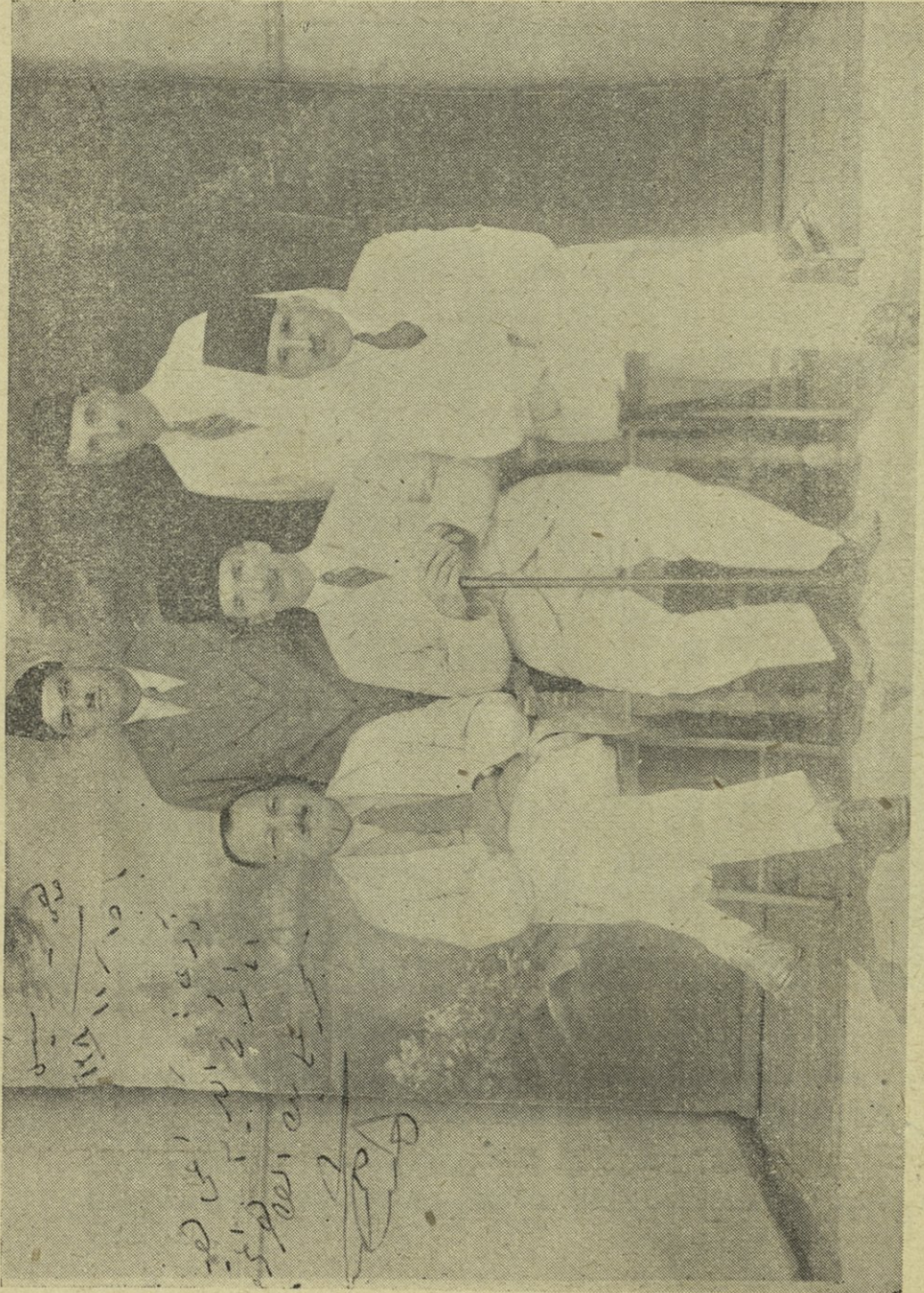
(١) في نوفمبر ١٩٣٨ عاد النحاس باشا ومكرم باشا من الإسكندرية بموكب كبير فأرسل النقراشى باشا وزير الداخلية شرطته فاعتدت على أستاذه مصطفى النحاس باشا وعلى زميله مكرم باشا بالضرب القاتل، وفرقت شمل الموكب بكل قسوة ، فلزم النحاس باشا بيته بسبب الإصابات العديدة التى أصابته في رأسه وكتفه وعنقه وأصيب مكرم باشا في رأسه بجراح خطيرة ألزمته المستشفى مدة طويلة، فأردت عن أعباء عن سخط العالم العربى على تلك الفظائع فجمعت وفداً ضم العشرات من أبناء الشرق العربى والمغرب العربى وذهبت إلى دار النحاس باشا نهته بالسلامة ونعلن السخط على تلك الحكومة، كما زرت مكرم باشا في المستشفى بمصاحبة فريق كبير من أبناء الأقطار الشقيقة وفي الصورة التى بعد هذا السلام ظهر النحاس باشا جالساً على كرسى وهو مضمداً الرأس والساعداً الصدر والعنق.

لم يقصر وهو رئيس وزارة سنة ١٩٣٧ مع العالم العربي فهو أول رئيس حكومة مصرية دافعت
عن فلسطين رسمياً في جمعية الأمم بجنيف .



مصطفى النحاس باشا وتحت علامته X ويليهِ عبد الفتاح الطويل باشا فالر حوم الفردريك من أعيان يافا فالأستاذ عبد الحالى الطريس
من زعماء مرا كاش فالأستاذ عبد الزاق المجد « النائب العراقى بعد ذلك » فحمد على الطاهر فالسيد أحمد محمد نعمان
أحد زعماء اليمن ووقف خلفه الشيخ عبد الواسع الواسعى من علماء اليمن

ومن أسباب محبة النحاس باشا لى أنه يعرف أننى أبعدت حكومة تلك الأيام عن مجاهدى فلسطين عند عودتهم من منفاهم بجزر سيشل وجعلت الصلة تنعقد بينه وبينهم ، على اعتبار أن أبطال مصر فى سيشل سنة ١٩٢٢ أولى بالصدقة مع أبطال فلسطين الذين كانوا بعد ذلك فى سيشل سنة ١٩٣٧ - ١٩٣٩ وهو تأييد عربى للجباب الوفدى له معناه فى تلك الأيام.



وفد الفلسطينى فى سيشل
 وهم من عين القارىء رشيد بك الحاج ابراهيم فاحمد حلمى باشا فالدكتور حسين الخالدى ووقف خلفهم حنا افندى سابا
 فالرحوم يعقوب بك الفصين وهذه الصورة أرسلها لى حلمى باشا من سيشل وكتب الإهداء بخطه.

أنا مطمئن من هذه الناحية ، ولا بد أن مكرم باشا إذا سمع بأننى لا أزال فى الأراضى المصرية وأننى أريد تقديم نفسى لحكومته الصديقة ، سيرحب بى ويحث حافظ بك عوض على سرعة استقداى إليه لمقابلته والذهاب معه إلى النحاس باشا فيقول له : هذا محمد على الطاهر صديقنا وطريد المستعمرين ، المظلوم المزمّن الذى اعتادت وزارات الانقلاب أن تسيء إليه



الوفد المصرى لما كان قبل ذلك فى سيشل

أهدانى صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا هذه الصورة وأمضاها بخطه . وهى مأخوذة فى سيشل سنة ١٩٢٢ مع المرحوم سعد باشا زغلول الذى يظهر جالساً على الكرسي، وقد وقف خلفه أعضاء الوفد الذين كانوا معه وهم من يمين القارىء : المرحوم سينوت حنا بك ، فمصطفى النحاس باشا ، فالمرحوم عاطف بركات باشا ، فمكرم عبيد باشا ، فالمرحوم فتح الله بركات باشا .

بسبب ميله معنا والذي أبغضه النقراشي باشا بسببنا وكاد يغلّق جريدته ويخرجه من مصر متشجاً بتهمة خدمة الأجانب لأنه نصرنا ونحن في حالة الهزيمة ، والذي لا نرى له وجهاً ونحن في الحكم ، هاهو اليوم يثق بحكومة الوفد ويستعين بها بعد أن بلوناه وخبرناه واستحق أن يكون سفير الأقطار العربية في مصر ، وسفير مصر في الأقطار العربية ...

وأما النحاس باشا فقد تصوره إن فاجأته بالاستسلام ، محرجاً مستاء ، فيقول لي : نحن الآن حكومة ياصاح وعلينا مسئوليات فلا أحسن أن تذهب إلى السجن أولاً ثم نفاوض الإنكليز بشأنك حتى لا تقع معهم في مشا كل بسبيك .

وهذا الكلام معقول بلاشك ، أليس ان وكيل إدارة المطبوعات قد طلب مني باسم



سيشل أيضاً

وهذه صورة لفوج عربي ثالث نفاه الإنجليز إلى جزر سيشل سنة ١٩٣٠ ، فبقى إلى سنة ١٩٣٩ وكلهم من أمراء العبادل في سلطنة لحج بجنوب اليمن ، ويظهر من يمين القارئ الأمراء فضل بن أحمد ، فعلى بن أحمد ، ففضل عبد المجيد ، ووقف خلفهم الأمراء محمود بن علي ففضل عبد القوى فحسن بن علي

حكومة الوفد في سنة ١٩٣٧ أن أخفف من لهجة جريدتي! ولما قلت له : إن الوفد المجاهد
الوطني لا يجوز أن يصدر منه هذا الكلام قال : بل نحن الآن حكومة!!
لقد كان وكيل المطبوعات متبرعا بنسبة هذا التبليغ إلى حكومة الوفد بلاشك ، لأنني



استقبال الوفد الفلسطيني في محطة القاهرة ساعة وصوله من سيشل سنة ١٩٣٩ ، وقد ظهر دولة أحمد حلمي باشا
الرعيم الفلسطيني الكبير حينما رفعه المظاهرون على سواعدهم

بحسب الأمر بعد ذلك فأتضح لى أن حكومة الوفد لم تكلفه بشيء من هذا وإنما هو وحى من المستر كين بويد المدير الإنكليزى لإدارة الأمن العام يومها ، فنسبه وكيل المطبوعات إلى الحكومة المصرية ، بل الوفدية بالذات !
ولنرجع إلى ما كنا فيه فأقول اننى كنت أعد الأيام والساعات فى انتظار جواب حافظ بك عوض وجواب حافظ باشا عفيفى .

فى أثناء الانتظار

— قرأت فى الجرائد خبر سفر الضابط محمد يوسف وأنه قد أرسل « فى مهمة إلى البلاد



وفد فلسطين بضيافة النحاس باشا بعد العشاء على مأدته بفندق هليوبوليس بالاس بمصر الجديدة
وقد ظهر إلى يسار القارىء أحمد حامى باشا فالنحاس باشا فالمرحوم يعقوب بك الغصين
فمحمد على الطاهر

العربية » والحقيقة أنه سافر للبحث عني وأين أنا . لأن شخصا زار أنسابي آل البرزى في صيدا وقدم لأحدهم نقوداً لتدفع إليّ في مخبئي هناك ! فاندesh نسينا ونفى للشخص انني وصلت لبر الشام . وهى نفس الطريقة التى اتبعها محمد يوسف مع السيد سليم قويدر في مصر وقد مر ذكرها ، فما أسخف وسائلهم !

— جاءنى للدار مندوب مصلحة النفونات وقبض منى جنيتها قيمة الضريبة على الراديو فدفعتمها مغتازا ، لأننى على وشك الخلاص فلو تأخر أياما لنجوت من هذه الضريبة ...



١٣٥٥ هـ
 ١٩٤١ م
 ١٢/١١/١٩٤١
 E 33946

تلفونات وتلفونات الحكومة المصرية
 E.S.T. & T.

Office date stamp
 E.S.T. & T.

ائصال عن رسوم رخصة جهاز لاسلكي للاستقبال
 RECEIPT FOR BROADCAST RECEIVER LICENCE FEES

اسم الطالب الخراج محمد ناجي المبري
 Name of applicant

العنوان جهاز استقبال
 Address

تاريخ الدفع
 Date of payment

ملحق L.E. جنيه Mill

قيمة الرسم المقرر عن الرخصة
 Licence fee

قيمة الرسم المقرر عن موضع الصمامات
 Fee for valve position

دمج
 Stamp duty

المجموع
 Total

المبلغ كتابة
 Amount paid in words

عن المفتش العام
 for Inspector General

هذا الائصال يجب حفظه مع الرخصة
 This receipt is to be kept with the licence and

وتقدمه اذا طلب الاطلاع عليه احد
 produced when required for examination by

المفتشين أو أى موظف آخر مسئول
 an Inspector or other authorised official.

تنبيه — يستعمل كربون بوجهين
 N.B.—Use two sided carbon paper.

لم أستقل في حياتي ضريبة كهذه لأنى كنت على وشك الخلاص

فأل خير واستبشار

جاء ساعى البريد صباح اليوم وصاح ينادى « الشيخ ناجى ! » فخرجت إليه فقال لى « صباحك نادى ياسيدنا الشيخ ناجى ، إليك هذا البريد » وأعطانى رسالة فاستبشرت من هذه اللهجة خيراً - ولما فتحت الرسالة وجدت بها من الدكتور بشناق ومعها رسالة إليه من قرينتى فى صيدا بالتطمين عن حالها وأنها بخير عند أعمامها .

حالة حمدى باشا محبوب

بعد أن أمر النحاس باشا بقلع حمدى باشا محبوب من وزارة الداخلية نشرت عنه جريدة الأيام الخبر الآتى :

كان حمدى باشا محبوب وكيل وزارة الداخلية السابق بعد أن أقصى عن هذا المنصب يزور أحد الأصدقاء من كبار موظفى هذه الوزارة لاجباً فى سواد عينيه ولا إعجاباً بمواهبه ولكن ليتأكد من صحة اختيار الأستاذ محمود بك سليمان غنام للجلوس على الكرسي الذى كان يظنه من ميراث المرحوم والده ، ومع أن حمدى محبوب باشا كان قد أُنزل عن هذا الكرسي ولا أمل له فى الرجوع إليه ، فإنه كان قلقاً مبهوماً لجهله باسم الوكيل الجديد . فلما أخبره صديقه الموظف الكبير بأن الرئيس الجليل النحاس باشا استصدر فى ذلك اليوم مرسوماً بإسناده إلى الأستاذ غنام ، حمد حمدى فى مكانه عشر دقائق لا يرفع رأسه عن كفه ولا يتكلم .

آمال جميلة

الفرج قريب وكل شىء يدل على أن أيام الشقاء بدأت تدخل فى نهايتها وتؤذن بالأقول ، وسأتمتع بحريتي قريباً وأعود إلى بيتى ، ويعود إلى أصحابى ، وبينهم من تجسس علىّ ، وبينهم من أنكرنى ، ورحم الله الوزير ابن مقلة ، فإنه لما نكب تجهم له الناس وأنكروه ، ولكن لما عاد إلى الحكم هرعوا إليه وأحاطوا به ولزموا بابه فقال :

تحالف الناس والزمان	بحيث كان الزمان كانوا
تنكر الدهر نصف يوم	فانكشف الناس وبانوا
يا أيها المبعدون عني	عودوا فقد عاد لى الزمان !

وصف أهم مركز للجاسوسية

نشرت مجلة أنباء الصحف العالمية « وهي مجلة بريطانية تصدرها نقابة صحف انكلترا » وصفا طويلا للجاسوسية في الحرب . ثم وصف المقال هيئة الرقابة في مصر وقال إنه يقوم على رياستها وكيل وزارة الداخلية المصرية « وكان حسن رفعت باشا » ويشترك معه ضابط برتبة البريجادير وأنه هو الرئيس الحقيقي للرقابة .

أما المكاتب التي تتبع هذين الرئيسين فهي مكتب المراقبة بمصلحة البريد « برئاسة محمد وجيه بك »^(١) وآخر بمصلحة التلغرافات ، وثالث لمراقبة الصحف المحلية والنشر (والأخير له رئيس مصري ونائب رئيس بريطاني) ومكاتب مراقبة تابعة للجيش الأمريكي ، والبحرية البريطانية ، وسلاح الطيران البريطاني ، كما أن هناك لجنة أخرى مؤلفة من ممثلين للسفارة البريطانية ، ومكتب الوزير البريطاني المقيم في الشرق الأوسط ، ومختلف المكاتب والمصالح الأخرى . ثم عالج المقال مسألة الأنباء الصادرة من مصر فقال إن الرقابة عليها أشد وأكثرت عقيدا فأولا يجب عرض هذه الرسائل على الرقيب البريطاني ، ثم يجب كذلك - نظريا - عرضها على الرقيب الأمريكي . وعند ما يتم الترخيص بتصدير هذه الرسائل يجب أن تعرض على الرقيب السياسي أو الرقيب المصري البريطاني .

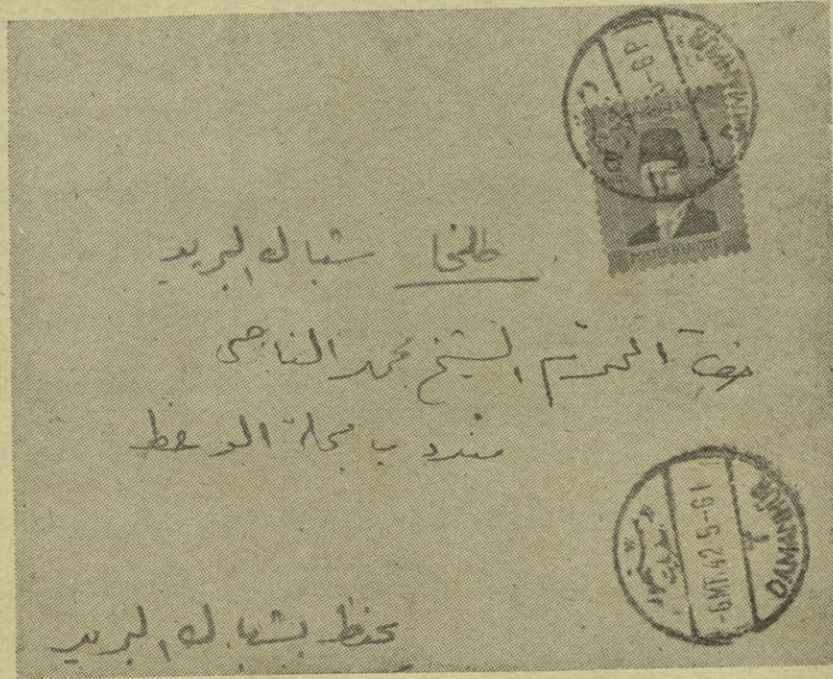
ومعنى هذا كله أن كل مسلم أو عربي عمل في هذه الإدارات هو جاسوس للأجنبي على وطنه والمطلوب الآن معرفة أسماء جميع المسلمين والعرب الذين اشتغلوا في هيئات الرقابة ، ونشر الأسماء في الجرائد عبرة لغيرهم وهذا أقل جزاء يستحقونه .

— حوكم الأستاذ مدحت عاصم ، وكان متهماً بالدعاية ضد الإنكليز فحكمت المحكمة بحبسه شهرين مع إيقاف التنفيذ فاستأنف فبرأته المحكمة وخرج من السجن ، ولكن الحاكم العسكري العام أمر بالقبض على مدحت وسجنه إلى أجل غير مسمى بدون أن يبالي لايبراء الرجل ولا بالمحكمة التي برأته !

(١) وهو اليوم عند طبع هذا الكتاب مدير إدارة جامعة الدول العربية ومساعد عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام لهذه الجامعة ... وقد أنعمت الحكومة البريطانية على محمد وجيه بك بوسام الامبراطورية مكافأة على خدماته في مراقبة البريد في أيام الحرب الماضية .

مكرم عبيد

وبعد أيام ذهبت إلى بريد مدينة طلخا وسألت عن رسالة باسم الشيخ محمد الناجي فأعطاني



عامل البريد واحدة فلم أشك بأنها تحمل فرجاً ، ففتحتها فإذا هي من حافظ عوض بك ، أرسلها من بريد دمنهور حيث تقع مزوعته بجوارها ، أى بقرية دسونس ، فلما تلوتها شعرت بدوار شديد وأحسست أن الأرض كانت تميدبى ، إنها رسالة ألمية تحمل خيبة وفجيعة ، وهذا نصها الحرفى من الداخل :

« حضرة أحمد أفندى الشريينى : وصلنى خطابكم ورأيت أن تبلغوا صاحبكم أن لا يتحرك ولا يعمل شيئاً لأنهم لا يسمحون بمقابلته الآن وليبق كما هو حتى يشاء الله ويحكم بأمر من عنده وهو خير الحاكمين والسلام » .

إذن فالأمل بالفرج قد انقطع ، وإن العذاب لم ينته ، وإن أملى أياما سوداء لا أدرى كيف أقضيها ولا ما هى نتيجتها ولا كيف يكون ختامها .

يا ترى هل اجتمع حافظ بك عوض بالنحاس باشا فرفض أن يقابلنى ؟ إن الذى أعلمه

هذه الهدايا تربي
 و منى مطركم و راى ايد
 تلمذا صا صكم ايد ليدىرك
 ليدىعمل شى ليدىهم ليدىهم
 بقا ليدى الله و ليدى كاهو
 حتى يشاء الله و يحكم بأمره
 هذه الهدايا تربي
 و السلام

أن النحاس باشا لما قيل له
 منذ عامين إن محمد على الطاهر
 قد سجن وأسيئت معاملته
 تكدر واستنكر عملهم ،
 أفيعقل أن يجيء النحاس باشا
 اليوم للحكم ويقر ذلك الظلم
 المبين ؟ هذا غير معقول
 وإن وقع فهو أغرب وأشنع
 ويدل على أن الدنيا لا تزال
 مفعمة بالاحتمالات ، وأن

الناس هم الناس فى كل عصر ودهر . ولكن ربما يكون الرفض من مكرم عبید باشا، فلماذا
 أظلم النحاس باشا؟ ولكن كيف يعقل أن مكرم
 باشا يرفض التجأى ويتنكر لى ، ولماذا يرفض
 ويتنكر وأنا لست بقاتل ولا ناهب وغير محكوم
 على ! بل لنفرض أن محكمة ما قد حكمت على
 وانى هربت ولجأت إليه لينتقذنى فماذا فى ذلك؟ إنه
 لشرف له أن يقدره الله على إزالة ظلم عن برى أيا كان
 هذا البرى ، فكيف وهو صديقه وتجمعه به رابطة
 الوداد والجهاد ضد الاستعمار! أليس ان مكرم باشا
 يلقب بالمجاهد الكبير؟ فما هذا المجاهد الذى يفر
 من عمل يقضى به الجهاد والوفاء ، بل واجب
 الحاكم نحو جميع الناس ...



مكرم باشا ومحمد على الطاهر حين كان صديقه ،
 وقد أخذت الصورة فى حديقة داره بمنشية البكرى

لا، لا، إن هذا أيضا غير معقول، ولا يمكن

إلأن يكون حافظ بك عوض واهماً أو أن ذلك من اجتهاده، فحسب حساباً لظروف الحكومة الوفدية مع الإنكليز فبالغ في الاحتياط ورأى أن يرجىء مشروع الاستسلام إلى وقت أنسب فقال ما قاله في رسالته بقصد إقناعى بالركون إلى السكون والانتظار...

حافظ بك عوض ومكرم عبيد باشا

وبادرت إلى السفر فوراً إلى القاهرة وقابلت حافظ بك بداره بالمطرية وسألته عما كان بينه وبين النحاس باشا أو مكرم باشا حتى أدى الأمر إلى توصيته لى بما يقطع الأمل من حكومة الوفد . فقال إنه اجتمع بمكرم باشا وحدثه عن مسألتى واستشاره فى أمر الاستسلام للنحاس باشا رأساً أو بواسطة هو فانتفض مكرم باشا قائلاً : لا ، لا ، لا يحافظ بك ، نحن الآن حكومة ولا نريد أن نعمل مشا كل مع الإنكليز بسبب محمد على الطاهر ، فيجب أن ننصحه بعدم المجيء . فقال حافظ بك ولكن لو فرضنا أنه باغتك بالمجىء إليك فى دارك أفيمكنك أن تردده ؟ فقال مكرم باشا : ما هذا الكلام يا حافظ بك ! نبه عليه بأن لا يجرنا وإلا فأننا مضطر إن جاء لأن أسلمه للبوليس^(١) ...

هذا هو الجواب الفاجع الذى أبلغنيه حافظ بك عوض ، فكانت الصدمة أليمة والفاجعة كبيرة . فأما الصدمة فليخية أملى فى مكرم وبالناس جميعاً . وأما الفاجعة فهى انى فقدت صديقاً ثميناً كنت أرجوه للمامات يوماً ما ، فلما جاء اليوم أدار لى ظهره وأنكرنى على تلك الصورة وقال لى : أنا لا أعرفك !

ماذا على مكرم باشا لو رضى باستسلامى إليه وذهب بى إلى رئيس الحكومة ، وقال له :

(١) لقد كتمت هذا الحادث عشر سنين ، حتى لئننى لما وقعت الواقعة بين مكرم باشا والنحاس باشا وتهجم مكرم على رئيسه وشتمه وانفصل عنه ومشى مع خصومه السابقين وقامت الأمة والصحف تحمل على مكرم باشا ، ترفعت عن البوح بما كان منه حتى لا يقال لئننى حملت السكين مع الذين أحاطوا بذلك المبيت ، فسكت وفضلت أن لا أذكر ما انكشف إلا وهو حى ، ولا أقول بعد أن تعود إليه الحياة ، لأن الذى صنعه مكرم مع النحاس باشا قد قضى عليه أديباً وسياسياً . وأما موقفه معى أنا فإنى أترك تقدير شناعته لقراء هذه الفصول ، وقد رأيت مكرم باشا بعد زوال المحنة فلم أكله فى ما كان منه ولم أعاتبه . وأظنه سيندهش الآن متى عرف بأنى علمت بما كان منه ، وهو عمل لا يصدر من رجل عادى فكيف بمن كان يلقب بالجهاد الكبير ...

هذا صديقنا جاء عندي وهو الآن عندك فيجب أن نحميه من الإنكليز ونقول لهم إننا لا نقدر على ركوب المركب الذي ركبته رئيس الوزراء السابق، وإلا أصبحنا ولا فرق بيننا وبين سوانا وفي هذه الحالة لا خير في الحكم ولا في الوزارة إذا كان كرسي الحكم يغيرنا ويجعلنا ونحن حكومة المجاهدين نقر الإنكليز على ظلم المجاهدين .

إذن فكرم باشا المجاهد الكبير الذي نادى بي في بيته أمام النحاس باشا وأعضاء الوفد وأمام مئة ضيف بأني « سفير الأقطار العربية في مصر » هو غير مكرم باشا الوزير الذي إنتكس وأصبح يهددني إن لجأت إلى بيته بتسليمي للبوليس ! ورجعت من القاهرة إلى المنصورة مفتاضاً غاضباً ساخطاً منهمك الأعصاب، بعد أن فجعت بمكرم باشا الذي حطم آمالي وقضى على مكانته بين الناس .

نقطة تحول

وبعد أيام وأنا أقاسي آلام القهر والكمد من فعلة مكرم باشا ، إذا بي أقرأ في الصحف بلاغاً رسمياً يقول إن مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء قد استدعى من السجن عزيز باشا المصري وقابله في دار الرئاسة وأخذ عليه تعهداً بأن يلزم السكون ثم أمر بإطلاق سراحه ، كما أمر بحفظ القضية التي حبس فيها ، فكان لهذا النبأ في نفسي وقع عظيم ، إذ تأكدت منه أن مصطفى النحاس باشا يستطيع أن يحل ويربط برغم الإنكليز ، وهل من دليل أقوى من إطلاقه لعزيز باشا وسحب القضية من المحكمة ؟

إن هذا الحادث قد أزال كل شك في نفسي وجعلني على يقين من إمكان حل مشكلتي ، وإن النحاس باشا الذي استطاع أن يطوى قضية عزيز باشا مع خطورتها ووجود تهمة خطيرة فيها ، لن يتردد في حل مشكلتي وأنا برى حتى من مجرد الاتهام . إذن فلا محل للتردد أو المبالاة بمكرم باشا الذي انخلع قلبه خوفاً من الإنكليز وخوفاً على الكرسي ...

إذن فهيا إلى مصر، هيا إلى القاهرة ، وإلى النحاس باشا بدون مشاورة ولا مذاكرة ...

الاستسلام

إلى النحاس باشا

نحن الآن في ٥ مارس ١٩٤٢ وقد قرأت في الصحف أن مصطفى النحاس باشا سيذهب في مساء الغد ٦ مارس إلى رئاسة الوزراء ليلقي على الصحفيين ووكلاء شركات البرق بياناً عن خطة وزارته الجديدة وسياستها الخارجية ، وأن هذا الخطاب سيداع من مكتبه بالراديو . إذن فهذه فرصة بديعة ، لاسيما أن الليل سينتفعني عندما أنفذ خطتي . فيالها من فرصة ويا لها من مصادفة ...

تدبير احتياطي

كتبت إلى الدكتور مصطفى بك البشناق بأن ينتظر في مساء الغد ٦ مارس حوادث جديدة وأن يربط في مكان غير بعيد من عيادة الدكتور خورى وعن دار جريدة الأهرام من بعد عصر ذلك اليوم إلى منتصف الليل . فإن لم يسمع بشيء جديد عنى يذهب في صبيحة اليوم التالى إلى رئاسة مجلس الوزراء ويسأل الصحفيين الذين يربطون هناك عن أخبارى . وقلت للدكتور مصطفى بك إنى نويت أن أعمل في يوم ٦ مارس عملة « سيصغى إليها الجميع » ... وكتبت للدكتور خورى بأن يربط في إدارة الأهرام من الغروب إلى منتصف الليل ليرقب الأخبار ...

لم أتم تلك الليلة ، بل سهرت إلى الفجر وأنا أفكر وأقلب وجوه الرأى ، وأفترض جميع الاحتمالات ، من أسوأها إلى أحسنها ...

ولما بزغت الشمس برحت مكمنى وقصدت إلى ضواحي المنصورة أمشى في طرقاتها ترويحاً للنفس في الهواء النقي ، وأشهد بواكير الربيع الباسم وأنسمع عرا من منطقة «التوريل» البديعة الأنيقة . لم يكن هناك ما يدعونى إلى الخروج في تلك الساعات الباردة إلا طلب الصفاء للذهن في جو طلق ، لأن الدنيا ما عادت تسعنى ، وهذا حق ، لأنى كنت محتاجاً في تلك الساعات الحاسمة في مصيرى إلى جو صاف تهدئة أعصابى بعد ليلة ليلاء حرمت فيها طعم الرقاد .

رسم الخطة

إن الذهاب إلى القاهرة فيه خطر ، ولكن يجب أن أذهب ، وإن مقابلة رئيس الوزراء

والحاكم العسكري العام ليست من الأمور الهينة ، لأن مقابلة الموظفين العاديين كرئيس قلم مثلاً أصبحت في عصرنا تحتاج إلى مراجعة السكرتير والوقوف مع الحاجب وإرسال البطاقة إلى الموظف الذي تريد أن تقابله للاستئذان ، فيسألك السكرتير عن هويتك ومطلبك فيما أن يقابلك ذلك المتعاضم أو يأبى عليك اللقاء فيصرفك ، فإذا كان هذا حال الموظفين العاديين ، فكيف بالوصول إلى رئيس الوزراء ولاسيما في أيام الحرب ، حيث تتخذ أشد التدابير لحراسته ومنع الناس عنه لكثرة أعماله ، بل إن الشخصيات الكبيرة المعروفة لترد غالباً عن باب رئيس الحكومة في أيام السلم العادية لكثرة متاعبه ، فكيف في أيام الحرب ؟ وكيف إذا كان الذي يريد مقابلة الحاكم العسكري العام هو الشيخ محمد الناجي المغربي النكرة المجهول ذو اللحية الشعثاء والحية القديمة والحذاء البلدي والقفطان الأزهرى ؟ فكيف يقتحم ذلك المريب المرتاب داررياسة الوزراء وهي محاطة بالحرس المسلح والبوليس السرى ؟ وهو إن اجتاز أولئك وهؤلاء فإنه مضطر إلى الوقوف بباب أحد السكرتيريين وطلب الإذن بالدخول على السكرتير فإن سمح فإنني مضطر إلى إظهار شخصيتي أمامه وكشف حالي بدون موارد ، وإلا اشتبه بي وسلمني إلى الشرطة . أما إن اقتنع فإنه مضطر إلى مراجعة سكرتير رئيس الوزراء . ولكن هذا مستحيل لأن الموظف الذي يتصل به الناس عادة يكون من صفار الموظفين وهؤلاء لا يهتمون بسبب مركب النقص أو الصعلة الكامن في نفوسهم إلا بمن هو أكبر منهم . وأما من كان في مثل ملابس فنصيبه الطرد من الباب الخارجى ، أو إحضار البوليس لأخذه إلى التحقيق ، بل إن الموظف الأمين الذى يجد في نفسه الشجاعة لسماع حكايتي أويجد في نفسه الكفاءة لتكليف رئيسه ورئيسه بتوصيلها إلى رئيس الوزراء ويحسن توصيلها وعرضها عليه لا أدري أين أجده ، بل لعله لم يخلق بعد . فالسأله إذن تحتاج إلى مباغته رئيس الوزراء النحاس باشا رأساً بدون واسطة أحد إلا إذا كان هذا الواحد من كبار رجال الدولة ومن يعرفونى ومن لهم مكانة عند رئيس الوزراء فمن أين لى هذا الواحد ؟

وبعد تفكير طويل عميق انحلت المشاكلى في ذهني وانسابت في خاطري سريعة متلاحقة تحل بعضها بعضاً ، فقد ذكرت اسم صديق القديم الدكتور محمد صلاح الدين بك ، وكان يومها سكرتيراً عاماً لمجلس الوزراء . وهنا شعرت بأن صخرة قد انزاحت عن صدري . ففكرت الكفين سروراً وارتياحاً

المبادرة إلى العمل

أنا الآن في ضحوة ٦ مارس سنة ١٩٤٢ فالوقت واسع فسيح . فاستدعيت الأستاذ على أحمدبا كثير وأوقفته على كل ما عترمت عليه ، وطلبت منه السكمان التام وأن يلزم الصمت إلى أن يقرأ في صحف الصباح من يوم ٧ مارس أخباراً غنى ، فيما أن تكون هذه الأخبار تروى إطلاقاً وإما أن تكون بالقبض على وإرجاعى إلى السجن . لأنى أريد أن أضع حداً لحالاتى التى أصبحت لا تطاق ، ولا سيما بعد ما كان من موقف مكرم عبيد منى ، فإذا كان التنكر للماضى قد وصل بالناس إلى هذه الدرجة فإنى أعذر الذين آذونى ، على أنى مع ذلك لم أنس أن أوصى الأستاذ با كثير بالقطعة « حبيسة » خيراً ، وأن يتفقدوها ويطعمها إلى أن أعرف ما يكون عليه مصيرى . فإن نجوت أرسلها إلى فى القاهرة وإن سجنتم فىأخذها إلى داره .

السفر

ولما انتصف النهار وضعت بعض الأمتعة التى أحتاج إليها فى سلة كبيرة وذهبت إلى المحطة فأخذت تذكرة سفر بالدرجة الثالثة إلى القاهرة عن طريق طنطا ، ثم اندسست بين الفلاحين . ولما غادر القطار محطة المنصورة أقيت على المدينة نظرة إكبار وعرفان بجميلها ، وأخذت أستعيد ذكرياتى وأيامى فيها ، من بؤسى ونعمى على السواء ، ومن يدرى ، فقد تأتى أيام أبكى فيها على أيامى الأليمة فى المنصورة ، وبرغم سواد تلك الفترة من حياتى ، وقد أعدها نعمة بالنسبة إلى المستقبل المجهول ، لأنى مقدم على شىء لا أدرى عواقبه ولا نتائجه ، فقد تفسد الخطة المتشعبة التى رسمتها ، بل إن أقل خلل يقع فى تنفيذها سيؤدى بى إلى السجن ، وإلى السجن الشديد المضيق فى هذه المرة ...

وفى محطة طنطا حملت السلة على كتفى وانغمرت بين الألوف الذين يترا كضون من هنا ومن هناك ليدركوا القطارات المسافرة من تلك المحطة العظيمة إلى جميع أنحاء البلاد ، فكانت المحطة فى تلك الساعة كأنها ساحة الحشر

ووقفت على أفريز المحطة وأمامى السلة فلما جاء قطار الإسكندرية الذى سيأخذنا إلى القاهرة كان ممتلئاً مكتظاً بالركاب ولا يمكن دخوله لكثرة الناس الذين سدوا الأبواب بأجسامهم

وأمتعتهم، نخت أن أتخلف ويتركنى هذا القطار فتفسد خطى كلها . فناديت حملاً وأظهرت له قطعة من النقود بخمسة قروش إن استطاع إدخالى إحدى المركبات فما كان منه إلا أن حملنى وقذف بى إلى داخل المركبة من إحدى نوافذها ، فتدحرجت بين الركاب رأساً على عقب ، وقد وقعت عمامتى عن رأسى ، وقبل أن أنهض وأتمكن من الوقوف، إذا بالجمال يقذف بالسلة فوقى فتقلب وينثر ما فيها من أمتعة على رأسى وعلى الركاب وعلى الأرض، وفيما كنت أقف لأحتج على الشيال وأعتذر للناس كان القطار قد بدأ يغادر المحطة ! فأمسكت عن الاحتجاج ، وشكراً للشيال ، لأنه لو لم يصنع ذلك لبقيت على رصيف المحطة وحبط مشروعى من أوله إلى آخره . ثم مدت يدى للشيال بالخمسة قروش من النافذة حين كان يزامل القطار فى مشيته البطيئة الأولى ، وكان الشيال يصيح « أنت فين ياسيدنا الشيخ يابتاع السلة » ...

الوصول إلى القاهرة

وصل القطار إلى المحطة فى نحو الساعة الرابعة ، أى بعد العصر ، وأخذ ركابه يغادرونه وهم كالسيل العرم ، وأما أنا فقد حسبت حساباً لرجال الشرطة السرية الذين يقفون بالمرصاد لركاب القطارات القادمة عند الحاجز المجاور لمكتب التلغراف والمقصف ، فعند ذلك المخرج الضيق يقفون لتصفح الوجوه واحداً بعد واحد ، ولذلك بقيت فى القطار أتصنع لم شعشى وتنظيم ملابسى وإحكام وضع أمتعتى فى سلتى . ولما طال المطال ولم يبق أحد فى المركبات أقبل عمال المحطة يفتشون عن المتخلفين لإتزالهم من القطار ومساعدتهم على مغادرته قبل أن يجر إلى المخزن . فتظاهرت بأنى أبحث عن شىء وقع منى فى أرض المركبة ، فجاء أحد العمال وأخذ يساعدنى فى البحث عن « نصف الريال الذى سقط منى » ثم قلت له لا فائدة من البحث إلا بعد كنس المركبات ! فإن وجدت شيئاً فهو نصيبك وقسمتك ...

تدبير واحتياط

وحملت السلة ومشيت لا إلى الباب ، ولكن إلى الخلف . ثم اجتزت الخطوط الحديدية وانتقلت إلى محطة الوجه القبلى كمن يريد مواصلة السفر إلى الصعيد ، وهناك جلست على مقعد للاستراحة ، ولكن للتفكير فى الطريق الذى سأسلكه عند الخروج من المحطة بدون أن

أعرض لخائنة الأعين ... التي هي أعين رجال الشرطة السرية ، وبعيداً عن غرفة البوليس الموجودة بالمحطة . وكنت في أثناء التفكير والبحث عن المنفذ أعبت في محتويات السلة لأستطيع إخفاء وجهي عن الناس ، وقد فحصت المنطقة كلها بنظرة سريعة وعينت نقطة الانفلات وهي باب خروج ركاب الصعيد . ثم أخرجت منديلاً ربطت به عيني لإخفاء بعض ملامحي . وبعد قليل هدأت حركة الناس نوعاً . وفي تلك الفترات ينصرف رجال بوليس الجواسيس عن أبواب الخروج ليستريحوا استعداداً لرمق ركاب القطارات القادمة بعيونهم الحادة التي أعماها الله عني ... فحملت السلة ومشيت كأنني راكب صعيدى يعرف طريقه ، وخرجت من المحطة إلى الساحة الخارجية وأصبحت في ميدان باب الحديد أمشي بين عالم زاخر من الناس ، فقصدت إلى فندق بجوار سوق السمك ينزل به فقراء الصعايدة يسمى « لوكاندة الأشراف » نسبة إلى قبيلة الأشراف في مديرية قنا ، فصعدت فإذا بالفندق لا يمكن أن يستريح فيه إنسان، ولكنه



فأعجبني هذا الشكل ...
« انظر الصفحة التالية »

جيد وبديع لمن كان في ظروف ويريد النجاة، وأول ما دخلت سألت عن الأسعار فأفهمني الخازن لا المدير - لأن الفندق ما كان يقل عن جهنم - أن أجرة النوم على الفرشة أرضاً بثلاثة قروش، وبخمسة على السرير، فطلبت غرفة بسريرين بحجة أن رفيقاً لي سيأتي بعد ساعة . ودخلت الغرفة وهي تعج بالبق بدون ريب ، عرفت ذلك من شكل جدرانها الملوخة بالدم، ومن حالة فراشها المنقط بروث البراغيث !

ولما سألتني خازن الفندق عن اسمي وهويتي أعطيته اسم « محمد ناصر تاجر غلال من كفر الغاب بمركز شربين » واني قادم للمعالجة ، ثم سألته عن طبيب

عيون معروف، فأرشدني إلى واحد وقال إن أسعاره رخيصة ثم تركني وانصرف .

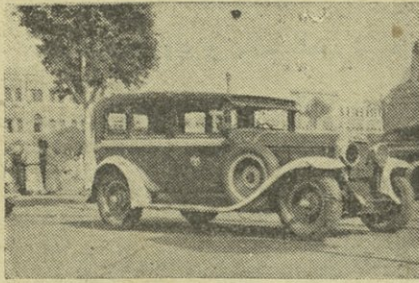
بروفة...

أما أنا فقد غسلت وجهي ونفضت العثير عن ملابسي ، وبعد ذلك نزعَت العمامة عن رأسي ثم حلت حزامي وكان في الأصل كوفية فوضعتها على رأسي ، وسجبت من عبي عقالا فجعلته فوق الكوفية وكان معي في السلة عباءة عتيقة كنت استعرتها من احمد بدر فألقيتها على كتفي ، ثم وقفت أمام المراة فأعجبني هذا الشكل ، وبعد تجربة الزى البدوي رجعت إلى العمامة ، ثم نظرت إلى الساعة فإذا بها الخامسة بعد الظهر .

هيا هيا...

عند ذلك غادرت الفندق إلى ساحة باب الحديد واقتربت من موقف للسيارات عند تمثال نهضة مصر، فإذا بي وجهاً لوجه أمام « فؤاد » وفؤاد هذا هو جندي من بلوك الحفر ، كان من جملة الحرس الذي كان يحرس باب غرفتي بمستشفى الدمرداش ، ولكنه لم يعرفني بعد أن أصبح تنكري متقناً حتى ليكاد شكلي يخفي عليّ أنا ...

فتجاوزت موقف الجندي الغافل إلى أن اهتديت إلى أكبر وأنخم سيارة أجرة في تلك الأيام ، فركبتها وطلبت من السائق أن يذهب إلى حي السكاكيني ، ولما وصل صعدت إلى منزل أحد أقاربي حيث أوعزت قبل أيام بإيداعه عباءة لي اصفهانية من الور الفاخر وهي التي أنقذتها من مستشفى الدمرداش قبيل الفرار ، فتركت هناك عباءة احمد حسن بدر وحملت عباءتي العزيزة تحت



السيارة الموقفة ...

إبطي واستأنفت ركوب السيارة وقلت للسائق هيا إلى العتبة الخضراء فالسيدة زينب، فانطلق في سبيله وكانت الساعة حول الخامسة والنصف .

ذكريات !

ولما اجتازت السيارة ساحة العتبة الخضراء ، ومرت بي بشارع عبد العزيز إلتفت برغمي إلى العمارة رقم ٣٠ حيث كانت تقع إدارة « الشورى » فتأثرت تأثراً شديداً ، ومرت ببالي

ذكريات السنين الطويلة التي قضيتها فيها ، فقد دخلتها شاباً وأخذوني منها إلى السجن كهلاً
بعد أن قضيت تلك السنين جالساً خلف مكتبي أجادل الاستعمار وأحرر « الشورى » وأصدر
معه نشرات مكتب « الاستعلامات العربى الفلسطينى » عن فظائع الاستعمار فى خلال ثورات
سورية وفلسطين ، وأبعث من تلك الإدارة إلى لندن وأوروبا وأمريكا والدنيا كلها ببرقيات باسم
« اللجنة الفلسطينية » فكانت تلك البرقيات والنشرات ومعهما الجريدة شوكة حادة تؤلم
الاستعماريين من فرنسيين واسبان وطلليان وهولنديين وانكليز ، وخصوصاً الإنكليز ! ثم تذكرت
فى مثل لمع البرق كم رأت إداره الشورى المتواضعة فى تلك العهارة من وجوه كريمة وشخصيات
عظيمة ، فقد دخلها زعماء الجهاد والفكر فى العالم الشرقى فى تلك الأيام ، فقد كان يغشاها أحمد حلمى
باشا والحاج أمين الحسينى من زعماء فلسطين ، والشيخ كامل القصاب الزعيم السورى ، وشكرى
بك القوتلى الذى صار رئيس جمهورية سورية ، والدكتور أجمل خان ومولانا شوكت على
زعيماء مسلمى الهند ، والدكتور ستومو الذى كان زعيماً لاندونيسيا قبل الدكتور سوكارنو ،
والسيد عبد العزيز الثعالبي زعيم تونس ، والدكتور عبد الحميد بك سعيد ، والإمام محمد رشيد
رضا ، والأمير عادل أرسلان ، والشيخ عبد القادر المغربى ، ونبه بك العظمة ، وتحسين بك
العسكرى ، وعزيز باشا المصرى ، والشيخ على الزنكونى ، وأحمد زكى باشا ، وأحمد شفيق
باشا ، وأحمد شوقى بك أمير الشعراء ، و خليل بك مطران ، ورياض بك الصلح ، والشيخ
مصطفى عبدالرازق باشا ، والشاعر الزهاوى ، وعبد الستار الباسل بك ، والأمير محمد آل خليفة ،
والأمير على بن حمود أمير جعلان ، والشيخ عبد الوهاب النجار ، وعبد القهار مذكر المجاهد
الاندونيسى ، وصالح باشا حرب ، والدكتور محمود عزمى ، ودسوقى أباطة باشا ، وفؤاد بك حمزه ،
والشيخ دراز والأستاذ كامل كيلانى ، ومهدى رفيع بك مشكى ، ومحمد مسعود بك ، والسيد
محمد الغنيمى التمتازانى ، وعزام باشا الخوخ و كان آخر من كان يزينها كل ليلة مدة أربعة أشهر الأمير
شكيب أرسلان ، أمير البيان وفقيه الشرق والعرب والإسلام ، وذلك قبيل الحرب الأخيرة
بأشهر قليلة ، رحم الله المتوفين منهم وأطال فى عمر الأحياء .

إلى رئاسة الوزراء

ومضت سيارة التاكسي في طريقها، فلما اجتازت ميدان قصر عابدين الملكي واقتربنا من حي الدواوين نزع الرباط عن عيني وأزلت العمامة عن رأسي ودسستها في جيب قفطاني ثم حللت الحزام فألقيته على رأسي وسحبت العقال من عبي فجعلته فوق الكوفية ، وتناولت العباءة ففردتها والتفتت بها ، وقد تم تغيير زي في لحظة سريعة بدون أن يلمح سائق السيارة شيئاً مما كان يجري خلفه .



ذعر سائق السيارة !

ولما وصلنا إلى ميدان رئاسة مجلس الوزراء الذي يسمى «ميدان لازوغلي» أمرت السائق بالانعطاف يمينا ودخول حديقة الرئاسة ، فتوقف لحظة وهو يقول إن السيدة زينب ليست هنا «ياسيدنا الشيخ» فهذه رئاسة الوزراء ! فقلت له ادخلها ! فالتفت ليسوئق مني ظاناً أنني مخبول ، وله العذر لأنه أركب شيخاً رث الملابس مريضاً مربوط العين ، يريد السيدة زينب للزيارة والتبرك بآل البيت كما يصنع أبناء الريف .

ولكنه لما التفت ورائي في شكلي الجديد مهنماً وجيهاً سليم العينين مستدير اللحية ألبس العقال والعباءة الفاخرة بعد الجبة الرثة ، اندهش وحملق بي هنيهة فاغراً فمه منذعراً ، ثم استدار بسرعة وأمسك بمقود السيارة ودفعها إلى داخل حديقة الرئاسة وهو يقول : أمرك ياسعادة البيك ، حاضر ياسمو الأمير ...

بين الحرس

ولمادخلت السيارة باب حديقة الرياسة الحديدى، كان عنده بعض الجنود، فاجتزناهم قبل أن يفكروا بسؤالنا عن سبب دخولنا فى تلك الساعة التى لا يدخل فيها وزراء أحد من أرباب الحاجات .

وفى وسط الحديقة وأمام الدرج المؤدى إلى فسقية الماء وقفت السيارة ، فأعطيت السائق



أجرته ونفحته ببعض القروش ثم أغلقت باب السيارة بشدة ليسمع الحرس الجالس عند باب الرياسة الداخلى تلك الحركة التى تشعر بسيادة ووجاهة القادم، وبعد ذلك أصلحت من شأنى ومشيت نحو باب الرياسة بتودة ووقار، شأن من اعتاد الحىء إلى هذا المكان ، وكنت أعرفه جيداً . ولما اقتربت من الحرس وقف أحدهم، وكلهم مسلح بالمسدسات، وأراد أن يعترض طريقى وسألنى عن هويتى وعن الغرض من مجيئى فى غير الأوقات الرسمية ، فالتفت إليه وإلى رفاقه وألقيت عليهم سلاماً بحركة يد متصنعة متكلفة، شأن الكبراء عند ما يمنون على العباد بتلك الإيماءة ، فلم يشك رجال الحرس فى أن القادم شخصية ذات خطر وشأن ...

ومشيت نحو باب الرياسة ...

فلم يسع الجميع إلا الوقوف ورفع أيديهم بالتحية رسمياً ، فاغتنتم فرصة هذا التأثير على نفوسهم وواصلت السير وأخذت أصعد الدرج المؤدى إلى مكتب رئيس الوزراء ومكاتب السكرتيرية فى الطابق الأعلى ...

مفاجئة !

كان هناك مصعد يؤدي إلى الأعلى وكان الواجب أن أتجه إليه ، شأن الكبراء الذين يغشون دار الرئاسة ، ولكنني تنكبته تعمداً حتى لا أضطر إلى تبادل أى حديث مع جندي المصعد، وهو غالباً من بوليس الجواسيس ، ولما



شرعت في صعود الدرج شعرت بإنسان يصعد خلفي ويريد اللحاق بي فعرفت من مجرد نظرة جانبية من عيني أنه رئيس حجاب الرئاسة ، وكان يلبس بزة سوداء رسمية ، فلم ألتفت إليه ولم أغير حركة صعودي لا تخفيفاً ولا إسراعاً فظل يصعد إلى أن حاذاني . ثم سمعته يقول : هل يأمر سمو الأمير بشيء أدله عليه ؟ ففهمت عندها من أكون في نظر القوم ، لاسيما وقد سمعتها من السائق قبل دقيقة واحدة، فسررت في دخيلة نفسي ، والتفت إليه بوقار وابتسامة حلوة ، قائلاً : هل تظن أن مثلي يأتي في مثل هذه الساعة بدون ترتيب

سابق ؟ فقال : هل من خدمة ؟ فقلت : مشيت الى الأمام وشعرت بإنسان يصعد خلفي ...

إنني على موعد مع الدكتور محمد صلاح الدين بك السكرتير العام لمجلس الوزراء ، ثم أشرت إلى جيبى وقلت له : عندي تلغراف منه وهو ينتظرنى ! فقال إن صلاح الدين بك لن يحضر الليلة لأنه مريض منذ أمس ، فاضطربت وكدت عند سماع هذا الخبر المباغت أن أتخبط في الكلام وأن أتعثر في صعودي وقد ارتج على بشكل لا يتصوره إلا من جربوا مثل هذا الموقف الدقيق ، لأن أقل شبهة تساور نفس هذا الحاجب ستؤدي بي إلى السجن بتهمة محاولة التسلل إلى مكتب رئيس الوزراء لاغتياله ! فمن الآن إلى أن أبرئ نفسي من هذا الظن لا بد لي من اقناع

المحققين بعدم صحة التهمة ولا يكون ذلك إلا بكشف حقيقتي ، وتكون النتيجة أن يدرى الإنكليز بي بواسطة بوليس الجواسيس المصرى الذى يعمل لحسابهم ، لحساب الأمة المصرية ، فلا يدرى النحاس باشا بأمرى إلا بعد أن يكون الإنكليز بواسطة حسن رفعت باشا الرئيس الأكبر للشرطة - وأستاذ حمدى باشا محبوب وخليفته ومنافسه - قد وضعوا يدهم على وأرسلوني إلى السجن ومن هناك إلى مالطة أو سيشل ليقضوا على هناك تعذيباً وقهراً .

كل شيء حسبت حسابه فى تلك اللحظة إلا مرض الدكتور صلاح الدين بك ، ولكن الإلهام الربانى جعلنى أبادر حاجب الرئاسة بجواب سريع مقنع عادى ، فقلت له إن الدكتور صلاح الدين بك قد يأتى لمقابلتى برغم مرضه ، أو أنه قد كلف أحد مساعديه بانتظارى . وظللت مع ذلك أصدع درج الرئاسة العريض المريح المكسو بالسجاد الأحمر ...

تشریفات و سلامات !

ولما وصلت إلى الطابق الأعلى وأشرفت على البهو الكبير الذى تقع جميع غرف مكاتب الرئاسة على جوانبه ، كان رئيس الحجاب لا يزال بجانبى وهو يصعد معى كتفاً إلى كتف تقريباً فلما أطلت على البهو ومن فيه من حرس وحجاب ، ألتفتوا إلى جميعاً ... فلما رأوا رئيسهم يراملنى بتواضع وهو يصعد متأخراً عنى بمسافة درجة ظنوا أنه يعرف مكانتى ، فلم يسمعهم جميعاً إلا الوقوف ورفع أيديهم بالتحية العسكرية ! فأجبتهم عليها بحركة بطيئة متزنة وأنا لا أزال أسير إلى الأمام بلا وعى وبدون أن أدري إلى أين ، ولم يسمع رئيس الحجاب إلا مسائرتى فى سيرى وهو يظن أننى متجه فى سيرى إتجاهاً صحيحاً ... فإذا به صحيح لحسن الحظ !

وفى آخر البهو وقفت وطلبت من رئيس الحجاب أن يستأذن لى بالدخول على مساعد الدكتور محمد صلاح الدين بك ، ولم يكن الاستئذان غرضى ، بل قصدت أن يفتح أى باب لأدخل وأبتعد عن عيون رجل الشرطة والحرس ، ولا سيما أن رئيس الوزراء يوشك أن يصل وأمامه حرسه المسلح ، ومعظمه من رجال البوليس السرى . ولما فتح رئيس الحجاب الباب القريب منى ليستأذن لى لم أنتظر بل دهمت الباب واقتحمت الغرفة فوجدت موظفاً لم أعرفه ، وقبل أن يرد على استئذان الحاجب عاجلته بقولى « إننى على موعد مع الدكتور محمد صلاح

الدين بك» فوقف الموظف قائلاً: إنه مريض وأنا سكرتيره الخاص، فقلت أريد مقابلة النائب عنه فقال إن شقيقه الدكتور ابراهيم عز الدين هو الذى ينوب ، فرجوت السكرتير أن يسير معى إلى غرفته فبادر ومشى أمامى فاجتزنا الفناء الكبير مرة أخرى ، فكان الحجاب والحرس يقفون على الجانبين محيين ، ثم فتح السكرتير باباً فدخلت فوجدت غرفة واسعة جداً ، يجلس فى ركن منها بعض الأشخاص ، فطلبت محادثة الدكتور ابراهيم عز الدين فهض من بينهم شاب وجهه الذات لطيف الشائل وقال « أنا هو » فقلت وأنا أجيل نظرى فى الاشخاص الذين يجلسون معه « إننى كنت أريد الاجتماع بشقيقك ولكنه لم يأت اليوم بسبب مرضه فهل يمكن أن تستقبلنى بالنيابة عنه وأن نكون وحدنا ؟ » فلم يسع من كان عند ابراهيم إلا النهوض جميعاً ومغادرة الغرفة ...

مكاشفة ومباغطة



ولما أصبحنا وحدنا رجوته أن يأمر بعدم دخول أحد علينا لمدة عشر دقائق فأمر بذلك فوراً فقلت له أنا لست بشيخ عرب كما أبدو أمامك بل أنا « افندى متنكر » واسمى فلان وصفتى كذا « وذكرت له اسمى » وأنا صديق لشقيقك صلاح الدين بك الذى مرض اليوم لسوء حظى ، فأرجو أن تقوم انت بما كان يتمنى الشقيق الكريم أن يقوم به هو من أجلي . فقال ابراهيم أنا تحت أمرك ، فقلت

إننى هارب من السجن وجئت الآن لأسلم نفسى إلى رئيس الوزراء . ثم قصص عليه خلاصة الحكاية وقلت له أرجوك أن تذهب إلى النحاس باشا بمجرد وصوله الآن وتجبره بحبرى، وتطلب لى منه الإذن بالدخول عليه ، فقال إن الباشا لم يصل بعد ، كما اننى أفضل أن تقابل أولاً أمين عثمان مستشار الرئيس الشخصى ^(١) وهو يتصرف فى الأمر . فقلت : إن أمين باشا لا يعرفنى وستكون مباغته له من شخص غير معروف لديه . فقال وهى مباغته لى أنا أيضاً . فقلت : هذا صحيح ، وهى مباغته للجميع ،

(١) لمع أمين عثمان باشا السياسى الشاب فى الأفق المصرى العالى بضع سنين كما لمع النجم ثم هوى بسرعة مقتولا =

فقال : هل يعرف النحاس باشا شيئاً عنك ؟ فقلت : إنه يعرفني جيداً ويعرف كل شيء ،
ويكفي أن تصف له حالتي وتذكر له اسمي...

حيرة ومناقشة

فأطرق إبراهيم لحظة ثم قال إنني أفضل أن تمهلني إلى الغد لأستطيع التفكير وتدير
الأمر، لأنك باغتنى بحادث خطير، فإن وافقت فأنا أنتظرُك هنا صباح الغد فأكون قد كونت
فكرة ورتبت المسألة مع الباشا ومهدت لك السبيل . فقلت : لا ، لا ، بل المسألة أخطر من
ذلك ، ففيها حياتي وموتي ، وإن مضيت الآن وقعت بيد الشرطة ، وإن لم أقع الآن وقعت
غداً عند عودتي إليك ، لا ، لا ، يجب أن أقابل النحاس باشا الآن بمجرد وصوله ، وقبل أن
يجتمع بالصحفيين ، وقبل إلقاء خطابه السياسي في الراديو ، فأنت وأنا أمام حالة لم نر مثلها
ولن نر أختها ، فيها بالله عليك . فقال : أراك على علم بكل شيء يقع هنا ! فقلت : نعم ، بكل
شيء ، وإن لم تسهل لي الاجتماع بالباشا الآن، نهضت واقتحمت غرفته بالقوة ، فإما أن أدخلها
ويزعجه دخولي على تلك الصورة وأنا مضطر لذلك ، وإما أن يحول رجال الحرس دون الدخول
فأقاومهم فتحث ضجة ، ومهما يكن من أمر فلا بد من إنهاء المسألة الآن، فيها بالله عليك،
لأنك أمام حادث قد لا يتكرر معك بعد مئة سنة !

رئيس الوزراء ودخول الصحفيين علينا

وفي خلال ذلك سمعنا حركة على درج الرئاسة وضجة خفيفة ووقع أقدام كثيرة ، فقال
إبراهيم عز الدين : هاهو الباشا الرئيس قد حضر ، ثم تركني وذهب مسرعاً ...

بيد أحد الشبان الذين أساءوا فهمه . فقد كان أمين عثمان ممن تعلموا عند الإنجليز وتزوج من إنجليزية ،
وكان لبقاً في المفاهمة مع الإنجليز ، وكان صريحاً معهم ، وقد فهمهم وفهموه فوثقوا به واحترموه لأن
أسلوبه معهم كان لبقاً مبتكراً يقول لهم في وجوههم ما يقال عنهم في غيابهم ، على عكس بعض الساسة في
الشرق الذين يتظاهرون أمام الأمة بالوطنية المتطرفة الحادة ثم إذا خلوا إلى الإنجليز قالوا إنا معكم ، ووقفوا
منهم وقفة الدليل المتجسس القليل من قيمة أمته .

وأما أمين عثمان باشا فكان رجلاً مرناً جذاباً بارعاً ، يخوف الإنجليز من أمته ويحذرهم من قوة
الرأي العام ، ثم يقول للأمة إننا نستطيع أن نأخذ من الإنجليز بالحسنى أكثر مما نأخذ بالعنف ، وكانت
جريئاً عملياً واسع الحيلة يعرف من أين تؤكل الكتف - كتف الأجنبي لا كتف أمته !

وبعد دقائق رأيت باب الغرفة التي كنت فيها ينفتح ويدخل منه بعض الأشخاص ، فإذا بهم من رجال الصحافة يتقدمهم الأساتذة سلامة موسى وعبد الحليم الغمراوي وعبد الله حسين « رحمه الله » تجلسوا في مقاعد متناثرة هنا وهناك ، ولكنهم لم يعرفوني ، وهنا خطر لى خاطر ، وهو أن مسألتى قد تحقق وقد يحصل فيها سوء تصرف ، إما من النحاس باشا أو من أعوانه فأساق إلى السجن ، فقلت فى نفسى إن حصل شئ من هذا فليدفع النحاس باشا ثمنه علنا وغاليا وليتحمل مسؤولية وقوعى بيد الإنكليز بعد أن لجأت إليه ، ولذلك يجب أن أكشف نفسى لهؤلاء الصحفيين حتى إن وقع خطر كانوا على علم به وكانوا شهودى على النحاس باشا ، كما كان حافظ بك عوض شاهد الإثبات على مكرم عبيد باشا ، بل يكفينى من مكرم عبيد شهادته على نفسه أمام نفسه إن أنكر أمام الرأى العام تهديده إياى إن لجأت إليه بتسليمى للبوليس ...

البوليس !

عند ذلك أدت وجهى نحو الجالسين فى الغرفة وناديت الأستاذ سلامة موسى ومن كان معه بأسمائهم ، وقلت لهم أنا فلان فهبوا جميعا يعانقونى ويسلمون علىّ ويهتفونى بالسلامة ، وفيما نحن كذلك إذ دخل الغرفة « البكباشى » محمد حلمى شعير بك رئيس الحرس الخاص بالنحاس باشا وكان يعرفنى لما كان يشتغل فى « الحكمدارية » فكانوا يرسلونه إلى السجن الذى كنت فيه فيرافقنى إلى الطبيب ثم إلى المستشفى ، وقد رافقتنى إلى دارى يوم وفاة طفلى « جهاد » وعاد بى إلى السجن فكان بوقتها محزوناً من أجلى فحفظت له فى نفسى تلك العاطفة . ولما دخل شعير بك أجال نظره فى الموجودين فظننت أنه جاء يبحث عنى ليسوقنى إلى السجن ! ولكنه تركنا ووقف يتحدث بالتليفون دقيقة ثم انصرف ودخل الغرفة المجاورة ، فشعرت باضطراب داخلى من هذه الحركة ، فهل سمع شعير بك شيئاً أو أحس بشئ فاتصل بإدارة البوليس العامة بهذا التليفون الذى دقه أمانى ؟ هل خرج ليرصدنى عند الباب ليمسكونى إن خرجت ...

مع أمين باشا

ولنرجع إلى ما كنا فيه ، فأقول إن إبراهيم عز الدين رجع إلىّ بعد أن تركنى يبضع

دقائق وقال إنه تحدث مع أمين عثمان باشا عن حكايته وإنه يريد أن يراني ثم قادني إلى مكتب أمين باشا فقابلني «رحمه الله» بابتسامة لطيفة تشرح الصدر، ورحب بي وأشار إلى مقعد فاخر بجوار مكتبه فجلست، وطلب لي فنجاناً من القهوة ثم جلس أمامي على مكتبه وأقبل عليّ بوجهه وجوارحه كلها وهو يقول: لقد أخبرني إبراهيم عن مسألتك فأريد أن أستفهم عنها منك أنت . ففهمت أنه يريد أن يختبرني ويستوثق من حالتي . فقد أكون أحد أولئك الدجالين الذين يطرقون أبواب الكبراء للاحتيال والنصب منتحلين للمقابلة شتى الأسباب ، حتى إذا تمت المقابلة أخرجوا حجاباً أو تيممة وطلبوا مالا ، أو انني شقي



المرحوم أمين عثمان باشا

مغتال يريد برئيس الوزراء سوءاً !

فقلت له أنت لا تعرفني ولم نجتمع قبل الآن ولكني أعرف كل شيء عنك ورأيت والدك المرحوم محمد بك عثمان سكرتير عام بلدية الإسكندرية . وأما أنا فخكايتي كيت وكيت ، وقصصت عليه قصتي مختصرة مختزلة فسألني أمين باشا عن بعض الأمور فأجبته عليها فأعجبه ما سمع مني .

اللقاء بالنحاس باشا

وهنا وقف أمين باشا وطلب أن أنتظره لحظة ، ثم دخل غرفة مجاورة لمكتبه وترك بابها مفتوحاً ، ففهمت أنها غرفة النحاس باشا ، ثم سمعت كلاماً لم أتبينه ، ولكني سمعت صوت النحاس باشا يقول : وأين هو الأستاذ الطاهر الآن ؟ فلم أنتظر أكثر مما انتظرت ، بل هرولت قبل أن يناديني أحد واقتحمت غرفة النحاس باشا فوجدته واقفاً أمام مكتبه يجرب آلة الراديو التي سيذيع خطابه منها ، وإلى جانبه الأستاذ كامل البنا مدير قسم الصحافة برئاسة الوزراء والأستاذ إبراهيم عز الدين ، فقصت إلى حيث يقف الباشا الزعيم وألقيت عليه السلام ثم احتضنته كما دتي معه وهو زعيم شعبي ، فاحتضني وقبلته وهو يضحك مندهشاً

فقلت له : أنا آت لأسلم نفسي إلى الزعيم المجاهد لا إلى رئيس الوزراء وأما أسلافك الذين كانوا على هذا الكرسي فقد كنت أفر منهم . فقال النحاس باشا بغيريته الطيبة أهلاً بك ومرحباً ، ماهي الحكاية ! فقلت لاشئ سوى أن أعوان المستعمرين قد أرهقوني وكادوا يقتلونني في السجن صبراً ففررت منهم وجئت إليك لتحميني منهم ومن الإنكليز ! فقال النحاس باشا « إسمع ياطاهر أنا أعرف ان جهادك في قضية فلسطين هو الذي جلب عليك كل ما أصابك وهو في سبيل الله ، ولكن الجهاد السياسي في أثناء الحرب لا يفيد عملياً بقدر اغتنام الفرصة ، فأنا أريد منك أن تلتزم الهدوء فلا تتكلم ولا تكتب ولا تخطب لأننا مرتبطون مع الإنكليز بمعاهدة تلزمننا بالتعاون معهم ، كما أن مصلحة البلاد تستوجب منا عدم الاشتباك معهم في مشاكل ، فإن وعدتي بمراعاة الظروف الحاضرة فأنا أضمنك وأنهى مسألتك مع الإنكليز . ولن يصيبك سوء » هذا ما قاله النحاس باشا سرده هنا بحروفه تقريبا وقد قاله بلهجة الزعيم والحاكم الذي يقدر ظروف الآخرين .

رجولة النحاس باشا

ثم التفت النحاس باشا إلى أمين باشا عثمان قائلاً « خذ الأستاذ الطاهر إلى مكتبك واتصل بالإنكليز وأخبرهم انه جاء إلى واني قبلت استسلامه وانه أعطاني كلمة شرف بأن يلزم السكون وأنا المسئول عنه » .

فشكرته ومشيت مع أمين باشا إلى مكتبه ، فإذا بالنحاس باشا يصيح قائلاً « إسمع يا أمين باشا ، قل للإنكليز إنني أطلقت الطاهر فعلا وسيخرج من عندك حراً ويجب أن تنادي حسن فهمي رفعت باشا وكيل وزارة الداخلية وتبلغه أمرى ليعمل على إبلاغ إدارة الأمن العام ودوائر البوليس عدم التعرض له ، وإن اعترض الإنكليز ، على ذلك ، فقل لهم أن لا يفتحوا لي هذه السيرة ، فأنا قد أطلقتته وانتهى الأمر ، أما إن أرادوا عمل مشاكل معنا فأنا لا أستطيع وضعه في السجن بل آخذه إلى بيتي فينام عندي وفي الصباح أجيء به معي إلى هنا فيقضى يومه في دار الرياسة ، وهكذا كل يوم فليختاروا أحد الأمرين » هذا ما قاله مصطفى النحاس باشا الزعيم المجاهد متحدياً بريطانيا الحقودة المستأسدة على الأمم الشرقية جميعاً ، وقد وقف هذا الموقف المشرف بغتة وجابهه بحزم بوحى نفسه وسجيته الطيبة

اجراءات سياسية وإدارية

جلست عند أمين باشا عثمان في مكتبه فتناول التليفون وطلب مخاطبة السفارة البريطانية أو القيادة العسكرية للشرق الأوسط ، ثم أمر بإحضار حسن رفعت باشا وكيل الداخلية ، وهنا لحظت منه حيرة طارئة كمن يريد أن يقول شيئاً فبادرته قائلاً « لاشك إن الباشا يفضل أن يكون حديثه مع القوم سرياً وأنا أفهم الإنكليزية قليلاً فهل تستحسن أن تأخذ حريتك معهم فانتقل أنا إلى غرفة أخرى » فاستحسن أمين باشا هذا الاقتراح وشكرني عليه ، وأمر موظفيه بإعداد غرفة الدكتور محمد صلاح الدين بك السكرتير العام لمجلس الوزراء لانتظار فيها ، كما أمر بإحضار آلة راديو لأسمع منها خطاب النحاس باشا الذي سيلقيه من غرفته عن سياسة وزارته الجديدة ...

أنطون باشا الجميل ورجال الصحافة

جلست في غرفة مكتب صلاح الدين بك أنناول القهوة وأستمع لخطاب النحاس باشا من الراديو مع أنه كان يلقيه من مكتبه على بعد خطوات مني ، وكانت القاعة التي ينعقد فيها



المرحوم أنطون باشا الجميل

مجلس الوزراء تفصل بين المكان الذي أنا فيه وبين غرفة مكتب الرئيس ، وهنا لحت الأستاذ محمد التابعي الصحافي المعروف يقف أمام الباب ويطل برأسه ليرى من هو هذا البدوي الذي يجلس تلك الجلسة المستغربة ! فناديته فظن أن المقصود غيره فالتفت إلى الخلف ليرى الذي أناديه وعند ذلك ناديته باسمه فدخل مستظلاً فرحبت به فلما عرفني سلم على بجمارة ومودة فطلبت منه أن يدخل إلى غرفة رئيس الوزراء كبقية المستمعين وأن يشعر أنطون باشا الجميل رئيس

تحرير الأهرام^(١) ومحمود بك أبو الفتاح صاحب جريدة المصرى وعضو مجلس الشيوخ بوجودى وإنى أريد أن أراها ، فقام الأستاذ التابعى من فوره ودخل مكتب الرئيس وبعد قليل جاءنى أنطون باشا يهرول فسلم على وسلمت ، وقبل أن يبدأ بيننا أى حديث أخرج حافظة نقوده وسحب منها جميع المال الذى كان فيها وقدمه إلى قائلاً : أنا لا أدرى كيف جاءوا بك وأخشى أن يأخذوك إلى مكان بعيد ، فاجعل هذه النقود معك فقد تنفعك إلى أن يفرجها الله فشكرته من قلبى على هذه الأريحية وقلت له إن مسألتى قد انتهت ولن يأخذونى إلى أى مكان آخر وسيطلق سراحى الآن ، وقصصت عليه موجز ما أنا فيه ، فحمد الله وقال إننى سأناظرها لا كون بجانبك فإن طال الانتظار تركت مندوب الأهرام هنا ليوافينى بأخبارك ، وسأنتظر بإدارة الأهرام فبادر إلى بمجرد تزولك من هنا ، وإذا بالأستاذ محمود بك أبو الفتاح قد جاء ركض فهنأتى بسلامتى فقصصت عليه خبرى وما أنا فيه ، وبعد ذلك أخذت أداعبه فذكرت له كيف رأيت فى الصيف الماضى على شرفة فندق وندسور بالمنصورة ! فاندesh وقال هذا صحيح ، فلماذا أخفيت نفسك عنى ، فقلت له أنا لا أخفى نفسى عنك ولكنى اضطررت إلى ذلك خوفاً من أزعج ضيفاتك الحسان بلحيتى وملابسى الرثة ! وكان حديث طويل شكرته فيه على سعيه وأنا فى السجن للإفراج عنى ، ثم جاء جمع من الصحافيين الذين انتهوا من سماع خطاب رئيس الوزراء فأحاطوا بى للسلام والتهنئة والفرجة على شكلى وكانوا يوجهون إلى الأسئلة تباعا ...

(١) أنطون الجميل هو أحد أفزاز آل الجميل من بكفيا ببلدان ، وهى أسرة وجيهة يلقب رجالها « بالمشايخ » وهى رتبة شرفية كانت الدولة العثمانية تنعم بها على الأسر النبيلة فى لبنان ، وقد وفد المرحوم فى شبابه إلى مصر فلقى فيها وطنياً حقيقياً وأهلاً كراماً ، فاشتغل فى الحكومة وأصدر مجلة الزهور ثم أوقفها وترك الحكومة وتولى رئاسة تحرير جريدة الأهرام أعواماً كثيرة فنهض بالجريدة نهضة جعلتها مثلاً للصحافة الوقورة الموثوق بأخبارها ، وقد أنعم عليه برتبة البكوية ثم بالباشوية ، وانتخب عضواً بالمجمع اللغوى وعين عضواً بمجلس الشيوخ ، وكان مع ذلك عضواً ورئيساً لهيئات كثيرة منها الخيرية والثقافية والأدبية الخ وكان الجميل باشا مخلصاً للفضيلة والوطنية والأخلاق الكريمة . فكان الجميع يحولونه ويأخذون برأيه وينزلون فى المسائل الكبيرة على حكمه لما امتاز به من الحنكة وسعة الحيلة فى حل المشاكل ، وبعد الأفق وعمق التفكير والصدق والنبيل ، وقد توفى بغتة فى شهر يناير ١٩٤٨ رحمه الله .

وهنا جاء أمين عثمان باشا فأخذني إلى مكتبه فوجدت عنده الاستعماري الكبير حسن فهمي رفعت باشا وكيل وزارة الداخلية والأمن العام « حيث أعيد لهذا المنصب نكايه بحمدى باشا محبوب الذي قلعه النحاس باشا منذ أيام ورماء جانباً » فهنأني حسن باشا رفعت بالسلامة ... في حين انني ما طلبت السلامة والعافية إلا منه ومن أمثاله !

القلم الفضى

وجلس على المقعد الجلدى الفاخر إلى جوار أمين عثمان باشا وجلس حسن باشا رفعت أمامي على كرسي صغير متأدباً خائفاً من حكومة العهد الحاضر ، ومغتاضاً من إفلاقي من الإنكليز ، ثم قال إن السلطة تريد منك تعهداً كتابياً ، فددت يدي إلى عبي وأخرجت قلما فضياً كان قد أهدي إلى من إخواني العرب بأمريكا ، ثم طلبت من أمين عثمان باشا أن يسمح لي بأن أرشف القلم أول رشفة من حبر مكتبه المبارك . فابتسم لهذه الملحوظة وتناول زجاجته الخاصة وقدمها إلى بعد أن رفع عنها الغطاء فلأت القلم وشكرته ، فقدم لي حسن رفعت باشا ورقة من الأوراق الرسمية المطبوع عليها عبارة « رئاسة مجلس الوزراء » فتناولتها وسألته ما هي الشروط التي تريدها السلطة ؟ فقال إنها تريد ثلاث نقاط « أولاً أن لا تسافر من مدينة القاهرة بدون إذن من وزارة الداخلية ، والثاني أن لا تخطب ولا تكتب ولا تقوم بأعمال سياسية ، والثالث أن تحافظ على أصول الضيافة فتراعى ظروف الحكومة مع الحلفاء وحالة الحرب » .

مناقشة ...

فقلت لماذا لا أسافر من القاهرة إلا بإذن ؟ فقال حتى لا تذهب إلى فلسطين ، فقلت إن الإنكليز بطبيعتهم يريدونني في فلسطين ليضعوني في سجنهم مدى الحياة ، فأنا أولاً أطلب عدم تمكين الإنكليز من أخذى لفلسطين لأنني ما كنت هارباً من الحكومة المصرية التي هي حكومتى ، ولكنى هربت من الإنكليز ومن أعوانهم المدسوسين على مصر ظالماً وكذباً « وحدثه بنظرة خبيثة » ...

ثم قلت إنهم مصريون بأسمائهم وإنكليز بقلوبهم وعقولهم ! فأعجب أمين باشا عثمان بهذا

الدفع كما إن حسن رفعت امتعض وفهم الذي أعنيه ! فقال دع هذا الشرط إذن ، فقلت واني أرفض الشرط الثالث وأحتج عليه فقال أمين باشا لماذا ؟ فقلت لأنه يجردني من جنسيتي فأنا مصري أكثر من حسن باشا ، فكيف أتبرأ من مصر وأعترف بأني ضيف فيها ؟ فقال أمين باشا أنا لم أفهم قصدك ولا قصده . فقلت إنني مولود في فلسطين ولكني موجود بمصر طول عمري وقد كنت وأهل مصر وحسن باشا رفعت أيضا من رعايا الدولة العثمانية ثم أصبحنا جميعاً بعد الحرب العظمى الأولى مصريين ، لذلك رفضت الشرط الثالث فالتفت أمين باشا إلى حسن رفعت وقال « والله أنا شايف إنه عنده حق » .

التعهد

وهنا لم يسمع حسن باشا رفعت إلا أن ترك لي كتابة النص الذي يعجبني ، فكتبت ما يلي وأظنه يطابق الأصل الذي بقى في رئاسة مجلس الوزراء لأنى أرويه بعد عشر سنين نقلا عن ذاكرتي وهو :
« أنا محمد علي الطاهر أتعهد للحكومة بأن لا أشتغل في السياسة ولا أقوم بعمل محرر لها وأن أحافظ على السكون في الظروف الحاضرة » ثم أمضيته وناولته لأمين عثمان باشا فقراه وأعطاه لحسن رفعت باشا وقال له هذا تعهد كاف . فلم يسمع حسن باشا إلا التسليم بذلك أيضا ، ولكن على مضض ، فأخذ التعهد ووضع في جيبه ، وقال إنه سيبلغ الليلة أمر النحاس باشا إلى إدارات البوليس في جميع أنحاء القطر بإلغاء أوامر القبض السابقة مع التنبيه بعدم التعرض لي مطلقاً ^(١) .

(١) الذي أعرفه عن حسن فهمي رفعت باشا إنه من أكفأ رجال الأمن العام في الشرق ، فقد بلغني أن الإنكليز أرسلوه من مصر ليتعلم فن « البوليس » في سكوتلانديارد على الطريقة الاستعمارية ببوليس لندن ، وكانوا قبل ذلك قد أرسلوه إلى روسيا في أواخر عهد القياصرة ، فتمرن ببوليس « التشيكا » على قمع الحركات الوطنية ، فلما أتقن هذه الفنون عينوه مديراً لتحقيق الشخصية ثم مديراً للامن العام وبقى قابضاً على هذه الإدارة نحو عشرين عاماً . وقد دقت منه أنواع المطاردة ، ففي أول مرة قابلته سنة ١٩٢٩ سمعت منه لأول مرة في مصر عبارة « انت أجنبي فيجب إبعادك من هنا » وفي الثانية لقيني بقسم الإدارة بوزارة الداخلية سنة ١٩٣٤ أقدم أوراقاً تثبت مصريتي فقال لي : « أما أنت فيجب أن تزرع الجنسية عنك ، لا أن تعترف لك بالحكومة بها » وكان هذا الباشا الرهيب يكره جريدتي ويعني من السفر ويحاصرني . وفي سنة ١٩٤٦ حجز المرحوم الأمير شكيب أرسلان وشقيقه الأمير عادل بيميناء الإسكندرية في عهد حسن رفعت باشا ومنعاً من مغادرة السفينة بحجة أنه كان يستشير في أمورها وزير الداخلية .. وقد أخرج حسن رفعت باشا من منصبه سنة ١٩٤٨ فكان لذلك صدى ارتياح في البلاد ، وودعته الصحف بما هو أهله ..

فقلت ولكن هناك مسألة هامة ذات شقين فأولا من هو الذى أمر بالقبض على قرينتى وشمتهما وضربها وحبسها ثم أبعادها ، والثانى متى تم الإجراءات لإعادتها إلى القاهرة ، فقال حسن باشا إنه لا يدري بحوادث السجن والإبعاد لأن إدارة الأمن العام لم تكن فى تلك الأيام تحت يده بل تحت سلطة حمدى باشا محبوب ، وأما إعادة قرينتى ، فقال إنه سيجرى غداً كل ما يلزم فى سبيل إرجاعها . فقلت وهل تتركون المجرمين الذين ارتكبوا تلك الفظائع معنا بدون عقاب ؟ فقال إن التحقيق فى ذلك سيكون بعد رجوع قرينتك من الخارج .

وهنا خطر لى شىء فقلت لحسن رفعت باشا إننى أتوقع بعد خروجى من هنا يومين أو ساعتين إنه سترد عليكم العشرات من الرسائل المغفلة والوشايات والتقارير ضدى فماذا يكون الموقف إزاءها ؟ فقال حسن باشا إن الحكومة تعرف كيف تقابل مثل هذه الأوراق وتعرف كيف تتصرف بها ...

محمد بن معاوية مثال الوفاء

ورد فى كتاب « الغرر الواضحة » الحادث الآتى وهو من مواضعنا التى نحن فيها :

لماولى صالح بن على ولاية مصر من قبل أبى العباس السفاح ، خرج عليه رجاء بن روح بفلسطين مع عمه الحكم بن ضبعان وكان على شرطة مصر ، فأرسل إليهم أبا عون ومحمد بن أشعث الخزاعى بعسكر فهزما الحكم . وبلغ صالح بن على أن رجاء بن روح دخل مصر واستجار بمحمد ابن معاوية فأجاره ، فأرسل إليه فحضر فقال : ألم أكرمك ، ألم أشرفك ؟ فقال : بلى . قال صالح : فكان جزائى منك أن أجرت عدوى ؟ فقال : وما ذاك أيها الأمير ؟ قال : رجاء بن روح وابنه . فقال : أصلح الله الأمير اختر واحدة من اثنتين لى فيهما براءة ، إما أن أثليج صدرك يمين أو ترسل رجلا من ثقاتك يفتش منازل . قال : وتحلف ؟ فقال : نعم .

فأحلفه بطلاق زوجته ، وعتق عبده ، ومشيه إلى مكة راجلا حافيا . فخلفه ثم انصرف إلى منزله وأعلم زوجته فاعتزلت عنه وقالت له لا تنقطع عني لثلا يشعر صالح بن على بالأمر . فلما عزل صالح عن مصر ورجع إلى بغداد ، أظهر محمد بن معاوية طلاق زوجته وأعتق رقيقه ومشى إلى مكة كما شرط عليه (راجلا حافيا) ..

بعد الافراج

الانطلاق والحرية

كانت الساعة تدق الثامنة ليلاً عندما غادرت رئاسة مجلس الوزراء حراً طليقاً في ٧ مارس ١٩٤٢ لأول مرة ، بدون أن أتلفت خوفاً من عيون الرقباء ، وبدون أن أحذر أحداً ولم أشأ أن أذهب راكباً بل فضلت السير إلى إدارة الأهرام مشياً لأتلاذ بمشية الاطمئنان وأتعود حياة الأمان التي اشتيتها، ومشيت وأنا لا أصدق إنني أصبحت حراً كسائر العباد ، بعد أن عشت نحو سنة لا أمشي إلا خلسة ولا أنتقل من مكان إلى آخر إلا فرعاً مروعاً أقرب الغدر وأتوقع الأذى من كل مخلوق تقع عليه عيني ، وانتظر القبض على من كل من تقع عينه عليّ! انها لدقائق لا يمكن لأحد أن يتصورها ويعرف قيمتها إلا إذا عانى ما عانيت وأصابه ما أصابني ، تلك أيام سوداء حالكه لحاها الله ولا أعادها ، ولا نكب أحداً بمثلها ، إلا إذا كان من الظالمين ليلقى ما لقيت .

وبينما كنت أغادر دار الرئاسة مررت بالكباشي محمد شعير بك ، وكان واقفاً عند شباك غرفة أمين عثمان باشا ، فمدت يدي إليه « ونكشته » لألفات نظره إلى ، فالتفت فسلمت عليه فلم يعرفني لأول وهلة ، لأن فكره كان موجهاً إلى سواي ، ولأنني باغته مباغته ، فلما عرفته بنفسى حلق بي ملياً وهو لا يكاد يصدق عينيه مندهشاً من وجودي في قبضته وفي عرين الأسد ؛ فبادرت بإطلاعه على الحقيقة وإني أصبحت حراً من تلك اللحظة فقط ، فهنأني بالسلامة وأظن أن القاري يذكر أنني أئتمت على هذا الرجل وذكرته بالخير .

يأ كل خروفاً

ووصلت إدارة الأهرام فإذا بي عند الباب وجهاً لوجه مع صاحبها جبرائيل تقلا باشا « رحمه الله » ومعه الأستاذ علي محمود طه الشاعر الشهير « رحمه الله » فأدهشهما إقتحام هذا البدوي لدار الجريدة ، ولكن الدهشة ما لبثت أن تحولت إلى ترحيب بمجرد أن عرفاني ، وإذا بتقلا باشا يبادرني بالسؤال عن حادثة القبض على عند باب اللوكاندة بشارع ابراهيم باشا وإفلاتي من البوليس ! فاندعشت لمعرفته بها مع أنه ما كان يعلم بها أحد إلا إميل الغوري ، وعند ذلك أدركت إنني كنت مصيباً في كتمان أسرارى عن بعض الأصدقاء قبل الأعداء ،

لأن الإنسان يعرف هؤلاء فيبتعد عنهم كما أنهم يجهلون حقيقته ، وأما الأصحاب فهم الذين يعرفون الحقيقة فيغلط أحدهم ويفضي إلى صديق آخر عن حسن نية بما يعرف ، وهذا يفضي بالسر إلى ثالث ، ويظل السر ينتقل من شخص إلى آخر إلى أن يقف عليه أحد الشائئين أو الجواسيس وتكون النتيجة الوقوع في يد البوليس ...

إن إميل الغورى الذى يسع بطنه خروفاً بأكمله ، لم يتسع لسر أخبرته عنه بسبب اتصاله به ، فأخبر به أحد أصحابنا وهذا أتخف به صديقا ثالثا ... وهكذا إلى أن وصلت أخبارى إلى تقلا باشا فسألنى عنها . ولذلك حمدت لنفسى شدة صبرى على التحفظ وحجب نفسى على قدر الإمكان عن الأصدقاء والمعارف الذين كنت أتنكبهم وأبعد عنهم وأنا آسف متحسر على ساعة أقضيها معهم .

لقد عاتبني الأستاذ أحمد حسن الزيات لما أخبرته بعد الانطلاق بجلوسى بجوار حلقتة تحت شجرة الكافورة بقبوة أندريا بالمنصورة حين كنت أسمع حديثه معهم وأحاديثهم إليه ، وقال لماذا لم تخبرنى فأكرم سرك ؟ فقلت له إننى كنت أواجهك أيضا بجوار دارك بشارع السكة القديمة بالمنصورة وأنت ماشى وحدك « تقزقز اللب » لكنى خفت أن تغلط بحسن نية وتذكر السر لجلسائك وأنت آمن لهم ، فلا يلبث السر أن ينكشف لأنه من الصعب على الإنسان أن يحمل السر فى صدره وأن يكتمه زمنا طويلا ودائما وخصوصا أسرار الغير ..

فى إدارتى الأهرام والمصرى

ورحب بى أنطون باشا وتعشيت فى مكتبه ، وجاء المحررون وكلهم أصدقاء يسلمون ويهنئون ، وإذا بالدكتور يعقوب خورى يدخل معهم ، لأنه كان بالاتفاق مع الدكتور بشناق يربط هناك من العصر يترقب الأخبار إلى أن وجدنى أنا ولم يجد خبراً ! وجاء أحد الأصدقاء فظن أننى لا أزال متسكراً وهاربا نخاف على من الشرطة وأخذ يجرنى إلى غرفة أخرى ليخفينى وهو يلومنى على مجازفتى بدخول دار الأهرام جهرة وعلنا ، وقد اعتبر ذلك منى تفريطا ! أما أنا ومن كان هناك فقد مضينا فى كتمان نبأ الإفراج الذى تم وتركناه صاحبنا على ظنه ووهمه ، إلى أن فطن أخيراً إلى الحقيقة من ضحكة بدرت من الأستاذ حبيب جاماتى

فأخذ يضحك معنا... وبعد قليل جاءت سيارة الأستاذ محمود بك أبو الفتح فذهبت فيها وبعض الإخوان إلى إدارة جريدة المصرى حيث قضينا بقية السهرة ..

وقد علمت بعد ذلك أن رئاسة الوزراء قد أعدت بلاغا رسميا عن حادثة استسلام وإطلاق بناء على التعهد الذى أعطيته للحكومة ، مثل البلاغ الرسمى الذى أصدرته يوم إطلاق عزيز المصرى باشا ، وكانت جريدة الأهرام قد كتبت خبراً مختصراً عن حادثة الاستسلام وكتبت المصرى تفاصيل .

وقد أرسلت فى تلك الليلة برقية إلى قرينتى فى لبنان أخبرها بإطلاق سبيلى ، كما أبرقت بمثل ذلك إلى إخوتى فى فلسطين وإلى شقيقتى فى السويس .

ونمت تلك الليلة فى دار صديقى الأستاذ البيرعمون بدعوة منه لأنى لم أجد غرفة بفنادق القاهرة لشدة ازدحامها بضباط القوات البريطانية التى احتلت معظم الفنادق والمئات من العمارات بعد أن طردت الأهالى منها ، فلما رأتنى قرينة الأستاذ عمون أدخل معه الدار بعد منتصف الليل بعبأتى ولحيتى الطويلة ظننتنى لا أزال هارباً فرجبت بى أجمل ترحيب ، وأخذت توصى قرينها بإكرامى والاحتياط على من عيون الناس ، ولكن لما عرفت بعد ذلك اننى انطلقت وانتهت أيام الهرب ابتهجت كثيراً . وفى الصباح الباكر ذهبت إلى فندق الكونتنتال واتخذت مسكناً فيه لبضعة أيام ريثما أعتز على مفاتيح دارنا بشبرا التى لا أدري ماذا حل بها ولا بأثاثا وملابسنا فيها .



فندق الكونتنتال الذى سكنت فيه

فى القصر الملكى

وكان أول شىء صنعته فى الصباح اننى
ركبت سيارة إلى قصر عابدين العامر فسجلت
اسمى فى دفتر التشرىفات لشكر جلالة الملك
المعظم على موقف حكومته الموقفة وفضلها
فى إطلاق حريقى ، وبعد ذلك تناولت القهوة
عند الأمين الملكى إكرام بك سيف النصر
وكنت لا أزال فى ملابس البدو طبعاً .
فكان الحديث فيه شجون ، وقصصت عليه
كيف رأيت مولانا الملك فى المنام مرتين
قبل زوال المحنة بمدة قصيرة ، فتعجب لهذه
المصادفة ، ولا أدرى إذا كان إكرام بك
قد قص القصة على جلالتة .



بعد أن تناولت القهوة بالقصر الملكى العامر

الانتقام بمنع النشر

وبالذات من انتقام صغير رخيص لا يرتكبه الأطفال ، وذلك أن الذين دروا بمسألتى وشهدوا
فى الليلة الماضية حوادث استسلامى للنحاس باشا وإطلاق سبيلى ، فتحوا صحف الصباح فلم
يجدوا فيها حرفاً واحداً عنى مطلقاً ، وقد تبين أن السلطة العسكرية البريطانية تركت مشاغلها
الحربية ونسيت سوء حالها واشتغلت بى أنا تلك الليلة ، وذلك أنها طلبت إلى رقابة المطبوعات
منع نشر البلاغ الرسمى الذى أرادت الحكومة إذاعته فى الصحف ، كما أمرت بحذف كل ما

كتبته الجرائد عن حادثة الاستسلام، ولذلك ظهرت صحف ذلك اليوم خالية من أخباري.. ولكن لما انتصف النهار صرت أتلقي برقيات تهنئة بإطلاق سبيلي من الإسكندرية ودمهور



مثال من برقيات التهاني وهي من أسرة أحمد حسن بدر

وأسيوط ودمياط والمنصورة وبورسعيد الخ وبعد العصر وردتني برقيات من فلسطين وسورية والحجاز والعراق واستانبول وأنقرة، فتعجبت من ذلك أشد العجب. ولكن بعد البحث زال كل عجب، إذ اتضح أن وكيل شركة تلغرافات الأناضول قد لحني وأنا في رئاسة الوزراء فدري بالحكاية فأبرق بها إلى أنقرة فأداعها الراديو التركي فأخذ راديو دمشق الشام ذلك الخبر وأذاعه كذلك. هذا هو السر في كون العالم الخارجي قد درى بالحكاية قبل سكان القاهرة.

وأما كيف عرف الريف المصري بإطلاق فقد اتضح أن جريدة المصري كانت قد طبعت بضع مئات من العدد الذي نشرت فيه حادثتي وشحنتها إلى بعض المديريات قبل أن يصلها أمر الرقابة بمنع النشر، وسيرى القارىء في الصفحة الآتية نصاً لما كتب وحذف، ثم النص الذي سمح الإنكليز

بنشره بعد أسبوع . وأما سبب السماح بالنشر بعد ذلك فهو أن جريدة البورص اجبسيان نشرت عنى شيئاً دون الصحف العربية جميعاً ، فاحتج الأستاذ محمود أبو الفتح صاحب جريدة المصرى على هذا التحيز وهدد بتقديم استجواب عنه فى مجلس الشيوخ بصفته عضواً فيه ، فسمحت الحكومة بعد ذلك بالنشر .

الرئيس الجليل يأمر بالافراج عن الأستاذ عجل على الطاهر

كان الأستاذ محمد على الطاهر من أقصى الصعيد الى شمال الدلتا ، صاحب ومحرر جريدة «الشورى» واتفق له فى الاسكندرية أن التقى والفلسطينى المعروف مختفياً عن الانظار من جراء أوامر صدرت بشأنه فى عهد الوزارات السابقة التى اعتقلته مدة من الزمن وبعد أن ظل مختفياً أحد عشر شهراً حصر بعد الساعة الخامسة بقليل بعد ظهر أمس فى رى بدوى الى دار رياسه الوزارة مطمئناً الى أن الوزارة الوفدية التى يؤيدها الشعب لا تصدر فى تصرفاتها الا عن المصلحة العامة ولا تعمل الا طبقاً لمقتضيات العدالة والانصاف ، وقد قدم الأستاذ الطاهر نفسه الى حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا ففضل رفقته وأذن له بالعودة الى داره وبالظهور بين أهله وأصدقائه متمتعاً بحريته ، وأسدى اليه النصائح الغالية فقبل الأستاذ الطاهر هذا الصنع الجميل بالشكر الجزيل

وقد قضى الأستاذ الطاهر مدة شهرين فى الاسكندرية فخلال هذه المدة اشهر ١١ اشهر التى اختفاهامختلاً

وقد نزل الأستاذ فى فندق الكونتنتال

من أقصى الصعيد الى شمال الدلتا ، واتفق له فى الاسكندرية أن التقى وجهاً لوجه مع أحد رؤساء البوليس السرى الذين يبحثون عنه فلم يعرفه ضابط البوليس ، ووقعت له حوادث غريبة أثناء مطاردة الحكومة السابقة له

ويذكر القراء أن تلك الحكومة لم تكف بالبحث عنه ومطاردته بل أساءت الى أهل بيته وقبضت على زوجته وسجنوها وعلبتوها لتحملها على الاعتراف بمقر زوجها ثم أخرجتها من البلاد

وقد زار كثير من كبار المصريين والفلسطينيين الأستاذ الطاهر مهنيين ، وذهبت وفود كثيرة من الآخرين الى دار رياسة الوزارة لشكر الرئيس الجليل على عمله بالشكر الجزيل

وقد قضى الأستاذ الطاهر مدة ١١ اشهر التى اختفاهامختلاً

أخذنا بالزكريا ما نشرته جريدة المصرى أولاً وحذفته الرقابة ، وإلى جانبه ما نشره بعد ذلك بأسبوع ، ويلاحظ القارى الاختلاف فى النص الأول عن الثانى .

كلام جريدة البورص اجبسيان

Un «Bédouin» vint voir Nahas pacha...

C'était Mohamed el Tahri, journaliste, condamné politique, que le Président du Conseil décida de libérer

Me Mohamed Aly Taher vient d'être libéré officiellement. On se souvient que Me Mohamed Aly Taher, rédacteur en chef, de l'hebdomadaire "Chouci" avait été condamné à des peines diverses pour des raisons politiques. Mais il avait réussi à disparaître de la circulation.

Pendant de longs mois après sa fuite de Phôpital la police l'avait vainement recherché au quatre coins du pays. En attendant que les élections soient terminées la maréchaussée avait classé provisoirement son dossier quitte à le reprendre plus tard.

Il y a quelques jours, un taxi s'arrêtait devant la grande

porte de la Présidence du Conseil. Un "notable" bedouin drapé dans une riche "abaya" en descendit et se dirigea d'un pas ferme vers le cabinet du Président du Conseil.

— Je suis, dit-il aux huissiers ébahis, Mohamed Aly Taher, rédacteur en chef du "C'ouri" condamné politique.

Et aux fonctionnaires qui l'interrogeaient:

— J'ai confiance en la parole du Président du Wafd. Je me présente moi-même. Il sera fait comme il lui plaira.

S.E. Moustapha el Nahas pacha saisi sur l'instant de l'affaire permit à Me Mohamed Aly Taher de rentrer tranquillement à son domicile en l'assurant qu'il ne serait pas inquiété. Le rédacteur en chef du "Chouri" qui, pendant 11 mois avait fui la police sur toutes les routes du Said au Delta, remercia le Président et se retira.

Dans l'après-midi du même jour plusieurs personnalités vinrent remercier le Président du Conseil pour son geste bienveillant.

Depuis lors, Mtre. Tahri demeurait chez lui attendant sa libération officielle.

ترجمة قول البورص:

« بدوي يزور النحاس »

« باشا هو الصحفي »

« السياسي المحكوم »

« عليه والذي حرره »

« رئيس الوزراء . »

« لقد حرر رسمياً الأستاذ محمد علي الطاهر. ولعل القراء يذكرون أنه رئيس تحرير جريدة الشورى وكان قد حكم عليه لأسباب سياسية بعقوبات مختلفة، ولكنه نجح في الاختفاء عن أعين الناس... وقد لبث البوليس يبحث عنه شهوراً طويلة في سائر أنحاء القطر منذ فراره من المستشفى

دون أن يحصل على نتيجة . وفي انتظار مرور الانتخابات تركت الشرطة المسلحة ملف القضية على أمل استئناف النظر فيه من بعد .

ومنذ بضعة أيام وقفت سيارة أجرة إزاء باب رئيس مجلس الوزراء وإذا بعين من أعيان البدو مرتدعباءة فاخرة ينزل منها ثم يسير بخطى ثابتة إلى مكتب رئيس الوزراء . وقال للموظف الوزارة الذي قابله مندهشاً « أنا محمد علي الطاهر رئيس تحرير جريدة الشورى والسياسى المحكوم عليه » وقال للموظف الذى استجوبه : إن لى كامل الثقة فى كلام رئيس الوفد وإنى سأقدم إليه وليفعل ما بدا له . وقد بلغ النحاس باشا خبر الحادث فى الحين فأذن للأستاذ الطاهر أن يعود إلى منزله فى اطمئنان مؤكداً له أنه لن يصاب بسوء . فشكر صاحب الشورى رئيس الوزراء وانصرف بعد أن ظل أحد عشر شهراً فاراً من البوليس متنقلاً فى جميع البلاد من الصعيد إلى الدلتا وعند ظهر اليوم ذهب كثير من الشخصيات لشكر رئيس الوزراء على إطلاقه .

محمد علي الطاهر

النحاس باشا يفرج عنه

القاهرة ٨ - استقبل النحاس باشا أساتذ الاساذ محمد علي الطاهر صاحب جريدة الشورى . وقد دخل الاساذ الطاهر على رفعة الرئيس مقتكراً بزي بدوي لان الاوامر التي أصدرتها الوزارة السابقة بحقه ارغمته على التخفي وقد رحب النحاس باشا بالاساذ الطاهر وأبلغه ان الحكومة أفرجت عنه برقية مصورة بالنكغراف نشرتها جريدة النهار التي تصدر في بيروت

وبعد ذلك أخذت الصحف الأسبوعية تكتب وتنشر عنى مايعن لها من صواب وتخليط ، ولكنه كله كان فى حدود ما تسمح به الرقابة الإنكليزية ! وقد علم أحد أصدقائى المتصلين بالإنكليز أن السبب فى منعهم النشر عن ظهورى فى رئاسة مجلس الوزراء والحيلولة دون نشر البلاغ الرسمى على الأخص هو شدة غيظهم منى ، وحقد هم على ، وقد اعتبروا أن النشر عن حكايتى فيه تمجيد ودعاية لى ، فمنعوا النشر نكاية بى ! ولكن برقية شركة الأناضول أفسدت عليهم غرضهم فكانت الدعاية بواسطتها أوسع وأبعد .

تصحيح يمنع الإنكليز نشره

ولما رأيت بعض المجلات قد تمادت فى التخليط وهى تكتب عنى أرسلت إليها البيان الآتى

« نشرت بعض الجرائد أنني لما ذهبت إلى رئاسة مجلس الوزراء لمقابلة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة أخذ يرحب بي بقوله « أهلاً وسهلاً بأبي الحسن » ونشرت أخرى أن مقامه الرفيع استقبلني متحياً بقوله « تعالى يا شقى » والحقيقة أنه لاصحة للقولين فصاحب المقام الرفيع قابلني كما يقابل رئيس الحكومة أحد رعايا الدولة العاديين » وكان غرضي من نشر هذا البيان أن أمنع الظن بأن لي يداً في نشر ذلك المزاح السخيف، ولكن الإنكليز كانوا بالمرصاد فأمروا بمنع نشر البيان مع أنهم سمحوا بنشر التخليط، فظن بعض الناس إنني الموعز بنشر ما نشر، وهو مما يحيط مقام رئيس الحكومة بما يخالف الوقار، وذلك مما يريده الإنكليز، ويكفي أن ما نشر كان يجرعني عند الحكومة ويظهرني أمامها بالاختلاق على رئيسها في سبيل الإعلان عن نفسي .

مجلة المصري افندى

وقالت هذه المجلة في عدد ١٥ مارس ١٩٤٢ مانصه تحت عنوان « يفر من الاعتقال ليظهر في رئاسة الوزراء » :

« اتخذ الزعيم الفلسطيني المعروف الأستاذ محمد علي الطاهر مصر موطناً ثانياً له . فاستقر به المقام فيها سنوات عديدة وأصدر جريدته « الشورى » وكان ولا يزال محبوباً من الجميع ولكنه اضطهد في عهد الوزارة السابقة إلى أبعد حد ، حتى إنه قبض عليه ضمن الذين قبض عليهم سياسياً وأودع أحد المعتقلات . ثم أصيب بمرض فنقل إلى أحد المستشفيات واستطاع بمعاونة بعض إخوانه وهو في المستشفى أن يفر وأن يختفي عن الأنظار وكان ذلك منذ أحد عشر شهراً .

وقد عملت الوزارة السابقة المستحيل للاهتمام إلى مخبئه وإعادته إلى معتقله . وأخيراً ظن أنه قد خرج من مصر وأصبح هذا الظن يقيناً بعد أن أعيت البوليس الحيل في الاهتمام إليه . وهكذا ظل زميلنا الأستاذ محمد علي الطاهر مختفياً عن الأنظار أحد عشر شهراً حتى ظهر فجأة في رئاسة مجلس الوزراء أثناء اجتماع رفعة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا بالصحفيين ، ومن العجب أن أصدقاء الأستاذ محمد علي الطاهر وزملاءه الذين كانوا في دار الرئاسة لم يعرفوه في بادئ الأمر .

فقد وقفت سيارة تاكسى عند مدخل دار الرئاسة ونزل منها شيخ جليل وقور يرتدى ملابس الأعراب ، عقلا وكوفية وعباءة من وبر الجمل ونعلا ... وكان حسن البزة والهندام ، طويل اللحية ، فظنه الذين رأوه أحد زعماء العرب أو أحد رجال المفوضية العربية السعودية !

فى غرفة سكرتيرية الرئيس

وقد صعد فى «الأسانسير» إلى دار الرئاسة وطلب مقابلة رفعة النحاس باشا ، فأجلسوه فى غرفة السكرتيرية ريثما يأذن له الرئيس بالمقابلة .

وسأل سكرتير رفعة الرئيس الزائر العربى الكريم عن اسمه ليلغله إلى رفعة الرئيس فقال « المجاهد الفلسطينى محمد على الطاهر » .

ولم يفطن السكرتير لشخصية الزائر ، وأخبر رفعة الرئيس بأمره فاستدعاه فى الحال ورحب به وأكرم وفادته وقال له « مرحبا بأبى الحسن » وأمنه على نفسه وأخبره بأنه منذ الساعة حر طليق ، وأخذ عليه عهداً ألا يأتى أعمالاً تخرج الحكومة أو تسيء إليها ، فأقسم بشرفه ألا يحاول قط ارتكاب شئ من هذه الأعمال .

وعرفت شخصية الزائر العربى بعد ذلك فأقبل الصحفيون على زميلهم يهتفونه وهم مستغربون ظهوره فى هذا الزى العجيب الذى ضللهم حتى أنهم لم يعرفوه فى بادئ الأمر ..! وقد حدث الأستاذ محمد على الطاهر زملاءه عن مغامراته طوال مدة اختفائه فذكر أنه لم يبرح القطر المصرى . وأنه كان دائم التنقل بين بلاد الوجه البحرى والوجه القبلى . وقد ظهر فى كثير من المجتمعات والحفلات والأماكن العامة فلم يعرفه أحد لشدة تنكره وإخفاء معالمه التى كان معروفاً بها للجميع .

وقال أنه كان فى إحدى بلاد الصعيد لما علم من الصحف بعودة وزارة رفعة النحاس باشا إلى الحكم ، اطمأن ووثق من أنه سينال حريته . وفكر فى أن يرسل خطاباً إلى رفعة الرئيس ينبئه بأمره أو يتصل ببعض إخوانه ليسعى له عند رفعتة لإطلاق حريته . ولكنه عدل عن هذا وفضل أن يقابل رفعة النحاس باشا شخصياً ويشرح حقيقة مسأله ، فاستقل القطار فى صباح يوم السبت إلى القاهرة ، واستأجر سيارة أجرة إلى رئاسة مجلس الوزراء بعد أن وثق من أن رفعة الرئيس هناك ليجتمع بالصحفيين .

ونحن نهني زميلنا المجاهد الفلسطيني الأستاذ محمد علي الطاهر بعودة حريته إليه وعودته إلى الظهور ثانية بعد أن ظل مختفياً زهاء عام .

ونسجل هذا الصنيع الكريم مع حسنات حضرة صاحب المقام الرفيع الرئيس الجليل، التي لا تعد ولا تحصى ونضرع إلى الله تعالى أن يهبه الصحة والقوة ، حتى يظل رافعاً لواء العدل في البلاد في ظل حضرة صاحب الجلالة ملكنا المعظم فاروق الأول حفظه الله .

جريدة « الوفد المصري »

قالت في عدد ١٦ مارس سنة ١٩٤٢ ما نصه تحت عنوان « الأستاذ محمد علي الطاهر - الرئيس الجليل يرد إليه حريته :

« في عهد الوزارات السابقة ، صدرت الأوامر باعتقال الأستاذ محمد علي الطاهر صاحب جريدة « الشورى » وأحد أبناء فلسطين النازلين في مصر منذ عهد بعيد .

وقد لجأ حضرته إلى التخفي فراراً من الاعتقال وظل على هذه الحالة مدة أحد عشر شهراً . وبعد أن وليت وزارة الشعب الحكم ، قصد الأستاذ الطاهر إلى دار رئاسة مجلس الوزراء وقدم نفسه لحضرة صاحب المقام الرفيع الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء فتفضل رفعته ورد إليه حريته وأذن له في العودة إلى داره بعد أن أسدى إليه نصائحاً الغالية . وقد قابل الأستاذ الطاهر وجميع اخواننا الفلسطينيين هذا الصنيع بالشكر الجميل .

وقصد إلى دار الأستاذ كثيرون من اخواننا الفلسطينيين والسوريين والمصريين مهنيين كما ذهبت وفود كثيرة منهم إلى دار رئاسة مجلس الوزراء لشكر رفعة الرئيس الجليل على هذا العطف الجميل الذي شمل به الأستاذ الطاهر .

ونحن نهنيء الأستاذ الطاهر برد حريته إليه ، ونرجو له حياة هائلة سعيدة » .

مجلة الشعلة

قالت في عدد ١٩ مارس ١٩٤٢ ما نصه تحت عنوان « آخر لحظة : البوليس يقبض على الأستاذ محمد علي الطاهر - ثم يفرج عنه لأنه مش هو ... » :

« انفردت «الشعلة» في الأسبوع الماضي بما نشرته عن حادث الإفراج عن عزيز المصري باشا وزميليه ؛ وها نحن ولم تمض ساعات على الإفراج عن زميلنا الأستاذ محمد علي الطاهر المجاهد الفلسطيني المعروف ومحرر «الشورى» نقدم لقرائنا أطراف الأنباء وأصدقها عن هذا الحادث. كان الأستاذ الطاهر معتقلاً ثم هرب وظل مختفياً حوالى سنة ، إلى أن قرأ في الصحف نبأ الإفراج عن عزيز باشا فخفزه ذلك على تسليم نفسه إلى رفعة الرئيس الجليل .

مفاجأة

وقد حضر الأستاذ محمد علي الطاهر من أقاصى الصعيد في قطار السكة الحديد فوصل إلى محطة القاهرة في الساعة الرابعة بعد الظهر .

ولم يعرفه أحد لأنه كان متنكراً في زى بدوى فلسطينى يلبس عقالا ويرتدى عباءة حمراء وقد أرسل لحيته .

وانتظر في إحدى القهوةات حتى الساعة الخامسة بعد الظهر ثم استقل سيارة أجرة إلى رئاسة مجلس الوزراء ، وصعد الأستاذ الطاهر إلى دار الرياسة دون أن يعرفه أحد . وسأل عن الأستاذ محمد صلاح الدين بك سكرتير عام مجلس الوزراء بالنيابة ف قيل له إنه مريض . وقدموه إلى الأستاذ إبراهيم عز الدين . ولما علم أنه شقيق الأستاذ صلاح الدين عرفه بنفسه وطلب منه أن يلتمس له الإذن بمقابلة رفعة الرئيس الجليل .

يا بختك يا بوبخت

واستدعى رفعتة الأستاذ الطاهر وكان خلال ذلك جالسا مع بعض الصحفيين يتحدث إليهم عن ظروف اختفائه .. فقال وهو في طريقه إلى مكتب الرئيس : يا بختك يا بوبخت .. يا بوبو الحسن ...

تعال يا شقى ...

وبادره رفعة النحاس باشا باسمًا بقوله : تعال هنا يا شقى ... ثم دار حديث طويل حول الموضوع بحضور سعادة حسن رفعت باشا وكيل وزارة الداخلية والرقيب العام ، وانتهى الحديث بصدور الأمر بإطلاق الحرية له .

وانصرف الطاهر وجميع سعاة الرياسة يحبونه وقوفاً على هيئة « زنهار » اعتقاداً منهم أنه أحد رجال السلك السياسى الذين يمثلون البلاد العربية فى مصر .
وقد قص علينا طرفاً من حوادثه عرفنا منها أنه لم يبرح الأراضى المصرية خلافاً لما كان قد أشيع .. وأنه كان ينتقل فى مختلف أنحاء البلاد فى صور شتى ... فأحياناً يظهر فى صورة عربى وأخرى فى صورة « خواجه » .

مع النحاس باشا فى أسوان ...

وقال : إنه كان فى مقدمة الذين استقبلوا النحاس باشا ومكرم باشا فى أسوان والأقصر قبل تأليف الوزارة الوفدية الحالية ولم يستطع أحد أن يكشف حقيقة شخصيته .

مع مكرم باشا

وقال إنه شاهد معالى مكرم عبيد باشا فى أسىوط أثناء حضوره للمرافعة فى إحدى القضايا الكبيرة وأنه سلم عليه فى وسط « الزيتة » فلم يعرفه ولم يفطن إلى شخصيته .

فى رأس البر

وعلمنا أنه قضى شطراً من فصل الصيف فى مصيف رأس البر . وقابل فيه كثيرين من ذوى الشخصيات الكبيرة الذين كان يتصل بهم قبل اختفائه ، ولكنهم لم يعرفوه ، وكان يتردد أثناء وجوده فى رأس البر على مدينة المنصورة وقابل فيها حانظ عفيفى باشا وغيره دون أن يفطنوا إلى حقيقة شخصيته .

وقد التقى أثناء وجوده فى الإسكندرية بالبوليس السرى الذى كان مكلفاً بالبحث عنه فلم يعرفه ، ولذا له أن يلعب عليه ويضلله ، فراح يعمل فيه فصولاً طريفة .

وقد ضبطه البوليس ذات مرة بالقرب من الإسكندرية وظنه أحد مهربى الحشيش فلما قنشه وجد معه (نخذة) خروف غير مختومة بخاتم السلخانة فصودرت (الفخذة) وتمكن هو من الفرار ! » .

محنة الصباح

قالت في عدد ٢٠ مارس ١٩٤٢ : « كان الأستاذ محمد علي الطاهر صاحب ومحرر جريدة «الشورى» والمجاهد الفلسطيني المعروف مختفياً عن الأنظار من جراء أوامر صدرت بشأنه في عهد الوزارات السابقة ، وبعد أن ظل مختفياً أحد عشر شهراً ذهب إلى دار رئاسة الوزراء راكباً سيارة أجرة ومتنكراً في زى بدوى مطمئناً إلى أن الوزارة الوفدية التي يؤيدها الشعب لا تصدر في تصرفاتها إلا عن المصلحة العامة ، ولا تعمل إلا طبقاً لمقتضيات العدالة والإنصاف وقد قدم الأستاذ الطاهر نفسه إلى حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا فتفضل رفعته وأذن له بالعودة إلى داره وبالظهور بين أهله وأصدقائه متمتعاً بحريته ، وأسدى إليه النصائح الغالية فتقبل الأستاذ الطاهر هذا الصنع الجميل بالشكر الجزيل .

ترى لو كان الأستاذ محمد علي الطاهر قدم نفسه إلى دولة حسين سرى باشا عند ما كان رئيساً للوزارة ، أو إلى حمدي محبوب باشا عندما كان وكيلًا للداخلية ينفذ أوامر وتعليمات الإنجليز .. ، ثم قدم الأستاذ الطاهر شكواه لهما معاً ، أو لواحد منهما على انفراد ، هل كان سرى باشا أو حمدي محبوب باشا قد تركا الأستاذ الطاهر حراً طليقاً كما أطلقه النحاس باشا ؟؟

ماذا كان بين الإنكليز وأمين عثمان باشا

أكتب هذه المذكرة بعد أن أصبح المرحوم أمين باشا في ديار الحق ، فمن الواجب أن أخلد له موقفاً شريفاً مع الإنكليز بسببي ، فقد التقيت به قبيل مقتله بأسابيع رحمه الله وسألته عما دار بينه وبين الإنكليز يوم إطلاق فقال إنه لما اتصل بالسفارة البريطانية في تلك الليلة وجد فيها المستر سمات المستشار الشرق «وهو عدو كبير لمصر وللشرق ومن أخبث الأعداء الماكريين» فأخبره أمين باشا بمجيئي إلى رئاسة الوزراء ومقابلتي للنحاس باشا وإطلاقه إياي فقال سمات إحتجوه إلى الصباح لينما نستشير السفير اللورد كيلرن ، فقال أمين عثمان باشا إن هذا غير ممكن لأن رئيس الوزارة قد أطلقه . فغضب سمات فقال له أمين باشا أنا من رأي أن توافقوا على ذلك حتى لا يقع مشكل بينكم وبين النحاس باشا . وما الفائدة وقد تم إطلاقه . فطلب سمات من أمين باشا أن يزور السفير في الصباح . وقال لي أمين باشا إنه ذهب في اليوم الثاني

إلى السفارة فوجد السفير اللورد كيلرن في حالة انفعال ووجهه محمر من الغيظ وقد عاجله بقوله كيف تطلقون محمد على الطاهر العدو الخطر بدون تفاهم معنا أولاً ، فقال أمين باشا إنه لم يكن ممكناً للنحاس باشا إلا إطلاقه ، ولو كان السفير في موقف النحاس باشا ما وسعه إلا ذلك ، فقال السفير « هذا رجل ردى شديداً الأذى » وهنا قال لى أمين باشا « أنا لما سمعت سمات بالأمس يتشدد ، ورأيت السفير يقول هذا القول ظننت أن في يدهم أشياء قوية ضدك خفت عليك » فأحبت أن أكشف ورقهم فقلت للسفير إن النحاس باشا قد أطلقه وهو يكفله « أما إن كان يوجد لديكم وثائق ضده فها توها ونحن نحيله إلى محكمة عسكرية ونحبسه » فقال السفير إنه لا يوجد لدينا وثائق ولكننا نعرف أنه مهيج وخطر ، قال أمين باشا : فلما سمعت هذا القول اشتدت معنوياتي وقويت حجتي وتأكدت من براءتك فقلت للسفير إنى أفهم من كلامك أن الرجل متحمس ويحب وطنه ، وهذا ليس بذنب ، فأنت أيضاً تحب وطنك . وهنا خفت حدة السفير وهذا ، ثم قال أرجوكم أن تلاحظوه وأن لا تمكنوه من مغادرة البلاد ، فتعهدت له بذلك . هذه خلاصة ما جرى بين الحكومة والإنكليز في ليلة إطلاق وفي صيحتها دونتها كما سمعتها من أمين باشا ، فشكرته يومها على حزمه ولباقتة ، رحمه الله وبرد ثراه .

وقع ظهورى عند البوليس

كان لحادث ظهورى في نفوس رجال بوليس الجواسيس ألياً وعظيماً . بل كان شديد الوقع . لأنه أثبت عجزهم وقصورهم في ميدان التحرى والبحث والترصد ... والذي زاد في الطين بلة أن ظهورى في القاهرة حدث في نفس الوقت الذى أرسلوا فيه الضابط محمد يوسف إلى بر الشام للبحث عنى في صيدا وبيروت ، بينما كنت أنا في الأراضي المصرية أجوبها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ! وكان أسلوبه هناك هو نفس أسلوبه السخيف الذى كان يعتمد إليه هنا وهو « هذه عشرة جنيهات لتوصيلها إلى فلان فأرجوكم أن تهدوني إليه لأسلمه إياها أو خذوها إليه أنتم » فإن أخذوا المبلغ تعقبوهم ولاحقوهم سرّاً إلى أن يعثروا على الغريم ! .

البوليس السياسى السرى

إن هذا البوليس موجود في كل الدنيا ، وعند جميع الحكومات ، ومهمته أن يطارد الأجانب والجواسيس الخطرين على الدولة ، وأما في مصر حيث نكبت بالاحتلال البريطانى

الاستعماري فإن هذا البوليس كان يعمل للكيد للمصريين أصحاب البلاد ومطاردتهم ، ونتيجة ذلك توطيد قدم الإنكليز فيها ، وقد نذرت إن نجوت من كارثتي أن أكتب عنه ، فإذا بالأستاذ أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة يسبقني إلى هذا الواجب بمجرد أن ألغيت الرقابة عن الصحف وينشر عن البوليس السياسي فصلاً بديعاً وصفه فيه أبلغ وصف قال :

كلام الأستاذ أحمد حسين

« نريد اليوم أن نتكلم عن القسم السياسي في بوليس مصر ، فمن العيب أن نخصص صفحة للتحدث عن الحريات والدفاع عن الحريات دون أن نعرض لهذا البوليس بكلمة ، إذ لا حرية في مصر على أي شكل من الأشكال مابق هذا القسم من بوليس مصر وما بقيت أساليه قائمة ، ولا سلام لمصر بل ولا استقلال ولا سيادة حتى ولو جلا الإنكليز عن أرض مصر جملة إذا ظل هذا البوليس قائماً ، بل لعل وجوده صنو لقيام الاحتلال ، لا يزول أحدهما إلا بزوال الآخر . ولقد امتلأت الدنيا ضجيجاً في هذه الحرب من الجستابو الألماني والحديث عن الجستابو ، وقيل إن هذه الحرب قد قامت وإن الملايين قد ماتت من أجل أن يخلو سطح الأرض من الجستابو وأنظمة الجستابو ، ومع ذلك فإن مصر وحريات مصر وكرامة مصر ، كانت ولا زالت وستبقى فريسة لهذا الجستابو المسخوط ، مابق القسم السياسي في بوليس مصر قائماً ، مع فارق كبير جداً بين ما شهد به الجميع من حذق الجستابو وكفاءتهم وقدرتهم ، وبين العجز الشائن الذي يتجلى في كل يوم وفي كل المناسبات من البوليس السياسي في مصر ، وحسبنا أن نشير إلى حادث مقتل أحمد ماهر باشا والذي لم يستطع القسم السياسي بكل حوله وطوله أن يحتاط لمنعه أو أن يدرك من أمره شيئاً .

ومن قبل هذا الحادث وقع حادث مقتل اللورد موين الذي اغتاله اليهود في القاهرة والذي لولا لطف الله ورحمته لدفعت مصر ثمنه غالياً لمصرعه .

فما الذي يفعله الجستابو المصري إذن ؟ إنه يقدم تقارير كاذبة عن النشاط السياسي لهذه الجماعة أو تلك ، إنه يبيث العيون والأرصاد مشترياً سفلة الشبان والعمال ليقولوا له ماذا يجري هنا وهناك ، في حين أن معلومات هؤلاء الجواسيس لا يمكن إلا أن تكون محشوة بالأكاذيب بطبيعة أخلاقهم .

فإذا ما وقع حادث أو طلب من القسم السياسى صيانة الأمن ، عمد إلى قوائم عنده وراح يعتقل كل من ورد اسمه فى هذه القوائم ، فإذا فرغ من اعتقالهم ظن أنه قد أدى الواجب ! وهذا كله عبث وسخف لم يؤد إلى نتيجة فى الماضى ، ولن يؤدى إلى نتيجة فى المستقبل إلا إفساد الأخلاق بنشر الجاسوسية والخيانة بين صفوف الشباب الأطهار ، إننا نتحدى القسم السياسى أن يدعى أنه استطاع أن يحمى حكومة من الحكومات بأساليبه ، نتحدى القسم السياسى أن يدعى أنه منع جريمة سياسية خطيرة قبل وقوعها ، نتحداه أنه يفعل شيئاً على الإطلاق إلا نقل الأخبار للسادة الإنكليز الذين يريدون أن يعرفوا كل شىء يجرى فى البلاد . أما الحكومات المصرية والجانب المصرى فهو لا يستفيد منه بحال من الأحوال ، فعلام يبقى هذا القسم ؟ وعلام هذه الضجة وهذه المرتبات وعلام هذا النفر من الضباط يضيعون أوقاتهم فى تخريب الأخلاق ؟ إن هذا القسم يجب أن يلغى ويجب أن يلغى من أساسه ، فهو مظهر من مظاهر الديكتاتورية الاستعمارية التى زالت ويجب أن تزول آثارها من العالم ، اه .

استطراد

وفى أثناء طبع هذا الكتاب فى سنة ١٩٥١ تناول هذا الموضوع الأستاذ أبو الخير نجيب الكاتب الممتاز فى جريدته « الجمهور المصرى » فقال فى مقال طويل يصف فيه أسباب الفساد الذى بدأ يطغى على الأوساط الوطنية الناهضة .

« إن السر الدفين يعرفه البوليس السياسى فى مصر ، ويعرفه أيضاً الإنكليز الذين خلقوه وتعهدهوه ودربوه على ما ينبغى أن يفعله مع هذا الشعب ومع كل حكومة شرعية تحاول أن تقف منهم وقفة وطنية صادقة ، أو تنهج فى إصلاح البلاد نهجاً يحشى معه أن يبلغ بها إلى مركز ممتاز !!

لقد عرف الإنكليز أن استمرار وزارة الوفد فى الحكم سيقضى على نفوذهم فى مصر ، ثم على نفوذهم فى السودان ، وهو أمر لم يسمحوا به لأحد فى مصر حتى الآن ... ان البوليس السياسى قائم فى هذه البلاد لينوب عنهم فى هدم كل قوة شعبية تنبت ، وفى إطفاء كل شعاع يبدو ، وفى تحطيم كل إرادة تظهر ، وفى نسف كل قاعدة يراد أن يقام عليها صرح اتحاد شعبى تنخرط فى سلكه كل القوى وكل السلطات ...

لقد عرف البوليس السياسى بطول التجربة والمران متى ينبغى عليه أن يتدخل لتحطيم الوزارة القائمة أيا كان لونها ... انه يعرف بإحساسه المرهف ، وبأنفه الدقيق ، وبخبرته الواسعة ، أن كل وزارة تقوم في مصر ، وتظفر بتأييد شعبي مقترن بتأييد من السلطات العليا ، لا يمكن أن يرتاح الإنكليز إلى استمرار قيامها ...

إن البوليس السياسى لا يرتاح ، ولا يزدهر ، ولا يتبدى في جاهه وسلطانه إلا في عهود الإرهاب ... ولقد رأينا كيف كان ابراهيم عبد الهادى ومن قبله اسماعيل صدق ومحمود فهمى النقراشى يغدقون الألوف المؤلفة على رجاله في صورة مكافآت على سوق الناس إلى المعتقلات ، وتعذيب شباب البلاد وإهدار رجولة الرجال ، وتلفيق الاتهامات ، وحشد الأكاذيب ، وتمزيق المصاحف وضبطها كقربنة على صحة التهم كإحداث في عهد الأحكام العرفية ، ومصادرة الكتب النافعة والصحف الوطنية ، والتنكيل بالأبرياء من النساء والرجال والشبان ... »

بعد الاستطراد

وفي خلال اقتباسى لما تقدم سرده وجدت في مجلة « روزا اليوسف » الصادرة في ١٢ فبراير ١٩٥١ كلاما عن البوليس السياسى وكيف يقف أمام الدسائس الإنكليزية موقف العاجز ، فلا يمسك أحداً من أعوان الإنكليز ولا يطاردهم ولا يلاحقهم ، فقد ذكرت المجلة أن البوليس السياسى قد عرف بوجود جمعية سياسية جديدة تسمى نفسها جمعية « الهلال الأخضر » تدعو مبادئها إلى توطيد الصداقة بين مصر وبريطانيا ، وتأييد السياسة الإنكليزية في الشرق الأوسط ، وتؤيد بقاء الاحتلال البريطانى لقناة السويس كما تدعو إلى تأييد الخطة الإنكليزية المتبعة في السودان .

وتعتمد هذه الجمعية في نشر مبادئها على توزيع بعض المنشورات والابحاث السياسية وعلى الاتصالات الشخصية ، وعلى تقديم خدمات مادية إلى أعضائها وأنصارها .

وهذه المبادئ تشبه إلى حد كبير مبادئ جمعية « إخوان الحرية » التى تألفت خلال الحرب الماضية^(١) ومبادئ « الاتحاد المصرى الإنكليزى » الذى تكون في مدة الحرب أيضاً وضم الكثيرين من الشخصيات المصرية البارزة ويجتمع أعضاء جمعية « الهلال الأخضر »

(١) سيأتى الكلام على هذه العصابة الشريرة .

في إحدى الدور التابعة للسفارة البريطانية ، وينضم إلى هذه الاجتماعات عادة بعض الشخصيات الإنكليزية المعروفة .

ولم يتخذ البوليس السياسى أو وزارة الداخلية ، حتى اليوم أى إجراء خاص بهذه الجماعة وكل ما حدث ، هو أن أرسلت وزارة الداخلية إلى وزارة الخارجية تسألها عن التكيف القانونى لهذه الجمعية ، وما يمكن من أن يتخذ حيالها من اجراءات على اعتبار أنها تجتمع في إحدى دور السفارات الأجنبية ... » اهـ

هذا ما نشر وعلمه الخاص والعام عن عجز البوليس السياسى نحو الأجانب وأعداء البلاد . أما الهيئات العربية والإسلامية فإن هذا البوليس يلاحقها ويهدد رجالها بالحبس أو الإبعاد ، بل يحبس ويبعد بدون أن يستأذن وزارة الداخلية وبدون استفتاء وزارة الخارجية لأن الهيئات واللجان العربية والإسلامية ليس لها حكومات أجنبية تحميها ...

تعليق على ماتقدم

فبعد هذا الوصف المائل الذى دبحه أحمد حسين وأبو الخير نجيب ومجلة روز اليوسف ، أقول : إن البوليس السياسى الحالى لا كفاءة عنده ، فقد لس القراء في هذا الكتاب عجزه وضعف أساليبه ، فعظم ضباطه يجلسون وراء مكاتبهم ينتظرون وقوع الطريدة في قبضتهم مصادفة ، إما بواسطة كلة بالتلفون من واش ذميم ، أو برسالة بريدية من مجهول ملعون ، فهم والحالة هذه أشبه ما يكونون بصاحب دكان كسلان يفتح أبوابها صباحاً ويقعد وينتظر مجيء « الزباين » فإن لم يفتح الله عليه أغلق الدكان في المساء وعاد إلى بيته ليفتحها في الصباح التالى وينتظر الرزق بواسطة البريد أو التلفون ...

فالذى أراه لإصلاح البوليس السياسى في مصر لىخدم الأمة ضد الأعداء بعد أن انقلب إلى أداة تعمل ضد الأمة ، هو أن تقوم الحكومة بتبديل رجاله جميعاً . نعم لاسبيل إلى إصلاح هذا البوليس الذى عين الإنكليز معظم كبار رجاله إلا بإخراجهم جميعاً ، وتعيين هيئة جديدة لا يكون بين رجالها أحد تربى عند الإنكليز ، أو اشتغل تحت رياسة الإنكليز ، أو عرف الإنكليز ، ولا اتصل بهم شخصياً ، ولا عرف في حياته أرقام تلفونات السفارة البريطانية ...

شئون وشجون

عودة زوجي من المنفى إلى القاهرة

كان أول عمل أجراه مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء بعد إطلاق أنه أمر بإرجاع قرينتي إلى القاهرة ، فأرسلت الحكومة برقية إلى قنصل مصر العام في بيروت بإبلاغ قرينتي نبأ السماح لها بالرجوع إلى مصر ، وأبرقت أنا إليها بأن تقدم جواز سفرها إلى القنصلية فأعطوها إذن العودة فوراً . وقد رأيت إشارة القنصلية على جواز السفر وهي تنص على أن إشارة الدخول لمصر صادرة « بأمر خاص من صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء » أي من الزعيم مصطفى النحاس باشا .

وفي خلال ذلك كنت قد عثرت على مفاتيح منزلنا بشبرا . فاستلمت الدار فإذا بالآثاث فوضى ، وبعض الملابس والرياش قد ضاع ، ولكنني مع ذلك حمدت الله على النتيجة . وبعد أيام وصلت قرينتي إلى مصر عائدة من منفاه فاستقبلتها في محطة القاهرة عند الفجر وكانت آثار الضربة التي أصابتها في عينها من الضابط الهمام محمد بك يوسف ظاهرة ، وقد وصفت جريدة المصري بعدد ٣٠ مارس ١٩٤٢ وصول قرينتي بالكلمة التي أثبتنا هنا بنصها الحرفي وهو تحت عنوان « حرم الأستاذ الطاهر - حكومة الوفد تعيدها من المنفى » .

« يذكر القراء حادث اعتقال الأستاذ محمد علي الطاهر ومرضه وفراره من المستشفى واختفائه نحو عام ، ثم ظهوره فجأة وزيارته لصاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا في دار رئاسة مجلس الوزراء وصدور أمر رفعته بإعادة حريته إليه . ويذكر القراء أيضاً مانال السيدة حرمه من عنت وإرهاق في العهد البائد لحملها على الإرشاد عن مكان اختفائه ثم إبعادها من الديار المصرية إلى لبنان .

« ونقول اليوم إن الحكومة الوفدية أمرت بالسماح لحرم الأستاذ الطاهر بالعودة إلى مصر فوصلت مساء أمس إلى القاهرة واستقبلها لفييف من كرائم السيدات ونزلت في دارها بشبرا ، وقد وفد على الدار عدد كبير من فضليات السيدات لتحياتها وتهنئتها بسلامة الوصول وإطلاق حرية زوجها . ومما يذكر أنه شوهد في وجهها أثر الاغتداء الذي وقع عليها من البوليس عند إبعادها منذ ستة أشهر . وقد قابل الأستاذ محمد علي الطاهر وأفراد الجاليات العربية هذا الصنيع الجميل من حكومة الوفد بالشكر والامتنان العظيمين » .

برقيتي إلى رئيس الوزراء

وكان أول شيء قمت به يوم رجوع قرينتي أنني أبرقت إلى النحاس باشا بالبرقية الآتية :
 « لمقام الزعيم الوطني مصطفى النحاس باشا: الآن وقد أعدت قرينتي إلى موطنها واستقرت
 في خدرها، بعد إطلاق حريتي وحريتها، أتقدم معها بشكر الزعيم الأكبر وتحية حرمة المصون
 داعين بخلود الحكم الوطني وسيادة الأمة » .
 إمضاء : محمد علي الطاهر وحرمة

وفي اليوم التالي لنشر خبر رجوعها كان صديقي الأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة
 المعتقل قد سمح له بزيارة أهله بحراسة الشرطة ، فلما اطلع على نبأ وصول قرينتي وما أصابها
 من البوليس أبرق إلى بالتلغراف الآتي :

« أهنتك بالانطلاق، وأشاطرك الآلام التي عانيت بها ، وأسجل إشمزازی من الذين أساءوا
 لزوجتك، وأحتج على فظاعتهم » .
 أخوك في المحنة : أحمد حسين

شاهدان على الإصابة بالضرب

أما الشاهد الأول فهو الدكتور مصطفى بك بشناق وأما الثاني فهو الدكتور رشيد بك كرم
 وهو كبير أطباء البوليس ، فقد أخبرني بعد الإفراج عني أنه كان يعود مريضاً في السجن
 فرأى قرينتي في غرفة المدير فحياها وكان يظنها آتية لتزور الدكتور بشناق على ظن أنه
 هو المحبوس، ولم يخطر بباله أنها هي المسجونة ، فلما رأى الإصابة في وجهها تقدم إليها سائلاً
 عن صحتها وسبب إصابتها فلما أخبرته بالحادث اضطرب من فظاعة ما رأى وما سمع وقال إنه
 لم يقدر على عمل شيء لخدمتها أو التظاهر أمام الموظفين بإجراء معاينة رسمية لئلا يقبض عليه
 هو أيضاً ، وكان القبض على الناس في تلك الأيام من أسهل الأمور عند أعوان المستعمرين

إعداد المعدات لرفع الدعوى الجنائية

إن حادث عدوان البوليس على قرينتي قد هيج خواطر الناس وجعلهم يستعجلونني بإقامة
 الدعوى لدى محكمة جنابات مصر على الذين نكلوا بعائلتي، فاستشرت صديقي الأستاذ العالم
 إبراهيم بك جلال رئيس نيابة الاستئناف « حينذاك » فقال إن الحادث في منتهى الفظاعة ، والدعوى

قوية وكافية لأن تجعل النيابة تتدخل بمجرد تقديم الشكوى ، ولكنه نصح بالتريث إلى أن تنتهى الحرب وتلغى الأحكام العرفية لئلا تتدخل السلطة البريطانية أو على الأقل تحقد على وتلقى بعض الوثائق وتصر على الحكومة بطلب القبض على وحسى إلى أن تنتهى الحرب لأن السلطة البريطانية لا يمكن أن تسكت وهى ترانى أتعب أعوانها من أجل ما قدموا فى سبيلها فقبلت اقتراحه . ولكننى مع ذلك أحببت أن أسبر غور الحكومة ، فذهبت إلى الدكتور محمد صلاح الدين بك السكرتير العام لمجلس الوزراء « وزير الخارجية الآن سنة ١٩٥١ » واستشرته فى مسألة رفع الدعوى ، فقال إياك أن تفعل لأننا لا نزال فى حالة حرب والأحكام العرفية قائمة ، ويستطيع مدير البوليس العام « رسل باشا الإنجليزى » أن يرفض السماح بمحاكمة أعوانه فيقف ومن ورائه السفارة البريطانية والقيادة العسكرية فى وجه النيابة العامة والمحاكم الأهلية لحماية ضابط البوليس لأن القضية ناشئة عن تصرفات جرت فى سبيل سلطان الإنكليز فتقع بيننا وبينهم مشكلة بسببك لا يدري إلا الله عواقبها ، فالنيابة المصرية ستمسك بحقها القانونى فى جانبك ولا يسعنا إلا تأييدها ، والإنكليز سيمسكون بالأحكام العرفية ، وعند ذلك يصعب على كلا الطرفين أن يتراجع . ثم قال إن المحكمة تقضى بإرجاء رفع الدعوى إلى ما بعد الحرب .

فلما رأيت أن الاتفاق فى رأى كان تاماً بين رجل القضاء ورجل السياسة ، تركت مسألة رفع الدعوى إلى حين ^(١)

حافظ عفيفى باشا والنحاس باشا

لقد عرف القارىء ممارسته سابقاً أننى كنت قبل الاستسلام قد كلفت الدكتور حافظ عفيفى باشا بأن يتصل برئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا لأخذ رأيه فى الاستسلام إليه ، وإننى فضلت استئذانه على المباغتة ، وإن حافظ باشا قد وعد بالجواب بعد أيام ، وكيف إننى لم أنتظر

[١] لم نستطع إقامة الدعوى بعد ذلك ، لأن الإنكليز اشترطوا عند إلغاء الأحكام العرفية بعد الحرب إصدار تشريع يمنع إقامة الدعوى على الموظفين الذين ارتكبوا أموراً لا يقرها القانون أو اقتضت الأحكام العرفية وحالة الحرب اقتراها ، وعلى ذلك يكون أصحاب تلك الفضائع قد أفلتوا من يد العدالة الرسمية ، ولكنهم لن يساموا من العدالة المعنوية ، ولا من عدالة حكم الرأى العام فإنه لهم بالمرصاد . .

بعد أن رأيت النحاس باشا يطلق عزيز باشا المصرى ، فسلمت نفسى .

وأقول الآن ، إننى كنت وقرينتى بعد عودتها من المنفى نشرب الشاى فى ضيافة الدكتور عفيفى باشا وقرينته الفضلى ، فسألته عما كان بينه وبين النحاس باشا فقص علينا وهو يضحك الحكاية التالية ملخصة : وذلك أن حافظ عفيفى باشا استسبح فرصة فى يوم الأحد ٧ مارس سنة ١٩٤٢ فذهب إلى فندق « مينا هاوس » مشى النحاس باشا فى تلك الأيام ، فقابله على غير ميعاد واختلى به وقص عليه قصتى كلها وأننى أطلب موعداً للاستسلام ، ثم أطلعه على كتابى الذى قلت له فيه إننى لا أحب أن أبغت النحاس باشا ولا أن أفاجئه . فإذا بالنحاس باشا ينفجر ضاحكاً ! قال حافظ باشا . فاندھشت من هذه الضحكة ، فقال النحاس باشا وهو يقهقه « لقد فعلها صاحبك الطاهر فى الليلة الماضية لأنه باغتنى ولحنى كإن ! » فاندھشت وسألته إيضاح ما يقول ، فقص على النحاس باشا قصة مباغتتك إياه مساء أمس السبت فى رئاسة الوزراء وكيف أنه أطلقك ،

فكانت الحادثة مفاجأة لى أعظم من مفاجئتك إياه بالاستسلام فى دار الرئاسة ، ثم قال حافظ باشا : والغريب ان النحاس باشا استعمل معى المكر والدهاء فتركنى أتكلم وأحدثه عن مسألتك وعزمتك على الاستسلام بدون أن يظهر عليه شىء يدل على أنك جئت إليه أو أنه يدري عنك شيئاً ، إلى أن أطلعتة على كتابك فبقى منصتاً يسمع إلى النهاية ، وبعد ذلك باغتنى بأخبار استسلامك وإطلاقك !



ونزعت لباس البدو ورجعت إلى اللباس الأفرنجى بضعة أيام
فكنت أبدو هكذا

القبض علىّ في ميدان باب الحديد

وبعد أيام من الإفراج عني كنت أنزل من الترام ومعى الدكتور البشناق ونحن في طريقنا إلى دار الشيخ إبراهيم إطفيش تلبية لدعوته لنا احتفالاً بإطلاقي ، وإذا برجل يتلقفني بمجرد نزولي ويسألني ألسنت فلانا ؟ فقلت نعم . فقال أنا من رجال البوليس السري ومكلف بالقبض عليك ثم تابط ذراعي وأخذ يتجه بي نحو مركز البوليس فتوقفت وقلت له أنت واهم فسألني انتهت منذ أيام ورئيس الحكومة أطلقني رسمياً . فقال رجل البوليس أنا أعرف هذا ولكن تعال معي إلى قسم البوليس فهم يريدونك . وكانت إدارة بوليس الأزبكية قريبة منا وهي ذات الإدارة التي كاد يدخلني إليها جندي الدورية في العام الماضي لما ضبطني وأنا أهملول خارجاً من باب الفندق ويدي السلة وصرة الملابس ...

مشيت مع رجل البوليس هذه المرة وأنا أقوى مركزاً ومعنوية عما كنت في ذلك الحين ولكن على كل حال كنت في نفسي مضطرباً أتصور السجن وشماتة البوليس ، وأنا لا أدري ما الذي غير فكر النحاس باشا حتى نقض أمره السابق ونكث بيده ما وقفه الله إليه وسمح بحبسي بعد أن أطلقني . فقلت في نفسي قاتل الله السياسة فكم تفسد من طبائع الناس حتى أن النحاس باشا يقدم على النكوص والعياذ بالله . وأما الدكتور مصطفى بك فإنه لم يتركني بل ظل إلى جانبي ، وسار معي إلى مركز البوليس ، فقلت له : إن بقيت في إدارة البوليس فاذهب وحدك لدار الشيخ إبراهيم وأخبره بعذري عن عدم حضوري وليته ثم اذهب إلى منزل النحاس باشا وأخبره بما جرى ، فقد يكون الإنكليز قد تحدوه وأمروا بالقبض علىّ بدون علمه ، لأنني أعتقد أن مثل النحاس باشا لا يمكن أن يقبل هذا التحدي .

وفطنت وأنا عند باب مركز البوليس إلى رسالة كنت قد كتبها لأحمد حسن بدر بالنصورة وكانت لا تزال في جيب ، فقدرت أنهم سيفتشونني الآن وسيجدون في الرسالة أموراً ودلائل تدل على أنني كنت عنده ، فإن ظفروا به انتقموا منه وأوسعوه تعذيباً ، فمددت يدي إلى جيب المعطف وأمسكت بالرسالة وأخذت أمزقها بأصابعي وأهشمها بقدر ما تستطيع اليد الواحدة أن تقدر ، وكنت أنفذ هذه العملية بسرعة وخفة حتى لا ينتبه رجل البوليس إلى

ما تصنع يدى فيتناول حطام الرسالة وذلك يكفى لمعرفة ما أريد أن أخفيه عنهم ، لأنهم يجمعون « فتافيت » الورق إلى بعضها ويقرأونها .

ولما صعدنا الدرجات القليلة إلى دارالبوليس ، أوقعت معطفى عن ذراعى الآخر وتظاهرت بالانحناء عليه لأخذه ، وفى خلال هذه الفترة تمكنت من ترك بقايا رسالة المنصورة على الأرض ثم استأنفت المشى مع شرطى الجواسيس إلى أن دخلنا على ضابط ، فقص عليه الشرطى كيف كان يترصدنى عند محطة الترام وكيف قبض على . فتناول الضابط آلة التليفون وخطب إدارة البوليس العامة يزف إلى رئيسه البشرى بالقبض على « شافعى افندى » هو الذى توفى فى هذه المهمة لحفظ حقه فى المكافأة ...

وبعد لحظة رأيت وجه الضابط يتغير وأسايره تنبسط ثم ناولنى سماعة التليفون وقال إن سعادة البك يريد أن يكلمك فتناولت التليفون فسمعت رئيس هؤلاء الناس يذكر لى اسمه « القاعقام أحمد حمدى » ويعتذر لى عن غلطة الشرطى وأنه غيب ، لأنه لم يدر حتى الآن نبأ إطلاق حريقى ... فقبلت هذا الاعتذار وانصرفت مع الدكتور مصطفى بك إلى دار الشيخ إبراهيم إطفيش بالمطرية لتناول طعام الكسكسى المغربى ، ولكنى لم أنس قبل مغادرتى دار البوليس أن ألتفت إلى « شافعى افندى » وأن أعزیه على فشله وضياع المكافأة والترقية بعد أن رأها فى خياله وبني عليهما وعلى موتى فى السجن قصوراً من العلالى ، فقال له الدكتور بشناق « ياخيبتك ياسى شافعى ! »

بطل مجهول

ذكرت فيما تقدم اننى خفت أن يلحظنى البوليس وأنا أحاول إعدام رسالتى إلى المنصورة فأتخذ بقاياها فيعيدها إلى أصلها ويعرف منها كل ما أريد أن يخفى .

وأسجل الآن اختاً لهذه الحكاية وقعت فى لبنان ، قصها على الأستاذ أحمد الإمام أحد ساسة فلسطين القدماء ، وهى تدل على أنه يوجد بين رجال البوليس من يساوون أنبل الناس فى شرفهم وإنسانيتهم ، وذلك أن الأستاذ أحمد الإمام كان فى أواخر ثورة فلسطين سنة ١٩٣٩ قد لجأ إلى لبنان واستقر فى بلدة « بحدون » وإذا به يباغت فى إحدى الليالى بتفتيش بيته

بطلب من الإنكليز بفلسطين ، ثم ساقوه إلى مركز الشرطة اللبنانية في بجمدون ، فأخذ رئيس المحفر يحقق معه كالعادة ، قال الأستاذ أحمد الإمام : وبينما أنا كذلك فطنت إلى ورقة خطيرة موجودة في الجيب الخلفي من « البنطلون » وهي كل ما يريد الإنكليز الاستيلاء عليه فيها أسماء ثوار وعنوانات مجاهدين مستترين في فلسطين وسورية ولبنان ، فلو ظفروا بها لأعدموا وسجنوا العشرات منهم . فصرت وأنا أجيب رئيس المحفر على أسئلته أجعل يدي خلف ظهري وفي خفة ولباقة تمكنت من سحب الورقة وأخذت أصابعي تعمل في تمزيقها وتفتيتها ، وقبل أن أتمهي من هذه العملية إذا برئيس المحفر يرفع رأسه بغتة ويحدق في وجهي ثم يمد يده نحوي ويقول « هات فتايت الورقة التي مزقتها ! » فاضطربت ولم أستطع المقاومة فناولته إياها وأنا لا أشك في أنه سيضعها أمامه ويجمعها إلى بعضها وينقل عنها كل ما يريده من معلومات ويدون في محضر التحقيق تلك الفعلة التي فعلتها ثم يضعني في السجن .

ولكن رئيس المحفر أخذ فتايت الورقة ومال بها إلى المدفأة وألقاها في النار وظل ساكتاً هادئاً يرقب احتراقها إلى أن تلاشت وعفّ أثرها ، ثم التفت إليّ ورجع إلى ما كان فيه من تحقيق كأنني لم أصنع شيئاً ، وكأنه لم ير ولم يصنع شيئاً ! وبعد دقائق أطلقني ...

فقلت للأستاذ أحمد الإمام ما اسم هذا الشرطي البطل ؟ فقال إنني منذ ذلك العهد وأنا أشعر بالأسف لأنني لم أسأله عن اسمه لشدة اضطرابي في تلك الليلة . فقلت له سأدون حادثتك هذه في مذكراتي أنا ، مسجلاً بطولة صاحبك ورجولته ، راجياً أن تقع عينه على هذا الفصل فيجد فيه بعض الترضية النفسية لما صنع من مكارم تدل على خلق عظيم ، وفيها درس وإيحاء لكل شرطي ، يحثه على عمل المعروف .

أما إن ظفرت باسمه فسأحلى به الطبعة الثانية من هذه المذكرات ^(١) .

[١] هذه القصة سمعتها من السيد أحمد الإمام في سنة ١٩٤٣ وقد بقيت حية في ذهني إلى أن قرأت في الصحف سنة ١٩٤٧ أن السيد الإمام رجع إلى لبنان فكتبت إليه أذكره بصاحبه الشرطي الذي أنقذه فبحث السيد الإمام عنه بمراجعة سجلات البوليس في تلك السنة إلى أن وقف على أخباره فعلم أن اسمه « أنطون الدوخي » من « مرجعيون » بجنوب لبنان وأنه توفي إلى رحمة الله فحزنت عليه وسجلت مكرمه هنا تحية لذكراه العطرة

الجندي الذي نكب بسببي

بحثت عن سيد حسن البلاح ، جندي البوليس الذي كان موكلاً بحراستي في مستشفى الدمرداش واعتبرته الحكومة مسئولاً عن هربي ، فلما درى يبحث عنه جاء وقص عليّ ما أصابه بسببي وأنه بعد غيابي في مستشفى السجن عن عينه وعيون الجنود بدقيقة واحدة « لعب القار في عبه » فشئى إلى الجهة التي كنت واقفاً فيها فلم يجدني ، فركض يمينا وركض شمالاً فلم يعثر عليّ ، فرجع إلى رفاقه وسألهم إن كانوا قد رأوني فنفوا ذلك وأخذوا يبحثون عني معه . وجاسوا خلال الغرف والممرات والمنعطفات في ذلك المستشفى الواسع ، ثم صعدوا السطح ، وبعد ذلك قتشوا الحديقة والمخازن والعيادات ، ولكن هيهات ! ثم قال إنهم ظلوا يبحثون وهم بين الرجاء والأمل إلى أن أشرقت الشمس وآن أو ان تبدل « الدورية » فأنكشف الأمر فقبضوا عليه وحبسوه شهراً بعد أن ضربوه « علقه » حسب عادة البوليس .. فقلت له انت رحت ضحية غيرك كما انني كنت ضحية غيري ، وأعطيت مبالغاً قليلاً من المال ، ولكنه بالنسبة لسكينا يعتبر لا بأس به ...

إنه نكب فواسيته . وأما أنا فلم يعوضني أحد ، بل ان الذين نكبت بسببهم وفي سبيل بقائهم في أوطانهم وإغاثتهم ودفع الظلم عنهم ، وفي سبيل حصولهم على الوظائف والمناصب واستقرار حياتهم وهنائهم فإنهم تركوني ، وزاد بعضهم على ذلك بأن لامني على اشتغالي في السياسة وقال إنني أستهل وإني « غلباوى » لأنني لم أقعد ساكتاً هادئاً كبقية الناس ... وبعضهم كان يساعد الاستعمار للقبض عليّ ، وبعضهم تنكروا لي وصار بعد الإفراج عني يتهرب من لقاءى خوفاً أو لؤماً ، وبديهي انني تأملت منهم فحقدت عليهم وخسرت صداقتهم ، وبذلك يكون الاستعمار قد نكبنى نكبتين ، نكبة الحبس والتشريد . والثانية أنه أفقدني بعض الأصدقاء وخلق بيننا عداوات أيضاً ، ثم عرفني فوق ذلك بمحمد يوسف وعرفه بي .. ولما ترك الإنكليز الحكومة المصرية وخرج جيشهم من القاهرة تركوا لي صاحبهم فيها ...

زيارات

وفي مقدمة الزيارات التي أدتها بمجرد إطلاق سبيلي زيارة دار صديق المرحوم الشيخ

على سرور الزنكلوني وقبره ، ودار المرحوم أحمد شفيق باشا وقبره ، لأنهما كانا يسيان للإفراج عني وأنا في السجن ، وقد لحقا برهبما بدون أن أراهما رحمهما الله ، وزرت المرحوم الشيخ عبد المجيد اللبان قبيل وفاته وشكرته رحمه الله ، ثم زرت الدكتور أحمد العجاتي بك مدير مستشفى الدمرداش وشكرته على ما كان من بره وعنايته بي لما كنت عنده وأنا مريض وسجين .

في صدره !

وقص على أحد الأصدقاء أن الضابط محمد يوسف كان يندس في المجتمعات السورية فكان كلما رأى صديق في مجتمع جلس بجواره وأدار الحديث حول هربي ليحمله على أن ييوح بما يعلمه عني ، أو يلتقط منه كلمة تدله على مكاني ، وفي إحدى المرات سأله أين فلان يافلان ، فأنت تعرف مقره وتكتمه ! فقال صديق : لقد أصبت فأنا أعرف أين هو ، فقال محمد يوسف بلهفة « أين هو بالله عليك » ... فأشار صديق إلى صدره وقال إنه هنا ، فسكت الضابط الهمام !

من تخيلات الأصدقاء

وذكري أحد الأصدقاء بعد الإفراج عني انه رأى في صباح أحد الأيام وأنا لا أزال هارباً أمشي في شارع عماد الدين لابساً البرنيطة وأنه فضل أن يتجاهلني محترماً اختفائي حتى لا يزعجني أو يخرجني ، مع أنني ما دخلت في تلك الأيام شارع عماد الدين ولا لبست البرنيطة في حياتي !

أما النكتة التي تستحق أن تسجل فتلك حكاية جازنا الضابط فتحى الذي أرسل من يقول لقرينتي في أوائل أيام الحرب إنه ورفاقه قد عرفوا منطقة مخبئي وأنهم طوقوها ، فهذا الضابط رأى في صبيحة إطلاق وجهاً لوجه عند باب العمارة التي يسكنها هو وأسكنها أنا ، وكنت في تلك الساعة لا أزال باللحمة والعباءة والعقال ، وقد جئت بوقها أبحث عن حالة دارى وما جرى لها ، فإذا بالضابط فتحى عند الباب يواجهني وأواجهه ، ولكنه لم يعرفني ، ولو عرفني لقبض عليّ بلا شك لأن الغاء أمر القبض لم يكن قد وصل إليه بعد ...

من أعمال البوليس أيضا

لقد ظهر بعد الإفراج أن الضابط محمد يوسف لم يترك أحداً من الإزعاج بسببى ، حتى انه طرق دار أسرة الدكتور أمين بك رويحة في مصر الجديدة وكان الدكتور أمين مسجوناً بوقتها في فلسطين، فلما فتحت له قرينة الدكتور الباب دخل بسرعة وبلا إذن وادعى أنه قادم « للاطمئنان على صحة الأنجال » ! ثم أخذ يجيل بصره في الدار فقالت له أظنك جئت تبحث عن فلان لعله عندنا ! فقال ألا يجوز أنه نائم الآن في الغرفة الأخرى؟ فقالت له متهمكة : إذن دعه يستريح ! فبلغ ريقه وتركها وانصرف^(١) .

روايات طريفة

وأخبرنى السيد عبد الله بن علوى الجفرى أحد سادات الحج باليمن أنه كان فى داره بعدن فجاء إليه فريق من أعضاء « نادى الصومال » يبشرونه بالإفراج عنى ورووا له كيفية ذلك على الشكل الآتى زاعمين أنهم سمعوه بالراديو .

« كان النحاس باشا رئيس الوزراء فى داره ، فجاء إليه رجل بدوى يركب جملاً ، ودق الباب فخرج إليه النحاس باشا وفتحته بنفسه ، فأسفر راكب الجمل عن وجهه وصاح فيه « أنا محمد على الطاهر » فصاح النحاس باشا يقول مرحباً مرحباً ، أنت حر وقد أطلقتك » فرجع السيد الطاهر مسروراً وهو كاشف وجهه أمام الجماهير بدون خوف ... وذكّر بعض الناس فى نفس القاهرة أن محمد على الطاهر ذهب إلى النحاس باشا وهو متنكر وفاوضه بشأن الإفراج عن « محمد على الطاهر » وأن النحاس باشا لم يعرف من الذى كان يكلمه ولما تمت المفاوضة أظهر محمد على نفسه فأندهش رئيس الوزراء وقام فقبله ... ومثل هذا التخليط كثير !

[١] تذكرنى شدة ملاحقة الضابط محمد يوسف لى ، بالشرطى الفرنساوى « جافير » وملاحقته لـ « جان فالجان » المهرب من البوليس فى قصة « البؤساء » لفكتور هيغو ، ولكن الفرق كبير بين الحاليتين ، لأن جافير كان فرنسياً يطارد عدواً للهيئة الاجتماعية الفرنسية وكان متهماً بجريمة يعاقب عليها القانون ، وأما صاحبنا محمد يوسف فكان يطارد بريئاً لحساب الإنكليز أعداء الوطن الذى ينتسب محمد يوسف إليه ...

وفاء

ماسررت بشيء بقدر سرورى بعواطف طبقة العوام فإن هؤلاء من كمسارية ترام إلى باعة صحف كانوا بعد الإفراج عنى يقابلوننى فى الترام وفى الطرق العامة فيسلمون علىّ ويدعون لى ويعربون عن سرورهم بنجاتى من المستعمرين ، وكان أطف مارأيته رسالة واردة على مصطفى النحاس باشا من السيدة فتحية عقل «قرينة المرحوم السيد جلال عوف» القاطنة فى أنقرة عاصمة الترك ، تهنئه برياسة الوزارة وتطلب منه الإفراج عنى على ظن أننى لا أزال فى السجن ، فكانت هذه الرسالة أجمل تعزية وتحية لى ، وهذه السيدة لا أعرفها ولا تعرفنى ولكنها كانت تسمع من الراديو أننى محبوس فشأت عواطفها الكريمة أن تتشفع بى .

مآدب للتهنئة

بقيت نحو شهر ومآدب الأصدقاء تقام لتكريمى وإعلان السرور بنجاتى أذكر منها مآدب



فى دار محمد محمود جلال بك جلست فى الوسط وجلس إلى يسار القارىّ بجوارى عبد الرحمن الرافعى بك وجلس إلى اليمين الدكتور بشناق بك ووقف بجواره جلال بك فالأستاذ العمري بك

محمد محمود جلال بك ،
والدكتور مصطفى بشناق
بك ، والأستاذ إطفيش
ورشيد بك الحاج إبراهيم
وأنجال المرحوم الإمام محمد
رشيد رضا السيدان شفيق
والمعتصم ، وأنطون باشا
الجميل ، ومحمود تيمور بك
والمرحوم عبد الستار
الباسل بك ، والدكتور
محمد صلاح الدين بك ،

والسيد محمد العتابى والدكتور يعقوب خورى الخ .

هل بقي عندك عقل !

وقابلني بعد إطلاقي ، الأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي بك مدير الشؤون الدينية برياسة الوزراء فسألني عن المدة التي قضيتها هارباً متخفياً ، فأخبرته أنها أحد عشر شهراً ، فقال وهل بقي عندك عقل بعد ذلك ؟ فقلت ربما بقي منه القليل ! فضحك وقال والله إن أعصابك لمن حديد ، لأنني لما هربت من قضية القنابل قبل عشرين سنة واختفيت أحد عشر يوماً فقط كدت أفقد عقلي من حياة الاختفاء والحذر ، ولولا أن الله لطف بي وجعل البوليس يهتدى إلىّ ويضعني في السجن لما استطعت الأكل ولا النوم .

هذا ما قيل عن حياة الهرب والاختفاء ، أما حياة السجن الانفرادي المغلق فقد وصفها الأستاذ أبو الخير نجيب الصحافي المعروف إذ حبس في قضية صحافية أربعة أيام فقط ، حبساً احتياطاً كان فيه مدلاً وكان يعرف على الأقل ماهي تهمته ، ولما خرج من الحبس ، أرسل مذكرة إلى النائب العام عن نظام حبس الصحفيين في سجن الأجانب وأن غلق باب الغرفة ١٨ ساعة ونصف الساعة على السجين في كل ٢٤ ساعة تصرف يؤدي إلى إتلاف الصحة وأحياناً إلى الجنون !

فهذا السجن الانفرادي الذي كاد يجنن أبا الخير في أربعة أيام ، قضيت فيه أنا أكثر من ستة أشهر ...

وحياة الهرب التي كادت تجنن الجديلي بك في أحد عشر يوماً ، قضيت فيها أحد عشر شهراً ...

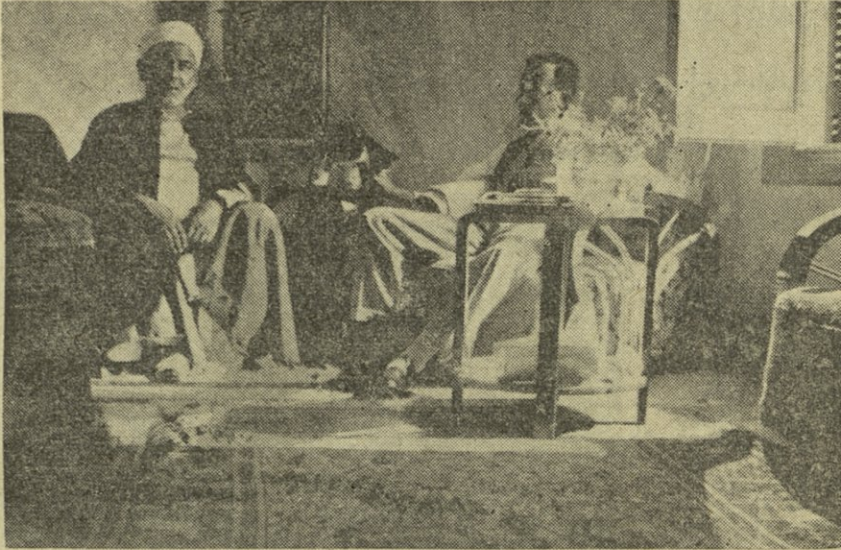
نكتة

وعلمت بعد زوال المحنة أن أحد أصحابي من الطلبة الأزهرين المكلفين بإيجاد مسكن لأختفى فيه كان قد استأجر لي غرفة في حي درب الأحمر وكان يسكن فوقها أحد ضباط البوليس ، فلم أسكنها طبعاً ! والغريب أن صديقي الطالب الأزهرى لما استأجر لي الغرفة استأجرها وهو يتنكر بلباس الأفندية ... فأعجب لمتنكر يستأجر لمتنكر !

لقاء ومباغطة

وكان ممن زاروني بعد الإفراج عنى أحمد حسن بدر والشيخ إبراهيم مجاهد قاضى المنصورة الشرعى والسيد أحمد بك جودة نقيب الأشراف وإبراهيم بك الشناوى وعباس افندى عقل وعبد المجيد افندى سالم الذى شهد لى بأنى تاجر بطاطين فى الإسكندرية وأنه اشترى منى كمية منها قبل ثلاثين عاما...

فاندھشوا عند رؤيتى فى حالتى الطبيعية والفرق العظيم بين شكلى فى زى المشايخ وكيف أصبحت بعد ذلك ، وقد أخذنا نتذاكر الماضى وأيام المنصورة فى قهوة « البرنسات » ودكان العطار عبد الهادى عكة بحارة ميت حدر ...



الشيخ إبراهيم مجاهد قاضى المنصورة الشرعى « الأسبق » يزورنى بمنزلى فى القاهرة زيارة خاصة وقد ظهرت القطة « حبيسة » بيننا

هل أنا الآن الأصل أم الذى كان ؟

وكنت مرة فى زيارة أحد الأصدقاء بوزارة الأوقاف ، فإذا بعينى تقع على موظف كبير فى قسم القضايا يجلس على مكتب فى أقصى الغرفة فعرفته ، ذلك هو الأستاذ محمود عقل بك « المستشار الآن سنة ١٩٥١ بمحكمة الاستئناف » وكان حينذاك يزور أقاربه فى المنصورة فى أيام اختفائى ويجالس أصحابه فى قهوة البرنسات مع أحمد حسن بدر والشيخ إبراهيم مجاهد والسيد أحمد جودة الخ وجلست وإياه أكثر من مرة ولعبت معه الررد .

فلما زرت وزارة الأوقاف ولقيت الأستاذ عقل سحبت مضيفي من يده وجلسنا عند الأستاذ
لنخرج معه، فقدمني إليه صديقي باسم مستعار وقال له عني إنني أعرفه ، ولكن الأستاذ عقل لم
يعرفني ، فقلت له بل تعرفني وأعرفك ، فأنت فلان ، وكنت في المنصورة في الوقت الفلاني،
وكان معك فلان وفلان ، وإني كنت معكم حين لعب الطاولة بقهوة البرنسات . فتأملني ملياً
ولكنه هز رأسه مؤكداً أنه لم يرني، فقلت له أنا الشيخ محمد وكنت أجلس معك ومع أصحابك
وأقاربك فكيف نسيت ؟ فقال: أنا في الأصل كنت وكيل نيابة وقد درست فن معرفة الوجوه
والسحن فأدر وجهك إلى الجانب الآخر لأرى «البروفيل» ففعلت، ولكنه أصر على أني لست
الشيخ محمد! ولما رأى شدة إصراري قال ربما تشبه الشيخ محمد الذي كان في المنصورة ، فقد تكون
شقيقه مثلاً ، فأقسمت له بأنه أنا وأني هو! فقال إذن فأنت متكرر الآن تنكراً جيداً! فقلت كلا بل
كنت متكرراً هناك ، وقد رجعت الآن إلى حالي الأول . فقال إن كنت الأصل فقد كان
تنكرك في زي شيخ مدهشاً . وإن كنت الشيخ ثم تنكرت الآن بشكل «أفندي» فهذا
التنكر أتقن وأعجب ...

زيارة

وكان أول من جاء لفندق الكوتيننتال للتهنئة، قرينة الدكتور أمين رويحة بك السجين
المظلوم ومعها أطفالها ، ففرحت بهم كأنهم أطفالى ودعوت على الذين عذبوا والدم، ورجوت
له من الله الفرج القريب .

استرجاع الغنائم

وذهبت إلى إدارة البوليس العامة فلقيت اليوزباشى محمد ابراهيم إمام^(١) فسلمنى ملابسى
وأمتعتى التى تركتها في المستشفى ، والتى كان البوليس قد امتنع عن إرجاعها بعد الهرب إلى

[١] هو الأميرالاي محمد ابراهيم إمام بك وكيل حكمدار القاهرة عند طبع هذا الكتاب سنة ١٩٥١
فهذا الضابط الممتاز كان يؤدي وظيفته بالنسبة لى ولأهلى بدون أن يصدر منه ما يكدرنا ولا ما يخل بواجبه
الرسمى بل كان فوق ذلك كريم المعاملة معنا ، كما أنه وصل إلى أعلى مناصب البوليس بدون أن يدعى أحد
أن هذا الضابط قد أساء إليه ، لا باليد ولا باللسان . وهذا شيء نادر في تاريخ الشرطة لما تقتضيه هذه
الوظيفة من الشدة في معاملة الناس ، ولكن الرجل الكريم يظل كريماً مهما كانت واجباته الرسمية قاسية

أسرتي وكانت موضوعة في حقبة كبيرة ولكن بعضها كان ناقصا، وأما «الروب دى شامبر» الجديد وهو من الصوف فقد مزقوا أطرافه وخرقوا ظهره منع أنى لم ألبسه إلا بضعة أيام ، ولم أجد كذلك مفكرتى وبعض أوراق الخاصة التى أخذها الضابط محمد يوسف لما مد يده إلى جيبى يأخذ ما فيها ، ولا أدري كيف يليق بالبوليس أن يمد يده إلى جيوب الناس ، كما أنى لا أدري لماذا يأخذها ، ولا لماذا احتفظ بها ولم يرددها إلى ، وكان فيها بعض كوبونات أمانة للسيد أحمد صنوبر من أهالى يافا ، فبقيت فى حوزة البوليس ، وها إنى لا أزال أطلب برد تلك الأوراق .

أساليب بوليسية

ولما اجتمعت بركى سعد بك مدير الجوازات العام لينفذ أمر النحاس باشا بإعادة قرينتى ، فهمت منه أنه ما كان يعلم بحكاية حبسها وإبعادها على تلك الصورة البشعة ، وإنما جرى إليه بجواز سفرها على أنها تطلب الإذن بالسفر فأعطى لها الإشارة المعتادة وقد تمكنت بعد ذلك من الاطلاع على «الدوسيه» بطريقة من الطرق فوجدت فيها تعليمات تقول ما خلاصته « حيث ان فلانة تريد السفر من مصر وهى أجنبية فلا مانع من سفرها على أن لا يسمح لها بالعودة إلى البلاد المصرية » وهذا غير صحيح ، بل إنهم خطفوها من دارها وسجنوها ورحلوها بالقوة .

حتى العصفور الكنارى

ولما عادت قرينتى من المنفى قصت على قصة محزنة وذلك أنها لما أخرجت من دارها بعد عدوان البوليس عليها لأخذها إلى السجن ، فطنت إلى العصفور الكنارى الذى كان يغرد فى الدار ، فخافت أن يموت عطشاً وجوعاً ، فرجعت عن الباب وحملت القفص وأرادت أن تودعه دار جارنا الأستاذ عباس جمجوم المهندس فرفض الضابط محمد يوسف أن يسمح لها بذلك قائلاً « ممنوع ! » فتركت القفص على بسطة الدرج أمام المصعد «الأسانسير» وقالت للضابط الحازم إذن فدعه هنا ليأخذها ياً كان من الجيران حتى لا يموت العصفور جوعاً وعطشاً ، وهكذا كان . وقد تصادف أن حرم الأستاذ عباس فتحت بعد ذلك باب دارها فوجدت القفص وفيه العصفور الأسير المنكوب بين أسلاكه فعرفته واندشت من وجوده فطرقت باب دارنا فلم يرد عليها أحد

فأخذت القفص إلى دارها وهي لا تعرف كيف تعلق وجوده أمام الباب مع عدم وجود أحد في دارنا. ولما نزل عباس صادفه البواب وأخبره أن قرينتي نزلت الآن ومعها قوة من الشرطة وكانت مصابة في عينيها وفي حالة كدر شديد، ففهم عباس كل شيء وعاد إلى أهله وأخبرهم بما سمع، والله وحده هو الذي يعلم ماذا قالوا في تلك اللحظة عن المجرمين ...

وقد احتفظ الأستاذ عباس بمجموع وجيراننا آل محمود تبريزي بالعصفور شهوراً، ولما عدنا إلى دارنا أعادوه إلينا، فأخذ يغرد ويصيح بمجرد دخوله الدار، فأقسموا جميعاً بأن هذا العصفور بقي عندهم تلك الشهور الطويلة ساكناً لا يغرد ولا يفتح فمه، ولم ينطق إلا في لحظة رجوعه إلى موطنه، فتعجبنا لذلك أشد العجب. ولأنس أن أذكر جيراننا الآخرين آل جورج مسرة بك فقد كانوا ممن أحاطوا أسرتي بعطف الجار على الجار.

إزالة اللحية



رجعت إلى داري وعدت إلى حالتي الطبيعية
(٣٤ - ظلام السجن)

كنت أنوى أن أظل باللحية طوال حياتي تذكراً لما أصابني واحتجاجاً على الاستعمار ولكنني وجدت أن «تكاليف» اللحية مما أنوء به لأنها تتطلب تكلف الوقار والسير وئيداً والإبطاء في الحركة، وعدم الركض وراء الترام أو «الشعبطة» عليه عند الاقتضاء ... في حين أنه لا بد للإنسان من الركض في الشارع في بعض الأحيان، وخصوصاً في مدينة كالقاهرة فكيف أستطيع ذلك وقد سمعت أحد الصبية يقول لي وأنا أركض مرة وراء الترام «عيب على دقنك يا بيه!» فحجّلت

وقررت إزالتها فوراً ولكنى لم أشأ التخلص منها إلا بعد أخذ عدة رسوم لتخليدها، فتطوع لذلك صديقي السيد شفيع رضا بن الإمام السيد رشيد فنصرتني قبل أن أزيلها .

تهنئة طريفة

ولمادري الأستاذ على با كثير بنجاح خطتي في مباغته رئيس الوزراء بالتسليم طرب لذلك وكتب يقول فوراً :

« وبعد فلا تسل عن فرحي لما تلقيت بشرى خلاصك ونجاح الخطة على طول الخط ،
إنها والله لساعة من تلك الساعات المعدودة في حياتي التي يطغى فيها الفرح حتى وقفت واجماً
مشدوهاً . لقد وددت عندها لو أستطيع أن أملأ الدنيا صياحاً وجلبة وأؤذن بأعلى صوتي
« أيها الناس لقد جاء الفرج وبرز محمد على الطاهر ! »

أنقذ الله طاهراً فهو ناج ومنتصر
شكر الله صبره فهو اليوم قد ظفر

ثم قال : أما عشية السبت فقد كنت أستمع لخطاب الزعيم الجليل النحاس باشا بالراديو وأنا حابس أنفاسي أدعو الله بقلبي أن تنجح خطتك وكنت أتصورك جالساً بين المجتمعين تسمع الصوت الذي أسمع ، وقد غمرتني عواطف شتى لا أستطيع وصفها . وفي اليوم التالي وصلتني بشرى النجاح والحرية وكان عندي بعض الإخوان فكدت أرقص من الفرح . ولما ذهبت إلى مكنك القديم ووجدت « الموقد والفحم والقطعة » لم أملك دمعي الذي سال على خدي فأخذت القطعة « حبيسة » من عالمها ومملكته إلى داري ، فما زلت بها ألتطف معها إلى أن رضيت بعض الرضى وتناولت شيئاً من الطعام ، فسبحان الله ما أوفاهها وسأحتفظ بها إلى أن تأمر فأرسلها إليك أو أجيء بها بنفسى ، آه لو كنت طليقاً لأكون بين الوفود المحتشدة للسلام عليك .

بين شيخ الشوام ومحمد يوسف

وبلغنى بعد الإفراج ونهاية المحنة أن الضابط محمد يوسف كان قد استدعى الشيخ عيسى منون شيخ الرواق الشامي بالأزهر وهو رجل متقدم في السن ومن أعضاء هيئة كبار العلماء

فيه وقال له إن صهرك الشيخ يوسف يعرف مقر محمد على الطاهر ويكتمه عنا ، فقال له الشيخ عيسى إن الشيخ يوسف مخطيء في هذا إن كان صحيحا فدعني أتحري المسألة وأخبرك ...
وفي اليوم الثاني عاد إليه يقول لقد بحثت المسألة جيدا مع الشيخ يوسف فوجدته خالي الذهن ، وأما بقية الطلبة الأزهرين فلا يدرون شيئا ، بل أنهم لو علموا أين مقر محمد على الطاهر لما تجاسروا على الإفضاء به لأنك تعرف أنه في ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦ قتل ١٢ ألف فلسطيني ومنهم عشرات قتلوا بسبب اتهامهم بالإفضاء عن مقر الهاريين من الإنكليز ... فقال محمد يوسف إذن فهؤلاء الطلبة جبناء ! .

فمحمد يوسف استطاع إذن بقوة الإنكليز أن يتجرا على جلب أحد أعضاء هيئة كبار العلماء إلى مكتبه بإدارة الشرطة ويريد فوق ذلك أن يجعل منه جاسوسا على الناس بدون أن يشعر بما في ذلك من تهجم على مكانة رجل قد يصبح شيخا للأزهر ، وهذا غير بعيد لأن الشيخ قد أصبح وأنا أطبع هذا الكتاب شيخا لكلية الشريعة وهي أهم كليات الأزهر .

لقد كان الشيخ مضطرا إلى محاسبة محمد يوسف وتمثيل ذلك الدور معه للتخلص منه لأنه كان باستطاعة محمد يوسف بوقتها أن يضع الشيخ في السجن ، لأن بريطانيا كانت تشجع هذا النوع من الضباط وتقر تصرفاتهم وتحميهم ، أليس أنهم ينفذون رغباتها ويبطشون في سبيلها ، ويطاردون خصومها ويضربون بسيفها ويمكسون فرائسها ؟ .

أوسمة ...

وفي هذه الأيام بعد الإفراج - قرأت في الصحف أن حكومة سورية قد أنعمت على الضابط محمد يوسف بنيشان الاستحقاق السوري ، وأن حكومة شرق الأردن أنعمت عليه بوسام الاستقلال ، وهكذا حكومة لبنان وحكومة العراق ...

وقد جاء في الإعلانات التي نشرها محمد يوسف في الصحف عن سبب هذه الإنعامات إنها «مكافأة له على ما يديه من خدمات للجاناليات العربية» وهذا غير صحيح لأن محمد يوسف كان يعرقل استقلال سورية بمطاردة أبناء البلاد العربية وتخصه في ذلك فكيف يأخذ وسام الاستقلال الذي يمنح لمجاهديها ؟ ولكن الحقيقة في سبب الإنعام أن بعض السلطات المصرية تبعث بمحمد يوسف إلى الأقطار الشقيقة في حجة الكبراء الرسميين للحراسة والملاحظة ، والعادة في مثل هذه الأحوال إهداء المرافقين أوسمة وهدايا ، وهو عرف جرت عليه الحكومات

فلا يسعها الانحراف عنه ...

أما قول الإعلانات ان سبب الإنعام هو «خدمات محمد يوسف للجاليات العربية» فهذا غير معقول لأن محمد يوسف يعتبر بقوة انجلترا غول الجاليات العربية والإسلامية ، ويكفى الذى نالنى وأسرتى ومعارفى من أعماله ، وهى مما لا يمكن الضباط الإنكليز أن ينالوه منا أو يستطيعوا القيام به ، لأنهم لا يعرفوننا ، ولو رأونى بينهم لما عرفونى ! .

وقد اطلعت أحد أصدقائى من ساسة سورية الحاكمين على قصاصة الأهرام « ١٣ مارس سنة ١٩٤٢ » وقلت له : ألا مخرجكم أُمى هذا الإنعام على رجل يصنع معى ومع أبناء الأقطار الشقيقة ما صنع ، « وشرحت له طرفاً عن أعماله » فكيف يجوز أن يكافأ هذا الرجل بما كان على الدول العربية بعد استقلالها أن توجهه إلينا نحن الذين جاهدنا فى سبيل قيامها واستقلالها ، فأطرق السياسى السورى ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول : إن عتبك فى محله ، ولكن الحق على السلطات المصرية التى توفدهم ، فحكومة سورية هنا ملزمة سياسياً وعرفاً بأن تنعم على كل رسول رسمى يأتى إليها من مصر ، ولو كان هذا الرسول قد آذانى أنا ! .

ملحق ...

زارنى بعد مرور سنين على هذه القصص الأستاذ أحمد رمزى بك المؤرخ المحقق ، فتصادف أننا قرأنا فى تلك الساعة إحدى الصحف وفيها خبر وسام أهدى لمحمد يوسف من إحدى الحكومات العربية أيضاً ، فقلت لرمزى : يا أخى أما كنت تستطيع حين كنت قائماً بأعمال المفوضية المصرية ببر الشام ، أن تنصح بعدم رمى النياشين السورية واللبنانية على الناس هكذا بلا حساب ولا بحث ؟ فقال كيف أمنعها فى حين أن محمد يوسف كان يطلب منى أن أطلبها له وأن أنبه المختصين إلى ذلك ، فهل تريد منى أن أعادى ضابطاً فى البوليس السياسى فى أيام الحرب والأحكام العرفية ! فقلت له : إذن فقد توسطت له ! فقال : كلا ، لأنى لو توسطت لبقيت فى بر الشام ... وفى الحقيقة إن إعطاء بعض الحكومات أوسمتها لفلان وفلان لا ينطبق معظمه على منطق معقول ، ولذلك قال فارس بك الخورى شيخ ساسة سورية : إنه خير للإنسان أن يقال عنه لماذا لم يمنح وساماً ، من أن ينعم عليه بدون حق فيقول الناس لماذا منح فلان هذا الوسام ..

ملحق بعد الملحق

إن جمهورية سورية على عهد السيد شكرى بك القوتلى قد اقترح عليها من شخصية فلسطينية كبيرة أن تهدي وساما لرشيد بك الحاج ابراهيم أحد زعماء فلسطين الذين خدموا ثورة سورية وأمدوها بالمال والسلاح وتوصيله إلى مناطق الجهاد أيضا . ولكن الجمهورية العزيزة بخلت عليه بذلك ، مع أن رشيد هو صديق شخصى قديم للسيد شكرى بك القوتلى الذى يعرف أكثر من جميع الناس حقيقة جهاد رشيد الحاج ابراهيم من أجل سورية ومن أجله هو شخصيا ، حين كان شكرى بك مجاهداً ونازحاً إلى فلسطين ، وكم لقي فى دار رشيد بك من إكرام .

نظرة أخيرة

وما دمت فى صدد الأوسمة وأهل فلسطين ، أقول إن إهداء الأوسمة لرشيد وأمثاله كان واجباً لسبب بسيط ، وهو أن جميع الحكومات العربية المحتلة بالأجانب كانت تجمل رجالها الذين يخدمون الأعداء الأجانب بالأوسمة والألقاب ، فى حين أن رجال فلسطين الأبطال الذين جاهدوا من أجلها ومن أجل سورية قد ظلوا دون جميع العباد بدون ألقاب وبدون تقدير ، سوى لقب « المسجون » فلان أو « المجاهد » فلان أو « المنكوب » فلان ! فلو فرضنا أن أحد رجال فلسطين قد ضمفت نفسه واشتهى لقباً فإن عليه أن يطلق مبادئه وينتسب لإحدى الحكومات المستعمرة ويخدم الأعداء ليحظى باللقب أو الوسام ، وبعد ذلك يظفر من حكوماتنا بالإكرام والإجلال ! فكأن بعض الحكومات العربية تقول للمجاهدين : هيا إلى خدمة الاستعمار ليقدركم ويرفعكم إلى الكراسى العالية ، وبعد ذلك نحترمكم ونقدركم ...

وبالمناسبة ...

وقد حدث هنا فى مصر فى أثناء طبع هذا الكتاب ، شئ يستحق أن يدون وأن يسجل ، وذلك أن وزيراً مفوضاً لإحدى الحكومات العربية لم يوافق على سياسة حكومته التى تضر بمصلحة العرب والمسلمين ، فثار عليها وهجر منصبه زاهداً فى الجاه والمال واستقر فى مصر وأعلن تأييده لوجهة النظر المصرية ضد حكومته ، فكان المنتظر أن يلقي عندنا ما هو أهله من الاحترام والتقدير لشهامته وتضحيته ، ولكن لم يحدث شئ من هذا ، بل لقي الرجل إهلالاً وتنكراً من ولاية الأمور ، وقد بحث مع أحد كبار الرسميين من رجال

الدولة عن سبب هذه المعاملة ، فقال إننا نخشى أن تتكرر حكومته منا ولذلك تجاهلناه ... فقلت له إن الرسميين الذين ترسلهم تلك الحكومة إلى مصر كلهم من أعوان الإنكليز وهم مع ذلك يجدون منا كل اهتمام وتعظيم ، فتسمع حكومتنا كلمتهم وتأخذ أحياناً برأيهم مع أن دولتهم كلها معتبرة من أعوان الإنكليز ، فكيف يستوى هذا مع ذاك ؟ فقال لأدري ، فقلت إن هذا الوزير يتلقى من حين إلى آخر وساطات من حكومته بأن يرجع إليها وهي مستعدة لأن ترضيه مع التفاوض عن الماضي ولكنه يرفض ، ولكن من يضمن لنا أن هذا الرجل بعد أن لقي منا هذا الإهمال لا ينتقم منا ، فقال وكيف ينتقم ؟ فقلت إنها مسألة سهلة ، فهو يستطيع أن يتفاهم مع حكومته ويعود إليها ثم تبعته حكومته المؤيدة من الإنجليز رئيساً لوفدها إلى جامعة الدول العربية ، وقد تكون رئاسة الدورة لها فيكون هو الرئيس الطبيعي لك ولمندوب مصر وجميع مندوبى الدول العربية ، فإذا يكون الحال ، فسكت !

إذن فهناك شيء فى إدارة الشؤون السياسية العليا لحكومات العالم العربى يجب النظر فيه برجولة وحزم وصراحة ، أما أن تهمل حكوماتنا رجال الجهاد حتى لا يغضب فلان ، وأن تهتم بأعوان الاستعمار لإرضاء فلان ، فهذه سياسة لن تبشر العالم العربى بخير أبداً .

وبعد ذلك ؟

بعد هذا أصبحت أنظر إلى الأمور من زاوية جديدة وأنا مندهش . لأنها تقع بعد جلاء الإنكليز عن مصر وجلاء فرنسا عن سورية ولبنان ، بعد أن كنا لانستغربها من الاستعمار . مثال ذلك أننى أرى خونة سورية وفلسطين الذين هربوا إلى مصر بعد أن اغتنوا من مال الخيانة يلقون فيها الأمان والإكرام ، فى حين أن المجاهدين والمنكوبين الذين نرحوا إلى مصر يلقون من الشرطة المطاردة والترويع ، والسعيد فيهم من أهمل شأنه وترك مهملاً ، فهل كتب على المجاهدين أن يعيشوا طول عمرهم مروعين منكوبين حتى فى عهود الاستقلال ؟ إننى لا أكنتم قرأى ما أحس به وأنا أكتب هذه السطور سنة ١٩٥١ وهو أنى نويت أن أربى طفلى « الحسن » الذى رزقت به بعد المحنة ، على أسلوب سلبى ، وهو أن يكون تاجراً أو موظفاً فى بنك ، فلا يتعرض للأمور العامة حتى لا يقع بأيدى المستعمرين فينكسرون به كما نكلوا بى ، ولا يلاحقه أعوانهم كما لاحقونى ، ولا يفجع بعقوق من يخدمهم كما وقع لى ، فتدوب نفسه حسرة وألماً ، كما ذاب قلبى حزناً وندماً .

هرب ...

معركة العلمين

نحن الآن في صيف سنة ١٩٤٢ والحرب بين الإنكليز والألمان في الصحراء الغربية على أشدها ، وإذا بالمرشال رومل القائد الألماني الشهير يشد على الجيش البريطاني شدة مباغته ويكسره في جهة « بيرحكيم » بأراضي برقة كسرة عنيفة ، وإذا بالإنكليز ينهزمون ويركضون عائدين إلى الوراء هارين بصورة مزرية مفرعة ، وكان الألمان يتعقبونهم ويستولون على معابدهم وحصونهم ويأسرون جنودهم بعشرات الألوف ، وقد واصل الإنكليز الهرب واشتد الألمان في الطلب ، فاكتمسحوا جميع منطقة برقة ثم استولوا على السلوم ثم تدفقوا على مرسى مطروح والضبعة وفوكه في الأراضي المصرية ، وظلوا كذلك حتى منطقة العلمين ، حيث توقف الزحف الألماني الذي بوغت أيضاً بهزيمة الإنكليز أكثر من مباغته الإنكليز بهجوم الألمان عليهم ! فلم يسع الألمان إلا التوقف للم شملهم وجمع قواتهم . وأما الإنكليز فقد ظلوا يهرولون هرباً وفراراً حتى الاسكندرية وهم لا يصدقون بالنجاة . وقد شوهدت بعض الطلائع الألمانية التي تركب الدراجات النارية « الموتوسيكلات » تصل إلى أول خط الترام عند المكس بضواحي الاسكندرية ، فلو كان عددهم كبيراً وكانت الجيوش الألمانية سائرة خلفهم لاستولوا على المدينة بكل سهولة . ولكن إرادة الله قضت برجوع طلائع الألمان لحسن حظ الإنكليز الذين تشجعوا وعادوا إلى منطقة العلمين ووقفوا فيها أمام الألمان الذين أمهكوا أيضاً بتنظيم حاكمهم وانتظار النجدة من ألمانيا ...

الحالة في القاهرة

كان لهذه الانكسارات التي منى بها الإنكليز أشد وقع في العاصمة ، وما كادت أخبارهم تتسرب إليها حتى أصبحت المدينة في حالة غليان واضطراب ، فأما الأهالي فكانوا شامتين مبتهجين بكسر الإنكليز ، يرقبون زحف الألمان على البلاد بفروغ صبر ، ومن حقهم أن يشتموا بريطانيا التي استعبدت البلاد المصرية وأرهقتها وأذلت الأمة سبعين عاماً . وأما الإنكليز فقد بلغ بهم الذعر والفرع مبلغاً لا يمكن تصويره لشدة ، وأخذت السفارة البريطانية تحرق أوراقها ، والقيادة العامة تعدم وثائقها ، فاقتدت بهما المفوضيات الأجنبية

وأخذت تحرق ملفاتها، فكان سماء القاهرة يعج بالدخان الذي كان يتصاعد من مداخنها !
ثم خطف الإنكليز الذهب من البنك الأهلي وأرسلوه إلى السودان ، وهرب رجال السفارة
البريطانية إلى القدس والخرطوم ، ولحق بهم كبراء اليهود وأعيانهم والأغنياء منهم ، فمن
فاته القطارات هرب بالطيارات . وأما أنا فقد أدركت ما وراء ذلك من عواقب وقدرت أن
الإنكليز لابد لهم من البطش بالناس وإهلاك خصومهم ومن يتوسمون فيه العداوة لهم ،
فقلت في نفسي لابد من الابتعاد عن وجههم والنجاة من أيديهم ، فذهبت إلى رئاسة الوزراء
لأستطلع الأخبار ففهمت أن الحالة أخطر مما يظن الناس، وأن الإنكليز طلبوا من جلالة الملك
أن يغادر القاهرة إلى السودان فرفض رفضاً قاطعاً ، فطلبوا من رئيس الوزراء مصطفى النحاس
باشا أن ترحل الحكومة المصرية إلى الصعيد أو إلى السودان فرفض وقال إن الحكومة
لن ترحل العاصمة وستظل فيها إلى جانب جلالة الملك.

أنا خائف وهي خائفة

فذهبت إلى الدكتور محمود عزى صديق القديم في مكتبه بإدارة الضرائب لأقف منه
على آخر الأخبار وإستشيريه في أمرى لأنى خائف من الإنكليز ، فوجدت عنده يهودية هائلة
خيفة أعرفها وكانت تستشير بعض الزوار في كيفية الهرب خوفاً من الألمان ، فأخذت أنظر إليها
مرتابة وهي تنظر إلى مرتابة ! أنا أعدها صديقة للإنكليز وأخشى أن تنبهم إلى ، وهي
تعذنى صديقا للألمان فتخشى إن دخلوا العاصمة أن أنبهم إليها ! وهكذا كنت وإياها متفقان
مختلفان ، والنار تدق في قلبي خوفاً منها، وتثور النار في قلبها خوفاً منى ! .

المصيف في الإسكندرية

وجلست بجوار الأستاذ عزى أستشيريه بالذهاب إلى الإسكندرية لتمضية بقية الصيف
فيها أنا وأسرتى بحجة أنى منحرف الصحة من شدة الحر ، وكنت أقول هذا الكلام بشكل
تظهر عليه البساطة والسذاجة كأننى لا أدري ماذا يحدث في الدنيا ولا إنى موجس خطراً أو
شراً ، فحلق بى الأستاذ عزى صائحاً « بتقول إيه يا أخينا ، أنت مش عارف الدنيا فيها إيه؟ »
ثم اندفع يقول إن الإنكليز ينسحبون الآن من مصر عسكرياً وإن جيوشهم تتجه بعثادها

وسلاحها إلى فلسطين شمالاً وإلى السودان جنوباً، وإن قطارات السكك الحديدية مع الإسكندرية ستوقف غداً إن لم تكن قد توقفت الآن، وإن السلطة العسكرية البريطانية قد طلبت من الحكومة المصرية القبض على مئة شخص من الذين تعدّهم خطرين على مؤخرة جيوشها... قال هذه الكلمة ثم حدّجني بنظرة قوية وقال « هو انت لسه مقبضوش عليك؟ » فتظاهرت بعدم الاكتراث مع أني كنت في تلك اللحظة مضطرباً أشد الاضطراب، فقلت: وعلام القبض عليّ؟ وما دام الذهاب إلى الإسكندرية غير مستطاع فأنا ذاهب إلى مصيف رأس البر بعيداً عن السياسة وعن الحرب. فاستحسن عزمي هذه الفكرة وقال ستجد هناك مئات من الكبراء الهاربين من أخطار الحرب...

الفرار من القاهرة

غادرت مكتب الأستاذ عزمي على الفور إلى دار الدكتور مصطفى بك بشناق وأطلعته على الحالة وعلى مخاوفي، فأشار على بالاختفاء فوراً إلى أن تنجلي الأحوال، فوافقته ورسمت معه الخطة ثم غادرته إلى دارنا فجمعت ملابسى القديمة التي كنت أتنكربها وهى العقال والكوفية والعباءة لأصبح بدويًا، والجبّة والعمامة والقفطان لأكون شيخاً أزهرياً، أو الشيخ محمد الناجي المغربي... فوضعت هذه الأدوات - أدوات المهنة - فى حقيبة وأرسلتها ليلاً إلى دار الدكتور بشناق على أن أطلبها فى أى وقت أريدها فيرسلها لى مع رسول أمين إلى البلدة التى أستقر فيها ولما انتصف الليل غادرت الدار ويديّ حقيبة صغيرة فيها ما أحتاج إليه إن بقيت فى ملابسى العادية. فقصدت منزل أحد معارفى فنمت عنده وفى الصباح الباكر ركبّت سيارة أتوبيس إلى ضاحية المطرية، ومنها ركبّت القطار إلى شبين القناطر ومنها إلى بلبس فالزقازيق، إنها نفس الطريق الذى سلكته يوم الهرب الأول منذ عام، فتعجبت من مصادفات القدر وكيف يعيد التاريخ نفسه.

وقبل أن أغادر محطة المطرية سطرت كلمة إلى صديق الشيخ إبراهيم إطفيش حييته فيها ولم أذكر له شيئاً عما أنا فيه، ولكنى كلفته قضاء مصلحة لى كنت قد سهوت عنها، كما أنى قبل أن أغادر منزلى رتبت مع قرينتى كيفية الاتصال والاطلاع على الأخبار وأن يكون ذلك

بواسطة تلفون الجيران في أيام وساعات عيناها وبألفاظ وأسماء اتفقنا عليها وإن سأل عنى أحد يقال له إني أصطاف في رأس البر ...

كانت الساعة تقرب من العاشرة صباحا حين غادرت محطة الزقازيق ودخلت المدينة ، فشعرت بجوع شديد لأننى من الأمس لم أأطعم شيئا ، فذهبت إلى نفس الفرن البلدى الذى اشتريت منه الخبز يوم الفرار الأول منذ عام ، واشتريت جينا من نفس البقال الرومى الذى اشتريت منه فى ذلك الحين ، ثم ذهبت إلى نفس القهوة التى جلست فيها فى العام الماضى ، وأخذت آكل طعامى فيها على ذات الطاولة أيضا. ولم يكن هناك من فرق سوى أنى كنت فى ذلك الحين شيخا بالعمامة ! وبعد تناول فطورى ومعه الشاى جلست أفكر إلى أين ؟ نعم إلى أين أذهب ؟ وبديهي اننى لم أجد إلا المنصورة فركبت إليها من طريق طويل بطيء هى نفس الطريق التى اتبعتها منذ عام فوصلت إليها عند الغروب ...

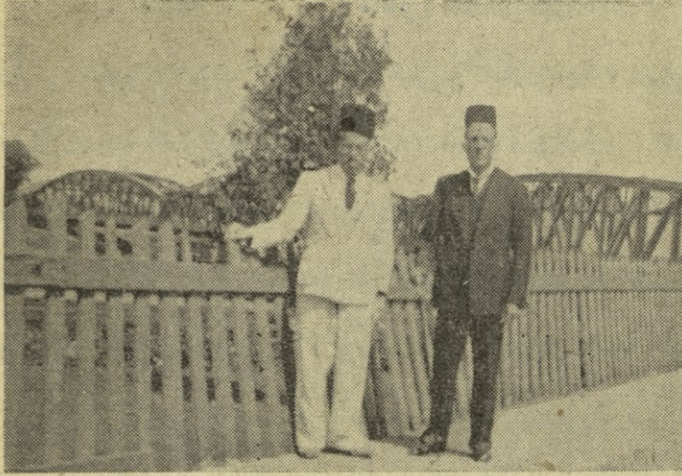
حيرة ومفارقات القدر

كان اختياري للمنصورة مبنيا على اعتبارات كثيرة ، أولها أنها مدينة متحضرة يجد فيها الإنسان أسباب الراحة ، كما أنها مدينة متوسطة لبلاد الدلتا البعيدة عن أخطار الحرب وعن مناطق الجيوش ، فإن تمكن الألمان من دحر الإنكليز وإخراجهم من البلاد فالمنصورة تعد من المدن التى يتقرر مصيرها بدون معارك وبدون فظائع .

ولكن كيف يكون حالى فى المنصورة ؟ يجب قبل كل شيء أن أبتعد عن جميع الذين عرفونى فيها من قبل ، لأن عودتى إليها بشكلى الجديد بالنسبة إلى ماضى « الشيخ محمد » مما يسبب لى المشاكل ويجعلنى موضع الأنظار والفرجة ، لأن أهل المنصورة عرفوا أن الشيخ محمد لم يكن إلا ذلك الهارب المتنكر ، وسيتلذذون بالفرجة عليه وهو افندى ! إذن فلا بد من الاحتياط والاختفاء عن كل من عرفونى وأنا شيخ ، مع تنكب الفنادق التى كنت أنزل فيها والقهوات التى كنت أتردد عليها ، والشوارع التى كنت أمر منها .

إذن فأنا سأظهر لجميع الناس الذين كنت أحتقن عنهم ، وأن أحتقن عن جميع الذين كنت ألتجأ إليهم ! فيا لتصاريف القدر وبالدورات الزمان حين يدور .

ولكن بعد إعمال الفكرة قررت أن أظهر فقط للأستاذ على أحمد با كثير ، فهو محدود العلاقة بالناس، وبإمكانه أن يكون لي طول الوقت، لاسيما أنه من أشد الناس كتماناً للسر، ونزلت



وقفت مع الأستاذ على أحمد با كثير عند كوبرى المنصورة وأخذنا هذا الرسم وقد ظهر با كثير باللباس الأبيض

بفندق الكوتتيننتال في الحى الافرنجى ، وصرت أقضى معظم الوقت فيه ، ولا يزورنى إلا الأستاذ با كثير ولا أزور سواه ، فقلت له ألا تعجب كيف اننى لما ظهرت في مصر نزلت في الكوتتيننتال ثم اننى في المنصورة أحتفى

في كوتتيننتال ؟ فضحك وضحكت !

وصرت إن جلست في مكان أجعل جالوسى في قهوة «أندريا» التى كنت أستهوى الجلوس فيها في أيام الحرب الأولى ولا أستطيعه يومها ، لأنها في المنطقة الافرنجية التى ما كنت أتجراً على الظهور فيها . فكنت ألجأ إلى حى ميت حدر البلدى ، موطن الطبقة العامة لأنه هو الحى الوحيد الذى كان يصلح لسكنى الشيخ محمد الناجى الغربى ...

وكان الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة لا يزال يقيم في المنصورة منذ أول الحرب ، فكنت والأستاذ با كثير نسهر معه . وأما أركان حلقة فقد عادوا إلى مواطنهم ، فصرت أنا من أركانها بعد أن كنت أتنكبها وأنا أتمنى الانخراط في سلكها !

ذكرى الماضى

وبإنى أتذكر الآن كيف إنى كنت في زمن الحرب الأول أمرّ في الليالى الممطرة الباردة من أمام قهوة أندريا فأرى من خلف الزجاج الأستاذين الزيات وتوفيق بك السلحدار يجلسان إلى بعضهما يرتشفان الشاى الدافىء السخن ، ويتحدثان باطمئنان وغبطة ، فكنت أتمنى

الجلوس معهما وأشتهى التحدث إليهما ، ولكن هيهات ... لذلك كنت بعد أن أتأملهما ملياً من خلف الزجاج ، أوصل المشى في الطرقات الواسعة وحيداً منبوءاً إلى أن أتعب ، ثم أعود إلى محبتي مع القطة « حبيسة » !

رجعة الموضوع

نعم نرجع إلى حديث الحرب الثاني الذي أنا فيه ، فأقول إنني فيما كنت ذات يوم جالساً بقبوة أندريا أطلع الصحف وأتسمم الأخبار ، إذا بصديقي ودليلي في أيام الحرب الأول أحمد حسن بدر يأتي إلى القهوة ومعه قريبه عباس افندي عقل ، فبادرت قبل أن يستقر بهما الجلوس إلى الحرب من القهوة ! فسبحان مغير الأحوال والأوضاع !

أنا لم أهرب منهما بالذات ، ولكني فضلت ذلك خوفاً من فضول بعض معارفهما الذين يعرفون « الشيخ محمد » فيحدث من لفظهم وتندرهم ما أخشاه من قيل وقال ...

أمانى وآمال وترقب ...

كان همى الأول في أيامي الجديدة من حياة هذا التوارى عن عين الاستعمار ، أن أرقب تطورات الحرب ، فمركة ستالينغراد في روسيا كانت في أوجها والألمان يحيطون بها ويهاجمونها ببسالة ويجموع متراصة ، ثم يرتدون عنها ، ثم يقتحمونها كأنهم موج البحر في مده وجزره ، والعالم كله يتطلع إلى تلك المعركة . لأن مصير الدنيا أصبح معلقاً على نتائجها كما أنى كنت أرقب أيضاً أخبار الحرب في الصحراء الغربية وماذا يكون من الألمان مع الإنكليز ، فكنت أقول للأستاذ با كثير إن الجيش الألماني سيكتسح الإنكليز من القطر المصري ، وإن الألمان قد أعلنوا خطتهم لما أصبحوا في الأراضي المصرية واعترفوا بأنهم يدخلون مصر محررين لافاتحين ، وكانوا قبل ذلك قد اعترفوا للعالم العربي بكيانه المستقل . فإن كسحوا الإنكليز ومروا من هذه النواحي تسلت إليهم ومشيت معهم إلى فلسطين أولاً ، لأقوم مع إخواني بعملية تطهير الوطن القديم من الأرجاس التي ستركها الإنكليز ، ومطاردة فلول الصهيوينيين وتقسيم ممتلكاتهم وتوزيعها على عائلات الشهداء والذين خرب الإنكليز ديارهم ، وعلى الذين عذبوا وافتقروا في سبيل وطنهم . وسأجتهد في إقناع القيادة الألمانية العليا بشحن

اليهود إلى بلاد الإنكليز وإسكانهم لندن ! لتذوق طعم وجود حثالات اليهود فيها ! ومن أولى من بريطانيا باقتناء اليهود وهي التي قاتلت الدنيا من أجابهم ، فويل للإنكليز مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون .

إن الانتصار الألماني على الإنكليز في البلاد المصرية وقناة السويس سيقدر مصير الشرق العربي ومصير الهند أيضا ، إذ أن الألمان لن يقفوا عند قناة السويس بل يندفعون إلى بر الشام فالعراق فالهند . وسيجدون من شعوب هذه الآفاق صدورا رحبة ووجوها طليقة وقلوبا فرحة . أليس أنهم سيتخلصون من الإنكليز ؟ كل شيء مقبول من الألمان والشيطان في سبيل الخلاص من الإنكليز ...

غلطة الألمان

وكانت أنباء الراديو من الجانب الإنكليزي والجانب الألماني تدل على الاستعداد الذي يقوم به أولئك وهؤلاء ، لأنهم كانوا قد بوغتوا جميعا بمعركة العالمين ، فالإنكليز ما كانوا يتصورون الهجوم الألماني بقيادة المارشال رومل سيكون بتلك الشدة الكاسحة التي أدت إلى هزيمتهم ، والألمان كما قلت ما كانوا يظنون الإنكليز في تلك الدرجة من الضعف والهلع والفرع ، حتى بلغ الجهد بالألمان وهم يركضون خلف الإنكليز مبلغا جعلهم يقفون على أبواب الاسكندرية وهم يلهمون ! تلك غلطة غلطتها ألمانيا وكم لها في الحروب من خطيئات ، فلو أن المارشال رومل واصل الزحف لما صده عن الإسكندرية أحد ، ولو أنه سير فرقة دبابات نحو القاهرة لدخلها بعد ساعات بدون أن يقف في وجهه أحد ، لأن الذعر الذي أصاب الإنكليز من جراء هزيمة « بئر حكيم » واستسلام جيوشهم في طبرق أطاشت أحلامهم وأفقدهم صوابهم . ولكن لأمر يريد الله توقفوا ، فكان ذلك في مصلحة الإنكليز الذين أخذوا يملكون روعهم ويسترجعون ثقتهم بأنفسهم .

أنباء مثيرة

ووردت الأخبار بعد ذلك بأن الإنكليز أخذوا يعودون إلى القاهرة ويسترجعون جيوشهم من فلسطين والصعيد والسودان ، وأنهم استصرخوا حكومة جنوب أفريقية فأمدتهم بجيوش

وعتاد بالبحر وبالجو وبالسكك الحديدية ، كما أنهم أخذوا يحصنون أطراف القاهرة ويضعون الألغام في أسس الجسور أو « الكبارى » والمعار ، والمؤسسات العسكرية الإنكليزية والمصرية أيضاً ، حتى بلغ بهم الحال إن صاروا يرسمون خطة إغراق الأراضي بالماء فيفتحون في سدود النيل فتحات تتسرب منها المياه إلى مديرتي البحيرة والمنوفية حتى منطقة الجيزة لمنع تقدم الجيش الألماني إن أراد غزو العاصمة ^(١) فأخذ الفرع يسرى في نفوس الناس فطلبت الحكومة المصرية من الإنكليز الجلاء عن القاهرة وإعلانها مدينة مفتوحة خوفاً عليها من ويلات حرب لاناقة لها فيها ولاجل ، فإذا بالإنكليز يتواقحون ويقولون للحكومة المصرية والشعب معها: بل ارحلوا أنتم فنحن فيها باقون ...

تلك صفاقة لم تخطر على بال أحد ، وماذا يهم الإنكليز من تدمير القاهرة الجميلة وهم يعمون أنها عاصمة عواصم العرب الذين يكرهونهم ويتمنون زوالهم من الدنيا كلها وليس من القاهرة وحدها ، فإن بقيت سليمة فهي لهم ، وإن دمرت ففي ذمة الشيطان .

اطمئنان محدود

وأخذ الكبراء والمترفون يعودون إلى القاهرة من مهاربهم وملاجئهم ، فعاد من كان في الريف ومن كان في رأس البر ، وكنت أنا أيضاً من العائدين ، ولما سألتني إخواني : أين كنت ؟ قلت لهم : كنت في رأس البر ، فمنهم من صدق ومنهم من هز رأسه وهو يتسم ..

الهزيمة النكراء

وبعد أسابيع جرت معركة العلمين الكبرى فانهزم الألمان لخيانة الجيش الطلياني وخيانة أسطولهم الذي كان مرسلًا لإنجاد رومل بالذخائر والبنزين ، فذهبت السفن الإيطالية إلى مالطة بائعة نفسها ومشحونها إلى الإنكليز ! فإذا كان الألمان قد غلطوا في هذه الحرب لسوء تدبيرهم وطيش سياستهم في شمال افريقية ، فإن سوء حظهم بمخالفة الطليان الجبناء كان أعظم ، وما كسرهم بأس الإنكليز ولكن أخلاق الطليان هي التي كسرتهم .

[١] هذه الخطة ذكرها تشرشل بعد ذلك في مذكراته التي ظهرت سنة ١٩٥٠ باللغة العربية . راجع الحاشية في الصفحة ٦٧ من هذا الكتاب

وبعد ذلك تمت هزيمة الألمان في « ستالينغراد » في روسيا ، فقلت لأصحابي : لقد قضى الأمر وأدبرت الدنيا عن ألمانيا ، لأن قوتها كلها وحيويتها التي تركزت في ستالينغراد قد تحطمت ، فإن سمعنا بنصر لها فهو خلب ، وإن نجحت في معركة فهي ذبالة الشمعة التي يشتد نورها عند النهاية ، وسيكون الانطفاء هو النتيجة الحتمية لا محالة . فقال البعض إن القنابل الألمانية الطائرة والصواريخ الجديدة ستعوض ما فات ، فقلت إن الألمان في الحرب العظمى الأولى قبل ربع قرن قد جاءوا بأسلحة جديدة وغازات خانقة فما أغنت عنهم شيئاً وخسروا الحرب لأن جيوشهم قد ذابت وقضى الأمر ...

اهتزاز وزارة النحاس باشا وفرارى من القاهرة

لم يحدث شيء في الشهور الأخيرة سوى أن وزارة النحاس باشا قد أصيبت بهتزاز فكان له في نفسى وقع سيء ، لأن النحاس باشا هو كفيل أمام الإنكليز ، فإن راحت وزارته رحت معها ، فالوزارة القادمة أيا كانت لا تعد مسئولة عنى لا أمام الإنكليز ولا أمام الرأى العام ، فإن أمر الإنكليز الشرطة وقبضوا على فلن يسألهم عنى أحد .

ولذلك وضعت العيون والأرصاد هنا وهناك فإذا بخبر يقول إن جلالة الملك سيقيل الوزارة الوفدية ، وحصل قلق شديد في البلاد خوفاً على الحكم الشعبى من وزارات الانقلاب أو حكم أحزاب الأقلية الذين يتصيدون الأزمات ليصلوا إلى الحكم برغم أنف الشعب . فلما اشتد القلق وأصبح الانقلاب قاب قوسين وأخذت الصحف تنشر أسماء المرشحين للوزارة الجديدة لم أشك في وقوع الخطر بين ساعة وأخرى ، فغادرت منزلى فى الليلة التى قيل فيها أن الإقالة قد وقعت أو أنها ستقع فى صبيحتها ، ونمت فى مصر الجديدة عند صديق السيد محمد تيسير الحلبي ، وفى الصباح الباكر غادرت القاهرة إلى المدن المجاورة أقضى فى هذه يوماً وفى هذه ليلة فلم يمض أسبوع إلا والأزمة قد انحلت وبقيت الوزارة فى مكانها ، فسكن قلق الرأى العام فرجعت إلى القاهرة . ولما قيل لى أين كنت ؟ قلت إننى كنت فى بور سعيد لمسألة تجارية ...

فى هذا الجو الخانق المروع كنت أقضى أيامى بعد انطلاقى من قيود الأمس ، فكان البال مشغولاً والخطر دائماً مضطرباً . وقد زاد الطين بلة أن الضيق المالى كان يحيق بى ويأخذ على

السبل ، في حين كان الخونة والجواسيس يبعثرون المال ويعيشون عيش الأمان والاطمئنان ، فإذا كانت الحرب قد خلقت طائفة من الناس تسمى « أغنياء الحرب » فإنها قد خلقت مني ومن أمثالي طائفة أخرى تسمى « فقراء الحرب » ...

عاطفة طيبة للنحاس باشا

وفي ذات يوم حدثني الدكتور محمد صلاح الدين بك ، وكان يومها وكيلًا لوزارة الخارجية ، عن عاطفة طيبة لمصطفى النحاس باشا ، وهي أنه قرر لي من الدولة مرتباً شهرياً يعوض على بعض ما لقيت من عذاب وخسارة في المال ، أسوة بالضيوف الفلسطينيين الذين كانوا في ذلك الحين ينزلون في مصر ، فشكرته وقلت له أنا لست ضيفاً لأنني طول حياتي أعيش في مصر ، فقال : يعني كلاجي سياسي . فقلت أنا مواطن ولست لاجئاً . فقال ولكن على كل حال يجب أن تقبل هذه التحية من الدولة التي يرأس حكومتها مجاهد كبير يقدرك ويحبك . فقلت إنني أشكر فضله وفضلك ، ولا أنسى هذا الجميل ، ولكنني أرجو قبول عذري لئلا « ينكسر رأسي » ! فقال كيف ينكسر رأسك ؟ فقلت لأنني سأصبح بعد ذلك أسيراً لهذا الإحسان وأفقد معنوياتي ، فأنتم الآن مثلاً تسمعون كلمتي وتقبلون شفاعتي وتحترموني ، أما إن قبلت المرتب فلا أعود أصلح لصدقتكم بل أصبح تابعاً لا قيمة له .

ولكن صلاح الدين بك شدد وأصر ، وأنا من جانبي أصررت وكررت الشكر . وانتهت المسألة بإعفائي وقبول اعتذاري .

ذكرت هذه الحكاية تنويعاً بفضل النحاس باشا وفضل صلاح الدين بك ، الذي كان دائماً في حكومات النحاس باشا عنصر خير للناس ، وكان وجوده فيها مثلاً طيباً لحسن التوجيه ونبييل المقاصد .

هرب أحمد حسين

أمضى الأستاذ أحمد حسين مدة الحرب في المعتقلات والسجون بعد التشرّد والاختفاء ، وإذا بجبر قد ذاع بأنه قد فر من الحبس ولم تقف له الحكومة ولا الإنكليز على أثر . وخلاصة

ذلك أنه مرض في السجن فنقلوه إلى مستشفى الدمرداش الحكومى وعملت له فيه عملية جراحية خطيرة فأنجاه الله منها . وكان يقضى في المستشفى مدة النقاهة في نفس الغرفة التى كنت فيها وهى رقم « ١ » فى الدرجة الأولى - وسبق لعزیز باشا المصرى أن كان فيها أيضاً - فإذا بالأنباء الشفوية تقول إن أحمد حسين قد هرب من المستشفى وأخذ معه الجندى الحارس بسلاحه واختفيا ، فسررت بنجاته وسمت بالإنكليز والبوليس . ثم شاعت أخبار بأن أحمد قد هرب إلى الخارج والتحق بالبحر وأنا سنسمع صوته قريباً من راديو برلين يجلجل ويرسل شواظاً من بيانه ضد الاستعمار البريطانى ، أوزاه مع الرشال روميل عند تطهير البلاد من الإنكليز ... ومضت الأسابيع والشهور وانقطعت أخبار أحمد ونسيه الناس ونسيه الإنكليز !

زائر !

وفى ذات ليلة انطرق باب دارى ففتحته بنفسى ، فإذا بى وجهاً لوجه أمام أحمد حسين ! ففرحت بهذه المباغطة واستقبلته بالأحضان والعناق . فدخلنا الدار وأخذنا نتحدث عن أحواله وكيف هرب ، وكان وقتها يلبس ملابسه العادية ولكن دون طربوش ، فدهشت كيف يظهر بصورته الأصلية فقال : إن ذلك أدعى لتضليل الشرطة والجواسيس ، لأنهم كلهم يعتقدون أنه غادر البلاد أو أنه متنكر فى زى شيخ ، كلمرة الساقية عندما عثروا عليه فى طنطا ، كما أن بعض الجواسيس يظنه متنكراً فى زى «خواجة بيرنيطة» ولذلك ترك أحمد للشرطة مهمة البحث عن عمامة الشيخ وبرنيطة الخواجة ! وصار يغادر الخبأ فى الليل بملابسه العادية ، وكان الاظلام العام فى البلاد بسبب الحرب يساعده على التجول من حين إلى آخر .

وقد وصف الأستاذ أحمد هذه الزيارة فى خطاب له ألقاه فى حفلة شاي بفندق الكونتinentال سنة ١٩٤٥ وسيأتى حديثها فى موضعه ، كما أن أحمد نشر أخبار هربه فى جريدة مصر الفتاة بعد الحرب (١) .

(١) وفى سنة ١٩٤٩ ظهرت مذكرات أحمد حسين مجموعة فى كتاب ، ولكن سوء الحظ لم يفارق هذه المذكرات لأن أحكام إبراهيم باشا عبد الهادى العرفية فى تلك الأيام جعلت الرقيب يحذف منها أشياء كثيرة ، ولذلك ظهرت مبتورة فبذا لو يعيد أحمد طبعها بعد أن يرجع إليها ما حذفه رقيب المطبوعات الذى أعرفه وأحبه ، فهو صديق ، ساعده الله .

وبعد منتصف الليل غادرني الأستاذ أحمد حسين إلى حيث كان يختبئ ، بعد أن اتفقنا على موعد يزورني فيه فانتظرته مراراً ولكنه لم يأت ، فانشغل بالي عليه وخفت أن أسأل عنه معارفه فيشيع نبأ وجوده في القاهرة فيشتد الطلب عليه ، وبعد أيام فوجئت بحجر ذهاب أحمد إلى النحاس باشا رئيس الوزراء في داره وتقديم نفسه إليه .

كيف كان ذلك ؟

وبعد الحرب بعامين سمعت من النحاس باشا نفسه كيفية ذلك الاستسلام ، فقال : إن أحمد جاءني إلى داري مع فؤاد باشا سراج الدين وزير الداخلية فرجبت به ، وقلت له يا أحمد أنا لا أستطيع أن أطلقك مثل محمد علي الطاهر لأن مسألته تختلف عن مسألتك فأنت هربت مني وهو هرب من حسين سري ، ومع ذلك فلن تعود إلى السجن بل سأسكنك داراً خاصة ومعك أهلك ، وستقوم الحكومة بهذه الضيافة إلى أن أدبر مسألتك مع الإنكليز ثم أطلقك حياة أحمد في معتقله

وقد أسكن الأستاذ أحمد وحرمة وأنجاله في ذلك الحين في دار خاصة تقع فوق مركز بوليس مصر الجديدة ، فكان لا يرحها إلا عند الضرورة وبمراقبة الشرطة . وقد سلخ فيها زمناً طويلاً ، لأن الإنكليز كانوا متشدين في أمره ويمنعون في الإفراج عنه . وقد أصيب الأستاذ أحمد بنكبة أليمة وهو في ذلك المعتقل ، إذ توفي هناك طفله إبراهيم ، فكانت فاجعته عظيمة ، ولا سيما أن طفله الآخر مصطفى قد أصيب أيضاً بالتيفوئيد ، ولكن المولى أنقذه ، وقد ذهبت في أيامها إلى مستشفى الأطفال لتعزية الأم بفقد ولدها والاطمئنان على صحة الثاني الذي سلمه الله .

وبعد مدة تم التفاهم بين النحاس باشا والإنكليز على إطلاق الأستاذ أحمد فغادر معتقله إلى داره ، وقد خرج من تلك المحنة مثلي ، محطم الصحة منكوباً بفلذته ، مرزوءاً بماله ، لا يملك شيئاً ، ولكنه كان يملك قلباً كبيراً وعزيمة لا تلين .

القبض على عزيز باشا المصري

كان الحال كذلك وإذا بحجر غريب قد شاع وهو أن الحكومة عادت وقبضت على القائد

المجاهد عزيز باشا المصرى ، فبحثت عن الأسباب فعرفت أن الإنكليز هم الذين طلبوا القبض عليه ؛ حين كان يصطاف فى رأس البر على شاطئ البحر المتوسط ، فقد اتهموه بأنه كان ينوى الفرار من البلاد بحراً والانضمام إلى المحور ، ولم يعرف أحد أين حبسوه فانشغل بالى عليه ، اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله ، ما أكثر متاعب هذا المجاهد من الاستعمار أحياناً ، ومن أمته غالباً ، فكم حارب وكم جاهد وكم سجن وكم طورد فى هذه الدنيا ، لطف الله به .

زائر من الضباط !

وفى ذات يوم زارنى شاب لا أعرفه ، فذكر اسمه وقال إنه ضابط ، وأنه موفد من قبل عزيز باشا ويريد أن يتصل بالدنيا بواسطتى وأنه فى ضيق شديد ، فكانت هذه الزيارة مباغتة لى ويالها من مباغتة ، ومن يدرى ما وراء زيارة هذا الضابط من مكيد ، فقد يكون الإنكليز هم الذين دسوه ليجرونى إلى السجن مرة أخرى بتهمة جديدة ! فهل أنكر صلتى ومعرفتى بعزيز باشا وأستريح ؟ أم أسير على سيجتى وغريزتى فأساعده وأتعب من جديد ؟ فكرت كثيراً قبل أن أجاب هذا القادم بنعم أو لا ، ولكن قد يكون صادقاً وأميناً ، فكيف أخذل عزيز باشا وأتذكر له وهو فى ضيق ؟ لقد جربت بنفسى شدة حاجة المسجون إلى أصدقاء ، كما عانيت كثيراً من ألم الخذلان .

إذن فلا بد من السير بحسب الغريزة والعادة ، وأن أتصدى لمساعدة صديق المجاهد القديم إلى النهاية ، فقلت للضابط أنا لا أعرف الغرض الحقيقى من زيارتك هذه فقد تكون صادقاً وقد تكون مدسوساً ، فأنت قد حلفت بشرفك العسكرى وأنا أصدقك ، ولكن بشرط أن تأتىنى من الباشا بكلمة بخطه . فقال الضابط إنه كان من تلاميذ عزيز باشا فى مدرسة البوليس وأن الباشا يعامل فى السجن بصورة وحشية فهو لذلك يريد خدمته وأن يفديه بروحه ، فقلت يكفى أولاً أن تأتى بالورقة ... وغاب الضابط نحو ثلاثة أيام ثم عاد وأخرج من طية جلد الطربوش الداخلية ورقة وأعطانى إيها ، فإذا هى من عزيز باشا بخطه وإمضائه ، فقرأت فيها عبارات جعلها الباشا مبهمه ولكنها تدل حقيقة على أنها منه ، لأنه ذكر لى فيها أموراً قديمة بيننا لا يعرفها أحد سواه وسواى .

عند ذلك لم يبق عندي شك في أمانة الضابط ، فقلت له أنا تحت أمر الباشا في كل ما يريد ، فقبل كل شيء هل هو محتاج إلى نقود ؟ فقال : كلا ، بل انه متضايق في سجنه لقسوة المعاملة التي يلقاها ولذلك نوبنا أن نهربه وأن أخفى معه ، فما قولك ؟ فقلت يجب قبل الحرب أن ندبر الخبء ، لأن حياة الحرب والاختفاء ليست بالسهولة التي تظنها ، فهل تستطيعان احتمالها ؟ فقال سنتحملها ...

الهرفون بابن

وهنا قال الضابط إننا فكرنا في الاتصال بالألمان عن طريقك ، وأن يكون ذلك بواسطة فون بابن سفير ألمانيا في تركيا فيرسلون طيارة في وقت معين تهبط في مكان معين ونحن نخرج الباشا من سجنه بلباس أحد الضباط . فقلت إن حالة ألمانيا الآن بدأت تسوء ولا أظنها مالكة وعيها لتشتغل في إنقاذ الباشا ، فالأحسن هو أن أستأجر لكم مسكناً في القاهرة للاختفاء فيه تحت ملاحظة ، على شرط أن تخضعوا للنظام الدقيق الذي سأضعه لكم ، إلى أن أدبر طريقة للوصول إلى جيوش المحور إن عادت إلى الصحراء الغربية ، وسأذهب إليهم معكم ...

لأن الألمان قد انهزموا حينذاك وابتعدوا كثيراً عن الأراضي المصرية . فقال الضابط سندرس هذا أيضاً وسأعود إليك ...

القدر غلاب

ولكن قبل تنفيذ ما شرعنا فيه ابتعد الألمان في هزيمتهم ووصلوا إلى تونس ، وبدأت ألمانيا تنهار ، وبذلك انهار مشروع انقاذ عزيز باشا الذي كان هم الأول أن يفلت من قبضة الإنكليز ليندفعهم النكال في أي ميدان عسكري يستطيع الوصول إليه ومنازلتهم فيه ، لأنه يعتقد - وأنا أيضاً أعتقد - ويجب على سكان البسيطة أن يفهموا - أن كل بلاء أصاب العالم الإسلامي وما سيصيبه دائماً إنما هو من الإنكليز وبسبب الإنكليز .

حيلة انكليزية

وقد تحررت الأسباب الحقيقية للإفراج عن عزيز باشا قبل شهر ثم حبسه مرة ثانية ،

ففهمت أنه لا يوجد أى مبرر لذلك مطلقاً، وأن الإنكليز كانوا قد بيتوا له هذه النية منذ إفراج النحاس باشا عنه ، فقد خلصهم ذلك الإفراج من دفاع عزيز باشا الذى كان يمكنه أن يفصّحهم فيه وهو يدافع عن نفسه فى المحكمة فضيحة رسمية تسود وجوههم ، ولذلك وافقوا يومها على الإفراج عنه ، وقيل إنهم هم الذين اقترحوا إطلاقه وحفظ القضية ليعتقلوه اعتقالاتاً عسكرياً ، لأن الحكم العرفى يحرم المقبوض عليهم من حق الدفاع عن أنفسهم ، وقد كان لهم ما أرادوا من حبس الباشا وقهره ، وقد جمعتنى الصدف بعد ذلك بالرحوم عبد الحميد حافظ باشا رئيس المحكمة العسكرية التى كانت تحاكم عزيز باشا بسبب الفرار بالطيارة ، فقال لى إنه نصح للحكومة بأن تسحب تلك الدعوى من المحكمة ، لأنه لا يوجد قوانين عندنا تعاقب على مثل الحادث الذى يحاكم من أجله ، ولذلك أفرج عنه فى ذلك الحين ، ثم اعتقل سياسياً كما ذكرت ووضعوه فى أضيّق سجن .

وقد سعت كثيراً للإفراج عن عزيز باشا ، ولكن الإنكليز كانوا وراء مسأله بقلوب سوداء حاقدة ، وقد ظل الباشا الكبير يعذب فى سجنه إلى أن انتهت الحرب وألغيت الأحكام العرفية فأطلق . وإنى أصحح هذه السطور سنة ١٩٥١ وعزيز باشا بخير ، أزوره ويزورنى ، فأسأل الله أن يمد فى حياته ليشهد وأشهد معه تحرير العالم العربى ، وزوال الأمبراطورية الاستعمارية ...

جمعية إخوان الحرية

لقد مر ذكر هذه الجمعية فقد كنا فى أيام الحرب نسمع بجمعية رهيبة بهذا الاسم ألفها الإنكليز للجاسوسية على الناس ، وكان لها سمعة تثير الفزع فى قلوب الناس ، وما يطير النوم من الجفون ، فلما انطلقت حرتى تعقبت هذه الجمعية بالاستقصاء إلى أن وقع بيدي سجلها وهو يضم أسماء رجالها وتشكيلاتها وفروعها وبيان أغراضها ، وهو كتاب ضخّم يسجل أسماء بضعة آلاف من جميع الطبقات ، وفيهم الطلبة والتجار وأصحاب الفنادق والموظفين والمدرسين والضباط فى الجيش ، وفيهم جماعات من الطباعين والعلماء من مدرسى الأزهر والمهندسين والمحامين والصحافيين والبقالين والأدباء والحلاقين والخدم والأطباء والصناع والطباخين والعمال والقهوجية والسواقين الخ ...

وقد ألف الإنكليز هذه العصاة المخوفة للتجسس في جميع الأوساط لإتمام سلسلة «الإنتلجنس سرفيس» البريطانية التي فاقت في الإرهاب والتخويف تشكيلات الجستابو الألماني. فالرئيس الأعلى لهذه العصاة يسمى اللورد كنزوس الذي كان من أركان السفارة البريطانية ورئيس قسم النشر فيها، وأما إدارة الجمعية المباشرة فهي كما ورد في الصفحة ٤ موضوعة في يد الرئيسة المؤسسة «مس فريستارك» الكاتبة الإنكليزية المشهورة، ويساعدها «المستر رونالد فاي» المراقب العام في القطر المصري، وقد ورد بين أسماء كبار الأعضاء في جمعية إخوان الحرية أسماء بعض الشخصيات المعروفة وفيهم أسماء ضباط مصريين معروفين أيضاً وكتاب مشهورين ومشايخ فيهم يوسف الزواوي^(١) وهو يزعم أن من الطلبة الغرباء بالأزهر فهو عضو لجنة «حرف ب رقم ٥» وقد تعمدت إظهار اسمه بالذات لصلته بي، وقد ورد في صفحة ٦ أسماء ثلاثة من كبراء الإنكليز هم الماجورك أسكيف المراقب العام للشرق الأقصى، ومس ماري بيرى رئيسة لجان السيدات في القطر المصري، واللورد إدوار هاثورن هاردي مساعد المراقب العام بمصر وكنت أريد أن أدرج في هذا الكتاب جميع أسماء البارزين من أفراد هذه العصاة ولكن المولى أمر بالستر... غير أن كتاب إخوان الحرية موجود ومتداول وفيه الأسماء والصفات والعنوانات وأصحابها من جميع الطبقات والأوساط، وقدملت أسماءهم ٣٠٠ صفحة من ذلك الكتاب الأسود.

ومن الغريب أن الإنكليز لم يجدوا حرجاً في نشر أسماء أعضاء العصاة، لأنهم يعتقدون أن هذا العمل يفيد أباطوريتهم وفيه مفخرة لهم، فلن يهتمهم فضيحة أعوانهم بين قومهم.

كيف ألفوها؟

أما كيف لفق الإنكليز هذا «الطقم» الهائل فقد كانت طريقتهم فيه بارعة ودنيئة في

(١) إنني أعرف هذا الشخص وكان في أيام الحرب والاختفاء يتولى البحث عن مقرى ويدير حركة ملاحقتي؛ والغريب أنه لقيني بوزارة الأوقاف بعد الإفراج عني فهرول إلى السلام عليّ، فسألته بلهجة جافة عدائية: أأنت يوسف الزواوي الذي يشتغل في البوليس السرى؟ تخاف واضطرب وأنكر اسمه ومهنته وقال إنه زواوي آخر... والحقيقة أنه هو بعينه، وأراد مرة أخرى أن يسلم عليّ في الشارع العام فصحت فيه أمام الناس فجفل وهرب من أمامي...

وقت واحد ، فهم لم يقولوا لأعوانهم: شكّلوا هيئة جاسوسية لتتبع العباد ، ولم يقولوا للناس تعالوا لنشغلكم بصفة جواسيس على أمتكم ، ولكنهم أوعزوا إلى أعوانهم بأن يشكّلوا جمعية ثقافية تعاونية لصيانة الحرية من العابثين بها ، وهو اسم مقبول ومغر ويصلح لستر حقيقة جريمتهم ...

أليس أن الإنكليز قد اعتادوا أن يسموا الاستعمار انتداباً ، والاستعباد إنقاذاً ، والتخريب والتدمير والبطش بالشعوب وذبح الأبرياء تعميراً وتمديناً ؟ .

فلما وضعوا أسس جمعية «إخوان الحرية» بل إخوان الجريمة ، أوعزوا لأتباعهم بالعمل فاستأجروا داراً كبيرة بحارة الكاشف بجهة السيدة زينب خلف المدرسة السنية ، بالقاهرة ، وجمعوا رؤساء جواسيسهم وكلفوهم دعوة الجمهور لتأليف جمعية باسم «إخوان الحرية» وقد وصفوا أغراضها في نشرتهم فقالوا حيث أنه يوجد خطر على «الحرية» من جواسيس الأعداء فيراد من الأعضاء الإرشاد عنهم وعن كل من يتحدث ضد الحلفاء .

طريقتهم ...

وهم يقيمون اجتماعات ليلية يتحدثون فيها عن الحريات العامة ، وصيانتها من عبث الأعداء ، ثم يقف عريف الاجتماع فيطرح اسم «أحد الخطرين على الحرية» «كمحمد علي الطاهر مثلاً» ويسأل الحاضرين عن رأيهم فيه ، فيقف الذي يعرف صاحب الاسم ويقول إنه يعرفه أو يعرف من يعرفه ، فيقول له عريف الاجتماع إذن فأنت تلاحظه وتمنع أذاه عن الحرية ، ولك أن تقترح من تريد ليساعدك على ملاحقته والقبض عليه ... والمكافأة هي كذا فضلاً عن كونك تخدم مبادئ الحرية ...

وبعد أن ينفض الاجتماع ينتقل «المتعهد» إلى غرفة خاصة ليتلقى التعليمات ونسخاً كثيرة من صورة الطريدة^(١) ، ثم يتناول النقود - طبعاً - من اللورد كينروس أو من اليد الناعمة البضة التي تمدّها له «المس فرياستارك» ...

(١) صادفني مدير إدارة تحقيق الشخصية السابق على أثر الإفراج عني وكان ذلك بمكتب رئيس تحرير الأهرام ، فذكر لي أن السلطات أمرته وأنا هارب بطبع أربعة آلاف صورة من صورتي وهو لا يدري لماذا ، وما أني بعد عشر سنين أخبره الآن لماذا !

أما كيفية التبليغ عن «أعداء الحرية» فلم يذكره في كتابهم ولكن عرفت بعد ذلك من أحد معارفهم أن التبليغ عن الشخص المريب يكون لمركز الرياسة ، والمركز يأمر البوليس والأمن العام بالقبض عليه لاعتقاله مدة الحرب . أما الأشخاص الخطرين فهؤلاء يجري القبض عليهم باليد ودعوة البوليس فوراً لسوقهم إلى الحبس ...

وتختلف مراتب أعضاء الجمعية باختلاف مراكزهم الاجتماعية وثقافتهم وقيمتهم الشخصية . ففيهم من يبلغ مرتبه ٥٠ جنياً وفيهم من ينحط إلى جنيتين ، وفيهم من يكافأ على كل حادثة « بالقطاعي » بدون مرتب مقطوع ...

والكلام عن هذه الجمعية الهائلة التي تشبه الأخطبوط يطول ويطول ، ولكني أذكر أن جرائد القاهرة تعقبت هذه الجمعية وفضحتها بعد زوال الأحكام العرفية ، ودعت الحكومة المصرية إلى مطاردتها ، وأخذت جريدة صوت الأمة تنشر فظائع هذه الجمعية الإرهابية وفضحت الأعضاء البارزين بنشر أسمائهم وعنواناتهم ، وقد سمعت أن الحكومة أمرت بمحاكمة الموظفين والضباط الذين كانوا أعضاء فيها ، ولكن لم يحدث شيء من ذلك ، ولن يحدث مطلقاً ...

أما سبب «الحصانة» لأفراد هذه العصابة المجرمة ، فلكونها تابعة للإنكليز ، ومن يقدر على التعرض لها مادام الجيش البريطاني المربط في الأراضي المصرية موجود عند قنال السويس ومنطقة فايد وهو لا يزال هناك ...

إن البوليس السياسى المصرى يعرف كل شيء عن هذه الجمعية ويعرف عقاربها واحداً واحداً ، ويعرف حقيقتهم جيداً جداً ، ولكنه لا يراهم ، بل يرى أعداء الاستعمار وضحاياه وخصومه فيعاملهم بما «يستحقون» جزاء محاربتهم للاستعمار ...

إننى أوصى قراء هذا الكتاب بأن لا يفرطوا بهذه المعلومات التي سردها عن جمعية «عصابة إخوان الحرية» فقد تنفعهم في المستقبل مادام العالم لا يزال مفعماً باحتمال نشوب الحرب العظمى الثالثة ، فإن وقعت فإن عصابة إخوان الحرية ستعود إلى الانتعاش وتحرق الحرت والنسل .



آخر زيارات الأمير شكيب أرسلان لمصر

ودعت المرحوم الأمير شكيب لما زار مصر ١٩٣٩ بحفلة أقيمت له بقاعة الناصيونال وقد ظهر في الصورة على المائدة الرئيسية السيد محمد إدريس المهدي السنوسي « ملك ليبيا الآن » فالمرحوم الأمير شكيب ، فدولة أحمد حلمي باشا « وقد وقفت خلفهما » فالمرحوم عبد الرحمن فهمي بك ، فالأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك

الجامعة العربية

معمودية بارية

قيام جامعة الدول العربية

كانت بريطانيا في أوائل سنة ١٩٤٣ تعاني الخوف مما يتمخض به العالم العربي من حركات استقلالية وفورات قومية ، بينما كانت في الوقت نفسه تعاني الهول من الحرب ، فساورها القلق من قيام العالم العربي عليها بحركة تزيد في دقة مركزها الحربي مع الألمان ، فرأت أن تقوم بخديعة تشغل البال عنها كعادتها كلما نكبت بنكبة عالمية ، فأعلن المستر إيدن وزير الخارجية البريطانية في مجلس العموم أن حكومته لاتعارض في تأليف جامعة عربية ، فأشغل هذا التصريح ذهن الشعوب العربية فقبول بالارتياح الذي يقابل به كل مشروع إنكليزي... وبعد قليل جاء مصر السيدان جميل بك المدفعي رئيس الوزراء العراقية السابق وتحسين العسكري بك وزير الداخلية العراقية فاستدعاها النحاس باشا رئيس الوزراء وتمت المشاورة في أمر هذه الجامعة ووضع الأسس لها .

مولد الجامعة

وفي ٣٠ مارس سنة ١٩٤٣ وقف المرحوم صبرى باشا أبو علم وزير العدل في مجلس الشيوخ وأعلن على لسان النحاس باشا رئيس الوزراء البيان الرسمي التالي :

«إننى معنى من قديم بأحوال الأمم العربية والمعاونة على تحقيق أمالها في الحرية والاستقلال ، سواء في ذلك أكنت في الحكم أم خارج الحكم ، وقد خطوت في ذلك خطوات واسعة صادفها التوفيق بأن اتجه نظام الحكم في بعض الأقطار العربية الاتجاه الشعبى الصحيح ، ومنذ أعلن المستر إيدن تصريحه ، فكرت فيه طويلا ، ولقد رأيت أن الطريقة المثلى التى يمكن أن توصل إلى غاية مرضية ، هى أن تتناول هذا الموضوع الحكومات العربية الرسمية ، وانتهت من دراستى إلى أنه يحسن بالحكومة المصرية أن تبادر باتخاذ خطوات رسمية في هذا السبيل ، فتبدأ باستطلاع آراء الحكومات العربية المختلفة فيما ترمى إليه من آمال ، كل على حدها . ثم تبذل جهودها للتوفيق والتقريب بين آرائها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، ثم تدعوهم بعد ذلك إلى مصر معاً في اجتماع ودى لهذا الغرض حتى يبدأ المسعى للوحدة العربية كجبهة متحدة بالفعل ، فإذا ماتم التفاهم أو كاد ، وجب أن يعقد في مصر مؤتمر برئاسة رئيس الحكومة

المصرية لإكمال بحث الموضوع واتخاذ ما يراه المؤتمر من القرارات محققاً للأغراض التي تنشدها الأمم العربية .

هذه هي خير السبل للسير بالموضوع سيراً يكفل له النجاح ويضمن التوفيق ، وقد استقبلت يوم السبت الماضي معالي تحسين العسكري بك وزير داخلية العراق ودولة جميل بك المدفعي رئيس وزارتها السابق وتحادثت معهما في الأمر وأطلعتهما على خطتي هذه وبدأت في تنفيذها ، فوجهت بالفعل إلى نخامة نوري السعيد باشا رئيس حكومة العراق دعوة رسمية حملتها معالي تحسين بك العسكري حتى إذا ما وافق على هذه الخطوات استطرد البحث إلى آراء العراق في الموضوع بجميع أطرافه من سياسية واقتصادية واجتماعية وبخاصة السياسية ، وسأوجه بعد ذلك الدعوة لتو الدعوة للحكومات العربية المختلفة وأستقصى من مندوبيها الواحد بعد الآخر عن ذات الموضوع . فإذا ما انتهيت من هذه المباحثات التمهيدية ورأيت منها ما يبشر بالنجاح كما أرجو ، دعت الحكومة المصرية إلى عقد المؤتمر في مصر ، وإني أسأل الله أن يلهم السداد قادة الأمم العربية وأولى الأمرفيها وأن يكتب لهذه الأمم التوفيق والنجاح . وهنا وقف العضو عبد الستار الباسل بك وشكر للحكومة إجابتها الصريحة ، وطلب العضو حافظ باشا رمضان أن يلاحظ المؤتمر العربي - عند ما يعقد - شعور عرب فلسطين . فقال وزير العدل : « إن الحكومة قامت ولا تزال تقوم بواجبها حيالهم » . هذا ما جرى في البرلمان ، وبموجبه أعلن مولد جامعة الدول العربية .

صدى البيان والبدء بالعمل - والارتباب ...

وعلى أثر ذلك وصل إلى مصر رؤساء الحكومات العربية واحداً بعد واحد ، وبدأت المشاورات ... وعند ذلك تحدثت مع الدكتور محمد صلاح الدين بك سكرتير عام مجلس الوزراء - وكان هذا الاجتماع في بيتي - وبعده صلاح الدين بك من أهم الشخصيات التي اعتنت بهذا الحادث العظيم وكان لتوجيهاته في سياسة الدولة إزاء تأليف جامعة الدول العربية ومفاوضاتها أثراً فعالاً . فقلت له : أنتم الآن في صدد حادث عظيم في تاريخ الأمم العربية ، ولكن هل أخذتم من بريطانيا الثمن قبل أن تباشروا القيام بهذه العملية ؟ فقال : أي ثمن تقصد ؟

فقلت : إن الثمن الذي أقصده أن يكون النحاس باشا قد ربط الإنجليز بوثيقة رسمية وأخذ منهم عهداً قبل أن يشغل فكر العالم العربي بهذه الجامعة ومفاوضاتها سنة أو سنتين ، حتى إذا خرجت إنجلترا من الحرب منتصرة - لاسمح الله - تنكرت لمصر وللعرب ، إن النحاس باشا رجل ثقة وأمين ، والمشروع الذي يريد أن يتبناه جدير بأن يصرف جهود العرب عن استبداد الإنجليز بهم واستعمارهم لبلادهم ويشغلهم بهذه الجامعة ، ولذلك تراني أخشى أن يكذب الإنجليز على النحاس باشا كما كذبوا على المرحوم الملك حسين بن علي ، لدرجة أنهم برغم وجود وثيقة بيده عليهم قد تنكروا له وأنكروا عهودهم له ، فلا أحب للنحاس باشا أن يصاب بما أصيب به الملك حسين ، وتكون فلسطين والبلاد العربية ضحية للإنجليز مرة أخرى ، لأن الرأي العام قد شم رائحة الإنجليز في مشروع الجامعة لإسراع نوري السعيد رئيس وزراء العراق في الاستجابة لتصريح المستر إيدن !

رأى صلاح الدين والرد عليه

فقال صلاح الدين بك إن الحكومة المصرية وجدت اعترافاً إنكليزياً فهي تريد أن تأخذه على منطوقه وتقوم بالمشروع فعلاً بدون أن تقيم وزناً لنوايا الحكومة البريطانية . وأما نوري السعيد فلن يكون وحده في الموضوع الذي سيصبح في قبضة الحكومات والشعوب العربية كلها . فقلت إن شعوب العالم العربي لا تثق بحكوماتها الحاضرة فكلاً مؤلفة على هوى الإنكليز ويأشرفهم وتدريبهم وتأيدهم ، ماعد الحكومتين السعودية واليمانية ، وهاتان الحكومتان لن تقابلا الحركة بالاطمئنان . وسترون أن الملك ابن سعود سيتردد لأنه يكره نوري السعيد ويرتاب فيه ، والملك يحيى حميد الدين سيلزم الحياد ، وإن أجابكم فسيجيبكم بعد تشكك وتردد لاحدهما وسيتحفظ كثيراً ، لأنه والملك ابن سعود لن يساويا نفسيهما بحكومة شرق الأردن مثلاً لأنها إمارة تحت الحماية . بل إن مصر والعراق لم تساما من معاهدتين تشبهان معاهدات الحماية . وأما سورية ولبنان فهما حكومتان تحت انتداب فرنسا واحتلالها العسكري . فكيف يكون الحال إذن ؟ أما إن جرت انتخابات حرة في هاتين الجمهوريتين وأسفرت عن فوز السيد شكري القوتلي وجماعته في سورية ، وفوز الشيخ بشارة الخوري وجماعته في لبنان

فالأمة العربية تثق بهاتين الحكومتين ويكون مركز جامعة الدول العربية المنشودة أقوى وأصح ، وهنا يمكن لفلسطين أن تعتمد في إنقاذها على هذه الجامعة بعض الاعتماد . فقال صلاح الدين بك نحن أمامنا حكومات عربية قائمة ، فلا بد لنا من دعوتها بقطع النظر عن كونها موجودة برضاء الشعوب أم غير ذلك ، لأننا لانستطيع كحكومة أن نقول للحكومات الأخرى أنت موثوقة ونقول لتلك أنت غير موثوق بك ، ولكن الأيام ستصحح هذه الأوضاع وتتداول المسألة حكومات كثيرة إلى أن تتولاها الحكومات التي ترضى عنها الشعوب ونكون نحن على كل حال قد كسبنا هذه الجامعة التي ستصبح مع الأيام حقيقة واقعة يحسب حسابها

المندوب السعودي والمندوب اليمني



فؤاد بك حمزة

ثم سألتني الدكتور صلاح الدين بك عن المندوب السعودي الذي أظن الملك عبد العزيز سيرسله إن لبي الدعوة ، وعن المندوب اليمني إن لبها الإمام يحيى . فقلت له : إذا كان الملك ابن سعود سينظر إلى المسألة نظرة جدية فإنه يرسل فؤاد بك حمزة وزيره المفوض في باريس ، فهو الذي جاء مصر قبل بضع سنين وصفي الخلافات التي كانت بينها وبين الحكومة السعودية ، وهو رجل مثقف لبق ومحبوب . أما إذا كان ابن سعود سيتشكك في الأمر فسوف يبعث بالشيخ يوسف ياسين ليستطلع ويسبر الغور ويداور بدون أن يرتبط بشيء ... وعند ذلك يحسن بكم أن تداوروه وأن تصبروا عليه إلى أن تنكشف لكم الحقيقة وقد وصفت الرجلين لصلاح الدين بك بأن أولهما لبناني الأصل ، والثاني سوري الأصل ، وقلت عنه أشياء أخرى منها أن ليوسف ياسين حظوة خاصة عند الملك ابن سعود لدرجة أنه استطاع « تطفيش » فؤاد حمزة والشيخ حافظ

وهبة عن الحجاز ونجد وإبعاها إلى السلك السياسي الخارجى الخ ... ولم يرد فى حديثى شىء
عن الشيخ أبو الهدى الصيادى الذى كان عند السلطان عبد الحميد فى استانبول ... ولا عن
الراهب راسبوتين الذى كان عند القيصر فى روسيا ...

وأما مندوب اليمن ، فقلت لصلاح الدين بك إنى لا أدرى من يكون ، لأننا فى العالم
العربى لا نعرف شيئاً - فى تلك الأيام - عن رجالات اليمن .

موسى العلمى فى القاهرة

وفى أثناء المذاكرات التمهيدية من أجل الجامعة زار مصر السيد موسى العلمى وهو من
شبان فلسطين المثقفين أصحاب الاسم الطيب ، وقد زارنى فى دارى فسألتة عما جاء به فقال إنه
جاء للاستجهاج والراحة وإنه «قرفان» من الحالة السياسية وإنه مشغول هناك بتربية الدجاج
فى مزرعته ولا يريد أن يتدخل فى السياسة ...

وكان الدكتور مصطفى بك البشناق وهو من مجاهدى فلسطين المعروفين لا يزال لاجئاً
إلى مصر ، فقلت له ما رأيك فى موسى لنستدرجه إلى العمل الوطنى لأنه من المؤسف أن تحرم
القضية من كفايته . فقال هيا . فقلت إننا نستطيع أن نصطاد عصفورين بحجر واحد فى
الغد سيزورنى السيد موسى فأريد أن تحضر وسأطلب من الدكتور محمد صلاح الدين بك
الحضور لأمر هام فتى اجتمعنا كلنا نبحث فى أمر جامعة الدول العربية التى يجرى البحث فيها
ونبسط لديه حالة فلسطين ، وربما نقنع الحكومة المصرية بواسطة صلاح الدين بك بالإفراج
عن المعتقلين فى روديسيا كأمين بك التيمى والسيد جمال الحسينى وبقية المبعدين ، فاستحسن
الدكتور هذه الفكرة .

ماذا دار فى اجتماعنا ؟

وبعد عصر أحد أيام ١ أكتوبر سنة ١٩٤٣ وقبل مولد الجامعة الفعلى بعام ، كنا نحن
الأربعة فى دارى نشرب الشاى بعد أن أجريت التعارف بين صلاح الدين بك وبين السيد
العلمى ، ثم دار الحديث إلى أن وصلنا إلى مسائل فلسطين وجامعة الدول العربية ، فقلت

لصلاح الدين بك : إن العالم العربي يرقب مشروع الجامعة بشيء من الارتياح ، وإذا كنتم
تظنون أن هذه الجامعة يمكن أن تقوم بدون فلسطين فالأحسن صرف النظر عنها وعدم تمكين
الإنكليز من العبث بالعالم العربي بواسطة النحاس باشا الموثوق به عند الجميع . فقال صلاح
الدين بك : إن فلسطين هي أهم ما يشغل بال النحاس باشا . فقلت : إن قيام هذه الجامعة
بدون فلسطين تصبح شوهاة ، فقال : إنها ستدعى للاشتراك فيها وسيكون لها المقام المفضل ،
فقلت : إنها لن تشترك إلا إذا أعادت الحكومة البريطانية الخليفة جمال الحسيني وأمين التميمي
وإخوانهما من روديسيا لينوب جمال في الجامعة عن فلسطين ، فنصدق حينئذ أن بريطانيا
ستغير سياستها مع العالم العربي ، وإلا فلماذا تعتقلهم إلى الآن في ذلك المنفى السحيق إذا كانت
حسنة النية ، فأهل فلسطين الذين يرون زعماء اليهود يروحون ويحيئون بدون مضايقة ،
لا يفهمون لماذا تظل بريطانيا تطارد الزعماء العرب وحدهم . إن كل من يشترك من أهل فلسطين
في جامعة الدول العربية يعتبر بنظر الفلسطينيين خائناً إلا إذا عاد جمال الحسيني ورفاقه من روديسيا
وعاد الإخوان عزت دروزه وأكرم زعيتر وأمثالهما من تركيا ، لأن الذي يلي الدعوة إلى
الجامعة الآن يكون في نظر الواقع كأنه أقر نفيتهم وجسبهم ويطعنهم في ظهورهم ، وهذا السيد
موسى العلمى وهو قادم من فلسطين يقر هذه النظرية ، فقال موسى : هذا هو الواقع ولذلك
ستنزم فلسطين الحياض إزاء الجامعة إلا إذا عاد المبعدون أولاً . فقال صلاح الدين بك إنه سيطلع
رئيس الوزراء النحاس باشا على هذه الأمور لتتدخل الحكومة المصرية وتطلب من الإنكليز
إرجاع المبعدين ، ثم طلب صلاح الدين بك بياناً عن المبعدين وأما كن نفيتهم فذكرناهم له
ومنهم الذين في الحجاز والعراق والأناضول . فأخذ صلاح الدين بك مذكرة بالأسماء ووعد
بالعمل على إنقاذهم .

اليمن والمملكة السعودية

ولنرجع إلى حديث جامعة الدول العربية فأقول : بعد أن فرغ النحاس باشا من مذاكرة
العراق وشرق الأردن وسورية ولبنان ، طال انتظاره وهو يتوقع مجيء من يمثل اليمن ونجد ،
لأن الإمامين الملك ابن سعود والملك يحيى اكتفيا بإرسال الدعاء للنحاس باشا مع الاعتذار
(٣٦ - ظلام السجن)

عن حضور المذاكرات ، فأبرق يلح عليهما ، وبعد لأي أرسل الملك ابن سعود سكرتيه يوسف ياسين ، وأرسل الإمام يحيى ناظر الأوقاف السيد حسين الكبسي ، على شرط أن يكون مستمعاً ولا رأى له ، ثم سمح له الإمام بعد ذلك بأن يبدى رأيه ، وكان الكبسي على جانب عظيم من الذكاء والمباقة وحضور الذهن ، وقد توثقت العلاقة بيني وبينه وأصبحنا على تفاهم في كل المسائل .

فلسطين والجامعة

وفي عصر أحد الأيام جاءني السيد الكبسي يقول إن مذاكرات الجامعة وقفت أمام عقبة وهي أن الإنكليز يرفضون إعادة المبعدين الفلسطينيين برغم توسط النحاس باشا وتشديده في إعادتهم ، وقد بلغه أن أهل فلسطين من جهة أخرى يرفضون جميعاً الاشتراك في الجامعة إلا إذا عاد المبعدون أولاً ، والظاهر أن هذا الإصرار قد وافق هوى في نفوس الإنكليز فاشتدوا في رفض الإفراج عن المبعدين حتى لا تظهر فلسطين على المسرح ...

لقد كنت أتوقع حصول هذه العراقيل من إنجلترا لأن حالتها الحربية مع ألمانيا قد تغيرت وأخذت رياح النصر تهب في مصلحتها ، فهي تريد أن تقضى على مشروع جامعة الدول العربية في مهده ، ولذلك تمسكت بالمعتقلين لتبقى فلسطين بعيدة عنها ، فيقع الخلاف بين الحكومات بسبب فلسطين ، إذ تقول إحداها لا بد من فلسطين وإلا فلا جامعة . وتقول أخرى بل نغضى في المشروع وسندبر مسألة فلسطين فيما بعد ، وتكون النتيجة ضياع المشروع وفشله ...

لذلك خطر لي الحل الآتي للمسألة ، فقلت للسيد الكبسي : إنني من الذين نادوا بخيانة من يشترك من أهل فلسطين بجامعة الدول العربية بدون إعادة المعتقلين ، وأما الآن فإنني أقترح شيئاً جديداً لا أحب أن ينسب إليّ أمام الناس ، وذلك أن تتقدم أنت باقتراح منك ، فتطلب من النحاس باشا استدعاء شخص من فلسطين لتمثيلها في تلك الجامعة وعند حضوره يطرح هو مسألة المبعدين في اجتماعها الرسمي فيخاف الإنكليز من إثارة مسألة كهذه في مجتمع كهذا ستذكر فيه فظائع بريطانيا في فلسطين ، والغالب أن العقدة ستنحل تدريجاً وتفرج بريطانيا عن المعتقلين بعد أن ترى أن فلسطين قد غيرت فكرها ودخلت الجامعة فلا يبق

محل لتمسك الإنكليز بإبقاء المعتقلين والمبعدين في منافعهم ، وبذلك نكون عمليين . فاستحسن السيد الكبسي هذا الحل وسافر إلى الإسكندرية لعرض الاقتراح على النحاس باشا حيث كان يصطاف هو والحكومة هناك .

خلاف في فلسطين

وبعد ذلك بأيام ذهبت إلى الدكتور محمد صلاح الدين بك في مكتبه بوزارة الخارجية وسألته عن الأحوال فيما يختص بفلسطين ، فقال إن السيد الكبسي عرض حلاً معقولاً لدعوة فلسطين ، ولكن هناك ستة أحزاب فيها وكل حزب يريد أن يكون هو الممثل لها ، أو يدعوهم النحاس باشا جميعاً وهذا غير معقول ، إذ كيف يجوز أن يذاكر الرئيس مندوباً واحداً عن كل دولة ثم يستدعى من فلسطين وحدها ستة أحزاب ؟ فقلت هل تتذكر السيد موسى العلمي الذي قدمته إليك في العام الماضي ؟ إنني أقترح أن يستدعيه النحاس باشا شخصياً فلا يسع أحزاب فلسطين أن تعترض عليه حياء منه وإكراماً له ، كما أن في هذا الانتداب ما يحل اختلاف الأحزاب لأن العلمي يعتبر محايداً ، فقال صلاح الدين بك إننا نريد من ممثل فلسطين أن يكون حائزاً على هذه الصفة من قبل أمته حتى لا يعترض أحد عليه ويظعن في صحة تمثيله لأنه في هذه الحالة يستمد صفة التمثيلية منا نحن وليس من أهل فلسطين ، فقلت هذا صحيح لأن فلسطين لسوء حظها لا يوجد فيها « ولي أمر » يأمر فيطاع ، وليس لها كبير يرضى الناس برأيه . ولكن هناك فكرة وهي أن تكلفوا قنصل مصر في القدس بأن يتذاكر سراً مع رؤساء الأحزاب كلا على حدة ويشرح لهم حقيقة الوضع ويطلب منهم واحداً بعد واحد على انفراد توكيل موسى العلمي فيليبون ، لأن كل حزب يرضى بهذا الحل مادام أن ممثل فلسطين لن يكون من رجال الأحزاب الأخرى ... فقال صلاح الدين بك هذا حل معقول . وبعد أسابيع جاء السيد موسى العلمي إلى القاهرة يحمل توكيلاً من الأحزاب الفلسطينية الستة ودخل الجامعة وحضر مداوالاتها باسم فلسطين ولكن تمثيله لفلسطين لم يدم لأسباب كثيرة^(١) .

(١) بعد أشهر قليلة أفرجت بريطانيا عن معتقلي روديسيا فصار السيد جمال الحسيني يحضر جلسات مجلس

بروتوكول الاسكندرية

إذا كان يوم ٣٠ مارس سنة ١٩٤٣ هو يوم مولد جامعة الدول العربية القانوني حيث التى أول بيان رسمى عنها فى البرلمان المصرى باسم مصطفى النحاس باشا ، فإن مولدها الرسمى الفعلى هو يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤ .

فى ذلك اليوم أمضى رؤساء الحكومات العربية ومندوبوها وثيقة وجود الجامعة رسمياً وقد أطلق على الاتفاقية اسم « بروتوكول الاسكندرية » فقابل العالم العربى ذلك الحادث بالارتياح والابتهاج ، لأنه وحد كلمة الحكومات العربية لأول مرة بعد أن عجزت شعوبها عن توحيد كلمتها وأهدافها . وكان مما يمتاز به البروتوكول أنه يعترف بفلسطين « دولة عربية » ويعتبرها أمة محتلة ومعتدى عليها . وهو كسب كبير يستحق يومه أن يعتبر عيداً قومياً .

إقالة وزارة النحاس باشا

وفى غداة إمضاء « بروتوكول الاسكندرية » وقبل أن تقام الزينات والمهرجانات احتفالاً بذلك الحادث القومى إذا بوزارة النحاس باشا تقصى عن الحكم بفترة ، فاهتز العالم العربى جزعاً على « جامعة الدول العربية » وشاھت الوجوه ودب الخوف فى نفوس الذين يفهمون مايجرى وراء الحجب ، لأن الوزارة القادمة ستكون غير شعبية ، وستتألف من أناس لاثق بهم مصر ، فكيف يثق بهم العالم العربى الذى يعرف ما هى حكومات الانقلاب التى تقوم فى مصر بين الحين والآخر ، فتعانى البلاد العربية من شأيب أعمال هذه الوزارات أنواع الأذى .

الجامعة باسم فلسطين بدلا من السيد موسى العلى الذى أخفق فى مهمته إخفاقاً شديداً من نواح كثيرة ، منها قوله أنه لم ينسجم مع النحاس باشا وجماعته ، وهذا غير صحيح ، والحقيقة أن ضيق صدره وسرعة تدمره فى المناقشات السياسية وغير السياسية ومبادرته لمحدثيه بالحرد وقطع الكلام والانسحاب هو السبب فى إخفاقه فى مصر ، كما أنه أخفق بعد ذلك فى نفس فلسطين بمشاجرته مع رؤساء الأحزاب الذين انتدبوه وجعلوا منه رجلاً مشهوراً حتى أنه تشاجر معى أنا الذى اقترحه وقدمه الى الحكومة المصرية كشخصية كبيرة محترمة فإذا به يسود وجهى أمام الجميع ، وعندى كتب عديدة من بعض رؤساء الأحزاب فى فلسطين يعاتبوننى فيها على اخراج موسى من بين دجاجاته وابرازه وفرضه عليهم الخ ثم تعدد سوء تصرفه هناك فصار يقيم لنفسه زعامة عليا ! فما صدق الانكليز هذه الحركة منه حتى أخذوا يشجعونه على التزعم لزيادة الشقاق فلم يكتف بحركة التزعم هذه بل أوعز بمقاطعة صندوق الأمة كرها بأحمد حامى باشا ، فوقف الرأى العام فى وجهه وهاجمه فأخذ نجمه يخبو ، ثم عزلته الأحزاب من الوكالة عنها فراح يعمل لحساب نورى السعيد وشرق الأردن . ويلفق كتاباً يروج فيه لحركة « الهلال الانجليزى الحبيب » ويلوك ألفاظ « خسرنا المعركة » « ويجب أن نستعد للمعركة... » فما هى المعركة التى خاضها أو اشترك فيها ؟ لذلك لزداد الشك فيه ونزعت الأمة ثقتها منه فانطفأ .

إقالة الوزارات العربية

كالت إقالة وزارة النحاس باشا في صبيحة إمضاء « البروتوكول » موضع الدهشة في الدنيا العربية ما بعدها دهشة ، بل إن جميع الوزارات العربية التي أمضت « بروتوكول الاسكندرية » قد استقالت وبعضها أقيل على أثر ذلك . ولما تم إمضاء « الميثاق » بعد شهر « كما سيجيء بيانه » وجاء ضعيفاً ، كان توقيع على أيدي وزارات أخرى .

لقد كان مصطفى النحاس باشا ملهماً وموفقاً في إصراره على سرعة إعلان البروتوكول رسمياً ، فلولا إصراره وتصميمه على ذلك ، وأن يعلنه فوراً بواسطة محطة الإذاعة اللاسلكية إلى أنحاء العالم ، لولا ذلك ما كان أحد يدرى كيف يكون مصير جامعة الدول العربية .

اجتماعى بالنحاس باشا

وقد تحدثت مع الرئيس الخليل مصطفى النحاس باشا عن هذه النقطة بعد ذلك بأربع سنين وكان ذلك بحضور الدكتور محمد صلاح الدين بك الذى كان اليد اليمنى للنحاس باشا في إنشاء جامعة الدول العربية ، فدار الحديث على تلك الحادثة بالذات لأهميتها ، فقال النحاس باشا إنه لحظ أن بعض المندوبين كانوا يحاولون إرجاء الإعلان « الرسمى » للبروتوكول ، وأن بعضهم كان يريد حذف بعض كلمات ، وبعضهم الآخر يطلب تعديل عبارات ، وأن مساع شديدة بذلت في سبيل الإرجاء ، فقال النحاس باشا إن ذلك جعله يصبر على إعلان البروتوكول ليسجل رسمياً ، ويصبح أمراً واقعاً ، كأن قلبه كان يحدته بقرب حدوث مباغيات ، ولذلك أمر النحاس باشا بفتح الاتصال اللاسلكى بواسطة محطة الإذاعة التى كان قد أمر بإحضارها إلى قاعة الاجتماع وأخذ يقرأ النصوص جملة جملة ، حتى أن بعض المندوبين كانوا في خلال ذلك يطلبون حذف صياغة بعض الكلمات وتصحيح عبارات فكان يعمل بالممكن من اقتراحاتهم حتى لا يترك لأحد وسيلة لعرقله إعلان البروتوكول ، إلى أن تم كل شئ وأصبح البروتوكول بإعلانه على الملأ وثيقة دولية وأمراً واقعاً .

فلما أقيلت وزارته وسقطت الوزارات العربية الأخرى أو أسقطت وقامت الوزارة المصرية الجديدة والوزارات العربية الأخرى « الجديدة أيضاً » وجدت نفسها أمام « الأمر الواقع » فأسقط في يدها ولم يسعها إلا المضى في مشروع الجامعة العربية فسارت فيه على شكل أعرج

ومن طريق متعرج ... بعد أن ألغت البروتوكول وبعد أن أرجأته بضعة أشهر ، وسيأتى حديث ذلك .

كيف سقطت وزارة النحاس باشا

كنت فى مساء ذلك اليوم ١٨ أكتوبر سنة ١٩٤٤ أقضى سهرة شأى فى قهوة بلدية فى حى سيدنا الحسين أستعيد مع صديق لى ذكريات مجيئى وإياه لمصر لأول مرة منذ «ثلاث قرن» وفى الساعة العاشرة سمعت الراديو عرضاً فإذا به صوت مستشار محطة الإذاعة سعيد لطفى باشا الاستعمارى الشهير الذى لانسمعه إلا فى المناسبات الكريهة المكدره للأمة، لتخصصه بإذاعة بيانات تشرشل وأمثاله والعياذ بالله ، فأخذ سعيد لطفى يتكلم بصوت أجش منفر ويذيع نبأ إقالة وزارة النحاس باشا وتأليف وزارة جديدة برياسه أحمد ماهر باشا ومنعه محمود فهمى النقراشى وفلان وفلان ، وكلهم ممن عرفهم البلاد ولا تثق بهم ، فقابل الناس ذلك النبأ المشئوم بالوجوم وكأن على رؤوسهم الطير .

الفرار من القاهرة

أما أنا فقد اضطربت لهذه المباغتة وكأنه قدر على ألا أهنأ فى حياتى ، وأن أقضى مدة الحرب معذبا مروعا منغصاً ، وأن أحرم حياة الاستقرار والأمن التى لم يحرم منها أحد من الناس إلا أنا . وقد وزنت الأمور واستعرضت فى لحظة سريعة عواقب إقالة النحاس باشا ، فقدرت ما يكون لهذا الانقلاب السياسى من أثر فى مصيرى ، فالنحاس باشا الذى كفلى قد ذهب من الميدان الرسمى وعاد كما كان زعيماً شعبياً ، وأصبح الحكم فى يد أناس لا يهمهم أمرى ، وهم غير مرتبطين أمام رأى العام بشئ بالنسبة إلى ، فالكفيل قد زالت كفالته بخروجه من الحكم ، فإن خطر لمدير الشرطة العام وهو بريطانى أن يتناولنى فى تلك اللحظة ويضعنى فى السجن فلاجناح عليه ، لأنه إن حبسنى فهو يحبس شخصاً «مريباً» . والبلد الآن فى قبضة البوليس وإدارة الأمن العام ، التى تعمل هى وبوليسها بأمر الإنكليز ولحسابهم ، طبقاً لعادتها أكثر من ستين عاماً ، ماعدا الفترات التى يكون فيها الحكم للوفدين ، كما أن الوزارة الجديدة لم تقلد زمام الحكم بعد ، بل إن الوزارة نفسها غير مسئولة عنى لعدم وجود يد لها فيما يختص بى ، كما أن أمرى لا يهمها ، ومتى استلمت الوزارة الحكم غداً وقيل لها إن فلانا قد حبس ،

قالت سأرى في أمره وسأبحث مسأله، وهيهات لقوة أو واسطة أن تخلصنى بعد ذلك. وعلاوة على هذا كله فإن محمود النقراشى باشا قد أصبح من وزراء هذا العهد، وذلك وحده يكفى لفزعى منها، أليس أنه هو الذى شمت بحبسى فى أول الحرب، وكان قبل ذلك قد اقترح إغلاق جريدتى وإبعادى عن مصر؟! أليس أنه هو الذى نسب إلى الدعاية لإيطاليا؟ انظروا يا أهل الإنصاف، وتأملوا فى عمل النقراشى باشا الذى لم يجد تهمة يشفى غليله بها منى إلا الدعاية لإيطاليا، وهو يعرف أن ذلك غير صحيح وأن العكس هو الصحيح! ولكن غضبه منى لحبى للنحاس باشا - وباله من جرم عظيم - قد أنساه الحق والواقع واتخذنى عدواً، وهو لا يعرف أننى لا أبالى بهذه العداوة التى بغى فيها علىّ والتى لا يدلى فيها، أما وقد أراد هو ذلك فليكن ما يكون، وإنى مستعد للوقوف فى وجهه إذا كان الحكم للقافون، فأنا بالعبء المستقل...

الفرار والاختفاء

لم يكد المذيع سعيد باشا لطفى يسكت من إذاعته الفظيعة - لأن صوته لا تحتمله الأذن ولا تطيقه النفس، لأنه لا يذيع إلا كل ما يكدر - حتى قت وتركت المكان الذى كنت فيه وقصدت إلى أقرب تليفون فكلمت الدكتور حافظ باشا عفيفى فى داره وكانت الساعة تزيد على العاشرة ليلاً ففهم غرضى من هذه المخاطبة فوراً وقال «أنا فاهم الموقف الذى تعنيه» فقلت له سأزورك بعد ثلاثة أيام لبينا تجتمع برئيس الوزراء الجديد. فقال وتزورنى فى مكتبى فى البنك لأخبرك بما يكون...

وأما أنا فقد أمضيت تلك الأيام الثلاثة مسافراً من بلدة إلى مدينة، ومن جهة إلى أخرى، لأن كثرة التنقل والسفر والحركة هى من أهم الوسائل للابتعاد عن عيون الشرطة والجواسيس

عفيفى ورئيس الوزراء أحمد ماهر باشا

وفى اليوم الرابع جئت القاهرة فقابلت الدكتور حافظ باشا فقال إنه قابل رئيس الوزراء الجديد وأخبره بقصتى مع النحاس باشا وكيف أن الوزارة الوفدية قد كفلتنى وحتتنى من الإنكليز وسأله عن موقفه هو من هذه المسألة فيما لو تعرضوا لى، فقال له أحمد ماهر باشا أنا من جهتى لا أحمل فكرة سيئة عن فلان، فإن ظل بعيداً عن السياسة فلن يتعرض له أحد^(١).

(١) لا يسعنى إلا أن أسجل الطيبة التى كان ينطوى عليها قلب المرحوم أحمد ماهر باشا الذى لولا شدة تأثير النقراشى عليه ما كان يصدر منه عنف مع أحد، ولكن الحزبيات المحلية قاتلها الله طالما كانت تفرق بين العباد بل بين الأشقاء حتى بين الشقيقين أحمد ماهر باشا وعلى ماهر باشا.

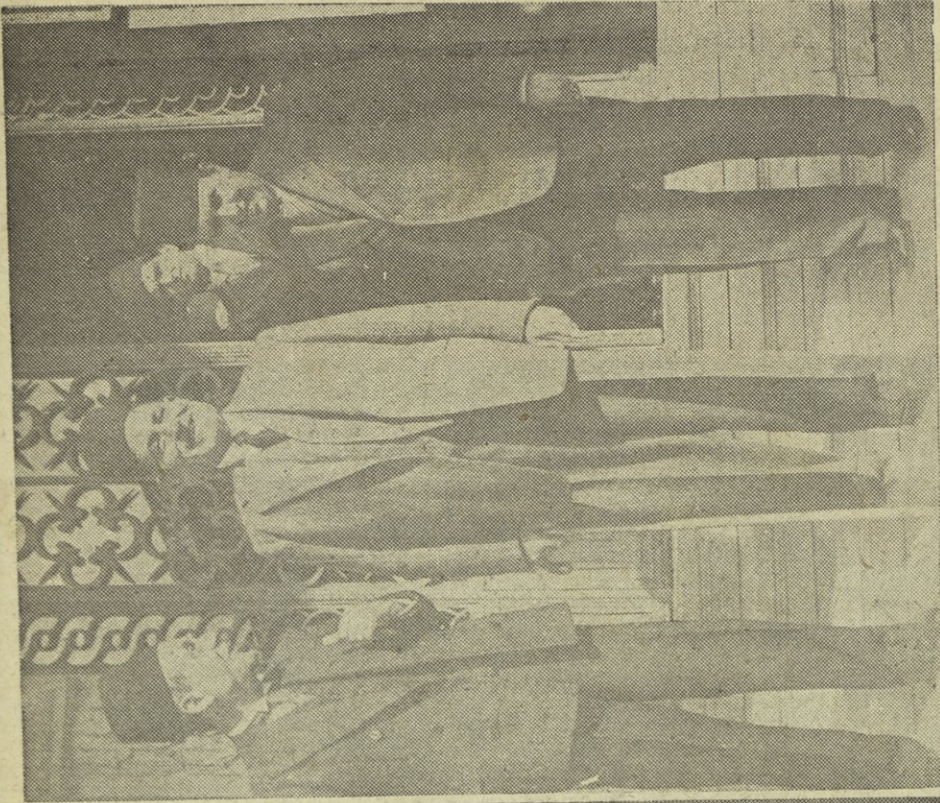
وعند ذلك اطمأن خاطري وعدت إلى حياتي العادية . ولكنها حياة القلق ما دام سيف الأحكام العرفية مشهراً ويستطيع الإنكليز بموجبها أن يصنعوا ما يريدون ، فقد سبق لهم أن أرغموا الحكومة المصرية على إعادة القبض على الفريق عزيز باشا المصري ، واعتقال على ماهر باشا رئيس الوزراء الأسبق ومحمد طاهر باشا ابن عمه جلالة الملك ، والبرنس عباس حليم وهو ابن عم جلالتهم ، والبرنس عمر الفاروق نزيل مصر وهو من آل عثمان وصهر العائلة الملكية المصرية فإذا يمنعه من طلب القبض على أنا وعلى ألف مثلي .

محبتي للنحاس باشا

لقد شهد قراء هذه المذكرات المواقف الكريمة التي كانت لمصطفى النحاس باشا معي ، وكيف أنه لم يتردد في معانقتي لما استسلمت إليه في مكتبه سنة ١٩٤٢ وهو رئيس وزراء



أخذت هذه الصورة بقصر الزعفران ليلة الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف ١٢ ربيع الأول ١٣٧٠ وقد التقطها المصور في اللحظة التي كنت أعانق فيها الزعيم مصطفى النحاس باشا ويعانقني



وقفت مع النحاس باشا والدكتور صلاح الدين بك وزير الخارجية
وقد أخذت الصورة حينما كنت أقول للزعيم : هذه وقفة تاريخية بالنسبة لنا



وقفة مع النحاس باشا في ضيافته بقصر الرغفران ،
وقد وقف بيننا دولة أحمد حلمي باشا رئيس حكومة فلسطين



جلست مع النحاس باشا في داره ذات يوم وسجلت آلة التصوير تلك الجلسة
وقد سطر النحاس باشا اسمي ولقبني بالجاهد بنظفه وأمضى على صورته بإمضائه

الرجوع إلى موضوع الجامعة العربية

كان العالم العربي يرقب بفروغ صبر وقلق موقف الوزارة الجديدة من جامعة الدول العربية التي ولدت منذ أيام ، وأبعد مؤسسها النحاس باشا عن الحكم ، وكثر اللغط والقييل والقال ، فلم يسع الوزارة الجديدة إلا الإعلان في بيانها الوزاري عن إقرارها ذلك المشروع الضخم وأنها ماضية فيه ، وفي الحقيقة أنه ما كان يسع هذه الوزارة غير ذلك ، لأنه أصبح مشروع العالم العربي كله ، وليس مشروع مصطفى النحاس وحده ، كما أن جلالة الملك كان يؤيد هذا المشروع لحسن الحظ .

وأخذت الوزارة الجديدة تعيد النظر في موضوع الجامعة مع وفود جديدة من الحكومات العربية « الجديدة أيضاً » فظهر القلق وأوجس الناس خيفة من هذه الوزارة لأنه لا يوجد واحد من رجالها يؤمن بجامعة عربية أو يهتمه أمرها ، لاسيما النقراشي باشا الذي يكره مسائل العرب والعروبة من أساسها ! وهو إذا كان قد وافق ومضى مع الوزارة فيها فإن ذلك بوحى جلالة الملك فاروق المعظم ولكون التيار العالمي كان أقوى من أن يصدده فرد مثل النقراشي باشا أو غيره ولذلك جرفه التيار جرفاً ...

وهكذا الحال مع رئيس الوزراء الجديد أحمد ماهر باشا فهو رئيس المحفل الماسوني في مصر ، وناهيك بالماسونية من حركة يهودية ، فهي أشد الحركات الصهيونية اليهودية ضد فلسطين العربية ، فقد استطاعت الجمعيات الماسونية أن تجند بعض المسلمين لخدمتها باسم الإنسانية والإخاء والمساواة . وإن قلت لهذه الجمعيات ما رأيك في اعتداء اليهود على المسلمين في فلسطين قالت نحن همئة غير سياسية ، ولكن هذه الجمعية ما كانت تتردد في إذاعة منشورات سياسية مسمومة « توصي فيها العرب بعدم ذبح اليهود إخواننا في الإنسانية وأبناء عمنا » ... بينما يكون الحال في ذلك الوقت أن اليهود هم الذين يذبحون العرب ! ولا أظن أنه يوجد في الدنيا دعاية يهودية ضد العرب أخبت من هذه الدعاية ، ولكاتب هذه السطور وقائع وحوادث مع الماسون بالقاهرة بدأت بعيد ثورة فلسطين سنة ١٩٢١ ورافقت ثورات فلسطين الأخرى ١٩٢٩ و ١٩٣٦ وما بعد ذلك ، حتى وصل الأمر بيني وبين الماسون إلى

الجرائد والمحاكم ، كما أنى لا أزال أتذكر أنه لما كان أحمد ماهر باشا في سنة ١٩٣٨ رئيساً لمجلس النواب أثارت مسألة فلسطين في المجلس أخذ يهدى من ثائرة النواب ويمنع تكدير خاطر اليهود^(١) من هنا كان الشك يساور الناس من وزارة أحمد ماهر ، ولكن مشيئة جلالة الملك جعلته يمشى في مسألة جامعة الدول العربية فشى ولكن بشكل أعوج ...

ميثاق الجامعة العربية

إن إقصاء وزارة النحاس باشا عن الحكم قد استدعى البدء في المذكرات بشأنها من جديد كما تقدم ، وكذلك استوجب النظام - أو الغرض الحزبي - التخلص من أمين سرها العام الدكتور محمد صلاح الدين بك فأقصوه عنها ، وكان الواجب أن يبقى للانتفاع باختباراته وإخلاصه للجامعة فهو من الذين مهدوا لها وعملوا على إقامتها ، ففي ذاكرته أسرارها وعواملها ، وما لا يرى من دوائها ، ولكن مرض الحزبية مع الأسف لم يوفق الوزارة الجديدة في عملها ، فأقصته وحرمت الجامعة العربية من حزمه وكفايته وقوة شخصيته . ثم جاءت الوزارة الجديدة بعبد الرحمن عزام فأعطته لقب باشا وجعلته أميناً لسرها باسم « الأمين العام لجامعة الدول العربية » معتمدة على اسمه وماضيه القديم بينما حاضره قد أصبح بعد ذلك غير ما كان ... فهو متهم بصداقة الإنكليز ، بدليل عدم اعتقالهم إياه في أيام الحرب ، بل جعلوه قائداً للجيش المرابط ! بينما هم قد اعتقلوا رئيسه السابق على ماهر باشا وزميله السابق محمد صالح حرب باشا وصديقه القديم عزيز باشا المصري الذي كان رئيس أركان الحرب في وزارتهم ، فلماذا تركوا عزام باشا فقط وهو أحدهؤلاء الأربعة الذين كان يقوم عليهم عهد على ماهر سنة ١٩٣٩-١٩٤٠

وفي خلال المذكرات الجديدة لجامعة الدول العربية اغتيل أحمد ماهر باشا رئيس الوزارة الجديد بيد المحامي الشاب محمود العيسوي ، فأقتضى النظام الحزبي إسناد رئاسة الوزارة لنائب رئيس الحزب محمود فهمي باشا النقراشي ، وكان العرف يقتضى بأن يرأس الوزارة رئيس حزب الدستورين بحسب الكثرة النيابية يومها ، ولكن جلالة الملك رأى أن يعوض جماعة أحمد ماهر

(١) أخبرني أحد خلصاء الدكتور أحمد ماهر باشا أن المرحوم قد استدرج إلى الماسونية استدرجاً كما استدرج إليها فضلاء قبل ذلك وبعد ذلك أيضاً .

بعد فجيعتهم برئيسهم بإبقاء رئاسة الوزارة لهم ، حتى لا تكون فجيعتهم مزدوجة بفقد رئيسهم
وفقد رئاسة الوزارة أيضاً ...

وسواء كان مآل الرئاسة إلى حزب أحمد ماهر أم لحزب الدستوريين ، فإن الجميع
لا يستحقون الرئاسة ، ولا الوزارة ، ولا النيابة في البرلمان ، لأن العهد كله كان ملفقاً بنوابه
وشيوخه ووزرائه ، وقد قام عهدهم على تزوير الانتخابات النيابية وتلفيقها ، فلم يسع الشعب
الممثل في الوفدين - أى حزب النحاس باشا - إلا مقاطعة الانتخابات فخلاً الجو لعصابات
الأعيان والحزبيين والخوارج والمنشقين ، فأصبح البرلمان منهم وحدهم ، فصاروا يصلون
ويجولون ويؤلفون الوزارات من أعضاء برلمانهم الذى كان أعجوبة برلمانات العالم كله! ...

الميثاق والخواجات ...

وفي ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ أمضى ممثلو البلاد العربية « ميثاق جامعة الدول العربية »
فلما اطلع الناس على نصوصه وجدوه دون « بروتوكول الإسكندرية » في روعته وقوته ، وقد
ظهرت فلسطين فيه بشكل مبهم ضعيف ، فازداد السخط على الوزارة الجديدة ، واشتد الأسف
على وزارة النحاس باشا .

وبعد ذلك بأيام أقامت السيدة هدى شعراوى ^(١) حفلة عشاء كبرى لتكريم الوفود

(١) السيدة هدى شعراوى هى كريمة سلطان باشا وحرّم المرحوم على شعراوى باشا أحد زعماء
الحركة الوطنية المصرية المشهورين ، وكانت من نبيلات زمانها ومفخرة عصرها وقائدة الحركة النسائية في الشرق
العربي ، وقد اشتهرت بإحساناتها للمجاهدين والفقراء إلى الخارج على نفقتها ،
وقد أنشأت دار الاتحاد النسائي والمدارس الصناعية والمشاغل اليدوية التابعة له . وقد احتضنت في السنين
الأخيرة من عمرها الحافل بالخير قضية فلسطين احتضاناً لا مثيل له ، كما اشتهرت بتعظيم الأدباء والشعراء
ورجال الفكر ، وكانت سيدة جليلة القدر على جانب عظيم من الثقافة العالية ، فكانت تجيد غير لغتها
العربية - الفرنسية والتركية والإنكليزية - وكانت ذات شخصية نسوية عالمية بحضورها بالنيابة عن نساء
الشرق معظم المؤتمرات النسائية في أوروبا ، وقد لحقت السيدة هدى بالرفيق الأعلى يوم ١٣ ديسمبر ١٩٤٧
فاهتز العالم الشرق جزعاً عليها ، وقد رثاها الشعراء وأبناها الكتاب وبكتها الصحف العربية والأجنبية على
السواء ، رحمها الله وعوض الأمة على فقدائها أحسن العوض ، ولأنى أعتقد أن نهضة نساء مصر والشرق لن تقفر
بمثّلها ولا بعد قرن . فإن الزمان يمثّلها بلخيل

العربية التي قامت بوضع الميثاق الأبر، فلقيت عبد الرحمن عزام باشا هناك فانفردنا في زاوية من أحد الصالونات وسألته : لماذا مسختم قضية فلسطين في «الميثاق» مع أنها كانت أقوى وأبرز وأظهر في «البروتوكول» فقال «الجوابات عاوزين كده وكانوا يريدون شقيلة المشروع فرضينا بما قدرنا عليه ...»

وترجمة هذه الجملة إلى اللغة الصحيحة أن الإنكليز تدخلوا وأرادوا القضاء على الجامعة في مهدها وأن جماعة حكومة ذلك العهد رضوا بسخط مسألة فلسطين ، على قاعدة أن العور أخف من العمى ...

وصف حكومات الأقليات

ولكن هذا العذر غير مقبول ولا يقره الناس ، بل إنه يعطيهم الحق في السخط على وزارة ذلك العهد التي لولا قيامها على أنقاض وزارة النحاس مانكبت فلسطين التي كانت إحدى الضحايا لهذا العهد المفقوت . وإلا فلماذا لم يجسر الإنكليز على التدخل أمام النحاس باشا في صيغه «البروتوكول» الذي أغضبهم ؟ وبديهي أن كل ما يغضب الإنكليز هو في مصلحة الأمم المنكوبة بالاستعمار ، وكل ما يغضب هذه الأمم يسر الإنكليز ، لأنه في مصلحتهم ...
إنني أعرف النحاس باشا وكيف كان يصنع لو تدخل الإنكليز ، ولكنهم سكتوا خوفاً من شدته وعنفه ، فلما قامت الوزارة الضعيفة الانقلابية استطاعوا التدخل والإيحاء فاستجاب لهم .

إن ماجرى لدليل قاطع على أنه لا يستفيد من وزارات الانقلاب في الشرق إلا الإنكليز ، لأنهم يتخذون من ضعفها وعدم شرعيتها وسيلة لاقتناص بعض حقوق البلاد بواسطتها ، في مقابل تمكين أهل الانقلاب من التمتع بالسلطة والأسلاب ! وهم في الوقت نفسه يكفون الاستعمار مهمة إخماد جذوة الأمة ، وعملية إضعاف معنوياتها وكتبها ، فتكون الأمة في الحالين هي الخاسرة والاستعمار هو الرابح ، على أيدي أناس منا ليمتعوا بالحكم والسلطان والسلب والنهب ...

استطراد عن عزام باشا

ولنرجع إلى عبد الرحمن باشا عزام، فأقول إنه أخذ يعمل في أمانة الجامعة ببطء شديد وتردد وب عقلية الرجل الحكومى الحزبى ! فهو بعد أن اقتطف ثمرة جهاد الدكتور محمد صلاح الدين بك الذى قامت الجامعة على كتفه ، لم يبق عزام باشا كما كان وهو مجاهد وطنى بالأمس بل أصبح شديد الاحتياط ، شديد الارتياح بكل من كان يصادقهم ويعتمد عليهم ، وقد اجتهد فى إقصائى عن كل ما يمس جامعة الدول العربية على طول الخط ، فلم يكلمنى فى أى شأن من شئونها ، ولا استشارنى فى أمر من أمورها ، بعد أن كان يستشيرنى فى معظم الأمور حتى فى زواج إحدى قريباته من أحد الأشخاص ، بل تجاهل صلتى بمواضيع العروبة على الإطلاق برغم كونه ما عرف بعض رجال الحركة العربية والإسلامية فى الشرق إلا بواسطتى وبواسطة جريدتى ، فهو إذن يعرف شدة الحاجة إلى خبرتى فى أمور الجامعة ، ولكنه مع ذلك كان يعرف كره الإنكليز لى ، فظن أن وجودى بقرب الجامعة أو اتصالى بها مما يكدر خاطر الإنكليز ؛ فاجتهد بأن لا يغضبهم ! وقد غالى فى الاحتياط حتى إنه تهرب من واجب التدخل لدى الوزارة ليحملها على الاعتراف بجنسيتى ، حتى لا يدرى الإنكليز بأن له يدا فى تسوية حالة عدوهم السياسية ، وإلا فإن الواجب كان يدعو إلى مخاطبة وزارة الداخلية ورئيس الوزراء فإن لم تسمع كلمته ولم تقبل وساطته قال للحكومة اعفينى من أمانة الجامعة مادامت قيمتها هينة إلى هذه الدرجة ...

وكان عزام باشا يتخبط فى أعمال الجامعة ، لأنه كان يستشير فى مسائل فلسطين بعض مندوبى الصحف وأجهل الناس بها وأبعدهم عن موضوعها ، فى حين كنت فيه بجواره فلا يسألنى ولا يأخذ رأى فى شئ ولا بالتليفون من بعيد ... بل إنه لم يفكر فى دعوتى إلى حفلة تكوين الجامعة ! مع أنه دعا إليها ألف نسمة كان فيهم كل الذين لاصلة لهم بالعرب والعروبة ، حتى ممثلى الدول الأجنبية دعاهم ! ومندوبى الصحف الأفرنجية عزمهم ، ومنهم بعض اليهود ... بل كان يدعو إلى حفلات الجامعة بعض الطلبة والجواسيس ونخبرى الصحف ، وكان يدعو جميع الناس ومن جميع الطبقات ، إلا أنا ...

وقد اتخذ عزام باشا لمساعدته في إدارة حركة الجامعة أناساً لم يسمعوها بشيء اسمه جهاد عربي ، أو نضال إسلامي ، أو كفاح ضد الاستعمار ، بل استعان برئيس رقباء البريد في أيام الحرب الذي كان يتلصص للإنكليز على الرسائل البريدية ويرشدهم إلى خصوم بريطانيا ويهدي السلطة العسكرية إليهم... حتى إن الإنكليز أنعموا أخيراً على مساعد عزام باشا المشار إليه بنيشان الأمبراطورية من درجة فارس !

وقد أخبرني من دخلوا مكاتب الجامعة أنها مشحونة بموظفين كانوا في أيام الحرب مترجمين ومرشدين في السفارة البريطانية والقيادة العامة للشرق الأوسط ...

وهكذا فإن صديق القديم عزام باشا قد اهتدى إلى جميع الناس للاستنارة بهم والاستفادة في مهمته بخبرتهم إلا أهل الذكر ولم يجد في الدنيا أكفاً ولا أخلص ولا أخبر في المسائل العربية من مدير رقباء الإنكليز على البريد المصري والمتزوج من يهودية - أجنبية أيضاً - فاتخذته مساعداً ومرشداً ...

وعند ما كان عزام يتغيب عن مصر كان العالم العربي يسمع ويرى مساعد عزام باشا المتفرنج ، أو المستعرب ، يحضر مجالس الجامعة ويمثلها في المؤتمرات ويتكلم باسمها رسمياً ...

أصدقاء تغيروا

كانت أيام الحرب كلها أيام آلام لي وللناس جميعاً ، حتى أبناء الأمم المنتصرة كانوا أيضاً يتألمون مما نزل بهم من مصائب ، فكيف بمن أصابه ما أصابني وأنا من أمة منهزمة كانت كلها تتألم وكلها يتوقع سوء المصير .. وليس معنى هذا أنني نكبت وتألمت أكثر من سواي بل كان هناك من أصيب ونكب بأكثر وأكثر ، ولكن هذا لا يمنع من كوني نكبت وأصبت بأكثر من طاقتي وفوق احتمالي ، ولذلك جاء هذا الكتاب ..

وكانت الآلام النفسية من أعمال بعض الأصدقاء وتكريم لي تؤلني أكثر مما كان يعمل به معي الأعداء ، لأن الأعداء هم الأعداء ، فكل شر كان ينتظر منهم ، ولكن الأصدقاء ...

إننى أتذكر صديقاً كان بعد تعطيل « الشورى » سنة ١٩٣١ يقطع زياراته وكان ينأى بجانبه إن رأى من بعيد ويتهرب منى ولا أدرى لماذا ، فلما أصدرتها بعد ذلك بست سنين عاد إلى وكان لا يفارقنى . ولكن لما توقفت مرة ثانية بسبب الحرب عاد إلى القطيعة ...

وصديق آخر

وبعد إطلاق سبيلى جاء مصر أحد الأصدقاء وهو من الأقارب أيضاً ، وأقام فى مصر نحو شهر بدون أن يرى وجهه ، ولكنه قبل رجوعه إلى بلده بيوم جاء إلى باب دارنا وهو حذر يترقب ، ووضع بطاقة فى صندوق الرسائل الخاص بى وعاد أدراجه ، بدون أن يكتب على البطاقة حرفاً فيه تحية أو عنواناً يدل على مكان نزوله حتى لا أزوره ولا يلتقانى ، فلما بحثت عنه قالوا إنه كان فى القاهرة منذ شهر وسافر اليوم ، أى فى اليوم الذى وضع فيه البطاقة بالباب ! يعنى ان هذا القريب الصديق كان بعيد النظر ... ذلك انه حسب حساباً لسؤال الأصدقاء والأقارب عنى فى بلده ولا يمكنه أن يقول انه أهمل واجب المودة والقرابة ، لذلك وضع البطاقة بالباب ليقول إنه بحث عنى وجاء لدارى وإننى أهملته ولم أسأل عنه ... ليظهرنى فوق ذلك بمظهر المقصر معه ! أما سبب هجرانه فلكونه أصبح موظفاً كبيراً عند الإنكليز أثيراً لديهم ، تخاف على سمعته منى ...

وصديق ثالث !

وهناك صديق عزيز قديم امتدت الأخوة بينى وبينه أكثر من ربع قرن فكان فى سنوات ٩٢٠ و ٩٢١ و ٩٢٢ فى مصر ، لا يفارقنى ولا أفارقه ، ولما رحل عائداً إلى فلسطين كانت رسائله إلى ورسائلى إليه لا تنقطع ، وكانت رسائله طويلة فيها مناجاة وفيها سياسة وفيها أدب ونقد ، وفيها مكاشفات ومودة ، وفيها نجوى وشكوى ، وفيها كل ما يمكن أن يكون بين صديقين متآخيين ، جمعتهما النكبة بالاستثمار وتقاهما على كل وجهات النظر فى الإخوان والأشخاص والأصدقاء والأعداء والقضايا العامة ، فكان يعتبر مكاتبته لى أهم برنامج يومه ، وعندى منه نحو ٥٠٠ رسالة تبلغ صفحاتها نحو ٣ آلاف صفحة .

ولكن هذا الأخ والصديق والعشير الحبيب ، لم يتورع عندما جاء يزور مصر

بعد خروجي من الحبس عن التواري منى وعدم السؤال عني ، مع أنه يعرف عنواني وكان يستطيع أن يكتب لي فأستقبله في المحطة يوم قدومه ، أو يبعث لي مع أحد الناس نبأ فأذهب إليه مسرعاً مهرولاً ، ولكنه كان لا يريد أن يلقاني ، حتى بعد أن تفارقنا عشر سنين ، وكان يكتب لي عن أشواقه وحنينه إليّ ، وكان يقول لي في آخر رسالة وصلتني منه قبل القبض عليّ بأيام وهو يبتني آلامه من الناس ومن الدنيا كلها : « ما أحوجني يا أبا الحسن إلى أن تكون الآن بجانبني ... »

إن هذا الصديق الثمين الذي لا يعجبه الناس جميعاً بقدر ما كنت أعجبه ، ولا يرى فيهم الوفاء الذي رآه مني ، ولطالما كتب وخطب عنه وتحدث فيه ... إنه يجيء إلى مصر فيمكث فيها شهراً بعد فراق عشر سنين ، تزوجت في خلالها ورزقت ببنتين وسجنت وخرجت من السجن فلا يقول لي أين أنت ، ولا يمكنني من لقائه ، في حين أنه زار في مصر جميع من كان يعرف من المعارف القدماء الذين أصبحوا من ذوى الألقاب ، ولم أقل إنهم من أصدقائه القدماء لأنهم ليسوا له بأصدقاء ، بل أنا الذي كان صديقه . ولكنهم صاروا أغنياء فهرول نحوهم ، وأصبحوا من أصحاب المناصب الرسمية فهرع إليهم ! وأما أنا فقد بقيت من أصحاب المناصب الوطنية الذين يفضيئون الإنكليز فابتعد عني ، وبقيت فقيراً وصار هو غنياً مثيراً فهرب مني ، مع أنه قد تحدث وخطب وكتب مراراً بأني في إحدى أزماته قد أعطيته كل ما أملك وما لا أملك ، أي أنني قدمت إليه يوم نكبة ابنه بالمرض ، كل ما كان عندي واستقرضت له من الناس مثل ذلك وقدمته إليه ، ولكنه الآن يتجاهلني !

وأما الذين هروا إليهم يوم زار مصر فإنهم في أيام نكبته لم يسألوا عنه ولا أغاثوه ولا حفلوا به ، بل إنهم طول حياته وحياتهم ما كتبوا إليه لا في السراء ولا في الضراء ، ولكنه هرع إليهم لأنهم صاروا من ذوى الألقاب ، وأصبح هو من ذوى الأموال ! نخاف أن أطلب منه مالا أو قرضاً ففر من رؤيتي ! هكذا خطر له .. أليس إني خارج من السجن ؟ إنه قد جرب السجن قبل ثلاثين سنة ويعرف كيف يكون حال الخارج من السجن ، فهدهاء تفكيره إلى أنه سيجدني في أسوأ حال ، فما أغناه عن هذا الاتصال المزعج الذي سيكلفه إقراضى شيئاً من المال ، أو إهداء طفلي الحسن لعبة أو علبه حلوى ...

ولكن المسألة معي لم تكن ضيقة إلى الدرجة التي تصورها صديقي الهارب من وجهي، لأن لي من الأصدقاء من هم أكبر نفساً وأعلى منه همة، وأكثر وفاء. وسيرد ذكر بعضهم في هذا الكتاب، فلو أنه مكّنتني من اللقاء به لفرحت برؤيته، ولأكرّمته وأزّلتني في بيتي، وأما الذين هرول إليهم من ذوى المناصب فكنت أدعوهم معي إلى داري وأقيم لهم مأدبة إكراماً له. لقد استعجل الرجل في كونه تصور أنني سأفجعه في شيء من ماله بعد أن صار من ذوى الأملاك والإيراد الكبير، وكان عليه أن يظهر أولاً، وأن يريني وجهه أو يمكنني من الاجتماع به، فإن سمع أو لحظ أو لمح شيئاً يدل على أنني سأحتاج إلى شيء من ماله، فما عليه ساعته إلا أن يفر وأن ينجو بجلده...

إن الذين يعرفون ما كان بيني وبين خليل السكاكيني والذين قرأوا وسمعوا ما كتبه ومقاله عني، والذين قرأوا ما كتبه عنه وصنّعه من أجله فيما مضى، سيصابون بالغثيان من عدم وفاء هذا الرجل لصديق كان له أصدق حبيب، وكان في نظره المثل الأعلى للصدقات الكريمة العالية... (١)

استطراد

وكان يعزّيني ويقع في نفسي موقع العزاء من قصص الناس، ما كان منها ينطبق على حالي، من متاعب الحياة وغدر بعض الأصدقاء وخذلان الأولياء. فقد عشت بعد زوال هذه المحنة أربع سنين ملازماً لبيتي، أنتظر نهاية الحرب، ولا عمل لي إلا الترقب كسر الحلفاء وانتصار الألمان أو الشيطان، ليستطيع العالم أن يعيش بهدوء وسلام. ففي تلك الأيام تنكر لي أكثر من واحد من الأصدقاء، وقد ذكرت بعضهم، ففلان ماعاد يزورني، وذلك ماعاد يحينني، وغيره كان يخلق الأسباب لتسويغ القطيعه وفصم العروة وقطع حبل الوداد. وكان هؤلاء الناس على نوعين، فمنهم من كان يظن الاقتراب مني مما يسبب له المشاكل ويجعل السلطة البريطانية تشبه به أو تقبض عليه، ومنهم من كان يخاف أن أطلب منه قرضاً، ومنهم من كان يخشى أن أطالبه بدين أقرضته إياه قرضاً حسناً... إلى هذه الدرجة بلغ الانحراف والانحلال في أخلاق بعض الناس.

(١) ثم دارت الأيام، فإذا به يصاب بماله ويفقد منصبه ويعود إلى مصر، وهنا فقط فكرتني وعرف أنه يجب أن يزورني! كأن كتب على أن لا أصاحب إلا المنكوبين والفلسين!!

صديق آخر انتكس

وهذه حكاية لا يمكن أن تنسى ، ولا أن تزول من البال ، وستظل تمر في الخاطر من حين إلى آخر إلى أن أدونها هنا فاستريح منها ، لأنى أكون بذلك قد أخرجتها من صدرى ووضعتها على كاهل غيرى ، وذلك أنه لما اشتد بى الضيق المالى بعد السجن وما تلاه ، أنزلت أربع سجاجيد من بيتى إلى السوق ، وكلفت صديقاً لى من التجار أن يبيعها بحجة الاستغناء عنها . ولكن صديقى هذا كان بعيد النظر كثير الحيلة ! فقد هداه تفكيره وتقديره إلى النتيجة الآتية : وهى أننى بعد إنفاق ثمن السجاجيد سأستقرض منه مالا ! فما كان منه إلا أن تغير وتبدل فوراً ، وأخذت أساريه تنقبض إن زرته ، وصار ابنه « ييوز » فى وجهى إن أقبلت على دكانه ، حتى إن الخادم ماعاد يقابلنى بتلك الحفاوة ...

ومن عادة «مركب النقص» أن يكون شديداً عند من كان مثلى فى تلك الأيام ، فكنت دقيق الشعور شفاف الحس ، فكيف إذا اقترن ذلك بما لحظته من صديق ومن ابنه ومن خادمه؟

تجربة ...

ولذلك بادرت إلى سحب السجاجيد من عنده مدعياً أن الأفضل أن نصلح تلك السجاجيد أولاً .

وبعد أن استرجعتها منه انقطعت عن زيارته شهراً وثلاثة وستة أشهر ، ولكنه مع ذلك لم يظهر ، ولم يزرنى ، ولم يسأل ، ولا أرسل ابنه للسؤال عني . فكان حاله معى حال المثل العامى « عمى بندق ما صدق » ...

وكان هذا التاجر ، أو الصديق السابق ، يفتنى فى تلك الأيام بكثرة وبسرعة ، وكنت أنا أزداد فقراً ، ولكن بسرعة أكثر ! ومع ذلك فإن صاحبنا كان ينتظر على كل حال أن يرانى مقبلاً عليه يوماً ما طالباً منه العون المالى . أليس أننى كنت فى السجن وأنى أضعت كل ما أملك من مال ؟ أليس أنه رأى سجاجيدى فى دكانه وأننى كنت أريد بيعها ؟ وهل كان يمكن لسحبها من عنده بألف حجة أن يقنعه بأننى لن أحتاج إلى ماله غداً أو بعد غد .. كلا ! ولكنه مع ذلك لم يرنى ، لأنى لم أذهب إليه ، لاستقرضاً ولا زائراً . وفى أحد الأيام جاء القاهرة

أحد الكبراء وكان صديق ، فسأل عني ، ولا أدري كيف تعرف صاحبنا التاجر على ذلك الكبير وكان التاجر قد اطمأن بمضي المدة على جيبه وماله مني ، فتطفل على الزائر الكبير وصحبه إلى منزلي ، ولكنه كان يخشى أن أعاتبه أمام الضيف الكبير فما كان منه إلا أن أخذ يقص علينا سبب انقطاعه عني واضطراره إلى الابتعاد عن الاتصال بي ليبرر فعلته معي فقال إن الشرطة كانت قد دهمت داره واقتحمت مكتبه بسببي . فتعجبت من خصوبة ذهن هذا الرجل وسرعة إرتجاله الكذب ، فتظاهرت أمام الزائر الكبير بتصديق مازعمه التاجر البارع ، ولكني بيت له أمراً ...

الانتقام

وبعد ذلك بيومين كنت أسهر عند صديقي الأستاذ سيد ابراهيم الأديب الشاعر ، وهو المعروف بجمال الخط وكمال الخلق ، فحدثته عما كان من «صديقي التاجر» فكاد لا يصدق الحكاية لغرابتها ، وقال لنفرض إنك احتجت إلى ماله واستقرضت منه فإذا عليه في هذا وهو غني والناس بالناس . فذكرت له حكاية اختلاق مسألة البوليس معه ، فدهش وغضب فقلت له لا عليك واسمع هذه المحادثة التليفونية ...

وتناولت سماعة التليفون فأيقظت «صديقي التاجر» من نومه وقلت له إنني على موعد غداً مع رئيس الوزراء لأمر من الأمور وإني أريد منك أن تخبرني عن تاريخ اليوم الذي قتش فيه البوليس مكتبك وبيتك بسببي ، فقال لماذا ؟ فقلت لأن رئيس الوزراء كان قد أطلقني وحماني ليس فقط من البوليس بل من بريطانيا أيضاً ، فكيف يجرؤ البوليس على إزعاج الناس بسببي مع اني موجود أمامه وهو يعرف بيتي ، فلماذا يفتش بيوت الناس من أجلي ولا يتعرض لي أنا ؟ فقال إن المسألة قد انتهت بسلام ومرت عليها الأشهر فلا حاجة إلى إثارتها من جديد ، فقلت إن هذا يخصني أنا . كما أن التفتيش الذي جرى معك لما يسىء إلى سمعتي وينفر الناس مني خوفاً على أنفسهم فيزوون عني ، فيجب وضع حد لاستبداد البوليس مع الناس . فقال ولكن المسألة على كل حال قد انتهت . فقلت كلا لأنهم سيزعجون الغير بهذه الحجة وأكون أنا الضحية والسبب في إزعاجهم ، فلا بد من إبلاغ الأمر إلى رئيس الوزراء غداً وهو بلا شك

سيغضب ويأمر بالتحقيق معهم وسيكون عقابهم شديداً ، وبذلك أنتقم لك منهم أيضاً . فقال أنا متنازل ومسامح ، فقلت هذا حسن منك بلاريب ، ولكن بما انى أنا المقصود بذلك الإزعاج الذى نالك فمن الواجب أن أضع له حداً ، ولذلك أرجوك أن تخبرنى عن تفصيل الحادث ! وعند ذلك وقع الانهيار المنتظر فى أعصاب صديقى المذكور ، وأخذ يستعطفنى من أجل الكف عن ملاحظة هذه القضية . وقال أنا دخيل عليك وأرجوك أن تغض النظر ، فشدت وهددت فأخذ يعترف بالحقيقة وحلف بالطلاق أن الحادثة لا أصل لها ، وأن بيته لم يفتش ولا دكانه أيضاً . فقلت له ولماذا تخلق هذه الحكاية؟ فسكت وكرر الرجاء لوجه الله بأن أتركه ، فتركته ...

تعليق لا بد منه

هذا واحد كان من أعز الناس عندى اخترع أغرب الوسائل ليسوغ تنكره لى ، وهو يظن أنه حفظ بهذه البراعة ماله حتى لا أستقرض منه ، أو أستعين به كما صور له الوهم والخيال . ولكن ماذا لو استقرضت منه وهو صديق ، وما معنى الصداقات إذا كان الصديق لا يستعين بصديقه ؟ لقد خطر لى أن أعطى هذا الصديق العاق درساً فى الرجولة والوفاء فأبلغ الحادث إلى رئيس الحكومة فعلاً فأمر بالتحقيق مع رجال البوليس المزعومين فيتضح للحكومة كذبه فينكر أنه اتهم البوليس بشيء ، فأستشهد بالذين حضروا حديثه فيشهدون عليه ، فيحال إلى محكمة الجنح لافتراءه على رجال الشرطة فيحكم عليه بالحبس ... ولكنى صرفت النظر عن ملاحظته فتركته متقززا مترفعاً . وإلا فكيف يجوز لرجل ادعى صداقة آخر فصدقه ، أن يدير له ظهر المجن فى أيام شدة ، ثم لا يكتفى بذلك الوزر فيلجأ إلى أرخص الأساليب ليبر فصم ما أمر الله به أن يوصل . أنا ما كلفته شيئاً ، فلماذا يستعجل ويبدأنى بالقطيعة؟ بل نفرض أننى استعنت بماله ، فما أنا بأول صديق فى الدنيا استعان بمال صديقه ، فهل يليق بصديق غنى أن ييخل بالرفد المالى على صديق نكب ، وهو يعرف كذلك أن صديقه نكب فى سبيل الله ، وبسبب عداوته للاستعمار الذى يظلمه هو أيضاً ، ويستعبد وطنه ويذل أهله وأقاربه . فهذا الرجل لم يكتف بخذلانه لصديقه بل اتبع ذلك باختلاق حكاية تفتيش الدار والدكان لئلين عليه أيضاً ويظهر أمام الناس بمظهر الشهيد !

وأصدقاء غيره

إن نكبة الاستعمار لى بالقبض والحبس وماتلاه من بلاء لم يكن بالشئ الوحيد الذى نكبت به، بل نكبت أيضا بفقد أصدقاء أعزاء لاعداد لهم، لأن الشدائد كشفت عن خلائقهم وأظهرت معدنهم الحقيقى فكانت فاجعتى بضاياعهم عظيمة، وأعظم من فقدهم بالموت. فليتهم ماتوا أوليتنى مت وفارقت هذه الدنيا حتى لا أفجع بهم وأرزح تحت ألم موتهم المعنوى . وسيرى قرائى فى هذا الكتاب من حوادث خذلان الأصدقاء ولوم بعض الناس أكثر مما قرأوا !
لقد كنت أتا لم منهم ولا أزال إلى اليوم أتألم وأشعر بالأسى والأسف على العمر الذى أضعته خدمتهم والإخلاص لهم ، فلم يبادلونى إخلاصا بإخلاص ولا وداداً بوداد .

الصدقات العالية

إنها هى التى رأيتها فى أيام المحنة ونعمت بها إلى جانب ذلك العذاب الأليم ، وإنى أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الدكتور مصطفى بك البشناق الذى خصص نفسه وماله فى مساعدتى وآل يتي فى أيام السجن والحرب والاختفاء . وقد رأى القارىء فى خلال هذه المذكرات كيف وقف معى وكيف كان المحلى فى مواساتنا ، وكان يعرض نفسه للخطر من أجلنا ، فكان جريئاً شجاعاً نجادا وكان لا ييخل بمال ولا يبالى بالأخطار ، فلولاه ما استطعت مواصلة الاختفاء من وجه الإنكليز .

وهناك الصديق الكبير أحمد حلمى باشا الذى لم يدع وسيلة للإفراج عني إلا سلكها ، ولا يخل بمال من أجلى ، وكان على دين مستحق للبنك الزراعى فى فلسطين فكان يسدد فوائده من ماله الخاص ، ثم يكتب لى بأنه سدد من رصيد لى وجده فى حسابات البنك ! كان يقول ذلك حتى لا يمين على ولا يجرح إحساساتى ، كما أمدنى بالكثير من ماله الشخصى ثم جعل إدارة البنك الذى سمي بعد ذلك ببنك « الأمة العربية » توقف سريان الفوائد على الدين حتى لا يستغرق وفوائده « ييارقى » الصغيرة فى وادى حنين بفلسطين المرهونة عند البنك ، فلو كانت مرهونة ببنك عبد الحميد شومان مثلاً لباعها بالمزاد أو كان يأخذها لابنه العزيز ...

السيد الجفرى

وجاء مصر فى تلك الأيام من بلاد «الحج» فى جنوب اليمن صديق السيد عبد الله بن علوى



السيد عبد الله الجفرى
وهو الآن مستشار لسلطان الحج

الجفرى، سيد تلك الجهات ووجهها فى النبل والشرف، لا بالغنى والثروة، لأنه ليس من الأغنياء الكبار، بل من أغنياء النفوس الكبار، فهذا الأخ بحث عني لما جاء مصر، وبادر إلى بيتي وقدم لي خمسمئة جنيه مصرى قرضاً حسناً لأنفق منه إلى أن تنتهى الحرب، وإن احتجت إلى أكثر تقدم بأكثر، وقد قال لي وهو يقدم لي ماله بخفر وحياء «أنت الآن بلا عمل وخارج من مصيبة، كما أن الحرب قد تطول، فالأمة العربية يجب عليها أن تعينك لأنك نكبت في سبيلها ولو أردت الدنيا لما حبست ولا نكبت ولكان المال يجرى تحت قدميك»، وهكذا فإن السيد الجفرى

قد جمع في كلامه وماله بين مكرمتين، كرم الفعل وكرم القول.

وكذلك ابن عمي وصديقي الدكتور حسنى الطاهر فإنه لما درى وهو فى الحجاز بحبسى عرض على كل ماله وأنا محبوس، ولما عرف بالإفراج عني هنأني من مكة برقية وأحب تهنئته بقرض حسن بلغ أربعمئة جنيه، ولو طلبت المزيد لأرسل أضعافه.

وأظن القراء يتذكرون كيف ان الدكتور حافظ باشا عفيفي قد عرض على أهل بيتي حين كنت فى السجن ما يحتاجون من مال، وبعث لي مع الدكتور مصطفى بك البشناق وأنا هارب بأنه مستعد لإرسال كل ما أحتاج إليه. وأنطون باشا الجميل قدم لي يوم لقيني عند النحاس باشا برئاسة مجلس الوزراء جميع ما كان فى حافظته من مال، وكان قبل ذلك يذهب إلى وزارة الداخلية يسأل عن حالى ويريد الإذن من الحكومة بتقديم كل ما أحتاج إليه.

وهكذا فإن تلك الشدائد قد كشفت عن معدن بعض الرجال، فأين الذين هرعوا إلى بأنفسهم وأموالهم، من الذين بخلوا بالتحية بعد صداقة العمر ومودة الدهر!

إذن فقد كنت وأنا أتألم من الإنكليز وما أنزلوه بي من تنكيل ، كنت أتألم أيضاً من بعض الأصدقاء . ولكن الألم من هؤلاء كان أكثر تبريحاً وأشد إيلاماً . ومما كان يزيد في الحسرة والكمد أن هذه المنغصات كانت تصدر من أعز الناس ، وكانت تصدر وأنا مقيد مكبول ، مكسور القلم محبوس اللسان ، ولكن كان يخفف عني أن الناس في كل الدنيا هم هم في كل عصر ومصر ، النفسية هي هي والسجايا لا تتغير !

سوء الحظ

بلغني بعد الإفراج عني بمدة طويلة الحادث الآتي الذي أدونه هنا تسجيلاً لفضل صديق كريم وفيّ سيظل اسمه مجهولاً عند الناس بسبب ظروفه الرسمية ، ولكن فضله سيبقى معروفاً عند الله برغم كل قيد ...

وحكاية ذلك أن صديقي - وهو موظف في الحكومة - كان في إحدى الساعات قبيل القبض علىّ عند مدير مكتب رئيس الوزراء - وكان المدير يسمى أحمد صديق بك - والآن أحمد صديق باشا - وهو من كبار الماسونيين ومتزوج من يهودية ، فسمع صديقي محادثة تليفونية تجري بين صديق بك وبين حمدي محبوب وكيل الداخلية القابض على الأمن العام حينذاك يقول فيها حمدي باشا لمدير مكتب الرئيس : جاءنا أمر من السلطة العسكرية البريطانية بحجز شخص اسمه محمد علي الطاهر فهل يهمكم أمره؟ فقال مدير المكتب لا ! فاكتمني حمدي بهذه الكلمة ثم وضع السماعة معتبراً هذه المحادثة إذناً من رئيس الوزراء بالقبض علىّ ... أليس انه قبل تنفيذ أمر الإنكليز قد كلم فيه مدير مكتب رئيس الوزراء ...

أما صديقي الذي سمع هذه المحادثة عرضاً فإنه بادر إلى الهجاء لمكتبي ليحذرنى مما بييت لي فوجد المكتب مغلقاً ، فسأل البوابين عني ، فقالوا له إنني مسافر .. فعاد صديقي أدراجه وهو يعتقد انني شعرت بالمكيدة قبل ذلك واني تواريت عن الأنظار .

فلما قص على صديقي هذه الحكاية بعد زوال المحنة وهو يستغرب سرعة وقوعي بعد ذلك في قبضتهم ، أخبرته بما يتم قصته ، وهو أنني لم أكن أدري بشيء مما يبتوا لي ، وأنني ذهبت في ذلك اليوم إلى رأس البر أنتجع هواءاً رطباً وجوّاً غير جو القاهرة وأنني لم أجد هناك

ما أبتغى فعدت من حيث أتيت . إذن فلولا غيابي في ذلك اليوم عن القاهرة لعرفت بما نواه الإنكليز قبل أن ينفذه محبوبهم حمدي ، وكنت بلا شك أغادر القاهرة فوراً ، بل كنت أستطيع مغادرة البلاد بكل سهولة ، لأن قيود السفر لم تكن شديدة أيامها بالقدر الذي صارت إليه بعد ذلك .

أخبار الحرب وانكسار الألمان

تحولت الحرب بعد معركة « ستالينغراد » وأخذت جيوش الألمان تتراجع وتنكش ، وسارت جيوش الروس من نصر إلى نصر ، فانتعشت انكساراً بفضل أميركا ، واستأسدت هولندا . وتنمرت فرنسا ، وصرنا نسمع صوتها الكريه وشقشقتها المعتادة ...

وتم انكسار الطليان واستسلامهم بعد أن غدروا يزعيمهم موسوليني وأصبحوا يشتمونه بعد أن كانوا يعبدونه ، فبرهنوا على حطة لا يمكن أن تكون عند أحط الأمم .

بل إن الطليان قد أعلنوا الحرب بعد ذلك على ألمانيا ! ولا عجب فسوابق الطليان في الغدر والانتقال على حليفهم ألمانيا معروفة ، أليس أنهم في الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ قد خذلوها ثم انقلبوا عليها وحاربوها ؟

لقد كان من سوء حظ الألمان أن تكون إيطاليا حليفهم ، لأنه ما كسرهم في الحربين إلا محالفهم للطليان ...

وبعد انكسار إيطاليا ألقى الأميركيون القنابل الذرية على اليابان فدمروا مدينتي « هيروشيما » و « ناجازاكي » تدميراً تاماً وهلك جميع سكانهما فلم يسع اليابان إلا الاستسلام .

وبقيت ألمانيا تقاوم ، ولم تستسلم إلا بعد أن قتل فيها كل رجل قادر على حمل السلاح ، وبعد أن دمرت جميع مدنها ، وبعد أن انتحر زعيمها العجيب الفذ « هتلر » حتى لا يقع بأيدي الأعداء ، وستكون ميته على هذه الصورة الكريمة مبعث حياة وشرف لألمانيا أبد الدهر .

وكان لانكسار ألمانيا صدى حزن عميق طبق أرجاء العالم وهز الدنيا كلها ، أسفا على أمة متقدمة لم تر الدنيا مثلها منذ خلق الإنسان ، وحزناً على شعب باسل كريم أصيل وقع في أيدي أعداء على أعظم درجة من النذالة والضعفة ، فقد انتقموا من الشعب الألماني شر انتقام ، فاحتلوا بلاده ومزقوها على وجه خبيث رهيب ، وبرحوا بأبطاله ورجالاته على وجه خسيس

لثيم . وغدروا بمارشالاته وجنرالاته وصناديده وقتلوه شتقاً وخنقاً . وهو عمل دنيء لم يسمع التاريخ بمثله من دولة منتصرة مع دولة مقهورة . ولم يكتف الإنكليز والحلفاء بهذا الانتقام الوحشي المجرد من الإنسانية والشهامة بل جردوا الشعب الألماني من أمواله ومنقولاته ومحصولاته ، ونقلوا المصانع الألمانية إلى روسيا وإنجلترا وفرنسا ، ولم يتركوا تلك الأمة إلا معروقة العظم ، عارية جائعة لا تجد المأوى إلا في الخرائب وبين الأطلال . والويل للكريم إن وقع في يد اللثيم .

أما أنا شخصياً فقد وقع انتصار الحلفاء على وقع الصاعقة ، وكدت أصاب بنقطة تقضي على حياتي ، وأخذت أضرب كفاً بكف يأساً وكهداً ، لأنني أفهم من معاني انتصار الإنكليز أشياء كثيرة ، ويكفي منها بقاء الاستعمار في الدنيا على صورته البشعة وأساليبه المروعة ، فالإنكليز سيقفون في مصر والهند وفلسطين والعراق والأردن والملايو وعدن وزنجبار وطرابلس وبرقة وحضر موت ومسقط وجميع إمارات الخليج وبقية المستعمرات ، ويساعدون فرنسا على البقاء في المغرب ، ويساعدون هولندا في أندونيسيا ، وستصير فلسطين طعمة لليهود . والويل للعالم العربي من إنجلترا ، والويل للأمم الضعيفة مادامت هذه الدولة موجودة في الدنيا ، فهي أم الاستعمار وبؤرة العدوان ، ومثار الحروب ، فمنها تنبعث المشاكل التي تنغص هناء العالم وتقض مضاجع الأمم وتهدد أمنها ، فمن إنجلترا تصدر المؤامرات وتبذر بذور الحرب في جميع أنحاء الأرض . والويل منهم لسكان هذه الأرض .

من أخبار الظالمين والمظلومين

من أوقع ما قرأت من إهانة الظالمين وشماتة المظلومين ، أن الوليد بن عبد الملك أمر عمر ابن عبد العزيز واليه على الحجاز بأن يوقف هشام بن إسماعيل الوالي السابق وينادي في الناس أن يمروا به ويذكروا شكاياتهم منه ، لأنه كان مؤذياً لآل البيت وخصوصاً علي بن الحسين وآله من بني الرسول ، فلما مر به علي نظر إليه ولم يكلمه ولا ذكر ظلمه له ولا وبخه ، بل تفرس فيه ومضى في طريقه . فلم يسع ذلك الظالم بعد أن صغرت نفسه إلا أن ينادي ضحيته قائلاً : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » . قالها ذلك الظالم لأن ترفع حفيد النبي عن الانتقام جعله يذوب ندماً وحسرة .

رياض الصلح

استقلال سورية ولبنان

كان ضغط حالة الحرب على الحلفاء وخوفهم من ثورات تهب عليهم في الشرق الأوسط ، قد حملهم على إعادة النظر في حالة هذه النواحي ، فجعلوا فرنسا ترضى بإنشاء حكم في سورية ولبنان يرضى عنه الأهالي .

وقد جرت انتخابات حرة أسفرت عن فوز الوطنيين وكتل المجاهدين ، ففاز صديق وأخي شكري القوتلي وجماعته في دمشق وانتخب رئيساً للجمهورية السورية ، وفاز الشيخ بشارة الخوري وجماعته في لبنان فانتخب رئيساً للجمهورية اللبنانية ، وتعين أخي وصديق الحميم رياض الصلح رئيساً للوزارة .

أخي رياض

كان وقع أبناء نجاح لبنان بنيل استقلاله في نفسى غير وقعه في نفوس الناس جميعاً فهؤلاء فرحوا باستقلال لبنان فقط ، وأما أنا فقد فرحت بذلك وزدت عليهم بأنه نجاح لجهاد صديقي وأخي رياض بك الصلح الذي أصبح رئيساً للوزارة اللبنانية .

هذا أخ وحبيب وصديق العمر وزميل الجهاد قد أصبح رئيساً للوزارة ، فياله من حادث نادر عظيم ، وأى حادث أعظم وأجل من أن أعيش وأرى أخاً وحبيباً يكافئه الله على جهاده وينيله مبتغاه ، ثم يصبح حاكماً على وطنه المستقل بعد أن كان طريداً في سبيله ، مشرداً عن مسقط رأسه . وكان ذلك الوطن مستعبداً معذباً فأصبح عزيزاً مستقلاً . يالفرحى ويالطربى . ويا لزوال أيام اضطرابى وقلقى ، ويا لإعترازى بأخي رياض « صاحب الدولة اليوم » بعد أن كان الافرنسيون يقولون عنه « المدعو فلان » فكنت أغضب منهم وأكيل لهم ، وقد بادرت بإرسال التهنئة إليه مع أحد الأصدقاء . ودارت الأيام وقالوا إن « حضرة صاحب الدولة رياض بك الصلح رئيس الوزارة » سيجىء إلى مصر لزيارتها وتقديم الشكر لجلالة الملك فاروق على موقفه العظيم في نصرته لبنان يوم اعتدت فرنسا عليه وحجبت رئيس الجمهورية ورياض معه فازداد فرحى .

إذن فرياض سيتهج ويرقص يوم يلقانى وألقاه ، وسنستعيد ذكريات الماضى ، حين كان

يجيء إلى دكاني سنة ١٩٢٠ بخان الخليلي وأنا كل الفول المدمس والطعمية ، وسنضحك كثيراً عند ما نذكر أيام « إدارة الشورى في شارع عبد العزيز » ونستعرض ما كان يدور بيننا من رسائل وهو في باريس وجنيف ولندن ، ونتحدث عن أيامنا الخوالي في بيروت والاسكندرية والقدس والقاهرة ...

برنيطة وزير الخارجية وعجائز بوشنج

وزارني في داري الدكتور عبدالله اليافي بك رئيس وزارة لبنان الأسبق وكان يزور القاهرة، فقال إني عائد غداً إلى لبنان فإذا تريد أن تقول لرياض ؟ فقلت سلم عليه وقل له أن يوصي وزير خارجية لبنان بأن لا يجيء إلى مصر بالبرنيطة ! فضحك وقال ثم ماذا ؟ فقلت وأن لا يتوقع رياض وجودي في المحطة يوم وصوله لأنه سيستقبل رسمياً بواسطة الحكومة فلا أستطيع في ظروف الحاضرة أن أغشى المجتمعات الرسمية أو الاتصال بالرجال السياسيين القادمين من الخارج ما دامت الأحكام العرفية واقفة لي بالمرصاد ، ثم قلت : وماذا على رياض ان تقصت أنا من بين المستقبلين وهم ألوف ، فيكفيه أنني كنت أستقبله بالأمس يوم كان منكوبا وكان أصحاب الحكم يطاردونه أو يبتعدون عنه ولا يردون زيارته إن زارهم ، بل ويمتنعون أحيانا عن مقابلته، فيكفيه سرورا أن يدخل القاهرة الآن بموكب رسمي بعد أن كان يدخلها كالبازي عليه سواد... وعلى كل حال فإني سأقف في شارع ابراهيم باشا بين الجماهير لأتفرج على موكبه الرسمي وسأنوب عن عجائز بوشنج ^(١) في ذلك اليوم وأصفق له ...

وصول رياض لمصر

ولما دخل رياض القاهرة في موكبه الرسمي المشهود كان يجيل نظره في وجوه الألوف إلى أن رأى فديده من نافذة السيارة ولوح لي بها ولسان حاله يقول « لقد قفشتك » من بين الألوف ...

(١) لما فتح عبد الله بن طاهر بلاد خراسان ودخلها بموكبه المنتصر أخذه الزهو والفرح فتذكر قرينته « بوشنج » وكان قد خرج منها طفلاً فقيراً، فتمنى وهو في موكبه لو رآته عجائزها وهو في ذلك العز فقال كلمته الخالدة « ليت عجائز بوشنج يربنني » وكان رياض بك يحب هذه الواقعة ويذكرها في أحاديثه ورسائله، ولذلك كلفت الدكتور اليافي بك أن يذكرها لرياض فهي نكتة لطيفة وقد آن أوانها ...

وفي اليوم الثاني كلفت صديق الدكتور مصطفى بك البشناق بأن يذهب إلى قصر الزعفران حيث نزل رياض ضيفا على الحكومة ، وأن يئنه أشواق وأن يطلب منه موعداً أنتظره فيه إما بمنزلى أو فى أى مكان آخر ، بشرط ألا يكون قصر الزعفران الحكومى الرسمى ، فقال رياض إنه لا يستطيع اليوم تحديد الوقت ولا تعيين المكان بسبب انشغاله الآن بالمراسم الرسمية ، ولكنه بعد يومين سيعين الزمان والمكان . ومضى أسبوع ، فكلفت ابن عم لرياض بأن يسأله : فجاءنى يقول مهلاً فالحفلات كثيرة والوقت ضيق ...

ومضى أسبوع آخر ورياض « هايس » يزور من كانوا يترفعون عن استقباله ، ويلبى دعوات من كانوا يتجاهلون وجوده ويأبون رد زيارته ، ولكنهم أقبلوا عليه اليوم لأنه أصبح « صاحب دولة » ولكونه ضيف الملك . وهذه عادة الناس مع الناس منذ الأزل ، يقبلون على من تقبل الدنيا عليه ويدبرون عمن تدبر عنه .

ومضى أسبوع ثالث ورياض مسرور سعيد يتقلب فى حفلات الترحيب والتكريم فى الأندية والكازينات والسرايات والقصور ، ويوزر إدارات الصحف وأرباب الوجاهات وغير هؤلاء ...

فكنت أقول لابن عمه: ولكن متى نرى رياض بك ؟ فيذهب يسأله ثم يعود ويقول مهلاً ولا بد أن يراك فهو مشتاق أكثر من شوقك إليه ...

ثم كتبت إليه رسالة أرسلتها مع صديق الدكتور بشناق بك قلت له فيها إن انتظارى قد طال ، وشوقى يشتد ، وذكرت له بيتا من الشعر كان رياض يحبه ويكتبه لى فى رسائله كلما فكر فى الحىء إلى مصر ، أو كان قريباً من مصر ...

وأكثر ما يكون الشوق عندى إذا دنت الخيام من الخيام

وكتبت لرياض: إن ابن عمك أبلغنى دعابة لطيفة عنك وهى أنك « تهددنى » بالحقىء إلى دارى بالسيارة الرسمية وأمامها البوليس يفسح لها الطريق بالنفخ فى الصفارات لتلفت إلى الزيارة أنظار الناس ، فليتك تفعل ليتك تفعل ، لأن مثل هذه الزيارة تكون مشرفة لى وهى فى هذه الظروف ترفع من قدرى ...

وماذا في هذا ، إن رياض قد ذهب بالسيارة الرسمية وبالصفارات إلى دار توفيق مفرج الذي لم يكن صديقه بل كان يكرهه ، وكان رأيته فيه غير مجهول ، فلم لا يجيء عندي أنا بمئة صفاة ؟ ولكن رياض شم رائحة صداقة - أو توهم أن هناك صداقة بين مفرج ورئيس الحكومة فهرع إلى دار مفرج ، لينفعه عند رئيس الحكومة ...

ولكن نظريته لم تصب ، لأن تلك الزيارة جلبت عليه أنواع القيل والقال ، وجعلت توفيق مفرج يطمع في منصب الوزير المفوض للبنان في مصر ، فوسط أناساً أخرجوا رياض بك وهو يرفض ، وكادت تقع بسبب تلك الزيارة أزمة بين مصر ولبنان^(١) .

انتظار !

عاد الدكتور مصطفى بك يقول لي : إن رياض يسلم عليك وسيزورك الليلة في دارك ، فلا تترحمها من بعد العصر وانتظره ولو إلى منتصف الليل ، لأنه سيغتنم فرصة في أثناء ذلك ويأتي إليك مع أحد أبناء عمه الذين يعرفون الدار ، وقد أخذ رياض مع ذلك عنوانك من قبيل الاحتياط ، فكان فرحى بهذا الموعد عظيماً . وأمضيت ثمانى ساعات وأنا أنتظر ، وكلما دق أحد جرس الباب ظننته رياض بك فأركض وأفتح الباب بنفسى ، ولكنه ليس هو فأعود إلى الانتظار ... وكنت في خلال ذلك أجهز في ذهني المواضيع التي سنتكلم عنها ، فأسأله عن الأمير شكيب وأخباره ، ويسألني عن حالي في أيام الحرب ، وأبسط له قضية فلسطين ورأى في إنقاذها واقتراحاتي العاجلة في إسعافها . وكنت أقول في نفسى : إن رياض سيسألني عن حالى المالية ، فأقول له إن علاجها بإيجاد عمل أقوم به في لبنان ، فيقول لي هيا إلى لبنان ، وإن لم تقم بعمل رتب لك الحكومة الوطنية مرتباً شهرياً إلى أن تنتهى الحرب ثم تصدر جريدتك ، فأعذر له عن قبول المرتب كما اعتذرت للحكومة المصرية منذ شهور ،

(١) ثم وقعت الأزمة فعلاً واشتدت ، وخلاصة ذلك أن توفيق مفرج حظى بصداقة وثقة من النحاس باشا فدفعه الطمع إلى توسط الباشا عند رياض ليعينه وزيراً مفوضاً للبنان في مصر بحجة أنه لبنانى ! فأخذ النحاس باشا بظاهر كلامه وتوسط ، ولكن رياض أخذ يماطل وهو لا يستطيع أن يذكر السبب ، ولكن توفيق برهن على أن رياض كان متعنّاً في مطاله بدليل أنه زاره في داره ، ولولا لياقته لمنصب الوزير لما زاره .

فيقول رياض : إذن فهناك مثلاً هذه الألف جنيه دعها معك تنفق منها إلى أن تنتظم أحوالك ، فأشكره وأقول له بل معي الآن خمسمئة أقرضني إياها السيد عبدالله الجفري ، كما أن صديقك ابن عمي الدكتور حسني قد أرسل لي أربعمئة جنيه ، فيقول رياض بل أنا أولى وأعتق في الصداقة والزمانة ، فأقول له شكراً ، فأنا بخير ...

و كنت أتصور أخي رياض يدق الباب فأفتح له وأعاقه ويعانقني ، ثم يبكي سروراً وأنا أبكي حبوراً ، ولم لا ؟ إنه صديق الدهر وزميل النضال ، ولم يخطر لنا على بال أن الله سبحانه وتعالى سيطيل في أجلا لنرى جزءاً من الوطن العربي ينجو من الافرنسيين وأن يكون رياض رئيساً لأول حكومة مستقلة فيه . ثم تصورت أن رياض سيحجى إلى داري متأبطاً لعبة لابني « الحسن » أو علبة حلوى ، ويقول لي أين هو هذا الحسن الذي جاء بعد أن انتظرناه ربع قرن ، فأقول له إن عمره سنة واحدة ، وهو الآن نائم ، فيقول رياض لا بد من أن أراه ويجب إيقاظه ..

أمانى وآمال

ثم تصورت أن رياض سيقول : يجب على كل حال أن تحجى إلى لبنان لأعمل لك فيه ترضية تنسيك مطاردة فرنسا لك ، فتزورني في رئاسة الوزراء فأبعث لك عند الباب حرس الشرف « ليضرب لك سلام حازدور » فضحكت من هذه النكتة ، ثم قلت في نفسي ولم لا ؟ وأى غرابة فيه ، إن رياض يعرف أنني في أكتوبر ١٩٣٧ قد حجزت بالباخرة في ميناء بيروت وأنا ذاهب إلى مؤتمر بلودان ، ولما بلغ رياض الخبر أرسل لي إلى الباخرة ورقة يقول فيها : « إن عقله قد طار لما سمع أن أبا الحسن في مياه بيروت ومنع من النزول إلى المدينة » نعم لقد حصل ذلك ولا تزال ورقة رياض بخطه موجودة عندي ، ولولا أن الخبر وصل بالهاتفون إلى حكومة سورية فتوسطت لدى الكونت دي مارتل المندوب السامي لعدت في نفس الباخرة إلى الإسكندرية . وهناك حدث أكبر من هذا يسوغ لي أن أنتظر بسببه من رياض وهو رئيس وزارة أن يصف لي الجند على الميناء أيضاً وليس يباب دار الحكومة فقط ، وذلك انني ذهبت أصطاف بلبنان بعد ذلك بسنة ، وبالتحديد في سبتمبر ١٩٣٨ ، وبينما كان رياض يزورني بفندق شاهين ،

وكان عندي يومها خليل بك مطران أمير الشعراء وبهيج بك الجوهرى من أعيان صيدا - وهو ابن خال رياض - وإذا بيوليس الأمن العام يحىء إلى الفندق ومعه أمر من المفوضية الفرنسية العليا ببيروت بتكليف بالخروج من لبنان ، وقد حصلت مشادة بينى وبين السلطة الفرنسية ورفضت الخروج إلا بالقوة ، وكانت النتيجة أنهم أبعادوني عن لبنان بحضور رياض الذى انكسر خاطره أيضاً وهو يرى صديقه وضيف البلاد بل أحد أبنائها يبعد أمام عينه على تلك الصورة الاستعمارية الفظة القاهرة. إذن فهناك أسباب توجب على رياض أن يعوضنى عن تلك المطاردة ، ومن حقى أن لا أستغرب من الحكومة الوطنية أن ترضى خاطرى وتصف ثلة من الجند لتحيتى وهى مستقلة فى مقابل ثلة الجند التى مشت بى فى أيام الاحتلال إلى الميناء مطروداً من لبنان !

تحسين العسكرى وعزيز المصرى

ومضت ساعات ، ولكن رياض لم يحىء ولا إندق الباب ، فقلت فى نفسى ألا يجوز أن يكون رياض قد حسب حساباً لغضب الإنكليز إن هو زارنى ؟ ولكن لماذا يخشاهم وهو ليس تحت سلطانهم ، بل لنفرض أنه كذلك ، ونفرض أننى فى السجن أيضاً ، فمن واجب رياض أن يسأل عنى ، وأن يخاطب الإنكليز فى شأنى ويطلب الإفراج عنى ، وإذا كان الصديق لا يهتم بصديقه فى أيام الشدائد فحتى يهتم به إذن ؟ ومع ذلك فأنا لست مسجوناً ، ولكنى انزويت منعاً للقليل والقال ، ولنفرض أن الإنكليز يغضبون من هذه الزيارة ، فماذا فى هذا ؟ ألم أساعد رياض ضد فرنسا فى أيام كانت تتسلط فيها عليه وعلى لبنان ؟ ألم أزر رياضاً فى لبنان أمام عيون الإفرنسيين وكنت أعاديهم وأدافع عنه فى جريدتى فغضب الإفرنسيون وكرهونى ، فتارة كانوا يمنعونها من دخول لبنان ، وتارة كانوا يمنعوننى أنا ، وفى آخر مرة أخرجونى من لبنان بقوة بوليس الأمن سنة ١٩٣٨ وكان رياض يومها يزورنى فشهد الحادث بعينه ...

على أن الفارق غير قريب بين ظروفى وظروفه ، فهو الآن رئيس حكومة وله شخصية رسمية وسياسية ، فالإنكليز يستحون منه ويحاملونه ويخطبون وده ليكون معهم ضد فرنسا ..

أ كان يتخلى عني؟

ولكن ما هذه القياسات البعيدة عن الموضوع ، والتي لا يوجد تناسب بينها وبين ظروفنا الآن، بل لو فرضنا أن لبنان واقع تحت الحماية الإنكليزية وجاء أخى وحبيبي رياض « رئيس حكومة لبنان وضاحب الدولة » وسمع أنني في السجن البريطاني فمن الواجب أن يتوسط للإفراج عني ، وإن رفضوا طلبه كان عليه أن يطلب زيارتي فيها احتجاج لطيف على حبسي ، وإذا كان مثل صديقي وأخى رياض لا يصنع ذلك فمن أنتظر ذلك ؟ إن تحسبن بك العسكري لما كان وزيرا للداخلية العراقية قد زار مصر في أيام حبس بريطانيا لصديقه عزيز باشا المصري فتوسط لدى الإنكليز للإفراج عنه ، ولما تعذر ذلك طلب زيارته فلم تمنع السلطة الإنكليزية في تلك الزيارة التي تمت بدون أن يقع شيء في الدنيا يوقف دورة الفلك ! إذن فرياض لن يعدل عن زيارتي لأنني غير سجين ، وسيجيء لا محالة... ودقت الساعة اثنتي عشرة دقة مؤذنة بانتصاف الليل ، ولكن رياض لم يجيء ، ولم أسمع جرس الباب ولا النقر على الزجاج . بل إنني قد حسبت حساباً لا أكثر من ذلك ، إذ نهيت على البوابين وعامل المصعد بأن لا يبرحوا باب العماره وأن ينتظروا قادماً ، ولكن رياض لم يجيء ...

ودقت الساعة دقة واحدة مؤذنة بدخول اليوم التالي، وهدأت الشوارع وسكنت الحركة، ونامت الكائنات إلا أنا، فقد كنت ساهراً أترقب الصديق، فما كنت أسمع دوى محرك سيارة في الطريق إلا أطلت من الشرفة ، ولا سمعت ركزا إلا تطلعت من النافذة ..

ولكن أخى رياض لم يصل ، إذن فهو لن يجيء ، فقد أوشك الفجر أن ينشق عموده فمن المستحيل أن يجيء ...

قصيدة الأمير عادل أرسلان

وفي صباح اليوم الثاني تصورت أن رياض بك سيزورني مبكراً بدلا من زيارة المساء التي فاتته، وإنه سيعتذر لي ويطيب خاطري ويطلب أن يكون طعام الفطور عندي مثل الفطور الذي كنا نفطره قبل ربع قرن في دكانى القديمة «بخان الخليل» فأمرت الخادم بأن يجعل بين ألوان الفطور «طعمية وفولاً مدمسا» وأخذت أضحك من خواطر قديمة مرت بذهني في تلك اللحظة ، هي أيام تلك الدكان العجيبة التي كان يطرقها كل مجاهد وفاضل بمصر

وفي البلاد العربية ، إذ كان من زوارها المرحومون : رشيد بك طليع ، وأحمد زكي باشا ،
وفؤاد بك سليم ، والسيد عبد العزيز الثعالبي ، والشيخ محمد بن حيت المفتي الشهير ، وأحمد عزت
بك الأعظمي ، والشيخ علي سرور الزنكلوني ، والشيخ الطواهرى الأحمدي شيخ الأزهر
بعد ذلك والشيخ مصطفى باشا عبد الرازق شيخ الأزهر السابق والسيد التفتازاني . وكان
من زوار تلك الدكان من الأحياء نخامة السيد شكري القوتلي ، والحاج أمين الحسيني كلما جاء
مصر ، والأمير عادل أرسلان المجاهد « وزير سورية الآن في تركيا » والمجاهد نبيه بك العظيمة
وزيرة الحربية السورية بعد ذلك ومهدي رفيع مشكي بك وغيرهم ، وكان الأمير عادل يداعبني في
تلك الأيام بقصائده اللطيفة ويصف صحن الفتة وطبق المدمس إن قدمت أحدهما لمن يتأخر عندي
منهم ، ومن ذلك قصيدة الأمير عادل الشهيرة التي سارت مسير الشمس يوم قال من قصيدة طويلة ..

هذا أبو الحسن الذي في عرفه كل المكارم فتة أو فول
أضحى يجادل في القياس تدلاً إن الجدال على الدلال دليل
فيقول إن الفول وهو « محصل » خير من العنقاء وهو الغول
ويقول آخر إن آخر عهده باللحم يوم أتى الحمى زغالول
وقال الأمير في دعاة أخرى :

في بحر زيتك قد غرقنا وبليل حبك قد أرقنا
أسكرتنا بالفول حتى ما درينا هل أفقنا

سفر رياض بك

ولما طال انتظاري أفطرت ونزلت إلى المدينة ، فقرأت في صحف الصباح أن رياض سيسافر
اليوم ، فاندعشت وقلت هذا مستحيل ، لأن محيى رياض لمصر بعد إقامته فيها ثلاثة
أسابيع ثم لا يراني لما لا يصدقه أحد . فرياض كان يزور مصر من أجلي ، فكيف يجتمع بكل
الناس ويزور جميع الناس إلا أنا ، وكيف يطاوعه قلبه على ذلك لا ، لا . هذا مستحيل !

تأملات

كان رياض إذا عزم على زيارة مصر أو المرور بالمياه المصرية يكتب إليّ من جنيف أو

من باريس يخبرني بعزمه على السفر ويطلب مني أن أسافر إلى الإسكندرية لاستقبله ، فلا تصل الباخرة الميناء إلا وجدني على الرصيف ألوح له بيدي فيلوح لي بيديه الاثنتين ويضع إحداهما على فمه ويقبل باطن كفه، ثم يهز يده في الهواء كمن يبعث لي القبلة بواسطة الأثير؟! أليس أنه كان إذا اقترب من مصر كتب لي يبعث أشواقه ويصف لي فروغ صبره على البعاد بالبيتين اللذين أوردتها فيما سبق عن اشتداد الشوق إذا دنت الخيام من الخيام ؟ .

لا ، لا ، لا يمكن أن يبرح رياض مصر بدون أن يراني وأراه ، ومستحيل أن يكون جميع الناس حتى توفيق مفرج أعز عليه مني ، لأن هذا على الأقل لا يفكر في السفر إلى الإسكندرية أو الذهاب لمحلة مصر لاستقباله، ولا كتب رياض إليه ليستقبله في الميناء ، ولو كتب إليه لسخر منه وأعرض عنه، وإني أتذكر أننا كنا في إحدى الليالي نجلس على شرفة الكوت نتنتال بمصر قبل ٢٥ سنة وكان معنا الاستاذ إميل خوري الكاتب العالمي الشهير وبعض الأصحاب، وإذا برياض يقول « الخطر الخطر يا شباب ، انزعوا طرايشكم واخفضوا رؤوسكم ، وانظروا إلى الباب، واسكتوا إلى أن ينجلي السحاب » فزعنا الطرايش وخفضنا الرؤوس وتطلعنا إلى الباب صامتين ، خاشعين ! فإذا بتوفيق مفرج يدخل ولا يرانا ، ثم يمضي في طريقه .. فيهمس رياض بعد حمد الله يقول : إرفعوا رؤوسكم واستووا على عروشكم فقد زال الخطر وانفض المشكل ! فتبادر إلى رفع الرؤوس وإعادة الطرايش ونستوى جالسين باطمئنان ! فيقول رياض « يقصف عمره شو جابه هلاً » أي « قاتله الله ما الذي جاء به في هذه اللحظة » ثم يقول لو جاءنا توفيق لجلس معنا وأهلك جلدنا بأحاديثه وبلاغة مقالاته إلى الصباح ...

هكذا كان رياض ينظر إلى توفيق ، يتضجر منه ويتبرم به ويفر من مجلسه ، فكيف ينقلب الحال إلى حب وغرام في لحظة لدرجة أنه يفضل عليّ أنا ، ثم يجد وقتاً لزيارته في داره بموكبه الرسمي ولا يجد وقتاً للقائي ؟ .

إذن نخبر سفره لا أصل له ، ولا بد أن رياض سيرسل ابن عمه للاعتذار عن عدم مجيئه في الليلة الماضية والتوصية بأن انتظره مساء اليوم ...

ابن عمه !

وبعد الظهر عدت إلى منزلي لأتغدى وأستريح . وأنتظر مجيء من يقول لي إن رياض سيأتي الليلة مع الاعتذار عما سلف ...

ولكني ماكدت أدخل الدار حتى قيل لي إن تبقى الدين ابن عم رياض قد جاء الآن في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر يقول إن رياض سيسافر في الساعة الثانية - أي بعد نصف ساعة ، وأنه يجب أن أهرول إلى المحطة فوراً لأن رياض يريد أن يراني ...

يعني أن رياض لم يظهر رغبة « صادقة » برؤيتي إلا الآن وقبيل سفره بنصف ساعة ، على فرض أنني كنت في الدار وتلقيت الأمر قبل سفره بنصف الساعة ... يعني أن ثلاثة أسابيع كانت غير كافية لإبداء هذه الرغبة ...

كل شيء فهمته واحتملته ، إلا إرسال ابن عمه على تلك الصورة التي لا أدري كيف أسميها ! عند ذلك فهمت غرض رياض من كل ما جرى ، فجلست عند المائدة وتناولت طعام الغداء ولا أدري كيف تناولته ، ثم استرحت وأنا غير مصدق مطلقاً أن أخي الحبيب رياض يعملها ، لأن علاقتنا كانت أوثق وأكثر مما يخطر على البال ولكن جرائد المساء أيدت الخبر ونشرت نبأ سفر رياض ووصفت وداعه وكيف أنه كان هناك في المحطة فلان باشا وعلان بك وثلة من رجال الشرطة ...

تعزية .

كان وقع سفر رياض بك في نفسي أليماً وموجعاً وكدت لا أصدق ، ولكن الرجل سافر فعلاً وترك الخيام تبعد عن الخيام بدون لقاء ، بعد أن جعل خيامه تلتقي بخيام ما كان أمره بهم أهلها ، وما كان في حياته يشق إلى من فيها ولا اشتاق من فيها إليه ...

ودق جرس الباب فأسرعت إليه بنفسى على أمل أن يكون رياض هو الطارق ، فإذا به ابن عمه الآخر كاظم بك « الذي أصبح عند كتابة هذه السطور وزيراً مفوضاً للبنان في العراق » فوجئت وصدقت بوقتها أن رياض قد سافر بعد أن كنت أظن أن سفره بدون أن يراني من المستحيلات ، فرددت في نفسي قول الرصافي :

ما لهم يرحلون عني انتراحا - أجد براحمهم أم مزاح !

ولكنه جد لا مزاح فيه ، ودخل كاظم بك يقول : يسلم عليك رياض ويعتذر لك عن
عدم استطاعته الاجتماع بك قبل سفره لأنه لم يجد فرصة تمكنه من ذلك ...
فقلت له بل أنت آت الآن لتعزيني رياض لأنه بعد فعلته هذه وخيائته لودادى وصداقتى
قد انتهى ! فأنا لذلك أعتبر زيارتك لى زيارة تعزية به أشكرك عليها ، لأن المصاب يفقد
رياض ليس بالمصاب القليل . رحمه الله !

وسكت كاظم بك واجماً ، لأنه ما كان يجد فى نفسه جملة واحدة تصلح لمداواة فعلة رياض ، لأنه
كان يعرف ما كان بينى وبين ابن عمه من صلات هى أشد من صلة الأخ بالأخ والشقيق بالشقيق
فتذكرت بيتين لشاعر قديم ولا أدرى كيف خطرا على بالى :

ونحن ضممناكم « صغاراً » أذلة وليس لكم من سائر الناس ناصر
ضممناكم لا نبتغى نصرة بكم كما ضمت الساق الكسير الجبائر

حزن

كانت فجيعتى بضياى هذا الصديق الأخ عظيمة بلا شك ، فقد ذهلت وأصابنى ما يصيب
الشقيق عندما يباغت بفقد شقيقه ، نعم إن حزنى لسفر رياض كان شديداً ، وصرت أبحث
عن شىء يخفف من آلامى النفسية فلم أجده ، وتذكرت الشاعر التركى رجائى زاده أكرم
بك ، وكيف كان يتعزى عن فقد وحيد « نجاد » بأسطوانة كان قد سجل عليها صوت
ابنه الوحيد فيديرها على آلة الفنغراف ويتعزى بعزفها فيسمع صوت ابنه ثم يردد قصيدة فى
رثائه يقول فى مطلعها « آه نجاد فنغرافده سسك وار » وترجمتها آه يا نجاد لم يبق سوى صدى
صوتك فى الفنغراف ! ولكن رياض لم يترك لى صوته لحسن الحظ ...

الآثار والمخلفات ...

ولم أجده ما يخفف عنى إلا البحث عن مخلفات رياض وآثاره ، كما يبحث المرزوء بعزير
وحيد عن مخلفات فقيده ليتعزى بعض العزاء ، ففتحت ملفاً قديماً يحتوى على عشرات من
مكاتيب رياض لى ، فأخذت أقرأ فيها ما كان يكتب لى به قبل ربع قرن من رسائل لأنه
كان يحببني كما أحبه ، ويعتمد على أكثر مما كنت أعتمد عليه ، فتأملت تلك الرسائل التى

تحمل صفحة من الماضي ، فأحببت أن أشرك القراء في الاطلاع على بعض ما فيها ليقدروا فداحة فجيعتي ويعذروني وهم يرون جزعي الشديد على رياض ، وكان بعض هذه الرسائل من عشر سنين وبعضها من خمس عشرة سنة وبعضها منذ ربع قرن .

كيف كان رياض بالأمس ؟

هذه رسالة منه أرسلها لي من بيروت في ١٧ فبراير ١٩٢٥ يقول في صدرها : « أخي محمد علي حياك الله وبياك » ، ثم يقول في خلالها « أما الجماعة فإنها تمثل رهطاً من المفلسين يرأسهم رهط مثلهم ... رعى الله خان الخليلي ورعى الله عهداً هو عهد الفول وحبذا الفول في ذاك الموطن القومي العربي » .

ووجدت في رسالة بعد ذلك بأسبوع يقول فيها بعد أن لقيني بيا « سيدى الأخ » « الشورى وصل منها عددان وقد نجحت طريقتك في تهريبها وأرجو أن لا تنقطع عنا » . وفي رسالة بعد ذلك بأسابيع كتب يقول وهو في دمشق : « أخي حياك الله وبياك ، واخجل منك يا أبا الحسن والمجد لله على لطفك ومروءتك وكرم أخلاقك وقد كدت أذوب خجلاً من نفسي ، نعم أن الشورى منقطعة عني لكنني أطلع في جرائد فلسطين أشياء من تلك النفثات الطاهرية الخ ، ثم يقول في النهاية إنه يرجو أن يتمكن الظروف « من زيارة المقر الطاهري في القاهرة والتمتع بذلك الحديث الشهى على مائدة الفول » وإنه يكتبني بعطف القلبى ...

أشواق من أوربا ... والمدمس !

وقال رياض في بطاقة مصورة من باريس بإمضائه وإمضاء الأستاذ إميل خورى بتاريخ ٢٤ فبراير سنة ١٩٢٦ « لعينيك يا صاحب الشورى ! لقد جمعنا هذا البلد وكلانا فيه كعيسى بين اليهود ، فتذكرنا أياماً كنا نجتاز فيها الأحياء البلدية في القاهرة لنجتمع بك في عرينك ونأكل الفول ، تلك أيام لن تزول ذكرها وسيعيدها الله علينا وعليك في هذا الشتاء ، ومرحى للشورى ويد الله مع الجماعة » .

ورسالة أخرى من جنيف تاريخها ٢٢ مارس ١٩٢٦ يقول بإمضائه وإمضاء الأستاذ إميل خورى :

« وقد حججنا إلى لوزان مقر سيد الكتاب وأمير البيان الأمير شكيب أرسلان ثم جئنا إلى جنيف ، حيث السوق الكبرى وقد تضاءل نفوذ عصبة الأمم حتى أصبحت سوقاً على حد تعبير الأمير شكيب ، ويشهد الله أننا ذكرناك وذكرك في كل جلسة وكل اجتماع وقد تألنا لمرض عينيك - كانت العيون كلها فداء عينيك !

وفي رسالة من جنيف بتاريخ ٨ نوفمبر ١٩٢٦ يقول بعد أن لقيني بالأخ الأعز : تلقيت الآن كتابك وشعرت بريح الفول المدمس يتصاعد من القدرة التي قلت إنك أوصيت لي عليها ... ثم يقول في مكان آخر : أرجوك أن تدفع عني لفلان ستة جنيهات ... أنت أبو الهمم وأنا واثق بأنك ستقترض المبلغ إن لم يكن لديك وتدفعه فوراً وأن ألتقي برقية منك تقول إنك دفعت ، وسأعيد إليك المبلغ الخ الخ

كنت أخى الديار

وفي رسالة تاريخها ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٢٦ من جنيف يقول فيها : الشورى في يمنى أطالها بتلك الصبابة التي نوه بها الشاعر ، وذاك الشوق الذي لا يعرفه إلا من كابد حرارة انتظارها من يريد إلى آخر ، وأما شمالي فهو بين يدي ابن عمك الدكتور حسنى الطاهر الذي تفضل بعيادتي عندما قيل له إنى عدت من باريس منحرف الصحة ، فبارك الله فيكم آل الطاهر ، لكم من اسمكم أكبر نصيب ، فنكم الم رابط في الثغور والعواصم يمنع الأهل ويحمى الديار ، ومنكم المجاهد في سبيل الله والعلم في مواطن العلاج ثم قال : يظهر أن الفرنسيين يأخى لم يفهمهم تشريدنا عن بلادنا ولا قيام الإنكليز بفلسطين بطردنا من القدس وعمان بل عمدوا الآن إلى حرماننا من أعز ملجأ لنا وإسكات صوتنا فقد طلبوا أيضاً من مصر إسكات اللجنة التنفيذية عندهم « وبعد كلام طويل رجاني فيه أن أسعى لدى نواب مصر ومع ثروت باشا وزير الخارجية الخ ثم ختم كتابه هكذا : وسأسرع بعد أسبوع لمغادرة أوروبا والعودة إليكم فإلى الملتقى يا أبا الحسن حول سلطانية من قول !

رياض ونسيب شهاب

وكتب لي رياض من جنيف في ٣٠ نوفمبر ١٩٢٦ كتاباً عن المجاهد السيد نسيب شهاب

بمناسبة زواجه إلى مصر بعد ثورة سورية ، يصف جهاده ويوصيني به ^(١) لأنهما من بلدة واحدة - صيدا - وهناك قرابة بينهما قال رياض : « من العار أن يترك شاب كنسب ضحى بكل ما يمكن تضحيته في سبيل بلاده واقترب من الموت مراراً وهو يحمل وسام التضحية والاستبسال في وجهه ، نعم من العار أن يهمل ، وأما أنت فأرجوك أن تتعهد السيد نسيب من حين لآخر بلطفك المعروف فتفرج كربه وتؤنس غربته ، وأما سر تفريح الكروب فأمر خاص بك » .

هل نرجع الأوطان

وفي رسالة من لوزان في ١٢ أغسطس ١٩٢٧ قال رياض « أخي أبا الحسن أحمد الله إليك سأغادر لوزان الآن إلى باريس ثم إلى لندن وسأكتب لك عن الأحوال ، وسنقدم تقريرنا لعصبة الأمم ثم نرسل ترجمته لقام الشورى العالى على الطريقة التي تعلمناها من الشورى وسنخذها دستوراً دائماً وأبداً ، ثم يقول في النهاية : وإلى اللقاء الذي أكاد أظن فرحاً عندما أفكر فيه ، فقد كلت نفسي وأرى أن روحى قد ضاقت ، وأقبل عيونك ، وفقك الله ونفع بالشورى أخى »

ومن كتاب من لندن بإمضاء رياض وإمضاء الأستاذ إميل خورى يقولان فيه : تحية

(١) لقد مر ذكر نسيب شهاب في الصفحات السابقة - مراراً وتكراراً - وقد أصيب نسيب من رياض بصدمة لا مثيل لها ، لأنه بعد أن أزال الله فرنسا من سورية ولبنان ، رجع نسيب إلى وطنه بعد طول الغياب والجهاد والغربة ، ورياض على رأس حكومة لبنان ، فلما زاره نسيب في بيروت إذا برياض يتضايق منه ويتبرم به وينصحه بسكنى دمشق والحصول على الجنسية السورية ليتوظف هناك !! فلم يسمع نسيب إلا الرجوع أدراجه والعودة إلى مهجره في مصر ، قائلاً في نفسه إذا كان رياض مواطناً وقريباً يتنكر لي على هذه الصورة فكيف يكون الحال في سورية ؟!

ولكن حكومة سورية كانت وفية لنسيب فعينته بمنصب في السلك السياسى ، وهو الآن وأنا أكتب هذه السطور يشغل منصب القائم بأعمال الوزير المفوض للجمهورية السورية في مصر . فرياض الذى اقتطف ثمرة جهاد نسيب وأمثاله أخذ الآن يتنكر لهم ويحرمهم حتى من حقوقهم في وطنهم الذى سفكوا دمه من أجله ، وفي الحقيقة أن فاجعة نسيب برياض لا تقل عن خيعة بل تزيد عليها لأنى على كل حال لم أسفك دمي ولا أصبت بالسيف في وجهي ولا بالرصاص في جسمي كما أصيب نسيب وقد ذكر لي رياض في كتابه المتقدم أن نسيب « يحمل وسامه في وجهه » .

من بلد عبس جوها حتى انك ترانا ساعين في شوارعها كأننا شبجان ينسلان في ليل بهيم،
وكان ذكرك راحنا والحديث عنك طربنا ، هذه كلمة نبعث بها إليك رسول الشوق
والإخلاص الخ

وفي رسالة من باريس في ٣ أكتوبر ١٩٢٧ يقول عند وداعه لابن عمي الدكتور حسني
بمناسبة مغادرته فرنسا بعد أن تخرج من كلية الطب :

« أقدم إليك ابن عمك الدكتور حسني الطاهر ، أقدمه إليك على الصورة التي عرفته بها
خلق كريم وعلم غزير ، إلى شمائل غر ، أسرتني وأسرت كل من ساعده حسن الحظ على
التعرف على هذا الشاب المملوء حكمة وتعقلا ، وإني أودعه وأنا أرجو له مستقبلا زاهرا الخ
ذكرت هذه الكلمات عن ابن عمي لسبب سيرد ^(١) ، ثم ختم رياض بك كتابه هكذا :
والسلام عليك يا أبا الحسن ورحمة الله وأما البركات فقد سبقني الله إلى غمرك بها فهي تتوارد
عليك من بومباي إلى الخليج الفارسي إلى تونس ، فالريف فأمریکا ، فهنيئاً مريئاً لك يا أبا الحسن
هذه البركات المعنوية وإلى اللقاء قريباً في مصر »

وكتب رياض من بروكسل في ١١ ديسمبر سنة ١٩٢٧ يقول : « ... وسأعود الليلة إلى
باريس حيث أكن في تلك الغرزة ^(٢) التي ناوى إليها أنا والأخ إميل ونذكرك الخ
وختم رياض كتاباً أرسله لي من باريس في ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٢٧ يقول « والسلام
عليك وعلى الدكتور حسني من أخ مشتاق إليكما ولا يدرى متى يراكما ، يعني يا هل ترى
ترجع الأوطان أو نعيش العمر غرايب »

(١) إن الصداقة التي توثقت بين رياض بك والدكتور حسني الطاهر في جنيف ثم في باريس كانت أكثر من
عظيمة ، وكان حسني من أبر الناس به وأشد هم حباً له ، وكان يسند رياض في جميع المسائل والمشاكل في
باريس من أمور كتابية وسياسية حتى في مساعدته على الطلبة العرب الذين طالما ضجوا من رياض في باريس ،
وبعد ذلك بخمسة عشر عاماً من الدكتور حسني بيروت وهو يقصد الاصطيف مع قرينته في لبنان وكتبت
عنه الصحف مرحبة ولكن رياض بك لم يسأل عنه ولا بالتلفون ، وأبعد من هذا أنه التقى به عرضاً بمحل
نزوله بفندق سان جورج فلم يكلف رياض خاطره بأن يقول له كيف حالك ... ولا آتستبا يا فلان !

(٢) يقصد رياض « بالغرزة » قهوة ريجنس المشهورة التي كان رياض وإميل يجلسان فيها كلما جمعتهما

رياض يصفني بقامه

وفي أوائل سنة ١٩٢٨ أراد الإنجليز إبعادى عن مصر وإغلاق الشورى ، فبحثوا عن سبب فلم يجدوا فى تلك الأيام سوى «تهمة الانحياز إلى البلشفية»^(١) لأن موسم هياج الإنجليز يومها على البلاشفة كان حامياً ، فقامت عليهم ضجة جعلتهم يسكتون عني ويصرفون النظر عن الإبعاد

وبلغ صديق رياض هذا النبأ فكتب لى من باريس بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٢٨ يشير على بالقدوم إلى فرنسا قال :

أخى أبا الحسن : أهلاً وسهلاً بك ومرحباً ، ستأتى صحباً وتحمل رحباً ، أراك قادماً علينا ، لتستوى على عرشك فى « غرزننا » فأنت من ملوك القلوب ، سواء كنت كما تدعى السلطة المحتلة فى مصر « صعلوكا بلشفيا » أو كنت كما يعهدك الناس متمرداً على الاستعمار وطنياً . إلى أين يا أبا الحسن ستبعث بك السلطة البريطانية ؟ إلى فلسطين ، وشوراك فيها قذى العين وشجى الحلق ؟ أم إلى العراق الذى يمت إلى فلسطين بروابط من الاستعمار وثيقة ؟ أم إلى رحاب الأردن حيث « الاستقلال التام » مضروب الاطئاب مشدود الود ؟ أم إلى سورية وأنت شيطان الفرنسيين وقد هتكت سترهم وفضحت أمرهم ؟ أم إلى الهند وقد أصبح الداخل إليها بفضل الاستعمار مفقوداً والخارج إن قدر له الخروج مولوداً ؟ أم إلى الصين وقد غصت الصين بالقواد فلا محل فيها إلى قائد جديد ؟ !

ضاعت بلاد الشرق المستعمرة بك على رحبها ، فأنت فيها « كالشاه » أو « الرخ » فى رقعة الشطرنج لا تسمع فيها أينما توجهت وكيفما قصدت إلا كلمة كش ...

(١) إن تهمة النازية والفاشية لم تكن شائعة فى تلك الأيام وحيث ان « الحناقات » كانت حامية بين الإنكليز والروس فقط ، فكان الإنكليز فى تلك الأيام يتهمون حركة مصر الوطنية بالبلشفية والعمل لحساب روسيا ، وكذلك حركة فلسطين وحركة الهند وحركة سورية وكل حركة وطنية ضدهم هم وفرنسا ، أما قبل الحرب الأخيرة وبعبء فإن الإنكليز أصبحوا يتهمون خصومهم بالفاشية والنازية ويعدون الانتساب للبلشفية شرفاً .. بل انهم هم قد انحازوا للدولة البلشفية وطالما حبسوا من يطعن عليها .. ثم اقبلوا عليها مرة أخرى

ولكن اطمئن يا أبا الحسن لأن إدارة الأمن العام المصرية الإنكليزية ستضيق بك
ذرعاً ولن تجد بلداً تقبل أن تؤويك ، ولذلك ستركك وشأنك في مصر « تتمددح » على
الاستعمار ماشئت وشاءت لك « المقدحة » وإن أبت السلطة إلا إخراجك ، فمالك إلا باريس
أو جنيف تكون في الأولى ثالث ثلاثة ... (١)

رجعة أخرى إلى مكاتيب رياض

وفي رسالة من جنيف بعد ذلك بأسابيع يقول رياض فيها : « أخى أبا الحسن ! أخذت
كتابك ، فأنت يا أخى لست مقصراً بل مفضلاً ، فالشورى تجب عنك ما سلف من ذنبك
وما تأخر إن صح أن هناك ذنباً ، وتجد طيه كتاباً للأخ شكرى القوتلى طالعه أولاً ثم اغلقه
وادفع به لصاحبه ؛ لأنه يهمنى أن تطلع على أفكارى وآرائى » الخ .

وفي كتاب من باريس تاريخه ٩ فبراير ١٩٢٨ يقول : « أطوى كتابى هذا على نص
حديث صحفى كتبت في ساعة هياج عصبى وها إنى أرسله إليك لتصلقه الصقل الصحفى اللازم
وأن ترفع منه كل كلمة لا تليق فأنا كتبت في ساعة فوضى عاطفية ، وفي الكلام شئ من
الغموض أرجوك أن تمر عليه بصراحتك ، وهناك نقص في التواريخ فأرجوك إكمالها » .

الشهبندر ورياض وآمانيه عند تأليف الحكومة الوطنية

وكتب لى رسالة من دمشق بتاريخ ٢٩ يونيو ١٩٢٨ يقول بعد ديباجه لأبأس من
إيرادها : « أخى محمد على حياك الله وألهمك أن تتلطف بى فلا تعاملنى بما أستحق : أنا
مقصر يا أبا الحسن وأنا مقر ومعترف ، وأنا طالب الآن عفوك ، فهل تمنحه أم تمنعه ؛ لاشك
بأنك ستختار العفو والعفو من شيمك » ثم يقول : وبلغ الأخ شكرى (٢) تحياتى وقل له
إننى إكراماً له قد تحملت سماجة الكونتس دى سان بوان وإنى مع ذلك قد أكرمتها الخ
« وأما حادثة عمان وادعاء الشهبندر بأن جماعته ضربونى فهذا كذب ، ووجهى معرض

(١) يقصد نفسه والأستاذ إميل خورى .

(٢) يقصد نخامة السيد شكرى القوتلى رئيس جمهورية سورية بعد ذلك فقد كان في تلك الأيام لاجئاً
سياسياً في مصر وكان مكتب جريدتى « الشورى » مقراً لجهاده تقريباً طول مدة وجوده في القاهرة بضع سنين .

لأهل الشام ولا خدش فيه ، والحقيقة أنني لقيت كلبين من جماعته فأخذوا بالعواء على من بعيد فأمسكت بخناق أحدهما وأمسك الأخوان بالآخر وأشبعناهما ضرباً وسقناهما إلى السجن !
ثم قال : إذا نسيت كل شيء في هذه الدنيا فلا يمكن أن أنسى الشورى ولا صاحبها الذى غمرنى بفيض من عطفه ولطفه وسأجتهد إن شاء الله متى تألفت الحكومة الوطنية فى تنفيذ ما يجب نحوك ونحو الشورى^(١) وقال فى رسالة بتاريخ ١٠ أغسطس ١٩٢٨ من دمشق « بلغنى أنك قادم للصطيف فى لبنان فأهلاً وسهلاً بك من قادم ، إنى أعترم مغادرة البلاد قريباً ، هذا إن لم أحمل على مغادرتها حملاً ، فإلى اللقاء القريب فى مصر يا أخى وسيدى » .

رياض فى القاهرة

وفى أواخر مارس ١٩٢٨ جاء رياض إلى القاهرة وكان قد أبرق لى عن موعد قدومه فرتبت له استقبالا فى المحطة كان باهراً ، ثم دبرت له حفلة شاي حافلة أقيمت له بفندق الناسيونال حضرها أساطين مصر والعالم العربى ، وإنى أضع أمانى الآن عدد « الشورى » الصادر فى ٥ إبريل سنة ١٩٢٨ وفى صدره صورة رياض ووصف الحفلة التى لم يقم لأحد مثلها فى مصر طول ذلك العام .

ولما غادر رياض بك مصر إلى فلسطين كتب لى من حيفا يصف لى أثر حفاوتى فى نفسه ويشكرنى ثم يختم كتابه قائلاً : وأرجو أن تهدي سلامى إلى جميع هيئة أركان حزبك ومراقبيك ، ومن كان حولك ، ومنهم حبيبى الدكتور حسنى الطاهر الخ .
أى نفس حسنى الطاهر الذى رآه بعد ذلك بخمس عشرة سنة - فى بيروت - وبخل عليه بالتحية !

رياض فى لبنان

وكتب لى رياض من بيروت بتاريخ ٤ مايو ١٩٢٩ أخى أبا الحسن حياك الله وبياك ، أعذر إليك عن جيبى « المضخومة » وسأقدم لك فى هذا الأسبوع المبلغ مشفوعاً بطلب
(١) لقد نقذه فعلاً ! وهو أنه لم ينسنى فقط بل تنكر لى أيضاً لما تألفت الحكومة الوطنية ، وأبى أن يتفضل بالتعرف على أو رؤية وجهى !

العفو عن تأخري، ثم كتب في ٣٠ يونيو ١٩٢٩ من « عين السيدة » بلبنان يقول :
« اعذرني يا أخي على تأخري فقد والله تكاثرت الظباء علي خراش من كل الجهات ،
وفاء ديون مترا كمة هنا وهناك، ومصاريف استثنائية، على أن أملئ بحلمك جعلني أتأخر عنك
وأقدم عليها غيرها » .

رياض بك يودعني في بيروت

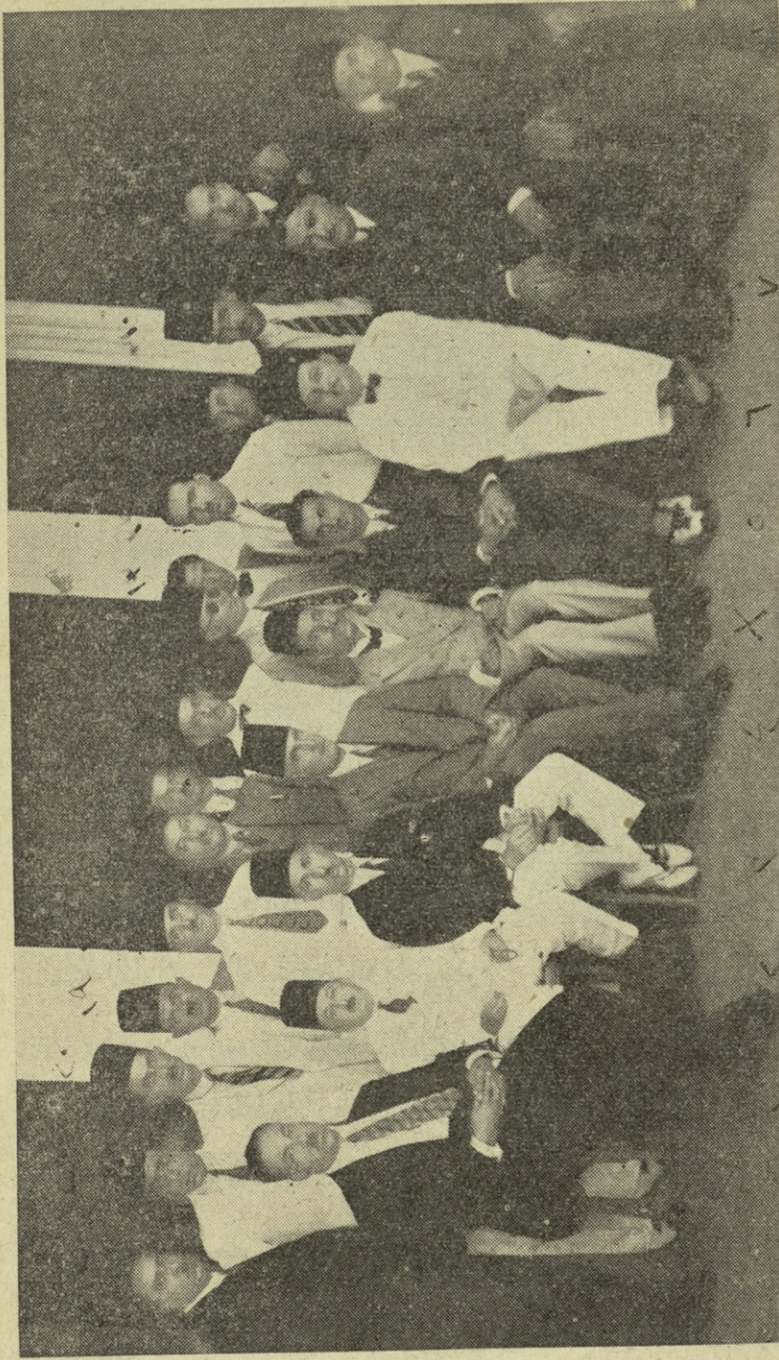
وفي أغسطس ١٩٣١ زرت لبنان وأقيمت لي حفلات فيه ودعوات كثيرة حضرها
رياض كلها وسيجد القاري بعض رسومها .

ولما سافرت عائداً إلى مصر كتب لي في ١١ سبتمبر ١٩٣١ يقول: سلام الله عليك يا أبا
الحسن أينما حللت وكيفما اتجهت ، وقدس سر الصداقة التي انطوى عليها فؤادك وغمرت كل
مشاعرك ، فأصبحت إن لم أقل أمسيت ، رمز هذه الصفة الممتازة . ثق يا أبا الحسن إنني
أشعر بالوحشة عند بعدك كأن المدة التي تفصلنا ليست أياماً بل شهوراً وأعواماً . وإلى اللقاء
القريب في مصر أو فلسطين .

لقد نزلت أمس الأول إلى بيروت لوداعك فقبل لي بفندق سافوي أنك غادرت لبنان
فعلى الطائر الميمون » .

بعد مأدبة أقامها
رياض لوداعي ببلدة
صوفر، وقد جلست في
الصورة تحت علامة X
وقد ظهر فيها بجوارى
من يمين القاري خير
الدين بك الأحدث
الذي تولى بعد ذلك
رياسة الوزارة وإلى
يساري ميشال بك
زكور وزير الداخلية
بعد ذلك رحمهما الله.
ووقف رياض خلفي
وخلف زكور
بالمالبس العاقمة .





إحدى حفلات لبنان التي ورد ذكرها ، وقد أقامها لي المرحوم خير الدين بك الأحذب الذي أصبح بعد ذلك رئيساً لوزارة لبنان ، وقد جلست في وسطها فوق علامة X وهذه أسماء بعض من حضروها ، وهم :

(١) حسني بك البرازي رئيس وزراء سورية بعد ذلك (٢) صبحي بك حيدر وزير الصحة في لبنان (٣) جميل مردم بك رئيس وزارة سورية بعد ذلك (٤) المرحوم إبراهيم بك هنانو زعيم سورية (٥) المرحوم ميشال زكور وزير الداخلية اللبنانية بعد ذلك (٦) رياض بك الصلح (٧) المرحوم خير الدين بك الأحذب صاحب الدعوة (٨) السيد أحمد الإمام من سياسة فلسطين المشهورين ، ووقف في الصف الخلفي فريق من فضلاء بيروت والشام بينهم الدكتور عبد الله اليافي بك رئيس وزراء لبنان بعد ذلك وكاظم بك وفتي الدين بك وعادل بك الصلح

رياض وأنا في المؤتمر الإسلامي العام

وفي أواخر ديسمبر ١٩٣١ انعقد المؤتمر الإسلامي في القدس فجئت إليه من مصر وجاء رياض من بيروت فكان لا يفترق عني ولا أتركه لحظة ، ولما رجع كل منا إلى مقره أصدرت كتاب نظرات الشورى ، فكان لرياض فيه حصة الأسد ، فقد كتبت عن رياض أشياء وصفها رياض بكتاب منه في ١٧ يوليو ١٩٣٢ قال :

«أما الكتاب ياسيدى فقد وصلنى وتسلمته من البريد بنفسى وقرأته كله بدون انقطاع، أى أنى مارفعت عنه رأسى حتى رفع هو رأسى !»

رياض بك في مأزق !

وفي سنة ١٩٣٣ وقع رياض في ورطة شديدة مع رئيس محكمة الجنايات في بيروت الذى كاد يضعه في الحبس ، فكتب إلى السيد أمين الحسينى في القدس يستنهضه ويرجوه تحريك رأى العام لنصرته ، ثم رجاه أن يكتب لى لأقوم بشئ لنصرته في مصر ، وعندى أصل ما خطه رياض عني قال « ويهمنى أن نأخذ برقية تأييد من محامين في مصر فهل لك أن تكتب للأخ أبو الحسن وتفهمه القضية وظروفها وتشرحها له شرحاً مستفيضاً وأن يذكرها أبو الحسن للسيد النقراشى والسيد دياب ووليم مكرم^(١) وكل هؤلاء أصدقاء مخلصون يمكنهم أن يحصلوا على برقية من نقيب محامى مصر » الخ .

ولم أبخل بوقتها على رياض بالتأييد بل أمطرت بيروت بالبرقيات وجرائد مصر بالحملات على رئيس محكمة بيروت ...

رياض يقع في السياج !

وفي أوائل سنة ١٩٣٥ وقع رياض في شدة ، وذلك أن الفرنسيين أبعده إلى القامشلي في شمال سورية ، فكتب لى في ٢٢ أبريل ١٩٣٥ وكنت في أيامها أزور فلسطين يقول :

(١) يقصد محمود فهمى باشا النقراشى وتوفيق بك دياب ومكرم باشا عبيد ، فقد كانوا من أصدقائه وأصدقائى ، وسبجان مغير الأحوال ...

« أخى أبا الحسن ! ذكرتني ولا شك في هذه الأيام إذ بلغك نبأ اختطاف الفرنسيين لي ، ثم



قال : وقد قرأت في الصحف

ولا أزال أقرأ أبناء الحفاوة بك

في فلسطين وتكريمك هناك

فأتلج ذلك صدرى ، وقد رأيت

في مجلة اللطائف المصرية رسماً

يمثلك في حفلة من تلك الحفلات

«النضرات» وفقك الله وأكثر

من حولك من الإخوان . هكذا

الدنيا « أناس يأكلون الدجاج

وآخرون يقعون في السياج »^(١).

ثم قال وإذا قدر لي الإفلات

لحقت بك إلى فلسطين واشتركت

ولو في آخر أيام زيارتك لها

ثم يقول : فكتب وكتب

عن الجماعة - أى الفرنسيين -

ماشتت وشاءت شهامتك فانت

فالت ولا يمكن الوصول إليك .

رياض في السياج ...

فقد بعث لي صورته المخرقة هذه وهو مبعث إلى القامشلي وقد

ظهر واقعاً أمام مجلة ناعورة من نواعير تلك الجهات .

ثم كتب في ٢٢ مايو ١٩٣٥ يقول : « الآن اعتقدت أن كتابي قد وصلك لأنى تلقيت

منك مقالين في جريدة «الوحدة» وفيهما نقاط مما كتبتك إليك فأنا أشكرك على اهتمامك بشأني »

(١) لقد صدق ! ولكن الفرق بيننا هو أنني لما وقع رياض في السياج واستفثت بي لم أخذه ولم

أتهرب منه ولا تحايلت بالوعود ولا أرسلت إليه ابن عمي ... بل نصرته بكل ما أقدر عليه مستعملاً في

سبيله اللسان والقلم وبرقيات الاحتجاج على فرنسا ، وكسبت زيادة عداوتها وعداوة أعداء رياض أيضاً . ولكن

لما وقعت أنا بقرب السياج لا في داخل السياج تركني وهرب ليأكل الدجاج وحده دون شريك ...

رياض في الاسكندرية ، والنقراشى باشا

وفي ١٨ سبتمبر ١٩٣٦ كتب لى رياض بالطيارة من باريس يقول إنه سيكون في الاسكندرية في صباح ٢٤ منه على الباخرة فكتوريا التي لا تقيم فيها إلا ساعات ثم تواصل سفرها إلى بيروت في نفس ذلك اليوم وإنه لن يتمكن من زيارتي في القاهرة ويطلب أن أوافيه بميناء الاسكندرية ليراني ولو لساعات ، فسافرت إليها ولما رست الباخرة كنت في انتظاره فاستقبلته وبقيت معه طول ذلك اليوم ، وكان قد سألني عن الشورى ، فقلت له إسأل عنها صاحبنا النقراشى الذى لما أصبح وزيراً صار مثل الانكليز يكره إصدارها ويتضايق منى ... فقال رياض والله أنا مشتاق إليه ، فها بنا لزيارته ، فقلت له اذهب أنت وأما أنا فلن أذهب إلى رجل كتبت إليه أذكره بالجريدة فبعثت لى حكومته بواسطة محافظ القاهرة إخطاراً بمنع إصدارها (١) ...

فذهب رياض وزار النقراشى ، ولما فاتحه بمحكمة الجريدة ادعى أن الأمر ليس بيده ... وبعد ذلك واصل رياض سفره إلى بيروت ، ورجعت أنا إلى القاهرة ، ثم عاد رياض بعد ذلك إلى باريس مرافقاً الوفد السورى الذىفاوض فرنسا على معاهدة ١٩٣٦ التى نكل الافرنسيون عن إمضاها ..

تكريم رياض بالقاهرة

وفي أوائل سنة ١٩٣٧ أصدرت جريدة « الشباب » بدلا من الشورى ، فرحب بها رياض برقياً ، وكان يكتب لها من باريس ، ثم جاء إلى القاهرة فعملت له استقبالا فيها وأقيمت لتكريمه حفلة شاي كبرى بقاعة الناسيونال أيضاً ، وكانت أنخم من تلك التى أقيمت له قبل

(١) كان النقراشى يحب جريدة الشورى ويقول إنه كان يقرأها « من آخرها إلى أولها وأنها كانت تجمع كلمة العرب وتخدم الإسلام » وقد سمعت هذا الكلام من النقراشى بأذن سنة ١٩٣١ فى دار بهى الدين بركات باشا بحضور كثيرين ، ولسكنه كان يقول هذا القول وهو خارج الحكم ، وأما بعد أن صار هو نفسه الذى يحكم فإنه يتنكر لى ويناقض نفسه ، ويتولى بعد أن انشق على النحاس باشا وأصبح وزيراً للداخلية مطاردتى بالنيابة عن الإنكليز... ولولا أن المرحوم محمد محمود باشا رئيس الوزراء يومها منعه من تنفيذ نيته لأصابني من الضر والأذى ما أعجز عن احتماله ، رحم الله محمد محمود باشا وبرد ثراه .

ذلك ، وقد اشترك في هذه الحفلة عدد كبير من رجالا مصر وأقطاب السياسة العربية فكانت حفلة الموسم ، ولم يلبث رياض أن سافر إلى بيروت فدمشق وهو مسرور ومبتهج بما لقي في مصر .

يطلب الحفلات

لقد كنت أعرف عن رياض منذ زمان بعيد أنه يحب الحفلات ، وكان يطلبها بنفسه ، ويقول لي إنها تسر الأصدقاء وتكبت الأعداء ، ولذلك كنت أعمل له الحفلات والاستقبالات في المحطات وبالجزيرة كلما زار مصر ...

وكان يجب أن تنشر الصحف أخبار قدومه إلى القاهرة وسفره منها ، وكان أحياناً يملئ النص الذي يريد أن ينشر عنه ... وفي ثاني يوم وصوله كنت أذهب إليه في محل نزوله ومعى الجرائد التي نشرت أخبار وصوله وأقدمها إليه .. ولما زرت لبنان لأول مرة سنة ١٩٣٠ زارني في صبيحة اليوم الثاني لوصولي إلى بيروت ومعه صحف ذلك اليوم وفيها أخبار وصولي إلى لبنان قائلاً : واحدة بواحدة ، لأنني توليت في الليلة الماضية إبلاغ الصحف أبناء وصولك ثم قدمها إلي !

إن هذه الحوادث والمباسطات لتدل على مبلغ العلاقة التي بيننا ، وهي أكثر من علاقة الأخ بأخيه مع رفع الكلفة والثقة المتبادلة .

يتلقى أوامره مني !

وفي أغسطس ١٩٣٧ سافر محمد العشماوى بك وكيل وزارة المعارف إلى لبنان للاصطياف (١) وهو يعد من أكثر رجال مصر اهتماماً بأبناء الأقطار الشقيقة ، فكتبت إلى السيد شكرى بك القوتلى وزير المالية السورية في ذلك الحين أوجه نظره إلى أنه يحسن دعوة العشماوى بك إلى دمشق وتكريمه فيها اعترافاً بأفضاله على أبناء العروبة في مصر وفتح مدارسها لهم ، وكتبت إلى رياض بك بأن يحمل حكومة لبنان على تكريمه ، فكتب لي شكرى بك بأنه أخذ كتابي وسلمه لوزير معارف سورية لينفذ اقتراحى فاستحسنه ونفذه ، وكتب لي رياض يقول في كتاب تاريخه ٢ سبتمبر ١٩٣٧ « العشماوى بك سألورده غداً أينما كان من أنحاء

(١) هو محمد العشماوى باشا وزير المعارف بعد ذلك ، وهو الوزير الشهير بالحزم وسرعة حل مشاكل التعليم ، ونشر العلم في البلاد العربية بتسهيل تعليم أبنائها في مصر .

لبنان ، وقد علمت أن وزارة المعارف السورية قد دعت له لزيارة دمشق وستكرمه في الجامعة السورية ، وستسمع مبلغ الحفاوة بصديقك في لبنان ، وسوف أذكر له عرضاً أننا تلقينا أمراً منك يا كرامه ...

يحن جنونه من أجلى !

وفي أكتوبر ١٩٣٧ سافرت إلى سورية لحضور مؤتمر بلودان^(١) ولما رست الباخرة في ميناء بيروت جاء بوليس الأمن العام وأبلغني تعليمات من المفوضية الفرنسية - العليا - على حد تعبيرهم ، بمنع من النزول إلى المدينة ، فتمكنت من إرسال نبأ ماجرى معي إلى صديقي كاظم بك الصلح صاحب جريدة « النداء » يومها - ووزير لبنان اليوم بالعراق - وأن يتصل بالتلفون بحكومة سورية وبالسيد نبيه بك العظمة صاحب الدعوة إلى المؤتمر ويخبرهم بما وقع وأنى محبوس في الباخرة ، فتدخل الجميع في ذلك قبل عودة الباخرة بي إلى الاسكندرية ، ثم درى المرحوم الأمير شكيب أرسلان بالحدث فنزل من مصيفه في الجبل إلى بيروت من أجلى ، وقد انتهت الحادثة بعد ذلك بالسماح لي بالمرور إلى سورية بدون أن أستقر في الأراضي اللبنانية ...

والمهم من هذا ، أن رياض بك حين عرف بحجزى في السفينة كتب لي كتاباً أرسله لي إلى الباخرة وأنا محجوز فيها قال فيه : « أخى أبا الحسن : نزلت الآن من الجبل إلى بيروت وقلما أنزل إليها ، فلقيت ابن عمى كاظم مصادفة فأخبرني بمحدثك فحن جنوني ، أيصل أبو الحسن إلى مرفأ بيروت وتحول « القوة الغاشمة »^(٢) دون نزوله واشترأه مع إخوانه في مؤتمر بلودان ؟ إن كاظم يبذل الجهد من جهته لنزولك ، وأنا من جهتي تحدثت بالتلفون

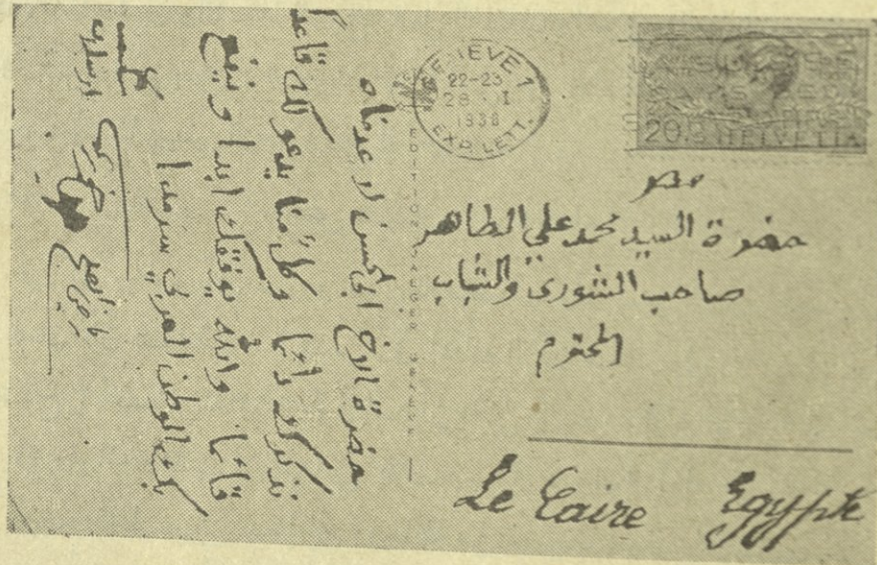
(١) قام نبيه بك العظمة بالدعوة إلى هذا المؤتمر فانعقد في بلودان بضواحي دمشق بحضور مندوبين من جميع أنحاء العالم العربي ، ونظر في أحوال الأمة العربية ووضع مقررات خطيرة كان لها الأثر الجدى في توجيه الحركات الاستقلالية في البلاد العربية وتوحيد وجهات النظر فيها .

(٢) بعد أن كان رياض مثلى ، سوقة يتنصف ، ولا يملك من الأمر في وطنه حتى مسألة تسهيل نزولي من باخرة ؟ ويحن جنونه من أجلى ، إذا به يحكم لبنان كله ، وبعد ذلك يتشكر لي ولا يقبل أن أجتمع به في مصر ولا أن يراني ... لأنه أصبح هو « القوة الغاشمة » التي كان يشكو منها ...

مع الأخ نبيه بك العظمة بدمشق ليعمل مع الإخوان كل ما يمكن لإيصالك لدمشق إذا كان قصد الفرنسيين منعك عن لبنان ، وقد كنت أحب المجيء إليك بالباخرة ولكن خفت أن يعرقل ذلك أمر نزولك « الخ .

كتاب مشترك وجائزة !

وبعد ذلك بشهور سافر رياض إلى أوروبا فكتب لي من جنيف في ٢٣ يناير ١٩٣٨ يقول :
« سيدى الأخ الأعز رعاك الله : أهلاً وسهلاً ومرحباً أبا الحسن ، لا تحسب أنك غائب عنا ، فنحن والله سواء في باريز أو جنيف لا نفتر عن ذكرك لحظة واحدة ، وقد اقترحت على الأمير والأخ إميل أن نكتب لك كلمة مشتركة وسنعمل ذلك غداً إن شاء الله . مرحى مرحى للشورى ، بل ألف مرحى ، فإني والله أقرأها من ألف الشورى إلى آخر حرف منها ، وبلدة



هذه إحدى البطاقات المشتركة التي كانت تأتي من رياض ، وقد جعل المرحوم الأمير شكيب أرسلان يكتبها بخطه ويمضيها ثم يمضيها رياض معه ومع الأستاذ إميل خوري .

مابعد هالذة ، حتى إنى فكرت مرة أنا والأخ إميل أن تمنح « الجائزة » - وجائزتنا الإعجاب فقط - لأفضل قطعة وردت في العدد الأخير وحتى الآن لم تتمكن من تفضيل قطعة على قطعة فهي كلها سواء « الخ

مجاهيدك ثمينة يا فلان !

وفي ١٨ أبريل ١٩٣٨ كتب لي رياض من باريس بعد أن لقبني بسيد الأخ يكلفني أن أقضى له مسألة عند أحمد عبود باشا فقال « إنها تهمني يا أبا الحسن فأرجوك أن تتكرم ببذل مجاهيدك - ومجاهيدك ثمينة يا أبا الحسن - في هذا الموضوع . وأما الجريدة فإني أقرأها بانتظام إذ أتلقيها من الأمير شكيب أو من الأخ إميل وأحياناً قبل أن يطلع عليها هو » .
يذكرني كثيراً ويدعوني لأنني أرفع الرأس ...

وفي موسم الحج ذهب رياض بك وأدى الفريضة - على حد قوله - ثم رجع إلى دمشق وكتب لي في ٢ أغسطس ١٩٣٨ يقول : « أخي حياك الله : أنا منذ أمس الأول بدمشق ولم آتها بعد إياي من الحجاز ، وكأن قدوم الأخ السيد أمين الحسيني إليها قد حفزني إلى الإسراع فاجتمعنا ، الحاج أمين والأستاذ الشيخ كامل القصاب والقوتلي والعظمة وغيرهم وأنا ، وقد ذكرناك كثيراً » ثم يقول : « جزاك الله يا أخي عن الأمة العربية خير الجزاء فقد والله قتت في جريدتك بما يبيض الوجه ويرفع الرأس » .

رياض مشتاق ... ودعاء !

وأبرقت إلى رياض بأني سأزور لبنان للاصطياف وأن يسعى لي في الحصول على إذن بدخول لبنان لأن قنصلية فرنسا بمصر تأني إعطاء الإذن فكتب لي رياض من مصيفه في عاليه ، بتاريخ ٣ أغسطس ١٩٣٨ يقول بعد أن لقبني « بسيد الأخ الأعز » . اتصلت بمن ذكرت في برقيتك وعلمت أن المساعي بذلت ولم تزل ، والذي أراه هو أننا في حاجة إلى وساطة أقوى وأفعل من وساطتي ووساطة من ذكرت ، وقد بادرت إلى ذلك ومن الله التوفيق ، وسأواصلك بالأخبار حتى أراك في عاليه حقق الله ذلك ، فشوقي إليك لابضاهيه شوق ، ولدينا من الأحاديث ، أنا وأنت ، ما يتطلب أياماً بل أسابيع إن لم أقل أشهراً ... وإني أكتفي الآن بهذا القدر محيياً في اختتام جهادك الطويل الذي لم تتناوله ذققة واحدة من دقائق الملل ، حفظك الله يا أخي وأبقاك وأمتع الأمة العربية بصفاتك النادرة وأخلاقك الممتازة وحقق بك الآمال انه سميع مجيب الدعاء أخي .

المشتاق : رياض الصلح

آخر زيارة للبنان وآخر لقاء

إن فرنسا في تلك الأيام لم تسمح لي بزيارة لبنان فتكذرت لأنني كنت في حاجة شديدة إلى تبديل الهواء ، فخطر لي أن أعمل لهذه الدولة المستعمرة مشكلة تتحدث عنها الصحف وتسيء إلى سمعتها وتكذب دعوى صداقتها للعرب فركبت الباخرة « محمد علي الكبير » وسافرت إلى بيروت بدون إذن أو « فيزا » وأبرقت قبيل الإبحار من الاسكندرية إلى مدير الأمن العام « الفرنسي طبعاً » في بيروت قلت له فيها إنني انتظرت « الفيزا » كثيراً وإن الصيف يكاد ينتقضي ، ولذلك ركبت البحر وأنني الآن في الباخرة وسأصل إلى بيروت صباح الغد ، وإني أرجوه منحى التسهيلات في الميناء مع تقديم الشكر سلفاً ...

ولما وصلت السفينة إلى بيروت كنت أتوقع المنع ومحاصرة الباخرة طبعاً فإذا بالمعجزة تقع وإذا بمدير الجوازات يصعد إلى السفينة بنفسه ويعطيني الإذن بالنزول إلى المدينة ويبلغني تحية مديره وأنه عاتب عليّ لسلوكي هذا السبيل المخرج الذي لم يسبق له مثيل ، ثم طلب أن أعطيهم تعهداً بعدم الاشتغال بالسياسة وعدم الذهاب إلى سورية ، فرضيت وشكرته وشكرت رئيسه وكان يسمى المسيو كلومباني ، ولعله كان أعقل فرنسي هناك - إن كان فيهم عقلاء ...

الطرد من لبنان

والتقيت رياض طبعا وقضينا أياما كنا نجتمع فيها كثيراً . وفي ذات صباح كان رياض عندي بفندق شاهين^(١) هو والرحوم خليل بك المطران وبهيج بك الجوهري « ابن عمه رياض » وإذا برجال الأمن العام يأتون إلى ويطلبون مني باسم المفوضية الفرنسية العليا مغادرة لبنان فوراً . فاعترضت ورفضت ، وكان رياض يشهد هذا الحادث فاعترض عليه وهو متألم أشد الألم من المستعمرين وقد أراد أن يحتج ولكنه خاف وسكت ، فحصل جدال شديد

(١) ذكرت اسم هذا الفندق متعمداً ذلك ، لأنه كان في أيام الحرب العظمى الأولى مقر المحكمة العرفية التركية التي حاكم فيها جمال باشا أحرار سورية سنة ١٩١٥ وأعدمهم في بيروت ودمشق ، رحمهم الله ، ورحم جمال باشا أيضاً ، فقد كان شهماً على الأقل ، لأن ندالة رجال الاستعمار وأعوانهم الذين حكموا العالم العربي بعد ذلك جعلت العرب يترحمون على أيام جمال باشا الذي كنا نلقبه بالسفاح ...

بينى وبين القوم ، وتهديد منهم باستعمال القوة معى فأصررت على الرفض وعدم السفر إلا إذا نفذوا طلبهم بالقوة علناً أمام الرأى العام، وعند ذلك تراجعوا وأمهلوني أياماً إلى أن تجيء الباخرة التى جئت بها لأبحر فيها إلى الإسكندرية رأساً ، لأنى رفضت السفر فى البواخر التى تقف فى موانئ فلسطين حتى لا أقع فى أيدي الإنكليز ، ولما أزف وقت السفر رافقتى زبانية الأمن العام إلى الميناء وأخرجونى من لبنان مطروداً أمام عيون رياض الذى كان يتحرق يومها غيظاً وكداً بل غضباً وسخطاً على الذين طردوا صديقه وحبيه على تلك الصورة الاستبدادية فكان ذلك اللقاء برياض هو آخر لقاء ، فإن كنت قد تصورت أن رياض بعد أن أصبح حاكم لبنان بعد ذلك ، سيدعونى إليه ويجعل صفاً من جنوده يقف على الميناء لاستقبالى وتحيتى فلا أكون قد تصورت شيئاً أكثر مما يجب أن يكون ردّاً على فعلة فرنسا معى لما طردتنى أمام عين رياض طرداً ...

الأمير سيف الإسلام بدلاً من رياض !

ولنرجع إلى موضوع تهرب رياض منى فى مصر فأقول : كانت قصة رياض معى مثار دهشة لكل من سمع بها ، فقد أدهشت خصومه وأدهشت أصدقاءه على السواء ، وقد تندر بها الناس فى مصر والشام ولبنان ، لأنها بزت كل ما سبقها من حوادث تنكر الأصدقاء للأصدقاء ، وعقوق الإخوان للإخوان ...

وبعد حوادث رياض بأشهر ، وبعد غروب أحدايام رمضان وأنا فى بيتى جاءنى القاضى السيد محمد عبد الله العمرى أحد سادات اليمن وعضو وفدها يقول إن صاحب السمو الملكى الأمير سيف الإسلام عبد الله يريد أن يزورك الليلة فى الساعة العاشرة مساءً وسيكون معه الوفد اليمنى « وكان الوفد يتألف من سموه ومن القاضى العمرى نفسه والسيد حسين الكبسى والسيد على المؤيد »^(١) فرحبت بهذه الزيارة الملكية وانتظرت سموه بحديقة العمارة التى أسكنها ، ولما

(١) هو السيد على بن إسماعيل المؤيد ، من أفاضل الجراف فى اليمن ، وقد عين فى شهر فبراير ١٩٥١ وزيراً مفوضاً لليمن فى مصر ، وهو أول سفير يمانى أرسله اليمن فى تاريخه الحديث إلى خارج اليمن ، وهو شاب نبيل أديب على جانب كبير من اللطف والعلم والفضل .

أزف الموعد وصل سمو الأمير في سيارة رسمية يتقدمها جنود الحرس وهم ينفخون في الصفافير لإفساح الطريق لسيارته ، فاستقبله سكان الحي بالهتافات والزغاريد وبقي حتى شبرا ساهراً إلى أن غادر سموه دارى بعد منتصف الليل مودعاً بالحفاوة والدعاء ، وقد نشرت بعض صحف القاهرة شيئاً من أخبار تلك الزيارة الجميلة .

إن زيارة ابن ملك وشقيق ملك ، لدارى في تلك الظروف بعد فعلة رياض معى وغدره بى، قد جعلت الخواطر والظنون تدور فى بالى، فقلت فى نفسى : ياترى هل درى سمو الأمير بقصة رياض معى فأراد أن يعوضنى بزيارة ملكية و«بصفافير سيارته» عن صفافير رياض التى بعث لى يباهى بها ، ثم راح يسمعها لتوفيق مفرج دون أن يسمعى أنا صوتها !

إن المسألة ليست مسألة « صفافير » بلا شك : ولكنها مسألة محيى رياض الذى بخل على بزورة ما كان أعظمها عندى وأقلها عليه ! وعلى كل حال فلا أسف على تلك الزورة بعد أن زارنى أمير ملكى عظيم وابن ملك ، فقد ضاع منى درهم زائف ، فعوضنى الله عنه بدينار من الذهب اللامع... (١)

والخلاصة ؟

سررت هذه القصص الطويلة عن رياض بك معى لأنها من القصص على كل حال ، وكل قصدى منها أن تكون درساً لغيرى حتى لا يقع فى صداقة كهذه ، وإن وقع أحد فى مثلها فلا يتفجع كثيراً لأن قصتى ستهون عليه ... إذ يكفى أننى أكلت الدرس بالنيابة عن الغير ، وعلى أشنع الصور ، فعلى الغير أن يعتبر ...

(١) لقد كان على رياض بمجرد استقلال لبنان أن يبادر إلى الاتصال بى وأن يعرض على منصب الوزير المفوض بمصر على الأقل ، أو على أقل الأقل يأخذ رأى فى تعيينه ثم يأمره بأن يجيى عندى حاملاً تحيته ، طالباً التوجيه الذى أراه له ، لا أن يشغل نفسه بالهرب منى والنكر لى ، وإلا فأين كان رجال وزارته وأركان حكومته والذين جعل منهم وزراء مفوضين حين كنت أصطلى وإياه بنار الاستعمار وما فيها من ظلم وأذى وآلام ، فهل كان رياض يعرفهم ويعرفونه فى تلك الأيام السوداء ، وهل كان يعيش معهم على المدمس ويستغيث بهم ويشكو لديهم من الذين أكلوا الدجاج وتركوه بمنفى القامشلى يبكى من آلام الحياة حين علق فى أشواك السياج ؟ كلا ، بل إن رياض قد ركض إلى الذين أكلوا الدجاج مع فرنسا وتركوه فى السياج فراح يشتغل معهم ويأكل الدجاج وإياهم ...

إن الأرمن الذين جاءت بهم فرنسا من أرمينية إلى لبنان منذ ربع قرن فقط قد أصبح لهم بعض النواب فى البرلمان اللبناني فهل يستكثر رياض بك على صديقه الذى كان يساعده على فرنسا أن يكون فى لبنان مثل مهاجرى الارمن ..

ثم يلاحظ القراء هنا أنني لما اقتبست بعض النقاط من رسائل رياض بك اقتصرت منها على ما يهم موضوعنا ، بدون أن أكشف شيئاً عن الأسرار الخاصة التي يهيمه كتابها ، أو يكدره نشرها ، أو تمس الآخرين ويحرص هو على إخفائها ، فهذا كله قد كتمته وأخفيته محترماً سرية الرسائل الخاصة إلى النهاية .

إن الذين يعرفون رياضاً ويعرفونني ، والذين سمعوا بقصته معي قد حكموا حكمهم فيها ، ولكنني أردت من تسجيلها هنا أن يطلع عليها من لا يعرفنا فيحكم حكمه كذلك ويستفيد من عبرها ...

وإلا فمن يصدق أن رجلاً يكون بينه وبين صديق له مثل ما كان بيني وبين رياض أن يتنكر لصديقه على الصورة العجيبة التي تقدم سردها ، كما أنني لما أوردت الخلاصات عن مكاتيبه قصدت أن يعرف الناس أن المحبة كانت متبادلة من الجانبين ، لأنه لا يكفي أن يقول الإنسان إن هناك صداقة وإخاء مع فلان ، فقد يكون فلان هذا لا يدري شيئاً عن تلك الصداقة ! أما وقد اطلع القارئ على كلام الجانب الآخر وهو رياض نفسه ، فإن النصف يستطيع أن يكون رأيه ويصدر حكمه ، وهو مقتنع بفضاعة ما كان وإنه مما لم يسبق له مثيل بين الناس .

محاكمة ...

وقد حاكمت المسألة في نفسي ومن وجهة نظري فوجدت أن رياض بك قد سرقني أيضاً ، وهي سرقة عظيمة ، وذلك إنني ورياض كنا في الأصل من منطقة واحدة ، فهو من صيدا التابعة لولاية بيروت وليس بلبناني ، وأنا في الأصل من نابلس وهي تابعة لولاية بيروت أيضاً فإذا كان الاستعمار قد جزأ بلاد الشام وضم ولاية بيروت إلى لبنان بعد أن نزع نابلس منها وأضافها إلى فلسطين ، فهذا كله من عمل الاستعمار وليس من عمل الطبيعة .

فالذي أريد أن أصل إليه هو أنني ورياض في الأصل من منطقة واحدة ، كنا نعمل لغرض واحد ، وكل منا كان يبذل طاقته وجهوده ضد الاستعمار الفرنسي بدون أن يشعر أحدهما بأنه غريب عن البلاد التي تخدمها وتحارب فرنسا من أجلها ، أليس ان فرنسا كانت

تمنع جريدتي عن لبنان ، وتمنعني أنا من دخوله ؟ ولما سمحت عادت وطردتني ، ثم كانت كلما اشتد ضيقها بحملاتي عليها تحتج على مصر وتطلب من الحكومة إغلاق جريدتي وطردي من وادي النيل ؟ فلماذا يقوم رياض بعد أن نصرنا الله على فرنسا بالانفراد بثمرة الاستقلال دوني أنا ثم يتهرب مني كأني غريم يريد مزاحمته على مزرعة ورثها عن أجداده ؟ لقد كان على رياض بعد أن أصبح صاحب الأمر في لبنان أن يتذكر أنه ما وصل إلى مركزه هذا إلا على أكتاف اخوانه ، وأن من أوجب الواجبات عليه أن يستدعيهم ويشركهم في الأمر وفي خدمة البلاد التي جاهدوا من أجلها . فهذا حق طبيعي لهم ، وإذا كانت ظروف لشدة عداوتي للاستعمار وتعدد الجبهات التي أحاربها من جبهاته ، وبقائي حتى الآن مشتبكاً في المعركة معهم ومع أذنانهم وبقاياهم ، فليس معنى هذا إنه يجب أن أظل حيث أنا وأن ينفرد رياض وحده بالاستقرار والسلطان ، بل يزيد على ذلك بأن يجامل الاستعمار على حسابي بل يجامل بقاياهم أيضاً أمام عيني وعلى مشهد مني !

لماذا لم يمكّني رياض من سكني لبنان مثلاً ، لأرشح نفسي للبرلمان فأكون وزيراً ورئيساً للحكومة مثله ، أو على الأقل مثل الطفيليين الذين أصبحوا في لبنان نواباً ووزراء ، فيهم العشرات ممن كانوا أعواناً لفرنسا وكنت أنا ورياض نضج منهم ونحاربهم ، فإذا برياض يتخذهم الآن زملاء ويشغل معهم !

رياض يتغير مع الجميع

بقيت متألماً من فعلة رياض بك إلى أن بلغني من أخباره مع أصحابه الآخرين ما يدل على أن الرجل قد أصبح مع الناس أيضاً غيره بالأمس ، وأنه منذ وصل إلى الحكم تقمص شخصية أخرى وأصبح رجلاً خيفاً خطراً . يغدر ويبطش ، ويكيد لأصحابه وإخوانه ، ويتنمر لكل من أحسن إليه . تخفف ذلك من غيظي . وهون من فجيعتي فيه مادام سواي أصبح يعاني من تنكره ما عانيت ، ويدوق من خليقته ما ذقت ، وهذا طبيعي ، لأن الخير إن كثر وعم قلت قيمته وأصبح عادياً ، فكيف بالشر وصيرورة الناس فيه سواء ، فهو يصبح كذلك عادياً ومألوفاً ، فيخف الألم منه ، وقد قيل إن الموت مع الناس رحمة ...



صورة رياض بعد أن خرج من « السياج » وأصبح « صاحب الدولة » فهو يمشي
بعد ذلك بين صفين من الجندي يحونه برفع البنادق كلما راح أو جاء ...

رياض يزورني ...

وبعد ذلك بسنين ، وكنت قد انطلقت من قيودى السياسية بعد زوال الأحكام العرفية
أقيمت لتكريمي على أثر زوالها حفلة كبرى بفندق الكونتنتال^(١) وبلغ رياض ذلك ، وأن
قلمي أيضا قد انطلق وصارت مقالاتي تملأ الصحف وأنني اتخذت إدارة كبيرة استعداداً
لإصدار الجريدة، فلما زار مصر بعد ذلك هرول بكل جرأة إلى زيارتي فلم يجدني فانتظر بالباب
طويلاً ولما أبطأت في الوصول إلى مكنتي ترك لي بطاقته مع أساتذة من فلسطين كانوا ينتظرونني
فلما أعطوني بطاقته وقالوا إن « صاحب الدولة » وقف معنا رهة ثم هرب من المطر
ضحكت في نفسي وقلت عجيب أن يجود رياض بوصل حين لا ينفع الوصل !

بهلوان !

وبعد ساعة جاءني السيد حسين العويني أحد أغنياء الحرب في لبنان وهو صديق ومن تلاميذ
رياض . وقد جعله رياض بك بعد ذلك نائبا لبيروت^(٢) فقال حسين : بلغني أن رياض بك

(١) سياتي حديثها .

(٢) ثم جعله رياض بعد ذلك وزيراً فرئيساً للوزارة لأسباب انتخابية يتظاهر فيها رياض بالزهد في
الحكم فيعمل له العويني انتخابات تعيده إلى الكرسي على أن يضمن للعويني العودة إلى وزارة المالية ويخلده فيها
وبهذه الطريقة يستطيع رياض أن يقول للناس إن الشعب هو الذي يريدني وهاهو قد أعادني بواسطة انتخابات حرة ..

كان عندك فهل رضيت عنه ؟ فقلت أستغفر الله ، ومن أنا لأغضب أو أَرْضِي عن صاحب الدولة ؟ فقال إنه كان عندك الآن أليس كذلك ؟ فقلت نعم وله الشكر العظيم ! فقال العويني ألا ترى أن من الواجب أن ترد زيارته ؟ فقلت له اسمع يا حسين : أنا بمجرد رؤيتك تدخل مكنتي أدركت أنه أرسلك لتستدرجني إلى رد زيارته ، لأن هذه هي طريقته في الحياة ، وقد اعتاد أن يعمل أمثاله وأخواتها مع سواي ، وكنا نقدر له هذه الشطارة على أعداء البلاد فإذا به « يتشاطر » علينا نحن أيضا ! فقال إن رياض سيسافر غداً ، فقلت على الطائر الميمون ! فقال ولكن إن سمع الناس بمجيئه إليك وإهمالك رد الزيارة فماذا يقولون عنك ؟ فقلت له وهل أنت مسئول عن آدابي وتهذيبي ... دعهم يقولوا إنني متوحش وغير مهذب !! ثم صرفت العويني بالحسنى فانصرف ، وسافر رياض بالسلامة والعافية عائداً إلى بيروت ...

لعبة ...

يقول ابن عم لرياض إنه هو الذي جاء إلى مكنتي وتظاهر بأنه صاحب الدولة ثم ترك البطاقة المطبوع عليها اسم رياض ومضى ليستدرجني إلى زيارته بدون أن يزورني ... فإن صح هذا فمعناه أن رياض لا يمكن أن يغير طبيعته وعاداته ، وهي ترتيب الألعاب وحياكة الصغار ، وتلفيق المناورات الرخيصة ، لأنني أعرف الكثير عن وسائل رياض وأساليه ، وكما ساعدته أنا على مثلها وعلى ما هو أبعد منها ، ومنها واحدة حصلت في لبنان سنة ١٩٣١ إذ شكا إلى رياض من حادث وقع بينه وبين المرحوم جبران تويني وزير معارف لبنان في تلك الأيام - ثم وزير لبنان المفوض في الأرجنتين بعد ذلك - وأنه يود أن يتصالح معه ولا يدرى كيف يكون ذلك على أن « تتم الصلحة » بشكل كريم لا يذله أمام التويني وأمام الناس ، فقلت لرياض لا عليك ، ثم نزلت إلى بيروت فزرت التويني بمكتبه بوزارة المعارف اللبنانية وعرفته بنفسه بحكم الزمالة - لأنه كان من رجال الصحافة - وبعد ذلك استدرجته ليزورني في مصيفي ببلدة عاليه ، ثم رقت الأمر مع رياض ليحيى بغتة فيتم الاجتماع عندي ويجري العتاب ، بدون أن يشعر أحد ...

فالظاهر أنني زرعت فحصدت ، لأنني شجعت على بهلوانياته فراح يلعب على مثلها بل

ويطبقها على أنا ! ولذلك لا أستبعد أن يكون رياض قد بعث ابن عمه قبل موعد مجيئي إلى مكنتي ليترك لي البطاقة بالباب ويهرب ... ثم يبعث رياض بحسين العويني بعد ذلك بساعة ليستدرجني إليه بفندق شبرد وأنا أظن أنني أرد زيارة ، في حين أنني أكون في نظر رياض قد ذهبت إليه مبتدئاً ... فما أرخص هذه الوسائل !

رياض يعود إلى مصر ثانية

وفي صيف ١٩٤٧ جاء رياض إلى مصر بمهمة رسمية فجاءني صديقه وصديقي أكرم بك زعيتر المجاهد الفلسطيني يقول إن رياض استشاره في زيارتي ، فقلت لأكرم دعه ولا تشجعه على المجيء ، فقال وإن صمم ؟ فقلت تنصحه بأن لايجيء . فقال وإن جاء فعلا ؟ فقلت سأرفض مقابلته ومقابلتك معه ، فالأحسن أن تحول دون وقوع ذلك حتى لا تخرجه وتخرجني ... رياض يعيد الكرة ...

وفي ديسمبر ١٩٤٧ جاء رياض إلى مصر بمهمة رسمية أيضاً فكنت أعتذر يومها عن حضور كل حفلة أرجح أنه سيحضرها ، ثم صار يبلغني عنه أنه كان في جاساته بصالون فندق شبرد دائم التظلم للأصدقاء من استمرار كدرى منه ويقول : والله أنا اجتهدت في رؤيته عند الزيارة الأولى فلم أتمكن ، ثم قتشت عنه في المرة الثانية وزرته فلم يرد زيارتي ...

بلغني هذا فلم أستغربه ، لأن ضمير الإنسان مهما كان غليظاً أو ناعماً فلا بد له من أن يستيقظ يوماً ما ، وأن يعذبه لاحالة ، فرياض قد أتى أمراً غير كريم لم يسبقه إليه أحد ، ولذلك نهض ضميره من سباته ، أو أنه كان يخشى الفضيحة أمام الناس فتحرك ... ولكن استيقاظ الضمير يجب أن يكون قبل فوات الأوان ، فقد كان رياض قاسياً معي ، ونكوراً لإحائي الذي ما حل بمثله من أحد ، وقد وصفه هو بنفسه في رسائله إلى فإذا به يجزيني جحوداً وتنكراً لم يصدر مثلهما من بشر .

أنا لست حقوداً ، وقد لحظ القراء ولا شك أنني مولع بالتحدث عن مكارم أهل الفضل معي ، وإكباري كل معروف أسدى إلى من الناس ، وهو ما يجب أن يكون ، فأديت الشكر للجميع ، وطالما اعتبرت الابتسام في أيام المحنة إحساناً فشكرتها ، فمن حق إذن

أن أشتت من فعلة أخى رياض بعد صداقة العمر وأخوة الحياة ، وكيف لا أتألم ولا أحمل حفيظة لمن كسر خاطرى فى أيام كنت فيها محتاجا إلى حنان الأصدقاء وحنانه هو على الأخص ، تلك زجاجة قد حطمها رياض بكل قسوة أبشع تحطيم ، وألقى بذراتها فى الهواء على صورة لا يمكن تلافيتها ، على أنى مع ذلك لم أقم بعمل يكدره ، ولا أعنت عليه خصومه ، بل اكتفيت بصرف النظر عن قبول عودة الصلة معه ، وهذا من حقى وأضعف جزاء له ، فهو رجل مخوف خطر يستسهل الزهد بإخوانه ، والغدر بأصحابه ، ويدوس أصدقاءه بدون أن يصيح ضميره من أعماق نفسه ويقول له يجب أن تتروى يا هذا ، فالذى تصنعه مع إخوانك فظيع لا يليق أن يصدر من مجاهد أعطاه الله ، نحو زميل لا يزال فى وسط المعركة ، ولا يزال يكتب بئرها ، ولا أمل له بأن يرى شيئا فى حياته يجبر خاطره ولا أن يصل إلى شيء يهون عليه مصيبته .

يجب أن لا أقبل عودة صداقة رياض بعد أن كان منه ما كان ، بل يجب أن أفقده وأن أطلب من الله العوض ، وأن أتحمّل ألم خسارته حتى لا يستسهل مرة أخرى هو أو سواء ارتكاب ما ارتكبه معى - مع غيرى - معتمداً على الغاية التى تبرر الوسيلة وأنه ما أسهل عليه بعد سحق صديقه أن يعود فى فرصة أخرى فيستغفله بابتسامة مفتعلة أو كلمة اعتذار لا قيمة لها ، لأنها لن تصدر من قلبه ، ولا سيما بعد أن يكون قد جرحه ذلك الجرح البليغ وخيب آماله وقهره ، واستهان به واستن فى الصداقات أسوأ سنة ، إن درجت بين الناس اقتداء به كان ذلك مفسدة وتشويهاً لأجل شيء فى الحياة الإنسانية وهو الوفاء الذى إن فقد منها أصبحت الدنيا بدونها كأنها جهنم والعياذ بالله .

كتاب نظرات الشورى

وكنت قد وضعت سنة ١٩٣٢ كتاباً بهذا الاسم كان لرياض فيه نصيب الأسد ، من تقرّظ ومدح وإشادة بذكره ، فهذا الكتاب قد نفذ ، وأما بقية نسخه فإننى جمعتها وأحرقتها حتى لا يطالبني الناس بأن يكون رياض الآن مثل رياض الذى كان بالأمس . فأنا كتبت عن رياض قبل ٢٠ عاماً ما كان عليه رياض فى ذلك الحين ، أو عن الصورة التى كان يظهر أمامى (٤٠ - ظلام السجن)

فيها ، فكتبت ما يجب أن يكتب عما كنت أراه ، أو كان هو يريني إياه ، فإذا كان هو قد تغير فما أنا المسئول ، والذنب ليس ذنبي ، بل ذنب الذي خيب الأمل وتغير . أما ذلك الكتاب فيكفي وصف رياض له ، فقد كتب لي ساعة اطلاعه عليه يقول إنه أمسك به يلهمه التهاماً وأنه « لم يرفع عنه رأسه حتى رفع هو رأسه » وهو تعبير طريف بلاشك . والكتابة التي كتبتها فيه عن رياض كانت مما يرفع رأسه فعلاً . وإذا كان بعض قراء هذه السطور يملك نسخة من كتاب النظرات ويريد أن يحاسبني عما فيه عن رياض فما أحراه أن ينزع منه ما كتبت فيه عنه ، فأنا برى من ذلك الكتاب وإني تأب عما فرط مني فيه ، فأنا لم أتعمد غش الناس ، ولكنهم هم الذين خدعوني وغشوني ، فإن كان رياض في ذلك الحين كان صادقاً ثم تغير وهو لا يشعر فأنا معذور ، وإن كان في أيامها يخادع الناس عن تعمد ، فأنا أيضاً معذور لأنني انخدعت ، أما الذي لا يعذرني عليه الناس فذلك أن أكون عارفاً بالحقيقة ومطلعاً على الخدعة ، أو أنني كنت أتعمد غشهم ، ولكني والله ما قصدت غش أحد ، ولا نويت في حياتي أن أغش أحداً ، والله عليم بذات الصدور .

ولا يزور النحاس باشا !

إن الدنيا كلها تعرف لمصطفى النحاس باشا لما كان رئيساً لوزراء مصر سنة ١٩٤٣ قيام حكومته على فرنسا من أجل لبنان لما اعتقلت رئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح رئيس الوزارة نفسه وغيرها ، وسمح النحاس باشا للشعب المصري بإظهار شعوره مع لبنان ضد فرنسا ، وكيف مشت المظاهرات في مصر والإسكندرية ومدن القطر كله فوقع فيها قتلى وجرحى من شباب مصر في سبيل لبنان . وقد تحطمت متاجر الفرنسيين ، ثم هدد النحاس باشا فرنسا بالقبض على جميع رعاياها ومصادرة أملاكهم وبنوكهم ، ولم يزل النحاس باشا يعمل يومها حتى أرغم فرنسا على إطلاق رئيس الجمهورية وإطلاق رياض ومن معها .

هذا كله معروف عند الجميع ومقدور قدره للنحاس باشا أبد الدهر ، ولكن الذي لا يعرفه الناس هو أن رياض حين كان يزور مصر بعد إقالة وزارة النحاس باشا كان يتنكر له

وما عاد يزوره ولا يريه وجهه مطلقاً ! بل إنه كان يبخل عليه ببطاقة بيباب داره ، ولو مثل البطاقة التي تركها لي في العام الماضي ...

وكان رياض يحتاج لتسويق هذه القطيعة لولي نعمته النحاس باشا بأن النحاس وهو خارج الحكم كان غير حازم على رضا الجهات العليا ، وإنه لذلك مضطر إلى مجاملتها ، فهذا العذر غير معقول ولا مقبول ، لأن مزاحم بك الباجه جي رئيس الوزارة العراقية سابقاً ، واحمد حامى باشا رئيس حكومة فلسطين ، وتحسين بك العسكرى وزير العراق المفوض بمصر كانوا وهم في مناصبهم لا يتركون مناسبة دون أن يزوروا النحاس باشا ويجاملونه ، فلم يحصل شيء لهم ولا لمناصبهم ولا غضب عليهم أحد ، ولكن طبيعة النكران الانتهازية عند رياض والعياذ بالله هي هي لا يمكن أن تتغير ، فهو يقبل عليك إن رآك قويا ، ويقبل يدك إن احتاج إليك ، ثم لا يتورع بعد خمس دقائق عن الإشاحة بوجهه عنك إن استغنى عنك ، ولا بأس عنده من أن يدوس على جثتك إن احتاج الأمر إلى شيء من هذا الإجراء الحازم في نظره ..

رياض يعيد الكرة أيضا

وفي شهر فبراير ١٩٤٨ جاء رياض الى مصر لحضور مجلس جامعة الدول العربية ، وإذا بصديق وصديق رياض الأستاذ إميل خورى يزورنى ويقول إنه يتمنى أن نعيد صفحة من الماضى الذى كان منذ أكثر من ربع قرن ، بأن يجيء في صباح الغد إلى دارى لنفطر الفول المدمس والطعمية ! فأدركت غرضه فوراً وفهمت كل شيء يخفيه هذا الاقتراح ، فقلت له إنى مسرور وسعيد بهذه الفكرة ولكنى أشترط أن نكون وحدنا ... فقال كلا بل نكون ثلاثة كما كنا معاً قبل ٢٧ عاماً ، ولذلك سأجىء في صباح الغد أوالذى بعده ومعى رياض ... فقلت له إن رياض فى نفسى قد انتهى ومن غير الممكن أن تعود علاقتنا القديمة ، لأن الذى صنعه معى كان أليماً ، فقد قهرنى وكسر خاطرى فى وقت كنت محتاجاً فيه إلى عطف الاصدقاء وخصوصاً عطفه هو ؛ أما وقد فات الأوان وحطم صرح الأخوة على تلك الصورة القاسية المفجعة التى ارتضاها لنفسه وارتضاها خلائقه وصارت عادة له مع إخوانه بأن يسحقهم عند الاقتضاء ، ثم يتبصص لهم إن شعر بقوتهم ، أما وقد تقمص رياض شخصية أخرى ، أو أنه عاد

إلى شخصية حقيقية كان يخفيها عنى وعن الناس وكنا نجهلها، فلا يجوز أن أقبل رجوعه الآن ولا أن أشجعه عليه، وإذا كان بعض الناس قد اتخذوا به أو ضعفوا أمام أساليبه وحيله هذه حتى أصبحت ملكة عنده، فأنا لن أكون ضعيفاً مثلهم، بعد أن لدغت منه ومن أمثاله غير مرة، ولذلك فضلت نهائياً أن أخسر صداقة «صاحب الدولة» إلى الأبد، بعد أن كان «صاحبى أنا!» لأننى صرت أشعر بأننى - بعد أن فجئنى هذا الرجل الرسمى الشاطر هذه الفجيرة - لا أصلح للمعاشرة الشهداء الأحياء، وصداقة المنكوبين وصحبة المظلومين...

فلما رأى الأستاذ إميل خورى هذا الإصرار منى، إذا به يتقلب بغتة من عاتب مستشفع إلى عاذر وموافق على فكرى، ثم أخذ يفضى إلىّ بفصول عجيبة لرياض عملها معه هو، فقد كادله، وغدر بمودته وأساء إليه؛ فتعجبت من أفاعيل رياض حتى مع إميل، أستاذه الذى احتضنه ودربه على العمل السياسى، كما أن أفضاله على رياض لا يمكن الإحاطة بها، وقد كانت الصداقة بينهما أكثر وأوثق مما كانت بينى وبين رياض.

إذن فأنا مصيب فى زهدى بهذا الرجل، ويجب علىّ وعلى أمثالى أن نجعل هؤلاء الذين يصبحون بعد الصلوة والتشرد حكماً وأصحاب ألقاب أن يفهموا أن مناصبهم وألقابهم لا تساوى شيئاً أمام الأخلاق الكريمة، وأننا معشر العاطلين من الألقاب الرئانة والوظائف المبهرجة نشعر بالكرامة ونعز بأنفسنا وبأعمالنا، وليس بالمناصب الزائلة ولا بالألقاب الكرتونية التى تطوقهم ببريقها فترة من الزمن حتى إذا زالت عنهم مال حالهم. فيجب والحالة هذه إذلهم وكسر رؤوسهم التى رفعناها بجهدنا، فلما ظنوا أنهم قد ارتفعوا صاروا يتعالون علينا، بعد أن سرقوا أخلاقنا وجهدنا، ولم يكفهم هذا بل استسهلوا التبرؤ من أخلاقهم الفاضلة التى كانت ترفعهم فى أيام الجهاد إلى مرتبة الأبطال بل انتكسوا والعياذ بالله وراحوا يهينوننا..

رياض وهو حاكم

أما وقد عرف القارىء أخانا رياض الصلح مجاهداً ومنكوباً يتعذب ويتظلم، وصديقاً يتنكر، فيجب أن يعرفوه كما يتحكم... لأن رياض بعد أن أصبح رئيساً للوزارة اللبنانية صار يطارد الأحرار والمجاهدين وطلاب الإصلاح والإنصاف، ويكيد للمخلصين للبلاد ويحارب

الكفا
فرنسا
السجور
صاحبنا
والهيا

و
الوزارة
بر الشا
مقبورا
الأسالي
حين كا
أعمال

»
واستغل
وتاجر
القمار
بخص

والجو
)
بأتم قو
طرابلس
أن أمانه

الكفايات، ويضطهد الصحافة الحرة ويعطلها إدارياً، ويسجن الصحفيين ويطبق عليهم قوانين فرنسا بعد أن عدلها على صورة لا يمكن لصحفي بموجها أن يقف أمام محكمة إلا أرسلته إلى السجون - مع العلم بأن فرنسا لم تحبس أى صحفى في أيام الانتداب الفرنسي - ثم صار صاحبنا رياض بك يستعين في إدارة الدولة ببعض الأشرار والخونة «والقبضيات» والأشقياء والنهابين حتى اغتنوا جميعاً...

المرحوم عبد الحميد كرامة

وممن عاداهم رياض وكان يكيد لهم ويحاربهم ، المرحوم السيد عبد الحميد كرامة رئيس الوزارة الأسبق ، وهو الزعيم النظيف العفيف الصلب المتين، الذي كان يلقب «بمصطفى كامل بر الشام» فقد حاربه رياض بأساليبه وحيله ، وغدره وكيدته، حتى قصّر له عمره، فمات مكموذاً مقهوراً منه^(١) ولما أجرى رياض بك الانتخابات النيابية سنة ١٩٤٧ ارتكبت حكومته نفس الأساليب التي كان يقتربها الفرنسيون في أيام الاحتلال مع المخلصين ومع رياض نفسه حين كان منهم .. وقد وصفت جريدة «بيروت» في عددها الصادر يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٧ أعمال رياض في تلك الانتخابات بما نصه حرفياً :

وصف عهد رياض

«إنهم - ونعني رجال الحكومة اللبنانية - يفرضون علينا نواباً تلاعبوا بمقداراتنا . واستغلوا مواردنا وأفقروا أبناءنا وبعثوها ثورة حمراء دامية في طرابلس وغير طرابلس ، وتاجروا بالمخدرات ، وهربوا السلاح وتخطوا القوانين ، وحمو القتلة والسفاحين وأوكل القمار ، وبددوا أموال الخزنة ، وأموال دافع الضرائب ذات اليمين وذات اليسار ، وتاجروا بخصص الاستيراد والتصدير والنقد النادر ، وتركوا أهل لبنان يلفظون أنفاسهم من المرض والجوع والفقر . فهل ندع هؤلاء يصلون إلى النيابة ؟ وهل نتركهم يتحكمون في رقابنا أربع

(١) توفي المرحوم عبد الحميد كرامة في أواخر سنة ١٩٥٠ فاهتر العالم العربي لفقده وشيعته الأمة بتمام قوى حتى ان رئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ بشارة الخوري سافر بنفسه مع نعش الفقيد العظيم إلى طرابلس الشام ومشي في جنازته - والغريب أن رياض حضر الجنازة وراح يؤين المرحوم ويكيه على قبره بعد أن أماته قهراً ، وكأنه لم يصنع معه شيئاً ، كما غسل بيلاطس البنطى يديه مدعياً أنه برئ من صلب المسيح ...

سنوات جديدة يهلك في أثناءها الزرع والضرع ، ويفنى اللبنانيون بعد أن ذقنا الأمرين من هؤلاء النواب وضجت من عيوبهم الأرض والسماء .
ووصفت جريدة أخرى تلك الانتخابات بقولها :

« ولكن رياض الصلح الذي لعب لعبة الاستعمار بالنسبة إلى وادي النيل بتوسطه بين النقراشي والمستعمر لفرض مشروع الحماية الجديد على مصر ، يلعب لعبة الاستعمار الأثيم أيضا لمنع الشعب اللبناني من التعبير عن إرادته في انتخاب مرشحيه الحقيقيين . فقدمت الحكومة قائمة مرشحيها ، وأمرت القوات المسلحة بالتدخل بالقوة لمنع الناخبين من التصويت لمرشحيهم واتبعت الطرق « الصديقة » بمصر في تزيفها لإرادة الشعب اللبناني ... إلا أن الجماهير اللبنانية لم تقف مكتوفة الأيدي أمام هذا الاعتداء الصارخ على حقوقها .. هذا الاعتداء الذي يهدد وطنها واستقلالها ، فقامت المظاهرات في جميع أنحاء البلاد ونودي بالإضراب العام ، وانسحبت العناصر الوطنية من الانتخابات ، وألفت جبهة ديموقراطية لإنقاذ حرية الوطن واستقلاله ، وأعربت عن استنكارها لاعتداء الحكومة المسلح على حرية الشعب ، وطالبت بإلغاء الانتخابات المزيفة ... فاضطر رئيس الجمهورية أن يصرح بإمكان إلغاء الانتخابات إذا سمح بذلك الدستور !! » .

رياض ينفذ قوانين فرنسا ضد الوطنيين !

وفي أوائل أغسطس ١٩٤٧ قام زعماء البلاد اللبنانية - الذين أوصلوا رياض إلى الحكم - بعقد مؤتمر في صوفر برئاسة المرحوم السيد عبد الحميد كرامة رئيس الوزراء سابقا للنظر في حالة البلاد التي أهلكتها رياض ورهطه ، فإذا برياض يطبق عليهم قانوناً وجده بين مخلفات فرنسا ، وكانت قد أصدرته في سنة ١٩٣١ لمحاربة الحركات الوطنية ومحاربة رياض نفسه لما كان مجاهداً ، وهو يعرف بقانون ٤ حزيران ١٩٣١ ويعاقب بالحبس والغرامة ، فأرسل رياض الجيش اللبناني فحاصر مدينة صوفر ومنع الدخول إليها والخروج منها وجعل الطائرات تحلق فوقها للإرهاب ، مقلداً بذلك فرنسا في أيام الاستعمار ومقلداً أستاذه النقراشي في مصر ...

رياض وأنطون سعادة

وقد بلغ من انقلاب رياض على ماضيه الطيب أنه أصبح فتاكاً شديداً البطش بالأحرار والمصلحين ، ولعل أبرز ما كان منه لشدة خوفه على كرسى الحكم من أن يفلت منه ، أنه أخذ يشغل قوة الحكومة لطاردة الحركة القومية التي بعثها المرحوم أنطون سعادة رئيس الحزب القومي في لبنان ، بدلا من أن يهتم بمصير فلسطين التي ضاعت على يديه وعلى أيدي أمثاله من مترغمي العالم العربي ، فجعل حركة أنطون سعادة تواجه عدواناً مسلحاً من حكومته سنة ١٩٤٩ فساق عليها رياض قوة عسكرية - كان يجب أن تتجه لحماية أرض لبنان نفسه من اليهود - وكانت النتيجة أسر المرحوم أنطون سعادة بعد أن غدر به حسنى الزعيم الذي تغلب على سورية أشهراً وأراح الله العباد منه - أقول إن رياض شكل محكمة في نفس الليلة التي وقع فيها أنطون في قبضة الحكومة اللبنانية ، وجعل محكمته تحكم في تلك الليلة ذاتها بإعدام المرحوم أنطون سعادة ، ثم جعل جلاديه يعدمون في الليلة ذاتها !

وكانت النتيجة أن رياض بك الصلح المجاهد القديم أصبح في مثل حالة إبراهيم باشا عبد الهادي « الذي آتته حكومته باغتيال المرحوم الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين بالقاهرة » فأصبح رياض يعيش عيشة الخوف والفرع من أن يغتاله أنصار أنطون سعادة كما يعيش إبراهيم عبد الهادي الآن تحت الحراسة الشديدة التي تضيق الأنفاس ، وقد لمحت رياض الصلح في صيف ١٩٥٠ بفندق سان ستيفانو بالاسكندرية ، فإذا به محروس حتى في القطر المصري كما يحرسونه في لبنان بل أكثر ، بل إن رياض لا يجيء مصر إلا إذا جاء معه مدير الأمن العام اللبناني وبعض رجال شرطته ليشتروا مع بوليس مصر في المحافظة عليه !

ولما اعتزل رياض رئاسة الوزارة اللبنانية في شهر فبراير ١٩٥١ مضطراً تحت ضغط الحوادث ، قررت الحكومة اللبنانية إبقاء الحراسة عليه وهو خارج الحكم كما كانت وهو في الحكم ، فما أسوأ هذا المصير لمن ينقلبوا على أمتهم ويعادون قومهم ...

أثناء الهزيمة في فلسطين

وقبل أن أختم الكلام عن صديق رياض، أحب أن أجيب هنا على سؤال، وهو لماذا لم يصنع الجيش اللبناني شيئاً في حرب فلسطين؟ فأقول: إن القوة اللبنانية مشغولة دائماً في القتال مع اللبنانيين أنفسهم، فبعد قصة أنطون سعادة روت صحف بيروت نفسها، ومنها جريدة النداء البيروتية - وهي من الصحف الصديقة لرياض - بعض الحوادث عن بلاد بعلبك والهرمل في عددها الصادر يوم ٣٠ أغسطس ١٩٥٠ وهذه عنوانات ما نشرته النداء وهي تكفي لتصوير الحالة في عهد رياض وعلى يديه «بريتال، والخفر، ويونين، ووادي رعيان، تحت نيران المدفعية - نسف منازل الذين أهملوا إنذار الجيش - طائرات وقنابل - هل أطلقوا النار على طائرات الحكومة - نزوح القطعان والطروش الخ» ونشرت جريدة الشرق البيروتية عن تلك الغزوة العسكرية العنوانات التالية:



هكذا أصبحت صحف لبنان تصور رياض بك الصلح الذي كان مجاهداً فأصبح طاغية!

« حملة عسكرية على أربع قرى لبنانية - الطائرات والمدافع تساهم فيها - لم يشاءوا التسليم فزحفت الحملة بحافلها لتأديب القرى » ثم وصفت الصحف كيف دكت مدافع رياض الصلح منازل الأبرياء كما ذكرت الصحف أنها من المدافع الثقيلة، وكيف كانت الطائرات تقذف قنابلها على القرى الخ.

فالذي لم يفهمه الناس هو: أين كانت هذه الجيوش والمدافع الثقيلة والطائرات المدمرة في أثناء المعارك مع اليهود في حرب فلسطين؟ بل أين هي «الجيوش» الآن في سنة ١٩٥١ ونحن نقرأ كل يوم في الصحف أخبار هجمات اليهود على الأراضي اللبنانية والبطش بالقرى ونهبها وسلب مواشيتها ودك عمرانها؟

حسن الجزاء

أيام هناء

أظن أنه قد آن الأوان لأن أضع حدا لكدر أصدقائي الذين مروا بمئات الصفحات التي عرضت عليهم وصف جانب من حياة مكدره وما فيها من منغصات فآلمتهم وأحزنتهم، فيحسن بي أن أدخل شيئاً من السرور على قلوبهم بوصف ليلة مبهجة أنستني جميع آلامي ومصائبى، وكانت أكرم جزاء عوضنى عن جميع متاعبى.

ففى خريف ١٩٤٥ ألغيت الأحكام العرفية، وبذلك تم إطلاق من كل قيد سياسى يقيد حريتى، فأخذت أعد المعدات لإقامة حفلة شأى تجمع أصدقائي الذين كانوا يتألمون من أجلى وأنا سجين، والذين كانوا يساعدوننى وأنا هارب من السجن، والذين أمدونى بفضلهم ومودتهم، وأنسوا وحشتى وأنا تحت الرقابة العسكرية، مقيد الحركة، مكسور القلم، معتقل اللسان.

لجنة احتفال

وإذا بالسيد الجليل عبد الله الجفرى يزور مصر مرة أخرى : فلما درى بخبر إعدادى الحفلة قال والله إنه لأوجب على أمتك أن تقيم لك الحفلة لا أن تقيمها أنت، ثم اجتمع ببعض الأصدقاء وشكلوا لجنة تقوم بها وكانت اللجنة مؤلفة من حضرات الأصدقاء الفضلاء الآتية أسماؤهم: السيد عبد الله بن علوى الجفرى : رئيس نادى الأدب العربى بعدن، والأستاذ الحبيب بورقية : رئيس الحزب الدستورى بتونس، والأستاذ أحمد حسين المحامى : رئيس حزب مصر الفتاة، والأستاذ الفضيل الورتلاى : سكرتير جبهة شمال أفريقيا، والسيد اسماعيل بندا : معتمد لجنة استقلال اندونيسيا، والسيد محمد بن سميح : رئيس نادى الشبان العلويين.

وبعد ذلك وجهت اللجنة البطاقة التالية :

« بمناسبة إطلاق الحرية السياسية للمجاهد العربى الأستاذ محمد على الطاهر تألفت لجنة بالقاهرة لتكريمه واستقبال جهاده فى خدمة العروبة والحرية، فلجنة الاحتفال تتشرف بدعوتكم إلى تناول الشأى بفندق الكوتنتنتال الساعة الخامسة بعد ظهر يوم الأحد ٢٨ أكتوبر ١٩٤٥ ولكم الشكر. »

مصر ٢٢ أكتوبر ١٩٤٥

معتمد اللجنة : عبد الله بن علوى الجفرى

ابن ملك اليمن

وكان حضرة صاحب السمو الملكي الأمير سيف الإسلام عبد الله بن حميد الدين «شقيق جلالة الإمام الناصر لدين الله ملك اليمن الحالي» لا يزال في القطر المصري وكان في أيامها يصطاف في الاسكندرية .

فلما علم نبأ الحفلة تلتطف تفضلاً منه وكرماً بإرسال مبعوث من قبله يقول للسيد الجفري إن سموه الملكي سيحضرها بنفسه ، وقد جاء سموه قبيل الحفلة بدقائق قادماً من الإسكندرية بطائرة خاصة ، ومعه أركان الوفد اليمني وهم السادة القاضي محمد بن عبد الله العمري والعلامة السيد علي المؤيد والسيد حسين الكبسي « رحمه الله » والسيد هاشم بن هاشم .

فلما سمع المدعوون الذين بدأوا يفدون على الحفلة بوصول موكب سمو الأمير الجليل هرعوا معي إلى الباب الخارجي للكويتيننتال ، فرحبنا بسموه ، وأخذت لي ولهم صورة معه ، وبعد ذلك صعد سموه إلى الشرفة حيث أخذت له وبعض الذين وصلوا إلى الحفلة صورة أخرى



استقبال سمو الأمير سيف الإسلام وإلى يمينه سعادة سفير الأفغان
السيد صادق المجددي وإلى يساره محمد علي الطاهر



سمو الامير سيف الإسلام المعظم يتوسط الصورة جلست إلى يمينه عند علامة X
وجلس إلى يساره السيد عبد الله الجفري صاحب الدعوة

وصف الحفلة نقلا عن جريدة مصر الفتاة

أقيمت في الساعة الخامسة من مساء الأحد الماضي ٢٨ أكتوبر ١٩٤٥ بفندق الكونتنتال حفلة الشاي الفاخرة التي دعت إليها نخبة من كبار رجالات العرب والمسلمين تكريماً للمجاهد العربي الكبير الأستاذ محمد علي الطاهر بمناسبة إطلاق حريته السياسية بعد أن ألغيت الأحكام العرفية في مصر. وقد أشرف على هذه الدعوة لجنة مكونة من حضرات السيد عبدالله الجفري (الحج - اليمن) الأستاذ احمد حسين (مصر) والأستاذ الفضيل الورتلاني (شمال افريقيا) والأستاذ اسماعيل بندا (أندونيسيا) والأستاذ الحبيب بورقييه (تونس) والسيد محمد بن سميط (رئيس نادى العلويين).

وقد لبى الدعوة مئات من الكبراء والعظماء ورجالات العروبة والإسلام، من مصريين وأفغانين وسوريين وفلسطينيين وعراقيين وجزائريين ولبنانيين وحجازيين وأندونيسيين وتونسيين وصينيين وغيرهم... وفي مقدمتهم حضرة صاحب السمو الملكي الأمير سيف الإسلام عبدالله وحاشيته الكريمة وقد حضروا من الإسكندرية بالطائرة خصيصاً لحضور هذا الحفل، والسيد صادق المجددى وزير الأفغان المفوض وأصحاب السعادة والعزة الأساتذة فؤاد أباطة باشا وعبدالرحمن الرافعى بك

والدكتور محمد صلاح الدين بك وكيل وزارة الخارجية السابق « ووزير الخارجية الآن سنة ١٩٥١ » ومهدى رفيع مشكى بك والسيد ميرغنى الإدريسي والأستاذ محب الدين الخطيب والدكتور النعمانى بك وفريد زعلوك بك والأستاذ شوق أمين وعياد أبو الخير بك وإبراهيم فرج بك وعبد المجيد الرمالى بك واحمد عاصم بك ونجيب كنعان بك وفريد أبو عز الدين بك والأستاذ محمود تيمور بك وكامل كيلانى بك وعاصم النائلى بك ونسيب شهاب بك وحكمت الجادرجى بك والأستاذ الشيخ ابراهيم طفيش والشيخ يوسف عبد الرزاق المشهدى واحمد افندى حسن بدر وفوزى الملقى باشا والأستاذ فتحى رضوان المحامى والشاعر عادل الغضبان بك والشيخ محمد الخضر حسين والسيد محمد العتابى والسيد محمد البابى الجلبى والشيخ ابراهيم مجاهد والسيد احمد جودة ومحمود لطيف بك وفريد رفاعى بك وعبد القادر مختار بك وغيرهم وغيرهم ورجال السلك السياسى العربى - سورية ولبنان والأردن والعراق والحجاز - ورجال الأحزاب الذين يمثلون الهيئات على اختلاف نزعاتها ورجال الصحافة ، ووفد مدينة المنصورة الخ .

وقد خصص مكان للسيدات وقد حضرت منهن كثيرات من كرائم العقيلات وفي مقدمتهن السيدة هدى شعراوى باشا والآنسة حواء إدريس وحرمة المحتفى به وحرمة الأستاذ احمد حسين وحرمة ميرزا رفيع مشكى وحرمة الدكتور أمين رويحه بك والسيدة مفيدة عبد الرحمن المحامية وحرمة الدكتور نغرى أسعد وغيرهن . وقد انتهالت برقيات الاشتراك فى الحفلة من مصر والبلاد العربية وكلها تحمل أرق التهاني وأطيب التمنيات للمجاهد الكريم . وقد ألقى كلمة الافتتاح السيد عبد الله الجفرى رئيس نادى الأدب العربى بعدن وقد أشاد فى كلمته بمجهود المحتفى به فى سبيل الحرية والعروبة ، ثم تلاه الأستاذ الفضيل الورتلانى سكرتير جبهة الدفاع عن شمال افريقيا وسكرتير لجنة التكريم فألقى كلمة ، ثم تلاه الأستاذ احمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة فكانت كلمته هى تحية المجاهد الصادق لأخيه المجاهد الصادق وذكر بعض مآلقاته المحتفى به من آلام لم يتحملها وحده ، وإنما شاركته فيها السيدة الفاضلة حرمه ، وتحملت منها نصيباً كبيراً ، ثم تحدث الأستاذ الحبيب بورقيبه زعيم تونس والدكتور محمد صلاح الدين بك وميرزا رفيع مشكى بك والقمص عبد المسيح وفريد رفاعى بك وعيسى البندك ومحمود

لطيف بك . أما الشعر فقد كان له النصيب الوافر فقد ألفت القصائد الرائعة من الأساتذة على الجندى ، ومحمد عبد الغنى حسن ، وعلى احمد با كثير ، ومحمد الأسمر ، والدكتور رشيد كرم بك . وقد دارت مناظرة شعرية رائعة بين الأستاذين الجندى والأسمر عن الاستعمار في الشرق ، ومن المسئول عنه هل هم المستعمرون أم هم الشرقيون أنفسهم ..

ثم وقف الأستاذ المجاهد محمد على الطاهر في نهاية الحفل يشكر المحتفين به ، ويشيد بهؤلاء المجاهدين العرب المعتقلين في أراضى الدنيا كلها ، يلاقون مرارة الأسر ويتذوقون كؤوس العذاب ألوانا وألوانا ، ولم ينس هؤلاء الذين قضوا نحبهم في ظلمات السجون والاعتقالات وعلى رأسهم المرحوم ناجى باشا السويدي وأمين بك التميمي والدكتور مصطفى الوكيل .

وقد عاهد الجميع على أن يظل كما عاش دائماً ، مجاهداً من أجل العرب والمسلمين ، ولم يشأ المحتفلون أن تنتهى الحفلة دون اتخاذ قرارات للعمل والكفاح من أجل العالم العربى . وليعذرنا القراء فى الاكتفاء بهذه الإشارة البسيطة ، فجمال هذا العدد لا يسمح بأكثر من ذلك ، على أن لنا عودة لهذا الحفل العظيم فى العدد القادم إن شاء الله .

خطاب الأستاذ أحمد حسين

لاأريد أن أدرج فى هذا الكتاب جميع مادار فى الحفلة ، فهو كثير ، فقد خطب وأنشد فيها ١٤ خطيباً وشاعراً ، ولسكنى أدرج خطاب الأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة بصفته زميلاً فى سجون تلك الأيام ومن شهودها ، وخطاب صاحب المعالي الدكتور محمد صلاح الدين بك « وزير الخارجية الآن سنة ١٩٥١ » لأن خطابه لم ينشر فى الصحف ، قال الأستاذ أحمد حسين :

لعلكم تذكرون شوق الشاعر العبقري الخالد الذى قل أن يجود الزمان بمثله والذى أتممس له حتى لأعتبره أعظم شاعر عرفته العربية على الإطلاق ، ذلك الشاعر العظيم كان له مناس قوى فى عصره فى شخص حافظ بك ابراهيم شاعر النيل وكانت هناك عصابة تتشيع لحافظ وتفضله على شوق أمير الشعراء ، وكانت المجامع الأدبية كثيراً ماتنعد حول المفاضلة بين شوق

وشاعر النيل حافظ، فيغضب لذلك أقوام ويتعصب لذلك آخرون، إلى أن جاء الوقت الذي قررت فيه الأمم العربية كلها أن تكرم شوقي بمقدار ما ألف بين قلوبها وربط بينها وخلق شعره العربي الوحدة العربية قبل أن توجد بمظهرها الحديث، وجاءت وفود العربية من الشرق والغرب تكرم شوقي ووقف حافظ إبراهيم بين هذه الوفود يلقي قصيدته احتفالاً بشوقي فاستهلها هذا الاستهلال الرائع الذي حسم به هذه المنافسة الأدبية التي قامت بين الرجلين إلى الأبد ولا أظن فيكم من لا يذكر هذا البيت المدوي :

أمير القوافي قد أتيت مبايعاً وهذى وفود الشرق قد بايعت معي

قفز هذا البيت إلى رأسي بمجرد أن خطرت لي فكرة هذه الحفلة ووقوفى فيها متكهما في تكريم الأستاذ محمد علي الطاهر، فما أشبه الليلة بالبارحة وما أعظم النسبة بين شوقي والطاهر وما أشبه هذا الحفل بحفل شوقي الذي كرم فيه وبويع على زعامة الشعر .

جهاد قديم

لقد ربط شوقي بين الأمم العربية برباط من شعره الذي كان يتغنى به كل عربي، مامن موقف يثير السرور أو الشجن في أي قطر من الأقطار العربية ألا وتصدى شوقي لتخليده وتسجيله، مامن حادث، مامن مصيبة أو كارثة وقعت في أي قطر من الأقطار العربية في الشرق والغرب إلا وبادر شوقي مواسياً ومعزياً ومشجعاً ومستنهضاً الهمم، فربط القلوب وألف بينها وإذا كان محمد علي الطاهر ليس شاعراً فأشهد أن أعماله كلها هي قصائد غر ميامين، أشهد أن حياته في حقيقتها قصيدة رائعة تقصر دونها قصائد شوقي الخالدة. وقد لا تكون الفرصة قد أتحت لأبناء الجيل الجديد في الدول العربية أن يعرفوا الكثير عن الأستاذ الطاهر، وقد تكون الوحدة العربية والتحدث في الوحدة العربية قد أصبح اليوم على كل لسان وأصبح المتفاحون يتفاحون بها، ومحبو الظهور يتخذونها سبيلاً لتحقيق شهواتهم، إذا كانت الوحدة العربية قد ظفرت بطابع رسمي في شكل الجامعة العربية قد جعل تحقيقها أقرب إلى الواقع منه إلى الخيال إذا كانت الجامعة العربية قد أصبحت لها أمين يتفاوض باسمها ويستقبل رسمياً كممثل لجميع شعوبها إذا كان قد أصبح لها مجلس ولها دار ولها قوانين ولها قوة رسمية، فقبل ذلك كله كان الأستاذ

الطاهر ، يوم أن كان التحدث عن الوحدة العربية خرافة من الخرافات، يوم أن كان الاستعمار الأوربي قد نجح في خلب البابنا بالفرعونية والأشورية والتركية ومختلف الأجناس ، في ذلك الوقت الذي لم يكن فيه قطر عربي يفكر في زميله ، كان الأستاذ الطاهر يعمل في غير كلل أو ملل من أجل الوحدة العربية . أن الأستاذ محمد علي الطاهر فلسطيني بحسب مسقط رأسه ، ولكن هل عاش كذلك في مصر ؟ أشهد أنه لم يكن لفلسطين بأكثر مما كان لأي قطر من الأقطار العربية، أشهد أنه لم يكن لفلسطين بأكثر مما كان لمصر ، أي نائبة من النواب أصابت العالم العربي في أي ركن من أركانه لم يكن الأستاذ الطاهر أول من يسارع فيه إلى النجدة بالمال والقلم والقلب والروح كلها .. ألم يكن هو الرجل الذي وقف خلف كفاح عمر المختار وقفة جبارة يحشد له الأنصار في مصر ويجمع له المال وينفخ في البوق على صفحات جرائد مصر كلها للأخذ بناصر عمر المختار، حتى إذا كانت الحرب العظمى الماضية كان أول من اعتقل اتقاء لخطره وتهدة لخواطر المستعمرين الإنكليز ، ولم يكد يطلق سراحه بعد هذا الاعتقال الطويل حتى قام يكافح ويناضل من أجل قضية مصر عند ماثارت ثورتها، ومن أجل قضية سوريا عند ماثارت ثورتها، ومن أجل قضية العراق عند ما أسست دولتها، وأخيرا من أجل قضية فلسطين عند ما أريد لها أن تضحي وتذبح على هيكل اليهود والصهيونية ، وإني أستحلفكم بالله أيها السادة أنتم الذين عرفتموه وعاصرتم هذه المواقف هل رأيتموه في يوم من الأيام إلا مكافحا ، هل رأيتموه إلا مواصلا الليل بالنهار كالسوط الناري يدفع بالمجاهدين إلى الأمام متصدرا الصفوف حيناً وعاملا بالساقة حيناً آخر، ظاهراً في بعض المواقف وعاملاً في الخفاء في مواقف أخرى، أسائل كل من عرف الأستاذ الطاهر في يوم من الأيام هل وجده يوماً شاكياً أو باكياً أو متراخياً أو متكاسلاً في خدمة قضية من القضايا ؟ لا يوجد اليوم طول البلاد العربية وعرضها من لم ينتفع بجهاد الطاهر، ومن منا لم يدرك شيئاً من ثمار كفاحه وإن لم يحس أو يشعر ، وإني لأنظر إليكم وأسرح بصري إلى خارج جدران هذه القاعة حيث أرى مجاهدين كانوا زملاء للطاهر وهم اليوم رؤساء وزارات أو برلمانات ، وهم يحتلون أكبر المناصب هنا وهناك ، أما الأستاذ الطاهر فلا زال كما كان بعد خمسين سنة من ميلاده يفرح

الليلة ويطرب ، لا لأنكم اجتمعتم لتكريمه فهو أزهدهم الناس في أن يكرم ولكن لأنه سوف يستأنف من الغد جهاده ونضاله من أجل هذا العالم العربي المتراعى الآفاق والذي يشعر الأستاذ محمد علي الطاهر بأنه وطنه وبأنه مسئول عن الكفاح والجهاد من أجله .



المائدة الرئيسية للحفلة وقد وقف الاستاذ احمد حسين يلقي خطابه

الاعتقال

لقد أعاد التاريخ نفسه في هذه الحرب فاعتقل الطاهر من جديد ولاعتقاله قصة مليئة بالمغامرات تبدأ بإبذاره المستمر لي أنني سأكون أول من يعتقل وأن قيام الحرب سيحول بينه وبين استئناف نشاطه فلن يكتب كما يجب أن يكتب ولن ينشط كما يجب أن ينشط وإذن فمن الخير أن يفرض على نفسه الكف عن كل نشاط وكل حركة وكل كتابة ولكن عين الإنكليز الساهرة ما كانت لتتركه وشأنه فكان أن طلبت من الحكومة المصرية أن تعتقله فكان الأستاذ محمد علي الطاهر أول معتقل في مصر كلها، فحاز بذلك أعظم شرف ونخار لابين القاعدين ولكن بين المجاهدين ، فاستحق أن يطلق عليه عميد المجاهدين .

اعتقل الأستاذ الطاهر وليعفى من أن أحدثكم عن سوء المعاملة التي عومل بها فإن هذه الذكريات تجرح نفسي وعاطفتي كمصري يحب بلاده ، فليعفى الأستاذ من أن أطيل عليكم في وصف آلامه حين حبسوه الشهور الطوال في زنزانة ضيقة محكمة الأبواب وليسمح لي أن أوفر عليكم ونحن في مقام فرح وسرور أن أمس مشاعركم بذكر هذه المأساة التي ماتت فيها ابنته الشهيدة ، وكيف فتح له باب السجن في يوم من الأيام ودعوه للخروج ولكن لا إلى الحرية بل لمدة ساعتين يشيع فيها جنازة ابنته .

وتعذيب قرينته

دعونا من ذلك كله أيها السادة فهو في تاريخ المجاهدين طبيعي وعادي ، ولكن الذي لا أستطيع بحال أن أغفل ذكره هو يوم أن امتدت يدا الاضطهاد إلى زوجته الكريمة فطاردها وضيق عليها الخناق ثم اعتدى عليها بالضرب وسيقت إلى السجن ، وكنت أنا من شهود هذه المأساة حيث كنت سجينا في ذلك السجن نفسه ، فإذا بي أصطبغ في يوم من الأيام بأسيرة جديدة ، ولم تكن هذه الأسيرة إلا زوجة أخي المجاهد محمد علي الطاهر التي أوديت من أجل صبرها إلى جوار زوجها . وأشهد أنها قابلت هذه المحن واحتملتها كما يليق بالعربية المجاهدة الصادقة ، ولذلك فقد أصررت على أن تكون من شهود هذه الحفلة كي تسمع وترى كيف تكرم الفضيلة والبطولة ، وكيف نحى في شخصها زوجاتنا المجاهدات الصابرات إلى جوارنا ، صفقوا لها أيها السادة واحتوا لها الرؤوس احتراماً وتكريماً .

عذاب بعد عذاب

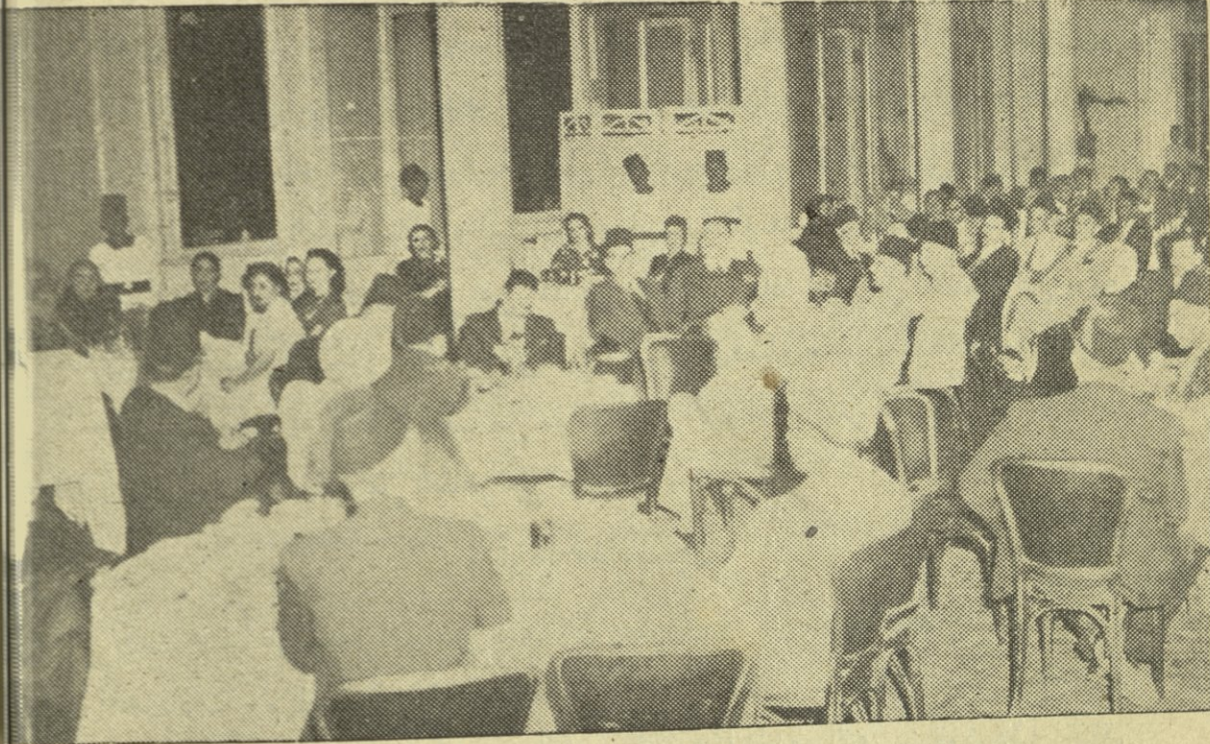
وانتهت الحرب أيها السادة وخرج الأستاذ محمد علي الطاهر من اعتقاله ومن مطاردة البوليس ، خرج من الحرب فقيراً إلا من الستر ، خرج ليرى العالم العربي في الشرق يضطهد من جديد ! ليرى أن كل الوعود والعهود التي قيلت في هذه الحرب لم تكن إلا خداعاً وتغريراً وضحكا على الشعوب ، وقديدهش أبناء الجيل الجديد لذلك ، أما هو فلم يدهش لأنه قد جرب ذلك في الحرب الأولى ١٩١٤-١٩١٨ ، وقد خرج الأستاذ الطاهر إلى الحياة السياسية من جديد فوجد كل شيء من حوله قد تبدل وقد تغير إلا شيئاً واحداً وهو أن فلسطين لا تزال هي فلسطين الشهيدة وأن سوريا هي سوريا المجاهدة التي ما فتئت تلقى من العذاب والويلات ألواناً ، وأن تونس ومراكش

والجزائر وليبيا هي كسابق العهد بها ، يذبح أبطالها وتهدم قراها ويحارب دينها . والأستاذ الطاهر قد بلغ الآن الخمسين من عمره ، أى أنه لم يعد فى سن الشباب والحركة والفتوة ، ولكن هل يئس الأستاذ من مواصلة الكفاح ؟ هل أخذ إلى الراحة والسكون والدعة ؟ هل فكر فى تحصيل معاشه كما يحق لكل إنسان أن يفكر ؟ سلوا أبناء أندونيسيا ما الذى فعله معهم الأستاذ الطاهر لكى يقيم الدنيا ويقعدها من أجل قضية أندونيسيا ، سلوا أحرار شمال أفريقيا سلوا الفضيل الورتلانى ، سلو الحبيب بورقيبة ، سلوهم ماذا يفعل الأستاذ الطاهر من أجل قضية شمال أفريقيا وكيف يدور على الصحف بالليل والنهار ليوزع عليهم بيانا أو نداء واستغاثة إنقاذا لشمال أفريقيا ايه أيها السادة ماذا أقول لكم عن محمد على الطاهر وماذا أعيد هل أحدثكم عن يومه العادى كيف يقضيه وكيف يذرع القاهرة من شرقها لغربها فى قضاء حاجات المجاهدين وشؤونهم ، سأجتزئ من ذلك كله بذكر موقف من مواقفه معى أنا والذى أشعر أنه ربطنى به إلى الأبد فقد رأيت فيه الأستاذ محمد على الطاهر على حقيقته .

زيارة أحمد حسين

كنت مختفيا عن أنظار البوليس الذى كان يطاردنى فى كل مكان ، وقد جال فى خاطرى أن أذهب ذات يوم إلى منزل الأستاذ محمد على الطاهر ، فإذا به يستقبلنى أحسن استقبال ، فى الوقت الذى كان يفر منى فيه كثير من الناس ، كان هذا المجاهد الذى يضيقون عليه الخناق ويريدون أن يعيدوه إلى أعماق السجون والمعتقلات ، يستبشر بهذا اللقاء ، ولا يستطيع أن يظهر الفرح والسرور فحسب ، بل إذا به يخرج كل مامعه من مال ويعطينى إياه ... وعبثا أحاول أن أفهمه أن معى مالا يكفينى ، ولكنه يصر على أن يعطينى كل مامعه فقد أحتاج إليه ، وإذا به يحضر لى البطاطين وغيرها من الأثاث فقد أكون فى حاجة إليها .. وإذا به يجيل بصره هنا وهناك فلا يرى إلا سجادة فاخرة كان أحمد حلمى باشا صديقه قد أهداه إياها يوم زواجه فإذا به يطويها طيا ويحملنى إياها ، فقد أكون فى حاجة إليها ! وهكذا عبثا حاولت أن أفهمه أننى لست فى حاجة إلى شئ فلم يكن ذلك بمستطاع وخرجت من بيته إلى مخبئى أحمل كل هذه النفائس !^(١) هذا هو محمد على الطاهر ، وهذا الذى فعله معى وهو ما يفعله فى كل يوم ومع كل الناس وإنى أنتهز هذه الفرصة لكى أشكوه لكم وأطلب وساطتكم عنده ليخفف عنى ، فقد يوقظنى

في منتصف الليل لأساعده في إغاثة ملهوف ، ولقد يطوف في أقسام القاهرة كلها قضاء لحاجة شيخ من شيوخ المجاهدين ، ولقد لاحظ الذين ذهبوا لاستقبال وزير سورية الجديد جميل بك مردم أن الأستاذ محمد علي الطاهر لم يكن موجوداً فعجب كل من كان على المحطة لأنه لا يوجد



الجناح الأيسر للحفلة وقد ظهرت السيدات فيها عند ما كان الاستاذ الحبيب بورقيبة زعيم تونس يخطب



الجناح اليمين للحفلة

فيهم من لم ينبه عليه الأستاذ الطاهر بضرورة الحضور، ليس فيهم من لم تدفعه حماسة الأستاذ الطاهر للتبكير في الذهاب إلى المحطة ، فلما لم يروه فيها عجبوا ودهشوا ، أما أنا فقد خفت أن يكون أصابه مكروه ، أتعرفون أيها السادة ما الذي أخره عن الذهاب؟ لقد أخره استغاثة أحد معارفه حيث كان في شجار مع بعض الرعاع فوقف إلى جواره ليخرجه من محنته ، ولم يرض أن يدعه حتى يبلغه مأمنه ، وبذلك تأخر عن هذا الواجب الذي دعا إليه الناس جميعاً، ولكن ليقوم بواجب أقدس في سكون وخفاء بعيداً عن الضجيج والضوضاء وهو أن يغيث ملهوفاً من الناس ، ويطول بي الحديث إذا حدثتكم عن هذه الناحية فيه .. ولعلّي وقد وصلت إلى هذا الحد أعود مستطرداً لما بدأت به حديثي من المشاكلة بين هذا الاجتماع وحفل تكريم شوقي . فالأستاذ الطاهر قد عمل للعروبة بجهاده بأعظم مما عمل شوقي بقصائده وإني لأقف منه الآن موقف حافظ من شوقي فأحييه من أعماق قلبي كما هتف حافظ بشوقي من قبل :

أمير (جهاد الشرق) جئت مبايعاً وهذى وفود الشرق قد بايعت معي

خطبة الدكتور محمد صلاح الدين بك

حضرة صاحب السمو الأمير الجليل - سيداتي - سادتي .
يظهر لي أن للشعر الليلة في هذه الحفلة الرائعة حظاً كبيراً ، فقد استشهد الخطيب الأول بكثير من الأبيات الشعرية البليغة وأشار الخطيب الثاني إلى مناسبة شعرية مشهورة وهي مناسبة إجماع البلاد العربية على تكريم أمير الشعراء المغفور له أحمد شوقي بك . وروى البيت المشهور الذي بايع به شاعر النيل المغفور له حافظ إبراهيم بك صديقه شوقي بك على إمارة الشعر ، بل يمكن أن أقول إن كل مافي هذه الحفلة شعري يوحى بالشعر والخيال . وأن الحفلة نفسها إنما هي قصيدة رائعة في الوفاء وعرفان الجميل ، كما أن المحتفل به قصيدة رائعة في التضحية والجهاد الطويل . ومن أجل هذا كله أراني ميالاً بدوري إلى الاستشهاد بكلام الشعراء يقول الشاعر المتنبي :

وغين الرضا عن كل عيب كليله كما أن عين السخط تبدى المساويا

وقد جرى هذا البيت المشهور مجرى الأمثال ، ولكنه مع ذلك قليل الحظ معي ، وأنا قليل الحظ معه ، فأنا أنظر إلى أبي الحسن بعين الرضا بل أنظر إليه بعين كلها الرضا ، ومع ذلك لا أرى محاسنه وحدها بل أرى مساوئه أيضاً... ولكنني سأذكر لكم المحاسن ، وسأحتفظ

بالمساوىء لنفسى ! ولن أبوح لكم بها أو أشير إليها كما فعل الأستاذ الورتلانى حينما ذكركم
بشدته وحدته وعصبيته ! وهى كما ترون ليست بالعيوب الخطيرة . وإذا جاز اعتبارها عيوباً
فهى عيوب على هامش الحسنات ، بل هى عيوب على حد قول الشاعر العربى :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وإذا كنت كما أسلفت قليل الحظ مع البيت الشعرى سابق الذكر ، فلمتنبى ، بيت
آخر أراه ينطبق كل الانطباق على المحتفل به فقد قال المتنبى .

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

وكأنما يصف المتنبى بهذا البيت البليغ الحكيم صديقنا أبا الحسن ، فقد كبرت همته
فدقت هيئته ، وعظم إيمانه فصغر جثامه ، وأضناه الكفاح الطويل والجهاد الموصول حتى كاد
ينطبق عليه قول المتنبى فى قصيدة أخرى .

كفى بجسمى نحولاً إننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

ولا عجب أيها السادة أن يكون ذلك شأنه ، فالمجاهدون للحريات يحملون فى الغالب
عبء الجهاد لوطن واحد ، أما الأستاذ الطاهر فيأبى إلا أن يكون جهاده للأوطان العربية
والإسلامية جميعاً دون أى استثناء ، فهو لا يحمل فقط هموم فلسطين وحدها ، وهى هموم
ثقال تنوء بها شم الجبال ، ولكن يحمل أيضاً هم مصر والعراق والشام ولبنان وليبيا وتونس
والجزائر ومراكش وأندونيسيا ، وسائر الأقطار العربية والإسلامية . فلا عجب وهذا شأنه
أن ينال من الأقطار العربية والإسلامية جميعها كل محبة واعزاز وتقدير ، ولا عجب أن
توجه الدعوة إلى هذه الحفلة التى تقام لتكريمه من ستة من الرجات العاملين المخلصين ، ينتمون إلى
ستة من الأقطار العربية والإسلامية المجاهدة للحريات والاستقلال . ولا عجب أن يتفضل
أمير اليمن بالحضور خصيصاً من الاسكندرية للاشتراك فى هذا الاحتفال .

أيها السادة : لقد آن أن أغادر هذا المنبر ، فقد مرت الدقائق الخمس التى حددتها الميقا
لكل خطيب ، ولكنى لا أبرح مكانى قبل أن أشارك بدورى فى توجيه تحيات طيبات إلى
حضرة السيدة الفاضلة زوج الأستاذ الطاهر وشريكته فى الحياة والجهاد ، ثم لا أبرح مكانى
قبل أن استشهد ببيت أخير فأقول ، يا أبا الحسن لقد صدق والله من قال :

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفى أثوابه أسد مزير

مشتركون في الحفاة

وقد وصلت إلى لجنة الاحتفال برقيات ورسائل كثيرة يشترك مرسلوها مع المحتفلين، ومنهم الزعيم الفلسطيني المجاهد أحمد حلمى باشا من القدس، وشاعر الأقطار العربية خليل بك المطران، واللواء محمد صالح باشا حرب الرئيس العام لجمعية الشبان المسلمين، والأستاذ سعيد بشناق من الناصرة، والأستاذ الشاعر حسن أحمد با كثير بالاسكندرية، وفرقة الكشفة برام الله بفلسطين، والقاضى محمد برادعى العباسى بك من حيفا، والعلامة عادل زعيتربك المحامى من نابلس، والدكتور يوسف هيكل بك رئيس بلدية يافا، والدكتور مصطفى البشناق بك من نابلس، والسيد نظام حسين الحسن من البيرة بفلسطين، وفريد عنبتاوى بك رئيس الحزب العربى بنابلس، وعبد المنصف محمود باشا من الاسكندرية، ونبیه العظمة بك من دمشق، والسيد على جودة من البيرة، وأكرم زعيتربك من دمشق، والسيد احمد بك الإمام من حيفا، والسيد عبد الله جودة رئيس بلدية البيرة، والحاج أديب خير من أعيان دمشق، وجريدة البيان فى الولايات المتحدة، وصبحى بك الخضراء المحامى من القدس، ومحمد على علوبة باشا الوزير السابق، وعبد الرحمن السكسك سكرتير الجبهة العربية فى يافا، والحاج محمد سالم سالم بك من أعيان القاهرة، والسيد ابراهيم البزرى مدير شركة الكهرباء فى حمص، والسيدان أسعد بك الغصين والدكتور نورى الغصين من الرملة، والوجيهان عز الدين وجميل كمال من نابلس! والأستاذ مصطفى الطاهر من يافا، والأستاذ عبد الواحد خلاف بك من القاهرة وأنطون الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام، والأستاذ أبو الخير نجيب بك، والبير عمون بك، والدكتور يعقوب خورى من القاهرة، والأستاذ جميل القدومى من فضلاء يافا، والحاج سعيد كمال من أعيان نابلس، والأستاذ راشد رستم بك بالمعادى والسيد هشام زعيتربك من نابلس، وآل العلمى وآل خيال من أعيان غزة، والأستاذ أديب مهيبار من نابلس، والدكتور كامل حنون من طولسكرم، والدكتور أحمد الطاهر من نابلس، والأستاذ محمود زكى بك وكيل وزارة التموين، والسيد ماجد القطب من نابلس، والأستاذ أحمد محمد نعمان الزعيم اليماني من عدن، وجريدة العراق ببغداد، وجريدة الأفكار بعبدن، والأستاذ الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين وشقيقه الأستاذ عبد الرحمن البنا المراقب العام، وتحسين العسكرى بك وزير العراق المفوض بمصر وجريدة المصرى، والشيخ توفيق السمهورى من يافا، وجريدة النداء ببغداد، وجريدة

الوفد المصرى ، وجريدة الأهرام بالقاهرة ، والسيد عاهد الطاهر وأولاده من نابلس ، ومجلة الصباح ومجلة الفتح ومجلة الرابطة بالقاهرة والشيخ حسين البرزى من صيدا ، وجريدة الاستقلال بالأرجنتين والأستاذ جميل بك وهبة من القدس ، والأستاذ حنا خميسة من حيفا ، والأستاذ عبد الله اسماعيل من جرجا ، والأستاذ سعيد ابراهيم فايد من شبرا دمنهور ، والسيد محمد أديب غالب بهرام من طرابلس الشام ، والأستاذ عبد الرؤوف المصرى من نابلس والأستاذ رفيق التيمى من يافا والأستاذ محمد محمود الصواف من علماء الموصل والسيد وجيه البشتاوى من نابلس ، وعبد الرحمن الحاج ابراهيم بك رئيس بلدية طولكرم ، والسيد قاسم عبد الهادى من رام الله ، والعلامة الشيخ عبد القادر المغربى من دمشق وكريمته الأستاذة نعيمة هانم ، والأستاذ محمود أبورية من علماء المنصورة ، والأستاذ سيد ابراهيم الخطاط ، والسيد عرفات سليم البيطار من القدس والسيد رفعت النابلسى من نابلس ، وجريدة الوحدة بالقدس ، وجريدة البلاد ببغداد ، ومجلة المصور بالقاهرة ، والسيد سلام فارح من اليمن ، والسيد سعيد الشرقاوى من يافا والسيد سبع الطاهر من نابلس الخ .

كلمة أخيرة

إن هذه الحفلة قد أثرت فى نفسى تأثيراً عميقاً ، وجعلتنى أستصغر كل ما لقيت قبل ذلك من عذاب ، وأن أقتنع قناعة لاشك فيها بأن الذى يعمل فى سبيل الله ، لا بد له فى النهاية أن يلقى حسن الجزاء ، فما كان لله فهو المتصل وما كان لغير الله فهو المنفصل ، فقد ثبت ثبوتاً قاطعاً بأن الله لا يضيع مثقال ذرة ، فكيف وقد عجل سبحانه وتعالى بمكافأتى فى حياتى خير مكافئة ، وعزائى عما لقيت من الآلام النفسانية التى نالتنى من خذلان بعض الناس وغدرهم وخبثهم أجمل العزاء ، بعد أن كدت أظن أن الدنيا قد خلت من الأخلاق ، وفقدت الوفاء وأفقرت من الخير كله ! إذن فقد قبضت الثمن عاجلاً وكان مجزياً ، فما علىّ بعد ذلك إلا أن أمضى فى طريقى فى مكافحة المستعمرين ومناجزة الظالمين ومساعدة المظلومين ، لأستحق هذا التقريظ الذى سمعته فى الحفلة ، حتى لا أكون مخادعاً للذين خطبوا وتكلموا ، أو سارقاً لحسن ظن الذين حضروا الحفلة وسمعوا ، كما خدعنى ذلك البعض من الناس الذين تمتعوا بحسن ظنى بهم وتشجيعى لهم فإذا بهم عندما جد الجد ينكثون غزلهم وينكصون على أعقابهم ويسرقوننى ثم يسخرون منى ! فالحمد لله على كل حال .

شکری القوتلی

تاريخ قديم ...

نحن الآن في صيف سنة ١٩٢٠ في حيفا بفلسطين - أو ما كان يسمى فلسطين ! - في صبيحة ذلك اليوم ذهبت إلى فندق الشرق المتواضع المتوسط وكان يطل على الميناء ، فدخلت أول غرفة على اليمين بعد الدرج فوجدت فيها الشيخ كامل القصاب صديقي وأستاذي القديم^(١) وكان يتحدث مع « أفندي » طويل القامة وجيه الذات ، فبعد أن رحب بي قام بتعريف صديقه بي وتعريفى به ، فإذا هو السيد شكري القوتلي أحد شبان دمشق النبلاء ، فحيته بعودة واحترام ، لأن جهاد هذه الشخصية الممتازة في العصر العثماني كان معروفاً ومشهوراً . كان هذا اللقاء بشكري بك قد حصل على أثر ضياع الدولة العربية السورية في الشام ، وعدوان فرنسا عليها وإزالتها بالقوة الوحشية ، وإخراج الملك فيصل من سورية ، فجاء الملك يومها إلى فلسطين ونزل مدينة حيفا حيث حل في دار الحاكم . وأما الذين تزحوا معه فقد نزلوا بفنادق المدينة متفرقين ، وكان بينهم الشيخ كامل القصاب وشكري بك القوتلي ورسم بك حيدر وعوني بك عبد الهادي وغيرهم وغيرهم .

في القاهرة

ولم أخلط بشكري بك بعد ذلك إلا في مصر قبل قيام ثورة سورية التي نشبت سنة ١٩٢٥ حيث هاجر إليها هو وعدد كبير من رجال سورية ومنهم أحمد حلمي باشا ، والشيخ كامل القصاب ، ورشيد بك طليع ، والأمير عادل أرسلان ، والحاج أديب خير ، وخالد بك الحكيم ، ونبیه بك العظمة ، وفؤاد بك سليم ، ونجيب بك شقير ، وغيرهم . ولما قامت الثورة ذهب إليها الأمير ثم فؤاد سليم حيث استشهد رحمه الله .

وكانت جريدة « الشورى » في تلك الأيام في أوائل ظهورها ، فلما قامت الثورة كانت

(١) هو زعيم الشام في عصره وقائد حركتها القديم ، والمهاجر في سبيل الله بعد ذلك نحو عشرين عاماً في مصر والحجاز ونجد وفلسطين ، وهو الآن سنة ١٩٥١ في دمشق بعد أن اعتزل السياسة وأهلها لكثرة ما لقي من إتشكاس الزملاء وكيد الأصدقاء وخذل الأولياء .

وحدها القائمة في مصر تحمل علم الجهاد والمجاهدين وتذيع أخبارهم وتنشر فظائع فرنسا ،
فمنعتها عن سورية ولبنان ، كما أن الإنكليز أيضاً منعوها عن فلسطين والأردن والعراق إكراماً
لفرنسا ! فصرت أهربها إلى بر الشام والعراق ، وأحتال على إرسالها بطبع طبعة ثانية منها
باسم آخر وأدخلها إلى تلك البلاد ، وكان أحرار سورية قد جعلوا من الجريدة ومكتبها بالقاهرة
مركزاً لنشاط النازحين ، فكانوا يلتقون فيها وينشرون دعايتهم على صفحاتها .

ولما حصل الانقسام بينهم وبين فريق آخر من السوريين الذين جاءوا مصر بعد الثورة
وفيهم حسن الحكيم وسعيد حيدر والدكتور عبدالرحمن شهبندر والدكتور نجيب الارمنازي
وأمثالهم ، لم أتردد في الوقوف في جانب المناضلين الحقيقيين الذين فيهم الأمير عادل أرسلان
وشكري القوتلي والسيد رشيد رضا ونبیه العظمه والشيخ كامل القصاب ، ويظاھرهم في أوروبا
الوفد السوري المؤلف من الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري ورياض الصلح ،
ويظاھرهم كذلك في فلسطين الحاج أمين الحسيني وجماعات الوطنيين ، كما كان يؤيدهم في جبال
سورية ومعاقليها سلطان باشا الأطرش القائد العام وجماعته ، ثم جاء مصر الدكتور أمين
رويحة وعز الدين باشا الحلبي ونسيب شهاب والدكتور سعيد عودة وصبري بك العسلي
وابن عمه المرحوم عبد اللطيف بك العسلي وعلى بك عبيد وغيرهم .

وكان شكري بك يذهب أحياناً إلى القدس ليكون قريباً من ميدان الثورة لتغذيتها
وتارة يذهب إلى نجد والحجاز يسعى في سبيلها ، وتارة يعود إلى مصر التي جعلها دار إقامة
فينشر الدعاية ويدبر الأمور .

وهذا نص كتاب مما كان يدور بيني وبين شكري بك من رسائل ففيه بعض الأخبار
ووصف الأحوال الجارية بين المواطنين المختلفين ...

أول كتاب من شكري بك

القدس في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧

حضرة الأستاذ الكريم والأخ الصادق السيد محمد علي الطاهر حفظه الله آمين .
أقدم لك تحياتي واحترامي ؛ وبعد فإن إعجابي بجهادك في سبيل الدفاع عن حقوق هذه

الأمة العربية الإسلامية لكبير وإن الأمة التي يدافع عنها رجال مخلصون أمثال الأستاذ الطاهر لا بد أن تصل يوماً ما إلى ما تنشده من حق الحياة في هذا العالم .

أبرقت إليكم أمس برقية رجوتكم فيها عدم نشر المضابط المرسلة إليكم نظراً لضررها للمصلحة العامة وتفصيل ذلك : هو أن المشاغبات التي يدعو إليها ويقوم بإيقاد نارها فلان لا يفيد منها إلا الأجنبي ويجعله يتصلب في مطالبه ويضيق على القاطنين في البلاد لاعتقاده أن الثورة قد تلاشت بسبب الاختلاف والشقاق الحاصل بين صفوف المجاهدين ... ثم يقول: لذلك أبرقت إليكم بالأمس راجياً منكم عدم نشر ذلك في صحيفتكم . والآن أكرر رجائي هذا أيضاً وأرجو أن تطووا هذه المضابط ولا تنشروها . ويكفي أن المخلصين في البلاد كلها يعلمون درجة جهاد القائمين بخدمتها بدون ثمة حاجة إلى مضابط أو غير ذلك . ولا أخالك إلا ملبياً رجائي . وقد عنفت مرسل المضابط الذي أرسلها بدون علمي الخ .

شكري القوتلي

في فلسطين - وكتاب عن الماضي

وظلت العلاقة بيننا مستمرة بلا انقطاع، وكنا - شكري بك وأنا - في المؤتمر الإسلامي العام بالقدس على أتم التفاهم نرى الأمور بعين واحدة وفكر واحد لأننا كنا نسعى في سبيل هدف واحد، وفي سنة ١٩٣٢ كان شكري بك في دمشق حيث عاد إليها طبعاً واستقر فيها، ثم جاء لفلسطين مرة أخرى وكنت هناك في تلك الأيام فجاءني لنابلس وطلب أن أذهب معه ومع بعض الأصدقاء إلى حيفا وعكا لنساعده على جمع اكتتابات لأسهم شركة الكونسروة بدمشق، وقد اشتركت مدينة عكا بـ ٩٥ سهماً فساهمت إكراماً له بخمسة أسهم، وهي نسبة كبيرة بالنسبة إلى وقليلة جداً بالنسبة لمدينة بأسرها، ثم غاد شكري بك لدمشق وعدت أنا إلى القاهرة، وكان يكتب لي طالباً أن أوافيه بمقترحاتي عما يفيد الشركة إن أرسلت متوجتها إلى مصر، فوافيته بتقرير استحق أن يبعث لي كتاب شكر من أجله، ثم توالى الأحداث إلى أن تشكلت الجمهورية الاستقلالية الأولى في سورية سنة ١٩٣٧ برئاسة نخامة هاشم الأتاسي فتولى شكري بك وزارة المالية فأرسلت أهنته فأجابني بالكتاب الآتي - وسيعرف قرأني سبب إيراد بعض المكاتب :

حضرة الأخ الفاضل السيد محمد علي الطاهر حفظه الله :

سلاماً واحتراماً وبعد تلقيت كتابكم الرقيق الذي تلطفتم فخصصتموني فيه بصادق تهنئكم
وجميل عواطفكم وكامل ثقتكم فشكرت لكم أعمق الشكر هذه العواطف الطيبة وإني لأسأل
الله تعالى توفيقنا إلى تحقيق الأمانى الوطنية، ولا أنسى في هذه الفترة التي تتوصل فيها سورية
العزيزة إلى تحقيق أمانها أن أعترف بما كان لكم من فضل الجهاد والمساهمة في الخدمة العامة
حتى بلغت قضيتنا هذه المرحلة الموقفة سائلاً الله تعالى لفلسطين العزيزة الكريمة التوفيق إلى
ما ترغب وترضى ، وتفضلوا بقبول فائق احترامى ؟

دمشق ١٢ / ١ / ١٩٣٧

شكرى القوتلى

MINISTÈRE DES FINANCES

Personnel

وزارة المالية

شعوبي

حضرة الأخ الفاضل السيد محمد علي الطاهر حفظه الله

سلاماً واحتراماً وبعد تلقيت كتابكم الرقيق الذي تلطفتم فخصصتموني
فيه بصادق تهنئكم وجميل عواطفكم وكامل ثقتكم فشكرت لكم أعمق الشكر
وأجله هذه العواطف الطيبة وإني لأسأل الله تعالى توفيقنا إلى
تحقيق الأمانى القومية الكبرى
ولا أنسى في هذه الفترة التي تتوصل فيها سورية العزيزة إلى تحقيق
أمانها أن أعترف بما كان لكم من فضل الجهاد والمساهمة في الخدمة
العامة حتى بلغت قضيتنا هذه المرحلة الموقفة سائلاً الله تعالى
لفلسطين العزيزة الكريمة التوفيق إلى ما ترغب وترضى
وتفضلوا بقبول فائق احتراماتي

دمشق في ١٢ / ١ / ١٩٣٧

[Signature]

إعادة الجريدة

ولما عزمت على إصدار الشورى مرة ثانية أردت أخذ آراء الأصدقاء القدماء أولاً فكتبت إليهم فأجابوني مشجعين وفي مقدمتهم شكرى بك وزير مالية سورية فأجابني بالكتاب الآتى:

حضرة الأخ الفاضل الأستاذ محمد على افندى الطاهر حفظه الله .

...وبعد فقد تناولت كتابكم الكريم الذى ذكرتم فيه أنكم عزمتم على إصدار جريدة حرة لخدمة القضية العربية . فقبل كل شيء أعتذر إليكم فى تأخرى عن الإجابة حتى الآن وذلك بسبب ما توالى علينا من الأشغال التى لا تخفى عليكم ، وهما نحن اليوم قد اضطلعنا بأعباء ثقيلة بيد أن ثقتنا بالله قوية بأننا سنضمن لهذه البلاد مستقبلاً سعيداً واستقلالاً وطيداً إن شاء الله . أما قضية الجريدة فإنكم بلا شك أبناء بجدتها وأنكم أجدر من يقوم بهذا الواجب وقد سبق أنكم وفيتموه حقه وضحيم فى سبيله كامل التضحية .

إن ما يترتب على من المساعدة والمعاوضة فلا أتقاعس عن ذلك وأرجو الله أن يوفقنا جميعاً لما فيه الخير ودمتم موفقين

٣ ذى القعدة سنة ١٣٥٥ ١٦ يناير - ك ٢ سنة ١٩٣٧ شكرى القوتلى

للمساعدة ولا زيارة ...

وصدرت الجريدة ، باسم الشباب - وقد ذكرت فى الصفحات السابقة قصة الأستاذ محمود عزى لما أعارنى إياها مجاناً بارك الله فيه ، وكنت أظن أن صديق المجاهد القديم شكرى بك الذى أصبح وزيراً فى وطنه سيبادر إلى الاشتراك بعدة نسخ منها مثلاً ، أو يحمل الناس على الاشتراك فيها ، ولكن لم يحصل شيء من ذلك ...

ولما انعقد مؤتمر بلودان سافرت إليه وحضرته - وبلودان تعد من ضواحي دمشق ، فكنت أظن أن أخى شكرى بك سيزورنى أو يدعونى لزيارة دمشق ، لأسعد برؤية العاصمة السورية التى سبق لجريدتى الشورى التخصيص فى نشر ظلامتها وتأليب الدنيا على فرنسا يوم ضربتها بالمدافع فى ١٨ أكتوبر ١٩٢٥ كما أن جريدتى الثانية الشباب قد وقفت نفس

الموقف القديم من سورية ومجاهديها ، ولكن أخى شكرى بك زميل الجهاد القديم لم يزرني ولا بعث يدعوني إليه ، لأراه على الأقل وهو وزير ! ولذلك عدت إلى مصر بدون أن أراه وأنا آسف على حرمانى تلك الأمنية ... وأى جمال فى الدنيا أجمل من أن ترى صديقاً مجاهداً شريداً طريداً من بلاده يعود إليها بعد أن تتحرر وتراه فيها وزيرا !!

لقاء ...

ثم جاء شكرى بك بعد ذلك وهو وزير إلى السويس فى طريقه لتأدية فريضة الحج ، فسافرت إليها للسلام عليه وتوديعه، وفيما كنا فى حديث عابر نتحدث عن لزوم الدعاية لسورية لشدة الحاجة إلى ذلك مادامت لم تستكمل استقلالها ، قلت لشكرى بك إنه يحسن بالحكومة السورية أن تبعث بأشخاص من الذين حذقوا فن الدعاية لإنشاء مكتب أخبار فى القاهرة يؤيد وجهة نظرها ويعرف الناس بها ويثبت وجودها ، وضربت له مثلاً المكتب الذى أوعزت الحكومة اللبنانية بإنشائه، فقال شكرى بك : لالزوم لهذا المكتب مادام أبو الحسن موجودا فى مصر بلسانه وشخصيته وجريدته فهو أكثر من كل دعاية، فوجوده يغنيننا عن المكتب ... فلم يسعنى إلا أن أشكره على هذا التقريظ وتلك الثقة

فالظاهر مما تقدم أن أصحابنا المجاهدين السابقين الذين «وصلوا» واستراحوا فى أوطانهم لا يفهمون ولا يقدرّون أن زملاءهم الذين لا يزالون فى المعركة وينفقون من مالهم ويذيقون حياتهم فى مقاتلة الاستعمار يجب تقويتهم وإمدادهم ، ليستطيعوا مواصلة مهمتهم لأن عمر الاستعمار أطول من أعمار المجاهدين ! ولكن أصحابنا القدماء ظنوا أنهم ما داموا قد عادوا إلى أوطانهم وتسلموا المناصب فيها ، فلا حاجة بعد ذلك للالتفات إلى الماضى ولا التفكير فى المستقبل المضمون الهناء والصفاء ...

منطق !

وكان من جملة أحاديثنا فى تلك الليلة أننى قلت لشكرى بك : أنا والله مستغرب مسألة عجيبة من حكومتكم ، فأنتم فى أيام الجهاد ضد فرنسا قد عانيتم من جرائد فلان وفلان وفلان

صنوف الأذى ، فما بالك تحتضنونهم الآن ، وتغدقون عليهم المال ، وتقربونهم كما كانت فرنسا تقربهم حتى اغتنوا ، وكم سلطتهم عليكم - وعلى أنا أيضاً - لأنني لقيت من هؤلاء الأشرار ما لا يستطيع قلم أن يصفه من أذى واتهامات ومن شتائم بذيئة - فقال شكري بك : نحن نعرف كل شيء عنهم ، ولكننا أحببنا تأليف قلوبهم واستمالتهم إلى جانبنا ، أو دفع أذاهم على الأقل ، فقلت له إني أخشى أن يأتي يوم لا يسمع الله يهودون فيه إلى ثلبكم وشتمكم بعد أن يكونوا قد تقووا أيضاً بأموال الحكومة الشعبية !

وكان قصدي من هذا الكلام أن يلحظ شكري بك ما أعنى ، وهو أن تقوية الجريدة أولى^(١) ، لأنها هي التي انكوت من الاستعمار وكم نكبت أنا منه ، وأن مال الحكومة الوطنية يجب أن يتحول عن جرائد الخونة إلى جرائد المخلصين الذين جاهدوا في سبيل قيام العهد الوطني ، لا لتعويضهم لأن الجهاد لا يمكن التعويض عنه ولكن لإنعاشهم وتشجيعهم على الأقل ، حتى إذا جدد الجد يوماً ما ، استطاع الجنود القدماء مواصلة النضال بقلوب لم تشعر بخذلان... هذا هو المنطق السليم ، وأما القول بأن تأليف قلوب الأعداء أولى لدفع عدوانهم ؛ وأن إهمال الأولياء لا خوف منه لأنهم « في الكيس » وكونهم « مضمونين » فهذا هو الخطأ الذي ما بعده خطأ ، وقد سئل أبو مسلم الخراساني عن أسباب سقوط الدولة الأموية فقال إنها كانت تقرب الأعداء لتأليف قلوبهم ، وتهمل الأصدقاء اعتماداً على صداقتهم ، ولكنها لم تكسب قلوب الأعداء ولا أبقت على الأصدقاء ...

خذلان فرعى

وكان إحسان بك الجابري عضو الوفد السوري في أوروبا قديماً أيضاً إلى وطنه « سورية » وتعين حاكماً عاماً لبلاد العلويين ، وكانت عاصمته مدينة « اللاذقية » أما صلته بي وعلاقتي به فهي تشبه العلاقة التي كانت بيني وبين رياض الصلح ، وكان إحسان في رسائله لي من أوروبا يخاطبني بعبارة « أخي الحبيب ونور عيني ! » وأما غلافات رسائله فكانت تحمل لي أنعم الألقاب من « مجاهد كبير » إلى « كاتب عظيم » حتى « الأخ الأعز » ... وكان يبرق لي إن جاء مصر

(١) ان الجرائد التي تكافح الاستعمار تظل دائماً فقيرة لأن أهل الجهاد الذين تدافع عنهم كلهم فقراء ، كما أن الاستعمار من جهة أخرى يطاردها ، والخوفه الذين يملكون المال يقطعونها.

فكنت أذهب إليه للاسكندرية لاستقباله وأرافقه إليها مودعاً عند ما يغادر البلاد ، وهو من ناحيته كان إن جاء من أوروبا بغتة كان يهرول إلىّ ويזורني بغتة فلا أراه إلا وهو يدهم الإدارة ويقول : السلام عليكم .. وفي أثناء إقامته في الديار المصرية كان لا يفارقني ولا أفارقه وكانت دار الشورى تعد مركزه المختار كما أن صفحاتها كانت تحت أمره ، وقد دام هذا الحال نحو ربع قرن أيضاً ، مثل رياض تماماً ... وعندي من رسائل إحسان بك أكثر مما عندي من رسائل رياض ...

فهذا الأخ والصديق الذي تسنم كرسى الحكم في بلاد العلويين كأنه «خديوى» مستقل في إمارته ، كنت أنتظر منه أولاً أن يشترك «بجنيته» واحد في الجريدة التي كانت تحمله وتذيع أخباره وتدافع عنه وعن البلاد التي أصبح حاكماً فيها ، وكانت فرنسا تمنعها عن سورية ولبنان في سبيل إعلاء كلمته وكلمتهما ، وثانياً كنت أنتظر أن يشير على رعاياه بل يأمرهم ويأمر موظفيه بالاشتراك فيها ، ولكنه لم يفعل ، بل اكتفى بالمنصب وقعد ، بدون أن يخطر على باله أن يلتفت إلى الجهة الخلفية أو يتصور أنه قد يقع عن الكرسى يوماً ما ، ولا أن يعود إلى سابق عهده مظلوماً ينشد الإنصاف على صفحات جريدته التي تنكر لها ... وهو يعرف أنها لم تكن جريدة تجارة ، بل سيف دفاع عن الأمم المظلومة ولولا ذلك ما كان الاستعمار يطاردها بتلك الشدة ... كلا لم يخطر على باله شيء من ذلك أبداً ، فإذا به بعد عام واحد يتدحرج عن الكرسى بعد أن عصفت فرنسا بالجمهورية السورية الشعبية الحرة ، وإذا بإحسان بك يلجأ مرة أخرى - هو ورئيسه - إلى جريدتي مرة أخرى ... وبعد ذلك اعتقلته فرنسا وحبسته في لبنان !

ثم دارت الأيام فجاء إحسان بك إلى مصر وكان يزورني في دار الشورى ، كما كان الحال قبل ذلك ربع قرن ، فهذا صديق آخر قد عاد إليها بعد التنكر والهجران الطويل ... إن تقوية جريدة موجودة في بلاد حرة تدافع عن الوطن وعن إحسان بك الجابري نفسه هي تقوية له بالذات ، والدليل على ذلك إنه وقع مرة أخرى واحتاج إليها ! إنه لو قواها وهو

حاكم قادر لكان دفاعها بعد ذلك عنه وعن البلاد أقوى وأجدى ، وكان يجدها في المرة الثانية جريدة قوية تنفعه وتنفع البلاد ، فما أشبه هؤلاء بمن يترك شجرته بدون رى ، ويريد مع ذلك أن يتمتع بثمرها مجاناً وإلى أبد الأبد !

والغريب هنا أن إحسان بك قد جرب بنفسه قبل ذلك مصيبة إصدار صحف الجهاد والجدل ومكافحة الاستعمار ، حين كان يصدر مع المرحوم الأمير شكيب أرسلان مجلة فرنسية في جنيف فكانا يشكوان إلى خذلان الناس لهما وأكلهم حقوق تلك المجلة^(١) ... فهو إذن قد ذاق قبل شناعة الخذلان ...

هذا إجمال لقصة إحسان بك التي لا ينقصها إلا أن يكون رئيس وزارة لتتطبق عليه قصة رياض الصلح حرفاً بحرف ، ولولا أن التكرار لا يجوز لتناولت رسائله لى أيضاً كما لخصت رسائل رياض ، لأن رسائل إحسان التي كتبها لى وهو مظلوم منكوب ونازح غريب تبلغ ١٢٠ رسالة وصفحاتها تقرب من ٢٠٠ صفحة ! ومما يجب الاعتراف به هنا أنه إذا كان رياض قد حرمنى رؤية موكبه وهو رئيس وزراء ... فإن إحسان لم ييخل على بذلك وهو « خديوى » ! لأنه زارنى سنة ١٩٣٨ فى عاليه ببلبنان قبيل طردى منه بأيام ، وذلك أنه كان ذاهباً إلى دمشق لعمل يختص بمنصبه فجعل طريقه عن مدينة عاليه فزارنى وتغدى عندى هو والذين كانوا معه ، ثم واصل سفره بموكبه الفخم - موكب حاكم بلاد العلويين - قاصداً دمشق . ولكن الفرق بين موكب رياض وموكب إحسان هو أننى لم أكن محتاجاً لرؤية موكب إحسان أو سواه فى تلك الأيام لأن الدنيا كانت باسمة لى ، ولعل إحسان أراد أن يتباهى أسمى بما هو فيه من جاه وعظمة وما يتمتع به من نعيم ...

(١) هى مجلة La Nation Arabe أى الأمة العربية ، وعنذى من الأمير شكيب رحمه الله ومن إحسان بك مكاتيب يضجان فيها من إعمال العالم الإسلامى والعرب وجود لسان دفاع عنهم يتحرك من خارج الوطن . ولذلك كنت أعلن عن مجلتهما فى جريدتى وأوصى كل قادر على الاشتراك فيها حتى ولو كان لا يعرف اللغة الفرنسية إذ يكفى منه تقويتها بقيمة الاشتراك وإعطاء النسخة التى تصله إلى معارفه الأجانب مجاناً ، ثم كنت أكلف زوارى ومعارفى شخصياً أن يشتركوا فيها وأقبض منهم الاشتراكات سلفاً وأبعث بها إلى الأمير وإحسان .

وعلى ذلك فإن أصحابنا في الشام قد رقدوا ... لأنهم كانوا في غاية الاطمئنان ، لا يخطر ببالهم أن مصاحب الاستعمار كمصاحب الأسد فلا يدرى متى يثور عليه ! ولذلك كانوا غير حاسبين حساباً لطوارئ المستقبل ، كأن صلتهم بزملاء الجهاد القدماء قد انتهت بوصولهم إلى الكرامى ... على قاعدة « فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر » ...

فرنسا تغدر بسورية

ولكن الدهر لا يسكن ولا يصفو لأحد ، لا لشكرى بك ولا لإحسان بك ولا لغيرهما ، فالزمان مملوء ومفعم بالاحتمالات كعاداته ، وطوارئ الأحداث هي هي دائماً ، فلا بد لقيامتها من أن تقوم بعد ذلك ، لأن فرنسا في سنة ١٩٣٩ ثارت على سورية وكشرت للجمهورية الوطنية ثم أسقطتها ونكلت بها ، وأقامت بدلا منها جمهورية أخرى - استعمارية طبعاً - برئاسة الشيخ تاج الدين الحسنى ، وجعلت حسن بك الحكيم رئيساً لوزارتها !

بكبرى مصطفى !

وهنا لابد من وصف هذه الجمهورية الجديدة برئيسها ورئيس وزارتها ، ولكن الوصف العادى لا يمكن أن يفيد حقها إلا عن طريق القصة الآتية :

وذلك أنه يوجد عند الأتراك شخصية طريفة « لابن البلد » « القبضاي » وهم يعرضونها في خيمة « كركوز » على صورة شخص يلبس « الشروال » والصدى المقفولة والقاووق الطويل بشاربه الضخم المعقوف ، ولابد من برميل خمر يحمله على ظهره ! فالأتراك يتخذون من هذه الشخصية أداة للتنكيت و « التآليس » ونقد الأوضاع ، وقد نسبوا فيما نسبوا « لبكرى مصطفى » أن السلطان قد جعله ذات مرة رئيساً للوزراء - أى صدرأ أعظم - وفيما كان بكرى مصطفى في عربته خلف موكب صلاة السلطان ، إذا به يصادف جنازة ، فأوقف عربته ونزل منها واستوقف الجنازة وأنزل التابوت ثم كشف عنه الغطاء ومدفه إلى الميت وأسر إليه كلاماً ، ثم عاد إلى عربته وواصل سيره خلف موكب السلطان بعد أن أمر حملة التابوت بالمضى في سبيلهم ... وكان السلطان عند وصوله المسجد قد تفقد الصدر الأعظم

فلم يجده فسأل عنه فأخبروه بما كان من بكرى مصطفى مع الجنازة ، فاندھش ووقف على باب المسجد ينتظره ، فلما وصل الصدر الأعظم سأله السلطان عن حقيقة ما قيل عن سبب إفساد الموكب ، و « وشوشة » الميت ، وماذا قال له حين أسر إليه ما أسر من كلام !

فقال بكرى مصطفى إنه اغتتم فرصة رحيل الميت إلى الدار الآخرة فأراد أن يبعث معه بآخر الأخبار عن حالة الدنيا ، فقال السلطان وما هي هذه الأخبار ؟ فقال بكرى مصطفى : لقد أردت أن أفهم الذين سبقونا بالرحيل إلى الدار الآخرة أن الحالة في الدنيا قد انقلبت بعدهم وأن الأمور فيها قد انعكست إلى درجة أن بكرى مصطفى قد أصبح رئيس وزراء !

بهذه القصة أصف جمهورية سورية التي قامت بعد هدم الأولى ، وكيف صارت مصائر سورية تدار تحت حكم حسن الحكيم ! إن شخصية حسن الحكيم لا تشبه شخصية بكرى مصطفى من حيث الشكل والموضوع ، ولكنى أريد أن أقول إنه آخر شخص في الدنيا يصلح لمنصب رئيس وزراء !

شكرى بك يفكرى الآن !

ولما بطشت فرنسا بالجمهورية الوطنية الشعبية بدأت بنفى بعض الأقطاب وحبس بعضهم ، والتنكيل بالملتصين ، فحبست نبيه بك العظمة والأستاذ نجيب الريس والحاج أديب خير والدكتور سيف الدين المأمون والأستاذ منير الريس والسيد احمد الشرباتي وغيرهم وغيرهم ، فعملت احتجاجات على فرنسا وبعثت ببرقيات تأييد لرجال العهد الوطنى الذى مضى ظلماً وعدواناً . وكتبت فى جريدتى أشتم فرنسا وأهدد وأعربد ... وقد مرت قصتهم فى أوائل هذا الكتاب ، وبعد ذلك عاد الاتصال بين صديقى شكرى بك وبينى وصارت الرسائل تغدو وتروح منه ومنى ، ومن ذلك الكتاب الآتى الذى لا بأس من إثباته هنا :

أخى العزيز : منذ يومين أصدرت بياناً ملخصه الدعوة إلى تجديد نشاط العمل الوطنى وإلى المهادنة بين الأحزاب ، بل دعوت صراحة إلى ميل الكتلة الوطنية التى تسلمت العمل فيها مع بعض الإخوان ، إلى الانضواء تحت لواء كيان قومى ، لا يكون بعيداً عن اللجنة

القومية العليا المعروفة في فلسطين . هذا إذا كان الجماعة الآخرون توسع لهم حزبياتهم الطريق فيحسنون تلبية المناشدة .

لقد كان البيان من رأيي ، فضلاً عن كونه من رأي الإخوان ، لأنهم رأوا فيه واسطة حسنة للمرامي التي قصدنا إليها وذكرتها لك أعلاه وأنت لا يخفى عليك أن مسعى مثل هذا تتضاعف قوته ، بل قوتنا فيه إذا نال موافقتك وسائر الإخوان وتأيدك وتأيدهم . فكلتمكم الآتية من مصر ^(١) ، يكون لها صداها الحسن هنا ، بل قد تعدل موقفاً إذا كانت مليئة قوية .

لذلك لا أستغرب ، بل أنتظر ، من همته العالية أن تبدي رأيك في البيان ، بل في تجديد العمل كله ، بشكل موافق ، وأن يكون تأييدك - الذي أعتقد أن يكون إيجابياً - بصورة برقية أو نظير ذلك ، وبكتابة الشورى العزيزة ^(٢) ونشريات أخرى في الصحف المصرية الصديقة .

أختصر الآن على هذا الموضوع . ولا شك أنك تعلم أن في النفس أشياء كثيرة غير هذه أرى أن أؤخرها إلى مناسبة أخرى موافقة لي ولك ، وختاماً تحياتي إلى الإخوان جميعاً ، وتمنياتى لك ، أخى .

دمشق ٢٩ إبريل ١٩٣٩ - شكرى القوتلى

ليبك !

لم أكد إتسلم هذا النداء من الصديق القديم حتى بادرت إلى إرسال البرقية ، والمسايرة إلى الكتابة في الجريدة ، ثم حملت بعض صحف القاهرة على تأييد وجهة نظر شكرى بك وإخوانه المخلصين في الشام ، ثم أرسلت إليه كتاباً جعلت الصحف تنشره كما نشرته في جريدتي . ولا بأس من إثباته هنا وهو :

(١) لم يعرف قيمة الصوت الذى يصدر من مصر وقيمة الإخوان القدماء وأهمية تأييدهم إلا بعد حلول النكبة ...

(٢) الآن صارت عزيزة ...

معالي الأخ الكريم والوطني المخلص شكري بك القوتلى حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد فقد اطلعنا على ندائكم الذى أصدرتموه باسم الكتلة الوطنية ووجهتموه إلى الأمة العربية بوجوب توحيد الصفوف والجهود فى هذه الظروف الحرجة فى تاريخ الأمة السورية المجاهدة النبيلة ، والعمل على تأليف كيان قومى تألف تحت لوائه جميع الهيئات والأفراد لتأمين وحدة البلاد السورية وسيادتها واستقلالها، فصادف هذا النداء قلوباً من إخوانكم فى مصر تقبلته بالتأييد والتقدير .

فاللجنة الفلسطينية بالقاهرة تتضافر معكم وتؤيدكم وتعدكم بالعمل على تحقيق ما دعوتهم إليه ، واضعة فيكم وفى إخوانكم المجاهدين القدماء ثقتها التامة ، راجية منه تعالى أن يحقق آمال الأمة العربية بفوز سورية الكريمة العزيزة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

رئيس اللجنة الفلسطينية العربية

القاهرة فى ٢١ ربيع أول سنة ١٣٥٨

محمد على الطاهر

موافق ١١ مايو سنة ١٩٣٩

اللجنة الفلسطينية العربية بمصر
تؤيد الكتلة الوطنية فى سورية
معالي الأخ الكريم والوطني المخلص شكري بك القوتلى حفظه الله
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد فقد اطلعنا على ندائكم الذى أصدرتموه باسم الكتلة الوطنية ووجهتموه إلى الأمة العربية بوجوب توحيد الصفوف والجهود فى هذه الظروف الحرجة فى تاريخ الأمة السورية المجاهدة النبيلة ، والعمل على تأليف كيان قومى تألف تحت لوائه جميع الهيئات والأفراد لتأمين وحدة البلاد السورية وسيادتها واستقلالها، فصادف هذا النداء قلوباً من إخوانكم فى مصر تقبلته بالتأييد والتقدير .
فاللجنة الفلسطينية العربية بالقاهرة تتضافر معكم وتؤيدكم وتعدكم بالعمل على تحقيق ما دعوتهم إليه ، واضعة فيكم وفى إخوانكم المجاهدين القدماء ثقتها التامة راجية منه تعالى أن يحقق آمال الأمة العربية بفوز سورية الكريمة العزيزة . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
القاهرة فى ٢١ ربيع أول سنة ١٣٥٨ موافق ١١ مايو سنة ١٩٣٩
رئيس اللجنة الفلسطينية العربية بالقاهرة
محمد على الطاهر

وبعد ذلك توالى الأحداث وأعلنت الحرب ، فأوقفت الجريدة ثم حبسونى ، وأرادت فرنسا القبض على شكري بك فنزح إلى العراق هرباً من فظائهم .

رئيس جمهورية لايرد على صديقه

وبعد الحرب دارت الأيام مرة أخرى ، واستقلت سورية وانتخب شكرى بك رئيساً للجمهورية فقبول انتخابه بالارتياح من الجميع ، لوطنيته وجهاده القديم ، وكنت أنا من جملة المهنيين وقد أرسلت له كتاب التهنئة بواسطة المفوضية السورية بالقاهرة وفي يريدها السياسى الخاص .

ولكن صديقى وأخى القديم لم يرد على ... فى حين أن تهنئة تأتى من الزملاء القدماء تعد فى مثل حالتنا أجل وأعز التهنيات ، ثم زار مصر فى تلك الأيام أخى صبرى بك العسلى وهو سكرتير عام للجمهورية وكان فى أيام هجرته السابقة بالقاهرة لايفارقنى ، ولكنه الآن لم يسأل عنى فطلبت أن أراه فقال لنسب بك شهاب إنه مشغول ! ثم عاد إلى دمشق ... وبعد ذلك تعين وزيراً للدخلية فكتبت إليه أهنته ولكنه لم يرد على ...

الرئيس فى القاهرة ...

وزار شكرى بك القاهرة ، وهو رئيس ، ونزل بقصر الزعفران الرسمى ، وكنت فى أيامها معتزلاً على أثر الخروج من الحبس ولا أجسر على الاختلاط بالرسميين ، فاكثفت بوضع بطاقة التحية بالمفوضية السورية فأرسلوها إلى مقره ، وكنت أنتظر أنه سيدعونى إليه ، أو أن أسمع بواسطة أعوانه سؤالاً منه عنى وكيف حالى ولكنه لم يسأل ...

وفى موكب شكرى بك إلى حفلة عشاء بالقصر الملكى وقفت فى شارع ابراهيم باشا أتفرج على موكب صديقى وهو متوج - وهو نفس الشارع الذى وقفت فيه لأخى - على اعتبار ما كان - رياض الصلح ... ومر موكب شكرى بك فسررت برؤيته وكال صحته ، وكان يجلس معه فى السيارة المرحوم سعد الله بك الجابرى .

وعاد شكرى بك إلى دمشق ، وبدلاً من أن يفكر بمن كان يعمل معه إذا به يعين الدكتور نجيب الارمنازى وزيراً مفوضاً فى لندن ، نعم نجيب الارمنازى عدو شكرى والمساعد الأكبر لخصومه لما كانا فى مصر ، وعدو جبهة شكرى وشكيب وإحسان ورياض ، أى

الوفد السوري في أوروبا حين كان الارمنازي طالبا في باريس ، وكان في تلك الأيام يعمل مع الشيخ تاج الدين الحسني ضد جبهتهم ، ويساعد المسيو دي جوفنل الذي أهلك سوريه .

الدكتور أمين رويحة

وفي تلك الأيام أفرجت انكلترا عن المبعدين في روديسيا ومنهم الدكتور أمين الذي مضى عليه ست سنين وهو يعاني في سجون فلسطين والسودان وروديسيا صنوف العذاب - وقد مر بعض حوادثه في أوائل هذا الكتاب - فوصل أمين مريضاً مهشماً مشوه الوجه بفعل الحشرات السامة والأمراض وسوء المعاملة - وقد مرت صورته في أوائل الكتاب أيضاً . وكان الظن أن يلقي أمين في مصر ترحيباً واحتفالاً من مفوضية سورية التي قاتل في سبيل قيامها ونكب من أجل وجودها ، ولكن المفوضية لم تهتم به ولا جاملته بكلمة ، بل كان المنتظر أن يكون جميل مردم بك وزير سورية المفوض حينذاك في استقباله في المطار ، وأن يقول له « إن الجمهورية السورية التي قامت في غيابك ، بعد أن غذاها جهادك ، وسفكت من أجلها دمك ، قد أوفدتني للترحيب بك ، وأمرتني بأن أكون في خدمتك » ثم يرافقه بسيارة المفوضية إلى داره ويقول له في حياء وأدب « إن حكومة الجمهورية قد أمرتني بأن أقدم لك من مال الأمة هذه الألف جنيه - مثلاً - لتعالج في أحد المستشفيات » ولكن شيئاً من هذا لم يقع ... بل قد بلغ الحال من المفوضية السورية إنها لما رحل الدكتور أمين عن مصر عائداً إلى دمشق ، أخذت منه ومن أسرته ثمن « الباسبور » ٢٣٠ قرشاً صاغاً مصرياً ... وها هو « الوصل » الصادر من القنصلية السورية بقبضها المبلغ من أمين موجود تحت يدي !

خذلوا أمين في دمشق

وسافر أمين عائداً إلى الشام التي دافع عنها بعد أن غاب عن وطنه مجاهداً ربع قرن ، وكان المنتظر من صديقه شكرى بك « وهو رئيس » أن يحله في أكرم مكان ، فإذا بأمين يكتب لي يقول إنه قوبل من الجمهورية بمقابلة سلبية وأنه سيرحل عن سورية ويسكن مصر ، ثم يحدثني عما ناله من تجاهل هناك ، وما رأى وسمع وهو مما يكسر الخاطر ويثير النفس ، ويكفي أنه سيعود بخفي حنين - هكذا كان تعبيره .

يستكثرون عليه وظيفة !

وكتب لي الدكتور بعد ذلك يصف لي متاعبه مع حكومة الجمهورية التي هي من غرس يده وأيدى المجاهدين من إخوانه ، فقال إنه لما وصل دمشق نزل بأسرته بالفندق وتكلف فيه ما يملك وما لا يملك وإنه كان يرى بعينه تبذير الحكومة في ضيافاتها بمناسبة عيد الجلاء ، لأناس كان فيهم الخونة وأعداء البلاد ، وهو العيد الذي شارك أمين يبذل دمه في سبيله . ومعنى هذا أنهم استكثروا على الدكتور أمين أن تدفع عنه الدولة مصروف الفندق ، فيالأسف ، ثم يقول إنه طلب أن يوظف بمنصب بوزارة الخارجية ليستريح من التعب والأمراض فترة من الزمن إلى أن يسترد صحته فاستكثروا عليه ذلك . ومعنى هذا أيضاً أن الأستاذ نجيب الأرمنازي مثلاً الذي حاربهم بالأمس أولى بمنصب وزير مفوض من أمين رويحة ، مع أنه متعلم ومثقف أكثر بعشرين مرة من « بعض الناس » ويكفي أنه كان مجاهداً عظيماً ، أو يكفي أنه لم يقاتل الحركة الوطنية التي كان السيد القوتلي من كبار أساطينها .

ملحوظة عابرة ...

أما احتفالات عيد جلاء فرنسا عن سورية فهو عيد الأعياد ، وطالما اشتبهت أن أراه ، لأنه حادث العمر بل حادث الدهر ، فلو أن صديقي شكري بك بعث لي بدعوة لطرت إلى الشام لأقوى معنوياتي برؤية حادث يرفع الرأس ويجدد الأمل في النفس ، لأن معناه أن فرنسا كانت هناك وخرجت ، إذن فالاستعمار يمكن أن يزول إذا لقي عزيمة من المحكومين ولقي مقاومة دموية وصلابة أخلاق وحفاظاً وطنياً وعداوة مرة . إن جمهورية سورية قد دعت من مصر إلى حفلات عيد الجلاء أشخاصاً ما كان يهمهم بقاء سورية تحت حكم فرنسا أو سواها ، وربما كان بين المدعويين أناس كان يكدرهم استقلال سورية ويودون بقاء فرنسا فيها ... ولكن حكومة الحبايب والإخوان المجاهدين لم تفكر بمن ساهموا في وصول سورية إلى ما وصلت إليه ، وقد كتب لي شكري بك قبل الآن يذكر لي ذلك في كتابه المصور في صفحة ٦٦١ من هذا الكتاب ، بل إن صديقي وأخي شكري بدلاً من أن يستعين بي وهو رئيس كما كان يستعين بي وهو منكوب ومجاهد نازح ، صار يستعين في توزيع التركة

— التي ساهمت في استردادها — على الطفيليين وأعداء الحركة الوطنية وبقايا فرنسا ، وينادى القاعدين والخاذلين والقريب والبعيد وكل من لا يهتمه أمر سورية لمشاركتة أفراحه وأفراحها، إلا أنا صديقه القديم وزميله في النضال والصراع ! أنا لا أقول هذا ادعاء مني ، كلا ، ولكن مكاتيب شكرى بك التي سجلت بعض النماذج منها هي التي تقول هذا الكلام !

وقد عملت حكومة أخى شكرى أوسمة ونياشين ووشاحات ، فإذا بها بدلا من أن تهديها إلى الذين ساعدوا وجاهدوا وعملوا من أجل البلاد ، إذا بها تغدقها على كل من لا علاقة لهم بهذا الاستقلال وهذا الجلاء !

وأرجو أن لا يبتسم قراء هذا الكتاب إن قلت لهم إن هذه الأوسمة بعد أن وصلت إلى كل الناس ورميت يمينا وشمالا ، قد وصل أ كبرها وأنخمها إلى صدر محمد يوسف ضابط البوليس — نعم إلى محمد يوسف بك الميرالاي صاحبنا القديم الذى كان يشغل بى أنا ويطاردنى ولا يزال إلى الآن ، كما أنه يطارد أبناء البلاد العربية فى الديار المصرية حتى هذه الساعة ، وحتى قيام الساعة ، ما دامت حكومة النحاس باشا لا تستيقظ ولا تسحب هذا الضابط من يده اليمنى حتى باب محافظة مصر ثم تقول له : أرنا عرض أكتافك ... فإن لم تبادر حكومة النحاس باشا إلى عمل ذلك الآن فإنها ستندم غداً ، كما ندمت بالأمس ، وقبل الأمس ...

كلمة أخيرة

إننى لما أصدرت جريدتى سنة ١٩٢٤ وصفت هويتها بسطر دائم نقشته على معدن صلب وكان ينشر فى كل عدد منها ، وهو أنها « جريدة تدافع عن سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن » ولما اتسع نطاق نشرها وتغلغلت فى جميع آفاق الأرض وأصبحت لاتغيب عنها الشمس كما قال الدكتور محمود عزى فى خطابه عنها سنة ١٩٢٨ بفندق الناسيونال — أقول إننى لما اتسع مجال نشرها بدلت الكليشه السابقة وجعلت وصف أغراضها بأنها « جريدة تبحث فى شئون البلاد العربية والأقطار المستعبدة » فنحن إذن كنا نعمل لهدف قوى بدون أن أشعر بأنى ابن قطر معين أو بلد معين أو لحساب جهة معينة ، على هذا الوجه اتصلت الأرواح بينى وبين شكرى وسواه من أحرار سورية والأمة العربية ، والدليل على ذلك أن شكرى بك

ترك جميع الصحف وجميع الصحافيين لما كان في مصر - كما تركوه أيضاً - وبقي معي وبقيت معه ، وإلا فما الذي كان يحملني على مقاتلة الحكومات التي راحت تطاردني أنا وجريدتي ، وعلى مقاتلة الخونة وأعوان الاستعمار الذين عندهم الوظائف والأموال والراحة والاستقرار ، ثم أركض مع المشردين والنازحين والفلسين والمنكوبين ، لولا المثل الأعلى الذي كنت استهدفه في سبيل الله ، لافى سبيل شكري ولا غيره ، لأنه من غير المعقول أن أتحمّل كل هذا الأذى من أجل أناس ما كانوا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، بل أن مجرد الاتصال بهم كان يسبب لي الضرر والأذى والمطاردة وتخريب الديار !

حالة محزنة

بل إن الأذى بقي يلاحقني إلى هذه الساعة ، إذ أننى لما بدأت أتخلص من بعضه على يد مصطفى النحاس باشا ، أمر منذ عام بالاعتراف بجنسيتي ، إذا بي أذوق « أذى المنّ على » وهو أشد من كل ما لقيت ، لأن صديق الذي أحبه فؤاد باشا سراج الدين « وزير الداخلية اليوم في مصر ١٩٥١ » لا يكاد يسمع سيرتي تفتح إلا قال لقد أعطيته « الجنسية المصرية » وتارة يقول « لقد سويناه له مسألة الجنسية » ... فهو يستكثر على أن أكون مثل اليهود الذين يحملون الجنسية المصرية ويقاتلون مصر في سرهم وعلايتهم ، ويقاتلون الإسلام والعرب جميعاً ! يا ويلي كم ألقى بسبب عداوتي للاستعمار حتى بعد خلاص مصر من حكم الاستعمار ، لأنى صرت أعانى مرارة المنّ على ، وهو أمر من كل شيء نالني ، فيأترى لو كنت بقالا أو نجاراً ، أو كنت يهودياً أو من أعوان الاستعمار ، هل كنت أطارد وأحبس ! وهل كان صاحبنا سراج الدين باشا يفكر بي ويقول لأصحابه وأصحابي : لقد منحتهم الجنسية ، لقد سويت لهم مسألة الجنسية ؟؟ - كلا !

رجعة إلى موضوعنا

أما موضوعنا الأصلي فهو شكاية الدكتور أمين رويحة مما لقي من حكومة اخوانه في الشام ، فقد رجع إلى التذمر والتبرم والتضجر ويبدى الرغبة في الرحيل من وطنه إلى أى قطر عربي آخر ، فكتبت إليه بأن يصمد وأن لا يهرب من المعركة الجديدة مع إخوانه بعد

معر كته الكبرى مع الاستعمار، وأن يتخذ لنفسه عيادة ولولو بالاستقراض وإني مستعد للمشاركة في إعداد القرض، وأن يرشح نفسه عند خلو أية دائرة نيابية لعضوية مجلس النواب السوري وعند ذلك يجد أن حكام العصر الأتجاد الأفذاذ، سيعيدون النظر في موقفهم معه، فكتب لي أمين يقول « وأخيراً قررت النزول عند مشورتك والبقاء بدمشق والنضال في سبيل لقمة الخبز لأولادي أولاً بعد تنكر الأصدقاء والزلاء القدماء » ثم يقول إن الله قد رحمه بأن وجد عملاً في أحد المستشفيات وأنه سيفتح العيادة ^(١).

ولما استقر الحال بالدكتور ورشح نفسه للانتخابات النيابية إذا بالجمهورية الشعبية الجببية تحذله وتحاربه وتسقطه في الانتخابات، وهو أمر مدهش عجيب، لأن جهاد أمين يخوله في انتخابات حرة أن يفوز على شكرى بك القوتلى نفسه. ولولا أن صديق نبيه بك العظمة وهو ثقة كان يكتب لي عن حاله مع الجمهورية في تلك الأيام وعما يعاني من بعض إخوانه القدماء لرميت الدكتور أمين بالمبالغة والتجنى. فقد كتب لي نبيه بك جواباً على استفهام يقول « ... فلو أتيت الشام يا أبا الحسن لرأيت الدنيا غير الدنيا والناس غير الناس »، وكتبت له مرة أسأله هل يمكن استفادة الجمهورية من كفايات عزيز باشا المصرى ولو بالاستشارة من بعيد؟ فكتب لي يقول « وأما تذكر كم بشأن الصديق عزيز باشا فهو خيال بالنسبة لمن يدهم الأمر هنا ... »

إذن فالدكتور أمين كان صادقاً لما اشتكى من سوء معاملة أصدقاء الأمس، ولا سيما أن رأى نبيه بك في الحالة بالشام كان مثل رأيه، برغم الخلافات التي كانت موجودة بينه وبين نبيه، وهكذا كان رأى الأستاذ الشيخ كامل القصاب وهكذا كان رأى الكثيرين أيضاً.

الصالحاني

ثم عاد الدكتور أمين يذكر لي عن الخذلان الذي لقيه هناك في مقابل جهاده وتضحياته ما خفف من كدرى وغيظى منهم على نفسه، فمن ذلك أنه كتب لي يقول :

(١) كان الدكتور على باشا إبراهيم جراح مصر الأكبر يقول إن الدكتور أمين رويحه بك سيكون الجراح الأكبر في الشرق العربى، وقد كان ما قاله الدكتور على باشا، رحمه الله.

« .. وليس لي ما أذكره لك في هذا الشأن بعد تنكر البعض وعدم الوفاء إلا التذرع بالصبر كما صبر غيرك على هذا المضض واحتمال المكاره من أعز الناس التي يفيض بها مجتمعنا وتصيب أكثر ما تصيب من ينذر نفسه لخدمة المبادئ الصحيحة والمثل العليا والتفاني فيها، وأما « الصالحاني »^(١) فمع أني من مؤيديه فإنني لا أستطيع التفاهم معه ولم أر منه إلا عدم الوفاء وعدم الاكتراث بي » ثم كتب لي يقول « وإني مضطر مع الأسف لأن أطلب إليك تغيير فكرك في أصدقائك الأولين الذين أراك تفرض فيهم الوفاء والصداقة، والذين بعد أن وصلوا إلى دست الحكم برهنوا على أنهم لا يتصفون بما تظن ، بل على العكس ، وعلى كل حال فهذا موضوع يحتاج إلى شرح طويل أوفر عليك سماعه الآن ، وأما مساعيك الطيبة الأخرى فاعلم بأنها لا يمكن أن تثمر عند أسيادنا في الحاضر والذين كانوا إخواننا في الماضي ... »

ماهي المساعي ؟ الأمير شكيب

هذه قصة طويلة ، ولكن مادام موضوعنا كله عبارة عن قصص وحكايات ، فما المانع من سردها أو تلخيصها مثلاً ...

أما الذي يقصده الدكتور أمين رويحة من عبارة « المساعي الطيبة » التي أقوم بها فهو موضوع الأمير شكيب أرسلان « رحمه الله » فقد علمت على أثر انتهاء الحرب العظمى الثانية أن الأمير يعاني في غربته بسويسرا أزمة مالية شديدة ، بعد أن كنا نظن أنه كان في سعة من أموال الألمان ! فقد اجتمعت بالسيد « نواز خان » سفير الأفغان في برلين حين مر بمصر سنة ١٩٤٥ وهوراجع لبرلين أن الأمير ما كان يزور ألمانيا وأنه كان في معزل عنها وعن إيطاليا ، لأنهما لم تقبلا مشورته فيما يخص العالم العربي كالاقرار له بالاستقلال التام وأن تعطيا العالم الإسلامي من التأكيدات ما يطمئنه على حريته وعلى التخلص من الحلفاء في حالة انتصار المحور، وقد سألت السفير الأفغاني عن دعاية الأمير شكيب من راديو برلين وراديو روما ، فقال إن الألمان والطلبان كانوا يتهاقون على ما تنشره صحف أوروبا والصحف العربية بأمريكا الجنوبية

(١) هذا اسم مستعار للسيد شكري بك القوتلي في أيام الجهاد القديم حيث كانت الرسائل ترد منه بهذا الاسم وتذهب به إليه حتى لا يعرف الأعداء شخصيه صاحب الرسائل .

من قلم شكيب ضد الحلفاء فيذيعونه من محطات المحور لأن كل ما يكتبه ضد الحلفاء يوافق هوى الألمان والطلليان فيذيعونه ؛ فيظن المستمع أن الأمير شكيب يذيع لحساب المحور ... إن وقوفى على هذه الأخبار السيئة عن شيخ المجاهدين الكبير قد روعنى ، ولذلك بادرت بالكتابة إلى نخامة السيد شكرى القوتلى رئيس الجمهورية السورية صديق شكيب بواقعة الحال ليساعده من مال الدولة طبعاً لامن ماله هو ، حتى ولو كان من ماله فلا بأس فهو غنى كبير شخصياً ، أو من مرتبه أيضاً ، فإذا فى أن يساعد الصديق صديقه ، ولا سيما إذا كانا من كبار المجاهدين وكان أحدهما قد أصبح مثل الملوك « أو أنه ملك غير متوج » والثانى ظل مجاهداً فى غربته ، وأى جهاد وأية غربة .. وكنت على يقين غير قابل للشك بأن الرئيس القوتلى سيعانى المقيم المقعد جزعاً على صديقه الذى جاهد وبذل المال والحياة فى سبيل الأمة ٦٠ عاماً ، بل أن نخامته سيقوم ولن يقعد إلا إذا طارت البرقية التى تحمل الرغد المالى للأمير شكيب فى دار غربته سويسرا .

ماذا قال شكيب ؟

لذلك كتبت للأمير شكيب كتاباً أرسلته مع السفير الأفغانى عند سفره إلى أوروبا فسلمه للأمير بجنيف مع ٣٠٠ جنيه جمعها من ثمن كتبه الموجودة فى مكاتب القاهرة ومن هذا المبلغ مئة جنيه قدمها سمو الأمير سيف الإسلام عبدالله نجل ملك اليمن^(١) وقد أخبرت الأمير شكيب عن كتابى لشكرى بك ، وطلبت منه أن يخبرنى بمجرد وصول النجدة ، ولكن النجدة لم تصل ... وقد كتب لى الأمير شكيب بما يدل على استبعاده مبادرة صاحب الشام إلى إسعافه ، لما يعرفه عنه من إمساك اليد ، وإنى أتذكر أن الأمير شكيب رحمه الله قد ذكر لى فى كتابه - وهويتهم - بعض النوادر عن بخل بعض الملوك ومنهم الملك العادل صاحب الشام الذى ما كانت يده تبض بدرهم ! وإن أحد الشعراء قال فيه قصيدة جاء فيها هذا البيت :

أيامه مثل شهر الصوم خالية من المعاصى وفيها الجوع والعطش

(١) لم يكتف هذا الأمير النبيل بالمساعدة السريعة الارتجالية التى قدمها ، فإنه لما درى بخذلان من فى الشام للأمير شكيب بادر إلى الاتصال بجمالة والده الإمام الكبير الشهيد الملك يحيى رحمه الله فبعث للأمير شكيب بألف جنيه ، رحم الله هذا الملك الشهم وجزاه عن الشهامة عند ربه أحسن الجزاء .

كتاب آخر إلى الرئيس

عند ذلك كتبت رسالة أخرى للرئيس القوتلي رجوته فيها أن يجامل إخوانه القدماء المجاهدين ولو بإعطائهم من المال والمناصب أكثر من حقهم، وفوق استحقاقهم، وقد ذكرت له منهم الأمير شكيب والشيخ كامل القصاب ونيه بك العظمة والدكتور أمين رويحه وقلت له إن الصراع مع الاستعمار لم ينته بعد، وإن الجيل الجديد إن عرف بأنه وقع أقل خذلان لمجاهديه القدماء فإنه لن يجاهد يوم يحتاج الأمر إلى جهاد. وقد داعبت نخامة الرئيس في ذلك الكتاب مداعبة أخوية ناعمة، إذ قلت له إني أخشى إن حصل منك تقصير مع إخوانك القدماء أن يقوم شاعر معاصر فيعمل لك قصيدة كالتى عملت لصنوك الملك العادل ملك الشام.. وسردت له البيت الذى ذكره لى الأمير شكيب، وقد لحظ القارىء كيف اننى قرنت شكرى بك بالملك العادل وجعلته صنوه.

وحيث ان مثل هذا الكتاب لا يرسل بالبريد المعتاد، فقد كلفت الدكتور أحمد بك السمان الأستاذ بمعهد الحقوق أن يأخذه معه ويسلمه للرئيس يدأ بيد، حتى لا يطلع عليه أحد سواه، ولكنى خفت أن ينسأه الرئيس أو يلقيه فى سلة المهملات فأطلعت الدكتور السمان على الكتاب قبل إغلاقه ليكون شاهداً على أنى قد بلغت وقت بالواجب نحو إخوانى المجاهدين ونحو الرئيس نفسه، وقد استكتمت السمان بك هذه الحكاية، وأن يسلم الكتاب ويعمل حاله كأنه لا يدري شيئاً عما فيه، وقد كتب لى الدكتور السمان بك من دمشق بأنه سلم الكتاب لشكرى بك بيده، وكان عنده ساعتها محسن بك البرازى سكرتير الجمهورية العام، فقرأ نخامة الرئيس القوتلي ذلك الكتاب ثم قال للدكتور السمان « يافلان لقد كنت الآن أتحدث مع محسن بك فى المسألة التى يريد بها أبو الحسن وسيكتب للأستاذ الطاهر عنها ويقوم بعمل اللازم » هذه رواية السمان بحروفها، ولكن الأمير شكيب لم يحظ بشيء من مال أمته، ولا المرحوم البرازى كتب لى شيئاً عن هذه القصة !

نور و نار

وبعد ذلك كتبت إلى صديق أكرم بك زعيتر وكان في أيامها من أخصاء نخامة الرئيس وقصصت عليه الحكاية من أولها إلى آخرها ، ورجوته أن يذكر بها نخامته ويذكر محسن بك ، فكتب لي أكرم بأنه قام بالتذكير ثم قصّ على تملیحة وقعت يومها ، فقد قال أكرم إنه فيما كان يحدث نخامته ومحسن بك في أمر الأمير شكيب إذ جاء إحسان بك الجابري إلى القصر الجمهوري ودخل عليهم بمكتب الرئيس وسمع الحكاية ، فقال إحسان مداعباً ، « كيف تؤجلون مسألة يتوسط فيها أبو الحسن ؟ هذا نار هذا نار ! » فكمل نخامة الرئيس المداعبة قائلاً بل هو نور لا نار ، اكتب يا أكرم لصاحبنا أبو الحسن وافتن على إحسان الذي يقول عنه إنه نار ، وإني أنا أقول عنه إنه نور ، وكن أنت الشاهد على إحسان ! .

لاشك بأنني شكرت لفخامته ولإحسان بك هذا الكلام لأنه يدل على أن لي مكانة عندهما ، فازداد لذلك طمعي في أن النجدة للأمير شكيب قد ذهبت إليه بالبرق .. ولكنه كان برقاً خلباً ، بل إنه لم يقع برق ولا رعد .. لأنني لما كتبت للأمير شكيب بهذه القصص وأنا معتر بما بلغني عن أصحابنا بالشام أجابني رحمه الله بأنه لم يتلق شيئاً وأنه لن يظفر من أصحابه هؤلاء بقرش !! ثم ذكرني بقصة الملك العادل ... ولما عاد الأمير شكيب من غربته إلى الوطن بفضل هدية المرحوم الإمام يحيى ملك اليمن ، مر بالإسكندرية فقابلته في الباخرة وسألته عن مساعدة الشام فابتسم وقال إنه لا يزال مصراً على أن خليفة الملك العادل لا بد أن تكون أيامه مثل شهر الصوم ...

استطرد عن شكيب

لم يعيش أمير البيان بعد وصوله إلى الوطن أكثر من أسابيع ثم لحق بالرفيق الأعلى ، وقد وضعت كتاباً عن ذكره بلغت صفحاته نحو ٥٢٠ صفحة بالقطع الكامل - أي من حجم صفحات كتابي هذا ومن ورقه وحروفه ، وقد كتبت فيه عن شكيب فصولاً كثيرة فيها معلومات وحوادث ووقائع ومسائل شتى ثم ضمنت الكتاب كل ما استطعت الحصول عليه من المراثي وأقوال

الصحف والمجلات وحملة الأقلام وقصائد الشعراء ، وما قيل في حفلات تأييده ، في مصر وأوروبا وفلسطين ، وأميركا الشمالية ، وأميركا الجنوبية ، والمغرب الأقصى ، والشرق الأقصى وعدن وتونس والجزائر الخ^(١) .

لم أذكر الشام ولا لبنان بين الأقطار التي أبنت الأمير شكيب ، لأن الجمهوريتين الشاميتين قد انفردتا بهذا الإهمال مع شديد الأسف والأسى ، وهو أمر لم يستطع أحد أن يفسره ولا أن يجد له عذراً ، لأن شكيب ما عاش ومات إلا في سبيل هاتين الجمهوريتين قبل كل قطر آخر ، وقد زاد في قهر المخلصين وغيظهم من هذا التقصير أنه وقع من جمهورية سورية التي يرأسها صديقه القديم شكري القوتلي ، ومن جمهورية لبنان التي يرأسها صديقه الشيخ بشارة الخوري ، ويرأس وزارتها رياض الصلح ، صديق شكيب ورفيقه في عضوية الوفد السوري بأوروبا ، ولا سيما أن هذا التقصير قد وقع من بلدين هما بلده بل أهله ، فياله من عقوق وياله من نكران لا يتصورها عقل ، ولا يصدقهما أحد .

جريدة الشورى

إن هذه الجريدة قد وصفها شكري بك في رسائله لي ، ووصفها رياض بك الصلح والنقراشي باشا قبل ذلك ، فلما ألغيت الأحكام العرفية كان الناس ينتظرون صدورها مرة أخرى ، وعندى الآن نحو ٢٠٠ رسالة من العالم الإسلامي يسألونني فيها « أين الشورى ؟ »

(١) لولا نكبة الأمة العربية بضياع فلسطين وانشغال بقايلها ووضع كتابين عنها بعد النكبة ، لحققت أمنية لي طالما تمنيتها ولا أزال أتمناها ، وهي أن أضع كتاباً خاصاً عن الأمير شكيب غير كتاب الذكري الذي تحدثت عنه هنا ، وذلك أن أجهز من خلاصة نحو ٦٠٠ مكتوب أرسلها لي الأمير في خلال ربع القرن الماضي ، كتاباً ضخماً يجد فيه العالم الإسلامي تاريخاً لقضاياه والقضية العربية وتراجم رجالها والرأى الصحيح فيهم ، على نحو تأريخ شكيب للامام محمد رشيد رضا ، حين وضع عنه الأمير كتاباً جمع فيه رسائله إليه ، باسم « رشيد رضا أو إضاء أربعين سنة » وها إنني لا أزال على هذا العزم ، ولا ينقصني إلا الحصول على المال الذي يمكنني من إخراجه إلى عالم الحقيقة في زمن ارتفع فيه سعر الورق عشر مرات عما كان عليه قبل الحرب ، كما زادت أجرة الطبع عما كانت ه مرات .

ولا يزال كل من يرانى يحثنى على إعادة إصدارها .. فلما رأيت هذا الإجماع كتبت إلى القادرين من خاصة أصدقائى بأن يمدونى بمال يمكننى من القيام بالمشروع، وكتبت لشكرى بك أيضاً، لأنه خير من يعرف شدة لزومها، وكلفت صديق أكرم زعيتر بك بأن يذكّر الرئيس القوتلى بما كتبت إليه فأرسل نخامته ٢٠٠ جنيه، وجاءنى من فضلاء فلسطين قبيل النكبة العظمى بضياها، ومن غيرها نحو ٦٠٠ ولكن الجريدة تحتاج إلى أكثر من عشرة آلاف، هذا فيما لو كانت صغيرة، أما إذا أريد لها أن تكون جريدة كبيرة فهي تحتاج إلى خمسين ألفاً، أما إذا كانت جريدة كالأهرام فهي تحتاج إلى مليون جنيه، ولا سيما أن قيمة الجنيه فى أيامنا قد انحطت إلى الربع. وقد أردت أن أعيد المال لأصحابه ولشكرى بك خصوصاً ولكن أكرم بك زعيتر نصح بعدم إعادة المال لفخامته حتى لا يفسر الأمر تفسيراً معكوساً... إذن فلا بد من الانتظار، ثم توفى المرحوم الأمير شكيب فوضعت عنه الكتاب المتقدم ذكره مستعيناً ببعض المال المخصص للجريدة ومن جهات أخرى، وبعد ذلك وقعت كارثة فلسطين فأصدرت عنها الكتاب الأحمر وسميته «أوراق مجموعة» فى ٥٣٠ صفحة و ٢٠٠ صورة، وقد وزعته مجاناً وأرسلت منه إلى جميع أنحاء الأرض بالبريد ومع المسافرين، ثم حبسنى إبراهيم باشا عبد الهادى رئيس الحكومة التى أضاعت فلسطين، بدلا من أن يحبس اليهود فوضعت عن هذه المصائب الجديدة - وعن فلسطين طبعاً - كتاباً آخر سميته «معتقلها كستب» فى ٦٨٠ صفحة و ٤٤ صورة، وقد استغرقت هذه الكتب مال الجريدة ونحو ألف جنيه منى. ذكرت هذه القصص لأن فيها رداً على بعض الذين لم يذوقوا الخذلان من أعز الناس، ومن الجامعة العربية التى كان يجب عليها أن تقوم هى بنفقات هذه الكتب بدلا من إنفاقها ٤٠ ألف جنيه على حفلات الشاى وحدها...

أسرة الأمير شكيب

وفى خلال هذه الحوادث جاءنى كتاب من الدكتور زكى على بك المجاهد الإسلامى المصرى المقيم بجنيف يحدثنى فيه عن بعض الأمور فإذا به يورد عرضاً سيرة عائلة الأمير شكيب أرسلان التى بقيت فى سويسرا ويخبرنى أنها فى حالة مالية عسيرة بعد فقد الأمير، وأنه لولا

أن أحمد حلمى باشا الزعيم الفلسطينى قد أمدها من تلقاء نفسه بعد وفاة الأمير بستة آلاف فرنك ذهباً لكنت الحالة أسوأ ، فأصابنى من هذه الأخبار عن أسيرة المجاهد الأكبر غمٌ شديد ، فكتبت إلى صاحبة الصون الأميرة أم غالب حرم الأمير أسألهما عن حالهما وأنجاهما ، فوردنى منها ما يؤيد ذلك فازداد غمى وقلت فى نفسى لماذا لا تهتم الحكومة السورية بهذه المسألة قبل كل العباد ؟ ولذلك كتبت إلى نخامة الرئيس القوتلى بشرح الحالة ، لأن إسعاف حكومة سورية لأسرة الأمير شكيب من أوجب واجباتها وهى ملزمة بذلك فى نظر الواقع ونظر كل من يعرف جهاد شكيب فى سبيل القطر الشامى كله ، لأنه أنفق فى الجهاد السياسى كل ما يملك ، وما هو بالشىء القليل فقد كان ثروة عظيمة ، وفوق ذلك أنه صرف حياته كلها وهى أكثر من ثمانين عاماً فى سبيل سورية .

ثم كتبت إلى الأميرة الإرسلانية بما صنعت ، وقلت لها إن زارك وزير سورية المفوض بسويسرا وقدم لك هدية مالية فلا بأس من قبولها ، وإنى سأسعى فى تعيين مرتب شهرى للأسرة إلى أن تصفى علاقاتها بسويسرا وتعود بأنجاهما إلى وطنها ، ولم أَدْخُل عند رياض الصلح بشىء من هذه المساعى ، لأنه يعرف عن شكيب وحالته المالية وعن جهاده أكثر مما أعرف ، وكيف أكتب له ليجمال رجلا رحل عن الدنيا ، فى حين أنه لم يستح منى أنا الذى لا أزال فيها حياً أرزق وقد قرأ الناس فى الفصول السابقة «فصوله» معى...

على أنى مع ذلك قد كلمت وزير لبنان المفوض بالقاهرة فى هذا الموضوع ، ولكنى حتى الساعة وبعد أربع سنين أوكد للذين يقرأون هذه السطور أن رياض الصلح لم يساعد أسرة صديقه وأستاذه الأمير شكيب بقرش واحد !

جميل مردم بك

وكتبت للشام أستفهم عما أرسلوا لجنيف فقيل لى إنهم ينظرون فى الأمر وإنهم على وشك الإرسال ... ولكنهم لم ينظروا فيه ولم يرسلوا شيئاً ...

وجاء إلى مصر السيد جميل مردم بك رئيس وزراء سورية حينذاك ، فاجتمعت به فى المفوضية السورية وسألته عما فعلوا من أجل أسرة الأمير شكيب ، فقال «إننا قننا باللازم

وأن أطمئن» وكنت يومها قد تناولت رسالة وصلتني من حرم الأمير بالطائرة وتاريخها ابن يومين فقط ، فلما سمعت مردم بك يقول لي ما قال ، لم أشك في أن كلامه كان في الهواء ! ولذلك قلت له بعد أن وضعت يدي على جيبى كمن يريد أن يخرج مسدساً : هل أنت متأكد من قيامكم بالواجب وأن أطمئن وهل أمضيت أنت على « شيك » أو على أمر صرف ، أو رأيت بعينك أنهم أرسلوا شيئاً ؟ إننى أقيلك من الذى قتلته لى لتقول غيره ، وإلا فإنى سأخرج من جيبى ورقة لا أحب أن أبرزها فأنت صديق وأنا أجلك فلا أريد أن أقف معك موقف المكذب ...

ففهم مردم بك ما أعنى ، وبادر إلى القول بأنه شخصياً لم يرسل ولا أمضى على ورق ولكنه سمع وهو في الشام أنهم تحدثوا في القصر الجمهورى في هذه القصة ... فقلت له - وأنا أرفع يدي عن جيبى - وأنا أيضاً سمعت مثل ذلك هنا ، ولكن المسألة لا يجوز أن تصل في الإهمال إلى هذه الدرجة ، وإنى أخاف أن يتسامع الناس بأن الحكومة السورية الشعبية بنت الجهاد والمجاهدين تصنع مع الأمير شكيب ما صنعت ، فأنا والله حريص على كرامة الجمهورية فدبروا حالكم ، فقال إنى أعدك بأن أول شيء أقوم به غداً في دمشق - لأنه مسافر اليوم إليها - هو بحث ماتم في الأمر ، وسنكتب إلى وزيرنا المفوض في برن بأن يذهب إلى جنيف ويزور أسرة الأمير شكيب ويبحث إلينا تقريراً عن الوضع لبنى عليه عملنا على أساس صحيح ، فقلت له سأوفر عليك هذه الكتابة وضياح الوقت بأن أكتب أنا اليوم إلى حرم الأمير لتقدم للوزير المفوض مذكرة بالحالة ، وهو يدرس ويجاوبكم ، فلا تكاد تستقر في الشام حتى يكون كل شيء قد وصلكم ، فقال هذا حسن وسأنتظر ... ثم قال مردم بك إنه لا يدرى كيف يصنع في مسألة « الكمبيو » وصعوبة إرسال النقد إلى الخارج ، فقلت له مازحاً : ترسلونه يا أخى بنفس الطريقة التى ترسلون بها نفقات المفوضيات التى لا عمل لها إلا إقامة حفلات الشاي «والكوكيتيل» ... وابتسمت ، فابتسم هو أيضاً ...

الحجز على أثاث منزل الأمير شكيب

وكتبت إلى حرم الأمير شكيب بما دار بينى وبين جميل مردم بك وكلفتها عمل المذكرة،

فكشفت لي بأنها بادرت إلى كتابتها وذهبت بها إلى برن، وزارت عمر الجابري الوزير السوري المفوض وحدثته وقدمت إليه المذكرة وأنه زارها بعد ذلك واطلع على الحالة وكتب إلى دمشق وبذلك نفذنا برنامج مردم بك كله ...

ولكن المذكرة ذهبت سدى ، وتقرير الوزير المفوض راح عبثاً ، ووعود الجمهورية ورئيس وزارتها ورئيسها القوتلي بقيت في عالم غير هذا العالم ...

وبعد أيام زارني قادم من جنيف ويده ورقة ! إنها ورقة مفزعة مؤلة ، لأنها ورقة حजर أوقعه صاحب الدار التي تسكنها أسرة الأمير شكيب بجنيف على أثاث الأسرة ، فكشفت أفقد صوابي ، ثم جاءني تلغراف من جنيف يؤيد ذلك ، فلم أتردد في إرسال برقية مستعجلة للشام هذا نصها الحرفي ، وهي بتاريخ ١٦ أكتوبر سنة ١٩٤٧ :

برقيتي إلى القوتلي

نخامة الرئيس القوتلي - دمشق : كتبت لفخامتكم منذ شهر وبواسطة محسن بك بشأن الأميرة أم غالب ، واليوم أبرقت لي باشتداد أزمته فأكرر رجائي بإسعادها برقياً بسداد ديون المرحوم بجنيف ونفقة رجوعها لوطنها أو فاسمحوا لي بفتح اكتباب علني لهذا الغرض على صفحات الجرائد . « أبو الحسن »

ثم ماذا ؟ ...

أرسلت هذا التلغراف ثم ندمت، لئلا أكون قد تأخرت وأن القوم قد يكونون سبقوني وأرسلوا النجدة ، وكان معي ساعة إرسال التلغراف للشام صديق الأستاذ محمد سعيد العريان بك فهو شاهدي ، وكنت قد استشرته قبل أن أبرق، فقلت له ألا ترى يا سعيد إنني أخطأت في صيغة البرقية لما تتضمنته من تهديد عند كلامي عن الاكتباب ؟ فقال كلام لم تخطئ بل أصبت ، لأن القصة التي سمعتها منك تستحق أكثر من ذلك مع قوم هذا حالهم ...

لقد كنت أنتظر استجابة لهذا النداء المؤثر ، وكنت أتوقع عتاباً يأتي من الشام على العنف الذي صدر مني في البرقية ، فقلت في نفسي ليعتبروا وليوبخوا أيضاً، فأنا مستعد للاعتذار ولكن بشرط أن يتحركوا ! ولكن الأيام مضت بدون استجابة ولا عتب ولا لوم ، ولا حركة ، ولا اعتذار طبعاً ...

محسن البرازى

وتصادف بعد ذلك أننى تقابلت مصادفةً بمحسن بك البرازى «رحمه الله» بفندق شبرد بالقاهرة ، وكان فى أيامها وزيراً للخارجية السورية - وكنت أسمع به ويسمع عنى ، وكان يكتب للشورى حين كان طالباً فى باريس ويرأس الجمعية السورية العربية ، وقد تواجدنا بفندق شبرد وكان يقف معه صديقه أكرم بك زعيتر ونسيب بك شهاب القائم بأعمال المفوضية السورية بمصر ، فتولى أكرم تعريفنا ببعض وبذلك تمت المرفقتان - معرفة السماع ومعرفة العيان - فاحتفل بى الرجل كما احتفلت به ، وجلسنا فى ناحية - نحن الأربعة - نشرب القهوة ، فقلت لمحسن بك : أيجوز أن تظل حكومتكم واقفة من أسرة المرحوم الأمير شكيب هذا الموقف السلبي بعد خذل شكيب نفسه ، وهل كتب عليه أن يشقى بعد أن بذل ثروته وحياته وأن يموت مقهوراً منكم ، وأن يُكتبَ على أسرته الشقاء من بعده؟ فقال محسن رحمه الله كلاماً يدل على الاعتذار مع الوعد باستدراك ما فرط ، فقلت له والله لولا أننى أكره شماتة الأعداء بالجمهورية وبشكرى بك - وبشكيب نفسه - لأذعت بياناً فى الصحف العربية عن تفریطكم وتقصيركم ، لأنه لايجوز يا أخى أن يقول الناس إنكم وزعتم على أنفسكم الرياسات والمناصب والوزارات ، وتركتم للمجاهدين مهمة الجهاد والفقر ، والموت بعد ذلك جوعاً !

إن حق بك العظم الذى كان حاكماً لسورية ويظهر فرنسا عليها وعلى شكرى بك نفسه ، يأخذ الآن مرتب تقاعد من حكومتكم وها هو مبسوط ومستريح فى مصر ويتمتع فيها بلقب «صاحب الدولة» الذى أسبغته عليه فرنسا جزاء مطاردته لأئمة ومطاردة شكرى ومطاردتى أنا وجريدتى ، حتى إنه لما تناول أول عدد منها ووجدها تمهجماً عليه وعلى فرنسا حملها بنفسه إلى مسيو شوفر مندوب فرنسا بالشام وأخذ موافقته على منعها من دخول سورية. فاحسبوا يا أخى أن شكيب أرسلان كان موظفاً عندهم وندب للدعاية لسوريا فى أوروبا أفلا يستحق مرتب تقاعد يعطى لأسرته ؟ أم إنه كان يجب عليه أن يخدم فرنسا ضد سورية ليستحق التقاعد ، فكأنكم تقولون للناس : إن خدمتم الوطن فلا نعرفكم ، وإن حاربتموه فأهلاً ومرحباً بكم ، ولكم فوق ذلك المناصب والأموال والألقاب ...

وفي خلال الانتظار علمت أن حرم الأمير شكيب قد أرسلت ولدها غالب إلى بيروت فباع أرضاً للاستعانة بثمانها ، ثم سمعت أنها لم تتمكن من قبض الثمن كله ، لأن حكومة رياض الصلح إقتطعت من المال شطراً أو قسماً باسم « كبيو » و « عملة صعبة » ...

القبض على شكري بك

وفي خلال ذلك وقبل أن تحظى أسيرة الأمير شكيب بنفحة من سورية ، إذا بالأخبار تباعثنا بأن حسنى الزعيم قائد الجيش السوري قد قبض على نخامة القوتلى وأنزله عن العرش وحبسه ، وبعد ذلك نصب نفسه رئيساً للجمهورية ، وقد أحاط حسنى الزعيم عهد القوتلى بدعاية واسعة عن فساد الحكم والنهب والاعتصاب وسوء الحال ، ثم زعم أنه جاء لتخليص البلاد من الفوضى الخ وقد صدقه البعض وكذبه الذين يعرفون شكري بك معرفة حقيقية ، فهو من ناحية النهب أو السلب برىء ولا يشك أحد في نزاهته ، وأما إذا كان بعض رفاقه في الحكم قد مدوا أيديهم فهذا لا يمكن أن يكون بعلم شكري بك ولا بموافقته .

لقد أحزننا نحن أصدقاء شكري بك في مصر هذا المصير ، ولم يسعنا في محيطنا إلا أن ننفي عنه تهمة التنزل إلى مال الدولة ، وأما فساد الحكم وسوء الإدارة وعدم الحزم فهذه الأمور لم نستطع لها نفيًا ، لأن التواتر على وقوعها كان ينذر بها ، بل إن عندي ثلاث رسائل من ثلاثة أصدقاء لشكري بك ومن أعز أحبائه . الذين ظلوا حتى الآن على حبهم له ، يتبرمون في رسائلهم بسوء الوضع في سورية قبيل هذا الانقلاب ، الرسالة الأولى وصلتني قبل ذلك بشهرين والثانية بأسابيع والثالثة ببضعة أيام . فالإرهاصات والنذر كانت توحى بهذا المصير ، فلما وقع ما وقع لم نستغرب كثيراً وإن كنا قد أسفنا له كثيراً .

وقد أخبرني أحد الأصدقاء الخالص لفخامة القوتلى أن أهل الشام بل سورية كلها قد قابلوا الانقلاب بعدم الاكتراث ، ثم عبر عن ذلك بتعبير أشد وقعاً وهو قوله « بل إنى لم أشهد بعد ذلك في الشام مشاجرة بين شخصين بسبب شكري » وهى عادة الشعوب في التنكر لمن يحسن إليها صحيح أن الجماهير دائماً هى هى ، أعداء لمن انكسر وعبيد لمن غلب ، ولكن الذى لا شك فيه هو أن هناك شيئاً كان في سورية يستوجب هذا الانقلاب ، لأن ضعف الحكومة وسوء

الإدارة وقصص الشركات من «خماسية» وغير خماسية ، وغنائم أذونات التصدير والاستيراد كانت تملأ البلاد ، وقد أخبرني أحد الأصدقاء أن الحالة الحكومية قد تدهورت الى درجة وصول خبر العزم على خلع شكرى بك إلى الأشخاص العاديين ثم وصلت بعد ذلك إلى شكرى بك نفسه ، ولكنه بدلا من أن يقبض على المتآمرين ويبطش بهم ، استدعى زعيمهم ووبخه وأطلعهم على مآلديه من أخبار فأنكرها طبعاً...! فما كان من عصابة الانقلاب إلا التعجيل بتنفيذ خططها ومداومة المجاهد الشيخ والقبض عليه وحبسه بدون أن يستحوا من رجل كان من أكبر المجاهدين في سبيل وطنهم الذى انتهكوا حرمة بهذه الفعلة واستنوا سنة عادت عليهم بالويل وكلفتهم رؤوسهم بعد ذلك ، وستكلف بلادهم رؤوساً أخرى ...

خواتم

قلت اننا - أصدقاء شكرى بك - قد حزنا لهذا الحادث ، فقد ولى معه عهد أصحابنا القدماء في سورية ، وجاء لحكمها رهط لا نعرفه ولا يعرفنا ، أقول هذا بالرغم من كون عهد الأصدقاء كان مجدياً ، فلا وفاء ولا حفظ للإخاء ولا نفوذ لكلمة عندهم في سبيل أحد ، حتى ولو كانت لمصلحتهم هم ، اللهم لا حول ولا ... ومع ذلك فإننا لما جاء أعوان حسنى الزعيم إلى مصر لم نجتمع بهم ولا اتصلنا بهم ولا تعرفنا عليهم ، عطفاً منا على الصديق القديم وتضامناً معه.

شكرى بك بالقاهرة

وبعد أن استقر الأمر لحسنى الزعيم وأصبح رئيساً للجمهورية أطلق سراح شكرى بك بشرط أن يغادر البلاد ، فرحل إلى أوروبا للاستشفاء ، ثم جاء القاهرة بعد ذلك فذهبت مع بعض « أصدقاء الأُمس ... » إلى مطار مصر الجديدة فاستقبلناه وسلمنا عليه ، ولما غادر المطار ظننا أن شكرى بك سينزل بفندق أو في دار خاصة ، فإذا به ينزل في دار تجار دمشق كانوا يخاصمونه حين كان مجاهداً ، وكانوا يشيعون عن نزاهته الإشاعات عندما كان يشترك في إدارة الثورة السورية من مصر ، بل كانوا يمحضون على البرقيات التى ترسل إلى دمشق بتأييد خصومه عليه ، فكنت أهاجمهم في جريدتى انتصاراً له... فكروهونى لهجومى عليهم ، وكرهتهم لهجومهم على أفاضل وطنهم!

ولذلك لم أزره في دار من نزل عندهم لأنهم لا يزالون إلى الآن يخاصمونني بسبب نصرتي له ... ومعنى ذلك أن شكري بك لما رحل عن مصر بعد ثورة سورية قبل عشرين عاماً ترك لنا العداوات مع خصومه ، وأما هو فإنه انشغل عنا هناك في بلده بالاستقرار والرياسة والمواكب وكرسي الحكم ...

زيارتي لفخامة القوتلي

ولم يطل شكري بك إقامته في القاهرة بل ذهب إلى الاسكندرية حيث استقر فيها، وبعد ذلك بقليل سافرت إليها لزيارته وأخذت معي شيئاً ... وقد قابلته في مستشفى المؤاساة حيث نزله أياماً للاستجمام والاستراحة، وقد حدث حين سألت عنه في داره بواسطة التلفون أنهم أنكروا وجوده وكتبوا محل نزوله ، فلما عرف بأني أسأل عنه أمرهم بإعطائي رقم تلفون غرفته في المستشفى ، فاتصلت به فرحب كثيراً ثم طلب أن أزره فوراً فذهبت إليه وكان اللقاء مؤثراً ، وبعد العناق بعد طول العناء والفراق ، أخذ يرحب ويمعن في التكرم ويقول « كل الناس تغيروا إلا أبو الحسن ، كل الناس تبدلوا إلا أبو الحسن ، يحرس دينك ، ينصر دينك ، يعمر دينك ، والله مافي مثلك ، حياك الله ، حياك الله .

من لطائف شيخ العروبة

وبعد أحاديث كثيرة أخذنا نستعيد الذكريات القديمة ، ومنها دار الشورى القديمة «بشارع عبدالعزيز» وداري الصغيرة بشبرا، ومنها ذكرى أكلة فول بالبصل الأخضر في صباح عيد الأضحى سنة ١٩٢٧ ، فهذه «الوليمة» كانت يومها تضم المرحوم شيخ العروبة أحمد زكي باشا والشيخ كامل القصاب ورياض الصلح ونبية العظمة والحاج أديب خير والحاج أمين الحسيني وإحسان الجابري وغيرهم وإني أتذكر عن هذه «الأكلة» إننا لم نجد الفول المدمس يومها في حى شبرا كله بسبب العيد لأنه عيد «اللحم» كالأخفى ، فاضطررنا إلى إرسال سيارة المرحوم أحمد زكي باشا إلى حى «سيدنا الحسين» لتأتي بالفول والطعمية والمخلل من تلك النواحي ، وقد وقعت يومها نكتة فريدة من أحمد زكي باشا - وكلم له من نكات ودعابات - وذلك أنه رأى «بطيخة» كنت جئت بها «للوليمة» وكنا في غير أوان البطيخ ، فبيت الباشا لها أمراً .. ثم أدرنا على آلة الفنغراف أغنية لبنانية بلدية لا أزال أتذكرها وهي «إيدى وإيدى عالوادى نأ كل

تين سوادى» فإذا بالمرحوم زكى باشا يقف بغتة ويحمل البطيخة واسطوانة الفنغراف أم التين السوادى... ويأخذهما إلى سيارته ثم يركب ويفر إلى داره بالجيزة ويتركنا نضح من الضحك، رحمه الله .

ذكرت هذه النكتة بقصد الترويح عن القارىء حتى لا يضجر من استمرار سرد حوادث النكد والآلام التى خيمت على هذا الكتاب ، بل انه كله مابنى إلا على الآلام والأحزان ، ولولاهما ما كتب ولا كان ...

كنا مشغولين

ولنرجع إلى زيارة شكرى بك فى غرفته بالمستشفى ، فقد استعرضنا الماضى ، ومن هم الذين ثبتوا على مبادئهم والذين انتكسوا ، وكيف حال فلان فى القاهرة وكيف حال علان ، ومن بقى ومن رحل عن الدنيا

وهنا قال لى شكرى بك هل قرأت كتاب « ١٧ آب » ؟ فقلت له كلا ولم أسمع به ، فقال إنه طبع فى الشام سنة ١٩٤٧ ثم ناولنى كتاباً ضخماً ، فألقيت عليه نظرة سريعة فإذا هو فى نحو ٥٠٠ صفحة بالقطع الكبير وهو مطبوع على ورق جيد لماع ومزين بالصور وكان يتضمن دعاية لعهد القوتلى فى سورية من سنة ١٩٤٣-١٩٤٧ وكان قد صدر قبيل الانقلاب وعلى نفقة الحكومة السورية ، ثم تصفحت بعض رسومه التى كانت عن احتفالات عيد الجلاء ، وحفلات الشاى ، ومقابلات القوتلى للسفراء ، ومواكبهم إلى البرلمان الخ وبعد ذلك أطبقت الكتاب وأنا أقول لشكرى بك : هذا الكتاب ينقص شيئاً ليته كان فيه ... فقال ماهو ؟ فقلت إنى بحثت عن صورتى بين رسوم هذا الكتاب ، كأن أكون واقفاً بجوارك ، أو قريباً منك ، أو بين المتفرجين على مواكبك ، ولكنى لم أجده صورتى فيه ... فقال : كيف تجدها وأنت لم تكن فى الشام يومها ؟ فقلت إنه كان يمكنكم يومها أن « تعزمنى » حين دعوتهم الناس فأهروا إليكم لأفرح برؤية سورية حرة بدون فرنسا بل أفرح بك أنت ! فقال « والله كنا مشغولين يا ابو الحسن » ...

القصة الأفغانية !

وهنا لمت في ذهني قصة سمعتها منذ سنين من السيد محمد صادق المجددي سفير الأفغان في مصر^(١) فقد كان يزورني في بعض الليالي وتحدث عن الأصدقاء الذين يثبتون في مودتهم والذين يتغيرون ، فتقصت عليه طرفة تاريخية عن الملك المنصور بن أبي عامر ملك الأندلس الكبير ، وذلك أنه كان في شبابه صعلوكا فقيراً وكان يستخلص صديقين من إخوانه وكانوا جميعاً يسكنون لفقرهم في غرفة واحدة ، ففي إحدى الليالي كانوا يسمرون ويذكر كل واحد منهم أمنيته في هذه الدنيا ، فقال المنصور إنه يتمنى أن يصبح ملكا ، فقال الثاني وأنا أتمنى أن أكون يومها وزيرك ، فضحك الثالث وقال للمنصور إن أصبحت ملكا وأصبح فلان وزيراً فأنا مستعد لأن أركب حملاً « بالقلوب » وأسير في الشارع العام وأجعل الأطفال يضحكون عليّ ...

ودارت الأيام ، وأصبح المنصور ملكا ، فاستوزر صديقه الذي تمنى الوزارة ، وأمر بأن يركبوا الثالث حملاً ووجهه إلى الخلف وأن يركض الصبية حوله ! ثم قلت للمجددي وأنا أضحك : إنني أرضى من بعض أصدقائي بركوب قرد ولكن بشرط أن يفكروا بي ...

وهنا قص السيد المجددي حكايته ، وهي أن صديقين كانا يجلسان تحت شجرة أمام قصر الملك ، فتمنى أحدهما أن يكون ملكا ، فقال له صديقه وهل تجعلني وزيرك إن دعوت لك ؟ فقال بلاشك ، فقال صاحبه ولكني أخشى أن يطردني الحجاب إن جئت إليك وأنت ملك ، فقال له إن سمعت بأني أصبحت الملك فما عليك إلا أن تجيء وتقف تحت هذه الشجرة وتنتظر ،

(١) عرفت هذا السيد الجليل منذ عشرين عاماً ، فهو من آل المجددي في أفغانستان وهي أسرة زعامة ورياسة دينية ، وكان السيد صادق المجددي في أيام الملك أمان الله من زعماء الحركة التي استنكرت تفرنج الملك وتبرج الملكية ثرياً وعدوانهما على تقاليد البلاد ، والسيد المجددي في البلاد العربية وفي مصر على الأخص مكانة مرموقة ، فهو يساعد المجاهدين وينصر الشعوب العربية المظلومة ، ولا يترك مناسبة لمجاملة أصدقائه إلا قام بها حتى ولو خالفت المراسيم الدبلوماسية فهو يتقيد أولاً بما يعتقد أنه واجب وحق وينطبق على قواعد الأخلاق والكرامة ، ولا يبالي بما عدا ذلك .

وعند مروري من هنا سأناديك وأخذك معي إلى القصر الملكي ... وافترق الصاحبان ، وبعد سنين طويلة أصبح الرجل ملكا ، وسمع صاحبه بالخبر ، فجاء ووقف تحت الشجرة ! ومضت الأيام والأشهر والسنون ، وهو يقف تحت الشجرة من الصباح إلى المساء ، ولكن صديقه الملك كان يمر به في ذهابه وإيابه كل يوم ولكنه لم يستدعه ولا التفت إليه ...

وفي ذات يوم ، وصاحبنا يقف تحت الشجرة كالعادة ، إذابه يسمع ضجة تجرى في قصر الملك ثم يرى الملك يخرج من القصر حافياً مشوش الملابس ، والجنود يركضون خلفه ، فلما ابتعد عن منطقة القصر تركوه وشأنه ، وأما الملك - أوالذي كان ملكا - فإنه واصل الركض حتى وجد نفسه عند الشجرة وجهاً لوجه أمام صديقه القديم ! فتعانقا بشوق ولهفة ، فسأل «الملك» صديقه : أنت هنا يا فلان . أين كنت طول هذه المدة وأنا ملك ؟ فقال صاحبه : لقد كنت هنا ، وأنا من يوم سمعت أنك ملكت وأنا أقف هنا تحت الشجرة حيث اتفقنا ولكنك لم تلتفت إلي ولا ناديتني ... فقال الملك هذا عجيب يا أخي فأنا كنت أمر من هنا كل يوم ولكني لم أرك ولا رأيت الشجرة !!!

إلى الموضوع الأصلي ...

هذه القصة مرت بذهني كالبرق الخاطف حين قال لي شكري بك « والله كنا مشغولين يا أبو الحسن » وقد خطر لي ساعتها أن أحكي له حكاية الملك وصاحبه الذي وقف تحت الشجرة ... ولكنني أمسكت ، لأنني كرهت أن أجرح إحساسات من فقد ملكاً ثم حبس وأبعد عن وطنه على صورة دينئة وحشية قاسية ، وكان بإمكانهم أن يصبروا عاماً أو عامين فتنتهي مدة رياسته فيمنعون تجديد انتخابه بعد ذلك ، أجل ، لم يهن علي أن أعقب بحرف واحد على قول صديقي شكري بك حين قال لي ببساطة وبكل سهولة «لقد كنا مشغولين يا أبو الحسن» ... وما دام أنه يظن نفسه قد بلغ ذروة الإعجاز بهذه الحجة التي كانت في نظره قاطعة مانعة فلا بأس من تركه وشأنه . يقنع نفسه بها ، على أن أكتبها له في هذا السفر فيقرأها ويوازن بين رده هذا وبين رد الملك « الأفغاني » الذي لم ير صديقه ولا الشجرة بأسرها ...

الوداع والرجوع لمصر

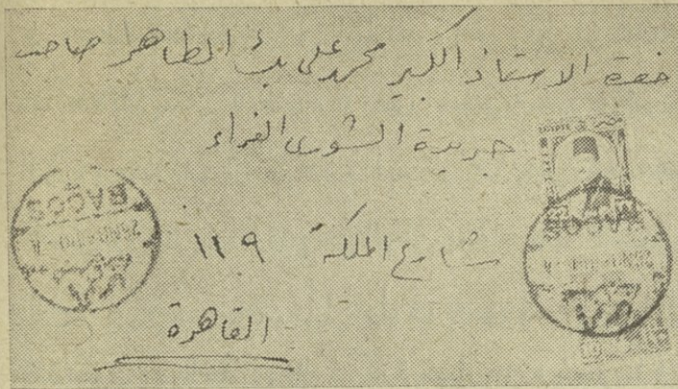
قضيت مع نخامة القوتلي نحو ساعتين بعد أحاديث طويلة ضافية عن الشؤون التي تخيم

على وقتنا وحالنا الحاضر في العالم العربي ، وقبل أن أودعه لبثت بضع دقائق وأنا متردد في مفاتحته بشيء عن « الشيء » الذي أحضرته معي وأشرت إليه في أول الحديث عن هذه الزيارة ، ذلك اني كنت أقدر وأفهم ظروف رجل كبير عظيم كفتحامة القوتلى ، الذى فوجئ بالقبض والحبس والزوح عن الوطن بغتة ، فقد كنت أملك ألف جنيه مصرى في هذه الدنيا ، فأحضرتها معي وأنا أقول في نفسى إن مثل هذا الرجل الذى أصبح بعيداً عن وطنه قد يكون في حاجة إلى مال لكثرة مصاريفه وخصوصاً في هذه الظروف . إن الألف جنيه بالنسبة لرجل كبير في مكاتته ومركزه ليست بالمبلغ الذى يفيض مشكلة ، ولكنه على كل حال يسد ثغرة ، فقد جربت المباغطة بالقبض والحبس ، مراراً ، وذقت لذة النجدة عند ما تجمىء من الأصدقاء في أيام المحن الحرجة ، وعند ذلك تجرأت ورجوته أن يقبل هذا القرض المتواضع ، على أن يرده لى متى عاد إلى وطنه قريباً إن شاء الله ، فقابل شكرى بك عاطفتى بعاطفة أحسن وأجمل معتذراً عن قبول القرض فألححت وألح ؛ وأخيراً اضطررت إلى إعفائه فأبقيت النقود معي ثم ودعته ورجعت إلى القاهرة .

ولم أقطع الصلة معه بعد ذلك ، بل كنت دائم السؤال عنه تارة بالبريد وتارة بالتلفون . وكان هو أيضاً دائم السؤال عني . وهذا كتاب منه أثبتته كنموذج يدل على دوام العلاقة بيننا التى استمرت نحو ثلاثين عاماً بدون أن يشوبها شيء إلا انقطاعها طول مدة رياسته للجمهورية ، ثم اتصلت بعدها ! ومعنى هذا كما قال الشاعر : وجدت بوصل حين لا ينفع الوصل ...

رسالة من شكرى بك

وهذا نص إحدى رسائله إلىّ وهو في منفاه بالإسكندرية :
 حضرة الأخ الكريم الخ . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ وبعد فقد أخذت كتابكم الكريم ومن طيه بعض قصاصات من الصحف التى نشرت مقالات لكم فأكبرت فيكم تفانيكم في الإخلاص والتضحية ، وثباتكم على الجهر بالحقيقة والدفاع عن الحق ، وما عرفتمكم في أى وقت إلا حريصين على حق أمتكم ، غيورين على مصلحتها ، ذابّين عن كيانهما ، بآرك الله فيكم وحفظكم وتولاكم بعين رعايته أختى . ١٩٤٩/١٢/٢٣ شكرى القوتلى



إنها لرسالة بدعوة جميلة
بلاشك. وكان يمكن أن تكون
أبدع وأجل لو جاءني منه وهو
رئيس جمهورية؛ وهذا الظرف
المطرز بخطه لو حظيت به
في عهد رياسته لكنت جعلته

هذا غلاف إحدى رسائل شكرى بك وهو في الاسكندرية

مع الرسالة في برواز، كيف لا وهو بخط نخامة الرئيس الذى يصفنى أضخم وصف، ويقرظنى
أنفم تقريظ، ويثنى على ألفى الثناء، ثم يلقبني بلقب « بك » وينعتنى بالأستاذ الكبير.
ولكن هذه الصلة الأخوية لم يعد حبلى متصلاً إلا بعد فوات الأوان... لأن هذا الحبل كان
« مشغولاً » بكل من لا يستحق أن يتصل به، إلا معى أنا...

وفي هذا الشتاء سنة ١٩٥١ زار نخامة القوتلى مدينة القاهرة للاستجمام ونزل بفندق
« مينا هوس » بجوار الهرم، وكان يتفضل ويسأل عنى ويبعث لى بسيارته، ثم يتلطف
ويودعنى عند الانصراف حتى الباب الخارجى ويظل واقفاً إلى أن تتحرك السيارة، وكنت
أتردد عليه مراراً، وفى أحد الأيام مر بى نخامته بإدارة الشورى لاستكمال حديث عن إحدى
المسائل.. ولما غادرنى بقيت واقفاً وأنا أشيعه إلى أن غابت سيارته عن نظرى، وقد بقيت
ساهياً بعد ذلك برهة غير قصيرة أفكر فى عودة رياض الصلح إلى دار الشورى ثم صده عنها،
وعودة إحسان بك الجاهرى « خديوى اللاذقية » ثم عدت إلى مكنتى وأنا أقول لنفسى: وهذا
صديق ثالث من الذين أهملونى فى أيام العز ثم عادوا إلى بعد ذلك...

وقد شعرت من حركات شكرى بك ومن لهجته حين مر بى أنه كمن تنازل لهذا المحي
تنازلاً.. لأنه لم يعرف بعد، أن من زوارى اليوم من هم أكبر منه، وآخرهم عظمة السلطان
فضل عبد الكريم سلطان الحج وهو ملك متوج، وصاحب السمو الملكى الأمير سيف
الإسلام محمد البدر ولى عهد اليمن، وسمو عمه الأمير سيف الإسلام عبدالله وعمه الثانى المرحوم
الأمير يحيى وهما من إخوة جلالة الملك الحالى الإمام الناصر أيدهم الله جميعاً، وسأزين بعض
الصفحات المقبلة ببعض الصور النادرة عن هذه الزيارات الكريمة.

المعتقل الثالث

معتقل ها كستب

لندع هذه الحوادث التي جاءت عرضاً ، ولنرجع إلى موضوع « ظلام السجن » وهو القبض والحبس والاعتقالات والمصائب ...

ففي سبتمبر ١٩٤٩ وأنا ما صدقت أنني خلصت من السجون والاعتقالات وخراب الديار ، وإذا بإبراهيم باشا عبد الهادي رئيس الوزراء الذي لولا غفلة من غفلات الدهر ما تسنم هذا المنصب - يقوم بغتة ويقبض على ويحبسني ، ولهذا الحبس قصة طويلة ، وقد وضعت عنها كتاباً في عام ١٩٥٠ بلغ ٦٨٠ صفحة فليرجع إليه من يشاء .

كأنه لا ينقصني إلا أن أحبس مرة ثالثة ! لأن الحبس الأول كان سنة ١٩١٥ - ١٩١٧ والثاني سنة ١٩٤٠ - ١٩٤٢ وكنت أظن أنه مادام الإنكليز قد خرجوا من القاهرة وقبعوا عند محطة فايد في صحراء سيناء على قناة السويس ، فأنا آمن الآن ، فلن أحبس بعد ذلك ، ومن يحبسني ما دام الإنجليز قد ابتعدوا عن القاهرة ، ولماذا أحبس ؟ .

ولكن اتضح أن للإنكليز من التلاميذ من يفوقهم أذى ، وإلا فما هي مصلحة إبراهيم باشا عبد الهادي بالقبض على واعتقال في صحراء السويس في معسكر « ها كستب » الذي كان يجب أن يكون مستشفى أو مدرسة ، فإذا بإبراهيم عبد الهادي يجعله سجيناً لأحرار الأمة والأتقياء من أبنائها ، وها إني بعد عشرين شهراً من وقوع ذلك الاعتقال لا أزال أجهل حتى الآن السبب الذي حمل إبراهيم عبد الهادي الحاكم العسكري في آخر الزمان ورئيس الوزراء على طريقه « بكرى مصطفى » - راجع الصفحة ٦٦٧ - مع العلم بأن هذا الرجل لم يكن كريماً معي في سجنه بل أساء معاملتي على صورة قبيحة لم أرها من الإنكليز ، لا في زمن « الحماية » سنة ١٩١٥ ولا في عهد الاستبداد في الحرب الثانية سنة ١٩٤٠ فقد لقيت في ثلاثة أسابيع مكثتها في سجنه سنه ١٩٤٩ ما هو أوجع وأنكى وأفظع مما لقيت في حبس الإنكليز في الحرين بالرغم من طول مدتهما ، لأن الحبس الأول ١٩١٥ - ١٩١٧ استمر ٢٦ شهراً ، والثاني الذي بدأ سنة ١٩٤٠ وانتهى بعد الحرب سنة ١٩٤٢ استمر نحو عشرين شهراً .

ولولا أن الله قد رحمني حين أطاح بحكم إبراهيم عبد الهادي بقتة وخسف الأرض به وبعمده بتلك السرعة ، للبتت عنده في السجن بضع سنين ، ومث سجيناً بلا سبب ، لقد عرفت ذلك من تشدده وإصراره على إبقائي في الحبس ورفضه كل وساطة في سبيل الإفراج عني ، لدرجة أنه كان يحاول إقناع الوسطاء بأنني أستحق ما هو أكثر من السجن ...

حبس بلا سبب

نعم لا شيء هنالك كان يستوجب ماجري ، لأن رئيس الوزراء الجديد حسين سري باشا قد أطلقني فوراً بلا قيد ولا شرط ولا تحقيق ، لأنني لما حبست على يد إبراهيم عبد الهادي حبست بلا سؤال ولا جواب ولا تحقيق ! فهذا الإفراج السريع هو وحده كاف لإثبات براءتي وظلم عبد الهادي وتجنیه ، ليس على وحدي ، بل على عشرين مليوناً من الخلق الذين تتألف منهم الأمة المصرية بأسرها ، ولم لا يحبسني إبراهيم عبد الهادي بعد أن جعل أرض مصر كلها سجوناً وكل سكانها سجناء . فقد بطش بالعباد ، وخرّب البيوت ، ونكل بالأبرياء ، وهدرت على يديه الكرامات ، واستبيحت الأعراض والحرّات ؛ فقد سجن الأبرياء ، وعذب المتهمين بالسجون ، حتى بلغ عدد من دخلوا سجنونه في «ها كستب» وصحراء الطور ومعسكرات أبو قير وأقسام البوليس والسجون الرسمية نحو خمسين ألف برى وبريئة ؛ وقد انفضح عهده بعد زوال حكمه أشنع فضيحة سمع بها البشر عن حكومة من حكومات الأرض ، لا في العصر الحاضر وحده ولا في العصور الوسطى^(١) ، وقد شرحت هذه الفظائع في ساحات العدالة أمام المحاكم وعلى صفحات الجرائد ، ولا يزال العالم الإسلامي يطالب هذا الرجل بدم المرحوم الشهيد الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ، وقد وصفت الصحف كيفية مصرعه

(١) لا تزال المحاكم المصرية إلى ساعة لإخراج هذا الكتاب مشغولة في نظر القضايا التي أنتجها حكم إبراهيم باشا عبد الهادي وحزب السعديين وحزب الدستوريين ، ولا يزال المتهمون يروون أمام المحاكم قصص التعذيب الرهيب ، الذي أنزله حكمهم بالمتهمين ، من ضرب وتزع أطافر وهتك حرّات وتشويه أطراف .

باستدراجه ثم الغدر به ، وقد ذكرت الصحف أسماء القتلة فإذا بهم من رجال الشرطة والأمن العام الذين خلقهم الله لحماية العباد ، فإذا بهم ينقلبون إلى سفاكين وسفاحين يجب حماية العباد منهم .

حسين سرى باشا

وكان من غرائب تصاريق القدر قصتي الجديدة مع حسين سرى باشا الذى حملت عليه فى أوائل هذا الكتاب عند سرد حوادثي وأنا سجين قبل أن يتولى الحكم لأول مرة سنة ١٩٤٠ فلما تولى الوزارة وجدنى يومها سجيناً وأبى أن يطلقنى ، وقد سردت حوادث هربى منه بعد ذلك لأن سرى باشا لما جاء إلى الحكم مرة ثانية سنة ١٩٤٩ وجدنى فى السجن مرة أخرى ! ولكنه هذه المرة أطلقنى فوراً ، بل إن إفراجى عنى كان أول إفراج للسجناء الذين وجدهم فى سجون إبراهيم باشا عبد الهادى ، فاستحق فى آخر هذا الكتاب أن أشكره ، كما كان من حقى فى أوله أن أهاجمه ، وقد أفرج سرى باشا بعد إطلاقه سبيلى عن الآلاف من مساجين عهد الإرهاب ، ثم جاءت وزارة النحاس باشا الحالية فى أوائل سنة ١٩٥٠ فأفرجت عن الباقين ، ماعدا الذين عليهم قضايا مطروحة أمام المحاكم ، وكلها من بقايا عهد إبراهيم باشا الإرهابى

ظهور سبب حبسى الثالث

وفىما كنت أطبع هذا الكتاب اجتمعت بمسئول كبير فكشف لى عن السبب الحقيقى الذى جعل إبراهيم باشا عبد الهادى يعتقلنى فى تلك الأيام ، وقد أقسم لى بالله على ذلك ، وهو أن الإنكليز والأميركان كانوا مهتمين بإجراء صلح بين الدول العربية وبين اليهود الذين استولوا على فلسطين ، ولكن هذا الصلح يجب أن يتم فى جو صالح ...

ففى تلك الأيام ، حين ضياع فلسطين كنت أكتب فى الصحف والمجلات وأذيع النشرات وأكتب إلى جهات العالم الإسلامى النائية وأخطب فى المجتمعات بفضح المسيئين

لكارثة فلسطين، التي لم يصب العالم الإسلامي منذ الحروب الصليبية بمثلاً، لا في شدة خطرها ولا بفداحة العار الذي لبس الأمم الإسلامية والعربية بسبب ضياعها . وكنت أذكر أسماء « مجرمي حرب فلسطين » بصراحة وأشهر بهم وأهيج عليهم وأطالب برؤوسهم ... وقد سجلت أهم تلك الفصول في كتاب « معتقل هاكستب » الذي سار في الدنيا مسير الشمس ومشى تحت كل كوكب ...

فهذا الجو الذي وصفته ما كان يمكن حكومة إبراهيم عبد الهادي باشا « وهي خارجة على القانون وناثرة على الأمة وهاربة من وجه الشعب » من عقد الصلح مع اليهود ، وكانت حكومة إبراهيم عبد الهادي تريد عقد هذا الصلح بأي ثمن ولو بضياع الكرامة وهدر دماء الشهداء وفيهم ٦٠٠ ضابط من خيرة شباب مصر وبضعة آلاف جندي استشهدوا بسبب تخبط تلك الحكومة ، مع ضياع مئة مليون جنيه من مال الدولة ، لأن حكومة إبراهيم عبد الهادي كانت مشغولة بالحرب التي أعلنتها على الإخوان المسلمين فتريد أن تتفرغ لهم ، فإذا بها تشتت في دهورتها ثم تنزلق وتحارب الأمة كلها !

نكبة فلسطين

إنني أسطر هذه الحوادث للجيل المقبل ليعرف الأبناء والأحفاد ما كان في أيامنا هذه ، وسيشهد عليها وعلى صحتها أبناء هذا الجيل الذين رأوها وانكروا بنارها وأبكتهم حوادثها ، دماً لا دمعاً .

وأما فاجعة فلسطين فليس هذا الكتاب بكاف كله لو أردت أن أجعله خاصاً بها ، فهي كارثة مهولة لا يدرك فظاعتها إلا من وقف على أسبابها وتطوراتها ومضاعفاتها ، وعواقبها الوبيلة على العالم الإسلامي ، وإنني عازم إن قدرني الله على وضع كتاب كبير جداً لتأريخها وبسط فاجعتها أمام الأجيال القادمة ، فإن لم أتمكن من تنفيذ هذا العزم فإنني أرجو أن يقوم غيري - أيّاً كان - بهذا المشروع الضخم الذي يحتاج إلى هم عالية وإلى نفقة كافية ، أما أنا فقد جهزت لهذا المشروع من الأسانيد والتقارير والوثائق والرسوم والتصاویر ما يكفي لعمل الكتاب ولا ينقصني إلا وجود من يساعدني .

نتيجة الاعتقال الثالث

إن الفائدة العامة التي استفادها المجتمع من حبسى على يد إبراهيم عبد الهادى مدة ثلاثة أسابيع هي أنى وضعت كتاب « معتقل ها كستب » الذى أعتقد أنه أفاد الناس أكثر مما قد يفيدهم كتابى الكبير هذا إن كان فيه غير التسلية والعبرة ما يفيد ، فإذا كان الخير من عادته أن ينفع فالشر أيضاً قد ينفع ... فكتاب ها كستب قد أورد خيراً نتج عن شر ، لأنه أظهر كيف كان إبراهيم باشا عبد الهادى يحبس الناس وكيف كان يسى معاملتهم ، مع وصف فظائع عهده وقسوة شرطته ، وكيف كان يهدر دماء الناس لأتفه الأسباب أو لغير أسباب - وهذا هو الواقع - وقد كتبت الصحف عن ذلك الكتاب ووصفته كثيراً ولا تزال الصحف إلى الآن عند طبع فهرس كتابى هذا تتحدث عن كتاب معتقل ها كستب وتصفه بأنه سجل الفظائع وأنه صوت المظلومين من الظالمين ، وأنه الحكم الصارم على عهد الإبراهيمين وأنه ، وأنه . وآخر ما وصف به كتاب « معتقل ها كستب » قول الأستاذ أبى الخير نجيب عنه فى جريدته « الجمهور المصرى » أنه « دستور الحرية » .

ولم أذكر هلع السعديين وفزعهم من ذلك الكتاب الذى هتك عهدهم ، لأن وصف ذعرهم منه كان فوق كل وصف ، فقد ذكرت أن جريدتهم أرادت أن تبحر الكتاب فقالت انى منحت الجنسية ثمناً له ! فما دامت المسألة مسألة أجرة واستئجار فلماذا لم يدفع لى السعديون هذا الثمن ولماذا لم « يمنحونى » هم الجنسية لأكتب لهم كتاباً عن مناقبهم وأوسكت على فظائعهم على الأقل ... بل لماذا حبسونى ؟ انهم لولا ذلك الجرم الذى ارتكبهوه معى ما تمكنت من رؤية سجونهم التى حفرتنى رؤيتها على دمع عهدهم المظلم المخوف بكتاب كانت مادته من نسج ظلمهم ، ولذلك طبق أنحاء الكائنات وتحدثت عنه عجايز وائل !

عودة إلى الجنسية

وهنا لا بد من كلمة أخيرة على مسألة الجنسية ، فإن حكومة الوفد قد هالها ما كانت تعرف عن شناعة ملاحقة حكومة السعديين والدستوريين لى بانكارها جنسيتى إطاعة لأمر

قديم أصدره الإنجليز لتسهيل تشريدي وتنفيضي «وقد رأيته بعيني في ملف بوزارة الداخلية» فقالت حكومة الوفد تعال وتقدم بطلب «تجنس» فقلت لمندوب وزارة الداخلية لست أنا الذي يتقدم بطلب التجنيس لأنى لست أجنبياً ولا يهودياً ولا أوروبياً ، بل أنا مصرى الجنسية بحكم الأمر الواقع ، لأنى جئت مصر وهى عثمانية وكنت عثمانياً ، فلما انفصلت مصر عن تركيا انفصلت عنها أنا أيضاً «أتوماتيكيا» فإما أن تعترف وزارة الداخلية بالأمر الطبيعى الواقع وإلا شكوتها لمجلس الدولة ، وهنا راجعت الوزارة مستشاريها القانونيين الذين لا يعرفون الإنجليز ولا تربوا عندهم . . . فأفتوا بصحة حجتي فاعترفت لى الحكومة الوفدية بالجنسية اعترافاً قانونياً ، إذن فقد كذب حزب السعديين حين قال إن الجنسية كانت منحة ! على أننى بعد هذا الشرح لا يسعنى إلا أن استغرب من بعض الناس هذه اللجاجة فى مسألة الجنسية فى حين أنهم لا يعيرون اليهود بشيء من ذلك ، والغريب أننى بدأت أسمع هذا النغم المنكر بعد قيام جامعة الدول العربية ! ولا أدري كيف يستقيم حال الشعوب العربية وفيها أمثال هؤلاء المفسدين .

إن وزير سورية المفوض السابق فى العراق هو لبنانى من آل الصلح . ووزير سورية المفوض بالنيابة فى القاهرة لبنانى ، ووزير سورية فى تركيا لبنانى أيضاً ، وعميد كلية الحقوق ببغداد سورى ، ومدير الأوقاف العام بالشام فلسطينى ، وكان ياسين باشا الهاشمى وزير الحربية السورية بالشام عراقياً ، ورستم حيدر بك وزير المالية العراقية سابقاً كان لبنانياً ، ووزير سورية فى موسكو لبنانى أيضاً ، وكان جعفر باشا العسكرى حاكم حلب سابقاً عراقياً ، ووزير الدولة للأموال الخارجية السعودية الآن لبنانياً ، ووكيل الخارجية السعوديه سورياً ، وسفيرها بواشنطن لبنانياً ، ووزير الأردن بمصر حجازياً ، ووزير عدليتها مغربياً ووزير الدفاع دمشقياً ، ووزير خارجيتها سورياً ، وسفيرها بالعراق لبنانياً الخ الخ . ومع ذلك لم أسمع أن أحداً غير أحداً من هؤلاء بمولده الأسمى ونعته بأنه أجنبى ، بل سمعتها من أعوان الإنجليز هنا ومن أتباع الحزب الدستورى وشذاذ الحزب السعدى ، ولا عجب فهم من بقايا الإنجليز ومن تلاميذهم أيضاً ، وماذا يضير هؤلاء الأشرار أن أكون فلسطينى المولد ، وما هو الفرق بين العربى الذى يولد فى القدس أو دمشق أو بغداد أو أسىوط

أو دمياط ثم يعيش في القاهرة أو بور سعيد ، ولا سيما إذا كان وطنيا مخلصاً لا يتآمر على مصر ولا يبطش بالأبرياء كالسعديين والدستوريين... الذين لولا تهاون ضحاياهم لنزعت عنهم على الأقل الجنسية المصرية التي مانالوها إلا بحكم مولدهم في أرض مصر لا أقل ولا أكثر ، ولولا ذلك ما أصبحوا فيها من ذوى المناصب والأموال والألقاب !

شعر وأدب ... وأمور تزيد في الحسد !

ومما يحلو تسجيله هنا للفكاهة ومتعة أهل الأدب إنه بعد إطلاق من سجن حزب السعديين الدستوري وردتني تهنئات بذلك من جميع أطراف الأرض ، وقد سجلت بعضها في كتاب ها كستب ، وقد حدث بعد أشهر من ذلك وبعد ظهور ذلك الكتاب أن تفضل الشاعر الحجازي المبدع الشيخ فؤاد شاكر أحد رجال تشريفات جلالة الملك عبد العزيز آل السعود فنظم أبياتاً في تهنئتي بالخروج من سجن الظالمين ، وقد طبعها في ديوانه « وحي الفؤاد » فأخذت بعض الصحف تلك الأبيات ونشرتها - ولو وصلتني عند طبع كتاب ها كستب لدرجتها فيه مع أخواتها متوجة بالشكر للشاعر الكبير .

فإذا بجريدة حزب السعديين تتكدر وتغتاز حسداً ، وتحمل على الأستاذ فؤاد شاكر وتستعدى عليه الملك السعودي وحكومته لأنه في نظرها قد كفر حين مدح محمد علي الطاهر وهناه بالإفلات من قيودهم وسجونهم .

وإنني إعتزافاً بفضل أخي الأستاذ فؤاد شاكر ، وحباً في إغاظة حزب السعديين وجريدتهم أنقل إلى كتابي هذا تهنئة الشيخ فؤاد أخذاً عن ديوان « وحي الفؤاد » ولا سيما بعد أن خلا منها كتاب ها كستب وهي :

هيئات لا القيد يثنيه ، ولا المسد	الليث في الغاب ، أو في غيره أسد
لو لم تكن بجلال الحق مشتملاً	لما اضطهدت ، فإن الحق مضطهد
ضحيت أبلغ ما ضحى به رجل	وفوق ما لا يطيق الصبر والجلد
ولم ينل منك ما قد روعوك به	وليس مثلهما : الزوج والولد

كم روعوك بما دسوا وما أفكوا فما اثنت لما صدوا ، وما عمدوا
مضيت شأنك لا تلوى إلى نفر ضلوا السبيل من الويل الذي وجدوا
حتى طلعت أغر الوجه مبتسما وحف شأنك الأتراح والكمد
فاسطع كطلعتك الغراء مؤتلقاً وملء برديك ذاك الخادر الأسد
واهناً وعش للجهاد الحر تبذله ملء الحياة وأنت المفرد السند
وابشر فما لخطوب الدهر من سبل إلى حماك ، فقد جافتك ، تبعد

أبيات خليل بك المطران

وإذا كانت أبيات الأستاذ فؤاد شاكر وحدها قد كدرت خواطر السعديين فما بالك لو
اطلعوا على أبيات شاعر الأقطار العربية المرحوم خليل بك مطران ، فقد سبق لهذا الشاعر
الكبير أن رطب حياتي بأبيات من شعره الخالد في حفلة شاي أقيمت لتشجيعي سنة ١٩٢٨
بفندق الناسيونال بالقاهرة ، ولما خرجت من حبس إبراهيم عبد الهادي ظهر المجلد الثالث من
ديوان الخليل رحمه الله ، وإني أقبل عن الصفحة ٢٥٧ أبياته التي أشرت إليها وقد ذكر فيها
أنه يقدمها تحية لي بصفتي « الصديق الأوفى » . قال خليل بك مطران رحمه الله .

« أبو حسن » أصفى الرفاق سريرة وأوفاهم عهداً على القرب والنأي
وأبسلهم ذوداً عن العرض والحمى وأثبتهم رأياً على صالح الرأي
يكافح عن أوطانه وحقوقها بلا وهن في عزمه وبلا وهى
فما ينثنى عن قصده لعوائق تعوق ، ولا يلوى بأمر ولا نهى
ولا يرحل « شوره » أنقى صحيفة يبت الهدى فيها على النشر والطي
تمج بها تلك اليراعة نورها لكشف ظلمات الكرام وللهدى

ولأجل أن أزيد في حسد حزب السعديين الخوارج أسجل كتاباً للمرحوم خليل بك
مطران ، بعث به إلى الاحتفال بالكويتنتال الذي مر ذكره في الصفحة ٦٤٢ وما بعدها
قال رحمه الله يخاطب السيد عبد الله الجفري رئيس الحفلة :

« تشرفت بالدعوة لحفلة الشاي التي تقيمونها اليوم تكريماً للمجاهد العربي الأستاذ محمد على الطاهر بمناسبة إطلاق الحرية السياسية له . وكان بودى أن أشهد هذه الحفلة للاشتراك في إعظام هذا الخادم الوفي الأمين للعروبة وأهلها، وهذا المثال الحى للصدق في المبدأ والرأى لولا إني مريض مبخوح الصوت، فأكتفى مكرها وآسفا بأن أتغيب بجسمي لا بقلبي عن موقف يقضى به بعض الحق للمناضل الخالص الباسل على أمة بذل همه وهمته وجهده وماله في رفع شأنها والذود عن حياضها، وإني لأشاطركم ما تبدوون له من شريف العواطف، وأسأل الله أن يعينه على استئناف كفاحه أحوج ما نكون إليه ، كما أسأله أن يجزيكم خيرا ويشكر عنا لكم ولحضرات الأجلاء زملائكم أعضاء اللجنة ما تقومون به من واجب المناصرة والتشجيع وتفضلوا بقبول فائق احترامى .

القاهرة في ٢٨/١٠/١٩٤٥

خليل مطران

صدى الكتاب عند الظالمين

وكان المظنون أن ابراهيم عبد الهادى وزمرته سيقروا كتاب «معتقلها كستب» ويلعنون ريقهم ويسكتون ولا أقول يستغفرون ربهم على ما فرطوا في جنب الله وما اجتروا مع الأبرياء لأنهم لو كانوا يعرفون الله أو يؤمنون به ما كانوا ارتكبوا جرائم تقتيل الناس وإباحة دم الأمة وشرفها ، أقول إنهم بدلاً من أن يقرأوا كتابهم الذى حاسبهم بعض الحساب إذا بهم يشتموننى في جريدتهم ويقولون إننى عملت الكتاب بالأجرة ولحساب حكومة الوفد ، في حين إننى انتقدت فيه حكومة الوفد على الكثير من أعمالها ، وقد اتهمنى بعض رجالها بأننى وضعت الكتاب لحساب الإخوان المسلمين ، الذين اعتقدوا اننى عملت الكتاب لحساب حزب مصر الفتاة ، كما أن حزب مصر الفتاة اتهمنى بالمغالاة في الدفاع عن الإخوان والتغنى بحكم الوفد ... ولكن لما سخر الناس من كلام السعديين الذين يتهموننى تورطت جريدة حزبهم وقالت إن حكومة الوفد دفعت لى «الجنسية المصرية» في مقابل ذلك الكتاب! مع أن رسوم الحصول على الجنسية في وزارة الداخلية هى بضعة جنيهات وأما الكتاب فقد كلف مئات الجنيهات غير التعب والسهر في كتابته وتصحيحه وطبعه ، وهناك ثمن آخر للجنسية كان

معروفاً عند حكومة السعديين والدستوريين وهو أن يكون الإنسان يهودياً أو إنجليزياً أو خائناً أو جاسوساً ...

استطراد لا بد منه

وأنه ليكفى للرد على عمى قلوب السعديين أن يقرأوا في صفحة ٦٧٥ كيف إنني شكوت متذمراً من كلام سراج الدين باشا حين كان يمين على أمام الناس بتسويته مسألة الجنسية التي كان يمكن أن آخذ بها حكماً من مجلس الدولة ، فليتنى فعلت ذلك حتى لا يعيرني خوارج البلاد ولا يمين على بها أصدقاء اتهمت من خصومهم بالعمل لحسابهم ! .
ألم أقل في كتابي هذا إن الإنسان يلقى الهم والغم والأذى على أيدي الأصدقاء أكثر مما يلقى من الأعداء ؟

الدفع سلفاً ...

هذا وقد جرى حديث عندى في دار الشورى عن كيفية اعتراف الحكومة الوفدية بالجنسية وهل كان ذلك قبل طبع الكتاب أم بعده ، فقلت لهم بل قبله ، فقال كبير مسئول لقد سقطت حجة السعديين مادام الاعتراف قد سبق وضع الكتاب ، فقال أحد الأصدقاء متهمكاً كلاماً لم تسقط لأن هذا الثمن قد تكون حكومة الوفد دفعته مقدماً ، أليس أن الذى يدخل السينما مثلاً يدفع ثمن التذكرة سلفاً ...

إن عمى القلوب والعياذ بالله قد يصل بالإنسان إلى عدم رؤية المراتب وإنكار كل حق ، والمجرم أحياناً لا يقنعه أنه قضى على ضحيته بل ينهال عليها بعد ذلك ضرباً وتهشياً وتقطيعاً ، وكم من مجرم وقف فى المحاكم يلوم القاتل ويجعل الحق عليه أمام القضاة ...

ضعف الوفد

حتى لقد بلغ من وقاحة هؤلاء الخوارج الإرهابيين أنهم استغلوا رحمة الأمة أوتهاونها فى حقها فى تمزيق رقابهم على الأقل : أن كبيرهم إبراهيم عبد الهادى وقف مرة أمام رهطه الإرهابى قائلاً إن الشعب معه والأمة تؤيده وأنه وإياهم يفوزون فى أية انتخابات نيابية ! كأن الانتخابات لم تحصل ولم يسقط هو وإياهم ذلك السقوط المريع ، والغريب إنه يقول هذا الكلام وهو يعيش

تحت حراسة جماهير من رجال الشرطة الذين يحمونه من الأمة وغضبها وسخطها، بل إن حكومة الوفد لو كانت اليوم على حزمها القديم وقوتها الشعبية المعتادة لسأقت إبراهيم باشا وجماعته إلى محكمة الجنايات وأزلت بهم حكم القانون، وإني من الآن أحذر الوفديين وأنذرهم بأكل الأكف أسفاً وشرب الدموع ندماً على تفريطهم في حق الأمة حين أهملوا واجبهم هذا وهو إحالة أهل العهد الدابر الغابر ومجرميه إلى المحاكم وهذا أضعف الإيمان.

المحاكم تؤكد براءة الأمة

وفي أثناء تصحيح هذه الصفحات وإعدادها للطبع النهائي أصدرت محكمة جنايات مصر في ١٧ مارس ١٩٥١ أحكاماً في بعض القضايا التي نشأت عن تصرفات حكومة السعديين والدستوريين فإذا بها تدمع ذلك العهد المظلم دمعاً لا يمكن الخلاص منها، فإن هذه المحكمة برأت معظم الذين ضربوا وعذبوا ونكبوا في صحتهم وأموالهم، فغادروا السجون فوراً. وأما الذين حكم عليهم فكانت الأحكام بسيطة بالنسبة إليهم كتهمة حمل سلاح مثلاً، فهذه التهم لا تستوجب كل هذه الفظائع وقد أفرجت المحكمة عنهم أيضاً لأن مدة حبسهم تحت التحقيق والمحاكمة كانت أطول من المدة التي حكم عليهم بها، بل أن هذه التهم مهما كانت خطيرة، حتى ولو كانت ثابتة عليهم ثبوت اليقين فإن التعذيب لا يجوز وهو مبطل لأهم أركان التحقيق ومشوه للعدالة، إن وقائع التعذيب والفظائع قد ثبتت بما لا يقبل الشك، وما دام الأمر كذلك فمن حق العدالة أن تأخذ النياحة العامة بخناق جميع الذين ارتكبوا الفظائع مع المتهمين سواء الذين برأتهم المحاكم أو الذين حكم عليهم. تجرمة التعذيب موجودة، وحكم القانون في الذين يعذبون الناس معروف، وكذلك حكمه في الذين أمروا به، سواء بالقول أو الإشارة. وإني أهيب بمجلس النواب أن يتناول موضوع الضرب والتعذيب في السجون بالبحث ومطالبة ولاية الأمور بتنفيذ القوانين التي تحرم ضرب المتهمين مهما كانت التهم كبيرة، فالقانون هو القانون، وإلا فليعدل مجلس النواب قانون العقوبات ويحذف منه المواد التي تعاقب على التعذيب ليكون الناس على بينته! هذا وليعلم كل نائب أنه هو وأولاده وأحفاده من بعده عرضة للضرب والتعذيب في السجون ودوائر الشرطة، وحينئذ يقال لهم: يداك أو كتاك وفوك نفخ...

أمين رويحه

قضية تاريخية

أما وقد مر ذكر الدكتور أمين رويحة في هذا الكتاب كثيراً وأصبح القارىء يعرفه لكثرة ما سمع عن جهاده . فمن الواجب على إذن أن أوافيه ببقية أخباره ، مادامت متاعبه لم تقف عند الذى كان من إخوانه القدماء ، لأن الذى لقيه من الزملاء الجدد كان أدهى وأنكى ، أليس أن هذا الكتاب كله قد وضع عن السجون والمسجونين والمجاهدين والمنكوبين ؟ إن آخر ما سطرت عن رويحة كان في وصف حاله ومتاعبه مع حكومة الجمهورية السورية التى ذاق الموت في سبيلها ، وقد حدث بعد ذلك وقبل إزال القوتلى بك عن رئاسة الجمهورية ، أن الدكتور أمين تطوع لحرب اليهود بفلسطين مجاهداً بالسلح وبمشرط الطبيب ، وقد أصيب في بعض المعارك بجراح ولكن عناية الله أدركته . وقد أنشأ في فلسطين في تلك الأيام السود ثلاث مستشفيات للمجاهدين ، وبقى يجاهد هناك إلى أن انتهت حرب فلسطين بتلك الهزيمة الشنعاء للعالم العربى على يد جامعة الدول العربية ، فرجع الدكتور رويحة إلى دمشق يزاول عمله الطبى والوطنى في حقل السياسة والإنسانية ، فلما وقع انقلاب حسنى الزعيم توارى الدكتور عن الأنظار وهرب إلى لبنان ثم عاد إلى دمشق ، ففي خلال هذه الانقلابات برزت شخصيته ولمع بين الجماهير نجمه ، فأصبح محوراً يدور حوله الشئ الكثير من أمور البلاد السياسية ، فإن لم يؤيد للحكومة مشروعا أو خطة فالرأى العام كان لا يؤيدها ، وبعد ذلك صرت أسمع مراراً أن بعض العسكريين كانوا يتخوفون منه وينظرون إليه شذراً ويبيتون له أمراً ...

وقبل أن أمضى في سرد ما كان بعد ذلك أحب أن أمهد لذلك بالفصل الآتى ليصبح الموضوع مبسوطاً ومفهوماً .

مقالة عن سورية

انتخبت سورية نخامة السيد هاشم الأتاسى لرئاسة الجمهورية بعد مقتل حسنى الزعيم « بدلا من شكرى بك القوتلى » وقد سبق للأتاسى أن كان رئيساً للجمهورية من سنة ١٩٣٧-١٩٣٩ وفي صيف ١٩٥٠ وقع انقلاب ثالث في سورية ، إذ وثب أحد ضباط الجيش وهو العقيد « الكولونل » أديب الشيشكل على رئيسه اللواء سامى الحناوى فهاجمه مع بعض الضباط وقبض عليه وحبسه وجلس مكانه . فكان لهذا الانقلاب الثالث من أحد رجال

الانقلابين السابقين على قائد الانقلاب الثاني أسوأ وقع في جميع أرجاء العالم ، فكتبت يوم أول أغسطس ١٩٥٠ فصلا حول هذه المواضيع ونشرته في الصحف . وإني أرى إثباته هنا لأن بعض تخوفاتي قد تحقق مع الأسف بعد شهرين ، وأظن أن بقيته ستتحقق مع شديد الحزن ، ولكني لا أدري متى ، راجياً من الله أن لا يقع شيء في سورية يسئ إلى أحد فيها ، وهذا هو الفصل المذكور وقد نشر تحت عنوان :

هذه الانقلابات في سورية ...

« كُتِبَ إلى أحد فضلاء المهاجرين السوريين من نيويورك يعرب عن إشفاقه على سورية من الانقلابات التي تعانيتها ، ويسألني عن المصير ، وما هو الدواء ، وكيف السبيل إلى استقرار الأحوال فيها .

وإني أجيب حضرة المهاجر الفاضل على صفحات الجرائد علناً ، لعل أصحاب الانقلابات في سورية ينعمون النظر فيما يجول بخواطر الناس من مخاوف ، فقد يكون فيها تذكرة أو عبرة . وقبل الجواب على ذلك يحسن شرح الداء لنتهدى إلى الدواء ، فالذي سبب لسوريا هذا البلاء ليس هو حسني الزعيم وحده كما يظن البعض بل يشاركه فيه اللواء سامي الحناوي ، ثم يشاركه بعد ذلك الكولونل الشيشكلي ، ولا أدري من يكون بعد ذلك ...

ثم إليك هذا البيان : إن الحناوي لما قتل حسني الزعيم لتخليص سورية من دكتاتوريته قام هو بدكتاتورية مثلها تقريباً برغم وقوعها بشكل آخر ! لأنه صار يحكم البلاد من مركز « الأركان حرب » فعلاً ، وجعل الحكومة السورية كأنها « سورية » ولم يترك لرئيس الدولة والوزراء ما يعملونه فكننت ترى أبواب « الأركان » مزدحمة بأرباب الحاجات ، في حين كانت دوائر الحكومة الحقيقية خالية من كل حركة تدل على وجود الحكومة المدنية ، ولا يغرنك قول الحناوي حين زعم انه ترك السياسة ، بل انه كان يزاول أعمال الدولة السياسية والعسكرية ويرهب الحكومة المدنية بوحية وسلطانة العسكرية .

الذي كان يجب أن يكون

لقد كان على الحناوي بعد أن أزال حكم حسني الزعيم وادعى أنه جعل الجيش يعتزل السياسة أن يبعده عنها فعلاً ، وأن يعتزلها الحناوي نفسه أولاً ، بل كان عليه أن يترك السياسة

ويترك قيادة الجيش وأن يستقيل من خدمة الدولة كلها ، ثم يسلم رئيسها وحكومته أمر البلاد وزمام الجيش نفسه ، لتعين هي قائده وضباطه وأركان حربه ، وبذلك يظل سلطانها على الجيش حقيقة واقعة ، ويكفي أن يشعر قائده الجديد بأنه مدين لها بمنصبه لتستقر الأمور في نصابها ، وبذلك تنقطع سلسلة الحسد التي تساور زملاء الانقلابات عادة .

ولكن الحناوى لم يصنع شيئاً مما كان يجب أن يكون ، بل صار يمثل دور حسنى الزعيم بأسلوب آخر ، ويسيطر على جهاز الحكم فعلاً ، فشر أنداد الحناوى بالغيرة والسخط ، وقالوا إن الحناوى ليس بخير نابل يجب أن يشر كنامعه ، ولما تعذر عليهم الوصول قاموا عليه وحبسوه وقلبوا دولته ، وبذلك تم الانقلاب الثالث القائم الآن بقيادة العقيد الشيشكلي ، الذى راح أيضاً يمثل دور الحناوى ، ثم قتل القائد محمد ناصر أحد أركان الانقلاب الثالث . والغالب أن الصدور عند بقية الشركاء قد أصبحت تغلى على الشيشكلي حقداً أو حسداً ، ومن يضمن لنا أن لا يقوم فريق منهم بالزحف بيضع دبابات على العقيد الشيشكلي لقلب حكمه ، فإن لم يتمكنوا الآن فسيتمكنون غداً وهلم جرا .

ما هو المصير ؟

هذا هو الداء ، فبعد أن شرحته فيما تقدم يمكن الآن وصف الدواء ليعمل به الشيشكلي إن أراد وضع حد لحالة القلق في سورية ، وهو أن يقوم بما فات الحناوى عمله ، بأن يسلم الجيش إلى رئيس الدولة ، ويستقيل من القيادة ويغادر سوريا كلها ، ولو إلى حين ، لأن فعلته مع قائده واستسهال القيام بالانقلابات لما يجعل الخطر يتفاقم ، وأهل الثأر يتحركون... فإن لم يستقل الشيشكلي ويتعد عن الحكم فالمصير هو استمرار الانقلابات وسفك الدماء ، واضطراب أمر الأمة وضعف الجيش وتفرق كلمة الشعب وفروغ صبره...

وعند ذلك لابد من حل يقطع هذه السلسلة من الانقلابات ، وهى أن يزحف الإنكليز على سورية من شرق الأردن متخذين من جيشها أداة احتلال بحجة إقرار الأمن... أو يزحف الإنكليز على سورية من العراق متخذين من الجيش العراقي ستاراً لمطامعهم ، فتقع المعارك بين الجيش السوري وبين الغزاة وستكون مقاومة الجيش السوري ضعيفة متخاذلة،

لأنه يكون في حالة انقسام ، كما أن الأمة السورية ستبقى في معزل عن القتال ، لأنها تكون قد سئمت الانقلابات وأصحابها ومصائبها وعواقبها ، وتكون النتيجة أن الجيش الاستعماري الغازي يحتل البلاد السورية بدعوى حمايتها من الفوضى ، وبعد ذلك يحل الغازي جيشها ويقبض على قواده ويحاكمهم بأشنع التهم ، ويحيطهم في خلال ذلك بجو مملوء بالشتائم ، ثم يزعم أنه جاء لتخليص البلاد وإنقاذ العباد من شر العسكريين وحكم العصابات .. إلى آخر ما عند الإنكليز من تشنيع سيوجهونه إلى الحاكمين المهزمين ...

وبعد ذلك نجد سورية - لا سمح الله - قد وقعت تحت سلطان الاحتلال الإنكليزي ، إما باسم « سورية الكبرى » تحت حكم الهاشميين في الأردن ، أو باسم « الوحدة العربية » تحت حكم الهاشميين في العراق .

وهي على الحالين تكون واقعة تحت الحكم الإنكليزي واستعمارهم ، لأنه لا بد في الحالتين من أن تنسحب على سورية إحدى المعاهدتين ، إما الأردنية - البريطانية ، وإما البريطانية - العراقية ، هذا هو الداء ، وذلك هو الدواء ، وهذا هو المصير .

فعلى السوريين حكومة وشعباً ، وزعماء أيضاً ، أن يتدبروا أمرهم قبل فوات الأوان ، لأن بريطانيا على الأبواب ...

ماذا جرى بعد ذلك ؟

إن الذي حسبت أنه سيقع في سورية قد وقع بعضه مع الأسف ، وسيقع - لا سمح الله - ما هو أكثر منه إن لم يترك رجال الجيش حكومة الجمهورية تمارس مهمتها . فالذي وقع بعد نشر المقال السابق أن أطلق الرصاص على سيارة العقيد الشيشكلي فأصيب بعض من فيها من الضباط وقد اتهم في تدبير هذا الحادث عدد كبير من الناس ، كان أبرزهم الدكتور أمين رويحة ، وكانت حكومة سورية قد أفرجت عن اللواء سامي الحناوي على أن يغادر البلاد فسكن مدينة بيروت فترصده محمد البرازي « ابن عم المرحوم محسن بك البرازي الذي قتل في الانقلاب الثاني مع حسني الزعيم » وقتل الحناوي في الشارع العام أخذاً بثأر ابن عمه ، فلو أن الحناوي ترك

الجيش بعد نجاح انقلابه على حسنى الزعيم ، لما وقع الانقلاب الثالث ولا أصابه بعد ذلك ما أصابه ، من حبس وإخراج من الوطن ، ثم القتل ، ومن يعيد النظر فى المقال المتقدم يرى اننى توقعت هذا الشر للحناوى قبل أن يغتالوه ، كما انى توقعت للعقيد الشيشكلى مصيراً صعباً إن لم يستقل ويغادر البلاد كلها ، وبعد ذلك وقع حادث الاعتداء على سيارته كاسيجىء ولكنّه نجى من الخطر...

رحلة عدلت عنها

وفى الخريف الماضى بعد أن ملكت «جواز سفر» عزمت على زيارة دمشق التى غبت عنها ٣٦ عاماً ، فى الخريف والربيع تطيب زيارة الشام وتبعق زهورها ، وهناك أصدقاء وإخوان طالما تشوقت إلى رؤيتهم والتحدث إليهم ، ويكفى أننى سأزور العاصمة الأموية وهى نظيفة لا أثر للاستعمار فيها ، وأن أرى هناك بقية السيوف من المجاهدين ، وآثار التخريب والتدمير والفظائع التى ارتكبتها فرنسا فى عاصمة أمية فى خلال ربع قرن ، وهل يوجد شئ فى الدنيا أجمل من رؤية المجاهد الظافر قبل أن يخلع ثوب الجهاد . وقبل أن تندمل منه الجراح؟ كذلك دمشق ، فإن أجمل ما فيها هو شعبها الغضوب والدمار الذى أنزلته فرنسا بعمرانها ، فلولا عنفهم ولولا حمق فرنسا ، ولولا تدميرها البلاد وذبح العباد فى سورية وقيامهم على فرنسا لما خرجت منها ومن المشرق ، وأرجو أن أعيش لأرى إخراجها إن شاء الله من المغرب...

حادث

وفىما كنت أعد معدات السفر ، إذا بالبرقيات تذيع من أخبار دمشق يوم ١٣ أكتوبر ١٩٥٠ انه فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل الماضى كانت سيارة عسكرية قادمة إلى دمشق فتصدى لها مجهولون فى جهات دمر وأطلقوا عليها النار فأصيب الضابط الكبير الذى بداخلها بجراح وتسلم المحققون العسكريون القضية . وقد أذاعت وزارة الدفاع بلاغا رسمياً حول الحادث ولكنها منعت نشر أى تفاصيل أخرى . وتدور همسات كثيرة حول شخصية هذا الضابط وغرض المهاجرين ولكنها لا تخرج عن نطاق الانقلابات المتتابة فى سوريا .

وبعد أيام سمعنا من الصحف أن الحكومة السورية قبضت على بعض الأشخاص وفيهم الدكتور أمين رويحة والسيد أحمد الشرباتي وزير الحربية الأسبق وغيرها ، فقلت في نفسي : هذه سحابة صيف وأن المسألة لا بد أن تنكشف بعد قليل وأنا سنسمع بعد أيام نبأ إطلاقهما لأنهما ليسا من أهل الشر ، ومن الجائز أن يكون هذا القبض من نوع الإرهاب المحلي ، ومع ذلك فقد عدلت عن زيارة الشام حتى لا أدخلها وأنا أريد الانتعاش النفساني والروحي فأجد هناك صديقي منغصاً ، وكان عزمي على إعداد هذا الكتاب للطبع قد بدأ فقلت يجب أن لا أضيع الوقت في الأسفار وأن أكمل الكتاب في هذه الأشهر القليلة القادمة قبل أن يدهمنا فصل الصيف بوجهه وحره ...

فكرة

وكنت بعد أيام من هذا الحادث أزور نخامة السيد مزاحم الباجه جي رئيس الوزارة العراقية الأسبق بفندق سميراميس بمصر بحضور السيد نجيب الراوى بك الوزير المفوض وجماعة من فضلاء العراق ، فسألني الباجه جي بك : هل عدلت عن زيارة الشام ، فقلت نعم ، لأن هناك منغصات فلا أريد أن أطرق بلداً أحبه وهو غير ناعم البال . فقال ولكن صديقك رويحة محبوس فذهابك لنجدته يفيد كثيراً فقد تتوسط بين القوم وتنفض المشكلة على يدك ، فقلت له إن الذين أعرفهم ويعرفونني في الشام قد انقضوا ، فالذين لحقوا برهيم لن يرجعوا ، والذين كان بيدهم الحل والعقد قد تنكروا لي وهم أقوياء ، ومع ذلك فإنهم الآن قد رحلوا أو أخرجوا منها قبل أن أراهم فيها وهم سادة يحكمون ، ليعرفوا بي يوماً من جاء بعدهم ، فلو أنهم تنازلوا واتصلوا بي قبل نكبتهم وأقاموا لي شيئاً من الوجاهة قبل زوالهم لانتفعوا بها أو انتفع الغير بتلك الوجاهة التي بخلوا على بها ، وما بخلوا إلا على أنفسهم ...

قلت إن الذين كانوا ساعة حديثنا ونحن عند الباجه جي بك كلهم من العراقيين وقد لحظت أنهم جميعاً كانوا مستحسنين فكرة سفري ، ولا عجب فأهل العراق يحبون أمين رويحة

ويعجبون به، وهم يعرفونه في بغداد سنيناً كثيرة ، وإنه المجاهد القومي النادر المثال ، فكيف لا يحبونه ؟ ولذلك قلت لهم إنى سأفكر ...

استغاثة ...

وما كدت أفارقهم إلى مكنتي حتى وجدت فيه رسالة من الدكتور رياض رويحة شقيق الدكتور أمين ، يشرح لي فيها حقيقة الحادث الذي وقع في الشام للسيارة العسكرية وأن المراد من تلفيقه البطش بأمين بأى ثمن كان وإنهم منعوا المحامين من مقابلته ثم استنهضني إلى العمل والسعى لإنقاذه .

الاستجابة

عند ذلك عقدت اجتماعاً من بعض الأصدقاء الذين يعرفون الدكتور أمين ، ويقدرّون جهاده ، ثم ألفنا وفداً ضمّني إلى الأصدقاء محمد بك سليمان والدكتور الطيب ناصر ، والسيد بشير الخالدي من شباب العراق والأستاذ يحيى شاهين ، وذهبنا إلى المفوضية السورية حيث وجدنا القائم بالأعمال ، فتحدثنا معه عما يساور الرأى العام من قلق على الدكتور أمين رويحة وأن يستأذن حكومة دمشق في السماح لمحامين من مصر بالدفاع عنه. وبعد ذلك أعطينا الجرائد بيانات ومعلومات عن القضية وعن مكانة الدكتور أمين رويحة في العالم العربي . فقامت لذلك ضجة في الجرائد والأوساط الوطنية المخلصة، وأعلن بعض المحامين الفضلاء في مصر والعراق تطوعهم للذهاب إلى دمشق للدفاع عن أمين .

أمانة صحفية ودعوى في محكمة

فإذا بالقائم بالأعمال ، وكان اسمه أسعد محفل ، يذيع في جريدة المصرى دون سواها بياناً ملفقاً أنكر فيه كل شيء عن سوء المعاملة لأمين وادعى وجود حرية للصحافة هناك ، ثم ختم بيانه بغمز ولمز بلجنة الدفاع عن الدكتور أمين التي اعتبرت هذا القائم بالأعمال شخصية دبلوماسية وجعلته مرجعاً رسمياً ، فإذا به يتخذ سبيل المهاترة كما ظهر من بيانه هذا . فأسفنا كثيراً وأصبحنا بعد ذلك نتجاهله هو ومفوضيته ، فأبرقنا بالوساطة لأمين إلى نخامة الأتاسى

رئيس الجمهورية، فهو يعرفني معرفة قديمة ولى مكانة عنده ، وإلى الدكتور القدسي بك رئيس الوزراء فهو أيضاً يعرفني وأعرفه في مؤتمر بلودان سنة ١٩٣٧ وقد زرته في مصر بعد ذلك وزارني ، وقد ذكرت لهما في البرقيات ما يشعر به العالم العربي من اضطراب خاطر على الدكتور أمين بسبب هذه القضية الخ ..

وأما جريدة المصري فقد أرسلنا إليها تصحيحاً فلم تنشره، فذهبت إليها بنفسى وأعطيتها نسخة أخرى من ردنا على مفوضية أسعد محفل فلم تنشره أيضاً . في حين أنها لم تكن ملزمة بنشر بيان أسعد محفل أصلاً ما دامت لم تكتب ولم تنشر شيئاً عن الدكتور أمين رويحة فليس لها دخل في الموضوع إذن، وكان يمكنها أن تقول لأسعد محفل : اذهب إلى الصحف التي نشرت وكذب فيها ، ولكن جريدة المصري تركت الدكتور أمين فريسة للذين حبسوه ونشرت فقط ما يسىء إليه وإلى الذين يدافعون عنه ويضعف مركزهم أيضاً .

فلما رأيت هذا الإخلال بالعرف الصحافي لم يسعني إلا رفع قضية على جريدة المصري أمام المحكمة ، وهي لا تزال مطروحة أمام القضاء .

برقية من بيروت

وبعد أيام من الحوادث السابقة تناولت برقية من أحد فضلاء دمشق وهي مرسلّة عن طريق بيروت، بأن أمين يساء إليه ويهان في السجن وأنه في خطر ، وأن هانيء محمود الهندي أحد المتهمين فقد سمعه من شدة التعذيب ، وأن أحمد بك الشرباتي الوزير السابق قد أضرب عن الطعام لسوء ما لقي في السجن .. الخ الخ . وانهم منعوا المحامين من حضور التحقيق معه ومنعوا المتهمين من الاتصال بأهلهم ، عند ذلك لم أتردد في الذهاب إلى دمشق وليكن ما يكون .

طلبت تدخل جامعة الدول العربية

وهنا خطر لي أن أطلب تدخل جامعة الدول العربية ولكن... إن من يقرأ ما كتبت عن هذه الجامعة في أول



مجلس الجامعة في طريقه إلى الانعقاد في مارس ١٩٥١



المجلس منعقد والأعضاء يتناقشون...



مسير الجامعة العربية في مارس ١٩٥١

هذا الكتاب قد لس بلا شك ما كان العالم العربي ينيه على وجودها من آمال ولكن الذين قاموا بأمرها قد جعلوها مخيبة للآمال! وقد سردت في صفحات سابقة من هذا الكتاب بعض ما كان منها لتخاذل دولها وعدم كفاية القائمين بها وعدم أمانة بعضهم أيضاً، وفيهم من اغتنى باسمها وبأموالها التي وضعت في كل مكان إلا في محلها، وقد تفننت الصحف في تصوير حالة هذه الجامعة كما يراها أبناء جيلنا إلى أن عجزت عن وصفها الوصف الذي تستحقه، فإذا بريشة الرسامين والفنانين ترسمها على حقيقة، في صحف أيامنا هذه كمجلة روز اليوسف وجريدة آخر لحظة وجريدة أخبار اليوم، ومن ذلك الصور التي أوردتها هنا، لأنها تصور حالة راهنة وما على الجيل الآتي إلا أن يصلح هذه الجامعة - إن قدر - ليرسمها فنانو الجيل الجديد على حقيقة أيضاً وأرجو أن تكون حالها يومذاك أصلح وأحسن...

رحلة دمشق

تعال معي إلى دمشق

ولكن كيف أسافر ؟ إن الطريق الطبيعي إلى الشام هو القطار من المحطة الرئيسية بالقاهرة إلى المحطة الحجازية بدمشق ، عن طريق فلسطين ، ولكن أين فلسطين الآن ؟ إنها في أيدي اليهود ، وبذلك انقطعت الطريق بين العالم العربي في إفريقيا عن شطره الآخر في آسيا ، وهذا ما كنت أحذر في وقوعه قبل وقوعه بثلاثين عاماً ، وبقيت أُنذر به وأحذر منه ، ولكن العالم العربي كان أصم الأذن أعشى العين ، لا يرى ولا يسمع ، إلى أن دهمت القارة ورأى بعد فوات الأوان أن دولة عصابات اليهود تقوم بين سمعه وبصره ، وتقتطع فلسطين منه ، بعد أن هزمته عسكرياً وسياسياً وأهانتته أشنع إهانة !

شهداء الطيران

إذن فليس أُمّياً إلا الطائرة ، ولكنني كنت قد آليت على نفسي أن لا أركبها في حياتي لأنني أخاف ركوبها ، وخصوصاً بعد أن ودعت فيها أحبّاءً فارقوني ولم يعودوا ، ومنهم الضابط العراقي الطيار جواد حسين ، فتي شاب العراق المعروف بالبسالة والغيرة القومية ، والضابط الطيار العراقي الشهيم إبراهيم جواد الذي تطوع لتدريب الطيارين السوريين في حرب فلسطين فسقطت به الطائرة واستشهد ، وهناك أصدقاؤى المجاهدين المغاربة الثلاثة ، السيد محمد بن عبود المراكشي ، والدكتور الحبيب ثامر التونسي ، والأستاذ على الحمّامي الجزائري ، فقد احترقت بهم الطائرة فوق جبال الباكستان حينما كانوا يذيعون مظلمة وطنهم في أقصى الشرق . رحمهم الله جميعاً

« وأما بقية قصة أمين فستجدها عند وصف دمشق بعد الفصل الآتي » .

ذكريات ...

بل كيف أنسى أول طائرة وأول طيار شاهديهما وأنا فتي ، وكيف عدت عليها الأقدار ففرقت أُمّياً ومات من فيها ، وإني أظن أنه لا بأس من إشرارك القارئ معي في استعراض ذلك المنظر الذي لا يمكن أن تمحوه الأيام من ذكريات الأمس البعيد ... ففي أواخر سنة ١٩١٣ أرادت الدولة العثمانية أن تثبت وجودها أمام الدول الأخرى من ناحية الطيران وأمام شعبها ، لاسيما بعد أن جاء المسيو « قدرين » الطيار الفرنسي ساوي إلى بيروت قادماً من باريس على طائرة

يقودها بنفسه حتى القاهرة ، فقد فتنت فرنسا بهذه الطائرة عقول أنصارها في لبنان بعظمتها الفنية وقدرتها العسكرية .. وهو أول حادث من نوعه في تاريخ البشر ، فكيف في عيون أهل الشرق ... ولذلك بعثت الدولة بإحدى طياراتها من استانبول إلى القاهرة ، ولكنها سقطت بطيارها الفتيين المرحومين « فتحي وصادق » بجوار بحيرة طبرية ، فأرسلت الدولة طائرة ثانية بقيادة الضابط نوري بك ومساعد له فوصلت إلى يافا ، وكنت يومها هناك ، فهبطت الطائرة على أرض الرمال في أطراف يافا - حيث قامت عاصمة اليهود بعد ذلك - وكنا قبل وصول الطائرة رقب الجو بعيون زائغة إلى أن لاح في الأفق عصفور ما لبث أن كبر ، ثم كبر وكبر إلى أن أصبح فوقنا كالسفينة ، فاندھشنا وكنا لانكاد نصدق ما نرى ، وهبطت الطائرة رويداً إلى أن استقرت على الرمل الأبيض النقي الذي دنسه قيام تل أبيب فوقه بعد ذلك ... وهرع الناس إلى الأسطورة التي أصبحت حقيقة ، وتمكنت يومها من لبس ملابس نوري بك والتحسيس بيدي على جناح الطائرة وكان من الخشب المكسو بالجلد الرقيق . وبذلك صدقت أن الإنسان يمكنه أن يطير كالعصافير ، بدون أن يخطر بباله ولا ببال مخترع الطيارات أن اختراعه العجيب سينقلب إلى طير أبايل يخرب به الاستعمار ديار الآمنين .. ويقوض به صرح الحضارة ...

وفي اليوم الثاني خرجت مدينة يافا لتوديع الطائرة وهي في طريقها إلى القدس فالقاهرة ، فلما حلقت في الهواء وأرادت الانعطاف إلى الشرق نحو بيت المقدس إذا بها تسقط في البحر ، فكان لهذه الفاجعة في النفوس أثراً عميقاً محزناً لا يمكن أن يزول من خيال الإنسان طول حياته ، ولذلك أصبحت أخاف ركوب الطيارات^(١) ولكن لا بد مما ليس منه بد ، فبادرت

(١) إن هذه الفاجعة بسقوط طائرة نوري بعد سقوط طائرة فتحي وصادق لم تكن الدولة العثمانية عن عزمها ، بل أرسلت طائرة « ثالثة » بقيادة الطيار سالم بك فوصل القاهرة ثم الاسكندرية فاحتفلت به الأمة المصرية في العاصمتين احتفالاً لا مثيل له ، وقد رحب شاعر مصر شوقي وحافظ بهذه الطائرة وطيارها بقصيدتين من الشعر الخالد ، كما أنهما رثيا الطيارين الذين استشهدوا قبل ذلك ، وقد دفنت الحكومة العثمانية فتحي وصادق بمآتم قومي بجوار ضريح السلطان صلاح الدين الأيوبي بدمشق رحم الله الجميع .

إلى حجز مكان في طائرة عراقية مسافرة في اليوم التالي إلى بغداد ، وستقف أولاً في دمشق ثم ذهبت إلى بيتي وفاجأت أسرتي بنبأ هذا السفر، فباركته وشجعتني عليه، وكانت «الفيزا» بدخول سورية لا تزال لحسن الحظ صالحة . فأبرقت إلى أخي صبحي بك الخضرا بدمشق^(١) بأن يحجز لي غرفة بفندق « الأوريان بالاس » وأن ينتظرني فيه « وحده » بعد العصر ، وفي ظهيرة ٣١/١٠/١٩٥٠ كنت في مطار مصر الجديدة وفيما كنت أقصد إلى الطائرة إذ لمحني أسعد محفل القائم بالأعمال السوري فودعني، وكم كنت أرجو أن لأراه يومها ، لأنني كنت أريد الوصول إلى دمشق بغتة ، فأقوم بالاتصالات التي أريدها قبل أن يشعر أحد بوصولي .

ركوب الطائرة لأول مرة

إن بعض الذين ركبوا الطائرات للمرة الأولى في حياتهم قد وصفوها ودونوا خواطرهم عنها وخلجات نفوسهم وهم فيها ، ولكني لم أقرأ وصفاً لأحد يماثل ما دونه الآخر ، فلكل راكب تأثراته ولكل مسافر إحساساته وطريقته في الكتابة ، ولذلك أحببت أن أكون واحداً من هؤلاء ، وأنا على كل حال إن كتبت في موضوع قد لا كتبه الأقلام كثيراً فإنما أكتب للذين لم يركبوا الطائرة ، أو للذين لم يقرأوا لركوبها وصفاً ، لأنني أريد - وأنا أصف رحلة دمشق بعد أن غبت عنها أكثر من ثلث قرن - أن أشرك فيها القارئ كأي آخذه معي وأجعله يتفرج على ما رأيت ويشعر معي بما كنت أشعر به ، سواء كنت طائراً أو متفرجاً أو مفكراً ، متمتعاً أو متألماً أو خائفاً . حتى لا يكون حديثي عن قضية الدكتور أمين رويحة جافاً كله أو محزناً كله ...

على بركة الله

كانت الطائرة التي ركبها من طراز كبير تتسع لأكثر من عشرين راكباً، وكانت نفخة المقاعد وثيرة الرياش - لترغيب الناس في ركوب الخطر ، لأنه ليس من الحكمة أن تأخذهم

(١) هو المحامي الفلسطيني الشهير والمجاهد القديم الذي مضى في اعتقالات الإنكليز ومنافيتهم بفلسطين أكثر من عشر سنين ، ولما وقعت وقائع فلسطين قبيل ضياعها كان صبحي الخضرا من المتهمين في الدفاع عنها وتسليح المجاهدين لأنه كان في الأصل ضابطاً ، ولما فرطت الحكومات العربية المنقذة بفلسطين استقر صبحي بك إلى دمشق .

على كف عفريت ثم تجلسهم في مقاعد مزعجة فوق خوفهم وفزعهم من ركوب الهواء .
وإني لا أصدق أياً كان على وجه الأرض يقول إنه ركب الطائرة ولم يشعر برجفة داخلية
أو قلق خفي ، أو أن يزعم أن الموت حرقاً أو غرقاً أو حبساً على الأرض لم يخطر على باله ...
وقد لحت اسم الطائرة مطبوعاً على جنبها بحروف عربية «المأمونة» فتيمنت بهذا الاسم المحبوب
عمدنا ، الأثير لدى العرب جميعاً ، لأنهم ينسبون لها بهذا الاسم إلى الملك المأمون العباسي الشهير
وهذه الطائرة عراقية الجنسية ، ومن عادتها أن تصل القاهرة عند ظهر الثلاثاء فتتمكث ساعة
ثم تطير عائدة إلى بغداد على أن تقف في دمشق لتنزل ركاباً وتأخذ معها آخرين .

شدوا الحيازيم

ومر بنا « المضيف » وهو شاب عراقي دمث لبق ، وكانت العادة أن يكون هناك
« مضيفات » فالظاهر أن حادثة سقوط طائرة الركاب الأميركية الكبيرة قبل ذلك بأيام
بجوار دمنهور وتهشيم كل من فيها واحتراقهم ، ونشر صور بعض الضحايا من السيدات
والأوانس ، قد أفرغ قلوب الجنس اللطيف ... فأضربن عن ركوب الطائرات !!
ووزع علينا « المضيف » قطناً وضعناه في آذاننا ، ثم أشار بوجوب شد الأحزمة على
وسطنا فشدناها ، ولكنني قبل أن أشد حزامي نهضت بغتة وجلست عند الشباك الأيمن ،
فقال المضيف إني أخاف عليك حر الشمس هنا ، فشكرته على نصيحته ولكنني أصررت
على أن أظل حيث أنا ، فتركني أجلس حيث شئت وهو مندهش من عنادي .. ولكن أني
له أن يعرف السبب ، إنه لو عرفه لعذرني وذرف الدمع معي ...

تعال معي ...

كم كنت أتمنى لو صاحبنى رفيق أبته خلجات نفسي حين درجت بنا الطائرة لأول وهلة
لأنني لم أشعر بشيء إلا بدوى المحركات وكون المرئيات صارت تتحرك ، وكانت الطائرة تمشي
على الأرض كأنها سيارة حديثة الطراز تدرج على سجاد من الحرير ، وبعد هنيهة شعرنا بأن
الطيارة قد عادت أدراجها ووقفت حيث كانت ، فظننا أنها أحست بعطش فرجعت ، وأنهم
سيقولون لنا انزلوا فلا سفر ... ولكن اتضح أن مساعد الطيار قد نسي « البوصلة »

أو «المسطرة» على حد تعبيرهم ، فأخذها ممن كانت عنده ، وفي الساعة الثانية بعد الظهر سارت بنا الطائرة على أرض المطار فترة من دقيقة ، ثم توقفت وأخذت تهتز وهي واقفة ، ففهمنا أنها تتحفز وتشحذهمتها و«تحمي» ما كيناتها الدقيقة العجيبة ، ثم أحسنا بعد لحظة بأنها تركض مرة أخرى ولكن بسرعة شديدة ، ثم رأينا الدنيا تحتنا ، وأنا لا أصدق اننى أصبحت في الهواء !

ها كستب

كانت سجون معسكرات «ها كستب» في الصحراء أول شيء خطر لي أن أتطلع إليه من على ، إنه المكان الذي حبسني فيه ابراهيم باشا عبد الهادي بين يوليو وأغسطس ١٩٤٩ ، لقد كنت وأنا فيه أجلس في ساحته وأتفرج على الطائرات التي كانت تمر من فوقنا ، فأصعد إليها النظر والفكر ، وأتخيل ما يراه ركابها وهم فوقنا إن كانوا ينظرون إلى معسكرنا ، فكنت أتصور أنهم لا يكادون يلحظون أنه يوجد تحتهم جماعات من البشر حشد هم رجل حمله الخوف على نفسه من أمته ، والفرع على حياته من أهله لا من أعدائه ، على الضرب ، فضرب بشدة لأن من عادة الخائف المصاب بالهلع أن يضرب بقسوة ليخيف العباد ، أو يقتل عدوه بضربة واحدة غادرة ليأمن على نفسه من قيامه عليه ، ولذلك كان بطش ابراهيم بي وبغيري شديداً وقاسياً .

كنت أتصور وأنا في اعتقال «ها كستب» أن ركاب الطائرات العابرة من سمائنا إن خطر لهم النظر إلى الأسفل فإنهم لن يروا سجننا على حقيقته ، بل يرون حجارة رمادية متناثرة هنا وهناك ، كأنها لعب الأطفال ، فلا يخطر ببالهم أنها أكواخ من الأسمنت المسقوف بالتوتيا . وأن المئات من الناس يعيشون فيها وأنهم لن يشعروا بما بنا . إذ لا شيء هناك يدلهم علينا . لا شجر ولا زرع حول السجن ولا ما يدل على الحياة ، وقد وصفت هذا الذي تخيلته في كتابي عن ها كستب حين كنت على الأرض ، ولكني لما أصبحت مثل أولئك الركاب العابرين جواً وصرت أنظر من «فوق» رأيت نفس المنظر الذي تخيلته وأنا «تحت» إذن فالإنسان يقدر في بعض الأحيان أن يتصور الأمور وهي بعيدة عنه تصويراً صحيحاً بشرط أن يكون مخلصاً في تصوراتهِ ...

وأخذت الطائرة في الارتفاع تدريجاً ، فكننت أشعر بها وهي تنهض بنا إلى الأعلى نهضات محسوسة ، وكانت صحراء الها كتسب تظهر تحتنا بتموجات أرضها وكثبانها كأنها أمواج بحر ، ولكنه بحر أصفر اللون ، وعهدنا بموج البحر أنه أزرق وأن الزبد الأبيض إن غضب يعلوه أحياناً.. ثم أخذت المربيات التي تحتنا تصغر وتدق رويداً رويداً ، لأن الطائرة كانت لا تزال ترتفع وهي منطلقة في سبيلها ...

يقطع تفكيرنا ...

وهنا أقبل « المضيف » يقول إن بإمكاننا أن ندخن ، وإنه سيعود إلينا بعد لحظة بشيء لطيف ... وأما نحن الركاب فقد انحمد كل واحد منا في مقعده ، هذا يفتح مصحفاً ، وذلك يتمم بآيات ، وثالث يقرأ في إنجيل ، وبعضهم كان يتطلع إلى الهواء أو إلى الأرض لقيس علو الطائرة عنها وهل السقطة إن حصلت ستكون قاتلة ، أم أنها لا تبلغ أكثر من تحطيم الكتف أو الساعد أو قسم الظهر ، وبعضهم سلم أمره لله من شدة الخوف ونام ...

أما أنا فكننت قد جئت معي بجرائد الصباح لأقطع الوقت بمطالعتها ، ولكن كيف أضيع فرصة إمتاع العين بأبداع ما يخطر بالبال والخيال من مناظر ، من أجل قراءة الجرائد التي أكلت عيوني وأنا لا أزال أنظر فيها منذ أربعين عاماً ، ولذلك ألقيت الصحف جانباً وقلت في نفسي دعها الآن ، وسأقرأها الليلة بدمشق وأنا على فراشي بالفندق ...

وكانت الصحراء قد تركتنا أو أننا نحن الذين تركناها ، ثم واصلت النظر إلى الأرض ، ها نحن نخلق الآن فوق الأراضي المزروعة ، فوق منطقته بلبيس والاسماعيلية ، فالأرض تحتنا خضراء يانعة ، وهاهي الترع التي تتفرع من النيل تبدو في الحقول كأنها لدقتها وكثرتها الشريانات التي في جسم الإنسان. وكان بينها ترعة عريضة نسبياً ، كعرض الوريد إلى جانب العروق الأخرى في أجسامنا البشرية ، وفي وسطها علامات بيضاء كأنها من ريش الطيور ففهمت أنها ترعة الاسماعيلية وأن ما أراه فيها ليس بريش طيور ، بل أشعة السفن التي تسير فيها ، يا الله ما أسمى وأعلى ما وصلنا إليه بفضل عقول العلماء العظام الذين تعبوا لأجلنا واخترعوا لنا هذه الطيارات ، وقد بدت لنا خطوط الشبك الحديدية تحتنا وهي تتلوى في

إمتدادها، ثم تأملتها ملياً فإذا بشيء يتحرك فوقها ، إنه قطار ، فلولا دخانه الذى جعله يشبه سيجارة مشتعلة وملقاة على الأرض ما رأيناها ولا شعرنا به ، وواصلت الطائرة صعودها حتى كدنا نظن أنها على وشك أن تصطدم بالسما ! ها هي المدن والقرى تظهر تحتنا كأنها بيوت النمل ، والأرض تبدو كأنها سجادة مطرزة بكل لون بهيج .

قنال السويس

وهنا أقبل «المضيف» وقال: بعد دقائق سنكون فوق قنال السويس وبور سعيد وندخل سماء البحر المتوسط ، ثم سألتنا عما نريد أن نشرب ، فإذا بالجميع يطلبون الماء ، ولا عجب لأن الخوف كاد ينشف منا الحلق... فغاب المضيف دقيقة ثم عاد وهو يناولنا الماء ، وبعد ذلك طاف علينا بأكواب الشاي والقهوة وبعض قطع من الحلوى ، وحسناً فعل ، لأن هذه الأشياء كانت مما يروّق الدم ...

تناولت ما أعطاني المضيف من تحف وأنا أدقق النظر إلى الدنيا التي نحن فوقها لأننا لم نعد فيها ولا من أهلها ، بل نحن الآن في الملكوت الأعلى ! وأما الدنيا فقد رأيناها واسعة فسيحة لمن يزيد العمل والخير ، وما أضيّقها على الأشرار الذين لا يكفهم ما في أيديهم ، بل يتركون العمل في أرض الله المتروكة بلا استثمار ولا تعمير ، ثم يذهبون إلى هنا وهناك لسلب ما في أيدي الآخرين ، وهنا يقع الصدام والقتال والتذريح ! وإلا فهل ضاقت الدنيا ببريطانيا مثلاً ، التي يتغلغل شبانها بأسطولهم في أنحاء المسكونة ومعهم الدبابات والمدافع والطائرات، لوضع الانتداب هنا ، وفرض الحماية هناك ، واحتلال المضيق الفلاني لحفظ الأرض الفلانية ، ومحاصرة البحر الفلاني لصون الجزيرة الفلانية وذبح سكان المنطقة الفلانية حتى لا يعتدوا على الأمة الفلانية ، ومن لم يقبل ولم يقنع بهذا « التطوع » لحفظ الأمن بين الناس وتعليمهم وتمدينهم ، سلطت عليهم بريطانيا قذائف طياراتها ومدافع أسطولها ، تخرب البلدان وتدنك العمران ، ثم ينطلق جنودها وبأيديهم «السيف والنار» يحرقون ويذبحون ويسلبون وينهبون ... فإذا قضوا على المخلوقات من أخضر وبابس ، وحى وغير حى ، سكنت في رأيها الأمور وهدأت الأحوال ، وبذلك تقرر عيونها ويستتب الأمن العام في نظرها ...

لا أدري لماذا أشغلت نفسي بهذه الأمور ونحن الآن في غيرها... وكانت الطائرة ماضية في سبيلها، إلى أن رأينا البحيرات المرة وبحيرة المنزلة تحتنا كأنها البرك الصغيرة التي تحف بالقرى البائسة بمائها الآسن، وفيها البط الأبيض، إنها سفن الصيادين وهي ألوف، إنها تظهر كعيدان الكبريت إذا ألقيتها على وجه الماء !

وظهر قنال السويس عن يميننا في وسط الصحراء كأنه خيط أزرق مُلقى على قماش أصفر، خيط دقيق طويل من الماء، يمتد من الشمال إلى الجنوب، ورأينا فيه السفن التي تعبر القناة وهي تشبه لدقة حجمها جسم النملة عندما تمشي على خيط رفيع...

الخلاص من المجلّترا

الآن فقط بعد أن رأيت قنال السويس من الجو، عرفت السبيل الصحيح للتخلص من استعمار إنجلترا لبلادنا، فصر واقعة تحت نفوذه بسبب وجود قنال السويس في أرضها، وبريطانيا قابضة على ضفته لتحمي طريقها إلى مستعمراتها، وما مستعمراتها إلا بلاد العرب وديار المسلمين، فإذا أردت أيها العربي وأيها المسلم أن تعرف سبب وجود بريطانيا في مصر فاعلم أنك أنت السبب فيه، فلو أنك تمكن لبريطانيا من احتلال بلادك لتجعل منها مستعمرة ومزرعة، ومركز دفاع وهجوم على المخلوقات جميعاً، لما احتاجت هذه الدولة الشرهة إلى القعود في مصر لحراسة الطريق المائي الذي ما بدأت المصائب تنصب على الشرق والدنيا بأسرها إلا منذ وُجد.

حرّر نفسك من الإنكليز أيها المسلم وأيها العربي الذي يسكن هذا الشرق، لأنك أنت الذي أغريت الاستعمار بقعودك وجبنك، وجرّأته على الاعتداء على الآخرين، بل أنت الذي خلقت الاستعمار باستخذائك. والدليل على ذلك أنه لا يوجد أقطار ولا ممالك تحت حكم الاستعمار إلا بلاد العرب وديار المسلمين. فإذا تقرر هذا فإن حجة بريطانيا تسقط فوراً حين تقول إنها تتخذ قنال السويس خطاً دفاعياً عن الشرق خوفاً من روسيا، لأن البلاشفة يستطيعون تدمير قنال السويس بضربة هوائية واحدة.

مدينة محبوبة

ها نحن الآن فوق مدينة بور سعيد ، إنها كرقعة الشطرنج في تخطيطها الذي يشبه المربعات ، ما أحلى بور سعيد ، إنها أول مدينة رأيته من أرض مصر قبل أربعين عاماً ، فقد زرت مصر وأنا صبي ، وكان ذلك في سنة ١٩١١ فنزلنا من السفينة القادمة من يافا إلى تلك المدينة الجديدة التي سميت باسم الخديوى سعيد باشا ، وكانت بور سعيد تمر من تحتنا ونحن في الطائرة بسرعة البرق ثم تختفي عن عيوننا ، إذن فالأرض هي التي تتحرك لا نحن ، أليس إننا كنا نراها تمشي ونحن فوقها نركب الهواء ؟ لا يوجد دليل على أننا كنا نتحرك أبداً ، فالطيارة ساكنة هادئة مستقرة ، لا تهتز ولا تختلج ، ولا تعلق ولا تهبط ، ولولا دوى محركاتها وإهتزاز آلاتها المتزنة المستمرة ماشعروا إلا بأننا في «سلة» مربوطة بخيط ومعلقة بالهواء وإنها ثابتة لا تتحرك ، فلو أن ماسك الخيط أفلقه من يده لسقطت على الأرض التي نراها تمشي ، كأنها بساط يسحب من أطرافه ويجر في وسط الصالون الكبير الفسيح ...

خواطر في الهواء ...

أصبحنا بعد أن تجاوزنا بور سعيد نظير فوق البحر الأبيض - هكذا يسمونه - والحقيقة أن منظر أديمه يضرب إلى الزرقة أحياناً وإلى الأخضرار إن انقشع الغيم وسطعت الشمس ، وكان منظر البحر تحتنا يشبه ثوب الحرير التفتاه الأزرق المروج ، وما أجمل منظر التبج الثلجي الأبيض المتحرك حين يبدو على سطح الماء ثم يختفي ، وكانت الطائرة تتواضع أحياناً للبحر الجبار فتتهبط إليه قليلاً ، فيزداد جمال ما نرى ، وكنا قد رأينا السفن التي تدخل قناة السويس وتخرج منها عند بور سعيد ، فكانت تشبه النمل في حجمها ، مع أنه كان يوجد بينها بواخر من عابرات المحيط .. وهذا البحر المخوف لا تعرف هيئته والرغبة منه إلا إذا ركبت السفين ومخرت بك بين أمواجه التي تشبه الجبال الزاحفة عندما يدرج بعضها وراء بعض ... أما إن التقت موجة بالأخرى ووقعت السفينة في حضن الموجتين ، فانت في تلك اللحظة تعرف حقيقة نفسك وتؤمن بالله من شدة الخوف والروع ، وتذكر ما قاله الشاعر أحمد الصافي النجفي :

أدخل حمى الليث تعرف هيئة الأسد ...

وهنا جاء المضيف فرآني أطل إلى الشرق ، نحو الساحل ، أو ما كنت أتخيل أنه الساحل لأننا كنا لا نرى شيئاً ، فنحن فوق الماء وتحت السماء ، يلفنا هذا الأثير الذي لا نراه لفأحي أصبحنا لا ندرى أين نحن ، هل الذي تحتنا هو السماء والذي فوقنا هو الماء ! اننا الآن في غلاف لا ندرى ما هو ولا ما هي حدوده ، لأنه يُرى وهو في الوقت نفسه لا يُرى ! ولولا بعض سحب كانت تبدو في الأفق لما عرفنا أن السماء لا تزال فوقنا ... فقال المضيف وهو مشفق على من حر الشمس على ماذا تتفرج ولا شيء يبدو من هنا ، فقلت إنني أبحث عن فلسطين ! فقال : الآن عرفت السبب في ثباتك على احتمال هذا الحر ، فقلت له إن فلسطين كانت هنا وأنا أعرفها ، وكانت في أيدينا فلم نعرف قيمتها ، ولكن لما اليهود ضربونا ، بل حين هربنا من اليهود وتركناها لهم ، أصبحنا نعرف قيمتها ، وصرنا نبحث عنها ونبكي عليها... لولا فرارجيوش المنقذين ، الذين ألقوا فلسطين - منا لا من اليهود ، ولولا الجبن والبخل والجهل ما أضعنا هذا الفردوس الذي سيحاسبنا الله والتاريخ على التفريط به حساباً عسيراً ، بل انه الآن يعاقبنا على تركه والهرب منه ، لولا ذلك لكان خط سيرنا بدون عوج ، من القاهرة الى دمشق على خط مستقيم ، فنصل إليها في ساعة بدلاً من ساعتين فيهما معنى الهزيمة والعار ، وما كانت هذه الطائفة وهي في طريقها إلى دمشق بحاجة إلى التوارى والتهرب من سماء اليهود ، ولذلك أصبحنا نمنع في جو البحر المتوسط شمالاً ، ثم ندور إلى أن نصل إلى ساحل لبنان ثم ننعطف شرقاً إلى دمشق ، فياله من عقاب وياله من عار ، إنه لعقاب بسيط عاجل ، وأما العقاب الحقيقي فهو قريب ، إنه سيكون يوم يستكمل اليهود تسليح القاعدة البحرية في حيفا التي لا يوجد لها مثيل في شرق البحر المتوسط ، ويوم يكملون صنع الكمية اللازمة « لنا » من الغازات الخائقة والسامة والقنابل الطائرة ، ولا تنس القنابل الذرية ...

السبب الحقيقي للنسكة

بل هي أسباب ثلاثة لا رابع لها : أولاً أن العالم العربي كان بخيلاً على نفسه ، فلا يبذل ماله ليتعلم ويعرف قيمة بلاده ، وكان جباناً فلم يجعل حياة المستعمرين جحيماً في بلاده كما صنع الأرلنديون من قبل ، إننا نخاف من الموت ، كأننا لم ندر حتى الساعة أننا أصبحنا من خوف الموت في موت ...

إنني أعرف أناساً من أغنياء العالم العربي كانوا يفضلون أن تظل ثرواتهم من بعدهم لخزائن الحكومات المستعمرة إن كانوا بلا ورثة ، أو يتركونها لأولادهم الفاسدين ولا يهون عليهم ترك شيء منها للمدارس مثلاً ، وأغنياء ييخلون على الحركات الوطنية بجنهيات معدودة ، ويضنون على اللجان المجاهدة المكافحة بأجرة برقية إلى لندن بالشكوى من فظائع الإنكليز في وطنهم ، وأعرف أناساً كان الواحد منهم يقتل جاره غضباً لكلمة لا تعجبه ، ولكنه كان في الوقت نفسه يخاف على حياته من الإنكليز حتى ولو داسوه هو وأمته بالأقدام ، وأعرف أناساً من أغنياء العالم العربي كان يُطلب منهم التبرع لتسليح مجاهد ، أو للدفاع عن سجين وطني ، أو لمنكوب من الفظائع الأجنبية فلا يدفعون له شيئاً ، ثم نراهم في الوقت نفسه يتبرعون لجمعية الصليب الأحمر البريطانية في لندن بألاف الجنيهات ! بل إن خونة العالم العربي لا يزالون إلى الآن هم المبعجلون . وإن الذين باعوا أرض فلسطين لليهود والذين اشتركوا في جريمة ضياع فلسطين سياسياً وعسكرياً ، لا تزال هاجهم فوق أكتافهم ، وكان الواجب أن نسمع أن الأمم العربية قد أخذتهم من نواصيرهم وساقطهم إلى حيث يلقيون جزاء ما جنته أيديهم...

أين فلسطين ؟

كنت في خلال توارده هذه الخواطر الأليمة ، لا أكف عن التحديق نحو الشرق ، أبحث عن شيء أراه من أرض فلسطين عساي أستطيع تكحيل عيوني برؤيته ؛ أو لعل أرى أي أثر يدل على معالمها ، أو على شبح من أرضها على الأقل ، ولكني لم أر شيئاً ولم ألمح شيئاً ، لأن الطائرة كانت تطير وهي بعيدة ... بعيدة عن ساحل فلسطين ، خوفاً من أن تقترب من جو يسيطر عليه اليهود .

انني أتذكر حديثاً شريفاً يقول إن أحب الأولاد عند الوالد هو صغيرهم حتى يكبر ، وغائبهم حتى يحضر ، ومريضهم حتى يبرأ . وأما فلسطين فهي الصغير والمريض والغائب في وقت واحد ؛ والغريب أن هذا العالم الإسلامي لم يشعر بغيبه فلسطين إلا بعد أن فقدها ، وهي عادة عند المسلمين قديمة ، لا يعرفون قيمة أقطارهم التي تضيع وفراديسهم التي يفرطون بها بإهمالهم - إلا بعد أن تفلت من أيديهم ، وعند ذلك تسمهم يكون وينوحون ويقولون

ما أجملها من بلاد ، وما أعظمها من أقطار ، وما أكثر خيراتها وما أخصب أرضها ! وهم في أثناء هذا النواح يخذلون بقايا أهل فلسطين الذين تشردوا ووفدوا عليهم ، بعد أن نكبوا بضياح الوطن والثروة وكل ما يملكون ، فلبنان يريد التخلص ممن عنده منهم ، ولو بدفعهم نحو مناطق اليهود . وسورية بدأت تتبرم بمرج لجأ إليها من فلولهم وتمسك يدها عنهم . ومصر تحجز منهم في منطقة غزة الضيقة أكثر من ٣٠٠ ألف إنسان ، فلا هي تضمهم إليها ولا هي تمكنهم من الاتصال بالدنيا ، والحجاز عين عليهم بتشغيل ألفين من الفلسطينيين ، مع أن الحجاز لم يشغلهم ، ولكن الأمريكان أخذوا الفنيين منهم فقط وشغلوهم في آبار البترول بأرخص الأجور . وأما اليمن فقد استأجر بعض المعلمين بأجر بخس ثم ادعى إنه يرحب بالفلسطينيين .. وأما بقية العالم الإسلامي فلا يهتم بمساعدة مئات ألوف الفلسطينيين المشردين الذين يموتون جوعاً كالذباب ، بل إنى أستغفر الله مما قلت ؛ لأن الذباب يجد رزقاً عند أبناء آدم ، حتى ولو كان من الأدوية المهلكة للحشرات ! وأما الشهداء الأحياء من أهل فلسطين فإنهم لولا صدقات الدول الأجنبية لما تواروا جوعاً .. بل إن الذين يموتون منهم بالجوع والأمراض لا يجدون أ كفافاً ولا يجدون لهم قبوراً .. فيا فضيحة العالم الإسلامي وبالشامة اليهود !

حافظ ابراهيم

وفيا كنت أفكر في هذه المصائب إذا بمضيف الطائرة يحى إلينا ويقول للركاب في آذانهم واحداً بعد واحد : بعد ربع ساعة سنكون فوق مدينة بيروت ، وبعد ذلك بنصف ساعة نكون فوق دمشق !

وكانت الطائرة في أثناء ذلك تشق الفضاء وكان أزيز محركاتها يكاد يصم الآذان بما تحدثه من ضجة وضوضاء برغم ما دسسناء فيها من قطن ، وعند ذلك جئت بقطن جديد بللته بالماء ثم وضعت في الأذنين ، تخفف ذلك من حدة دوى محركات الطائرة ، التي كانت لا تزال ماضية في سبيلها تصارع الهواء وتحترق حجب الأثير ، وهنا تذكرت قول حافظ ابراهيم في رثاء الطيارين التركيين فتحنى وصادق :

أخت الكواكب مارماك وأنت رامية النصور
 ماذا دهاك وفوق ظهرك مربض الأسد الهصور
 ثم يخاطب الطيار فيقول :

ويلاه هل جزت الحدود وأنت مخترق الستور
 فرماك حراس السماء وتلك قاصمة الظهور
 هكذا وردت الأبيات على بالي بعد نحو أربعين عاماً ، وهى من عيون القصائد ، ولو كان
 ديوان حافظ تحت يدي لأوردت منها أبياتا كثيرة .

لبنان

وبعد قليل استدارت الطائرة إلى اليمين قليلاً واتجهت نحو الشرق ، ثم اندفعت إلى الأمام
 كالبرق الخاطف ، فإذا بشيء أسود يلوح فى الأفق كأنه الغمام ، ثم أخذ يكبر ويتضخم رويداً ،
 فإذا نحن أمام جبل لبنان ، إنه ليس بجبل ، بل هو عالم قائم بذاته ، إنه دنيا بعوالمها وناسها
 ففيه المدن والقرى والجبال والأودية والأنهر ، نحن الآن فوق مدينة بيروت حيث بدت
 تحتنا ظاهرة واضحة ، بتخطيطها وشوارعها وميادينها ومعاهدها وحدائقها وأرياضها ، لله
 ما أجل بيروت ، إنها المدينة التى انبثق منها الاشعاع الفكرى فى الشرق الأوسط كله ،
 بكثرة مدارسها وجامعاتها وصحفها ومطابعها ومتاجر الكتب التى تزين أسواقها ؛ إنها بيروت
 المدينة الطروب المأنوسة التى لا يمل الغرب الإقامة فيها ، إننى أعرفها منذ كنت طفلاً وحين
 كان العمال يعملون فى مد خطوط الترام الكهربائى فى شوارعها ، إنها المدينة التى كنت
 أسمع شيوخ الشباب أو شباب الشيوخ يغنون موالاً عنها لا أزال أتذكر مطلعته حين كانوا
 يغنونه شوقاً إليها .

بيروت دار الصفا والعزّ حاويها فاسرع إليها الخطا إن كنت هاويها

وبعد دقائق كنا نتفرج على مدن الاصطياف وهى منقوشة فوق الجبال وفى بطون
 الأودية وفى السفوح نقشا جميلاً ، بقصورها وحدائقها وغابات الصنوبر الخضراء التى تحف
 بها ، هذه مدينة الشويقات موطن الأمراء الإرسلايين وفيها مثوى المرحوم الأمير شكيب ،

وهذه جبال الشوف ، وهذه مدينة عالية، وهذه بلدة عبيه، موطن فؤاد حمزة الصديق القديم ، وهذه بمحمدون وهذه صوفر ، وهناك حمانا وفالوفا وضهور الشوير والخنشارة وجبل الكنيسة وظهر البيدر ، ها هو جبل صنين يلوح على شمالنا كالعملاق الجبار الذي لا يبلغ الطرف أنمله ، بل يرتدعنه وهو كليل ، إننا الآن فوق المريجات وزحلة وسهول البقاع ، بقاع العزيز الشهيرة بجبالها وجلالها ، ونهر الليطاني الذي يتلوى في أوديتها وبين حزونها ، ها هو «جبل الشيخ» السوري ، الذي ينافس «جبل صنين» اللبناني ، بسموه وارتفاعه وجمال الثلوج التي تتوجه صيفاً وشتاءً ... وهذه جبال فلسطين على يميننا ، هذا جبل الجرمق الذي هو أعلى جبال فلسطين يلوح من بعيد ، وتلك جبال صفد ، مدينة صبحي الخضراء ، التي أخذني إليها سنة ١٩٣٥ ثم أضعني إلى جبل كنعان المطل على سورية والذي أخشى أن ينصب عليه اليهود مدافعهم الضخمة البعيدة المرمى يوما ما ، ويصوبونها نحو مدينة دمشق نفسها ...

وهذه بعلبك مدينة خليل مطران شاعر القطرين على شمالنا ، وهذه رياق تحتنا بمطاراتها والخط الحديدي العريض الذي ركبته قبل ٣٦ عاما إلى بعلبك ومعبد الشمس فيها ، وحمص وميأسها ، وحمه ونوايرها ، فخلب الشهباء الحمدانية وبساتينها ومغانها ، إنه لملك طويل عريض وجنة فيحاء فقدتها فرنسا بسبب حقها وبفضل صلابة عود أهلها ، وصبر أبطالها ، وبفضل طمع بريطانيا فيها أيضاً ... لأنني أعتقد أنه لولا أن في خاطر انكترا الاستيلاء على بر الشام كله ما كانت تدخلت سنة ١٩٤٥ بينه وبين فرنسا ولا أرغمتها على مغادرته بقضها وقضيضها ، وفظائعها ومنكراتها وأوزارها ...

فإذا كان أهل سورية ولبنان يظنون أنهم أفلتوا من الاستعمار إفلاتاً أبدياً فإنهم لفي ضلال ، لأن الإنكليز دائماً على الأبواب ، وهم للمتخاذلين بالمرصاد ... وليعلم أهل الشرق الأوسط أنه لولا خوف الإنكليز من تحرك روسيا عليهم أن مدوا أيديهم إلى بر الشام «أي سورية ولبنان معا» وأخلوا بالتوازن العسكري في شرق البحر المتوسط ، لولا الخوف من الروس الحمر ، لرحف الإنكليز الشقر على البر الشامي ، إما من العراق متمكرين وراء من فيه «من بعض الناس» ليحققوا مشروع «الهلال الحبيب» أو أطبقوا على سورية

ولبنان من جهة الأردن مستترين خلف عباءة الملك عبد الله ...
ومع ذلك فإن الإنكليز لا ينفكون بعد أن فقدوا الهند عن التطلع إلى الساعة التي تمكنهم
من مداومة بر الشام لتصفوا لهم الجزيرة العربية بأسرها ...
أخبار وذكريات

وهنا طاف بنا مضيف الطيارة ويده « نشرة أخبار » إنها نشرة مرصد الطائرة ،
فقرأنا فيها إننا سنصادف جواً ممطراً وسحاباً كثيفاً ، وإننا على ارتفاع كذا من ألوف الأمتار
وفي الحقيقة اننا كنا نحس بالطائرة وهي تباليغ في الصعود إلى السماء ، فكنا نشعر بها وهي تهد
إلى الجوالأعلى نحو الأفلاك نهذاً متتابعاً ، ثم صرنا نحس بضيق في التنفس لشدة الارتفاع حتى لكأن
شيئاً كان يضغط على صدورنا ! ولكننا كنا مع ذلك نتطلع إلى الجبال السامقة - التي كانت في
نظرنا كذلك ونحن على الأرض - وأما الآن فهي تحتنا ذليلة معبدة ، هذه « مجدل عنجر » حيث
وقع الاشتباك بين الجيش السوري والجيش الفرنسي سنة ١٩٢٠ عند ما شرع الأعداء في
الزحف على دمشق لإزالة الدولة العربية المستقلة ، وهذه « ميسلون » حيث كانت المعركة
الأخيرة التي قضى فيها على بقية جيش الاستقلال بعد أن وقف وزير الحربية السوري الشهيد
يوسف العظمة يحاول بنفسه صد العدو عن بلاده ، فظل يقاتل الأعداء ، ويطلق عليهم النار إلى
أن سقط شهيداً .

وقد لحظت أن جبال سورية وسهولها لم تكن يانعة كجبال لبنان ، ولا تحاكيها في خضرة
غاباتها ، لأن فرنسا كانت لا تدع في تلك الربوع عمراً إلا دكتته ، ولا أشجاراً إلا أحرقتها ،
ولا قرية إلا اعتدت على أهلها ونسقتها بالمدافع الجبلية ، ولذلك كان أهل القرى يقطعون الأشجار
بأيديهم ويبيعونها حطباً ، حتى لا يحرقها الأعداء فتذهب هدرًا ... لقد لقيت فرنسا من السوريين
عداوة عنيفة وحفاظاً وطنياً مرأً ، ومقاومة ما كانت تخطر على بالها ، ولذلك كانت تنتقم منهم
بالتذريح والتفطيع والتدمير ونشر الخراب والدمار ...

إن الطائرة لا تزال تطير .. هذه أودية الزبداني ومصايف بلودان قد ظهرت من بعيد ،
يا الله ما أجملها وما أبدعها ، هذه خطوط السكك الحديدية وطرق السيارات قد بدت تحتنا
وهي تتلوى في سيرها ومتجهة نحو دمشق ، وكانت هذه الطرق التي تخترق الأودية تظهر

للعين كأنها الخيوط الدقيقة الملقاة بين الشوك، تظهر من هنا وتختفي من هناك ثم تظهر مرة أخرى، وقد لحنا السيارات تدرج تحتنا وهي فاحمة سوداء كأنها الخنافس التي يعبث بها الأطفال ! .

طعم الموت ...

إنها المناظر خلابة جميلة لا يمكن أن تنسى، وإذا بخاطر مخيف رهيب يربى إلى، وهو أننى قلت فى نفسى آه ما أبهظ الثمن الذى ندفعه لوسقطت بنا هذه الطيارة فى مقابل سطونا على حرمة الجبال ومهابة البحار وجعلها دون أقدامنا ! ومن طلب الحسنة لم يغلها المهر... وفيما كنت أتخيل السقطة كان هذا الخيال الذى أنا فيه لا يزال ينغص على لذة ما نعيم به من متعة للفكر وقررة للعين، وإذا بالقدر الغادر يفعل بنا فعلته، فقد سقطت بنا الطائرة بغتة - سقوطاً سريعاً - لاهبوطاً - فاستسلمنا للقدر وأغمضت عيناي ولم ألفظ إلا كلمة واحدة وهى «يا لطيف !» وقد ذقت فى تلك اللحظة طعم الموت، ولم أستفق إلا حين شعرت بخبطة على رأسى وشكرا للطربوش الذى تلقى الصدمة فانكبس فوق رأسى وانطبق بعضه على بعض، ثم سقط الركاب عن مقاعدهم وارتطموا بأرض الطائرة ووقع الفرع الأكبر بيننا جميعاً.. ولكن الطائرة سكنت بعد أن اعتدلت ثم مضت فى سبيلها.. وكانت حقائبنا الصغيرة قد سقطت أيضاً عن الأرفف وتناثرت فوقنا وفى أرض الطائرة، فبالله من هلع ! ويكفى أنه فرع الموت... وهنا خرج إلينا مساعد الطيار يهدهى من روعنا ويقول «إنها جيوب هوائية شديدة لأقل ولا أكثر» وقد حدثت فى وجه مساعد الطيار الذى كان يهدئنا فإذا هو أيضاً ممتقع الوجه مثلنا وكان منخلع القلب، مخطوف اللون، وكانت الحروف تخرج من شفثيه مهتزة مضطربة... وأما الطائرة فإنها كانت ماضية فى طريقها المرسوم... وأما نحن ركابها فقد كنا فى سكوت مطبق، لا يلتفت أحد منا إلى جاره، لأن الذى ذقناه من هول الموت كان يستحق هذا الوجوم..

اكفرار الجو والمطر والسحاب

وفى هذه اللحظة شعرنا بالطائرة تتخذ أسلوب الصعود السريع، ثم اكتنفتنا جبال من للسحب، وماعدنا نلمح شيئاً لكثرة ما أحاط بنا من غيوم كثيفة، حتى لكأننا لفنا بالقطن

الأيض لفاً ، ثم اشتد ضغطه علينا وكان المطر يهطل ، وهنا اشتد الظلام فأضيئت الأنوار في داخل الطائرة ، كما أن الطيار أطلق الضوء الأمامي الكشاف ليرى ما أمامه ، أو لعل من يأتي نحونا يلمح تلك الأضواء فيتسكب سبيلنا ولكن هيهات ، ثم بلغت الطائرة في صعودها ونحن نظن إننا على وشك أن نصطدم بجبل مرتفع أو بطائرة عابرة ، فإن وقع لنا هذا الحادث قال من في الأرض ما أحق هؤلاء الذين ضاقت بهم السماء بعد ماضاقت بالناس الأرض ! وواصلت الطائرة صعودها نحو الجوزاء ، إلى أن علونا السحاب الذي كان ينزل علينا ذلك المطر ، فإذا بالشمس لا تزال تلمع في سماءها ، وأصبح الغيم الأبيض تحتنا كأنه العهن المنفوش أو الحقل الأبيض المبسوط ، إنه لمحرفضى متحرك الأمواج ! وبعد لحظة رأينا أنفسنا تحت هذا القطن ، ثم ابتعدنا عنه فإذا بنا في جو صاف والشمس مشرقة بنور الله .

هنا دمشق

وبعد دقيقة واحدة أصبحنا فوق جبل قاسيون الشهير ، الذي يحتضن العاصمة السورية ويحنو عليها من الشمال ، ثم بدأت الطائرة في الهبوط قليلاً قليلاً ، هذه دمشق الشام أقدم مدن الأرض أصبحت تحتنا . بغوطتها الغناء التي لا مثيل لها في الدنيا ، ببساتينها وربوتها وحدائقها وزهورها وجمالها ، ها هي المدينة الخالدة قد وضحت للعيان تمام الوضوح ، نحن الآن فوق الجامع الأموي وفوق الدرويشية وساحة المرجة ، هذانهر بردى يشق المدينة ، إنه لنهر ولكن صيته يملأ الأرض بفضل حسان بن ثابت وقصيده فيه ، فقال لي رفيق مصرى خفيف الروح : « أهذا هو نهر بردى الذي «دَوْشَنَا» به الشوام منذ قال حسان إنه يصفق بالرحيق السلسل ! والله يا أخي إنه لا يساوى عندنا في مصر سلسولاً أو « بزبوزاً » بالنسبة إلى النيل ! إيه الكلام ده ! » فقلت له إن حسان جاء من الصحراء ولم ير الأنهر قبل ذلك ، فلما رآه وارتوى من مائه المثلوج بعد العطش ، هتف بما هتف به في شعره عن الرحيق السلسل !

وأخذ الطيار - وإني أشهد له بسلامة الذوق - يطوف بنا سماء المدينة كأنه يقول لنا : تفرجوا وتمعوا أنظاركم ، وسبحوا الله على ما خلق من جمال ، فهو جميل يحب الجمال ، ثم أخذ يهبط وهو يدور ، هذه دمشق تحتنا من أولها إلى آخرها ، بقصورها وقبابها ونخامتها ،

هذه الغوطة هناك، وهذا سقف سوق الحميدية وسقف سوق مدحت باشا وسقف سوق الحرير
والبرورية، هذه قلاع «المرّة» التي كان الإفرنسيون يعتصمون بها جبنًا وخوفًا، ثم يطلقون منها
المدافع على دمشق، ياويلهم ما أقسى قلوبهم وأغلظ أكبادهم! كيف طاوعتهم إنسانيتهم على رمي
هذه اللجنة بقذائف المدافع، إن هذه القلاع قد خلت الآن من فرنسا وأصبحت في أيدينا،
ولكنها أصبحت سجونًا وباللأسف، ففيها حبسوا شكركى القوتلى، وفيها يحبسون الآن
أمين رويحة، ولا أدري من سيحبس فيها بعد ذلك...

كانت الساعة حين كانت الطائرة تهبط إلى المدينة ساعة الأصيل، وهى نفس الساعة التي
قال شوق أمير الشعراء عنها وهو يدخل دمشق:

دخلتك والأصيل له ائتلاق ووجهك ضاحك القسمات طلق
وتحت جناحك الأنهار تجرى وملء رُبّاك أوراق وورق

بعد العالم العلوى

وهنا أخذ المضيف يطوف علينا ويوصينا بعدم التدخين، وأن نربط الأحزمة على وسطنا،
لأننا سننزل وشيكًا، وبدأت الطائرة تهبط من عليائها وتنزل إلى العالم الأرضي، وكانت
تهبط ببطء متدرج، رويدًا رويدًا. ها نحن فوق المطار تمامًا، ها هى الطائرة تمشي على
الأرض، ها هى تقف أمام أبنية لطيفة جديدة، وكان بعض الناس ينتظرونها، من موظفى
جوازات وعمال جمر وكلاء شركة الطيران وبعض الجمالين. فقام كل منا يفك
الحزام وتسوية ملابسه ثم يتناول أمتعته الخفيفة وينزل، الواحد بعد الآخر..

فإذا بى وجهًا لوجه أمام أخى صبحى الخضراء ومعه صديق السيد سالم الحسينى المقدسى
المتخصص بالآثار، والنازح عن وطنه مثل صبحى مع ٥٠ ألف فلسطينى من الذين نكبوا بالجللاء
عن وطنهم ولجأوا إلى مدينة دمشق وحدها...

إلى المدينة الخالدة

قلت لصبحى: كيف جئت وجشمت نفسك هذا التعب، وأخى السيد سالم كيف عرف
بمجيئى! فقال صبحى إن فندق الأوربان لا مكان فيه، وقد وجدت لك فندقًا جديدًا من
درجته وهو يفضل الأوربان بأنك تستطيع إخفاء نفسك فيه عن الناس لأنه فندق جديد لم

يدر به أهل دمشق ! وبذلك تكون حرّاً في حركتك أكثر من الاوريان ، وأما الأخ سالم فقد كان معي عند بحى عن الفندق وكان لى خير معين .

وغادرنا المطار بعد إجراءات الجمرک والجوازات والصحة التى لم تستغرق أكثر من دقائق ولا غرو فإن دماثة أهل دمشق وجههم للضيوف من أبرز صفاتهم التى يتوارثونها كابرأ عن كابر الجمارك فى مصر

وهنا تذكرت شيئاً عما كان يلقاه القادم إلى مصر من متاعب مع رجال الجمرک ، فقد كانوا فيما مضى يحققون ويدققون، وينبشون الملابس ويفتشون الجيوب، ويرهقون المسافر بالمكوس وهى عادة قديمة كانت متبعة فى جماركنا ، فقد روى الرحالة ابن جبیر الأندلسى فى القرون السالفة أنهم ضايقوه فضج منهم وشكاهم بقصيدة مشهورة أرسلها للسلطان صلاح الدين الأيوبي ملك مصر والشام .

واننى بهذه المناسبة أذكر حادثة وقعت لى معهم قبل عشرين عاماً فى جمرک القنطرة فكانت عجباً ، وذلك أن موظف الجمرک أراد أن يأخذ مكوساً على العصا التى فى يدي ، وعلى الساعة التى فى جيبى ، وعلى علبه السجائر الفضية التى أحملها وأضع فيها سجارى ، وعلى المسبحة التى لا تفارقنى ، ولما ضايقتنى هذا الرجل صحت فيه؛ وقلت له إذن فاطلب أيضاً مكوساً على ملابسى التى أرتديها وعلى الحذاء الذى أتعلمه ! ثم ناديت رئيسه وعاتبته، فوبخ مرءوسه فتركنى ولكنى لم أترك هذا الأحمق إلا بعد أن راجعت مدير الجمارك العام فى أمره فنقله إلى جهة أخرى لا علاقة لها بأمور التفتيش ...

كان هذا فى الماضى ، وأما الآن فإننى لا أستطيع الادعاء بأنهم يضايقون أحداً ، إلا إذا كان العابر مشبوه الشخصية أو مجهول الهوية ، ورجال الجمارك لهم نظرة فى المسافرين تصدق غالباً، وحساسية قلما تخطىء ، فكم من عابر تركوه بلا تدقيق، وكم من متظاهر بالوجهة فتشوه وأضجروه . ومادمت فى سيرة جمارك مصر فلا يسعنى إلا أن أشهد لرجالها بأننى لم أشعر منهم بمضايقة منذ عشرين عاماً ، لأن إدارة الجمارك أصبحت تنتقى رجال التفتيش من الأشخاص الدمثين المهيئين، إلا إذا شعروا بأن المسافر يكتم مامعه ويكذب عليهم، أو يريد أن يستغفلهم وعند ذلك لا يلومنى إلا نفسه ...

دمشق

حادث

وفيما كانت سيارة السيد سالم الحسيني منطلقة بنا نحو المدينة وكانت الشمس قد غربت منذ دقائق ، إذا بكمين من الجند يخرجون من خندق بشكل مباغت ، ويعترضون طريقنا صفاً كأنهم أسنان المشط ، فوقفت السيارة بعنف وشدة فحزنتنا فيها خضاً ، وقبل أن نزل لنرى سبب هذه الهجمة التي تشبه خروج قطاع الطرق على المسارة في الجبال المقفرة ، إذ بسيارة عسكرية تمر بنا بسرعة فست سيارتنا وقشطت بروازها وهي منطلقة ، فلو زادت في هذا اللبس شعرة واحدة لأصبحنا كلنا هشياً !

ونزلنا من السيارة ونحن نرفع الأيدي علامة الاستسلام ، كما كان أهل شيكاغو يرفعون أيديهم مستسلمين للسادة الاشقياء الكبار ، وعلى رأسهم « آل كابوني » وزميله الشهير القبضاي « دلنجر » ...

وتقدم إلينا رئيس أولئك الذين يلبسون لباس الجند وحقق في وجوهنا قليلاً ثم ألقى نظرة على ما في داخل السيارة ، وبعد ذلك تقدم إلينا وقال « ما في مطارح معكوف تآخذونا للشام » ...

أما نحن فلم نجاب هذا المجنون الذي لا يعرف كيف يرحو العابرين مساعدته على الوصول للشام ، ولذلك تركناه هو وجنوده ومضيئنا في سبيلنا ...

إنها لغلاظة ما في ذلك شك ، يعني : حسنة لله وأنا سيدك ! إنه ازعجنا وروعنا . فوق أنه كان السبب في تشويه أطراف السيارة ، حيث كادت السيارة العسكرية الهوجاء تمرقنا إرباً!

دار فيصل

قال صبحي ما هذه « الجيئة » لقد تعجبت منها . وإلى أين تذهب بعد الفندق ، فقلت بل قبل الفندق ، هيا إلى القصر الجمهوري أولاً . وهناك دخلنا قصرأ في حي الصالحية ، إنه « قصر الملك » في أيام فيصل سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠ وهو الآن مقر رئاسة الجمهورية ، فدخلناه ونحن نحسب أننا سنلاقي جنداً وحرساً رهيباً ، ولكننا لم نجد إلا أربعة من الجنود يقفون بالباب ، وأما القصر فإنه لا يزيد عن أية دار من دور الأعيان القديمة في أحياء العباسية

والحلمية والسيوفية بالقاهرة ، فقابلنا رئيس الجنود باحترام ولطف ، وقادنا إلى غرفة صغيرة فيها مكتب بسيط وعليه دفتر لكتابة أسماء الزائرين الذين يريدون تسجيل أسمائهم في « دفتر التشریفات » فكتبت اسمي فقط واسم البلد الذي جئت منه ، فقال رئيس الحرس إنك نسيت أن تذكر صفتك ومنصبك ، فقلت له لا صفة لي ولا منصب ...

عوني عبد الهادي

وهنا تذكرت حكاية كان سؤال ضابط الحرس سيب ورودها على بالي حين سألتني عن صفتي ومنصبي ، وذلك أن المجاهد الفلسطيني السياسي عوني بك عبد الهادي كان قد أبعد عن فلسطين سنة ١٩٣٩ - ١٩٤١ فجاء الإسكندرية واستأجر فيها داراً ، وكتب المؤجر عقد الإيجار مفتوحاً ديباجته بالصيغة الآتية : قد أجرت حضرة صاحبة العصمة السيدة فلانة هانم حرم المرحوم صاحب المعالي فلان باشا وكريمة حضرة صاحب السعادة فلان باشا الدار الفلانية إلى ...

وهنا التفت كاتب العقد إلى عوني بك وسأله عن صفته ومنصبه ليدرجهما في العقد . فقال له عوني بك اكتب يا حبيبي : قد أجرت إلى المتشرد المنق المبعد وأحد أرباب السوابق المدعو عوني عبد الهادي من فلسطين !

فاندھش الرجل من هذه الإجابة وظن أن عوني بك الوجيه المظهر - والذي كانت سيارته الخاصة تنتظره بالباب - قد أصيب بمس ! فقال « كلام إيه ده يا بيه ؟ » فقال عوني طبعاً يا سيدي ... لكم ألقابكم ولنا ألقابنا !

رياسة الوزراء

وغادرنا القصر الجمهوري إلى فندق سميراميس حيث وضعنا الأمتعة، وكانت الساعة حول السابعة مساء ، فقلت لصباحي بك دعني الآن وشأني ، وإن شاء الله سنلتقي غداً ! فاندھش من كلامي أكثر من دهشته لمجيئي من مصر، فقال يجب أن تعشى وتحدث أولاً وبعد ذلك نفترق ، فقلت له كلا ، فلا عشاء ولا حديث لأنني متعب وأحب أن أمشي في الشوارع

منفرداً إلى أن يأخذني النعاس فأنام ... وانصرف صبحي في حاله وهو مستغرب هذا المسلك مني ... (١)

فلما انصرف ذهبت إلى رئاسة مجلس الوزراء أسأل عن دولة الدكتور ناظم بك القدسي رئيس الحكومة لعل أجده ، فقبل لي إن مجلس الوزراء منعقد الآن ولا يدرون مني ينفض ، فأخرجت بطاقة وسطرت عليها كلمات قلت فيها لدولة الرئيس إنني وصلت الشام وإني مشتاق إليه وذكرت اسم الفندق وتركت البطاقة مع رئيس حرس الوزارة بعد أن رجوته تقديمها لدولته بعد ارفضاض المجلس .

تحرّيات

ومن هناك مشيت إلى مكتب صديق جميل بك الجبّاني المحامي الكبير ، فرحّب وأهّل ، فسألته عن قضية الدكتور أمين رويحة فشرحها لي شرحاً ضافياً ، ثم ودعته وذهبت إلى دار الدكتور أمين وكنت أحتفظ بعنوانها ، فنزلت من سيارة التاكسي وصرفتها ثم جعلت أطوف حول الدار ولكنني لم ألع فيها بصيصاً يدل على الحياة ، الشارع مقفر والدار مظلمة ، فطرقت الباب الخارجي فإذا هو مفتوح ، فدخلت ، ثم ضغطت جرس الباب الداخلي فلم يجبني أحد ، فطرقت الباب طرقة شديدة وإذا بصوت من شرفة مجاورة يقول إن الدار خالية وإن أمين في السجن ، وأولاده في المدرسة ببيروت ، وأما قرينته فإنها مريضة وموجودة بمستشفى « العاصمة » ...

فرجعت أدراجي وأنا محزون ومتأثر وأقول في نفسي : حسبي الليلة هذه المعلومات ، ولا حول ولا ...

ذكريات

وانطلقت في شوارع دمشق وأسواقها أمشي فيها على غير هدى ، هذه طريق الصالحية التي أعرفها من زمان ، وهذا نهر « بردى » الذي هو عبارة عن مجرى قليل العرض ، والذي لا يزيد عمق الماء فيه على أكثر من نصف متر ولكنه شديد الجريان ... حاولت أن أسمع (١) تعمّدت عدم إشراك صبحي في مهمتي حتى لا أخرجها أمام حكام بلد هو ضيف فيه ، ولو في نظرهم .

تصفيق أمواجه المزعومة ولكنى لم أسمع شيئاً ولم أر شيئاً .. وهنا ترحمت وترضيت عن سيدنا حسان بن ثابت ...

واجتزت جسر فكتوريا ومررت بدار رئاسة الوزراء مرة أخرى وأنا فى طريقى إلى ساحة المرجة ، إن دار الرئاسة هى مقر الوالى العثمانى فى أيام الدولة العلية ، وكنت أعرفها من قبل ورأيت عندها موكب « عارف بك الماردىنى والى سورية » ...

ومضيت فى طريقى إلى الشوارع المحيطة بساحة المرجة اللطيفة التى يتوسطها العمود التذكارى البديع وكنت أعرفه من زمان ، إذ أقيم عند افتتاح الخط الحديدى الحجازى ، وقد رأيت فسقية ماء رخامية تحيط بالأثر التذكارى ، وهى حديثة بالنسبة إلى ، لأنها لم تكن موجودة يوم آخر عهدى بدمشق .

ساحة الشهداء

هذا هو الاسم الذى كان يجب أن يطلق على ساحة المرجة التى شهدت مصرع شهداء سورية حين أعدمهم جمال باشا سنة ١٩١٥ - ١٩١٦ عند الفجر شنقاً ، رحمهم الله ، كما أن هذه الساحة قد شهدت بعد ذلك بعشر سنين جثث مئة شهيد سورى قتلهم الافرنسيون غدراً سنة ١٩٢٥ وجاءوا بجثثهم فى عربات النقل ثم طرحوهم أرضاً بعد أن شوه الجنود الافرنسيون وجوههم وحطموا جماجمهم ومثلوا بهم . وقد أرادت فرنسا أن ترهب السوريين بهذه المظاهرة الوحشية ، فكانت النتيجة أن الثورة قد اتسعت وشملت سورية كلها ، وبعد ذلك دفعت فرنسا ثمن ما اجترحت ، وهو تتابع الثورات خمسة عشر عاماً ، ثم أخرجت من سورية كلها !

فنادق الأمس وبراغيشها

تجاوزت بناء الفندق الجديد الذى نزلته منذ ساعات وطفّت الشوارع المحيطة به ، إننى أعرفها يوم كانت قديمة رثة ، وهى الآن جديدة ذات أبنية ضخمة ، ومررت بسوق الخيل حيث كانت الفنادق القديمة الرخيصة تملأ تلك المنطقة ، وإنى لا أزال أتذكر أحدها حين نزلت فيه بعد أن غشنى الذى دلنى عليه وغرنى مظهره ورخص أجرته ، فلما استلقيت على السرير لم

أستطع نوماً ولا استقراراً . لأن البراغيث فيه كانت « تتأجج » إذ لا يكفي لوصفها أن أقول إنها كانت تتسلل وتتقطط ... وأما البق فكان والعياذ بالله يمشى صفاً وراء صف ، وكان بعضه يلقي نفسه على من السقف ...

فلم يسعني إلا أن جمعت ملابسي ودفعت الأجرة وهرولت من ذلك الجحيم بعد منتصف الليل إلى فندق « دار الفرح » بشارع السنجقدار ، وقد بحثت عنه هذه المرة بعد ستة وثلاثين عاماً فلم أجده ، لأنهم هدموه وأقاموا في مكانه عمارات جديدة ...

إن فندق « دار الفرح » لا يوجد له مثيل في أيامنا هذه ، إنه دمشق الطراز والطابع ، ولا تشعر في غيره إنك في دمشق ، وإني أتذكره كأنني أراه بعد ستة وثلاثين عاماً ، مدخل لطيف ، ساحة مبلطة تتوسطها بركة ماء ذات « شادروان » - وهم في الشام يسمون البركة بحجرة . وهذه أشجار النارج والزهور ترين ساحة « دار الفرح » وهناك مقاعد متناثرة ونمارق مصفوفة ، وهامم النزلاء يملأون الصحن ، يشربون الشاي والقهوة والمرطبات الدمشقية ، ويدخنون التنباك « بالأراكيل » أي الشيشة .. وبالله ما أبدع الشيشة في دمشق . وأما غرف النوم فكانت في الطابق الأعلى ، وكلها مطلة على ساحة الفندق وما فيها من مياه متدفقة ، وأشجار مثمرة وارفة الظلال ، وزهور متنوعة يتضوع عبيرها وينتشر أريجها ...

رئيس الوزراء

ورجعت إلى الفندق فوجدت فيه إشارة تلفونية من رئاسة الوزراء تقول إن دولة الرئيس سينتظرنى صباح الغد في وزارة الخارجية .

وفي الصباح الباكر جداً كنت أتجول في حي « أبورمانه » وهي منطقة حديثة جديدة كانت في الأصل بساتين ومزارع لأسرة بهذا الاسم ، وكانت قصور هذا الحي الأنيقة وشوارعه المتسعة النظيفة تشبه الحي الجديد الذي نراه الآن في الضاحية الجنوبية الشرقية بمصر الجديدة . وفي حي « أبو رمانه » تقع السفارات والمفوضيات ، فحددت أولاً مكان المفوضية المصرية ، ثم دار الدكتور أمين رويحة ، فدور الأحياب القدماء كالأستاذ الشيخ كامل القصاب ، فدار الدكتور صبحي بك أبو غنيمة الزعيم الأردني نزيل دمشق ، ودار الشيخ عبد القادر المغربي ،

فمستشفى العاصمة حيث تنزل فيه قرينة الدكتور أمين ، وفي خلال ذلك عرفت الدار الخاصة التي يسكنها نخامة رئيس الجمهورية وهي نفس الدار التي كانت لحسنى الزعيم ، ومنها أخذوه بغتة إلى القتل ، وليس فقط للعزل من رئاسة الدولة ... لأعاد الله ذلك الحادث ولا كرر أمثاله وفي الساعة التاسعة تماماً - وهو الموعد الذي حدده رئيس الوزراء لمقابلتي كنت أقدم بطاقتي لسكرتير ناظم بك الذي كان في الوقت نفسه وزيراً للخارجية . وبعد دقيقة كنت مع دولة رئيس الوزراء وحدنا .

حديث مع ناظم بك

لما فكرت في الاجتماع برئيس الوزراء كان كل همى أن أرى بعد ذلك العقيد أديب الشيشكلي قائد الانقلاب الثالث والحاكم بأمره في سورية ، ولكنى لا أريد أن أطلب مقابلته رأساً ، حتى لا يضعف هذا الطلب موقفي ، بل إنى لا أريد أن أجتمع به على يد شخصية عادية ... وكنت أحب أولاً أن أرى الدكتور أمين رويحة في سجنه ، فهذا الطلب أيضاً ليس من الهين الوصول إليه بعد أن منعوا المحامين من الاتصال به ليساعدوه في أثناء التحقيق^(١) ولذلك نويت أن أجعل حديثي مع رئيس الوزراء على صورة تجعله هو الذى يعرض على ما أريد ...

فلما جلست معه تحدثنا في بادئ الأمر عن المسائل المحلية وفي شئون مصر ، ثم فتح هو حديث الضجة التي قامت في القاهرة بشأن الدكتور رويحة وأكادى أنه لم يقع تضيق عليه ولا أسيت معاملته ، وأن تلغرافى قد وصل إليه وأنه أمر أسعد محفل القائم بالأعمال بالقاهرة برقياً بأن يبلغنى ذلك منذ يومين مع تحياته ، فشكرته وقلت له إن أسعد محفل صادق فى أمس بالمطار وأبلغنى ذلك مشافهة لا كتابة ، ثم قلت لدولته : أنا أصدقك بلا شك ولكن ما الفائدة

(١) لما وقع ملف التحقيقات في يدي بعد ذلك رأيت فيها ما يثبت هذا الحصار على جميع المتهمين ، فقد كان المحقق يذكر في مقدمة كل استجواب العبارة الآتية : « لم يحضر محام مع المتهم لضيق الوقت ... » وهذا غير صحيح لأن الوقت الذى اتسع لتعذيب المتهمين وتلقيق التهم لهم كان يتسع لإحضار المحامين وهو حق كفله القانون للصوم وقطاع الطرق ، فكيف لا يتسع هذا الوقت في قضية كبرى يراد منها أخذ رؤوس جماعة يوجد فيهم زعيم كبير ووزير سابق .

من هذه التأكيدات السياسية مشافهة هناك ، أو هنا ونحن بين أربع حيطان، في حين أن جرائد الدنيا قد أجمعت على كون الدكتور أمين قد ظلم وأسىء إليه، فرجع ناظم بك يؤكد، وأنا أنشكك ، ثم استشهدت بجريدة بردى الدمشقية فإنها ذكرت في مقال افتتاحي كتبه الأستاذ منير الريس « قبل هربه من دمشق » تحت عنوان « وإخجلته من التاريخ » أن أمين « قد أسيتت معاملته في الحبس وإنه أهين وضرب » وبقيت أضياف دولة ناظم بك وأجاده إلى أن ضاق بهذا الحوار ولم يجد طريقة لإقناعي ببراءة الحكومة من تهمة الإهانة والضرب في السجن إلا أن يعرض على زيارة أمين في سجنه لأرى الحقيقة بعيني ...

ولما وصلت إلى هذه النقطة من النجاح وضمنتها لأنها أصبحت في قبضتي وهي أهم دافع جاء بي إلى دمشق، أحببت أن أغتنم الفرصة لأصل إلى الغرض الثاني مع الأول دفعة واحدة ، فقلت لناظم بك إن رؤية أحد طرفي الخصومة لا يكفي فحبذا لو نسمع الطرف الآخر المجنى عليه فقال هل تقصد الاجتماع بالعقيد الشيشكلي ؟ فقلت لا بأس وإن ذلك ليسرني ، فقال: ستقابله أيضاً وسأخبرك عن موعد المقابلتين ، فودعته على أن نلتقي مرة أخرى، وقد لحظت أن الرجل كان صريحاً وصادقاً وأنه كان يعتقد ما يقوله، فهو يعد في سورية من الشخصيات الوقورة المترنة

نخامة الرئيس الأتاسي

غادرت وزارة الخارجية إلى القصر الجمهوري لأخذ موعد أحظى فيه بلقاء نخامة السيد هاشم الأتاسي رئيس الجمهورية ، فهو يعرفني معرفة قديمة حين كان قائمقاماً ليافا منذ نحو أربعين عاماً « حين كنت صبياً مشاغباً » إذ كنت في أيامها أزود إحدى الصحف بالأخبار ، واني لا أزال أتذكر بهاء طلعة الأتاسي حين كان حاكماً ليافا « أعادها الله إلينا » فقد كان في شرح شبابه ، أبيض اللون، مورد الوجه، بعينين زرقاوين هادئتين حازمتين ، تزينه لحية مستديرة غامقة الشقرة، ثم قابلته سنة ١٩١٣ وهو متصرف لعكا « ردها الله أيضاً » (١) وبعد ذلك

(١) ردها الله إلينا ، أعادها الله إلينا ؛ هذه العبارات هي كل ما عندنا من سلاح وكل ما لدينا من قوة لإسترجاع فلسطين ، وسلاح الدعاء قد جربناه منذ راحت الأندلس ولكنها لم تعد ؛ وفلسطين لن تعود إلينا ما دام الكلام هو رأسمالنا ! إن تقاعس الدول العربية في إلقاء فلسطين ، بل عجز الشعوب العربية عن تحريك حكوماتها لما يقطع الأمل في إستردادها ولو لدفع العار على الأقل « فان تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »

التقيت بفخامته في مصر سنة ١٩٣٣ ثم بالاسماعيلية سنة ١٩٣٤ عند سفره إلى الحجاز واليمن وأما في جهاده ضد فرنسا فكنت من مؤيديه فيه دائماً ، كما أنه كان ولا يزال إن اتصل بشيء من كتي أو كتاباتي لا يبخل بكلمة تقدير أو تحية كريمة تصلني غالباً مع صديقه القديم الأستاذ عبد القادر المغربي .

بهذه الصلة ذهبت إلى القصر أطلب موعداً لمقابلة نخامة الرئيس الأول، فلما دخلت مكتب أمين سرّه الخاص رجب بي وقال إننا الآن أشعرا فندق سميراميس بأن يبلغوك إرادة نخامة الرئيس بأنه سيقابلك في الساعة الثانية عشرة - أي بعد ساعتين - فقلت له أنا لم أحظ بعد بهذا الأمر لأنني غادرت الفندق في الصباح الباكر ثم جئت الآن لأخذ موعد ، ومادام الأمر كذلك فأنا أستاذن الآن على أن أعود في الميعاد المرسوم ، فقال السكرتير: لا تذهب وسأخبر فخامته بأنك هنا لأنني شعرت لما أطلعت على اسمك في دفتر التشریفات عند ما عرضناه صباح اليوم إنه يجب أن يراك ، ثم طلب لي السكرتير القهوة وصعد إلى مكتب نخامة الرئيس ، ولكنه مالبث أن عاد إليّ - قبل مجيء القهوة - وهو يقول إن نخامته ينتظرک الآن ، ثم سار أمامي وصعدنا إلى المكتب الخاص، فلما دخلت نهض الرئيس مرحباً ومحتفلاً كأنه يقابل ولده القادم من سفر بعيد . وهنا لحظت التغير الشديد الذي طرأ على طلعة الأناسي، فهو الآن أبيض الشعر نحيف الجسم ، عليه من أثر الصراع مع فرنسا ومع صروف الدهر طابع المعركة ، فقد كان نخامة الأناسي رئيساً للوزارة في أيام الملك فيصل سنة ١٩٢٠ ، ثم اختير بعد النكبة بضیاع الاستقلال الأول رئيساً للكتلة الوطنية رئيساً للجمهورية الأولى وهاهو الآن يرأسها للمرة الثانية . وعند ذلك ترك الرئيس الجليل مكتبه وجلس على « كنبه » وأمر بأن أكون قريباً منه لتتحدث ، وكان الحديث طويلاً . وكنت أتمنى لو أستطيع أن أبوح بما تحدث به نخامة الرئيس إليّ ، والذي تحدثت به ، فقد كانت جلسة خاصة بين من يعتبر كأحد أولاده ، وبين من يعدّه كوالد للجميع . على أني أقول إنني فهمت من حديثه أشياء كثيرة عن حالة البلاد في السنوات الأخيرة وعن حقيقة الوضع السوري سياسياً وعسكرياً واجتماعياً ، وعن الأسباب التي أدت إلى الانقلابات العسكرية أخيراً ، وأمانيه في المستقبل، وعن الأمور المحلية (٤٧ - ظلام السجن)

العامة ومنها التي تشغل بال الجميع؛ ولكنه كان حديثاً خاصاً .. وقد استغرقت هذه الجلسة نحو ساعة ، وهنا أخذتني الحيرة بعد ذلك .. هل أستأذن لأترك وقته الثمين لغيري من الذين جاءوا القصر على موعد وهم ينتظرون؟ ولكن هذا لا يجوز ، لأنه هو صاحب الشأن في بقائي أو انصرافي ، ولا يليق بمن يكون في حضرة ملك أو رئيس دولة أن يستأذن إلا إذا شعر بحركة منه أو إشارة تشعر بذلك ، كنظرة إلى الساعة مثلاً ، أو باستدعاء أحد الأمناء ، أو بالوقوف إيداناً بانتهاء المقابلة ، أو بالإمساك عن الكلام ، ولذلك كنت أنتظر هذه الإشارة لأقف وأستأذن ، ولكن نخامته تفضل وأكمل حديثاً كان قد بدأ به .

مجلس الشيوخ

ثم قال الرئيس ملاطفاً: بلغني على لسان الشيخ عبد القادر المغربي أنك كنت تتمنى وأنت في مصر أن تحضر جلساتنا الليلية الخاصة مع الأصدقاء القدماء ، فقلت إن هذه الأمنية لا أكف عن السعي في سبيل تحقيقها ، لأنني أحسب نفسي بالنسبة لفخامتك من الأصدقاء القدماء أيضاً .. فقال هذا صحيح ومن أصدقهم أيضاً ، فشكرته على هذا التلطف ، وقلت إنني رشحت نفسي لهذه العضوية من زمان فقد طلبت أن أكون « عضواً مراسلاً » كما أن صديقكم أحمد حلمي باشا قد رشح نفسه لأن يكون « عضواً روحياً » وعندي مكتوب من الأستاذ المغربي جاءني منذ أشهر يقول فيه إنكم وافقتم على العضويتين! فضحك فخمتي وقال هذا صحيح ، فنحن نسهر بالمناوبة كل ليلة عند صديق منهم ، وقد جاء الدور الليلة عليّ أنا ، ففي السادسة مساءً تعال إلى داري الخاصة لتشرب الشاي مع الأصدقاء عندي وستحضر كل ليلة معنا حيث يكون الدور ...

مداعبة الأستاذ المغربي

فقلت لفخامة الرئيس بعد أن شكرت هذه الدعوة الكريمة : ولكن لي عند فخامتك رجاء وهو أن تمكّنني الليلة من مداعبة الشيخ عبد القادر المغربي ، فهو لا يدرى أنني في الشام لأنني جئت في الليلة الماضية بغتة ولم يرني أحد ، فأرجو أن لا يعرف أنني آت ، وستكون دهشة الشيخ عبد القادر أعظم لأنه تناول مني رسالة نهار أمس أو اليوم رداً على كتاب وردني

منه عن بعض الأمور ، والغالب أنى سأدخل وهو يسمع المجلس تحيات منى وتشوق إلى ساعة سعيدة أحظى فيها بشهود جلسة عندكم ، فقد رجوته كالعادة أن يذكرني في مجلسكم الكريم .
فابتسم الرئيس ووافق على ذلك وهو يقول ، اجعل مجيئك بعد السادسة بقليل . . .

فى مستشفى العاصمة والمفوضية المصرية

دخلت المستشفى أسأل عن قرينة الدكتور أمين رويحة فلما علمت بمجيئى ويمت غرفتها رفعت الغطاء عن رأسها وهى تقول « انت جيت يا بوحسن ؟ » قالتها بالخاء لأنها تركية ولا بد لغير العربى من أن ينطقها كذلك ، فقلت لها نعم لقد جئت ، وهنا أخذها البكاء وقالت أنا فى كل يوم منذ حبسوا أمين وأنا أفكر فىك وأقول لا بد أنك ستعمل شيئاً من أجله ، فقلت ها أنذا ثم سردت لى أم فيصل قصة زوجها ، وسردت لها المساعى التى قمت بها والتى أرجو أن أقوم بها ، وبعد ذلك تلقيت اقتراحاتها وملاحظاتها على الدعوى وكيف دبروها الخ. الخ. وبعد ذلك ودعتها على أن تنتظر منى زيارات أخرى وأخباراً طيبة ، ثم انصرفت لأزور المفوضية المصرية أولاً لتحيتها ثم صديق الحبيب القديم الشيخ كامل القصاب ، وكانت داره كما حددها لى غير بعيدة عن المستشفى (١) وفى المفوضية تناولت القهوة عند مستشارها صديق القديم كمال الدين صلاح بك وقد وقفت منه على أمور كثيرة تتعلق بقضية أمين ثم افترقنا على موعد.

مباغثة . . .

وفىما كنت أغادر الشارع الذى تقع فيه المفوضية ، إذا بى وجهاً لوجه أمام الشيخ كامل ! فابتهجت بهذه المصادفة ، واندesh هو من وجودى فى دمشق لاستحالة توقع مجيئى إليها ، فى نظره ونظرى أيضاً ، فرحب بى أشد الترحيب ، ولكنى لحظت أنه كان كالمتمعض من رؤيته إياى فى الشارع العام مصادفة بدلا من أن يرانى فى داره أولاً وقبل كل أحد ، ولا سيما بعد فراق طويل دام نحو خمسة عشر عاماً حيث كنا قد تفارقنا لآخر مرة فى القاهرة سنة ١٩٣٧ والحق مع الشيخ كامل لأنى كنت بعد خروجى من الحبس أغتاض من أصدقائى القدماء

(١) علمت أن صاحب هذا المستشفى « الدكتور محمد سعيد بك توكلنا » لما عرف بمرض قرينة الدكتور أمين رويحة حملته شهادته وقيامه بحق الزمالة نحو أمين على نقل المريضة إلى مستشفى الخصاص لمعالجتها بالدرجة الأولى الممتازة ، فكانت ضيفة مكرمة فى ذلك المستشفى المنقطع النظير فى موقعه وإتقانه فهو على أحدث طراز .

إن جاءوا مصر ورأيتهم في الطريق مصادفةً بدلاً من أن يسألوا عني أو يشعروني بمجيئهم لأذهب إليهم في المحطة أو في المطار أو في محل نزولهم، ولذلك اعتذرت للأستاذ وأخبرته بأنني جئت الليلة فقط وإني كنت متجهاً الآن إلى داره، وما زلت به حتى رضى، ثم أخذني إلى منزله وتغديت عنده، وقد سمعت منه عن أحوال البلاد وسوء الحكم وانقلاب أخلاق الناس وما عانى من زملاء أمس أشياء كثيرة، وكلها مما يغيظ ويستوجب الأسف ويضيق الصدر لأنه لا يوجد شيء في الدنيا يشوه جمالها مثل غدر الإخوان وخيانة الزملاء وخيبة الآمال..

دمشق اليوم

أخذت سيارة بعد خروجي من دار الشيخ كامل وطلبت من السائق أن يطوف بي بعض أنحاء دمشق الحديثة وبعض الأحياء القديمة، فإذا بالعاصمة السورية قد أصبحت اليوم غيرها بالأمس، فهي مدينة عظيمة ضخمة تضم نحو نصف مليون من السكان بعد أن كانت أقل من نصف هذا العدد حين كنت فيها قبيل الحرب العظمى الأولى. وقد أعجبت بحركة التجديد والعمران في أنحاء المدينة الناهضة، فالعمرات الضخمة الجديدة قائمة وبعضها يقوم بكل سرعة والشوارع أنيقة نظيفة، ويغلب على شعبها نظافة الثياب وعدم الميل إلى الضجيج، ولم ألمح في مدة الأسبوعين اللذين صرفتهما في دمشق أية مشجرة ولا مشاتمة ولا كلمة بذئثة ولا «بصبصة» لسيدة عابرة في الطريق، ولا ضحكات رقيقة كالتى نسمعها عندنا بالقاهرة من بعض الشباب الناهض - أو الناهد - في شارع عماد الدين أو شارع فؤاد الأول، والذين يطاردهم البوليس الآن وحسناً يفعل..

كما انى لحظت أن مداخن المصانع الكثيرة في أنحاء دمشق وضواحيها أصبحت تشق الفضاء، وأما المدارس والمعاهد فإنها تملأ الأرجاء، وقد سألت عن هذا التطور السريع الذى رأيتُه ومتى كان، فقليل لى إن معظمه قد تم بعد زوال فرنسا من البلاد، فلم أستغرب ذلك، لأن الاستعمار من عادته أن يخرّب العمران، ويكفى أنه يعوق تقدم الأمم، لأنه يشغلها عن نفسها بدفع أذاه عنها...

ولم أنس أن أتفقد الأماكن التى دمرتها مدافع فرنسا من أنحاء العاصمة السورية، فوجدت أن أحياء برمتها قد دمرت ولكن همّة الدمشقيين أقامت في مكانها أحياء جديدة ذات عمارات

أنيقة على الطراز الحديث ، ومع ذلك فلا يزال هناك الكثير من الأماكن الثمينة لا تزال خراباً ، كدار أسعد باشا الأثرية البديعة التي لا يمكن إعادتها كما كانت ، ودار آل البكري وبعض المساجد ومنازل كثيرة في حي الميدان ... ألا لعن الله الاستعمار ، وكل من يرضى به وكل مواطن يساعد عدواً على وطنه .

إشعار تليفوني مستعجل

وبعد ذلك رجعت إلى الفندق ، فوجدت بضع بطاقات من أصدقاء عرفوا بوجودي في المدينة ، ورسالة تليفونية من رئاسة الأركان حرب يقولون فيها إن ضابطاً من الأركان سيزورني في الساعة السادسة بعد الظهر ، فذهبت إلى غرفتي ونمت استعداداً لسهر طويل ، غير السهرة القصيرة المقبلة عند نخامة الرئيس . .

وجاء الضابط في موعده يقول إن « العقيد » مستعد لأن يقابلك الليلة ، وإن في إمكانك أن تزور الدكتور أمين رويحة أيضاً في سجن قلعة « المزّة » وها هي السيارة حاضرة وسأكون معك ، فشكرته وشكرت العقيد ورجوته أن يحمل إليه تحياتي وأن ترجى المقابلتين إلى الساعة التاسعة من صباح الغد لأنى الليلة على موعد عند نخامة رئيس الجمهورية .

لقد كان بإمكانى أن أذهب في نفس هذه الليلة إلى العقيد وإلى سجن الدكتور أمين ، ولكنني تعمدت هذا الإرجاء لأشغل بالهم ... ويكفي لذلك أن يعرفوا أنني ألقى نخامة الرئيس الأول في الليل أيضاً وفي داره الخاصة بالرغم من كوني في النهار كنت عنده في قصر الرئاسة . إن الإنسجام غير كامل بين العسكريين وبين الجمهورية ، وهذا مما يزيد في إنشغال البال ..

وبعد أن قدموا القهوة للضابط قلت له هيا بنا وتعالى خذني الآن في سيارتك إلى دار نخامة الرئيس زاعماً إنى لأعرف طريقها .. وعند باب القصر ودعنى ضابط « الأركان » وانصرف بعد أن رأى بعينه جنود حرس القصر الخاص وهم يهزون بنادقهم تحية للقادم ، فأشعرتني ذلك بأنهم تلقوا الأمر بانتظارى ، وجاء أحد أمناء القصر فأرشدنى إلى الصالون الذى يجتمع به نخامة الرئيس بإخوانه وجلسائه .

ولم يفتنى قبل أن أدخل أن أسأل عن صديقى الشيخ عبدالقادر المغربي وهل وصل ، فقال التشرىفاتى إنه موجود معهم .

الأستاذ المغربي

دخلت صالون نخامة الرئيس دخولاً عادياً لا دخول من يجي لأول مرة، بل كأني أحدهم ومن الذين يترددون على مجتمعهم كل ليلة ! وطريقة دخول هذا المجلس أن يدخل القادم ويطرح السلام فيقفون له ثم يجلس في أي مكان يريد ، وبعد ذلك يتبادل مع الحاضرين تحية المساء بأن يوجه إليهم التحية بيده واحداً بعد واحد ، مصحوبة بعبارات « الله يمسككم بالخير » فيردون عليه ، وهي الطريقة « العثمانية القديمة » وهذا هي من طريقة ، لأنها لا تكلف الحاضرين مشقة الوقوف ولا المصافحة باليد واحداً بعد الآخر ، لما فيها من إحداث ضجة في المجتمعات ومن تكلف الوقوف للقادم حتى يفرغ من مصافحتهم جميعاً ... وما جدوى التسليم باليد بين جماعة يرون بعضهم كل يوم ..

هكذا صنعت حين دخلت مجلس نخامة الرئيس ، ثم جلست في أول مقعد صادفته ، ولكن الرئيس الجليل أشار إليّ بأن أجلس في مكان مجاور لكرسيه فنهضت وجلست حيث أمر ، فوجدت نفسي بين بديع بك المؤيد وسامي باشا مردم بك مواجهاً صديق الشيخ عبد القادر المغربي ...

وسكت نخامة الرئيس هنيهة ولم يقدمني للحاضرين ليرى الشيخ ماذا يصنع ! وعند ذلك أخذ الشيخ عبد القادر يحدق بي ثم ينظر إلى جاره ويعيد التحديق .. وبعد ذلك صاح في وسط المجلس ووقف وهو يقول « هذا أبو الحسن ، هذا محمد علي الطاهر أليس كذلك ! شو ! شو جابه ؟ ! أنت هون ؟ » ثم أقبل عليّ يسلم ويرحب وهو لا يكاد يصدق ما يرى ، ثم قال : اليوم أخذت مکتوبك .. هل أرسلته من دمشق ، ولكن متى جئت ..

أما الحضور فكانوا يتسمون من هذه التدبيرة وهم يظنونها مصادفة ، وأما نخامة الرئيس فقد عمل حاله كأنه لم يشترك فيها .. ثم قدمني نخامته لزواره وسماهمي جميعاً ، وكلهم من أعلام البلاد وهاماتها .

مجلس الرئيس الخاص

أما الذين يحضرون هذه الجلسة المسائية فهم أعيان الشام وأكابرها ، ومنهم بديع بك المؤيد الوزير السابق ، وسامي باشا مردم بك من أعيان دمشق ، وشاكر بك الحنبلي الوزير السابق ، ونصوح بك البخاري رئيس الوزارة سابقاً ، وأحمد بك اللحام القائد العسكري المتقاعد ، وعبدالقادر بك العظم عميد معهد الحقوق ، والشيخ عبدالقادر المغربي نائب رئيس المجمع العلمي العربي ، ومصطفى بك برمدا رئيس محكمة التمييز العليا الأسبق ، ومحمود بك الصباغ رئيس ديوان المحاسبة السابق ورضا مردم بك وجودت بك المارديني ، وهناك عدد من الفضلاء لم أصادفهم في تلك الأيام لتغييبهم عن دمشق .

إن كل الأحاديث العالية يمكن أن تدور في هذا المجلس ، إلا حديث السياسة المحلية ، فذكريات الماضي لها النصيب الأوفر من هذه الجلسات الرفيعة ، ثم الموضوعات الأدبية واللغوية والشعرية والاجتماعية والسياسية الخارجية ، وهذا المجلس صاف هادي ، كهدهوء رجاله ، فلا ضجيج ولا مقاطعة ولا أصوات مرتفعة ، بل كان الوقار يسود جوّه ، والجد يزينه .

فارس الخوري

وكان السياسي الشيخ ، الأديب الشاعر اتقانوني ، والخطيب المحدث اللبق الوقور فارس بك الخوري يعد من أبرز أعضاء هذا المجلس الجليل ، ولكنني لم أسعد بوجوده في دمشق طول مدة وجودي فيها ، لأنه كان في تلك الأيام متغيباً في أميركا ليمثل سورية في هيئة الأمم المتحدة ، وهو خير من يمثل سورية والأمة العربية في كل مكان وليس في أميركا وحدها .

وبعد أن تناول جلساء نخامة الرئيس الشاي وما يتبعه ، كانت الساعة الثامنة مساء قد دقت ، فانفرط العقد ، على أن يكون اللقاء في الليلة التالية على صاحب الدور . وكان عند بديع بك المؤيد .

إنه لتقليد جميل ان يتبادل كبراء بلد من البلدان مثل هذا المجلس الأنيق مع نخامة رئيس الدولة ، لأن هذا المجلس الذي كان الجد طابعه وأن كان لا يدور فيه شيء عن السياسات المحلية

إلا أنه لا يخلو من موضوع يهم الأمة مما يطرح في ساحته من مناقشات وشرح للأمور ، فكم من مظلمة كشفت ، وكم من مشروع نافع بعث من العدم بفضل هذه الأحاديث العابرة الطارئة...

هذا وما دمت في وصف مجلس نخامة الرئيس الليلى فلا يفوتنى أن أسجل كلمة نبيلة لدولة نصوح بك البخارى رئيس الوزراء الأسبق أراد أن يجاملنى بها ، فقد قلت لفخامة الرئيس الأتاسى عند الانصراف . أنا ممنون وسعيد للسماح لى بحضور هذا المجلس العالى الذى نعمت فيه بما سمعت من أحاديث أنيقة رفيعة ومواضيع عالية نافعة ، فبادر نصوح بك وقال « بل نحن الذين نشكرك على مجيئك للشام ، لأنك نقلتنا إلى مجلسك الذى نسمع به وأنت فى مصر فحُتْنَا به إلى هنا ».

ذكرت هذه القصة بعد تردد لما فيها من المبالغة فى الثناء ، ولكنى لم أشأ إهمالها ، لأنه لا بد من تسجيل فضل المتفضل وشكره عليه .

سهرة الليل

بعد أن غادرت قصر نخامة الرئيس ذهبت إلى منزل «فلان...» حيث التقيت ببعض رجال المحاماة والصحافة والسياسة وكنا على موعد فيه ، وكان موضوع قضية الدكتور أمين رويحة هو الشغل الشاغل للجميع ، وقد أجمعوا كلهم على أن غرض العسكريين هو الخلاص من الدكتور ، وأن الصحافة قد كمت وطوردت ، وحبس من رجالها الأستاذ سعيد التلاوى وعطلت جريدته اليومية « الفيحاء » وأن جريدة « بردى » اليومية قد أغلقها الأستاذ منير الرئيس وهرب إلى لبنان ناجياً بنفسه من ١٤ قضية أقامتها الحكومة عليه ، وأن الأستاذ نجيب الرئيس على وشك أن يغلق جريدته القبس اليومية وأن يؤخذ إلى السجن لكثرة القضايا وربما يفر إلى لبنان أيضاً ، وأن المحاكم حكمت بحبس الأستاذ إيليا شاغورى صاحب جريدة « البلد » اليومية وسيساق إلى السجن بين ساعة وأخرى . ومعنى هذا أن الصحف اليومية الكبرى التى تعارض العهد الحاضر قد أخذت ، لأنها أصبحت بين معطلة وبين مروعة أو فى طريقها إلى الغلق وحبس أصحابها الذين لم يهربوا حتى الآن !

فالجو السياسى فى الشام كان جو إرهاب ، ما فى ذلك شك ، ولكنى مع ذلك لم أدع أحداً من الحاضرين يعرف أننى كنت أتحدث فى موضوع أمين مع الرسميين ، ولا أن هناك موعداً فى صباح الغد بينى وبين العقيد الشيشكلى أو لزيارة الدكتور أمين فى السجن .

فى سجن المزة

وفى الساعة التاسعة من الصباح التالى جاء الملازم الأول السيد سالم الأتاسى أحد ضباط أركان الحرب ومعه سيارة حكومية ، فقال هل تبدأ بزيارة العقيد ؟ فقلت لا ، بل نبدأ بزيارة الدكتور أمين رويحة . وكان قصدى من ذلك أن يكون حديثى مع العقيد بعد أن أستنيز من كل النواحي وخصوصاً من ناحية أمين نفسه ...

ودرجت بنا السيارة نحو جبل «المزة» حيث يوجد السجن العسكرى هناك ، فصعدت بنا السيارة حتى الباب فأفسح لنا الجنود ، ثم دخلنا إلى باحة صغيرة فيها بعض الحشائش ومررنا من جوار بعض الزنازين حتى وصلنا إلى زنزانة الدكتور أمين رويحة ، وكنت أعرف قيمة هذه المباغته بالنسبة إليه - وقد ذقت مثلها - وكم يسر السجنين وكما ينتعش عندما يجد صديقاً يسأل عنه ، فكيف إذا كان الزائر قادماً من مصر وأن أكون هو، والمزور الدكتور أمين ...

فلما انفتح الباب ورأى الدكتور أن القادم هو صديقه القديم كاد يطير فرحاً ودهشة فهتف يقول « أبوالحسن ! » فقلت أمين ! وعانقته وعانقنى وكان اللقاء مؤثراً

أما الزنزانة فكانت ضيقة ذات رائحة كريهة تنبعث من مرحاض «بلدى» مكشوف وهو موجود فى نفس الزنزانة .. فتذكرت الزنزانة التى وضعنى فيها إبراهيم باشا عبد الهادى فى «كركون روض الفرع» بالقاهرة ، ورائحتها التى لا يمكن لمخلوق أن يتحملها ، وقد تعجبت كيف أن أخى الدكتور أمين قد تحملها طول هذه المدة . والمدة المقبلة التى لا أدرى كم تطول - فى حين أننى لم أتحمل رائحة مرحاض إبراهيم عبد الهادى أكثر من ساعات حتى أغمى على ، ولولا أنهم عجلوا بنقلى إلى سجن معسكر «ها كستب» لقضى على خنقاً . ثم أقيمت نظرة سريعة على نواحي هذا الحبس الضيق الذى يعيش فيه أمين فإذا هو عبارة عن سرى بريطانية وبعض

الكتب، ورائحة المرحاض ... فقلت على مسمع من الضباط : أهذا مكان يصلح لحبس الناس ولمثل الدكتور أمين ، كيف يجوز هذا ؟ وقبل أن يجيبني الضابط بشيء قال أمين إن هذا الحبس يعدجنة بالنسبة للمكان الذي كان فيه تحت الأرض ، وإنه لم ينقل منه إلى هنا إلا الليلة ... عند ذلك فهمت أنهم نقلوه من الحبس الأسوأ حتى لا أراه هناك ...

وقبل أن يجري بيننا أى حديث سمعت صياحاً ينبعث من إحدى نواحي السجن البعيدة، فتساءلت : هل هناك معركة ؟ فرد الدكتور أمين يقول إنهم يضربون المتهمين دائماً ليأخذوا منهم اعترافات ضدى ... فقلت للضابط : أليق بهذا ؟ قم بالله عليك وامنع الضرب ولو لمدة وجودى حتى لا أشهد عليكم أمام الناس . ففجل الرجل ونادى جندياً وأمر إليه كلاماً فانقطع الصياح (١) ...

حديثى مع الدكتور أمين رويحة

قلت للضابط لقد اقترحوا علىّ زيارة الدكتور أمين ولم يقولوا إن الزيارة لى ولك ، ولذلك أرجوك أن تصارحنى هل نبهوا عليك بمراقبتنا وسماع حديثنا وعدم تركنا وحدنا وأصبح لا بد لك من البقاء معنا ؟ وكان الضابط على جانب من اللطف والتهديب ، فقال : مادمت تحب الانفراد بصديقك فأنا أستاذنكم وسأغيب عنكم نصف ساعة ، ثم غادر الغرفة وأنا أثنى على فضله وأدبه ، ولم أستغرب ذلك منه فهو من آل الأتاسى الفضلاء الذين منهم نخامة رئيس

(١) إن التعذيب فى دمشق كان يشبه التعذيب فى مصر ، والغريب أن فرنسا لم تستعمل هذه الفظائع مع السوريين وهم أعداء ، ولا الإنكليز عمدوا إليها مع المصريين وهم فى مصر أعداء ، ولكن بعض الحكومات الوطنية فى البلاد العربية هى التى ترتكب هذه الكبائر مع أبناء وطنها مع شديد الأسف والألم . وأما الذى يزيد فى الحزن فهو أن بعض المحاكم تسمع بالفظائع وتراها بعينها ثم تسكت عليها كأنها أمراً عادياً ، وقد روى المتهمون فى قضية أمين رويحة بدمشق مثل الذى رواه المتهمون بقضايا الإخوان المسلمين فى مصر ، عن العذاب الذى نزل بهم والفظائع الإجرامية التى شوهت بعضهم ، ثم أصدرت المحاكم هنا وهناك أحكامها بدون أن تأمر بالتحقيق مع مرتكبي الفظائع ولا ضمنت أحكامها كلمة واحدة على الأقل تدل على استنكارها واستفظاعها ؛ وإنى أسجل ذلك هنا وأنذر حكوماتنا بأن عاقبتهم ستكون انهيار صرح الحضارة من أساسه وتشويه سمعة العالم العربى بين أمم الأرض ، فالتهم وديعة فى يد الحكومات وتحت حمايتها فلا يجوز أن يساء إليه ولا أن يهان أو يضرب ، فالتهم برى حتى تثبت إدانته وإلا انهارت قواعد القانون والعدالة ، بل الإنسانية كلها.

الجمهورية. وهنا مزحت مع الدكتور وقلت له مارأيك لو حبسوني معك ليستريحوا منا نحن الاثنين! فضحك ساعتها ، ولعله لم يضحك منذ شهور !

وهنا شرح لي الدكتور أمين قصته كلها بإيجاز وسرعة ، وهي معروفة الآن للناس بما نشر عنها في الصحف بعد أن طرحت على المحكمة ^(١) وإني أكتب هذا الفصل في أواخر شهر مارس سنة ١٩٥١ والقضية لا تزال أمام المحكمة العسكرية وهي مؤجلة الآن بسبب مرض الدكتور مرضاً شديداً جعل لجنة من ٩ أطباء من الجيش والحكومة يقررون خطورة حالته الصحية ولذلك تأجل النظر في الدعوى إلى أن يشفى . عافاه الله ، وإني أشك في كون الدكتور يتحمل السجن وما هو فيه من أمراض تناولته من سنة ١٩٤٠ حين حبسه نوري باشا السعيد بالعراق ثم حبسه الإنكليز في سجون فلسطين وروديسيا بعد ذلك حتى سنة ١٩٤٦ .

العقيد الشيشكلي

وبعد ذلك ودعت الدكتور أمين وأنا في تأثر عميق وغم مطبق ، وقصدت إلى رئاسة الأركان حرب ، وكان العقيد أديب بك الشيشكلي بانتظاري ، فاستقبلني بحفاوة ولطف ومنع الدخول علينا ، كما أمر بإسكات التلفونات أيضاً ثم أمر بالقهوة .

والعقيد الشيشكلي شاب حموى الأصل ، يناهز الأربعين من العمر ، وهو قصير القامة إلى حد ما ، لطيف الذات ، هادئ الحركة ، خافت الصوت في حديثه ، محدود الثقافة ، يتكلم ببطء ليزن ما يقول ، ويحسن الاستماع لمحدثه فلا يقاطعه ، كما أنه لا يتحرك في أثناء الحديث

(١) إن خلاصة ما يتعلق بالدكتور أمين من الدعوى هو اتهامه بتجريض بعض الشبان على اغتيال العقيد أديب الشيشكلي قائد الانقلاب ، ولكن لم يقدّم على ذلك دليل إلا اعترافات لأحد المتهمين التي أخذت منه تحت الضرب والعذاب ، ولكن المتهم ما كاد يقف أمام المحكمة حتى أفضى إليها بالحقيقة وهي أن المحققين لقنوه التهمة لتخليصه من العذاب فلم يسعه إلا الطاعة فكفوا عن ضربه ، وقد اتهمت الأمة السورية حكام العهد بالتخلص من خصومهم بالاغتيال ، كما جرى للعقيد محمد ناصر الذي اغتيل في الشارع العام غدراً وعرف الكفانة من هو القاتل إلا المحكمة التي نظرت في قضية مصرعه ... ويقول الناس إن حكام العهد كانوا يتضايقون من معارضة الدكتور أمين لسياستهم وطبخ الانتخابات وما صنعوه من قلب الجمعية التأسيسية إلى مجلس نواب فدروا له التهمة ليتخلصوا من معارضته التي كانت تؤذي عهدهم أكثر من معارضة جميع الأحزاب مجتمعة ، لأن الشعب السوري وجد في الدكتور أمين قائداً نزيهاً فالتف حوله ، لأنه جربه بعد أن جرب غيره ...

ولا يشير بيده ، وقد لحظت أنه ناعم الملمس ، ولا أدري أكان ذلك من طبعه أم إنه كان يتكلفه ويتظاهر به .

قلت للعقيد : أنت يا أخى لا تعرف عنى شيئاً بلا شك ، وأنا كنت كذلك ، وأما إن تساءلت عن سبب ميلى إلى اللقاء بك فلا أظنك تهتدى إليه ، ولكنى سأخبرك به الآن ولذلك سيكون حديثى معك صريحاً ، فأولاً اسمح لى أن أصارحك بأنى لم أسمع عنك إلا أنك من ضباط العهد الفرنساوى ، وأنكم وجماعتكم وثبتم على حكومة وطنية واستوليتم عليها ، ولكن هناك جريدة تكرر هونها وتخاصمكم هى التى غيرت ما كان فى ذهنى عنكم وشوقتنى إلى مقابلتكم - وهنا أخرجت من جيبى قصاصة من جريدة « بردى » الدمشقية ، وفيها مقال من قلم صاحبها الأستاذ منير الرئيس تحت عنوان « إلى العقيد الشيشكلى » وكان قد نشره قبل إيقاف جريدته وهربه من دمشق ، ثم لوّحت له بالقصاصة ووضعها أمامه على مكتبه ، وهنا ألقى عليها العقيد نظرة سريعة ، وقال إنه رأى هذا المقال فى حينه وإن فيه شتماً فى حقه ، فقلت له : كلا ، بل فيه شهادة لك بأنك رجل كبير ولك ماض طيب ، لأن صاحب المقال بعد أن ندد بك وحمل عليك وعلى تصرفاتك ، رجع يعاتبك ويدكرك بجهادك قديم ضد فرنسا فى أيام حكمها وأنت ضابط عندها وأنك كنت يومذاك تساعد المجاهدين السوريين ، وأنك تطوعت بعد ذلك فى حرب فلسطين ، فهذه المقالة التى لم تعجبك هى التى نقلتك فى ذهنى من طبقة أعوان فرنسا إلى طبقة أعداء فرنسا . فهذا السبب وحده يكفى لأن يجعلنى أحبك وأن أقدرك كما أحب الدكتور أمين رويحة وأقدره ، فبعد هذا التحديد لمكانتك ومكانته عند الناس أصبح لافرق بينكما فى نظر الأمة ، وقد وجب عليها أن تنظر إليك كما تنظر إليه ، ولا يسع النصف إلا أن يكون كذلك . لهذا أحب أن تعرف أنه لم يبق شيء عليك فى نفسى كما كان قبل أن أطلع على شهادة خصمك لك ، فأنت سورى وأمين سورى ، وهو مجاهد قديم وأنت مجاهد قديم ، فلا يوجد هناك شيء يميز أحداً عن صاحبه إلا أن أحداً بغى على الآخر وحبسه !

وثيقة على الدكتور أمين

فلما سمع العقيد ماتقدم طابت نفسه واطمأن خاطره ، وعرف أن الذى يحدثه ليس خصما ولا متحيزاً ثم استدرك العقيد يقول إن الدكتور أمين قد هددنى قبل أن يبعث بالأولاد المجرمين لقتلى ، وقد هددنى كتابة وعندى منه رسالة بهذا التهديد ، فلما أظهرت له اندهاشى من كلامه ورأى الشك يظهر فى وجهى ، قام إلى خزانة فأخرج منها إضبارة ثم تناول منها أوراقاً ودفعها إلى لآقرأها ، فإذا هى رسالة مؤلفة من أربع ورقات مكتوبة على آلة الكتابة وموجهة إلى العقيد باسمه وممضاة بإمضاء أمين فرجحت أن أحد المفسدين قد زور الكتاب على أمين وقلد الإمضاء ، ولكنى لما تأملتة لم أشك بأنه هو حقاً ، وأنا أعرف خطه ، فاستغربت ذلك من أمين ، ثم أخذت أقرأ الورقات وكان العقيد يرقب أسارىرى وأنا أقرأ ، ولما فرغت من تلاوتها طويتها وأرجعتها إليه وأنا أقول له أرجوك أن تدفع بهذه الرسالة إلى قاضى التحقيق! فقال ماذا تقصد ؟ فقلت لأن فيها دليل براءة الدكتور ودليل احترامه لك مع ميله إلى التفاهم معك ، فهو يذكر بالزمالة فى حرب فلسطين ، ويشكو إليك من تصرف بوليسك الذى قتش بيته فى أحد الشهور الماضية ، ثم يبسط لك أخطاء الحكم الحاضر ، ويشير عليك بالذى يراه لمداواته ، وبقية رسالته كلها توجيهات تدل على الثقة بك ، فلو كان يريد بك السوء ما كتب لك^(١) ولا أتعب نفسه فى معالجة أمورك وما دام أنه قد أخرج ما فى صدره فليس هناك رأى مكبوت يحبس فى نفسه ، ولا الجبل منقطع بينكما ليضيق صدره بك ،

(١) سألت المحامين الذين سيدافعون عن الدكتور أمين عما يعرفونه عن هذه الرسالة التهديدية فاندeshوا وقالوا إن سيرتها لم تفتح فى التحقيق الذى جرى وإنهم يعلقون عليها أهمية كبيرة ، وعند ذلك أوصيت الأستاذ أحمد فؤاد القضاى بك المحامى الممتاز ، الذى يدير أمور الدفاع عن أمين أن يطلب من المحكمة مطالبة العقيد بإبراز الرسالة التى يعتبرها تهديدية ونعتبرها نحن من أدلة البراءة ، فان أنكرها فأنا أشهد عليه فى المحكمة وأسرد لها خلاصتها .

وبعد رجوعى إلى مصر استطاع أحد أصدقائى فى الشام الحصول على صورة طبق الأصل لتلك الرسالة فأرسلها إلى فأعطيتها لجريدة المقطم فنشرتها وعلق عليها محررها الأستاذ وديع فلسطين تعليقاً منطقياً أظهر مزاياها وقد تناقلتها صحف لبنان والعراق وعاشت عليها كذلك ، وأما صحف دمشق فلم تستطع الإشارة إليها ولكن الذى تسلسل من بعض جرائد الأقطار الشقيقة لدمشق ، كان كافياً لجعل هذه الوثيقة معروفة لدى الجميع .

فالذي يكتب هذه الرسالة لا يمكن أن يعتمد بعدها إلى الاغتيال ، كما أن الذي يقصد اغتيالك لا يمكن أن يكتب لك . فقال العقيد إن أمين يهددني في آخر الرسالة ، فقلت إنه يندرك بسوء مصير البلاد إن بقي الحال كما يراه ، فأين التهديد هنا ؟

العهد البائد

فقال العقيد إن الدكتور أمين يؤيد رجال العهد البائد وأنه أذاع بذلك منشوراً أيدهم فيه ووقف منا موقفاً عدائياً ، فقلت له إنني قرأت ذلك المنشور في حينه ، فهو يتفق مع جماعة العهد الماضي على أمور الجمعية التأسيسية ووجوب عدم قانونية قلبها إلى برلمان ، كما أنه أيدك أنت في نفس النشرة لمعارضتك الانضمام إلى العراق ، فهذه المثابة يحق لجماعة العهد الماضي أيضاً أن يعتبروا الدكتور أمين عدوهم بعد أن رأوه يخذلهم ويؤيدكم ، فإذا كانت وجهة نظره قد اتفقت مع وجهة نظرهم عند نقطة ، فإن وجهة نظر أمين قد التقت بكم عند نقطة أخرى ، فالذي يستخلص من موقف أمين أنه على الحياد ، يؤيدكم من ناحية ويمعارضكم من ناحية ، وهكذا هو بالنسبة إلى الفريق الآخر ، فيا أخى إن أهم سبب يستوجب العداوة بينكم وبينه إلى درجة القتل « على فرض أن أمين يرتكب هذا الجرم » هو أن يكون هناك تناقض خطير بين سياستكم وسياسته على مصير البلاد ، كأن تكونوا - مثلاً - تريدون ضم سورية إلى العراق ، الذي من نتيجته وقوع سورية تحت الحماية البريطانية ، فالإنسان قد يصدق بعد ذلك إمكان وصول الأمر بينكم إلى درجة العمل على تخلص أحدهما من الآخر ، أما سياسة « من لم يكن معنا على طول الخط فهو عدونا على طول الخط » فهذه طريقة لا يمكن التسليم بها .

أوسعتهم ذما وراحوا بالإبل !

فقال العقيد إن مسلك المعارضين الذين يساعدون الدكتور أمين ضدنا وفي شتائمهم لنا وتحريضهم الجماهير علينا فيه كل معاني العداوة ، فقلت إن أمين لا يساعدكم بل هم الذين يساعدونه ، لاجباؤه فقد خذلوه في أيام حكمهم ، ولكنهم يساعدونه نكاية بكم ، فقال وهل نحن أعداء البلد ليهاجمونا إلى هذه الدرجة ؟ فقلت وماذا تنتظر من قوم جاهدوا في سبيل

هذه البلاد وقتلوا فرنسا ربع قرن ، ثم تثبون عليهم وتنتزعون ملكهم ثم تطاردونهم أيضاً ، فتركوهم على الأقل يشتمون ويضجون من أجل مجدهم الضائع بعد أن رحتم بالغنيمة كلها . وأما الدكتور أمين فالذى يبدو لى أنكم لا تعرفونه المعرفة الحقيقية وهذا طبعى ، لأنه كان يعمل للبلاد من الخارج ، وأنتم فى أيامها منشغلين فى الداخل ، فهذا فى وظيفته وذاك فى مدرسته ، وذاك فى دكانه . ثم التفت إلى النافذة وأشرت بيدي نحو غوطة دمشق قائلاً : إن كل شجرة من ضواحي هذه العاصمة لتشهد لأمين رويحة بالجهاد المسلح الذى قام به قبل ربع قرن حتى أدى الأمر إلى كونى لا أجد الآن فى هذه الغرفة ضابطاً « إفرنسياً » يحكم البلاد بل وجدتك أنت ، وليس هذا بالشىء القليل ولا بالشىء الذى ينسى من جهاد رويحة وأمثاله . وهنا قال العقيد : يظهر من حديثك أنك تظن أن قضية أمين ملفقة عليه ، ولذلك اقترح عليك أن تجتمع بأى واحد من شركاء أمين فى الشروع بقتلى فأنا مستعد لأن أذهب معك إلى سجن الرزة وأن تختار أى متهم منهم لتسمع منه كيف حدث الاعتداء ومن هو الذى دفعهم إليه ، فوافقت العقيد على اقتراحه وحددنا لذلك الساعة السادسة بعد الظهر .

مناقشة ..

وهنا أردت أن أسأل العقيد عن المحكمة التى ستحاكم التهمين فتجاهلت كونها عسكرية فى عهدهم هذا وفضلت أن يقوله هو لأستطيع التعليق على كلامه وأن أقول له ما فى نفسى ، ولذلك جعلت السؤال ملفوفاً على الصورة الآتية : أظن أن محكمة الجنايات عندكم تشبه محاكمنا فى مصر إذ تتألف عندنا من قاض كبير وعضوين من طبقته و ... فقال العقيد بل هى محكمة عسكرية ، فقلت مستغرباً : محكمة عسكرية ؟ فقال طبعاً لأن بعض التهمين يشتغلون عندنا فى الجيش بـ « المكتب الثانى » ^(١) والاعتداء وقع على ضباط من العسكريين ، ولذلك لابد

(١) هذا المكتب هو أتقن لإدارة تركها الإفرنسيون فى سورية ، وهى جاسوسية واستخبارات تشبه البوليس السياسى فى القاهرة والجستابو الألمانى فى وقت واحد ، فهى لإدارة مدنية وعسكرية معاً ويديرها الآن المقدم محمود شطرة وهو شاب لطيف من ناحية وشديد البطش من ناحية أخرى ، وكان المأمول من المكتب الثانى الذى اتخذته فرنسا لإرهاب السوريين أن يكون الآن وهو فى أيديهم أداة حماية لهم ، فإذا به مع الأسف يتخذ وسيلة لإرهاب السوريين أنفسهم ...

من أن تكون المحكمة عسكرية . فقلت : أنا لا أنصح بطرح القضية أمام القضاء العسكري حتى لا يكون الأمر في نظر الناس مشبوهاً ، لأن أعضاء المحكمة هم من الضباط وأنت رئيسهم الأعلى ، فإذا كنت لا تثق بمحكمة الجنايات التي هي محكمة سورية عالية ، وهي الأمانة على حقوق الأمة كلها فكيف تريد أن يطمئن أمين رويحة وبقية المتهمين لمحكمتك على رقابهم؟ ولذلك أرى من الأفضل إحالة الدعوى على محكمة الجنايات العادية، فقال العقيد إن المحكمة العسكرية يرأسها قاض مدني ، فقلت والأعضاء من الضباط طبعاً ! فقال طبعاً ... فقلت إنها محكمة عسكرية إذن مادامت الأكثرية فيها من الضباط ^(١) ... فقال العقيد إن القانون العسكري هو الذي حدد هذه النقطة . فقلت حتى ولو كان ذلك من حقكم فيحسن أن تتنازلوا عنه وتتركوا الأمر للقانون العام ففيه كل الضمان للعدالة ، ولا يمكن أن تبرئ محكمة الجنايات أحداً بدون حق ، وبذلك تحلون ذمتكم أمام الأمة فلا يستطيع أحد أن يتهكم أو يقول انكم انتم الخصم والحكم ، ومع ذلك فالمسألة ليست في تأليف محكمة وإصدار أحكام ، بل في كيفية إقناع الرأي العام في الداخل والخارج بأن الأحكام عادلة وصحيحة .

محكمة جمال باشا ومحكمة رياض الصلح

وهنا ضربت للعقيد مثلاً المحكمة العسكرية التي شكلها أحمد جمال باشا في مدينة عاليه بלבنا سنة ١٩١٥ - ١٩١٦ وأعدمت زعماء سورية، فقلت له إنك لا تستطيع أن تجد شخصاً واحداً اقتنع من أحكام تلك المحكمة بأن الشهداء كانوا مجرمين حقاً ، فنحن لانزال إلى الآن وإلى الأبد نتهم جمال باشا بأنه قتلهم غدراً بواسطة « محكمة » بدلا من أن يغتالهم في الشارع

(١) لقد نفذ العقيد رأيه وحاكم المتهمين أمام المحكمة العسكرية فضج الناس من هذا الإصرار، ولأسما أن محكمة أخرى مثل هذه برأت المتهمين بقتل العقيد محمد ناصر لأن العهد الحاكم كان هو المتهم باغتيال العقيد ولذلك ازداد الشك في محاكم هذا العهد ولما أصدرت المحكمة الثانية أحكامها الشديدة على حسين توفيق وجماعته بالإعدام وما دون ذلك لم يكن الحكم بالإجماع بل بالأكثرية لأن القاضي المدني قد عارض ولكن الأعضاء خالفوه ، وهذا هو المنتظر من العسكريين ، ولذلك عرف الناس أن أمين رويحة لو قدر له الشفاء من المرض واستطاع حضور المحاكمة فلا بد من الحكم عليه بالإعدام ، كيف لا وقد حكموا على أحمد بك الشرباتي الوزير السابق بالحبس أكثر من عامين وعلى السيد نشأت شيخ الأرض بخمس سنين في حين أن تهمة هما ... لاتستوجبان حبسهما ساعة واحدة...

العام ، ولذلك لا تزال أنت وأنا ، وكل الناس ، نلقب جمال باشا بالسفاح وبالغدار ، ونلقب أولئك الزعماء « بالشهداء » وعندك الآن شيء جديد وقع بالأمس القريب بجوارك في بيروت فإن رياض الصلح قد حاكم المرحوم أنطون سعادة بعد القبض عليه بساعات ثم أعدمه بعد ساعة ، وكان ذلك كله بواسطة « محكمة » ولكن هل تستطيع أن تجد في الدنيا كلها شخصاً واحداً قد صدق محكمة رياض أو صدقه هو حين قال للناس إن القضاء هو الذي أدان أنطون سعادة ...

لو كان صحيحاً أن محكمة رياض الصلح كانت « محكمة » بالمعنى المفهوم ما كانت تنعقد بعد منتصف الليل وتحرم أنطون سعادة حق الدفاع عن نفسه والجدل عن خيط رقبتة وإحضار شهود النفي وسماع المحامين المدافعين عنه ، وحضور الناس ليشهدوا المحاكمة وما يقال في المحكمة لتتوفر فيها العلانية ، ولذلك أصبحت المسألة في نظر الرأي العام أنها مؤامرة واغتيال ، فبدلاً من أن يقوم بذلك أشخاص من الشارع خلسة قام به موظفون رسميون علناً ، ولذلك أصبح رياض في لبنان بسبب دم أنطون سعادة^(١) كإبراهيم عبد الهادي في مصر بسبب دم الشيخ حسن البنا فأنتون « اغتيل رسمياً وبشكل قانوني » والبنا « اغتيل خلسة بشكل غير رسمي » ، وقد كان بودي أن أصف للعقيد كيف رأيت رياض الصلح في الإسكندرية وهو محروس في نفس الفندق بالشرطة اللبنانية التي جاء بها معه وبالشرطة المصرية التي كانت تحرس الجميع .. وإن أصف له كيف تحرس الحكومة المصرية إبراهيم باشا عبد الهادي والعياذ بالله !

وقد تعمدت الإطالة في شرح هذه القصص لغرض ما أظنه يغيب عن أهل الفطن ...

(١) بعد قتل أنطون سعادة على تلك الصورة الفظيعة التي هزت الضمير البشري وأثارت الدنيا كلها ، إذا بأحد الذين يؤمنون باستشهاده ، يذهب إلى رياض ويترصده ثم هجم عليه وهو بين بوليسه وحرسه وأطلق عليه الرصاص فلم يصبه ، وقد اعترف الشاب بأنه كان يثار لأنطون سعادة من رياض صاحب تلك المحكمة ، ومن يومها انخلع قلب رياض من الخوف والرعب وأصبح لا يتحرك من مكان إلى مكان إلا بحراسة قوية من الشرطة والبوليس السرى ، فيالها من حياة منغصة مروعة ، وما للظالمين من أنصار .

وبعد ذلك ...

وإلى هنا كان الحديث قد طال، فدعاني العقيد إلى الغداء معه فشكرته واعتذرت له بأنى مدعو بالمفوضية المصرية الآن ، فقال ستتعشى عندى الليلة إذن بعد زيارة سجن « المزة » ثم نكمل حديثنا ، فقبلت الدعوة بلا تردد ، وقد ودعنى العقيد حتى باب الأسانسير مبالغته منه بالحفاوة ، وأمر مرافقه بأن يوصلنى بالسيارة الخاصة فشكرته واعتذرت بأن هناك سيارة معى بالانتظار ، ولكنه أبى وشدد وقال لابد من القيام بالواجب ، فقبلت منه هذا التكريم ، ملاحظاً فى نفسى أنه قد يكون ميالاً إلى الاستيثاق من صدق حين ذكرت له الدعوة بالمفوضية المصرية ...

وعند ذلك صرفت سيارة الأجرة وركبت سيارة العقيد إلى المفوضية ، حيث تغديت فيها على مائدة كمال الدين صلاح بك وكان معنا على المائدة الأستاذ أحمد حقى بك الوزير المفوض وبعض الأصدقاء الشخصيين ، وقد أعجبت بحقى بك فهو رجل ممتاز حقاً .

العقيد متيقظ

أمضيت بقية اليوم فى استقبال أصدقائى والقيام بزيارات سريعة سمعت فيها أشياء كثيرة عن حالة سورية الداخلية والخارجية والمحلية والأوضاع الحزبية فيها ، كما سمعت أموراً كثيرة عن حالة البلاد فى أيام حكم فرنسا وأيام القوتلى فحسنى الزعيم فسامى الحناوى ، حتى الحين الذى نحن فيه ، وسيأتى الحديث عنه وعن العهود كلها ... وبعد ذلك سطرت رسالة اعتذار عن حضور اجتماع المساء ، مع نخامة الرئيس الأول فى دار بديع بك المؤيد وأنا آسف لحرمانى من شهوده ، ولم أذكر السبب الحقيقى الذى جعلنى أتخلف عن مجلس نخامته ، مع أنه أجمل ما فى الشام ! وفى الساعة السادسة جاءت سيارة العقيد إلى الفندق فركبتها فإذا بها تتجه إلى فندق الأوربان بدلا من مركز الأركان حرب ، لأن العقيد إن أعطى موعداً فهو لا يحدد مكانه إلا فى آخر دقيقة ، وقد وجدته بانتظارى فى الصالون الداخلى ، وقد لحت أشخاصاً يجلسون فى المدخل وفى الصالون الخارجى وهم فى مظهر الزوار والرواد ولكنهم على ما أرجح من رجال الحرس - أو جماعة المكتب الثانى ...

وبعد جلسة قصيرة تناولت فيها الشاي مع العقيد ركبنا في سيارته فإذا هي من غير الأنواع التي سبق لها توصيلي ، ففهمت مما لاحظت أن العقيد يتحفظ كثيراً من خصومه ، فهو لذلك لا يركب سيارة بعينها ، بل يغير ويبدل في تنقلاته ، حتى لا يعرف خصومه السيارة التي يكون فيها ، ولما انطلقت السيارة بنا شعرت أنها سلكت طريقاً إلى المزة غير الطريق المألوف ...

فقلت في نفسي إذا كان العقيد وهو لم يوصل الأذية إلى الدكتور أمين يخاف إلى هذه الدرجة ، فكيف إن تورط وفتك به ؟! ثم سمعت بعد ذلك أن العقيد لا ينام في دار معينة ، بل يجعل نومه كل ليلة في دار ، سواء كانت له أو لأعوانه ، بل إنه في بعض الليالي يغادر دمشق كلها لينام في إحدى المدن المجاورة ثم يعود إلى العاصمة في الصباح . إنني أطيل في وصف هذه الحوادث لأنني أعتقد أنها ستصبح بعد أعوام من أحداث التاريخ السوري ، سواء بالنسبة إلى العقيد نفسه أو بالنسبة لأمهده ، وسأكون بما كتبت أحد شهود هذه الفترة من تاريخ سورية ...

حسين توفيق (١)

دخلت سجن المزة مع العقيد الشيشكلي بعيد الساعة مساءً ، ثم دلفنا إلى غرفة « جاويش النوبة » المسئول عن السجن ، فسألني العقيد عن المتهم الذي أفضل محادثته ، ففضلت طبعاً استدعاء حسين توفيق لأنه أشهرهم وهو صاحب القصة كلها ، فجيء به ، فلما دخل علينا أخذته الدهشة والذعر حين رأى العقيد أمامه ... ثم بلغ المسكين ريقه من الرعب وأخذ ينظر

(١) هو ابن توفيق أحمد باشا وكيل وزارة الحرية المصرية سابقاً ولهذا الشاب تاريخ محزن للناس ولأهله ولنفسه ، فهو نصف مجنون بلاشك ، فقد صور له النصف الباقي من عقله أن يقتل المرحوم أمين عثمان باشا ، وبعد ذلك دفعه هذا الجنون إلى محاولة الاعتداء على الزعيم الأكبر مصطفى النحاس باشا ولكن العناية الربانية سلمته من هذا المجرم المجنون ، وبعد ذلك هرب أو أن الذين لهم مصلحة في إلقاءه قد هربوه في أثناء محاكمته من السجن ومن مصر كلها ، ثم حكمت عليه محكمة الجنايات غيائياً بالسجن عشر سنين فقط ، وأما هو فقد حط أوزاره - لا رحاله - في سورية وكان كثير المشاكل فيها ، إلى أن قامت هذه القضية .

إليه وإلى نظرات من يتوقع من وراء هذا اللقاء المبالغت شراً ، والحق معه ، لأن استدعاء من كان مثله وفي ظروفه وحالته لا يمكن أن يتوقع الخير من أحد ، ولا بد أن طلبه في مثل تلك الساعة سيسفر عن مصيبة جديدة أو على الأقل « علقه » فيها شيء من التعذيب ...

وأما العقيد فإنه كان يعرف ما يجول في خاطر ذلك المسكين التعس ، ولذلك بادره بكلمة ترحيب لطيفة ناعمة ، قائلاً : أهلاً وسهلاً حسين أفندى ، كيف حالك ! ثم نادى الجندي الحارس وأمره بإحضار كرسي ، وقال لحسين تفضل أقعد يا حسين أفندى ... وأما حسين فكان لا يصدق ما يسمع ، وقد ظهر ذلك جلياً على وجهه وأسايره ، ولما جاءوا بالكرسي لم يجسر على الجلوس إلا بعد أن أمره العقيد بذلك فجلس ، ولكن على طرف الكرسي ! وكان منظره في تلك اللحظة يدعو إلى الإشفاق ، فقد كان ينظر إلى شفتي العقيد كمن يريد أن يستعجله في الكلام ليبادره بالسمع والطاعة ...

وهنا أمر العقيد بإحضار القهوة لنا جميعاً ، ثم أخرج علبة سجاريه الأميركية وقدمها لحسين وهو يقول له « تفضل سيجارة يا حسين أفندى ، تفضل » ... فد المسكين يده إلى السجائر متردداً وعينه على عين العقيد كأنه يتوقع سحب العلبة ومبادرته بالضرب لجسارته على مديده والتدخين بحضور من يعتقد أن حياته أو موته في قبضته .

ولكن العقيد لم يكتف بتقديم السيجارة ، بل أشعل القداحة وقدمها إلى حسين فأشعل سيجارته وهو كالمذهول من غرابة ما يرى ، ولما زال الخوف من نفسه وسكن طائرته ، قال له العقيد : يا حسين أفندى هذا الأستاذ جاء من مصر ويريد أن يسمع منك كيف جرت الحادثة ، احكي له إياها كما صارت ولا تكتم شيئاً ...

وعند ذلك اعتدل حسين وجلس على الكرسي جلسة متمكنة وأجال نظره في السقف كمن يستوحى الذاكرة قبل أن يتكلم ، فذكرني حاله بحفظة القرآن الذين يبسمون ويجهدون حافظتهم قبل التلاوة ثم ينطلقون في سرد الآيات ...

وشرع حسين يقص حادثة الاعتداء على سيارة العقيد ولكن ببطء شديد . وكان لا يفوه بجملته إلا بعد أن يزن ويفكر ، فلم أشك في أنه كان يسرد قصة كاذبة طلب إليه أن يقصها ..

و كنت أرقبه وهو يتكلم ، وأدرس حالته وأدقق النظر في سجنته للوصول إلى أعماق سريره ، وأتفرس في عينيه الشاردتين المذعورتين ، فترجح عندي أنه ما كان ساعتها لو لا الضرب والعذاب يقول عن نفسه ما يؤدي به إلى الإعدام ، و كنت أتمنى لو أن العقيد لم يكن معنا لأنني كنت أطلب من حسين أن يعيد رواية القصة من جديد وبالسريّة العادية ، لأن الكاذب لا يمكنه أن يروي قصة مختلفة مقتعلة مرتين بصورة سريعة بدون أن يغلط أو يناقض نفسه . . . (١)

العقيد مشغول

و كنت في خلال ذلك أختلس النظر إلى العقيد من طرف العين فأراه ممسكاً بجريدة ينظر فيها ويتشاغل بها عنا ، ولكنني أعتقد أنه ما قرأ حرفاً واحداً منها ، وأنه كان هو الآخر يختلس نظرات عابرة لمحة يوجهها إلى حسين ليذكره بما لا يجوز أن ينسى . . . ولما فرغ حسين من سرد قصته - أو من تلاوة محفوظاته - سكت بغتة ، كما يسكت الفنغراف حين ترفع عنه الإبرة . . .

عند ذلك التفت العقيد إليّ كمن يسألني عن رأيي ، فسكت وأخذت أحقق فيه كمن يقول له ما رأيك في هذا التلفيق !

وطال تحديقه بي وتحديقي به ، ولكنه لم يتكلم وأنا أيضاً لم أتكلم . . . وقد فضلت أن أحتفظ بملحوظاتي عما رأيت وسمعت لأفضي بهما إلى المحامين ، وبعد ذلك إلى الرأي العام في الدنيا كلها .

ولما رآني العقيد ممسكاً عن الكلام - وهو لو سألني لتسكمت لأنني أكون بذلك قد ملكت زمام الحديث - ولكنه لم يسأل ، لأنه كان يريد أن أتكلم أنا أولاً لئلا ليملك هو الزمام . .

(١) هذه الطريقة ليست من ابتكاري ، ولكنني تعلمتها قبل ثلاثين عاماً من الزعيم الكبير الشيخ عمر زعيتر رئيس بلدية نابلس بفلسطين رحمه الله وهو والد الأستاذين عادل بك وأكرم بك زعيتر وقد ورد ذكرهما في هذا الكتاب غير مرة .

وهنا لم يسع العقيد إلا أن أمر بإعادة حسين توفيق إلى محبسه ثم سألني هل ننصرف ؟
فقلت نعم .

ومشينا إلى خارج السجن حيث كانت السيارة واقفة ، فلم يركبها العقيد إلا بعد أن أمر السائق
بإضاءة المصباح الذي في داخلها ، ففهمت من هذه الحركة أنه يريد أن يستوثق من كون
السيارة خالية من أعداء قد يكمنون له فيها فيطبقون عليه !

ثم ركبنا معاً بعد أن جعلني على يمينه كما يقضى العرف مع الضيوف ، لأن العقيد الشيشكلي
من هذه الناحية بالرغم من كونه الحاكم بأمره ، كان مثالا للمضيف المهذب ، كما أنه كان
إن دخلنا مكاناً أو خرجنا منه يتنحى عن الطريق ويقدمني على نفسه وأنا أمتنع ، ولكنه
كان يصر ولا يمشي إلا إذا تقدمته ومشيت أولاً . ولم أستغرب منه هذه الرقة ، لأنه من
أسرة كريمة عرفت بالجهاد ، وكانت تربطني بقرية المرحوم الدكتور توفيق بك الشيشكلي
المجاهد القديم أوامر صداقة قديمة .

ظلت السيارة منطلقة بنا ونحن سكوت ، فلا هو سألني من ملحوظاتي وتأثراتي عما
رأيت وسمعت من حسين توفيق ، ولا أنا أفضيت بشيء ، فقد كان كل منا ينتظر من الآخر
أن يتكلم ، ولكننا لم نتكلم ، حتى ولا في الشؤون الأخرى ، بل كان الصمت يحيم علينا خلافا
لما كنا عليه عند الحمى للمزة ، فقد كان الحديث بيننا لا يتقطع طول الطريق ، وإني أرجع
سبب هذا الوجوم الذي نالني وناله بعد زيارة السجن إلى كونه كان يفكر فيما يحول بخاطري
وعما عساي أقول بعد ذلك ، وكنت في الحقيقة مشغول الفكر في طبع ما سمعت من حسين
في ذهني وتسجيل ما رأيته من حاله في ذاكرتي ...

وقد لاحظت أن الطريق الذي سلكناه في العودة من المزة كان غير الطريق الذي ذهبنا منه
إليها ...

على مائدة العقيد

وفي الساعة التاسعة كنا ندخل فندق الأوربان ، فقصدنا إلى المائدة التي كانت قد أعدت
لنا ، ولم يفتني أن ألاحظ أن موضع المائدة كان في آخر قاعة الطعام حيث يوجد بعض الأبواب

خلفها ، وهي تؤدي إلى الشرفة الخلفية .. فلو باغتتنا بعض المغتالين فإن موقع المائدة يمكننا من رؤيتهم وهم يدخلون فنحن إذن في مكان يصلح للمقاومة أو الانسحاب من الخلف إن اقتضى الحال ...

وكان معنا على العشاء بعض الضباط الذي يثق بهم العقيد الشيشكلي ، وكان الحديث يدور حول كل شيء إلا المواضيع التي كنا فيها ظهر اليوم وفي هذا المساء ...

وإذا بالعقيد يقول : أنا ذاهب غداً إلى جبل الدروز لأنفقد أمور الجيش وأزور سلطان باشا الأطرش، فهل تحب أن تكون معنا؟ فتسرعت وقلت نعم وإن هذا ليسرني ، وهنا لمحت أحد ضباطه وهو ينظر إليه نظرة عتاب، ولعله كان ينصحه بأن لا يذيع هذا السر عن تنقلاته أمام شخص مثلي ، مشكوك فيه ...

وفما كنا لا نزال على العشاء فطنت أنا أيضاً إلى غلطتي ، لأن الواجب أن أذهب إلى سلطان باشا وحدي لأحدثه بشأن أمين وأستنهضه من أجله ، ولكن إن ذهبت مع العقيد فلن أتمكن من ذلك ، كما أنني لن أكون في هذه الرحلة أكثر من « ذيل » لصاحب الصولة العقيد .

وبقي هذا الخاطر يطوف في ذهني إلى أن اتتويت أمراً ، وهو أن أتملص من هذه الاتفاقية ثم أذهب لزيارة سلطان منفرداً ، فأجدد معه عهد الصداقة التي كانت بيننا كتابية في أيام الثورة السورية الكبرى قبل ربع قرن ، حين كانت جريدتي تنطق بلسان المجاهدين وتدافع عن سلطان باشا نفسه ، وأنا في الحقيقة كنت في شوق لرؤيته وزيارة الجبل الأشم . وبعد العشاء سألت العقيد عن زيارة جبل الدروز وهل هي مقررة من قبل فإذا به يقول بشكل يدل على ميل إلى استدراك ما فرط منه : كلا فهي غير مقررة وسوف أخبرك عن مواعدها ، وبذلك تخلص مني بلباقة وتخلصت منه ... لأنه ذهب في اليوم الثاني إلى الجبل بدون أن يخبرني وحسناً فعل ...

وفي العاشرة مساءً افترقنا وأنا أشكر حفاوته ولطفه على أن نلتقي بعد أيام ، ثم قضيت بقية السهرة في إدارات الصحف التي تربطني بأصحابها صداقات قديمة ، ولا سيما بعد أن

نشرت عن وجودي في الشام كتابات كريمة ، وكانت سهراتي في دمشق تقضي في إدارة « البلد » وصاحبها الأستاذ إيليا شاغوري الأديب الكبير والوطني المخلص ، وجريدة « الجبل » وصاحبها الصديق الممتاز نجيب حرب الصحفي اللبق ، وجريدة « القبس » وصاحبها الأخ نجيب الرئيس شيخ الصحافة السورية المجاهد القديم والنائب السابق .

مآدب وحفلات

وليت في الشام دعوات كثيرة عند أحباب قدماء وأصدقاء أجداد ، عند فخري بك البارودي المجاهد النائب السابق ، والدكتور حيدر مردم بك الوزير المفوض السابق ، وعوني بك عبد الهادي الزعيم الفلسطيني صاحب التاريخ المجيد والدكتور صبحي أبو غنيمة بك الزعيم الأردني ، والدكتور الشيخ مصطفى حسني السباعي عضو البرلمان السوري ، ونصوح بك باييل صاحب جريدة الأيام ، والشيخ عبد القادر المغربي ، وصبحي بك الخضراء المجاهد الفلسطيني القديم ، والشيخ محمد عمر الخطيب العالم الفلسطيني المجاهد النازح ، وعفواً ومعدرة من الذين غفلت عن التنويه بفضلهم ، إذ لم يبق أحد في الشام إلا تفضل بالزيارة والسؤال عني وشكراً للذين دعوني ولم أتمكن من شرف تلبية دعواتهم ، والذين ودعوني بالفندق وفي المطار .

أما مادبة الدكتور أبو غنيمة فإنها كانت مظاهرة سياسية ، لأنها جمعت كل شخصية بارزة في الشام من ساسة ومحامين وأدباء وزعماء من جميع الأحزاب والهيئات ، وخصوصاً رجال العهد الماضي - أي عهد القوتلي بك ، وأما صديق القديم صبري بك العسلي وزير الداخلية في العهد القديم فقد تفضل بزيارتي مراراً وخصص سيارته لتتقلاني .

مناقشة ونكتة ...

أما المناقشة فكانت بيني وبين صبري بك ، وذلك اننا كنّا نتحدث في المأدبة عن أمور جرت في دمشق منذ بضع سنين ، وكان صبري بك يظن أنني حضرتها ، فصححت له الواقعة وإني لم أشهدها ، ولكنه أصر وجاء بأدلة ظنها تؤيد وجهة نظره ، فقلت له أنا لم أدخل الشام منذ ٣٦ عاماً ولكنك كنت « مشغولاً » فلم تظن إلى الوقائع ، ولكنه أصر ، فقلت له إن

لم توافقني حكيت للجماعة قصة الأفغانى وصاحبه تحت الشجرة ... فقال دولة لطفى بك الحفار رئيس الوزراء الأسبق إنه يجب أن يسمع هذه القصة ، فقلت إنها تكدر صبرى بك ، فقالوا لابد من أن تقصها ... وهنا حكيت لهم القصة الموجودة بصفحة ٦٩١ من هذا الكتاب ، عن الأفغانى الذى أصبح ملكا ونسى وهو على العرش صاحبه الواقف تحت الشجرة ، وإنه لم ير الشجرة أيضاً .. وقلت لهم إن أخى صبرى بك كان مشغولاً عنى بنشوة الحكم ، لدرجة أنه لما طلبت أن أراه يوم جاء القاهرة بعث لى الأخ نسيب شهاب يقول إنه مشغول ! فلاعجب إن كان قد نسى إنى لم أسعد برؤية دمشق فى أيامه لأنه فى تلك الأيام كان لا يبالى بمن غاب أو من حضر ... (١)

وهنا صمت صبرى بك وصمت كل من فى المجلس ، وقد لحظت أن بعض الحاضرين وكانوا من خصوم عهد القوتلى قد شتموا به وبهم .

هذا ما كان من أمر « المناقشة » .. وأما النكتة فهى لصبحى بك الخضراء ، فقد وقف يداعب المقدم محمود شطرة مدير المكتب الثانى - وكان قد حضر مأدبة الدكتور أبى غنيمه بالنيابة عن العقيد الشيشكلى - الذى دعى ولم يحضر ، بل أرسل صديقه شطرة « لأن العقيد لا يستطيع حضور مأدب حافلة لأسباب كثيرة ... ومنها أنه لا يظهر أمام الجماهير ، وكون هذه المأدبة كانت تضم جمهوراً كبيراً من الناس ومعظمهم من خصومه » قال صبحى بك الخضراء للمقدم شطرة: إن كنتم تحبون الشهرة وتريدون أن يعرفكم الشرق والغرب فاقبضوا على صاحبنا محمد على الطاهر هذا ولو لبضعة أيام ، وعند ذلك تقوم عليكم ضجة تبدأ من أميركا الجنوبية ومراكش ، وتنتهى فى آخر جزيرة العرب وأندونيسيا ! ثم قال ضاحكاً : يا أخى إن ابراهيم باشا عبد الهادى قد حبسه ثلاثة أسابيع فى مصر فأصبح بسبب ذلك أشهر رئيس وزراء فى العالم ، بل إنه وضع عن ابراهيم عبد الهادى كتاب ها كستب فى ٧٠٠ صفحة تخلده أيضاً إلى أبد الدهر ...

(١) كان صديقى صبرى بك فى أيام الجهاد السورى قبل ربع قرن من جملة الذين نرحوا إلى مصر فكان لا يفارقنى ولا أفارقه ، وكانت إدارة الشورى تسعد برؤيته دائماً . والجريدة كانت جريدته وجريدة المجاهدين جميعاً هنا وهناك ولما تم الاستقلال اختير نائباً فوزيراً للداخلية السورية غير مرة ، وهو من ألمع شباب سورية ، وقد عرضت عليه رئاسة الوزارة بعد زوال حكم القوتلى فأبأها .

ولما انفردت بعد ذلك بصبرى بك ، قال والله إن عتبك في محله ، لأننا كنا عميان يا أبا الحسن ، وكل ما نقوله عنا صحيح وعندك حق فيه ، فقد كنا ونحن نحكم كأننا نعيش بدون عقل . فقلت له : والآن عندكم عقل ولكن بدون حكم ...

شئ عن عهد القوتلى

أظن أن القارىء لم ينس ما كتبت في صفحات سابقة عن النذر التي كانت تترى في آخر عهد رئاسة شكرى بك وتؤذن بأشياء ، وأن الحكم كان مختلفاً ، وأن الناس لم يندهشوا يوم قام حسنى الزعيم بالانقلاب وقبض على شكرى بك وقعد مكانه وأبعده عن الوطن .
تتمياً لذلك أقول إننى في زيارتى هذه لدمشق سمعت عن حالة ذلك العهد أموراً كثيرة ، سمعت ذلك من أصدقاء له وليس من الأعداء فقط ، ولا أكنتم شكرى بك هنا إننى لم أجد له نصراً في دمشق ، وأما إذا كان هناك من يشد أزره الآن ، فهم الذين استفادوا من أيام حكمه ، أو بعضهم المستفيدين وليسوا كلهم ، لأن معظم هؤلاء قد انضم إلى حسنى الزعيم ثم إلى الحناوى ، والآن أصبحوا مع الشيشكلى ، وسيمشون غداً مع من يحبىء بعده ...

العهود كلها ...

إن عدم الرضاء على عهد الشيشكلى هو عام بلا شك ، وإذا كان شكرى بك يسمع أشياء عن هذا التذمر من عهد الشيشكلى فليس معناه أن الشعب السورى يريد عهده هو ، لا ، لأن الشكوى من عهد الشيشكلى جعلت الناس يترحمون على جميع العهود التي سبقتة ، ويقولون إن عهد الانتداب الفرنساوى كان أرحم من جميع هذه العهود !
إن هذا الكلام ليس معناه أن الشعب يفضل فرنسا ، معاذ الله ، ولكنه يقول ذلك للتدليل على أن فساد الحكم كان عاماً وأن المسألة ليست في تفضيل عهد على عهد ، بل هي قياس الأسوأ على السيء ...

شئ عن الماضى

رجعت إلى رسائل الأصدقاء التي كانت تصلنى في عهد رئاسة القوتلى فوجدت واحدة من

صديق عزيز عليه تاريخها ٤ مارس ١٩٤٩ أى قبيل الانقلاب الأول يقول فيها عن شكرى بك « وأما الأخ الكبير فهو فى شاغل عن إخوانه القدماء الذين لامطمع لهم وصار يتكلف معهم » ورسالة أخرى من حبيب له وهو من أعزهم عليه تاريخها ١٢ مارس ١٩٤٩ يقول فيها « والحالة الداخلية هنا ليست جيدة واعتزال نبيه بك العظمة الحياة السياسية ، واستقالة الأمير عادل أرسلان من وزارة الداخلية تزيانك إلى أى حد وصل السوء فى هذه المرحلة من هذا العهد » .

وقد أغفلت تسمية صاحبي الرسالتين حتى لا يقع جفاء بين شكرى بك وبينهما .

نبيه بك العظمة (١)

وأما قصة نبيه بك فأنا أعرفها ، وما دام اسمه قد ورد فيما تقدم فلا بأس من ذكر شىء عن أسباب عدم رضاه عن سير الحكم فى الشام ، فالإخوان القدماء لا بد من أن يتكاشفوا فى أمور حياتهم ، وفى رسائلهم الخاصة يتناجون ويحدثون بعضهم بعضاً عن آلامهم وانتقاداتهم للأمر الجارية بكل صراحة ، مثال ذلك أن نبيه بك كتب لى فى ٢٤ يونيو ١٩٤٧ يقول إنه منهش من تقدم بقايا عهد فرنسا واستخفافهم بالأمة ثم يقول : « لقد عملت فى سبيل البلاد بعد ذلك بواسطة الحكومة فلم أتمكن فانسحبت من الوزارة ثم قبلت منصب أمانة العاصمة مستهدفاً بعض المشروعات كخدمة لعمل شىء للبلاد عن طريق آخر فلم أنجح فانسحبت وسأجرب خدمة أمتى عن طريق ثالث فإن لم أنجح سأنسحب من السياسة كلها »

ثم يقول فى كتاب آخر فى أول سبتمبر سنة ١٩٤٧ « وأما شكرى بك فإنى لم أجتمع به منذ شهرين لأن علاقاتنا أصبحت على غير ما كانت عليه ، وأنا الآن مشغول ومهموم لدرجة

(١) لقد مر ذكر نبيه بك فى أوائل هذا الكتاب غير مرة ، فهو من الرعيل الأول ومن أساطين عهد الاستقلال الذين جاهدوا فى سبيل البلاد منذ ثلث قرن ، وقد حبس مراراً ونفى تكراراً وعاش نحو عشرين عاماً فى غرب قاسية مع جهاد طويل وصبر مرير ، فى فلسطين ومصر والحجاز ، وقد تولى بعد زوال فرنسا من سورية وزارة الحرية فأراد أن يعمل للبلاد شيئاً فلم يتمكن فاعتزل الوزارة ، ثم تولى منصب محافظ دمشق وأراد أن يصنع للمدينة شيئاً فلم يستطع فاستقال ، ثم قام بتأليف الحزب الوطنى لدعم عهد الاستقلال فكان أقوى وأنظم حزب فى سورية ، فإذا ببعض الناس يركضون وراء منافعهم فغضب نبيه بك وأعلن انتهاء حياته السياسية وهجر البلاد وسكن فى لبنان مبتعداً عن سورية وما فيها من هموم وأحزان .

لم أشعر بمثلها في حياتي لشدة ما لقيت من صدمات ومؤامرات وعقوق ، وما أرى وأشعر به من تدهور قضية بلادى وهيبة الحكم فيها ، لقد كنت أريد القيام بدور إنشائي والععل على صيانة استقلالها ، ولكن الأراذل ومعهم بقايا عهد المستعمرين قد تحالفوا على البلاد ، وأنا برغم فقرى لا أريد أن أتناول المرتبات الضخمة مقابل خدمة أمتي التي تضيق الملايين باسمها ، ومن أموال فقرائها الذين فيهم من لا يملكون اللباس لستر عوراتهم ، ولا أقول هذا جزافاً ، كلا ، لأن الحال تكشف عن وجود قرى ومخلوقات في منطقة العلويين على البحر الأبيض المتوسط يعيش ناسها عرايا « زابط ملط » من شدة الفقر والجهل ، إنني أنألم لهذا الحال الذي كان يمكن تلافيه ولو نسبياً عند ابتداء عهدنا الجديد حينما كان شكرى بك هو المطاع بلا منازع ، وخاصة عند تمام جلاء فرنسا عن البلاد ، ولكن جهلنا بمعنى ومفهوم الحكم واستماتتنا في سبيل الكراسي وفرط الأنانية والغرور والسعي وراء نصيب الأسد من ميراث الدولة وضعف أخلاقنا ، كل ذلك جعل الأمور تتدهور إلى الحد الذي نحن فيه « الخ .

الأمير عادل أرسلان^(١)

وقد ورد فيما مر ، ذكر الأمير عادل وأنه استقال من وزارة الداخلية « في عهد القوتلي » وهو لم يستقل من شيء قليل ، فهو من دعائم استقلال البلاد ومن أنداد شكرى بك بل

(١) هو الأمير الأديب العالم الشاعر ، والمجاهد الكبير الفارس وأحد أبطال الاستقلال العربي القديما كان عضواً بمجلس النواب العثماني في أواخر حكم الدولة العلية ، ثم اشترك في إنشاء الدولة العربية في الشام سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠ التي عدت عليها فرنسا وأزالت عرش فيصل منها ، فترشح الأمير عن سورية يجوب الأقطار والأمصار في سبيل استقلال وطنه ، ولما قامت الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ كان الأمير عادل في مصر فتسلل إلى سورية ومناطق الثورة وجعل مقره السويداء ، فن هناك ثم وادي السرحان كان الأمير عادل وسليمان باشا الأطرش يديران المعارك ضد فرنسا ، وقد اشتهر الأمير عادل ببسالته ضد جيشها وكانت معركة الفالوج من أبرز المعارك التي تفوق فيها هو وعصاباته على قوات فرنسا حيث فتكوا بجنودها ، وهي المعركة التي كان أبطال نصرها يهزجون ويعيرون فرنسا بأنشودة جبيلة كان مطلعها « يا وقعة عند الفالوج - عيت على دفانها » والأمير عادل هو الشقيق الثالث للمرحوم الأمير شكيب أرسلان فقيه الشرق الكبير ، والسلام على جهاد الأمير عادل في ميادين الحرب والسياسة يطول ويحتاج إلى مجلد كبير ، فهو جهاد طويل عريض ، ولولا عزوف هذا الأمير عن حب الشهرة وميله إلى كتم ما يصنع وزهده فيما يفتن الناس من سخافات عصرنا لكان أشهر مجاهد عربي ، كما أنه أكفاً وأشجع مجاهد مقاتل في هذا الجيل .

ويقوقه من نواح كثيرة ، كما أنه يمتاز بكونه من الذين حاربوا فرنسا بالسلاح ، وليس فقط بالقلم واللسان والمال .

ولما وقع انقلاب حسنى الزعيم أراد هذا أن يقنع الأمة بحسن نيته نحوها فطلب من الأمير عادل تولى وزارة الخارجية فرضى على أمل أن يمنع على الأقل تحبط الحكم فى عهد حسنى الزعيم ، وهى تضحية عظيمة من الأمير عادل بلا شك ؛ وإلا فإن حسنى الزعيم لا يصلح لأن يكون موظفاً عنده ، ولكن ماذا يصنع الإنسان مع جماعة من المغامرين بعد أن أصبح الأمر فى قبضتهم نتيجة لسوء تصرف الحكام السابقين ، ولما لم يستطع الأمير عمل شئ يضع حداً لتخليط حسنى الزعيم لم يسعه إلا الإستقالة واعتزال العمل .

كتاب من الأمير عادل

وفى تلك الأيام وقبل سقوط حكم حسنى الزعيم كتب لى الأمير عادل كتاباً صريحاً بعث به إلى بالبريد العادى بدون أن يبالى بالزعيم ولا بسلطانه ، فى هذا الكتاب « فضفض » الأمير عما كان يضيق منه صدره من أعمال ذلك المزعوم ومن تصرفات القوتلى بك أيضاً ، وهذا بعض ما قاله الأمير عادل بتاريخ ١٩ يوليو ١٩٤٩

« السياسى العربى يأبأ الحسنى لا يهتم أحد لأقواله إلا إذا نهب مبلغاً من مال أمتة وأنفقه فى سبيل الدعاية لنفسه ، عند ذلك يصبح سياسياً عظيماً ، ويكون هو محور السياسة العربية ، والداعى إلى اتحاد الكلمة : والمرشد إلى الخير والهادى إلى الصواب ، ولو كان من أكبر المنافقين » .

مفوضية أنقرة

ولما عينوا الأمير عادل وزيراً مفوضاً فى تركيا كتبت إليه أعاتبه على جبهه لأنقرة وأسأله لماذا لا يجي لمصر وزيراً مفوضاً ، لأن منصب الوزير المفوض هنا كان شاغراً فى تلك الأيام وفى حاجة إلى مثله ، وكما كانت سورية تستفيد من وجود وزير سورى مفوض فى مصر له شخصية الأمير فى علمه وجهاده ولا سيما أن له علاقات قديمة مع كبراء مصر ومع زعاماتها ، فكتب إلى يقول : « أنا لم أطلب لأنقرة ولا غيرها ، لكنه لم يعرض على سواها ، ولما

كنت أشعر بحاجة إلى الراحة قبلت فوراً بلا تردد، لكنك ظننت أني لست مغرمًا إلا بأنقرة، ولا شك في أن غيرك يذهب إلى هذا، ولا يبعد أن يقال عندكم إنني رفضت مفوضية القاهرة!.. ويجب أن تعلم أن في الدنيا أكثر من ابن حلال... لا يريد أن تفهم القاهرة بعض الحقائق عن دسائس تحاك لهذه الأمة المسكينة المشغولة بتفكيك روابطها والعدو على أبوابها. دعنا من فتح الجراح يا أبا الحسن، فهذه أمة ظواهر ومظاهر وقشور، وكل من أراد بها شراً استطاعه بلا كلفة ولا مشقة، فكيف إذا أنفق الملايين واستخدم في ذلك أنصاراً وتابعين... من حسن الحظ أن العدو - يقصد اليهود - ضعيف متعب بل جائع، ومهاجروه يصلون إلى فلسطين فلا يمضي عليهم أسبوع حتى يندموا، أجل لليهود أصدقاء لكن العرب أعداء أنفسهم، ولولا ذلك لما كان لليهود أصدقاء...»

تعقيب

إن هذه الرسائل التي لخصتها، لتدل على أن حالة الحكم في سورية كانت في تخطيط وفوضى لا مثيل لهما، وماذا بعد أن يضح منها مثل الأمير عادل ونيه بك وهما من أكبر رجالات البلاد حتى دخل اليأس إلى قلوبهما في حين أنه لو رشح أحدهما نفسه لرياسة الجمهورية في انتخابات صحيحة لما تخطته الرياسة، بل كانت تسعى إليه سعياً..

الأمير يتكلم

ولما كان الأمير عادل في لبنان يستعد للسفر إلى أنقرة إذا بالعاصفة تعصف بحسنى الزعيم وعهده، فازداد جزئه وأسفه على قوم بعد قوم ما كانوا يسمعون نصحه، وقد زاره فريق من الصحافيين اللبنانيين يسألونه عن أسباب هذه الانقلابات وسقوط المهدين فأفضى بحديث ضاف أليم وهنا يكتب الأستاذ «محمد قره علي» في جريدة النداء البيروتية ويقول: «وأخذنا نستمع إلى ما يدلي به الأمير الأرسلاقي من أحاديث حول أسباب الانقلاب.. فإذا به ينفذ من مكنونات صدره أسراراً خطيرة، وأحاديث بلغت في صراحتها القمة. وإذابه ينحى باللائمة على المسؤولين السوريين ويحملهم النتائج التي أدت إلى هذا الانقلاب، واتهم الأمير بعض رجال العهد السابق بالإهمال والتفريط والعبث فإن جواسيسهم الذين كانوا يتقاضون من خزينة الدولة ما

لا يقل عن ٢٥ مليون ليرة في السنة كانوا يوافقونهم بتقارير محشوة بالأكاذيب والسخافة عن اجتماع فلان بفلان من المعارضين دون أن يفتنوا إلى الحركة الانقلابية التي يعمل لها قائد الجيش السوري، ومما قاله: إن الحكومة السورية رفضت عرضاً سخياً لشراء عدد من الطائرات الحربية الحديثة ذات الأربعة المحركات لقاء ٢٥ ألف دولار للواحدة منها، وفضلت شراء بضعة طائرات عتيقة ذات محرك ومحركين من مخلفات أحد الجيوش بمبلغ لا يقل عن ٨٠ ألف دولار للواحدة ... وسبق للأمير عادل أن تنبأ بمثل هذا الانقلاب .

جبل الدروز

وفي صبيحة مبكرة جداً غادرت الفندق وأهله نيام وأخذت سيارة سافرت بها بفتة إلى جبل الدروز ، أو جبل العرب - وكنت في لحظة السفر قد صادفت صديق الأستاذ نجيب حرب صاحب جريدة الجبل عند كراج السيارات وهو يريد السفر إلى السويداء فدعوته للركوب معي فكان خير رفيق. وقد مررنا في جبل الدروز بالأماكن التي جرت فيها المعارك الدامية بين أبطال بني معروف وبين الجيوش الفرنسية. وكان أهمها معركة المزرعة التي مزقوا فيها جيش الجنرال ميشو وشتتوا شمله وغنموا أسلحته ، وهي من أعجب المعارك حيث خسرت فيها فرنسا جيشاً جلياً يتألف من خمسة آلاف جندي بعنادهم وشرفهم وسمعتهم ، وقد أقامت فرنسا في تلك النقطة نصباً تذكاريّاً جعلته كضريح رمزي لضحاياها . فأوقفت السيارة ونزلت منها وتفرجت على مدفن الاستعمار شامتاً ، ثم أقيمت نظرة على الأراضي التي جرت فيها المعركة وترحمت على شهداء بني معروف الذين رووا بدمائهم تلك البطاح .

ولما استأنفت السيارة مسيرها نبهني الأستاذ نجيب حرب إلى مكان وقال هنا هجم المرحوم البطل حمد بك البربور على المصفحة الفرنسية وضرب قائدها بسيفه فجعله شطرين ، فتناولت المدافع الرشاشة الفرنسية المرحوم حمد بك وأمطرته وابلاً من الرصاص فظل يقاوم إلى أن استشهد ، أرضاه الله ، وكان الأستاذ حرب يحدثني عن أيام ذلك الجهاد ، وعن معارك ذيبين ، والمسيفرة ، ورساس الخ وهي أسماء معروفة عندي ، عزيزة على نفسي ، فقد كانت جريدتي في تلك الأيام الغر تسجل أنباء تلك المعارك وتفصلها وتنشرها في آفاق الأرض .

وقد لاحظت أن المناطق التي مررنا بها كانت جرداء من الشجر خالية من العمران ، في حين أن جبالها وسهولها مما يمكن زرعها واستثماره على أوسع نطاق ، ولكنني لم أكن في حاجة لأن أسأل رفيقي عن السبب ، لأن البلاد المجاهدة المبتلاة بالاستعمار لا يمكن أن تظل خضراء ولا ريانة ، لأن المستعمرين من طبيعتهم تخريب كل عمران يمرون به ، كما أن كل شعب أبنٍ لا بد له من أن ينصرف عن التعمير إلى مقاومة الأعداء ، فبين أولئك وهؤلاء تصبح البلاد خراباً كإرايت ، ولا بأس مما رأيت ، أليس أن الوطن قد بقى لأهله؟ إن الأبنية والمزروعات والثروات لما يمكن تعويضه على ممر الأيام ، وأما الاستقلال والشرف فلا عوض لهما .

إلى مقر سلطان الأطرش

وفي دار الأستاذ نجيب حرب بمدينة السويداء تناولنا القهوة والشاي ، وبعد أن استرحنا قليلاً واصلنا السير إلى « القرية » وهي بلدة سلطان باشا ولم تقف إلا أمام باب الدار ، وهي دار عادية بسيطة ذات طابق واحد فدخلناها وأنا أتعجب كيف أن الحكومات السورية المستقلة لم تجعل داره قصراً باذخاً يليق بقائد الثورة العام الذي بذل في سبيل الأمة نفسه وكل ما يملك ، ونسف الافرنسيون داره ودمروا ممتلكاته وخربوا زراعاته ، ولكنه لم يكف عنهم ولم يرجع إلى الوطن إلا بعد أن تم الصلح بين فرنسا وسورية وتركوا الجمهورية الأولى سنة ١٩٣٦ تقوم بإرادة الأمة .

دخلنا « المضافة » أولاً فرحب بنا من كان فيها من زوار الباشا الذين ينتظرون خروجه إليهم ، وهي قاعة لا شيء فيها إلا المصاطب الحجرية ، وعليها بعض الحشايا المتواضعة ، وأما أرضها فكانت عارية ، وهنا اشتد تعجبي لأن أحقر دار يسكنها الجواسيس والخونة والأشخاص العاديين في إحدى المدن لتفوق دار القائد العام بمراحل !

ولما عرف سلطان باشا بمجيئنا بادر إلينا بالترحيب والتأهيل وكان سروره بهذه الزورة لا يقل عن ابتهاجنا برؤيته ، وبعد تناول القهوة . انتقلت معه إلى صالة داخلية عادية الأثاث عارية الجدران من الزخرف أو الستائر فلم أشك في كون الباشا المجاهد يعاني حياة لم تكن رخية وكنت أظن أنني سأراه في حالة تكفل له العيش بسعة أو رفاهية تليق بمكانته وتكافأ مع جهاده .

سلطان باشا الأطرش

وجدت سلطان باشا كما كنت أعرفه من التصاوير الكثيرة التي نشرتها الصحف عنه ،
بشاربه الطويل الأشم ، ونضارة وجهه الأبيض الوردى وعيونه الزرق الجميلة ، ولكن الشيب
كان يتغلب على بحياه المهيب ؛ ولا بد مما ليس منه بد ...

وتحدثنا طويلاً... عن أيام الجهاد القديم ، وعن أيام وادي السرحان ، وعن المراسلات التي
كنت ألقاها منه ، والبيانات التي كانت جريدتي تنشرها له ، فكان يحدثني وهو مسرور
بهذا اللقاء المباحث ، كما كنت بلقاءه سعيداً ، وبعد ذلك تحدثنا عن قضية الدكتور أمين
رويحة صديقه وزميله في الجهاد المسلح ، وكيف أن الحكومة الوطنية كانت تهمله بالأمس
ثم تقوم الآن وتحبسه... الخ وهما فاضت الذكريات في نفس القائد العام وأخذ يحدثني عن رويحة
وكيف كان يقاتل ويطب ، ثم قال إنه عاجله هو أيضاً من جراح أصابته وكـ من مرة كان
أمين يطرح بندقيته عن كتفه ويضعها على الأرض ثم يحنو على الجرحى من الرفاق فيسعفهم
ويعمل لهم عمليات استخراج الرصاص من أجسامهم ويضمّد جراحهم ، وبعد ذلك لم أكن
عن الباشا ما ينتظر أمين من خطر شديد على أيدي بعض مواطنيه الذين قاتل عنهم وضمّد جراحهم ...
وانتقل الحديث إلى أحواله هو ، فلم يكتم عني ما لقي من تقصير حكومة شكرى بك القوتلى ،
من جميع النواحي ، ثم ذكرلى قصة ، وهى أن المهاجرين فى أميركا كانوا قد اكتبوا بنفقة
تمثال يقام له فإذا بحكومة صديقه القديم تضع العراقيل فى سبيل ذلك قائلة إذا كنا سنفتح
باب التماثيل فكل واحد سيطلب بتمثال ... (١)

ثم قال الباشا : أنا لم أطلب تمثالاً ولا فكرت فى شيء من أمتى إلا سعادتها ، ولكن
المهاجرين أحسنوا الظن بأحد خدام الوطن فتفضلوا عليه بهذه المكرمة ، ولما بلغنى ما تقوله
الحكومة خفت أن يدرى به أبنائى فى المهجر فأقع أمامهم فى الكسوف والخجل فكتبت

(١) يظهر أن الجماعة كانوا ينظرون إلى سلطان باشا كأنه يوجد عندهم عشرات مثله ! دون أن يفطنوا
إلى شيء بسيط واضح وهو أنه لو لم ينهض سلطان باشا ويثور على فرنسا ما كانت الثورة تشمل جبل الدروز ،
ولولا قيام جبل الدروز الذى هو معقل سورية ما كانت الثورة تعم سورية ...

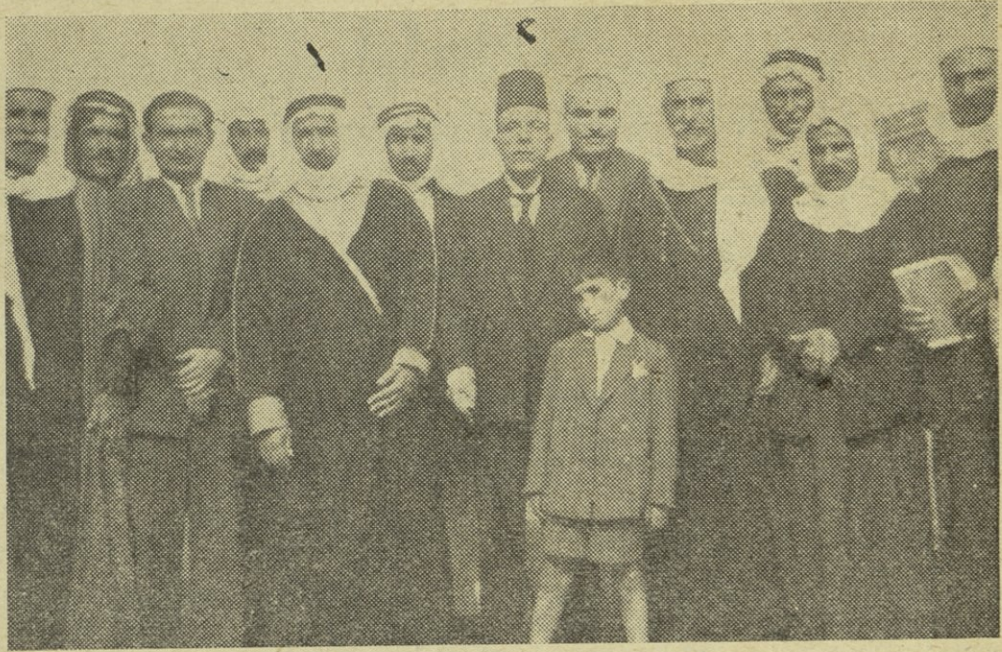
إليهم بأننى أفضل عمل مدرسة بالمبلغ وأن تكون فى هذه البلدة ، وفى الحقيقة أننى كنت أنوى ذلك قبل أن أدرى برأى الحكومة ^(١) .

وهناك أشياء أخرى ذكرها سلطان باشا عن تقصير حكومة الاستقلال وكان يروى قصته وهو متأثر ومتألم للدرجة أننى أيضاً تأثرت وكادت عيونى تدمع حزناً وكهداً ، كيف لا وأنا أسمع المجاهد الشيخ يشكو بهذه الماراة . ليس من الأعداء ولكن من الأحباب ! وهنا قلت فى نفسى : لا شك بأن الشيشكلى كان بارعاً حقاً ، فهو لا يترك مناسبة لمجاملة سلطان باشا إلا انتهز فرصتها . وقد علمت أنه لما زار جبل الدروز قبل زيارتى هذه بأيام أخذ ضباطه وأركان حربه وجاء بهم جميعاً إلى مقر سلطان باشا ليقوموا بتحيته ، وقد خطب الشيشكلى أمامه وهو يقول : إننا كنا نسمع بجهادك ونحن طلاب فى المدارس الابتدائية كما نسمع بالأساطير ، وها نحن الآن ولله الحمد أمامك نراك رأى العين بعد أن وفقك الله وأنال الأمة على يديك مبتغاه ، لقد أعجبتنى هذه الحركة اللبقة من الشيشكلى ، ولكنى كنت أتمنى لو يقول مثله للدكتور أمين رويحة ...

الوداع

لم أمكث عند سلطان باشا أكثر من ساعة ، ثم ودعته وبودى ألا أودعه ، ولكنى مضطر إلى السفر لأتمكن من زيارة السويداء عاصمة الجبل ، لأن صديقى نجيب حرب لم يمكنى من إرجاء زيارة السويداء إلى وقت أختره أنا لأزورها زيارة خاصة : بل نبه صحبه عند مرورنا بالسويداء إلى كونى راجعاً إليها لتناول الغداء على مائدته ، ولذلك أصررت على مغادرة « القرية » فودعت سلطان باشا ومن كان عنده من الزوار ، على أمل العودة فى زيارة طويلة

(١) لم أنس بعد رجوعى إلى دمشق أن أعاتب صبرى بك العسلى على تقصير حكومة عهدهم مع سلطان باشا فاعتذر بأعذار شتى ، فقلت له : يا أخى إن مثل هذا الرجل الذى أصبح رمزاً لجهاد أمة لا يجوز أن يستكثر عليه مال ، ولا أرض ولا قصور ولا ألقاب ، ولا أى شىء من صنوف المجاملة ، فهو لو فتح عباءة وملائتها له الأمة ذهباً لما عد ذلك كثيراً عليه لأن هذا المال كله لا يوازى ما كان ينهبه ضابط فرنسى واحد ممن كانوا ينهبون ويسلبون ثم يخربون البلاد ويدبحون العباد وينزلون الشعب ويهتكون شرف الأمة بمجرمانها من استغلالها ، فقال صبرى : هذا صحيح ولكننا غلطنا ، فقلت له : وستغلطون مرة أخرى لو عاد الدهر إليكم ، وأغلب ظنى أنه لن يعود ...



رقم « ١ » عطوفة سلطان باشا الأطرش القائد العام للثورة السورية
ورقم « ٢ » محمد علي الطاهر قبيل الموداع



وداع سلطان باشا على أمل اللقاء ...

في السويداء رجال !

وجدنا دار الأستاذ نجيب حرب حين وصلنا السويداء حافلة بالناس ، وكان الصديق المجاهد القديم محمد عز الدين باشا الحلبي غائباً عن المدينة فلما سمع بمجيئي إليها بادر هو إليها ، وكنت لم أره منذ بضعة عشر عاماً ، وبعد أن تناولنا الطعام لبثت دعوات كثيرة لتناول الشاي عند أعيان السويداء - وكلهم أعيان - ومنها دار محمد عز الدين باشا الحلبي ودار السيد يوسف بك حسن رئيس محكمة الاستئناف السابق ودار السيد جاد الله بك عز الدين عضو مجلس النواب ، وقد التقيت في هذه الدور بأهل السويداء وأفاضلها ، من آل هنيدي وآل سلمان جابر وآل مزهر وآل أبو عياش وآل حمزة وآل سلام ، ولولا اضطراري للسفر إلى دمشق لمواعيد لا بد منها الليلة لبقيت في السويداء طويلاً ، لأنني أحببتها لجمالها وكرم أهلها ، وكونهم كانوا يصرون على بقائي ، ولم أتمكن من مغادرتها إلا بعد وعود مصحوبة بأيمان مغلظة بأن أعود إليهم ، ولا أزال أنوي العودة إليها إن قدر الله لي زيارة سورية مرة أخرى . ووصلت إلى دمشق ليلاً ، مستأنفاً اتصالاتي هنا وهناك استعداداً للعودة إلى القاهرة .

غوطة دمشق

وكن صديقي نخري بك البارودي الوطني القديم قد رتب لي وقتاً لزيارة ضواحي العاصمة السورية والأماكن التي كانت المعارك تجري فيها بين المجاهدين السوريين وبين الجيش الفرنسي ، وخصوصاً في ثورة سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٨ وقد مشيت بنا السيارة ساعات بين تلك البساتين النظرة التي كانت أشجارها خير حجاب للمجاهدين في حركاتهم الحربية ، كما كانت جدران الحدود بينها خير متاريس لهم يكمنون للأعداء خلفها ، هذه « جوبر » وهذه « بابيلا » وهذه « حرستا » وهذا « جسر تورا » وهذه « دوما » وهذه « عرين » حيث كان مصرع الجند الفرنسي يتكرر عندها من حين إلى آخر ، والسعيد منهم هو الذي كان يفلت من بأس المجاهدين بالهرب ! وتلك قرية « مضايا » التي باغتها الجيش الفرنسي ذات صباح بلا سبب ولا إنذار بإطلاق المدافع عليها فحسبها وطمر سكانها تحت أنقاضها فاستشهدوا جميعاً !

إنني وأنا أسطر هذه الفظائع بعد ربع قرن لا أزال أتذكر الاحتجاج الصارخ الداوي الذي بعث به نسيب مسلم الخياط بك قائمقام الزبداني للسلطة الفرنسية استنكاراً لتلك الجريمة الوحشية التي هزت الضمير الإنساني هزاً ، وكيف أنه استقال من منصبه برغم فقره وحاجته إلى المرتب احتجاجاً على تلك القسوة التي لا يرتكبها قوم يشعرون بمعنى الإنسانية .

وفما كنا في طريق العودة إلى دمشق مررنا بهي « الميدان » و « باب شرق » و « باب توما » وهي من أحياء دمشق التي ذقت ضواحيها من فرنسا صنوف الهول والفظائع ، كما أذاق المجاهدون فرنسا من بأسهم ما هو أشد هولاً ...

وقد وصلت إلى الفندق بعد هذه السباحة المؤثرة وأنا ملتهب الأعصاب ، هائج ثار النفس ، بل أكاد أحترق غضباً وحقداً على الاستعمار الآثم ، وعلى كل من يؤيده وعلى كل من يصبر عليه ولا يقاومه ، لأنه بسكوته يغريه على التمدد في العدوان على وطنه هو وعلى أوطان الناس أيضاً ، ويكفي ما حل بفلسطين التي كانت ضحية لشهوات عصابة من أصحاب السلطان والمناصب والألقاب الذين هونوا من أمرها ، وسهلوا للغاصبين انتزاعها منا بعد أن استهانوا بأمرها وشجعوا الأعداء علينا ، بل انهم زعوا سلاح المجاهدين الفلسطينيين ثم تركوهم عزلاً وهربوا من فلسطين كلها ...

اللاجئون والمشدون

وكانت دمشق غاصة بالفلسطينيين الذين أخرجوا من ديارهم على أبشع الصور وأشدّها عاراً وشناراً . لأنهم صدقوا جامعة الدول العربية وعزماها وساستها وأصحاب المناصب والألقاب الذين يجلسون على كراسي الحكم والأبهة فيها ...

إن في سورية الآن نحو ١٤٠ ألف فلسطيني ، وتضم مدينة دمشق منهم نحو خمسين ألفاً وهو عدد هائل بالنسبة لعدد سكانها ، وشكراً لأهل الشام الذين جعلوا هؤلاء الشهداء الأحياء مواطنين لا ضيوفاً ، ولولا ذلك لكانت المصيبة أعظم ، وقد رأيت الكثيرين من الفلسطينيين يشغلون بعض المناصب في دوائر الحكومة والمعارف والبنوك والمحال التجارية ، كما أني رأيت المحامين والمهندسين والأطباء والتجار منهم يزاولون أعمالهم في دمشق مثل

أبناء دمشق ، وأما بقية الفلسطينيين الذين نكبوا بضياع وطنهم فإنهم سكنوا المدن الأخرى بعد أن منحتهم الحكومة السورية جميعاً حق المواطن في كل شيء .

ولم أستغرب هذا الحنو من السوريين على إخوانهم الفلسطينيين ، فقد سبق لسورية أن احتضنت عشرات الألوف من مهاجري الجزائر بعد نكبتها بالاحتلال الفرنسي ، ولا يزال الحى الذى استقروا فيه على أطراف جبل قاسيون وسفوحه عامراً بهم وهو الذى يسمى بحى المهاجرين .

وقد لمحت في شوارع دمشق وجوهاً فلسطينية كثيرة كنت أعرفها في يافا وحيفا وصفد وطبرية وبيسان ، وأعرف ما كانت عليه في وطنها من الثراء والوجاهة والنعمة ، ولكنى رأيت هذه الوجوه الآن وهى شاحبة مصفرة وأجسام أصحابها ناحلة وملابسهم رثة ، ولمحت تجاراً كانوا أغنياء هناك فإذا بهم يصبحون باعة سلع تافهة يحملونها على أكتافهم أو بين أيديهم ويتجولون بها في الشوارع والحارات والدروب ...

وقد آليت على نفسي أن أذيع وصف حالتهم ليعرفها الجيل المقبل ، وأما الجيل الحالى فلا كلام لى معه لأنه اشترك في الجناية عليهم وتستمر على الجناة الذين نكبهم ، ولا يسعنى قبل أن أختتم هذه السطور إلا أن أستمطر اللعنة الأبدية على الذين كانوا السبب في مصرع فلسطين وتشريد أهلها ، ومطالبتهم بدماء الشهداء الذين راحو طعمة لفظائع اليهود وضحايا الجوع والأمراض ، وأصبحت بقاياهم قطعاناً من المتسولين والشحاذين والتائهين .

السلطان صلاح الدين والملك الظاهر

ولم أجد ما يهدى من روعى - وقد يدخل الأمل والطمأنينة على نفسى - إلا القيام بزيارة ضريحى الملكين المجاهدين المنقذين السلطان صلاح الدين الأيوبي والملك الظاهر بيبرس ، اللذين كان من حظ دمشق وهو ما يشرفها أيضاً أن يدفنا في ترابها بل في قلب المدينة الصابرة المنتصرة ، فوقفت أقرأ لروحيهما أم الكتاب وأترحم عليهما وعلى جيوشهما التى استشهد أبطالها في سبيل الدفاع عن شرف الإسلام وإنقاذه من الغزاة ، وقلت في نفسى هل يقيض الله للأمة العربية رجالاً يسطرون في تاريخها مثل تلك الصفحات البيض الخالدة التى سطرنا بعدها أسود الصفحات ؟ .

وداع دمشق

اتفقت مع إخواني الذين يهمهم أمر الدكتور أمين رويحة على نشر مظلمته في البلاد العربية المجاورة مادامت صحف دمشق مكمة تعيش بين السيف والنطع، وأن أعمل على إرسال محامين من مصر ليشتروا في الدفاع عن أمين، وتعريف حكام سورية الجدد بالمجاهد الكبير الذي يحبسونه بدلا من تكريمه، وأن الأمة العربية كلها تعرفه وتقدر جهاده ما داموا لحدثة عهدهم بأمور بلادهم يجهلون ولا يعرفون قدره، وسامح الله أهل الحكم الماضي الذين اشتغلوا بتصغير إخوانهم وإهال زملائهم، حتى كانت النتيجة ضياعهم هم وإخوانهم معهم، وكنت أقول في نفسي. ترى لولم يكن نخامة رئيس الجمهورية يعرفني، أولو لم يكن لي في سورية أحباب من غير أهل السلطان وهم الذين بقوا لي: أكان أحد يهتم بي في دمشق أو يستمع لي أو يسأل عني ...

وعرف الأصدقاء والمعارف من كرام الشام بقرب سفري في صبيحة مبكرة غير معينة الساعة من اليوم التالي، فتكرموا بالجيء إلى الفندق تلك الليلة للوداع، وكان فيهم سادات المدينة وأعلام البلاد، ومنهم أعيان الفلسطينيين وكبرائهم الذين ترحوا إلى الشام، وها إنني أسطر على صفحات كتابي شكر الذوات الذين تفضلوا بالوداع ولم أستطع إرسال كتب الشكر إليهم، وهم السادة: لطفى بك الحفار رئيس الوزراء الأسبق؛ والشيخ كامل القصاب، والشيخ عبد القادر المغربي، وسامي باشا مردم بك، ومن الوزراء السابقين بديع بك المؤيد، وشاكر بك الحنبلي، ومعروف بك الدواليبي، ومحمد بك المبارك، وصبري بك العسلي، وإحسان بك الشريف وعفيف بك الصلح، والأمير مصطفى الشهابي، والدكتور حيدر مردم بك، وعمر بهاء الأميري بك وعارف بك النكدى محافظ جبل الدروز الأسبق، وأحمد فؤاد القزمانى بك ومظهر بك القوتلى وظافر القاسمى بك وجميل الجابى بك وعصام الإنكليزى بك وأبو الهدى بك الياق وشفيق بك سليمان والدكتور وحيد شوق بك والدكتور أحمد قدرى بك والدكتور صبحى بك أبو غنيمة وصبحي بك الخضراء وعزت بك دروزة والشيخ عبد الله القلقيل وأسعد بك الغصين ومحمد على بك الغصين، والشيخ نمر الخطيب والأساتذة جورج اليان وحسنى كنعان وفيصل النابلسي والدكتور ناجح كنعان وفتحي النابلسي ووصفى بك عبد الهادى ونخري بك البارودى

والشيخ أبو الحسن القصاب وشوق بك العبوشي ، والسادة اسحق عبد السلام الحسيني ومصطفى كامل الحسيني وسالم الحسيني والأستاذ نجيب بك الرئيس صاحب القبس ومحمود بك الصباغ ، . ونهاد بك القاسم والسيد محمد علي دروزة والأستاذ حسن حبيب حوا ، والأستاذ مصطفى الزرقاء عضو مجلس النواب، وعبدالكريم بك العائدي مدير العشائر والأستاذ سعيد التلاوي صاحب جريدة الفيحاء والأستاذ إيليا شاغوري صاحب جريدة البلد ونصوح بك باييل نقيب الصحافة والسيد حمدي باييل من أصحاب جريدة الأيام ، والسيد بشير العوف صاحب جريدتي المساء والمنار ، والسيد نجيب حرب صاحب جريدة الجبل والشيخ مصطفى السباعي عضو مجلس النواب والقائد السابق عوني بك القضاة والأستاذ زهير الكزبري مدير جريدة البلد والأستاذ وجيه الحفار صاحب جريدة الإنشاء والسيد محمود صدقة من أعيان المهاجرين في الولايات المتحدة ، والسيد علي الدباغ ، والأستاذ سمعان الله ويردي مندوب الأسوشيتدبرس ، والأستاذ مفيد الحسيني مبعوث وكالة الأنباء العربية والدكتور مصطفى البارودي والأستاذ يوسف الرويسى مدير مكتب المغرب العربي ، وابراهيم بك الفصين وكال الدين صلاح بك مستشار المفوضية المصرية والأستاذ محمد علي أبو درة بك مدير القسم الثقافي بالمفوضية المصرية . والأستاذ هنري كتن المحامي والأستاذ أحمد بورقية والسيد رياض بندق والسيد هادي المعصراني والأستاذ الشاعر الكبير الحوماني ، والسيد رفعت النابلسي الخ وجاء من بيروت الزعيم المغربي السيد الفضيل الورتلاني والشاعر المعروف الأستاذ حلیم دموس والدكتور فريد أبو سليمان والسيد محمد علي البرزي ، ومن دوما الدكتور سعيد بك عودة، ومن جبل الدروز عطوفة محمد عز الدين باشا الحلبي ، وجاءت برقيات وتلفونات ورسائل من العلامة الشيخ أحمد عارف الزين صاحب مجله العرفان بصيدا والأستاذ نظير زيتون من أعيان العرب بالبرازيل نزيل حمص ، والسيد عبد الله سمارة نزيل بيروت والأستاذ فريد أبو عز الدين من أعيان العبادية ، والأستاذ أحمد بك الإمام نزيل بجمدون ، والأستاذ محمد رشدي الخياط نزيل طرسوس ، والحاج خليل أبو الحدود من أعيان بيروت .

توديع نخامة الرئيس - وبطاقتان...

و كنت في النهار قد ذهبت إلى القصر الجمهوري فزرت نخامة الرئيس الأتاسى مستأذناً بالسفر ومودعاً وقد تفضل نخامته بإبقائي لديه أكثر من ساعة تحدثنا فيها ملياً... ولم يفتنى أن أذكر لفخامته أن زيارة منه لمصر في هذه الأيام سيكون منها كل نفع لسورية ، لأنني لمحت ضباباً في أفق العلاقات بسبب أشياء نشرتها صحف الشام وكدرت الرأي العام المصرى في حين أن مصر هي الحاضنة للجامعة العربية ، سياسياً وعسكرياً ...

وعند منتصف الليل مرتت بمرکز « الأركان حرب » وهي ساعة لا يمكن أن يكون العقيد الشيشكلي فيها ، فلما تأكدت من عدم وجوده هناك ناديت أحد جنود الحرس وأعطيته بطاقة « وداع » للعقيد ليسلمه إياها غداً ، وقد صنعت مثل ذلك بالنسبة لدولة رئيس الوزراء القدسى بك، وكان قصدى من ذلك أن لا أواجههما حتى لا يدور بيننا حديث عما رأيت وسمعت في الشام أو ماذا أنوى أن أصنع في مصر ، ففي ذلك ما فيه من إحراج لى ، كما أنه لا يجوز أن أبرح البلاد بدون مواجهتهما مودعاً وشاكراً حسن وفادتهما ، فكانت طريقة وضع بطاقتي الوداع خير مخلص لى من الحرج ...

الكخيا والخورانى

وهنا قد يبرز سؤال وهو: لماذا لم أجتمع بالسيدر شدى بك الكخيا رئيس مجلس النواب وهو عماد العهد الحاضر ورئيس الأكترية البرلمانية، ولا بالسيد كرم بك الخورانى الذى هو المحرك للجيش وعميد الانقلاب الذى يدير الأمور من وراء ستار ...

والجواب على ذلك أنى لم أشأ عرض نفسى عليهما للمقابلة ، ولا هما أبدىا رغبة بلقاءى ، وما الفائدة من الاجتماع بمن يستطيع التلصص من تحمل مسؤولية ما يجرى في سورية ، بأن يقول الكخيا : إن أمر الحكومة في يد رئيس الوزراء ! ويقول الخورانى : إن أمر الجيش في يد قائده العام !

فأنا قد اجتمعت برئيس الحكومة وبقائد الجيش ، فما حاجتى إذن إلى سماع هذا الكلام السياسى الذى لا طائل تحته ...

فخرى البارودى

وفي ساعة مبكرة من صباح ١٤ نوفمبر سنة ١٩٥٠ كنت أبعث بحقائى إلى السيارة التى ستحملنى إلى المطار وإذا بفريق من الأصدقاء يحىء للوداع وفيهم فخرى بك البارودى الذى يمثل «الدمشق» الأصل فى شمائله ولطفه وإناقته فى شخصه وفى داره وحياته أصدق تمثيل ، فقال السيد نجيب حرب بماذا تصف فخرى بك لأنشر وصفك له فى جريدتى ؟ فقلت له اكتب :
«لم أجد فى دمشق ألطف ولا أبدع ولا أسعد من وجود فخرى البارودى فيها ، إننى أفهم أن تكون دمشق بدون الغوطة ، ولكننى لا أستطيع أن أفهم أن دمشق يمكنها أن تكون لطيفة بدون فخرى !

يجوز أن تعيش الغوطة بدون ماء ولا ظل ولا زهر ولا ثمر ، ولكن دمشق لا يمكن أن تكون بدون فخرى ، فهو الزهر والثمر والظل والماء والحياة ، إن فخرى فى بيته «الدمشق» الأثيل الجميل ، ومجلسه الأنيق ، لتحفة حية فى متحف حى ، يؤنسك قادماً ، ويسعدك جليساً ، ويقرئك ضيفاً ، ويودعك باسم مؤنساً كريماً .

وفخرى يمتاز عن أبناء هذا الجيل بشىء لا يشاطره فيه أحد ، وهو أنه يجلس إليك وتأنس إليه دون أن تسمع منه شكوى من أحد ، ولا حسداً لأحد ، ولا مناً بجهد ، ولا إدلالاً ببذل أو تضحية . فهو فى الحق زهرة الشام ، وريحانة الغوطة ، ولبسم القلوب ، وهو فى مجلسه الأنيق وعشرته الصافية خير دواء للنفس وأمتع بهجة للقلب ، فحديثه يسر الخاطر ودعايته تشرح الصدر ...»

نشرة وداع وحادث فى المطار !

وفي الساعة التاسعة من ذلك الصباح كنت أنزل من السيارة أمام مطار المزة ، وكان المطر يهطل والرياح تصفر ، فإذا بعصبة طيبة من الأصدقاء قد بكرت وسبقتنى إلى المطار وكان فيهم صاحب الدولة السيد لطفى بك الحفار رئيس الوزراء السابق ومعالى السيد صبرى العسلى بك وزير الداخلية السابق والأستاذ صبحى بك الخضراء والأستاذ شوقى العبوشى والسيد المعصرانى فجلسنا نشرب القهوة فى «البوفيه» بينما يتمم أحد الأصدقاء معاملة جواز السفر والجرمك

والصحة ، وفي خلال ذلك سطرت على ورقة صغيرة بعض كلمات وسلمتها سرّاً لصبرى بك العسلى وطلبت منه أن يأمر سكرتيره بنسخ عدة صور عنها وإرسالها للصحف الدمشقية .

وكان السيد المعصرانى يريد أن أقضى له حاجة ما بالقاهرة فقلت له اكتبها على ورقة حتى لا أنسى ، فكتب عليها ما يريده وسلمنى إياها فوضعتها فى جيبى ! ثم قمنا إلى الطائرة ، فودعت إخوانى وركبت ، وبعد أن ربطنا الأحزمة ودارت المحركات ، رأيت أشخاصاً يهرعون إلينا ويصعدون إلى داخل الطائرة ، وإذا بأحدهم يقول لى هات المكتوب الذى أعطاك إياه المعصرانى ! فقلت له ومن أنتم ؟ فقال : نحن من إدارة الأمن العام ، فسألته هل معك أمر من قاضى تحقيق أو من النائب العام يخولك ذلك ؟ فقال كلا ولكننا رأيناك تحمل رسالة وكان الواجب أن ترسل بالبريد . فقلت وهل أنت مفتش بريد ؟ فقال لا . ولكن عندنا أوامر بمنع الركاب من حمل الرسائل ، فسألته أن يبرز أوراقاً تؤيد كلامه أو يطلعنى على أوراق هويته التى تؤكد أنه من رجال الأمن العام ، وهنا أشار إلى من معه فالتفت إليهم فرأيت بينهم أحد رجال الشرطة وهو فى ملابسه الرسمية ، فقلت له لن أعطيك المكتوب إلا إذا استعملت القوة ! وكان ركاب الطائرة يرون ويسمعون وهم فى دهشة ، فقال الرجل إننا لن نستعمل القوة ولكننا سنمنع الطائرة من السفر ، فقلت له امنعها . فرجع يقول اعطنى المكتوب ، فقلت له لن أعطيك شيئاً إلا إن أطلعتنى على أمر من رئيسك الأعلى ، أو تأخذه منى بالقوة ...

وطال السكوت من جانبه وجانبى ، وجاء قائد الطائرة يريد أن يحل المشكلة ، وأخذ الركاب يضجون من الشرطة ، ومنى أنا أيضاً ...

ولما رأيت هؤلاء الجواسيس لا يريدون براحاً ، قمت من مقعدى بعد أن جعلت زبانية الأمن العام يخرجون منى ونزلت من الطائرة وأنا أبرطم وأعربد ، فاندھش المودعون ومن كان هناك من أهل المطار ، فصرخت أطلب إحضار حاكم المطار المسئول فجاء ضابط ، فأخبرته بما وقع من جواسيس الأمن العام وأن يبلغه لولاة الأمور ثم أخرجت الورقة من جيبى ولوحت بها للجواسيس بعد أن فتحتها وقلت لهم أهذه هى الورقة ؟ فلما رأوها قالوا نعم ، فدفعتها إلى الضابط وقلت له إن هذه الورقة التى جنتهم لا يوجد فيها شيء ، فبعد أن تطلع عليها

تستطيع أن تعطيهم إياها « ليلوها ويشربو ميتها » ولكني آسف لهذه التصرفات التي لم أرَ مثلها من الإنكليز بفلسطين ومصر ولا من فرنسا في لبنان ، فكيف تقع لي من حكومة عربية ، وأنا لو كنت أعرف أنكم تعاملون الناس هنا على هذا النمط ما كنت أجيء لبلادكم ، ولن أعود إليها ، ثم التفت إلى صبرى بك العسلي والسيد المعصراني وطلبت منهما إبلاغ الحادث إلى العقيد الشيشكلي وإلى رئيس الوزراء ، وبعد ذلك عدت أدراجي إلى الطائرة فأدارت محركاتها وانطلقت إلى القاهرة فوصلناها في ساعتين ...

أما هذه الحادثة فقد تعمدها لأجعل منها درساً لبوليسهم ورداً على تجسسه ، وإلا فإنه كان في مقدوري تسليمهم الورقة بمجرد طلبها وكفى الله المسافرين وكفاني شر التعطيل ومغبة المشاكل ...

النشرة !

وأما الورقة الثانية التي كتبتها وسلمتها لصبرى بك فهي نشرة لتوديع الشام ، وقد أرسل نسخاً عنها إلى صحف دمشق كما رجوته أن يفعل فنشرتها في صبيحة اليوم التالي ، وهذا نصها :

« أغادر دمشق العزيزة بعد أن سعدت فيها بأيام كريمة ، شعرت في خلالها بأني مشمول برعاية لم أستغربها من شعب نبيل عظيم كان الباني الأول لمجد العرب ، وعليه المعول في إعادة ذلك المجد ، وإني أقدم بالشكر القلبي لفخامة رئيس الجمهورية العظيم ، والشعب السوري الكريم ، على اختلاف هيئاته وأوساطه وصحافته ، وكما كنت أتمنى رؤية دمشق - أم طليطة وقسيمة القاهرة وبغداد - تنعم في حالة أسعد ، واستقرار أفضل ، وعلاقات مع شقيقاتها أوثق وأمتن ، حتى لا أفارق العاصمة الأموية - بعد أن غبت عنها ستة وثلاثين عاماً - وهي مضطربة الخاطر ، قلقلة البال ، ولا سيما بعد أن أسعدني الله برؤية سورية جمهورية مستقلة لا أثر فيها للاستعمار »

إن هذا الوداع المملوء بالغمز واللمز كان لازماً لإسماع حكام سورية شيئاً عن رأي الغير فيهم وحكم الناس على عهدهم ، وقد كتب لي أحد الأصدقاء بعد ذلك يقول إن هذا البيان وقع يومها

على البعض وقع « القنبلة » كما أنه شفى نفوساً كثيرة ...

وبعد ذلك بأسابيع زار القاهرة السيد على بوظو بك وزير الزراعة السورية فتقابلنا مصادفه فلم يكتف عني ما كان للشرة الوداع عندهم من مرارة ، والحق معه ؛ لأنها أشممت فيهم الخصوم . ثم جاء القاهرة بعد ذلك السيد المعصراني فسألته عما كان لحادث بوليس الأمن العام معي في المطار بسبب ورقته ، فقال إن العقيد قد استدعاه وأظهر له الإستهياء من سوء تصرفهم وأمر بنقلهم من هناك إلى جهة أخرى وأنه كلف المعصراني بأن يخبرني بذلك « ليخف زعلي من الحكومة السورية » فقال له المعصراني لن أخبره لأنني أحب أن يزداد سوء التفاهم بينكم وبينه .

المؤتمر الصحفي

كان أهم شيء في نظري يجب أن يعمل للدكتور أمين رويحة بعد رجوعه من دمشق ، هو إذاعة الحقيقة عن قضيته ، ولذلك دعوت بعض الزعماء والمحامين والصحافيين إلى تناول الشاي بفندق شبرد ، وقصصت عليهم ما هنالك فتطوع للدفاع عن أمين نخبة كريمة من رجال المحاماة فاستقر الرأي على سفر المحامين الأستاذين أحمد كامل قطب بك رئيس حزب الفلاح الاشتراكي ومحمد طاهر الخشاب بك عضو مجلس الإرشاد للإخوان المسلمين . ونشرت الصحف تفصيل ما رويته في هذا الاجتماع عن القضية وما رأيت في الشام .

عرقلة

وإذا بمحام من أحزاب الخوارج كان في الأصل ضابط بوليس يعلن عن « تطوعه » للدفاع عن أمين رويحة بمحكمة دمشق ، مع أنه لا يعرفه ، ولا سمع به ، ولا يهيمه أمره ، ولا أمر سواه ، ولو كان التهم هو سيدنا يوسف بن يعقوب عليهما السلام ... وقد بدأ هذا المحامي دفاعه عن أمين هنا بالقاهرة ... بأن عمل بضعة أيام في التصغير من مكانة المحامين الذين تطوعوا بتضحية أعمالهما والسفر لدمشق ... فتهجم عليهما وانتقص من قيمة لجنة الدفاع التي أقوم بأمرها وأثار الشقاق ابتداء من هنا ...

ولما وصلوا جميعاً إلى دمشق إذا بالمحامي الضابط يشغل نفسه هناك بالمشاجرة معهم في نفس المحكمة ! فأضعف بذلك مركزه ومركز هيئة الدفاع كلها أمام المحكمة وأمام الرأي العام ، مع أن الغرض الأصلي من مجيئهم لدمشق هو التأثير على المحكمة وإنعاش الرأي العام .

وقد بحثت عن الحقيقة في أسباب وصول هذا المحامي الغيور الذي احترق قلبه بغتة على الدكتور أمين ففهمت كل شيء... وخلاصته بدون شرح ولا توضيح أن شخصاً يهيمه بهدلة الشيشكلي^(١) وليس إنقاذ أمين - قد جمع نقوداً من بعض السوريين بمصر، ودفعها لذلك المتطوع الكريم... الذي لم يكفه قبض الفلوس، بل راح يزعج المحامين المتطوعين من عراقيين ومصريين ولبنانيين! وقد سافر الأستاذان الخشاب وقطب إلى دمشق مرتين وحضرا المحكمة ولكن القضية لا تزال عند طبع هذه السطور مؤجلة بسبب مرض الدكتور رويحة شفاء الله وجزاها على شهادتهما كل خير. هذه خلاصة قضية أمين التي تطوع لها محامون من مصر والعراق ولبنان وهم غير المحامين السوريين طبعاً...



الدكتور أمين رويحة جالساً في المحكمة العسكرية بدمشق
وحوله فريق من المحامين المصريين واللبنانيين والعراقيين والسوريين

(١) هذا الشخص اتخذ قضية الدكتور رويحة وسيلة لإضعاف مركز عدوه الشيشكلي وليس حباً برويحة ولو كانت القضية تخص الشيطان فهو يساعده فيها على الشيشكلي...

عباس الخرسان

وبعد فإن خير ما يسجل نكتام لهذا الفصل هو الكتاب التاريخي الذي أرسله المتهم عباس الخرسان - وهو طالب حقوق عراق - إلى المحكمة العسكرية التي حكمت عليه بالإعدام في القضية التي نحن بصددتها فقد قال لرياسة المحكمة إنه يسقط حقه في « تمييز » الحكم كما يسقط كل حق في طلب العفو ، ويتقدم برجاء وحيد وهو أن يتم إعدامه رمياً بالرصاص وليس بالشنق . ثم يقول في كتابه المؤثر : إن الميتة شنعاً إنما هي ميتة المجرمين وليست ميتة الوطنيين المخلصين ، وهو لا يعتبر نفسه مجرمًا ، بل شاباً عربياً وطنياً أدى واجبه في محاربة الصهيونية والاستعمار ودفع خطر الهلال الخصيب عن استقلال سوريا .

ويقول : إنني لا أعتبر الحكم الصادر على حكما باسم الشعب السوري العربي الذي يقدر الأبطال الوطنيين حق قدرهم ، ولكنه حكم صادر عن محكمة خاضعة لسيطرة أخرى ، وتخضع هذه السيطرة نفسها لسيطرة أجنبية استعمارية تتحكم سراً في سوريا وشعبها . وسيجيء يوم ، يدرك فيه السوريون أن عباس الخرسان جدير بأن يدرج اسمه ولو في زاوية متواضعة في تاريخ المجاهدين الأحرار ، الذين أرادوا الخير لوطنهم ، وبذلوا أرواحهم ودماءهم رخيصة في سبيله ، وماتوا ميتة الشهداء الأبرار ، وبعد أن شكر عباس الخرسان رئيس المحكمة العسكرية^(١) الذي أبي عليه ضميره الحكم بالإعدام ، أعلن صفحه عن القاضيين العسكريين اللذين لا يفهمان شيئاً من القانون^(٢) بل قاما بتنفيذ الأوامر التي صدرت إليهما حتى ولو كانت تقضي بالقضاء على الأبرياء وإعدامهم ، وبإعدام الفكرة العربية المتحررة ، والقومية الناهضة المجاهدة ضد الاستعمار .

وختم عباس الخرسان كتابه قائلاً : انني أغض عيني قرير العين مطمئناً إلى أن الشعب السوري العربي سيهب في الوقت المناسب لدفع أخطار الاستعمار التي سلطت على مقدراته

(١) هو الأستاذ إسماعيل القولي بك .

(٢) لقد بلغ التخبط في تليفق هذه الدعوى أن المحقق ذكر في قرار الاتهام الذي أعطاه للصحف أن الملك ابن السعود قد أرسل إلى المتهمين تقوداً لقتل الملك عبد الله بشرق الأردن ، وهي حماقة من قاضي التحقيق بلاشك ، لأن ذلك غير صحيح إطلاقاً ، بل إنه لو صح - على استحالته - فإن الأدب الدبلوماسي والعرف الدولي كانا يقضيان بإغفال الأسماء المتوجة . بهذه العقليات الهوجاء أدير هذه الدعوى وبهذه الأساليب لفقوها .

ووضع حد للدكتاتورية والطغيان وتأدية مهمته في تحرير الشعوب العربية .. وإني إذ ألقى وجه ربي بقلب مطمئن وضمير مرتاح أنحنى خاشعاً ، وأبعث من ضفاف بردى الخافق إلى ضفاف دجلة والفرات بتحتيتي إلى شهداء العراق الخالدين في الوثبة العربية ، وإلى إخواني الذين سقطوا مضرجين بدمائهم في ساحات بغداد وبرصاص الاستعمار ، عندما هبوا لتحرير بلادهم من الطغيان ، وأعتبر كل نقطة من دمي العربي هي رصاصة في قلب الاستعمار العالمي والصهيونية . ثم أبعث بتحتيتي إلى والدته هناك شكلى ليس لها في الدنيا ولد سوى تركزت آمالها في أن تراه عن قريب محامياً ، وأطلب إليها أن تكون جديرة بحمل ثقل المصاب ، فإنني للبلاد العربية قبل أن أكون لها ، وإني أعتبر أن الحليب الذي أرضعتني إياه أقوى من الاستعمار ورصاصه وأشرف من ماء وجوه خدام الاستعمار ومنفذى مؤامراته على الشعب السوري العربي والشعوب العربية . وأقول لها أخيراً : كوني نخورة ، فلقد مات عباس ميتة شريفة تليق به ، وما كان يتهنى ميتة أشرف منها في سبيل غاية أشرف من الغاية التي مات من أجلها . ووصيتي الأخيرة إلى جميع شباب العرب أن يتعلموا كيف يجاهدون ضد الصهيونية والاستعمار وكيف يجودون بأرواحهم ويبدلون دماءهم في سبيل الحرية والاستقلال .

ملحق ...

وفيما كنت أطبع هذه الصفحات حصلت مساومات بين حسين توفيق وبين الحكام الذين يهمهم التخلص من الدكتور أمين رويحة ، على أن ينقلب حسين مرة أخرى ويشهد بأن رويحة هو الذي حرضه على قتل العقيد الشيشكلي . بعد أن كتب قبل ذلك لأمين رويحة كتاباً يعتذر فيه عن شهادته السابقة ويقول له إنها أملت عليه تحت الضرب والعذاب وقد وقف حسين توفيق في المحكمة وأيد ذلك الكتاب وسرد عليها كيف عذبه وأرغموه على الاعتراف على نفسه وعلى رويحة .. فالآن وبعد أن يؤس حسين توفيق من النجاة وأصبح لايهمه إلا إنقاذ رقبته ، رضى من الدنيا بالسجن المؤبد ، وبعده العفو يوماً ما ... في مقابل الشهادة على رويحة ! وقد حدث هذا الانقلاب على أثر ذهاب والد حسين توفيق - أي توفيق باشا أحمد - إلى دمشق لزيارة ابنه ، ففهم الناس أن الاتفاق قد تم بين الباشا وبين حكام سورية على أن يشهد ابنه على الدكتور أمين لينجو الابن من المشنقة ...

حالة الجامعة العربية

الجامعة العربية وهل أفادت العرب؟

بعد مضي العام الأول على قيام الجامعة ، وعند ما كان العالم العربي لا يزال مأخوذاً بها ، تنبّهت إلى حالها وتصرفات أمينها العام وما ينتظر لها من سوء المنقلب وتوقعت ضياع فلسطين على يدها . فبادرت وكتبت ما لاحظته في جريدة مصر الفتاة بالقاهرة ، وأرسلته إلى جرائد فلسطين قبل أن تضيع ، وإلى جريدة السجل في العراق ، وإلى جريدة اليوم في بيروت ، وإلى جريدة الاستقلال في الأرجنتين ، وإلى جريدة العرب في باريس ، فنشرته هذه الجرائد جميعاً ، لأنّبه العالم العربي إلى حقيقة الجامعة ، وأنها وأمينها عزام باشا لا يصلحان لشيء ، وقد حذرت الأمة العربية من الركون إلى الجامعة حتى لا تضيع فلسطين من أيدينا ، وقد تحملت من الناس لوماً شديداً على تشاؤمي وسرعة سوء ظني ، فقلت لهم إنني قاعد بجوار الجامعة ومطلع على ما تصنع ، ولذلك حذرت وأنذرت وأنا أدعو الله أن يخيب ظني ويحسن تفسير حلمي .

وأما الإنذار الأول عن الجامعة والتحذير منها وهي وليدة بنت عام أي في أوائل سنة ١٩٤٦ فهاهو ، وقد كان ردّاً مني على أسئلة وجهها إلى قوم يعيشون في أفطار أخرى . وهي : كيف حال الجامعة وهل أفادت العرب ؟ وهذا هو الجواب :

«فهو سؤال صعب وموضوع شائك ، فهما قلت أو كتبت سواء أكان مع الجامعة أم عليها ، فلا بد من أن يغضب أناس ويرضى آخرون . ولكن لا بد من الكلام لوضع الأمور في نصابها فأما الرضى فلا شك بأنه سيأتي من الرأي العام ، وأما الغضب فمن بضعة أصدقاء أعزاء وأفراد ينتفعون من مرتبات الجامعة أو من الجاه الذي أضفته عليهم بلا استحقاق ...

وهذا السؤال ليس بالأول من نوعه مما وجه إليّ عن حقيقة جامعة الدول العربية فقد سألني كثيرون من جهات شتى ، وآخرهم السيد إبراهيم بك عطار باشي نائب الموصل والسيد صالح بك كنج أبو صالح من فضلاء الجالية العربية في بونس إيرس عاصمة الأرجنتين ، فأجبت خيراً بطبيعة الحال ..

ظنون صححت

منذ ثلاث سنوات وفي مثل هذه الأيام «سنة ١٩٤٣» كانت الاستشارات تدور بين صاحب المقام

الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر وبين الشخصيات الرسمية في العالم العربي حول إنشاء جامعة الدول العربية . فاجتمعت بشخصية مصرية رسمية محترمة كان صاحبها يقوم بدور هام في هذه المذاكرات وكان النحاس باشا يعتمد على تلك الشخصية التي كنا نثق بها أيضاً^(١) . فقلت له : هل أخذ النحاس باشا عهداً من الإنكليز بأن لا يتنكروا بعد الحرب لجامعة الدول العربية التي تقومون بالمشاورات من أجلها ؟ فقال ولماذا يتنكرون لها وقد ارتبط وزيرهم إيدن بتصريحه المشهور ؟

فقلت إن الإنكليز لهم سابقة في خداع العالم العربي لما كانوا في حالة هزيمة في الحرب العظمى الأولى ، وهام الآن في حالة سيئة في الحرب العظمى الثانية ، وقد أخذت الأمم العربية وخصوصاً مصر تتململ من أحوالها ، فالإنكليز يخشون من حركة تشعل فار الحركات الاستقلالية في الشرق الأوسط فأرادوا إخمادها وهي تحت الرماد ، فأعلنوا بلسان المستر إيدن وزير خارجيتهم بأنهم لا يمانعون في إجماع الدول العربية على شيء يؤمن مستقبلها ، ولكنني أخشى أن تشغل حركة إنشاء الجامعة فكر العالم العربي عن قضاياها وتخمد الجذوة ، فإذا انتصر الإنكليز فلا أسهل عليهم من التنكر لمصر وللعرب ، كما صنعوا مع المرحوم الملك حسين بن علي ، فلا أجب لمصطفى النحاس باشا أن يقع فيما وقع فيه ذلك الملك الشهيد ، فلو أخذتم من الإنكليز ورقة تؤيد كلام إيدن للتلويح بها في المستقبل لكان خيراً لنا .

فقال صلاح الدين بك : إن النحاس باشا أمسك بكلامهم الذي أرادوه خيالا فيريد أن يجعله حقيقة . فقلت إنهم أعطوا الملك حسين معاهدة ثم أنكروها ، فمن السهل أن يقول إيدن إنني أبدت أمنية شفهية لإحدى الصحف ولكن بصفتي الشخصية ، ثم تأتي وزارة بريطانية أخرى فتقول : ذاك إيدن الذي قال وليست أنجلترا فالحقوه وطالبوه ! ولكن نلحق من ؟! ونطالب من ؟ وهو قد أصبح رجلاً عادياً؟؟ ولذلك نرجو أن لا ينخدع النحاس باشا ذلك الرجل الأمين الذي يثق به الجميع ، وبعد ذلك تكون النتيجة كنتيجة الحرب العظمى السابقة فإن أفلتت الفرصة منا هذه المرة أيضاً بدون أن نقلت من الإنكليز بقينا تحت كل كلهم عشرات الأعوام .

(١) هو الدكتور محمد صلاح الدين بك وزير الخارجية المصرية اليوم سنة ١٩٥١ .

فقال : إن النحاس باشا إن نجح وأصبحت جامعة الدول العربية أمراً واقعاً فهذه الجامعة مهما تكن ضعيفة في أول أمرها فلا بد من أن تقوى مع الزمن وتستطيع أن تثبت وجودها وتقف في وجه الإنكليز .

بروتوكول الإسكندرية

واجتمع ممثلو العالم العربي رسمياً ووقعوا ذلك الاتفاق التاريخي الذي أطلق عليه اسم « بروتوكول الإسكندرية » ولكن وزارة النحاس باشا أقيمت غداة توقيعه وجاءت وزارة أخرى تنكرت له ووضعت بدلا منه « ميثاق الجامعة » فقلت لشخصية صديقة من واضعي الميثاق : لماذا انمسخت جامعة الدول العربية في « الميثاق » بعد أن كانت أقوى في « البروتوكول » وأين فلسطين في ميثاقكم ؟

فقال : هكذا أراد « الخواجات » وهو يقصد الإنكليز ...

ولا تسألني عن صاحب هذا الكلام فهو سياسي محبوب عندي وله ماض طيب^(١) .

إن تدخل الإنكليز في أمر الجامعة ووصول تأثيرهم - على الوزارة التي خلفت وزارة النحاس باشا - إلى مسح البروتوكول وإسقاط فلسطين من عداد الدول العربية كان أمراً لافتاً للأنظار ، كما لفتها وجعلها تتأمل ملياً وتفكر كثيراً يوم نشرت الصحف أن مستشار السفارة البريطانية زار وزراء الخارجية للدول العربية قبيل انعقاد مؤتمرهم منذ أيام وأن المستشار البريطاني زارهم واحداً واحداً وعلى انفراد .. فلماذا تلك الزيارة ، وما دخله لينفرد بهم واحداً بعد واحد ؟

تهديد

لقد عرف الناس أن زيارة المستشار البريطاني لوزراء الخارجية العربية على تلك الصورة إنما كانت لتهديد الجامعة ، بأن يلمح مثلاً للعراق بوجود الجيش البريطاني في البصرة ... ويشير لسورية بأن بقايا الجيش الفرنسي لا تزال في لبنان . وإلى مصر بأنها لا تزال في أول المفاوضات .. الخ

(١) هو عبد الرحمن عزام باشا على أثر تعيينه بمنصب الأمين العام .

ولا أدري ماذا قال للسعوديين ولا ماذا قال لليمانيين . . هذا وقد اجتمع المؤتمر تحت تأثير ذلك التهديد وانفض على لا شيء تقريباً . . .

أراضى فلسطين

ولعل أبرز ما نؤاخذ عليه جامعة الدول العربية أنها هيئة قوالة أكثر منها فعالة ، وقد أدى الكلام الكثير من الجامعة إلى الأضرار بقضية فلسطين وخصوصاً في مسألة الأرض فإنها هيجت يهود الدنيا كلها على عروبة فلسطين فقد صدق اليهود أن جامعة الدول العربية ستنتقد الأرض فبادر اليهود إلى الاستيلاء على الأراضي بأساليب شتى ، بل أن حكومة فلسطين البريطانية صدقت ذلك فصارت تهب الأرض لليهود بمساحات واسعة تارة باسم توسيع مناطق البلديات اليهودية وتارة بتوفير الأرض لليهود المسرحين من الجيش .

وهذا غير المساحات الشاسعة التي اشتراها يهود العالم ، لأن يهود فلسطين وقفوا جميع مشروعاتهم الأخرى وخصصوا جميع جهودهم لتملك الأرض قبل أن تفوت الفرصة وتنقذ جامعة الدول العربية الأراضي المهددة . . . فكانت النتيجة أن اليهود استولوا على الكثير بدون أن تنقذ جامعة الدول العربية شيئاً بل اقتصرت جهودها على درس المقترحات ووضع الخطط على الورق والكلام ، وأما الأرض فقد أخذ اليهود منها قسماً كبيراً وصار لسان حالنا كحال ذلك البدوي الذي صاح : « أوسعهم ذماً وراحوا بالإبل ! »

إن إنقاذ الأراضي الفلسطينية من أسهل المشاريع ، فصندوق الأمة العربي لإنقاذ الأرض موجود هو وفروعه وتشكيلاته ومجلس إدارته ، فلو أن الجامعة أخذت مليون جنيه من الحكومات العربية فوراً وأمدت به صندوق الأمة بصفة قرض مستعجل لما ضاع شبر من الأرض التي ضاعت بسرعة بسبب كثرة كلام الجامعة ، حتى إن الأسعار هبطت أخيراً لأن اليهود خففوا من حدة هجومهم على مشترى الأرض بعد أن أيقنوا أن الجامعة لم تكن جادة في مشروعها . . .

عجز الجامعة

نعم وقد ظهر عجز الجامعة في مسائل أخرى . مثال ذلك مقاطعة البضائع الصهيونية ،

فالجامعة عقدت اللجان ووضعت القرارات ولكنها لم تنجح في تنفيذ شيء منها، لأن وزارة المالية لا تزال تمنع تصدير البضائع إلى العرب ولا تزال بضائع اليهود تباع في مصر. ولا يزال العرب يلقون الموانع في دخولهم مصر بينما تجار يهود فلسطين يملأون أنحاء القاهرة! فكيف يمنع العرب ويسمح لليهود؟ ثم ظهر عجز الجامعة في مسألة الجوازات والجنسية والقومية المشتركة، لأن وزارة الداخلية لم تبال بشيء مما تراه الجامعة ولا تقبل لها وساطة ولا ترك سطوراً من إنجيلها القديم وخططها الاستعمارية التي رسمها لها الانجليز نحو البلاد العربية منذ القرن التاسع عشر. أو منذ الاحتلال البريطاني، وإن قال قائل ما ذا يصنع عزام باشا الأمين العام للجامعة ما دامت دوائر الحكومة لا تقبل رأيها وترفض وساطتها ولا قيمة عندها لوجهاتها حتى أصبحت لا تحمي ولا تصول. والجواب على ذلك أن عزام باشا يستطيع أن يذهب إلى رئيس الوزراء ويقول له: إن جامعة الدول العربية التي مركزها مصر زعيمة هذه الدول، إذا لم تنفذ كلمتها في نفس مصر فكيف تعلو كلمتها أمام الدول الأجنبية؟ فإن لم يستجب رئيس الوزراء لهذا الرأي ولم يأمر وزارة المالية بإقامة الوزن اللازم لرأي الجامعة إن كان صواباً، ولم يأمر وزارة الداخلية بقبول وساطتها والاسترشاد برأيها أحياناً، فإن الأمين العام للجامعة يستطيع أن يذهب إلى مولانا الملك المعظم ويقص على مسامعه العالية نبأ تصلب الحكومة مع الأمانة العامة ويقول لجلالته «إن الوزارة لم تفهم بعد أن هذه الجامعة هي غرسكم ومن جملة أعمالكم العظيمة وأنها مشمولة برضاكم ورعايتكم ولكن مادام رأي «موظفي الدواوين» في المالية هو النافذ وما دام أمر الداخلية البوليسى لا مرد له فإنى أستقيل.»

حالة أمانة الجامعة

لم أدخل مركز جامعة الدول العربية في مصر إلا مرة واحدة ندمت عليها؛ لأننى كنت أتصورها شيئاً فوجدتها شيئاً آخر... دخلتها بمصاحبة جميل مردم بك وزير سورية المفوض بمصر لزيارة عزام باشا لنحمله على إسعاف العرب المشردين في أوروبا، وها أنا أكتب هذه السطور بعد ذلك بخمسة أشهر دون أن تعمل الجامعة لهؤلاء الناس شيئاً برغم كثرة الاستغاثات التي توالت عليها منهم ومن أهلهم ومن صحف العالم العربى كله.

وقد تيقنت بالاختبار أنه لا تقضى حاجة في مركز الأمانة العامة ، ولا تقض مشكلة ولا بيت في أمر ، لأنه لا يوجد في الأمانة العامة سوى عزام باشا وجمهور من الكتبة والموظفين والحجاب والفراشين ، ولكن لا يوجد شخصية تنوب عن عزام باشا إن غاب أو مرض أو اشتغل بمقابلة صحفية . . . فلا يوجد وكيل للأمين العام ولا مساعد ولا سكرتير عام للأمانة . . الخ

وأقصد من ذلك أنه ليس في الجامعة شخصية ثانية تلي عزام باشا لمتابعة الأعمال وتوجيه الأمور وإدارة الحركة ، ولذلك أصبحت الأمانة العامة عبارة عن عزام باشا وحده ، فلا هو قادر على العمل لكثرت وضعف صحته وميله إلى إنعام النظر الطويل في أبسط الأمور والاستهانة بعظيمها ، ولا هو يستعين بأهل الكفايات من رجال الدولة أو رجال الدول العربية ليساعده ، بل انه اكتفى بما حشد من مستخدمين وموظفين لا يستطيعون توقيع ورقة أو توجيه رسالة أو إبداء رأى أو البت في مسألة أو فض مشكلة !

الرأى فى الجامعة

لما دفعت هذه الأسطر للجريدة سألتى محررها الفاضل عن رأى الصريح فى جامعة الدول العربية فى حالتها الحاضرة ، فقلت له إنك تجده فى مجموع هذا المقال ، ولكن ذلك لم يعجبه لأنه يريد جملة واحدة هى : (هل الأفضل أن تكون هذه الجامعة أو لا تكون ؟) .

والجواب : « إن الجامعة يجب أن تكون ، وأن تبقى ، وأن تؤيدها ، ونعضدها بكل الوسائل ، بعد أن تمنيناهها ، ونشدناها طول عمرنا ، وطالما حلمنا بها ، وتخيلناها منذ طفولتنا ، فيجب أن نشد أزرها ، ونقف معها ، إلى أن تصبح حقيقة إن شاء الله » اه .

إن هذا الوصف لحالة الجامعة العربية قبل خمس سنين هو أول صوت ارتفع علناً وعلى صفحات الجرائد ، وقد لاحظ القارئ أنه مقال ناعم هادئ لا أثر فيه للحدة . لأنى كنت لا أزال أحسن الظن بأمانة عزام باشا ، وأتوقع الخير من الجامعة .

ولكن الحالة بدأت تسوء يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر ، وصرنا نشهد قرب ضياع فلسطين ، فأخذت أوالى الكتابة والتحذير بلهجة أشد وأسلوب أوجع ، إلى أن بلغت الحدة

فما أكتبه هذا المقال الذى سيجىء وهو فى أوائل مايو سنة ١٩٤٨ أى قبل سقوط فلسطين
الهلع من الإنكليز ...

فى ٣ مايو ١٩٤٨ وقبل ضياع فلسطين بعشرة أيام أعطيت للصحف المقال الآتى وجعلت
عنوانه مؤلماً موجعاً وهو «ان الهلع من الإنكليز يوجب على جماعة جامعة الدول العربية أن يستقيلوا
فوراً أو يغربلوا جيداً» وهو :

أرجو أن يسمح لى حضرة صاحب السعادة عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام لجامعة
الدول العربية بكلمة أقولها له وأنت يساعنى على توجيهها إليه على صفحات الجرائد ، لأنى
تيقنت بالاختبار أنه لا يصغى إلا لمن كانوا من « أصحاب الدولة والمعالى والسعادة » وأنه يعمل
بقولهم ولو خالف رأيهم كل منطق وكل صواب ، ولـكون عزام باشا أصبح لا يبالى بآراء
إخوانه المجاهدين القدماء الذين ظلوا عاطلين عن المناصب والألقاب ... خفت أن يذهب كلامى
فى الهواء وأن يكون مصيره الإهمال كسائر المحادثات التى تجرى بينه وبين إخوانه ، كما أنه اعتاد
أن لا يقرأ المذكرات التى ترسل إليه من غير « الباشوات » ...

لذلك جعلت الصحف واسطة بينى وبينه لتبليغه رأى غير الرسميين ، حتى إذا أهمله كان
الرأى العام خير شهيد على أننى أدت الأمانة وبلغت الرسالة ، لأن العقل والصواب وتقدير
المصلحة العامة ليست وفقاً على أصحاب الألقاب والرسميين :

الخواجات

فيا سيدى صاحب السعادة .

لقد سألتك منذ ثلاث سنين لماذا مسختم « بروتوكول الإسكندرية » الذى قامت جامعة
الدول العربية على أحكامه واستمدت قوتها من قوة فقلت لى إن « الخواجات » - أى الإنكليز -
هم الذين أرادوا ذلك .. فكيف قبلتم تدخل الخواجات وكيف يجوز لكم أن تضللوا الأمة
العربية بكمائن تدخل الإنكليز وقبولكم هذا التدخل ، ولماذا لم تصمدوا فى وجوههم وتوقفوهم عند
حدهم كما صمد لهم النحاس باشا وجماعته وهم أصحاب البروتوكول الذين أصدروه برغم أنوف الخواجات !

ياسيد عزام باشا . لقد قرأت في الجرائد شكواك من الذين يذيعون أسرار الجامعة وقولك « إن بعض الصحف في مصر يقوم - دون أن يدري - بدور أعظم جاسوس عالمي بالنسبة لأعداء مصر والبلاد العربية وأن الأخبار التي تنشر في هذه الصحف يتلقفها الأعداء ليتعرفوا منها كل ما يريدون ، فإذا سقنا فصيلة من المتطوعين أو أرسلنا شحنة من الأسلحة أو تناقشنا في موضوع دقيق ، فإن ذلك سرعان ما ينشر وسرعان ما ينتج عن النشر كثير من المآسى والفواجع وتمزيق للخطط وهدم للوسائل... »

فأنا أسألك ، كيف أمكن لابن الشارع الوصول إلى الأسرار لولا سوء الاختيار في تأليف مركز الأمانة العامة الذي حشدتم فيه العاطلين من كل جنس وصنف .

لقد قلت لك منذ ثلاث سنين إن مركز أمانة الجامعة يحتاج إلى غريبة وإلى شخصيات أمينة محترمة تعمل معك وأن تختارهم من أفذاذ رجال الدولة ، وقلت لك إن بعض الذين يعملون معك يجب إبعادهم عن الجامعة ، لأن من عملوا مع الإنكليز في أيام الحرب الماضية واشتغلوا لحساب الإنكليز في مراقبة رسائل البريد مثلاً ، وفي التجسس على الناس لحساب « قلم النشر » في السفارة البريطانية ، والبوليس السياسي الخ لا يجوز أن يدخلوا باب أمانة الجامعة فضلاً عن الاستعانة بهم في أعمالها وتمكينهم من القبض على خناقتها ! فهل غيرت شيئاً أو نظفت الأمانة من المشبوهين والذين لهم ماض ، ومنهم من يذيعون ويبيعون أسرار الجامعة وقت الآن تشكو منهم وتشهر بفعلتهم ...

عزيز باشا وصالح باشا

ياسيد عزام ، ألم أقل لك خذ فلانا وفلانا حتى إذا تغيبت أو انشغلت أو مرضت - قاموا في غيابك بإدارة الشئون وتصريف الأمور ، فقلت لي إن الحكومة هي التي جاءت إليك بالذي عندك ، في حين أن الواقع يؤكّد أنك أنت الذي شكلت أمانة الجامعة منهم ، وليس فيهم واحد من الذين شاركوا في وضع أساس الجامعة التي ولدت بصدور « بروتوكول الاسكندرية » .

لماذا جاهدت في إبعاد عزيز المصري باشا وصالح حرب باشا عن جامعة الدول العربية ،

فلم تستشرهما في شيء ولا مكنت مجلس الجامعة من الاستعانة برأيهما في الأمور العسكرية ؟ لماذا لم تستعن بأمثال الدكتور محمد صلاح الدين بك وكيل وزارة الخارجية الأسبق الذي كان أحد مؤسسي الجامعة وكان سكرتيراً عاماً لها قبلك ؟ وإن قلت إنه لا يقبل أقول هل كلفتموه فرفض ؟ وهل كلفتم أمثال كامل عبدالرحيم بك وكيل الخارجية السابق فرفض ؟ وهل كلفتم محمد شافعي بك اللبان فرفض وهل كلفتم أحمد زكي بك سعد أو عوض البجراوى بك أو سيد بك الديوانى فرفضوا ! .. كلا !

لقد قلت لى مرة انه يحق للدول العربية أن تعين مساعدين للأمن العام من عندها ثم عتبت عليها لأنها لم تفعل ! فقلت لك إن هذا يعطيك الحرية في إدارة الأمانة العامة فتعين من تريده أنت من مصر ، ولكنك لم تفعل ، واكتفيت ببعض العجزة من الذين لا يحسنون التصرف في مسألة ، أو إمضاء ورقة ، أو توجيه قضية ، فهل صحيح أنك تعتمد ذلك لتحصر الجامعة كلها في شخصك لأنك تخشى أن يظهر في هذه الأمة فذ مثلك فيحجبك ! ولذلك جعلت جهاز الأمانة العامة مؤلفاً من أشخاص ليسوا في الدنيا ، ومنهم الذين سربوا من الجامعة تلك الوثائق السرية وباعوها للسفارات الأجنبية ...

خوفكم من الإنكليز

ياسيد عزام باشا : ماذا صنعتكم لفلسطين ؟ أنا لا أتهمك أنت والجامعة بأن لديكم قوة عظيمة فخبستموها عن فلسطين أو بخلتم بها لإيقادها ، ولكني أتهمكم بأنكم بالغتم في الخوف من الإنكليز ، وأسرفتم في إيهاام الناس عما لديكم من قوة لا وجود لها ، وأوهتم فلسطين بقدرتكم وقرب الفرج والإيقاد وتحرك الجيوش للبطش باليهود فصدقتم واعتمدت عليكم ، ثم اتضح عندما جد الجد أنكم أسرفتم في الكلام ، وغررتم بفلسطين وأهلها ، وهامم اليوم يذبحون ذبح النعاج ، وتنهب أموالهم ، وتسقط مدنهم في أيدي وحوش اليهود بعد أن دمروا القرى ودكوا العمران ، وهامم اليهود يزيلون العرب من أرضهم ووطنهم . ويشردونهم في آفاق الأرض ، فلو أنكم كاشفتم الناس بحقيقة حال الجامعة وأنها لا تكاد تحمي نفسها ، وأن الواجب على الفلسطينيين أن يدبروا أمرهم ، لدبروا أمرهم . وأما الآن فإنني أستمطر رحمة الله على أهالي حيفا ويافا ومن

سبقهم من الشهداء ومن يستشهد بعدهم من الأبرياء، جزاء تصديقهم وعودك وجزاء اعتمادهم على جامعتك هذه التي قضت ثلاث سنين وهي تجتمع وتنفض ، وتقرر ثم تطوى قراراتها ، بينما كان العدو يعمل وعرب فلسطين ينتظرونكم حتى وقعت الواقعة ونزلت الكارثة ، وفي سبيل الله تلك الأرواح البريئة ، والله المستعان على ما تصفون .

الخطب والحفلات !

لقد قرأت في الصحف يا عزام باشا أن جامعتك العربية قد خصصت خمسين ألف جنيه لإطعام اللاجئين والهاربين إلى مصر . فإذا يجدى هذا الدواء الدليل بعد ذبح أهالي حيفا وضياح مدينتهم وهكذا قل عن مدينة يافا وبيسان وطبرية وبعدها القدس ..

فلو أصغيتم إلى الناصحين ، أو أجبتهم الصارخين قبل فوات الأوان لكان مبلغ إغاثة أو إغاثة المنكوبين الذي خصص الآن كافيا لمنع وقوع المذابح وضياح البلاد كلها . ماذا كنتم تصنعون في الثلاث سنين الماضية التي كنتم في خلالها تجتمعون وتخطبون وتقيمون الحفلات وتباهون بالألقاب التي تحملونها ، والصور التي كنتم تظهرون فيها وتنشرونها في الجرائد ؟ !
أيها القائمون بأمور الجامعة : استقيلو أو غيروا أساليبكم وغربلوا أنفسكم « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم . »

تصوير حالة راهنة

إن ما تقدم سرده عن الجامعة إنما هو حالها من سنة ١٩٤٥ إلى ١٩٤٨ وأما كيف هي الآن سنة ١٩٥١ فما هو : لقد أصبحت جامعة الدول العربية بعد قيامها بست سنين أضعف مما كانت يوم مولدها ، فقد كانت عند قيامها تخيف الأجانب وتقلقهم ، وتطمئن العالم العربي وتدخل الأمل على نفسه ، وأما الآن فهي بسبب قلقه ومبعث اطمئنان الأعداء بعد أن ثبت أنها لا تحمي ولا تصول على أرنب !

أما وقد اختلف الباحثون في أسباب ضعفها وإخفاقها ، فلا بأس من أن أذكر الأسباب التي توصلت إليها باجتهادى الشخصى فأقول :

إن جامعة الدول العربية التي قامت ، هي غير الجامعة التي كنا نتخيلها . فالتى نراها الآن نجدها مؤلفة من حكومات بعضها تحت الحماية الأجنبية ، وبعضها محتل ، وبعضها مفزع هلعاً من الدول الأخرى - كأنه يوجد فى مخ كل واحدة منها جنديا انكليزيا - أو يهوديا - يحمل مدفعا ويصوبه إلى موضع العصب من عقلها ...

والأمانة العامة التى تدير الجامعة قد لفقوها من موظفين صفار، ومن محاسيب حكام، ومن أقارب وزراء الحكومات العربية وأقارب أمين الجامعة العام عزام باشا ، وليس فيهم من له سابقة وطنية ، أو جهاد قوى معروف ، أو غير معروف... فأشخاص هذه المجموعة الملفقة المتناقضة الذين يؤلفون هيئة الأمانة العامة لا يدرون ماذا يصنعون ، ولا ماهى مهامهم ، ولا ماهى واجباتهم ، فهم يشغلون فيها المناصب ويقبضون الرواتب بدون أن يعرفوا لأنفسهم هدفاً يرمون إليه ، فإن دخلها مستطلع أو فاحص وتجول فى دوائرها فإنه يجد غرفاً واسعة فخمة ، ومناضد أنيقة ضخمة ، وأثاثاً ثميناً وحجائباً وحرساً وخداماً ورجالاً يشربون القهوة ويطالعون الصحف ويلبسون الملابس الجديدة ويروحون ويحيئون بين الغرف باهتمام! وسياراتهم تنتظرهم بالباب... فإن تناولت أحدهم وسألته: ماذا تصنع؟ فإنه يصاب بالكم والحرس ويسكت، دون أن يحير جواباً...

موكب الأمين العام

وأما عزام باشا فهو يعتبر الجامعة العربية « رزقاً » ساقه الله إليه ليغتنى منها ويعيش مرفهاً من أموالها ، ويشبع رغبته من الشهرة التى دفع أهل فلسطين ثمنها . وهو ضياع وطنهم وتشريدهم ، وعزام باشا يعرف حقيقة ما يصنع وعواقب تصريحاته وبياناته التى كانت توهم أهل فلسطين أن فى الجامعة رجالاً وأبطالاً وأن عندها زحواً... ولذلك فهو لا ينتقل من مكان إلى مكان إلا فى « موكب مسلح » فإن سيارة مسلحة تركض خلف سيارته الفخمة الضخمة وفيها أشخاص يحملون السلاح... ولكن مم يخاف عزام باشا ليحرس نفسه على هذه الصورة، فهل يخاف من الفلسطينيين الذين يتهمونه بضياع وطنهم؟ أم أنه يصنع هذا الموكب حباً بالوجاهة والتظاهر أمام العامة بأنه أكبر من رئيس الوزراء؟ .

ومرتب عزام باشا يبلغ ٥٠٠ جنيه فى الشهر، أى أكثر من مرتب رئيس الولايات المتحدة!

والهدايا تنصب عليه من كل مكان ، ولذلك فالناس يعذرونه وهم يرونه يستमित في سبيل البقاء في هذا المنصب الذي دفعت الحكومات العربية ثمناً له أمة فلسطين كلها ، فقد جدحت هذه الدول من سوق غيرها ...

وسأورد بعض وسائل عزام في سبيل الخلود على كرسى الجامعة ، والحق معه ، لأن مرتبات هذا المنصب وأبهته ووجاهته لما يغرى الإنسان على الاستقتال في سبيل الوصول إليه ، لأنه يجن العلاء ... ويكفى أنه يفوق أبهة رؤساء الوزارات في الدول الكبرى الغنية !

الفلسطينيون المشردون والجامعة

ويذهب المحتاجون من أهل فلسطين إلى الجامعة العربية لمقابلة عزام باشا وفيهم المجاهد المصاب وفيهم التلميذ الفقير . وفيهم الأرملة التي فقد أهلها - لطالبة عزام بمساعدة مادية أو أدبية أو معنوية فيمتنع عن مقابلتهم ، وإن وقف هؤلاء في حوش الجامعة يتظلمون استدعى لهم عزام البوليس السياسى الذى رأسه صديقه الحميم ، أى صاحبنا الميرالاي محمد بك يوسف فيقبض ويحبس ويهدد ويطارد ... لأن محمد يوسف قد تخصص في مطاردة أبناء البلاد العربية من أيام الانجليز ، فصار عزام وجامعته العربية يسلطونه عليهم الآن ! وأما صداقة عزام لمحمد يوسف تلميذ الانجليز فأسبابها معروفة ، ومنها على الأقل أن عزام باشا لا يعتبر في نظر الانجليز أنه من أعداء الانجليز ...

الحاكم العام

ويلقب بعض الناس عزام باشا « بالحاكم العام » لأنه يعد نفسه المتصرف في الجامعة والوارث لها ... وقد خطر للدكتور صلاح الدين بك وزير الخارجية أن يجعل الأمانة العامة في العام الماضى تتخفف منه ، ليخلص العالم العربى من عزام ، ولكن عزام ألهمهم أحس بذلك فانطلق إلى الحكومات العربية يستجدى وساطتها لدى الحكومة المصرية لتبقى عليه ، واندفعت الوساطات نحو النحاس باشا وصلاح الدين بك للإبقاء عليه ولو لسنة واحدة ، فحجل النحاس باشا واستحى صلاح الدين بك ققبلا تمديد مدته سنة واحدة فقط ... وبعد ذلك قدمت مصر

أحمد بك الشقيرى لمنصب « الأمين العام المساعد » فوافقتها الدول العربية وكان قصداً للحكومة المصرية من تعيين الشقيرى أن يصلح حال الجامعة ويمنع عزام باشا من العبث بها ، ولكن عزام باشا لم يمكن الشقيرى من ممارسة مهمته ، لأنه أوجس منه خيفة حتى لا يحجبه ويقضى عليه ، فصار عزام يعرقل كل إصلاح يقترحه الأمين المساعد ، فالمسألة الفلانية يجب أن تؤجل بحجة عدم وجود مال . . والنقطة الفلانية يجب أن تدرس جيداً بواسطة لجنة تؤلف من فلان وفلان ، ثم يعين لها عزام أشخاصاً لا يدرون عن الموضوع المقترح شيئاً . . والحكاية الفلانية يجب إعادة النظر فيها لأنها تكدر الحكومة العراقية . . . والموظف الفلانى يحسن تركه الآن حتى لا يثور الوزير الأردنى . . . والموظف الترتانى النصاب ترى الجامعة من الحكمة الإبقاء عليه إكراماً للوزير السورى السابق لأنه قريبه - وكونه أعطى صوته يوماً ما لمصلحة عزام . . والموظف الفلانى لا بد من أن يبقى لأن رئيس الحكومة اللبنانية قريبه . . الخ وأما أقارب عزام الذين حشدهم وحشد الأمانة العامة بهم فيجب أن يخلدوا فى التكية العامة إلى أبد الآبدين ...

ولم يخل الأمر فى خلال ذلك من تحريك الصحف المأجورة لعزام بانتقاص الشقيرى وغمره ولزّه . .

مصاريف عزام فى أميركا

وحدثنى موظف فى الجامعة أن عزام باشا لما سافر أخيراً إلى أميركا بلغت نفقاته وحاشيته فيها نحو ١٥ ألف جنيه مصرى ، وأما الحاشية فهى مؤلفة من ابن أخته وابن أخيه وزوجة ابن الأخ التى هى بنت عزام ، فكانت هذه الجامعة ما خلقها الله إذاً إلا لتكون وسيلة نزهة ومزرعة لعزام يجنى منها هو وأهله أسباب الثراء والرفاه بعد فقر وخصاصة ، وهو يملك الآن داراً للمصيف بضواحي الاسكندرية ، ومزرعة فى جهات الفيوم - وهى غير المزرعة الملقبة بالجامعة العربية . . .

ولا يدرى أحد هل ينسحب قانون « من أين لك هذا » على الماضى أم أنه سيتناول ما بعده فقط . . . لأن القانون المذكور لم يصدر بعد ، مع شديد الأسف ! بل إنه لو صدر فما أظنه يتناول عزام بسوء ...

التجديد الثانى لعزام

إني أكتب هذه الأسطر في شهر إبريل ١٩٥١ وعزام باشا يندل نفس المساعي التي سعاها في العام الماضي ليظل في منصب الأمين العام بأى ثمن ... أما الثمن فهو إراقة ماء الوجه لدى كل من يستطيع التأثير على النحاس باشا من رجال الدول العربية الذين يستفيدون من بقاء عزام في الجامعة ... فبعض هذه الحكومات يههما « تمشية » المسألة الفلانية وغيرها تريد النكول عن التعهد الفلاني وأخرى تريد التستر على التصرف الفلاني ، وليس لهذه الأمور أسطر من عزام ... فأنت ترى أيها العربي أن المسألة هي « احملى لأهلك » وكل هذا وذاك تدفع الأمة العربية ثمنه من كرامتها وحقوقها ، ومن دهن أهل فلسطين الذين كانوا كبش الفداء من الأول للآخر ...

ولما زحف الوسطاء على النحاس باشا وتوالت وفودهم ذهب عزام بعد هذا التمهيد إلى النحاس باشا وصالح الدين وتواقع عليهما طالبا الإبقاء عليه قائلا « أنتم عاوزين تموتوني وتشمتموا الناس بي وأنا في آخر عمرى » ... والجواب على ذلك : كلا .. فالأمة العربية كلها لا تساوى تكدير خاطرك ياسيد عزام ...

أما النحاس باشا وصالح الدين بك فقد بلغنى أنهما خجلا من كثرة الإلحاف وهذه اللجاجة وأنهما على وشك السماح بتمديد مدته مع الأسف الشديد .

الرواية التمثيلية

وعزام لم يكفه أنه على وشك أن يظفر بهذا التمديد بل إنه يسعى أيضاً لإعادة الرواية التمثيلية التي مثلت في العام الماضي ، وذلك أن يقف عزام قبل ١٥ مايو سنة ١٩٥١ في جلسة للجامعة فيعلن تخليه عن منصب الأمين العام بحجة انتهاء مدته وضعف صحته ، فيقول أحد الأعضاء كلا كلا ، فالأمانة العامة في حاجة إلى كفاية عزام ولذلك نرجوه أن يتابع تضحياته ويبقى في منصبه ، فيقول عزام سأقبل هذا البقاء إكراما لكم سنة واحدة فقط ، فيشكرونه على هذه التضحية ويمجدون له البيعة ...

إنها نفس رواية العام الماضي ، ونفس الطريقة ، ونفس الأسلوب ! وسيظل عزام جاثماً على قلب الأمة العربية سنة أخرى ، قائلاً في نفسه : من هنا إلى أن يأتى العام القادم يحلها الحلال ...

لأنه سيدخل تلك المساعي ذاتها ويجرى تمثيل الرواية نفسها ... وبعد ذلك لا أدري كيف ينتظر العالم العربي أن يرى بصيصاً من الأمل في حياة كريمة مادام بعض ساسته وولاة أمره بهذا الأخلاق !

وماذا يهم عزام أن يذل نفسه في كل عام نصف ساعة فقط وبين أربع حيطان وأمام بضعة أشخاص مادام ذلك يمكنه من التمتع عاماً كاملاً بمرتب ضخمة ومظهر نفخ ووجاهة ما كان يحلم بها في المنام .

تعليق بسيط

لقد جرب العالم العربي عزام باشا في منصب الأمين العام لجامعته من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٥١ وهي ست سنين ، أفلا تكفي هذه المدة لمعرفة قدرة عزام باشا وكفايته التي أضحكت علينا أمم الأرض ؟

ولا أدري ما الذي يمنع الجامعة العربية من تجربة شخص آخر غير عزام ؟ إن مصر ولله الحمد حافلة بأهل الكفايات والمخلصين فلتجرب الدول العربية إن كانت مخلصاً لمعنى « الجامعة العربية » شخصاً آخر فإن لم تجد فمن السهل أن تذهب الوفود بعد ذلك إلى عزام لترجوه العودة إلى المنصب الساحر الذي تطير مظاهره وقشوره العقول ...

أيها القوم : إن الأمة الإسلامية قد بقيت موجودة بعد منشئها محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، أفلا يمكنها أن تجد راعياً لها غير عزام هذا لو تحففت منه ؟ هبوا إنه مات فهل تموت الجامعة ؟

مقال عن الجامعة

وفي أثناء طبع الملازم الأخيرة من هذا الكتاب كتبت مقالاً عن أحوال الجامعة العربية والأمانة العامة التي لقيت أخيراً بـ « الحياة الطامّة » ولكني لم أجد جريدة قبلت نشره إلا جريدة « السوادي » التي يصدرها الكاتب الممتاز محمد السوادي فنشرته في ٢ أبريل ١٩٥١ وأما الصحف التي أبت نشره فلم يكن ضيق الصفحات هو السبب في إغفاله ولا سخافة مقالتي المذكور هي الباعث ... بل كان اتساع جيوبها هو السبب ، لأن مال الجامعة العربية الذي يتصرف به

عزام باشا الأمين العام - أو الحاكم العام - وينعم به على بعض الناس للدعاية لشخصه قد جعل « شهية » بعض أصحاب الجرائد تنفتح لنشر الثناء على « كالاته النجمية » ولا تنفتح تلك الشهية في وجه ما أكتبه وما يكتبه سوى عن الجامعة العربية وإني أجد لزماً وواجباً أن أنوه بالكاتب الحر الأستاذ محمد التابى وما يكتبه عن أمانة الجامعة العربية « وصاحبها » عزام باشا في مجلة آخر ساعة فإنه لا يترك مناسبة إلا شفى الغليل منها ، غليل المصدورين والقهورين من الحكومات العربية التي سلطت عزام باشا على العالم العربي ليوسعه كلاماً حتى أصبحت الأمة العربية مثلاً بين الأمم بسبب تصرفاته وتصريحاته وخطبه واندلاقه في الكلام بلا ميزان ولا قبان ...

ولا أنسى جريدة مصر الفتاة أعادها الله وسقى عهدها ، فإنها كانت تمكّني دائماً من نقد عزام وجامعته ، وكذلك جريدة اليوم في بيروت ، ومجلة الاستقلال في الأرجنتين ، وجريدة السجل في بغداد وجريدة العرب في باريس ، لصاحبها يونس البحري حامل علم الضجيج في أوروبا على تحبب الجامعة العربية وأمانتها التي أصبحت من عجائب الدنيا !

وأما المقال الذي نشرته لي جريدة « السوادى » فها هو ، وكان عنوانه « هل نشهد مصرع مرا كش على يد الجامعة العربية المزعومة كما شهدنا على يديها مصرع فلسطين ؟ » :

حرروها من العرب ...

لم أشأ أن أستقبل الاجتماعين السابقين لجامعة الدول العربية بما يكدرها ، في حين أن سوى قد استقبلها في ذلك الحين أسوأ استقبال ، بل إن ناظم القدسى بك رئيس حكومة سورية السابق نفسه قد وصفها وهو لا يزال رئيس وزراء يحضر جلساتها الأخيرة بأنها « إسراف في المظاهر وخيبة للآمال » لأن سوء الظن في هذه الجامعة قد لازمها منذ اندس فيها بعض الطفيليين ، وفيهم أعوان الإنكليز ، وبعضهم من أعوان أعوان الإنكليز ...

فقد توالى جلسات تلك الدورة فإذا بها تبحث في كل شيء ماعدا الغرض الأصلي من تكوينها ، وهو مسألة فلسطين التي كتب عليها الاستشهاد على أيدي الذين تطوعوا لإيقادها

وتبرعوا بحفظها لأهلها ، فإذا بهم بعد أن نزعوا من الفلسطينيين سلاحهم ونشروا الفرع في ديارهم ، راحوا يتركونهم هم وفلسطينهم لليهود ، ثم يهربون بجيوشهم وبجلودهم إلى بلادهم سراعاً ، وبذلك تم تحرير فلسطين من العرب ...

إحتجاجاتى واحتجاجات الجامعة !

لقد كان الحال قبل قيام هذه الجامعة أننى كنت أقوم وحدى بإرسال الاحتجاجات من أجل فلسطين باسم اللجنة الفلسطينية إلى « عصبة الأمم في جنيف » وقد استمر هذا الحال أكثر من ربع قرن فإذا بالجامعة العربية تقوم بعد ذلك لتتولى هى إرسال الاحتجاجات إلى « هيئة الأمم في ليك سكسس » !

فالفرق بين الجامعة وبينى إذن هو أننى كنت أحتج على مظالم الدول العظمى في العالم العربى ، وأما جامعة الدول العربية فإنها ترسل الاحتجاجات على تهجم اليهود عليها ! وهناك فرق آخر ، وهو أننى ولجنتى ما كنا نقبل من المستعمرين هدنة ، ولكن الجامعة قبلت الهدنة وما هو شر من الهدنة . وقد بلغ من سعة صدر هذه الجامعة الفذة أن حكوماتها تتلقى الآن هجوم اليهود المسلح على بلادها بدون أن تغضب لنفسها أو تثور لكرامتها ..

الوفود أمس واليوم

وكانت الوفود العربية فيما مضى تذهب إلى لندن وباريس للاحتجاج على انجلترا وفرنسا ، هذه فإذا بهذه الوفود تهزول اليوم إلى القاهرة للاحتجاج على الأمين العام لدول الجامعة العربية ! الدول التى أخفقت حتى فى تشكيل محكمة عليا أو سفلى - سيان - لفض خلافات بعضها مع بعض ... فقد لقيت ذات يوم بفندق شبرد فى ساعة واحدة جماعتين عربيتين فى ناحيتين متجاورتين من صالون واحد ، إحداها من عرب فلسطين والشام شرقا ، والأخرى من عرب برقة وطرابلس غربا ، وكل من الجماعتين كانت جالسة فى حلقة من الناس تشكو بثها وحزنها إلى الله ، وترفع شكواها - لا من الاستعمار ولا من اليهود - ولكن من تصرفات جامعة الدول العربية ، ومن عبث أمينها العام فى أمورها واستهانت به بمصيرها . وحسبك أن تعرف أن عزام باشا

الأمين العام « متخاصم » مع الفلسطينيين ، فهو لذلك لا يكلمهم ولا يتصل بهم ، بل يمنهم من كل نشاط في سبيل بلادهم .. بحجة أن حركاتهم قد تكدر الإنكليز أو تغضب الأمريكان أو أنها تخرج بعض الحكومات العربية ... كما أن عزام باشا « متخاف » مع الليبيين ، لأنه يرى نفسه أحق من السنوسي الليبي بعرش ليبيا .. فأين الأمانة الخاصة هنا ودع عنك الأمانة العامة ومعناها ومدلولها ...

« أردتك أمناً » من الحادثات فأصبحت أطلب منك الأمانا

الخلود في الجامعة

والأمين العام الذي فاته عرش برقة لم يفته تجديد السعي للبقاء في منصبه الساحر إلى الأبد ، فهو دائم السعي لدى الحكومات العربية للحصول على أصواتها ، ولعل هذا يفسر لنا تقربه من النحاس باشا بعد أن كان يعاديه منذ خرج على الوفد سنة ١٩٣٢ كما أنه يوضح لنا سبب تقربه من الدكتور صلاح الدين بك وزير الخارجية بعد أن سلب منه عزام مركزه الطبيعي بفضل الوزارات المعادية للأمة وللوفديين ، ثم يرمح عزام نحو صاحبه يوسف ياسين ليخصه بصوت الحكومة السعودية ، وقل نفس القول عن ركضه إلى استجداء التأييد من حسين العويني رئيس حكومة لبنان الجديد وقبله رياض الصلح وناظم القدسي .. ولعل عزام لا يتأخر عن استرضاء نوري السعيد قريباً وحكومة شرق الأردن أيضاً ! وكل ذلك هين على أن يظفر بالأصوات التي تخلده في الجامعة !

إن عزام باشا يلوح لكل حكومة من هذه الحكومات المتدبرة المتقاطعة المتخاصمة ، بأنه سيروج سياستها مقابل منحه الأصوات التي تكفل له البقاء على عرش الأمانة العامة ، كأن مصر قد عقلت عن إنجاب أمين سواه ! وبرغم أن جميع الوزارات في جميع أرجاء الدنيا تغيرت مراراً إلا « وزارة » عزام وحده ! كأن البقاء لله ، ولعزام في الجامعة !

عزام لا يقرأ الصحف

إنني أرثي لجملة الأقلام ولكل مصلح يكتب عن أعمال وإهمال عزام باشا لأن عزام لا يقرأ الصحف ! نعم ، ولكنه - واستغفر الله - يقرأ من الصحف نوعاً واحداً ، هو النوع الذي

يثنى عليه ويشيد بذكركه ويصوره بصورة إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد!
وأما الصحف التي تذكر له الأخطاء ، والصحف التي ترشده إلى الخير ، وتمحضه النصيح
خالصاً أن يترك الجامعة ، ولو لوجه الله، فإنه لا يقرأها .

ثم قل لي ... : متى وأين تجد في هذه الكرة الأرضية رجلاً تقول له الدنيا كلها اخرج
من الجامعة ، اخرج من الجامعة ! فلا يبرح بابها، ثم يقول للكائنات : كلا لن أخرج حتى
قيام الساعة !

إنني لا أجعل الحق في هذا الحال على عزام وحده ، كلا ، بل أجعله على ساسة العرب
جميعاً - وعلى وزير الخارجية الدكتور صلاح الدين بك أولاً - فهم باسم الحياء والمجاملات
يحملون مسئولية استمرار هذا الوضع .

وإذا كان أمر عزام يهم بعض الساسة العرب أو يريدون مجاملته أو مجاملة من ينتفع من
وجوده في الجامعة فما على الذي يهمه أمره إلا أن يأخذه معه إلى بلاده وأن يعينه فيما يشاء
من مناصب في حكومته !

وأما تخصيص الدكتور صلاح الدين بهذا القسط الكبير من العتب وهو قرة عين العالم
العربي ، فلكونه مد يده وهو في أمريكا وتناول عزام باشا من عاله الخاص ، ثم قدمه إلى
هيئة الأمم وإلى ترومان .. فإذا بعزام يتأدى في غروره ، وراح يتدخل في مسألة كوربا ليسويها
أو ليلحقها بفلسطين وأهل فلسطين ...

وبعد ... فإنني أسأل النصفين هذا السؤال : لقد مضى ست سنين على وجود الجامعة
العربية وهي تنعقد وتنفض ، ثم تنعقد وليتها تنفض ... فهل صنعت شيئاً غير إضاعة فلسطين
وتشريد أهلها ؟

أنا لا أطلب المستحيل بأن أسألها عن فلسطين المذبوحة وعن المليون من أهلها الشهداء
الذين شردوا بدداً وضاع وطنهم وسلبت أموالهم ، ولبسنا العار من أجل تقصيرنا معهم ، بل
إنني أسأل عن مشا كل دول الجامعة العربية نفسها ، فهل حلت الجامعة واحدة من مشا كلها ؟
هل سويت القطيعة بين لبنان وسورية ؟ هل هدأت الأمور بين العراق والأردن ، أو بين

هذا والدولة السعودية ؟ هل أصلحت الحال بين سورية ولبنان ؟ هل استطاعت الجامعة على الأقل أن تصلح الحال بين عزام نفسه ونورى السعيد ؟

من أسباب الفشل

إن بعض مندوبي هذه الحكومات يأتى من بلاده لحضور مجلس الجامعة وفي جيبه فكرة أمريكانية ، وبعضهم يأتى وهو يحمل فى رأسه رأيا انكليزيا ، وآخر يأتى وفي عباءته مطامع شخصية ، ومعظم هؤلاء المندوبين يحىء وفي نيته تنفيذ رأيه وإحباط خطط الحكومة العربية الفلانية ...

فإذا اجتمعوا تعارضت الآراء ، وتصادمت المطامع ، وظهرت النيات ! ولذلك كان الفشل حليف قوم لا يؤمنون بما يقولون ولا يظهرون ما يطمنون .

وأخيراً مرا كش ...

إن الدموع التى ذرفها عزام باشا على مرا كش ليسكت المتظاهرين والصائحين ، لهى البرهان القاطع على أن الأمين العام ما عاد يصلح للعمل السياسى الجدّى ، لقد كان الواجب عليه مثلاً أن ينتفع بهذه الغضبات الشعبية ليطلب من الدول العربية مقاطعة فرنسا فوراً ، وأن يبعث على الأقل بحوالة مالية سريعاً وبرقياً إلى الزعيم علال الفاسى « بطنجة » ليستطيع مواصلة الكفاح من هناك ، ولو لتمكينه من القيام بالدعاية أمام دعاية فرنسا المعتدية ، وحواله برقية مالية أخرى إلى الزعيم الحبيب بورقيبة الموجود الآن فى الهند وأندونيسيا ليستطيع مواصلة الدعاية لمرا كش فى قارة آسيا والمناطق القريبة من المستعمرات الفرنسية فى الشرق الأقصى ، وحوالة مالية برقية ثالثة إلى المجاهد عابد بوحافة مندوب لجنة تحرير المغرب بأمريكا ليتمكن من إذاعة فظائع فرنسا بين سكان العالم الجديد ، هذا سلاح سهل ، ولكنه سريع المفعول وكان يجب على عزام أن يعمد إليه فوراً ، فهو على بساطته وقلة تكاليفه كان يساعد على قصم ظهر الاستعمار بنفس السرعة التى أهان بها المستعمرون الأمة العربية كلها فى شخص جلالة ملك المغرب ، ولكن عزام باشا لا يفهم من أساليب الدعاية ، ومن مهمة الأمين العام غير « صرح عزام باشا » و « خطب عزام باشا » ثم « بكى عزام باشا » !

من يعترف باليهود...

هذا وإننى أسمع كثيراً عن المساعى التى تبذل من دول الاستعمار لجلل الدول العربية على الاعتراف بدولة اليهود ، ألا فلتعلم كل حكومة عربية أو إسلامية أن اقتراف هذه الكبيرة معناه إقرار دولة عصابات اليهود على كل ماصنعت بأهل فلسطين ، من سلب الوطن ، ونهب المال ، واغتصاب الثروة ، وما أزلت بهم من مذابح وحشية ، بل هو الاعتراف الكامل بهزيمة العالم العربى - وبالبخزى أمام اليهود ، بل هو جناية على نفس الدولة التى تجترح هذا الوزر العظيم أمام التاريخ وأمام شعبها وأمام العالم أجمع ، وأنها على الأقل تصبح مخضبة اليد والوجه بدماء أهل فلسطين ...

هل من أمل !

إننى أتصور أن البعض سيسألنى : هل من أمل فى إصلاح حال الأمة العربية ورد بعض حكامها وساستها الفطاحل إلى الصواب بعد أن جرى لها منهم ماجرى ؟ والجواب : كلا ! وما لم يعرف الناس أن شعباً عربياً واحداً استطاع أن يحاكم واحداً على الأقل من « مجرمى حرب فلسطين » ويماقبه وينكل به ، فإنى أعتقد أن سوء المصير سيحقق بشعوبنا كلها وأن الأوطان العربية لن تخرج من هذه الخطوب سالمة أبداً ! « اه .

وسائل عزام للبقاء فى الجامعة

إن الحرب الناشئة بين عزام وبين شعوب العالم العربى فى سبيل خلوده فى الجامعة العربية ليست بالشئ الجديد ، بل هى قديمة ... وقد اشتدت الحملة عليه فى أواسط سنة ١٩٤٨ عندما تم القضاء على فلسطين تماماً ، وكان من رأى الشعوب العربية أن عزام باشا قد انتهى ، والحق معهم لأنه أخفق فى مهمته ، ومن عادة الحكومات فى كل الدنيا أن تتخلص من الوزارات إن أخفقت ، فكيف لا تتخفف الأمة العربية من عزام بإبعاده فقط عن الجامعة ! ثم إن الدول قد اعتادت عزل القواد المهزمين فى الحروب وتحاكمهم ، وتعدمهم أحياناً ، ماعدا الحكومات العربية التى تعد فى دنياها من طينة غير طينة حكومات الأرض قاطبة ، لأنها فى واد وشعوبها فى واد آخر ، ولذلك قل أن تجد حكومة عربية موجودة بإرادة شعبها ، فمعظمها قائم إما بتزوير الانتخابات وإما بالاعتماد على الأجنبى المحتل ! فالشعوب العربية

أصبحت بدلا من أن تسمع بشيء عن محاكمة عزام باشا ولو بتنحيته عن عرش الأمانة العامة إذا بالنقراشي يؤيده - والحق معه ! لأن عزام خير من كانوا يخلصونه من العرب والعروبة ... ذلك أن النقراشي كان لا يطيق شيئا اسمه عربي أو عروبة ! وإذا بجميل مردم بك مندوب سورية في مجلس الجامعة العربية يؤيد عزام كذلك ، والحق مع مردم ، لأن عزام باشا قد عين له صهره وعديله وبعض أصحابه في وظائف الأمانة العامة ، وإذا برياض الصلح أيضاً يؤيد عزام ، والحق مع رياض ، لأن عزام باشا قد عين له ابن عمه بمنصب كبير بالأمانة العامة وعين له بعض أصحابه ...

برقية . . .

كان ذلك في ١٠ سبتمبر ١٩٤٨ فلما رأيت أن المسألة قد خرجت عن الجد والنافع وأنها أصبحت مسألة شخصيات وتبادل منافع وتوزيع غنائم ، أبرقت لعزام باشا برقية نشرتها الصحف وقلت له فيها « أهنتك بتقدير أصحاب الدولة النقراشي ومردم والصلح برغم تبرم الناس بك وهم يفضلون لك منصب مندوب للجامعة في الخارج بشرط مغادرة الأمانة العامة بأي شكل كان لأنك أخفقت ، وإني أشير عليك بأن تتمترح أحد ثلاثة ليخلفك أحدهم إما كامل عبد الرحيم بك أو الدكتور محمد صلاح الدين بك أو محمود فوزي بك ، فكلهم أصح منك » .

ولكن عزام لم يستقل ! ولم يهتم ، ولم يتكدر ، ولم يبال بأحد .. وأنا لم أقصد أنه كان سيستعفى لمجرد أنني أبرقت له ، كلا ، بل لأن العالم العربي كله كان هاججا على عزام ويطهرونه بإضاعة فلسطين وبهذلة الأمة العربية فلما أحس بهذا الإجماع ضده ، استجدي ذلك التأيد من النقراشي والصلح ومردم بعد استعطاف وأساليب يرفع عنها الرجل الذي يحترم نفسه ، فلما ظفر عزام بهذا التأيد المزيف الملفق نشره في صحف الدنيا كلها ، وخرق به عيون الأمة بأسرها ...

وعزام باشا رجل صبور من أجل تجديد مدته ويتحمل كل أذى في سبيل ذلك ، وقد روت مجلة « روز اليوسف » أخيراً أن النحاس باشا صادفه في مكان فصاح فيه مندداً بكثرة كلامه وفيض تصريحاته ، فقبل عزام هذا « الشخوط » واعتبره شيئاً عادياً ، فلو كان « المشخوط » فيه سواه لاستقال ولكن كيف يستقيل ويترك ما هو فيه من جنات وعيون ؟

وحدثني مشاهد لأحدى جلسات الجامعة بعد تلك « الشخطة » أن المجلس قرر تعيين

الساعة السادسة من يوم كذا لعقد الجلسة المقبلة ، فإذا بعزام يستعمل أساليبه الخاصة لأرضاء النحاس باشا ويقول له إن ذلك الموعد قد يتعب مقامك الرفيع لأنك تستريح فيه ويصادف صلاة المغرب وأنت تحتاج إلى وقت للوضوء وتأدية الصلاة و... فقاطعه النحاس باشا بشدة قائلاً « كلا ، هذا مش شغلك ويجب أن يظل الموعد كما تقرر » فبلغ عزام هذه الخبطة وسكت .
براعة ...

ومن أساليب عزام التي يوحى بها لإعداد الأذهان إلى قبول تجديد مدته أن أحد أعوانه دبر له سنة ١٩٥٠ خبراً نشرته له إحدى صحف القاهرة قائلة إنه ورد عليها من لندن أن الصحف البريطانية ساخطة على جامعة الدول العربية التي تحتضن عزام باشا وتصر على تجديد «انتخابه» مرة أخرى ! فعزام الذي يحب أن يفهم الإنكليز - هنا ولكن سرّاً - أنه صديقهم ، يريد أن يفهم أهل الشرق ومصر علناً أن الإنكليز يكرهونه ، لأنه يعرف أن كل من يقال عنه إنه من أعداء الإنكليز يصبح مقدساً في نظر الشرق كله ...

ولكن إرادة الله شاءت أن تفضح شيئاً ، وهو أن المرشال ولسن نشر أشياء عن مصر فشتم عزيز باشا المصري وصالح باشا حرب ، ثم أثنى على عبدالرحمن عزام باشا !

وفي شهر أبريل ١٩٥١ الذي عينه عزام باشا لتمديد مدته نشرت له إحدى الصحف وحيّاً أبداع من ذاك الذي نشر على الطريقة الإنكليزية .. فقد ذكرت الصحيفة أن الدول العربية قد أجمعت على إعادة انتخاب عزام للأمانة العامة بعد أن تبين أنه لا يوجد من يليق للمنصب سواه وأن المهم الآن هو إقناع عزام باشا بقبول التجديد لأنه لا يريد ! وما كان ينقص الجريدة إلا أن تقول إن عزام باشا قد اعتذر ورفض التجديد مطلقاً وأبدأ وعلى الإطلاق ! وأنهم هددوه بإلغاء الجامعة العربية إن أصر على الرفض ... وعند ذلك فقط أخذ يفكر في إجابة ملتسمهم مضجياً بصحته إكراماً لهم ...

وهذه الطريقة التي سلكها سنة ١٩٥١ هي أخت الطريقة التي سلكها سنة ١٩٥٠ فقد استطاعت دعاية عزام أن تدس على جريدة أخبار اليوم الصادرة يوم ٨ أبريل سنة ١٩٥٠ خبراً جاء فيه أن عزام باشا طلب عدم تجديد مدته في الأمانة العامة وأن جميع الوفود قررت بالإجماع إعادة تعيينه ...

وكان العراق يومها يعارض في إعادة عزام فإذا بدعاية الأمين العام تدس في آخر الخبر عبارة تقول إن العراق كان في مقدمة المجمعين ...

والغرض من الشق الأول توريط الوفود ، وأما الشق الثاني فكان ينقط سمّاً زعافاً ، لأنهم يقصدون به إرغام العراق على السكوت حتى إن عارض أظهره بمظهر الخارج على الجماعة وأنه يريد الشقاق ! ولكن رئيس الوفد العراقي « وكان يومها نجيب الراوى بك الوزير الشهير » جابه دعاية عزام مكذباً تلك الدعاية المستنكرة ...

حيل ومناورات

إن قدرة عبدالرحمن عزام باشا على احتمال « من الرجال » لا يمكن أن يماثله فيها أحد وقد شرحت بعضها في الجرائد مراراً ، وبسطتها في كتاب « معتقل ها كستب » وقبل ذلك في جريدة مصر الفتاة ، وجريدة السوادى بمصر ، وجريدة البيان في الولايات المتحدة وجريدة الاستقلال في الأرجنتين ، وجريدة الجبل بالعراق ، وجريدة اليوم في بيروت ، ومجلة العرب في باريس الخ كما أوردت في هذا الكتاب بعضها ... أما عزام باشا فهو لا يكاد يفرغ من المساعي المعروفة ويصل إلى الأمل المنشود وهو تجديد مدته حتى تراه يبدأ المسعى من تلك الساعة ليضمن التجديد المقبل ، للعام المقبل !

نظر عزام إلى الجامعة

إن صاحبنا عزام باشا يعتبر مهمة الأمانة العامة للجامعة العربية هي مسألة خاصة به ، وإن كل من انتقد تصرفاتها أو حاول إصلاح خبلها فهو في نظره « عدو لدود » يريد مس شخصه ويقصد قطع « عيشه » ! في حين أن العالم العربي يحب لجامعته أن تكون جامعة ، لا أن تكون دكاناً لعزام أو تسكية أو زاوية دراويش ، أو مصدرراً للرزق وسلاماً للوجاهة لأحد.. وهذا الوصف لم يبعد عن الحقيقة كثيراً ، فقد نشر عزام حديثاً في إحدى الصحف شكى فيه بكل بساطة من الذين يفشون أسرار الجامعة ! كأنه لم يكن هو الذى جاء بهؤلاء الطرارين ! وأما كون عزام يشبه في وضعيته في أمانة الجامعة العربية وضعية شيخ « الزاوية » فهذا الوصف أيضاً لم يبعد عن الصواب ...

نورى السعيد وعزام

مثال ذلك أن نوري باشا السعيد رئيس الوزارة العراقية المزمّن في رياستها ، وقد هالته حالة الأمانة العامة وما هي عليه من الفوضى وكون عزام لا يصلح لها ، قام ينتقد حالها ويقترح تنظيمها وتحديد مسؤولية من يقوم برياستها ، فاضطرب عزام واعتبر ذلك عملاً عدائياً موجهاً ضد شخصه وقدحاً في مزايه ، التي يجملها أهل الأرض كافة ولا يعرفها إلا هو نفسه فقط ! ولذلك كتب إلى نوري باشا السعيد كتاباً عجيباً لا يمكن أن يخطر بالبال أن يصدر من دبلوماسي مسئول ، قال :

« عزيزى نوري باشا السعيد : السلام عليك ، وبعد فطالما أنصفتك فلم تنصفني واحتفظت بودك فلم ترع ودي ، ويعلم الله أنني صبرت استبقاء لصحبة ووفاء بعشرة ورغبة في تعاون لخدمة أمتنا فأبيت إلا أن تتجاهل ذلك كله ، فهل بقي إلا ما تقضى به المروءة وأن أقبل القطيعة التي أردتها :

كلانا غنى عن أخيه حياته ونحن إذا امتنا أشد تقانيا
القاهرة ١٤ مايو ١٩٤٩ إمضاء « عبدالرحمن عزام »

ماذا قال نوري ؟

أما كتاب عزام باشا فقد حكم منه القارئ على عزام حكمه فيه ، لأن الإنسان يعرف من قلمه أو لسانه ، فعزام في هذا الكتاب قد انكشف لأنه يعتبر مسائل الجامعة العربية مسألة شخصه هو ومسألة الكرسي الذي تحته لا أقل ولا أكثر ، وإلا فما هذا الكتاب الذي يكتبه إلى أحد شيوخ السياسة في الشرق العربي . وما هذا الشعر ليدخله في القضايا الجديدة العامة ؟ أما نوري باشا السعيد ، ذلك السياسي الداهية صاحب الناب الأزرق والعقل الجبار ، فإنه كما بلغني قد ضحك يومها ، وهو الذي قل أن يضحك ، ثم كتب إلى عزام باشا الكتاب الآتي الذي ينطق كل حرف منه « بالشيطنة » والحزم والرجولة ، قال نوري باشا :

« أخي عبد الرحمن عزام باشا : سلام الله عليك ورحمته وبركاته ، وبعد فقد تسلمت كتابك المؤرخ في ١٤ / ٥ / ١٩٤٩ ودهشت لما فيه ، فيظهر أنه قد كتب في فترة تعب عابرة أو

غضب ثائر أرجو أن يكون أثرها قد ذهب الآن» ثم لفت نوري باشا نظر عزام باشا إلى مهمة الجامعة ونظمها وواجبات الأمين العام والمآخذ على تصرفاته الخاطئة وإن ذلك لا علاقة له بالصدقات الشخصية أو القطيعة الفردية ، ثم قال نوري لعزام إن ساسة العراق يختلفون ويتقاتلون على الأمور العامة ، ولكن الخلافات الشخصية لا تدخل في حسابهم ، وإنه يود أن يطبق هذه القاعدة على نفسه وعلى عزام الخ ثم ختم نوري باشا كتابه بهذا الكلام القارس وهو « وإذا كنت تعتقد حقاً أن «كلانا غني عن أخيه» فإنني أعتقد أننا لم نكن يوماً ما في حاجة إلى بعضنا بعضاً أكثر منا اليوم، وإن كنا في غنى عن شيء فعن هذه القطيعة البغيضة التي تحاول أن تستدرجني إليها وأنت تحت تأثير تعب أو غضب زائلين ، فخير ما تستدرجني إليه هو هبة حازمة صادقة لإصلاح الأخطاء ووضع الأمور في نصابها ، والله يعصمنا وإياك من عواقب الزلل ويهدينا جميعاً إلى سواء السبيل .

إمضاء : «نوري السعيد»

تعليق...

بهذا الدرس القاسي الحازم الصارم أجاب نوري السعيد صديقه عزام، وإن سألتني القاري عن كيفية حصولي على نص الكتاتين فالجواب سهل ، وهو أن عزام باشا قد نشرها في جريدة الأهرام الصادرة في القاهرة يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٤٩ وهو مغتبط بهذا النشر، سعيد به، بدون أن يفطن إلى ما في كتاب نوري باشا من تنديد بتصرفاته وتعبير بتقصيره في واجباته ، ولا أن ينتبه إلى ما في ذلك الكتاب من لدع ولسع ...

كتاب من عزام إلى أنا

بدأت من أوائل سنة ١٩٤٦ أكتب وأنشر في الصحف نقداً لأعمال عزام باشا وتنديداً بتصرفاته ، ولكنه كان لا يهتم ولا يبالى ، كأنني أقصد بما أكتب أهل الكهف ! .

وفي شهر أكتوبر ١٩٤٧ كنت مع بعض الأصدقاء فقام صديقي الأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة إلى التلفون يتحدث مع عزام باشا في شأن من شئونه، ثم سمعته عرضاً يقول لعزام « موجود هنا صديقنا محمد علي الطاهر وهو يسلم عليك ويهنئك بالسلامة و... » وقبل

أن يكمل أحمد حديثه وضعت يدي على التلفون وأغلقتة وقطعت الحديث بينهما ، وقلت لأحمد : أنا يا أخي ما كلمتك أن تبلغ عزام شيئاً على لساني ، فهذا الرجل قد يظن من كلامك البريء الذي جاء عرضاً إنني من الإمعات الذين يهجمون على الناس في الصحف ثم يجاملونهم ويتملقونهم شخصياً ، وبعد ذلك كتبت إلى عزام باشا كتاباً أرسلته إليه بالبريد قلت له فيه إنني لم أكلف الأخ أحمد بتقديم سلامات ولا تهنئات وإن الأمر لم يخل من عادة جارية وهي أن يردد البعض مثل هذه الكلمات عندما يعرف أحد المتكلمين أن هناك صلة بين من يتكلم معه ومن يجلس بجواره ، ثم قلت لعزام باشا أنا لا أبخل بالتحية على أحد ولكني لا أغش أحداً جعلتني أعماله وتصرفاته أغير رأيي فيه وخصوصاً إذا كان « باشا » وكنت قائماً بنقد أعماله علناً وأنا دى بإبعاده عن منصبه صراحة.

كتبت ذلك الكتاب لعزام ثم نسيته بعد أن أرسلته إليه ، معتبراً أن الأمر من جانبي بعد أن وضعته في نصابه قد انتهى ، وبعد يومين زارني الأستاذ عبد المنعم خلاف وهو صديق وصديق لعزام ، ويعمل معه في الجامعة العربية فقال « إن عزام باشا وهو أخوك وصديقك مندهش من « زعلك » منه وقد وصله كتابك وإليك هذا الرد منه فقد كتبه ليلة أمس بعد منتصف الليل حرصاً منه على إرضائك لأنه سافر صباح اليوم إلى بيروت .. أما الكتاب فهذا نصه الحرفي وهو بخط عزام :

عزيزي الأستاذ محمد علي الطاهر : السلام عليك . أما إذا كنت قد غيرت رأيك فإني لم أغير لا رأيي ولا رغبتني في الاحتفاظ بأصدقائي ومعاتبتهم حتى اليأس منهم والسلام ما .

٦ أكتوبر ١٩٤٧ إمضاء : « عبد الرحمن عزام »

فقلت للأستاذ عبد المنعم يا أخي إن صاحبنا عزام باشا لا يريد أن يفرق بين المصلحة العامة وبين العلاقات الشخصية ، فهو لا يزال يظن إنني « زعلان » منه شخصياً في حين أنني « زعلان » من أعماله ، وليس من الحكمة إن أبش له مادمت أعرف أنه يضر المصلحة العامة بأعماله حتى لا أشجعه ، فالواجب على كل صديق سبق له أن نصحه ولم يقبل نصحه أن يكاشره ، ليشعر عزام أنه يدفع ثمن إصراره على مزاوله أعماله لا يقدر عليها وممارسة أمور لا يصلح لها ، وإلا فسد كل

شيء في دنيانا . فقال الأستاذ عبد المنعم : أنت تعرف أن صديقك عزام رجل طيب وفيلسوف وأنه لا يجوز أن تحمل عليه كل هذه الحملات ! فقلت له إن الأمين العام للجامعة العربية لا يجوز أن يكون طيباً ولا فيلسوفاً ، بل يجب أن يكون ذنباً ، وأن يكون عملياً وواعياً ، فحادثت تشهد لصاحبك بتلك الصفات الرقيقة السامية ، فلا يجوز أن يظل في منصب الأمين العام ساعة واحدة ، ولذلك أصبح من واجبك أنت أيضاً أن تنصحه بترك هذه المهمة لمن يقدر عليها ... هذا ما كان سنة ١٩٤٧ وهو يشبه إلى حد ما حكاية كتاب عزام باشا إلى نوري باشا السعيد بعد ذلك بعامين ... فعزام باشا يظن أنه بهذه الطرق الأدبية والأساليب البدائية يمكنه أن يسير بسفينة الجامعة العربية في بحر طالما غرق فيه دهاة الرجال وأساطين السياسة .

وهنا قد يبرز سؤال وهو : لماذا استحسن بقاء الصلة الشخصية بين نوري السعيد وبين عزام ، ثم أعمل أنا على خلاف ذلك بل أسلك سبيل القطيعة معه ، والجواب سهل ، وهو أن نوري باشا رجل رسمي ومكلف من حكومته بعمل يتصل بمنصب عزام فلا بد له من الاتصال به ، وأما أنا فغير رسمي وغير مكلف من أحد بشيء ، ولذلك أصبحت غير مجبر على مجاملة عزام وغير ملزم بأن أدوس على عواطف الشخصية وأبش في وجوه أعرف أن أصحابها يغشون أمتهم ، فالمجاملة لها رجال السياسة والمسؤولين عن المصالح العامة الرسمية ، وأما من كان مثلي فيجب أن تكون مهمته مكاشفة هؤلاء الشطار ، من تجار السياسة ، والمشاجرة معهم حتى خسران مودتهم ، فهمة المجاملة لها رجالها ، ومهمة المكاشرة وهي أصعب ، لها رجالها ...

استطراد واستغاثة القاقجي

إن تقدير المصلحة العامة غير موجود في أمتنا مع الأسف لا عند رجالنا ولا عند مؤسساتنا السياسية ولا عند البعض من صحفنا ، وإني أتذكر حادثاً وقع قبل ذهاب الجيوش العربية لفلسطين ، وذلك أنه لما اشتبكت جموع المتطوعين أو « جيش الإنقاذ » مع اليهود في معركة « مشمار » بأواسط فلسطين نشرت إحدى الصحف نبأ هزيمة أصابت جيش الإنقاذ وقالت إن قائده السيد فوزي القاقجي قد أرسل برقية إلى عزام باشا رب جامعة الدول العربية يستغيث بها لتعمل على إنجاده لأن القاقجي كان أيضاً من المخدوعين بهذه الجامعة وأمينها الخالد ... فهذا

الخبر الذى فيه ما فيه من توهين وفضيحة كان فى حاجة إلى مايستره فقامت إحدى اللجان الفلسطينية بالقاهرة «وصححت» الخبر فى الجريدة فلم تنشره ، فنشرته اللجنة فى جريدة أخرى ثم ذهبت بنفسى إلى الجريدة الأولى أعاتبها على نشر الخبر الأول وعلى إغفال التصحيح . فإذا برئيس التحرير يغضب ويقول نحن لا نكذب ! ثم فتح درجاً وأخرج منه نفس البرقية التى أرسلها القاوقجى إلى عزام باشا وأطلعنى عليها فقلت له نحن لا ننكر ذلك ولكن نشر تلك الهزيمة لا يجوز ، كما أن إغفال التصحيح الذى يستر المصيبة ويرفع المعنويات لا يجوز كذلك . فقال إنه سينشر أيضاً أصل برقية استغاثة القاوقجى حتى لا تجسر تلك الجريدة على نشر تكذيبات لجريدته ! فقلت إياك أن تفعل لأن إذاعة نص البرقية يكون أظف وأشد ضرراً بمصلحة فلسطين ويقوى معنويات اليهود ويجعلهم يطمعون على سرّ حربى لا مثيل له ، وماذا بعد أن تصبح تلك الإشاعات حقيقة فيعرفون موضع الضعف من جيش الإنقاذ .

وغادرت إدارة الجريدة مطمئناً ، ولكنها فى الصباح التالى نشرت البرقية بنصها الحرفى بدون أن تفكر لحظة واحدة بما يحجره ذلك النشر من مصائب ونكبات .

أصل المصيبة

ولكن الحق ليس على الجريدة وحدها ولكن على أمانة جامعة الدول العربية التى لا تعرف معنى كتمان الأسرار العسكرية ، لأنها فى الحقيقة لم تكن تدرك أن البرقية التى وصلت إليها تعتبر سرّاً ، بل إن هذه الجامعة لا يهمها شيء ؛ لا الأسرار ولا غير الأسرار ... وقد بحثت عن كيفية وصول البرقية إلى الجريدة فعرفت السبب وبطل العجب ، لأن عزام باشا من عادته أنه كلما اهتدى إلى صحفى نشيط فى جريدة كبيرة عينه عنده أيضاً لينشر عنه فيها المدح ويمنع عنه القدح ، كما أن كل جريدة شاطرة كانت تتفاهم مع كل موظف نشيط من موظفى أمانة الجامعة العربية على موافقتها بأخبار الجامعة ، وخصوصاً المكتوم منها !

فكانت النتيجة الحتمية لهذا التسابق بين الجانبين أن بعض مخبرى الصحف كانوا أيضاً يتسابقون فى سرقة أخبار الجامعة العربية ووثائقها ويقدمونها إلى جرائدهم ، وبعض هذه الوثائق كان يباع للسفارات الأجنبية ... ذلك لأن مركز الأمانة العامة لا يشبهه أى مركز

سياسي في الدنيا ، لامن جهة الفوضى ولا من ناحية التخبط ، فهي مؤسسة « سايية »
لامهيمن عليها ولا يوجد مسئول عن حالها .

ديوان المحاسبة

وقد تحدثت مع أحد الوزراء الحاليين الذين يهتمهم أمر الجامعة وسألته لماذا لا يفحص
ديوان المحاسبة دفاترها وحساباتها ويضع تقريراً عن تصرفاتها لعل من فيها من مهابين يخافون
مغبة ما يجترحون ، فقال إن الجامعة بحكم تشكيلها السياسي تعتبر مؤسسة دولية لا سلطان
لديوان المحاسبة عليها ، فقلت له أيجوز أن تخضع حسابات رئاسة الوزراء ومعها تصرفات مصطفى
النحاس باشا لسلطة ديوان المحاسبة ولا تخضع لها أمانة الجامعة العربية التي لا يوجد لها مثيل في
الدنيا بالفوضى وإضطراب أمورها ؟ فقال وماذا نصنع ؟ فقلت له يمكن تأليف لجنة من الدول
العربية لفحص حالة الأمانة العامة ومراجعة تشكيلاتها وحساباتها وتوفير المال المبعثر وتخصيصه
لإعانة المنكوبين والمشردين الذين يعتقدون أن الجامعة كانت من أسباب نكبتهم وتشريدهم .
أمثلة

وقد فهمت من محدثي أن عدد موظفي الأمانة العامة يزداد دائماً وباستمرار ، وليس عاماً
بعد عام فقط ، لأن عددهم يزداد كلما تغيرت وزارة في البلاد العربية ؛ إذ يقوم رجال الوزارة
الجديدة بإرسال أقاربهم إلى عزام باشا فيخلق لهم الوظائف من تحت الأرض ! وأنى أزيد على
ذلك شيئاً وهو أن تعيين هؤلاء الجدد لا يقتضى إزالة أحد من المحاسبين الذين سبق تعيينهم
بل « يكربس » عزام الجدد منهم فوق السابقين ، وهلم جرا ... على أن أولئك وهؤلاء من
الأساس لا يعملون شيئاً بل يقبضون المرتبات الباهظة وهم قعود سكوت ، ومنهم صاحبنا
أسعد داغر فهو من عظماء مستشاري عزام الذي لا يستشير أحداً ، ولو كان الإمام أبو حنيفة
النعمان بن ثابت ! فأسعد داغر يتناول نحو ١٧٠ جنياً في الشهر بما في ذلك علاوة الغلاء ،
ولكن دون أن يعمل للجامعة شيئاً ، لا بالفكر ولا بالرأى ، سوى تقيظ عزام باشا في المحافل
السياسية وحماية الأمانة العزامية من الساخطين ، مستعملاً صيته القديم الطيب للتستر على تصرفات
رئيسه ، وقد ظن أسعد داغر أنه يستطيع أن يستخدم صيته القديم هذا للتأثير على العراقيين

ويشير بعضهم على أستاذه القديم نوري السعيد لحساب عزام ، فما كان من نوري إلا أن أمر أسعد داغر بمغادرة العراق فوراً ! فلما رجع إلى مصر كتب إلى نوري السعيد كتاباً يشتمه فيه ، في حين أنه صديقه ، فلولا نقود جامعة عزام إذن لما وقعت الوحشة بين داغر والسعيد . على أن نوري السعيد كان لا يقصر مع أحد... ولكنها على ما يظهر أقل بكثير من جراية عزام ... ولذلك انقلب الحال ... وانعكست الأوضاع ، والأمر يؤمئذ لله !

حسنة وأنا سيدك

ثم دارت الأيام فإذا بأخبار جديدة تزداد عن حوادث جديدة ، فقد سمعت كثيراً أن أسعد داغر الآن « متخاف » مع عزام وأنه ساخط على تصرفاته وأنه حردان منه ولا يتعاون معه ، فقلنا خيراً ، وعسى أن يوضح لنا أسعد ما هنالك وقد سألت من أخبرني الخبر : لماذا لا ينشر أسعد داغر المآخذ التي يأخذها على عزام حتى أدى الأمر إلى القطيعة بينهما ليعرفها الرأي العام ؟ فقال محدثي : كيف ينشرها وهو لا يزال موظفاً عنده ، فقلت : يستقيل وينشر الحقيقة . فقال : وهل تريد منه أن يخسر في سبيل إعلان الحقيقة ١٧٠ جنيناً كل شهر ... إنه لشيء محير بلا شك ! إن أسعد داغر يعرف مرض الجامعة ولا يريد أن يتكلم عنه ، وهو مع ذلك لا يكلم عزام باشا ولا يتعاون معه على شيء ، فهل هو متعاون معه فقط على قبض المرتب ! موظف يعمل مع رئيس ولا يوافق على تصرفاته ، ويقبض منه أجراً ولكنه لا يكلمه ، ويعرف أمراض الجامعة ولكنه لا يخبر الناس عنها ، ولا يتعاون مع رئيسه على عمل شيء للمصلحة العامة ولكنهما يتعاونان فقط عند مسألة الفلوس ... متناقضات عجيبة ، وأمور محيرة ، ولكنها تدل في نهاية الأمر على أن الجامعة لا يرجى لها صلاح ما دامت واقعة في قبضة هؤلاء الناس مطلقاً .

خناقة رسمية أخرى

وحضر فاضل بك الجمالي وزير خارجية العراق جلسات الجامعة العربية فأبدى ملحوظة عن حالة الأمانة العامة ، واقترح تنظيمها وتطبيق قوانينها ، فإذا بعزام باشا يضح ويبتسم ذلك طعناً في شخصه ! في حين أنه لا طعن هناك لافي شخصه ولا جامعته ، ولكنه مجرد اقتراح

بطلب التنظيم وضبط الأمور فلماذا يخاف عزام من التنظيم والترتيب ؟

فلما عرف الجمالي بك بما يقوله عزام باشا لم يسعه إلا أن يسرد في البرلمان العراقي بعض تصرفات الأمين العام التي لا يقبلها عقل ومنها : أن عزام باشا لا يطلع مجلس الجامعة على ما يقوله أو يعمل به باسم المجلس ، بل يندفع في الكلام بلا حساب ويورط الحكومات المستولة بتصريحات لا يمكن الموافقة عليها ، وأنه يسافر لأوروبا وأميركا باسم الجامعة بدون علمها ولا تفويض منها ، وأنه ذهب مرة إلى سورية باسم الجامعة وتكلم مع السوريين في أمور أفستت الحال بينهم وبين العراقيين . . . وأنه نصح ولي عهد اليمن وشقيقه بعدم زيارة العراق وأنه يتصل بالبعثات الدبلوماسية الأجنبية باسم الجامعة بدون علم الجامعة ، وإنه يوفد أشخاصاً باسم الجامعة إلى الخارج بدون إذنها . . . الخ

إنفلات لسان عزام باشا

ثم ختم الوزير العراقي فاضل بك الجمالي خطابه في البرلمان بقوله حرفياً « إن من مصائب فلسطين أن يعتبر الأمين العام نفسه اختصاصياً في الشؤون الحربية لدرجة إنى سمعته يقول « إن ثلاثة آلاف متطوع مغربي يكفون لإنقاذ فلسطين » !!

وإنى أزيد على القصة التي أوردها الوزير قصتين أغرب منها ؛ فقد أخبرني الصاغ محمود لبيب بك أحد قادة الإخوان المسلمين الذين كانوا خير عنصر محارب ، وخير فدائي مجاهد في حرب فلسطين - أنه طلب من عزام باشا أن يساعدكم بسلاح فقال له عزام إنه لا لزوم لذلك وإن الأحسن هو أن يسلك الإخوان طريقة « اضرب واهرب » ... وقد سبق لعزام أن قال لفوزي بك القاوقجي « هجصواكم شوية مع اليهود إلى أن تساعدنا أميركا وانجلترا عليهم لفض المشكلة الفلسطينية ! » وقد نشر القاوقجي هذه القصة في مذكراته قائلاً : أنا ما كنت أعرف أن الحرب هي عبارة عن « تهجيص » إلا عند عزام !

وأنا أقول إن الأغرب من هذا التهجيص الحربي هو « التهجيص السياسي » وإلا فمن يقول إن أميركا وانجلترا تساعدان العرب على اليهود ، في حين أنهما هما اللتان خلقتا دولة اليهود !!



وصف حالة الجامعة
لاتزال الصحف تصور جامعة
الدول العربية بريش الرسامين
الذين يعبرون في هذه التصاوير
عن إحساس الأمة العربية نحو
الجامعة وأمينها أدق تصوير ،
وقد أوردت في هذا

الكتاب مثيلات
لها ، وكلها تدل
على انقطاع الأمل
منها .



الثقة العربية
عند شباك بنك
فالصورة العليا
تمثل الحكومات
وهي واقفة صفاً
الحاج عبد الرحمن - يحسق سيدي عبد القادر المكناسي ، أن ما كانت الكافر جوان ، يخضع لسيدي السلطان ، لا يكي يسمع
العين ، وأغرى للسما راسي ، وأدعى على اللعن القاسي !!



فيقول لها الشعب
ان رصيدكم قد انتهى
والصورة الوسطى
ترسم عبد الرحمن عزام
وهو ينقذ مراكش
بالكلام و«التعزيم»
والصورة الثالثة تبين
حقيقة الوضع مع
اليهود ، وهو انهم

هم الذين يحاصرون العالم العربي وليس هو الذي يحاصرهم .

من تصرفات عزام

وصرح السيد عبد الهادي البجاري عضو مجلس النواب العراقي أن عزام باشا يعين في الجامعة أشخاصاً لا يحملون شهادات ولا مؤهلات بدرجات عالية وخصوصاً أقاربه الذين يزيد عددهم على عدد جميع موظفي الأمانة العامة من الدول العربية الأخرى؛ وأنه رفع بعضهم خمس وست درجات دفعة واحدة وأنه رقى رئيس السعاة إلى درجة ملحق... وقال النائب العراقي إن التلميذ الدبلوماسي «فلان» بعد تجريده من الجنسية العراقية حين رجع إلى جنسيته السورية قد تمتع بإجازة سبعة أشهر قضائها بمحطة إذاعة دمشق في شتم العراقيين، وأن عزام باشا عينه ملحقاً من الدرجة الأولى بضعف راتبه الأول ومنحه مكافأة إستقرار ثلاثة رواتب مرة واحدة فكانت النتيجة أن «فلان» هذا قبض بموجب ذلك نحو ألف جنيه...

تصوير مختصر

وقد حلل كاتب مجلة روز اليوسف السياسي شخصية عزام باشا في فصل مختصر قال فيه «وعواطف عزام باشا تشبه النار ولكنها لم تحرق أو تكو صاحبها بل أحرقت شعوباً وكوت دولاً آمنت بعواطف عزام. وأن عزام باشا حريص على أن يظل في الأمانة العامة دائماً وأنه في سبيل هذا الحرص كلف الأمة العربية كثيراً وأفقدتها عدة معارك، وأنه اضطر أن يكون لبقاً مع الإنكليز حيناً، ومع شرق الأردن حيناً، ومع كل دولة وكل شخص وكل جهة يمكن أن يكون لها صوت في بقائه أميناً عاماً! فلو أن عزام لم يحرص على البقاء في الأمانة العامة لأصبح بطلاً وجنب الدول العربية كثيراً من الويلات...

ماذا قال التابعي عن الجامعة

وخير ما أختتم به قصص الجامعة العربية هو أن أثبت هنا تصوير حالتها الراهنة كما يراها الكاتب الشهير الأستاذ محمد التابعي، فقد نشر في مجلة آخر ساعة الصادرة يوم ١١ إبريل ١٩٥١ فصلاً بديماً عن الجامعة ونكبة فلسطين يجب تخليده إذ يقف منه الجيل المقبل على حقيقة

من حقائق الجيل الحاضر الذى سكت على مخرقات لا مثيل لها ، قال التابعى :
مرة أخرى أتحدث عن الذين لا يزالون يحسنون الظن بأمريكا وبريطانيا .. وفرنسا !
ويفزعون أو يلجأون إلى أمريكا وبريطانيا وفرنسا إذا أصابهم مكروه ! ..

ففى مقال سابق كتبت عن ضعف دول الجامعة العربية .. هذا الضعف الذى أورثها
الهوان .. فلم يعد أحد يهرب جانبها أو يعمل لها أقل حساب .. إلى أن قلت : ... إنها أصبحت
أضعف من أن تخشاها نفس إسرائيل ! بل إسرائيل هذه - حكومة عصابات وشذاذ الآفاق
كما كنا نسميها - أصبحت تعتدى فى كل يوم على دولة من دول الجامعة . والجامعة تسكت
و (تطنش) وتعمل أذنا من طين وأخرى من عجين .. وإذا تخرج الأمر فزعت تستغيث
بكبير مراقبى الهدنة .. إلى آخر ما كتبته فى عدد آخر ساعة الصادر فى ٧ مارس الماضى وها نحن
أمام اعتداء جديد ! . فإذا فعلت دول الجامعة العربية ؟ راحت تستغيث بلجنة الهدنة ...
وبمجلس الأمن ! . كأنها لم تلدغ مرتين وثلاث مرات من مجلس الأمن وراحت تذكر أمريكا
وبريطانيا وفرنسا بالبيان الذى كان أصدره وزراء خارجية الدول الثلاث فى شهر مايو ١٩٥٠
أى منذ نحو عام .. والبيان الثلاثى المذكور يفرض نوعا من الوصاية أو الحماية على دول الشرق
الأوسط - أى الدول العربية وعلى إسرائيل ! لأنه يأمرهم بمراعاة حسن الجوار وآداب السير
والسلوك وأن لا يعتدى أحد منهم على جاره .. ويهدد المعتدى منهم بالعقاب السريع . وفى
مقابل حسن السير والسلوك تتعهد الدول الثلاث الوصية الحامية - بضمان الحدود الحالية
لكل بلد عربى !

وإذا لم تكن هذه هى الحماية أو الوصاية فإن قواميس اللغة تكون إذن متهمة بالكذب
الصارخ المفضوح ! .

صدر هذا البيان فى شهر مايو الماضى وقالت صحف عربية - هنا فى مصر وفى سوريا وفى العراق
ولبنان - إن هذا البيان إنما يهدف إلى حماية دولة إسرائيل ! .. وإلى ضمان حدودها الحالية
وإلى إفهام الدول العربية أن إسرائيل قد ولدت لتعيش وأن الدول الثلاث أمريكا وبريطانيا
وفرنسا - وهى تملن ضمانها للحدود الحالية لدول الشرق الأوسط - إنما تقصد دولة إسرائيل بالذات ! .

أو كأنها تريد أن تقول للدول العربية : لا تفكرى بعد اليوم في بعث دولة فلسطين العربية..!
لأن إسرائيل هنا ونحن نحميها.. وفلسطين العربية راحت ولن تعود ! الحدود الحالية باقية..
ويجب أن تبقى !.. وإلا تدخلنا بقوة السلاح ! هذا هو البيان بالأبيض والأسود !..

إنه البيان الذى يفرض الذل والهوان على دول الجامعة العربية. ومع ذلك ! وقع اعتداء
إسرائيل المسلح على سوريا .. وإذا بدول الجامعة العربية - وعلى رأسها مصر - تفزع إلى
أمريكا وبريطانيا وفرنسا تذكرها ببيانها المذكور !.. أى تطلب منها الحماية من شر إسرائيل !
إلى هذا الدرك من الذل والهوان رضى سياسة العرب أن ينزلوا بنا وبقضية فلسطين !

إلا ما أسرع مرور الزمن !

منذ أعوام ثلاثة كنا نطالب - ولا أقل ! - بفلسطين كلها دولة عربية موحدة !.. وكنا
نهدد بإلقاء يهود فلسطين في البحر ..

ولما لم نفلح في إلقاء اليهود في البحر .. وأفلحنا فقط في تشريد مليون عربى .. عدنا نرجو
مجلس الأمن وغير مجلس الأمن ونطالب بمشروع التقسيم الذى كان قد وضعه الكونت برنادوت
وكنا نحن رفضناه بأبأء وشمم !..

واليوم .. نزلنا عن فلسطين العربية الموحدة ! ونزلنا عن مشروع الكونت برنادوت !...
ورضينا بمحدودنا الحالية .. وأصبحنا لانطلب سوى حماية أمريكا وبريطانيا وفرنسا لهذه الحدود !
أربعون مليون عربى يطلبون اليوم من أمريكا وبريطانيا وفرنسا أن تحميهم من عدوان
إسرائيل !

هذا هو الهوان الذى ما بعده هوان !

هذا هو الهوان .. ثم يبقى حديث الغفلة أو حديث التفكير السقيم !

هل سأل أحد هؤلاء السياسة العرب نفسه لماذا تقف أمريكا وبريطانيا وفرنسا إلى جانب
العرب .. ضد إسرائيل ؟ أو أين ومتى رضيت أمريكا وبريطانيا أو فرنسا بإغضاب إسرائيل
لكى ترضى العرب ؟..

ما من مرة اعتدت فيها إسرائيل .. إلا سكنت الدول الثلاث على هذا الاعتداء !

وما من مرة شكت فيها إسرائيل أو لطمت خدها وشقت جيوبها إلا أسرعت أمريكا
لنجدتها ومواساتها .. وتبرعت لها بالملايين؟!
ثم نستعرض موقفنا من الدول الثلاث .. نرى هل في هذا الموقف ما يشجع على الرجاء
في الإنصاف!

بين مصر وبريطانيا خلاف يوشك أن ينقلب إلى خصام .. وفي برلمان بريطانيا وفي صحافتها
حملات شديدة ضد مصر بوجه خاص وضد الدول العربية بوجه عام .. ولا تنسوا هنا مقال
جريدة (الأوبزفر) التي تكلمت فيه عن وجوب أخذ الدول الإسلامية بسياسة الشدة والحزم!
وبين الدول العربية وفرنسا خلاف وخصام بسبب مراکش.

ومفوضية أمريكا يعتدى عليها بالقنابل في دمشق .. وفي دمشق تسير المظاهرات تهتف
بسقوط أمريكا وبريطانيا وفرنسا!

وفي العراق يتحدثون علناً عن تأمين البترول وإلغاء عقد الشركة البريطانية صاحبة الامتياز!
وأستطيع أن أمضي في وصف (الموقف) - موقف الخصومة - الذي بيننا - نحن العرب -
وبين الدول الثلاث التي نفزع اليوم إليها وإلى إنصافها .. ونطلب منها أن تحميها من إسرائيل!
ولننظر بعدئذ إلى لسان الضعف الذي يتكلم به زعمائنا .. وإلى لسان التحدى الذي تتكلم
به إسرائيل!

زعماء العرب - هنا في مصر وفي سوريا وفي العراق - يتحدثون عن البيان الثلاثي وعن
الالتجاء إلى مجلس الأمن .. الذي لم ينصفهم ولا مرة واحدة!
وبن جوريون يتحدث فيقول:

إذا عاد السوريون إلى عرقلة الجهود السلمية التي نبذلها لإنشاء المستعمرات في هذه المنطقة
الخاضعة لسيادة إسرائيل اضطروا إلى مواجهة قواتنا المسلحة.

لم يهددنا رئيس حكومة (عصابات شذاذي الأفاق) بالالتجاء إلى مجلس الأمن .. بل
هددنا بقواته المسلحة!

مصرع فلسطين

اعترفوا باليهود

إن الدول العربية لا تريد أن تعترف بأنها معترفة بالدولة اليهودية فعلاً ورسمياً ، نعم انها اعترفت لعصابات اليهود بأنهم «دولة» وقد تم ذلك منذ اللحظة التي عقدوا فيها الهدنة معهم ، لأن الهدنة لا تعقد إلا بين «الدول» و «الدول» وليس بين الدول الرسمية والعصابات الخارجة على القانون . وبالأخص عصابات يهود فلسطين التي تسلت من وراء البحر ودهمت البلاد على صورة عدوانية سافرة وقحة لا مثيل لها منذ خلق الله الإنسان ، ثم أخذت تذبح السكان وتهبهم وتطردهم من بلادهم .

هدنة من جانب واحد

وقد مضى الآن على وجود الهدنة نحو ثلاث سنين . ومعنى المهادنة أن لا يعتدى أحد المتهادنين على الآخر ، كما أن الهدنة لا تعقد إلا بين المتحاربين .

فأنا أولاً أسأل : هل اشتبكت الدول العربية في حرب مع اليهود ؟ ومتى وأين وقع القتال ؟ إن الذى يعرفه الكافة هو أن الدول العربية استلمت المدن العربية من أهل فلسطين الذين سلموها بلدانهم تسليم اليد كما يسلم المستجير نفسه إلى المتقد ، ولكن الدول العربية راحت تعلن ببلاغات رسمية عسكرية طنانة أنها «استولت» على تلك البلدان «بدون مقاومة» فهل هذا الكلام يقال ، وهل هو صحيح ؟

كلا ، ولكن الصحيح أنه لم تقع معارك بين الدول العربية وبين اليهود ، بل رأينا اليهود يهجمون على الجيوش العربية ويهزمونهم ويستولون على مافي أيديها مما استلمته من أصحابه سليماً . ورأينا جيش الأردن يهرب عن ميسرة الجيش السوري في شمال فلسطين الشرق ويكشفها وبذلك قضى اليهود على جيش السوريين ، ثم رأينا الجيش الأردنى يترك اللد والرملة لليهود ويفر عن ميمنة الجيش المصرى فى جنوب فلسطين فهزمه اليهود وأخذوا منه بئر السبع والمجدل وجميع صحراء النقب حتى خليج العقبة ، ورأينا الجيش العراقى وافقاً فى وسط فلسطين يتفرج على المأساة ، فلا هو ساعد الجيش السوري ولا هو أنجد الجيش المصرى ، مع أن الجيش العراقى فى فلسطين كان أكثر الجيوش العربية عدداً وأكملها نظاماً وسلاحاً وأحصنها موقفاً ، فقد كان فى إمكانه « لو أراد قواده وولاة أمره » أن يخسف بمدافعه

مدينة تل أبيب لتمكن من ذلك بدون أن يتحرك من مكانه لأنه كان متحصناً في الجبال المطلّة على تل أبيب وما حولها من مدن ومستعمرات يهودية بمصانعها ومعسكراتها ولم أذكر مطاراتها، لأن اليهود يومها ما كانوا يملكون طائرات مطلقاً .

والخلاصة أنه لم يقع قتال بين الجيوش العربية وبين اليهود، ومن كان لديه أى دليل على أن الجيوش العربية هجمت على جيش يهودى واحد فليذكره للناس وليقل أين وكيف ومتى كان ذلك ...

وإننى أقرر على رؤوس الأشهاد أن مدينة القدس نفسها لولا صمود من فيها من المجاهدين بقيادة أحمد حلمى باشا لسقطت فى أوائل أيام القتال ، ولولا الهدنة الإجرامية التى رحمت إليها بعض الحكومات العربية لسقط الحى اليهودى الكبير الذى يحيط بالقدس واستسلم فيه مئة ألف يهودى وقد أيد هذا القول مناحم بيجن قائد عصابات اليهود فى مذكراته التى نشرها فى سنة ١٩٥٠ وترجمتها صحف القدس العربية بعد ذلك .

الهدنة أيضاً

ذكرت أن الهدنة مضى عليها الآن نحو ٣ سنين وأن معناها عدم اعتداء أحد على أحد، ولكن ما الذى حدث فى خلال ذلك ؟

لقد حدث أن اليهود لم يحترموا الهدنة يوماً واحداً ، كما أن الدول العربية لم تخل بالهدنة مرة واحدة ! بل بقيت ساكتة ساكنة مؤدبة تحافظ على القانون وتحترم الأصول ...

بل إنها لا ترد عدوان اليهود ولا تدافع عن نفسها ، وهامى لازل منذ ثلاث سنين تتلقى الاعتداءات عليها من اليهود مكتفية بالشكوى عليهم إلى «لجان الهدنة» وتبعث بالاحتجاجات إلى أميركا ...

وبعد ذلك ...

لا تزال الهدنة قائمة ، ولكن إلى متى ؟ لا يدري أحد متى يأتى هذا «المتى» !، ولكن الذى رأيناه هو أن الدول العربية بعد أن افتعلت الهدنة وبعد أن فرضتها على الفلسطينيين أنفسهم الذين هم أصحاب الأرض والوطن ، لا تزال وافقة لا تتحرك ، فلا هى تصالح اليهود لأنها لم تحاربهم، ولا هى

تجاربهم لأنها لا تنوى محاربتهم ، بل تركتهم يهضمون الغنيمة التي غنموها ويستعدون لجولة أعظم . وفي خلال ذلك تضيع حقوق الفلسطينيين وأموالهم وتهدر دماؤهم ويزيد مرور الزمن في إسبال ذيل النسيان على كل حق لهم ، ومع ذلك فإن الدول العربية التي تحلم بهذا الصلح لن تستطيعه لثلاث تفضيح أمام شعوبها ، لأن معناه الاعتراف بضياع فلسطين نهائياً ومنعاه أيضاً الاعتراف بالهزيمة ، بل على ماذا تصالح وهي لم تفقد شيئاً من أرضها ، لأن الذي أخذه اليهود هو أرض الفلسطينيين « ومنعول أبو فلسطين » ...

استطراد !

إننا لا نسمع منذ ثلاث سنين إلا الأخبار التي أذكر نماذجها فيما يلي وستستمر إلى يوم البعث ، وهي : هجم اليهود على المنطقة الفلانية من أرض لبنان واحتلوها ونهبوا القرى وطرّدوا سكانها ، فاحتج لبنان .. وهجم اليهود على الجهة الفلانية من أرض سورية واستولوا على مافي القرى من أرزاق وماشية . فاحتجت سورية! وهجم اليهود على الأرض الفلانية من صحراء سيناء المصرية وطرّدوا البدو منها بعد أن نهبوا كل ما يملكون من إبل ثم أحرقوا خيامهم فاحتجت مصر .. وهجم اليهود على المناطق الفلانية من فلسطين الواقعة تحت حكم الأردن وذبحوا أهل القرى وسلبوهم أمتعتهم وأموالهم ثم طردوهم منها . أما هنا فلا احتجاج من حكومة الأردن ولا اعتراض ، بل أوامر بمنع جنودها من التعرض لليهود ، وأوامر بالتراجع إلى الوراء ، وأما فلول سكان القرى الذين سلموا من الذبح فلا يجوز لهم الصياح ولا الأخذ بالتأثر حتى لا تعد حكومة الأردن قد أخلت بالهدنة ، بل تمنع الصحف من نشر أنباء تلك الفضائع وضياع الوطن ؟

إنها أذل هدنة عرفتها تواريخ الحروب منذ خلق الله الحروب ...

اليهود يؤدّبون الدول العربية

إنني أسطر هذه الصفحات في شهر أبريل سنة ١٩٥١ حين وقع هجوم من اليهود على حدود سورية والأردن في وقت واحد ، فأما حكومة الأردن فقد طلبت السلامة والمافية

وسحبت جندها ^(١)... وأماسورية فإنها حاولت أن تدافع عن كرامتها فتصدى جندها لليهود، فإذا بثان طيارات يهودية تغير على الأراضي السورية فتدمر بقنابلها بعض القرى وتخرب وتقتل، ثم تعترف حكومة اليهود بذلك رسمياً وأنها أمرت بهذه الحملة «التأديبية» لإفهام السوريين وجوب الوقوف عند حدتهم...

إن هذا التعبير وحده ليكفي لإثارة الدم في رأس كل عربي وكل مسلم على وجه الأرض. أتقوم «دولة» عصابات اليهود المتشردة المجرمة بهذه الفظائع، ثم تهين العالم العربي بهذا التعبير المهين ولا تهرع الزخوف من جميع البلاد العربية لتأديب اليهود تأديباً حقيقياً؟ اللهم لا حول ولا.

لقد كنا نفهم ذلك التعبير من انجلترا حين كانت ترتكب الفظائع مع القبائل في الصحراء وتقول إنها عمليات تأديبية... أما أن يصدر هذا الوصف من عصابات أشرار ومجرمين أجانب مع دولة نظامية وهي في أرضها، فذلك أشد أنواع الذل والإهانة فيا للحنن والأسى.

معنى الهدنة

إن الخنوع الذي بدا من الدول العربية أمام اليهود وتسميه حكوماتنا «هدنة» إنما كان بين هذه الدول مجتمعة من ناحية وبين اليهود من ناحية أخرى، وبذلك أصبح واجباً على كل دولة عربية أن تهجم من ناحيتها على اليهود بمجرد إخلالهم بالهدنة مع أية دولة عربية من

(١) إن تعدد فرار جيش الأردن من وجه اليهود و«مساحتهم» بكل ما يأخذونه من أرض الفلسطينيين لم يكن فقط بأمر حاكمها العربي الدخيل وحده، بل بأمر الجنرال جلوب البريطاني قائد جيش الأردن أيضاً... وقد حدثني عربي من يافا كان اليهود قد استبدلوه يهودي عند حدود القدس فأحضره أمام القائد لاش البريطاني الذي يقود مفرزة من جيش الأردن فأراد أن يسأل اليافا القادم للقدس عما هناك من معلومات فابتسم اليافا وقال للقائد لاش «سأل شقيقك الذي هناك فالأخبار كلها عنده!» ذلك أن أحد الشقيقين - أو الشقيين - يشغل بقيادة فريق من جيش حكومة الأردن، ويشغل شقيقه الآخر الكولونل لاش بقيادة فريق من جنود اليهود عند دولة إسرائيل! فبعد هذه الحكاية العجيبة هل يستطيع مخلوق في الدنيا أن يستغرب هزيمة الأمة العربية وحكوماتها أمام اليهود ما دامت حكومة الأردن تضع جيشها في أيدي قواد من الإنجليز؟

أخواتها ، فلو أن اليهود رأوا من دولنا السبع هذا التضامن مرة واحدة فقط ، لما تكرر من اليهود أى إخلال بالهدنة .

بعد التأديب . . .

لقد هال السوريين هجوم اليهود عليهم بهذه القحة والشدة ، فسألوا الحكومات العربية أن تنجدهم فأنجدهم بما يأتى . أبرق نورى باشا السعيد رئيس الحكومة العراقية إلى حكومة سورية بأنه مستعد لكل مساعدة تطلبها سورية . . . وهو يرمى إلى إرسال جيشه لاحتلالها وضماها إلى «الهلل الانكليزى الخصب» . . . وأبرق رئيس الحكومة المصرية بأنه لا يستطيع أن يقف مكتوف الأيدي أمام العدوان اليهودى على سورية . . . ولكنى أستبعد أن تتحرك مصر لمساعدة الدول العربية بعد أن ذاقت الغدر بجيشها مرتين ، الأولى حين سحب الأردن جيشه من اللد والرملة ومكن اليهود من مهاجمة الجيش المصرى ، والثانية حين أمر نورى السعيد جيشه العراقى بالفرجة على الجيش المصرى وهو منهمك وحده فى قتال اليهود فى النقب وذهب قائد جيش لبنان إلى دمشق يقول لحكومة سورية إن جيش لبنان مستعد لمساعدتها ، وهذا غير صحيح ، إذ لا جيش عند لبنان ولا سلاح ، ولو كان يملك شيئاً من ذلك لتصدى لليهود الذين لا ينفكون عن مهاجمة أراضيه هو كل يوم !

وأبرقت الحكومة السعودية إلى سورية تعرب عن استعدادها . . . وهذا غير وارد لأنه لا يوجد هناك جيش ، وان وجد فلا يمكن وصوله من الأراضى السعودية إلى سورية ، بل أن الحكومة السعودية قد صادرت قرضاً عقده لسورية منذ شهور !

سوء النوايا والتخاذل

وفى خلال ذلك ؛ وبدلاً من أن تتحرك فعلاً أية حكومة عربية واحدة لضرب اليهود من ناحيتها لتأديب اليهود الذين « أدبوا » السوريين ، أخذنا نسمع عن مقترحات عربية بإجراء مقاضات لعمل جبهة متحدة ! ولكن جامعة الدول العربية لماذا هى موجودة ؟ والضمان الجماعى الذى أمضوه لماذا عقدهوه ؟ وإذا كان ميثاق هذا الضمان لا يجعل الدول العربية تنجد بعضها بعضاً فما هى الفائدة من عقده فى الوقت الذى نقرأ فيه أن حكومة الأردن كانت قد صادرت سلاحاً لمجاهدى القدس

حين كان أحمد حلمى باشا يدافع عنها ، فقد حدث فى تلك الأيام أن حلمى باشا اشترى أسلحة لفلسطين من الصحراء الغربية المصرية وجلبها عن طريق الأردن فأخذت حكومته الصالح منه وحبسته عندها بحجة الاحتياج إليه وليتها مع ذلك استخدمته ضد اليهود ، بل إنها احتفظت به وكفى ! لأن المقصود لم يخف على أحد ، وهو منع تسليح الفلسطينيين أولاً ، ثم زع السلاح الذى عندهم ! وإلا فهل يعقل أن تستعين الحكومات النظامية المسلحة والتي يمكنها جلبه علناً وتأخذ أسلحة كتائب شعبية مجاهدة لا تتمكن من السلاح إلا بالتهريب ؟

كما أن حكومة النقراشى باشا وعبدالمهادى باشا قد صادرت للجيش السورى أسلحة كان قد اشتراها من مخلفات الجيش البريطانى فبقيت إلى الآن معطلة فأكلها الصدأ ..
إننى أتصور أن السماء لو أنزلت علينا قرآناً جديداً باسم الضمان الجماعى أو الجبهة المتحدة لما نفذوا من ذلك حرفاً ، لأن أسباب قيام الدول العربية بواجب الدفاع عن أخواتها لا تزال موجودة ولكنها لا تتحرك ، فإذا تنتظر من قوم لا يدافعون هم عن أنفسهم .

الحماقات ...

أما الذى يضحك الشكلى فهو ثرثرة ساستنا وخفتهم ورعونتهم وكثرة كلامهم ، وحسبك أن تقرأ صحفنا العربية فى كل مكان لتجد فيها أخبار الجيوش العربية وأسرارها منشورة ومفصلة ، وتجد أيضاً وصف الجيوش وعددها ونوع سلاحها وأما كن تجمعاتها . وعدد السفن الحربية - إن كان لدينا سفناً تنفع - مع وصف قوتها وعدد بحارتها ومدافعها ومن أين اشتريتها - أو ستشترتها - وأنا سنقيم مصنعاً للسلاح الفلانى وسيكون حجمه كذا وموضعه فى الجهة الفلانية أيضاً ... وهناك إفشاء الأسرار السياسية ، فالعقيد الشيشكى جاء لمصر مع بعثة عسكرية للمذاكرة فى أمر هجوم اليهود على سورية ، فإذا بكل ما قيل عن الغرض من مجيئه ومع من تحدث وماذا قال وماذا قيل له ينشر كله فى الصحف بسطاً وافياً كافياً ...

الواجب الذى كان

إن مجيئ العقيد الشيشكى لمصر فى تلك الظروف ما كان يجب أن يقع ، مادام القتال كان يجرى بين سورية واليهود ، لأن اليهود لما سمعوا بسفره إلى مصر فهموا أنهم ماصرياً أن القوات السورية

ضعيفة بدليل أن قائدها العام راح يستصرخ القاهرة لتساعده ولولا ذلك ما ترك بلاده، وهنا اشتد طمع اليهود بالجيش السوري واستأنفوا العدوان . وإن سألتى سائل عما كان يجب على الشيشكلي أن يصنع مادامت الحالة على ما وصفت ، فأقول إن الواجب عليه يومها أن يرسل من قبله بعثة عسكرية سياسية إلى مصر لتقوم بالمهمة وتشرح لها الموقف في سورية . أما إذا كان لابد من مجيء الشيشكلي فكان عليه أن يأتي لمصر سرا ويعود إلى جبهة الحرب في سورية سرا بدون أن يجعل الأعداء يشعرون بحركاته، لأن حركات القائد العام في أيام القتال تعتبر دائماً من الأسرار العسكرية .

ساسة الأجانب

إن تشرشل كان يغادر إنجلترا في أيام الحرب ويقوم باتصالاته مع الدول الحليفة ويزور جبهة القتال ثم يعود لبلاده بدون أن يشعر أحد بحركاته هذه التي لم يعلم بها الناس إلا بعد الحرب بسنوات .

هكذا يعمل ساسة الدول وقوادها المترنين الحريصين، وأما الظنطنة عند كل حركة وإحداث الضجيج المفتعل في مثل هذه المواقف ، فهو شأن أدعياء السياسة وولاة أمور الأمم المحدثين إننا منذ ثلاث سنين لم نعرف شيئاً عن حركات اليهود العسكرية ولا ما هي حقيقة عصاباتهم ، ولا ماذا يصنع ساستهم ، ولا كيف يتنقلون في سبيل أمتهم ، فهذا كله مكتوم ومحاط بالسرية التامة فلا تنشر منه الصحف إلا ما تسمح به السلطات اليهودية ذات الشأن . وبمناسبة مجيء العقيد الشيشكلي إلى مصر ، أقول إن أحد الرسميين السوريين جاء في ليلة مجيئه يسألني ما هو موقفك الآن من العقيد وهو يجيء إلى مصر ، في حين أن موقفك منه غير ودي بسبب الدكتور أمين رويحة ، فقلت له إن العقيد يجيء الآن من أجل سورية ولذلك سأذهب لزيارته وترك بطاقة تحية له بالفندق، وسأقوم بمحادثة كل من أرى محادثته من ذوى الشأن في مصر لتأييده في مهمته .

الشيء بالشيء يذكر

أما هذا الشيء فهو أنني لاحظت من أمور الأمة العربية شيئاً يدل على أن فهم بعضها

بعضاً غير موجود مع الأسف، فهذا السياسي العربي الفطاحل لا يعرف سلطنة مسقط أين تكون، وذلك السياسي الكبير العربي لا يدري ما هو اسم رئيس الوزارة العربية الفلانية التي هي من أعضاء الجامعة العربية وهو عضو فيها، والعربي الفلاني السياسي لا يعرف أين هي المملكة التونسية ولا ما هو نوع حكومتها ولا ما هي صلتها بفرنسا، وعرضت أوراق عن بلاد الكويت على أحد فطاحل جامعة الدول العربية وهو برتبة وزير مفوض فألقاها جانباً وهو يقول «الكويت ! أين هي الكويت ؟» وهذه الحادثة معروفة ومشهورة وقد تندر بها النواب في البرلمان العراقي ونشرتها صحف القاهرة وقد فصلتها في كتاب «معتقلها كستب» وذكر الأسماء...

إنني أسمع محطة الإذاعة بالقاهرة وهي تخبر عن أحداث جارية فإذا بالذيع لا يكاد يذكر أسماء الوزراء العرب المفوضين بالقاهرة إلا محرفة غالباً، ولا يذكر اسم مدينة في العالم العربي والبلاد الإسلامية إلا وجدته يغلط في التلفظ باسم تلك المدينة أو يذكره متلعثمًا ثم يبلغ نصف حروفه، بل إن هذا التخبط طالما رآه الناس في بعض الجرائد المفروض فيها أن تعرف بلادها كما تعرف أوروبا ! واطلعت مرة على خارطة عربية في مكتب حربي رسمي مقاتل ونحن في حرب مع اليهود، فإذا بأسماء مدن من فلسطين ومواقعها ترد فيها مغلوطة ومشوهة ومحرفة... فلم يسعني إلا أن سحبت القائد من يده إلى خارج الغرفة حتى لا يسمع الحضور حديثنا ونبهته إلى خطورة ما رأيت...

الاستيعاب وسبحان مغير الأحوال

وفيما كنت أسطر هذا الفصل قرأت شيئاً عن فلسطين وأهلها ما كنت أتصور أن أعيش وأشهده، وذلك أن أحد ساسة فلسطين نشر كلاماً في جريدة المقطم يقول فيه إن حجج اليهود عن استحالة عودة الفلسطينيين المشردين إلى بلادهم بسبب امتلائها بالمهاجرين اليهود هي حجج غير صحيحة ثم يقول «إن منطقة الجليل الغربي مثلاً كان يقطنها في أيام الانتداب البريطاني ١٧٨ ألفاً من السكان منهم ٣ آلاف يهودي وكانت الملكية اليهودية تؤلف ٢٥ في المئة من جملة أراضيها. أما اليوم فإن هذه المنطقة لا يسكنها سوى ٦٠ ألف عربي و١٥

ألف يهودى ومعنى ذلك أن فيها متسعا لثمة ألف نسمة وفيها قوة استيعاب أخرى - حسب تقارير لجنة سمبسون - تعادل ضعفى عدد سكانها في أيام الانتداب وذلك بسبب خصوبة أراضيها وجودتها الخ .

فبعد أن قرأت هذه الحجج لا أكنتم عن القارىء أنني ضحكت ، لا إعجاباً واستحساناً بل من شدة القهر والكمد ، لأن هذا الجدل كنا نسمعه معكوساً ، فاليهود كانوا حين كانت فلسطين في أيدينا يوردون أمثال هذا الكلام ليبرهنوا على أن في فلسطين متسعاً لإسكان عدد كذا ألوف من اليهود الجدد في المنطقة الفلانية ، وأن الجهة الفلانية قليلة السكان من العرب وأن قدرتها على الاستيعاب تتحمل مجيء عدد كذا ألوف من مهاجرى اليهود الوافدين ... لقد كانوا يوردون هذه الأدلة لتقبلهم عندنا فأصبحنا نورد لها لهم يقبلوننا ، وشتان بين الحالتين ، الحالة حين كانوا يحتالون ليأخذوا أرضنا ، والحالة حين صرنا نحاول أن نحتال لنقتنهم بأن يسمحوا لنا بالعودة إليها ...

إن هذا ليدل على أن الأمة العربية وصلت في الهوان إلى هذه الدرجة من الاستجداء ، في حين أن الأطفال يدركون بالغريزة أنه ما لم تزحف جيوش مسلحة على يهود فلسطين الملققين من يهود أوروبا ويهود الصين وأميركا الذين سلبوا فلسطين من أهلها ، أنه بدون زحف جيوش تطرد اليهود بالسلاح لا يمكن لعربي أن يعود إلى فلسطين ، بل إن بقايا العرب فيها يطردون الآن منها فوجاً بعد فوج وجماعة وراء جماعة .. إن الدول العربية تعرف ذلك فلماذا تتجاهله؟
رجوعاً إلى الهدنة

أن الهدنة في الحقيقة غير موجودة إلا في قاموسنا نحن فقط ، وأما اليهود فليس لهم أدنى علم حقيقى بها ، فخرق الهدنة المزعومة من ناحية اليهود يجرى كل يوم وفي كل ساعة ، فكل أرض عربية يريدونها اليهود أخذوها ، وكل قرية يرون أن من المناسب الاستيلاء عليها استولوا عليها ، وقطعان الماشية التي عند العرب ويرونها قرية من الحدود فهم يقتحمون الحدود ويأخذونها ويندبحون أصحابها أن خطر لهم الدفاع عنها ، وأما الدول العربية المتصلة بهذه الأرض فلا يخطر على بالها الدفاع عن حقها ، ليس بخرق الهدنة ، بل للدفاع عن الهدنة ! لأن حكوماتنا العربية

تعتقد وتتصور أن الإنكليز والأمريكان سينقضون عليها إن لم تتأدب مع اليهود . وهذا غير صحيح ، أما الصحيح فإن الدول العربية لم تعتقد حتى الآن أنها مستقلة حقاً ، فالفزع من دول الاستعمار لا يزال يفعم أفئدة ساستها وساداتها رهبة ورعباً ، فبالرغم من وجود السلاح في أيديهم فإن الملع يملأ قلوبهم !

قيل إن أحدهم أصيب بالخبيل ، فتوهم أنه أصبح حبة قمح ، فكان كلما رأى دجاجة ، فر هارباً واختبأ ! فأرسله أهله إلى المارستان حيث عاجله الأطباء ، إلى أن اقتنع بأنه إنسان ، وبأنه ليس حبة قمح . ثم غادر المستشفى عائداً إلى بيته ، فرأى في طريقه دجاجة ، فإذا به يقفز كالجنون ، ويعدو نحو المستشفى ليختبئ ! وجاء الطبيب يفحصه ، ويقول له ماهذا يا صاحبي ، ألم تتفق على أنك إنسان وليس حبة قمح ؟ فأجاب : صحيح ، لقد اتفقنا ، وأنا مقتنع بذلك كل الاقتناع . ولكن بقي عليكم أن تقنعوا الدجاجة ...

الألقاب أضاعت فلسطين

إن الجزء الجنوبي من بر الشام الذي سمي بعد الحرب العظمى الأولى باسم « فلسطين » كان يحكم بأسلوب استعماري مباشر ، غير الأساليب الاستعمارية الأخرى في الأردن وسورية ولبنان ، لأن هذه الأجزاء الثلاثة كانت تحكم بحكومات أهلية المظهر ، فهناك جمهوريات وإمارات فيها وزارات وأدوات مغرية للناس ، كالأوسمة والألقاب من باشويات وبكويات ، وأصحاب دولة ومعالي وسعادة ونخامة ، ورئيس محكمة عليا ، ورئيس مجلس نواب ، ورئيس مجلس شوري ، وقاضي قضاة ، ومدير عام ، ومستشار ومحافظ ومتصرف الخ .

وأما فلسطين فكانت تحكم بنائب ملك بريطاني ورؤساء إنكليز ويهود ، فلم يكن بين الفلسطينيين شخص يتمتع بمنصب كبير أو يحمل لقباً فخماً .. أنا لا أنكر أن تلك الألقاب وأسماء الوظائف والرياسات والإمارات لم تغير شيئاً من الواقع ، وأن الأجنبي المستعمر كان هو الحاكم في كل مكان ، ولكن الألقاب والمناصب وجاهاها وأبهتها موجودة ، فلا يستطيع إنسان أن ينكر مفعولها ولا سحرها ما دمنا قد اصطلحنا على تعظيم هذه القشور ، بدون أن نفطن إلى كون الأجانب قد جعلوا من هذه الألقاب مفسدة لأخلاقنا ومصيدة لرجالنا !

فمع الأيام أصبح الفلسطينيون وليس لهم رئيس أعلى، ولا يوجد فيهم من وصل إلى كرسي وزير - ولو كان وزيراً خيالياً ككل الوزراء في البلاد المحكومة بالأجانب - ولا يوجد فيهم من ظفر بقلب باشا أو بك أو صاحب معالي أو دولة الخ أقول إن أهل فلسطين أصبحوا بعد أن حرموا من كل حقيقة وكل مظهر، يظنون أنهم أقل من جميع إخوانهم وجيرانهم قيمة ووزناً. وصار أصحاب الألقاب في نظرهم مع الزمن شيئاً عظيماً وأنهم فوق مستواهم، ولذلك أصبح لأصحاب الألقاب في ذهنهم وخيالهم من القداسة مكانة كبيرة، هي القداسة بعينها... والله در الشاعر المجيد كمال النجمي حين قال في قصيدته المشهورة عن استشهاد فلسطين وأهلها:

فقد تحكم فيهم أجنب شرس	مسيطر فوقهم بالقهر والغلب
يعينه ساسة عرب أبالسة	أزرى بهم كلف بالحكم واللقب
ما فيهمو غير خواف لأمته	مضيع لحقوق الشعب مغتصب
يسير في خيلة الأبطال منتفخا	يهز في يده سيفاً من الخشب
يجر أذيال ألقاب منمقة	يختال فيهن كالطاووس ذي الذنب...

الموضوع !

فبعد هذه المقدمة أقول إن الفلسطينيين لما سمعوا بأن صاحب العظمة الأمير « فلان » يصبح معهم، وأن صاحب الدولة « فلان باشا » رئيس الحكومة الفلانية يؤيدهم، وأن صاحب السعادة « فلان باشا » ينصرهم، وأن صاحب المعالي « فلان باشا » يصرخ معهم، وأن صاحب الفخامة « فلان كذا » رئيس جمهورية كذا قد غضب لهم... وأن الدول العربية السبع قد حشدت جيوشها وزحفت على يهود فلسطين من جميع النواحي... ثم رأوا هذه الجيوش قد وصلت إلى بلادهم فعلاً، ومعها المدافع الطويلة ذات المرمى البعيد، وفوقها الطيارات المحلقة في السماء، ثم بدأت هذه الدول المتقدمة تتسلم منهم المدن العربية والمواقع العسكرية، ثم تعين منها الحكام العسكريين هنا وهناك؛ بل إن كل دولة عربية منها قد أحضرت معها طوابع بريدها بعد أن طبعت عليها اسم « فلسطين » و « إنقاذ فلسطين ».. الخ ثم زعت أسلحة الأهالي من مجاهدين ومرابطين، وقالت لهم الزموا الهدوء والسكينة والطاعة

بحجة أنه لا يجوز للجهاير ولغير المسؤولين أن يحملوا سلاحا ، ولا أن يتدخلوا في الأمور الجدية الرسمية ...

فبعد هذا كله من يستطيع أن يلوم الفلسطينيين إن صدقوا ما كانوا يسمعون من بيانات وتصريحات يقذف بها أمراء وحكام وباشوات ، عن « الاجتماعات الخطيرة » التي كانت تعقد ، و « المؤتمرات السرية » التي كانت تأتمر - بل تتآمر ، وما تخلل ذلك من عربدات على اليهود ، وتهديدات لهم بالسحق والمحق والقذف بهم إلى البحر ، أقول إن أهل فلسطين قد صدقوا هذا كله ، وكيف يلامون على تصديقهم الدول العربية السبع وكيف يكذبونها بعد أن رأوا بأعينهم الجيوش والجحافل والطائرات والمدافع قد وصلت إلى بلادهم وحطت رحالها في أرضهم واستولت على مدنها تحت قيادات رسمية ، يحمل رجالها رتباً وألقاباً ، من درجة مقدم وعقيد وقائمقام ، إلى كولونل وجنرال ومارشال ... وكيف يعقل أن أولئك وهؤلاء كانوا يكذبون عليهم ؟ هذا مستحيل ...

النتيجة ...

إذن فالذي سمعه الفلسطينيون ورأوه تحت تأثير الألقاب ، كان طبيعياً لا شبهة فيه ، وأما غير الطبيعي ، والذي ينطوي على كل شبهة ، فهو أن هذه الجيوش ما كادت تشتبك مع اليهود في معركة واحدة حتى رأيناها قدها دنت اليهود بلا سبب ولا موجب ولا باعث ، وبعد قليل رأيناها تولى الأدبار عائدة إلى بلادها ، ناجية بنفسها ، تاركة الفلسطينيين لمصيرهم المحتوم ، وهم بلا سلاح ، ولا تنظيم ولا شيء من أدوات الدفاع ، وإني أكرر القول هنا وفي كل مكان وإلى الأبد ، إن اليهود لم يأخذوا من الفلسطينيين مدينة عربية واحدة ، وأما الذي سلم المدن والمواقع إلى اليهود فهم أولاً الإنكليز قبل أن يخرجوا من فلسطين ، إذ ساموهم حيفا ويافا وعكا وطبرية . وأما بقية المدن والقرى فقد أخذها اليهود من قبضة جيوش الدول العربية ، وهي صفد ، وبيسان ، وسمخ ، وبئر السبع ، والمجدل ، واللد ، والرملة ، وشفا عمرو ، والطنطورة ، والناصرية الخ وما حول هذه المدن من قرى ومواقع وسكك حديدية ومطارات ومعسكرات ، ومن سهول وجبال وبحيرات وأنهار !

الفلسطينيون مسئولون أيضاً

لقد دافعت عن أهل فلسطين كثيراً . ولكن هل كانوا كلهم أبرياء من دم وطنهم ؟ والجواب كلا ، بل ان منهم من خان البلاد من أول يوم جاء الإنكليز فيه لفلسطين ، وفيهم من تستر على هؤلاء الخائنين ، ومنهم من استهان بالخطر في أول أيام الخطر ، ومنهم من كان مغفلاً لا يصدق أن وطنه على وشك الضياع ويعتبر اليهود لشدة غباوته « أولاد الميتة » .

وكان يوجد من الفلسطينيين من يظن الدعاية عملاً سخيلاً لأهمية له ، ومنهم من كان يعتبر الصحافة شيئاً لا قيمة له ، وبعضهم يظنها مفسدة للعباد ، ولم يخل الأمر من وجود أعيان وزعماء كانوا يهتمون بإيجاد الجرائد ولكن بدون أن يمدوها بأكثر من الاشتراك السنوي فقط بشرط أن تثني عليهم ، أو تطعن لهم في خصومهم ، ولم أذكر من هؤلاء من حاربوا الجرائد الوطنية وساعدوا الجرائد الخائنة ... انه البخل والجهل والغباء والأنانية والغرور !

أمثلة

إنني أعرف من الفلسطينيين أشخاصاً ما كادوا يرون الإنكليز يدخلون أرض فلسطين سنة ١٩١٧ حتى ركضوا بين أيديهم وكانوا في خدمتهم ، وأعرف من احترقوا مهنة السمسة على بيع الأراضي العربية لليهود ، وأعرف من كانوا يعملون في الوظائف الحكومية لحساب الإنكليز ويحاربون الحركات الوطنية ، وأعرف من كانوا يسخرون بالذين يكتبون ويخطبون ضد الإنكليز واليهود ، والذين كانوا يكسرون الإضرابات الوطنية ويهونون من أمر الأمة ، والذين كانوا يحاربون المشروعات الوطنية ويفسدونها ، والذين يقاومون المؤتمرات القومية ، ويدسون على الوفود المتوجهة إلى الغرب والشرق لنشر ظلامه الأمة وبسط قضية البلاد ، والذين خذلوا المحبوسين السياسيين ثم تركوا عائلاتهم تموت جوعاً ، ومن بخلوا على الهيئات الوطنية بالقليل من المال ! وعلى المتكويين من فظائع الإنكليز بما يعرضهم بعض العوض : ومن كانوا يشتمون كل وفد مجاهد يقصد ديار الغرب للدفاع عن فلسطين ، ومن أمسكوا أيديهم عن البذل حتى في الحين الذي بدأت فيه فلسطين تسقط في أيدي الأعداء .

ذكريات قديمة

نرجع من الأول فأقول : في مبدأ الأمر سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠ وحين كان اليهود

يصدرون الجرائد بفلسطين بكثرة وبكل اللغات وبالعربية أيضاً - وليس للعرب جريدة واحدة - كنت في فلسطين مديراً للبريد والتلغراف بنابلس ، فاطلعت بحكم الوظيفة على أمور دلتني على أن الإنكليز ينوون لفلسطين شراً ، فمثلاً أن عدد اليهود يومها كان لا يزيد في فلسطين كلها على ٥٠ ألفاً ، ولكنني لاحظت أن الحكومة كلها تكاد تصبح في أيديهم وأيدي الإنكليز ، فأول حادث جعلني أتوقع الشر من الإنكليز هو أن الأوامر صدرت لإدارة التلغراف بأن تقبل البرقيات باللغة العبرانية ! وبعد ذلك صدرت أوامر بأن تغلق مكاتب البريد والبرق بعد ظهر السبت وطول يوم الأحد ، ولكن أين هذا؟ أنه في مدينة نابلس التي لا يوجد فيها يهودى واحد على الإطلاق ، ولا يوجد فيها من المسيحيين أكثر من خمسين بما فيهم الإنكليز أنفسهم ... كنت فتى في تلك الأيام ، فكتبت إلى المدير العام الإنكليزى بالقدس أسأله بكل بساطة عن سبب الإغلاق بعد ظهر السبت ، ولماذا تغلق يوم الأحد بدلاً من الجمعة ، كما سألته عن أعيادنا الكبرى كعيد الفطر وعيد الأضحى ولماذا لم يذكرك ذلك في التعليمات التي أرسلها بل اكتفى بعيد الميلاد المسيحي ورأس السنة المسيحية وعيد ملك الإنكليز !

خجأني الرد بأن « أطيع » الأوامر ، وأن لا أتدخل « فيما لا يعنيني » ! فهرولت إلى زعماء المدينة وأفضيت إليهم بهذه الأحداث والشر المستطير ليأخذوا حذرهم . ومن تلك الدقيقة بدأت أفكر في ترك الوظيفة والرجوع إلى مصر ، وإذا بالإنكليز يستعجلوننى ولهم الشكر ، لأنهم شكوا الحكومة المدنية برياسة السر هربرت صموئيل اليهودى البريطانى وعينوامدى الإدارات التي تشبه الوزارات من الإنكليز واليهود فقط ، وجعلوا مدير العدلية يهودياً ! وهو الذى يسيطر على المحاكم الشرعية وجميع المحاكم الأخرى ... ومعها الأوقاف والمساجد ...

ثم ماذا بعد ...

هنا استقلت من تلك الوظيفة الصغيرة التي كانت كبيرة بالنسبة إلى وبرغم حاجتى إلى مرتبها .. وكانت الصحافة هي الطريقة التي كنت أحلم باحترافها بعد أن خبرتها وكتبت فيها مقالات قبل ذلك في يافا وبيروت ومصر ، فاجتمعت - وهنايت القصيد - بالكبراء والأغنياء والزعماء وبسطت لهم مشروع إصدار جريدة أسبوعية صغيرة ، فحبذ بعضهم فكرتى ، ثم أجمعوا على شيء واحد : وهو أن لا يدفعوا للمشروع قرشاً واحداً ! ولكنهم قالوا إنهم مجرد

صدورها سيشتري كون فيها - والاشتراك هو نصف جنيه في السنة ! وكان عدد « المتبرعين » بالاشتراك ١٥ شخصاً ...

فلم يسعني بعد أن عرفت استحالة تنفيذ فكرتي مع أناس بهذه العقلية إلا الرجوع لمصر والاشتغال بالتجارة لأدبر بواسطتها « رأسمال » يمكنني من إصدار الجريدة في نفس القاهرة . وفي سنة ١٩٢٤ أصدرت جريدة الشورى ، وكنت أظنها ستحظى بتأييد الذين ستخدم بلدهم فإذا بمعظم المشتركين وفيهم أغنياء وزعماء وأعيان يأكلون قيمة الاشتراك ! وفيهم من يملك ٥٠ ألف فدان من الأرض وفيهم من يملك القصور وفيهم أعضاء في المجلس الإسلامي الأعلى ، وفيهم قضاة شرع ...

وإني أتذكر أن الذي كان يملك الخمسين ألف فدان « طلب إمهاله بالدفع إلى ميسرة » فغضبت وقطعت الجريدة عنه ولم أسأحه لاسأحه الله ...

أما الاشتراك فهو جنيه واحد في السنة ! وأبعد من ذلك أن هذا الغني كان عضواً في المجلس الإسلامي الأعلى الذي كنت أدافع عنه وكان الخصوم يتهمون جريدتي بأنها مأجورة لذلك الغني ولذلك المجلس ! وهذه الحادثة يعرفها أحمد حلمي باشا حين وقوعها لأنه كان من شهودها !

وأما أنصار الاحتلال الإنكليزي في فلسطين فقد قاطعوا الجريدة من أول الأمر ... ولهم الشكر ... لأنهم لم يأكلوا مالها ... بل كانوا يكتفون بعمل المضابط التي يطلبون فيها من الإنكليز منع الجريدة من دخول فلسطين ، فلما منعوها انشرفت صدورهم وكتبوا مضابط للإنكليز يشكرونهم على منعها ... ولولا أن الجريدة وصلت إلى أمريكا وأندونيسيا والمغرب والهند لما تم من أول سنة !

إن هذه الحوادث لتدل الإنسان على غفلة الناس في تلك الأيام وخبث بعضهم ، وماذا بعد أن يخذلوا جريدة تدافع عنهم ، وتفضح ظلم الإنكليز لهم ، وتنبه الشعب إلى الخطر الأجنبي ! إن ألوف الفداين التي كانوا يخافون عليها ، وملايين الجنهات التي كانوا يحتججونها ، والقصور التي ينعمون بها ، قد راحت الآن كلها وأصبحت جميعها في أيدي اليهود ، الأرض والشجر والخزائن والمال والقصور الفخمة وما فيها من ريش .. بل إن قبورهم قد درسها اليهود وبنوا فوقها مخارات ..

أشياء أخرى

هذا عن الدعاية، وأما عن الجهاد فإليك هذه الأمثلة: وقعت ثورة في يافا سنة ١٩٢١ فذبح اليهود بمساعدة الانكليز عدداً كبيراً من العرب وأحرقوا بيوتهم وسجنوا الأشخاص البارزين من رجال الحركة الوطنية. فإذا بالبحل على المنكوبين يتجلى في أظهر مظهر! فأما الذين نكبوا فلم يعرضهم أحد، وأما الذين سجنوا فلم يحفل بهم أحد. اللهم إلا قيام بعض الخيرين والمفكرين لإسعافهم، ولكن هؤلاء كانوا يملكون قلوباً وعقولا فقط، وأما الذين يملكون المال فكانوا بلا قلوب ولا عقول!

وكانت اللجنة الفلسطينية التي سميت سنة ١٩٢٠ في تشكيلها بالقاهرة في أول عهدها، فذهبت مع ثلاثة من اللجنة إلى التجار الفلسطينيين أو الذين هم من أصل فلسطيني ونعرف غناهم نستجديهم ليتبرعوا للمنكوبين يافا. وأما الثلاثة الذين كنت معهم فهم وهبة العيسى المحامي، وفرج الله فرج الله، و خليل السكاكيني، فتمكنا بطاوع الروح من جمع نحو مئة جنيه!! ولكن هل اقتصر الأمر على ذلك؟ كلا، لأننا ذقنا في سبيل الحصول على هذا المبلغ التافه أنواع الأذى، فمن ذلك أن غنياً مثرياً رفض أن يدفع شيئاً على الإطلاق، وآخر يملك ربع مليون جنيه لم يسمع به بعد اللجاج واللجاج إلا أن يدفع لنا ربع جنيه.. وأما الثالث فكان أمره أعجب، لأنه اعتذر بعدم الدفع بقوله: أنا الآن مصري ولا دخل لي بأمور فلسطين! فقلت له بسرعة: وإن جاءك مصري يطلب إعانة فأنت تقول إنك من أهل فلسطين، أليس كذلك؟ « إتقوه عليك يا خنزير » وانصرفنا...

الإنذار الأول

يظهر أنني سبقت الحوادث كثيراً، لأنني لم أذكر أن أول ما كتبت عن فلسطين كان في جريدة « فتى العرب » في بيروت فقد كتبت فيها بأول سنة ١٩١٤ مقالا تحت عنوان « الصهيونيون في فلسطين » ذكرت فيه أن يهود « حارة تل أبيب » يستعملون نقوداً نحاسية نقش عليها خاتم سليمان وأن لهم طوابع بريدية عليها صورة الدكتور هرترتل اليهودي النمساوي زعيم الحركة الصهيونية العالمية وأن يهود « حارة تل أبيب » يعملون استعراضات عسكرية ثم حذرت الناس من اليهود الذين يقومون بإنشاء حكومة يهودية داخل الحكومة العثمانية.. وكانت تل أبيب يومها حارة صغيرة ذات شارع واحد وعدد سكانها لا يزيد على بضع

مئات . وكان عدد اليهود في تلك الأيام لم يبلغ الخمسين ألفاً في فلسطين كلها ...
وبعد رجوعي إلى مصر ١٩٢٠ كان من جملة ما كتبته ونشرته في الصحف عن فلسطين، مقالا
طويلا نشرته في جريدة اللواء المصري « سبتمبر ١٩٢١ » شرحت فيه للعالم الإسلامي حقيقة
ما يجري في فلسطين، وأن عدد يهودها قد زاد حتى بلغ ٦٠ ألفاً ، وأن الانكليز بدأوا يقيمون
فيها دولة يهودية برئاسة هربرت صموئيل اليهودي وأنها مؤلفة من الانكليز واليهود، وذكرت
للرأي العام الغافل أن قيام « دولة إسرائيل » سيعقبه زوال الإسلام والمسلمين من فلسطين
وشطر العالم الإسلامي الأفريقي عن العالم الإسلامي الآسيوي .

كان هذا الكلام قبل ثلاثين عاماً ، وقد تم ذلك كله حرفياً وبالأسف والأسى ، إنه لم
يتم بقوة اليهود وحدهم بل بقوة الانكليز معهم ، وبتهاون أهل فلسطين أنفسهم ، وإهمال العالم
الإسلامي والعرب جميعاً ، وأخيراً بهمة جامعة الدول العربية ...

نعي أول بلدة عربية

وفي أغسطس ١٩٢٥ زرت فلسطين ، وفيما كنت في طريق بالسيارة من حيفا إلى القدس
لاحظت أن بلدة « العفولة » التي تقع على الخط الحديدي الحجازي في مرج ابن عامر قد محيت
من عالم الوجود تماماً ، وقامت على أنقاضها مدينة يهودية ! فكدت أفقد عقلي مما رأيت ، لأنني
أعرف العفولة ونمت فيها سنة ١٩١٣ فكيف زالت ! هذا موضوع سيسأل عنه التاريخ بريطانيا
أجيرة اليهود ، ويسأل عنها وآل سرسق في بيروت الذين كانوا يملكون معظم تلك النواحي
سلباً ونهباً ثم باعوها لليهود ، والقصة طويلة عريضة لا محل لتفصيلها هنا .

ولما رجعت إلى مصر نشرت تفصيلات كل ما رأيت ، ونعيت إلى العالم الإسلامي والشعوب
العربية أول بلدة عربية استشهدت ، وأندرت بأن هذا المصير سيكون مصير فلسطين كلها ...
إنني ألقيت هنا على أهل فلسطين مسؤوليات عظيمة - هي عظيمة بلا شك - ولكن أهل
فلسطين مع ذلك كانوا يقاومون جهد طاقتهم ومعرفتهم ، ولكن هذه الطاقة لا يمكن أن تكفي
لمقاومة بريطانيا واليهودية العالمية ، فأهل فلسطين كانوا يرسلون الوفود إلى العالم الخارجي يندرون
ويحذرون وجابت وفودهم أنحاء الأرض ، ولكن القادرين في العالم الإسلامي لم يتحركوا ولا
ساعدوا ولم يتدخلوا إلا بعد فوات الأوان ، تدخلا بارداً كانت نتيجته ضياع فلسطين وأهلها .

تعليق و تطبيق

إعادة نظر للذكرى

إن الذين يرجعون إلى الفصول الأولى من هذه المفكرات وما ورد فيها عن الحوادث التي وقعت قبل عشر سنين ، ووصفت فيها دنيا تلك الأيام ، وحالة العالم الإسلامي والبلاد العربية ثم أرادوا تطبيقها على ما كان بعد ذلك ، يتضح لهم أن الكثير من المخاوف قد وقع مع الأسف ، وكان أهم ما كنت أخشاه أن ينتصر الحلفاء . وقد توقع في ذلك الحين أن انجلترا في حالة الانتصار ستتنمر ، وأن فرنسا ستستأسد . وأن الاستعمار سيكشف في عدوانه علينا ، وأن العرب والعالم الإسلامي سيلقون من الحلفاء أنواع الغدر والذل ، وصنوف الويل والهول ...

لقد كنت أتوقع للدنيا كل شر إن انتصرت بريطانيا ، وأن ضياع فلسطين سيقع ، وقيام الدولة اليهودية سيتحقق ، وأن فرنسا ستبدوا شراً مما عرفناها ! وكنت أتوقع هذا وذاك برغم تضرع انكلترا وبكاء فرنسا ، لأنهما لا تتعظان ولا تتوبان إلا بكسرها نهائياً كسراً عسكرياً تاماً شاملاً يعقبه إستسلامهما لعدوها - أيأ كان - وبغير ذلك لاهناء للعباد ، ولا اطمئنان للبشر ، ولا استقرار للدنيا بأسرها .

وأما ركض تشرشل وروزفلت للصلاة في الكنائس وسماع مرآي إرمياء ... وهما اللذان لا يصغيان لغير زئير المدافع ! وأما هرولة رجال فرنسا إلى المقابر واصطناع مواكب الأحزان في « تور » و « بوردو » ^(١) فما هي إلا رواية تمثل وأضاليل تتكرر ، لأننا شهدنا مثلها في الحرب العظمى الأولى ، ثم رأينا هذه الدول الباكية تستدب بعد ذلك ، وتزداد طمعا وقسوة وقد تصورت قبل عشر سنين كل ما صدر منها الآن ، وأن بكاء فرنسا ونواح انجلترا - وهما تحت سنابك دبابات الألمان وطياراتهم - لا يمكن أن يغير من الحقيقة المنتظرة المروعة حرفاً واحداً ، لأن هذه الدول المستعمرة لا يمكن أن تتوب ولا أن تقلع عن طبيعتها ، التي هي الاعتداء بعد النصر على الشعوب المسالمة وعلى الشعوب التي تساعد أيضاً ، لنهبها وسلبها والتسلط عليها وقهرها والتحكم فيها وإذلالها ...

(١) راجع الصفحات ٧٦ و ٧٧ و ١١٨ إلى ١٢٧ .

فرنسا

فقبل أن تضع الحرب الثانية أوزارها وبدأت رياح النصر تهب نحو الحلفاء ، رأينا فرنسا تقبض على جلالة الملك المنصف ملك تونس وتنفيه إلى صحراء الجزائر ، ثم إلى فرنسا ، ولم تفلته إلا بعد أن لحق بربه ، يعنى أنه لم يفلت من أسر فرنسا إلا بعد أن خلصه الله منها وهو جثة هامدة ، وفي خلال ذلك رأينا جيشها الجبان الفرار يظهر بأسه على السوريين فقط ، ويطلق المدافع وقنابل الطائرات على مدينة دمشق ، ويقوم ذلك الجيش الهراب المذعور من الألمان فيهجم في المغرب على الجزائريين فيذبج ويقتل في مدينتي « سطيف » و « قلمة » ٨٠ ألف جزائري ، يقتلهم الجيش الفرنسي غدرًا وظلمًا ، فكأن هذه المذابح كانت حسن الجزاء من فرنسا للشعب الجزائري الذي أنقذت جنوده فرنسا في كل حرب ، وبالأخص في الحرب العظمى الثانية ، بل إن فرنسا لم يكفها أنها ارتكبت هذه الاعتداءات على السوريين والمغاربة ، بل راح جيشها إلى الشرق الأقصى يجعل مدافعه التي خرست أمام ألمانيا ، تنطق أمام سكان الهند الصينية العزل من السلاح ، بلغة النار والحديد ... ولم تكف فرنسا بهذه الفظائع التي سودت وجه الحضارة الغربية ، بل جعلت المقيم الفرنسي الجنرال جوان الجبان يعتدى في شهر فبراير سنة ١٩٥١ على الدولة المراكشية ، التي اشترك جندها أيضًا في إنقاذ فرنسا ، وكاد هذا الجنرال « الذي فر من الألمان لينجو بجلده من بأسهم » يحجز الملك محمد بن يوسف ملك المغرب في قصره ثم سلبه خاتم الملك وسلط عليه رعاى السفغاليين والبربر ، ولولا ضجيج العالم الشرقى على فرنسا لكان نصيب هذا الملك العريق في الملك أن يموت منفياً في الصحراء الأفريقية الاستوائية أو في إحدى جزر المحيط غمًا وقهرًا ، كما مات الملك المنصف من قبل .

وقد حدث وأنا أسطر هذا أن فرنسا بدأت تتوقع من الآن سنة ١٩٥١ هجوم روسيا عليها واكتساح بلادها نفسها ، وأن الحكومة الفرنسية شرعت في إعداد المعدات في شمال أفريقية للالتجاء إلى الجزائر وتونس والمغرب . وذكرت برقيات جنيف أن فرنسا بعثت في ١٣ مارس سنة ١٩٥١ أرصدة الذهب المدخرة في بنك الدولة وسندات الخزينة الفرنسية إلى بلاد المغرب لابعاد ثروة فرنسا المالية عن أيدي الغزاة ، وأن فرنسا أرسلت للجزائر سفناً تحمل

جنوداً ومعدات حربية وأدوات بناء لاقامة دور حكومية هناك عندما تجلوعن بلادها - حتى لا تهرب بفتة - كما حل بها في هزيمتها المملوءة بالعار أمام الألمان سنة ١٩٤٠
 فيا أيها المجانين الذين تدعون أنكم أعقل البشر : ما دمتم تعرفون أن شمال أفريقية هو
 مابجاًكم ومعتلكم ، ومنه ثروتكم وجندكم وإليه مفزعكم ؛ فلماذا تناصبون أهله العدا ؟
 وأما أنتم ياسكان المغرب فيا أرجو أن لا تقعوا في الحرب الثالثة المقبلة بما وقعت فيه من
 غفلة في الحربين العظيمتين سنة ١٩١٤ و ١٩٣٩ فإن وقعت الحرب الثالثة ولم تقوموا على
 الفرنسيين حتى بالعصى والأيدى والأرجل فإن فرنسا ستذيقكم أشنع مما أذقتكم ؛ وستعيشون
 عبيداً لها إلى يوم الحشر ، ولن يرحمكم عند ذلك أحد .

انجلترا

وأما هذه فقد كانت أشد وقاحة من أختها فرنسا، ولكنها أصرح منها، فقد كانت بريطانيا
 في أثناء انكسارها أمام الألمان واليابان، ماضية في الاعتداء على المسلمين في كل مكان من أنحاء
 العالم، ففي خلال الأيام التي كان فيها ملك بريطانيا يغادر لندن ابتعاداً عن قتابل الألمان، وحين
 كانت لندن تبكي من الهول والرعب، وفي أثناء وقوف تشرشل زعيم إنجلترا أمام قسيس كنيسة
 «سان بول» يحني رأسه حزناً وندماً - وفزعاً من الألمان - ويتهل إلى الله طالباً لأتمته النجاة...
 وفي خلال تناثر تصريحات الحكومة البريطانية عن الحريات . وحق استقلال الشعوب ،
 ووجوب إنقاذ المدنية ... في خلال هذا كله كان جيشها الهارب من الألمان يرتدى للعالم
 الإسلامي والأمم العربية جلد الأسد !

ففي العراق كان جيشها يخمد حركة رشيد عالي التجريرية ويبطش بالشعب العراقي وبذله،
 وفي بلاد الملايو كان جيش بريطانيا المنهزم يبيد المسلمين فيها إبادة جماعية، وفي فلسطين كانت بريطانيا
 مستمرة في بناء الدولة اليهودية وإزالة المسلمين منها، وفي اليمن كان أسطولها يستولى على خليج
 «حوض الماء» من الساحل اليمني على البحر الأحمر^(١) وفي مصر كان جيش بريطانيا هذا ينهب

(١) هذه الحادثة لم تتمكن الصحف من الكتابة عنها بسبب الرقابة المفروضة عليها في تلك الحرب =

الناس في الشوارع ويحاصر قصر عابدين الملكي بالدبابات ، بعد أن اعتدى هذا الجيش على إيران وقبض على جلالة الملك رضا شاه بهلوى ونفاه إلى روديسيا بجنوب أفريقيا وحبسوه هناك إلى أن لحق بربه في المنفى ، ولما انتهت الحرب كانت الدولة اليهودية قد قامت بعد ذبح أهل فلسطين بأيدي الجيش البريطاني، ثم أخرجوا منها أذلاء حيارى. وهام الآن مشردون في أنحاء الأرض ينشرون اللعنة على بريطانيا التي كانت السبب . وعلى كل من ساعدها من العرب والمسلمين في هذه الجريمة التي لا مثيل لها ، والتي لا يمكن غفرانها ونسيانها .

أميركا

وأما هذه وهي ثالثة الأثافي، دولة الدولارات والمال كينات وأسهم الشركات اليهودية ، فقد تطفلت على السياسة الدولية في آخر الزمان ، كما يتطفل العامى السوق غنى الحرب على المسائل العالية والقضايا العامة ، فإذا ناقشك أشار إلى جيبه وأراك ملابسه الجديدة ثم أسمعك رنين الذهب ، لأنه يظن أن المال هو كل شيء ... فإن عارضته أو ناقشته أخرج لك من جيبه مسدساً وأخذ يلوح لك به في القضاء ثم يهرزه في وجهك ! .

فهذه الدولة العجيبة الملققة من شذاذ أهل الأرض ، ظنت نفسها بفضل الدولار والمدفع أنها أصبحت أفصح وأبلغ من في الدنيا من المخلوقات ! فكانت نتيجة هذه «البلطجة» أن أميركا أمست في نظر العباد أسخف وأفظع أمم العالم وأبعدها عن الرحمة والحق والعدالة، بعد أن كانت في نظره

== ولذلك بقيت مجهولة عند الناس ، وقد أوفد جلالة ملك اليمن الشهيد الإمام يحيى رحمه الله مندوباً إلى مصر في تلك الأيام للاحتجاج على الإنسكيز ، وهو المرحوم السيد حسين الكيسى ، وقد اجتمعت به يومها وأخبرني عما كان فأشرت عليه بأن يذهب سرّاً إلى سفيري أميركا وروسيا بالقاهرة ويقدم إليهما مذكرتين يقول فيهما « إن الجيوش والطائرات والأساطيل ومعدات الحرب والأموال التي ترسلها حكومتها إلى إنسكلترا لضرب الألمان وإتقاد الحضارة وإنسكلترا نفسها إنما تستخدمها بريطانيا لمحاربة الشعوب الإسلامية الصديقة ، وأن العالم الإسلامي لذلك يعتبر أميركا وروسيا مسؤولتين عن اعتداء الإنسكيز على الأقطار الإسلامية ، وأنه لولا نجدات هاتين الدولتين ما وجدت لإنسكلترا جنداً ومعدات حربية تمكنها من الإعتداء على الشعوب الأخرى ، وأن إساءة إنسكلترا استعمال هذه النجدات تعد خيانة سافرة لحليفها » فبادر الكيسى وقدم المذكرتين فلم يسمع الإنسكيز يومها إلا سحب أسطوولهم من خليج حوض الماء .

الأمة المثالية بين الأمم! ويكفي ما صنعت في كوريا وأهلها من ذبح وتدمير، فقد ظهر من سياستها وتصرفاتها وأفاعيلها أنها لا تعرف ديناً إلا القوة، وأنها لا تنصر إلا الظلم والعدوان، لأننا لم نرها في جانب الحق مرة واحدة ولا لحظة مطلقاً، منذ عرفناها في الحرب العظمى الأولى حتى هذه الساعة، ويكفي احتضانها لليهود - أو احتضان اليهود لها، وسيطرتهم عليها، وعلى رئيسها، وعلى حكامها ونوابها، وعلى عقول شعبها وضمائر أهلها، وحسبك أن تعرف أن يهود أميركا استأجروا خمسة آلاف قسيس من رؤساء الدين فيها فأمضوا عريضة منذ أربع سنين يطلبون إعطاء فلسطين لليهود!

إنني أعرف أن دول البروتستانت هي وحدها التي أيدت اليهود في أخذ فلسطين وذبح أهلها بسبب أيمان البروتستانت بتوراة اليهود، ولكن هذا الإيمان المبني على المسائل الغيبية ما كان يسوغ لهم إجازة اغتصاب أوطان الناس وذبحهم وإخراجهم من ديارهم وتشريدهم، لأن إنجلترا وأمريكا ليستا من الدول الكنائسية التي تؤلف من المطارنة والقسس، بل هما من أرق الدول المدنية التي تدار بعقول السياسيين المفروض في أصحابها أنهم يدركون معنى الحق والإنسانية ..

إن أميركا وإن كانت لا تحكم بلاداً مسالمة ولا تستعبد بلاداً عربية، إلا أنها الآن هي العدو الأول للعالم الإسلامي والعرب، لأنها هي التي تشجع بريطانيا وفرنسا على الشرور واستعباد البشر، وتمدهما بالمال والسلاح والقنابل المهلكة، لتمكينهما من السطو على البلاد الإسلامية وإذلال الشعوب العربية جميعاً.

بعد انكسار الألمان

إن النتيجة التي أسفرت عنها الحرب العظمى الثانية من انكسار ألمانيا وانفرط بها عقد المحور، بانتصار دول الظلم والطغيان المستعمرة، قد آلمت الدنيا كلها، وجعلت العالم في مأتم لكسر الألمان واليابان، حتى الطليان أيضاً أسفنا لانكسارهم، لاجبة بهم وهم الذين ذبحوا الطرابلسيين والبرقاويين، ولكن أسفاً على الدولتين الفتيتين ألمانيا واليابان، وخروجهما من الميدان الدولي العالمي، بعد أن كان وجودهما كافلاً لحفظ التوازن بين الدول، وكان يخيف دول الاستعمار على الأخص.

وأما الآن فإن الكرة الأرضية كلها قد باتت نهيباً للانكليز والفرنسيين ، يتحكمون في أهلها ويهددون الأمن العام بين دول المعمورة ، بحماية أميركا وبمالها وقوتها الفنية وعقول اليهود الذين أصبحوا أسيادها ...

وإذا كان لنا بعض العزاء عن المصيبة التي حلت بالدنيا من انتصار الحلفاء في الحرب العظمى الأخيرة ، فذلك أن الذات الإلهية قد أشتتنا ببعض الذين كانوا السبب الحقيقي لهذا المصير المحزن ، الذي مكن دول العدوان من التماهى في إقلاق البشر وترويع العباد بظلمها وعدوانها وغطرستها .

شماتة سافرة

وكم شمتنا بملك إيطاليا الذي كان من أسباب نكبة العالم بفوز دول الظلم حين تأمر على موسوليني زعيم شعبه والغدر به وتمكين الأعداء من قتله ، ثم استسلامه لأعداء إيطاليا ومحاربه فوق ذلك لألمانيا فكانت النتيجة أن العاصفة قد عصفت به وبدولة آل سافوي كلها . وشمتنا بمشيل ملك رومانيا الذي مثل الدور نفسه مع أنطونيسكو رئيس وزرائه إذ غدر به لأنه لا يتحمل فاستسلم نكابة لأعدائه الروس وسلمهم ومكنهم من قتله أشنع قتله ، ولكن الروس نكلوا بمشيل بعد ذلك وجعلوه يبكي على أيام أنطونيسكو ، ثم طردوه وأخذوا رومانيا وبلشفوها ! وقل مثل هذا عن بطرس ملك يوغسلافيا الذي راح ينضم إلى الدول الباغية « إنجلترا وروسيا وأمريكا » خلافاً لإرادة شعبه الذي تحالف مع الألمان ، فكانت النتيجة أن العاصفة قد اجتاحتته هو أيضاً وأراحت الدنيا منه ، ولكنه وبالأسف كان السبب في بلشفة بلاده وإيصال الخطر الشيوعي إلى أواسط أوزبا الجنوبية وأصبح الخطر يهددنا في الشرق ، فلولا صنائع الاستعمار هؤلاء ما تجاوز الخطر الشيوعي مقره ، بل لسكنت ألمانيا واليابان قد قضتا على الشيوعية في روسيا ، وعلى الرأسمالية في إنجلترا وأميركا .

استطراد عن الماضي

وإنني لأأكتم بهذه المناسبة شماتتي أيضاً بالسلطان عبد الحفيظ ملك مراکش وما أصابه قبل أربعين عاماً جزاء استعانته بالأجانب ضد شعبه ، فقد استعان بفرنسا لتخضع له أمته فكانت

النتيجة أن فرنسا أخذت بلاده وطردته عن عرشه وأبعدته عن وطنه ، فأتت في ديار الغربه شريداً ، وكان عليه أن يتعظ بما أصاب الخديوى توفيق باشا قبل ذلك بثلاثين عاماً - وما هو بالزمن البعيد بالنسبة إلى زمن عبد الحفيظ ، لأن بريطانيا أنقذت توفيق باشا واسكنها استولت على بلاده ! وها هي مصر لا تزال تعاني هي وذرايرها أنواع الآلام بسبب فعلة بدرت منذ سبعين عاماً ، كما أن الشعب المراكشى لا يزال يذوق صنوف الذل منذ أربعين عاماً بسبب عملة عبد الحفيظ ، الذى لم يتحمل من شعبه طلب الإصلاح وحق الحياة .

إن عبد الحفيظ المراكشى لم يتعظ بما أصاب سواه ، ولا اتعظ ملك إيطاليا بما أصاب الملك بطرس في يوغسلافيا ولا الملك ميشيل اعتبر بمصير ملك إيطاليا ، وبعدهم جميعاً ملك بلغاريا ! ولا أدري متى يستفيد هؤلاء الساسة من عبر الدهر وصروف الزمان التى أذلت الملايين من أبناء شعوبهم وجنت على أولادهم وأحفادهم من بعدهم ؛ والله وحده الذى يعلم متى نخلص من الإنكيز . سواء في مصر والأردن والعراق وبقية أنحاء الأرض ، ولا متى ننجو في شمال أفريقيا من استعمار فرنسا وإسبانيا ؛ ولا متى نفلت من هيئة الأمم المتحدة ولجانها التى تدير الهدنة بفلسطين ، ومن لجانها التى جنت على فزان وبرقة وطرابلس الغرب ...

رجعة إلى الضرب والتعذيب

إن بعض الذين قرأوا كتاب « معتقل ها كستب » أرسلوا يسألوننى عما صنعت الحكومة المصرية مع ضباط البوليس الذين عذبوا المتهمين فى السجون بسبب القضايا السياسية ، وخصوصاً الذين ارتكبوا الفظائع مع الإخوان المسلمين ؛ والذين أساءوا إلى أنا وأهل بيتى ، سواء في أيام حبسى سنة ١٩٤٠ التى وضعت عنها هذا الكتاب ، أو فى الحبس الأخير سنة ١٩٤٩ التى أخرجت بسببها كتاب « معتقل ها كستب » ...

والجواب على ذلك ، أنه لم يتخذ أى إجراء مع أحد منهم حتى الآن . . . أنا لا أنكر أن بعض النواب قد تحركوا فى البرلمان ؛ وأن بعض الصحف الحرة قد نشطت وخصوصاً جريدة الجمهور المصرى التى أصدرها أخيراً الأستاذ أبو الخير نجيب ، وأن محكمة الجنايات التى يرأسها أحمد كامل بك عندما حكمت بعض المتهمين بقضايا الإخوان المعروفة بقضية « سيارة الجيب »

قد برأت بعضهم ونددت بفظائع البوليس ، وأن محكمة الجنايات الثانية التي يرأسها حسين طنطاوى بك قد بدأت تسمع روايات المتهمين عن الذين عذبوهم في قضية الاخوان الثانية المسماة « بقضية الأوكار » ولكننى لم أسمع أن واحداً من الذين ارتكبوا مع المتهمين جرائم التعذيب قد خبس أو حوكم وحكم عليه جزاء ما اجترح ، فلما لم تعرف الأمة المصرية وما لم تعرف الأمة السورية أيضاً، أن رجال الشرطة الذين عذبوا المتهمين هنا وهناك قد نالوا العقاب الحق ، فإن وصمة التعذيب في السجون تظل عالقة بجيلنا الحاضر إلى الأبد .

وأنا؟...

أما الذى نالنى وأسرتى من شرطة سنة ١٩٤٠ وسنة ١٩٤٩ من أذى ، وهو خفيف بالنسبة إلى ما أصاب الآخرين ، فقد بسطته في هذا الكتاب وفي كتاب معتقل ها كستب وشرحته بملاساته وتفصيلاته وأسانيده ، وعينت أسماء المسئولين عنه ، وذكرت شهوده ، فبعد ذلك يكون الأمر قد خرج من يدي وأصبح منتهياً من جانبي ، فإن شاءت الحكومة أن تفتح التحقيق فيه فنحن لا نزال ننتظر هذا الإنصاف بعد أن طالبنا به مراراً ، فلما رأينا الاغضاء لم تمنع الجرائد من نشره والمطالبة به ، ولما طال الانتظار سجلناه في هذا الكتاب ، وقبل ذلك في كتاب ها كستب . ولا أدري لماذا لا تحقق الحكومة معنا كمعتدين على الموظفين العموميين بالقبح الصريح ، وتأخذ لهم حقهم منا جزاء ما وجهنا إليهم من تهمة يعاقب عليها القانون ، لأن عقوبة من يفترى على الموظفين معروفة ومعينة في قانون العقوبات . ولو كنت أنا في محل الميرالاي محمد يوسف بك لقد قدمت بلاغاً إلى النائب العام ضد من نسب إلى مثل هذه الأفعال ... فأنا مثلاً قد سجلت ما نشرته الصحف سنة ١٩٤٧ و١٩٥٠ عما لقيت وأهل بيتي من أفاعيل اليوزباشى محمد يوسف ، الذى أصبح الآن « الميرالاي محمد يوسف بك » وقد ذكرت أنه أساء إلينا تلك الاساءات متعمداً ذلك لحساب السياسة البريطانية عند ما كان الانكليز يسيطرون على الشرطة والأمن العام في أيام الحرب تحت ظل الأحكام العرفية ، وإنه لفقلى مسألة الاعتقال الأخير بموجب الأحكام العرفية الثانية التي أعلنها إبراهيم باشا عبد الهادى ضد اليهود ولكنه نفذها على المسلمين ...

فإذا كانت الحكومة لا تريد أن تحاكم هذا الضابط فهي وشأنها ، وأما أنا فقد طلبت الانصاف من الرأى العام الذى يقرأ هذه الكتب والمقالات ، ولا أهنيء هذا الضابط وأمثاله على إفلاتهم من عدالة المحاكم فإن حكم الرأى العام سيكون أعدل وأكثير إنصافاً .

يكافئون محمد يوسف

وفى ٥ فبراير ١٩٥١ صدرت جريدة الجمهور المصرى وفى صفحتها الأولى صورة كبيرة للميرالاي محمد يوسف مع السفير البريطانى وهو ينحنى أمامه ويتناول منه وساماً بريطانياً ...



وقد كتبت الجريدة
تحت الصورة
الكلمات الآتية...
« دفاع مشترك بين
السفارة البريطانية
والبوليس السياسى
-سفير بريطانيا يسلم
نيشاناً إلى الميرالاي
محمد يوسف بك أحد
أقطاب البوليس
السياسى » وفى
صفحة الأخبار
نشرت جريدة
الجمهور كلاماً كثيراً
عن الذين يخدمون
الحرية البريطانية...
وها إني أنقل

الميرالاي محمد يوسف لابساً البرنيطة. وهو ينحنى للسفير ويتناول منه الوسام ...

ذلك كله عن جريدة

الانعام على البوليس السياسى
وكبير القواصين ايضا !
٦٤ مصرى

أقامت السفارة البريطانية
يوم الاربعاء الماضى حفلا رسميا
أهدت فيه أربعة وستين مصرى
بعض النياشين والاوسمة
والمداليات ، مكافاة لهم على
ما أدوه من « خدمات » لقضية
الحرية ...

وقد نوه السفير البريطانى
بالدور الذى تنتظره بريطانيا
من « خدام » الحرية
والامبراطورية فى المستقبل !
هذه الحرية التى تجد من
يخدمها فى مصر ، لا لحساب
مصر والمصريين ، وانما
لحساب الحكومة البريطانية ،
ويستحق من اجلها الاوسمة
والنياشين ...

و « الجمهور المصرى » تنهى
« خدام » الحرية والامبراطورية
من رجال البوليس السياسى
والقواصين ايضا بالسفارة !
من بين الذين أنعم عليهم
سير رالف ستيفنسون السفير
البريطانى بمداية الامبراطورية
البريطانية « على حلمي بدروس »
كبير القواصين فى السفارة -
(وفى نفس القائمة وضعت
أسماء رجال البوليس السياسى
الى جانب اسم كبير القواصين
بالسفارة !!

الجمهور ، أخذاً بالزنكغراف تخليداً له ، ولا يسمعى إلا أن
أشكر الله الذى جعل الحوادث تمدنى - وتمدقرائى - بأدلة
جديدة على السبب فى حماسة محمد يوسف ضدى وإساءته
إلى أسرتى ، ليس لحساب مصر ولكن لحساب بريطانيا
التي لم تنس أن تدفع له الثمن ... وإلا فهاهو الباعث الذى
جعل الإنكليز ينعمون على ضابط مصرى وهو واحد من
آلاف الضباط من رجال البوليس بهذا الوسام الرقيق الشأن ...
إن الجواب على ذلك موجود فى هذا الكتاب وفى كتاب
ها كستب ، فعند مراجعة أعمال « اليوزباشى » محمد يوسف
معى يظهر السبب الذى استوجب تخصيصه بالوسام ، وهو لا
يدرى أنه قد شهد عليه ...

الشاهد الثانى

أما الشاهد الأول فهو الدكتور مصطفى بك البشناق
الزعيم الفلسطينى الذى كان فى مصر لاجئاً سياسياً فى الأيام
التي حبست فيها سنة ١٩٤٠ « وهو الآن سنة ١٩٥١ عضو
بمجلس النواب عن فلسطين المحتلة بالإنكليز وحكومة الأردن ».

وقد ذكرت فى القسم الأول من هذا الكتاب أن الدكتور بشناق لما زار قرينتى فى
السجن الذى وضعها فيه محمد يوسف - بعد أن شتمها وضربها - رأى الدكتور الإصابة
فى عينها .

وأما الشاهد الثانى - وهو غير النيشان البريطانى - فذلك هو الدكتور رشيد بك كرم ،
كبير أطباء بوليس القاهرة ، فقد جاء يومها إلى السجن مصادفة ليعالج أحد المسجونين فلقى
قرينتى فى مكتب مدير السجن فى نفس اللحظة التي كان الدكتور البشناق يزورها فيها ، فسلم



الدكتور رشيد بك كرم

عليها الدكتور كرم وهو يظن أنهما يزورانني أنا ،
أو أن قرينتي تزور الدكتور البشناق ... لأن حبس
قرينتي لم يخطر له ولا لغيره على بال ، فلما رأى
الدكتور كرم أن قرينتي في حالة غير طبيعية وأن عينيها
مصابة بضربة ، سألها عن سبب ما هي فيه فقصته عليه ..
وقد نشر الأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة
مذكراته عن سجنه في تلك الأيام في جريدته
فوصف آلامه وشعوره حين لقي قرينتي في ذلك
السجن الذي وضعها فيه محمد يوسف ، في حين أنهم

ماطلبوا منه ذلك^(١) ، ثم أخرجها من مصر نفيًا ،

مع أن الإنكليز من أول الأمر لم يأمرؤا بشيء من تلك الفظائع ؛ بل أنهم أنسكروا علمهم بها ،
لأن كل ما كان من علاقة الإنكليز بي أنهم طلبوا حجزى لمنع النشاط السياسى فقط ، فهذا
الطلب ما كان يستوجب كل ماجرى من محمد يوسف ورؤسائه الذين أمروه بتنفيذ أمر الحبس
ومكنوه بي من التمدادى فى أعماله التى أنتجت حوادثها وضع هذا الكتاب . أما تفصيل قصة
الإساءة إلى العائلة ومن الجملة إحضاره لشقيقتى إلى إدارة البوليس وتحقيقه إياها وتهديدها
وإطالة لسانه الخ فهذه القصص كلها مشروحة فى الصفحات ٣٥٢ إلى ٣٦٥ من هذا الكتاب .

(١) إن محمد يوسف لما أمروه سنة ١٩٤٠ بأخذى إلى السجن لم تسكن مهمته أكثر من أن يجيء
لمسكتي ويمشى معى إلى السجن ، ولكنه تطوع من تلقاء نفسه بتفتيش مكتبي ثم مد اليد إلى جيوبى لتفتيشها
وأخذ ما فيها ، كما أخذ أوراقاً خاصة وحفظها عنده ، وبعد ذلك دهم بيتى وروع أسرتى ونكش كل ما فى
الدار من أمتعة حتى الفراش والملابس النسائية ثم أخذ أوراقاً عائلية ولم يرجعها الخ ولما هربت من السجن
غضب أكثر من غضب الإنكليز وكان منه ما كان من الهياج حتى أدى به الاعتزاز بالإنكليز وإلى شتم السيدات
ورفع اليدهن بالضرب والحبس والنفي الخ أما تفتيش الجيوب فقد قرأت عن هذا العمل أن الضابط البريطانى
« تويدى » قد اشمئز لما أمروه بتفتيش جيوب زعماء مصر سنة ١٩١٨ ورفض إطاعة أمر رئيسه الذى
أمره بذلك فقال تويدى إن مثل هذا التفتيش لا يكون إلا مع المجرمين ، فالظاهر أن محمد يوسف كان يعتبرنى
« مجرمًا » ولذلك فتش جيوبى !

مقارنة مستحيمة

لقد خطر لي أن أضع نفسي في مكان غيري وأن أقيس المسألة بعقليته ، وأن أزن الأمور بميزانه وتفكيره ثم أقابل بين أن أقوم بإيذاء محمد يوسف وأهل بيته ، في مقابل عناية بريطانية ونيشانات إنكليزية أتناولها من يد السفير ، أو أ كف عنه وأهله فأحرم من هذه النعم... فله أوزنت المسألة على طريقة تفكيره وجدت أن الحق مع محمد يوسف... ولكن بشرط أن لا أظهر في صورة تنشرها الصحف عنى منحى القامة أمام السفير ماداً يدي إلى الأوسمة الأجنبية...

ولكن هل تخلصنا ؟

والجواب كلا ، لأن محمد يوسف لم يكتف بما كان منه معناه لإرضاء الإنكليز في زمن الحرب العظمى وأحكامها العرفية . بل إنه لاحقاً أيضاً حتى في زمن أحكام إبراهيم باشا عبد الهادي الإرهابية حين لفق محمد يوسف طريقة حبسى مرة ثانية وخصوصاً في « كركون روض الفرج » ولا شك في أنه يفكر الآن بمكيدة جديدة تسمى إلينا ، ولا سيما بعد صدور هذا الكتاب وشقيقه كتابها كستب ، وإن سألتني سائل عما يستطيعه محمد يوسف الآن .. فالجواب عليه هكذا : إن محمد يوسف لا بد أن ينتقم ؛ أما كيف يكون انتقامه فهذا علمه عند الله وعنده هو ! فإذا كان قد صنع معناه ما صنع بدون أن نسيء إليه وبدون أن يعرفنا أو نعرفه ، فكيف بعد ظهور الكتابين ! ؟

فالذي أتوقعه بعد اليوم أنه سترصد مصيبة قيام أحكام عرفية إنجليزية تنزل بالأمة لاسمح الله أو قيام حكومة إرهابية لا قدر الله ، فينفذ تحت حمايتها ما قد يكون فكر فيه ودبره لي في أثناء عهود الحرية ، التي تعتبر بالنسبة إليه « فترة استجهاً » يكف عنى في أيامها لأنه لا يستطيع في عهود الحرية أن يظهر أو أن يعمل عملاً ظاهراً...

الملاحقة....

إن بريطانيا لم تتمكن في ثلث قرن من الوصول إلى ولا النيل منى بقدر ما وصل إليه تلاميذها معى ثم خلعنا منها ولكننا لم نخلص منهم ! إنهم لأصدقاء لها أعزاء ، يستحقون منها أوسمة كثيرة لا وساماً واحداً... اننى لم أواجه إنكليزيا واحداً في عهود المطاردة. ولكنى رأيت العرب والمسلمين...

وقبل أن أختتم مواضيع محمد يوسف ، لا أكتب قراء كتابي هذا أنى أ كادولولا الحياء
أن أنصح الناس بعدم التعرض للاستعمار ، وإلا أصابهم ما أصابني ... ليس من الانكليز رأساً ،
ولكن من قدرتهم على ملاحقة خصومهم حتى بعد خروجهم من الأقطار التي يسيطرون عليها
كما لاحقوني بواسطة حسن فهمي رفعت باشا وتلاميذه ... لأن فرنسا مثلاً لما خرجت من
سورية ولبنان لم تفكر في أن تترك أشخاصاً من السوريين واللبنانيين يلاحقون خصومها
الذين قاوموها في أثناء احتلالها لبر الشام .

ولذلك أصبح من حق أن أعتبر بقاء الأميرالاي محمد يوسف بك في البوليس المصرى
إمتداداً للاحتلال البريطانى ، وما لم يخرج هذا الرجل من وظيفة رئيس « إدارة
الشئون العربية » في بوليس مصر التي لا تطارد إلا العرب والمسلمين ، فلن أ كف عن
مطالبة الحكومة بإخراجه أو تحيل أمره معى ومع أسرتى إلى القضاء ، أو تحقق معى بتهمة
أننى افترت عليه ...

بين الأمس واليوم - وحالة الصحافة

وهنا لا بد أن يخطر لقارىء هذا الكتاب أن يقول مثلاً : إذا كانت الوقائع التي فيه
صحيحة فلماذا لا تأمر الحكومة بإجراء التحقيق فيها . وإن كانت كاذبة فلماذا تسكت عليها ،
فلا هى تكذبها ولا تحاكم الذين نشروها ، سواء كنت أنا أو الجرائد التي نشرتها ؟

إن هذا السؤال قد مر بلاشك في بال كل من قرأها ، سواء في الجرائد - من سنة ١٩٤٧
إلى الآن - أو من كتابها كستب ، والجواب على ذلك هو : إن رجال الدولة في أيامنا
هذه - بعد الاستقلال - أصبحوا في شاغل عن الاطلاع على ما تنشره الجرائد عن تصرفات
الموظفين التي تضر بالناس ، وشكايات الشعب من أحواله ؛ فهذا الحاكم مشغول في خلق
الأمور التي تجلب له الرفاه والراحة ، وهذا الوزير مشغول في توطيد مركزه والعمل على خدمة
رجال حزبه ، والوزير الفلانى منهمك في دفع مكائد خصومه عنه ، والوزير الفلانى لا ينام إلا
بعد أن يكون قد صرف ليله ونهاره في تدبير داهية لأعدائه ...

تحليل مختصر

فبين التوقى من كيد الخصوم ، وبين حفر المهابط للأعداء - يضيع وقت معظم ولاية الأمور سدى ، فلا يبقى لهم من الوقت دقيقة تكفى للاطلاع على الجرائد وما فيها من مظالم العباد ، ثم يسأل السائل فيقول : ولكن ولاية الأمور مع ذلك يقرأون الجرائد فكيف يتفق هذا مع ذاك ؟ والجواب هين ، وهو أن معظم حكامنا لا يقرأون إلا المقال الذى يكون فى مصلحتهم ويكيد خصومهم ، ثم المقال الذى يكون من الخصوم .. ليعرفوا ماذا يقول «الأعداء» عنهم ، وبعد ذلك يضيعون بقية يومهم ومعظم سهرتهم فى كتابة ردهم عليه ... ولذلك لا يبقى عندهم من الفراغ ما يكفى لقراءة أخبار الرعية ومطالبها وشكاياتها ! ولذلك أصبح نفوذ الجرائد فى وقتنا الحاضر من ناحية رفع صوت الشعب معدوماً . وأما فى الأيام التى سبقت الاستقلال فقد كانت الجرائد تخيف حكامنا ، لأن الانكليز الذين يسيطرون على جهاز الحكم فى الزمن الماضى كانوا يتصيدون غلطات الحكام الوطنيين ويرصدون بهم الدوائر ، ليتخذوا من تقصيرهم حجة لمعاقبتهم وتصفيرهم أمام الشعب والظهور أمامه بمظهر « الحكم العدل » لتسويغ بقاء الاحتلال إلى الأبد !

وأما الآن فإن العدو الذى كان رابضاً فى دوائر الحكومة يترقب للحكام الوطنيين السقطات والهفوات قد انصرف ، ولذلك اطمأن المفرطون الكبار وما عادوا يهتمون بكتابات الصحف ، وكانت النتيجة أن اطمأن أيضاً صغار الموظفين إلى كون الرؤساء لا يدرون بما يجترحونه مع الناس ..

مجلس الدولة

إن مصر لولا « مجلس الدولة » الذى قام فيها أخيراً بهمة الملك فاروق حفظه الله ، لإنصاف الشعب من طغيان بعض الحاكمين لكانت الحياة فيها كجهم ، وإنى أتذكر يوماً كنت فيه مع أحد أصدقائى من ضيوف مصر نتحدث عن أجمل شئ فيها فقلت إنه « مجلس الدولة » وبعد ذلك « مجلس النواب » - ولكن بشرط - وهو أن يكون هذا المجلس شعبياً وليس من عمل الوزارات والأحزاب الخارجة على الأمة . أما لماذا فضلت مجلس الدولة على مجلس النواب ، فسيبه أن مجلس الدولة يتألف من قضاة كبار لا يمكن عزلهم من مناصبهم ، وأما

مجلس النواب فيمكن أن تطفئ فيه الحزبية فيصبح الشعب في ظله يعيش تحت « طغيان برلماني » تتجنب فيه الأغلبية محجة الصواب ..

مثال ذلك ...

إن الدستور المصري يعد من أحدث دساتير العالم وأرفعها أهدافاً ، وكننا نظن أننا سنحظى في ظله بالحريات التي فقدناها بسبب الاحتلال الأجنبي ، كأن تلغى بعد إعلان الدستور تلك القوانين القليلة التي تضغط على حرية القول والكتابة والفكر ، ولكن الأمل قد خاب ، وأنه ليحزنني أن يصدر هذا الاعتراف مني أنا الذي أنكوى من الاستعمار وعانى على يديه أنواع العذاب ، لأن الوزارات المتعاقبة وضعت - نكابة بخصومها - عشرات القوانين الجديدة التي تحد من الحريات - بالإضافة إلى قوانين الاستعمار ، لا فرق في ذلك بين الوزارات الشعبية أو الوزارات الخارجة على القانون ، ولذلك أصبح دستورنا مع الزمن على وشك أن يفقد معناه ويضيع الغرض من وضعه مادامت كل مادة سامية وردت فيه أصبحت تقيد بقانون رجعي يقصف رقيبها ... فلو أردت أن أقارن بين حالة « الحرية » في مصر حين جئنا لأول مرة قبل أربعين عاماً وبين حالها اليوم سنة ١٩٥١ لظهر الفرق واضحاً والنسبة بعيدة ، فقد كانت البلاد تتمتع في زمن كرومر وغورست وكتشن في عهد الاحتلال ، وفي عهد مكماهون وونجت والنبى على زمن الحماية بحريات فكرية وكتابية وخطابية واسعة النطاق ، وقلمنا سمعنا بتعطيل جريدة أو حبس صحفي حبساً احتياطياً ، فإن وقع حادث من هذا النوع قامت البلاد وضج العباد .

مثال ذلك أن الدستور يقول إن الصحافة حرة ولا يجوز إنذارها أو تعطيلها إلا في حدود القانون ، ولكن الوزارات الحاكمة - أياً كانت - وضعت للمطبوعات والصحافة في قانون العقوبات مواداً صارمة قاسية جعلت العقوبات تنصب على الصحف كسوط عذاب ، كما أن قيود إصدار الصحف ، وتأليف الجمعيات أصبحت أشد وأصعب من شروط فتح خمارة أو إنشاء محل للقهار ... كما هو واقع الآن مع الأسف وهكذا ... فأين تجد الدستور هنا ؟

الختام

وإني الآن وأنا أختتم هذه المفكرات أحب أن أجاب على بعض ما أظنه يمر ببال من قراها ، بأن يسألني عن حالي بعد كل ماجرى لي وشرحته في هذا الكتاب ...

والجواب على ذلك إنني لا أزال أعاني الكثير من المتاعب التي سببها لي الاستعمار بحبسه إياي سنة ١٩٤٠ لأنه ابتلاني فوق المتاعب التي مررت بها ، بخلق أعداء سخطوا على لأن الاستعمار سخط على ! والغريب فوق هذا أنهم لا يزالون كذلك حتى الآن في حين أن المستعمر قد راح من هنا . . . وبعضهم غضب مني لأنني هربت من السجن وسببت له توبيخاً أو أضعت عليه ترقية ... وهذا صديق تنكر لي في أيام المحنة كمادة الناس غالباً ولولا حبس الإنكليز إياي ما تنكر ولا ظهر زيفه ، فلما انقضت الأيام السوداء عاد إلي فأبيت رجوع صداقته فخسرتة ، وهذا صاحب طالما خدمته وأحسن إلي فإذا به يقوم بالبحث عني وأنا هارب ليرشد الشرطة إلي طمعاً « بالجازرة » فلما انطلقت جاءني يسلم ويهنئ فاعتظت منه وبهدلته وقطعت صلاتي معه فخسرتة وأصبح عدواً ... وهذا حبيب هجرني حتى لا أكلفه مساعدة فخسرتة ، وآخر ابتعد عني لمرض في سجيته الخ فكانت النتيجة إنني خسرت الكثيرين ...

وهناك أصدقاء وزملاء جاهدت الاستعمار معهم ، وأوذيت أكثر منهم وشا طرتهم متاعبهم ، فلما ابتسم لهم الدهر ونالت البلاد حقها أو بعض حقها ، صاروا يتعدون عني حتى لا يفضب عليهم الإنكليز ، وبعضهم ضحّاني ليرضى عدواً له ، أو يتعد عني ليحصل على منفعة من عدو لي ، وبعضهم يحامله أيضاً ويحتضنه أمام عيني ، وبعضهم انشغل عني بأيامه البيض وتركني مشتتاً في المعركة وحدي ، وبعضهم كان يشغلني بتخليصه من المصائب فصرت أسعى لأخلص نفسي منه هو ! وبعضهم كنت أساعده على الأجانب فخذلني وراح يساعدهم عليّ وأصبحت في حاجة إلى من يساعدنني عليه ! فأما الذين شاركهم وشاركوني العمل على محاربة الاستعمار ووصلوا وتركوني ، فهؤلاء قد حيرني أمرهم ، ولا أدري كيف يكون الانتصاف منهم ، لنفرض إنني كنت أعمل وإياهم « بالشراكة » فأين حصتي ؟ وإن كانت « بالمزارعة » وكانوا هم أصحاب الأرض أيضاً فأين غلتي ونصيبي ؟ وإن كان العمل بالأجرة فأين أجرتي ؟ ..

إن القانون التجارى كله فى جانبى ، والقانون المدنى فى صفى ؛ وقانون العمل يؤيدنى ويعاقب من يأكل تعبى ... وأما قانون الأخلاق والوفاء بالله وحده الذى يعلم كيف مسح وكيف نسخ ، ثم ألقى من عالم الوجود ...

الريش المنتوف ...

وكانت النتيجة أننى حرمت فى هذه الحياة من بقاء صديق فيه رمق ! لأن كل من زاملونى وزاملتهم وساعدتهم الظروف هربوا منى ، ولم يعد إلى منهم إلا الذين انكسروا ونكبوا مرة أخرى ، ولكن ما الفائدة من عودتهم ؛ وماذا أصنع بهم بعد ضعفهم وتنف ريشهم ، فهل قدّر على أن أظل طول العمر فى صحبة كل مفلس مهيض الجناح ... والغريب هنا أنهم لم يعودوا إلى إلا لأخدمهم من جديد وأساعدهم على استعادة ما فقدوا ، ولم يفهم فوق ذلك أن يقصوا على ما كانوا فيه من عز مفقود ونعيم زال ، ويطلعوننى على تصاوير الفردوس الذى انفردوا به ، يوماً ما ورسوم ما كانوا فيه من جنات وعيون ...

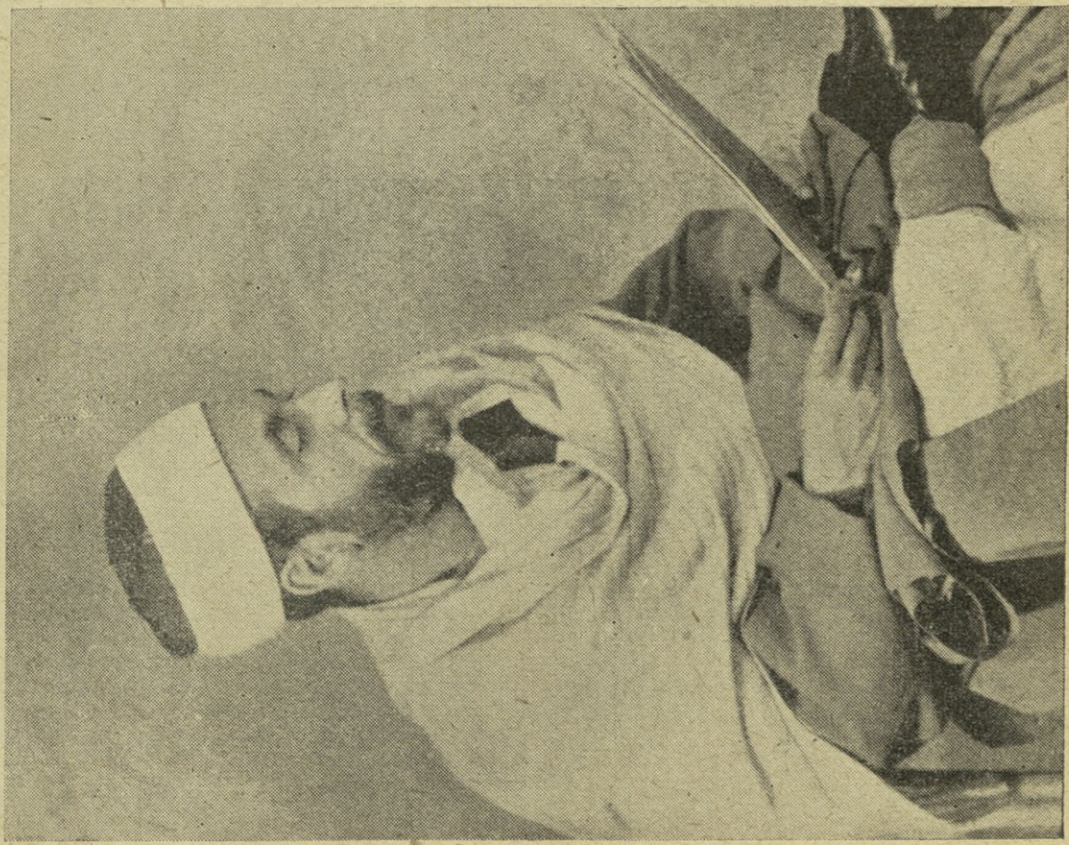
مفاخرة ...

وهنا لايسعنى إلا أن أفاخرهم بمجموعة جريدتى التى دافعت عن الأمة وعنهم وأصبحت أوسع سجل لمقارعة المستعمرين ، وافتخر بكتابها كستب وكتابى هذا ، وما فيهما من دفاع عن المظلومين ، ومن أخبار حبسى وعذابى وتصاويرى بعدهرى بعد السجن وفى أثناء اختفائى عن أعين المستعمرين . وقد سجلت الكثير من هذه الأخبار والتصاوير وأسأجل فى الصفحات المقبلة بعضاً منها - وبعدها تصاوير بعض زوارى لأعوض النقص الذى كنت أشعر به حين كنت أفرج على صور حفلاتهم ومواكبهم التى محيت وأصبحت خيالاً ، وبقيت تصاويرى ...

محمد علي الطاهر في أيام الحرب من السجن



محمد علي الطاهر في تلك الأيام...

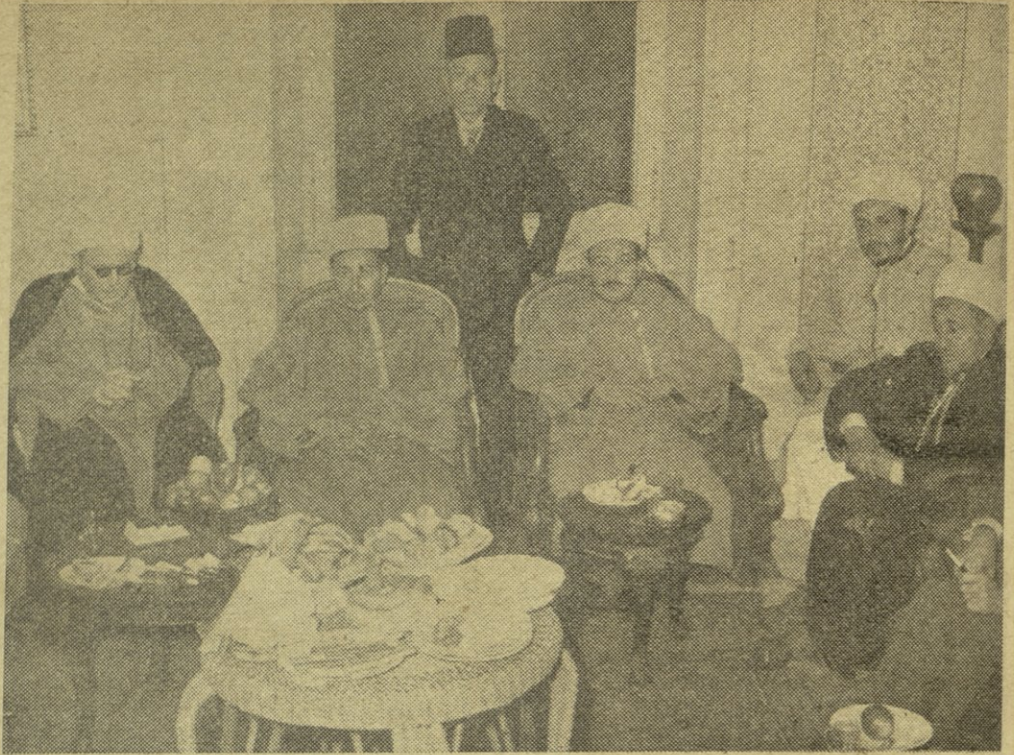




عظمة السلطان فضل عبد الكريم سلطان لحج يزور دار الشورى ١٩٤٩ وهو يظهر في الوسط وإلى يمينه
زعيم تونس السيد الحبيب بورقيبة فالسيد عبد الخالق الطريس زعيم تطوان بمراكش
وإلى يساره محمد علي الطاهر فالسيد عبد الله الجفري مستشار السلطان



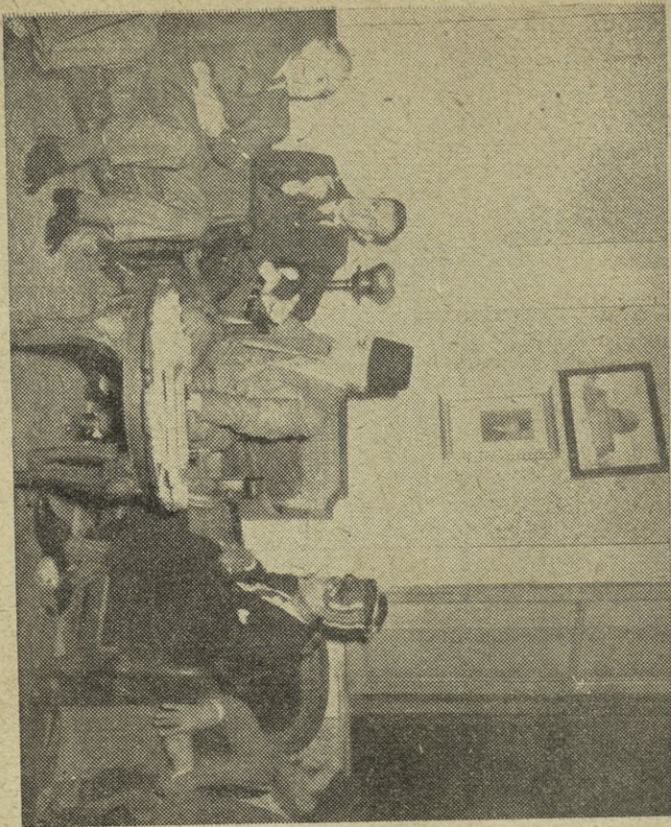
وفي الثانية
يتوسط عظمة
السلطان الصورة
عند توديعه وقد
ظهر حوله الدكتور
محمد صلاح الدين بك
والسيد علل القاسي
زعيم مراكش
والسيد عبد الله
الجفري والسيد محمد
رشيد وزير
أندونيسيا والسيد
المؤيد وزير اليمن
وصاحب هذه
المفكرات والأستاذ
كامل كيلاني وغيرهم



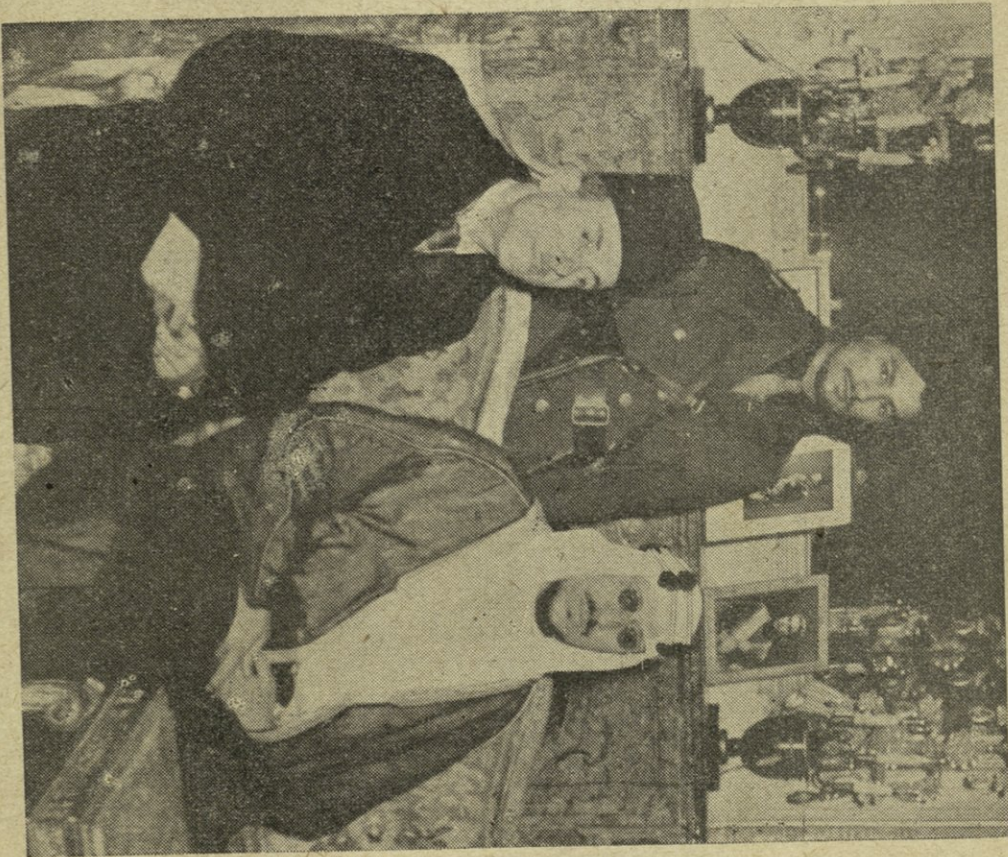
حضرة صاحب السمو الملكي الأمير سيف الإسلام محمد البدر ولي عهد اليمن يزور دار الشورى ١٩٤٩
وهو الثاني من يسار القارئ فالأمير محمد الخطاطي وإلى اليمين سمو الأمير المرحوم
سيف الإسلام يحيى عم الأمير البدر فالسيد علي المؤيد فالسيد أحمد بن محمد باشا حاكم تعز



توديع سمو الأمير محمد البدر ولي عهد اليمن وإلى يساره أحمد حامى باشا فحمد علي الطاهر وإلى يمينه
الأمير عبدالكريم الخطاطي فالسيد صادق المجددي لحاكم تعز فالسيد الجفري ، وظهر خلفهم عدد من كبار المودعين



سمو الأمير عبدالكريم سلطان خيخ في دار الثوري سنة ١٩٥٠
وهو الثاني من يمين الفاري وبجواره الاستاذ كامل كيلاني
وفي الوسط أحمد حلمي باشا رئيس حكومة فلسطين يتحدث
مع القائد المجاهد عزيز المصري باشا وبينهما
محمد علي الطاهر



صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية
والى جانبه محمد علي الطاهر ، هذه الصورة أخذت سنة ١٩٤٧ بقرع الزعفران بصر

الأمير عبدالكريم الخطابي

وآخر ما أنخر به وهو من توفيق الله أننى فى ٢٣ مايو ١٩٤٧ تلقت برقية من السيد عبده حسين الأدهل من فضلاء بلدة « الشيخ عثمان » بجوار عدن يقول فيها إن الأمير عبدالكريم الخطابي مجاهد الريف الشهير قد غادر عدن على الباخرة كاتومبا ، وكات الإشارات قد سبقت ذلك بأن فرنسا ستنقله من منفاه بجزيرة ريونيون من جزر المحيط إلى جنوب فرنسا بعد أن غدرت به ونفته هناك هو وأهله نحو ٢١ عاماً وهذه هى البرقية :

TELEGRAPH COMPANY OF EGYPT S.A.E.		C/A20 bis
ASSOCIATED WITH		OFFICE STAMP
STERN TELEGRAPH COMPANY LIMITED		
No. 0000		
(to be quoted in any inquiry)		
Cairo H.Q., 1011, Alexandria 7955, Suez 694, Port Said - Canal 2163		
OL161 ADEN 14/13 25 2250 =		
LC ASHOURA CAIRO =		
AMIR MOHAMED ABDULKARIM ALKHATTABI, LEFT ADEN		
23/5/47 S/S KATOOMBA =		
ELADHAL .		

وقد ألهمنى الله يومها أن أكتب النبأ عن الجرائد ، ولكنى لم أكتبه عن ملك الشباب فاروق الأول أيدته الله ورعاه ، فأبرقت إلى جلالته بعد منتصف ليل ٢٧ مايو سنة ١٩٤٧ التلغراف الآتى وهو: وردتنى برقية من عدن بأنه قد مر بها الأمير عبدالكريم الخطابي أمير الريف بمراكش وأسير فرنسا بجزيرة ريونيون منذ عشرين سنة وهو الآن بطريقته لمنفاه الجديد بجنوب فرنسا وستصل به الباخرة كاتومبا غداً الثلاثاء للسويس فإتقاده معلق بإشارة كريمة من جلالته بدعوته للنزول ولا سلطة لفرنسا عليه سوى سلطة الخاطف على الخطوف، فهو ليس

ميناء بور سعيد نزل الأمير عبد الكريم من الباخرة لزيارة المدينة ، ولكنه ذهب إلى دار الحكومة وطلب اعتباره لاجئاً سياسياً في مصر وفي حماية فاروقها حفظه الله ، فقبل جلالة هذا الانتجاع ومأمسى المساء حتى كان الأمير وشقيقه الأمير محمد وعمهما السيد عبد السلام وآلهم وأطفالهم وأمتعتهم وأثقالهم في القاهرة ، وبذلك تم إنقاذهم بعناية الله ورعاية ملك مصر الذي سيخلد التاريخ لجلالته هذا العمل العظيم .

وبعد ذلك بمدة قصيرة جاء الأمير عبد الكريم الخطاطبي لزيارتي في دار الشورى بعد أن عرف بما كان ... وقد أوردت في الصفحة التالية ٨٧٤ صورة فتوغرافية تخلص تلك الزيارة .



الأمير الخطاطبي في عدن

أقام السيد عبده حسين الأدهل أحد فضلاء عدن مأدبة لتكريم الأمير عبد الكريم الخطاطبي عند نزوله من الباخرة لزيارة تلك المدينة. وقد ظهر السيد الأدهل في الصورة إلى يسار القاري فالسيد عبد السلام الخطاطبي فالسيد أحمد محمد نعمان الزعيم البائني فالأمير عبد الكريم الخطاطبي فالسيد البراق سكرتير الأمير سيف الإسلام إبراهيم فالأمير محمد الخطاطبي فالقاضي محمد محمود الزبيدي من زعماء اليمن ، ووقف خلفهم فريق من أدباء عدن .



في وسط الصورة جلوس الأمير عبد الكريم الخطاطبي في دار الشورى وإلى يمينه محمد علي الظاهري فعزيز المصري باشا فالأستاذ كامل كيلاني
وإلى يسار الأمير جلوس السيد عبدالله الجفري فالأستاذكتور بشناق بك ووقف خلفهم من يمين الظاهري المرحوم الدكتور الحبيب فامي
فالسيد الرشيد إدريس وهما من بجاهدي تونس فالسيد زين حسن المجاهد الأندونيسي فالسيد محمد رشيدى وزير أندونيسيا المقوف

هذا الكتاب

لا بد أنه يوجد بين قراء هذا الكتاب من أعجبه بعضه ، أو أعجبه كله ، أو أعجبه كله ، كما أنه يوجد فيهم من لم يعجبه شيء فيه ! وقد يكون الأمر على العكس ، فهذا كله لا يد لي فيه ولا حيلة عندي لتلافيه ، فالكتاب مطبوع وموجود بين الأيدي ، بعد أن خرج أمره من يدي ، فهو مذكرات ومفكرات عن حوادث وقعت فسردها ، وحالة وجدت فصورتها ، ولم أزعم - كما قلت في أوله - أنني أضع كتاباً في الهندسة أو في علم الفلسفة ...

فالكتاب يرسم صفحة لحياة شخص من الناس مرّ على مسرح الدنيا ، فترك آثار أقدام على رمال الزمان ثم مضى ، بعد أن دوّن بعض مشاهداته وأخباره ، وشيئاً من الخواطر التي مرت في خاطره . فهو على كل حال يصور للجيل الآتي صفحة عابرة عن حالة راهنة من أحوالنا ، فقد تكون اليوم تافهة وتصبح غداً هامة ، وقد تكون كذلك الآن وتافهة بعد ذلك ، فهو ليس أكثر من مرآة تريك بعض ما نحن فيه ، وانطباعات تصور لك الطيب وغير الطيب عما كنا نعانيه ، من أمور وقعت ، وأحداث حدثت ، حتى إنني أنا نفسي قد أغير ففكرت فيه بعد ذلك ، وقد يتغير بعض من ذكرت من أشخاصه ، فهذا كله بيد الله ، ونحن في هذه الدنيا لسنا أكثر من شخوص وأشباح تمر وتنقضي وتفتني جميعاً والمحرك باق ...

الأغاليط المطبعية

وقع في هذه المفكرات تحريف لكلمات ، وتشويه لعبارات في أماكن شتى . وقد ثبت بالتجربة أن تجنب وقوع الخطأ في الكتب أمر مستحيل ، ولذلك يعتمد بعض المؤلفين إلى استدراك ذلك بوضع بيانات في أواخر كتبهم يشيرون فيها إلى الغلط ويردونه إلى الصحيح ، وهذا واجب عند ما يتعلق الكتاب بفن عملي ، كالصيدلة أو الطب ... الخ . وأما في كتب القصص فلا أظن القارئ يحتاج إلى مثل ذلك ، لأن الغلطة في هذه الكتب لا تنتج شراً ولا تسبب لأحد ضرراً ، فالقارئ عندما يرى الخطأ يدركه من فوره ويرده في ذهنه إلى الصواب من تلقاء نفسه ، وأما إن مرا الخطأ من دون أن ينتبه إليه فذلك أحسن ، وهو يوفر عليه أيضاً ضياع الوقت ...

محتويات الكتاب

مقدمة قبيل الحرب الثانية

من صفحة ٣ - ٢٤

نظرة وإحاطة - الاستعداد للحرب - إعلان الحرب - حالة البلاد - احتياطات - على
ماهر باشا - القاهرة في أوائل الحرب - المخابىء - طلبهم حبسى - إسقاط وزارة ماهر باشا -
الطليان يعلنون الحرب - اختفاء أحمد حسين - عند رئيس الوزراء الجديد - زيارتي لماهر باشا

القبض والحبس

من ٢٦ - ٧٢

تفتيش الدار - إلى السجن ووصفه - الليلة الأولى - احتمالات وشجون - أدب سان بيير -
فضائع بفلسطين - اليوم الثانى فى السجن - أحمد ماهر والتقراشى - أخبار جديدة - تذكرت
أشياء - ذنوب أخرى - الأمير شكيب - لجنة إنقاذ المعتقلين - أيام السجن - مساعى شفيق
باشا ووفاته - مصطفى باشا عبد الرازق - هواجس أيام السجن وشهر رمضان فيه - أخبار
طيبة وتلغراف - ماهر باشا وكتاب منه - حالة الحرب - صفحات سود - الدكتور أمين رويحة

حوادث وأخبار

من ٧٣ - ٩٤

فرنسا الحقاء - وجود حكومة الأردن وكلها قيراطين ! - هولندا وبلجيكا - صراخ
الإنجليز - معرفة الله - كرم المسلمين للأعداء - أخبار الدكتور رويحة - ماذا قالوا عني ؟ -
نثریات الإنجليز - معركة دنكرك - أغلاط المحور وأندونيسيا - سوابق إنجلترا - غلطة
المغاربة والسوريين - الجنرال فييجان - شيفرة خاصة - العربى التائه ...

الحياة فى السجن

من ٩٥ - ١١٤

صالح باشا حرب - عبد الحميد بك سعيد - حمدى باشا محبوب - وفاء وتصادف وملحق -
جاء السجنان - أحد الأجانب وغلظة كبد - محاملات ومفاوضات - حرب باشا ورئيس
الوزراء - خواطر السجن - الاستعانة بالشيطان - عند عميد الاستعمار بالقدس - الانصال

بالسنوسيين - الأخضر ونعمان - من هو نعمان ؟ - وثيقة على الإنكليز - إنسانية الأمريكان

شئون شتى

من ١١٥ - ١٢٨

من الذى صمم على الحرب - براءة هتلر - الاستعمار سيطرة - وصف نكباتهم - تقسيم فرنسا - ضرب مدينة دمشق - استسلام فرنسا - ماذا جرى بعد ذلك ؟ - سقوط باريس - حداد فرنسا - إلى الله ! - موكب الدموع - فظائع بريطانية بفلسطين .

تجارب وخواطر

من ١٢٩ - ١٦٣

خواطر السجن - نسيم صبيحة - استدراك عن الأمير شكيب - هواجس السجن - خاطرة عابرة - مس نيوتن - المفوضية السعودية - استطراد ! - الملك فيصل والإنكليز - وصف نكبة لندن - الشهيد فرحان السعدى - رجعة لحياة السجن وأخبار ... - تشرشل يخطب - اتصلت بالأمير شكيب وأنا بالسجن - حياة السجن أيضاً - عريضة أبناء الأقطار الإسلامية بطلب الإفراج - مسألتى فى البرلمان - المساعى فى بغداد - مساعى نواب مصر .
فرنساويات وغير ذلك ...

من ١٦٤ - ١٩٣

رسائل بينى وبين الجنرال فيجان - موقف طيب للنحاس باشا - من حوادث السجن - محمود لطيف بك وهيكى باشا - توسط الأمير فيصل وجورج انطونيوس - مساعى الدكتور محمود عزى - ظلام الأسر - المعاهدة المصرية - حسان فلسطين - كتاب من الأمير شكيب أرسلان - رسالتى لرئيس الوزراء - شئون وخطرات فى السجن وأخبار - مصادفة عن السبعواوى وحوادث - نشرة عنى تذاع بالقاهرة .

المرض والمستشفى

من ١٩٤ - ٢١٦

صدى المرض بالعراق وأقوال الصحف العراقية - إلى المستشفى وعواطف السجانين - حياة المستشفى وأخباره ... - أخبار وتعليقات - خواطر وملاحظات - إذاعة راديو برلين عنى وصوت يونس البحرى - بهلوانيات - عريضة لجلالة الملك - زيارة تشغل البال ومهر .

الفرار !

من ٢١٧ - ٢٦١

التفكير بالهرب - بروفة والساعات الأخيرة - الهرب - بعد الفرار - ذكريات وإلى الأمام ... - حيرة ثم وجدتها ! - تفكير ورسم خطط - ماذا بعد الهرب - الشيخ يوسف وحادث ومباغثة - الشيخ إطفيش - الجندي المنكوب - عند السيد العتاني - عند الأستاذ الشيخ إطفيش - إلى أين - الشيخ محمد الناجي - الشك والارتياب - مباغثة - عند نسيم شهاب بكفر الوسطاني - ولكن الله سلم - أخبار جديدة - ليلة في طنطا - كتاب إلى بغداد - سعيد ثابت - دمنهور - إلى الصحراء الغربية - فزع ... إلى القاهرة - تفتيش الشيخ دار يوسف

حيرة الطريد

من ٢٦٢ - ٣١٨

استشارات عند حافظ بك عوض - الشيخ حزنبيل - عند الأستاذ الياس انطون الياس - حادث ينشف الدم - ليلة في الاسكندرية - ويوم فيها - عمى قلوب الطليان - يوم سعيد - طردوني عن باب المسجد - تعال يا شيخ ! - فندق اسطاسي - الفرار بجرأ - محمود بسيوني بك - بوليسيات ! - هدية اللادن - خناقة وإلهام من الله - معتقل الزيتون - أخبار العراق ورشيد عالي - مقابلة ومأزق عند السيد البدوي - الحديث شجون - معركة - تعليقات وخيانة - ليلة ليلاء والبنطلونات - عمامة السيد عبد الحميد كرامة - إلى المنصورة - حملة ومصادفة - إلى القاهرة - فائدة بوليسية - وقعت بيد البوليس - الدكتور محمود عزمي - حصار المفوضية العراقية - أميل يخذلني - إحساسات - عند الشيخ صبرى عابدين - زيارة شقيقتي في السويس - حيرة ولقاء محزن - زناجير في السماء - رحلة ولكن جاء الفرج - مشكلة وفرار وحادث - الأستاذ علي أحمد با كثير .

الاستقرار في المنصورة

من ٣١٩ - ٣٥٠

موكب - ليلة البراغيث - هدوء ومكنسة وشك - الفرار من الدار - القبض على عزيز باشا المصري - إخماد حركة العراق - حياة الخبأ - محمد شكرى الكرداوى - شكوك أحمد حسن بدر والمكاشفة - الشيخ محمد المغربي - تجارة البطاطين والجندي يقبل يد الشيخ -

حرب الروس مع الألمان - الفرصة التي أضعتها - اشترت راديو - تسفير با كثير - وإحضار الصرة - حوادث فردية - شيء عن المنصورة - مساومة الحكومة - حافظ عفيني باشا

حوادث مثيرة

من ٣٥١ - ٣٨٤

القبض على قرينتي - سافرت لتسليم نفسي - الشيخ في الكنيسة - احتجاج بونابرت - خبر غير منتظر - إبعاد قرينتي عن مصر - الأستاذ أحمد حسين يصف الحادث - سفر بقطار الليل وقهوة المحطة - مدينة قنا - سكة حديدية حربية - مدينة أسيوط - في دار سيد باشا خشبة ورسالة - الرجوع للمنصورة - استرحت بغرفة ضابط البوليس - عبد الحميد باشا عبد الحق - من بني سويف إلى حلوان - أخبار جديدة من مصر الجديدة - إلى القاهرة - حكمدار المنصورة

استقرار

من ٣٨٤ - ٤٣٨

حياة هادئة - زائر وتأملات - وجه فرنسا وملاحظات وحوادث - حبيسة - أخبار مقلقة - لهبة سراج وانطواء كلب - السفر للحج - أحوال مصر في البرلمان - نسفات الحرية - النقراشي وحمدي محبوب - قطط على أحمد با كثير - بائع الأحذية - المجاعة في مصر - الشيب والخوف - منام رأيت فيه الملك - عيد! - نظرة سياسية - طرابلس وبرقة - الدبلوماسية العربية - أندلسيات - يونس البحري - بلاد الملايو وفلسطين أخرى - سوانح وخواطر عن الحرب - إزعاج نسيب شهاب - المعتقلون في البرلمان - خضة! حوادث وخواطر - البوليس يفتح البيوت - حيلة لإخفاء أوراق - محمود فهمي النقراشي - الأحوال قبل النهاية - محاصرة قصر عابدين - الشيخ عبد الحميد اللبان .

بعد الانقلاب

من ٤٣٩ - ٤٧٨

كيف جمعنا وكيف سقطت الوزارة - وزارة النحاس باشا - فخص الناس وبرقية - تلفون وحوادث - عند حافظ عوض بك بالقاهرة - عبد الله نديم - آمالي عند الفرج - كتاب نظرات الشورى - السجون قديماً وحديثاً - الدكتور عفيني باشا والنحاس باشا - النحاس باشا يلقبني بسفير مصر - تخمين وافتراس - فال واستبشار - آمال - مركز جاسوسية - مكرم عبید باشا

الاستسلام

من ٤٧٩ - ٥٠٠

إلى النحاس باشا - رسم الخطة - السفر للقاهرة - هيا هيا .. وذكريات - دعر سائق
السيارة - بين الحرس ومفاجأة - تشريفات وسلامات - مكاشفة إبراهيم عز الدين - رئيس
الوزراء والصحافة - البوليس ... - مع أمين عثمان باشا - اللقاء بالنحاس باشا ورجولته أمام
الإنكليز - أنطون باشا الجميل - القلم الفضى - مناقشة وتعهد وحسن فهمي رفعت باشا -

بعد الإفراج

من ٥٠١ - ٥٢٠

الانطلاق والحرية - في دار الأهرام ودار المصري - في القصر الملكي - الإنكليز يمنعون
النشر عنى - برقية مزخرفة - أقوال الجرائد - وقع ظهورى على البوليس السياسى -

شئون وشجون

من ٥٢١ - ٥٤٢

إرجاع قرينتى لمصر - برقيتى لرئيس الوزراء - النحاس باشا وعفيفى باشا - القبض على
بياب الحديد - بطل مجهول - الجندى المنكوب - روايات طريفة - وفاء ومآدب - هل بقى
عندك عقل - أين الأهل وأين التقليد - الغنائم والضابط إمام - أساليب بوليسية - حتى
العصفور! - إزالة اللحية - تهنئة - شيخ الشوام - أوسمة ... - ملحق وغير ذلك - وبعد ذلك.

هرب ...

من ٥٤٣ - ٥٦٢

معركة العلمين الألمانية - الحالة فى القاهرة - الخوف ووصف حالة الإنكليز - فرارى من
القاهرة - الحيرة والمفارقات - ذكرى أيام المنصورة - الآمال والترقب - غلطة الألمان والهزيمة
النكراء - اهتزاز وزارة النحاس باشا ثم ثباتها - عاطفة طيبة للنحاس باشا - هرب الأستاذ
أحمد حسين من الحبس وزيارته لى - حبس عزيز باشا المصرى بعد إطلاقه - زائر من الضباط -
فون بابن سفير ألمانيا - جمعية إخوان الحرية! - زيارة الأمير شكيب الأخيرة لمصر -

جامعة الدول العربية

من ٥٦٣ - ٥٩٦

قيام الجامعة ومولدها - الدكتور محمد صلاح الدين بك - المندوب السعودى والمندوب

اليمني - موسى العلمي - اليمن والمملكة السعودية - فلسطين وجامعة الدول العربية - خلافت
فلسطين - برتوكول الإسكندرية - إقالة وزارة النحاس باشا والوزارات العربية - اجتماعي
بالنحاس باشا - كيف سقطت وزارته ؟ - الوزارة الجديدة وهربى من القاهرة - الميثاق بدل
البرتوكول - عفيفي باشا وأحمد ماهر باشا - من أسباب محبتي للنحاس - الرجوع إلى موضوع
البرتوكول - الميثاق والخواجات وعزام باشا - السيدة هدى شعراوي - حكومات الأقليات -
استطرد عن عزام باشا - أصدقاء تغيروا - الصداقات العالية - السيد عبد الله الجفري - سوء
الحظ - أخبار الحرب وانكسار ألمانيا .

رياض بك الصلح

من ٥٩٧ - ٦٤٠

استقلال سورية ولبنان - أخى رياض - برنيطة وزير خارجية عربى - مواكب رياض في
مصر وعجائز بوشنج - انتظار - تحسين العسكري وعزيز المصرى - قصيدة الأمير عادل - رياض
يصفى بقله - مقتطفات من رسائل رياض - رياض يودعنى في بيروت - رياض يقع في السياج -
رياض يطلب الحفلات لنفسه بنفسه - سيف الإسلام بدلاً من رياض - رياض يتغير مع الجميع - رياض
يجود بوصل - رياض وهو حاكم والمرحوم عبد الحميد كرامة - مصرع أنطون سعادة - نهاية رياض الصلح

حسن الجزاء

من ٦٤١ - ٦٥٦

أيام هناء والاحتفال بالكونتيننتال - خطاب الأستاذ أحمد حسين - وتصاوير الحفلة -
خطاب الدكتور محمد صلاح الدين بك - أسماء كثيرة .

شكرى القوتلى بك

من ٦٥٧ - ٦٩٤

تاريخ قديم - جهاد في القاهرة - أول كتاب من شكرى بك - وكتاب آخر - لمساعدة
ولا زيارة - إحسان الجابرى وخذلان فرعى - بكرى مصطفى - شكرى بك يتذكرنى -
لبيك ... رئيس لايرد على صديقه - في القاهرة - الدكتور أمين رويحة - خذلوه بدمشق -
ملحوظة عابرة - كلمة أخيرة وحالة محزنة - الصالحانى - المساعى من أجل الأمير شكيب -
ماذا قال الأمير - كتاب منى للرئيس - نور ونار - استطرد عن متاعب شكيب - جريدة

الشورى - أسرة الأمير شكيب - جميل مردم بك - الحجز على منزل الأمير بسويسرا -
القبض على شكري بك - شكري بك في القاهرة - زيارتي له بالاسكندرية - أحمد زكي باشا -
كنا مشغولين ! القصة الأفغانية - آخر رسالة من شكري بك - مروره بي بدار الشورى .

الاعتقال الثالث

من ٦٩٥ - ٧٠٦

معتقل ها كستب - حبس بلا سبب - حسين سرى باشا - ظهور سبب ثالث للحبس -
نسكبة فلسطين - نتيجة الاعتقال الثالث - عودة إلى مسألة جنسيتي - شعر وأدب - قصيدتي
الشيخ فؤاد شاكر و خليل بك المطران - صدى كتاب - المحاكم تؤيد براءة الإخوان المسلمين
الدكتور أمين رويحة

من ٧٠٧ - ٧١٦

قضية تاريخية - مقال عن سورية والانتخابات فيها - رحلة وحادث وفكرة - استغاثة
واستجابة - طلبت تدخل الجامعة ولكن وتساوير هزلية !

رحلة إلى دمشق

من ٧١٧ - ٧٣٦

تعال معي للشام - ذكريات عن الطيران - ركوب الطائرة لأول مرة - شدوا الحيازيم -
رؤية معتقل ها كستب من فوق ! - قتال السويس - الخلاص من إنجلترا - مدينة بورسعيد - السبب
الحقيقي - أين فلسطين؟ حافظ ابراهيم - لبنان - أخبار وذكريات - طعم الموت - هنادمشق ...

دمشق

من ٧٣٧ - ٧٩٢

حادث - دار فيصل - عونى عبد الهادى - رئاسة الوزراء - تحريات وذكريات وساحة
الشهداء - براغيث فندق ! - رئيس الوزراء ناظم بك القدسى - نخامة الرئيس الأتاسى -
مجلس الشيوخ - المفوضية المصرية - دمشق اليوم - إشعار بالهاتفون - الأستاذ عبد القادر
المغربى - مجلس الرئيس الخاص - فارس الخورى بك - سهرة الليل - فى سجن المزة عند
أمين رويحة - العقيد الشيشكلى - العقيد وأمين رويحة - مناقشة مع العقيد عن أمين -
محكمة جمال باشا ومحكمة رياض الصلح - العقيد متيقظ - أنا والشيشكلى عند حسين توفيق -

العقيد مشغول - على مائدة العقيد - مآذب وحفلات - شيء عن عهد القوتلى بك -
 نبيه بك العظمة - الأمير عادل أرسلان وكتاب منه - زيارة لجبل الدروز - عند سلطان باشا
 الأطرش - وتصاوير الوداع - في السويداء رجال - غوطة دمشق - المشردون الفلسطينيون -
 صلاح الدين الأيوبي والملك الظاهر - وداع الشام - توديع نخامة رئيس الجمهورية - نخرى
 بك البارودى - نشرة وحادث بمطار دمشق - أمين رويحة في المحكمة - عباس الخرسان .

حالة الجامعة العربية

من ٧٩٣ - ٨٣٠

الجامعة وهل أفادت العرب؟ - المهلع من الإنجليز - موكب الأمين العام والحاكم العام -
 كيفية التجديد لعزام - الرواية التمثيلية - حرروا فلسطين من العرب - وسائل عزام للبقاء في
 الجامعة براعة وحيل ومناورات - كتاب عزام لنورى السعيد وردة عليه - كتاب منى لعزام
 وردة عليه - استطراد وصيحة القاوقجي - أصل المصيبة - خفاقة الجمالى بك وعزام باشا - أسعد داغر
 وعزام - انفلات لسان الأمين العام - رسوم تصور حالة الجامعة - من تصرفات عزام باشا -
 نائب عراقى ومجلة روز اليوسف والأستاذ التابعى يصفون عزام باشا والجامعة .

مصرع فلسطين

٨٣١ - ٨٤٨

اعترفوا باليهود - هدنة من جانب واحد - اليهود يؤدبون الدول العربية - الهدنة وبعد
 التأديب - الشىء بالشىء يذكركر - الاستيعاب والرجوع إلى الهدنة - الألقاب أضاعت فلسطين -
 الفلسطينيون مسئولون - الانذار الأول - نعى أول بلدة عربية .

تعليق وتطبيق . . .

من ٨٤٩ - ٨٧٥

إعادة النظر للذكرى - فرنسا وإنجلترا وأمريكا - بعد انكسار ألمانيا - شماتة سافرة -
 استطراد عن الماضى - الضرب والتعذيب - يكا فتون محمد يوسف - الشاهد الثانى ومقارنة -
 هل تخلصنا؟ - الملاحقة - بين الأمس واليوم - تحليل مختصر - مجلس الدولة - مثال ذلك -
 الختام - الريش المنتوف ومفاخرة - تصاويرى - سلطان لحج - الأمير سيف الإسلام البدر -
 الأمير سعود - الأمير على عبدالكريم - نجاة الأمير عبدالكريم الخطايبى - برقية وبعدها -
 الأمير الخطايبى فى عدن - الأمير فى دار الشورى - هذا الكتاب - الفهارس .

فهرس الأسماء

التي وردت أكثر من مرة

« ١ »

جلالة الملك فاروق المعظم : ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢١٠ ، ٤٠٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٥٠٥ ، ٨٦٣ ،
 أحمد حلمى باشا : ١٢ ، ٢٩ ، ٦٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٣٣ ، ١٥٤ ، ١٨٢ ، ٤٦٧ ، ٤٧٠ ،
 ٤٧١ ، ٤٨٦ ، ٥٦٢ ، ٥٩٢ ، ٦٣٥ ، ٦٥١ ، ٦٥٥ ، ٦٥٨ ، ٦٨٣ ، ٨٣٣ ، ٨٣٧ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ،
 الأستاذ أحمد حسين : ١٣ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ١٠١ ، ١٤٨ ،
 ١٨٢ ، ٢٠٠ ، ٣٢٠ ، ٣٢٧ ، ٣٦١ ، ٣٨٦ ، ٥١٧ ، ٥٢٠ ، ٥٢٣ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ،
 ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٥١ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٦٠ . أحمد ماهر باشا : ١٩ ، ٣٥ ، ٤٦ ،
 ٤٩ ، ٤٣٣ ، ٥٧٥ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ . أحمد محمد نعمان : ٣٦ ، ٣٨ ، ٥٩ ، ١٤٦ ، ١٧٨ ،
 ١٨٨ ، ٦٥٥ و ٨٧٣ السيد أحمد الشريف السنوسى : ٣٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٨ . أحمد شفيق باشا : ٥٤ ،
 ٤٨٦ ، ٥٣١ . أحمد حافظ عوض بك : ٢٢٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٣٢١ ، ٤٤٧ ، ٤٦٣ ،
 ٤٧٥ ، ٤٧٧ . الدكتور أحمد سوكرنو : ١٦٢ ، ٤٨٦ . أحمد الشرباقى : ٧٤ ، ٦٦٨ ،
 ٧١٣ ، ٧١٥ . أحمد رمزى بك : ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٥٤٠ . أحمد زكى باشا : ٤٨٦ ، ٦٠٥ ،
 ٦٨٩ . أحمد شوق بك : ٤٨٦ ، ٦٤٦ ، ٦٥٣ ، ٧٣٥ . أحمد حسن الزيات : ٣٣٩ ، ٥٠٣ ،
 ٥٤٨ . الدكتور أحمد العجاتى بك : ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢٣٤ ، ٥٣٢ .
 أحمد جودة : ٣٢٨ ، ٣٣٢ ، ٣٥٠ ، ٣٨١ ، ٤٢٧ ، ٥٣٤ ، ٦٤٥ . أحمد الإمام : ٥٢٧ ،
 ٦١٧ ، ٦٥٥ . أحمد حسن بدر : ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ،
 ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٥ ، ٣٧١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٩٤ ،
 ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٥٥ ، ٤٨٥ ، ٥٢٦ ، ٥٣٤ ،
 ٥٤٩ ، ٦٤٥ . إبراهيم الدرس : ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٨٦ . أبو الخير نجيب : ٥١٨ ، ٥٢٠ ،
 ٥٣٣ ، ٦٥٥ ، ٧٠٠ ، ٨٧٤ . إبراهيم عبد الهادى : ٤٦٠ ، ٦٣٩ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ،
 ٧٠٠ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٥٣ ، ٧٦١ ، ٨٣٧ ، ٨٦١ . الشيخ إبراهيم مجاهد : ٣٢٨ ، ٣٣٢ ،

٤٢٦ ، ٥٣٤ ، ٦٤٥ . الدكتور إبراهيم عز الدين : ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٥١٣ . إبراهيم
إطفيش : ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٣١٠ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ،
٥٣٢ ، ٥٤٦ ، ٦٤٥ . الحاج أديب خير : ٧٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٨ ، ٦٦٨ ، ٦٨٩ . إحسان الجابري :
٦٥٩ ، ٦٦٤ ، ٦٦٦ ، ٦٧١ ، ٦٨٠ ، ٦٨٩ . أديب الشيشكلي : ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ،
٧١٢ ، ٧٤٤ ، ٧٥٢ ، ٧٥٥ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٦٢ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٨ ، ٧٧٠ ، ٧٩٠ ، ٧٩٢ ،
٨٣٨ . أسعد داغر : ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٨٩ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ . الدكتور إسماعيل مرتضى بك : ١٩٧ ،
٢٠١ السيد أبو الوفا الشرقاوي : ٩٤ ، ٣٧٤ . الأستاذ أكرم زعيتر : ١٠٢ ، ١٣١ ، ١٨٧ ،
٥٦٩ ، ٦٥٥ ، ٦٨٠ ، ٦٨٢ . الميرزا مهدي رفيع مشكي بك : ٣٠٢ ، ٣٦٦ ، ٤٨٦ ، ٦٠٥ ،
٦٤٥ . الدكتور الطيب ناصر : ١٣٢ ، ٧١٤ . السيد الفضيل الورتلاني : ٢١٠ ، ٦٤٤ ،
٦٤٥ ، ٦٥٣ . الياس أنطون الياس . ٦٠ ، ١٣٤ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ . الملك ابن سعود : ٥٦٦ ،
٥٦٧ ، ٥٦٩ . الملك العادل : ٦٧٨ ، ٦٧٩ . الحبيب بورقيبة : ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٥٢ ، ٨١٣ ،
٨٦٨ . ألبير عمون : ٥٠٤ : ٦٥٥ . إميل الغوري : ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٥٠٢ .
الدكتور أمين رويحة : ٤١ ، ٥١ ، ٧٢ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٧٣ ،
٣٩١ ، ٤٠٩ ، ٤٣٠ ، ٤٦٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٥ ، ٦٥٩ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ،
٦٧٩ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧١١ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧٢٠ ، ٧٤٠ ، ٧٤٢ ، ٧٤٤ ، ٧٤٧ ،
٧٤٩ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٨٣ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ . الحاج أمين الحسيني
٦٩ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ٤٨٦ ، ٦٠٥ ، ٦١٨ ، ٦٢٤ ، ٦٥٩ ، ٦٨٩ ، أمين عثمان باشا : ٤٩١ ،
٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، أمين بك التميمي : ٥٦٨ ، ٥٦٩ ،
٥٧٠ ، ٦٤٦ . الأستاذ إميل خوري : ٦٠٦ ، ٦٠٩ ، ٦١١ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٣٥ .
أنطون باشا الجميل : ٥١ ، ٨٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٢ ، ٣٤٨ ، ٤٩٦ ، ٥٠٣ ، ٥٣٢ ، ٦٥٥ .
أنطون سمادة : ٦٣٩ ، ٧٦١ .

« ب »

الشيخ بشارة الخوري : ٥٦٦ ، ٥٩٨ ، ٦٣٤ ، ٦٨١ ، بديع بك المؤيد : ٧٨٣ ،

« ت »

تحسين بك العسكري : ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٧ ، ١٠٢ ، ١٣٨ ، ١٨٨ ، ٣٠٥ ، ٤٨٦ ، ٦٠٣ ،
٦٣٥ ، ٦٥٥ توفيق مفرج : ٦٠١ ، ٦٠٦ ، ٦٢٧

« ج »

جميل مردم بك : ٨٦ ، ٦١٧ ، ٦٥٢ ، ٦٧٢ ، ٦٨٣ ، ٧٩٨ ، ٨١٥ جورج بك أنطونيوس :
١٥٤ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ٣٤٧ جميل بك الجاني : ٧٤٠ ، ٧٨٣

« ح »

الدكتور حافظ عفيفي باشا : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٧٣ ، ٢٠٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ،
٣٤٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٦٣ ، ٥١٤ ، ٥٢٤ ، ٥٧٥ حافظ بك إبراهيم : ٦٤٦ ، ٦٥٣ ،
٧٢٩ حسان بن ثابت وحسان فلسطين : ١٧٨ ، ٧٣٤ ، ٧٤١

الدكتور حسني الطاهر : ١٥٤ ، ١٧٤ ، ١٨٦ ، ٥٩٣ ، ٦١٢ ، ٦١٥ حسني الزعيم : ٦٨٨ ،
٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٢ ، ٧٧٣ حسن صبري باشا : ١٩ ، ٢١ ، ٣٤ ، ٤٦ ، ٦١ ، ١٠٢ ،
١٠٣ حسن فهمي رفعت باشا : ٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٨٦٢ الشيخ حسن
البناء : ٦٥٥ ، ٧٦١ حسين توفيق : ٧٦٣ ، ٧٩٢ حسين سري باشا : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٤٧ ،
٤٣٣ ، ٤٤١ ، ٥١٥ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ حسين محمود سعيد : ١٦٠ ، ١٨٦ حسين الكبيسي :
٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٦٤٣ حسين العويني : ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ حق العظم : ٧٠ ، ٦٨٦

حمدي محبوب باشا : ١٥ ، ١٨ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٨٢ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ،
١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢٤٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٤٤ ،
٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٣ ، ٣٨٤ ، ٤٠٣ ، ٤٣٧ ، ٤٧٣ ، ٤٩٨ ، ٥٠٠ ، ٥١٥ ، ٥٩٤

« خ »

خليل مطران بك : ١٧٠ ، ٤٨٦ ، ٦٠٣ ، ٦٢٥ ، ٦٥٥ ، ٧٠٣

خير الدين الزركلي : ٩٩ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٨٣

« ر »

رياض بك الصلح: ٤٨٦، ٥٩٨، ومن ٥٩٩، إلى ٦٤٠، ٦٥٩، ٦٦٦، ٦٧١، ٦٨١،
٦٨٣، ٦٩٤، ٧٦٥، ٨١١ رشيد بك الحاج ابراهيم ٦٣، ١٠٢، ٤٤٤، ٤٦٧، ٥٣٢، ٥٤١.
رشيد عالي بك السكيلافي: ٧٥، ٣٢٦، ٤١٥. رشيد بك طليع، ٦٠٥، ٦٥٨. الدكتور
رشيد كرم: ١٩٤، ٣٥٣، ٥٢٣، ٦٤٦، ٨٥٩، ٨٦٠.

« ز »

زكي سعد بك ٥٣١، ٨٠٢.

« س »

سامي الحناوي: ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١١. سامي باشا مردم بك: ٧٥٠، ٧٨٣. سالم
الحسيني: ٧٣٥، ٧٣٨، ٧٥٣. سليم زكي باشا: ١٩٤، ٣٥٧. الحاج سليم قويدر ٢٧٩،
٤٧٢. سعد الدين عسكر: ٣٥٠، ٣٦٨. سعيد ثابت بك ١٦١، ٢٥٣. سيد باشا خشية:
٣٧٠، ٣٧١ سمو الأمير سيف الإسلام البدر: ٦٩٤، ٨٥٠، ٨٦٩. سيد ابراهيم الخطاط: ٥٩٠،
٦٥٦ سمو الأمير سيف الإسلام عبيد الله: ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٧٨، ٦٩٤.
سلطان باشا الأطرش: ٦٥٩، ٧٦٣، ٧٧٦، ٧٧٧، ٧٧٨. سمو الأمير سعود بن عبدالعزيز ٨٧٠.

« ش »

الأمير شكيب أرسلان: ١١، ٥٠، ٦٣، ٧٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٤٩، ١٧٩
٣٤٧، ٤٨٦، ٥٦٢، ٦٠١، ٦١٠، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٥٩، ٦٧١، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٧٩
٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٧٨. شكري بك القوتلي: ٣٠٩، ٤٨٦، ٥٤١، ٦٠٥، ٦١٤،
٦٢١، ٦٢٤، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٨، ٦٧٠، ٦٧١،
٦٧٣، ٦٧٧، ٦٧٩، ٦٨١، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩٢، ٦٩٣، ٧٠٨، ٨٧٠،
٧٧٢. شوكت التوني ١٤٨، ٤٠٣، شكري الكرداوي: ٣٠٠، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠.

« ص »

السيد صادق المجددي ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٩١، ٨٦٩، الدكتور صبحي بك أبو غنيمة، ٧٤٢،

٧٦٨ ، ٧٨٣ ، صبحى بك الخضراء ٦٥٥ ، ٧٢٠ ، ٧٣٥ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٨٣ ٧٦٨ ،
 ٧٨٦ ، صبرى بك العسلى ٦٥٩ ، ٦٧١ ، ٧٦٨ ، ٧٧٨ ، ٧٨٣ ، ٧٨٦ ، الشيخ صبرى
 عابدين ٥١ ، ٥٩ ، ١٤٩ ، ٢٥٨ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ .

« ط »

طه باشا الهاشمى : ١٣١ ، ١٥٠ ، ١٦١ ، ١٩٦ ، ٢٠٧ ، ٢٥٢ .

« ع »

الأمير عادل أرسلان : ٤٨٦ ، ٦٠٤ ، ٦٥٨ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤

عادل بك زعيتر : ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٣٥٧ ، ٤٦١ ، ٦٥٥

عبد الله حسين الأدهل ٨٧١ و ٨٧٣ عبد الله الجفرى ٥٣١ ، ٥٩٣ ، ٦٠٢ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ؛
 ٦٤٥ ، ٧٠٣ عبد الله نديم ٤٤٩ ؛ ٤٥٠ ؛ ٤٥١ ؛ ٤٥٢ ؛ ٤٥٣ ؛ ٤٥٥ ؛ ٤٥٦ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ؛
 الدكتور عبد الله الياق ٥٩٩ ؛ ٦١٧ ؛ عبد الله حسين ٤٩٣ المهندس عباس جمجوم ٣٣٧ ؛
 ٣٦٦ ؛ ٥٣٦ ، ٥٣٧ الشيخ عبد الحميد اللبان ٤٣٨ ، ٥٣٠ . عبد الحميد سالم : ٣٣٣ ، ٥٣٤ ؛
 السيد عبد الحميد كرامة ٢٩٤ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، الدكتور عبد الحميد بك سعيد ٩٦ ، ٣٧٤ ،
 ٤٨٦ عبد الحميد باشا عبد الحق ٩٣ ، ٣٧٣ ، ٤٠٣ ، ٤٧٣ ، عبد العزيز الشعالى : ٤٦ ،
 ٦٠٥ عبد الحليم الغمراوي ٥٢ ، ٤٩٣ ، عبد الحليم أبو سيف راضى بك : ١٦١ ، ٤٣٨ ؛
 الشيخ عبد القادر المغربى ٤٧٦ ، ٦٥٦ ؛ ٧٤٢ ؛ ٧٤٥ ؛ ٧٤٦ ؛ ٧٤٩ ؛ ٧٥٠ ؛ ٧٥١ ؛
 ٧٦٨ ؛ ٧٨٣ ؛ عبد الستار بك الباسل : ٥١ ؛ ١٤٣ ؛ ١٨٤ ، ١٨٨ ؛ ٤٤٥ ؛ ٤٨٦ ؛ ٥٣٢ ؛
 عبد الرحمن بك الرافعى ٥١ ؛ ٣٧٤ ؛ ٥٦٣ ؛ ٦٤٤ ؛ الأستاذ على محمد المصرى : ١٥٠ ؛ ٢٥٢ ؛
 ٢٧١ عبد المنعم خلاف ٨٢٠ ؛ ٨٢١ ؛ عبد الرحمن عزام باشا ٣٠٩ إلى ٤٨٦ ؛ ومن ٥٨١ إلى ٨٢٧
 عبد الله نديم من ٤٤٩ إلى ٤٥٤ . عزيز على المصرى باشا ٢٢٧ ، ٢٣٦ ، ٣٠٦ ، ٣١٧ ،
 ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٩ ، ٣٨١ ، ٤١٠ ، ٤٣٠ ، ٤٧٨ ، ٤٨٦ ، ٥٢٥ ،
 ٥٥٥ ، ٥٥٧ ، ٥٨١ ، ٦٠٣ ، ٦٧٦ ، ٨٠١ ، ٨١٦ ، ٨٧٠ ، ٨٧٣ .

عز الدين باشا الحلبي ، ٦٥٩ - ٧٨٠ - عوفى بك عبد الهادى ، ٥١ - ١٠٢ - ٧٣٩ - ٧٦٨

الأمير عبد الكريم الخطابي : ٨٦٩ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ . السيد علي المؤيد : ٥٧٧ ، ٦٤٣ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ . علي ماهر باشا : ١٣ ، ١٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٩٤ ، ١٣٥ ، ١٦٨ ، ٤٠١ ، ٥٨١ .

الشيخ علي سرور الزنكلوني : ٢٦ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٢٢٤ ، ٤٨٦ ، ٥٣٠ ، ٦٠٥ .
الأستاذ علي أحمد باكثير : ١٤٤ ، ٢١٧ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٥٤ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤١٢ ، ٤١٩ ، ٤٣٣ ، ٤٥٥ ، ٤٨٢ ، ٥٣٨ ، ٥٤٨ ، ٦٤٦ . الأمير علي عبد الكريم : ٨٧٠ . الأستاذ عياد أبو الخير : ١٤٨ ، ١٨٤ ، ٦٤٥ .

« ف »

الملك فيصل بن الحسين : ١٤٠ ، ٧٣٨ ، ٧٤٥ . السيد فوزي القاوقجي : ٨٢١ ، ٨٢٥ .
الأمير فيصل آل سعود : ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٦ . الدكتور فاضل الجمالي بك : ٨٢٤ ، ٨٢٥ .
فؤاد سراج الدين باشا : ٦٧٥ ، ٧٠٥ . فؤاد بك حمزه : ١٤٩ ، ٤٨٦ ، ٥٦٧ ، ٧٣١ .
الأستاذ فؤاد يزدى : ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٨٦ . السلطان فضل عبد الكريم : ٨٦٨ .
نخري بك البارودي : ٧٦٨ ، ٧٨٠ ، ٧٨٣ ، ٧٨٦ . الشهيد فرحان السعدي : ١٤٢ ، ١٤٣ .
فارس الخوري بك : ٥٤٠ ، ٧٥١ ، فوزان السابق : ١٣٥ ، ١٨٣ .

« ك »

الشيخ كامل القصاب : ٤٨٦ ، ٦٢٤ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٧٩ ، ٦٨٩ ، ٧٤٢ ، ٧٤٧ ، ٧٨٣ .
كامل بك عبد الرحيم : ٨٠٣ ، ٨١٥ . كمال الدين صلاح بك : ٧٤٧ ، ٧٦٢ .
الأستاذ كامل الكيلاني : ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٧١ ، ٤٨٦ ، ٦٤٥ ، ٨٦٨ ، ٨٧٠ ، ٨٧٣ .
كاظم بك الصلح : ٦٠٧ ، ٦١٧ ، ٦٢١ .

« ل »

لطف بك الحفار : ٧٨٣ ، ٧٨٦ .

« م »

محمد تيسير الحلبي : ١٤ ، ٥٥٢ . السيد محمد العتابي : ٢٣٤ ، ٢٧٧ ، ٦٤٥ .
اليوزباشي محمد يوسف «الميرالاي» : ٢٦ ، ٣٩ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ١٠٢ ، ١٤٧ ، ١٩٤ ، ٢٣١ .
(٥٦ - ظلام السجن)

، ٢٥٩ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٦٦ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ،
 ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٥١٦ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٦ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٦٧٤ ، ٨٥٧ إلى النهاية .
 محمد حسين هيكل باشا : ٥١ ، ٥٤ ، ٢٠٦ . محمد الأخضر العيساوي : ٣٦ ، ٣٨ .
 السيد محمد إدريس السنوسي « الملك » : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ١٨٨ ، ٥٦٢ .
 محمد صالح حرب باشا : ٥٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١٨٦ ، ٢٠٢ ، ٤٨٦ ، ٥٨١ ، ٦٥٥ ، ٨٠١ .
 ٨١٦ . محمد محمود بك جلال : ٣٧٤ ، ٥٣٢ . محمد سعيد العريان بك : ٣٩٧ ، ٦٨٥ .
 الشيخ محمد عبد اللطيف دراز : ٤٠١ ، ٤٨٦ . محمد طاهر الخشاب بك : ٤٦١ ، ٧٨٩ .
 السيد محمد رشيد رضا : ٤٨٦ ، ٥٣٢ ، ٦٥٩ . الأستاذ محمد التابعي : ٤٩٦ ، ٨٠٩ ، ٨٢٧ .
 محمد عزت دروزه بك : ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٥٦٩ .
 الشاعر محمد عبد الغني حسن : ٣٣٩ ، ٦٤٦ . محمد حلمي شعير : ٢١٥ ، ٤٩٣ ، ٥٠٢ .
 الدكتور محمد صلاح الدين بك : ٣٠٥ ، ٤٨١ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩٦ ، ٥١٣ ، ٥٢٤ ، ٥٣٢ .
 ٥٥٣ ، ٥٧٣ ، ٥٧٨ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٥٣ ، ٧٩٥ ، ٨٠٧ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٥ .
 محمد علي علوبة باشا : ٦٩ ، ٦٥٥ . محمد البابي الحلبي : ١٣٤ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ .
 محمد شرارة باشا : ١٥٣ ، ١٦٩ ، ١٨٨ . محمد عبد الرحمن بك نصير : ١٦١ ، ٤٠١ ، ٤٣٨ .
 السيد محمد رشيدى : ١٦٢ ، ٨٥٠ . محمود تيمور بك : ٥٢٢ ، ٦٤٥ ، ٨٦٠ ، ٨٧٣ .
 الدكتور محمود عزى : ١٧٦ ، ٣٠٣ ، ٤١٥ ، ٤٨٦ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٦٧٤ .
 محمود بك لطيف : ٥١ ، ١٠٢ ، ١٦١ ، ١٧١ ، ٣٣٥ ، ٦٤٥ .
 محمود فهمى النقراشى باشا : ١٩ ، ٣٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٤٠٣ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٦٥ .
 ٤٦٩ ، ٥٧٥ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ، ٨١٥ ، ٨٣٧ . محمد معبد الخلاق : ٤٥٢ ، ٤٥٣ .
 محمود تيمور بك : ٥٣٢ ، ٦٤٥ . الأستاذ محمود أبو الفتح : ١٧٣ ، ٣٨١ ، ٤٩٧ ، ٥٠٤ .
 الدكتور مصطفى بك بشناق : ٢٩ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٩ ، ١٢٥ ، ١٤٩ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٠٩ .
 ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ .
 ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٦٦ ، ٣٧٧ ، ٣٩٤ ، ٤٦٣ ، ٤٧٣ ، ٤٨٠ ، ٥٠٣ ، ٥٢٣ .
 ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣٢ ، ٥٤٦ ، ٥٦٨ ، ٥٩٢ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٥٥ ، ٨٥٩ ، ٨٧٣ .
 مصطفى النحاس باشا : ٩٤ ، ١٧٠ ، ٣٠٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ،
 ٤٣٧ ، ٤٤٢ ، ٤٨٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠٥ ، ٥١٠ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ .

٥٧٠ ، ٥٦٩ ، ٥٦٦ ، ٥٦٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٣ ، ٥٥٢ ، ٥٤٥ ، ٥٣١ ، ٥٢٤ ، ٥٢٣ ، ٥٢٢
٥٨١ ، ٦٣٤ ، ٦٧٥ ، ٧٩٥ ، ٨٠٠ ، ٨٠٧ ، ٨١٦ .

مصطفى الطاهر : ١٠٢ ، ١٥٠ ، ٢٥٢ ، ٦٥٥ منير الرئيس : ٧٤ ، ٦٦٨ الشيخ مصطفى
حسنى السباعى : ٢١٠ ، ٣١٠ ، ٧٦٨ مختار الدرس : ٢٤٨ ، ٢٤٩ مكرم عبيد باشا : ١٧٢ ،
٤١٢ ، ٤٤٤ ، ٤٤٨ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٥١٤ ، ٦١٨
مصطفى باشا عبدالرازق : ٣٥ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ١٠٥ ، ١٧٢ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ،
٤٨٦ ، ٦٠٥ محي الدين السنوسى : ٣٥ ، ٢٠٨ مزاحم الباجه جي بك : ٦٣٥ ، ٧١٣
موسى العلمى : ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ مشهور الضامن بركات : ٢١١ ، ٣١٠

« ن »

نبيه بك العظمة : ٧٤ ، ١٠٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ٤٨٦ ، ٦٢٣ ،
٦٢٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٩ ، ٧٧١ نوري باشا السعيد : ٥١ ، ٧٢ ،
٧٩ ، ٨٠ ، ٥٦٦ ، ٨١١ ، ٨١٣ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٤ الدكتور ناظم القدسى بك : ٧١٥ ،
٧٤٠ ، ٧٤٣ ، ٨٠٩ ، ٨١١ نسيم صليبة : ١٣٠ ، ١٣١ نجيب بك الراوى : ٦١٣ ، ٨١٧ ،
نجيب الأرمنازى : ٦٥٩ ، ٦٧٣ الأستاذ نجيب الرئيس : ٦٠ ، ٧٤ ، ٦٦٨ ، ٧٦٨
الأستاذ نجيب حرب : ٧٦٨ ، ٧٧٥ ، ٧٧٨ ، ٧٨٠ نسيب بك شهاب : ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،
٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٤٢٠ ، ٤٦١ ، ٦١٠ ، ٦١١ ،
٦٤٥ ، ٦٥٩ ، ٦٧١

« ه »

نخامة هاشم الأناسى : ٧٠٨ ، ٧١٤ ، ٧٤٤ السيدة هدى هانم شعراوى : ٥٨٢ ، ٦٤٥

« ي »

الدكتور يعقوب خورى : ٢١ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٤٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٢٤١ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ،
٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٥ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٤٤٤ ، ٥٠٣ ، ٥٣٢ ، ٦٥٥
يعقوب الغصين : ١٤٩ ، ٤٦٧ ، ٤٧١ ، يوسف ياسين : ٩٩ ، ١٣٩ ، ٥٦٧ ، ٥٥٠ ، ٨١١
الشيخ يوسف المشهدى : ١٥٦ ، ٢١٠ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٧ ،
٢٥٨ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٣٥٩ ، ٦٤٥ الوزير يونس السبعواوى ورفائيل بطى : ١٨٥ ، ١٨٦ ،
الأستاذ يونس بحرى : ٢٠٧ ، ٤١٥ ، ٨٠٩ الملك يحيى حميد الدين : ٥٦٦ ، ٥٦٩ ، ٦٨٠ ، ٨٥٠

فهرست الصور

« ١٤٨ صورة »

صفحة	
٥ - ٧	صورتى قبل الحبس سنة ١٩٤٠ وصورة بأثناء الحرب سنة ١٩٤١، ١٩٤٢
٢٦ - ٣٣	المرحوم الزنكلونى - صورتى بدار الشورى قبل الحبس - تحسين العسكرى وسجن الأجانب .
٤٣ - ٥٤	فظائع الإنجليز - الدكتور مصطفى بك البشناق - المرحوم أحمد شفيق باشا
٦٤	الأمير شكيب أرسلان وأحمد حلمى باشا ورشيد بك الحاج إبراهيم بقصر عابدين .
٧٩	أمين زويحة عند حبسه ١٩٤٠ وكيف أصبح بسجون الإنكليز ١٩٤٦ .
٩٧ - ١٢٨ - ١٦٢	محمد صالح باشا حرب - فظائع الإنجليز بفلسطين - الوفد الأندونيسى .
١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٦	الدكتور حسنى الطاهر - الأمير فيصل - جورج أنطونيوس .
١٨٢ - ١٩١	أحمد حلمى باشا - قائد بريطانى يهدد الفلسطينيين .
١٩٢ - ٢١٤ - ٢١٩	أصدقاء لهم علاقة بالكتاب - عريضة الأقطار الإسلامية ومنظر بملابس الحرب .
٢٢١ - ٢٢٢	منظر لمستشفى الدمرداش ومنظر آخر بملابس الحرب .
٢٢٨ - ٢٣٦	منزل الشيخ يوسف المشهدى - الشيخ إبراهيم إطفيش .
٢٣٩ - ٢٤١ - ٢٤٤	سيارة ريفية - الدكتور خورى ودار الضيافة ومنزل نسيب بكفر الوسطانى .
٢٤٦ - ٢٤٧	نسيب شهاب بملابس الجهاد وصورة عادية لنسيب .
٢٥٠ - ٢٦٠	صورة عادية لى - أصدقاء لهم علاقة بهذا الكتاب .
٢٦٢ - ٢٨٤ - ٢٨٨	قهوة باميرا ، معتقل الزيتون ، لقاء بين زوجين .
٢٩٦ - ٢٩٩	صورة تشكيرية ، وثانية بثياب أخرى .
٣٠٤ - ٣١٠	رسالة من الدكتور محمود عزمى - الشيخ صبرى عابدين .
٣٢٢ - ٣٢٣	صورة بثياب التذكر - وبطاقة أيام الحرب .

- ٣٢٥ - ٣٣١ - ٣٣٦ عزيز باشا المصرى - أحمد حسن بدر - ورقة مبايعة الراديو .
 ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٤٣ محبس لويس التاسع - صورة تنكزية - كوبرى المنصورة ومناظر
 ٣٤٥ - ٣٥٠ - ٣٥٥ الدكتور عفيفى باشا - السيد أحمد جودة - منزل الدكتور خورى
 ٣٥٦ - ٣٦٥ - ٣٦٧ - ٣٧٥ - ٣٧٦ كنيسة حلوان وثلاث صور أخرى بلباس التنكر
 ٣٧٨ - ٣٧٩ - ٣٩٩ الدكتور مصطفى البشناق والدكتور خورى وصورتان بثياب التنكر
 ٤٠٠ - ٤٤٥ - ٤٤٦ - ٤٤٧ عريضة طلب السفر للحج وتلغراف للدكتور خورى وصورتان
 بثياب التنكر

- ٤٦١ - ٤٦٢ صورة مع الزملاء بمعتقلها كسبب ورسم زنكغرافى لصفحة جريدة
 ٤٦٤ - ٤٦٥ - ٤٦٦ فى دار النحاس باشا - مائدة مكرم باشا - الاعتداء على النحاس
 ٤٦٧ - ٤٦٨ - ٤٦٩ زعماء فلسطين بسيشل والوفد المصرى وأمرأه لحج
 ٤٧٠ - ٤٧١ استقبال الوفد الفلسطينى بمصر وضيافة النحاس باشا
 ٤٧٢ - ٤٧٥ صورة رخصة الراديو وصورة خطاب بشباك بريد طلخا .
 ٤٧٦ - ٤٨٤ - ٤٨٥ مع مكرم باشا وأخرى بثياب الاختفاء والسيارة لرئاسة الوزراء
 ٤٨٧ - ٤٨٨ - ٤٨٩ صورتي بالملابس العربية التى ذهبت بها إلى دار الرئاسة .
 ٤٩١ - ٤٩٤ الدكتور ابراهيم عز الدين بك - المرحوم أمين عثمان باشا .
 ٤٩٦ - ٥٠٤ المرحوم أنطون باشا الجميل - فندق الكونتنتال .
 ٥٠٥ - ٥٠٦ بعد القهوة بسرأى عابدين - برقية تهنئة .
 ٥٠٧ - ٥٠٨ - ٥٠٩ - ٥٢٥ أقوال الصحف وصورتي بالاحية والبدلة .
 ٥٢٥ - ٥٣٢ رجعت للملابس الأفريقية - مأدبة محمد محمود بك جلال .
 ٥٣٤ - ٥٣٧ الشيخ إبراهيم مجاهد - رجوعى للحالة الطبيعية .
 ٥٤٨ - ٥٦٢ الأستاذ على أحمد باكثير بالمنصورة وزياره الأمير شكيب لمصر .
 ٥٦٧ - ٥٧٦ فؤاد بك حمزة - النحاس باشا وهو يعانقنى .

صفحة

مع النحاس باشا بقصر الزعفران وصلاح الدين بك ووقفه مع النحاس وأحمد حلمى باشا .	٥٧٧ - ٥٧٨
فى دار النحاس باشا - السيد عبد الله الجفرى .	٥٧٩ - ٥٩٣
رياض الصلح يودعنى ببيروت - إحدى حفلات لبنان .	٦١٦ - ٦١٧
رياض فى السياج - وبطاقة الأمير شكيب .	٦١٩ - ٦٢٣
رياض الصلح بعد السياج - وصورته بعد ذلك .	٦٣٠ - ٦٤٠
حفلة الكونتنتال والأمير سيف الإسلام على المائدة الرئيسية .	٦٤٣ - ٦٤٤ - ٤٤٩
الجناح الأيسر والأيمن للحفلة - خطاب من القوتلى بك .	٦٥٢ - ٦٥٣ - ٦٦١
تأييد اللجنة الفلسطينية بمصر لشكرى بك وغلاف إحدى رسائله .	٦٧٠ - ٦٩٤
صور كاريكاتورية للجامعة العربية .	٧١٦
مع سلطان باشا الأطرش - وصورة وداع .	٧٧٩
الدكتور أمين رويحة فى المحكمة العسكرية بدمشق .	٧٩٠ - ٨٢٦
ثلاثة صور عن الجامعة العربية .	٨٢٦
السفير البريطانى والميرالاي محمد يوسف - الدكتور رشيد كرم بك .	٨٥٨ - ٨٦٠
صورتان فى أيام الحرب - وصورتان لعظمة سلطان لحج فى دار الشورى .	٨٦٧ - ٨٦٨
صورتان لسمو الأمير سيف الإسلام البدر بدار الشورى .	٨٦٩
صورة لسمو الأمير سعود المعظم - وسمو الأمير على عبدالكريم .	٨٧٠
٨٧١ - ٨٧٢ - ٨٧٣ - ٨٧٥ صور برقيات وزيارة الأمير عبد الكريم الخطابى لدار الشورى وزيارته لعدن .	

مؤلفات صاحب هذا الكتاب

يصف بعض أحوال فلسطين
والعالم العربي والمؤتمر الإسلامي العام
وهو في ٢٧٠ صفحة بالحجم الكامل
وقد صدر سنة ١٩٣٢ ونفدت
طبعته .

نظريتي (الشورى)

جمع هذا الكتاب ترجمة المرحوم
أمير البيان وبعض أخباره وما قيل
وكتب ونظم عنه بعد وفاته وقد صدر
سنة ١٩٤٧ في نحو ٥٢٥ صفحة
بالحجم الكامل وثمنه ٥٠ قرشاً .

الأمير شكيب أرسلان

ويعرف بالكتاب الأحمر وهو
يصف حالة فلسطين قبيل سقوطها بيد
اليهود وفيه ٥٢٠ صفحة ونحو ٢٠٠
صورة وقد وزع مجاناً ونقد وسيعاد
طبعه إن أمكن .

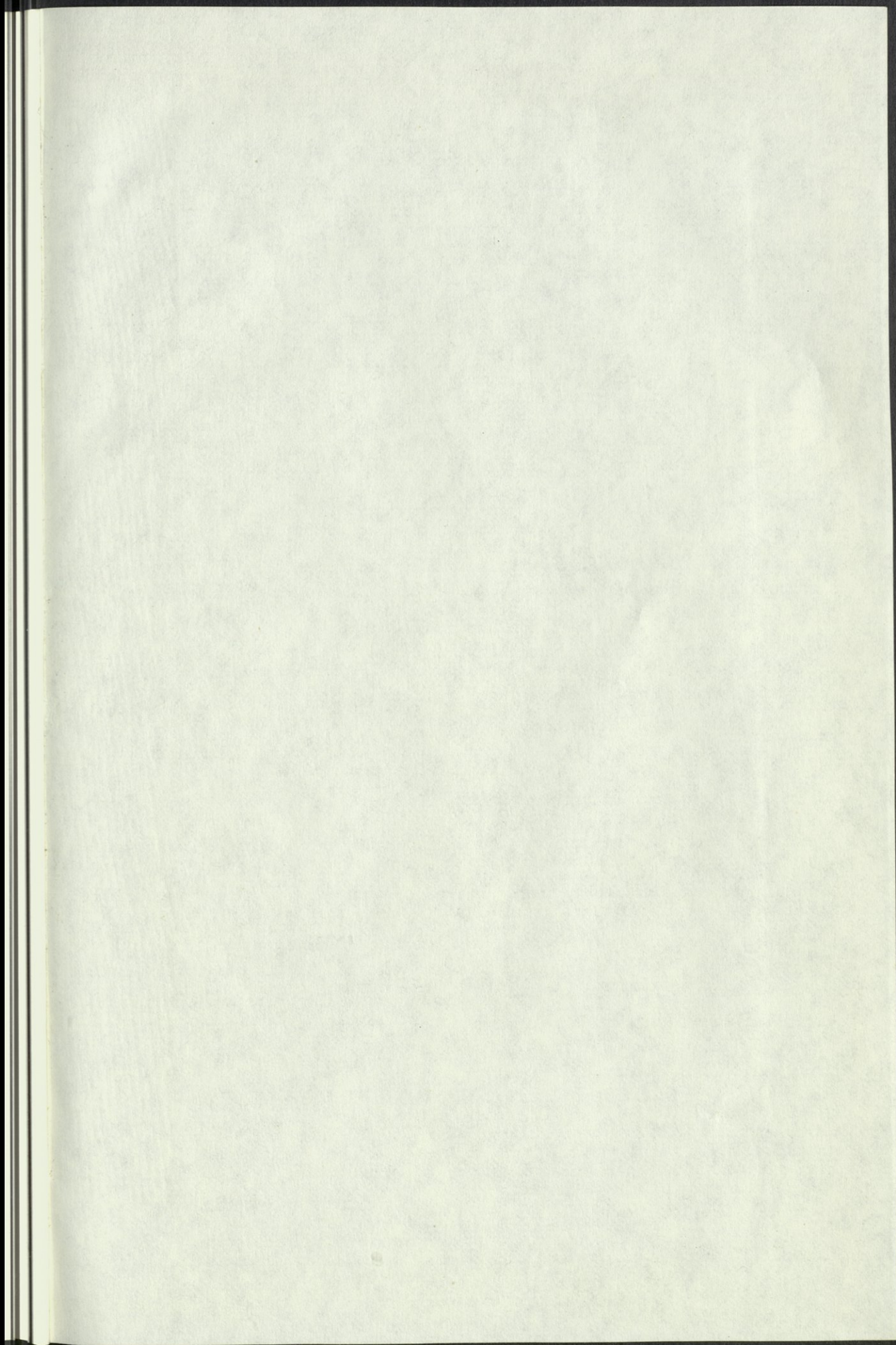
أوراق محمد

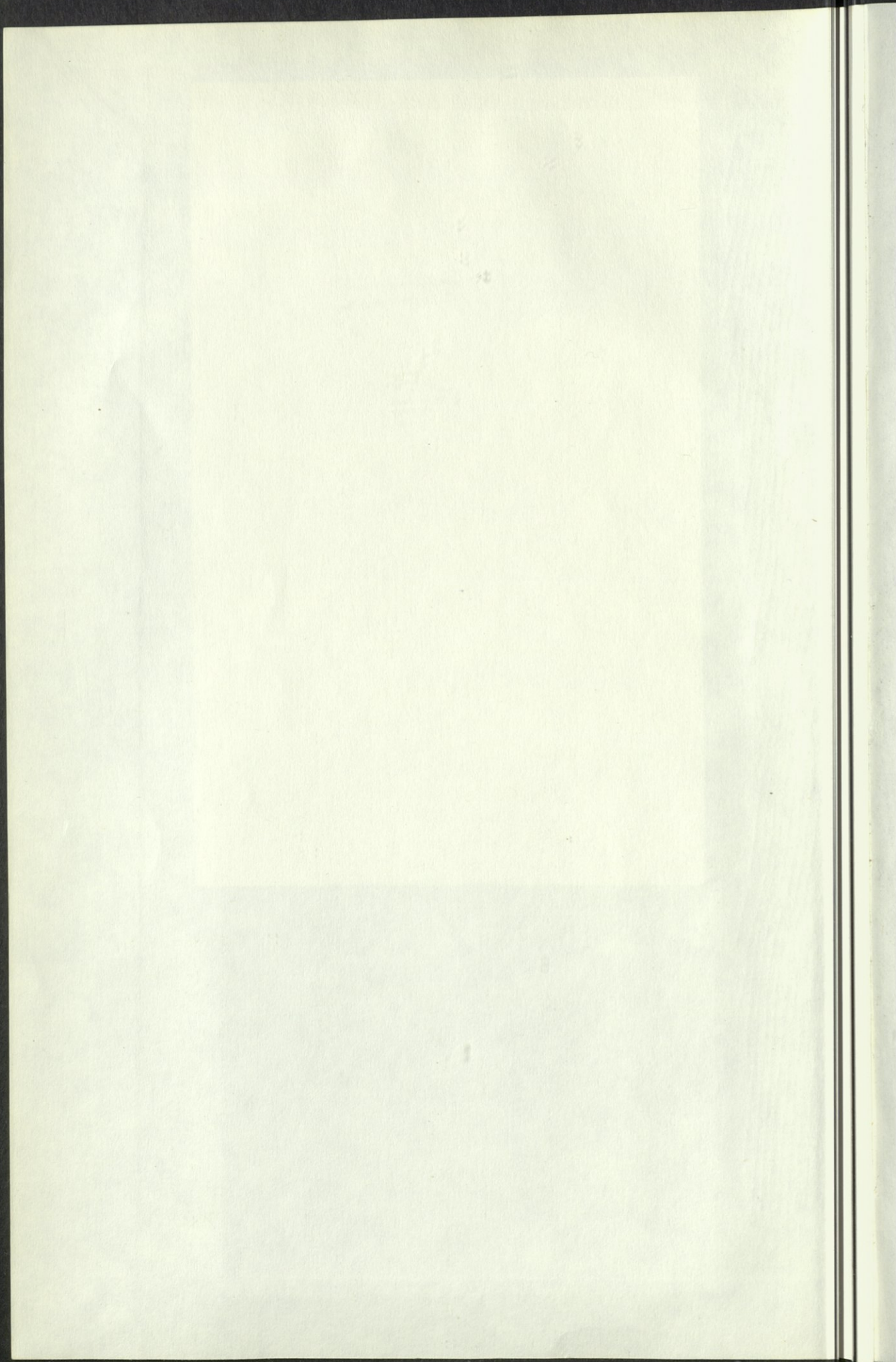
يصور هذا الكتاب فترة من
عهد حكم الإرهاب سنة ١٩٤٩
وأخبار اعتقال في معسكر «هاكستب»
وهو في نحو ٧٠٠ صفحة و٤٤ صورة
وثمن النسخة ٥٠ قرشاً .

معتقلاهاكستب

هذا الكتاب موجود تحت يد
القارئ وثمن النسخة منه مئة قرش .

ظلال السجن





DATE DUE

JAFET LIB.

~~29 NOV 1986~~

~~13 APR 1987~~



